مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

دراسات مترجمة 7

إمبراطوريات الرياح الموسمية

تأليف
ريتشارد هول

ترجمة
كامل يوسف حسين

إمبراطوريات الرياح الموسمية

محتوى الكتاب لا يعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

Richard Hall

Empires of the Monsoon

A HISTORY OF THE INDIAN OCEAN AND ITS INVADERS

Published by HarperCollins

للطبعة العربية

الطبعة الأولى 1999

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية
ص. ب. : 4567
أبوظبي
الإمارات العربية المتحدة
هاتف : 722776-9712
فاكس : 769944-9712
e-mail: pubdis@ecssr.ac.ae
http://www.ecssr.ac.ae

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيج

أنشئ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 آذار/
1994، بهدف إعداد البحوث والدراسات الأكاديمية، للقضايا السيـ
والاقتصادية والاجتماعية، المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة ا
على وجه التحديد، والعالم العربي وأهم المستجدات الراهنة على الساحة ا
بصفة عامة. ويسعى المركز لتوفير الوسط الملائم لتبادل الآراء العلمية حو
الموضوعات؛ من خلال قيامه بنشر الكتب والبحوث وعقد المؤتمرات والند
كما يأمل مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية أن يسهم بشكل
في دفع العملية التنموية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

يعمل المركز في إطار ثلاثة مجالات هي مجال البحوث والدراسات، و
إعداد الكوادر البحثية وتدريبها، ومجال خدمة المجتمع؛ وذلك من أجل
أهدافه المتمثلة في تشجيع البحث العلمي النابع من تطلعات المجتمع واحتيا
وتنظيم الملتقيات الفكرية، ومتابعة التطورات العلمية ودراسة انعكاسا
وإعداد الدراسات المستقبلية، وتبني البرامج التي تدعم تطوير الكوادر البـ
المواطنة، والاهتمام بجمع البيانات والمعلومات وتوثيقها وتخزينها وتح
بالطرق العلمية الحديثة، والتعاون مع أجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة
مجالات الدراسات والبحوث العلمية.

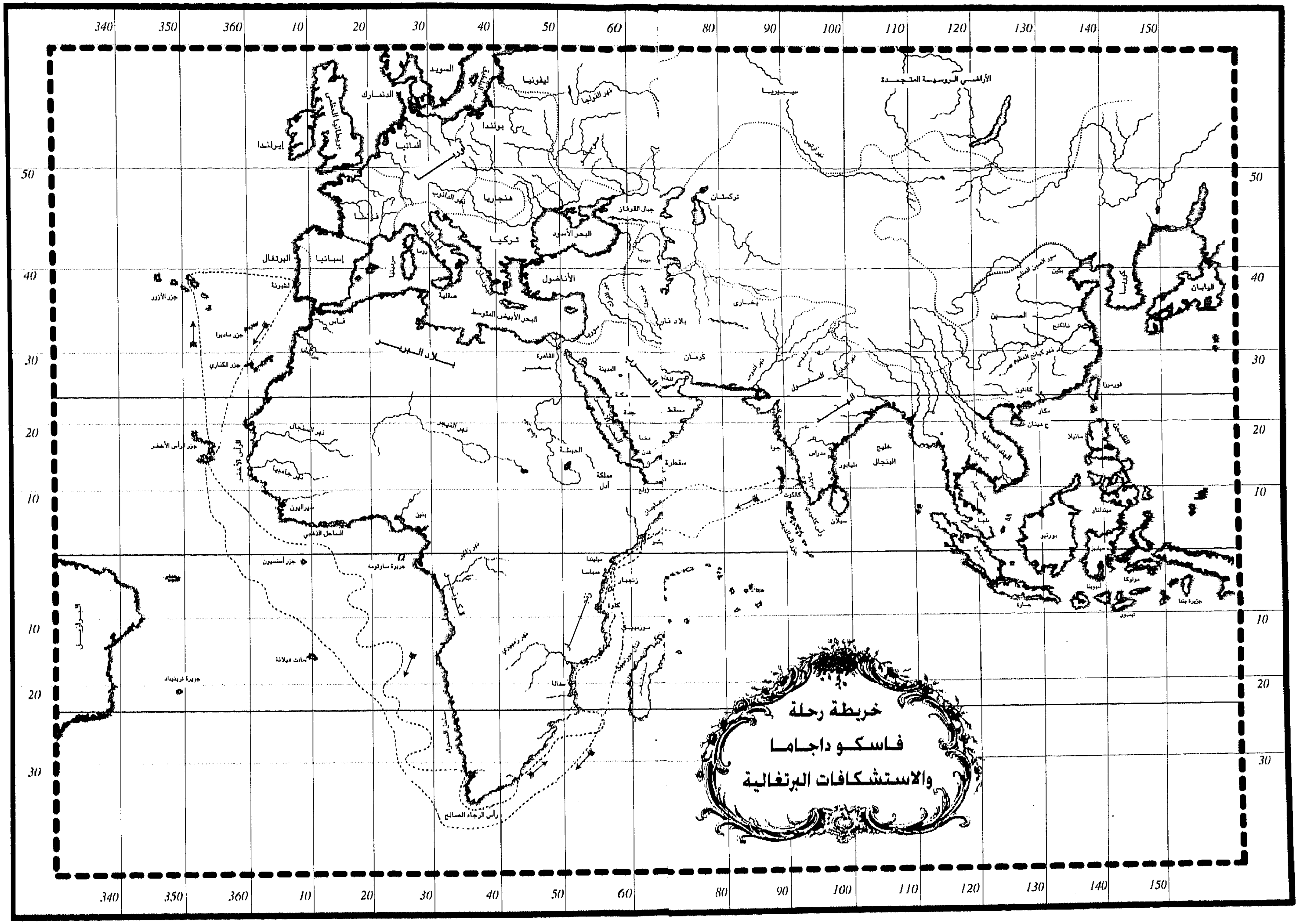
المحتويات

	الصفحة
المقدمة	15
الجزء الأول: عالم قائم بذاته	19
الفصل الأول : عجائب الهند وكنوز الصين	21
الفصل الثاني : سحر الشاطئ الأفريقي	35
الفصل الثالث : لغز أبناء بلاد الواق واق	49
الفصل الرابع : الإسلام يحكم بلاد الزنج	59
الفصل الخامس : في طريق الحرير إلى الخطا	71
الفصل السادس : عروس الملك أرجون	83
الفصل السابع : الشيخ الرحالة يمضي جنوباً	93
الفصل الثامن : مغامرات في الهند والصين	103
الفصل التاسع : أساطيل الفتى ذي الجواهر الثلاث	119
الفصل العاشر : ماهوان وبيت الله الحرام	129
الفصل الحادي عشر : ملك القلعة الأفريقية	141
الجزء الثاني: مدافع العالم المسيحي	151
الفصل الثاني عشر : آفاق الأمير هنري البعيدة	153
الفصل الثالث عشر : السيطرة على ساحل غينيا	163
الفصل الرابع عشر : شكل جزر الهند	175
الفصل الخامس عشر : البحث عن الراهب يوحنا	185
الفصل السادس عشر : الجاسوس الذي لم يعد إلى الوطن قط	199
الفصل السابع عشر : ملوك وآلهة في مدينة النصر	213

الفصل الثامن عشر : داجاما يدخل المحيط الاستوائي 221
الفصل التاسع عشر : النظرة الأولى إلى الهند 237
الفصل العشرون : كبرياء ابن ماجد 253
الفصل الحادي والعشرون : هدير الغيظ الأوربي 259
الفصل الثاني والعشرون : انتقام داجاما 271
الفصل الثالث والعشرون : نائب الملك في شرقي أفريقيا 279
الفصل الرابع والعشرون : هزيمة الأتراك العثمانيين في معركة ديو 289
الفصل الخامس والعشرون : أفونسو دي ألبوكيرك الكبير 297
الفصل السادس والعشرون : مغامرات التوغل في أفريقيا 313
الفصل السابع والعشرون : من مصوّع إلى الجبال 323
الفصل الثامن والعشرون : الحرب مع الغازي الأعسر 335
الفصل التاسع والعشرون : المضي بالإنجيل وبالسيف إلى مونوموتابا 343
الفصل الثلاثون : مغامرون أتراك وأكلة لحوم بشر جائعون 359
الفصل الحادي والثلاثون : السلطان المنشق 369
الفصل الثاني والثلاثون : كبرياء لوزيتانيا المهدرة 379
الفصل الثالث والثلاثون : كالفينيون ومستعمرون وقراصنة 397
الفصل الرابع والثلاثون : أثيوبيا وآمال روما 413
الفصل الخامس والثلاثون : الحصار الكبير لحصن اليسوع 425
الفصل السادس والثلاثون : أهداف غربية وتأثيرات شرقية 437

الجزء الثالث: وصاية مفروضة 447
الفصل السابع والثلاثون : مستوطنون على الطرق الجنوبية المؤدية إلى الهند 449
الفصل الثامن والثلاثون : البحار البعيدة عن قبضة نابليون 463
الفصل التاسع والثلاثون : المتراس الفرنسي وجزيرة الرقيق 475
الفصل الأربعون : فراغ في الجغرافيا بالمعنى الحرفي للكلمة 483

الفصل الحادي والأربعون: طريقتان في التعامل مع غنائم الحرب 497
الفصل الثاني والأربعون: السلطان وبحرية الملك 511
الفصل الثالث والأربعون: التراجع عن شرقي أفريقيا 525
الفصل الرابع والأربعون: الأمريكيون يكتشفون زنجبار 537
الفصل الخامس والأربعون: التطلع غرباً من الراج 551
الفصل السادس والأربعون: نذر التغيير في «البحيرة الإنجليزية» 567
الفصل السابع والأربعون: على خطوات مبشر 579
الفصل الثامن والأربعون: محاربون وصيادون وتجار 591
الفصل التاسع والأربعون: بيان عند دار الفرضة (الجمارك) 605
الفصل الخمسون: لقاء سادة الداخل الأفريقي 613
الفصل الحادي والخمسون: فشل رجل الأعمال الخيرية الاسكتلندي 627
الفصل الثاني والخمسون: الإمبريالية تمقت الفراغ 637
الفصل الثالث والخمسون: بسمارك و«الشركة» 645
الفصل الرابع والخمسون: أفريقيا تسمع تعاليم الدين وهدير مدافع الغرب 655
الفصل الخامس والخمسون: من جزيرة السلطان إلى مرتفعات المستوطنين 669
الخاتمة 677
الهوامش 685



خريطة رحلة
فاسكو داجاما
والاستكشافات البرتغالية
إيرلندا
الدنمارك
السويد
ليفونيا
بولندا
ألمانيا
هنجاريا
تركيا
البحر الأسود
الأناضول
إسبانيا
البرتغال
فاس
بلاد البربر
البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
مصر
المدينة
مكة
جدة
الحبشة
مسقط
سقطرة
كرمان
تركستان
سيبيريا
الأراضي الروسية المتحدة
بخارى
الصين
اليابان
كوريا
فورموزا
مانيلا
بورنيو
سيلان
مدراس
خليج البنجال
كاليكوت
جزر الأزور
جزر الرأس الأخضر
الساحل الذهبي
جزر أسنسيون
سانت هيلانة
البرازيل
رأس الرجاء الصالح
زنجبار
ممباسا
مليندا
سفالة



كابتن فريدريك لوجارد (اللورد لوجارد فيما بعد): أعظم الخصال التي هيأت له الظفر بأوغندا، رباطة جأشه إلى جانب الرشاش من طراز ماكسيم.



الألماني الدكتور كارل بيترز: تفوق بالحيلة على البريطانيين في شرقي أفريقيا بإيعاز من بسمارك.



تيبو تيب: تخلى هذا المغامر عن أراضيه الواقعة فيما وراء بحيرة تنجانيقا ليتقاعد في زنجبار.

اشتهر اسم كوبلاي خان، أقوى أباطرة آسيا، وذاع صيته في أوربا.





أنجز المبشر الألماني لودفيج كراف أول مغامرة أوربية ناجحة للتوغل في أفريقيا انطلاقاً من ساحلها، وقد شاهد جبل كينيا في عام 1849.



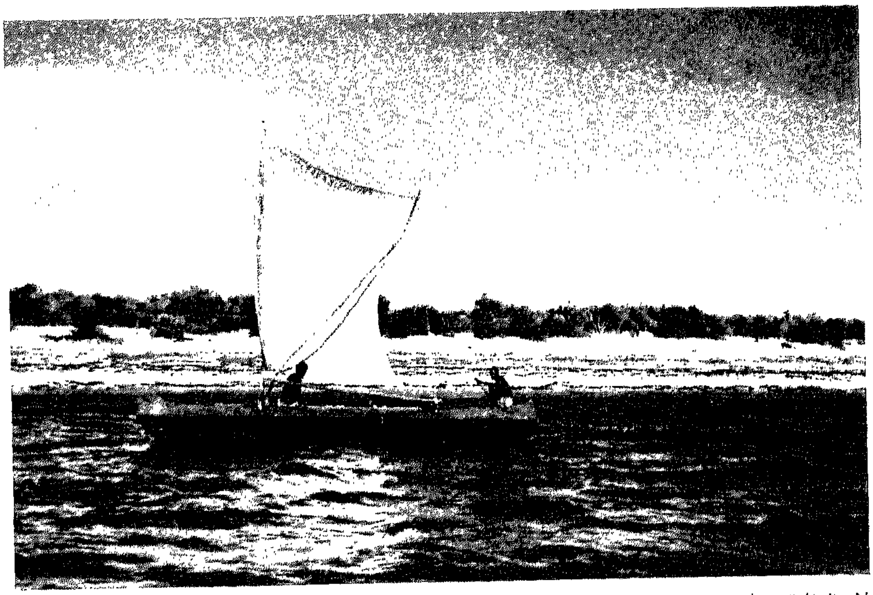
آفونسو دي ألبوكيرك، مؤسس مدينة جوا، عرف بالفطنة والقسوة، ويعزى إليه الاستعمار البرتغالي.



برز جون هاننج سبيك بين ضباط الجيش البريطاني، من الهند في المقام الأول، والذين توغلوا في القارة، وصولاً إلى بحيرات الداخل الكبرى واكتشفوا منبع النيل.



ريتشارد ماينرتزاجن: ضابط بريطاني ساعد في تهدئة ما كان سيصبح مستقبلاً كينيا، وقد دوّن أعماله في سجل صريح يكشف كل الحقائق، وكان قد زار تيبو تيب في زنجبار سنة 1903.



لا تزال المراكب الصغيرة تستخدم اليوم في مدغشقر، وتشبه تلك المراكب التي نزل منها أول سكان الجزيرة إلى الشاطئ في وقت مبكر من الألفية الأولى، وذلك بعد الإبحار لأكثر من ثلاثة آلاف ميل قادمين من أندونيسيا . وتعد الركائز المثبتة إلى الزوايا اليمنى لجسم المركب والتي مهمتها الحفاظ على توازنه في الريح العاصفة، ذات طابع أندونيسي تقليدي .



أطلال أحد مساجد كلوة، وهي مدينة - دولة تطل على الساحل الشرقي لأفريقيا، وقد حل الدمار بها نتيجة للتوغل الأوربي في المحيط الهندي قبل خمسة قرون تقريباً .



زيمبابوي العظمى هو الاسم الذي يطلق اليوم على أطلال عاصمة مبنية بالحجر ، ازدهرت قبل ما يزيد على خمسمئة عام مضت في جنوب أفريقيا . وقد تم إرسال الذهب المستخرج من مئات المناجم ، عبر مسافة ثلاثمئة ميل إلى الساحل ، من قبل حكام زيمبابوي العظمى ، لتتم مقايضته بالقماش الوارد من الهند والخزف الوارد من الصين .



الإمبراطور سوزينوس يرحب بالأسقف منديز ، الذي بعث به البابا لتحويل إثيوبيا إلى المذهب الكاثوليكي الروماني . وسرعان ما انتهى هذا الحدث الذي وقع في عام 1626 بكارثة . وقد صوره على نحو خيالي فنان فرنسي لتزين به الطبعة الصادرة في عام 1728 من كتاب جيرونيمو لوبو بعنوان «رحلة تاريخية إلى الحبشة» .

المقدمة

ما إن تقلب خريطة العالم رأساً على عقب، حتى يغدو في استطاعتك رؤية المحيط الهندي وقد بدا تجويفاً واسعاً غير منتظم الشكل، تحدُّه شواطئ أفريقيا وآسيا وجزر إندونيسيا وساحل أستراليا الغربي[1]. وخلافاً للمحيطين الأطلسي والهادي اللذين يتداخلان عند حدودهما القصوى الشمالية والجنوبية، مع البحار القطبية، فإن المحيط الهندي هو محيط استوائي بصورة كاملة، والإتيان على ذكره يستدعي مشهداً قوامه جزر تحفُّها أشجار النخيل، وبحيرات تنطلق فيها أسماك تتدرج ألوانها كألوان قوس قزح وسط الصخور المرجانية. تلك هي الصورة التي تحملها الكتيبات السياحية، ولكن وراءها يكمن المحيط الهندي ذو التاريخ الممتد، وأحد مراكز التقدم الإنساني، والساحة الهائلة التي اختلطت فيها أعراق عديدة، وتعاركت، وتبادلت التجارة عبر آلاف السنين.

وكانت لأقدم الحضارات في مصر ووادي دجلة والفرات وسيلتها المباشرة للوصول إلى المحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر والخليج العربي. وفي المحور الممتد باتجاه خط الاستواء يقع شبه القارة الهندية، وهو ذاته موقع ثقافات قديمة نشأت في وادي السند. ومنذ عهد سبق بكثير عصر الإسكندر الأكبر عاد الرحالة جالبين معهم الحكايات عن الشرق الثري البهيج. والإمبراطور تراجان الذي بلغ الخليج العربي منتصراً في عام 116 بعد الميلاد، وشاهد البحارة وهم يبحرون إلى الهند ندب حظه العاثر الذي شاء له أن يكون أكثر تقدماً في العمر من أن يقوم بهذه الرحلة ويشاهد عجائبها[2].

وعلى امتداد ما يقرب من ألف عام بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، كان الجانب الغربي من المحيط الهندي الذي يشكل بؤرة هذا الكتاب كياناً قائماً بذاته، يعادل في ذلك البحر الأبيض المتوسط ويفوقه ثروة وقوة. وقد ازدهرت الفنون والثقافة هناك، في مدن قدم إليها التجار من أنحاء العالم المعروف كافة. وكان هناك أيضاً الكثير من الاضطراب مع قيام الجيوش الغازية التي حشدت في بقاع نائية من آسيا بالاندفاع لإطاحة الإمبراطوريات القديمة، وفرض أنظمة أسر حاكمة جديدة.

غير أن حياة الأفراد العاديين حكمتها الطبيعة على الدوام بأكثر مما حكمتها الأحداث الكبرى؛ فقد حكمتها الرياح الموسمية التي لا تتوقف عن الهبوب في مواعيدها، بأكثر مما حكمتها الممالك سريعة الزوال. والكلمة الإنجليزية التي تترجم بالريح الموسمية، وهي (monsoon)، مشتقة من الكلمة العربية «موسم». ومنذ جرؤ البحارة على المخاطرة بالقيام برحلات عبر البحار المفتوحة حملت هذه الرياح الموسمية سفنهم بين الهند وجاراتها البعيدة؛ وهي تهب في اتجاه واحد على امتداد ستة أشهر، ثم تهب في الاتجاه المعاكس خلال النصف الثاني من العام؛ فالرياح الموسمية الصيفية الآتية من شرق أفريقيا والبحار الجنوبية يجتذبها باتجاه الشرق دوران الأرض، وذلك بعد عبورها خط الاستواء، بحيث إنها تندفع عبر الهند، وصعوداً عبر خليج البنجال، وتصبح هذه الرياح أقوى ما تكون في الفترة ما بين حزيران/ يونيو وآب/ أغسطس من كل عام.

وربما لم يدرك قباطنة البحر في قديم الزمان سر ظاهرة هبوب الرياح الموسمية (كيف أن الهواء الأكثر برودة يندفع باتجاه الشمال فوق المحيط في الصيف، نحو أراضي آسيا الحارة، ثم باتجاه الجنوب من جبال الهيمالايا والسهول الهندية في الشتاء). وبالنسبة إليهم كان كافياً أن تهب الرياح في موعدها، عاماً بعد الآخر، لتملأ أشرعتهم. وبالنسبة إلى مزارعي الهند كذلك كان يكفي أن يعرفوا أن الرياح الموسمية الصيفية ستجلب لهم المطر[3]، غير أنه في البر والبحر على السواء كانت الرياح الموسمية تثير الفزع في أوقات عنفوانها، حيث لا تجرؤ سفينة على الإبحار، وتكتسح الفيضانات قرى بكاملها، وتخلف الأعاصير الدمار وراءها.

وقـد يمكن القـول بأن الإيقاع الـذي لا مهـرب منه والناجم عن هذا المناخ ؛ قـد ولد نزعة قدرية معينة في نفوس شعوب المحيط الهندي، ومع ذلك فإن الرياح الموسمية عُدَّت منذ زمن بعيد من أكثر الظواهر الطبيعية اتساماً بالطابع المعتدل الرقيق، وهي كما يقـول جون راي (John Ray)، وهو عـالم إنجليزي ينتمي إلى القـرن السـابع عـشـر: «موضوع يستحق تأملات أعظم الفلاسفة»[4].

قبل «عصر الكشوف» مرَّ ألف عام من الجهل المطبق تقريباً في أوربا، إزاء ما يتعلق بالمحيط الهندي والأراضي المطلة عليه، وقـد ظهـرت في إحـدى المراحل خـلال ذروة اتساع الإمبراطورية الرومانية تجارة مزدهرة مع الشرق، قام بها أساساً البحارة الإغريق، الذين تعلموا كيف يستغلون الرياح الموسمية[5]؛ وجلبوا معهم الحلي والقرفة والعطور والبخور، وكذلك أنواع الحرير والقماش الهندي الشفاف الذي كانت نساء روما يتقن إليه. ولكن مع انهيار الحضارة اليونانية والرومانية في أوربا، فقد الأوربيون المعرفة كلها التي اكتسبها الإغريق[6].

عندما بدأت أوربا أثناء العصور الوسطى بالتطلع إلى طريق جديد يفضي إلى الهند، لتتجاوز حاجز الإسلام المنتصب في الشرق الأوسط، أحبطـت كتلة أفريقيا الهائلة بحَّارتهـا طويلاً، إلى أن قـام البـرتغـاليون في نهـايـة المطـاف بـالدوران حـول رأس الرجاء الصالـح، وكانـت رحلة فاسكـو داجاما إلى الهند والعـودة منها في السنـوات 1497 ـ 1499 أطول رحلة بحرية قام بها الأوربيون على الإطلاق.

يوضح هذا الكتاب كيف أن الوجود الأوربي، اعـتبـاراً من القـرن السادس عـشـر فصاعداً، قد غيَّر حياة المحيط الهندي، على نحو لا رجعة فيه؛ فقد تم إخضاع ممالك مـزدهرة، وأصـاب الاضطراب العـلاقـات التي قـامت فـيـمـا سلف بين الديانات والأعراق. ومع قدوم الرأسمالية الغربية أصبحت أنماط التجارة القديمة شيئاً منقرضاً، كطائر "الدودو" (الذي قضى البحارة الهولنديون على وجوده قضاء مبرماً في جزيرة مـوريشـوس)، ومع ذلك فـإنه على الرغم من أن مـدافع أوربا قـد استطاعت إنشـاء إمبراطوريات في الشرق، فإن السكان هناك كـانوا أكثر عـدداً من أن يتم إخضـاعـهـم

بصورة مستديمة. وما حدث في الأمريكتين ما كان ليتكرر في آسيا أبداً، إذ يتألف سجل التدخل الأوربي والتصدي له من مزيج من العنف والفجور والشجاعة.

على امتداد آلاف الأعوام من التغيير في ساحة المحيط الهندي، نادراً ما كان العملاق الأفريقي الذي يشكل جانبها الغربي، يمثل أي شيء إلا شاهداً صامتاً على ما يجري. وكان قلب أفريقيا أرضاً مجهولة، وأبعدت شعوبه عن المبادلات المثمرة مع باقي العالم. ومنذ القرن الثامن خضع اتصال أفريقيا بالمحيط الهندي لسيطرة عدد كبير من الموانئ التجارية التي يحكمها العرب بامتداد الساحل، الذي يصل طوله إلى ألفي ميل، من الصومال إلى ما وراء دلتا نهر الزامبيزي. وقد تطلعت هذه التجمعات السكنية إلى البحر، ولم يكن قلب القارة الأفريقية يثير اهتمامها، إلا باعتباره مصدراً للعاج والذهب وجلود الفهود والعبيد. وعلى امتداد ثلاثمئة عام بعد وصول الأوربيين، لم يحدث إلا القليل مما يمكن أن يغير هذا النمط السائد.

لقد تم تحرير أفريقيا جنوب خط الاستواء مرتين منذ منتصف القرن التاسع عشر؛ المرة الأولى من عزلتها، والمرة الثانية من الاستعمار الاستيطاني، على الرغم من أنه لم يدم طويلاً، فإنه قد صاغ فيما يبدو روابط لا سبيل إلى فصمها مع الشمال، مع أوربا تحديداً. والآن تهب الرياح الموسمية، ذات التاريخ الممتد من جديد مع ميل ميزان القوة العالمي مجدداً إلى الشرق، حيث ينظر إلى بداية القرن الحادي والعشرين باعتبارها بداية «عصر آسيا» الجديد، ويمكن فيه لوحدة المحيط الهندي الطبيعية أن تفرض ذاتها من جديد، وهذه هي الساحة التي ستوضع فيها الطاقة الكامنة لدى شعوب جنوب الصحراء الأفريقية موضع الاختبار الكامل.

الجزء الأول

عالــم قائــم بذاتــه

الفصل الأول

عجائب الهند وكنوز الصين

اشتاقت نفسي إلى السفر والفرجة، وتشوقت إلى المتجر والكسب والفوائد، والنفس أمارة بالسوء، فهممت، واشتريت مجموعة من البضائع المناسبة لسفر البحر، وقد حزمتها إلى السفر، وسافرت بها من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، وجئت إلى ساحل البحر؛ فرأيت مركباً عظيمة، وفيها تجار وركاب كثير، أهل خير وأفراد طيبون، أهل دين ومعروف وصلاح.

السندباد البحري، لدى بدء سفرته
الثالثة في كتاب «**ألف ليلة وليلة**»[1]

قبل ألف عام تقاعد أحد القباطنة الفرس لكتابة مذكراته. وقد أكسبته هذه المذكرات الشهرة في عصره، على الرغم من أنه لم تبق الآن إلا نسخة واحدة من هذه المذكرات، وهي موجودة في أحد مساجد اسطنبول[2]، وقد جعل القبطان بزرك بن شهريار عنوان كتابه «**عجائب الهند**» غير أنه لم يقتصر على وصف حضارة الهندوس، وقدم لقرائه مشهداً متغير الألوان للحياة في مختلف أرجاء شواطئ المحيط الاستوائي، الذي أبحر عبره على امتداد حياته المهنية. وتعيد عفويته في الوصف الحياة إلى شعوب عصره، على نحو يفوق ما يمكن أن تحققه أي عملية إعادة بناء يقوم بها العلماء، حيث نلمح الركاب وقد حل بهم الفزع في سفينة تتلاعب بها العاصفة، والتجار وقد استبد بهم الغضب لتعرضهم للغش، والشباب وقد أخذ العشق بألبابهم، والملوك المتباهين وهم يطلون من عل متربعين على عروش رصعت بالجواهر.

لقد أدرج في كتابه بغرض تسلية قرائه العديد من الطرائف الخيالية التي تدور حول عرائس البحر، والحيات العملاقة التي تبتلع الفيلة، والحيات ذوات الرأسين، التي تؤدي لدغاتها إلى الوفاة في طرفة عين، والنساء المحنكات. ولم يكن «بزرك» إلا كنية تعني «الكبير»، وربما اكتسب هذه الكنية من خلال حبه للقصص غير القابلة للتصديق،

بأكثر مما اكتسبها نتيجة لتمتعه بجسم هائل. غير أن هدفه، الذي لم يحد عنه، كان المضي بجمهوره في جولة مسلية غير أنها حافلة بالمعلومات، عبر العديد من البلدان. وعلى الرغم من أوجه التشابه بين «**عجائب الهند**» و«**ألف ليلة وليلة**»، فإن الفارق تمثل في أن السندباد كان بطلاً خيالياً، بينما الكثير مما كتبه بزرك يصمد أمام التمحيص التاريخي.

تظهر الإشارات إلى الشخصيات المعروفة والأحداث المسجلة أن المؤلف عكف على كتابة مذكراته نحو عام 950 ميلادي الموافق لعام 341 هجري. وقد أقام في ميناء سيراف، الواقع عند الطرف الجنوبي للخليج العربي، الذي تنفتح آفاق المحيط الهندي من مضيقه كالمروحة. وكما أطلق الرومان على البحر الأبيض المتوسط اسم "بحرنا" (mare nostrum) كان المحيط الهندي بالنسبة إلى بزرك ومعاصريه امتداداً لبلاد الإسلام.

وكانت مدينة سيراف تضم ثلاثمئة ألف نسمة وتطوقها الجبال، وكانت تغدو كالمرجل في أشهر الصيف، وقد وصفها أحد معاصري بزرك بأنها أشد المناطق حرارة في بلاد فارس، وكانت كذلك من أكثرها ثراء؛ فقد انسابت مياه النوافير على نحو مستمر في أفنية بيوت عائلات التجار الأثرياء، وبعد حلول الظلام كان الضوء المنبعث من الزيت المعطر الذي يتوهج في الثريات المذهبة يتألق فوق الأرائك المكسوة بالحرير والمخمل، وكانت جدران الدور السامقة مكسوة بأخشاب الساج الواردة من الهند، كما كانت الأسقف المسطحة مدعومة بجذوع شجر القرم، الواردة من أفريقيا. وكان أكبر مباني سيراف هو قصر الحاكم والجامع الكبير. وجلبت السفن الراسية في الميناء شحنات البضائع من بلاد عديدة؛ من بينها الصين، وقد حملت سفن أصغر حجماً البضائع لتصعد بها في الخليج، وصولاً إلى البصرة، حيث لم يكن في وسع السفن العابرة للمحيطات أن تفرغ حمولتها هناك بسبب الطمي الذي يجلبه نهر دجلة[3].

لم يكن في استطاعة سيراف على الرغم من هذا كله الادعاء بأنها تنافس البصرة في الترف والعظمة، ناهيك عن بغداد عاصمة الخلفاء؛ فقد كانت القصور المنيفة المطلة على نهر دجلة والتي ترفع قبابها عالياً فوق أعمدة من المرمر الشفافة، أعجوبة العالم العربي. وقد أطنب المؤرخ المقدسي، وهو من معاصري بزرك، في تمجيد روعتها،

حيث كتب يقول عنها إنها «مصر الإسلام، وبها مدينة السلام، ولهم الخصائص والظرافة، والقرائح واللطافة، هواء رقيق، وعلم دقيق، كل جيد بها، وكل حسن فيها، وكل حاذق منها، وكل ظرف لها، وكل قلب إليها، وكل حرب عليها»[4].

وعلى الرغم من أن سلطة الخلفاء العباسيين قد أصابها التمزق نتيجة الصراع بين الأسر الحاكمة، فإن بغداد ظلت تسيطر على إمبراطورية تمتد من الهند إلى مصر. وبعد ثلاثة قرون من ظهور الإسلام، أصبح لهذا الدين من الأتباع والأمصار ما يزيد بكثير عما كان للمسيحية، التي كانت تقترب بالفعل من نهاية ألفيتها الأولى. وتفتح كتابات بزرك نافذة تطل على هذه اللحظة، عند إطلالة ألفية جديدة، سيقدر للإسلام والمسيحية خلالها أن يظلا في صراع لا يكاد يتوقف.

وكان حرياً بمدن العراق وفارس والهند أن تثير ذهول أبناء شعوب الغرب المطحونة، لو قدر لهم أن يعوا وجودها، لكن آفاق أوربا لم تكد تتجاوز الحدود غير الواضحة، التي وضعها حكامها من أمراء الحرب أنصاف المتعلمين. وكانت أوربا تقع على الحواف الخارجية للحضارة العالمية، بينما كان في استطاعة بغداد أن تفخر بأنها في موضع القلب من هذه الحضارة، وليس لها من منافس إلا القسطنطينية. ولم تكن المفاهيم المكرسة للوحدة؛ مثل «أوربا» و«العالم المسيحي» قد تأصلت وضربت جذورها بعد. وكان الغزاة الذين يجمعون بين المعتقدات المسيحية والوثنية والآتون من اسكندنافيا، مايزال في وسعهم إنزال الدمار بكل مكان.

لقد صمد بعض بقايا المعرفة الكلاسيكية وراء أسوار الأديرة الأوربية، ولكنه ما كان ليضاهي مكتبات أهل العلم والمعرفة العرب، الذين توافرت لديهم بحلول ذلك الوقت كل التصانيف الكبرى لبلاد الإغريق القديمة، على وجه التقريب، في صورة ترجمات، وكان حرياً بهذه الكتابات أن تتاح لبزرك القبطان الفارسي أكثر مما يمكن أن تتوافر لأغزر الأساقفة علماً في أوربا.

خارج حدود ديار الإسلام التي ترامت على امتداد ساحل شمال أفريقيا، وصولاً إلى إسبانيا، كانت الاتصالات المباشرة بين الشرق والغرب محدودة. وكان التجار

المسيحيون الأوربيون هم الوحيدين تقريباً الذين ارتحلوا إلى ما وراء إيطاليا متجهين خلسة إلى الإسكندرية، وكذلك الحجاج الذين كانوا يحاولون الوصول إلى القدس، والصبايا والفتية الذين يباعون في أسواق الرقيق. وكانت الصبايا يلتحقن بخدمة الحريم، أما الفتية فكانوا يقتادون إلى نقطة تجمع سيئة الصيت في فردان بفرنسا، ثم يساقون عبر جبال البرانس إلى إسبانيا، ويشحنون على متن السفن من هناك إلى بلاد المحيط الهندي، من قبل تجار يهود إسبان يعرفون باسم الردانية (Radhaniyya) (أي العارفين بالطريق)[5].

غير أنه حل وقت قصير في مستهل القرن التاسع بدا فيه أنه من الممكن الوصول إلى تفاهم إيجابي بين أوربا المسيحية والإسلام. وعلى الرغم من بُعد الخليفة العباسي هارون الرشيد عن الإمبراطور شارلمان الجالس على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة آنذاك، فإنهما تبادلا السفراء عدة مرات، وحمل هؤلاء رسائل حول خطة عربية لم يقدر لها التحقق قط، لشن حرب منسقة للاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (لم يأت على ذكر تبادل المبعوثين إلا كتاب شارلمان، وربما حسب كُتاب الحوليات المسلمون أن ذلك الأمر غير جدير بالإشارة إليه، حيث إن هارون الرشيد قد استقبل في بغداد سفراء من بلاد عديدة، وأرسل مبعوثيه في كل الاتجاهات). وكان هارون الرشيد في شبابه قد حاصر القسطنطينية، ثم أراد استغلال الانقسامات الناشبة بين الكاثوليك والمسيحيين الشرقيين، ولم يلجأ إلى هذا السبيل إلا بعد أن أرسل دون طائل مبعوثين إلى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السادس لدعوته إلى الدخول في الإسلام.

ولم يقترح الخليفة هارون الرشيد على شارلمان اعتناق الإسلام، وإنما بعث إليه بهدايا سخية؛ مثل الحلي، وأطقم الشطرنج المصنوعة من العاج، والملابس الحريرية المطرزة، وساعة مائية، وفيل أبيض مدرَّب أطلق عليه اسم «أبو العباس» تيمُّناً بكنية أول خليفة عباسي. وقد كان هذا الفيل يوماً ما ملكاً لأمير (راجا) هندي، وكان الرجل الذي قاده بنجاح من الفرات مروراً بالبحر الأبيض المتوسط إلى مستقره يهودياً يدعى إسحاق هو وحده الذي قدرت له النجاة من بعثة إلى بغداد تضم ثلاثة رجال. وبعد رحلة حافلة بالمخاطر لعبور البحر إلى إيطاليا، تم اقتياد الفيل عبر جبال الألب

والانطلاق به في نهاية المطاف متهادياً إلى قصر شارلمان في إكس لاشابيل، في 20 تموز/ يوليو عام 802 م، وسرعان ما أصبح الإمبراطور مولعاً بالفيل «أبو العباس» الذي تحمل المناخ الأوربي ثماني سنوات، حتى تهور شارلمان واصطحبه إلى لونيبيرج هيث، في شمال ألمانيا حيث البرد القارس، لزرع الخوف في قلوب بعض الداغركيين، الذين اعتادوا شن غارات للسلب والنهب[6].

وقد ثبت أن هذه الاتصالات بين الخليفة العباسي و«الملك الفيلسوف» المتربع على عرش الفرنجة مجرد بارقة ضوء عابرة، توهجت عبر الحاجز الديني والثقافي القائم بين الجانبين. وكان شارلمان قد رتَّب الأمور بموافقة هارون الرشيد لإنشاء استراحة للمسيحيين في القدس، وكان هذا هو أساس الأسطورة التي تعود إلى القرون الوسطى، والقائلة بأنه كان أول الصليبيين، وأنه قاد جيشاً من الحجاج إلى المدينة المقدسة. غير أن الحملات الصليبية بدأ شنها في وقت لاحق عندما أطلقها البابا أُربان الثاني (Urban II) في عام 1095، وقد أصيب العرب وقتذاك بالذهول حيال الضراوة السافرة التي أبداها خصومهم الدينيون.

وبينما كانت أوربا المسيحية منعزلة ومقطوعة الصلة عن آسيا، فإن الأوربيين غير المسيحيين - أي العرب الذي استقروا في الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط - كانوا أحراراً في المضي عبر أرجاء العالم المعروف وصولاً إلى الصين. وكان ذلك يعني الترحال أولاً عبر مصر وشبه الجزيرة العربية للوصول إلى ميناء مثل سيراف، تنطلق منه «سفن الصين» فيما كان في ذلك الوقت أطول الرحلات التي عرفها البشر. وفي إحدى قصص بزرك هناك إشارة عابرة إلى رجل كان أصلاً من قادش بلغت به الجرأة حد الاستخفاء على متن سفينة منطلقة إلى الصين، وذلك تجنباً لدفع الأجرة. وقد عبر هذا الرجل الخط الفاصل بين عرفين بحريين متناقضين، فالسفن التي تبحر متأرجحة، تصرصر في طريقها إلى الصين، كانت مختلفة أشد الاختلاف عن السفينة الثقيلة عريضة القاع، التي تُشد أجزاؤها بعضها إلى بعض بالمسامير، والتي اعتاد أن يراها في مواني الأندلس.

غالباً ما كان يتم تفسير استخدام حبال مجدولة من ألياف شجر النارجيل الذي تعرفه العامة بـ«جوز الهند» في ربط أخشاب سفن المحيط الهندي، بالإشارة إلى أسطورة «الجبل المغناطيسي»[7] التي تقول إن السفن المصنوعة باستخدام المسامير سيكون مصيرها الغرق، إذا أبحرت قرب هذا الجبل، إذ إن كل قطعة من المعدن في هياكلها كان من شأنها أن تنجذب نحوه. وفي إحدى حكايات السندباد نجد أن قبطان السفينة «رمى عمامته ومزق لحيته»[8] عندما لاح هذا الجبل في الأفق أمام سفينته، فهو يعرف أن أجله قد حان «فالمسامير طارت من السفينة ومضت نحو الجبل، وتكسرت المركب، وألفينا أنفسنا جميعاً في البحر العاصف، وقد غرق معظمنا في التو»[9]، [10].

غير أن الحقيقة البسيطة هي أن شبه الجزيرة العربية كان يعاني من نقص في الحديد، وكانت الأولوية دائماً لصناع السيوف في الحصول على الحديد المستورد من أماكن مثل سيلان وشرق أفريقيا، ومن جهة أخرى فقد كان مصدراً لبعض العزاء أنه إذا قدر لسفينة أخشابها مشدودة بالحبال أن ترسو على الشاطئ للقيام بإصلاحات، فإن المواد الخام عادة تتوافر بسهولة، حيث إن أشجار النارجيل تنمو في كل مكان يطل على المحيط الهندي تقريباً، كما أن المحيط كان يوفر المواد المستخدمة للحفاظ على هياكل السفن، التي كان يتم طلاؤها بطبقات سميكة من الزيت المستخلص من أسماك القرش والحيتان (وقد كان لسيراف، باعتبارها ميناء لبناء السفن، مصنع لمعالجة دهن الحوت). وكان الهدف متمثلاً في حماية الأخشاب من التحلل، والإبقاء على مرونتها، بحيث يقل احتمال تعرض السفن لحدوث فجوات في هيكلها، لدى ارتطامها بإحدى الصخور المرجانية.

لهذه السفن المشدودة بالحبال في المحيط الهندي تاريخ طويل، وترد أقدم إشارة إليها في دليل بحري من تأليف رحالة إغريقي، في حوالي عام 50 ميلادي، يصف هذا الدليل المعروف باسم «**دائرة البحر الأحمر**» بطريقة عملية الأوضاع التجارية للمحيط الهندي والشعوب التي يلتقي الرحالة بها على شواطئه. ويتحدث هذا الدليل عن ميناء في شرق أفريقيا، يعرف باسم «الربطة» (مايزال موقعه مجهولاً) حيث يمكن شراء الكثير من العاج، وأصداف السلاحف، وحيث يتم بناء السفن «التي تشد أخشابها بعضها إلى البعض الآخر بالحبال»[11].

كانت السفن التي تنطلق من شبه الجزيرة العربية إلى الصين تبحر جنوباً على امتداد ساحل الهند، إلى سيلان (المعروفة باسم سرنديب أو جزيرة الياقوت) فشرقاً إلى سومطرة، عبر مضيق ملجا، عند أكثر أطراف آسيا إيغالاً باتجاه الجنوب، ثم شمالاً إلى بحر الصين. وكانت رحلة الذهاب والإياب تستغرق عاماً ونصف العام. وغالباً ما اختار قباطنة مثل هذه السفن الرحيل في قوافل، ليقللوا من احتمالات وقوعهم تحت رحمة القراصنة، الذين كانوا موجودين بأعداد كبيرة قبالة غربي الهند. وفي بعض الأحيان كان القراصنة يتمركزون على مسافات منتظمة بالاتفاق فيما بينهم، على امتداد طريق تجاري مألوف للإيقاع بأي سفينة تبحر منفردة، ثم يقومون بنهب بضائعها أو مالها، قبل أن يدعوها تمضي في سبيلها، بل قد يقوم الحاكم المهيمن على ساحل يتمركز فيه القراصنة، بالحصول على نصيبه من عوائد مثل هذه العمليات.

غير أن سحر الصين كان أمراً لا يقاوم، على الرغم من عظم مخاطر الرحلة إليها. فمنتجاتها لم يكن لها نظير، وبراعة مبدعيها هائلة، وفيما يتعلق بالصين كان من المعتقد أن كل شيء ممكن[12]. ولم يزعم بزرك قط أنه أبحر إلى هناك، لكنه روى من دون أن يساوره شك معلومات عديدة حدَّثه بها أصدقاء له؛ وفي إطار هذه المعلومات وصف للكيفية التي قام به موظف إمبراطوري رفيع الشأن بزيارة رسمية إلى خانفو (كانتون) وبمعيته مئة ألف فارس. وفي معلومة أخرى تحدث بزرك عن أن حاكماً صينياً التفَّت حوله خمسمئة أمة من كل الألوان، وهن يرتدين أثواباً حريرية شتى، ويتحلين بحلى مختلفة الأشكال، لدى استقباله تاجراً عربياً. وبينما ينبغي السماح بهامش من المبالغات في حكايات الرحالة، فإنه من الصحيح أن الفرسان في الجيوش الشرقية كانوا يعدون بعشرات الألوف، وأن الحكام الطغاة كانوا على الدوام يتباهون بكثرة محظياتهم.

لقد فُتن شبه الجزيرة العربية بروعة البضائع الواردة من الصين (حتى اليوم يطلق على الخزف الفاخر الذي يعرف في الغرب بالبورسلان اسم «الصيني» باللغة العربية) وحتى البحر الأحمر سمي ببحر الصين؛ لأنه من هناك ومنذ أقدم العصور كانت السفن تبدأ رحلاتها محملة ببضائع تتألف من العاج والبخور والذهب، لمقايضتها بالسلع الكمالية التي تنتجها تلك البلاد التي أطلق عليها الرومان اسم سيريز (Seres)؛ أي «أرض الحرير» محتذين في ذلك حذو الإغريق.

لقد أرسلت الإمبراطورية الساسانية العظيمة التي قامت في بلاد فارس قبل الإسلام مبعوثين إلى الصين. وعلى الرغم من أن فارس نفسها بحضارتها العريقة لديها الكثير مما يمكن أن تقدمه – وقد سعد الصينيون للغاية بتقليد أساليبها الفنية في المشغولات الفضية والزجاج المشكل بالنفخ – فإن حكام الصين قد اعتبروا على الدوام أنه من المسلم به أن جميع الأمم الأخرى ينبغي أن تقر بتفوقهم، وتجيء إليهم. وما من شعب آخر تمسك بهذه السمة، بمثل هذا القدر من التصلب. وعلى الرغم من أنه من المعروف أن أحد الباحثين الصينيين قد زار بغداد في القرن العاشر الميلادي، فإن بزرك لم يأت قط على ذكر أي رحلة قام بها التجار الصينيون إلى الجانب الغربي من المحيط الهندي. وعندما كان ملوك البلاد النائية يبعثون بهدايا إلى الإمبراطور، الذي كان معروفاً للعرب بلقب «صاحب الصين»، فإن هذه الهدايا كانت تقبل بجلال، باعتبارها جزية أو علامة من علامات الطاعة، وفي المقابل كان مقدمو هذه الهدايا يمنحون ألقاباً صينيةً.

على الرغم من مخاطر الترحال في المحيط – أو ربما بسببها – فإن آفاق السفر إلى الأراضي النائية كانت تثير حماس الشبان. وقد ظل التعبير عن تلك الروح موجوداً في رسومات السفن المبحرة وعلى متنها أطقم بحارتها، منقوشة في جص الدور التي جرى التنقيب عنها في مدن المحيط الهندي القديمة. غير أنه ليس هناك شك في أن الكوارث كانت متكررة الحدوث. وقد ذكر مسؤول صيني في القرن التاسع أن «الحمام الأبيض الزاجل كانت تحمله السفن الآتية من المحيط الهندي ليكون بمنزلة علامات؛ فإذا ما غرقت سفينة فإن الحمام كان يطير عائداً إلى موطنه، حتى ولو قطع عدة آلاف من الأميال». وبالنسبة إلى البحارة فإن طيور البرّ كان يمكن كذلك أن تكون بشارة طيبة؛ لأنه بعد أسابيع في عرض البحر، فإن أول رصد لهذه الطيور كان يعد تأكيداً للاقتراب من البر. وقبل عصر الخرائط أو الأدوات الملاحية الدقيقة، كان على القبطان الاعتماد على مثل هذه المؤشرات؛ ومنها التغير في لون الماء أو التيار أو الحطام الطافي، أو حتى مقدار الوميض الفوسفوري على الأمواج في الليل.

يصور بزرك قبطاناً شهيراً قام بالرحلة إلى الصين سبع مرات باعتباره بطلاً، وقد قدر له الغرق مع سفينته في نهاية المطاف، وكانت سفن المحيط الهندي التي صنعت لتحمل

على أقصى تقدير مئة طن من البضائع، وما يتراوح ما بين خمسين وستين من الركاب، تخشى العواصف على الدوام، ولكن السكون بدوره كان شيئاً خطيراً بالقدر ذاته؛ فمياه الشرب قد تنفد، أو قد تنتشر الأمراض من العنابر المليئة بالفئران، وفي بعض الأحيان تدفع المعاناة الناجمة عن الحر والرائحة الكريهة الركاب إلى الجنون، أما من لم يصبهم الجنون فكانوا يقضون جانباً كبيراً من وقتهم في ترتيل الكتب المقدسة، والتنقيب فيها عن نبوءات تبشر بقرب الوصول بأمان، واستبد بالجميع الحنين إلى الصيحة الأولى التي تنطلق من الرقيب المعروف باسم «الفنجري» الذي يقف عند مقدمة السفينة، مبشراً بأن الأرض قد لاحت أخيراً للعيان.

غالباً ما تعكس حكايات كتاب «**عجائب الهند**» فكاهة تقوم على المفارقة في غمار استحضار الحياة في البحر. ويمكن كذلك أن تكون حكايات أليمة، وعندما يكتب بزرك عن الكيفية التي يتصرف بها الأفراد في أوقات الأزمات؛ فإن القرون التي تفصلنا عنه تتلاشى فجأة وهو يحدثنا عن حادث غرق سفينة قدر للناجين منه أن يظلوا طافين، على امتداد عدة أيام قبالة ساحل الهند في قارب صغير، وبين هؤلاء الناجين صبي صغير غرق أبوه لدى غرق السفينة، ويدفع الجوع الناجين إلى التفكير في اللجوء إلى أكل لحوم البشر، ويقررون قتل الصبي والتهامه. «فأحس الصبي بذلك؛ فرأيته وهو ينظر إلى السماء ويحرك شفتيه وعينيه وهو يدعو دعاء خفياً، فما مضت لحظات حتى لاحت لنا اليابسة»[13].

ليس من المدهش أن الكثير من التجار الذين جابوا الآفاق قد اختاروا البقاء في الميناء الذي ارتاحوا إليه أكثر من غيره، بدلاً من المخاطرة بالانطلاق في رحلة العودة. وإذا ما كان هناك عمل يمكن القيام به ومسجد تؤدى شعائر الصلاة فيه، وإماء ومحظيات، فكفاهم ذلك. وغالباً ما كان المسافرون الذين يبلغون الصين سالمين هم بصفة خاصة الذين يكرهون العودة إلى الأراضي التي قدموا منها. وقبل قرنين من العهد الذي كتب فيه بزرك مؤلفه، كان التجار الفرس والعرب في الشرق قد بلغوا من كثرة العدد حداً دفعهم إلى القيام بغارة بحرية على كانتون، يفترض أنها جاءت انتقاماً لإساءة تعرضوا لها في التعامل معهم.

من الرحالة الذين نقرأ في مخطوط بزرك عن عودتهم من الصين، يهودي يدعى إسحاق بن يهودا، وكان قد استهل حياته العملية فقيراً في صحار، الميناء العُماني الرئيسي المطل على مدخل الخليج العربي، ولكنه بعد نزاع مع زميل له من أبناء دينه قرر أن يجرب حظه في الخارج؛ فحمل معه ثروته بأسرها والمقدرة بمئتي دينار ذهبي ومضى أولاً إلى الهند، ثم واصل المسير إلى الصين.

قبل سنوات قلائل من وصول إسحاق هذا إلى الصين، كانت هناك اضطرابات راح ضحية المذابح التي تخللتها أكثر من 100,000 تاجر أجنبي مع عائلاتهم، لكنه وصل إلى الصين وازدهرت أحواله، وبعد ثلاثين عاماً ذهل أبناء صحار لرؤيته يعود إلى موطنه مجدداً عام 912، ولم يعد مسافراً متواضعاً وإنما جاء على متن سفينته الخاصة، المحملة بالكنوز؛ كالحرير والصيني والطيب والجواهر والأحجار الكريمة الأخرى.

ويبلغنا بزرك بلباقة كيف أن إسحاق توصل إلى اتفاق مع سلطان عُمان، الذي كان في ذلك الحين يدعى أحمد بن هلال، على أن «يمضي بما في المركب ولا يعشّر عليه»، أي يجنبه دفع ضريبة العشر وما نطلق عليه اليوم الجمارك» وتوصلا إلى «ترتيب» تعادل قيمته مليوناً من العملات المضروبة من الفضة، والمعروفة بالدرهم، كما وثق إسحاق عرى صداقته بالسلطان، بتقديم هدية رائعة إليه، وهي مزهرية من الصيني الأسود ذات غطاء ذهبي.

ويتساءل السلطان: ما الذي في هذه المزهرية؟

يرد التاجر: أسماك طهوتها لكم بالصين.

ويعقب السلطان: «سمك يطهى في الصين وقد مضى عليه سنتان[14] كيف سيكون حاله؟!»

ويرفع السلطان الغطاء المزخرف ويطل داخل المزهرية فيجد أنها تحتوي سمكاً من الذهب وعيونه من الياقوت، وقد عُبِّئَ في البرنية، وفي خلل المسك الفائق، وإذا قيمة ما في المزهرية خمسون ألف دينار[15].

وسرعان ما يصبح إسحاق لثروته الطائلة موضع حسد الحاسدين، ويحزم رجل حاول بلا طائل شراء بعض بضائعه، أمره على السعي للانتقام منه في بغداد، ويقطع لهذا الغرض رحلة من صحار تمتد أكثر من ثلاثمئة فرسخ، أي نحو ألف ميل. وبالفعل يفلح هذا العدو الذي استبدت به الغيرة في لقاء الخليفة المقتدر، ويبلغه كيف أن هذا اليهودي قد أبرم صفقة سرية للتهرب من دفع المكوس والعشور. كما يثير طمع الخليفة بوصفه للسلع الرائعة التي جلبها إسحاق معه من الصين؛ ومنها أقمشته الحريرية وخزفه الصيني وحجارته الكريمة، وفضلاً عن ذلك فإن هذا اليهودي ليس له أولاد، ولذا فإنه إذا لقي حتفه، فلن يكون هناك من يرثه. ولدى سماع الخليفة ذلك انتحى بأحد مساعديه جانباً ويدعى فلفل وأمره بالتوجه إلى عُمان مع ثلاثين رجلاً؛ فلابد من إلقاء القبض على إسحاق عاجلاً وإحضاره إلى بغداد، (ويتفق سلوك فلفل فيما بعد مع ما يتوقعه الجمهور المسلم في القرن العاشر، فقد كان ينظر إلى العبيد المستخدمين لدى الأمراء باعتبارهم أشراراً خبثاء، لكنهم غالباً ما كانوا يرتقون إلى مناصب رفيعة في خدمة ذوي السلطة).

وعندما يسمع السلطان في صحار بالأمر الذي أصدره الخليفة، يبادر إلى إلقاء القبض على اليهودي، لكنه يبلغه بأن هدية كبيرة يمكنها أن تجعله يفوز بحريته. ثم يتخذ السلطان خطوة أخرى لإبعاد السجين الثري عن براثن الخليفة ولدعم موقفه الخاص؛ فينشر نبأ ما وقع ويحذر التجار الآخرين في المدينة من أنه إذا ما اقتيد إسحاق إلى بغداد، فإن أياً منهم لن يكون في المستقبل في مأمن من معاملة مماثلة. ويستجيب التجار على نحو ما توقع السلطان، حيث يغلقون السوق في البداية ثم يوقعون التماسات، وبعد ذلك يقومون بتنظيم مظاهرات في الشوارع ويحذرون من أنهم سيغادرون صحار، وسيبلغون التجار الآخرين بالابتعاد عن سواحل شبه الجزيرة العربية حيث لم يعد الرجل يأمن على ممتلكاته.

ويكتب السلطان رسالة إلى الخليفة يحكي فيها ما قاله التجار: «إن بقينا انقطعت معايشنا وأرزاقنا بانقطاع المراكب عنا، وإنما هذا بلد رزق أهله من البحر، وأنه متى تم هذا على أصغرنا جرى على الكبير أعظم، والسلاطين نار أينما توجهت أحرقت ولا

طاقة لنا بذلك، فالأفضل أن نغادر الآن». ولكي يوصل التجار رسالتهم بشكل عملي، فقد قاموا بصف سفنهم إلى جانب رصيف الميناء استعداداً للإبحار. وتفلت الأمور من عقالها؛ فيقرر فلفل ورجاله الهرب عائدين إلى بغداد، وقبل مغادرتهم عمدوا إلى مصادرة ألفي دينار ذهبي من ممتلكات اليهودي السجين.

يتم إطلاق سراح إسحاق بعد رحيلهم، لكن الغضب يسيطر عليه إلى حد يقرر معه الرحيل عن شبه الجزيرة العربية إلى الأبد، والاستقرار بشكل دائم في الصين. ويتم إعداد سفينة لهذا الغرض، ويحمل فيها مقتنياته بأسرها ويبحر بها بعيداً لكنه لا يصل إلى الصين قط، فعندما تقترب سفينته من سومطرة، على الجانب البعيد من المحيط الهندي، يطالبه حاكم أحد مرافئها بمبلغ كبير كرسوم عبور قبل أن يسمح له بالإبحار، ولكنه عندما يرفض دفع هذا المبلغ يأتي رجال تحت جنح الليل ويقتلونه، فيأخذ الحاكم السفينة وكل ما فيها.

ومن دون طرح أي أحكام على مجريات الأمور، يسمح بزرك للقارئ باستنتاج الكثير من هذه القصة، التي قصد منها بجلاء أن تكون أكثر من مجرد قصة تُحكى، حيث إن شخصيات تاريخية حقيقية تبرز في غمار السرد، وهي في المقام الأول تفصح عن القانون العرفي الذي تتم بمقتضاه ممارسة التجارة في المحيط الهندي؛ فأياً كان عرق التجار أو عقيدتهم، فإنه ينبغي أن تتاح لهم حرية الحركة في البحار، ويجب أن يعاملوا معاملة منصفة تشملهم جميعاً على حد سواء في كل ميناء ترسو سفنهم فيه. وقد فهم بزرك باعتباره قبطاناً بشكل دقيق كيف أن التجار يضيقون ذرعاً بالأماكن التي يمكن أن تكسر فيها هذه القاعدة، وقد قيل فيما بعد عن ميناء هرمز الواقع عند مدخل الخليج العربي إنه يرحب بالتجار من كل أصقاع العالم: «فهم يجلبون إلى هرمز أكثر الأشياء ندرة وأغلاها قيمة. وهناك الكثيرون من كل الأديان في هذه المدينة ولا يسمح لأحد بالإساءة إلى أديانهم؛ ولهذا توصف هذه المدينة بأنها قلعة الأمن».

من شأن قراء **«عجائب الهند»** أن يتبينوا رسالة تتسم بمزيد من الطابع الشخصي في هذه القصة؛ فالخليفة والسلطان العُماني عربيان، لكن بزرك وجمهوره الأكثر قرباً منه كانوا من الفرس. وعلى الرغم من أن الفرس كانوا قد دخلوا الإسلام بعد فتح بلادهم

منذ أكثر من قرنين، حتى العهد الذي كتب فيه بزرك (كتب بزرك بالعربية وصدّر كتابه بكل المشاعر الإسلامية الصحيحة) فقد كان هناك الكثير من مواطنيه الذين يتطلعون في حنين إلى أمجاد إمبراطوريتهم المهزومة، بل وتشبثوا بعقيدتهم الزرادشتية القديمة[16]، وتذكروا كيف أن مدنهم الساسانية قد سويت بالأرض، وكيف أن الفاتحين العرب، الذين كانوا في وقت من الأوقات بدواً رُحلاً لا يكترث لهم أحد، قد أقاموا منصات انتصارهم على جثث القادة الفرس. وكان آخر كسرى ساساني قد أرسل مبعوثين إلى الصين طالباً منها العون العسكري ولكن بلا طائل.

غير أنه لم يكن هناك سبيل لاستعادة ذلك الماضي التليد. وبينما قدر للإسلام أن يتعرض لضغوط على جناحه الغربي من القوى المسيحية المناهضة له، فإن نفوذه على امتداد المحيط الهندي لم يلبث أن تعاظم في داخل الهند ذاتها وما وراءها، وصولاً إلى إندونيسيا. كما سيطر الإسلام بالفعل على شواطئ أفريقيا الشرقية، التي تطلع إليها لتلبية الطلب الدائم على الأيدي العاملة*.

* أرجو التنبه إلى التعابير أعلاه؛ فهي تنطوي على أباطيل تُسيء إلى العرب وإلى الإسلام، وقد ثبت لدى المؤرخين بطلانها. يقول المؤرخ الفرنسي الشهير غوستاف لوبون: «ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب». وأما العبارة الأخيرة فتوحي إلى القارئ أن الإسلام يسعى إلى (استعباد البشر) طلباً للأيدي العاملة. وهذه الفكرة سيكررها الكاتب مرات عدة على صفحات الفصول اللاحقة، مع عبارات أشد افتراء على العرب تحديداً والمسلمين عموماً؛ لذا وجب التنبيه. (المحرر)

الفصل الثاني

سحر الشاطئ الأفريقي

«أُقـاد فـي دمشـق كأننـي عبـد ذليـل مـن الـزنج[1]»

الشاعر المؤرخ أبو مخوف (المتوفى عام 774 م)

أطلق الإغريق على منطقة شرق أفريقيا اسم أزانيا، ثم صارت تعرف باسم أرض الزنج؛ وكلمة زنج (بفتح الزاي وكسرها أيضاً) كلمة فارسية أصلاً[2]، ولكنها دخلت لغات أخرى. والصفة التي استخدمت في وقت من الأوقات للإشارة إلى اللون فقط، أصبحت تطلق بصفة خاصة على الأفارقة أو العبيد السود، وكأنهما شيء واحد على الدوام تقريباً، إذا بلغ سوء الطالع بهم الحد الذي يجدون معه أنفسهم في أرض أجنبية.

لقد استمدت جزيرة زنجبار المزدهرة اسمها من كلمة «زنج»، وكانت المقصد المعتاد للملاحين العرب والفرس المبحرين إلى أفريقيا بالاستعانة بالرياح الموسمية الشتوية[3]. وكان معنى هذه الرحلة عبور خط الاستواء، إلى خطوط عرض تحتجب عندها النجوم، التي يستهدى بها في الملاحة في نصف الكرة الأرضية الشمالي، غير أن بعض القباطنة غامروا بالتوغل إلى مسافات أبعد جنوباً، ومضوا إلى أبعد ما تصله الرياح الموسمية، متجاوزين مصب نهر عظيم، قيل إنه يتصل بنهر النيل في قلب أفريقيا. ووصل بهم الإبحار عدة أيام في ما وراء النهر إلى سفالة[4]، وهي آخر ميناء كبير مطل على ساحل الزنج[5].

ويمثل الذهب أحد مصادر سحر هذا الإقليم النائي، وكان الأفارقة يستخرجونه من مناطق داخلية في القارة، ويجلبونه إلى سفالة لمقايضته بالقماش والخرز. وكان الذهب يُحمل في رحلة العودة إلى شبه الجزيرة العربية، حيث يتلقى القائمون بالرحلة إلى سفالة مكافأة طيبة على ما تكبدوه فيها، بفضل الحاجة إلى العرض المستمر من المعدن الثمين لسك الدنانير؛ وهي العملة المستخدمة على امتداد العالم الإسلامي (جردت

المعابد في البلدان المفتوحة منذ وقت طويل، مما فيها من ذهب، وكذلك الحال بالنسبة إلى كل المقابر القديمة التي أمكن اكتشافها).

لم يكن من ينقصهم العزم والجرأة يشدون الرحال إلى بلاد الزنج؛ فإلى جانب القصص الرهيبة التي تدور حول أكلة لحوم البشر والمحاربين الأفارقة، الذين تتمثل أعظم مصادر بهجتهم في البطش بالمسافرين الآمنين، وحكايات القبائل التي تعيش على خليط من الحليب والدم، شاع كذلك القول إن أي شخص يمضي للإقامة في بلاد الزنج قد يجد جلده بأسره وقد انسلخ عن جسمه.

غير أن ما جعل بلاد الزنج مميزة عن مراكز التجارة الأخرى في مختلف أرجاء المحيط الهندي تمثل في دورها الأساسي كمصدر للرقيق الوثنيين؛ فقد كان التجار يشدون الرحال إلى الهند لشراء أقمشة الموسلين* المطرزة والحلي، وإلى الصين للحصول على الحرير والأطباق المزخرفة، ولكن أي شخص يبحر إلى أرض الزنج كان يتوقع على الدوام أن يشتري بعض الشبان السود الأصحاء، ويبيع هؤلاء الأرقاء بأسعار جيدة في الأراضي الممتدة على الشواطئ الشمالية للمحيط الهندي؛ فالعامل الذي يبتاع بأطوال قلائل من القماش، كان يمكن أن يباع بثلاثين ديناراً من الذهب، وإذا ما نقل هؤلاء الأرقاء إلى البحر الأبيض المتوسط فإنهم كانوا يجلبون أرباحاً أوفر؛ فالعبد الأبيض أو الجواد يباع بأقل من ثلاثين ديناراً من الذهب، ولكن النقص في الأرقاء السود جعل ثمن الواحد منهم يصل إلى 160 ديناراً من الذهب. وقد افتخر بعض الحكام باتخاذ حرس شخصي مؤلف من المحاربين السود[6].

لقد كان ثمة مصدر وفير للعبيد في البلاد الجبلية المعروفة باسم الحبشة التي كان الوصول إليها يتم من الجانب الغربي للبحر الأحمر. وهذا الاسم مستمد من «حبش»[7]؛ وهي الكلمة العربية التي أطلقت على هذا الإقليم، وبمرور الوقت مال الأفراد إلى وصف أي شخص أسود بأنه حبشي. وكان المقدسي الذي اتسم حديثه عن بغداد

* الموسلين: نسيج قطني رقيق.

بالنزعة الشعرية أكثر واقعية عندما أورد قائمة بالسلع التي يتم استيرادها عن طريق عدن، والتي ضمت «الدرق والحبش والخدم وجلود النمور»[8]، [9].

تقع عدن غير بعيد عن مدخل البحر الأحمر، وهكذا فقد كانت في موقع جيد يتيح لها استقبال من وقعوا في الأسر خلال غارات تشن على الأحباش. وقد شدد القرآن الكريم على أن المسلم ينبغي ألا يسترقّ أخاه المسلم (على الرغم من أن الأرقاء يدعون إلى الدخول في الإسلام) غير أن استرقاق الأحباش لم يكن محرماً، حيث إنهم مسيحيون[10] وبمنزلة امتداد لمسيحيي بيزنطة يعود إلى القرن الرابع. وتروي إحدى الأساطير أن فيلسوفاً مسيحياً من الشرق قد غرقت سفينته في البحر الأحمر وغرق معها، لكن تلميذيه فرومنتيوس وأيديسيوس بقيا على قيد الحياة، وعثر عليهما السكان المحليون وهما جالسان تحت شجرة، يدرسان الكتاب المقدس (الإنجيل)، وقد غرس التلميذان بذور المسيحية في دولة أكسوم القوية، التي كانت على اتصال بعالم البحر المتوسط منذ العهود القديمة، وأمدت الإمبراطورية الرومانية بالعاج. وأياً كان مدى صدق حكاية فرومنتيوس وأيديسيوس، فإنه بحلول القرن الخامس الميلادي كانت هناك بالتأكيد إرساليات تبشيرية من سوريا تعمل بنشاط في ما أصبح يعرف باسم الحبشة.

كان الأحباش أيضاً على صلة وثيقة بأهل عدن وما وراءها من بلاد، فقد عبر أسلافهم البحر الأحمر في عصور ما قبل المسيحية، جالبين معهم من جنوبي شبه الجزيرة العربية لغة مكتوبة، أطلقوا عليها اسم «الغز» التي تعني «الرحالة» (ومع علو نجم الإسلام، حلت العربية محل تلك اللغة في بلادها، تماماً كما حدث للدين القديم، أي عبادة الشمس والقمر وابنهما المقدس، الذي استؤصلت شأفته تماماً). وقد حل وقت من الأوقات غزا فيه الأحباش المسيحيون جنوبي شبه الجزيرة العربية، عقاباً لأهله على اضطهادهم للمسيحيين هناك، أما الآن فقد صار الأحباش في موضع المدافع حيث تراجعوا باتجاه أعالي الجبال لتجنب غارات تجار العبيد.

لقد احتاج العرب في قرون توسعهم إلى قدر كبير من جهود العبيد لبناء مدنهم، والقيام على أمر مزارعهم، والعمل في المناجم وشق الترع. ولم يكن هذا النظام من ابتكارهم؛ فاقتصادات بلاد الإغريق وروما اعتمدت على العبودية، إذ يرجع تاريخ

استرقاق الأفارقة إلى خمسة آلاف عام. وقد حفر أقدم سجل هيروغليفي للاتصال بين المصريين وجيرانهم النوبيين القاطنين على ضفاف أعالي النيل في نقش حجري للملك "زير" من الأسرة المصرية الأولى (قبل 3000 ق. م.). ويظهر هذا النقش بشكل نابض بالحياة زعيماً نوبياً أسيراً، وقد شد وثاقه إلى مقدمة سفينة مصرية، وجثث أتباعه المهزومين تطفو فوق النهر. وبعد خمسة قرون سجل الملك سنفرو أحد ملوك الأسرة الرابعة أنه قد غزا النوبة وجلب معه لدى عودته سبعة آلاف من السود، ومئتي ألف رأس من الماشية. وقد استخدم العبيد في بناء الأهرامات.

لقد أرسى الرسول ﷺ قواعد دقيقة لتحرير الرقيق من غير المسلمين، والقرآن الكريم يشجع على تحرير الرقيق لكنه لا ينص صراحة على تحريم الرق[11]. وقد كان المصير المعتاد للزنجي والحبشي الأسير هو النقل عبر المحيط الهندي إلى الخليج العربي والبصرة، حيث ينقلون إلى الشاطئ ليباعوا إلى من يستخدمهم كأيد عاملة. وبعد رحلتهم البحرية الطويلة التي يقيدون خلالها بالأغلال يتم إخضاعهم بالضرب بالسياط، ويقتادون من الشاطئ، بين الدور السامقة، ومروراً بالأسواق على امتداد الشوارع المزدحمة بالحمير والجمال والأحصنة المستخدمة في حمل الأغراض، إلى أن يصلوا سوق الرقيق.

وكان الرقيق يسمَّون بحسب الأقاليم التي قدموا منها، وهذه الأسماء لم يعد من الممكن في الغالب تبين الأصل الذي اشتقت منه؛ ومنها قنبلوه، والأرض الجوانية، ونمل، وكلاب. وقد تعلم أولئك الذين قدرت لهم النجاة شيئاً من اللغة العربية وحملوا أسماء عربية وعملوا مترجمين، ينقلون الأوامر إلى إخوانهم من أبناء جنسهم. والأسعد حظاً هم أولئك الذين يتم شراؤهم للعمل كخدم خصوصيين، فهناك فرصة متاحة لقيام سيد رقيق القلب ذات يوم بإعتاقهم، وعندئذ لا تعود للون أهمية تذكر ويصبحون جزءاً من المجتمع الإسلامي.

وكان الرقيق الأفارقة هم الأكثر تمتعاً بالرعاية، وقد وصفهم المقدسي بأنهم من واردات عدن الرئيسة. وفي الوقت الذي كان يكتب خلاله كان هناك أحد عشر ألفاً من

الرقيق في بغداد، من بينهم سبعة آلاف من الأفارقة. وقبل ذلك بقرن واحد كانت للخليفة الأمين فيالق عديدة منهم، بعضهم من البيض الذين أطلق عليهم اسم «الجراد» وبعضهم من السود الذين أسماهم «الغربان». وقد علا قدر من أرضوا الخلفاء بصورة مميزة؛ فاكتسبوا سلطة واسعة النطاق. وقد شعر الرحالة الأندلسي ابن جبير بالاستياء عندما زار بغداد فوجد الجيش تحت سيطرة شاب أسود يدعى خالص، فكتب يقول: «أبصرناه خارجاً أحد الأيام وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد؛ من الأتراك والديلم وسواهم، وحوله نحو خمسين سيفاً مسلولة في أيدي رجال قد حَفُّوا به، فشاهدنا من أمره عجباً في الدهر وله القصور والمناظر على دجلة»[12] وقد كان ابن جبير متحرراً في جوانب أخرى لكنه كان يزدري السود، وقد كتب عنهم أنهم «أمة لا خَلاق لهم ولا جُناح على لاعنهم».

ويعود قبطان البحر الفارسي بزرك بن شهريار في مذكراته مراراً وتكراراً إلى حكايات المغامرة في بلاد الزنج، مع الكثير من الإيماءات إلى أنه يكتب من واقع التجربة الشخصية، والعبودية هي موضوع كل قصصه الأكثر دلالة. وتكمن وراء الجوانب غير المحتملة فيها نزعة واقعية تستحضر، على نحو متدفق بالحيوية، العالم الذي عاش فيه، وهو يفصح عن تعاطف ملحوظ مع الشخصية الرئيسة وهو زعيم إحدى القبائل الأفريقية. والراوية هو مالك سفينة ثري، يدعى إسماعيلويه، وكان قد أبحر إلى أرجاء المحيط الهندي كافة، ولكنه يعرف أفريقيا بشكل خاص كأدق ما تكون المعرفة. وفي عام 922، ينطلق في رحلة إلى قنبلوه (وهي المدينة الرئيسة في جزيرة بمبا الواقعة إلى الشمال مباشرة من زنجبار) ولكن العواصف تدفع سفينته بعيداً إلى الجنوب باتجاه سفالة. وتقذف الرياح بالسفينة إلى رقعة سيئة الصيت من الساحل، حيث يخشى طاقم السفينة من التعرض للأسر والقتل، أو ما هو أسوأ من ذلك، حيث ستؤكل لحومهم[13].

على الشاطئ يبرهن الاستقبال الذي يحظى به الغرباء على أنه يفوق توقعات إسماعيلويه؛ فزعيم المنطقة يبدو غلاماً جميل الوجه من الزنج، حسن الخلق، يطرح الأسئلة عليه ويقول له صراحة إنه يعرف أنهم يكذبون عندما يزعمون أن مقصدهم على الدوام كان زيارة بلاده. ولكنه يعدهم بأن في وسعهم الاتجار كما يشاؤون، وأن أحداً

لن يلحق ضرراً بهم. وبعد التجارة الرابحة يعود مالك السفينة وطاقمها إليها، بل إن الزعيم الودود يقبل مع العديد من رجاله لوداعهم على متن السفينة. وعند هذه النقطة يكشف إسماعيلويه النقاب عن حيلته، فلسوف يخطف السود الذين لا يرتابون في نواياه ويحملهم عائداً إلى عُمان، ثم يبيعهم في سوق الرقيق.

هكذا، وبينما تبدأ السفينة في التحرك يحاول الزعيم الحائر ورجاله عبثاً العودة إلى قواربهم المشدودة إلى جانب السفينة، يبلغهم التجار بما سيؤول إليه مصيرهم؛ فيرد الزعيم باعتداد: «يا قوم، لما وقعتم إلي قدرت، ثم إن أهلي أرادوا أن يأكلوكم[14] ويأخذوا أموالكم كما قد فعلوا بغيركم، فأحسنت إليكم وما أخذت منكم شيئاً، وجئت معكم لأودعكم في مراكبكم إكراماً مني لكم، فاقضوا حقي بأن تردوني إلى بلدي».

إلا أن توسلاته ذهبت أدراج الرياح، وتم دفعه إلى محبس السفينة مع الأسرى الآخرين. «وأظلنا الليل، وطوانا اللج». وخلال الرحلة شمالاً عبر خط الاستواء وصولاً إلى بحر العرب، لم يتحدث الزعيم الأسير على الإطلاق، وتصرف كأنه لا يعرف آسريه إطلاقاً. وعندما تصل السفينة إلى الميناء يقتاد إلى سوق الرقيق ويباع مع رفاقه.

يبدو ذلك كما لو كان نهاية صفقة رابحة بالنسبة إلى إسماعيلويه، ولكنه بعد عدة سنين يبحر مجدداً على ساحل الزنج مع طاقمه المألوف من البحارة، وتدفعهم عاصفة إلى البقعة ذاتها من الساحل. وسرعان ما يتم تطويق السفينة ويساق طاقم البحارة بعيداً؛ ليعرضوا على الزعيم المحلي. ولدهشتهم الممزوجة بالرعب يجدون أن الرجل ذاته الذي باعوه بيع الرقيق منذ زمن بعيد يجلس من جديد على عرش الزعامة.

ويقول لهم: ها أنتم أصحابي القدامى!

يلقي إسماعيلويه وبحارته بأنفسهم على الأرض ويخشون من رفع أنظارهم إليه. «فلطف بنا حتى رفعنا رؤوسنا جميعاً، ولم ننظر إليه حياءً وخوفاً وخجلاً». فيحكي لهم الزعيم قصة مشوقة حول اقتياده كعبد إلى البصرة ثم إلى بغداد. وهناك هرب من

سيده ومضى إلى مكة، ووصل أخيراً إلى القاهرة. وعندما شاهد النيل سأل عن منبعه؛ فقيل له: أرض الزنج. فيقرر المضي متتبعاً مجراه على أمل الوصول إلى موطنه. وبعد العديد من المغامرات في داخل أفريقيا، يفلح في تحقيق ذلك. وأول من صادفه امرأة عجوز لم تتعرف إليه، لكنها تقول إن الساحرات طبيبات القبيلة تنبأن بأن زعيم البلاد المفقود لايزال على قيد الحياة وفي أرض العرب، وعند ذلك يعود الزعيم التائه مبتهجاً ويسترد عرشه.

ويبلغ الزعيم آسريه السابقين بأنه خلال سنوات رقه دخل الإسلام، وذلك هو السبب في أنه قرر أن يكون شهماً معهم، بل إنه شكرهم حقاً! لأنهم السبب في اعتناقه الإسلام. ولكنهم عندما يشرعون في الاستعداد لرحلة عودتهم إلى شبه الجزيرة العربية، فإنه يعرفهم بأنه ليس في وسعه أن يثق فيهم أكثر مما ينبغي، على الرغم من أنه الآن أخوهم في الإسلام.

ويقول: «أما تشييعكم إلى المركب فما لي إليه سبيل».

كان من شأن حكاية الملك الأسود وخاطفيه البيض، بما تحفل به من مفارقات حادة، أن تكون مصدر تسلية لجمهور المسلمين، فالرسالة الختامية التي تدور حول المصالحة الأخوية، تتناسب بشكل جيد مع الدفاع الذائع عن الإسلام، ومع القول بأن الأفارقة قد حملوا أعظم الإجلال لسادتهم حتى إنهم لم يحقدوا عليهم. غير أن الرقيق في حقيقة الأمر لم يخضعوا على الدوام، صاغرين، لانتزاعهم من قبائلهم ومن قراهم ومن الغابات الأفريقية التي تكفل الحماية لهم. وقد كان هناك قول سائد مفاده: «إذا أجعت زنجياً فإنه يسرقك، وإن أطعمته فإنه يتمرد». وقد عكس هذا القول الخوف من أن العبيد على الدوام يتحينون الفرصة للانتقام.

ويكشف التاريخ عن أنهم غالباً ما سعوا وراء هذه الفرصة. وفي وقت مبكر يعود إلى عام 689 ميلادية، أي بعد أقل من ستين عاماً من وفاة الرسول ﷺ، وقعت انتفاضة قام بها العبيد العاملون في الأهوار القريبة من البصرة، عند مصب نهري دجلة والفرات. ولكنها لم تدم طويلاً، وتركت جثث المتمردين معلقة على المشانق تحذيراً

لغيرهم. وبعد خمسة أعوام عاود العبيد الانتفاض بقيادة أفريقي يدعى رياح «أسد الزنج». وفي هذه المرة كان التحدي أفضل تنظيماً، ولم يتم القضاء عليه إلا بعد تجنيد 4000 جندي، هم من السود كذلك في غمار حملة لاستئصال العصاة، وقد راح ضحية المذبحة التي وقعت عشرة آلاف من الرقيق، من بينهم نساء وأطفال.

وفي منتصف القرن التاسع الميلادي، وقع حادث أشد ضراوة، تمثل في «ثورة الزنج» الثالثة. وقد حدث هذا في فترة اضطراب واسع النطاق، عندما واجه الإسلام حشداً من التحديات العسكرية والدينية.

فقد جاء تهديد دائب من جانب الحركة الشيعية المتطرفة، وكما هو معروف فإن الدولة الإسلامية قد انقسمت في انتماءاتها بين المذهبين السني والشيعي، وقد اختارت الدولة العباسية المذهب السني. وشعر الشيعة الذين كانوا قد ساعدوا على وضع العباسيين في سدة السلطة بأنهم أصبحوا منبوذين، كما ساءهم الترف الذي درج عليه الخلفاء. وانقسمت مقاليد السلطة بين العرب الذين يمسكون بزمام الخلافة، والفرس الذين يسيطرون على شؤون الإدارة، أما الجيش فيديره الأتراك الذين كانوا يميلون على الدوام إلى التمرد.

وفي غمار الفوضى التي أفضت إلى «ثورة الزنج» الثالثة، ظهر شيعي استغل فرصة الإمكانات الثورية القائمة[15]. وكان من المتحمسين ذوي الرؤية المستقبلية ويدعى علي ابن محمد، وهو فارسي[16]، ولكنه ينحدر جزئياً من أصل هندي. وكان في شبابه قد عاش حياة قلقة، فنظم الشعر وجاب الصحاري مع قبائل البدو. ومن الجلي أنه كانت لديه نزعات تبشيرية، ربما أثارها أبوه المتشدد الذي تردد أنه رأى في المنام عندما كان علي طفلاً، أن ولده سيكبر ويقدر له أن يلحق الدمار بموطنه البصرة. وعندما بلغ علي مبلغ الرجال أعلن أن في وسعه أن يرى كتابة تخطها يد خفية وأن باستطاعته قراءة أفكار أعدائه. وأدت هذه المزاعم التي تماثل ما يذهب إليه "الصالحون" في أماكن أخرى خلال ذلك الوقت الذي ساده النزوع إلى التطرف، أدَّت إلى التفاف نخبة من الأنصار المخلصين حوله، وكان من بينهم بعض صغار الحرفيين بمن فيهم طحان وبائع شراب ليمون.

وتعبر أشعار علي بن محمد التي بقي منها أكثر من مئة بيت عن ازدرائه للحكام الذين انغمسوا في ملذاتهم، كما في قوله:

لهف نفسي على قصور ببغداد وما قد حوته من كل خاص
وخمور هناك تشرب جهراً ورجال على المعاصي حراص
لست بابن الفواطم الزهر إن لم أقحم الخيل بين تلك العراص[17]

ولم يخف المسار الذي تنطلق فيه أفكاره، كما يبدو في قوله:

رأيت المقام على الاقتصاد قنوعاً به ذلة في العباد
إذا النار ضاق بها زندها ففسحتها في فراق الزناد
إذا صارم قرّ في غمده هوى غيره السيف يوم الجلاد[18]

وقبل وقت قصير من انتفاضة الزنج، كان علي في البحرين. وعندما مضى إلى موطنه في البصرة، لم يكن من المدهش أن تنظر إليه السلطات باعتباره مصدراً للقلاقل، وعلى الرغم من أنه هرب إلى موضع اختبأ فيه ببغداد، فإن زوجته وأولاده أودعوا السجن. وفي آب/ أغسطس 869، حانت اللحظة التي طالما انتظرها، فقد كانت هناك حالة قريبة من الفوضى في البصرة، وقد لاذ الحاكم بالفرار وتم إطلاق سراح السجناء من سجنهم.

عاد علي بن محمد إلى البصرة، وشق طريقه إلى الورش التي يعد فيها البناؤون المواد الضرورية لترميم الترع وتوسيعها، وإلى مزارع قصب السكر في السبخات المحيطة بالبصرة، ورفع أمام مسيرته راية حملت الآية القرآنية الكريمة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله . . . ﴾[19]* وأعلن «حرب الخنجر». وتألف مجندوه الأوائل من خمسة عشر ألفا من الرقيق العاملين في المهن الشاقة، وكانوا رجالاً حكم عليهم بالعمل في الحر والغبار حتى الموت والتعرض للجلد بالسياط وفق نزوات سادتهم، ولم يكن لديهم ما يخسرونه.

* سورة التوبة: 111.

مضى قائدهم الجديد في جرأة يجوب المخيمات، آمراً الرقيق بالنهوض وضرب سادتهم، وقد أطاعوه فجلدوا كلاً من هؤلاء السادة خمسمئة جلدة. بل إن المؤرخ العربي الطبري، الذي عاصر هذه الثورة أورد أسماء بعض القادة السود الذين التفوا حول علي بن محمد والذي وصفه الطبري بأنه «خبيث». ومن هؤلاء القادة: أبوليلى، وأبوحديد، وزريق، وأبوالليث. وكان أعظم قادة الزنج هو المهلبي الذي ظل يقاتل حتى النهاية[20].

قدر للانتفاضة أن تهدد بالخطر لعدة سنوات قلب الأراضي التي تقوم عليها السلطة الإسلامية، وأن تعد إحدى أعظم انتفاضات العبيد في التاريخ، ويمكن مقارنتها بتلك التي قادها سبارتكوس[21] ضد الإمبراطورية الرومانية. ولا يمكن اليوم إعادة تصوير هذا الحدث إلا من واقع حوليات عربية غامضة، ولكن أجزاء منها لها طابع مألوف على نحو ملحوظ بعد ما يزيد على عشرة قرون من وقوعها؛ ذلك أنه في الوقت ذاته الذي اندلعت الانتفاضة خلاله في السبخات المحيطة بمصب نهر دجلة، راح الأكراد بدورهم يشنون الحرب[22].

سرعان ما خاض جيش الرقيق المستخدم كبديل مؤقت غمار المعركة ضد القوات الحكومية المسلحة بالسيوف والأقواس والسهام والحراب، ولم يبق أي من الجانبين على عدو مهزوم؛ فقد وضع السيف في أعناق كل الأسرى، وكان قائد الرقيق نفسه من أبرز منفذي حكم الإعدام، مقدماً قدوة تحتذى بقطع عنق رجل يتوسل إليه طالباً الرحمة. وحملت رؤوس المهزومين كتذكارات انتصار من أرض المعركة على ظهور البغال، وفي إحدى المرات نقل ما يقدر بحمولة مركب بكاملها من الرؤوس إلى البصرة.

مع تقدم الرقيق عبر السبخات نحو المدينة العظيمة احتفظ علي بن محمد بمظاهر الرجل التقي الورع فقد كان يمتطي جواداً، اتخذ له سرجاً من سعف النخيل وقطعة من حبل عناناً. وقبيل المعارك كان يلقي في الزنج خطباً تحرك حميتهم يحثهم فيها على أن يعملوا ليعقد لواء النصر لهم، وقد وثقوا بقواه السحرية.

كانت هناك نكسات، فبعد إحدى المعارك اضطر علي بن محمد إلى الهرب للأهوار، ووجد نفسه وحوله ألف فقط من أنصاره ما بين رجال ونساء؛ وعلى الرغم

من أن هذا قد بدا كما لو كان نهاية الانتفاضة، فإن المتمردين قدر لهم الانتصار في المعركة التالية التي لم يكن لهم فيها من سلاح إلا الحجارة. وأعلن علي أن قوى علوية قد أنقذتهم، وتدفق المجندون مجدداً للإبقاء على الانتفاضة، وسرعان ما أصبحت جيوش الرقيق لا سبيل إلى مقاومتها، وانتشرت في الإقليم الواقع عند رأس الخليج. وقام رجالها بنهب دور الأثرياء وبيع الآلاف من نساء العرب والفرس؛ من ذوات المقام الرفيع في مزادات لاتخاذهن محظيات، وقطعوا كل الصلات بين بغداد ومنطقة المحيط الهندي[23].

أدرك قادة الدولة العباسية أن الزنج قد يشكلون تهديداً مباشراً للإسلام؛ لأنهم كانوا يستقطبون الدعم من الجماعات الأخرى المنشقة؛ بمن فيهم الفرس واليهود والنصارى. ومن حسن الحظ بالنسبة إلى الخلفاء أن المتمردين لم يشكلوا أي تحالف عسكري فعال قط مع الأكراد أو القرامطة (الزنادقة)، ولكن بحلول عام 871 الميلادي صار الزنج من القوة بحيث يشنون معتمدين على أنفسهم هجوماً مباشراً على البصرة، مطيعين في ذلك الأوامر المتضمنة في خطة علي بن محمد؛ بشن هجوم من ثلاث جهات. وقد قاد القائد المهلبي ذلك الهجوم، وكان مواطنو البصرة قبل عامين قد ردوا الزنج على أعقابهم، ولكن المدينة هذه المرة تم اجتياحها؛ فلقي كل من عجز عن الهرب حتفه، وطعن بالسيف بعض مواطني المدينة البارزين وهم يصلون في الجامع الكبير.

حشد الخليفة المعتضد أكبر جيش على الإطلاق حتى ذلك الحين وأرسله إلى الجنوب، بهدف إنزال عقاب لا رحمة فيه بساحة الزنج، ولكن لواء النصر عقد لعلي بن محمد من جديد. واستعرض أنصاره قوتهم أمامه وقد قبض كل منهم بأسنانه على شعر رأس ضحية من جنود العدو، فقد قلب الرقيق المائدة بشكل حاسم على سادتهم في بغداد وسامراء، وهي عاصمة جديدة، تقع على نهر دجلة باتجاه أعالي النهر.

أدرك العرب المهزومون بعد هذا أنه لم يعد هناك مجال للانتظار، فانسحبوا شمالاً، جاعلين هدفهم احتواء المتمردين داخل المقاطعتين اللتين تضمان السبخات والترع؛ وكانت تلك إشارة بالنسبة إلى علي بن محمد إلى أن الوقت قد حان لكي ينشئ إدارته

الخاصة، وأن يشيد حاضرة له ويسك عملته الخاصة به، الأمر الذي يعد أبرز ملامح الخيانة الساخرة في الإسلام(24). وإذا كان قد عرف بالفعل باسم «أمير الزنج» فإنه قد مضى قدماً ليعلن أنه المهدي، وأصبح يعرف باسم «البرقع». وعلى امتداد عشر سنوات أدار دفة شؤون مملكته تلك من دون أن يكبح جماحه أحد، بل إنه نقل رسالته الثورية عبر الجزيرة العربية إلى مكة؛ ففي عام 880 ميلادي سيطر فوج من الزنج لوقت قصير على المدينة المقدسة، وقبل ذلك بعام وصل الزنج إلى مسافة سبعين ميلاً من بغداد.

ثم بدأ مد الثورة في الانحسار؛ فبعد ثلاث سنوات من الإعداد، تم إرسال جيش عرمرم من بغداد تحت قيادة «الموفق» الرجل الثاني في الدولة العباسية وقتها، وتم سحق الزنج في معركة تلو الأخرى، إلى أن تراجعوا إلى المختارة عاصمة علي بن محمد الواقعة إلى الشمال من البصرة. ومن إحدى البلدات التي تخلى عنها المتمردون تم تحرير خمسة آلاف امرأة وإرسالهن إلى عائلاتهن.

ضُربت أعناق كل الأسرى الذين وقعوا في يد الجيش الحكومي، تماماً كما فعل المتمردون بأسراهم من قبل، وذات يوم تم استعراض رؤوس الأسرى الزنج في قوارب أمام القلعة المحاصرة. وعندما أكد علي بن محمد أن هذه الرؤوس ليست رؤوساً حقيقية وإنما من فعل السحر؛ أمر قائد الجيش بإلقائها بالمجانيق على القلعة ليلاً. وأعدم علي بن محمد قائداً زنجياً وصف في الروايات المعاصرة للأحداث على نحو غامض بأنه «نجل ملك الزنج» وذلك بعد أن راجت شائعات عن أنه كان يعتزم الفرار إلى معسكر العدو.

في نهاية المطاف، وعلى وجه التحديد في عام 883 ميلادي، تم قمع انتفاضة الرقيق الكبرى بصورة نهائية، وذلك على الرغم من أن الزنج الأكثر عناداً قد حاربوا حتى النهاية. وقد رفض علي بن محمد قبول عفو مطلق عنه ربما لشكه في أن الوعود التي وعد بها لن يتم الوفاء بها. وقد حملت رأسه على سارية علم إلى بغداد بيدي نجل الموفق(25)، الذي هزم الزنج هزيمة نكراء، وأصبحت الرأس محوراً تدور حوله الاحتفالات. وبعد عامين، عندما حاول الرقيق الانتفاض من جديد، أعدم خمسة من قادتهم كانوا مودعين في السجون تواً.

كان من نتائج الانتفاضة انطلاق موجة خوف من الزنج وحنق عليهم في صفوف أبناء بغداد، وخلال وقت هذا الاضطراب انتهز الخيالة العرب العاملون في صفوف الجيش الفرصة لتنفيذ مذبحة في صفوف السود من حملة الحراب والرماة التابعين للخليفة، وذلك بمساعدة المواطنين. غير أن كراهية الأفارقة لم تكن هي وحدها التي أدت إلى تراجع أعداد العبيد السود الذين ينقلون عبر المحيط الهندي؛ فقد كان تدهور بغداد ومدن العراق الأخرى يعني تراجع الحاجة إلى العمالة للاشتغال في مشروعات البناء الكبرى.

بعد عام ألف الميلادي فاق السعي بحثاً عن عاج أفريقيا وذهبها السعي وراء أبنائها. وقد لبى الأسرى الذين سقطوا في الحروب مع الحبش النصارى معظم احتياجات تجارة الرقيق، ومع ذلك فإن القارة كانت ما زالت تقف موقف الخاضع المذعن. وظل داخلها مغلقاً يتعامل مع العالم الخارجي من خلال الوسطاء المسلمين، وأقبل الأفارقة إلى الساحل للإقامة في المدن أو لعبور المحيط - على الرغم منهم عادة - ولم يعودوا إلى مواطنهم؛ ليحملوا إلى الداخل الأفكار التي كان يمكن أن تستثير عملية التغيير.

تشكل الهند أوضح مفارقة لهذا الوضع، حيث كانت المدن الساحلية تدين بالولاء لدول الداخل القوية التي كانت تشاركها الديانة والثقافة. وكانت الهند التي تمدها الأمطار الموسمية باحتياجاتها من ماء الري، تزرع ما يكفي من المحاصيل في أراضيها الخصبة لإطعام عدد كبير من السكان، وكذلك التوابل التي يجري تصديرها والقطن الذي يتم تحويله إلى قماش. وقد بيعت سلعها المصنعة على امتداد المحيط الهندي وما وراءه، تماماً كما أن الحكايات المستمدة من أدبها قد ترجمت واقتبست على امتداد العالم المعروف بأسره.

الفصل الثالث

لغز أبناء بلاد الواق واق

كما أن أقاصي بحر الصين متصلة ببلاد السيلي، كذلك أقاصي بحر الزنج هي بلاد سفالة، وأقاصيه بلاد الواق واق[1]، وهي أرض كثيرة الذهب، كثيرة العجائب، خصبة، حارة.

المسعودي (893 ـ 957) **«مروج الذهب»**

تعود الاتصالات عبر الامتداد الشرقي للمحيط الهندي، وهي قديمة قدم التجارة المعتمدة على الرياح الموسمية بين شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، إلى عهد هيمنة البوذية على معظم أرجاء آسيا. فمنذ ألفي عام كانت السفن تحمل البضائع من مملكة ساتافانا القوية في جنوبي الهند، إلى سومطرة وجاوه وبالي، وقد كانت تجارة ذات اتجاهين حيث تصدر الأدوات المصنوعة من البرونز من إندونيسيا إلى الهند. وكانت هذه الاتصالات معروفة للرومان على أحد جانبي العالم، وللصينيين على الجانب الآخر منه. وقد تحدث كانج تاي المؤرخ والدبلوماسي الذي ارتحل طويلاً، وكتب قبل ألف وسبعمئة عام عن سفن من مملكة في سومطرة أسماها مملكة جينج، كانت تبحر لمسافة ثمانية آلاف "لي" (أي نحو ألفين وخمسمئة ميل) إلى ميناء هندي مزدحم «أقبل الناس عليه من كل الأرجاء».

لقد نشر الكهنة الهنود الديانة البوذية وصولاً إلى جزر إندونيسيا، وكان التجار هم الذين جلبوا الهندوسية. وفي قرون لاحقة قدر للهندوسية أن تتقدم كثيراً إلى ما وراء المحيط الهندي، فامتدت شمالاً عبر بحر الصين إلى ما يعرف الآن باسم كمبوديا. والآثار الباقية الدالة على هذا التوسع تتمثل في المعابد والقصور المنيفة التي طغت عليها الأدغال، وأشهرها أنجكور وات.

لم تكن العلاقات بين الهند والتجمعات السكنية التي تتاجر معها عبر المحيط والواقعة إلى الجنوب الشرقي، علاقات ودية على الدوام؛ فقد نشطت الجيوش

الهندوسية في إندونيسيا خلال القرن العاشر، وفي وقت لاحق بعثت دولة سومطرية ميالة إلى الحرب، هي دولة «سري فيجايا» بأساطيلها شمالاً لمهاجمة سيلان. وتنتمي مثل هذه الأحداث إلى تاريخ المحيط الهندي المعقد المتداخل والممتد عبر عدة آلاف من السنين، وفي هذا السياق وحده؛ سياق البحر باعتباره كياناً ثقافياً وجغرافياً، تكتسب مسألة هجرة الواق واقيين[2] غرباً من إندونيسيا مصداقيتها. وعلى الرغم من ذلك فقد وصفها المؤرخ الفرنسي أوبير دي شامب بأنها «من أعظم ألغاز البشرية». وحتى الآن لم يتم تجميع أكثر من جزئيات من القصة من واقع علم الآثار واللغات والأنثروبولوجيا.

يظل السر في أن جَوَّابي البحر الإندونيسيين المعروفين باسم الواق واقيين، قد اكتسبوا من هذا الاسم العجيب شيئاً غامضاً، شأن الكثير من الأمور الأخرى المتعلقة بهم، وربما يكون هذا الاسم مجرد تقليد ساخر من قبل أعدائهم للصوت الذي يصدرونه لدى حديثهم. والأمر الأكثر احتمالاً هو أن مصدر هذا الاسم يتمثل في كلمة «واكا» وهو الاسم الذي يطلق في أجزاء من إندونيسيا على نوعية القوارب ذات الامتداد الخارجي، التي استخدمها الواق واقيون. والحقيقة الوحيدة التي لا مجال للجدل فيها هي أنهم قد ارتحلوا مسافة ثلاثة آلاف وخمسمئة ميل بعيداً عن موطنهم، ليكتشفوا مدغشقر قبالة ساحل أفريقيا ويستقروا فيها.

وتعد هجرتهم إلى إحدى أكبر جزر العالم التي تشبه القارة والتي لم يقطنها البشر حتى ذلك الوقت، فصلاً مدهشاً في حوليات الرحيل في المحيط. ويعد تاريخ وصول الموجة الأولى من مهاجري الواق واق إلى مدغشقر أمراً يدور حوله الجدل، ويتمثل أحد مفاتيح هذا اللغز في اللغة التي جلبوها معهم (والتي لاتزال تؤلف تسعة أعشار كلمات اللغة المالاجاشية، وتعد بمنزلة حلقة وصل تمتد عبر المحيط) وهي تشمل العديد من الكلمات المستعارة من اللغة السنسكريتية. وقد كان التأثير السنسكريتي في أقوى مراحله في إندونيسيا في حوالي عام 400 ميلادي[3].

وضع أبناء الواق واق قدمهم في أرض تطورت الحياة الحيوانية فيها بمعزل تام تقريباً عما عداها، على امتداد مئة وخمسين مليون عام؛ فلم تكن هناك فيلة أو زرافات أو أسود على نحو ما هي الحال في البر الأفريقي الذي يقع على بعد ثلاثمئة ميل غرباً،

ولكن الكائنات التي وجدت في أفريقيا قبل «انفصال» مدغشقر عن القارة قد عاشت من دون أن يطرق باب عزلتها أحد، بما في ذلك حيوانات الليمور النشطة ذات العيون المتسعة التي تنحدر من الأصل ذاته الذي ينحدر منه القردة والبشر. وهناك مئات من أنواع الحشرات التي لا توجد في أي مكان آخر في العالم. وفي البحر العميق القريب من مدغشقر تحيا السمكة المعروفة باسم السيلاكانث (Coelacanth) وهي إحدى المخلوقات التي ترجع إلى مرحلة سحيقة من مراحل تطور الكائنات، وتبدو سمكة غريبة ذات حراشف ضخمة وزعانف تشبه الأرجل.

ربما كان أبرز الكائنات في مدغشقر لدى وصول الواق واقيين هو الطائر المعروف باسم أيبيورنيس ماكسيموس (Aepyornis maximus) وهو من النوع الذي لا يطير، ويصل ارتفاعه إلى عشرة أقدام، ويضع بيضات يزيد طولها على القدم. وربما كان هذا الطائر هو مصدر الأسطورة الشائعة التي تدور حول نسر مخيف يدعى بأسماء عدة منها الرخ[4]، والبينج، والجرفين، يحيا في المحيط الهندي، ويعتقد أنه قادر على التقاط فيل وحمله إلى عنان السماء وإلقائه على الأرض، ثم التهامه. وقد تمسك الصينيون خاصة بهذه الصورة الخيالية، ووصفوا ذلك الطائر بأنه قادر على التحليق لمسافة تسعة عشر ألف "لي"، قبل أن يحتاج إلى تناول وجبة طعام. ومن المؤكد أنه أكثر من مجرد مصادفة أن الأيبيورنيس ماكسيموس قد انقرض، في حدود الوقت الذي وصل خلاله أول الواق واقيين إلى مدغشقر. وكان حرياً بهذه المخلوقات المرتبكة وغير العدوانية أن تغدو فريسة سهلة للبشر المسلحين بالأقواس والسهام، وقد نمت الحكايات التي نشرها الواق واقيون عن طائر يضع بيضة هائلة الحجم، لتتحول إلى شيء أكثر إيغالاً في الخيال في غمار إعادة رواية للقصة الأصلية بضع مرات.

من شبه المؤكد أن الأرض الأصلية التي سعى الواق واقيون إلى الوصول إليها هي البر الأفريقي وليس مدغشقر، وقد طردهم السكان المحليون بالفعل من هناك، ولكنهم تركوا تذكاراً على الساحل تمثل في بعض الكلمات الإندونيسية، والأساليب البحرية المعروفة في إندونيسيا؛ مثل الامتدادات الخارجية للزوارق المستخدمة في الحفاظ على توازنها. وأبحر القادمون الجدد النشطون مرة أخرى متجهين جنوباً لمسافة 1000 ميل

أخرى قبل أن تقع أنظارهم على مدغشقر. وفي هذه المرة لم يكن هناك من يتصدى لهم وكانت تلك نهاية رحلتهم الطويلة. وفي العديد من الأماكن وجدوا الساحل مناوئاً حيث يعج بالجبهات الرملية أو الحواجز المرجانية، وكانت أجزاء من الجزيرة جافة ومجدبة، ولكن كانت هناك تربة بركانية خصبة.

وربما كان معظم السفن الإندونيسية صغيراً وبسيطاً ولا يزيد عن كونه قوارب صغيرة، يحمل كل منها خمسة أوستة من الرجال والنساء مزوداً بأشرعة مربعة وامتدادات خارجية لمساعدتها على البقاء، من دون أن تنقلب خلال العواصف. غير أن هذه القوارب ربما كانت تعمل كعناصر مرافقة لسفن أكبر حجماً، يطلق عليها الصينيون اسم "كونلون بو" (Kunlun bo) وقد رحل أسلاف الماورى مهاجرين إلى نيوزيلندة في مثل هذه السفن. وتذهب رواية صينية تعود إلى القرن الثالث الميلادي إلى القول إن هذه السفن التي استخدمت كذلك لنقل البوذيين الراغبين في زيارة المعابد من سومطرة إلى الهند كانت من الضخامة بحيث تقل مئات الأشخاص وحمولات ثقيلة، ولها أربعة أشرعة تعد ببراعة فائقة بحيث إن السفن كان من الممكن أن تنطلق في مسارها «من دون تجنب الرياح القوية أو الأمواج المتلاطمة، وبالاستعانة بها يمكنها الانطلاق بسرعة كبيرة»[5].

مما لاشك فيه أن الأساطيل الإندونيسية كانت تسافر بسرعة كبيرة؛ فمن سومطرة التي كانت على الأرجح نقطة الانطلاق بالنسبة إليها، كان يمكنها أن تبلغ مدغشقر في ما يزيد قليلاً عن الشهر، في الفترة الممتدة من أيار/ مايو إلى تشرين الأول/ أكتوبر، عندما تهب الرياح الاستوائية التجارية نحو أفريقيا. وكان من شأن التيار الملباري القوي المتجه من الشرق إلى الغرب أن يساعد المسافرين؛ فيحملهم أولاً باتجاه جزر المالديف[6] الألف والمئة، أو على أكثر الطرق مباشرة إلى الجزر المرجانية الخمسين المتناثرة التي يطلق عليها الآن اسم أرخبيل شاجو، والواقعة في منتصف الطريق على وجه الدقة بين سومطرة ومدغشقر. وتمتد هاتان السلسلتان من الجزر معاً بما يتجاوز ألفا وخمسمئة ميل من الشمال إلى الجنوب.

كان المسافرون الإندونيسيون يطلبون الماء العذب لتجديد مخزونهم منه، بحفر خنادق ضحلة في الجزر وعلى الشواطئ التي تنمو بمحاذاتها أشجار النارجيل

والتاكاماكا وغيرها من النباتات الآسيوية - وهي نتاج بذور حملت على امتداد مسافات شاسعة على متن تيار المحيط - كان في وسعهم إصلاح هياكل سفنهم وأشرعتها. وعندما يعاودون الانطلاق من البحيرات وعبر الحواف المرجانية المحيطة بهذه الجزر المنعزلة كان الإبحار سهلاً؛ فالشمس البازغة كانت على الدوام وراء ظهورهم والشمس الغاربة أمام أعينهم.

كانت هناك أماكن أخرى للتوقف عندها والقيام بالصيد للحصول على الطعام في هذه الرحلة الجريئة، ذلك أن المحيط الهندي مرقش بالجزر المرجانية وبقاع الخضرة في بحر لا يعتري الذبول أرجاءه. ومعظم هذه الجزر لم يقطنه البشر قط ولكنه حافل بالحيوانات؛ فالسلاحف البحرية تزحف إلى البر لتتزاوج، والسلاحف البرية العملاقة تمضي شاردة وسط النباتات، وكان بالإمكان كذلك صيد الطيور ذات الألوان البهيجة لتناول لحومها، وهي لم تعتد بعد على التعرض للقنص.

تمتع الواق واقيون بمزايا فريدة مكنتهم من خوض غمار مغامرتهم عبر المحيط؛ فهم شعب جزر يركبون البحر منذ طفولتهم وحاجاتهم وهم على متن السفن محدودة، وقدر للعديد من جزر المحيط الهادي أن يتم تعميره من خلال رحلات مماثلة طويلة المدى إلى المجهول، وحملت السفن سلالاً من الأرز والفاكهة المجففة الملفوفة في أوراق أشجار الموز، وتم حمل الماء في القرب، واستخدمت الحراب والشصوص لصيد الأسماك، وحملت الدواجن لذبحها في الطريق، وكان الأرز ضرورياً لبلوغ هذه الرحلات مرامها لأنه لا يفسد. وإذا نفد الطعام فإن أوراق الأشجار العطرة كانت تمضغ لرد الجوع[7]. أما عدد المهاجرين الذين لقوا حتفهم على الطريق فهو أمر ليس بالإمكان تخمينه.

في وقت انطلاق الإندونيسيين الأوائل مبحرين عبر المحيط الهندي كانوا يفتقرون إلى لغة مكتوبة؛ ولذا فليس هناك سجل مكتوب عن السبب في قيامهم برحلاتهم الكبرى، أو متى على وجه الدقة تم القيام بها. ويبدو أنهم كانوا يتحدثون لغة اندثرت في إندونيسيا منذ زمن بعيد، تعرف بلغة جاوة القديمة، وتشبه لغة شعب الباتاك في شمال سومطرة[8]. ولاتزال بعض الطقوس الدينية في مدغشقر تحتفظ ببقايا ضئيلة من

الهندوسية، ومن هنا فإنه من المحتمل أنه كانت هناك هجرات لاحقة على امتداد قرون عديدة قامت بها جماعات فرت من الحروب بين الولايات الإندونيسية المتصارعة.

وربما هاجر الإندونيسيون الذين استقروا في وقت لاحق في مدغشقر، وبعضهم بعد عام 1000 ميلادي؛ لأنهم اكتشفوا أن شعباً ينتمي إلى أصول كأصولهم قد كتبت له النجاة واستقر في جزيرة اتخذها موطناً جديداً له، وعاش فيها في سلام. وربما جاءت مثل هذه المعلومات من الصين ذلك المستودع المعرفي الهائل. وترد إشارات إلى الجانب الغربي من المحيط الهندي في مواضع مختلفة من سجلات أسرة التانج الصينية المالكة (619 ـ 906). وفي العام 863 ميلادية، وصف الباحث دوان تشينجشي شعب الصومال، وقال عن أبناء هذا الشعب إنهم من الرعاة المتصارعين الذين يعيشون على غذاء من الدم والحليب، و«يسحبون الدم الطازج من عروق ماشيتهم، باستخدام إبرة مخصصة لذلك». وقد كان هذا وصفاً دقيقاً لعادات الجالا (أو الأورومو) الذين سكنوا أرض الداخل الصومالية في ذلك الوقت. ومضى دوان قائلاً إن النساء كن «ذوات بشرة صافية وحسنات السلوك» وأن شعب أفريقيا لم يكن يتردد في أن يأسر بعضه بعضاً، ويبيعه للأجانب بأسعار تزيد بعدة مرات على ما يباع به محلياً». وكان المؤرخ الإسباني المولد ابن سعيد، الذي عمل في القرن الثالث عشر الميلادي في خدمة الخان المغولي هولاكو خان، يعرف بأمر مدغشقر. وقد قيل له إن شعب الخمير الذي طرده الصينيون مما أصبح يعرف باسم كمبوديا، قد أفلح في شق طريقه إلى هذه الجزيرة.

غير أن ما عرفه الصينيون البعيدون لا يمكن إلا أن يكون جزءاً محدوداً من المعلومات المتوافرة في البلاد التي أبحر إليها الإندونيسيون على امتداد قرون، فلابد من أنه كان هناك في الهند وعي بوجود مدغشقر التي سماها العرب بالقمر. وقد تعامل التجار الهنود مباشرة مع البر الأفريقي، ويمكن العثور على الخرز الزجاجي الذي استخدموه في المقايضة في مواقع من قرى زمبابوي وسط أطلال تعود إلى عام 500 ميلادي. وبحلول ذلك الوقت كان هناك دفق من العاج يمضي إلى الهند التي كانت فيلتها أثمن من أن تقتل للحصول على أنيابها، حيث إنه كان من الممكن استئناسها واستخدامها في العمل أو في الحرب. وكان العاج الأفريقي مرغوباً فيه كذلك بصورة

أكبر؛ حيث كان أكبر حجماً وأكثر طواعية في حفره، وكانت القطعان كبيرة الأعداد بحيث أمكن بالفعل صيدها على شاطئ البحر.

كان الواق واقيون الذين استقروا في مدغشقر في موقع جيد يتيح لهم منافسة التجار العرب في الحصول على العاج من البر الأفريقي وعلى ذهبه أيضاً، وكان الوصول إلى العروق التي تحمل خام الذهب يتم عبر حفر خنادق وأنفاق غائرة، حيث يجري إشعال النيران أسفل الصخور، ويتم جعلها تتهاوى من أعلى بقذفها بالماء البارد. وكان الأطفال يقومون بحمل خام الذهب إلى السطح؛ لأنه كان في وسعهم أن ينسلوا بقدر أكبر من السهولة عبر الممرات الضيقة التي يجري العمل فيها، ثم تسحق الصخور وتغسل، لاستخلاص المعدن الثمين.

غير أن الأفارقة أنفسهم لم يكترثوا للذهب كثيراً، وكان التبر ذو الذرات الدقيقة يصب في أنابيب مصنوعة من أشواك الحيوانات القارضة المعروفة بالشيهم للحفاظ عليه، قبل نقله إلى الساحل. ومع تزايد الاتصالات بالعالم الخارجي، سيطر الحكام الأفارقة على مقاليد الأمور، وقاموا بتوزيع القماش والخرز على رعاياهم، كمكافآت على جلبهم للتبر وأنياب الفيلة التي تم تسويقها إلى التجار المنتظرين.

كان التجار الآخرون في شرق أفريقيا يكرهون الواق واقيين، فقد ضاق العرب ذرعاً بأساليب القرصنة التي كان هؤلاء يتبعونها، بينما كانوا يحترمون براعتهم الملاحية. وقد اشتهر هؤلاء المنافسون من «جزر زبج» بأن في صفوفهم «رجالاً يشبهون الترك» ربما كانوا مرتزقة من بلاد قريبة من الصين، أو من بلاد الخمير طردوا من كمبوديا.

وظهر أسطول ضخم من سفن الواق واقيين قبالة الساحل الأفريقي الشرقي في عام 945 ميلادي، وحاصر مدينة قنبلوه الواقعة على جزيرة بمبا. وقبل أن تتضح أهداف القادمين الجدد ذات الطابع العدواني كان أهل المدينة قد سألوهم عما يريدونه؛ فجاءت الإجابة صريحة؛ فهم يسعون وراء «العاج ودروع السلاحف وجلود الفهود والعنبر» وهي سلع تجارية، الحاجة إليها ماسة في موطنهم. وفي الصين، وفوق هذا فإنهم

أرادوا أسر أبناء الزنج «لأنهم أقوياء ويحتملون الرق في يسر» وأقر من فرضوا الحصار بأنهم كانوا يغيرون على المدن والقرى، على امتداد الساحل الأفريقي، وكانوا أقل توفيقاً عندما حاولوا إخضاع قنبلوه لقوة تحصينها، وفي نهاية المطاف ردوا على أعقابهم وأبحروا بعيداً.

لقد اشترك الإندونيسيون والعرب أساساً في تبني مواقف متشابهة تجاه البر الأفريقي؛ وهي مواقف تقوم على التربص. وقد عاد الواق واقيون إلى مدغشقر بالعبيد؛ ليعتنوا بالحيوانات المستأنسة ويعملوا في حقول أرزهم المتخذة على شكل مدرجات جبلية (والتي جعلت على نمط مشابه لذلك الموجود في مناطق تمتد شرقاً حتى الفلبين).

غير أنه بمرور الوقت برهن تأثير الواق واقيين على أنه تأثير حميد في العديد من الجوانب؛ فقد شملت المحاصيل التي نقلوها من آسيا الأرز والموز واليام* وقصب السكر وثمار شجرة الخبز والمانجو والعدس والتوابل[9]. وقد أثرت هذه النباتات الغذائية في حياة الأفارقة على امتداد القارة مع انتشارها إلى الداخل من جماعة إلى أخرى، ابتداء من الساحل حول دلتا نهر الزامبيزي التي واجهت بصورة مباشرة التجمعات السكانية المبكرة للواق واقيين على الجانب الغربي من مدغشقر. ومن الممكن إعادة تصور بعض الطرق التي توغلت هذه المحاصيل الجديدة عبرها في أفريقيا، ويشغل الممر المسمى «ممر الموز» مساحة كبيرة من الأرض، من قرب مصب نهر الزامبيزي وصولاً إلى خط الاستواء. وأصبحت ثمار الموز في نهاية المطاف الغذاء الأساسي في أوغندا، لدى شعوب لم تكن تعرف شيئاً عن المحيط الهندي أو أصول هذا النوع الجديد من الطعام.

كما يمكن رصد تأثير الواق واقيين في الآلات الموسيقية الأفريقية؛ مثل الأكزيلفون[10]، وكذلك يمكن رصد هذا التأثير في أساليب صيد السمك والزراعة. وينتمي الأسلوب المستخدم في مدغشقر لشق ثمار جوز الهند بمبرد، وكذلك إشعال النار بوساطة منفاخ ذي صمامين على نحو لا سبيل إلى الخطأ بشأنه إلى إندونيسيا.

---

* اليام: ضرب من البطاطا بعضه حلو. (المحرر)

على الرغم من أن الواق واقيين قد جلبوا إلى أفريقيا الكثير مما كان جديداً عليها، فإنهم أصبحوا لا مبالين بماضيهم. ومع توالي الأجيال اختلطت الحقيقة فيما يتعلق بأصولهم بالأساطير، وازدادوا ابتعاداً عن ثقافة إندونيسيا، ولم يتمسكوا إلا بلغتهم واهتمامهم بطقوس الوفاة والدفن؛ ومن هذه الطقوس استخراج الجثث من القبور بعد سبع سنوات، وحملها في موكب يجوب أرجاء الحي، إعلانا لـ «عودة الموتى». وبعد أن أصبح سكان الأقاليم الساحلية من مدغشقر من الأفارقة أساساً، انتقل الواق واقيون، موغلين إلى الداخل الجبلي في الجزيرة الفسيحة. وعلى طريقة المستوطنين في الأماكن الأخرى تخلّوا عن مهارة لم يعودوا بحاجة إليها؛ وهي القدرة على عبور المحيط. وعلى الرغم من أنهم لايزالون يدفنون حكامهم في زوارق فضية، فإنهم لم يستطيعوا العودة إلى موطنهم الأصلي إطلاقاً.

الفصل الرابع

الإسلام يحكم بلاد الزنج

ليس للزنج مراكب يسافرون بها، وإنما تدخل المراكب من عمان وغيرها إلى جزائر الرانج[1] فيبيعون بها متاعهم ويشترون متاع الزنج، وأهل جزائر الرانج يسافرون إلى الزنج في زوارق ومراكب صغار، فيجلبون منها أمتعتها، لأنهم يفهم بعضهم كلام بعض[2].

الإدريسي (1110 ـ 1165) ـ **«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»**

على العكس من الإندونيسيين الذين نسوا موطنهم الأصلي بعد هجرتهم إلى مدغشقر، فإن العرب والفرس الذين استقروا على الساحل الشرقي لأفريقيا قد تطلعوا على الدوام إلى الوراء نحو مدن الشرق الأوسط الكبرى. ونقول إنهم تطلعوا إلى الوراء بالمعنى الحرفي، فهم في مساجدهم يتخذون من البيت الحرام بمكة قبلتهم، حيث يسمعون عظات الأئمة الذين يرتلون القرآن ويثبّتون الإيمان في القلوب. وقد جلبت السفن التقليدية المبحرة جنوباً إلى أفريقيا باستخدام الرياح الموسمية الشتوية السلع التي أبقت على صلاتهم الثقافية بالإسلام.

لقد كانت أولى التجمعات السكانية التي يعود تاريخها إلى عام 750 ميلادية أو ما قبلها ذات طابع بدائي، حيث أقيمت على النمط الأفريقي وأحيطت بسياج للحماية يُتخذ من الأخشاب القوية المستدقة، وكانت هذه الأماكن أكثر نأياً من أن تستفيد من الحرفيين الذين يبنون المباني بالحجارة على الطريقة العربية. ويكشف عن مواقع المساجد الأولى من خلال آثار الأوتاد الخشبية في الأرض والتي تكشف عن خطأ غريب، فالمصلي في هذه المساجد لا يولّي وجهه مباشرة نحو مكة كما يفعل كل المسلمين، ويشير هذا إلى أن هؤلاء القادمين الجدد كانوا تجاراً بسطاء ليس في وسعهم «قراءة» صفحة سماء الليل على الوجه الصحيح، حيث إن طريقتهم الوحيدة لتحديد الاتجاه الدقيق كانت تعتمد على النجوم.

كانت الخطوة الأولى المنطقية بالنسبة إلى القادمين الجدد العرب هي الاستقرار في قرية أفريقية لصيادي السمك قائمة بالفعل قرب خليج يمكن دفع السفن بأمان إلى شاطئه، باستغلال المد العالي للتفريغ والتحميل. وفي مثل هذه الأماكن المجردة من الأسماء، والتي لا حاكم لها، كانت الحياة ضارية؛ فبالإضافة إلى التهديدات من داخل بعض المعاقل، كان هناك على الدوام الخطر المتمثل في هجمات مفاجئة من قبل المغيرين بحراً، من دون أن يكون هناك من يتم اللجوء إليه طلباً للمساعدة. وقد تمت إقامة تجمع سكاني في جزر القمر الواقعة بعيداً إلى الجنوب فوق صخرة خوفاً من الواق واقيين الذين قد يشنون غارة بحرية من مدغشقر القريبة.

لم يمل المستوطنون المتنافسون إلى الإقامة في الجزر لحماية أنفسهم من بطش بعضهم فحسب؛ فقد كان لديهم سبب وجيه يدفعهم للبقاء على مسافة آمنة من الأفارقة المقيمين على البر الأفريقي. واختارت جماعات مبكرة عديدة جزراً على مسافة تزيد على الإبحار يوماً كاملاً في المحيط؛ مثل زنجبار وبمبرا ومافية وكلها من الاتساع بحيث تفي باحتياجات سكانها في أوقات الحروب. ولم يكن في قدرة القوارب الأفريقية، المنحوتة من جذوع الأشجار والمستخدمة لصيد الأسماك داخل الصخور المرجانية بلوغ مثل هذه الجزر لاسترداد الأسرى، ولم تكن هناك مخاطرة باحتمال محاولة السود المستعبدين حديثاً، والمسخرين في الخدمة بالمنازل، الهرب سباحة عائدين إلى الشاطئ الأفريقي.

وبقي العرب آمنين في جزرهم، ولم تساورهم الرغبة قط في المغامرة بالتوغل إلى قلب أفريقيا، وإنما انتظروا قدوم منتجات الداخل إليهم فحسب. فمن ورائهم كان البر الأفريقي عملاقاً وكئيباً ومعادياً لم يكترث أحد بتحديه. وقد اعتنقت النساء المحليات اللواتي اتُخذن أزواجاً الإسلام، وكذلك الحال بالنسبة إلى العبيد العاملين في البساتين[3] ولكن لم تكن هناك محاولة لنشر الدين الإسلامي داخل أفريقيا، فظل أبناؤها كفاراً[4].

بعد عدة أجيال غدت التجمعات السكانية أكثر ازدهاراً وأمناً. وشيدت مساجد أكثر رحابة، وعلى الرغم من أنها كانت لاتزال مبنية من الخشب فإنها أصبحت الآن تبنى

بشكل يتحرى الاتجاه الصحيح للقبلة في مكة. وعندما أقبلت سفن التجار عبر الأفق من الخليج العربي والبحر الأحمر، كان في قدرة السكان مقايضتهم للحصول على العديد من السلع الكمالية، وبحلول القرن التاسع الميلادي كانوا يتناولون طعامهم في أطباق صينية ذات زخارف زهرية، إلى جانب أوعية فخارية شرقية وأخرى من البورسلان الأبيض غير الشفاف. وكان في وسع هذه المرافئ أن تستمد احتياجاتها عبر طرق تجارية، تمتد عبر مدن مثل سيراف إلى مواني الصين العظيمة في ظل حكم أسرة التانج.

امتلك هؤلاء المستوطنون كذلك أقداحاً من الخزف والزجاج من فارس، وقوارير تحتوي عطور الورود والعديد من عناصر تجميل الدور والبيوت ومصابيح من النحاس، وصنعت أمشاطهم من عظام دروع السلاحف، واحتفظوا بمواد التجميل في أوان صنعت من النحاس المطروق، وخزنوا ماءهم في جرار كبيرة استخدمت أصلاً لنقل الزيت من الخليج العربي.

لقد كان لدى المستوطنين ما يقدمونه مقابل هذه التذكارات للروعة والعراقة، وما يتجاوز الذهب والعاج والرقيق، فقد كانت هناك جلود الفهود التي توضع على السروج، وقرون وحيد القرن التي تتخذ منها الأدوية، والعنبر الرائع ذو اللون الأزرق الشاحب الذي بلغت قيمته حد معادلته لوزنه من الذهب مثقالاً بمثقال، والذي كانت الرياح والتيارات المائية تدفع به إلى الشواطئ الرملية. وقد استخدم العنبر في إعداد العطور، ولتعطير زيت المصابيح. وقد كتب شاعر ينتمي إلى القرن العاشر الميلادي يصف الطريقة التي بها «تتألق المصابيح المذهبة التي غذيت بالعنبر كأنها اللآلئ».

كان الصينيون بصفة خاصة يقدرون هذه المادة الغامضة، التي بغض النظر عن خواصها الأخرى، زعم البعض بأنها ذات مزايا جنسية، غير أنهم لم يعرفوا على وجه الدقة من أين تأتي، وأطلقوا عليها اسم «بصاق التنين» أما أهل الزنج فقد أسموها بكنز البحر، وفي حقيقة الأمر فإنها لم تكن إلا إفرازاً قوامه سوائل تجمدت، يصل حجمه في بعض الأحيان إلى حجم بيضة النعامة، يخرج من أمعاء حيتان العنبر التي كانت تعيش بأعداد وفيرة في ذلك الوقت في المحيط الهندي.

ومع ازدياد ثراء الرواد المسلمين بدؤوا في البناء باستخدام الحجر المرجاني والطوب المحمول من فارس كحصى لرصف الطرق. وازدهرت بساتين البرتقال والليمون وحدائق الخضر حول دورهم، وضمت حظائر الحيوانات الأغنام والماعز والإبل كذلك.

كان البحر ذاته مصدراً مناسباً للغذاء، على الرغم من أن بعض الأنواع قد أدى صيدها تدريجياً إلى انقراضها على امتداد ساحل أفريقيا. ومن الضحايا الأولى الأطوم وهو حيوان ثديي غير مؤذ يقتات بالنباتات البحرية، وغالباً ما كان يشاهد قابعاً على الصخور المرجانية، ويمكن أن يبدو من بعيد وكأنه إنسان على وجه التقريب، بحيث إنه أصبح مصدراً للعديد من الحكايات العربية عن عرائس البحر. وبحلول عام 1000 ميلادية اختفى الأطوم إلى الأبد من الجانب الغربي من المحيط الهندي.

ومن الكائنات البحرية التي عانت على أيدي القادمين الجدد السلاحف والسلاحف العملاقة التي استمدت قيمتها من درقاتها. ووفقاً للعرف الإسلامي فإن أكل السلاحف محرم، ولعل هذا لم يكن يسري على المسلمين فحسب، وإنما كذلك على الرقيق الكفار العاملين في خدمتهم. غير أن هنالك أدلة مستمدة من تجمعات النفايات القديمة، على أن السلاحف قد التهمها البعض بكثير من الاستمتاع في بعض التجمعات السكنية الأولى. وبعيداً إلى الجنوب في جزر القمر كان هناك استعداد مماثل لأكل حيوانات الليمور، التي يعتبر المسلمون الملتزمون لحمها محرماً، حيث إن هذه الحيوانات تقطن الأشجار وأجسامها شبيهة بأجسام القردة.

ربما يشير هذا إلى أن بعض المستوطنين الأوائل الذين استقروا على الساحل الشرقي لأفريقيا، هم من الهاربين أو المنبوذين من العالم العربي، وفي عزلتهم على الشاطئ الأفريقي النائي سيكونون بعيدين عن أيدي أعدائهم، وربما تجاهلوا بعض القواعد الدينية غير الملائمة لأوضاعهم الجديدة، غير أنه من المتعذر التأكد من ذلك؛ لأن الأساطير التي تدور حول هوية العرب الذين هاجروا إلى أرض الزنج غالباً ما تناقض إحداها الأخرى.

تتحدث رواية رائجة عن الخليفة عبدالملك أحد الخلفاء الأوائل أنه أصدر أوامر بخلع حكام عُمان المستقلين جميعاً؛ وقد كانت هذه المعاملة قاسية، ذلك أن عمان قد ارتضت

الإسلام ديناً في وقت مبكر، يعود إلى عام 630 ميلادي خلال حياة الرسول ﷺ. وهكذا فقد قام شقيقان هما سليمان وسعيد بتنظيم الدفاع عن عُمان ورداً هجوماً بحرياً وبرياً شنه أربعون ألف رجل. وفي نهاية المطاف تم إرسال خمسة آلاف من الخيالة، ولم يعد في وسع الأخوين مواصلة المقاومة؛ فقررا الهرب إلى أفريقيا، حاملين معهما عائلتيهما وأتباعهما. ويقال إن ذلك قد وقع في عام 700 ميلادي تقريباً.

ربما أدت أحداث أخرى وقعت في غمار امتداد الإسلام إلى تعزيز الهجرات إلى شرق أفريقيا؛ ومن أكثرها أهمية إطاحة حكم بني أمية عام 750 ميلادي، على يد الخليفة أبو العباس «السفاح». وكان قد هزم آخر خلفاء الدولة الأموية وأعدمه، ويقال إنه أعد مأدبة مصالحة لوجهاء النظام السابق. ووصل الضيوف وجلسوا لتناول الطعام، ثم ذبحوا عن بكرة أبيهم قبل أن يتمكن أحدهم من مد يده إليه. وألقيت سجادة جلدية على الجثث، جلس عليها المضيف وأنصاره لتناول وجبة شهية. وقد حرص أنصار دولة بني أمية - التي قامت ثانية في الأندلس - على نحو يمكن تفهمه، على الابتعاد عن أبي العباس، وربما بدا امتداد المحيط الهندي مسافة كافية بالنسبة إليهم.

لقد غامر بعض القادمين الجدد بالإبحار إلى مناطق لا يعرف عنها الكثير، فقد كانت مستوطنة شيبوين[5] تقع على بُعد بضعة أيام من السفر بحراً فيما وراء سفالة باتجاه رأس الرجاء الصالح، وقد تاجر تجارها في البر على امتداد وادي نهري لمبوبو وسابي. وقد تم العثور على مقبرة إسلامية في هذه المستوطنة وربما تكون المدينة قد أسست في العصور السابقة على الإسلام.

عندما وصلت جماعات لاحقة إلى بلاد الزنج سارع قادتها بتأكيد استقلالهم، ودعا كل منهم نفسه متفاخراً بالسلطان، وزعم بعضهم أن جده الأعلى حقيقة أو مجازاً هو تاجر ذائع الصيت يدعى أحمد بن عيسى الذي كان قد غادر البصرة إلى شبه الجزيرة العربية في عام 930 ميلادي. والأمر الأكثر أهمية من ذلك أن هؤلاء الحكام الجدد كانوا جميعاً من الأشراف، أي إنهم يقولون بانتمائهم إلى آل البيت، وأنهم من سلالة الرسول ﷺ. وشكل وصولهم إلى شرق أفريقيا في حوالي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي بداية مرحلة مختلفة على نحو جلي[6]. وتم بناء مدن جديدة تضم مساجد

وقصوراً، شيدت من الكتل المرجانية في الجزر المقابلة للساحل أو في النقاط الحصينة منه. وسرعان ما احتدم التنافس بين هذه المدن، أي منها يشيد مساجد وقصوراً أكبر، ويعتمد عمارة أروع.

ثم أصبح سك العملات على نطاق واسع رمز ثقة هؤلاء الحكام الجدد بأنفسهم. وعلى الرغم من أنه في قرون سابقة سكت بعض العملات النحاسية البسيطة في أرض الزنج، فإنها غدت تسك الآن من الفضة وقلة منها من الذهب، وقد حملت جميعها آية قرآنية على أحد الوجهين، واسم السلطان الذي أمر بسكها على الوجه الآخر. وقد استخدمت العملات النحاسية الصغيرة التي سكت من المعدن المصهور في الداخل الأفريقي في شراء السلع من الأسواق المحلية، وقصد بها أن تحل محل الأصداف الصفراء وهي الشكل التقليدي للعملة المجلوبة من جزر المالديف[7]. وكان الذهب بالمثل أفريقياً، ولكن الفضة قاموا باستيرادها وذلك في صورة عملات عادة ثم أعادوا صهرها من جديد. واستخدمت كذلك نقود أجنبية هي بشكل أساسي دنانير مصرية وعربية أخرى. وجلب التجار إلى الوطن معهم عملات هندية وصينية، ولكنها كانت مجرد تذكارات. وقد عثر في حفرة في موقع إحدى المدن الساحلية على تمثال هندوسي صغير يرجع إلى القرن الحادي عشر، يحتمل أن يكون أحد التجار قد استخدمه كوحدة للوزن[7].

في صفوف العائلات الحاكمة كانت هناك درجة رفيعة من التعليم، على الأقل بالنسبة إلى الذكور، وقد انعكس هذا في أسلوب الخط المنمق، المعروف بالخط الكوفي الذي حفر في كتل من المرجان في المساجد وفي شواهد القبور، ووصل إلى حد الكمال في سيراف، وكان الخط الكوفي المزهَّر يلقى الإعجاب في مناطق واسعة تمتد حتى الأندلس. وعكست الدور الحجرية ذات الأسقف المسطحة التي شيدتها العائلات الثرية تقديراً للترف الذي يتسم بالتنظيم لم تشهده بلاد الزنج من قبل، فقد كانت لهذه الدور حمامات ونوافذ زجاجية مصقولة وأنابيب للإمداد بالمياه وصرفها وجدران مكسوة بالجص. وارتفع بعضها ليضم ثلاث طبقات، وكانت لها أبواب أمامية محفورة ومحلاة بالنحاس، وكانت الأبهاء الممتدة وراءها تفضي إلى قاعات استقبال. وشكلت

التصاميم المنفذة في السجادات الفارسية، المبسوطة على الأرض، والمعلقة على الجدران رمزاً للمجتمع العربي؛ فالشكل المركزي يمثل السلطان وتحيط به حاشيته، ومثلت الأجزاء الخارجية من الأشكال المنفذة أبناء القرى والحرفيين والرقيق.

وعلى الرغم من أن الحكام الجدد وفقهاءهم وحاشيتهم ممن يتقنون العربية، فإنه لم يقدر البقاء لأي رواية معاصرة حول الكيفية التي نشأت بها هذه العائلات المالكة وكرست ملكها. ويسرد سجل تأريخي فقد بعض أجزائه، كتب عقب ذلك بأربعة قرون على الأقل تاريخ "كلوة"، وهي دولة مدينة تقوم على جزيرة أسسها فارسي يدعى علي بن الحسن، ويعني الاسم كلوة «مكان صيد الأسماك». وجاء في هذا السجل الحولي أن الجزيرة تم شراؤها من زعيم أفريقي بقدر من القماش يكفي لنشره حول الجزيرة (وهي مسافة تصل إلى حوالي خمسة عشر ميلاً) وربما كان الزعيم قد أعطي عدة بالات من القماش فقط.

وقدر لكلوة أن تنمو لتصبح أكثر مدن الساحل بأسره ثراء، وأن تتمكن من السيطرة على جزء قريب من البر الأفريقي يعرف باسم مولي حيث يزرع الأرز وغيره من المحاصيل، وكانت لها مزية تتمثل في أنها تبعد جنوباً عن زنجبار عدة أيام، وهكذا فقد كانت في موقع استراتيجي يتيح لها فرض المكوس على السفن المسافرة من ميناء سفالة الشهير بذهبه والقادمة إليه. وعلى الرغم من أن كلوة كانت نائية، فإن الربان المحنك الذي يعرف متى ينطلق في رحلته على وجه الدقة، كان يستطيع الإبحار إليهامن الهند أو من شبه الجزيرة العربية في موسم واحد من مواسم هبوب الريح الموسمية. وقد شكلت المحطة النهائية في تجارة منطقة المحيط الهندي مع أفريقيا.

اهتمت قلة من زوار الساحل اهتماماً لماحاً بالبر الأفريقي؛ وكان من هذه القلة أبوالحسن علي المسعودي، وهو كاتب عربي أبحر لأول مرة إلى بلاد الزنج من سيراف عام 916 ميلادي عندما كان في أوائل العشرينيات من عمره، وقد كان من ذلك النوع من الرحالة الذي يطرح الأسئلة على الدوام والذي لم يفتر حماسه قط، وكانت بغداد مسقط رأسه وقام برحلات إلى الهند وفارس وأرمينيا وبحر قزوين وسوريا ومصر. وخلال وجوده في شرقي أفريقيا، مكث بصورة أساسية في قنبلوه التي وصف سكانها

بأنهم «مسلمون بين الكفار والزنج»[8] يتحدثون «اللغة الزنجية». وقد كانت لغة رائعة، وغالباً ما كان وعاظ من الزنج يجمعون حشداً من الأفراد ويدعونهم إلى «القرب من بارئهم، ويحثونهم على طاعته»[9]. ثم يقال للجمهور إن عليهم أن يتذكروا أسلافهم وملوكهم القدامى. ويمضي المسعودي في روايته قائلاً: «وليست لهم شريعة يرجعون إليها، بل رسوم لملوكهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم» وهذا هو أقدم الأوصاف للسكان السواحيليين المحليين في شرق أفريقيا، وهو يوضح أن بعضهم على الأقل كان لايزال يتشبث بالديانات الأفريقية[10]. ومن الجلي أن المدن كانت لكل منها نخبتها الحاكمة وسكانها السود الذين اندمج فيهم المستوطنون العرب بدرجة أو بأخرى.

ويقول المسعودي إن قرى الزنج قد امتدت لمسافة سبعمئة فرسخ (أي ألفين وخمسمئة ميل) بطول الساحل، وهو تقدير دقيق للمسافة الممتدة من مدخل البحر الأحمر إلى البر الأفريقي المواجه لجنوبي مدغشقر. وعلى الرغم من أنه قد زار شرق أفريقيا مرتين، فإنه لا يوضح ما إذا كان قد ارتحل جنوباً حتى بلغ سفالة، ولكن من المؤكد أن ملكاً على الأفارقة قد حكم في ذلك الإقليم النائي، وكان في عداد أتباعه زعماء للقبائل أقل مكانة منه. ويضاهي هذا ما هو معروف من خلال علم الآثار، ومن أن دولاً أفريقية وليدة كانت تتشكل في ذلك الوقت في أراضي الداخل في موزمبيق وزيمبابوي. ولما كان التجار يسافرون بانتظام جيئة وذهاباً على امتداد الساحل، فإنه من اليسير حتى في قنبلوه أن يعرفوا بأمر الممالك القائمة على تربية المواشي المنتمية إلى الجنوب البعيد.

لقد كتب المسعودي يقول إن الجياد والإبل كانت مجهولة هناك، ولكن الأفراد كانوا يمتلكون أعداداً كبيرة من الماشية التي استخدمت لحمل الأثقال. ويقول المسعودي أيضاً إن الملك كان لديه «ثلاثمئة ألف فارس» وهذا كلام غريب، إذا ما وضع جنباً إلى جنب مع تأكيده أن الجياد لم تكن معروفة هناك، لكن هذه المفارقة تتبدد عندما نتذكر أن محاربي الجنوب الأفريقي كانوا حراس قطعان الماشية الهائلة، وكانوا يركبون الثيران.

يقول المسعودي في تلخيص لمجمل المعارف حول أفريقيا: إن ملك الزنج يقال له «وافليمي». وتلك هي صياغته لكلمة "وافولمي"، وهي جمع اسم أفريقي يطلق على

أي زعيم بارز. وقد انحدر الملك من «رب كبير» يسمى ملكنجلو (موكولونكولو). ويؤكد المسعودي أن بعض الأفارقة كانوا من أكلة لحوم البشر الذين يسنّون أسنانهم لجعلها مدببة. وداخل القارة «في الطول والعرض نحو سبعمئة فرسخ أودية وجبال وصحراء صخرية».

والحيوان الأكثر شيوعاً على البر الأفريقي هو الزرافة، ولكن الحيوان الأكثر تعرضاً للصيد هو الفيل. ويقول المسعودي إن من طرق الإمساك بالفيلة وضع طعم لها، مؤلف من أوراق شجر تحتوي على سم، من شأنه إصابة الفيلة التي تأكل هذه الأوراق بالشلل تماماً، وهو يلاحظ على نحو يجمع بين الواقعية والسخرية أن معظم أنيابها تباع في الهند التي زارها وفي الصين، وذلك هو السر في ندرة العاج في شبه الجزيرة العربية. وكان الزنج كذلك صيادين بارعين على متن السفن في المحيط، وهو يروي بصورة نابضة بالحياة كيف أنهم طاردوا الحيتان وصادوها بالحربون (وهو عبارة عن رمح لصيد الحيتان).

لكن السفر إلى أفريقيا كان حافلاً بالأخطار. ويقول المسعودي في هذا الشأن: «وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج». وهو يورد قائمة بالقباطنة الذين سافر معهم وقد غرقوا جميعاً، دافعين الثمن الباهظ للمغامرة بالسفر إلى أفريقيا(11). فقد كانت كل رحلة موفقة في سفينة المحيط الهندي ذات الأشرعة التي هلهلتها الريح هبة من الله.

كانت قنبلوه مدينة مزدهرة سكّت عملتها الخاصة، على الرغم من أن الدينار العربي الذهبي شكل العملة الرئيسة المستخدمة في موانئ المحيط الهندي. ويحدثنا المسعودي عن الإبحار إلى هناك مع مجموعة من أصحاب السفن العمانيين من صحار. وقد أبحر التجار كذلك إلى قنبلوه من سيراف، موطن القبطان الراوية بزرك بن شهريار. وكان المسعودي قد اطلع على كتاب بزرك، فهما ابنا عصر واحد وأمضيا صدر عمريهما في البصرة أو أريافها.

غير أن المسعودي قدر له أن يمضي سنوات عمره اللاحقة في القاهرة، وهي مدينة متسامحة ربما أحس بأنه أكثر تمتعاً بالأمان فيها، حيث إن توجهاته العقيدية لم تكن مندرجة في التيار الفكري التقليدي. ولم يبق ماثلاً لنا إلا عمل واحد من بين ثلاثين سفراً أنجزها في الجغرافيا والطب والتاريخ الطبيعي. وموسوعته العالمية **«مروج الذهب»** موجودة في صورة غير منقحة، وتبدو معرفته في بعض الأحايين بعيدة عن الدقة، فهو عندما يصف المحيط الأطلسي يقول إن «بريطانيا» تقع في نواحي نهايته الشمالية، وتتألف من اثنتي عشرة جزيرة. وهو من ناحية أخرى أول كاتب مسلم عرف باريس، التي يسميها «باريصا» باعتبارها عاصمة «الفرنجة» وجمع قائمة دقيقة بأسماء الملوك الفرنسيين (في ذلك الوقت في منتصف القرن العاشر الميلادي لم يكن في قدرة أحد في أوربا الغربية أن يكون على مثل هذه المعرفة الدقيقة، ولو من بعيد، بشبه الجزيرة العربية أو بالهند. فعندما بدأ البحاثة المسيحيون المنتمون إلى القرون الوسطى في وصف العالم، كانوا يتشبثون بالاعتقاد بأن القارات الثلاث تشكل ثالوثاً تتوسطه القدس، ولم يعرفوا شيئاً عن الصين، ولكنهم قالوا إن الشرق يقع حيث تتدفق أربعة أنهار عظيمة في جنة أرضية).

بينما يعد المسعودي شاهد العيان الوحيد على الحياة كما عاشتها بلاد الزنج في القرن العاشر، فإن العديد من معاصريه قد جمعوا ما استطاعوا إليه سبيلا من الحقائق حولها[12]. وكانت المعلومات المتاحة للجغرافي الشهير ابن حوقل محدودة. وقد عرف أن الأفارقة: «بلدهم قليل العمارة، قشف، تافه الزرع»[13] وعرف كذلك أنه في زنجبار يقيم رجال بيض «يجلبون أصناف المآكل والملابس» (ولا شك في أن تلك إشارة إلى تجار من عرب الخليج). ولم يكن في قدرة كتاب الجغرافيا الفارسي المسمى **«حدود العالم»** المجهول المؤلف، الذي كتب في حوالي نهاية القرن العاشر الميلادي إلا الإشارة إلى أن «بلاد زنجستان» تقع قبالة الهند وتحفل بمناجم الذهب. واعتمد المؤلف المجهول في الباقي على الأقوال المتواترة والظن؛ فهو يقول عن أهل الزنج إنهم «ممتلئو الوجوه، ذوو عظام كبيرة وشعر مُجعد، ذوو بشرة شديدة السواد». ويقول: إن أهل الحبشة كسالى لكنهم مطيعون لملكهم.

في وقت تدوين هذه الروايات كان تجار جنوب شبه الجزيرة العربية يقيمون كذلك تجمعات سكنية على الساحل الجنوبي الغربي للهند، الذي كانوا يسمونه بالمالبار أو أرض الجبال، حيث إن التلال ترتفع شامخة وراء السهول الساحلية، وكانوا يشرعون كذلك في السيطرة على صادرات القرفة من سيلان. وقد وجدت أوجه تشابه عديدة بين التجمعات الإسلامية في شرق أفريقيا والمالبار، بما في ذلك إبداع لغة فريدة ذات أساس محلي تكتب بالحروف العربية. وقد تاجر الجانبان كلاهما على نطاق واسع على امتداد أقاليم المحيط الهندي ذات الكثافة السكانية، وانطلقت سفنهما بانتظام إلى الصين.

يعد البيروني أكثر الجغرافيين المسلمين إثارة للاهتمام والفضول؛ وهو علامة فارسي ولد عام 973 ميلادي قرب بحر الآرال. وقد اشتهر بلقب «العَلامة». وكان ضليعاً كذلك في الرياضيات والفلك. ومن إنجازاته قياس محيط الأرض بدقة تفوق ما تم الوصول إليه من قبل، وقد بلغ هامش الخطأ في تقديره سبعين ميلاً فقط مقارنة بالتقدير العلمي الحديث. وتم حمله إلى أفغانستان أسيراً حيث أمضى معظم حياته هناك وفي البنجاب، وألف كتابه **«تاريخ الأمم القديمة»** وجاب أرجاء الهند، التي كتب عنها مؤلفه في التاريخ بعنوان **«تحقيق الهند»**. وشأنه شأن غيره من الكتاب لم يكن لديه الكثير مما يمكن أن يقوله في معرض الإشادة بالأفارقة: «وإن كان الزنج ببلادتهم لا يعرفون موتاً طبيعياً، وإنما ينسبونه إلى السم فقط، ويتبعونه بالتهم إن لم يكن الميت مقتولاً بسلاح».

إذا انتقلنا إلى الجغرافيا فإننا نجد البيروني من الجرأة بحيث ينتقد بطليموس (الذي كانت أعماله متاحة أمامه في ترجمة إلى العربية) وهو يطرح تقديره الخاص لشكل أفريقيا وامتدادها. وإذ ينظر إلى القارة من منظور شمالي، فإنه يؤكد أنها تنتهي «إلى ساحل البحر المتصل بالمحيط» متجاوزة خط الاستواء و«براري سودان المغرب»، وتوغل أبعد كثيراً من جبال القمر ومنابع النيل - «إلى مواضع لم نتحقق من معرفتها حق المعرفة» حيث يحل الشتاء بينما الصيف يسود نصف الكرة الشمالي. والبحر فيما وراء «سفالة الزنج» يستحيل الإبحار فيه، ولم يقدر لأي سفينة خاطرت بالإبحار إلى هناك أن تعود لتروي ما رأته. وفي موضع آخر يبدو أنه يناقض نفسه: «أما من جهة

الجنوب فإن العمارة تنتهي إلى ساحل البحر المتصل بالمحيط في الجانبين، وهو مُمتد والعمارة غير منقطعة عنده».

لقد شغل البيروني بلغز محير؛ وهو أين موضع انتهاء أفريقيا؟ فهو لم يقتنع بما اعتقده بطليموس من أنها تميل شرقاً، وتلتحق بها شظية طويلة من الأرض بطول النهايات الجنوبية للمحيط الهندي تمتد إلى الصين. وقد اعتقد بدلاً من ذلك أن هناك طريقاً بحرياً يدور حول أفريقيا، ويربط المحيطين الأطلسي والهندي «وللرجل أدلة تقوم على هذا التواصل، وإن لم يستطع البرهنة عليها عياناً». ولسوف يتبين بعد خمسة قرون تقريباً أنه كان على حق في ذلك.

الفصل الخامس

في طريق الحرير إلى الخطا

دعوني أحدثكم بعد ذلك عن المظهر الشخصي لملك الملوك العظيم كوبلاي خان، فهو رجل حسن القوام، ليس بالطويل ولا بالقصير وإنما هو معتدل الطول، وأطرافه حسنة التكوين تتصف بالتناسق، وبشرته صافية ومتوردة كوردة، والعينان دعجاوان، والأنف جميل التكوين ومستقر في موضعه على نحو مميز.

ماركو بولو - «**وصف العالم**» (1298)

بينما تمتع العرب وكل المسلمين الآخرين بحريّة شد الرحال من غربي المتوسط إلى بحر الصين، فإن المسيحيين الغربيين وجدوا آفاقهم أكثر ضيقاً من ذي قبل، مع انطلاق الألفية الثانية من عمر ديانتهم، ووراء أسوار العداء التي نجمت عن الحروب الصليبية، ظل الجهل الأوربي بجغرافية العالم سائداً على وجه التقريب.

فضلاً عن ذلك فإن المفاهيم التي تدور حول شكل البلاد أو مساحتها حتى تلك القريبة منهم كانت غامضة ومضطربة. ولم يحمل إعداد الخرائط كبير اهتمام بمقياس الرسم، فقد كانت الرحلات تقاس بالوقت الذي يستغرقه قطعها، وليس بالمسافة التي يتم قطعها، وكان الموضوع بأسره يتعرض للتشويش من خلال تلك النظريات اللاهوتية التي تدور حول أن العالم له شكل مسطح كالطبق، وتوجد القدس في مركزه.

أما فيما يتعلق بسكان الأراضي النائية فقد كان كل خيال محلق قابلاً للتصديق، وكانت شهية أوربا للعجيب والغريب، يُغذيها العديد من كتابات القرون الوسطى التي تحمل مقتطفات من أعمال كايوس يوليوس سولينوس، الذي كان قد انتحل في أواخر العهود الرومانية العديد من مقاطع كتاب «**التاريخ الطبيعي**» لبليني، وجمع العديد من الأساطير القديمة حول الهولات: التهاويل البشرية والحيوانية، ثم أضاف إليها من إبداع خياله. وكان من أنصار الغريب والخيالي أوزوريوس، وهو راهب ينتمي إلى القرن

الخامس الميلادي عاش في إسبانيا، وكان هدفه الرئيسي في **«الموسوعة العالمية»** التي ألفها هو الحط من قدر غير المسيحيين، ومن خلال مثل هذه الأعمال ظهر جانب كبير من آسيا وأفريقيا بأسرها مسكوناً بقردة شبيهة بالبشر، تقطن تحت الأرض و«تجمجم في حديثها كالوطاويط» بلسان مجهول. وكانت هناك كذلك مخلوقات نصف بشرية تبدو كالضباع، ورجال بأربع عيون، وآخرون بنصف رأس فقط وذراع واحدة ورجل واحدة، يتقافزون عليها إلى ارتفاعات مذهلة.

مضت كل هذه التصورات غير الواقعية، من دون أن يتصدى لها أحد في أوربا، لأنه لم تكن هناك بالفعل روايات لشهود عيان، فيما يتعلق بالعالم الواقع وراء مصر وفلسطين. وعلى الرغم من أن العديد من الأعمال العربية؛ مثل المراجع الطبية، كانت قد ترجمت إلى العبرية أو اللاتينية، فإن الجغرافيين العرب فيما يبدو تم تجاهلهم إلى حد كبير. وكان الوحيدون من غير المسلمين الذين يستطيعون السفر من دون عرقلة تذكر عبر الحدود بين الديانتين السائدتين هم تجار يهود معيَّنون، امتدت شبكاتهم التجارية إلى الشرق من الإسكندرية ومدن المشرق المتوسطي، غير أنهم كانوا كتومين بصورة شديدة حول المواضع التي يمضون إليها وما رأوه فيها.

تمثل استثناء نادر من هذه القاعدة في حاخام يدعى بنيامين التودلي[1]، وكان في القرن الثاني عشر قد أمضى اثني عشر عاماً في الترحال من شمال إسبانيا إلى بغداد والبصرة ومدن فارس ومناطق من الهند. ويكتب بنيامين عن المسيحيين بمرارة، ولكنه يعرب عن مشاعر حارة على نحو ملموس تجاه المسلمين. فهو يصف الخليفة في بغداد بأنه «رجل ممتاز، جدير بالثقة، وطيب القلب حيال الجميع» وهو كذلك «ودود للغاية مع اليهود». وقد تمثل الهدف الأساسي الذي سعى إليه هذا الحاخام في تسجيل الجماعات اليهودية في أكبر عدد يمكن الوصول إليه من بلدان آسيا (كانت النتيجة مرضية بالنسبة إليه؛ لأنه وجدها متعددة ومزدهرة في كل مكان).

وهو يعطي انطباعاً متوهجاً بالحيوية عن الحياة في فارس، ثم يمضي ليوضح بالتفصيل كيف أن التجار الذين كانوا يصلون إلى ميناء قيلون (قايل) العظيم الواقع في

جنوب الهند قد أمنهم الحاكم وكفل لهم طيب الإقامة، ويصف فيما كتبه كذلك زراعة الفلفل وغيره من التوابل وإعدادها في الريف المحيط بهذا الميناء. وعلى الرغم من أن هذا الحاخام لم يبلغ سيلان التي أسماها كاندي (وهو اسم إحدى الممالك القائمة على تلك الجزيرة)، فإنه توصل إلى أنها تضم ثلاثة وعشرين ألف مستوطن يهودي. وأضاف: «يستغرق العبور إلى الصين من هناك أربعين يوماً». وهذا أقدم استخدام لهذا الاسم من قبل كاتب أوربي من كتاب القرون الوسطى، للإشارة إلى أعظم قوة في الشرق. وقد كتب بنيامين نصاً يتسم بالصراحة والوضوح ولا مكان فيه للمبالغات، إذا ضربنا صفحاً عن الرخ الذي يرد ذكره كثيراً وزعم أنه ينقض على البحارة الذين غرقت سفنهم في الطريق إلى الصين، ثم يحلق بهم عالياً وهم بين مخالبه لالتهامهم على مهل، وكان بعضهم على قدر كاف من الحذق، بحيث إنه بعد أن رسا به الطائر على البر بادر إلى طعنه حتى الموت.

في طريق عودته إلى وطنه استقل بنيامين سفناً حملته عبر المحيط الهندي إلى اليمن، وهناك قام بتجميع معلومات قائمة على سماع الأقوال المتداولة حول منبع النيل الذي «يجري متدفقاً من بلاد السود». ويرجع ارتفاع منسوب النهر كل عام إلى الفيضانات المتدفقة من الحبشة، المعروفة كذلك باسم أثيوبيا:

«هذه البلاد يحكمها ملك يسمونه سلطان الحبش، وبعض السكان يشبهون الوحوش من كل الوجوه، وهم يقتاتون بالنباتات التي تنمو على ضفتي النيل ويمضون عراة في الحقول، وليست لديهم مفاهيم شأن البشر الآخرين. والبلاد حارة للغاية، وعندما يغزو أهل أسوان بلادهم يحملون الحنطة والزبيب والتين ويلقونها كالطعم؛ وبذلك يجتذبون أبناء البلاد الأصليين ويأسرونهم ويبيعونهم في مصر والبلاد المجاورة، حيث يعرفون بالعبيد السود نسل حام»[2].

تحدث الحاخام بنيامين عن أثيوبيا باصطلاحات عصره، باعتبارها تنتمي إلى "الهند الوسطى" التي تمتد حتى الضفة الشرقية للنيل، بينما تبدأ أفريقيا من الضفة الغربية فقط. وكان شكل الهند ومساحتها وهي ممتدة من كتلة آسيا الكبرى ما يزال لغزاً، ولكن

الاصطلاح ذاته كان يطلق بصورة متحررة على الأراضي المطلة على المحيط، الذي استمد اسمه من هذا الاصطلاح. أما مصطلح "الهند الكبرى" فيطلق على جنوب شبه القارة والأراضي الأكثر إيغالا باتجاه الشرق. وتقع "الهند الصغرى" إلى الشمال. وشملت "الهند الوسطى" الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية وكذلك أثيوبيا، وهو اسم ذو أصول إغريقية. وشملت "الهند المثلثة" شرق أفريقيا، إلى آخر ما كان معروفاً منه، وفي بعض الأحيان أثيوبيا كذلك، التي كان من المتصور أنها تمثل نصف الكرة الجنوبي.

وفي القرن الذي أعقب رحلات الحاخام بنيامين بدأ تجار في أوربا التفكير في سبل للوصول إلى طريق لا تعترضه العراقيل يفضي إلى ثروة الشرق. وبعد الهزائم التي أوقعتها جيوش صلاح الدين الأيوبي القائد العظيم بالصليبيين حيل بين التجار المسيحيين والوصول إلى البحر الأحمر. وصار من الممكن شراء السلع الواردة من الهند والصين من التجار العرب في الإسكندرية وغيرها من مواني شرق البحر المتوسط. لكن أسعارها كانت غالية ولا تنقد إلا ذهباً. وفضلاً عن ذلك، فإن هذا النشاط التجاري هيمن عليه البنادقة الذين شعرت جمهوريتهم المطلة على البحر الأدرياتيكي بأنها على قدر كاف من القوة، بحيث تتحدى تحريم البابا للتجارة مع المسلمين.

وهكذا فإنه في ربيع عام 1291 غادر أسطول صغير من السفن جنوة المنافس الرئيسي للبندقية واتجه غرباً عبر البحر المتوسط، وتولى قيادته الأخوان أوجوليني وفادينو فيفالدي، وهما رجلان أعدا مشروعا جريئاً، حيث اعتزما الإبحار عبر مضيق جبل طارق، والمضي جنوباً مع ساحل أفريقيا ومواصلة المسير إلى أن يصلا في نهاية المطاف إلى الهند وفارس. وإذا أخذنا في الاعتبار المعرفة الجغرافية المحدودة المتوافرة في أوربا في عصرهما، فإن هذه الخطة ما كان يمكن أن تستند إلا إلى الحدس والشجاعة التي لا تأخذ شيئاً في الاعتبار. وعلى الرغم من ذلك فقد كان الهدف عملياً بما فيه الكفاية، فلو أنهما استطاعا شق مثل هذا الطريق؛ لأمكنهما كسر احتكار البنادقة للتجارة مع الشرق.

كان عدد محدود من أبناء جنوة يقطن فارس بالفعل، وقد غزاها قبل سبعين عاماً المغول بقيادة جنكيز خان. وعلى الرغم من أن أبناء جنوة هؤلاء كانوا على علاقة ودية بملك يدعى أرجون الذي حكم الإمبراطورية الغربية الفسيحة للمغول، فإنه لم يكن هناك بعد طريق يخلو من العقبات، يمكن أن يستخدم في إرسال السلع والبضائع إلى جنوة.

أبحر الأخوان فيفالدي عبر مضيق جبل طارق وشوهدا وهما يتجهان جنوباً على امتداد الساحل المغربي. وبعد ذلك لم يعد أحد يسمع بهما؛ فسفنهما الصغيرة التي تنطلق بالمجاديف والأشرعة المعدة لمناخ البحر المتوسط لم تكن نداً لتيارات المحيط الأطلسي وعواصفه. وما كان في استطاعة بحارة جنوة الذين لاقوا حتفهم أن يخمنوا امتداد أفريقيا الهائل ولا المخاطر التي تنبغي مواجهتها في غمار محاولة الدوران حولها.

لقد سبق الأخوان فيفالدي عصرهما بقرنين من الزمان، وبعد سنوات طويلة من اختفائهما سعت عائلتهما بلا طائل إلى تسقُّط أي أخبار عنهما، وقد ترددت شائعات ولكن لا برهان على صحتها حول أنهما أفلحا في الدوران حول أفريقيا لتتحطم سفنهما عند مدخل البحر الأحمر.

لعل اختفاء الأخوين فيفالدي الذي كثرت المناقشات حوله أثار أكثر من الاهتمام العابر لتاجر ثري من البندقية اقتيد أسيراً إلى جنوة، بعد سنوات قلائل في عام 1296 ميلادي، وسجن في قلعة تطل على المرفأ. وكان اسمه ماركو بولو، وقد سقط أسيراً خلال معركة في البحر الأدرياتيكي، بُعيَد عودته إلى أوربا من إقامة في الشرق امتدت عقدين من الزمان.

درج أهل البندقية على التعالي على أعدائهم من أبناء جنوة؛ ولذا فمن شبه المؤكد أن ماركو كان سيرفض فكرة الأخوين فيفالدي عن الوصول إلى فارس أو الهند بحراً، باعتبارها فكرة عبثية. فهو يعرف الطريق المباشر من أوربا إلى هذين المكانين كأفضل ما تكون المعرفة، ويمتد هذا الطريق براً من ميناء طرابزون المطل على البحر الأسود. وقد

أبحر مرتين عبر القسم الشرقي من المحيط الهندي (وإذا ضربنا صفحاً عن تاريخ رحلات أفراد لم تصلنا أسماؤهم ولم يبرز لهم شأن، فربما كان ماركو بولو الأوربي الأول الذي قام بذلك منذ قرون عديدة) ولكنه ما كان ليجرؤ على المخاطرة بالإبحار إلى منطقة أفريقيا الحافلة بالعواصف والأعاصير.

وكما يؤكد ماركو بولو في مذكراته - ببعض المبالغة - فإن السفن لم يكن في وسعها الإبحار إلى أقصى الجنوب «فيما وراء مدغشقر وزنجبار» لأن «التيارات تنطلق بقوة بالغة نحو الجنوب، بحيث إنها لا تتاح أمامها فرصة كبيرة للعودة». وكان ماركو قد سمع حكايات مثبطة عن مخاطر البحار الجنوبية للمحيط الهندي، بل إنه لم يعرف إلا قدراً أقل من ذلك عن المياه المحيطة بأفريقيا على جانبها الأطلسي. وقد دفع الأخوان فيفالدي حياتهما ثمناً لمواجهة هذه الأسرار.

ولا يمكن حصر الأقاصيص التي سردها ماركو عن الأراضي النائية، ومن حسن الطالع أنه قدر له أن يشارك في العامين اللذين أمضاهما في السجن في جنوة، رفيقاً له حرص أشد الحرص على الاستماع لهذه الطرائف. وكان هذا الرجل الذي شاء له القدر أن يكون كاتب ماركو ومساعده الأدبي هو «روستشيللو البيزوي» الذي استندت شهرته المحدودة في الكتابة على ترجماته للقصص الرومانسية من حكايات الملك آرثر إلى الفرنسية القديمة، ولم يعرف الكثير عنه أو عن السر في إيداعه السجن، أو ما إذا كان قد خرج منه حياً ذات يوم، ولكنه ربما كان قد ارتحل في وقت سابق إلى فلسطين، وربما إلى إنجلترا حيث ذكر أن راعيه هو الأمير الذي أصبح في وقت لاحق الملك إدوارد الأول.

بفضل هذا الكاتب الباسل قدر لشهرة رفيقه البندقي في السجن أن تواصل التألق؛ فقد أمضى الرجلان شهوراً عديدة في العمل معاً، في إنجاز مخطوط مكتوب بالفرنسية المطعمة بالإيطالية، جعل روتشيللو عنوانه بكثير من الجرأة **«وصف العالم»**[3]. ولو أن ماركو ترك وشأنه لما كان قد كتب شيئاً، فهو ينحدر من عائلة من التجار وقد التحق بالعمل مع أبيه وهو في السابعة عشرة من عمره، واهتماماته أبعد ما تكون عن الاتسام بالطابع الأدبي. وبعد افتراقه عن روستشيللو عندما أطلق أهل جنوة سراحه ربما مقابل

فدية نقدية، عاش ربع قرن من الزمان من دون أن يؤلف جملة واحدة أخرى عن رحلاته (لابد من التسليم بأنه لم يكن هناك دافع كبير يحدوه إلى ذلك، فقبل عصر الطباعة لم يكن في قدرة الكاتب أن يعلق آمالاً كباراً على إمكانية الحصول على مكافآت مباشرة).

جانب كبير مما أملاه ماركو على كاتبه عن مملكة الخطا[4] جاء في إطار تقديرات محسوبة جيداً، قصد بها إثارة مشاعر الحسد في نفوس التجار الأوربيين الآخرين، على نحو ما نجد لدى وصفه لميناء زيتون، حيث يقول:

«وأؤكد لكم أنه في مقابل حمولة كل مركب من الفلفل تمضي إلى الإسكندرية أو غيرها لتنقل إلى الأراضي المسيحية، تأتي حمولة مئة مركب إلى ميناء زيتون هذا. ذلك أنه ينبغي أن تعرفوا أنه واحد من أعظم ميناءين في العالم من حيث كمية تجارته. وأؤكد لكم أن الخان العظيم يتلقى عوائد هائلة من هذه المدينة وهذا الميناء، ذلك أن عليكم معرفة أن كل السفن الآتية من الهند تدفع 10٪، أي عشر قيمة البضائع والأحجار الكريمة واللآلئ التي تحملها. وفضلاً عن ذلك فإن السفن تأخذ عن حمل البضائع 30٪ بالنسبة إلى السلع الخفيفة، و44٪ بالنسبة إلى الفلفل، و40٪ عن خشب الصبر وخشب الصندل والبضائع الأخرى ذات الحجم الكبير. وأؤكد لكم أنه إذا جاء غريب إلى إحدى الدور للإقامة بها، فإن رب هذه الدار يسعد لذلك أعظم السعادة، ويكرم وفادة ضيوفه».

تتعدد مثل هذه المعلومات العملية، ولكنها توضع في حذق إزاء النوادر المرحة، على نحو ما نجد في وصفه لذكرياته عن صدر الشباب في آسيا الوسطى، والابتهاج الذي أدرج به روستشيللو مثل هذه الفقرات في **«وصف العالم»** يمكن ملاحظته بوضوح، لكن الراوية نفسه يظل على نحو لا سبيل معه إلى الخطأ، شخصية يتعين النظر إليها بإجلال.

لقد كان هناك مبرر وجيه لذلك؛ فعلى الرغم من أنه كان هناك العديد من التجار البنادقة الأثرياء ذوي المكانة الرفيعة، فإن ماركو بولو كان على الدوام من الشخصيات

المرموقة على نحو ملحوظ. وكشاب في السابعة عشرة من عمره، وذلك في عام 1270 ميلادية، كان في استقبال أبيه نيكولو وعمه مافيو، لدى عودتهما من رحلتهما الأولى إلى مملكة الخطا. وكانا يحملان لوحاً ذهبياً بالتفويض بالسلطة من كوبلاي خان، حاكم المغول. ومنذ تلك اللحظة، أصبح الانتماء إلى عائلة بولو شرفاً كبيراً.

في وقت سابق من القرن الثالث عشر كان الفزع قد سيطر على أوربا من المغول الذين عرفوا بشكل عام باسم التتار، الذين ألحقوا الهزيمة بكل من تصدى لهم[5]. وقد تغيرت الآراء حولهم تماماً بوصول والد ماركو وعمه إلى إيطاليا، قادمين من مملكة الخطا، حاملين اللوح الذهبي من كوبلاي خان؛ فقد أصبح المغول ينظر الآن إليهم باعتبارهم حلفاء محتملين قد يمكن بالتعاون معهم إشعال نار حماس الصليبيين المفقود، فمنذ عهد البابا إنوسنت الرابع (1243 ـ 1253) عُلقت الآمال على اعتناق المغول للتعاليم الكاثوليكية، حيث كانت لبعضهم بالفعل ميول مسيحية، وإن كانت من نوع تخالطه الهرطقة. وكان الخان العظيم شخصية ذات أهمية أسطورية تقريباً بالنسبة إلى حكام أوربا، وشرف الأخوان بولو بأن يكونا مبعوثيه المختارين، في إطار أحدث محاولة في ذلك الوقت لإرساء صلات دائمة بين الشرق والغرب، ضد العدو المشترك: الإسلام.

قبل وصول الأخوين بولو إلى وطنهما عائدين من مملكة الخطا بخمسة عشر عاماً، كان ملك فرنسا لويس التاسع قد بعث راهباً فلمنكياً يدعى وليم دي روبروك إلى الخطا، وكانت مهمة هذا الراهب أن يعرض على إمبراطور المغول حلفاً مع بلاد المسيحية، وقد عاد بأقاصيص جديرة بالاهتمام عن أفراد من أوربا تم اكتساحهم كالغبار عبر العالم عندما انسحب المغول عائدين إلى آسيا.

في "قره قورم" وهي ملتقى تقليدي قاص للمغول قابل الراهب امرأة تدعى باكيت من ميتز في اللورين، كانت قد أسرت في المجر، لكنها الآن متزوجة من نجار أوكراني، وتحيا حياة هانئة، وأنجبت منه ثلاثة أبناء «عثرت علينا وأعدت لنا مأدبة من أفضل ما لديها». وفي قره قورم أيضاً، كان هناك ابن مجري الأصل لرجل إنجليزي، وطبيب

يوناني، وصائغ من باريس يدعى بوشيه، صاغ للخان العظيم شجرة من الفضة على قمتها ملاك ينفخ في بوق، وعند جذعها أربعة أسود حارسة يندفع من أشداقها حليب الأفراس، وهو أحد الأغذية الأساسية لدى المغول.

على الرغم من أن الراهب وليم قد مني بالفشل في تحقيق الهدف الرئيس لبعثته، فإن المؤشرات الدالة على إمكانية إقامة تحالف بين الشرق والغرب كانت واعدة بشكل أكبر، عندما وصل الأخوان بولو إلى أوربا؛ فمن بين أمور أخرى كان الخان العظيم يطلب مئة من المتضلعين في الديانة المسيحية؛ ليقوم الأخوان بولو باصطحابهم عائدين إلى مملكة الخطا. وربما بدت هذه الفرصة نادرة للغاية بحيث لا تنبغي إضاعتها، ولكن في هذه اللحظة الحاسمة مات البابا وثار نزاع حول من سيخلفه. وعندما اختير البابا جريجوري العاشر بالفعل اختار راهبين فقط للمضي إلى مملكة الخطا، وحتى هذان الراهبان لم يكونا على قدر تحديات المهمة، فبعد أن انطلقا بصحبة التاجرين البندقيين، وقد انضم إليهما الآن الشاب ماركو بولو، عادا مرتدين على أعقابهما، من دون أن يسافرا إلى أبعد من أرمينيا، حيث تراءت نذر الحرب.

واصل آل بولو مسيرتهم، فقد كان لايزال يتعين عليهم أن يسلموا رسالة إعراب عن النوايا الحسنة من البابا جريجوري إلى كوبلاي خان، وشكل هذا دافعاً لهما للارتحال بشكل عاجل، بمعايير القرن الثالث عشر. وقد وصلوا إلى الاعتقاد بأن الطريق البحري عبر المحيط الهندي، من شأنه أن يكون أسرع من رحلة طويلة مرهقة عبر صحاري آسيا الوسطى، التي كان نيكولو ومافيو يعرفان مخاطرها معرفة وثيقة. وهكذا سافروا أولاً إلى بغداد (التي كان المغول قد دمروها قبل سنوات قلائل وذبحوا كل من فيها من المسلمين ولكنهم أبقوا على المسيحيين) ومن هناك عبروا إلى فارس، ثم انطلقوا جنوباً إلى ميناء هرمز العظيم عند مدخل الخليج العربي. وقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يشاهد ماركو بولو فيها المحيط الهندي ولكنه لم يترك أثراً كبيراً في نفسه.

كان لهرمز مرفأ ممتاز، وقد استقطب جانباً كبيراً من التجارة التي كانت سيراف مهبط رأس الراوية بزرك بن شهريار تسيطر عليها قبل ثلاثة قرون. وقد جاء التجار إلى

هرمز «من طول الأرض وعرضها» للاتجار باللؤلؤ والقماش والفواكه المجففة والبهارات الواردة من المالبار وسيلان، والخزف الصيني، والعاج الأفريقي. وكانت الجياد العربية تشحن منها إلى الهند، وهي جياد مختارة لقوتها؛ فهي من القوة بحيث يمكنها حمل محارب بكامل عدته. غير أنه كما سيتذكر ماركو في غضون سنين عديدة لاحقة، كان مناخ هرمز حاراً وغير صحي، وفي بعض الأحيان خلال فصل الصيف كانت الرياح تهب من الصحراء المترامية في كل الاتجاهات، وتجلب معها حرارة لا تطاق، بحيث إنه كانت هناك طريقة واحدة للنجاة؛ فقد كان السكان المحليون يقطنون خارج المدينة في الصيف على ضفاف بحيرات وممرات مائية، بحيث إنه عندما تدنو الرياح الحارة يمكنهم «الغوص حتى مستوى الرقبة في الماء طلباً للنجاة».

وهو يمضي في ولعه بالرهيب والفظيع كعهد أبناء العصور الوسطى، ليروي قصة تصور جحيم الحر في ذلك المكان:

«لما كان ملك هرمز لم يدفع الجزية لملك كرمان، فقد جهز الأخير ألفاً وستمئة فارس وخمسة آلاف من المشاة، وبعث بهم عبر إقليم ريوبر لمهاجمة الآخرين على حين غرة، وقد قام بهذا في وقت كان أهل هرمز خلاله يقيمون في الريف خارج مدينتهم. وذات يوم عجز المهاجمون وقد أخطأ دليلهم عن الوصول إلى المكان المحدد لقضاء الليل، ونالوا قسطاً من الراحة في غابة لا تبعد كثيرا عن هرمز، وعندما أوشكوا صباح اليوم التالي على استئناف مسيرتهم، أدركتهم تلك الريح، وخنقتهم جميعاً. . . وعندما سمع أهل هرمز بهذا مضوا لدفنهم، حتى لا تؤدي كل هذه الجثث إلى تلويث الهواء. ولكن درجة الحرارة العالية كانت قد جعلت الجثث متفحمة، بحيث إنهم لدى الإمساك بها من الذراعين لوضعها في المقابر، كانت الذراعان تنفصلان عن باقي الجثة. ومن هنا كان من الضروري حفر المقابر بجوار الجثث والمبادرة إلى إلقائها فيها».

مكث آل بولو بعض الوقت في هرمز، ويقول ماركو إن الأفراد كانوا «سوداً» - وهو يقصد بذلك أن بشرتهم أكثر سمرة من الفرس الشماليين - وزعم أنهم «يعبدون محمداً»[6] (وقد استخدم على الدوام هذا التعبير الذي قصد به إثارة حنق المسلمين).

وهو يصف أبناء هرمز بأنهم يعيشون بصفة أساسية على التمر والسمك والبصل، ويقطرون نوعاً ممتازاً من نبيذ البلح ينظف الأمعاء.

تمثل هدف آل بولو الواضح من المجيء إلى هرمز في ركوب سفينة تقلهم إلى كامباي (كنباية) في الهند، ثم نزولاً على ساحل المالبار لأحد الموانى الذي تبحر قوافل السفن منه مباشرة إلى الصين. وبدلاً من ذلك انقلبوا عائدين واختاروا في نهاية المطاف سلوك الطريق البري. ولا يوضح ماركو السر في ذلك تواً، ولكن هذا السر الكامن وراء التراجع واضح بما فيه الكفاية، ذلك أن «السفن المشدودة بالحبال» وهي السفن التقليدية في المحيط الهندي قد بدت لهم أكثر خطورة من أن يستقلوها: «سفنهم رديئة للغاية، والعديد منها انتهى إلى الغرق؛ لأنها ليست مثبتة بالمسامير الحديدية، وإنما مشدودة معاً بما يشبه الحياكة بخيوط من ألياف النارجيل... وهذا يجعل من الإبحار بهذه السفن مغامرة وخيمة العواقب، ويمكنك أن تصدق ما أقوله من أن العديد منها يغرق لأن المحيط الهندي غالباً ما يكون عاصفاً»[7].

وحتى إذا ظلت السفينة طافية فإن الرحلة أبعد ما تكون عن الراحة. «للسفن صار واحد وشراع واحد ودفة واحدة، ولكنها ليس لها ظهر، غير أنها بعد أن يتم تحميلها تغطى الحمولة بقطعة من الجلد، وفوق الحمولة التي غطيت على هذا النحو توضع الجياد التي تؤخذ إلى الهند لتباع هناك». ثم يستدرك ماركو بولو في ملاحظة قاتمة، مشيراً إلى أن السفن لا تغلف بالزفت وإنما «تدهن بزيت السمك».

لقد بدت الرحلة البحرية خطرة على نحو مستحيل، ومع ذلك فإن آل بولو نجوا بصعوبة من رحلتهم البرية التي استغرقت عامين إلى مملكة الخطا، وبعد الكثير من المحن مثلوا في نهاية المطاف أمام الخان العظيم؛ ليتم الترحيب بهم بكل التكريم اللائق بمبعوثين من بلاد المسيحية. ولم يكن هناك دافع كبير يدعوهم إلى العودة مسرعين إلى البندقية، وشرع ماركو في جمع المادة، التي قُدِّر لها على امتداد ثلاثة قرون أن تحظى بتأثير لا نظير له على تفكير أوربا فيما يتعلق بالأعراق والقارات الأخرى.

الفصل السادس

عروس الملك أرجون

ذهب وفضة يملأان خزانتي، عاماً بعد الآخر،
أرز وحنطة تزدحم بهما صوامعي، في كل حصاد،
عبيد صينيون أعهد إليهم بمستودع كنوزي وغلالي،
عبيد أجانب يرعون ماشيتي وأغنامي،
أرقاء أقوياء الأرجل ينطلقون عدواً، إلى جوار الركاب، لدى ركوبي جوادي،
أقنان أشداء يفلحون حقولي، بقوة واقتدار،
جاريات فاتنات يعزفن على القيثار، ويدرن الأقداح،
وقَينات ناحلات الخصور ينشدن القصائد . . .

حلم عريس - في: **«قصائد وقصص من تون هوانج»**
(حوالي عام 750 ميلادي - ترجمها إلى الإنجليزية أرثر ويلي)

هناك عدد محدود جداً من المؤشرات الدالة في كتاب ماركو بولو بحيث إنه لا يبلغنا على وجه الدقة إلى أين رحل خلال السنوات العشرين التي أمضاها في الشرق، ومع ذلك فإن من المؤكد أنه قد شاهد الكثير من أرجاء الصين، وارتحل إلى ما وراء حدودها؛ وذلك فيما يبدو لأداء مهام دبلوماسية للخان العظيم[1]، وقد مضت به إحدى المهام إلى الهند بحراً، ولكن السفينة التي أقلته يبدو أنها قد بلغت سومطرة، بعد أن فات أوان اللحاق بالرياح الموسمية الصيفية، فاضطر للانتظار في الجزيرة خمسة أشهر إلى أن بدأت الريح تهب باتجاه الشمال من جديد.

لقد شغل ماركو وقته بمعرفة كل ما يمكنه حول هذا الجزء غير المألوف من العالم، فهو يصف الأخشاب والتوابل التي ينتجها إقليم سومطرة و«الملايور» ذلك أنه كان يفكر على الدوام في الإمكانيات التجارية (وفي أحد المواضع يخرج عن السياق العام لما يكتبه؛ ليذكر أنه قد جلب معه نوعاً بعينه من البذور لدى عودته إلى البندقية على أمل زراعته هناك، ولكن الطقس حال دون نجاح هذه المحاولة).

من ناحية أخرى، فإن ماركو لا تفوته فرصة للتركيز على ما هو رهيب ومفزع بتشجيع من كاتبه روستشيللو، وهو يشجب اللجوء إلى ما يصفه بالغش والخداع اللذين عمد إليهما البعض بتحنيط نماذج عديدة من "أقزام" صغار وصلت إلى أوربا من الشرق، وأثارت الكثير من الدهشة. فهو يعرف نظراً لزيارته للأماكن التي جاءت منها أنها لا تعدو أن تكون قردة صغيرة ذات وجوه تشبه الآدميين، وقد كان أبناء سومطرة خبراء في «معالجة» جثث القردة لجعلها تبدو مقنعة بشكل أكبر.

ثم يمضي إلى الحديث عن مملكة تدعى داجرويان، درج الأفراد فيها على اتباع عادة «سيئة بشكل خاص» فعندما يعتبر مريض ما أنه قد بلغ مرحلة لا يحتمل أن يشفى عندها فإنه يتم خنقه وطهيه، «ثم يجتمع كل أقاربه ويلتهمونه بأسره. وأؤكد لكم أنهم يلتهمون كل شيء فيه حتى نخاع عظامه». وهو يرصد هدفاً دينياً هاهنا، ذلك أنه إذا ترك أي شيء من لحمه، فإنه سيولد الديدان، والديدان ستموت جوعاً، وستعاني روح الميت من عذاب مبرِّح؛ لأن العديد من الأرواح «التي تولدت من مادته» قد لقيت مصرعها.

عندما تمكن ماركو في نهاية المطاف من الإبحار من سومطرة، لم يُظهر شيئاً من مخاوفه السابقة من المحيط الهندي؛ ولاشك في أن ذلك يرجع إلى أنه الآن على متن إحدى السفن الصينية المعروفة بالجُنْك[2] والمختلفة بصورة ملحوظة عن سفن هرمز القذرة التي تنقل الجياد. وقد قدر لأوربا من واقع سرده لرحلاته، أن تجد الوصف التفصيلي الأول لهذه السفن الشرقية التي كانت تعد أفضل سفن أعالي البحار، وأكثرها تقدماً في عصرها. وكانت تحمل أطقم بحارة يصل عدد الطاقم الواحد منها إلى أربعمئة بحار، وتدفعها أشرعة مصنوعة من عيدان الخيزران المشقوقة، توضع على أربعة صوار (دقلات)، ولأجسام السفن حواجز واقية قوية للحد من تدفق المياه إذا اخترقت الصخور المرجانية جوانب السفينة. وخلافاً للسفن العربية والفارسية التي يمضي الركاب فيها وقتاً تعساً، فإن ماركو وصف الجنوك بأنها معدة لتكفل الراحة لركابها؛ حيث زودت بـ«ستين قمرة على الأقل، يمكن لكل منها أن تستوعب تاجراً على نحو مريح».

لقد سافر البندقي الشاب على جانبي شبه القارة الهندية ماضياً من ميناء إلى آخر، ومقدماً صورة دقيقة لإمكانيات التجارة هناك، ولما كانت التصورات الخيالية العتيقة عن

الوحوش المخيفة والبشر ذوي السحنات الغريبة مازالت تفتن أوربا، فإن الافتقار إليها في مذكرات ماركو ربما كان مثاراً لخيبة أمل بعض قرائه. ومن ناحية أخرى فإن هذه الصورة المتماسكة الأولى لثراء الهند الطائل قدر لها أن تثير الكثير من الاهتمام في صفوف الملوك والتجار على السواء.

كانت أول محطة توقف له هي سيلان، حيث بهرته وفرة اليواقيت وأحجار الصفير والتوباز وغيرها من الجواهر؛ وقد بلغت شهرة ياقوتة يصل طولها إلى مقدار راحة اليد وسمكها إلى مقدار قطر الذراع حداً دفع الخان العظيم إلى أن يرسل مبعوثين لشرائها، ولكن ملك سيلان ردهم خائبين. وتوحي الصورة التفصيلية التي قدمها ماركو أنه ربما كان من بين هؤلاء المبعوثين.

خلال رحيل ماركو صعوداً على امتداد الجانب الغربي من الهند على ساحل مالبار، مضى يبدي دهشته حيال الإنتاج الهائل من الفلفل والقرفة والزنجبيل وغيرها من التوابل. وكان بعض الأقاليم ينتج القطن، وكان من الممكن في كل مكان شراء قماش البقرم الجميل الرقيق كالكتان، والجلد البديع المطرز بالذهب والمحلى بصور الطيور والحيوانات. وكان تجار الهند المعروفون باسم «البانيان»[3] وهو اسم مشتق من السنسكريتية القديمة، شديدي الحرص في تجارتهم ومن الممكن ترك السلع معهم فتكون في أمان تام، وهكذا لم يكن من المدهش أن تفد السفن إلى ساحل المالبار من أراض عديدة. وقرابة نهاية الرحلة زار ماركو ميناء كامباي (كنبايه) في جوجارات (جوزرات) الذي يعد المحطة النهائية لجانب كبير من التجارة عبر النصف الغربي من المحيط الهندي. وكان تجار هذا الميناء يسافرون بصورة منتظمة وصولاً إلى مصر، ليبيعوا سلعاً عديدة من سلعهم في بلاد البحر الأبيض المتوسط[4].

في حوالي الوقت الذي كان فيه ماركو موجوداً بالهند كان حاكم سيلان، ويدعى بوفانكاباهو، قد بعث موفداً من قبله إلى القاهرة في محاولة للحصول على نصيب من هذه التجارة، وجاء في رسالته إلى الحكام المماليك: «لدي كمية هائلة من اللآلئ والأحجار الكريمة من كل الأنواع، ولدي سفن وفيلة وأقمشة موسلين وأقمشة أخرى وخشب وقرفة، وكل عروض التجارة التي يجلبها لكم التجار البانيان»[5]. غير أن

الاحتكار الهندي قدر له أن يكون أقوى مما يستطيع حاكم سيلان كسره، على الرغم أن اكتشاف عملات معدنية سيلانية قرب مقديشو في القرن الأفريقي، يشير إلى بوفانكاباهو ربما كان قد أحرز بعض النجاح في توسيع نطاق تجارة جزيرته.

لقد تأثر ماركو بصادرات الهند من القطن ووارداتها من الذهب، وقد مضى أ الطرق الملاحية بالتجار مباشرة عبر المحيط لكي يقايضوا القماش المتألق الألوان بذه جنوب أفريقيا. وتمثلت تجارة ظلت تفتنه باستمرار في الاتجار بالجياد الواردة إلى الـ من شبه الجزيرة العربية وفارس. حيث يقول عنها: «عليك أن تتقبل، فيما تتقبله الحقائق، أن تجار هرمز وقيس وظفار وشحر وعدن، وكلها مناطق تربي أعداداً كب من الجياد المعدة للحروب وغيرها من الخيول، يشترون أفضل هذه الجياد ويشحنو على متن السفن ويصدرونها». وبعضها يباع بمبالغ تصل إلى خمسمئة ساجي (حوالي ألفين وخمسمئة جرام ذهباً) وقد كانت مملكة واحدة مطلة على سا الكوروماندل تستورد ستة آلاف جواد سنوياً. وفي نهاية العام لا يبقى منها على ؛ الحياة أكثر من مئة جواد؛ لأن الهنود ليس لديهم إلمام بكيفية العناية بها. ويقول مار إن التجار الذين يبيعون الجياد لم يكونوا يسمحون لأي طبيب بيطري بالذهاب معم لأنهم كانوا «سعداء بنفوق الكثير منها».

ويأتي كتاب **«وصف العالم»** كذلك على ذكر عادات الهند الاجتماعية، وم طقس عرف باسم «سوتي»، ويقضي بأن تقذف الأرامل بأنفسهن إلى المحرقة الجنائ لأزواجهن تعبيراً عن إجلالهن لهم. ويلاحظ ماركو كيف أن الخرافات الهندوس كانت تحكم الصفقات التجارية، فكان ظهور العناكب السامة أو استطالة الظا يعتبران من نذر السوء. وهو يحدثنا عن سلوك أتباع فلسفة اليوجا[6] بتفصيل كبي وبينما بدت معتقداتهم في بعض الأحيان مثيرة للحيرة؛ فحتى أوراق الشجر الخض في نظرهم لها روح، وبالتالي فإن من قبيل الخطيئة أكلها، وقد صادف العديد الغرائب في رحلاته، وكان دائماً من سعة الأفق بحيث لم يسخر مما رآه ولم يهزأ به.

وقد كان الهنود من «عبدة الأصنام» وسرعان ما اكتشف البندقي الفضولي ما يجر في المهرجانات الهندوسية، واهتم بشكل خاص بفتيات المعابد اللواتي كن يسعين تة لإرضاء الآلهة.

وسط مـثل هذه الأشـيـاء التي تدير الرؤوس كـان هنـاك دليل كـاف علـى أن ثروات الشرق هي حقاً مما لا سبيل إلى وضعه موضع المقارنة. ما الذي قاله ماركو عن بكين؟ «إنها لحقيقة أنه في كل يوم يدخل المدينة ما يزيد على حمولة ألف عربة من الحرير؛ فالكثير من الثياب الحريرية المطرزة بالذهب تنسج هنا». وفي كل مكان في الشرق تقريباً فيـما يبدو فـإن جروتات*[7] قليلـة يمكن أن تشتـري كنوزاً تساوي ثـروة، إذا أمكـن إحضارها إلى أوربا.

ولم يقدر لماركـو أن يطأ أرض أفريقيا قط، ولكنه جمع خليطاً من الحقائق وألوان الزيف حـولها خـلال رحلاته، وهو يبدأ وصـفه للقارة بتـقديم صـورة دقيـقة لجزيرة سـوقطرة التي ينتـمي سكانهـا إلى النسـاطرة المسيـحيين، غـير أنه أبعـد ما يكون عن الوضوح فيما يتعلق بموقع هذه الجزيرة؛ فهو يصفها بأنها «على بعد خمسمئة ميل» إلى الجنوب من مكانين أسطوريين تماماً، كتبت عنهما كتابات عبثية على امتداد قرون، هما جزيرتا الذكور والإناث اللتان يلتقي سكانهما مرة واحدة كل عام للتزاوج[8].

وهو يتحدث عقب ذلك عن الكيفية التي تصاد بها الحيتان في المحيط الهندي وذلك بتفصيل بالغ، إلى حد أن هذه الصورة تبدو أقرب إلى تجربة يتم تذكرها منها إلى رواية تنقل عن الآخرين. وفي أحد المواضع يتحدث ماركو عـما يفعله الصيادون، بعد تخدير الحوت بمواد تدس له في سمك التن»:

«يصعد عليه بعض الرجال، وقد أمسكوا بقضيب حديدي، جعل أحد طرفيه على شكل شوكة مستدقة، بحيث إنه إذا غرس في الحوت، فلا سبيل إلى نزعه مجدداً. . . ويمسك أحـد الصيـادين بالقـضيب فوق رأس الحـوت، بينما يقـوم آخر مسلح بمطرقة خشبية بالطرق على القضيب، فيدفعه مباشرة إلى رأس الحوت، ذلك أن الحوت بحكم تخديره لا يكاد يلاحظ الرجال الموجودين على ظهره؛ فيفعلون ما طاب لهم. ويُربَط بالطرف العلوي من القـضيب حبـل غليظ طوله ثلاثـمئة خطوة، وكل خـمسين خطوة على امتداد الحبل يثبت برميل خشبي ولوح خشبي ثقيل وسميك، وهذا اللوح يثبت في البرميل على نحو ما يثبت الدقل. . .».

* الجروت: عملة بريطانية قديمة تساوي أربعة بنسات. (المحرر)

يمضي ماركو للإدلاء بملاحظاته حول كمية العنبر الذي يتم العثور عليه في ذلك الجزء من المحيط الهندي، ويحالفه الصواب في القول إنه يأتي من بطن الحوت.

وهو يصف مدغشقر بأنها «واحدة من أكبر الجزر في العالم بأسره وأفضلها» ويصل محيطها إلى حوالي أربعة آلاف ميل. وهذا التقدير يبلغ ضعفي مساحة مدغشقر الحقيقية تقريباً، ولكنه يعد اكتشافاً جغرافياً إذا أخذنا في الاعتبار العصر الذي كان يكتب فيه. وما كان يمكن إلا أن يكون قد جمع مثل هذه التفاصيل من قباطنة من الهنود أو العرب الذين أبحروا إلى تلك الجزيرة، ثم يمضي ليردد تلك الأسطورة الشائعة المتعلقة بالرخ الذي يقطن مدغشقر، وهو يطلق عليه اسم الجرفين. ويرفض الروايات التي تفيد أنه شيء وسط بين الأسد والنسر، ويؤكد أن «شهود عيان حقيقيين» قد وصفوه بأنه مثل «نسر هائل الحجم»، ثم يضيف ملاحظة جانبية مثيرة للاهتمام، فيقول إن الإمبراطور المغولي قد بعث بموفدين إلى مدغشقر وزنجبار «لمعرفة عجائب هاتين الجزيرتين الغريبتين». وقد سجن الموفد الأول؛ ولذا تم إرسال موفد ثان لإطلاق سراحه.

من أسوأ أخطاء ماركو الخلط بين مدغشقر ومقديشو، في القرن الأفريقي؛ فهو يقول: «اللحم الذي يؤكل هنا هو لحم الإبل وحده، وعدد الجمال التي يتم ذبحها هنا يومياً كبير جداً، بحيث إنه ما من أحد لم يره بعينيه يمكنه أن يصدق ما يروى عنه». وهذا ينطبق تماماً على مقديشو، ولكنه بالتأكيد لا ينطبق على الجزيرة الكبيرة الواقعة على مسافة ألفي ميل إلى الجنوب منها (يقف هذا شاهداً على عمق تأثير مقولة ماركو بولو بأن اسم مدغشقر، المأخوذ مباشرة من كتاباته قد بقي حتى الآن، على الرغم من أنه يقوم على أساس خلط تام في الحقائق).

عندما يمضي للحديث عن جزيرة زنجبار فإنه يبدو أنه يخلط بينها وبين إقليم الزنج بكامله، فيزعم أن محيطها يصل إلى حوالي ألفي ميل. ويقول عن الأفارقة: «إنهم أبناء عرق ضخم البنية، وعلى الرغم من أن طولهم لا يتناسب مع محيط خصورهم، فإنهم شديدو البدانة وضخام الأطراف، بحيث إنهم يبدون كعمالقة أقوياء على نحو غير مألوف، فالواحد منهم يمكنه أن يحمل حملاً من الضخامة يحتاج أربعة أشخاص

عاديين لحمله. ومن ثم فلا عجب إذا ما قلت لكم إن الواحد منهم يلتهم من الطعام ما يكفي خمسة أشخاص عاديين». وشعرهم «أسود كالفلفل» وهم «يمضون عراة باستثناء عوراتهم المغطاة».

لا يدع وصف ماركو للأفارقة وملامحهم الجسدية مجالاً للشك في أنه قد التقى بعض الأفارقة وتأملهم ملياً، ذلك أن الكثير منهم كانوا أرقاء في الهند، وتم تشغيل آخرين كمرتزقة. وربما التقى بهم في الصين حيث كان من المألوف في القرن الثالث عشر، بالنسبة إلى الأثرياء أن يكون لهم «عبيد كالشياطين» من السود. وهو يقول إنهم كانوا محاربين جيدين، «يبلون بلاء حسناً في المعارك كما يليق بالرجال».

ينطلق حديثه بعد ذلك إلى الحبشة أو «الهند الوسطى» التي يحالفه الصواب في القول بأن ملكها مسيحي، وله ستة من الملوك الأتباع في إطار امبراطوريته. والمسلمون يقطنون «بعيداً باتجاه عدن» ويروي ماركو كيف أن سلطان عدن (أحد أكثر حكام العالم ثراء) قد أثار غضب الحبشة في عام 1288 بإلقائه القبض على أحد مطارنته، وإجراء عملية الختان له عنوة «على طريقة المسلمين». وكنتيجة لذلك فإن الأحباش المسيحيين أعلنوا الحرب وحققوا نصراً مؤزراً» وهكذا تنتهي القصة بوصف الأراضي التي تم تدميرها انتقاماً للمطران الذي تم ختانه(9).

في العقد الأخير من القرن الثالث عشر عندما اقتربت إقامة ماركو الطويلة في الشرق من نهايتها، أبحر مجدداً عبر المحيط الهندي مع أبيه وعمه اللذين أوغلا الآن في العمر، وكانوا يسافرون متمتعين بالراحة وسط مظاهر الجاه والسلطان، في أسطول مؤلف من أربع عشرة من الجنوك*، التي أعدت بناء على أوامر كوبلاي خان، وراحت تشق طريقها إلى فارس قاصدة بلاط الملك أرجون.

وتمثلت المهمة التي عهد بها إلى البنادقة في أن يقدموا لأرجون، الذي كانت زوجته المسيحية قد ماتت، عروساً جديدة، اختارها كوبلاي خان، وكانت أميرة في السابعة

---

* الجنوك: السفن الكبيرة. (المحرر)

عشرة من عمرها «ذات حسن وبهاء عظيمين» تدعى كوكاتشين. غير أنه لسبب لم يتم إيضاحه استغرق الأسطول عامين تقريباً في حمل العروس إلى فارس، وفي غضون ذلك كان أرجون قد لقي مصرعه في إحدى المعارك. وأبلغ أخوه جايخاتو الذي تولى الحكم مكانه مرافقي كوكاتشين بأنه يتعين عليها أن تصبح عروساً لغازان بن أرجون الشاب، الذي تصادف في ذلك الوقت أنه كان يخوض حرباً بعيدة على رأس قوات مؤلفة من ستين ألف رجل. ويبدو أن هذا الحل الفوري قد ناسب الجميع، بمن في ذلك الأميرة. وانطلق آل بولو مجدداً نحو الغرب، عائدين إلى أوربا والوطن، بعد أن أدوا واجبهم.

وكان من سوء الطالع بالنسبة إليهم، أنهم وصلوا إلى فارس في وقت متأخر، بحيث لم يتح لهم لقاء أرجون، ذلك أنه ما من حاكم مغولي كان أشد منه حرصاً على الاتحاد مع المسيحية الأوربية، في خوض غمار حرب كبرى للقضاء على الإسلام (الذي كان في تلك اللحظة ضعيفاً وتسوده الانقسامات على نحو يغري بمحاربته) وقد بعث أرجون في غضون فترة حكمه التي استمرت سبع سنوات، بأربعة وفود إلى أوربا داعياً بلا طائل إلى التزام بهجوم متزامن على جناحي الأراضي الإسلامية. وقد تولى رئاسة أحد هذه الوفود رجل من جنوة يدعى بوسكاريل وصل إلى مدينته قبل عام من انطلاق الأخوين فيفالدي للدوران حول أفريقيا، وربما شجعت القصص التي رواها عن ثروات الشرق الأخوين فيفالدي على الانطلاق في رحلتهما المشؤومة.

كان أبرز موفدي أرجون الربان صوما، وهو صيني من النساطرة المسيحيين[10] وتصور رحلته الهائلة مدى ازدهار الاتصالات بين آسيا وأوربا، خلال الفترة الفاصلة القصيرة التي تطلعت فيها الإمبراطورية المغولية إلى الخارج حوالي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. وقد ولد صوما في كانبالوك (التي أطلق عليها في وقت لاحق اسم بكين) وبعد سنوات طويلة أمضاها في الدراسة الدينية شد الرحال إلى فارس. وكان رفيقه زميلاً مسيحياً بارزاً يدعى "يابالاها" من منغوليا، وقد بلغا بغداد العاصمة الدينية للمذهب النسطوري الذي يعتنقانه، فيما كان مطرانها يحتضر، وقد اختير يابالاها ليخلفه.

دعم المطران الجديد بمزيد من الحماس خطط أرجون لهجوم موحد على الإسلام؛ ولذا رشح صديقه صوما باعتباره أفضل من يمضي إلى أوربا للدعوة إلى هذه القضية.

وانطلق صوماً مستعيناً بهدايا الملك أرجون، المؤلفة من الذهب وثلاثين جواداً، على الطريق المألوف إلى ميناء طرابيزون المطل على البحر الأسود ثم إلى القسطنطينية فإيطاليا وروما. وحيثما مضى كان يدون ملاحظاته حول كل ما هو جدير بالاهتمام «انفجار بركان إتنا، بينما كانت سفينته تبحر شمالاً بمحاذاة ساحل صقلية. ونشوب معركة بحرية قبالة نابولي. وبهاء الريف المحيط بجنوة («بستان يشبه الجنة، حيث الشتاء ليس بارداً، ولا الصيف مثقل بالقيظ»). وكانت أبعد النقاط التي بلغها إيغالا باتجاه الشمال هي باريس، حيث استقبله الملك فيليب الرابع، وأثر في نفسه كثيراً أن يعرف أن جامعة باريس تضم ثلاثين ألف طالب.

من هناك انطلق إلى بوردو ليقدم الهدايا إلى إدوارد الأول ملك إنجلترا. وقد واجه بعض المصاعب في الأسماء، حيث سجل اسم إدوارد على أنه «ملك إنالجتور في كيرسونيا» ويقصد بذلك ملك إنجلترا في جاسكونيا. ولكن إدوارد تأثر كثيراً بالرسالة التي حملها إليه زائره الصيني، إلى حد أنه كتب رسالة يعد فيها بالقتال، في إطار الصراع المقترح للقضاء على «الدعوة الإسلامية»[11] للأبد، وعاد صوما إلى روما مجدداً في شباط/ فبراير 1288 والتقى البابا المنتخب حديثاً، نيكولاس الرابع، و«بكى فرحاً» عندما ناوله نيكولاس القربان المقدس.

في نهاية المطاف كانت جهود صوما الدبلوماسية بلا طائل، شأن كل الجهود الأخرى، وعلى الرغم من أن المغول كانوا قد اعتقدوا في وقت من الأوقات أن إله السماء "تنجيري" قد اصطفاهم لغزو العالم بأسره، فإنهم عندما تراجع حماسهم لإنجاز هذه المهمة، انكفؤوا منقلبين على أعقابهم عائدين إلى سهول الحشائش (الإستبس)، وأغلق طريق الحرير في وجه الأوربيين، وظل المحيط الهندي بكل تجارته النشطة أبعد منالاً بالنسبة إليهم. وأصبح عالم العجائب الذي عرفه آل بولو من جديد مجرد أسطورة مشوقة بالنسبة إلى مسيحيي الغرب.

الفصل السابع

الشيخ الرحالة يمضي جنوباً

تميل بشرة أهالي الهند الكبرى إلى أن تكون داكنة قليلاً، بالمقارنة بنا، ولكنهم في أثيوبيا أشد دكنة، وهكذا يطّرد الأمر إلى أن تصل إلى الزنج السود، القاطنين عند خط الاستواء، الذي يسمونه بالمنطقة المتقدة.

نيكولا دي كونتي - مقتطف وارد في: **«رحلات بيرو»** تافور ومغامراته 1435 - 1439

في العام الذي أعقب وفاة ماركو بولو ودع فقيه شاب من قبائل البربر عائلته وأصدقاءه في طنجة، قبل أن يستهل عمراً من الترحال. وكما قيل عن التاجر البندقي في حياته إنه ما من رجل آخر «عرف أو استكشف أرجاء عديدة على هذا النحو من العالم» فكذلك سيقال عن ابن بطوطة إنه «لا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحالة العصر»[1]. وقد مضى الرجلان كلاهما إلى الصين والهند، وأبحرا كلاهما عبر المحيط الهندي، لكن ابن بطوطة أوغل في الترحال قاطعاً شوطاً أبعد، وذلك بالقيام بزيارتين إلى أفريقيا. وربما قطع 75000 ميل، مقارنة بـ 60000 ميل قطعها ماركو بولو، ولكن الهيمنة الثقافية من قبل أوربا المسيحية منحت التاجر البندقي الشهرة، بينما تراجع القاضي المغربي العجيب إلى ظلال الغموض النسبي هناك.

وكما تقاطعت حياة كل من الرجلين، فإن طرقهما تقاطعت في العديد من أركان العالم النائية. وفضلاً عن ذلك فإنهما كراويين يشتركان في العديد من الأمور؛ فكل منهما يستمتع بسرد طرائف غير مألوفة، على الرغم من أن حكايات ماركو غالباً ما تتسم بذلك المزيج المميز المنتمي إلى القرون الوسطى من الهزل والواقعية، الذي نجده عند تشوسر وبوكاشيو، بينما ابن بطوطة، وعلى نحو ما يتفق مع مهنته، ويليق بالتقوى كما يدعو إليها الإسلام، أكثر تحفظاً في روايته، وإن كان لم يخف قط حماسه للحياة.

ويتمثل الفارق الأكثر بروزاً بينهما في أن ابن بطوطة يستخدم ضمير المتكلم المفرد بمزيد من الحرية، ويبقي نفسه على الدوام في قلب دائرة الأحداث. ونص كتابه هو مزيج من أدب الرحلات والسيرة الذاتية.

وعلى الرغم من أن الرجلين يبالغان بين الحين والآخر فيما يتعلق بعدد سكان المدن النائية، أو أعداد من لقوا مصرعهم في الحروب، أو قيمة ثروات الحكام الأجانب (وربما كان هذا هو أصل لقب «المليوني» الذي حمله ماركو بولو) وحيثما أمكن التدقيق في تحقيق مذكراتهما من واقع أدلة مستقلة، يتضح أنهما دقيقان بصورة جوهرية. وفي مناسبات عدة يتماثل وصفاهما للأماكن والعادات للغاية، بحيث يبدو أن هذا التماثل متجاوز تقريباً لكل المصادفات.

ولم يكشف ابن بطولة النقاب قط عما إذا كان قد سمع بماركو بولو، أو ما إذا كان مدركاً لكونه في غالب الأحوال يقتفي أثره عن كثب. ومن الممكن أن يكون قد سمع به بالفعل ذلك أن صلات ابن بطوطة بأوربا كانت قوية بصورة خاصة، وفي الوقت الذي كان يعد خلاله للقيام برحلته الأولى كان مخطوط ماركو بولو قد ترجم بالفعل إلى العديد من اللغات الأوربية. وقد ولد الفقيه المغربي لعائلة تنتمي إلى نخبة البربر الذين كانوا قد استقروا في الأندلس طوال ستة قرون، من العام 711 ميلادية عندما عبروا المضيق في طليعة الجيوش العربية الفاتحة. وتمثل القلب الثقافي لعالم ابن بطوطة في قرطبة وهي مدينة إسلامية، لكنها غنية الصلات بالعالم الفسيح، وتضم سبع عشرة مكتبة تحوي 400,000 كتاب، ولا ينافسها أي مكان آخر في أوربا الغربية كمركز للمعرفة (عكفت دور العلم في الأجزاء المسيحية من إسبانيا على اقتناء المخطوطات العربية التي تضم أعمال بلاد الأغريق وروما الكبرى من قرطبة والمدن الأندلسية الأخرى ثم ترجمتها إلى اللاتينية).

وعلى الرغم من أن الجهد المتجدد لطرد العرب من إسبانيا قد عمّق الهوة بين الديانتين المتصارعتين في إقليم البحر الأبيض المتوسط، فإن الفوارق ظلت غالباً فوارق في الدرجة فحسب، وليست فوارق نوعية، حتى بصدد قضايا إنسانية أساسية؛ مثل الرق. وبينما لم يتحدث ماركو بولو عن امتلاكه للعبيد قط، باستثناء النص في وصيته

في عام 1224 على عتق رجل، ذكر أن اسمه بطرس التتري، فإن «الجمهورية الوادعة» التي ينتمي إليها قد ازدهرت طوال قرون من خلال التجارة في الرقيق، فقد قامت البندقية بشحن الأسرى الذين سقطوا في حروب أوربا إلى الإسكندرية، حيث تتم مقايضتهم بحرير الشرق وبهاراته، كما كانت هناك سوق نشطة للرقيق في كريت، وهي مستعمرة تابعة للبندقية، وسوق أخرى في قبرص يباع فيها الرقيق الزنوج الذين يشحنون بحراً إلى إسبانيا من شمال أفريقيا، ثم يجلبون في قوادس (سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف) عبر البحر المتوسط[2].

ومن جانبه، يتحدث ابن بطوطة ما طاب له الحديث عن الرقيق الذين كانوا بمعيته على الدوام، وبينهم محظية أو أكثر، وخلال سفره في تركيا يلاحظ كخاطرة عنت له، حول مدينة مرّ بها: «واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مرغليطة». ولما تكن إلا جارية، فإن القارئ لا يعود يسمع عنها شيئاً بعد ذلك، غير أن ابن بطوطة حرص على العناية برقيقه، فعندما كان على متن سفينة شرعت في الغرق، فإن أول ما شغله كان مصير محظيته.

غادر ابن بطوطة طنجة وهو في الحادية والعشرين من العمر لأداء فريضة الحج، وتجول على مهل في أرجاء مصر وشرقي المتوسط وسوريا والعراق وإيران وشبه الجزيرة العربية، وخلال عبوره البحر المتوسط سافر على متن سفينة من جنوة، وهو يشيد بالقبطان لطيبته. وقد امتدت رحلته إلى مكة لتتحول إلى إقامة امتدت لما يزيد على العامين، وزادت في رفعة شأنه باعتباره قاضياً، وهذه المكانة التي تشير إليها عباءته وغطاء رأسه المتمثل في عمامة عالية قدر لها أن تجعل ترحاله أكثر يسراً، حيث جعلته جديراً بالتوقير والكرم من جانب الملوك والتجار المسلمين حيثما اختار أن يحل. كما سمحت له بأن يرشح نفسه للقضاء لدى بلوغه مدينة توفي قاضيها، أو إذا حل غضب صاحب الأمر والنهي بشاغل المنصب[3].

وحتى اللحظة التي قرر فيها زيارة أرض الزنج، كانت أسفاره برية في أغلبها، وإلى أماكن لم تبد خطرة أو لا ضرورة لها بالنسبة إلى الفقيه الشاب، الذي لم يفتقر إلى الروح المتوثبة. وبمقتضى شهادته هو نفسه فإنه قد وجد من اليسير عليه مصادقة

الكثيرين، ولكنه كان ضعيفاً بعض الشيء تجاه المكائد السياسية، وكان كريماً لكنه طموح، وتقواه الظاهرية لا يشوبها إلا انغماسه الخاص في المباهج. وقد كان في بعض الأحيان متهوراً تتملكه تارةً نوبات الحماس المفاجئة. ويكشف قراره بالمضي في رحلة بحرية طويلة إلى منطقة نائية من المحيط الهندي عن المغامر الحق الكامن في أعماقه. وعلى الرغم من كونه أفريقياً، بالمعنى الجغرافي المحدد، فقد كان يمكن أن ينظر إلى مسقط رأسه طنجة الحافلة بالنشاط، باعتبارها عالماً بعيداً كل البعد عن أرض الزنج التي كانت تدور حولها شائعات رهيبة، وفي بعض الأحيان كانت تدعى بسواحل السودان أو مجرد بر العجم[4].

ومن المؤكد أن تجربته الأولى في أفريقيا كانت مثبطة، فقد عبر من ميناء عدن المزدهر إلى بلدة تدعى زيلع على جانب البحر الأحمر من القرن الأفريقي، حيث يقول عنها: «هي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة، إلا أنها أقذر مدينة في المعمورة، وأوحشها، وأكثرها نتناً، وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة. ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله». وتمثل سبب آخر من أسباب استقباح ابن بطوطة لهذه المدينة في أن أهلها كانوا ممن يسميهم بـ«الرافضة» حيث إنهم ينتمون إلى إحدى فرق الشيعة، وهو سني متمسك بشدة بمذهبه، ودعمت إقامته الطويلة في مكة ولاءه لهذا المذهب[5]. وهو يصف أهل زيلع، مستخفاً، بأنهم سود الألوان ومدينتهم تسمى «البربرة» (ومن المؤكد أنه لا ينبغي الخلط بينهم وبين البربر ذوي البشرة الفاتحة الذين كانت لبعضهم عيون زرقاء). وما لم يقله عن زيلع هو أنها كانت تستخدم كنقطة تجمع للأسرى الذين يقعون في الأسر في غمار الحروب المستمرة التي تشن ضد مملكة أثيوبيا المسيحية التي تقع إلى الغرب، وكانوا يشحنون بحراً من زيلع إلى عدن باعتبارهم أرقاء.

وسرعان ما أبحرت السفينة التقليدية التي كان ابن بطوطة من ركابها مجدداً من زيلع، ومضت شرقاً إلى المحيط الهندي ثم جنوباً على امتداد خط الساحل الصحراوي إلى مقديشو، في رحلة استغرقت خمسة عشر يوماً، وبالنسبة إلى شخص له خلفية ابن بطوطة فإن مقديشو قد بدت له كذلك مكاناً وحشياً إلى حد بعيد، حيث كان ذبح

الجمال لإمداد شبه الجزيرة العربية باللحوم يعد إحدى المهن الرئيسة (كما قال ماركو بولو، فإن ذبح الإبل في مقديشو كان يتم على نطاق واسع للغاية، بحيث يتعين على المرء أن يراه لكي يصدقه).

غير أن المغربي الشاب كان هذه المرة أكثر سعادة في غمار مضيه إلى البر، فقد صاح أحد أصحابه على متن السفينة بالعسس الذين أقبلوا لملاقاتهم: «ليس هذا بتاجر، وإنما هو فقيه»، ونقل الخبر إلى القاضي المحلي الذي أتى إلى ساحل البحر للترحيب به؛ وعندما نزل ابن بطوطة إلى البر عانقه زميله القاضي الذي كان مصرياً. وتضمنت هذه التحيات إقراراً بمكانته «بسم الله نتوجه للسلام على السلطان».

وفي التو انهمك الزائر في سلسلة معقدة من الطقوس، تمثل أحدها في سكب ماء الورد الدمشقي عليه، ثم تمت استضافته بدار الطلبة (يلاحظ أن للتجار الذين ينزلون في الموانى العربية أماكن مخصصة لهم تعرف بالفنادق). ولم يقابل ابن بطوطة السلطان إلا بعد صلاة الجمعة في الجامع الكبير. وقال له السلطان في إطار الترحيب التقليدي: «قدمت خير مقدم، وشرفت بلادنا، وآنستنا». وانضم ابن بطوطة إلى الموكب الرسمي المنطلق من المسجد، وسمح تقديراً له، بالاحتفاظ بنعليه في قدميه مثل السلطان والقاضي، وعدم السير حافياً، وتصدرت الأطبال والأبواق الموكب، وصولاً إلى سقيفة معدة. وتشبه التحية الرسمية للسلطان هنالك نظيرتها في اليمن، حيث يضع الرجل سبابته في الأرض، ثم يجعلها على رأسه ويقول: «أدام الله عزك».

وكانت هناك مراسيم أخرى في مقديشو لا تشبه أي شيء رآه ابن بطوطة حتى الآن في رحلاته، فلدى مسير السلطان مرتدياً فرجية تحتها ثياب مصر وطروحاتها الحسان، وهو ملتف بإزار حريري، ومتعمِّم بعمامة كبيرة، رفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب. كما كان من المدهش كذلك بالنسبة إلى الزائر أن الرجال في مقديشو لا يرتدون السراويل، وإنما يلفون المآزر حول خصورهم (وتشير عادات اجتماعية عديدة أتى ابن بطوطة على ذكرها إلى وجود تأثير هندي أو إندونيسي قوي يفرض حضوره) ولكن أكثر ما علق في ذهن ابن بطوطة وهو يملي ذكرياته بعد ذلك بأكثر من عشرين عاماً، كان القدر الهائل من الطعام الذي يلتهم

في مقديشو . وكان في استطاعته أن يتذكر الوجبات التقليدية التي كانت تقدم له ثلاث مرات في اليوم بدار الطلبة «وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن، يجعلونه في صحفة خشب كبيرة» ويجعلون فوقه صحاف الكوشان، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول. ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب، ويجعلونه في صحفة، ويجعلون اللبن المروب في صحفة، ويصبون عليه الليمون المصبر، وعناقيد الفلفل المصبر، المخلل والمُملح، والزنجبيل الأخضر، والعنبا (المانجو) وهي مثل التفاح ولكن لها نواة وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة، وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل، وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات» . ويقدر ابن بطوطة أن الواحد من أهل مقديشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة من أبناء المغرب. «وهم في النهاية من ضخام الأجسام» .

وبعد وقت قصير من مغادرة البادية الصحراوية في القرن الأفريقي عبرت السفينة خط الاستواء، وكان ذلك في تلك العهود بمنزلة لحظة رهيبة بالنسبة إلى من تسيطر الخرافات على أذهانهم؛ لأن مجموعات غير مألوفة من النجوم تبدأ في الظهور في السماء ليلاً. ولم يعتقد ابن بطوطة أن ذلك مما يستحق الذكر، فهو يقول: «ركبت البحر من مدينة مقديشو، متوجهاً إلى بلاد السواحل، قاصداً مدينة كلوة(6) من بلاد الزنوج» . ومرت سفينته التي امتلأ شراعها بالرياح الموسمية الشمالية - الشرقية، بموان متوالية أنشأها المهاجرون من شبه الجزيرة العربية. ولم يسمع في العالم الخارجي إلا بأسماء قلة محدودة من هذه الأماكن؛ مثل ممباسا وماليندي. وفي حوالي هذا الوقت راجت شائعات في مصر حول أن ممباسا استولت عليها القرود التي تمضي زحفاً كالجنود، ولم يكن الشاطئ السواحيلي على الطريق يفضي إلى أي مكان آخر، وبالتالي كان الزوار من الفقهاء نادرين.

وربما يعود اهتمام ابن بطوطة بكلوة، بغض النظر عن بروزها على الساحل، في ذلك الوقت، إلى فضوله العام، فيما يتعلق بتجارة الذهب الأفريقية. وفي عام 1324، وهو العام السابق لمروره بالقاهرة، وصل إلى العاصمة المصرية إمبراطور أفريقي في طريقه لأداء فريضة الحج، حاملاً كمية هائلة من الذهب، حتى إن الذهول سيطر على

العالم العربي. وقد كان هذا الحاكم هو سليمان منسي موسى، الذي وصل إلى مصر بصحبة 8000 محارب و500 عبد، يحملون عصياً ذهبية و100 جمل تحمل ما زنته 500,000 أوقية من الذهب. وأدى إسراف سليمان في إنفاق ثروته إلى تراجع سعر الذهب في مصر على امتداد عقد من الزمان. وكان من المعروف أنه يسيطر على المناجم في موضع ما على الجانب الجنوبي من الصحراء، ولكن امتداد أفريقيا كان لغزاً غامضاً، وأبعاد العالم يساء تصورها إلى حد كبير بحيث إنه كان من السهل الظن بأن الذهب الذي يصدر من بلاد الزنج قد جاء من المصدر ذاته (كانت مناجم أفريقيا الغربية، في حقيقة الأمر، على بعد هائل من زيمبابوي، ولكن ذلك لن يغدو جلياً إلا بعد قرنين تقريباً).

وقد تكون زيارة ابن بطوطة لشرقي أفريقيا كذلك تلبية لدعوة تلقاها من أحد الأعيان البارزين، فقد توجه الحسن بن سليمان سلطان كلوة إلى مكة وأمضى عامين في شبه الجزيرة العربية عاكفاً على دراسة «العلم الروحاني». وقد ارتبط أداء فريضة الحج باكتساب مكانة رفيعة، خاصة لدى القدوم من مكان بعيد؛ مثل بلاد الزنج. وكان استقبال السلطان في مدينته فقيهاً عالماً التقاه خلال ترحاله مفخرة أخرى له.

من المؤكد من واقع الصورة التي رسمها ابن بطوطة أنه كان حريصاً على الوصول إلى كلوة، ذلك أن وصفه لميناء أمضى فيه ليلة في الطريق إلى كلوة تعوزه الحماسة، وهو يقول إن هذا الميناء هو ممباسا، ولكنه على الفور يجعل ذلك أمراً غير محتمل، بوصف المكان بأنه «جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر». ومن الواضح أن هذا يعكس خلطا بين ممباسا ومكان آخر، ربما بمبا أو زنجبار أو منفية. وقد تذكر أن أكثر طعام أهل الجزيرة الموز والسمك، ولا زرع عند أهلها، وإنما يجلب إليهم من السواحل، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان، فيستقون منها الماء بقدح من خشب، قد غرز فيه عود رقيق في طول الذراع، والأرض حول البئر والمسجد مسطحة، فمن أراد دخول المسجد توضّأ ودخل، فوجد على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه.

وأوصله الترحال بعيداً باتجاه الجنوب، مجاوزاً ساحلاً تغلب عليه مستنقعات شجر القرم، إلى كلوة أخيراً. وقد وصفها بأنها «من أحسن المدن وأتقنها عمارة»[7]. ولعله أبصرها لأول مرة في أوائل عام 1331 ميلادية، بينما السفينة تلج القناة الملاحية الممتدة بين الجزيرة والبر الأفريقي. وقد كان هاهنا مرفأ طبيعي ممتاز، يمكن للسفن من مختلف الأنواع أن تلقي مراسيها فيه، أو تدفع وصولاً إلى الشواطئ. وعلى مرمى النظر هناك العديد من الجزر الأصغر حجماً، كان يوجد تجمع سكاني على إحداها، وتدعى منارة سونجو من بين الأراضي التابعة للسلطان.

وانتصبت مدينة كلوة الرئيسة بمعاقلها الدفاعية عالية عند البحر، في مواجهة البر الأفريقي مباشرة، وقد تضامّ العديد من دورها معاً، ولكن دوراً أخرى أحاطت بها الحدائق والبساتين، وزرعت الحدائق بكل أنواع الخضر، وكذلك الموز والرمان والتين، وتوافرت في البساتين المحيطة بالمدينة ثمار البرتقال والمانجو وفاكهة الخبز. وكان العسل هو المادة الغذائية الوحيدة تقريباً التي تجلب من البر الأفريقي.

وعندما وصل ابن بطوطة إلى كلوة في شهر شباط/ فبراير، لم تكن تفتقر إلى الخضرة الوافرة، فقد كان وصوله في منتصف الموسم المطير الذي لا تنسى بسهولة أمطاره الدافقة، وقد تذكر أن «الأمطار بها كثيرة» ومع ذلك فإنه في بعض اللحظات تخونه ذاكرته تماماً؛ فهو يقول إن المدينة مبنية كلها بالخشب. ومن المؤكد أن تلك لم تكن الحال لدى وصوله إلى كلوة، حيث أقيم أول مسجد حجري في الجزيرة قبل قرنين، وقد حل محل ذلك المسجد في وقت لاحق، بناء أكثر فخامة بخمسة أروقة وسقف مقبب، ترفعه أعمدة حجرية، وكان من شأنه أن يثير حسد الموانئ الأخرى المجاورة التي لا يوجد بها شيء يوضع موضع المقارنة مع هذا المسجد.

وكان هناك كذلك قصر منيف يقع إلى الشمال من المدينة يضم العديد من الغرف والأفنية المفتوحة[8]؛ ومن معالمه وجود مسبح دائري. وتوافق هذا البناء ذو التصميم البديع مع الانحدار الوئيد للأرض، وصولاً إلى حافة صخرة كان من الممكن للقوارب أن ترسو تحتها. وكان هذا القصر مقراً للسلطان، ولابد أن ابن بطوطة تم استقباله هناك، ومن المحقق أنه قد تناول طعامه في آنية من الخزف الصيني، من السيلادون

الأخضر والخزف الأبيض والأزرق المزخرف بصور زهور الأقحوان والفاوانيا واللوتس، فقد كانت الأواني الشرقية تستورد بكميات كبيرة للغاية، حتى إن العديد من سكان كلوة الأثرياء درجوا على تثبيتها على الجدران في أبنيتهم، كنوع من الحلى المعمارية.

ولابد أن كلوة قد احتاجت في بنائها وصيانتها إلى قدر هائل من قوة العمالة الأفريقية، وكان معظم قاطنيها من الزنج، الذين يصفهم ابن بطوطة بأنهم «مستحكمو السواد» ولهم شرطات في وجوههم ترمز إلى قبائلهم، ومعظمهم من العبيد. وشوهد في الشوارع التي تغص بالحركة بعض أبناء الجنسيات الأخرى؛ ومنهم الزوار من التجار وأتباعهم. وتوافرت مقار إقامة تضم غرفاً لممارسة التجارة فيها قرب المسجد وخصصت للتجار، ولكن لم يكن كل التجار من المسلمين، فقد كان بعضهم من الهندوس الذين أبحروا مباشرة عبر المحيط قادمين من الهند بالاستعانة بالرياح الموسمية الشتوية الشمالية الشرقية، وأقبلوا من ميناء كامباي (كنباية) العظيم في جوجارات (جوزرات) وغيره من المراكز التجارية الأبعد باتجاه الجنوب على امتداد ساحل المالبار. وإلى جوار الأقمشة وغيرها من السلع المصنعة حملت سفنهم الأرز الذي جلب لهم أرباحا طائلة.

ويقول ابن بطوطة إن سلطان كلوة كان منهمكاً في الجهاد ضد الموللي، وهم سكان البر الأفريقي: «كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج، يغير عليهم ويأخذ الغنائم». وبتعبير أكثر وضوحاً، فإن السلطان الحسن بن سليمان كان مشغولاً بشن غارات الاسترقاق[9] ولكن هذا لم يبد مصدراً للشعور بالصدمة على الإطلاق، في عصر كان الاسترقاق جزءاً لا يتجزأ من الحياة. ومن منظور ابن بطوطة فإن السلطان الذي عرف كذلك بلقب أبي المواهب كان رجلاً ملتزماً بأحكام الشريعة؛ فهو يُخرج خمس الغنائم، ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم[10]. ولثقة الشرفاء بكرمه كانوا يقصدونه من العراق والحجاز وسواهما. ويصل ابن بطوطة إلى القول: «هذا السلطان يزينه تواضع شديد، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم، ويعظم أهل الشرف والدين».

وقد اختار الفقيه المغربي الشاب ألا يغامر بالذهاب إلى سفالة، التي أبلغه بعض التجار أنها على مسيرة نصف شهر إلى الجنوب من مدينة كلوة. وكان عدم التيقن من الطقس السائد في المسافة بين سفالة ومدغشقر أرض الكفرة من الواق واقيين، يعني أنه يخاطر بعدم التمكن من الإبحار عائداً عبر خط الاستواء، مع وصول الرياح الموسمية الجنوبية الغربية. كما كان هناك خطر هبوب الأعاصير في الجزء الجنوبي من المحيط، وهكذا فإنه عندما تغير اتجاه الرياح الموسمية لم يتأخر ابن بطوطة، لأنه في الأشهر الوسيطة من العام كان هناك احتمال لهبوب عواصف عنيفة؛ فاستقل سفينة أخرى اخترقت أعالي البحار إلى شبه الجزيرة العربية، ومن هناك سلك الطريق الدائري إلى الهند.

وتقدم رحلة ابن بطوطة إلى شرقي أفريقيا في عام 1331 التي تعد مغامرته الأولى في ساحة حضارة المحيط الهندي صورة شاهد عيان للساحل، بعد هوة زمنية امتدت عدة قرون وكانت بالنسبة إليه منعطفاً في حياته العملية، فمن الآن فصاعداً، بفضل دأبه على استكشاف ما يكمن وراء الجبل التالي طوال عمره، أصبح ابن بطوطة، وبعد المدينة التالية، وعبر البحر التالي، في عيون المسلمين رائداً للمغامرين في العصور قبل الحديثة.

الفصل الثامن

مغامرات في الهند والصين

ليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نُمي إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه.

المسعودي ـ **«مروج الذهب»**

إن ما يميز مذكرات ابن بطوطة عن الكثير من يوميات الترحال الأخرى المضجرة، ليس نزوعه إلى تسجيل ما هو محير وعجيب ومدهش فحسب، وإنما كذلك النحو الذي يفصح به عن جوانب شخصيته، فهو في بعض الأحيان تيَّاه فخور، وفي أحيان أخرى حساس سريع التأثر وبعيد عن الحزم، ثم على استعداد للسخرية من حماقته التي جلبت له سوء الحظ. وبعد ستة قرون وفي ترجمة لكتابه عن العربية، تبدو فرديته مؤكدة لذاتها. وترتبط قدرته على البوح بمكنون نفسه عن كثب بموهبته في وضع يده، عبر جملة أو جملتين، على عادات الآخرين وأعرافهم.

وتتجسد براعة ابن بطوطة في وصفه للحياة على متن السفن التجارية الصينية الكبيرة، المعروفة باسم الجنوك التي كانت تشاهد بصورة متزايدة، وهي تبحر إلى موانى المحيط الهندي. ويكتب ابن بطوطة موافقاً، ومردداً ما ذكره ماركو بولو عن أسباب الراحة والترف المتاحة للتجار: وربما كان الرجل في جناحه الخاص، فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب، حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد. وهذه الأجنحة التي تتألف من العديد من الغرف، ومن حمام، يمكن أن يغلقها شاغلها الذي «يحمل معه أهله وجواريه». وهو يضيف لمحة عاجلة عن الحياة في باطن السفينة: «والبحرية يسكنون فيها أولادهم، ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب».

ووفقاً للعرف الصيني فإن أهم شخصية في تسيير هذه السفن العملاقة بدقلاتها الاثني عشر وأسطحها الأربعة، لم يكن القبطان، وإنما وكيل المركب الذي ينوب عن

المالك، وكما يذكر ابن بطوطة فإن الوكيل «كأنه أمير كبير» وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والأحباش بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق والأنفار أمامه.

وتكشف هذه الإشارة إلى الأحباش على متن السفن الصينية في القرن الرابع عشر الميلادي الكثير؛ ذلك أن هذا الاصطلاح يرتبط على الدوام بمن أتى من مكان ما على الجانب الشرقي لأفريقيا. وفي موضع آخر من الكتاب يقول ابن بطوطة إن الأحباش كانوا يستخدمون على امتداد المحيط الهندي كحراس مدججين للسفن التجارية، وكان وجود الواحد منهم وحده كافياً لإخافة القراصنة وإبعادهم. وهو يتحدث كذلك عن عبد حبشي يدعى بدراً، كانت بسالته في الحرب من الوضوح بحيث إنه عين حاكماً لمدينة هندية «وكان طويلاً ضخماً يأكل الشاة عن آخرها في وجبة، وأُخبرتُ أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه، على عادة الأحباش ببلادهم».

وقد نقل الكثير من الأفارقة إلى الهند، بمعية التجار العرب الذين استقروا في موانيها خلال القرن الرابع عشر الميلادي، ونقل آخرون للعمل كحراس للقصور، وكان هناك تدفق بشري في الاتجاه المقابل، فقد عبر التجار الهندوس من ميناء كامباي (كنباية) العظيم في شمال غرب الهند المحيط للإقامة في كلوة وزنجبار وعدن وموان مطلة على البحر الأحمر.

عندما وصل ابن بطوطة إلى الهند كان نسيج ثقافتها العتيقة يمزق إربا، وكان شبه القارة الهندية بأسره يتعرض للتهديد من أتراك آسيا الوسطى محبي الحرب، الذين غزوا الهند عبر الممرات الجبلية وأودية الشمال الأفغانية، وراحوا يدمرون الممالك الهندوسية العتيقة التي تقع في طريقهم واحدة تلو الأخرى. غير أنه لما كان الفاتحون مسلمين، فقد فتحت أبواب عديدة أمام ابن بطوطة، فمكّنه هذا من أن يقدم صورة فريدة للأسلوب الذي كان هؤلاء الفاتحون يحكمون به وسط روائع شمال الهند. ولما لم يكن مضيفوه عرباً فقد كان في قدرته النظر إليهم على نحو يفتقر إلى الكثير من الحماس.

وصل ابن بطوطة إلى دلهي في عام 1333، وكان الجالس على عرشها هو السلطان محمد بن تغلق، الذي يطلق على نفسه اللقب التشريفي «خوند عالم» أو «سيد

العالـم»[1]. وكـان قد قتل أباه ليستحوذ على السلطة وضرب عنق أخيه غير الشقيق، عندما تشكك في ولائه. حفلت تجارب ابن بطوطة مع السلطان خلال السنوات العديدة التي أمضاها في دلهي، بخطر إلقائه في قفص حديدي مع نمر مولع بالتهام البشر.

وقبل وقت قصير من وصول ابن بطوطة قام السلطان بإجلاء أهل دلهي عنها، كعقاب لهم على عدائهم الذي أعربوا عنه في رسائل مكتوبة كانوا يلقونها كل ليلة في ديوانه. وفي غمار غضبه أمر السلطان محمد بن تغلق أهل دلهي جميعاً بمغادرتها تواً إلى إقليم بعيد، ثم أمر بالبحث عن أي شخص لم يطع أمر الإجلاء، وكما يبلغنا ابن بطوطة فإن عبيد السلطان «وجدوا بأزقتها رجلين، أحدهما مقعد والآخر أعمى» فَجُلبا للمثول أمام السلطان الذي أمر بالمقعد فرمي في المنجنيق، وأمر أن يجر الأعمى من دلهي إلى دولة أباد مسيرة أربعين يوماً «فتمزق في الطريق ووصلت منه رجله».

ويقوم ابن بطوطة بمحاولة تفتقر إلى الحماس، في سياق حديثه لالتماس العذر للسلطان عن وحشيته؛ بضرب أمثلة لمعاملته الكريمة للغرباء. وهو نفسه تمتع لبعض الوقت بكرمه، ثم يبدو أن الكبر قد داخله، لأنه باعترافه بدأ في التصرف على نحو يتسم بالتهور، فعندما قرر السلطان المضي في رحلة صيد، خرج للصيد أيضاً، وصحب جمعاً من الكيوانية والكهارين والفراشين والدوادية*. وسرعان ما أصبح الإسراف المستمر من جانب القاضي المغربي الشاب حديث البلاط. وكما يحكي ابن بطوطة دونما خجل، فإن «خوند عالم» بعث له بالفعل ثلاث بدر تحتوي على 55000 دينار ذهباً ليدفعها إلى دائنيه. وربما كان هذا أيضاً هو أسلوب السلطان في تعويض ابن بطوطة عن إعدامه أحد مسؤولي البلاط الذي بدا منه التمرد، وهو شقيق امرأة من النبلاء، تدعى حرة النسب، كان ابن بطوطة قد تزوجها بعد وقت قصير من بلوغه دلهي.

وشقت صداقته المتقلبة للسلطان منعطفاً نحو الأسوأ، عندما مضى للإقامة مع الشيخ كمال الدين عبدالله الغاري، وهو إمام زاهد ورع اشتهر بلقب «الغاري» حيث كان يقيم في غار تحت الأرض بضواحي دلهي. ولم يكن السلطان يثق بالغاري؛ وأمر بتعذيبه وضرب عنقه بالسيف[2]. وقبل ذلك استدعى السلطان ابن بطوطة وبادره

* الكيوانية: سائسو الخيل. الكهارون: الحمالون أو العتالون. الفراشون: الخدم الخصوصيون. الدوادية: العدّاؤون. (المحرر)

بقوله: «إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولاً إلى ملك الصين؛ فإني أعلم حبك للأسفار والجوّلان». فسارع ابن بطوطة الضيف صعب المراس إلى تقبل هذا الاقتراح، وكان كل منهما سعيداً لأنه سيودع الآخر إلى غير رجعة.

وفي معرض الاستعداد للسفر، طلق ابن بطوطة زوجته حرة النسب، التي كانت قد وضعت ابنته لتوها. ومن الجلي أن التوطن بالهند لم يعن له الكثير مقارنة بمهمة قيادة حملة كبيرة تجتاز طريقها براً وبحراً. وكان خمسة عشر مبعوثاً قد وصلوا مؤخراً من قبل خان الصين العظيم، حاملين معهم هدايا، شملت 100 مملوك، وأحمالاً عديدة من الأقمشة الحريرية، والأثواب المرصعة بالجوهر، والسيوف المرصعة. وما كان لأحد أن يفوق السلطان في قيمة هداياه. وهكذا أرسل بالمقابل 100 مملوك و100 جارية هندية من مغنيات وراقصات، و100 فرس من الجياد مسرجة ملجمة، و15 من الفتيان، وشمعدانات ذهبية وفضية وثياباً من الحرير والعديد من الكنوز الأخرى. وكان زميلا ابن بطوطة في السفارة هما ظهير الدين الزنجاني والفتى كافور الشربدار، وإلى أن يصلوا إلى الموضع الذي سيركبون منه البحر على الساحل الغربي للهند، تقرر أن يصاحبهم 1000 فارس.

ولم ينطلق هذا الموكب الذي يضم مبعوثي خان الصين العظيم الخمسة عشر، ومعهم خدمهم، إلا أياماً قلائل بلغ بعدها مدينة تتعرض للهجوم من قبل «الكفار» أي الهندوس من أعداء السلطان؛ فقرر ابن بطوطة وزميلاه استخدام القوة المرافقة لهم لشن هجوم مضاد مفاجئ. وقد كلل هذا الهجوم بالنجاح، مع التغاضي عن هامش من التفاخر من جانب ابن بطوطة، وتم قتل الكفار عن آخرهم، ولكن من الخسائر البارزة التي حلت بهم مصرع الفتى كافور الشربدار، الذي كانت مسؤوليته الخاصة رعاية الهدايا المرسلة لحاكم الصين. وقد أرسل مبعوثاً إلى نيودلهي لإبلاغ السلطان بما وقع.

وفي غضون ذلك غرق ابن بطوطة في سلسلة من الغارات والاشتباكات مع العدو، وسرعان ما حلت كارثة بساحته؛ فقد انفصل عن الفرسان المرافقين له وطارده الهندوس، فاختبأ في خندق عظيم وفقد فرسه، وسرعان ما وقع أسيراً وسلبت ملابسه الثمينة وأسلحته، ومن بينها سيف محلّى بالذهب، وتوقع أن يقتل في أي لحظة.

وفي هذه اللحظة الحرجة ساعده شاب على الهرب، ومنذ ذلك الوقت تتسم الصورة التي رسمها ابن بطوطة للمحن التي حلت به بطابع شبيه بالحلم، فهو يضرب في القرى المخربة ملتقطاً النبق من شجر أم الغيلان والسدر، وباحثاً عن الماء، وهو يختبئ في حقول القطن والدور المهجورة، ويجد شبه خابية كبيرة تستخدم لاختزان الزرع، فيدخلها من نقب في أسفلها، ويجد فيها بعض القش وحجراً يتخذه وسادة. «وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل، وأظنه كان يخاف، فاجتمعنا خائفين».

وبعد ثمانية أيام من التجوال يجد ابن بطوطة بئراً غير مطوية، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض، وفي غمار سعيه اليائس للاستقاء، ربط خرقة كانت على رأسه بالحبل، وامتص ما تعلق بها من الماء، ولكن العطش ظل يستبد به فربط خفه واستقى به. وفي المحاولة الثانية فقد أحد خفيه، فشرع في استخدام الآخر للغرض نفسه.

وفي هذه اللحظة العصيبة لاح له «رجل أسود» وحياه بتحية الإسلام، لقد دنا الخلاص! ذلك أن الغريب لم يقدم له الطعام من جراب كان يحمله ولم يستق الماء بإبريق فحسب، وإنما حمل ابن بطوطة عندما تهاوى عاجزاً عن السير، ثم اختفى هذا الشخص الغامض بعد أن وصل بالعبء البشري الذي حمله على كاهله إلى مشارف قرية مسلمة.

وبعد لحاقه برفاقه واستعادته لدوره كسفير، علم أن السلطان قد بعث بفتى يسمى سنبل الجامدار عوضاً عن كافور الذي وافته المنية، واستأنفت البعثة مسيرتها إلى الساحل. ولما كان التقدم الآن في المسير خالياً من الحوادث نسبياً، فقد أتيح له الوقت لدراسة السحرة الجوكية* الهنود، وهم مدهشون بالنسبة إلى ابن بطوطة، على نحو ما كانوا من منظور ماركو بولو، ويقول عنهم الفقيه المغربي: «هؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب؛ منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وكثير منهم تحفر له حفر تحت الأرض، وتبنى عليه، فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم بها الشهور، وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة».

* كلمة الجوكية مترجمة عن كلمة Yogis السنسكريتية الأصل، وتعني: مزاول أو ممارس تمرينات اليوغا، أو أحد أتباع فلسفة اليوغا. (المحرر)

انطلقت البعثة من مدينة إلى أخرى، فبلغت الساحل قرب ميناء كامباي (كنباية) العظيم، واستقلت أسطولاً مضت على متن سفنه جنوباً، ومرت بالعديد من الموانى التي كان ماركو بولو قد زارها قبل نصف قرن؛ ومن هذه الموانى ميناء هيلي الذي يقول عنه ابن بطوطة: «وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين». وهو يضيف إنه «على خور عظيم تدخله المراكب الكبار» وقد وصف سابقه البندقي هذا الميناء بأنه يقع «على نهر كبير له مصب بديع».

وفي نهاية هذه الرحلة نقلت بعثة السلطان للصين، بكل مماليكها وفتيانها وجيادها، إلى الجنوك[3]، وهذه السفن كان من المقرر لها أن تبحر باتجاه الجنوب الشرقي إلى سومطرة، ثم شمالاً إلى زيتون، التي تعرف بكوانزو أيضاً، وهي المرفأ الواقع في جنوب شرقي الصين، وتفرغ فيه معظم السفن الأجنبية شحناتها. وكان المكان الطبيعي للانتقال إلى الجنوك هو كالكوت، وهو ميناء أنشئ قبل نحو أربعين عاماً، وحقق الهيمنة بالفعل على تصدير الفلفل من ساحل المالبار بأسره، وكان جانب كبير من الفلفل وغيره من التوابل التي تم الاتجار بها هناك تأخذ طريقها إلى أوربا.

وسيقدر لكالكوت (أو على نحو أكثر دقة كولي كوداي، أي «حصن الديك») أن تؤدي دوراً محورياً في تاريخ المحيط الهندي، وسيقدر لاسمها ذاته أن يصبح التحدي المعذب، المرادف تقريباً لشراء جزر الهند. ولدى دخول بعثة ابن بطوطة إلى مرفأ كالكوت أحصى ثلاث عشرة من الجنوك الكبار راسية هناك، كما كان هناك العديد من السفن الصينية الأصغر حجماً، ذلك أن كل جنك تصحبها في البحر سفن إمداد وتموين. وأتيحت له الآن ثلاثة أشهر، ينتظر خلالها هبوب الرياح الموسمية، في الاتجاه الملائم للرحلة، وهكذا فقد أمضى هذا الوقت في معرفة كل ما يستطيع عن هذا المكان.

كان حاكم كالكوت رجلاً مسناً يحلق لحيته بشكل مربع «على نحو ما تفعل طائفة من الروم» ويحمل لقب السامري المتوارث الذي يعني ملك البحر. وكان من العوامل التي تفسر شعبية كالكوت المتزايدة لدى التجار والقباطنة أن كل مركب انكسر يرجع ما يخرج منه إلى أصحابه، في أي موضع من الساحل الواقع تحت سيطرة السامري، أما

في كل مكان آخر على امتداد الساحل فإن البضائع التي يلقيها البحر من المراكب الغارقة يصادرها الحكام المحليون. ولم يكن السامري مسلماً وإنما هو هندوسي، ولكنه وفر دوراً لكل مبعوثي السلطان[4]. وعندما أوشكت الرياح الموسمية على الهبوب باتجاه الجنوب، وآن أوان الرحيل إلى الصين، حرص على توفير أماكن لهم على إحدى أكبر الجنوك.

غير أن كارثة تمثل مخاطر السفر في المحيط الهندي كانت على وشك الحدوث، ولم ينج ابن بطوطة منها إلا بمحض المصادفة، وذلك من خلال إصراره على توفير ضروب الراحة الشخصية لنفسه، وكان قد قال لوكيل الجنك التي ستسافر عليها البعثة: أريد جناحاً لا يشاركني فيه أحد لأجل الجواري، ومن عادتي ألا أسافر إلا بهن. غير أن تجار الصين كانوا قد استأجروا الأجنحة ذاهبين وراجعين؛ ولذا قرر أن ينتقل ومن بصحبته إلى أحد المراكب.

وكانت الجنك الراسية قبالة الساحل توشك على الإقلاع، عندما طرحها البحر ليلاً على الساحل؛ وغرق جميع من فيها، بمن فيهم ظهير الدين والفتى الثاني الذي عين لرعاية الهدايا المرسلة للحاكم الصيني.

وقد تأخر ابن بطوطة في ركوب المركب لأنه أراد الذهاب إلى جامع المدينة للمرة الأخيرة قبل ركوب البحر، وهكذا فقد كان واحداً ممن مضوا بعد العاصفة، فوجدوا الشاطئ مفروشاً بالجثث المتناثرة، وقد نجا المركب من الكارثة برفع الشراع والذهاب في طريقه، تاركاً ابن بطوطة على البر، وحاملاً كل غلمانه وجواريه ومتاعه (وهو في سرده لهذا يأتي على ذكر المتاع أولاً). وبقي منفرداً على الساحل، ليس معه إلا فتى كان قد أعتقه، وبساطاً يفترشه، وعشرة دنانير، وأما هذا الفتى الذي كان قد أعتقه فإنه «لما رأى ما حل بي، ذهب عني».

وهكذا حاق الدمار بالبعثة المرسلة إلى الصين، التي كانت قد انطلقت وسط كل مظاهر الترف والفخامة. وفكر ابن بطوطة في البداية في العودة إلى دلهي، ثم خلص

إلى أن السلطان المتهور قد يصب عليه جام غضبه من جراء الكارثة، ونظراً لحرصه على استعادة متاعه وغلمانه وجواريه، فقد انطلق جنوباً باتجاه ميناء كيلون (كولم) بعد أن أكد له الناس أن المركب لابد أن يدخل هذا المرسى، وكان جزء من الرحلة يتم عبر النهر، فاستأجر رجلاً من المسلمين يحمل له البساط، ولكن في كل ليلة كان الخادم الجديد يمضي إلى حافة النهر «يشرب الخمر عند الكفار» ويعربد على ابن بطوطة فيزيد تغير خاطره.

وعلى الرغم من انشغال ابن بطوطة بما حل به من كوارث، فقد أفلح في الاهتمام بما يمر به ملاحظاً على سبيل المثال أن مدينة بأعلى جبل كل سكانها من اليهود[5]. ولكنه عندما وصل إلى مدينة كيلون (كولم) بعد عشرة أيام، لم يجد أثراً للمركب الذي كان يأمل في العثور عليه هناك، وهكذا فقد دفع للعيش على ما يجود به الأجواد، وظهر بعض السفراء الصينيين الذين صحبوه في مسيرته من دلهي، وهم على مثل حاله، فقد غرقت الجنك التي استقلوها، وكانوا يرتدون ثياباً خلعها عليهم التجار الصينيون في المدينة.

ولما لم يكن حول ابن بطوطة أبناء جلدة يلتمس منهم العون، فقد حار فيما يفعله للإفلات من حالة العوز التي بلغها، حيث فقد أوراق اعتماده سفيراً من قبل السلطان، وكل الهدايا المرسلة إلى خان الصين العظيم استقرت في قاع البحر أو تبددت. وباعتباره قاضياً، فإنه يتمتع بالمكانة التي تلزم الحكام المسلمين بالحفاوة به، ولكن من دون المعية التقليدية من العبيد أو الملابس أو المظاهر المرتبطة تقليدياً بمهنته كان من المتعذر عليه أن يحظى بالكثير من التوقير. وقرر بالفعل أن يجرب حظه مع حاكم مدينة تقع شمالاً على الساحل وهي ميناء هنور، وهو يقول بهذا الصدد: «ووصلنا إلى مدينة هنور، فنزلت إلى السلطان وسلمت عليه؛ فأنزلني بدار، ولم يكن لي خديم».

وقد كان هذا إذلالاً قاسياً، ولكن الحاكم طلب من ابن بطوطة أن يصلي معه الصلوات. ويقول في هذا الشأن: «كان أكثر جلوسي في مسجده، وكنت أختم القرآن كل يوم، ثم كنت أختم مرتين في اليوم». فقد كان في أشد الحاجة إلى عون من السماء.

ولم تبدأ الأمور في التحسن إلا عندما قرر السلطان الشروع في الجهاد ضد حاكم سندابور الهندي (وقد عرفت سندابور في وقت لاحق باسم جوا). وفتح ابن بطوطة المصحف تيمناً، فوقع بصره في أول الصفحة على قوله تعالى «ولينصرن الله من ينصره». وعلى الرغم من أنه ليس رجلاً محارباً بطبيعته، فإن ذلك أقنعه بأنه ينبغي أن يكرس خدماته من أجل الجهاد. ويعقب ذلك هجوم عنيف، ولكنه قصير الأمد، ويقع القصر في أيدي الفاتحين، بعد رميه بمقذوفات نارية، ويقول ابن بطوطة في هذا الشأن: «وأنزل الله النصر على المسلمين».

لقد أظهر ابن بطوطة جلده وقدرته على الاحتمال، وبدأ نجمه يعلو من جديد، بل إنه لدى عودته إلى كالكوت استمع رابط الجأش إلى الأنباء التي تلقاها من غلاميه اللذين كانا على متن المركب الصيني، الذي أبحر خلال العاصفة المأساوية، فقد بلغ المركب سومطرة في أمان، ولكن حاكمها وضع يده على غلمان ابن بطوطة، وسُرق متاعه كذلك. وتفرق كل رفاق ابن بطوطة في البعثة، الذين نجوا، وذهب بعضهم إلى سومطرة، والبعض الآخر إلى البنجال، ومضى الباقون في طريقهم إلى الصين. أما النبأ الأسوأ فهو أن جارية كانت توشك على أن تنجب ابناً له قد وافتها المنية، كما مات وليده من جارية أخرى في دلهي.

وفي أعقاب هذه السلاسل من الكوارث، تخلى ابن بطوطة عن كل تفكير في شد الرحال إلى الصين لعدة سنوات، ومضى يضرب من دون هدف في جنوبي الهند وسيلان مرتبطاً بحسب الفرص المتاحة، بحكام مسلمين وهندوس وبوذيين. وقد أثار انزعاجه شيوع الجريمة الذي صادفه في البر والبحر، وألوان القسوة التي تحيق بالرجال والنساء والأطفال على حد سواء. ولكن طريقة الحياة تلك أتاحت فرصاً عديدة لمن له تجربته ولمن يتمتع بموهبته في الاستفادة من الفرص السانحة المواتية.

وفي بعض الأوقات كان من الممكن للمواقف التي يصادفها أن تقتضي منه الكثير، على نحو ما حدث عندما زار جزر المالديف أو ذيبة المهل(6)، التي تقع على مسيرة عدة أيام بحراً إلى الجنوب الغربي من البر الهندي الرئيس. وذكرته هذه المئات من الجزر

المرجانية الناتئة بأشجار نارجيلها وشواطئها الرملية بجزر الساحل الأفريقي. وكانت جزر ذيبة المهل مزدهرة؛ ويعود ذلك في أحد جوانبه إلى الوفرة التي يبدو أنها لا نهاية لها، للودع القابع في المياه الضحلة القريبة من الشواطئ، والذي كان يصدر على امتداد قرون إلى شمال الصين لاستخدامه كعملة، وكما ترسل سفن محملة به في الاتجاه المقابل كل عام إلى أفريقيا، وذلك لاستخدامها للغرض نفسه[7].

لم تكن جذور الإسلام ضاربة بعمق هنا؛ فقد دخل هذه الجزر على يد زائر من فارس في عام 1153، وقبل ذلك كان السكان يعتنقون ديانة تجمع بين الهندوسية والبوذية، ويذهب ابن بطوطة إلى القول بأنه حاول إخفاء هويته لدى قدومه، خوفاً من أن يمنعه الحكام من الرحيل، حيث لم يكن لديهم قاض، ومع ذلك فإنه سرعان ما تم التعرف عليه، وهو يقول بهذا الصدد: «لم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب إليهم معرفا بخبري، وأني كنت قاضياً ربما بدلهي»[8]. وفي حقيقة الأمر فإن المرء يصعب عليه تجنب الظن أنه كان على تمام الاستعداد لتقديم خدماته إذا ما طلب إليه ذلك.

وسرعان ما انهالت الهدايا على ابن بطوطة، من الوزير الأول وغيره من علية القوم؛ ومنها جاريتان، وأثواب حريرية، ووعاء فيه جوهر وحلي، وخمس من الغنم و100000 ودعة. وسرعان ما وجد المغربي المقدر عالياً نفسه وقد عرضت عليه الزوجات من بين بنات العائلات الحاكمة المتنافسة، فاتخذ أربعاً منهن، بحسب ما تسمح له به الشريعة الإسلامية. وإجمالاً، فإنه في غضون الشهور الثمانية التي أمضاها في ذيبة المهل، تزوج ست زوجات مختلفات، وكان ذلك متجاوباً تماماً مع ما جرى به العرف لدى أبناء هذه الجزر: «إذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء، فإذا أرادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة».

وإذ لم يكن هناك كبير مجال للاختيار أمام ابن بطوطة، فقد تقلد القضاء في جزر ذيبة المهل، وانطلق في أداء مهامه بمضاء، وكان تفسيره للشريعة أشد صرامة مما اعتاده أبناء الجزر المتساهلين في الكثير من الأمور، وعندما حكم على سارق بقطع يده؛ غشي على الكثيرين ممن كانوا بمجلس القضاء، واشتد في إقامة الصلوات، وأمر الرجال

بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق، إثر صلاة الجمعة، فمن وجدوه لم يصل ضرب وشُهِّر به بالأسواق. كذلك ضُربَ الرجال الذين يمسكون مطلقاتهم في ديارهم، إلى أن يتزوجن غيرهم.

وإذا كان ابن بطوطة قد قصد ألا يحبه الناس، وأن يستثير الطوائف المتنافسة، وبالتالي يسهل أمر رحيله، فإنه قد كلل بالنجاح، بهذا الصدد، وتمثلت القشة التي قصمت ظهر البعير في إصداره أمراً بجلد غلام للسلطان، اتهم بالزنا، ثم رفض علناً طلباً من الوزير الأول بالرجوع عن هذا الحكم، بل إن هذا لم يزل كل العوائق من طريق مغادرته لذيبة المهل، فقد ثار الآن شك في أنه عندما يعود إلى البر الهندي قد يدفع أعداء محتملين هناك للقيام بغزو الجزر (وقد كانت مثل هذه المخاوف مبررة؛ ذلك أنه على نحو ما يقرُّ به ابن بطوطة، أو بالأحرى يتباهى به، فإنه انغمس في المكائد، وفي وقت لاحق أوشك على شن مثل هذا الهجوم) وقد وافق بالفعل على القيام بجولة في الجزر، ريثما يتاح للمشاعر أن تهدأ، ثم مضى لوداع الوزير الأول، حيث يتذكر: «فعانقني وبكى حتى قطرت دموعه على قدمي».

وخلال ترحاله على مهل في جزر ذيبة المهل، كان أمام القاضي المتورط في الصراعات الوقت لجمع المادة الضرورية، لأقدم وصف موجود لدينا لهذه الجزر، وبلغ أخيراً جزيرة صغيرة ليست فيها إلا دار واحدة يشغلها رجل حائك، وقال عنه:

«له زوجة وأولاد ونخيلات نارجيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك، ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر، وفي جزيرته أيضا شجيرات موز، ولم نر فيها من طيور البر غير غُرابَين، خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا. فغبطت والله ذلك الرجل ووددت أن لو كانت تلك الجزيرة لي فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين».

وأبحر ابن بطوطة، بالفعل مبتعداً عن جزر ذيبة المهل، بعد أن طلق زوجاته الأربع، اللواتي كن في ذمته آنذاك (وكانت إحداهن حاملاً) غير أنه احتفظ بغلمانه، وانحرفت به سفينته عن مسارها، ورست به في مرسى بجزيرة سيلان، بدلاً من الوصول إلى ساحل الهند، فانتهز الفرصة لجمع الحقائق عن الجزيرة، مشيراً بين أمور أخرى إلى أن

أكثر الناس سلطاناً في مدينة كلنبو (كولومبو) كان قرصاناً يدعى جالستي، ومعه نحو خمسمئة من مرتزقة الحبشة.

وأولع القاضي الرحالة بزيارة "قمة آدم" وهي مزار يقصده المسلمون والبوذيون والمسيحيون على حد سواء. وعلى القمة وجد موضعاً منخفضاً في صخرة، يزعم أنه أثر قدم أبي البشرية، وللوصول إليه يتعين على الزوار أن يصعدوا درجاً شديد الانحدار، بالاستعانة بسلاسل مثبتة في الصخر. وقد وصف ماركو بولو كذلك قمة آدم، ولكن الصورة التي يرسمها ابن بطوطة لعناء الوصول إلى قمة الجبل تضم تأثيراً درامياً لا حد له على نحو يفوق صورة ماركو بولو. وبينما هو يحدق مطلاً من القمة عبر السحاب إلى خضرة سيلان المتوهجة بالحياة، تذكر أن غيبته عن موطنه ببلاد المغرب امتدت قرابة عشرين عاماً، ولكنه كان لايزال في منتصف الطريق إلى الصين، لم يتجاوزه إلا قليلاً، وصولاً إلى هدفه النهائي، كما كان هناك شعور بالواجب يخالجه نحو «خوند عالم» سلطان الهند البعيد المتهور.

كان الطريق الذي سلكه ابن بطوطة إلى الصين دائرياً، كعهد المسافرين به، فقد مضى أولاً صعداً على الساحل الشرقي للهند، وأوشكت سفينته على الغرق في أحد المواضع، وخاطر بحياته لإنقاذ جاريتيه، بل جرؤ على العودة إلى جزر ذيبة المهل ساعياً لأخذ ولده وهو في الثانية من عمره، الذي أنجبته له كبرى زوجاته التي طلقها هناك، ولكنه عدل عن ذلك حينما وجد أنه من الأنفع لولده أن يتركه مع أخواله، وأبحر إلى البنجال التي وصفها بقوله «لم أر في الدنيا أرخص أسعاراً منها، لكنها مظلمة». ثم مضى إلى أسام للقاء ولي من الأولياء فيها هو الشيخ جلال الدين التبريزي، ووصل إلى سومطرة حيث مكث مع حاكم مسلم. ومن الواضح أنه أحس بالألفة والارتياح، على نحو يفوق بكثير ما شعر به ماركو بولو خلال الوقت الذي أمضاه في البلاد ذاتها. وفي نهاية المطاف ألقى المرسى في مرفأ زيتون، وعلى الفور واكبه الحظ فالتقى بأحد السفراء الصينيين، الذين كانوا قد قدموا إلى الهند حاملين الهدايا من الخان العظيم.

وعلى الرغم من أن ابن بطوطة جهد في أن يبين لقرائه أنه قد تبوأ مرتبة السفير الزائر في التو، وتم اصطحابه في مسيرة فخمة للقاء الخان العظيم في بكين، فإن هذا الجزء من

مذكرات ابن بطوطة يفتقر إلى الحيوية، التي تسود باقي النص، وهو يقر بأنه لم يقدر له قط لقاء الحاكم المغولي، قائلاً إن هذا يرجع إلى التمرد الذي نشر الفوضى في أرجاء شمالي الصين. وعلى الرغم من ذلك كله فإنه يقدم صورة مقنعة لدفن العاهل المخلوع، مع مئة من أقاربه وخلصائه، مختتماً بوصف مشهد دموي لذبح الجياد وخوزقتها، وصلبها فوق القبور[9].

وقد أثرت عجائب الصين بصورة مستمرة في ابن بطوطة، ولكنه خلافاً لماركو بولو لم تطب له الحياة هناك، حيث يقول: «متى خرجت من منزلي رأيت المناكير الكثيرة؛ فأقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج إلا لضرورة، وكنت إذا رأيت المسلمين فكأني لقيت أهلي وأقاربي». ويكمن جوهر عدم ارتياحه في كونه خارج بلاد الإسلام تماماً، واكتشافه «غلبة الكفر» فيما بدا بوضوح أنها أقوى بلاد العالم.

وحلت لحظة جياشة بالعاطفة عندما التقى في مدينة قنجنفو بفقيه من سبتة، الميناء المتوسطي الذي يقع على بعد أميال قلائل من مسقط رأسه طنجة، وفي هذا اللقاء عند الطرف الآخر من العالم بكيا معاً. وكانت أحوال الفقيه قد ازدهرت في الصين. ويقول ابن بطوطة: «أخبرني أن له نحو خمسين غلاماً، ومثلهم من الجواري، وأهدى إلي منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة». وبعد سنوات، التقى ابن بطوطة بأخ للفقيه ببلاد السودان.

وعاد ابن بطوطة سالماً من الصين إلى كالكوت، وهناك واجه قراراً دقيقاً، ففي لحظة أحس بأن الواجب يلزمه بالعودة إلى دلهي، لإبلاغ السلطان بكل ما وقع، ثم غدت هذه الفكرة حافلة بنذر الخطر، حيث يقول: «خفت من ذلك فركبت البحر، فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار». وظفار في أراضي شبه الجزيرة العربية المألوفة. ومن هناك بدأ رحلة عودته إلى طنجه، عن طريق هرمز، ثم بغداد، فدمشق وعدل مساره إلى مكة لأداء فريضة الحج مجدداً.

وقبيل بلوغه طنجة ماتت أمه التي كانت قد ترملت منذ وقت طويل في الوباء[10]، وقد تغير الكثير في المغرب خلال ربع القرن الذي أمضاه بعيداً، ولم يحظ القاضي الذي

لوحته شمس الغربة ونسيه معظم الناس بكبير اهتمام، فقد ثار القلق من جراء الحوادث التي وقعت على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق؛ لأنه بعد 700 عام من سيطرة الإسلام على الأندلس أخذ يفقد سيطرته هناك شيئاً فشيئاً.

وقد حار ابن بطوطة على ما يبدو، فيما يمكن أن يفعله بعد ذلك، فعبر المضيق إلى الجانب الأوربي من البحر المتوسط، وشارك في الجهاد لوقت قصير ضد الإسبان الزاحفين، وكانت تجاربه هناك أبعد ما تكون عن إدخال السرور على نفسه، ففي إحدى الحوادث أوشك قطاع الطرق المسيحيون على أسره، قرب «بليدة حسنة خصبة» تدعى مربلة. وسرعان ما عاد إلى رحاب الأمان في المغرب، وحزم أمره على الانطلاق في مغامرة أخيرة، فاتجه جنوباً عبر الصحراء على امتداد الطرق التجارية، التي كان الرواد من أهله البربر قد سلكوها في العهود الرومانية.

وارتحل عامين آخرين (1352 ـ 1353) وقطع ألوف الأميال بالإبل والحمير وسيراً على الأقدام، فزار مالي وغيرها من ممالك غربي أفريقيا القوية. وكان ذلك هو الإقليم الذي قدم منه منسي موسى قبل ربع قرن ليثير ذهول مصر بثرائه. وقد دخل هذا الجزء من أفريقيا في الإسلام، ولكنه كان مختلفاً على نحو ملحوظ عن المدن التي زارها ابن بطوطة قبل عقدين من الزمان على الجانب الأفريقي المطل على المحيط الهندي، فهناك كان الحكام من العرب يسيطرون على السكان الأفارقة، ولكنهم يتشبثون بثقافة غير أفريقية، أما في أفريقيا الغربية فإن الثقافة السائدة هي ثقافة محلية، واعتنق الحكام الإسلام ماضين به ليساير أعرافهم.

وأدهشت ثروات أفريقيا الغربية ابن بطوطة، وقد كانت في ذلك الوقت أكبر منتج للذهب في العالم، كما أدهشته الثقافة التي وجدها في مدينة تمبكتو الواقعة على منعطف نهر النيجر[11]. فكتب أن للزنج بعض الخصال المعجبة؛ فقليلاً ما لا يعدلون، ومقتهم للظلم يعلو على من سواهم من الشعوب. وتنعم بلادهم بالأمان، لا يخشى مسافرها أو قاطنها لصاً أو باطشاً.

ومن أسف أنه شط فيما خلص إليه عن جغرافية أفريقيا؛ فظن أن نهر النيجر المتدفق شرقاً عند تمبكتو يصبح لاحقاً النيل، الذي رآه يتدفق شمالاً في مصر. (وكان ابن

بطوطة في هذا الخطأ يساير نظرية الإدريسي المنتمي للقرن الثاني عشر، وغيره من الجغرافيين العرب، وهي النظرية القائلة بوجود نيل غربي، ينبع من صوب الأطلسي). وربما كان ابن بطوطة قد اعتقد أن النيل متصل كذلك بنهر الزامبيزي؛ ففي غمار تذكره تجاربه في شرق أفريقيا ذهب إلى القول بأن سفالة على مسيرة شهر من أرض يوفي التي يؤتى بالتبر منها إلى سفالة. وعندما انتقل إلى وصف ما اعتقد أنه مجرى النيل قال: «ينحدر النيل من زاعه إلى تمبكتو، ثم إلى كوكو، وسنذكرهما، ثم إلى بلدة مولى من بلاد الليميين، وهي آخر عمالة مالي، ثم إلى يوفي وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم».

ومضى قائلاً عن يوفي: «ولا يدخلها البيض من الناس؛ لأنهم يُقتلون قبل الوصول إليها». ولما كان ابن بطوطة يعتبر نفسه «أبيض» من حيث اللون والثقافة معاً، فقد كانت تلك هي طريقته في إيضاح السر في أنه قد أخفق في القيام برحلة لمشاهدة مناجم الذهب، التي كانت مثاراً للكثير من التكهن.

وعندما عاد أخيراً من أفريقيا الغربية إلى العاصمة المغربية فاس، استطاع القول بأنه قد زار كل أرجاء العالم التي حكمها المسلمون أو استقروا بها. وأصر الكثيرون في البلاط على القول بأنه من المستحيل على رجل واحد أن يكون قد ارتحل بعيداً على هذا النحو، ونجا من كل هذه المخاطر. وقد أسكت الوزير الأول للسلطان القائلين بهذه الحجج، حيث أمر لابن بطوطة بعدد من الكتَّاب الذين يمكنه أن يملي عليهم ما يشاء، وكذلك أحد كتبة البلاط البارزين وهو محمد بن جزي؛ وقد كان محمد بن جزي الذي كان يفخر برحلاته المتواضعة في الخارج، هو الذي كتب في معرض إبداء الإعجاب بالشيخ الذي يملي عليه، يقول عنه: «لا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رَحَّال العصر».

وقد استغرق الرحالة العجوز ما طاب له من الوقت في إنجاز هذه المهمة، حيث كان يقيم بالقرب من القصر، ومضى يقلب في ذكرياته ويملي على الكتَّاب، ويبدو أن هذه الجهود قد بذلت على مدار ما يزيد على ثلاث سنوات تقريباً. وتم عقب ذلك إرسال ابن بطوطة لتولي القضاء في مدينة مغربية لم تذكر على وجه الدقة، ولم يسجل المزيد عنه، باستثناء أنه من المعتقد أن وفاته كانت في عام 1377 في مدينة مراكش العتيقة، عن ثلاث وسبعين سنة.

وبحلول ذلك الوقت كان تغير هائل قد حل بتلك البلاد النائية، التي تنقَّل ابن بطوطة وماركو بولو في أرجائها؛ فلم يعد هناك وجود للخان العظيم، حيث انتهى الحكم المغولي للصين بالسرعة التي بدأ بها؛ فالشعب الذي اكتسحت جيوشه المؤلفة من الفرسان آسيا وجانباً كبيراً من أوربا، على نحو لا يقاوم في منتصف القرن الثالث عشر اختفى الآن من الساحة العالمية. واستولت أسرة مينج على السلطة في «البلاد الوسيطة» حيث ظلت ممسكة بمقاليدها على امتداد الثلاثمئة عام المقبلة.

الفصل التاسع

أساطيل الفتى ذي الجواهر الثلاث

يحييك سيدك، حاكم الصين، وينصحك بالعدل بين رعاياك.

مبعوث صيني، في حديثه مع سلطان عدن، في عام 1420

تمثلت القوة الدافعة الكامنة وراء ظهور أبرز ملمح من ملامح قوة الصين البحرية، على امتداد تاريخها في شخص واحد هو الأميرال العظيم "زينج هي"، الذي وصفه معاصروه بأنه وسيم طويل قوي البنية حاد النظرة، طويل شحمتي الأذنين، وصوته «مُدوٍّ كالجرس». وكان زينج كذلك من الفتية الخصيان[1]. وقد دعي بـ«الفتى ذي الجواهر الثلاث» (أو بصورة أكثر اتساماً بالطابع الرسمي فتى الكنوز الثلاثة، وهو لقب مستمد من البوذية يترجم حرفياً على النحو التالي: جواهر الورع الثلاث) ومع ذلك فإنه لم يكن بوذياً، ولم يكن لقبه الأصلي زينج، ومن الناحية العرقية لم يكن من أصول صينية.

ولد زينج هي في عام 1371 في مقاطعة كونيانج الجنوبية الغربية في إقليم يونان. وكونيانج بعيدة عن البحر، لكن من المعتقد أن عائلته تنتمي أصولها إلى منطقة أبعد تقع فيما وراء السور العظيم، في جزء ناء من آسيا الوسطى، وقدمت إلى يونان مع المغول. وعلى أي حال فقد كان قومه من المسلمين، وأدى أبوه وجده فريضة الحج، وهو ما كان يعد إنجازاً عظيماً في ذلك العصر. وكان لقب العائلة هو "ما"، وهو لقب شائع بين المسلمين في الصين، وكان للفتى أخ يكبره سناً وأربع أخوات، وعندما ولد كان المغول لايزالون مسيطرين على يونان، ولكنهم طردوا منها في نهاية المطاف على يد جيوش الإمبراطور هونجو المنتمي إلى أسرة المينج المالكة، وذلك في عام 1382.

وكانت هذه نقطة التحول في حياة فتى عائلة "ما"، الذي كان في الحادية عشرة من عمره، فقد اختاره قائد زائر في ضوء مظهره ونجابته للمضي به إلى نانكينج، التي كانت

عاصمة الصين آنذاك. ولدى وصوله إلى نانكينج، اختير ليكون غلاماً تابعاً للأمير يان، الذي سيغدو في وقت لاحق الإمبراطور يونجل، ومنح اللقب الجديد زينج وتم إخصاؤه.

وكان خصاء الفتية ليصبحوا المرافقين الشخصيين لحكام الصين عرفاً يعود تاريخه إلى أقدم الإمبراطوريات. وفي البداية لم يكن يتم إلا خصاء المجرمين وحدهم، ثم كانوا يرسلون للخدمة في القصر. وكان هذا يطلق عليه «جونجزينج» أو عقاب القصر. وتدريجياً زالت وصمة العار، ووجد أن الخصيان بالغو الولاء، وليسوا عرضة للشك في إخلاصهم للأسر المالكة، وكرسوا كل طاقاتهم للمهام التي يعهد بها إليهم. وكان أبرز دور بالنسبة إلى الخصي من الدرجة الدنيا هو «رعاية الحريم».

وشكلت فترة حكم الإمبراطور "يونجل سمت" تألق الخصيان الذين قاموا بدور حاسم في المكائد التي ساعدت الإمبراطور على الوصول إلى العرش في عام 1403، ووصلوا إلى أن يكون لهم تأثير في دوائر القصر، يفوق بكثير من أسندت إليهم السلطة من المسؤولين التقليديين، وهم الإداريون الكونفوشيون، ولم يكن هناك من هو أكثر نفوذاً من "زينج هي". وبينما كان في منتصف الثلاثينيات، أصبح ضابطاً رفيع الرتبة في حامية الجيش المرابطة في نانكينج، المطلة على نهر اليانجتسي بعد إخماد تمرد في يونان.

عندما قرر الإمبراطور الجديد تنفيذ الخطط التي نوقشت طويلاً، والخاصة بالقيام بمغامرة بحرية في المحيط الهندي، اتجه إلى زينج، الذي جعلته ديانته المرشح الطبيعي، حيث إن العديد من «أراضي البرابرة» المطلة على المحيط قد عرفت بأنها تتبع طقوس «المربع السماوي» (المقصود الكعبة في مكة). وكانت الذريعة في البداية، أن زينج إنما أرسل للبحث عن هيدي، الإمبراطور المخلوع، ولكن سرعان ما سقطت هذه الحجة، فقد كان الصينيون يبحثون في المقام الأول عن أسواق لاستيعاب فوائض إنتاج مصانعهم الهائلة[2].

وليس معروفاً ما إذا كان زينج قد تولى منصب القائد البحري، قبل أن تسند إليه قيادة الحملة الأولى، وربما كان قد شارك في المعارك البحرية ضد القراصنة اليابانيين

المعروفين باسم الوكو، الذين ألحقوا الدمار بالملاحة التجارية الصينية، فقد حملت جنوك الأسطول الدفاعي الساحلي محاربين مدربين على الوثوب إلى سفن القراصنة وذبح بحارتها. وإذا لم يكن زينج متمرساً بالمهارات البحرية، فلابد أنه كان على معرفة وثيقة بالنشاط البحري، حيث إن نانكينج كانت قريبة من المحيط، وقد بذلت جهود هائلة هناك على امتداد عدة عقود لبناء أساطيل الصين.

وكان إمبراطور سابق، هو الإمبراطور تايزو، قد أمر بأن تغرس ملايين الأشجار على سفوح الجبال في المناطق الداخلية قرب نانكينج، لتوفر الخشب المناسب لبناء السفن. وفي عهد الإمبراطور يونجل كانت البحرية الإمبراطورية تتألف من 400 سفينة، تحتشد في نانكينج، و2800 سفينة للدفاع عن السواحل، وأسطول نقل قوي مؤلف من 3000 سفينة و250 من "سفن الكنوز"، تحفة التقنية الصينية المتقدمة. وعلى الرغم من أن الحكام المغول قد تمكنوا من تجميع 4400 سفينة لشن هجوم على اليابان، قدر له الإخفاق قبل قرن مضى، وجمعوا أيضاً 1000 سفينة للقيام بحملة تأديب على جاوة، فإن معظم هذه السفن قد بدت قليلة الشأن، مقارنة بالسفن التي وضعت الآن رهن تصرف «الفتى ذي الجواهر الثلاث».

وقام زينج متسلحاً بالمرسوم الإمبراطوري، بإعداد أولى حملاته السبع، بأداء بارع متسم بالثقة بالنفس، قدر له أن يكون السمة المميزة لحياته العملية بأسرها، وتم تجميع الأسطول عند ممر نهر التنين (ليو جيا جيانج) قرب مصب نهر اليانجتسي، وذلك في عام 1405، وهذا هو النمط الذي سيتم اعتماده طوال ربع القرن المقبل. وكانت «السفن الكنوز» الباهرة، التي تزن كل واحدة منها أكثر من 500 طن، وتدفعها الرياح التي تملأ أشرعتها الاثني عشر، وعلى متنها المئات من الرجال، تحمل أسماء من قبيل «التناغم النقي» و«الهدوء الدائم» و«العبور المسالم»[3]. وتم تشبيهها لدى رفعها لكل أشرعتها بـ «التنانين السابحة». وقد كانت تلك هي حصون الأسطول العائمة، وتسلح رجالها بـ«الأسهم النارية» التي تنطلق باستخدام البارود وبالقذائف وبالبنادق القصيرة، التي تستخدم الحصى طلقات لها. وبحلول عام 1350 كان الصينيون قد اخترعوا المدافع التي عرفت بـ «المدفع العجيب الصنع، البعيد المدى، قاذف الخوف في النفوس» على الرغم من أنها لم تكن تحظى بتقدير كبير، بالنسبة إلى الاستخدام البحري.

وتراوح عدد السفن الكبيرة المبحرة في كل واحدة من هذه الحملات، ما بين الأربعين وما يزيد على المئة، ومع كل منها العديد من المراكب التي تحمل مواد الإمداد والتموين؛ وكانت أساطيل الشيا شيانج هذه (أي النازلة إلى المحيط الغربي) بمنزلة عجائب ذلك العصر؛ فقد حملت هذه السفن الأطباء والمحاسبين والمترجمين والباحثين ورجال الدين والمنجمين والتجار والحرفيين من كل نوع، وفي معظم الحملات التي قادها زينج كان هناك 30000 رجل تحت إمرته، تقلهم 300 سفينة من مختلف الأنواع، واستخدمت الأعلام والطبول والمصابيح لإرسال الرسائل بين سفن الأسطول. ولتبين المواقع والطرق تمت دراسة السماء، وذلك بالاستعانة بـ«لوحات نجمية» مدرجة منحوتة من الأبنوس.

وكما هي الحال في كل القوافل، فإن أبطأ السفن هي التي تحدد السرعة، وهي في الغالب لم تكن تتجاوز خمسين ميلاً في اليوم، وذلك على الرغم من استخدام مجاديف هائلة، عندما لا تواتي الرياح السفن[4]. وضمت العنابر ما يكفي من الأرز وغيره من المواد الغذائية، لإعاشة الجميع عاماً بكامله، خوفاً من نقص المؤن في أراضي البرابرة، وتم تخزين الماء العذب في خزانات كبيرة، في جوف السفن، وفي إطار الشعور بالكبرياء لم يكن الصينيون يقبلون أن تعوزهم الحاجة في الأراضي الأجنبية.

وفي البداية لم يغامر فتى الجواهر الثلاث بالإبحار إلى ما يتجاوز سيلان وساحلي المالبار والكورومانذل، في جنوب شبه القارة الهندية، وأرسل أساطيله الهائلة إلى موانٍ مثل كالكوت وكولم ألفها التجار الصينيون منذ قرن. وبحلول ذلك الوقت كان ميناء كالكوت الهندي الجنوبي المشهور بتصدير الفلفل (الذي يدعوه الصينيون كولي) كان يعد أهم مركز تجاري في «المحيط الغربي». وعندما مضى مبعوثو كالكوت إلى نانكينج في عام 1405، كوفئ حاكمها السامري بمنحه لقباً صينياً رفيعاً. ويبرهن الاهتمام الذي أبدته أساطيل زينج بهذه المدينة المزدهرة على الهدف التجاري الكامن وراء هذه الحملات.

وكانت هناك كذلك أسباب أقل اتساماً بالطابع الدنيوي المادي لزيارة الحكام المحليين. ففي عام 1409 غزا الصينيون سيلان وتوغلوا فيها وصولاً إلى العاصمة

الجبلية كنكار (كاندي)، وأسروا الملك السنهالي فيرا الاكيسفارا وزوجته ورجال بلاطه، وقد كان هذا عقاباً مباشراً للملك على رفضه قبل عدة سنوات أن يسلم لإمبراطور الصين أثراً ثميناً، هو إحدى أسنان بوذا. وكان الحاكم المغولي كوبلاي خان قد حاول كذلك في زمانه الحصول على هذه السن بلا جدوى. وقد اقتيد الملك والأسرى الآخرون إلى الصين كرهائن، وتم الإبقاء عليهم هناك خمس سنوات (على الرغم من أن زينج لم يفلح في وضع يديه قط على هذه السن المنشودة)، وكتذكار لهذه الفترة العاصفة، تركت الحملة وراءها في ميناء بطاله (جاله) لوحاً نقشت عليه بالصينية إشادة بالبوذية، وبالتاميلية إشادة بالهندوسية، وبالفارسية إشادة بالإسلام.

ولابد أن نبأ أخذ الرهائن سرعان ما انتشر على امتداد طرق التجارة في المحيط الهندي، مؤكداً أن الحكام الآخرين لابد أن يكونوا خاضعين، بالصورة المناسبة، وأن يبادروا بتسليم الجزية، وهكذا فإنهم يسلمون فعلياً بأنهم يعترفون بالإمبراطور الصيني، باعتباره الحاكم الأعلى للكون. ولم يفلح المبعوثون المقبلون من بكين، في بعض الأحيان، في حجب شعورهم بالتفوق في معاملاتهم مع الأجانب. ولم يستطع مبعوث من بينهم نزل إلى عدن إجبار نفسه على اتباع العرف المعمول به، وتقبيل الأرض بين يدي السلطان في مستهل المقابلة، وقد اعتبر العرب هذا إهانة، ومن جانبهم اعتقد الصينيون أن أهل عدن قوم «متغطرسون».

غير أن المكافآت كانت كبيرة بالنسبة إلى الحكام الأجانب الراغبين في تسليم الجزية للإمبراطور، والاعتراف به سيداً أعلى وراعياً لهم. وقد دعوا إلى إرسال مبعوثين إلى الصين، على متن إحدى السفن الكنوز العظام. وفي وقت لاحق سيعود المبعوثون حاملين هدايا أثمن من أي شيء صحبوه معهم؛ لينقلوا إلى مواطنيهم الحقيقة المتمثلة في تفوق الصين. وأوضح مرسوم إمبراطوري أنهم «أقبلوا إلى هنا تقديراً لأساليبنا التي تحمل الحضارة للآخرين»، واعتبرت الهدايا التي حملوها معهم بمنزلة الجزية والبرهان على الخضوع.

ومع ذلك فإنه إذا كانت تلك نزعة استعمارية، فإنها كانت ذات طبيعة مؤقتة على نحو غريب. وعلى الرغم من أن زينج قد بعث في بعض الأحيان إلى الشاطئ بفرق

لإنزال العقاب، وقد رست إحدى هذه الفرق في مقديشو بالصومال؛ لتلقين سلطانها المشاكس درساً، فإنه لم يترك حامية دائمة في أي مكان قط[5]. وعندما كانت الحملة تنتهي كان الأسطول بأسره يتحول باتجاه الشرق، ويبحر عائداً عبر مضيق ملجا، ويتجه شمالاً عبر مياه شرقي آسيا، المألوفة لديه بشكل أكبر، ويلقي المرساة أخيراً في مرفأ نانكينج الذي انطلق منه.

وقد عرفت السفن الكنوز التي تقل المبعوثين من أراضي المحيط الهندي باسم «المراكب النجمية» وهو اصطلاح استخدمه فاي شين في عنوان مؤلف له عن إحدى الحملات، وهو «مشاهد ظافرة من المراكب النجمية». وقد جاء هذا بدوره من اعتقاد قديم يعود إلى اثني عشر قرناً، على الأقل، قوامه أنه إذا أبحرت سفينة ما بعيداً بما فيه الكفاية، فإنها ستغادر الأرض بالفعل، وتصل إلى درب التبانة، وتبلغ مدينة تنتمي إلى إحدى المجرات، تجلس فيها عذراء عاكفة على الغزل (وتلك هي الصورة التقليدية لنجم فيجا "النسر الواقع" في المجموعة المعروفة باسم لايرا "القيثارة"). وتنعكس هذه الصور النجمية في صياغة كلمة على عمود تذكاري أقيم عند ممر نهر التنين، تخليداً لذكرى حملات زينج: «واصلت قلوعنا المنشورة في بهاء كالسحب، ليلاً ونهاراً، مسارها سريعة كالنجم تمخر عباب الأمواج العاتية».

وعلى الرغم من أن زينج كان مسلماً، شديد التمسك بإسلامه، فإنه لم يجد تضارباً بين هذا وبين إقامته لنصب تذكاري في معبد مكرس لعبادة الربة تاينفاي (القرينة السماوية) في الديانة الطاوية. ويفخر النقش الذي يحمله العمود التذكاري بأن البلاد «الواقعة وراء الأفق وفي أقاصي الأرض قد أصبحت جميعها تابعة لنا»، ويمضي ليعرب عن الشكر للقرينة السماوية على حمايتها؛ فالقوى العجيبة والجليلة التي تتمتع بها الربة «التي سجلت إنجازاتها الفاضلة تسجيلاً عميق التشريف في سجل العبادة بالقرابين» قد كبحت جماح الأعاصير وأنقذت الأساطيل من الكارثة. وقد تجلى حضورها في أوقات الخطر البالغ من خلال تألق البرق عند أعلى الدقل.

ويكشف هذا النقش الموجود عند ممر نهر التنين كذلك عن المدى المطلق للسلطات الممنوحة لـ«الأرستقراطية» المؤلفة من الفتيان الخصيان. وكانت تراتيل الشكر المرفوعة

للقرينة السماوية مقدمة بأسماء الفتية العظام زينج هي، ووانج جينجونج، والمبعوثين المساعدين الفتية العظام زو ليانج، وزو فو، وهونج باو، ويوانج زين، والفتية الكبار الأقل مكانة ومنهم زانج دا، وربما كان كل كبار قباطنة زينج من الفتية الخصيان.

ووسعت الحملة الرابعة التي انطلقت بمقتضى مرسوم إمبراطوري في كانون الأول/ ديسمبر 1412، من نطاق مجال نفوذ زينج غرباً، إلى ما وراء الهند، وصولاً إلى شبه الجزيرة العربية وأفريقيا. ولم يصل القائد نفسه إلا إلى هرمز والخليج العربي، ولكن قسماً آخر من الأسطول انفصل عنه قرب سومطرة، وأبحر مباشرة عبر المحيط الهندي إلى شرق أفريقيا (وهو الطريق الذي سلكه الواق واقيون قبل قرون).

وعلى الرغم من بعض ضروب سوء الفهم والتحيز، فإن الصينيين كانوا يعرفون بجلاء عن أفريقيا، حتى قبل حملات زينج، ما يفوق بكثير ما يعرفه معاصروهم الأوربيون، وأهم ما يعبر عن هذه المعرفة خريطتان بقيتا في المحفوظات الصينية؛ وتصور هاتان الخريطتان بدقة الشكل المثلث الذي تتخذه القارة الأفريقية، والذي يبدو طرفه مدبباً، على نحو حاد، عند الطرف الجنوبي. ويعود تاريخ إحدى الخريطتين إلى عام 1320، ويعود تاريخ الأخرى إلى عام 1402، وهو عصر كانت فيه الصين مازالت تعتبر نفسها «المركز» في كتلة برية واحدة، تشكل أفريقيا أحد امتداداتها. وتظهر الخريطتان أنهاراً تتدفق إلى الشمال عبر أفريقيا، وتبين إحداهما بحيرة كبرى في قلب القارة. وفي الوقت الذي رسمتا خلاله، كانت أوربا لاتزال جاهلة الشكل العام لأفريقيا[6].

وكان هدف زينج من وراء الوصول، للمرة الأولى، إلى البحر الأحمر وساحل بلاد الزنج هو إلى حد كبير تمكين التجار الصينيين من إجراء اتصالهم الأول بهذه الأسواق النائية، فقد كانوا على امتداد قرون عدة يقومون عن طريق وسطاء بشراء منتجات أفريقيا، وقد ظهر المبعوثون الأوائل من شرق أفريقيا في الصين في وقت مبكر يعود إلى القرن الحادي عشر، وقد وصفوا بأنهم قادمون من سنجتان (أو زنجدان، أي من أرض الزنج)، ولأن المسافة التي قطعوها كانت مسافة هائلة؛ فقد كافأهم إمبراطور

السونج بهدايا قيمة، بشكل خاص رداً على ما حملوه من نفائس. وأغلب الظن أن هؤلاء البرابرة كانوا يسكّون عملة خاصة بهم، وهو الأمر الذي كان قد بدأ في الحدوث لتوه، ووصفت لغة الزنج (السواحيلية القديمة) بأنها «تشبه في مخارجها لغة العرب». ويعد إرسال المبعوثين من شرق أفريقيا في ذلك الوقت المبكر أقل إثارة للدهشة مما يبدو للوهلة الأولى، فعاجه وعنبره وقرون وحيد قرنه كانت قد وصلت الصين عن طريق عُمان، التي بعثت بدورها عدة بعثات تجارية إلى «صاحب الصين».

وفي أواخر القرن الثاني عشر كتب المؤلف زو كوفاي عن تجارة الرقيق، التي تتركز في الجزر القريبة من الساحل الشرقي لأفريقيا، التي أطلق عليها «سنجاي كونلون» (أرض السود). وفي أوائل القرن الثالث عشر قام مسؤول تجاري كبير يدعى زاو روجوا، بتجميع عناصر وصف تفصيلي للواردات الآتية من شرق أفريقيا، قائلاً إن العديد من السفن تفد إلى هناك من الهند وشبه الجزيرة العربية، حاملة الملابس القطنية البيضاء والحمراء، والخزف، والنحاس، ربما في صورة آنية للطهي ومصابيح وحلي.

وكانت المدينة الأفريقية الشرقية التي قدر للصينيين أن يجروا معها معظم اتصالاتهم، هي ماليندي، التي دعاها المؤرخون العرب بـ«عاصمة أرض الزنج»، واشتهرت بسحرتها (لم يأت ابن بطوطة على ذكر ماليندي قط، ربما لأنها مالت إلى ممارسات دينية، مستمدة من الصلات القوية مع فارس، ما كان له أن يقرها)[7].

وكان هذا الميناء الواقع على بر الزنج في مكان جيد، يستفيد من خلاله من فرص التجارة المتاحة في المحيط الهندي، حيث إنه يقع على مسيرة أيام قلائل بحراً جنوب خط الاستواء، وعلى مسيرة أقل من شهر عبر البحر من كالكوت. وفي عصر اعتمدت فيه الملاحة في عرض البحر أساساً على خطوط العرض والطول، وتقديرها بالاستعانة بالنجوم، كان في قدرة السفينة التي تمضي من أفريقيا إلى كالكوت أن تبقى على خط العرض 10 درجات شمالاً، وتلقي مرساها قرب طرف الصومال، ثم تتبع خط الساحل جنوباً بغرب إلى ماليندي، أول مركز تجاري كبير لتوزيع السلع في الزنج، وبخلاف ذلك فإن في استطاعتها الإبحار جنوباً إلى خط الاستواء، ثم الانعطاف

غرباً، والتوجه رأساً إلى الشاطئ الأفريقي للوصول إلى ماليندي، عند خط عرض ثلاث درجات جنوباً.

وقد شابهت نهضة ماليندي نمو كالكوت، وقدر للأولى أن تشتهر باعتبارها مصدر البشارات الرائعة، التي جلبت إلى إمبراطور الصين، في السفن الكنوز على يدي فتى الجواهر الثلاث.

الفصل العاشر

ماهوان وبيت الله الحرام

ينبغي أن تعرف أن الزرافة قصيرة الجسم، وتنحدر نحو المؤخرة، لأن قائمتيها الخلفيتين قصيرتان. . . لها رأس صغير ولا تؤذي أحداً. وجلدها مرقش باللونين الأحمر والأبيض، وهي بديعة المنظر.

ماركو بولو - **«وصف العالم»** (1298)

في 20 أيلول/ سبتمبر 1414 مضت أول زرافة شوهدت في الصين تخطو برقة على امتداد الطريق المفضي إلى القصر في بكين. وكانت هدية من السلطان سيف الدين، سلطان البنجال، كان قد تلقاها بدوره هدية من سلطان ماليندي. واتسمت استجابة الإمبراطور يونجل بالبرودة في البداية؛ فقد رد قائلاً: «نحُّوا التهاني جانباً!» وذلك رداً على تنافس رجال البلاط في تأكيدهم له أن هذا المشهد، الذي طال انتظاره، هو برهان على الفضيلة والحكمة الإمبراطوريين. وقال الإمبراطور إن سلامة الحكم تعتمد على السلام، وليس على ظهور حيوان يجري التهليل له باعتباره الأعجوبة السحرية المعروفة بالقلن. وعلى وزرائه أن يعملوا بمزيد من الجهد «من أجل رفاهية العالم». وعلى أي حال فإن الإمبراطور كان يعلم، وكذلك أكثر أعضاء بلاطه تملقاً له، أن هذا الحيوان لا يشبه القلن في شيء، ذلك الحيوان الأسطوري وحيد القرن، الذي له «جسم غزال وذيل ثور» وهو المعادل الصيني لوحيد القرن.

لم تكن الزرافة إلا المخلوق الأكثر غرابة من بين كل المخلوقات التي أرسلت في هذا الوقت إلى بكين من البلاد البربرية النائية. وتدعوها السجلات الرسمية الصينية في رصانة باسم «الزولافو» وهو أقرب نطق ممكن للصينيين من الكلمة العربية «الزرافة». ولكن الحيوانات الغريبة من هذا النوع فتنت الصين منذ أقدم العصور. وخلال عهد أسرة هان الغربية المالكة (206 ق. م. إلى 24 م.) كانت هناك حديقة إمبراطورية واسعة محيطها 130 ميلاً، تمتلئ بأصناف الحيوانات والنباتات النادرة، وقد دفنت فيها أم أحد

أباطرة الهان التي كانت تحب الحيوانات، مع كركدن وباندا عملاق ومخلوقات أخرى. وصدرت الأوامر للمبعوثين المرسلين إلى البلاد النائية بجلب أنواع غير مألوفة، وتتضمن أعمال جغرافية عتيقة عديدة ألفها باحثون صينيون أجزاء دمجت فيها معاً الوحوش الواقعية في الأسطورية[1].

وعلى الرغم من أن القلن الأسطوري قد كتبت عنه المؤلفات، على امتداد حوالي 4000 عام - وتقول بعض الروايات عنه إن له عينين زرقاوين، وقرنين يكسو اللون الأحمر طرفيهما، ولهما خواص سحرية - فإنه لم يكن هناك وصف واقعي للزرافة، إلى أن قدم مسؤول عن التجارة الخارجية يدعى زاو روجوا، صورة لها نقلاً عمن شاهدوها، ولاشك في أن هذه الصورة قد جمعت من التجار العرب: «وهناك كذلك في هذه البلاد (المقصود القرن الأفريقي) حيوان بري يقال له زولا، وهو يشبه الجمل في شكله والثور في حجمه ولونه أصفر، وقائمتاه الأماميتان طولهما خمسة أقدام، والخلفيتان طولهما ثلاثة أقدام فقط، ورأسه مرتفع عالياً، وملتو للوراء». وأشار زاو روجوا كذلك إلى أن جلد الزرافة غليظ للغاية، وهو أمر صحيح، وغالباً ما يستخدم في صنع السياط.

وكانت فرحة العامة بأول زرافة أفريقية تشاهد في الصين أقوى من رغبة الإمبراطور في التقليل من شأنها كبشرى. وفي هذه السنوات الأولى من عهد عائلة المينج المالكة، كان هناك اهتمام واسع النطاق بالعلوم الطبيعية؛ فألف شقيق الإمبراطور عملاً جاداً في علم النبات، وقد انتظر الناس القلن طويلاً وبدت الزرافة أقرب ما يمكن أن تقدمه المملكة الحيوانية شبهاً به. وعبر أحد أعضاء الأكاديمية الإمبراطورية، ويدعى شين دو عن المناخ السائد بقصيدته، التي استهلها بإهداء متأنق بلاغياً للإمبراطور، حيث يقول: «إنني، خادمكم، أشارك الجمع الحاشد، وأنظر بإجلال إلى هذه البشرى بطلوع السعد، وأنحني مئة مرة وأضع جبيني على الأرض، وأقدم قصيدة مدح على النحو التالي». ووسط حشد من الصور البلاغية المتأنقة، يأتي وصف شين دو المترع بالخيال المحلق للزرافة، حيث يقول:

في ركن من البحار الغربية، في المياه الراكدة في سبخة هائلة،
برز حقاً قلنٌ يعلو خمس عشرة قدماً،

بجسم غزال، وذيل ثور، وقرن لحمي يخلو من العظم،
ونقاط مضيئة، كأنها سحابة حمراء، أو غمامة أرجوانية،
ولا تطأ حوافره المخلوقات الحية.

وكانت هذه الوداعة الواضحة التي تميز الزرافة (على الرغم من أن قائمتيها الخلفيتين يمكن أن توجها رفسة قاتلة) الخاصية التي تشترك فيها مع وحيد القرن الأسطوري[2]. ولم يساور الخوف الجموع، بينما هذه الهدية التي وصلت لتوها من البلاد الأجنبية تمضي في أرجاء بكين بخطاها الغريبة، التي تشبه خطى الجمل، وتدير رأسها المرتفع عالياً فوق الحشد المترع النفس بالإعجاب، من جهة إلى أخرى على نحو دائب، بينما هي تستاف الهواء الخريفي، وحسبما قال شين دو، فإن: «الوزراء والناس اجتمعوا لمشاهدتها، وتنافسوا ليصبح كل منهم أول من يقع ناظراه على هذا المشهد البهيج». وكتب عضو آخر من أعضاء البلاط، بالمعنى ذاته، يقول: «مضت عيناها تتقلبان، بلا توقف، وابتهج الجميع بها». وكانت هذه المخلوقة غريبة من أكثر من وجه، فعلى الرغم من أنه كان لها لسان في مثل طول ذراع الإنسان، فإنها لم يكن في وسعها أن تطلق أضعف الأصوات. وثمة لوحة صينية موجودة إلى الآن تقاد فيها الزرافة بعنان خاص بها، من قبل الحارس البنجالي، الذي صحبها عبر البحار، وقد بدا متطلعاً بإخلاص إلى الحيوان الذي عهد به إليه»[3].

وعندما ظهرت زرافة مستأنسة أخرى قادمة من مالينـدي مباشرة، في العام التالي – ويمكن تقدير التاريخ على وجه الدقة من السجلات الصينية، حيث كان ذلك في 10 تشرين الأول/ أكتوبر 1415 – اضطر الإمبراطور إلى الاستسلام لحماس الجمهور، فمضى بنفسه للترحيب بمقدمها، واقتيد نحوه مخلوقان بالغا الروعة، وراء الزرافة ذات اللون الكستنائي، هما «جواد سماوي» والمقصود به حمار وحشي، و«أيِّل سماوي» والمقصود به مارية، وهو ضرب من بقر الوحش الأفريقي، وكانت مقولة الإمبراطور أقل استهانة في هذه المرة، وأكثر تواضعاً على نحو مناسب، فقد عزا رمز التناغم والسلام هذا إلى «الفضيلة السابغة التي اتصف بها الإمبراطور الراحل، أبي» والتي وسع نطاقها دعم وزرائه. وسيكون من واجبه من الآن فصاعداً التمسك بالفضيلة، بمزيد من العزم، وسيكون من واجب وزرائه تذكيره بأي نقص يحدث.

ويتضح من ملاحظات الإمبراطور غضبه إزاء الإعجاب الذي صادفَته زرافات ماليندي؛ ففي نهاية المطاف لم يكن نقل هذه الهدايا إلا أمراً عارضاً، مقارنة بالعمل شديد الجدية الخاص بالحملات الكبرى، بل إن الزرافات لا يذكرها ماهوان، المؤرخ الذي صاحب زينج هي في العديد من الرحلات. وقد كان ماهوان حريصاً على وصف البلاد التي زارها، ومن دون كتابه المسمى **«مشاهد شواطئ المحيط الظافرة»** لما كان رصيد سيده إلا كتابات متناثرة.

وقد كان ماهوان مسلماً، ولقبه هو اللقب ذاته الذي كان زينج هي يحمله أصلاً، على الرغم من أنه لم يعرف عنه أنه خصي، وقد تم تجنيده في وقت أدرك زينج خلاله أنه كلما أوغل في الرحيل بحراً، غدا من الأكثر تعذراً فهم لغات المبعوثين البدائيين، الذين يحملون في رحلة العودة إلى البلاط الإمبراطوري (وفي بعض الأحيان ثبت أن من الضروري اللجوء إلى الترجمة المزدوجة، التي في إطارها تنقل رسائل المبعوث من خلال اثنين من المترجمين، قبل أن يمكن نقل صياغة نهائية باللغة الصينية إلى الإمبراطور)، وكان زينج قد أنشأ بالفعل مدرسة للغات الأجنبية في نانكينج، وكان ماهوان أحد مترجمي فرق المترجمين المختصة بمصاحبة الأسفار البحرية، الذين كان من أولى مهامهم الحضور لدى إجراء مقابلات مع الحكام الأجانب، وتعين على المترجمين كذلك مساعدة التجار الصينيين المرافقين لأسطول زينج.

وفي الإشارات الشخصية الواردة في كتابه يبدو "ما" متواضعاً مقللاً من شأن نفسه، بالأسلوب الصيني التقليدي المتبع في عصره؛ فهو يصف نفسه بأنه «ساذج» و«حطاب جبلي» كانت الحملة بالنسبة إليه «فرصة رائعة تتاح مرة كل ألف عام». وعلى الرغم من ذلك، فقد كان "ما" على حظ وافر من التعليم، يتقن اللغة العربية حديثاً وكتابة، ويستهل كتابه بقصيدة مدح تتصدرها الأبيات التالية:

تلقى المبعوث الإمبراطوري المجيد الوصايا الإلهية،
«أطلق في الخارج الأصوات الحريرية، وامض إلى أراضي البرابرة»
وانطلقت سفينته العملاقة فوق الأمواج الهدارة، في المحيط الممتد بلا حدود.
وغذّت السير إلى البعيد، فوق الأمواج المتلاطمة الممتدة بلا حدود.

وتمضي القصيدة لتورد قائمة ببعض البلاد العشرين التي شاهدها في غمار الحملة، ويعلن أن الشعوب الأجنبية كانت «ممتنة، ومعجبة بفضيلتنا، وتظهر ولاءها وإخلاصها». وهو يقول متفاخراً، إن التجار من «البلاد الوسيطة المجيدة» يرحلون الآن حتى مصر.

وإذا قومنا "ما" في ضوء المعلومات الواردة في كتابه حول العادات الاجتماعية والتجارة والشؤون الراهنة وقتها، لوجدناه على قدم المساواة مع ماركو بولو وابن بطوطة. ولما كان يفصل بينهما أقل من قرن، فإنه مما له جدواه بشكل خاص أن نضع الصور التي رسمها ما عن المحيط الهندي جنباً إلى جنب مع صور ابن بطوطة؛ وعلى سبيل المثال فقد كرس كل منهما مواهبه الوصفية في الإشادة بكالكوت وأهلها.

فلدى وصول "ما" إلى كالكوت في عام 1414، كان الميناء قد نما ليصبح مدينة في حجم دولة، ومع بعض الغلو، فإنه يدعوها «بلاد المحيط الغربي العظيمة». ويكرس عشر كتابه تقريباً لها، وقد استخدمها الفتيان العظام الذين يقودون أساطيل الحملة كمحور لعملياتهم. ويتمثل أحد أسباب إشادة "ما" بكالكوت (إلى جوار الحرص على أن يعكس تقدير رؤسائه لها) في الميول الإسلامية القوية لدى أهل المدينة، التي تضم ما يزيد على عشرين مسجداً، وبها 30 ألفاً من المسلمين الذين استقروا بها، ويمكن سماع اللغة العربية في كل مكان من شوارعها. وبالنسبة إلى صيني مسلم شاب يعد الحج أحد الأهداف الرئيسة لحياته، فلابد أن أجواء كالكوت كانت مبهجة، وكان شبه الجزيرة العربية يقع عبر المحيط، على مسيرة لا تتجاوز أسبوعين بالاستعانة بالريح المواتية.

وربما كانت الرغبة في إسعاد القراء الصينيين هي التي حدت بـ "ما" إلى تأكيد أن السامري، أو ملك البحر حاكم كالكوت، هو بوذي. وفي حقيقة الأمر فإنه كان هندوسياً، ولكن «الرؤساء الكبار» الذين يقدمون المشورة للحاكم كانوا جميعاً من المسلمين. وبناء على أوامر الإمبراطور منح زينج هي أعلى اثنين منهم جوائز سنية. وأعطيت الأولوية لمبعوثي كالكوت، على المبعوثين الآخرين كافة، عندما مضوا إلى الصين لرفع تقدماتهم للإمبراطور، ويسند "ما" مجموعة من الأوصاف المتضمنة للإشادة بأهالي المدينة «فهم شرفاء، وجديرون بالثقة، وحاذقون، ورائعون، ومميزون.

وهو يقدم صورة مفصلة للطريقة التي تمت بها التجارة بين ممثلين من إحدى «السفن الكنوز» الصينية الذين جلبوا إلى الشاطئ الحرير وأنواع الخزف وغيرها من البضائع، وبين التجار والوسطاء المحليين. وكانت تلك عملية تجري على مهل، وتستغرق حوالي ثلاثة أشهر، حيث ينبغي أن يتم الاتفاق بشكل مفصًّل على الأسعار، ولكن كل الأطراف يتصافحون، ويقسمون على أن الصفقة التي تم التوصل إليها لن يتم الرجوع عنها أبداً. ويؤكد وجود «سعادة الفتى» في حفل المصافحة الأهمية التي تعلق على التجارة أثناء الحملة، على الرغم من كل الحديث المتأنق عن الدور المتعلق بدفع الآخرين في معراج الحضارة.

وقد استرعى انتباه "ما" أن تجار كالكوت لا يستخدمون المعداد على الطريقة الصينية في إجراء حساباتهم، وهو ما رآه أمراً شديد الغرابة؛ إذ يستخدمون أيديهم وأرجلهم وحسب، ومبلغهم في العد هو الرقم عشرون، ومع ذلك لا يقعون في أدنى خطأ.

ويمضي إلى إيراد تفاصيل حول الخضر التي تزرع في كالكوت، والحيوانات التي تربى للحصول على لحومها، ونوعيات الأرز الذي يزرع والواردات من القمح، وهو يلاحظ أن الأثرياء يستثمرون أموالهم في مزارع أشجار النارجيل، التي يضم بعضها حوالي 3000 شجرة، ويقدم قائمة دقيقة بالاستخدامات العديدة للثمار وللأشجار ذاتها، ويسجل كل ما يتعلق بزراعة الفلفل على منحدرات التلال، والوقت من العام الذي يقطف فيه ويجفف، والأسعار والرسوم التي يفرضها الملك، بل إنه يقدم صورة للموسيقى الهندية، مسلِّماً بأن «الألحان جديرة بالاستماع إليها».

وينهي "ما" الصورة التي يرسمها لكالكوت برسم صورة رهيبة لاستخدام «الزيت المغلي» لاختبار براءة الأوغاد أو ذنبهم، حيث يتم تسخين الزيت في قدر للطهي إلى أن تذبل وريقات الشجر التي تلقى فيه، مصدرة قرقعة حادة، ويتابع:

«ثم يجعلون الرجل يفرد إصبعين من يده اليمنى، ويحرقهما في الزيت لوقت قصير، وينتظر إلى أن يحترقا، ثم يخرجهما، ويتم لفهما في قماش يختم بختام يثبت فيه، ويودع في السجن في المقر الرسمي. وبعد يومين أو ثلاثة أيام، وأمام جمع حاشد يفضون الختام ويفحصونه، فإذا كانت في اليد خراجات مفتوحة، فإن الظلم لا يكون

قد حاق به، ويفرض العقاب عليه، أما إذا كانت اليد لم يلحقها ضرر وبقيت على نحو ما كانت عليه من قبل، فإنه يفرج عنه».

وعلى الرغم من أن الفصل الذي كتبه "ما" عن كالكوت يتميز عن باقي الكتاب، فإنه حيثما مضى لفتت عجائب الحياة نظره. وفي بعض الأحيان يمكن أن يكون واقعياً شأن ماركو بولو في وصف العادات الاجتماعية.

وعندما يصل "ما" في نهاية المطاف إلى المضي بقرائه عبر شبه الجزيرة العربية ومكة، فإن الإشارات إلى الحياة الصاخبة تختفي. ولم يكن ذلك راجعاً إلى أنه باعتباره مسلماً، قد أفعمت نفسه بمشاعر التوقير للأراضي المقدسة فحسب، وإنما كذلك إلى أنه قد انقضى عقدان من الزمان منذ انطلق في البحر للمرة الأولى، مع أحد أساطيل المحيط الهندي الكبيرة، وقد بلغ الآن الخمسينيات من عمره، ومضى بصحبة آخر حملات زينج. ولابد أن "ما" قد دهش لحصول فتى الجواهر الثلاث على الموافقة، بعد انقطاع دام عشر سنوات، على القيام بمغامرة أخرى هائلة ومكلفة إلى أراض نائية، لأن وفاة الإمبراطور يونجل في عام 1424 قد شكلت فيما يبدو نهاية مرحلة بأسرها.

وقد مضت نخبة منافسة الآن تتحدى الزمرة المؤلفة في الغالب من المسلمين الخصيان المحيطة بالإمبراطور؛ وتمثلت هذه النخبة في الموظفين الكونفوشيين. وطوال ست من السنين التي تخللت الفترة بين حملتين، عهد إلى زينج بمنصب قائد حامية نانكينج، ومضى يرقب سفن الكنوز العظيمة، وهي تتأرجح متكاسلة في مراسيها في نهر اليانجتسي. وكانت هناك مؤشرات إلى أن البلاط الإمبراطوري لأسرة شواندي المالكة قد أدار ظهره لفكرة تأكيد السيطرة الدائمة على محيط واسع وخطر لا يمس حدود الصين عند أي موضع.

غير أن زينج أفلح بشكل من الأشكال في التغلب على هذه اللامبالاة، وفي كانون الثاني/ يناير 1431 بدأت رحلته الأخيرة. وكان العديد من محنّكي الحملات السابقة بين الرجال البالغ عددهم 27550 رجلاً الذين وضعوا تحت قيادته، وكان آخرون يؤدون خدمة إجبارية، تنفيذاً لقوانين عهد المينج، تكفيراً عن جرائم ارتكبها آباؤهم

وأجدادهم. وكانت كالكوت من جديد قاعدة الأسطول الرئيسي، وأرسلت أجزاء من الأسطول إلى بلاد مختلفة. وربما مضى ماهوان إلى شبه الجزيرة العربية كمترجم لمجموعة من الصينيين، الذين حملوا المسك والخزف باعتبارهما عروض تجارتهم، وعادوا بكثير «من السلع غير المألوفة» وكذلك بمجموعة من النعام والأسود وزرافة أخرى، وقد نقلت هذه الحيوانات بسهولة من أثيوبيا عبر البحر الأحمر.

وكما يمكن توقعه، فإن "ما" لا يطرح أي نقد للحياة في شبه الجزيرة العربية: «عادات الناس هادئة وجديرة بالإعجاب، وليست هناك عائلات يعمها الفقر، وهم جميعاً ملتزمون بنواهي دينهم، ومخالفو الشرع قلة محدودة، وهي في الحقيقة بلاد سعيدة». وهو عندما يصف الكعبة يبدو العديد من أوجه التشابه مع الصورة التي رسمها ابن بطوطة لها قبل قرن من الزمان، بل يكلف نفسه عناء تحديد عدد الفتحات (466) في السور المحيط بالكعبة، والعدد الدقيق لأعمدة اليَشْب* في كل قسم من أقسام السور. وعلى الرغم من أن وصفه دقيق بشكل عام، فإنه يقع في بعض الأغلاط الغريبة؛ فيقول إن المدينة المنورة التي دفن بها الرسول ﷺ تقع على مسيرة يوم غربي مكة، بينما هي تقع على مسيرة عشرة أيام إلى الشمال منها. وهو يمضي ليصف بئر زمزم باعتبارها موجودة إلى جوار قبر الرسول ﷺ، بينما هي في وسط مكة. ولابد أن هذا يثير الشك في أنه على الرغم من أنه مضى بالتأكيد إلى شبه الجزيرة العربية، فإنه لم يصل إلى مكة ذاتها قط، ربما بسبب القتال الدائر قرب الطرف الجنوبي للبحر الأحمر.

كان ذلك في وقت أخذت فيه عدن تتحدى ملوك مصر من المماليك من أجل السيطرة على غربي شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك مكة والمدينة، ويظهر الاضطراب الذي سببه ذلك، في الورطة التي تعرضت لها اثنتان من السفن الكبار (الجنوك)، حملتا بالبضائع عندما وصلتا إلى عدن في حزيران/ يونيو 1432، فقد كتب قبطان كل منهما رسائل إلى شريف مكة والقائم على ميناء جدة، من أجل الحصول على إذن بالإبحار صعوداً في البحر الأحمر، وسعى هذان المسؤولان بدورهما للحصول على

* يَشْب: يشم: عبارة عن حجر كريم، والكلمة ترجمة للأصل وهو Jade (المورد 1995).

موافقة الحاكم في القاهرة، وهو الملك الأشرف برسباي الذي قال إن السفينتين ينبغي «الترحيب بهما بمزيد من الاحتفاء». وهو لم يسجل أن السفينتين قد وصلتا إلى جدة، وربما كان هذا الاضطراب هو الذي أجبر "ما" في نهاية المطاف، على الاعتماد على روايات شهود العيان فيما يتعلق بمكة والمدينة.

في آذار/ مارس 1433 بينما كان الأسطول الكبير يتجمع ثانية للعودة إلى الصين، لقي فتى الجواهر الثلاث حتفه في كالكوت، وحمل جثمانه إلى الوطن في إحدى السفن الكنوز؛ ليدفن في نانكينج.

ولن تشق الأساطيل العظيمة طريقها بعد هذا أبداً في بهاء عبر المحيط الهندي، والذكريات وحدها هي التي ستبقى في الأذهان، حيث يقول سفير عربي زار الهند في 1441، إن: «بحارة كالكوت المغامرين» يحبون أن يسموا أنفسهم باسم «تشينيبا تشجان» (أبناء الصينيين). وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت هناك أساطير مشوشة فقط عن رجال ذوي لحى غريبة وصلوا في سفن هائلة ونزلوا إلى الشاطئ حاملين أسلحتهم.

وعلى الرغم من كل ألوان التكريم الإمبراطورية لزينج هي، فإن الجهود التي بذلها طوال عمره لإقامة صلات دائمة مع أراضي المحيط الهندي ذهبت هباء. وانكفأت الصين على نفسها، وعادت من جديد إلى اللامبالاة، حيال العالم الواقع وراء مضيق ملجا[4]. وبعد موته أسدلت ستائر السلطة الكونفوشية الحريرية على شهرته، وأتلفت سجلات «المركب النجمية». وعندما طلب هذه السجلات خصي آخر، واسع النفوذ كان يأمل في تنظيم هجوم بحري على أنَّام للإطلاع عليها، قيل له إنه ليس من الممكن العثور على السجلات. وفي نهاية القرن السادس عشر فقط، أي بعد 160 عاماً من وفاة زينج، حاول المؤلف لو ماودينج أن يعيد له شهرته برواية تقع في 1000 صفحة بعنوان «رحلات الفتى سان باو في البحر الغربي» (ومعنى سان باو الجواهر الثلاث) وضمت هذه الرواية صورة فنية للأميرال العظيم يجلس على متن سفينة القيادة، وقد بدت ملامحه باهرة ومؤثرة في النفوس، لكن الكتاب ترك أثراً محدوداً؛ فقد أجاد الموظفون القيام بأعمالهم، وأسدل ستار النسيان على أعظم قادة الصين البحريين. أما فيما يتعلق بماهوان فقد أفلح أخيراً في طبع كتابه في عام 1451 وهو في الثمانينيات من

عمره، وعلى الرغم من أنه قد أمضى أواخر عمره في إلقاء المحاضرات حول رحلاته فإن اسمه سرعان ما طاله النسيان.

وتبدو حملات زينج السبع لدى النظر إليها من المنظور التاريخي، ظاهرة مثيرة للحيرة وغير عقلانية تقريباً؛ فقد كان المحيط الهندي في القرن الخامس عشر ساحة تجارية ذات ثروة هائلة، (ما من إقليم آخر في العالم حظي بإنتاج يمكن أن يوضع موضع المقارنة مع إنتاج المحيط الهندي من السلع المصنعة والمواد الخام) وكان دخول الصين لهذه الساحة مفاجئاً وهائلاً وقوياً، ومع ذلك فقد انتهى على النحو المفاجئ ذاته، من دون أن يخلف أثراً وراءه إلا بصعوبة، بل إن هناك دليلاً واحداً ملموساً على امتداد المحيط الهندي بأسره يبرهن على أن زينج كان هنالك بأساطيله الهائلة وعشرات الآلاف من الرجال معه، وهو اللوح المنقوش بثلاث لغات في سيلان في عام 1410[5].

ويبقى ما بقي من الأدلة المغرية في الصين، وإلى جوار نصوص مثل كتاب ماهوان وأعمدة المعبد، هناك خريطة بحرية يزيد طولها على خمسة أمتار، وهذه الخريطة رسمت خلال الحملات، وتحمل أسماء أكثر من 250 مكاناً في المحيط الهندي، تمتد من ملجا إلى موزمبيق، وعلى الرغم من أنها معروفة باسم خريطة ماو كون، فإنها ليست خريطة بالمعنى العادي، فهي تدرج قائمة بالموانى والمعالم البرية والخلجان والمرافئ الطبيعية والصخور الخطرة، على امتداد مسار مرسوم من اليمين إلى اليسار، وليس هناك مقياس للمسافات، والمساحة المخصصة للأقاليم المختلفة تتباين بحسب المعلومات المتوافرة. وهكذا فإن الصين تحتل مساحة تعادل ثلاثة أمثال مساحة شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا مجتمعين، وتحدد الطرق الصحيحة بدقة مع إيضاح التيارات البحرية والرياح السائدة ومسابر الأعماق. وتمكن واضعو هذه الخريطة عن طريق قراءات البوصلة والمواقع المحددة في مواقيت معلومة بالاستعانة بالشمس والنجوم الإرشادية (جيان شينج فا) من أن يوضحوا بدقة مدهشة الممرات البحرية التي سلكت في القرن الخامس عشر.

وربما تم تجميع هذه الخريطة من سجلات القادة الذين عملوا تحت إمرة زينج[6]، غير أنه ما من سبيل لأن تعرف منها على وجه الدقة أين أبحرت كل الأساطيل، أو كم عدد السفن التي لم تعد منها، وهناك إشارات إلى أن بعضها ربما كانت قد أوغلت في مسار

كالقوس الهائل عبر البحار الجنوبية وهي تبحث عبثاً عن البر، وأن بعضها الآخر ربما مضت محاذية خط الساحل الأفريقي جنوبي سفالة. وتفيد خريطة ماو كون أن العواصف أوقفت الأساطيل الماضية إلى ما وراء «هابوير» التي يبدو أنها جزيرة صغيرة تقع إلى الجنوب من أفريقيا.

لقد انبسط النفوذ الصيني لفترة وجيزة عبر العالم حتى لامس حدود أوربا تقريباً. وحفز التجار الذين مضوا بعيداً حتى بلغوا القاهرة الطلب على الحرير والخزفيات الشرقية في أوربا. وفي الصين ذاتها وجد مناخ عالمي (كوزموبوليتاني) مع جلب حشود من المبعوثين من بلاد نائية في السفن الكنوز لدى العودة إلى أرض الوطن، وشوهدت مواكب رجال يتحدثون لغات مجهولة ويرتدون أزياء غريبة في شوارع نانكينج وبكين، وجلبوا الجواهر واللآلئ والذهب والعاج وعشرات الحيوانات، وانهمك حراس حدائق الحيوان الإمبراطورية كثيراً في رعاية التقدمات غير المألوفة التي رفعت إلى «الإمبراطور المقدس».

والموضع الذي يمكن فيه تأمل منجزات "زينج هي" المنسية هو دوندرا[7] في سيلان، وهو الطرف الأكثر إيغالاً باتجاه الجنوب من شبه القارة الهندية. وغير بعيد عن الرأس البري هناك شاطئ صخري، حيث تظلل أشجار النارجيل القبور المتداعية التي دفن بها بحارة السفن الغارقة. وقد كان في دوندرا في وقت من الأوقات معبد عظيم لبوذا، يبدو فيه مضطجعاً وقد صنع من الذهب الخالص، ووضعت ياقوتتان كبيرتان موضع العينين، وفي كل ليلة كانت 500 عذراء يرقصن ويغنين أمام التمثال. وعلى مسافة قريبة إلى الغرب يوجد الموضع الذي نصب فيه زينج لوحه المنقوش باللغات الثلاث. وعندما كانت الأساطيل الصينية المبحرة غرباً تبصر رأس دوندرا، كانت تعرف أنه سرعان ما يحين وقت الانعطاف شمالاً نحو كالكوت وبحر العرب.

من هذا الموضع يمتد المحيط الهندي بعيداً نحو الجنوب فيما وراء آفاق لا حصر لها، إلى قاع العالم. وإلى الجنوب الشرقي يقع طريق العودة إلى سومطرة والصين، وبعيداً إلى الجنوب الغربي تقع مدغشقر. وبعدها الرأس الذي تلتوي أفريقيا عنده فجأة، نحو محيط آخر أكثر شراسة، لم يتعرض حتى ذلك الحين لغزو السفن القادمة من الشرق أو من الغرب.

الفصل الحادي عشر

ملك القلعة الأفريقية

ممباسا، وكلوة، ومليند، وسفالة (التي يعتقد أنها أوفير) إلى مملكة الكونجو وأنجولا
بعيداً في الجنوب القصي[1]

جون ميلتون - «**الفردوس المفقود**» - الكتاب الثاني

لو أمكن لباقي أفريقيا أن تقدم ما ينافس أهرام مصر في مجال البناء الصرحي، فلابد أن زيمبابوي الكبرى ستتصدر قائمة المنافسين، وتترامى الخطوط الخارجية الجرانيتية الرمادية لهذه العاصمة الأفريقية، الواقعة على بعد ألف ومئتي ميل جنوب خط الاستواء، على حافة هضبة عالية بين نهري الزامبيزي واللمبوبو، وقد طال النسيان أسماء الرجال الذين حكموا هاهنا قبل سبعمئة سنة (وكذلك الحال بالنسبة إلى الاسم الأصلي للمكان ذاته، فزيمبابوي اسم مستمد من اللقب الذي خلعه السكان اللاحقون على الإقليم، والذي يعني دار الحجر). ومع ذلك فإن هذا المكان حتى وهو أطلال خربة، كان مؤثراً لدى رؤية المستعمرين الأوربيين له للمرة الأولى في القرن التاسع عشر، إلى حد أن فضل تشييده قد نسب إلى الفينيقيين، والمصريين، والهنود، وأي شعب، إلا الأفارقة[2]، [3]. وقد بعث هذا الحياة في الأسطورة القديمة، التي مفادها أن أقاليم جنوب أفريقيا المنتجة للذهب هي أوفير (وبار) التي شدت إليها الرحال قديماً سفن الملك سليمان.

ومن المؤكد أن الذهب كان دافعاً وراء فورة النشاط التي أوجدت زيمبابوي[4]. وكان يتم الوصول إلى ميناء سفالة المطل على المحيط الهندي من خلال رحلة تستغرق عشرين يوماً، انطلاقاً من الهضبة ومضياً باتجاه الشرق عبر الأراضي الساحلية الخفيضة، وعند الساحل كان التجار ينتظرون بالمنتجات الزجاجية السورية والآنية الفارسية والصينية، والخرز والودع والملاعق والأجراس[5]، وجلبت السفن التقليدية التي تصل مدفوعة بالرياح الموسمية معها كذلك حمولات من الأقمشة ذات الألوان البراقة، المعروفة

بأقمشة كامباي (كنباية) من المرفأ الهندي الكبير، الذي يحمل هذا الاسم ذاته. وعلى امتداد قرون شكلت مثل هذه البضائع مصدر جاذبية لا يقاوم بالنسبة إلى أبناء الداخل الأفريقي.

وقد امتلأت زيمبابوي الكبرى بالسكان على نحو مستمر على امتداد أربعمئة سنة، وخلال معظم هذا الوقت سيطرت على تجارة الذهب المنطلقة إلى سفالة؛ فغدا الحكام أثرياء، وارتدوا أثواباً من الحرير المستورد (الملون تقليدياً باللونين الأزرق والأصفر) ولكنهم كانوا كذلك يطرحون على أكتافهم أثواباً إضافية طويلة، صلبة النسيج، بلا أكمام، تنسج محليا من القطن الذي يزرع في وادي الزامبيزي. وعندما كانوا يفصلون في المنازعات، كانوا يتَّخذون مقاعد عالية منحوتة ذات ثلاث أرجل، وغالباً ما كانوا يحتجبون فلا يتحدثون إلا من وراء ستار، وتقرع الأجراس الضخمة إعلاناً لحضورهم، ويضطر المتقدمون بالتماس لهم إلى الزحف للأمام على الأرض، مصفقين بأيديهم لدى حديثهم، من دون أن ينظروا إلى الملك إطلاقاً. وكان من المتوقع من الحاكم بسبب سلطاته الإلهية أن يحتفظ بعدد كبير من الزوجات، ربما يصل إلى ثلاثمئة زوجة، كما كان هو الحافظ لكل قطعان الأمة، ويستخدم عامة الناس الماشية، من قبيل الرعاية الملكية لهم، وتذبح الحيوانات بناء على أوامر الملك لتلبية احتياجات الرعايا.

وكانت زيمبابوي الكبرى أقوى عاصمة في أفريقيا الجنوبية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، ولكن كان هناك اثنا عشر تجمعاً سكانياً آخر مبنياً بالحجر على الجانب الشرقي من الهضبة، تقاد منها الماشية إلى الأراضي الخفيضة لترعى هناك. وقرب نهر اللمبوبو أحيطت زيمبابوي القديمة المعروفة باسم مابونجوبوي بأراض زراعية، على شكل مدرجات، وتناول حكامها طعامهم في أطباق السيلادون الرمادية الضاربة إلى الخضرة المستوردة من الصين، وشملت الآثار التي عثر عليها في القبور تمثالاً لوحيد القرن، يصل طوله إلى ست بوصات، في جراب متكامل من صفائح الذهب. وفي مرحلة نضج زيمبابوي الكبرى وحدها أبدى الحكام اهتماماً مماثلاً بصياغة الحلي من هذا المعدن، وليس الاكتفاء ببيعه في صورة تبر أو كتل من عروق الذهب.

والذي ميز زيمبابوي الكبرى اعتباراً من عام 1200، هو القدرة على التخطيط لأعمال البناء على نطاق هائل وتنفيذها، مع تحقيق تقدم مطرد في الأساليب الفنية

المتبعة في ذلك؛ فالكتل المستخدمة في البناء دمجت معاً من دون استخدام الملاط لتثبيتها، ومع تقدم المهارات أصبحت الأسوار تجمل بأشكال زخرفية مختلفة، أكثرها شيوعاً الماعز رمز الخصب[6].

ويكمن أصل زيمبابوي الكبرى في بناء قلعة حجرية وسط صخور جرانيتية هائلة في أعلى تل يشرف على الريف الممتد في كل الاتجاهات، وكانت هذه القلعة بالفعل بأبراجها وبريجاتها بمنزلة القصر، وقصد منها أن يعرف رعايا الملك أنه يطل بصورة دقيقة عليهم من عل، وفي الليل كان في قدرتهم مشاهدة وهج نيرانه، وكان الصعود إلى الحضرة الملكية حاداً ومرهقاً، وعلى الأبواب حراس مدججون بالحراب، والأبواب في الأسوار المقامة على الصخر الطبيعي صغيرة للغاية بحيث إنه ليس في وسع الرجل أن يلجها إلا جاثياً.

وفي أسفل الوادي كان هناك كثير من الأماكن المسيَّجة، التي ربما كانت تشغلها زوجات الملك وأتباعه الأقوياء، وأسوار أكبرها يعلو إلى ستة أمثال قامة الإنسان، ولها قنوات صرف من المستويات الأرضية بداخلها، ولتشييدها شكلت الملايين من قطع أحجار الجرانيت المصقولة، وحملت إلى موقع البناء. وفي الداخل كانت هناك دور دائرية مسقوفة بغصون الأشجار، ومبنية على الطراز الأفريقي التقليدي، بجدران من «الداجا» وهو طين يشبه الأسمنت غالباً يؤخذ من كثبان الرمال، وكان من المألوف زخرفة هذه الجدران بأشكال هندسية براقة، وتتناثر حول الأماكن المسيجة أكواخ الرعايا الأدنى مرتبة والعبيد والأسرى الذين بقوا على قيد الحياة بعد أسرهم في الغارات التي تشن على الجيران، وقد تزايد عدد سكان العاصمة ليبلغ عشرين ألف نسمة.

وقدر لتجارة الذهب أن تطلق سلسلة متتابعة من ردود الأفعال امتدت عبر أرجاء القارة. وحمل العاج والملح الجاف والأسلحة والأدوات الحديدية على امتداد الطرق التي تتخلل الغابات، من سوق إلى أخرى، إلى أن اكتسبت قيمة تبادلية قصوى في المناطق ذات الكثافة السكانية الكبرى. وحتى بعد ألف ميل إلى الشمال من مصب نهر الزامبيزي، تم تشغيل مناجم النحاس، التي تعرضت للإهمال على امتداد ثلاثمئة عام.

وحكم ملك زيمبابوي الكبرى شعباً محباً للحرب عرف باسم الكارانجا، وسيطر مع زعماء القبائل الموالين له، الذين أقاموا حول الهضبة في تجمعات سكنية أقل بروزاً، على مساحة تصل إلى مساحة فرنسا على وجه التقريب، وامتدت أراضيهم إلى بوتسوانا الحالية من جانب، وإلى موزمبيق من الجانب الآخر، وعبر نهر اللمبوبو إلى جنوب أفريقيا الحالية، والأطلال الجرانيتية هي ما تبقى من صروحهم.

واتسع نطاق زيمبابوي الكبرى في عزلة مطلقة عن تكوين المدن ـ الدول التي ظهرت في الوقت ذاته إلى حد كبير في الجانب الغربي من أفريقيا، ويبدو قيام إمبراطوريات غانا ومالي وسونجاي وسقوطها، إلى جوار نهر النيجر، كما لو كان قد حدث في قارة أخرى، فقد كانت هذه الإمبراطوريات تقع بعيداً إلى الشمال من خط الاستواء يضاهي بعد زيمبابوي الكبرى عنه في الجنوب بصورة تقريبية، وكان جانب كبير من مسافة الثلاثة آلاف ميل التي تفصل بينهما مؤلفاً من غابة استوائية عصية على الاختراق. وإلى جوار البحيرات الداخلية في أفريقيا الوسطى، التي يستمد النيل منبعه منها إلى الشرق من الروينزوري (جبال القمر) وجدت ثقافات أوثق تعانقاً بكثير مع زيمبابوي الكبرى. ويبدو أن تجمعات سكانية على المستوى نفسه تقريباً قد تطورت هناك في الوقت ذاته، بحسب ما يمكن استنتاجه من المنشآت الترابية الهائلة وأنظمة الري الكبيرة، ولكن بما أن مبانيها كانت من الخشب وأغصان الأشجار فإن كل الأدلة تقريباً قد اختفت في القرون التي تفصلها عنا، وفضلاً عن ذلك فإن سكانها فيما يبدو لم تكن لهم صلة على الإطلاق بتجارة المحيط الهندي.

غير أن هناك صلة واحدة واضحة، ففي منطقة البحيرات العظمى، على نحو ما كانت الحال على بعد ألف وخمسمئة ميل إلى الجنوب، كان تعدين الحديد وصهره أمراً محورياً بالنسبة إلى الاقتصاد. وقد غدت زيمبابوي الكبرى ثرية بفضل الذهب – حيث كان هناك أكثر من أربعة آلاف منجم ذهب صغير في الهضبة المرتفعة – ولكن الحديد حكم حياة عامة الناس، وبينما قام معظم أرجاء العالم بصهر النحاس أولاً، ثم تقدم عبر قرون عديدة لصنع الحديد وزيادة صلابته، فإن أفريقيا خرجت من العصر الحجري في وثبة واحدة، وهذه القدرة الجديدة كان معناها القوة، فقد غيرت الأسلحة المصنوعة

من الحديد المطروق طرق خوض الحروب وصيد الحيوانات البرية، وبالبلطات الحديدية أمكن للرجال اجتثاث الغابات، وبالمجرفة حفروا الأرض إلى أعماق أبعد وزرعوا المزيد من المحاصيل.

ويدور نقاش مستفيض حول الكيفية التي تطورت بها تقنية العصر الحديدي في الداخل الأفريقي، وما إذا كانت قد اخترعت بصورة مستقلة، أم تم اكتسابها من الخارج. ويبدو أنها قد استخدمت هناك في وقت مبكر يناظر وقت استخدامها في مصر أو الكثير من أرجاء أوربا. وقد عاش أول صانعي الحديد المعروفين جنوب الصحراء الأفريقية إلى الغرب مما يعرف الآن باسم بحيرة فيكتوريا، إلى الجنوب من خط الاستواء مباشرة. واستقر آخرون وسط تلال رواندا وبوروندي في منطقة رحبة مؤلفة من البراكين الخامدة، التي يتوجها الجليد وتتخللها البحيرات العميقة والتلال ذات الغابات الكثيفة الغنية بخام الحديد الأحمر، وربما تعود أقدم آثار لصهر الحديد في ذلك الإقليم النائي إلى 1000 عام قبل الميلاد[7].

وتظل هوية هؤلاء القائمين بعملية الصهر لغزاً، ومن المؤكد أنهم لم يجيئوا من جماعات البوشمن (وهم جماعة من القناصين المترجلين في أفريقيا الجنوبية) أو الأقزام وهم السكان الأصليون، الذين عاشوا على «الصيد والتقاط الثمار»، حيث إنهم كانوا يرعون ماشية حدباء، تعرف بالزيبو (وهي نوعية آسيوية) وعرفوا كيف يزرعون محاصيل بسيطة. وكان كل فرن صلصالي صغيراً لكنه مركب ودقيق الصنع، مع وجود مداخل حول كل جوانب القاعدة، لتتيح للكيران المشغلة يدوياً أن تدفع عالياً بحرارة نيران الفحم. وتم اجتثاث صفوف من أشجار الغابات العتيقة للاستمرار في تغذية الأفران بالخشب الجاف؛ لأن الطلب على الأدوات الحديدية كان بلا نهاية، وكان ذلك نمطاً سيتكرر في العديد من أرجاء أفريقيا.

وربما كان التمكن من عملية الصهر قد انتشر جنوباً من وادي النيل، من مدينة ميروي النوبية التي أتى على ذكرها المؤرخ الإغريقي هيرودوت في عام 450 ق. م. فعلى مشارف المدينة أكوام هائلة من خبث الحديد، وقد وصفت بأنها «برمنجهام أفريقيا القديمة». غير أن أقدم دليل على وجود الحديد في ميروي يعود إلى حوالي عام 500

ق. م. ويتمثل احتمال آخر في أن صناع الحديد الرواد ربما كانوا قد هاجروا إلى رواندا وبوروندي من البحر الأحمر ماضين بقطعانهم لمسافة ألفي ميل، إلى أن توقفوا في قلب القارة الخصب، وكانت وسائل زيادة صلابة الحديد قد «اكتشفت» في بلاد آشور، في حوالي عام 2000 ق. م. وانتشر السر جنوباً من هناك إلى شبه الجزيرة العربية.

ولدى رسوخ هذه المهارة عند خط الاستواء تقدمت جنوباً بصورة مطردة، على امتداد العمود الفقري الصخري للقارة الأفريقية. وفي عام 300 ميلادية كان الحديد يصهر في منطقة الكاب تقريباً، وفي بعض المناطق يمكن رصد بقايا مئات الأفران، الأمر الذي يبرهن على وجود صناعات قروية على مستوى رفيع من التنظيم، وكان بالإمكان استخدام المجارف الحديدية أو المواشي مهراً للعروس. ونظم عمال المعادن أنفسهم في صورة طوائف مهنية، حيث نظر إليهم باعتبارهم رجالاً متميزين، وكانت الماعز تقدم كقرابين لدى اكتشاف وجود ترسبات الخام.

وفي زيمبابوي الكبرى كانت فرق من عمال المعادن عاكفة على الدوام على إنجاز مهامها، ومَنْ لم يكونوا يصنعون الأدوات الحديدية أو الحراب، انشغلوا بصب الكتل النحاسية المميزة للعاصمة، والتي كانت قريبة في شكلها من حرف "H" الإنجليزي، واستخدمت كنوع من العملة وتجمع في الهواء الدخان المنبعث من العديد من الأفران. وشأن معظم الأنشطة اليومية فإن عملية الصهر كانت مرتبطة بالسحر، وكان المعتقد أن الأرواح القلقة تنشط داخل الفرن، إذا لم تتم تنقية المعدن من الخبث، وكان لابد من أداء الطقوس المناسبة لتحقيق استقرار هذه الأرواح في سلام.

وتلقى الملك ومستشاروه المقربون الإرشاد المقدس حول هذه المسائل، في مزاراتهم الدينية في القلعة حيث تتم عبادة أرواح الأسلاف الملكيين[8]. وكان وقت بزوغ الهلال الجديد هو الموعد الأكثر يمناً، ولعبت الأخت الكبرى للملك دوراً رئيسياً؛ فهي مثله كان ينظر إليها على أنها حلقة اتصال مباشر بالأسلاف. وفي زيمبابوي الكبرى كانت المزارات تزيَّن بمنحوتات من الحجر الصابوني، تجسد مخلوقات غامضة، جانب منها كهيئة الطير، والجانب الآخر في صورة الوحش تجمَّل بالخرز وفقاً لأساليب صارمة. ولما كان كل منها على هيئة مختلفة؛ فهي قد تمثل أرواح الملوك السابقين، وتوضع على

أحجار مفردة عالية حول المزار، وتحت إحدى منحوتات الطير يزحف تمساح بالحجم الطبيعي متسلقاً العمود، الذي نصب عليه الطير. وتشبه مناقير الطيور منقار النسر، ففي معتقدات الكارانجا يحمل النسر الرسائل بين الأرض والمورينجا، أي الإله.

ومن البقايا الفنية للطقوس الدينية الأخرى منحوتات دقيقة لرجال ونساء، متخذة من الحجر الصابوني المجلوب من مسافات تبعد مئة ميل. وقد شكل الحجر كذلك على هيئة أطباق عميقة دائرية قطر كل منها عشرون بوصة، عليها تصميمات لحيوانات شبيهة بالأشكال الهيروغليفية مثل حمر الوحش والقردة والكلاب على جوانبها الرأسية.

وقد تطورت مهارات تشكيل الحجر التي اكتسبها حرفيو زيمبابوي الكبرى، وقدرتهم على صياغة الحلي من الذهب والنحاس، انطلاقاً من تقاليد حفر الخشب وصب الطمي في قوالب. وقد فقدت التحف الخشبية بمرور الزمن وبفعل المناخ الأفريقي، ولكن البرهان على عمق التقاليد الفنية في جنوب أفريقيا يمكن العثور عليه في التماثيل الطينية المحروقة، التي اكتشفت عند حافة جبال دراكنسبرج. وقد كان ما يعرف برؤوس لايدنبرج التي صنعت في حوالي عام 600 ميلادي أو قبل ذلك أقنعة دقيقة الصب، ضخمة بما فيه الكفاية لاعتمارها فوق الرؤوس بكاملها. ويصل ارتفاع أضخمها إلى حوالي خمس عشرة بوصة، وهي ماتزال تحمل آثار لمسات من الطلاء على الطين، ويعود تاريخ هذه الرؤوس إلى سبعة قرون على الأقل قبل نضج زيمبابوي الكبرى، الأمر الذي يفصح عن دقة جمالية لابد أن لها جذوراً أقدم عهداً.

وأكثر الهياكل الحجرية مدعاة للحيرة في زيمبابوي الكبرى يتمثل في برج مخروطي، يشمخ فوق أكبر التجمعات المسيجة وقد شيد من كتل الجرانيت وداخله من الحصى، وهو لا يخفي كنوزاً كما لا يحرس قبراً ملكياً، وهذا البرج الذي يبدو مجرداً من المعنى اليوم، بُني بعناية فائقة للغاية، إلى حد أنه لابد قد حمل رسالة محددة لكل من شاهدوه في عهد مجد العاصمة وربما شكل هذا البرج صومعة أفريقية لتخزين الحبوب؛ ليؤكد للناس أن الملك حريص على رفاهيتهم، ولن يدعهم يعانون من الجوع أبداً. وتقول الأساطير إن هذا التجمع المسيج الذي يزيد محيطه على ثمانمئة قدم، ويرتفع البرج في قلبه، قد شيد من أجل كبرى زوجات الحاكم. وهكذا فقد يكون هذا

البرج رمزاً آخر لإعلان فحولة العائلة المالكة. وقد حدد مدخلان للتجمع المسيج برمزي الذكر والأنثى، وهما القرن والأخدود.

وبالنسبة إلى الرعايا الأدنى منزلة للملك، في أكواخهم المتناثرة أسفل القلعة، لم تكن الحياة تختلف عن نظيرتها في أي قرية على الهضبة؛ فلايزال يتعين على النساء أن يجلبن الماء من أقرب نبع، والحطب ينبغي جمعه والحبوب لابد من طحنها وخبزها، والتربة الحمراء القائمة في الحدائق ينبغي أن تحرث، وعلى الأطفال رعي الماعز والاهتمام بالدجاج، وعلى الرجال رعي الماشية وصيد الحيوانات، وتشكيل الأوعية من الطين المشوي، والتأهب للحرب باستخدام حرابهم وهراواتهم عندما تصدر الأوامر بذلك من القلعة. وكانوا يحتسون الكثير من الجعة، وخاصة في الأعياد؛ مثل عيد العام الجديد عندما يتم تأجيج نيران الملك وتوقد منها كل النيران الأخرى.

وكان الوجود محكوماً بالخيال الجامح والأساطير، فعندما يتأخر الموسم المطير عن موعده، يشارك الناس في تقديم القرابين في المزارات، حيث يتعين إرضاء «مُلاك الأرض» المحتجبين، وإذا لم تفلح مثل هذه القرابين في جلب ما يكفي من المطر، فإنه يتم الرجوع إلى الوسيطات الروحيات لاستشارتهن.

وكان من البراهين الدالة على سلطة ملوك زيمبابوي الروحية العظمى، وأيضاً على ضراوتهم، أنهم جمعوا رعاياهم على امتداد قرون حول نواة الدولة - المدينة، ولكن كان هناك قصور قاتل؛ فهم لم يستطيعوا تملك ناصية الحفاظ على السجلات، كما لم تتم استعارة أي شكل من أشكال الكتابة من ثقافات المحيط الهندي، التي اتصل حكامها بها من خلال تجارة الذهب. وعلى امتداد ما يزيد على ثلاثمئة عام أرسلت قوافل تجارية لا حصر لها إلى الساحل، حيث شاهد القادة الحسابات وهي تقيد باللغة العربية، وبالمثل فلابد أن المبعوثين قد ارتحلوا براً حاملين رسائل مكتوبة، لتقرأ على ملك ما كان العرب يعرفونه بـ«زبانوى» أو «أرض الذهب». وقد أتيحت لزيمبابوي الكبرى - على نحو يفوق أي مجتمع آخر من مجتمعات أفريقيا المتاخمة للصحراء - الفرصة، وكذلك دعت الحاجة إلى الاحتفاظ بسجلات مكتوبة، لكنها لم تخط الخطوة الحاسمة باتجاه التخلص من الأمية[9].

وبدلاً من ذلك، فقد أعاقها التشبث بالثقافة الشفهية لأفريقيا الرعوية. وعندما كان حاكم ما يشعر بالحاجة إلى إرسال أنباء أو أوامر إلى قرية تقع على مبعدة، فإنه كان يختار رسولاً يمكن الاعتماد عليه في حفظ كلماته عن ظهر قلب. وخلال الرحلة الطويلة كان هذا الرسول يعقد عقداً في خيط ليسجل عدد الأيام التي استغرقتها الرحلة، ولدى عودته يتم حفظ هذا الخيط للعودة إليه مستقبلاً، واستخدمت أساليب عديدة للحساب؛ فربطت حزم من الأعواد بخيوط، أو علمت بعلامات غائرة، واستخدمت كعصى للحساب في التجارة.

وظلت الممارسات الدينية بسيطة، فلم يكن هناك كهنوت يعتمد على الدراسة ويتم تكريسه لتحديد الشكل الدقيق للطقوس والأيام على مدار العام الذي ينبغي أن تؤدى فيه، وقد قسمت الشهور القمرية إلى ثلاثة أسابيع، يتألف كل أسبوع منها من تسعة أيام أو عشرة. ولم يقم القضاء على قواعد مكتوبة؛ وإنما على أعراف اجتماعية وعلى تفسير الإشارات. وفي المقام الأول كانت أرواح الأسلاف تتخلل كل شيء في الحياة؛ فقد كان عالم الروح جزءاً لا يتجزأ من الواقع، وكان الوجود متكرراً كالمواسم. وكان من شأن الاحتفاظ بالسجلات أن يعني تقدماً خطياً في الزمن ورفضاً للماضي، ولكن وجود الأرواح ألقى بثقله بقوة مقابل ذلك.

وما كان يمكن بناء صرح حضارة على رمال الذاكرة المتحركة وحدها، وظل الأثيوبيون البعيدون في الشمال الشرقي، الذين استخدموا لغة الجيز القديمة الخاصة بهم، هم الشعب الأفريقي الأسود الوحيد الذي يجيد القراءة والكتابة، إلى جوار من اعتنقوا الإسلام في غربي أفريقيا وساحل الزنج. ولم تفلح كل الثروة الناجمة عن الذهب، في نهاية المطاف، في تغيير الطبيعة الجوهرية لمجتمع زيمبابوي الكبرى[10].

وكما اكتشف المسعودي في القرن العاشر، فإن الثروة المتمثلة في الماشية كانت على الدوام أهم شيء في أفريقيا الجنوبية؛ فمنذ أقدم العصور كانت التماثيل الصغيرة التي تجسد الثيران تحظى بالتبجيل، وكانت الماشية تدفن على نحو طقوسي، وقد حكم الملك القطيع كما حكم الشعب، وكان في حقيقة الأمر أقوى الرعاة قاطبة، وهكذا فإنه عندما واجهت الدولة بعض المشكلات المستعصية بعد وقت قصير من عام 1400 تم التخلي عن زيمبابوي الكبرى وانتقل الملك منها بماشيته وشعبه.

ولا يمكن إلا أن نخمن ما الذي قرع الناقوس الجنائزي لزيمبابوي الكبرى، فربما نشب صراع بين الحكام حول من يرقى العرش، أو ربما حدث جفاف استمر طويلاً أو استنزفت طاقة التربة، ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حدث زحف مفاجئ لأسراب ذبابة التسي تسي القاتلة قادمة من الأراضي الخفيضة. واستهدف هجومها البشر والماشية معاً.

ويقال إن الملك الذي أصدر أمر التخلي عن زيمبابوي الكبرى، بعد أربعة قرون تقريباً، كان يدعى نايتسمبا موتوتا، وقد مضى شمالاً مقترباً من نهر الزامبيزي ومناجم الذهب في الهضبة العليا، وأسس إمبراطورية مويني موتابا. وقد ترجم هذا الاسم على أنه مونو موتوبا، وقدر له أن يظهر على الخرائط على امتداد قرون عديدة كدولة قوية في الداخل الأفريقي، تترك أحجارها الرمادية المرقشة العديد من الأسئلة بلا إجابة.

وربما كانت القلعة والتجمعات المسيجة، استجابة شبه عرضية للازدهار الاقتصادي، وتصادف أن توافر من الحجر أكثر مما كان متاحاً من الخشب، حيث قطعت أشجار عديدة لإعداد الفحم للمصاهر. ويمكن كذلك النظر إلى زيمبابوي الكبرى باعتبارها المقدمة لمراحل لم تستكمل لتطوير حضارة أفريقية على نحو مميز، وربما كان يمكن لشعب الكارانجا أن يمضي قدماً للتخلص من الأمية في موطنه الجديد وتنظيم دولة متكاملة تقوم على هذا الأساس. ولم يمنح التاريخ الوقت لحسم هذه الاحتمالات؛ لأن أفريقيا جنوبي خط الاستواء كانت توشك على دخول مرحلة جديدة.

الجزء الثاني

مدافع العالم المسيحي

الفصل الثاني عشر

آفــاق الأمـيــر هـنــري البعيدة

لن يردني إلى الوراء الجرس، ولا الكتاب، ولا الشمعة،
عندما يهيب بي الذهب والفضة أن أبادر بالانطلاق.

شكسبير ـ **«الملك جون»** ـ الفصل الثالث ـ المشهد الثالث

علق عام 1415 بذاكرتي ملكي البرتغال وإنجلترا، فقد كان لدى كل منهما إنجاز عسكري يحتفل به حققه في ذلك العام، ففي شهر آب/ أغسطس استولت سفن صغيرة تنتمي لأسطول من لشبونة، على مدينة سيوتا (سبتة) العربية المطلة على ساحل شمالي أفريقيا. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ألحق رماة السهام الإنجليز الهزيمة بالفرنسيين في أجنكورت. وبالنسبة إلى هنري الخامس فقد انعقد له لواء الانتصار بمشقة بالغة، بينما كانت خسائر جون ملك البرتغال محدودة، حيث لقي ثمانية فقط من رجاله مصرعهم على نحو عبثي تقريباً؛ وكان مرد ذلك إلى أن حاكم سبتة، بعد أن استدعى قوة من البربر لمساعدته على الدفاع عن المدينة، أعاد هذه القوة إلى المكان الذي قدمت منه قبل الأوان، حيث قدر أن الهجوم لن يشن ضد المدينة بسبب الأنباء التي أفادت أن المئتين وأربعين سفينة برتغالية المبحرة نحوه صغيرة الحجم، وأقل في العدد والرجال من أن تواجه الرياح والتيارات في جبل طارق (كانت السفن تشكيلة متنافرة تم استئجار بعضها من إنجلترا لهذه المناسبة، مع الوعد بدفع المقابل في صورة شحنات من الملح).

وذبح في المعركة عدد كبير من المسلمين ونهبت دورهم ومتاجرهم تماماً، وأعلن البابا هذه المهمة حملة صليبية مقدسة، وتم تحويل الجامع الكبير إلى كنيسة، وأعلن الملك جون متفاخراً أنه «قد غسل يديه في دماء الكفرة»[1] للتكفير عما قد تكون جنته يداه من ذنوب في حياته اليومية، وانطلق في الاحتفال بالذكرى الثلاثين لتوليه العرش[2].

من المؤكد أن الاستيلاء على مدينة في شمال أفريقيا والاحتفاظ بها كان حدثاً مشهوداً، وخاصة إذا كانت في موقع استراتيجي بالغ الأهمية، حيث تقع على بعد لا يتجاوز خمسة عشر ميلاً، عبر البحر من جبل طارق. وكانت سبتة الواقعة إلى الشرق مباشرة من طنجة تفخر بتاريخ يمتد إلى العصور الرومانية، وقد استخدمها العرب في الماضي للسيطرة على حركة الملاحة في غربي البحر المتوسط. كما سعد البرتغاليون كذلك لتفوقهم على منافسيهم القشتاليين الذين قد غزوا قبل ستة عشر عاماً مدينة تطوان، التي لا تبعد عن سبتة، وتعرض نصف سكان تطوان لمذبحة، وتم استرقاق النصف الآخر، لكن القشتاليين سرعان ما انسحبوا من تطوان على حين كانت أهداف سادة سبتة الجدد أكثر دواماً.

كانت البرتغال صغيرة وفقيرة ويعمها الجهل لكنها كانت شديدة الكبرياء، وقد اكتسبت العائلة المالكة ولاء جماهير الشعب بعد وقت قصير من استيلائها على السلطة؛ حيث أحبطت محاولة القشتاليين لغزوهم في العقود الأخيرة من القرن المنصرم، كما عمق من ثقة البرتغاليين بأنفسهم زواج ملكهم من إنجليزية، هي فيليبا أوف لانكستر، وأولع رجال بلاط لشبونة بقراءة أساطير كاميلوت وفرسانها[3]. وشارك أكبر الأمراء البرتغاليين سناً، وهم دوارتي وبيدرو وهنري في القتال في سبتة، ومنحهم أبوهم عقب الاستيلاء عليها مباشرة ألقاب النبالة، وشجعتهم الملكة فيليبا على إحراز الانتصارات العسكرية (فهي لم تكن ابنة جون أوف جونت عبثاً) ولكنها حرمت من بهجة استقبالهم عائدين إلى الوطن ظافرين من سبتة، حيث لقيت حتفها في الوباء خلال عودتهم.

لقد ذهل البرتغاليون خلال نهبهم لدور سبتة ذات البناء الجيد، حيال ما رأوه من حرير الصين وأقمشة الموسلين المطرزة بالفضة والمستوردة من الهند، وغيرها من الكماليات الأخرى. وأقر أحد المؤرخين البرتغاليين بقوله: «إن دورنا المتواضعة تبدو أقرب إلى حظائر الخنازير مقارنة بهذه الدور». وثار فضول أمراء العائلة المالكة، لدى سماعهم للقصص التي رواها الأسرى عن الداخل الأفريقي الواقع فيما وراء قمم جبال الريف المطلة على سبتة، وعلموا بالصحراء الواقعة إلى الجنوب التي ترتحل قوافل

الجمال عبرها إلى «نهر الذهب»[4]. وجاء في إحدى الروايات أنه على ضفة هذا النهر يوجد نمل في حجم القطط يستخرج الذهب، ويتركه أكواماً لكي يلتقطه الأفراد، وقد تم تصديق هذه الأسطورة العتيقة عن النمل الذي يستخرج الذهب بمزيد من القابلية. وشأن الجميع في أوربا لم يكن البرتغاليون يعرفون بالفعل شيئاً يذكر عن أفريقيا، وافترضوا أنها كانت مسكونة بالوحوش وأكلة لحوم البشر.

لقد رسمت صور لمنسي موسى ملك مالي الذي رحل منذ سنين بعيدة وقد تربع على عرش ذهبي، على خرائط لأفريقيا تنتمي للقرون الوسطى، لا لشيء إلا لملء الفراغ وإخفاء جهل من رسموا هذه الخرائط. وفي وقت يعود إلى عام 1410 كان كتاب **«الجغرافيا»** لبطليموس قد أعيد اكتشافه من خلال مصادر عربية، ولكنه كان مضلّلا أكثر منه مصدراً للعون. وسيطر عدد محدود من أبناء جنوة وقشتالة واليهود الذين يتصفون بالكتمان على تجارة الذهب في الطرف الشمالي للصحراء، في مدن تبلغ القوافل عندها البحر المتوسط، ولكنهم بدورهم لم يكونوا يعرفون الكثير عن مصدر هذا المعدن. ولم يكن هناك من سبيل أمام البرتغاليين المعزولين في جيبهم الصغير في سبتة، للمشاركة في التجارة الصحراوية.

كانت كل شائعة تلتقط في سبتة حول الذهب الأفريقي ذات أهمية فائقة بالنسبة إلى الملك جون؛ لأن بلاده كانت تعاني على نحو مؤلم من نقص في مواردها من هذا المعدن، وقد ارتفع سعره عدة مئات من المرات في لشبونة في غضون عقود قلائل من الزمن[5]. وكانت مسألة كرامة وكبرياء بالنسبة إلى كل دولة أن تقوم بسك عملتها الذهبية الخاصة المقبولة كأداة لتسوية معاملات الاستيراد، ولكن خزانة الملك جون كانت خاوية بحيث لا تسمح بهذا، وهكذا استخدمت البرتغال عملات جيرانها الأكثر ثراء ومن بينها عملة بلاد المغرب "الكافرة" من وجهة نظرها.

وسرعان ما تراجعت المكانة التي اكتسبتها البرتغال من خلال استيلائها على سبتة، مع بروز قضايا أعظم شأنا في أوربا؛ فقد اهتزت الكنيسة الكاثوليكية بعنف نتيجة الانقسام الكبير الناجم عن تنافس اثنين من الباباوات على السلطة، وحدوث طوفان من التمرد على المراسيم البابوية الصادرة من روما، وقد أحرق مهرطق بوهيمي شهير،

هو جان هوس، قبل أسابيع قلائل من احتلال سبتة. وقد مال كل اهتمام يمكن انتزاعه من الصراع الديني إلى ناحية الشرق، وإلى التقدم الذي يحرزه الأتراك العثمانيون نحو أوربا، وهم البدو السابقون القادمون من الهضاب الآسيوية. وأحدق الخطر بالقسطنطينية، وكان الأتراك قد تجاوزوا قلعة بيزنطة العظيمة، مختارين عبور البسفور إلى أوربا واكتساح معظم أرجاء البلقان، لكن الجميع كانوا يعلمون أن الأتراك سيعودون في الوقت الذي يحددونه إلى محاصرة القسطنطينية ذاتها. وعلى الرغم من استعادة قشتالة لكل أرجاء الأندلس تقريباً، فإن الخطر الذي يتعرض له العالم المسيحي نادراً ما كان أعظم مما هو عليه الآن. وقد ماتت الأحلام التي تعود إلى القرن الثالث عشر والتي تدور حول تحالف مع المغول يقهر الجميع، وكان الإسلام ينطلق متدفقاً والأتراك العثمانيون يشكلون رأس حربته.

وكانت هذه اللحظة بناء على ذلك لحظة انقسام مادي للعالم المعروف، والممتد من الصين إلى المحيط الأطلسي، أكثر من أي وقت مضى. وأغلق في وجه الرحالة المسيحيين إلى ما يزيد على قرن طريق آسيا الممتد براً، والذي مضى عبره ذات يوم ماركو بولو وعدد لا حصر له من التجار الآخرين، والذي أبقاه المغول مفتوحاً. وشق عدد محدود من المبشرين طريقهم بعناء حتى بلغوا سمرقند، ولكنهم لم يستطيعوا المضي إلى ما هو أبعد من ذلك. وحاول الرحالة الأوربيون الأكثر جرأة وحدهم الوصول إلى الأراضي المطلة على المحيط الهندي، عن طريق البحر الأسود وسوريا ومصر، وعادت قلة منهم فقط. وعلى امتداد قرون توهجت الآمال المتعلقة بالوصول بشكل من الأشكال إلى الشرق بحراً، غير أن جغرافيا القرون الوسطى كانت مغرقة في اللاعقلانية، بحيث إنه لم تكن هناك فكرة واضحة عن الاتجاه الذي يتعين المضي فيه.

ظل من المحتمل، إلى أن يغدو بالإمكان العثور على طريق ما، أن يبقى الاحتكار الفعلي لتجارة أوربا مع الشرق بيد البندقية المتألقة التي حملت لقب «الجمهورية الجليلة» حيث أقام تجارها في مواني شرقي البحر المتوسط وفي القسطنطينية ذاتها، يساومون نظراءهم المسلمين حول صفقات من الفلفل والقرفة والزنجبيل وجوزة الطيب واليواقيت واللآلئ والحرير، المجلوبة من وراء حدود بلاد الإسلام. وفي وقت يعود إلى عام 1413، وقع سلطان الأتراك محمد الأول اتفاقية جديدة مع البندقية، تضمن أمن

مستوطناتها التجارية، وقد أثارت السلطة الفريدة التي تمتعت بها البندقية غيظ منافسيها، لكنه لم يبد أن هناك الكثير مما يمكنهم القيام به في هذا الشأن.

لقد تواصل منذ عهد الصليبيين ولع أوربا بالتوابل المستخدمة في إعداد الطعام، التي كان من المعتقد أن لها قيمة طبية، وأنها تطهِّر الأطعمة التي يأخذ طعمها في التغير، وهكذا كانت أسعارها عالية؛ وفي مقدمة التوابل ذات القيمة الكبيرة يأتي الفلفل الذي استخدم في الطهي وكمادة حافظة، وكان اللحم يتبل بالفلفل مع الملح، عندما يقوم المزارعون بذبح أعداد كبيرة من قطعانهم وطيورهم، في بداية الشتاء. وكان القرنفل يحظى بقيمة عالية على نحو مماثل حيث تدسُّ «قرونه» في اللحم عند شوائه. وفي القرن الخامس عشر أصبحت الكلمات الدالة على «التوابل» تشمل نطاقاً عريضاً من السلع المدهشة المستوردة من آسيا؛ بما في ذلك العطور ومواد التجميل والأصباغ والصمغ والكرات العطرية المستخدمة في مكافحة الوباء، بل والسكر والموسلين البديع. كما زادت بشدة كميات الحرير والخزفيات الصينية الواردة إلى أوربا، على الرغم من أنها لم تعرف السر في هذه الزيادة؛ وهو أن هذه الكماليات كان يجلبها أسطول زينج هي بكميات كبيرة إلى مواني المحيط الهندي.

كان تفوق البندقية دافعاً إلى حنق مرير، وثروتها مزعجة إلى حد أن المنافسين الكثيرين سعوا إلى تحطيم قبضتها. وحاول الجنويون بدأب يفوق غيرهم القيام بذلك، ولكن حروبهم الطويلة مع البندقية انتهت إلى فشل باهظ التكاليف بحلول القرن الخامس عشر. ولم يكن للبرتغال وزن يذكر في ذلك الوقت في هذه المنافسات الهائلة، فلم يكن لها ساحل مطل على البحر المتوسط، إنما موقعها عند الحافة الخارجية لأوربا القارية، وتواجه موانيها المحيط الأطلسي الذي لا يتوقف له اضطراب. وبمقاييس النفوذ السياسي افتقرت البرتغال لكل من الثروة والقوة البشرية، وفضلاً عن ذلك فإن كهنوتها كان موضع ازدراء في الدوائر العليا للكنيسة، حيث ساد الاعتقاد بأن رجال الدين فيها ليسوا على مستوى تعليمي رفيع، وأن لديهم مغامرات عاطفية.

غير أن حماسة الفرسان التي تميّز بها الملك جون واثنان من أبنائه هما بيدرو وهنري، أشعلتها المغامرة التي خاضوا غمارها عبر المضيق الواقع بين أفريقيا وأوربا. ونظر الأمير

هنري، بصفة خاصة، إلى المغرب باعتباره ساحة لطموحاته. ولما كان الابن الثالث، فلم يكن من المحتمل أبداً أن يرقى إلى سدة العرش، ولكنه كان يؤمن في داخله بما اقترن ببرجه؛ فقد أعلن منجمو البلاط أنه بسبب موقعي المريخ وزحل لدى مولده، فإن من المقدر له أن يكتشف «أسراراً عظيمة، وأن يقوم بغزوات نبيلة». وسوف يتم تذكر هذه النبوءة عندما يروي المؤرخون البرتغاليون كيف أنه غرس بذور إنجازات بلاده في أعالي البحار والبلاد النائية.

حين بلغ هنري النحيل ذو المزاج العصبي الخامسة والعشرين من عمره مضى إلى كيب سان فنسان في الجرف، وكان هذا هو طرف أوربا الأكثر إيغالاً في الامتداد باتجاه الجنوب الغربي، وهو امتداد بري في المحيط الأطلسي يشبه مقدم السفينة. وقد ربطت الأساطير التي دارت حول هنري بصورة وثيقة هذا الأمير برأس سان فنسان، وساجر، وهي قرية تحميها صخورها من عواصف المحيط الأطلسي. وقيل إنه قد شيد قلعة في ساجر وجمع حوله جمعية سرية مؤلفة من الحكماء؛ مثل صانعي الخرائط والفلكيين والبحارة. وتدين هذه الصورة بالكثير من عناصرها للخيال. وقد أقام هنري بالفعل معسكراً محصناً في ساجر، لإقامة البحارة الذين ينتظرون وراء الرأس المناخ الهادئ، ولكنه أمضى معظم وقته في الجنوب في لاجو، وهو ميناء يقع على بعد خمسة عشر ميلاً باتجاه الشرق (أما عن اللقب الرومانسي الذي حمله الأمير وهو «هنري الملاح» فقد خلعه عليه مؤرخ ألماني في القرن التاسع عشر، أما هو فلم يكن ملاحاً له تجربة عملية في الملاحة ولم يكن قبطاناً لسفينة طوال عمره قط).

غير أن كيب سان فنسان كان بالتأكيد مكاناً للحلم بالأعمال الفروسية، وبقتل حشود من أبناء «المذهب المحمدي»(6). وقد استحوذت فكرة البسالة والتقوى على الأمير حتى قيل إنه قد أقسم على التزام العفة. وكان كل ما حوله يذكره بأنه منذ ما يزيد قليلاً على القرن كان المسلمون يحكمون الجرف، ودفعت الملكة رؤى هنري إلى التحليق عالياً، من خلال إعطائه ما قيل إنه قطعة خشب من الصليب الذي مات عليه المسيح، ونصبه الملك على رأس «جمعية المسيح» وهي جمعية دينية وعسكرية، أنشأتها البرتغال بمباركة من البابا في عام 1319. وقد حلت هذه الجمعية محل جماعة «فرسان

الهيكل» التي فقدت مصداقيتها، وكان هدفها هو «حماية المسيحيين من المسلمين، وشن الحرب عليهم في عقر دارهم». لقد وضع البرتغاليون يدهم على هذه المهمة المقدسة، وقدر لها أن تكون المبرر لكل أعمالهم الأكثر دموية[7].

تطلع هنري إلى الماضي باعتزاز، على نحو ما فعل معاصروه في لشبونة، إلى عالم شارلمان، وإلى القصص الرومانسية الآرثرية، ولكنه كان من الواقعية بحيث أدرك أن البارود - وهو أحد الاختراعات التي انتشرت عبر العالم من الصين - كان يوشك على تغيير فنون الحروب. وقد عرفت تركيبة البارود على نطاق واسع، منذ قرن على الأقل (كان العالم والفيلسوف الإنجليزي روجر بيكون يمتلك «وصفة سرية» له، في وقت مبكر يعود إلى عام 1260) ولكن المهارات المطلوبة لاستغلاله لم تتطور إلا ببطء؛ ولم تلعب المدافع دوراً في سبتة وأجنكورت في عام 1415، على الرغم من أنه في وقت سابق من ذلك العام استخدم الإنجليز مدافع بدائية تطلق كرات حجرية، عندما حاصروا بنجاح ميناء هارفلير. وكان من المتعذر تحريك المدافع في عصر لم يكن هناك وجود يذكر للطرق، وكان مداها قصيراً، وهكذا فإنها في البر لم تكن مؤثرة إلا في عمليات الحصار عندما يتاح للمهاجمين الوقت المناسب لنصبها.

وقد ظهرت قيمة المدافع في البحر بشكل أسرع، فبمجرد تثبيت هذه الأسلحة الثقيلة على السطح وإعدادها للعمل، فإن السفينة نفسها تمنحها المرونة، وقد كان الإنجليز، باعتبارهم أمة مشتغلة بصناعة البحر، رواداً في استخدام المدافع في البحر - على الرغم من أنها كانت أصغر من أن تكون ذات تأثير كبير - وذلك في معركة سلايوس في عام 1340. وبعد ذلك بجيل واحد، غدت نيران المدافع البحرية قاتلة على نحو أكبر، فقد لقي أمير دانمركي مصرعه من جراء قنبلة حجرية أطلقت عليه من سفينة ألمانية، وسرعان ما بدأ البنادقة عقب ذلك في نصب مدافع على سفنهم المعروفة بالقوادس، تطلق نيرانها إلى الأمام من فوق المقدمات.

أخذ الإنجليز يصممون سفناً كبيرة مزودة بالمدافع، في أوائل القرن الخامس عشر وقد بني بعضها في بيون، الميناء الواقع في جنوب غرب فرنسا، والذي كان هنري السادس لايزال يسيطر عليه، ومن المؤكد أن سميه وقريبه البرتغالي قد أبلغ بقدرة هذه السفن،

وفي عـام 1419 تمكن البـرتغـاليـون من نـشـر السـفن المسلحـة بمدافع لردع أسطول من مسلمي الأندلس أرسل في محاولة لاسترداد سبتة .

ليس مـعـروفـاً مـا الذي بعث في نفس هنري الاهـتـمـام بتـحـدي الأطلسي وألغـاز أفريقيا، في المقام الأول، لأنه كان العضو الأكثر تكتماً في عائلة كتوم. غير أن التحسن الذي طرأ على تصـميم السفن، والتقدم في مـجـال المدفعية، جلب للبرتغـال نتـائج لم يكن في وسع هنري نفسـه أن يحلم بهـا. وقـد صـوره التـاريخ على أنه رجل ذو رؤية مستـقبلية، غيـر أنه كـان طمـوحـاً على نحـو شـديد الضـراوة، ولم تفـعـل النصـائح التي وجـهـتـهـا «جـمـعـية المسيح» بشن حـرب مقـدسـة على المسلمين في أراضـيـهـم شيـئـاً، إلا إضفاء هالة من القداسة على طموحاته .

في البداية كانت اهتماماته قاب قوسين أو أدنى، فعلى مسيرة يومين فقط عَبْرَ البحر من كـيب سان فنسـان تقع طنجـة. وقـد ظن أنه على الرغم من أنه قـد لا يكون في وسـعـه أبداً أن يصبح ملكاً على البرتغال، فإن بوسعه على الأقل أن يصبح نائباً له على المغرب الغني. ومن شـأن طرد «الكفرة» منه أن يكون انتقـامـاً يشـفي الغليل من حكمـهم الذي امـتـد ثمانيـة قـرون لشبـه جـزيرة أيبيـريا. وعندمـا رفض أبوه الملك هذه المشـروعـات، باعتبارها محفوفة بمخاطر بالغة ومفعمة بالغرور؛ شجع هذا الرفض هنري على توجيه أفكاره إلى ما وراء المغرب عبر الصحراء إلى «نهر الذهب».

لقد ذكر أسير عربي احتجزه البرتغاليون بعض التفاصيل حول الطرق التجارية الممتدة عبر الصحاري، كما تحدث عن بحيرات في قلب أفريقيا. وقد عرف هنري أن المسلمين لن يدعوا المسيحيين يمضون إلى نهر الذهب براً، ولكن بما أن هذا النهر يفترض أنه يصب في المحيط الأطلسي، فقد يمكن بدلاً من ذلك الوصول إليه بحراً بالسير جنوباً بمحاذاة ساحل أفريقيا .

واحتفظ هنري حوله برجال من البلاط الملكي يمكنه أن يبعث بهم في مثل هذه المهام في الربيع والصيف عندمـا تهب الرياح من الشـمـال الشرقي، وكانت لـه عـدة سـفن، تمضي بانتظام في رحـلات تجارة وصيـد من سـاجـر ولاجـوس. وأهم مـا في الأمـر هو

الوثائق التي جمعها حول سفن الأمم الأخرى التي حاولت الاكتشاف باتجاه الجنوب، بمحاذاة الساحل الأفريقي[8].

لم يغب مصير الأخوين فيفالدي من جنوة عن ذاكرة أحد، فقد ظلت الجماهير تتساءل عن الموضع المشؤوم الذي وصلت إليه حملتهما بعد أن اجتازت مضيق جبل طارق في عام 1291 للبحث عن طريق يدور حول أفريقيا ويفضي إلى الهند. وحملت خريطة قطالونية أعدت بعد نصف قرن نقشاً يفيد أن شخصاً يدعى جيم فيرير من مايوركا، قد أبحر متجاوزاً معلماً مغربياً يعرف باسم كيب بوخدور (عند خط عرض 26 درجة شمالاً)، حيث يتمثل خط الساحل في صحراء وتبدأ «أرض السود». وقد اختفى جيم فيرير كذلك من دون أن يترك وراءه أثراً، وزعم البحارة أن أي سفينة تمضي إلى ما وراء كيب بوخدور - أو رأس بوخطر بالعربية - لا يمكن أن تعود أبداً[9]. وقد اختفت سفن صيد فرنسية عديدة انطلقت من ميناء دييب، في تلك المنطقة في سنوات أقرب عهداً. وأكد المتأثرون بالخرافات أن هؤلاء المغامرين قد دفعوا حياتهم ثمناً للإبحار إلى «المنطقة المضطربة» وهي أحد الأقاليم المناخية الخمسة، التي قسم جغرافيو القرون الوسطى العالم إليها.

تعرض كبرياء هنري للتحدي من قبل الأنشطة التي قامت بها الأمم الأخرى على الساحل الأفريقي، وشكّل الفرنسيون الذين كانوا يبحثون عن مصايد جديدة للأسماك خطراً خاصاً، لأنه في وقت مبكر يعود إلى عام 1401، قامت مجموعة من البحارة الفرنسيين بالنزول إلى الشاطئ قرب كيب بوخدور في قارب صغير، وأسرت بعض القرويين الأفارقة ثم حملتهم عائدة إلى جزر الكناري. وبعد ذلك بعام قام أحد النبلاء النورمانديين ويدعى جان دي بيتنكور باحتلال جزر الكناري وإعلان نفسه ملكاً عليها[10]. وقد شجعه القشتاليون الذين نظروا إلى هذه الجزر باعتبارها جائزة سيحصلون عليها في نهاية المطاف. وحاول البرتغاليون الاستيلاء على الجزر، حيث إنها كانت في موقع استراتيجي قرب الساحل، لكنهم أخفقوا في ذلك، وقرر هنري الاندفاع جنوباً.

بعث هنري بسفنه عاماً وراء الآخر إلى ما وراء كيب بوخدور. ولم تكن إلا سفناً صغيرة لنقل البضائع، لا تعدو كونها مراكب تسير بالمجاديف تم تزويدها بالأشرعة،

ولدى وقوعها تحت رحمة تيارات قوية، كانت تلوذ بالهرب عائدة إلى البرتغال. وكمنت الغنيمة الرئيسة في نهب السفن المغربية التي تصادفها على امتداد الساحل. وعلى امتداد خمسة عشر عاماً بعث الأمير برجال البلاط في هذه الحملات. وفي نهاية المطاف، تم الدوران حول كيب بوخدور، وأبحر نبيل يدعى جيل إينيس، منطلقاً إلى الأطلسي، لتفادي التيارات الساحلية، ثم نزل على الشاطئ إلى الجنوب من الرأس الرهيب، وهكذا لمس البرتغاليون أخيراً، حافة «أراضي السود» وكان ذلك في عام 1434، أي بعد حوالي عشرين عاماً من الخطوة الأولى في أفريقيا المتمثلة في الاستيلاء على سبتة.

الفصل الثالث عشر

السيطرة على ساحل غينيا

هذه المدينة تنتمي إلى الرب.

الأمير هنري، في معرض الرد على سؤال، حول رفضه تسليم سبتة للمسلمين، مقابل إطلاق سراح أخيه فرناندو، الذي أسره المغاربة (حوالي عام 1440)

تحول اهتمام الأمير هنري لبعض الوقت عن استكشاف ساحل أفريقيا؛ فقد مات الملك جون، وارتقى ابنه الأكبر دوارتي العرش، واستجاب دوارتي الذي كان رجلاً معتدلاً عرف بـ «الملك الفيلسوف» أخيراً لمطالب هنري، التي تدور حول ضرورة محاولة البرتغال توسيع سلطتها على المغرب بالاستيلاء على طنجة.

وتم شن الهجوم في عام 1437 فكان كارثة؛ فقد تم تمزيق الجيش الذي كان تحت قيادة هنري تماماً، وأسر أخوه الأصغر فرناندو واقتيد رهينة إلى فاس. وقد أصابت هذه الأحداث دوارتي بصدمة بالغة حتى إن صحته تداعت وراح ضحية الوباء في العام التالي. وعرض المغاربة إطلاق سراح فرناندو إذا أخلى البرتغاليون سبتة، ولكن هنري سخر من هذا الاقتراح[1]. وعلى الرغم من أن الأمير الأسير بعث إلى الوطن برسائل حافلة بالتوسلات، فإنه تم التخلي عنه ليشمله الرب برحمته؛ فمات بعد خمس سنوات أمضاها في زنزانة ببرج حصين. وأعلنه البرتغاليون شهيداً من شهداء المسيحية.

كان بيدرو ثاني الإخوة الملكيين البرتغاليين، أكثر حرصاً من هنري على عقد صفقة تكفل إطلاق سراح فرناندو، ولكنه بخلاف ذلك، نأى بجانبه عن كارثة طنجة. وخلال جولة في أوربا، كان قد شارك في القتال قبل ذلك بسنوات ضد الأتراك العثمانيين الذين غزوا المجر.

وأظهر الأتراك أنهم أشد بأساً بكثير من مسلمي الأندلس والمغرب، وهكذا كان بمنزلة مصدر للارتياح بالنسبة إلى بيدرو أنه غادر المجر وسافر جنوباً إلى البندقية. آثر

الدوج (Doge)* المنتخب حديثاً فرانسيسكو فوسكاري، الترحيب بالأمير البرتغالي بأسلوب يغلب عليه الإسراف والبذخ، حيث كان هناك إدراك للحقيقة القائلة إن هذا الزائر يمكن بسهولة أن يصبح ملكاً، في ضوء حالات عدم التيقن مما ستسير إليه الأمور في ذلك العصر. وعلى أي حال فقد كان الدوج مولعاً بالمظاهر والاحتفالات[2].

وفي إحدى المآدب دهش بيدرو لمرأى مئتين وخمسين امرأة من نساء أبرز العائلات النبيلة في المدينة، وقد ارتدين أفخم حرير الشرق. وكان قد وصل إلى المكان الذي أقيمت فيه المأدبة، على متن مركب النزهة الرسمية الكبير مع مجموعة كبيرة من المراكب الأصغر حجماً المرافقة له. وخلال إقامته في المدينة شهد العديد من الحفلات الراقصة والمهرجانات، كما تفقد السفن التي يجري بناؤها في البحيرة الكبيرة، وذلك في ضوء كونه من المتابعين الحريصين على رصد التجديدات البحرية شأن أخيه هنري. وشعر بيدرو بالحسد لثروة البندقية الطائلة التي جمعتها من تجارتها مع الشرق منذ زمن بعيد.

وكهدية وداع سلمه الدوج مخطوطة نادرة لمذكرات ماركو بولو عميد الرحّالة البنادقة. وكانت تلك إيماءة تفوق في أهميتها ما كان يمكن لأي منهما أن يتنبأ به، ففي السنوات المقبلة ستدفع أوصاف الشرق التي طرحها ماركو بولو البرتغاليين للقيام بإنجازات ستلحق الدمار الاقتصادي بساحة البندقية.

دفعت الكارثة التي مني بها الأمير هنري في طنجة الأمير مجدّداً إلى العودة للجرف، وإلى مشروعاته المتعلقة بالوصول إلى «نهر الذهب». وحتى عام 1440، كان هذا أقصى طموحاته، ولكن بعد ذلك بوقت قصير، بدأ ذهنه في الانطلاق سريعاً نحو أهداف أسمى. وقد شجعه تطوير نوع جديد من السفن يعرف بالكارفل، وهي سفينة شراعية صغيرة وسريعة لا يزيد طولها عادة على 60 قدماً، ومع ذلك فهي قوية وسريعة. وكانت هذه السفن ذات الهياكل الملساء تعد قفزة إلى الأمام في التصميم، مقارنة بـ«السفن المسننة» الثقيلة ذات الألواح المتراكبة، أو «البركا» البدائية التي تستخدم المجاديف والأشرعة.

---

* الدوج كلمة إيطالية تعني الحاكم في البندقية وجنوة قديماً. (المحرر)

لم تصمم هذه السفن الشراعية الصغيرة الأولى لتكون سفن بضائع قط، فحمولتها لم تكن تزيد إلا قليلاً على خمسين طناً، ولكنها كانت مثالية لارتياد الطرق البحرية في المحيط. ولما كان غاطسها لا يزيد على ست أقدام، فقد كان من الممكن استخدامها قريباً من الشاطئ، ولكنها بمقدماتها العالية كانت قادرة بصورة مماثلة على مواجهة عواصف المحيط الأطلسي، وقد احتاجت إلى مجموعة من العاملين لا يتجاوز عددهم خمسة وعشرين رجلاً، وعلى الرغم من أنه كان على البحارة تدبير أمر منامهم على أفضل وجه يستطيعونه على السطح المفتوح أو في باطن السفينة، فقد كانت هناك قمرات خشنة الإعداد، مخصصة للضباط في «قلعة» مؤخر السفينة. وازداد رجال البحر جرأة في هذه السفن.

صمّمت هذه السفن الشراعية الصغيرة لاستغلال مزايا شراعها مثلث الشكل، وذلك بإدارة دفة السفينة، على نحو أقرب إلى الريح (نقل البحارة الإيطاليون هذا الشراع عن الشراع العربي المألوف، ومنهم جاء اسم لاتين Latin أو Lateen الذي أطلق عليه). وبفضل التقدم في الملاحة واستخدام أشرعة السفن المعروفة بالكارفل أصبحت العودة إلى البرتغال من جنوب كيب بوخدور أيسر عن طريق الإبحار غرباً، ثم باتجاه الشمال الغربي إلى نظام الرياح الأطلسي، بعيدا عن مرأى الشاطئ، باتجاه ماديرا وجزر الأزور (التي تم من هنا اكتشافها واحتلالها) وعندئذ يتم الاقتراب من الساحل البرتغالي، بمعاونة الرياح القادمة من الغرب[3].

بدأت الدولة التي لم تكد سفنها تبلغ سبتة في عام 1415 تبرز باعتبارها قاهرة المحيط، وكانت الأمواج التي تلطم السواحل البرتغالية عنصر تذكير متواصل بالتحدي الكامن وراء الآفاق، فلم يكن هناك ما يكتشف في البحر المتوسط، حيث إن كل جزره ومموانيه عرفت منذ العهود الرومانية. وبالمقابل أصبح المحيط الأطلسي ساحة صيد للبرتغال، ومحيطاً يحظى بإمكانيات لا حدود لها. وفي مكان ما وراءه، سواء إلى الغرب أو إلى الجنوب - لا أحد يدري على وجه الدقة - كانت تقع جزر الهند الجذابة وأرض الخان العظيم التي زارها ماركو بولو قبل قرن ونصف القرن.

بحلول أربعينيات القرن الخامس عشر، فاحت بالفعل بصورة جلية رائحة أرباح هذه الرحلات الأطلسية، فقد كانت السفن البرتغالية تبحر إلى مسافة بعيدة فيما وراء خط الساحل الأفريقي الصحراوي، وتقترب من مصبي نهري السنغال وجامبيا. ولم يفز البرتغاليون بالوصول إلى مياه تتميز بثراء مصايدها السمكية فحسب، وإنما كان من الممكن مقايضة سلعهم التجارية في القرى الساحلية بذهب مالي وعاجها وتوابلها العجيبة. وأبلغ هنري القباطنة الأجانب - وهم في الغالب بنادقة وجنويون - عندما تعاقد معهم لقيادة سفنه بأن واجبهم الأول هو جلب الذهب. وقد استخدم جانب من هذا الذهب لشراء السلع الإنجليزية والفرنسية؛ مثل الأقمشة وأواني القصدير التي استخدمها البرتغاليون في الاتجار مع الأفارقة.

وتمثل الأمر الأكثر عائداً في الاسترقاق، فسكان البرتغال لا يزيد عددهم على مليون نسمة (وبالمقابل، فإن عدد سكان إسبانيا بلغ ثمانية ملايين نسمة، وعدد سكان فرنسا ستة عشر مليون نسمة) واشتدت الحاجة إلى الأيدي العاملة من أجل المزارع في الجرف وجزر الأزور، حيث ازدهرت زراعة قصب السكر؛ فجاء اللصوص من دول عديدة إلى جزر الكناري، وبدأت عصابات مسلحة من البرتغاليين في اقتحام شواطئ أفريقيا لمهاجمة القرويين الذين لم يأخذوا حذرهم، وتم سبي الشبان منهم والشابات وحملهم عائدين بهم إلى السفن. وكانت الجماعات التي تقيم في هذه القرى الساحلية بسيطة وبعيدة تماماً عن ممالك الداخل الإسلامية ذات التنظيم الرفيع، وكان هؤلاء السكان قد رحبوا أصلاً بالزوار البيض بخوف ممزوج بالود، سرعان ما انقلب إلى فزع منهم.

وكان السود الذين جلبوا في أول دفعة، قد أحضروا «لتسلية الأمير هنري». وكان ذلك في عام 1441، غير أن فكرة جلب السود سرعان ما سيطرت على الأذهان، حيث أرسل بعض الأسرى السود بعد تعميدهم إلى بلادهم كرهائن، للمساومة من أجل الحصول على المزيد من بني جلدتهم. ويقص المؤرخ البرتغالي جوميز إينيس دي زورارا كيف أن مئتين أو أكثر من العبيد السود قد بيعوا بالمزاد في عام 1445 في ميناء لاجو في الجرف. وظهر الأمير نفسه وقد أقبل راكباً جواده لجمع ستة وأربعين أفريقياً، هم

النصيب المستحق له، والمقدر بالخمس. كما أعطي الرهبان الفرنسيسكان الذين كان لهم دير قرب كيب سان فنسان، بعض هؤلاء العبيد. ولما كانت الجياد مطلوبة إلى حد كبير في غربي أفريقيا، وكانت متوافرة بكثرة في المغرب، فقد أمكن مقايضة العبيد بالجياد، وفي البداية أمكن مقايضة الجواد الواحد بأربعة عشر عبداً، ولكن في وقت لاحق صار من المألوف مقايضة الجواد الواحد بستة عبيد[4].

لم تثر في البرتغال شكوك أخلاقية حول تجارة الرقيق التي يقوم بها قباطنة السفن الشراعية، فقد كان الرق قد ترسخ بالفعل في مختلف أرجاء أوربا، واستخدم البنادقة العبيد بأعداد كبيرة لزراعة قصب السكر في كريت كبرى مستعمراتهم. وكان العبيد اليونانيون والتتار والروس يعرضون للبيع بانتظام في إسبانيا من قبل التجار الإيطاليين. وفضلاً عن ذلك، فإنه بعد ثمانية قرون من الحكم الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا، كانت هذه العادة مألوفة تماماً، وكان الأسرى في المعارك يعتبرون أنفسهم محظوظين إذ يباعون كأرقاء، لأن البديل هو الذبح[5].

غير أن البرتغاليين كانوا شديدي الحذر على نحو ملحوظ فيما يتعلق بتعميد أسراهم الكفرة، وإدخالهم في المسيحية لإنقاذ أرواحهم من اللعنة (وفي سنوات لاحقة كان العبيد يعمدون قبل مغادرتهم للشاطئ الأفريقي خوفاً من موتهم خلال عملية النقل) فقد كان هناك واجب متمثل في إدخال البشرية بأسرها في الدين الحق، وهكذا فإن إرغام العبيد على تغيير دينهم كان يخدم مشيئة الرب. وقد قرر هنري المضي بالتزاماته الدينية شوطاً أبعد، وذلك بإصدار قاعدة قوامها أن جزءاً من كل عشرين جزءاً من التجارة المجلوبة من أفريقيا ينبغي أن يذهب إلى «جمعية المسيح». وقد أدرج العبيد أولاً ثم الذهب والسمك.

بين الإيطاليين الكثيرين الذين أبحروا على متن السفن الكارفل البرتغالية كان هناك البندقي ألفيز دا كاداموستا، فقد قام برحلتين إلى السنغال والرأس الأخضر في خمسينيات القرن الخامس عشر، ثم كتب أول رواية شاهد عيان معروفة بقلم أوربي عن الحياة اليومية في أفريقيا السوداء. وقد زار دا كاداموستا – الذي كان مثقفاً وحريصاً على الاستقصاء وإنساني النزعة – قرى الساحل وطرح أسئلة على زعماء القبائل حول

ترتيبات حياتهم، وتذوق لحم الفيلة، ودرس الكيفية التي تبني بها الطيور أعشاشها على النخيل. وذات يوم مضى إلى السوق، حيث يقول: «أدركت بجلاء أن هؤلاء الناس شديدو الفقر، وقد تبين ذلك من خلال السلع التي جلبوها للبيع أي القطن، وإن لم يكن بكميات كبيرة، وغزل القطن، والأقشمة القطنية، والخضر، والزيت، والدخن، والآنية الخشبية، والحصير المتخذ من سعف النخيل، وغيرها من المنتجات الأخرى التي يستخدمونها في حياتهم اليومية».

وقد أحدث وجود داكاداموستا في القرى نوعاً من الضجة، وحول هذا يقول:

«تجمهر هؤلاء الزنوج، رجالاً ونساء، لمشاهدتي كأنني أعجوبة. . . وكانت ملابسي على الطراز الإسباني، مؤلفة من سترة ضيقة من الدمقس، مع عباءة قصيرة من الصوف الرمادي فوقها. وفحصوا الملابس الصوفية التي كانت جديدة بالنسبة إليهم وكذلك السترة الضيقة بمزيد من الدهشة، ولمس بعضهم يديّ وأوصالي، وحكوا جلدي ليتبينوا ما إذا كان بياضي صبغة أم هو لون جلدي بالفعل، ودهشوا عندما تبين لهم أن جلدي على هذا اللون».

وأسعده الأفارقة من أكثر من وجه، يقول فيهم: «نساء هذه البلاد لطيفات للغاية ومرحات، وعلى استعداد للغناء والرقص، وخاصة الفتيات الصغيرات. غير أنهن لا يرقصن إلا ليلاً فقط في ضوء القمر، ورقصهن مختلف عن رقصنا».

مع ذلك، فقد نال داكاداموستا نصيبه من القتال، ولم يشعر بوخز الضمير عند مقايضة العبيد بالجياد، وعندما جلب عبد تم تعميده من البرتغال للعمل كمترجم، وأنزل إلى الشاطئ في بقعة كانت السفن الشراعية الصغيرة تأمل في الاتجار فيها، قتله الأهالي المحليون تواً. ومن دون أن يدرك داكاداموستا جلية الأمر، كان يشارك في المراحل الأولى من مواجهة تاريخية، هي تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي.

وعندما عاد الملاح البندقي إلى البرتغال استقبله هنري شخصياً، وتسلم منه هدية مؤلفة من قدم فيل وناب «طوله اثنا عشر شبراً». وقد أهداهما الأمير إلى أخته دوقة بورجندي. وامتدح كادامـوستا بإطراء فضائل هنري واستعداده «التكريس كل شيء لخدمة سيدنا المسيح عيسى، في محاربة البرابرة والقتال من أجل الدين».

لقد دعت حاجة البرتغاليين الماسة إلى تجنيد أجانب لهم القدرات ذاتها التي يتمتع بها كاداموستا، ولكن مع إيغال السفن الشراعية التابعة لهم في الاستكشاف في المياه المجهولة، تملكتهم الرغبة الملحة في التزام السرية. وقد ظهر هذا عندما هرب قبطان إحدى السفن وبحاران إلى قشتالة بعد رحلة إلى غرب أفريقيا، حيث اتهموا بالسرقة، ولكن الخوف الحقيقي تمثل في أنهم سوف «يسيئون خدمة الملك» وذلك بكشف الأسرار الملاحية، وتمت مطاردتهم، حيث أعدم البحاران بقطع رقبتيهما بالسيف، أما القبطان فقد أعيد لإعدامه «وقد أطبقت الكلابات فمه». فقطع جثمانه إلى أربعة أشلاء، وعرض على العامة ليعتبر به كل من تسوّل له نفسه الخيانة. وكان الموت هو العقوبة المقبولة لكشف تفاصيل الخرائط. كما كان محظوراً بيع سفينة من طراز الكارفل لأي أجنبي.

تم تحذير القشتاليين بأن عليهم أن يتركوا أفريقيا للبرتغاليين، وذلك بمقتضى مرسوم بابوي صدر في عام 1455 من قبل نيكولاس الخامس، وقد منح هذا المرسوم البرتغال وحدها الحقوق في الغزو والتملك في كل «الأراضي الإسلامية أو الوثنية» الواقعة وراء رأس بوخدور؛ وصدر استجابة لنداءات من الأمير هنري بعد إعلان قشتالة لدعاوى مبدئية بملكيتها لـ «ساحل غينيا» (وهو اصطلاح صاغه البحريون الأوربيون حديثاً). وأعلن البابا أن هنري يعتقد أنه سيؤدي واجبه حيال الرب على أفضل وجه بجعل البحر قابلاً للإبحار فيه «وصولاً إلى الهنود الذين يقال إنهم يعبدون اسم المسيح، وأنه على هذا النحو قد يكون في وسعنا الدخول في علاقات معهم، ودفعهم إلى مساعدة المسيحيين ضد المسلمين وغيرهم من أعداء الدين». وهكذا فقد أعلن الفاتيكان بجلاء هدف هنري النهائي: «الإبحار إلى الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا».

لقد صدر المرسوم البابوي بعد عامين من سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين، وهي لحظة تاريخية كانت أوربا فيها ترتعد من فكرة أين سيوجه «المحمديون» ضربتهم التالية؟ وقد تنازع العالم المسيحي الغربي عبر القرون مع بيزنطة حول المذهب الديني ومسائل أكثر اتساماً بالطابع المادي، ولكنه ندم بعد فوات الأوان على سقوطها واستشهادها. وكان البرتغاليون قد استجابوا بنزعة عسكرية فريدة للنداء الذي وجهه البابا للأمم المسيحية لكي تتحد لاستعادة القسطنطينية، وعلى الرغم من

مزاعم حول وحي من الله بأن السلطان المنتصر محمد الثاني سوف يُهزَم ويُحمل أسيراً إلى روما، لكي «تدعسه قدم البابا» ولكي يعمد عنوة، فإنه في لشبونة وحدها كان هناك شوق إلى «حملة صليبية (جديدة) ضد الكفرة». وأعلن البرتغاليون المتحمسون أنهم سيشكلون جيشاً، قوامه اثنا عشر ألف رجل شديد البأس، كما سكوا من ذهب أفريقيا الغربية عملة أطلقوا عليها «الكروزادو» أي «العملة الصليبية».

وبالنسبة إلى ولايات إيطاليا التجارية، فإن سقوط القسطنطينية كان أمراً أكثر مدعاة للاستجابة الفورية؛ لأنه وجه طعنة نجلاء إلى قلب تجارتها. وعلى امتداد البحر المتوسط استبد الخوف بالسفن المسيحية من أن يستولي عليها المغيرون الأتراك ويغرقوها. ولما كان الأتراك لم يغامروا قط بالإبحار فيما وراء مضيق جبل طارق، فإن حسن طالع البرتغاليين من الناحية الجغرافية قد ازداد وضوحاً للعيان؛ فسفنهم من طراز الكارفل لم تكن تخشى إلا تحدي القشتاليين المنطلقين طمعاً في السلب والنهب، وهم يتقدمون في إصرار باتجاه الجنوب في المحيط الأطلسي، وينحدرون مع ساحل أفريقيا الغربية.

في عام 1456 منح مرسوم بابوي آخر «جمعية المسيح» السلطة «على امتداد الطريق وصولاً إلى الهنود». وغرس هذا الدفق المتلاحق من التشجيع البابوي في أذهان العائلة المالكة في لشبونة أن قدرها وواجبها الديني يتمثلان في الوصول إلى الطريق المفضي إلى الشرق. و أعلن الملك الشاب أفونسو بمزيد من المبالغة أن عمه الأمير هنري قد «غزا سواحل غينيا والنوبة وأثيوبيا، رغبة منه في أن يكسب لكنيسة الرب المقدسة تلك الشعوب البربرية، التي لم يجرؤ المسيحيون قط على زيارة أراضيها، وأن يحملها على طاعتنا».

غير أن الأحداث الأخيرة في حياة هنري لم تكن لها صلة بهذا التصور، ففي عام 1458 عاد إلى ساحات المغامرة البرتغالية الأولى في أفريقيا، عندما ساعد أفونسو في الاستيلاء على القصر الصغير، وهي بلدة قريبة من سبتة. وكان الجيش الذي استخدم لتحقيق هذا الهدف تم تشكيله أصلاً للمساعدة في تحرير القسطنطينية من قبضة الأتراك، ولكنه لم يرسل إلى هناك قط؛ لأن كل الدول الأوروبية الأخرى انسحبت من التحرك في هذا الاتجاه. وبالنسبة إلى هنري، فإن الهجوم على القصر الصغير كان حدثاً يمس القلب حيث إن كل إخوته قضوا نحبهم، وكان واحداً من قلة يتناقص عددها يمكنها استعادة ذكرى الانتصار في سبتة قبل ما يزيد على أربعين عاماً مضت[5].

بعد عامين مات هنري عن ستة وستين عاماً، ولم تتحقق أحلامه في الوصول إلى «أرض جزر الهند» على الرغم من أن العبيد السود كانوا يجلبون الآن إلى البرتغال بمعدل ثلاثين ألف عبد سنوياً، والكثير منهم يعاد تصديرهم إلى إسبانيا وإيطاليا، وبحلول الوقت الذي مات فيه كانت السفن الشراعية تستكشف ألفاً وخمسمئة ميل فيما وراء كيب سان فنسان، وقد دارت حول الامتداد العظيم لغربي أفريقيا، ومضت بمحاذاة خط الساحل باتجاه الشرق تقريباً، وبدا على نحو خادع أن الطريق إلى جزر الهند يمتد قدماً إلى الأمام.

عقب وفاة هنري أسندت مهمة مواصلة رحلات الاستكشاف إلى رجل الأعمال البرتغالي فرناندو جوميز، بمقتضى عقد بشروط يستفيد منها التاج البرتغالي مالياً، وأتاح هذا الترتيب للملك أفونسو حرية التركيز على سبل توجيه ضربة أخرى في المغرب. وتأهب في عام 1471 لمهاجمة عدو أضعفته الكفاءة المحدودة التي اتسم بها سلاطينه على نحو مغر بالهجوم عليه؛ فاستقل جيش مؤلف من ثلاثين ألف رجل ثلاثمئة سفينة شراعية وسفناً تجارية أكبر حجماً مزودة بالأسلحة، وتعرف بالقراقير. وكان الهدف هو ميناء أرزيلا (أصيلة) وهو ميناء مطل على المحيط الأطلسي على بعد حوالي أربعين ميلاً إلى الجنوب من طنجة، ولم يكن بأي حال قاعدة عسكرية، وليست أمامه فرصة تذكر لتحدي المهاجمين البرتغاليين ذوي التسليح الثقيل. وبعد مقاومة لم تستمر طويلاً استسلم السكان وانتظروا قدرهم الذي سرعان ما حسمه أفونسو فضرب أعناق ألفين من السكان، فيهم رجال ونسوة وأطفال، وسيق خمسة آلاف كعبيد[6].

انتشرت أنباء المذبحة شمالاً لتبلغ طنجة التي عرف أهلها أن الدور سيحل عليهم بعد ذلك، واستولى الذعر على السكان فهربوا إما براً أو بحراً حاملين معهم ما استطاعوا حمله، واستسلمت بلدات أخرى قريبة من دون قتال. وانطلق البرتغاليون قدماً لا يعترضهم أحد. وصحب الملك أفونسو معه ولي عهده الأمير جون الذي كان في السادسة عشرة من عمره؛ ليخوض غمار هذه الحملة الصليبية التي رفعت معنويات المهاجمين، وجاءت انتقاماً للإذلال الذي حل بساحة الأمير هنري في طنجة، قبل ما يزيد على ثلاثين عاماً مضت.

من منظور الجانب المغربي كان سقوط طنجة بصفة خاصة كارثة؛ فقد تبدل دور المدينة الذي امتد عبر سبعمئة عام كبوابة لأوربا والأندلس، والآن أصبح مسقط رأس ابن بطوطة منطلقاً لهجمات أفونسو. ولما كان العرف قد جرى على تكريم الملوك بخلع الألقاب عليهم، فإن البطل الذي غزا أصيلة وطنجة قد أصبح يلقب بـ «أفونسو الأفريقي».

قدر للحملة الصليبية ضد المغرب في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر أن تضع نموذجاً للسلوك الذي ستتبعه البرتغال في غزوات لاحقة، تتغلغل بها في الداخل المغربي، وتلقن العديد من الفرسان الشبان - النبلاء الذين عرفوا باسم «الفيدالجو» - دروساً لا سبيل إلى نسيانها في النهب والاغتصاب والقتل من دون رحمة، وقد وصلوا إلى أن حياة المسلمين - رجالاً ونساء وأطفالاً على السواء - لا قيمة لها؛ لأنهم أعداء العالم المسيحي.

هكذا كان عام 1471 من الأعوام التي لا تنسى بسبب الانتصارات في المغرب، وكان عاماً بالغ الأهمية من منظور آخر؛ فبعيداً إلى الجنوب وفي مياه لم يبحر عبرها أوربي من قبل، عبر قبطان يدعى الفارو استيفز خط الاستواء قريباً من جزيرة أطلق عليها اسم ساو تومي. والأهم من ذلك أنه قد وجد أن خط الساحل الأفريقي قد غير اتجاهه مجدداً، فمن جديد أشارت مقدمة سفينته الشراعية الصغيرة باتجاه الجنوب، وعلى جانب السفينة المواجه للبحر بدا المحيط ممتداً بلا انتهاء، وعلى الجانب المواجه للبر بدت الغابة الخضراء الملتوية كالأفعى غير قابلة للاختراق، وتحجب كل ما وراء خط الشاطئ.

على الرغم من أن رجل الأعمال جوميز قد وفى بتعهداته في إطار الصفقة التي أبرمها مع العرش البرتغالي، ومد النطاق الذي تصل السفن الشراعية الصغيرة إليه لمسافة ألف وخمسمئة ميل أخرى، فإن عقده تم إنهاؤه في عام 1475، وبحلول ذلك الوقت كانت البرتغال تواجه تحدياً حرجاً على امتداد ساحل غينيا من جانب الإسبان. وتولى الأمير جون مسؤولية طردهم بعيداً، وقد كان القتال الدائر حول حق استغلال التجارة الأفريقية بين السفن الشراعية الصغيرة قتالاً ضارياً لم يؤسر فيه أحد، حيث كان من يقعون في الأسر يعدمون شنقاً أو يلقون من سطح السفن إلى مياه المحيط.

كان لدى الإسبان عدد أكبر من السفن، أما البرتغاليون فكانوا أشد ضراوة في القتال. وفي عام 1478 وصل أسطول إسباني مؤلف من خمس وثلاثين سفينة إلى قبالة غربي أفريقيا لخوض القتال؛ فحاقت به الهزيمة وتم تأمين الاحتكار البرتغالي لطريق المحيط الهندي.

الفصل الرابع عشر

شكل جزر الهند

خلاصة القول إذاً أنه كانت في الهند ثلاثة آلاف مدينة عظيمة العائد، وتسعة آلاف فئة مختلفة من البشر. وفضلاً عن ذلك فقد كان من المعتقد منذ وقت طويل أنها تشكل ثلث العالم.

كايوس جوليوس سولينوس
حوالي عام 300 ميلادي - ترجمة أرثر جولدينج (1587)

أبحر البرتغاليون خلال العقدين الأخيرين من القرن الخامس عشر إلى الأمام قدماً عبر جنوب المحيط الأطلسي، ولكنهم كلما أوغلوا في الاستكشاف فيما وراء ساحل غينيا قلت العوائد المادية؛ فقد كانت الموانئ الجيدة نادرة، وبادر سكان القرى الساحلية إلى الاختفاء في الغابات، قبل أن تستطيع مجموعات الرسو على البر الإمساك بهم[1]. وبدت أفريقيا معادية وممتدة بلا انتهاء، في آن واحد. وبدأ الملك أفونسو المعروف بتعرض حماسه لموجات من القوة والضعف يفقد ثقته بمغامرته ذات التكاليف الباهظة، في الانطلاق إلى رحاب المجهول، وانتقلت شكوكه إلى البلاط.

وعرف البرتغاليون كذلك ألواناً من القلق أكثر عمقاً، فعندما نظروا إلى ما وراء الأطلسي، إلى عهد قد يتم فيه قهر جغرافية أفريقيا في آخر المطاف، رأوا ثغرات واسعة في معرفتهم بما لابد أن يواجهوه عندئذ. ما الذي ينبغي أن تكون عليه استراتيجيتهم لدى الوصول إلى الشرق، ذلك الهدف الرائع؟ لقد كانت الحقائق محدودة للغاية، بحيث إن عبارة «جزر الهند» شكلت اصطلاحاً استخدم غالباً ليضم كل العالم الممتد من النيل إلى الصين.

واشتهرت الهند ذاتها في بعض الأحيان بأنها بلاد هائلة، وفي أحيان أخرى بأنها مجموعة متنافرة من جزر خصبة عديدة. وعُرف قدر أقل من الحقائق حول البحار

المحيطة بجزر الهند ومداها ورياحها وتياراتها البحرية. وكانت أسماء بضعة الموانىء الهندية المطلة على المحيط الهندي شائعة على الألسن، ولكن لم تكن هناك إلا فكرة محدودة عن مواقعها، إحداها بالنسبة إلى الأخرى.

كان يمكن للبرتغاليين أن يعرفوا الكثير من الروايات التي أوردها الرحالة العرب؛ مثل ابن بطوطة، ولكن هذه الروايات بدا أنها بعيدة عن متناول أيديهم. وتمثل المصدر الذي يفوق غيره بكثير، فيما يتعلق بجزر الهند حتى ذلك الوقت، في النص الذي أملاه ماركو بولو، والذي يعود إلى القرن الثالث عشر. وقد شقت قلة محدودة من المبشرين طريقها منذ ذلك الحين إلى الشرق، ولكن رواياتهم عن رحلاتهم كانت أقرب إلى الشذرات، وكان معظم ما عرفه المؤرخون الإغريق والرومان ذات يوم قد ضاع، أو لم يبق إلا في أشكال مشوهة ومحرفة؛ مثل عمل سولينوس الذي ترجم كثيراً.

على امتداد عقود من الزمان أمعن البرتغاليون التفكير في كل جزئية من المعلومات المتاحة لهم، فبعد سقوط القسطنطينية أصبح شيئاً خطيراً أن يطأ أحد المسيحيين أراضي المسلمين الآخذة بأكناف شرق البحر المتوسط، تركيا، وسوريا، ومصر، التي كان لايزال من الممكن قبل عام 1453 زيارتها من قبل المسيحيين المغامرين الذين كان غرضهم أو ما يتعللون به هو رؤية الأماكن المقدسة في القدس. وأدى انتصار الأتراك العثمانيين على بيزنطة إلى إغلاق العديد من النوافذ المطلة على الشرق.

مع ذلك، فقد كانت هناك مداخل يمكن طرقها في مذكرات الأوربيين الذين كانوا قد زاروا تلك الأراضي قبيل سقوط القسطنطينية، وكان أكثرها تفصيلاً هو ما كتبه نبيل فرنسي يدعى برتراندو دي لابروكيير، وهو أحد المقربين إلى دوق بورجندي. وقد ارتحل مع عدد من الأصدقاء إلى البندقية عن طريق روما في ربيع عام 1432، ومن هناك مضى إلى فلسطين، وعندما قفل أصدقاء لابروكيير الارستقراطيون عائدين إلى الوطن، انطلق لابروكيير إلى دمشق حيث وجد أن التجار الأوربيين تُغلق عليهم بيوتهم في الليل، ويخضعون لرقابة مشددة. وقد كتب يقول: «المسيحيون مكروهون في دمشق».

تنكر لابروكيير في زي عربي وأمضى شهوراً في التجوال في تركيا، ووفقاً لروايته فقد صادفه الحظ مرات عديدة؛ فتمكن من الإفلات من الاغتيال، وعلى الرغم من أنه وصل ذات مرة إلى واد يؤدي الطريق فيه إلى بلاد فارس، فإنه لم يجرؤ على المضي فيه. وكانت قوة الأتراك العسكرية وثقتهم بأنفسهم أعظم كثيراً مما توقع، على الرغم من أنه أحس لدى عودته سالماً إلى بورجندي، بأن من واجبه أن يضع خطة لإلحاق الهزيمة بهم (وتضمنت هذه الخطة تجميع أفضل الرماة من فرنسا وإنجلترا وألمانيا ودعمهم بالخيالة الخفيفة والمشاة المسلحين ببلطات حربية، وبعد طرد الأتراك من شرقي أوربا، فإن هذا الجيش «إذا كان عدده كافياً» قد يزحف للاستيلاء على القدس).

بينما كان هذا النبيل البورجندي في دمشق، شاهد قافلة مؤلفة من ثلاثة آلاف جمل تصل إلى المدينة مع الحجاج العائدين من مكة. وعرف كذلك أن التوابل تجلب من الهند، ويُصعَد بها في البحر الأحمر «في سفن كبيرة» إلى الساحل قرب مكة «وهناك يمضي المسلمون لشرائها، ويحملونها على الجمال وغيرها من دواب الحمل، ليصلوا بها إلى الأسواق في القاهرة ودمشق وأماكن أخرى، على نحو ما هو معروف».

كانت تلك هي التجارة التي تاق البرتغاليون إلى سلبها، وفي تلك الأسواق العربية كان مشترو الفلفل والحرير وغيرهما من المنتجات الشرقية هم على الدوام تجاراً من إيطاليا والبنادقة في المقام الأول. وإذا ما أريد غربلة الحقيقة حول جزر الهند وفصلها عن الخيال فإن البندقية كانت بالتأكيد المكان الذي ينبغي أن يبدأ البرتغاليون تحرياتهم منه[2]، وعلاوة على ذلك فإن العلاقات بين لشبونة والجمهورية القوية كانت ودية، منذ زيارة الأمير بيدرو لها في عام 1428.

ولم تخذل إيطاليا البرتغاليين فقبيل انتصاف القرن الخامس عشر ظهر أحد البنادقة ويدعى نيكولو دي كونتي في روما، بعد ربع قرن أمضاه في الخارج. وكان أول ما قام به هو طلب مقابلة البابا للسعي من أجل الغفران، بعد أن قام لإنقاذ حياته - حسبما زعم - بالتنكر للمسيحية واعتناق الإسلام خلال رحلاته. وأبدى البابا يوجين الرابع تعاطفه مع نيكولو، وكانت الكفارة التي فرضها يسيرة، وهي أن يروي البندقي تجاربه على مسامع أمين سر البابا بوجيو براتشيوليني.

كان بوجيو بذهنه الفضولي والعقلاني تجسيداً للروح الجديدة التي ارتبطت بعصر النهضة، فقد كان يُعد موسوعة عالمية بعنوان «حول تقلبات الحظ» وكان اهتمامه بالجغرافيا بالغاً. وقد كتب في الماضي للأمير هنري البرتغالي يهنئه على نحو مفرط في الإشادة باستكشافاته البحرية التي توصل إليها بتوغله في الأقاليم المجهولة، وقال إن هنري «قد تجاوز إنجازات الإسكندر الأكبر».

ضمت جعبة نيكولو دي كونتي الكثير مما يمكن أن يرويه عن حياة مهنية مضت به إلى حدود الصين؛ ففي عام 1419 عندما كان لايزال شاباً في مقتبل العمر، مضى إلى دمشق واستقر هناك كتاجر ثم قرر السفر شرقاً مع قافلة تجارية. ولكنه على العكس من برتراندو دي لابروكيير، لم ينقلب على عقبيه في اللحظة الحاسمة، وإنما شق طريقه إلى الهند مرتدياً الزي الفارسي ومتحدثاً العربية والفارسية. ومن هناك أمضى أعواماً عديدة في الإبحار من ميناء إلى آخر في أرجاء المحيط الهندي، واتخذ من الهند مقراً له حيث تزوج وأنجب أطفالاً.

اتسمت رحلات نيكولو في الهند ذاتها بأنها واسعة النطاق؛ فقد عرف مواني شبه القارة، وسافر بعيداً بطريق البر كذلك، وكتب عن «المدينة البحرية» العظيمة كالكوت يقول إن «محيطها ثمانية أميال، وهي مركز تجاري نبيل للهند بأسرها، يتوافر فيها الفلفل واللك (نوع من الصمغ) والزنجبيل ونوع كبير الحجم من القرفة». وعلى الرغم من أنه لم يتردد في انتقاد الهنود، فوصف ممارسة السوتي[3] بتفصيل رهيب، ذاهباً إلى القول بأنهم «مدمنون على الانحلال الخلقي»، فإنه كان على استعداد بالمثل للقول بأنهم كانوا ينظرون إلى الفرنجة (الأوربيين) على أنهم متغطرسون بالقدر ذاته؛ لاعتقادهم بتفوقهم على كل الأعراق الأخرى في الحكمة.

روى نيكولو الكثير عن ملامح الحياة اليومية في الهند، ووصف كيف ترجّل النساء شعورهن وفي بعض الأحيان يستخدمن خصلات من الشعر المستعار «ولكن ما من واحدة منهن تضع الطلاء على وجهها، باستثناء النساء اللواتي يسكن بالقرب من الخطا». وكان هناك في كالكوت ولع بتعدد الأزواج؛ حيث تتخذ المرأة الواحدة أزواجاً

قد يصلون إلى العشرة، ويشترك الرجال فيما بينهم في إعالة الزوجة التي تعاشرهم جميعاً، ثم تنسب الأطفال إلى الأزواج، بحسب ما تراه مناسباً»[4].

تتزامن سنوات إقامة نيكولو وترحاله في الهند على وجه الدقة مع زيارات أساطيل "زينج هي" لها، وتتطابق روايات عدة مما سرده حول العادات المحلية بصورة وثيقة مع روايات ماهوان المترجم الصيني. ويصف الاثنان بشكل يتطابق حرفياً تقريباً الاختبار الهندي لكون المرء بريئاً أو مذنباً، والذي بمقتضاه يغمس أصبع المتهم في الزيت المغلي. وكما هي الحال مع ماهوان، فإن البندقي لم يستطع الامتناع عن رواية تفاصيل عن حياة التايلانديين، وقد دوَّن أمين سر البابا هذا الأمر بأسره في إطار شعوره بضرورة القيام بواجبه.

لم يشر نيكولو إلى أبناء الصين بشكل مباشر قط، ولكن معرفته بهم تظهر في مذكرات إسباني يدعى بيرو تافور كان قد قابله في مصر. وهناك صدى مألوف من الحقيقة يتناهى إلينا عندما يقتطف تافور ما حدثه به نيكولو حول سفن في البحر الأحمر، «لقد وصف سفنهم بأنها كالدور الكبيرة وليست كسفننا على الإطلاق؛ فلها عشرة أشرعة أو اثنا عشر شراعاً، وفي داخلها صهاريج ماء كبيرة، ذلك أن الرياح هناك ليست قوية للغاية، وعندما تكون هذه السفن في البحر فإنها لا تخشى الجزر ولا الصخور». وهذا يبدو على نحو لا سبيل إلى الخطأ بشأنه وصفاً لسفينة صينية عابرة للمحيط. وعندما وجه بوجيو الأسئلة في هذا الشأن للرحالة البندقي أوضح كيفية صنع هذه السفن العملاقة التي تجوب المحيط الهندي «الجزء الأسفل مركب من ألواح ثلاثية. ولكن بعض السفن مصنوع في صورة أجزاء مغلقة على ذاتها ومنفصلة عن الأخرى، بحيث إنه إن تحطم أحدها، فإن الباقي الذي يظل قائماً بذاته يمكن أن ينجز الرحلة».

بينما كان نيكولو يشق طريقه عائداً إلى أوربا، جرؤ على الانضمام إلى قافلة الحجيج المتوجهة إلى مكة. ويبدو أنه قد زار أثيوبيا كذلك[5]، حيث إنه يتحدث عن رؤية «مسيحيين يتناولون لحم الحيوانات نيئاً» وهي عادة انفرد بها الأثيوبيون. وقد

اتسمت المرحلة الأخيرة من رحلة نيكولو الطويلة عائداً إلى وطنه بالطابع المأساوي؛ ففي مصر ماتت زوجته ومعها أطفالهما ربما بتأثير وباء جائح، وتأخر في القاهرة عامين عمل خلالهما مترجماً لدى السلطان.

لقد كان نيكولو كمرشد عملياً وطريفاً معاً، ولما كان تاجراً فقد كان بوسعه أن يبلغ بوجيو بالكثير عن المدن والممارسات التجارية في المحيط الهندي، كما أنه كان حريصاً على رصد العادات المحلية. وربما أمكنه مجاراة مواطنه ماركو بولو كراوية، لو أن القدر منحه كاتباً يدون ما يمليه عليه على مستوى روستشيللو البيزوي، وكل الفراغ الذي تتيحه مدة زمنية أودع خلالها في السجن. غير أن بوجيو في إطار الضوابط التي فرضتها عليه واجباته الأخرى، استمد من الرحالة البندقي صورة مترعة بالحيوية ومتسمة بالتماسك للحياة في الشرق.

انقضى عامان أو ثلاثة أعوام قبل أن يتاح لأمين سر البابا أن يجد من الوقت ما يتيح له استكمال الموسوعة التي يعكف على تأليفها والتي كتبها باللغة اللاتينية، وتم إدراج ما أبلغه به نيكولو في المجلد الرابع من هذه الموسوعة. وسرعان ما وصلت نسخ من هذا المجلد باللغتين اللاتينية والإيطالية إلى لشبونة، حيث تم التدقيق فيها عن كثب. وسرعان ما تم استخلاص مذكرات الرحالة البندقي، ووزعت بشكل منفصل تحت عنوان «**إعادة اكتشاف الهند**». وبعد ذلك بسنوات، وعقب اختراع الطباعة، نشرت باللغة البرتغالية.

مضى البرتغاليون قدماً في البحث عن كل مصادر المعلومات حول المحيط الهندي[6]. وكان هناك صديق رفيع المكانة، وأحد الحريصين على رصد الجديد في عالم الجغرافيا، وهو المصرفي الفلورنسي باولو ديل بوزو توسكانيللي الذي ستؤثر أفكاره في وقت لاحق في كريستوفر كولمبوس. ولما كانت إيطاليا هي الرائدة في رسم الخرائط؛ فقد اتجهت لشبونة إليها لتحقيق تجسيد بصري لكل ما أصبح معروفاً الآن عن الشرق. فقد أراد البرتغاليون رؤية اكتشافاتهم وقد تجسدت في هذا العمل (من دون أن يكشفوا أكثر مما ينبغي من الحقائق لمنافسين محتملين). ولأن طموحاتهم كانت بلا حدود فقد أرادوا خريطة لا للمحيط الهندي وأقاليمه فحسب، وإنما للعالم المعروف بأسره.

تمثلت نتيجة الفضول البرتغالي في إحدى أكثر الخرائط تنميقاً في الوجود. وكان الفنان راهباً هو مورو، في سان ميشال دي مورانو، وهو دير لا يبعد كثيراً عن البندقية. وقد اشتهر على امتداد سنوات طويلة باعتباره طبيباً ورياضياً و«دارساً للكون» ولكن قبيل نهاية حياته فحسب قام بالتركيز على رائعته خريطة العالم التفصيلية، التي يمتد عرضها إلى مترين تقريباً، وقد زينت بالألوان بلوحات خيالية لمدن وتناثرت عليها أساطير إيضاحية بديعة الكتابة، وهي عمل فني بقدر ما هي خريطة، مزيج من البحث الحقيقي وخيال القرون الوسطى. وكانت أفكار مورو من بعض الجوانب عتيقة الطراز على نحو مؤكد؛ فعالمه الذي صوره مقلوباً رأساً على عقب، حيث الشمال يقع في أسفل الخريطة، يبدو مسطحاً ودائرياً على وجه التقريب، وتسير جوانب القارات بمحاذاة محيط العالم، ومع ذلك فإنها على الدوام محاطة ببحار خارجية.

دفع البرتغاليون لدير الراهب مورو للإسراع بإنجاز خريطة العالم، وعندما انتهت الخريطة أرسل الأصل إلى لشبونة، واحتفظ الدير بنسخة عنها (ربما كان الوسيط مع بوجيو أمين سر البابا، هو شخص يدعى دون جوميز، رئيس الرهبانية الكمالدولاتية في البرتغال، وهي الطائفة ذاتها التي انتمى إليها الراهب مورو).

من الطبيعي أن البرتغاليين كانوا حريصين على الوصول إلى أي معلومات تقودهم إلى معرفة ما إذا كان في قدرة السفن أن تدور حول الطرف الأقصى لأفريقيا، أياً كان موقع هذا الطرف. ولم يخذلهم الراهب مورو؛ ففي المحيط الهندي رسم سفينة شراعية عملاقة، وتقول الأساطير عنها: «في حوالي عام 1420 وقعت سفينة هندية، أو سفينة شراعية عملاقة كانت في طريقها عبر المحيط الهندي إلى جزيرتي الرجال والنساء في عاصفة، وحملتها على امتداد أربعين يوماً لمسافة ألفي ميل إلى ما وراء «رأس ديب»[7] إلى الغرب والجنوب الغربي، وعندما انحسر ضغط المناخ استغرقت السفينة سبعين يوماً في العودة إلى هذا الرأس». ومن المؤكد أن مصدر هذا المقطع المكتوب في دير قرب البندقية في عام 1459 هو الرحالة البندقي العائد حديثاً نيكولو دي كونتي. كما أنه تحدث في حواراته مع بوجيو براتشيوليني عن «أسطورة جزيرتي النساء

والرجال» ومتبعاً في ذلك خطى ماركو بولو، قال إنهما تقعان قرب جزيرة سقطرة، وذلك قبالة القرن الأفريقي.

تدين رائعة مورو بصورة حتمية بالكثير لماركو بولو. ذلك أن «الخطا» تزدحم على نحو رائع بمنمنمات تصور مدناً مسورة يختلف كل منها عن الآخر، ويعتقد أنها جميعاً مماثلة للمدن في إيطاليا. ولكن الخريطة أبدت اهتماماً خاصاً بأفريقيا. وتفيد إحدى الأساطير أنه قد اطلع على «خرائط الملاحين البرتغاليين» (التي ما كان يمكن إلا أن تحدد الساحل الأفريقي، في الوقت الذي كان مورو ينجز عمله، وصولاً إلى خليج غينيا). وكان شكل أفريقيا عملاً يعتمد بصورة مطلقة على التخمين، حيث كتب عن القارة بأسرها أنها أثيوبيا باستثناء بعض المناطق الغربية والوسطى. وعلى امتداد شرق أفريقيا جزيرة كبيرة تسمى ديب، على الرغم من أنها قد تحمل على أنها مدغشقر، فهذا الاسم لم يوجد في أي موضع آخر قط، وربما كان خلطاً بينها وبين ذيبة المهل، وهو الاسم العربي لجزر المالديف.

بل إن إقليماً قد خصص لبني كلب (Bnichilebs) أو «جماعة من البشر ذوي وجوه مثلثة» أتت الأساطير الكلاسيكية على ذكرهم[8]. وعلى النيل كانت هناك «البوابات الحديدية» التي قيل إن الأثيوبيين يفتحونها مرة كل عام من جراء طيبتهم، ويسمحون للماء بالتدفق إلى مصر.

وبغض النظر عن ألوان الخلط وبقايا الأساطير القديمة هذه فإن الخريطة كانت تمثّل تقدماً كبيراً في التفكير المتعلق بأفريقيا، وفي المقام الأول كان هناك اليقين الذي أوضحته بإمكانية الدوران حول القارة وصولاً إلى المحيط الهندي. والأمر الأكثر أهمية من سواه هو أن العديد من المدن قد وقعت على امتداد الساحل الشرقي لأفريقيا، بما في ذلك كلوة وسفالة، وهما اللتان لم تحمل خريطة أوربية اسميهما من قبل قط، وبقدر ما هو معروف لم تقع عليهما أنظار أوربي قط. من كان مصدر مورو في ذلك؟ مرة أخرى ربما كان نيكولو دي كونتي، فقد كانت تلك الموانىء الهندية العظيمة التي أقام فيها؛ مثل كالكوت تواجه ساحل شرق أفريقيا.

كان لدى البرتغاليين كل الأسباب التي تدفعهم إلى الفرح بما اشتروه من دير سان ميشال دي مورانو، وسكُّوا ميدالية تقديراً لـ «الراهب مورو الباحث الكوني الذي لا نظير له»[9]. وفي الأعوام المقبلة ستسلم خرائط - هي نسخ مبسطة من خريطته - إلى قباطنة السفن الكارفل للمقارنة بينها وبين اكتشافاتهم.

الفصل الخامس عشر

البحث عن الراهب يوحنا

كرست لهذا الموضوع ست سنوات أو سبعاً حافلة بالقلق المقيم، وأوضحت كأفضل ما أمكنني، كيف أننا قد نخدم الرب خدمة جليلة بهذه المهمة؛ بالدعوة لاسمه المقدس ولديننا المقدس بين هذا الحشد من الأمم . . . وكان من الضروري كذلك الإشارة إلى النفع الدنيوي الذي تنبأت به كتابات العديد من المؤرخين الثقات والحكماء، الذين ذكروا أن ثروات طائلة سيتم العثور عليها في هذه الأرجاء.

كريستوفر كولمبوس في رسالة إلى العاهلين الإسبانيين
الملك فرديناند والملكة إيزابيلا (1499)

تغير معدل الكشوف البرتغالية بعد عام 1481؛ ففي ذلك العام وصل الملك جون الثاني إلى سدة العرش، وكان قد لمع نجمه كأمير في السادسة عشرة من عمره، في مذبحة أرزيلا (أصيلة)، وبرهن بعد عشر سنوات على أنه لا نظير له في استخدام سلطته. ففي الوطن تحدى بصورة علنية النبلاء الذين أخضعوا أباه الواهن لإرادتهم، وفي الخارج أظهر لباقته خاصة في تحسين العلاقات القديمة مع إنجلترا. وفي المقام الأول أصدر أوامره بأن السفن الشراعية الصغيرة ينبغي أن تعاود الاندفاع بجرأة إلى نصف الكرة الجنوبي، وبدأ قباطنتها في رسم معالم فرسخ بعد الآخر من الساحل الأفريقي، ونُحِّيت جانباً أي شكوك أبداها رجال بلاطه.

تلقت هذه الثقة دفعة قوية في عام 1483 عندما وصلت سفينة شراعية صغيرة، يقودها القبطان دييجو كام، إلى خط عرض 6 جنوباً، وبلغت مصب نهر عريض المجرى هو نهر الكونجو. وكانت مياهه المندفعة من الداخل الأفريقي، قد شقت مجرى بني اللون، بعيداً عن الشاطئ في قلب مياه الأطلسي حيث تمتزج بها. وبدا للبحارة البرتغاليين أن النهر قد يقدم طريقاً إلى «أثيوبيا» وجزر الهند، ولذا أقاموا نصباً حجرياً على مرتفع من الأرض يحمل شعار بلادهم. غير أن هذه الآمال أحبطتها السدود

الرملية والشلالات، لكن كام اكتشف مملكة أفريقية جيدة التنظيم تقع إلى الجنوب مباشرة من النهر. وفي رحلته الثانية إلى الكونجو في عام 1485 حمل هدايا عديدة من الملك جون إلى الملك نزينجا نكوو، الملقب بالمانيكونجو، مع رسالة إعراب عن النوايا الحسنة تهيب به إلى اعتناق المسيحية. وربما بدت هذه الدعوة الرائدة للصداقة الموجهة إلى عاهل غير أوربي، بشيرا بما سيحدث في جزر الهند، وتم تعميد ابن المانيكونجو باسم أفونسو، وتم تدريب مجموعة من الكتبة السود، وأرسلت فرق من المهنيين من لشبونة لمساعدة أصدقاء البرتغال الجدد (يلفت النظر إلى أن هذا الوعد المبكر لم يقدر له أن يتحقق، حيث إن مملكة الكونجو سرعان ما دمرتها تجارة الرقيق).

وقوي عزم جون الثاني بصورة مماثلة من خلال تحقيق تقدم مشهود في الملاحة سمح للسفن الشراعية الصغيرة بتحديد مواقعها بالنسبة إلى خطوط العرض بدقة، حتى عندما تكون موغلة جنوبي خط الاستواء، بحيث لا يمكنها رؤية نجوم نصف الكرة الشمالي[1]. فقد بحث الملك عن العون لدى الفلكيين والرياضيين اليهود، وخاصة العالم الشهير إبراهام زاكوتو السلامنكي الإسباني، الذي وضع جداول توضح أقصى ارتفاع للشمس في كل يوم من أيام السنة، عند كل خط عرض. وقد كتبت هذه التقديرات بالعبرية في البداية، ثم ترجمت إلى اللاتينية وفي نهاية المطاف إلى البرتغالية تحت عنوان **«قواعد الأسطرلاب»**. وبعث الملك بطبيبه الخاص السيد جوزيف في رحلة إلى غينيا لاختبارها هناك، وقد كتب تقريراً يفيد أن أرقام زاكوتو لا يجد الخطأ سبيلاً إليها.

استشعر جون الثاني أن لحظة الوصول إلى القمة قد حانت يقيناً بعد سبعين عاماً تقريباً من قيادة جده الذي حملت اسمه جيوش البرتغال إلى أفريقيا، من خلال الاستيلاء على سبتة. وعكف ذهنه الذي يعمل بطريقة منهجية بالفعل على التفكير في طريقة التعامل مع حاكم لم يعرفه إلا باعتباره «راجا كالكوت». وكان رجل من جنوة يدعى كولومبوس أقام في البرتغال، قد جاء إلى بلاط لشبونة في عام 1484، وعرض القيام برحلة للانطلاق غرباً عبر المحيط الأطلسي للبحث عن جزر الهند. وعكست الطريقة التي نُبذ بها والتي جعلته يمضي إلى إسبانيا بدلاً من البرتغال ثقة جون الثاني في أن سفنه تدنو من إحراز النجاح.

كان المعوق المستمر الذي حدّ من معدل التقدم هو نقص الأعداد المتوافرة من الأيدي العاملة، واضطر البرتغاليون في سبيل استكمال أطقم سفنهم المنطلقة إلى غينيا، إلى الاستعانة بالمغامرين من مناطق أخرى في أوربا. وكانت هذه الأطقم على مستوى المهام الملقاة على كاهلها؛ ففي ذلك الوقت لم تكن السفن الشراعية الصغيرة تواجه إلا وثنيين من السود مسلحين بالحراب والنبال، وألحقت المدفعية الدمار بصفوفهم بسهولة. غير أنه في المحيط الهندي قد يكون هناك أعداء أكثر قوة، وسيكون البرتغاليون بمفردهم، في أقاصي الطرق البحرية التي تمتد عبر آلاف من الفراسخ العاصفة[2]. وكان البابا يحث جون الثاني على أن «يفاجئ الأتراك العثمانيين من المؤخرة». ولكن غزوات الأتراك في مصر وشبه الجزيرة العربية قد دنت بهم بالفعل من الهند. وفي الثمانينيات من القرن الخامس عشر كانوا يتقدمون على امتداد البحر الأسود نحو فارس، وبرهن أداؤهم في البحر المتوسط على أن في وسعهم استخدام المدفعية في البحر بالمضاء ذاته الذي يوظفونها به في البر، ولم يكن من المحتمل أن «مفاجأة الأتراك العثمانيين من المؤخرة» ستكون أمراً يسيراً.

دفع تراكم الظروف غير المواتية بالبرتغاليين وهم يعانون من النقص في أعدادهم إلى التخلي عن كل التطلعات البطولية المتعلقة بتوجيه ضربة في الشرق نيابة عن العالم المسيحي. وتمثل البديل في المضي إلى جزر الهند كتجار متواضعين، يشترون حمولات سفن من التوابل حيثما أتيحت الفرصة لهم. غير أن هذا الدور الدنيوي لم يدر بخلد الملك جون قط، فقد كان على يقين لا يفتر من أن البرتغال لن تكون وحدها في مواجهة أنصار «النبي محمد»[3].

كان جون الثاني ذا شخصية تتسم بنزوع دنيوي، وتغلب عليها الضراوة وتنتمي إلى عصر النهضة، وكان حرياً بمكيافيلي أن يعجب بها، واشتهر بين رعاياه البرتغاليين بأنه «الملك الكامل». ومع ذلك فقد كان لايزال في وسعه أن يؤمن في قرارة نفسه بأن «الراهب يوحنا» الملك، الراهب الأسطوري المنتمي إلى الشرق، ينتظر تواقاً في جزر الهند ليضم قواته إلى العالم المسيحي الأوربي. وكان في استطاعة البرتغاليين الوثوق بهذه الشخصية الأسطورية؛ لأن الاستعداد لتقديم الوهم على ما هو قابل للتحقق منه

كان مايزال مزدهراً، وكان التفكير العلمي أقل أهمية من الكيمياء القديمة - التي تستهدف تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب - أو السحر، أو الإتيان بالمعجزات[4].

تعد قصة الراهب يوحنا (The Prester John)[5] من أكثر التصورات الخيالية إلحاحاً على الأذهان في العصور الوسطى، وقد اخترعت لرفع المعنويات الدينية في عهد الضعف، ثم تلقت قوة دفع جديدة من خلال حيلة أدبية. ولا يمكن أن نفهم استعداد «الملك الكامل» للإيمان بها إلا باعتباره تتويجاً لحلم أثر في مسار التاريخ، وأثر ذلك بشكل مباشر في الهجوم الأوربي المحمول بحراً على آسيا، وبدرجة أقل في البحث باتجاه الغرب الذي أفضى إلى اكتشاف العالم الجديد، بل وسوف يكون هناك في نهاية المطاف تأكيد غريب لصحة هذه القصة.

يمكن تتبع أصول هذه الأسطورة وردها إلى حكاية تدور حول زيارة مشكوك في صحتها إلى روما قام بها «مطران الهنود» ونشرها في عام 1144 هيو الجبلي، وهو مطران كاثوليكي فرنسي المولد عمل في شرقي المتوسط، وتحدث عن «راهب وملك» يدعى يوحنا، سكن «فيما وراء فارس وأرمينيا في أقصى الشرق، وهو مع كل شعبه مسيحي، لكنه نسطوري» وقد حارب هذا الحاكم الشجاع الفرس، وألحق الهزيمة بهم.

جاءت عملية صنع الأسطورة الحاسمة بعد ذلك بوقت قصير مع ظهور «رسالة من الراهب يوحنا» موجهة إلى البابا، وكذلك إلى الإمبراطور مانويل إمبراطور القسطنطينية، والإمبراطور فريدريك إمبراطور الرومان، وتشير كل البراهين إلى أن هذه الرسالة لفّقها كريستيان كبير أساقفة مينز، الذي زعم أنه ترجمها من اليونانية إلى اللاتينية، ولم يتم العثور على الأصل اليوناني قط، وربما كان كبير الأساقفة قد توصل إلى فكرة هذه الرسالة المزعومة خلال زيارة قام بها للقسطنطينية.

تتحدث الرسالة وهي رائعة من روائع الإبداع عن الأراضي التي تقع تحت حكم الراهب يوحنا بمياهها البلّورية، وخبيئاتها الهائلة من الأحجار الكريمة، وغاباتها من أشجار الفلفل[6]. وعلى جبل ناري تغزل فيه عظايا السمندر (السمندل)[7] خيوط الغزل للثياب الملكية الثمينة.

ويقول الراهب يوحنا إن في وسعه أن يرصد في مرآة سحرية خارج قصره كل المكائد التي يحوكها أعداؤه. وتنتهي الرسالة بأسلوب فخم مستوحى من الكتاب المقدس: «إذا كان في استطاعتكم عدُّ نجوم السماء ورمال البحر، فقدّروا رحابة إقليمنا واتساع نطاق سلطاتنا» وقد خاطبت هذه الصور مفاهيم أوربا الغامضة عن قدرة آسيا الخفية.

وتتمثل إحدى الحجج التي تساق في معرض الدفاع عن كبير الأساقفة كريستيان، إذا كان حقاً كاتب هذه الرسالة، في القول إن الرسائل الخيالية كانت حيلة أدبية مقبولة في العصور الوسطى. وما جعل القصة المختلقة عن الراهب يوحنا أكثر إقناعاً هو الرغبة السائدة في أوربا في صفوف الملوك والرهبان والفلاحين على السواء في النظر إليها باعتبارها حقيقة. وفي وقت بدأت الحملات الصليبية تتعثر، وبدا أن كل الصلوات للرب لنصرة المسيحية قد مضت بلا طائل، أعادت هذه القصة الثقة في الرابطة التي تصل الدين بالبسالة. وكان هذا الراهب الغامض هو المعادل الشرقي لأولئك المطارنة الذين انطلقوا إلى رحاب المعارك، وقد أحكموا قبضاتهم على القضبان الشائكة المستخدمة في تحطيم الدروع. وكان يوحنا طائل الثراء كذلك، الأمر الذي جاء على هوى الباباوات وكبار الأساقفة باعتبار أن يوحنا ينشر رسالة تقابل دعوة المسيح إلى التزام التقشف والتواضع.

كانت قلة من الأشخاص المميزين الذين يتسمون بالشجاعة؛ مثل الفيلسوف روجر بيكون يتشككون في الأمر صراحة ويلمحون إلى أن الراهب الملك قد لا يكون له وجود، لكن أحداً لم يلق إليهم بالاً. وسرعان ما ترجمت الرسالة من اللاتينية إلى كل اللغات واللهجات الأوربية تقريباً، بل كانت هناك نسخة للرسالة بالعبرية، ثم بدأ الكتبة في إقحام تصوراتهم الخيالية فيها. وتمثلت المرحلة التالية في ابتكار حكايات حكاها رحالة خياليون، عن زيارات لمملكة هذا العاهل الرباني ولقاءات معه. ومن الطبيعي أن كل الرحالة إلى الشرق - وبصفة خاصة الرهبان الذين أرسلتهم الكنيسة إلى مملكة الخطا - قد طلب منهم البحث عن الراهب يوحنا، وسئلوا لدى عودتهم هل قابلوه أو على الأقل سمعوا به، وقلة محدودة هي التي أقدمت في مواجهة هذا السؤال على الرد بالنفي.

لقد زيَّن ماركو بولو الأسطورة بطريقة مثبطة للغاية، وذلك بالإعلان عن أن الراهب يوحنا قد مات منذ زمن بعيد؛ حيث قتله القائد المغولي جنكيز خان في «إحدى أعظم المعارك التي دارت على الإطلاق». وقد كان الراهب نفسه مغولياً، وإن كان يعتنق المسيحية، وحوَّله ماركو إلى شخصية لا تدخل السرور في النفس على نحو ما، وقاده صلفه إلى مصرعه، فعندما طلب جنكيز خان يد ابنته على نحو مهذب، رد الراهب يوحنا بضراوة قائلاً إنه يؤثر على ذلك «أن يلقي بابنته إلى ألسنة اللهب». وأفضى هذا إلى نشوب حرب مدمرة. وكان خلف يوحنا الراهب ملكاً يدعى جورج، هو مجرد تابع للخان العظيم.

حتى إذا كانت رواية ماركو بولو مشوشة إلى حد بعيد، فقد كان لها أساس تاريخي معين، لأنه في عام 1141 نشبت حقاً معركة هائلة في وادي قطوان قرب سمرقند، بين أنصار بدوي من شمالي الصين يدعى يلو داشي وجيش صنقور وهو سلطان مسلم، وذاع بين الناس أن الخصمين قد دفعا إلى الميدان بأربعمئة ألف من الخيالة، وعندما عقد لواء النصر ليلو داشي مضى للاستيلاء على سمرقند. وعلى الرغم من أنه لم يكن مسيحياً، فإنه تلقى دعماً من النساطرة المهرطقين، وكان متعاطفاً معهم (بل إنه أطلق على أحد أبنائه اسماً يوحي بحبه للحرب وهو إيليا) ومن المحتمل أن التجار النساطرة قد حملوا نبأ انتصار يلو داشي غرباً إلى شرقي المتوسط، حيث إنه بعد ثلاث سنوات فقط، سافر المطران هيو الجبلي إلى روما، وتحدث عن أن ملكاً مسيحياً يدعى يوحنا قد أحرز نصراً مؤزراً في «أقصى الشرق».

إذا كان ماركو بولو قد أعلن بحلول القرن الرابع عشر موت الراهب يوحنا - ولابد أن يكون هذا قد حدث، وفقاً لأي تقدير عقلاني - فلعل الوقت قد حان لكي تكف أوربا عن الاعتقاد بوجوده. ولكن على العكس من ذلك ذاعت شهرته من جديد من خلال «سير جون ماندفيل»، وهو شخصية خيالية لنبيل إنجليزي زعم أن مذكراته الخيالية تروي ترحاله في الشرق على مدى أربعة وثلاثين عاماً.

تظل هوية كاتب نص ماندفيل لغزاً، ولكنه كان شخصاً يتمتع بموهبة تقترب من العبقرية. وربما كان إنجليزياً ولد في سانت البانز إلى الشمال من لندن، وهرب في

حوالي عام 1350 عبر القنال الإنجليزي إلى ليبج – وهي مدينة أخرى بها كاتدرائية – بعد ارتكاب جريمة خطيرة. وربما كان يتاجر في الأحجار الكريمة، ذلك أن نصه يكشف عن اهتمام قهري بالألماس. وقد كتب عمله الدال على البراعة والألمعية، ويقع في سبعين ألف كلمة باللغة بالفرنسية قبل سنوات قلائل من موته في عام 1372. ووقف عند فراش موته محام من ليبج وزميل له في عالم الكتابة هو جان دوترموز، الذي اعتقد أحياناً – على سبيل الخطأ – أنه مبتكر شخصية ماندفيل.

يمكن أن يكون لقب سير جون الخيالي قد استمد من وليم دي ماندفيل، إيرل أوف إسكس المحارب الصليبي المنتمي إلى القرن الثاني عشر، والذي أبحر من إنجلترا إلى الأرض المقدسة، مع أسطول مؤلف من سبع وثلاثين سفينة (وفي غمار حملته هذه، كان قد ساعد البرتغاليين على قتال المسلمين، في موقعة لقي فيها أربعون ألف رجل مصرعهم)، ولكن الأساليب التي لجأ إليها مبتكر شخصية ماندفيل لإخفاء هويته ليست لها أهمية تذكر مقارنة بتأثير عمله في كل مستويات المجتمع الأوربي على مدار قرون عديدة. ولم يكن يُنظر إلى هذا المؤلف على أنه في حقيقة الأمر مخادع خائن لثقة القراء به، سطا على مذكرات العديد من الرحالة الحقيقيين ومن بينهم ماركو بولو، ولكنه عومل بإجلال باعتباره شاهداً جديراً بالثقة على عجائب العالم.

قدر لكتاب **«رحلات ماندفيل»** أن يكون من أول الكتب التي طبعت في أوربا بلغة أخرى غير اللاتينية، وذلك عندما صدرت طبعة هولندية منه في عام 1470، وبحلول عام 1500 كانت خمس وعشرون طبعة من هذا الكتاب على الأقل قد صدرت. ويستمد جانب من نجاح النص من قصصه الغريبة. وكانت هذه النوعية من الكتابات هي النوعية الدنيوية العلمانية التي أدانتها الكنيسة ولكنها لم تفلح في حظرها حظراً تاماً. فقد كان المؤلف يعرف كيف يستبق الانتقاد الديني، إذ يقدم لقرائه بلاد الراهب يوحنا أكثر الملوك المسيحيين ورعاً كذروة لقصته.

لقد كانت لدى كاتب رسالة الراهب يوحنا الأصلية دوافعه التي يسهل تفهمها؛ حيث أراد أن يقول لمسيحيي أوربا المتورطين في الحروب بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأن العون قد يكون قريباً. أما دوافع من أطلق على نفسه اسم سير جون

ماندفيل، كائناً من كان، فقد كانت أكثر تعقيداً؛ فقد كان هناك مجال محدود للحصول على عائد مالي عن عمله، وربما كان مجرد «رحالة لا يغادر مقعده» يسلي نفسه في أيامه الأخيرة بتجميع الحكايات الأثيرة لديه والتي اطلع عليها خلال عمر أمضاه في القراءة، وعباراته الختامية تبدو حزينة على نحو مميز، حيث يتحدث عن «آلام النقرس» و«اللجوء إلى الراحة التعسة». وهو ينتهي بأن يطلب من قرائه أن يصلُّوا من أجله، ومن ثم سيصلي هو من أجلهم. وإذا كان هناك في قلب هذا العمل بعض الدوافع الدينية أو السياسية فقد تعذر رصدها على امتداد ستة قرون.

لو قدر لمبتكر شخصية ماندفيل أن يمتد به العمر ليرى مدى نجاح عمله؛ لأذهله النجاح الهائل والمستمر الذي حققه. ومن النتائج المؤكدة المترتبة على هذا العمل الحفاظ على أسطورة الراهب يوحنا، في أذهان تلك القوى الأوربية، وبصفة خاصة البرتغالية، التي مضت تبحث عن طرق جديدة تفضي إلى أراضي الفلفل والبهارات والجواهر في المحيط الهندي. فالعثور على الراهب - الملك خدمة للرب، ناهيك عن الثروة الدنيوية. وهكذا قدر لأسطورة تنتمي إلى العصور الوسطى، أن تدعم احتياجات عصر الاكتشاف. بل إن كولومبوس الذي عبر المحيط الأطلسي بحثاً عن سيبانجو (اليابان) وأرض الخان العظيم قد درس ماندفيل بعناية. غير أنه من غير المحتمل أن يكون كولومبوس قد توقع حقاً أن يقابل الراهب يوحنا، ربما لا لشيء إلا لأن ماندفيل قد حرك الراهب - الملك غرباً، من حيث كان ماركو بولو قد وضعه، ليصبح «إمبراطور الهند العظيم». وعلاوة على ذلك فإن اسم هذا العاهل المراوغ لم يعد ينظر إليه على أنه اسم فرد، إذ إن هذه النظرة تعد ساذجة بدرجة لا تحتمل.

وهكذا أصبح «الراهب يوحنا» لقباً يخلع على حاكم أي مملكة مسيحية مناسبة تكتشف في الشرق. وقد استخدم الاسم بهذه الطريقة على وجه الدقة في قصة ماندفيل؛ ويظهر هذا جهل أوربا بالأحداث التي تجري في آسيا، والتي بدا أن الكاتب في تناوله لها لم يكن يدرك أن المغول وحاكمهم هو «الخان العظيم» قد فقدوا السلطة قبل قرن من عكوفه على الكتابة.

في وقت مبكر يعود إلى عام 1306 لم يكن مؤلف ماندفيل قد شرع في الكتابة بعد[8]، حين أشار أحد البحَّاثة بالفعل إلى أثيوبيا، باعتبارها مملكة الراهب يوحنا. وحدث ذلك بسبب زيارة بارزة إلى أوربا، قام بها وفد أثيوبي مؤلف من ثلاثين رجلاً، أرسل إلى البابا و«ملك الإسبان» للسعي من أجل المساعدة في مواجهة المسلمين. وربما اختيرت إسبانيا من بين كل البلاد الأوربية، لأنه كان هناك مركز نشط للتجارة القطالونية في الإسكندرية، وكذلك مطران أرثوذكسي، درج على تعيين رأس الكنيسة الأثيوبية. وقال الأثيوبيون إنه إذا كانت المساعدة الإسبانية في سبيلها إلى القدوم فإنهم على استعداد للمشاركة في الحرب ضد «الكفرة».

ويبدو أن البعثة لم تحرز الكثير غير الإعراب عن مشاعر الصداقة، ولكن الأثيوبيين في طريق عودتهم إلى وطنهم من روما وأفينيون، حيث استقبلهم البابا كليمنت الخامس، عطَّلهم الطقس السيئ في جنوة. وانتهز راهب علامة هو جيوفاني دا كارينانو الفرصة لاستنطاق هؤلاء الأغراب الذين لم تكن ملامحهم مألوفة. ولما كان من رسامي الخرائط فقد حرص على أن يعرف كل ما يمكنه حول جغرافية أثيوبيا وكذلك عاداتها وطقوسها الدينية. ووفقاً لما أوضحه الأب جيوفاني، فإن ملك الأثيوبيين هو الراهب يوحنا (وكان اسمه وديم أرعد) ولابد أن جيوفاني قد خلع عليه اللقب، حيث إن الراهب كان يعتبر في ذلك الوقت موجوداً في الهند، وحيث إنه كان من المألوف تسمية أثيوبيا بـ «الهند الوسيطة» فقد كان هذا افتراضاً معقولاً.

وكان هناك راهب آخر ذهب إلى أن مكان الملك المسيحي الأسطوري في الهند، وهو دومينيكاني يدعى جوردانوس من مدينة سيفيراك في جنوب فرنسا، وتتسم قصة حياته بالغموض، ولكنه وفقاً لما رواه قام برحلتين حافلتين بالأخطار في صدر القرن الرابع عشر، ومنحه السلك الرهباني الذي ينتمي إليه لقب «أسقف كولمبوم في الهند الكبرى»[9] (ربما كان جوردانوس ينظر إلى «الهند الكبرى» باعتبارها تضم جنوب الهند وسريلانكا وتايلاند، وكولمبوم هو ميناء كويلون «كولم» قرب كالكوت).

وقد وجدت جماعات مسيحية في جنوب الهند، وعرفت بأنها تعود إلى عهد سانت توماس، وهو القديس الذي يقال إنه مضى إلى الهند في عام 52 للميلاد

للتعريف بالكتاب المقدس، ومات هناك بالفعل. وقد أرسل جوردانوس لاستقطاب هؤلاء المسيحيين البعيدين للمذهب الروماني وكذلك لاجتذاب معتنقين جدد للمسيحية. وتشير كل الأدلة المتوافرة إلى أنه لم يحرز إنجازاً كبيراً، وعلى الرغم من أن قصتي الراهب يوحنا والقديس توماس قد تداخلتا في الغالب وتشابكتا معا، فإن الدومينيكاني المغامر قد خاب أمله، حين لم يجد أي أثر على الإطلاق لإمبراطور مسيحي في الهند الكبرى.

كان الرد يكمن في مكان آخر، وفي غمار رحلة جوردانوس عائداً إلى الوطن أشار في ثقة إلى أثيوبيا. وبينما لم يزعم هذا الراهب أنه زار بلاد الأثيوبيين، فإنه قد زار «بلاد العرب الكبرى» حيث علم بأن الأثيوبيين كانوا «مسيحيين جميعاً، لكنهم هراطقة». وكان مولعاً بالوحوش، حيث يقول: «عن أثيوبيا، أقول إنها بلاد عظيمة للغاية وشديدة الحر. وهناك وحوش عديدة بها؛ مثل الجريفينات التي تحرس جبال الذهب . . . وأعتقد أن سيد تلك البلاد أوسع في نطاق سلطته من أي رجل آخر في العالم وأعظم ثراء بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. ويقال إن تحت حكمه اثنين وخمسين ملكاً». وقدم جوردانوس كذلك وصفاً لشرق أفريقيا، التي أسماها «الهند المثلثة» فهي تقطنها التنانين التي تتنفس ناراً، وحيوانات وحيد القرن الضارية التي من شدة ضراوتها يمكنها أن تقتل الفيلة، و«رجال سود، قصار القامة، بدناء»[10].

شكّل ما قاله جوردانوس عن أثيوبيا في عام 1330 مرحلة حاسمة في ربط الأسطورة بما يشبه الحقيقة، ومن المؤكد أن الراهب قد ساعده في رحلاته التجار الجنويون، وقد أفادت خريطة رسمها في عام 1339 أنجيلينو دا دالورتو، وهو من أبناء جنوة، أن مسلمي النوبة «تقاتلوا مع مسيحييها ومسيحيي أثيوبيا الذين يحكمهم الراهب يوحنا، وهو مسيحي أسود».

وأخيراً فإن مملكة الراهب يوحنا، بعد البحث عنها في كل أرجاء آسيا، قد وجدت في أفريقيا. وبينما قد يكون الواقع أكثر تواضعاً مما ولدته ثلاثة قرون من المبالغات التمجيدية، إلا أنه كان كافياً لحمل الورع والمشروع التجاري البرتغاليين على الرياح المتفائلة ذاتها.

بحلول القرن الخامس عشر كانت هناك مستوطنة صغيرة تضم الأوربيين المقيمين في أثيوبيا، وكانوا جميعهم تقريباً من الإيطاليين؛ وبصفة أساسية من البندقية وفلورنسا وجنوة، وقد مضى بعضهم إلى «أرض الراهب يوحنا» على أمل الحصول على الأحجار الكريمة، وربما ضل آخرون الطريق في غمار محاولتهم الوصول إلى المحيط الهندي عن طريق النيل والبحر الأحمر. ومن أقدم هؤلاء الزوار الذين بقيت أسماؤهم، بيترو رامبولو الذي يشار إليه أحيانا باعتباره «بيترو دي نابولي» (وهو في الواقع من مسينا في صقلية، وكانت وقتذاك جزءاً من دولة نابولي). وقد وصل بيترو رامبولو إلى أثيوبيا في عام 1407 وهو في شرخ الشباب، وتزوج من إحدى نساء أثيوبيا في وقت لاحق، وعاش فيها أربعين عاماً.

وقدر لتأثيره في العلاقات بين أوربا وبين الأرض التي استوطنها أن يكون تأثيراً كبيراً، على نحو ما بدا للمرة الأولى في عام 1428، عندما وصلت بعثة أثيوبية إلى ألفونسو الخامس ملك أراجون. وربما كان القرار الذي اتخذه الأثيوبيون بالاتصال مجدداً بحاكم إسباني على نحو ما فعلوا في عام 1306، راجعاً في الغالب إلى تحرك نشط من جانب رامبولو، لأن ألفونسو كان يسيطر على صقلية، وكان على وشك الاستيلاء على نابولي كذلك. واقترح المبعوثون باسم الملك إسحق الذي بعث بهم، أن ترتبط العائلتان الملكيتان برابطة المصاهرة، فيرسل ألفونسو أحد أبنائه للزواج من أميرة أثيوبية، ويتزوج أمير أثيوبي من ابنة الملك ألفونسو. وقد ضرب ألفونسو صفحاً عن هذا الاقتراح، ولكنه وافق على إرسال فريق من الحرفيين، لاقوا حتفهم جميعاً في الطريق إلى أثيوبيا.

بعد عامين أفادت السجلات أن رامبولو قد صحب وفداً بعث به إلى أثيوبيا دوق دي بيري الذي كانت له صلات إسبانية. وفي عام 1432 توقف رامبولو بالقرب من القسطنطينية، وهنالك التقى بالرحالة البورجندي برتراندو دي لا بروكيير. ولما كان رفاقه في البعثة قد ماتوا، فلاشك في أن رامبولو كان يأمل في أن يجند أوربياً إضافياً واحداً، على الأقل ليقدمه إلى العاهل الأثيوبي؛ ولذا فإنه «بذل العديد من الجهود» لإقناع دي لابروكيير بالقدوم معه إلى أكسوم العاصمة الأثيوبية. وعلى الرغم من أن

البورجندي يلاحظ في مذكراته أنه قد التقى برامبولو من قبل (من دون أن يوضح مكان هذا اللقاء)، فإنه يتحدث باستنكار عن ولع «بيترو دي نابولي» بتلفيق القصص بالغة الغرابة؛ مثل المشروع الأثيوبي لتحويل مجرى النيل وتجويع مصر، وقد رفض العرض الذي تقدم به بيترو.

لم يبد أن الفشل الذي منيت به البعثة إلى إسبانيا قد قلل من مكانة رامبولو لدى زارا ـ يعقوب إمبراطور أثيوبيا الجديد، حيث كانت بعثته الدبلوماسية التالية إلى الهند والصين. وفي عام 1450 أرسل مجدداً إلى أوربا مع مبعوث أثيوبي يدعى الراهب ميخائيل، وبعد انقطاع دام عشرين عاماً استقبله ألفونسو ملك أراجون استقبالاً رسمياً.

انتهز رامبولو الفرصة لزيارة مسقط رأسه، وفي نابولي قابله راهب دومينيكاني، كتب صورة موجزة عن الحياة العملية لهذه الشخصية الغريبة. ويصف هذا الراهب رامبولو بأنه طويل القامة، أسمر لفحته أشعة الشمس، أنيق الملبس، يتوج الشعر الأشيب رأسه. وهذه هي آخر لمحة له يقدمها التاريخ.

تمثل حسن حظ رامبولو في أنه سمح له غالباً بمغادرة أثيوبيا، بينما لم يسمح بذلك للأجانب الآخرين الذين قدموا إليها، وقد عاملهم زارا ـ يعقوب معاملة طيبة، فمنحهم الزوجات والأراضي، ولكنه رفض السماح لهم بمغادرة أثيوبيا. وربما كان قد خشي من أنهم، وهم في الطريق، قد يتعرضون للخطف والتعذيب على أيدي المسلمين؛ لانتزاع معلومات تفيدهم في الحرب. وكان الهرب مستحيلاً بالنسبة إلى «أسراه» حيث كان هناك طريق واحد يفضي إلى خارج أثيوبيا، وهو الطريق المتجه شمالاً إلى ميناء مصوع المطل على البحر الأحمر، وكان طريقاً يجمع بين الخطورة والحراسة المحكمة في آن واحد.

كانت هذه الحقائق التي جمعها البرتغاليون عن أثيوبيا متناثرة، بحيث تسمح لهم بالتشبث بتصورات ماندفيل الخيالية عن مناعة الراهب يوحنا، «هذا الإمبراطور عندما يمضي إلى المعركة لمواجهة أي حاكم آخر، لا يرفع رايات أمامه وإنما لديه ثلاثة صلبان كبيرة من الذهب، مرصعة بالأحجار الكريمة، وكل صليب منها يثبت في عربة تجرها

الجياد بديعة التجهيز، وعيَّن لحماية كل صليب عشرة آلاف رجل من الحراس المدججين بالسلاح، وما يزيد على مئة ألف رجل من المشاة».

يفلح الآن العديد من المبشرين الفرنسيسكان الذين لم تردعهم الأخطار في الوصول إلى أثيوبيا، ويشقون طريقهم إلى بلاط الملك. وعلى الرغم من أن أحد الرهبان البنادقة كتب وصفاً للرحلة، وأحس بأنه مجبر على الحديث عن «الملك العظيم الراهب يوحنا»، فإن رأيه في أثيوبيا كان رأياً سيئاً على نحو حاسم، حيث كتب يقول:

«يوجد في هذه البلاد الكثير من الذهب والقليل من الحبوب، وهي تفتقر إلى النبيذ، وبها عدد كبير من السكان أناس همج خشنو الطباع وغير متحضرين. وليست لديهم أسلحة من الصلب يحاربون بها، ونبالهم ورماحهم متخذة من الخيزران. ولا يبرز الملك إلى الميدان بقوة تقل عن مئتي ألف أو ثلاثمئة ألف رجل، وهو يقاتل دفاعاً عن الدين كل عام ولا يدفع أجراً لأي من أولئك الذين يدفع بهم إلى الميدان، وإنما يتحمل عبء معيشتهم ويعفي المحاربين من كل الضرائب الملكية. ويختار كل هؤلاء المحاربين وتسجل أسماؤهم ويدمغ كل منهم بخاتم الملك على ذراعه. ولا أحد يرتدي الملابس الصوفية لأنها ليست متوافرة لديهم بل يتخذون ملابس من الكتان. وهم جميعاً رجالاً ونساء يمضون عراة من الخصر فصاعداً وحفاة، وهم على الدوام مصابون بالقمل، وهم شعب ضعيف محدود الطاقة والقدرة، لكنهم ذوو أنفة وكبرياء».

ولو أن زارا ـ يعقوب قدر له الاطلاع على هذا الرأي لأثار حنقه، وهو أقوى حاكم أثيوبي في القرن الخامس عشر حيث إنه كان يوسع الأراضي التي يحكمها بطرد المسلمين بعيداً باتجاه البحر الأحمر. وكان يلوح لمصر، مهدداً بتهديد غير محتمل، لكنه يتكرر غالباً، بأنه سيحول مجرى النيل الأزرق. وفي رسالة بعث بها إلى القاهرة في عام 1443، حذر السلطان جمق من أنه يمكنه القيام بذلك في تلك اللحظة عينها، ولا يحول بينه وبين ذلك إلا تقواه لله وتردده في أن يسبب المعاناة للبشر.

شعر زارا ـ يعقوب بالضيق لدى سماعه بأن الأوربيين يدعونه بـ «الراهب يوحنا» مشيراً إلى أن اسمه أصلاً اسم طيب، ومعناه «ذرية يعقوب» كما لم يتراجع ويسلم بأي

شيء، فيما يتعلق بالورع، فقد أمر رعاياه بنقش وشم على جباههم للتبرؤ من الشيطان، وكل من يزيل هذا الوشم يدق عنقه.

وليس من المؤكد مدى دقة ما عرفه البرتغاليون عن مثل هذه الأمور، غير أنه كان هناك ما يكفي تماماً لإقناعهم بأن الراهب يوحنا موجود بالفعل. وظل الموضع الدقيق لمملكته الأثيوبية غامضاً، ولكن من المؤكد أنها ستكون مكاناً للعون على الطريق إلى الهند. وتلقى كل قباطنة السفن الشراعية الصغيرة أمراً بالسعي وراء أخبار عن هذا الملك المسيحي حيثما نزلوا على شاطئ أفريقيا. ولما كانت القارة بأسرها تقريباً على خريطة الراهب مورو، قد يشار إليها على أنها أثيوبيا، وتزدحم بالمدن الخيالية والرسوم التصورية، فإن بلاط لشبونة شرع يفكر في طرق لجمع معلومات عنها تكون أكثر تحديداً.

الفصل السادس عشر

الجاسوس الذي لم يعد إلى الوطن قط

هكذا فإن الجغرافيين في خرائط أفريقيا
ملؤوا الفراغات بصور وحشية.
وعلى السهول الموحشة
وضعوا الفيلة، لانعدام المدن.

جوناثان سويفت - **«عن الشعر»**: رابسوديه (1733)

خلال خريف عام 1487 رقد تاجران مغربيان محمومين في ميناء الإسكندرية المصري. وبدا أنهما أشرفا على الموت، حتى إن حاكم المدينة لم يتمهل بانتظار وفاتهما، بل مارس حقه في مصادرة ممتلكاتهما على أساس أنهما ميتان. ولكن خاب أمله عندما استرد المغربيان العافية، فاستعادا بضائعهما، بما فيها العديد من جرار عسل نابولي، وسارعا بالانطلاق إلى القاهرة.

شكلت هذه الحادثة بداية غير واعدة، لما قدِّر له أن يصبح أحد أبرز المنجزات المدوية في تاريخ الجاسوسية؛ حيث إن الرجلين لم يكونا مغربيين ولا تاجرين، وإنما هما عميلان للحكومة البرتغالية. وتمثلت الأوامر الصادرة لهما في التجسس على مواني المحيط الهندي، والتحقق من الطرق التي يصل بها الفلفل وغيره من التوابل، إلى البحر المتوسط، والاتصال بـ «الراهب يوحنا» حاكم أثيوبيا. وزود أعلى العميلين رتبة، ويدعى بيرو دي كوفيلهام (وفي بعض الأحيان يكتب اسمه كوفيلها أو كوفيلهاو) بخريطة أمر بأن يدون فيها كل شيء يفلحان في معرفته، حول الملاحة في المحيط الهندي[1]. وقيل له إن عليه أن يكتشف ما يمكن أن يعرفه القباطنة العرب والهنود، حول الطريق الذي يدور حول الطرف الجنوبي لأفريقيا.

في يوم رحيل كوفيلهام ورفيقه أفونسودي بايفا، أكد لهما جون الثاني ملك البرتغال، أنه يعرف أنهما ينطلقان في «مهمة عسيرة»، وهذا وصف يهوِّن من شأن

أخطار الرحلة، فعلى الرغم من أنهما يتحدثان العربية وينتحلان اسمين من أسماء المسلمين، واتخذا مظهر تاجرين جوالين، فإن ثمن اكتشاف هويتيهما سيكون الموت شبه المؤكد. وأفضل ما يمكنهما أن يعلقا عليه الآمال لدى اكتشافهما، هو أن يتم بيعهما بيع العبيد، ولكي يتأكدا من أنهما قد اتقنا دوريهما الجديدين، ارتحلا على مهل من البرتغال إلى مصر، عن طريق بلنسية وبرشلونة ونابولي ورودس التي استقلا فيها سفينة إلى الإسكندرية، حمّلاها بجرار عسلهما.

منذ تلك اللحظة فصاعداً لم يعد هناك سبيل أمامهما لكي يبعثا برسائل إلى لشبونة، بخلاف المخاطرة باستخدام نظام حاملي الرسائل البطيء وغير الموثوق به، الذي يستخدم بين التجار اليهود في أوربا ومواطنيهم في أراضي الشرق. وكانت هناك طائفة يهودية كبيرة في القاهرة التي كانت أبرز مدينة في العالم الإسلامي، إلى أن استولى الأتراك على القسطنطينية قبل خمسة وثلاثين عاماً، وقد كانت القاهرة هي التي اعتزم كوفيلهام وبايفا العودة إليها لدى إتمام عملهما. أما الآن فقد بات هدفهما الإبحار باتجاه الجنوب في النيل، والعبور إلى البحر الأحمر مع قافلة تجارية، ثم ركوب سفينة إلى عدن عند مدخل المحيط الهندي.

مضى الرجلان يبيعان العسل حيثما ذهبا، ووصلا سالمين إلى عدن، في آب/ أغسطس من عام 1488، وهناك اتفقا على أن يفترقا، ولن يقدر لأي منهما أن يرى الآخر مجدداً أبداً، كما لن يعود أي منهما إلى البرتغال. وعبر بايفا البحر الأحمر إلى ميناء زيلع على البر الأفريقي، ليشق طريقه إلى أثيوبيا. وكان طريقاً حافلاً بالمخاطر، بالنسبة إلى مسيحي متنكر في هيئة مسلم، حيث إنه يتخلل أرضاً تحتلها الجيوش العربية التي تواجه الأثيوبيين في معاقلهم الجبلية.

ومضى كوفيلهام وقد أصبح وحيداً الآن فشغل مكاناً على متن إحدى مئات السفن العربية التقليدية الصغيرة التي غادرت ميناء عدن في ذلك الموسم في طريقها إلى الهند، مع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تملأ أشرعتها. وكانت هذه الرحلة هي الأولى في سلسلة من الرحلات التي ستستغرق أكثر من عامين، حيث عبر كوفيلهام مراراً وتكراراً أرجاء المحيط الهندي، مدوناً خلسة الملاحظات على الخريطة التي احتفظ بها في أمتعته.

بعد حياة عملية حافلة في الجاسوسية والدبلوماسية[2]، كان كوفيلهام المرشح الطبيعي لمثل هذه المغامرة، والآن صار في أواخر الثلاثينيات من عمره، وقد ارتفع من غمار الفقراء ليغدو أحد النبلاء العاملين في خدمة العائلة المالكة. وكان مسقط رأسه الذي استمد اسمه منه، بلدة كوفيلهام الجبلية القريبة من الحدود مع إسبانيا، وقد خدم في شبابه في بلاط دوق مدينة سيدونيا القشتالي، ولكنه عاد إلى البرتغال في عام 1474. وكان بارعاً في اللغات بالسليقة، فقد مضى مع حاشية الملك أفونسو الخامس لزيارة فرنسا، وأثار الإعجاب البالغ لدى رؤسائه إلى حد أنه أرسل مجدداً إلى فرنسا، في أول مهمة للتجسس يقوم بها. ووصفه أحد معاصريه بأنه «رجل شديد الذكاء والألمعية» شائق الحديث. والتقطه الملك جون الثاني الذي بعث به سفيراً إلى المغرب، وهناك كانت مهمته التفاوض مع سلطان فاس حول استرداد البرتغال لرفات «الشهيد» الأمير فرناندو الذي لقي حتفه في زنزانة مغربية، بعد أسره في طنجة في عام 1437. وسمحت له هذه الفترة التي أمضاها في المغرب بالتمكن من اللغة العربية ودراسة طريقة حياة المسلمين.

تمثل ما قرّب كوفيلهام من الملك الجديد في العمل التالي الذي أنجزه، حيث بعث به إلى قشتالة لرصد أنشطة عائلة براجانزا الهاربة[3]، وكما أوضح أحد المؤرخين، فإن جون الثاني أراد من كوفيلهام «أن يتجسس ليعرف من هم أولئك السادة من رعاياه الذين يتحركون هناك ضده». وقد كانت سحب الكراهية التي أحاطت بالعرش في ذلك الوقت كثيفة، حيث أمر الملك بإعدام ابن عمه دوق براجانزا لتآمره عليه، وطعن بنفسه، حتى الموت، دوقاً آخر أظهر عدم ولائه على الرغم من أنه كان شقيق الملكة. ووسط سفك الدم الملكي هذا، بقي كوفيلهام على الدوام مخلصاً في ولائه للملك.

كان قرار إرسال الجاسوسين إلى الشرق قد اتخذ في أوائل عام 1487، وفي الوقت ذاته كانت ثلاث من السفن الشراعية الصغيرة تعد لجهد حاسم، يستهدف الوصول إلى الطرف الجنوبي لأفريقيا، والعثور على الطريق إلى المحيط الهندي. وجاء هذا تتويجاً لسبعين عاماً من الجهد البرتغالي في هذا الميدان، برهنت الجغرافيا على أنها عقبة أكثر إثارة لمشاعر الإحباط مما كان يمكن أن يتصوره الأمير هنري الذي رحل عن العالم منذ

وقت طويل. فقد مضت رحلات الاستكشاف حتى وصلت إلى مسافة تبعد جنوباً عن خط الاستواء بمقدار بعد البرتغال عنه شمالاً، ومع ذلك كان خط الساحل الأفريقي لايزال يوغل في اتجاه الجنوب.

استمر القباطنة البرتغاليون في بناء أعمدة حجرية تعلوها الصلبان على الرؤوس البرية البارزة. وبعثت هذه المعالم البرية المنتشرة في المجهول الثقة في نفوس الرجال الذين أقبلوا في رحلات لاحقة، وشكلت تحدياً لهم للمضي قدماً إلى مسافات أبعد. واستشعر القباطنة على الدوام القلق حيال الحالات المزاجية لأطقمهم في سفن ضيقة تفتقر إلى وسائل الراحة تبحر وسط بحار عاصفة. وكلما امتدت المسافة بعيداً عن أوربا، زاد احتمال التعرض لمخاطر التمرد من جانب البحارة، فقد خشي الملاحون المتطيرون من أنهم قد يبحرون متجاوزين نهاية العالم ليسقطوا في وهدة النسيان.

كان القبطان المحنك الداهية الذي اختير لقيادة السفن الشراعية الصغيرة الثلاث، هو بارتلميو دياز، وعلى الرغم من أن كوفيلهام قد عرفه يقيناً، أو على الأقل سمع بخططه، فإن هناك احتمالاً محدوداً بأن يكونا قد ناقشا فرصة اللقاء في مكان ما من المحيط الهندي خلال رحلتيهما. ولما كان النجاح يبدو وشيكاً بينما انتشرت المخاوف الشديدة من منافسة إسبانيا القائمة على الغيرة، لم يتم تبادل أكثر من أسرار محدودة للغاية في لشبونة، في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر.

التقت المجموعة الصغيرة التي أعطت التعليمات الأخيرة لكوفيلهام وبايفا، في «سرية بالغة» في دار أحد الارستقراطيين، وهو بيرو دي الكاكوفا. وشهد ذلك اللقاء مانويل الذي سيرقى العرش في المستقبل، وكان وقتذاك دوق بيجا، و«طبيبان يهوديان» هما موسى ورودريجو، أحدهما كان طبيب البلاط الملكي، واشتهر كلاهما بأنه من المتخصصين البارزين في علم دراسة نشأة الكون. وتوضح الأهمية المعلقة بجلاء على هذه المهمة السرية كيف أن البرتغاليين كانوا لايزالون يخشون من أنه قد تكون هناك مخاطر مجهولة قد تنتزع النجاح من أيديهم. وبالمثل عكست الأوامر الصادرة باجراء اتصال مع «الراهب يوحنا» الأمل في إقامة تحالف مع عاهل صديق، يمكن أن توفر موانيه مراسي آمنة للسفن الشراعية البرتغالية الصغيرة.

لم يبد أن هناك محلاً للشك في إمكانية «النفاذ» إلى المحيط الهندي، فقد أبلغ العالمان الطبيبان كوفيلهام بأنهما قد عثرا على وثيقة (لم يذكر شيء آخر حولها) تتعلق بموضع العبور ما بين المحيطين الهندي والأطلسي. وكان وجود سفالة الميناء الأكثر إيغالا باتجاه الجنوب على الساحل الشرقي لأفريقيا أمراً معروفاً تماماً الآن - على الرغم من أنه لم يزره أو يصفه أي أوربي قط - وكان ذلك الميناء أحد الأماكن التي عرف كوفيلهام أن عليه أن يزورها في وقت لاحق.

غير أنه عندما أبحر شرقاً من عدن على متن سفينة عربية تقليدية، بعد أن ودع بايفا، كان يتبع الأولويات التي حددها الأمير مانويل؛ فعليه أولاً القيام بجمع المعلومات عن مواني غربي الهند المزدهرة، حيث إنها تحمل في يدها مفاتيح «التوابل» التي كانت البرتغال تأمل في احتكارها. وكان مقصد السفينة التي استقلها هو مدينة كنانور[4]، [5] في بلاد الفلفل بساحل المالبار الهندي، ومن هناك لم يكن عليه إلا أن يرتحل إلى مسافة قصيرة ليبلغ كالكوت، المدينة الشهيرة التي كانت سوقاً هائلة تحظى بسمعة كبيرة على امتداد المحيط الهندي. وقبل نصف قرن من زيارة كوفيلهام كان هذا هو الميناء الذي أرسل منه الأميرال زينج هي بسفنه الضخمة إلى فارس وعدن وأفريقيا.

لقد أبلغ نيكولو دي كونتي - جوّاب الآفاق البندقي - محاوره في روما بعظمة كالكوت، وكان وصفه لها معروفاً لدى البرتغاليين. وفي وقت أقرب ذكر مبعوث جنوي أفلح في الوصول إلى فارس أن تجار كل الأمم يقصدون هذه المدينة[6]، ووراء شاطئها الذي اصطفت عليه المتاجر والمخازن، شمخت دورها الحجرية التي أحاطت بها حدائق مترامية، وزرع الفلفل في كل مكان، وإلى الداخل امتد الريف الجبلي. ولم يكن في كالكوت ميناء جيد. ولكن هناك كما سجل ابن بطوطة منذ ما يزيد على قرن من الزمان خلجان محمية جيداً على امتداد الساحل يمكن للسفن التجارية أن تعتصم بها من العواصف الموسمية.

وكان من الممكن شراء جميع أنواع التوابل في كالكوت، ومقابل الفلفل طلب التجار العملات الذهبية؛ ومنها الدوكاتية والسكوين من البندقية، أو الأشرفي من مصر، أو الدينار من شبه الجزيرة العربية. وكان النحاس هو العملة المستخدمة في شراء

الزنجبيل. وكانت هناك كنوز عديدة أخرى يمكن العثور عليها في هذا المركز التجاري، وخاصة اللآلئ والماسات والأحجار الكريمة من سيلان بما في ذلك أحجار الصفير والزمرد وعين النمر والزاركون. وجاء العاج والعبيد والذهب من أفريقيا، ولعل كوفيلهام قد رأى السلع التجارية الآتية من البحر المتوسط والمعروضة في أسواق كالكوت وقد وصلت المحيط الهندي من خلال العديد من الطرق الشاقة، وتمثلت بشكل أساسي في الأسلحة والحلي والمرايا.

وبالنسبة إلى أولئك الأوربيين المتشددين الذين يرون أن من حقهم وواجبهم أن يدخلوا البشرية بأسرها في المسيحية، وكذلك أن يمارسوا التجارة، كانت هناك مصادر جاذبية خاصة في أقاليم المالبار، وهي الجماعات المسيحية التي سعى جوردانوس السيفيراكي عبثاً لتحويلها إلى المذهب الكاثوليكي، والتي كانت ماتزال تحيا في تناغم جنباً إلى جنب مع الأديان الأخرى. وكان السامري حاكم كالكوت هندوسياً، ومدينته يعلوها معبد هندوسي مكسو بالنحاس، ولكنه خَصَّص قاعةً فيه للمسيحيين.

شق كوفيلهام في إطار جهوده الاستطلاعية طريقه شمالاً، من كالكوت إلى ميناء جوا (كوة) وهو مركز للتجارة بالجياد المستوردة من فارس وشبه الجزيرة العربية، ذلك أنه بالنسبة إلى أمراء الهنود المنغمسين في الحروب لم يكن هناك ما يكفي لتلبية طلبهم من الجياد المستوردة، التي يمكن أن تزج في المعارك، وكذلك الحال بالنسبة إلى الفيلة المدربة المستوردة من سيلان. وعلى مسافة أبعد باتجاه الشمال فيما وراء جوا (كوة) بمسافة كبيرة، كانت هناك مدن جوجارات (جوزرات) أعظم مراكز التصنيع قاطبة في المحيط الهندي. وقد صدرت منسوجات جوجارات القطنية ذات الألوان المتعددة؛ وخاصة منسوجات كامباي (كنباية) باتجاه الغرب إلى موانئ البحر الأحمر وأفريقيا، وباتجاه الشرق إلى إندونيسيا، إلى جانب خدمة السوق الداخلية الواسعة في الهند ذاتها.

لقد شقت قلة من المغامرين الأوربيين، معظمهم من الجنويين والبنادقة، طريقها إلى الهند قبل كوفيلهام، ولكن أيا منهم لم يقم بتقويم منهجي قصد به خدمة الأهداف التي وجهت إليها الطاقات البرتغالية الآن. وكان الالتزام بالسرية شديداً، وهكذا فإنه بينما

كان كوفيلهام يؤدي مهمته لحساب سادته في لشبونة عمد هؤلاء إلى ذر الرماد في عيني كريستوفر كولومبوس، الذي كان يتسكع من جديد حول البلاط البرتغالي، فأبلغ جون الثاني كولومبوس باكتشاف كبير توصل إليه بارتلميو دياز الذي كان قد أبحر عائداً إلى الوطن في كانون الأول/ ديسمبر من عام 1488، بعد الدوران حول ما سمي برأس الرجاء الصالح (لم يمض دياز في حقيقة الأمر إلا إلى مسافة قصيرة فيما وراء هذه الرأس، لأن الخوف والإرهاق استبدا برجاله فغلب عليهم النزوع إلى التمرد، ولكن تيار الأجولهاس القوي كان بالغ الدفء، بما يوحي أنه قد أقبل من الأقاليم الاستوائية). وتمثلت الأكذوبة المتعمدة التي تم إبلاغها لكولمبوس بغرض أن تنقل إلى إسبانيا سريعاً، في أن الرأس يقع عند خط العرض 45 درجة جنوب خط الاستواء، وكان هذا يحمل مبالغة تقدر بما يزيد على عشر درجات، بهدف الإيحاء بأن طريق الرأس المفضي إلى جزر الهند يبدو أطول مما هو عليه حقاً وأقل إغراء. وكان كولمبوس قد قدر من دون أن يحالفه الصواب في ذلك على الإطلاق، أن اليابان تقع على بعد يزيد قليلاً على أربعة آلاف ميل من أوربا، بالنسبة إلى سفينة تبحر غرباً، في رحلة دوران حول الكرة الأرضية، بينما المسافة إلى جزر الهند عن طريق أفريقيا يمكن أن تبلغ أربعة أمثال هذا التقدير.

انهمك البرتغاليون بلا حياء في الاحتيال؛ لأنهم بحلول هذا الوقت كانوا على استعداد للاعتقاد بأنه في مكان ما وراء جزر الآزور توجد كتلة برية، ليست بالصين ولا بالهند، ومن ثم يسرهم أن يمضي كولومبوس أو قبطان آخر غيره يعمل في خدمة إسبانيا للعثور عليها؛ لأن هذا من شأنه أن يعمل على تحسين الفرصة المتاحة أمام البرتغال لتحاشي خوض غمار القتال، والاستمتاع بثمار اكتشافاتها. فقد كانت البرتغال أصغر من أن تخوض غمار هذا السجال، وهي لا تستطيع تكبد نفقاته، بعد أن أهدرت بالفعل جانباً كبيراً من الثروة التي كسبتها من غربي أفريقيا في حروب متقطعة مع إسبانيا والمغرب.

لم يكن الخوف الذي ساد لشبونة، من نشوب الحرب مع منافستها الأيبيرية الكبرى إلا سبباً واحداً للعصبية السائدة فيها حول الخطوة التالية ذات التكلفة الباهظة؛ والمتمثلة

في إرسال أسطول إلى قلب المحيط الهندي مباشرة. فماذا يحدث إذا لم تستطع السفن الشراعية الصغيرة العودة دورانا حول رأس الرجاء الصالح بسبب الرياح المعاكسة؟ ماذا لو كان الأعداء المسلمون يسيطرون على كل الموانئ بحيث لا يستطيع البرتغاليون العثور على مكان يتزودون منه بالطعام والماء ويصلحون فيه سفنهم؟ وما مدى القوة التي ستكون عليها المقاومة أمام القادمين الجدد؟ كانت تلك أسئلة مثبطة للهمم. وعلى الجانب الإيجابي كان جون الثاني والمجموعة المحدودة من خلصائه الذين يثق بها، يعرفون أن في وسعهم تدبير قباطنة وأطقم بحارة على استعداد للمخاطرة بكل شيء، إذا كانت المكافآت جيدة بما فيه الكفاية.

لسوف يبحر هؤلاء الرجال طوال أسابيع عديدة من دون أن تقع أنظارهم على اليابسة، متزاحمين معاً وسط القذارة، مقتاتين بالبسكويت والنبيذ غير المستساغ ولحم البقر والخنازير المملح وما يمكنهم صيده من الأسماك، وكانوا مقاتلين على جانب كبير من الضراوة عندما تتاح لهم فرصة القتال. وطوّر البرتغاليون استخدام المدافع في البحر، بكفاءة لم يكن أحد يحلم بها قبل نصف قرن، وكذلك ركّبوا مدافعهم على مجار أو سكك، تمتص جانباً من صدمة الارتداد، وأمكن الآن للسفن الشراعية الصغيرة أن تطلق نيرانها من المدافع المنصوبة على جانبيها، من دون أن تتعرض لمخاطر الغرق، وتنطلق قذائفها فوق المياه على ارتفاع بسيط.

على الرغم من ذلك فقد ساور الملك شعور بعدم الارتياح ونفاد الصبر لرغبته في أن يعرف من كوفيلهام وبايفا ما إذا كان للراهب يوحنا ساحل مطل على المحيط الهندي. وحملت حملة دياز معها أربع زنجيات أسرن في غرب أفريقيا، وتم تدريبهن على الدعوة للقضية البرتغالية. وأرسلت إحدى هؤلاء النسوة إلى شاطئ ناميبيا الحالية، وأمرت بأن تبحث عن الراهب يوحنا، وحملت معها عينات من التوابل والذهب والفضة، بحيث يمكنها أن تسأل السكان عما إذا كانت هذه المواد متوافرة محلياً. وليست هناك سجلات تفيد أنها قد تلقت ردوداً مفيدة، وبحلول وقت دوران الحملة حول الرأس كانت إحدى النساء الثلاث الأخريات قد ماتت، ولكن المرأتين الأخريين أنزلتا إلى الشاطئ بالقرب من بعض نسوة الخوي (الهوتنتوت) اللواتي كن يجمعن

المحار. ويدخل ما حدث لهما في عداد المجهول كذلك، ولكن من المؤكد أنهما لم تتح لهما الفرصة للعثور على «الراهب يوحنا» المعتقد وجوده على مسافة ثلاثة آلاف ميل إلى الشمال.

أما بالنسبة إلى كوفيلهام فإن معرفة مدى اتساع نطاق أثيوبيا لم تكن ضمن واجباته، حيث إن هذه المهمة قد أسندت إلى بايفا، ولذا فقد شق طريقه من الهند إلى فارس، وأبحرت السفينة التي استقلها من كامباي (كنباية) عبر بحر العرب، مروراً بدلتا نهر السند إلى أن ألقت مرساتها في هرمز. وقد كانت هذه هي المدينة الجليلة التي روع حرها الشديد ماركو بولو قبل قرنين، وخلال الترحال عبر هذا الطريق، تمكن كوفيلهام من تقدير القيمة الاستراتيجية التي تحظى بها هرمز بحكم موقعها في مدخل الخليج العربي.

تتسم أجزاء عديدة من جولة كوفيلهام التجسسية بالغموض، ولا يمكن تجميع عناصر قصته إلا من الكتابات التاريخية البرتغالية التي تم تأليفها بعد ذلك بعدة عقود، ولكن يبدو أنه أبحر عائداً عبر المحيط الهندي من هرمز، وبقي بعض الوقت في القاهرة «حيث عرف بعض الأمور الأخرى». ويفترض أنه كان يأمل في لقاء بايفا هناك أو على الأقل أن تبلغه أنباء عنه، ويبدو أنه لم يكتشف أن بايفا قد لقي حتفه بالفعل، وعلى الرغم من نقص الأدلة، فإنه من المنطقي بالنسبة إلى كوفيلهام أن يكون قد حاول إرسال تقرير إلى لشبونة عن رحلاته حتى ذلك الوقت.

في نهاية عام 1489 سافر مجدداً، نزولاً في البحر الأحمر إلى ميناء زيلع. وفي هذه المرة فإن ساحل الزنج وميناء سفالة البعيد كانا هدفيه المنشودين، وقد عاش وسافر حتى الآن لمدة تزيد على عامين في هيئة عربي، ولذا لم تواجهه صعوبة في الانضمام إلى مجموعة من التجار العرب الذين عقدوا العزم على التجارة على امتداد الساحل الأفريقي.

تقدر المسافة من زيلع إلى سفالة ذهاباً وإياباً بما يزيد على خمسة آلاف ميل، وربما استغرقت هذه الرحلة أكثر من ستة أشهر مروراً بمقديشو وباتي (بته)[4]، وماليندي، وممباسا، وزنجبار، وكلوة، ومصب نهر الزامبيزي، إلى أن بلغ كوفيلهام أخيراً الميناء

النائي العتيق الذي تحدث عنه بزرك بن شهريار، قبل أكثر من خمسمئة عام مضت. وعلى الرغم من أن زيمبابوي الكبرى كانت قد أصبحت في ذلك الوقت مكاناً مهجوراً، فإن سفالة كانت ماتزال مزدهرة؛ لأنها خرجت عن نطاق سيطرة سلاطين كلوة ومضت تتاجر مباشرة مع السفن الآتية من الهند وشبه الجزيرة العربية. وقد كان هذا الميناء أحد الأماكن التي بدأ منها التجار العرب يغامرون بالانطلاق إلى داخل شرق أفريقيا ليشهدوا الأسواق التي تقام في المناطق القبلية على امتداد حافة هضبة زيمبابوي، كما ارتحلت سفن صغيرة صعوداً في الأنهار الرئيسة، لمقايضة البضائع بالذهب والعاج والنحاس.

لما كان كوفيلهام يعرف مدى شراهة بلاده للذهب، فلابد أنه درس بدقة إمكانيات السيطرة على سفالة. وعلى الرغم من قدمها، فإنها لم تكن بالمدينة التي تترك انطباعاً قوياً في النفوس، فليس فيها إلا عدد محدود من الدور المبنية بالحجر، ولم تكن بها دفاعات لأنها لم تتوقع قط التعرض لهجمات من الأعداء(7). ومما كانت له دلالته أنها ليست بجزيرة وأن التأثير العربي فيها أقل انتشاراً منه في أماكن مثل كلوة وزنجبار. وقد شكلت سفالة والمواني المجاورة لها وسطاء بين عالم المحيط الهندي ومجتمع البر الأفريقي، وعملت حسبما يروق للحكام الذين يسيطرون على الطرق التي تربط الساحل بمناجم ذهب زيمبابوي.

كانت طرق المحيط المفضية إلى سفالة حافلة بالمخاطر، فقد جثمت الصخور المرجانية والمياه الضحلة غير بعيدة عن الساحل واكتسحت الأعاصير البحر. وعلى مسيرة عدة أيام شرقاً عبر البحر كانت هناك جزيرة مدغشقر (التي يعرفها العرب باسم جزيرة القمر، ولكن الراهب مورو دعاها في خريطته باسم ديب) وأكثر إيغالاً إلى الجنوب تمتد خطوط عرض نادراً ما زارها العرب. وعلى الرغم من أنه ما كان يمكن لكوفيلهام أن يعرف ذلك، فإن النقطة التي اضطر عندها دياز على ساحل جنوبي أفريقيا أن يعود أدراجه قبل عامين، كانت تقع على بعد يزيد على ألف ميل من سفالة باتجاه الجنوب، وكانت تلك هي الهوة التي لم يتجاوزها أحد حتى ذلك الحين.

ولاحظ كوفيلهام أن الرياح الموسمية لاتزال تهب على سفالة، وإن جاء ذلك على نحو أشد غرابة مما هو عليه باتجاه الشمال. وهكذا فإنه في الشهر المحدد بشكل صحيح

من العام ستجد السفن المقبلة من الجنوب، من الرأس، أن من اليسير عليها أن تبحر إلى كالكوت. وقد أوجز فرناندو دي كاستانيدا، وهو أحد معاصري كوفيلهام، الاكتشافات التي توصل إليها هذا الأخير، فقد بات في استطاعته الآن أن:

«يبلغ الملك بكل ما شاهده على امتداد ساحل كالكوت، وبأخبار التوابل، ويحدثه عن هرمز وساحل أثيوبيا وسفالة والجزيرة الكبيرة، ويقول أخيراً إنه إذا قامت السفن الكارفل التي اعتادت على الإبحار إلى غينيا بمواصلة الإبحار على امتداد الساحل، وسألت عن تلك الجزيرة (كذا في الأصل) وعن سفالة (فإنها) يمكنها في يسر، أن تخترق هذه البحار الشرقية، وأن تصل إلى ساحل كالكوت، فقد كان الطريق يتواصل بحراً حسبما عرف».

لكي يرسل تقريره إلى الوطن، تعيّن على كوفيلهام أن يعود مجدداً إلى القاهرة، فانطلق من سفالة في حوالي منتصف عام 1490 مسافراً شمالاً إلى عدن على امتداد الطريق الساحلي الأفريقي. ولدى وصوله إلى مصر تلقى النبأ الذي كان من المؤكد أنه يتوقعه، فقد مات بايفا، ولابد أن رد فعله الغريزي كان يدعوه إلى العودة بكل ما يستطيع من السرعة إلى البرتغال ليسرد على مسامع جون الثاني كل ما اكتشفه. ولم يكن هناك رسول في القاهرة يمكن أن يمنحه ثقته، وهكذا فإنه إذا مات بدوره فإن هدف الرحلة بأسره سيكون قد ذهب أدراج الرياح.

في هذه اللحظة، وبينما كان كوفيلهام يتأهب للانضمام إلى فريق من التجار، في طريقه إلى الإسكندرية، «تلقى نبأ يفيد بأن تاجرين يهوديين برتغاليين يبحثان عنه». وكانا يبحثان سراً في كل أرجاء القاهرة. «وتعرف بعضهم على البعض الآخر ببراعة هائلة». والمقصود كوفيلهام في تنكره كتاجر مسلم، والعميلان اليهوديان؛ وأحدهما يدعى الحاخام إبراهام، والثاني صانع أحذية يعرف باسم يوسف اللاميجوي. ولاشك في أن أدلة تثبت الهوية قد تبادلها الطرفان كالمعتاد، وذلك من خلال نطق عبارات متفق عليها حفظت عن ظهر قلب، ثم تم تسليم كبير الجواسيس رسالتين من الملك.

على الرّغم من أن اليهود كان في وسعهم السفر بحرية في الدول العربية، فإن يوسف اللاميجوي لم يكن صانع أحذية عادياً، فهو قد زار بغداد من قبل، وحدث

الملك البرتغالي عنها في لقاء جمعهما وجهاً لوجه. وأعلن الملك عن سعادته بالمعلومات التي جمعها يوسف كذلك عن ميناء هرمز الفارسي.

الآن تغيرت خطط كوفيلهام، فقد ذكرت الرسالتان الموجهتان إليه وإلى بايفا، أنهما إذا كانا قد نفّذا كل المهام التي أسندت إليهما فإن عليهما العودة إلى الوطن، حيث «سيتلقيان العديد من ألوان التكريم». وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن عليهما أن يبذلا قصارى جهديهما لإكمال إنجاز مهامهما، وبصفة خاصة لابد لهما من أن يزورا الراهب يوحنا في أثيوبيا. وذكرت رسالتا الملك كذلك أن الحاخام إبراهام يريد زيارة هرمز. وهكذا فإن كوفيلهام، بدلاً من العودة إلى البرتغال (حيث كانت له زوجة وأسرة) كتب تقريراً عن المحيط الهندي، ثم سلمه إلى يوسف مع الخريطة التي طال الانتقال بها. وبدأ صانع الأحذية رحلة العودة إلى لشبونة بينما انطلق كوفيلهام والحاخام في الاتجاه المقابل في طريقهما إلى هرمز[8].

بعد مرافقة الحاخام إبراهام إلى هرمز، أبحر الجاسوس الذي لا يعرف التعب سبيلاً إليه، معه عائدين إلى عدن، وهناك افترقا فمضى الحاخام قدماً إلى البرتغال؛ ليقدم تقريره إلى الملك، بينما يشير تحرك كوفيلهام التالي بقوة إلى أنه أصبح الآن مدمناً على الشرق وعلى الإثارة التي تصاحب حياة التجوال؛ لأنه قرر أنه لابد له قبل الذهاب إلى أثيوبيا من أن يشاهد مكة. ولم يكن ذلك قط جزءاً من التلقين الذي قام به الملك، وهو يعهد إليه بمهمته، لكنه ارتدى ثياب الإحرام وحلق رأسه ونجح في الانضمام إلى مجموعة من الحجيج، كانوا في طريقهم إلى المدينة المقدسة. وانطلاقاً من مكة زار المدينة وجبل سيناء قبل الوصول إلى أثيوبيا أخيراً عن طريق ميناء مصوع المطل على البحر الأحمر.

بعد أن ولج هذه الأرض الجبلية التي تعد قاعدة منعزلة للمسيحية يحيط بها المسلمون من كل جانب، قيل له إنه لن يكون في وسعه أن يغادرها أبداً. وكانت تلك قاعدة فرضها الأثيوبيون على كل من ولج أرضهم حماية لأسرار دفاعاتهم، وحتى براعة كوفيلهام لم تجد في اختراق هذه القاعدة؛ فاستسلم للقدر فيما يبدو، وأصبح صديقاً مقرباً من هيلينا إمبراطورة أثيوبيا العجوز التي حرصت على تزويجه ومنحه

مساحات واسعة من الأراضي، فاستقر هناك ليعيش حياة النبلاء الأثيوبيين بعيداً عن مكائد البلاط البرتغالي.

بعد ثلاثين عاماً سيجد راهب برتغالي هو فرانشيسكو ألفاريز كوفيلهام على قيد الحياة في أثيوبيا. «إنه رجل يعرف كل اللغات التي يمكن الحديث بها، سواء أكانت لغات المسيحيين أو المسلمين أو الأحباش أو الوثنيين، وهو يعرف كل ما أرسل (من قبل الملك) لمعرفته، وهو يتحدث عن هذه الأمور كأنها ماثلة أمامه». وكان إعجاب ألفاريز بكوفيلهام العجوز بلا حدود «فلم يكن له نظير» في بلاط الراهب يوحنا.

الفصل السابع عشر

ملوك وآلهة في مدينة النصر

ثلاث مرات في العام يقيمون مهرجانات تحظى بإجلال خاص، وفي إحدى هذه المناسبات، يرتدي الذكور والإناث من كل الأعمار، بعد الاستحمام في الأنهار والبحر، ملابس جديدة ويمضون ثلاثة أيام كاملة في الغناء والرقص والاحتفال. . . وهناك ثلاثة أيام أخرى يُحتفل بها، يشرون خلالها على المارة، حتى الملك والملكة ذاتهما، ماء الزعفران الموضوع لهذه الغاية على جانب الطريق. ويتلقى الجميع هذا بمزيد من الضحك.

نيكولو دي كونتي - في وصف الحياة في فيجايانجارا (حوالي 1420)

على الرغم من أن بيرو دا كوفيلهام قد أبحر مرات عديدة عبر المحيط الهندي، فإنه لا يحتمل أن يكون لديه أكثر من أفكار غامضة عن شكله واتساعه، فقد كانت المسافة في البحر تقاس بعدد الأيام أو الأسابيع التي استغرقها الإبحار من ميناء إلى آخر، تماماً كما أن مدى اتساع مملكة ما في البر كان يقدر، على أفضل نحو، بمدى أو طول الفترة التي يمكن أن تستغرقها الجيوش، قبل أن تقف وجها لوجه أمام أعدائها. وظل رسم الخرائط مهارة تفتقر إلى الدقة، ولم يكن في وسع كوفيلهام قبل أن يحتجز داخل أثيوبيا، أن يتفهم الكثير عنها، ومدى اتساعها حقاً أو أين تقع حدودها. وتشير التحركات التالية، من جانب مواطنيه، إلى أنه لم يقدر له قط أن يبلغهم بأن «إمبراطورية الراهب يوحنا» كانت أرضاً داخلية لا ساحل لها، وأنها لا تطل على المحيط الهندي كما ظلوا يتخيلون منذ عهد بعيد.

لسوف يحتاج البرتغاليون إلى وقت طويل لاستيعاب جغرافية الشرق، ومع ذلك فقد كانت هناك حقيقة واحدة حول هذه الجغرافية لم يكن من الممكن أن تساورهم الشكوك بشأنها، وتمثلت هذه الحقيقة في قوة الإسلام، الدين الذي عقدوا العزم على القضاء عليه، فقد حظي بالقوة والمنعة في كل مكان مضى إليه كوفيلهام تقريباً، وضم

تحت لوائه العديد من الأعراق (الأمر الذي جعل من الأيسر بالنسبة إليه أن يفلت من كشف أمره وهو متنكر بهيئة تاجر مسلم). وقد ساد الإسلام المحيط الهندي من البنجال إلى كلوة، ومن عدن إلى سومطرة وما وراءها. وقد رآه الزوار السابقون الذين قدموا من الغرب؛ مثل ماركو بولو وابن بطوطة، وهو يمضي قدماً إلى الأمام، أما الآن فقد اكتملت هذه العملية تقريباً.

اعتصمت المسيحية بجبال أثيوبيا وفي جيوب محدودة من مواضع أخرى، لكن الهندوسية[1] كانت الخاسر الكبير، حيث خضعت أجزاء كبيرة من شمال الهند لحكم المسلمين لما يزيد على مئتي عام، ومضت أقدم حضارة في المحيط الهندي تتراجع أمام أحدث الأديان السماوية. وامتداداً إلى إندونيسيا التي سادتها الهندوسية طوال ألف عام، جرى استئصالها في جميع الجزر المأهولة البالغ عددها ستة آلاف جزيرة، باستثناء جزر لا يزيد عددها على عدد أصابع اليدين.

كانت للإسلام بطبيعته مزايا عديدة في هذا السياق؛ حيث إنه يدعو إلى الإيمان بإله واحد أحد، يسبِّح له من في السموات ومن في الأرض. وبالمقابل فإن الهندوسية تدعو إلى عبادة آلهة متعددة. وانعكست تعددية الآلهة المعقدة هذه داخل المجتمعات وفي نفوس الأفراد. وعبر القرون كان ملوك الهند قد حارب أحدهم الآخر مستخدمين كتائب من الخيالة والفيلة، ولكن جيوشهم كانت غير مؤهلة للتصدي للفاتحين المسلمين. وقد أكد المسلمون أن الناس سواسية كأسنان المشط، بينما مزق نظام الطوائف الهندوسية إربا. وفي عهود السلام اكتسب الإسلام إلى صفوفه جموع الهاربين من طغيان نظام الطوائف. وفي الحروب توحد المسلمون بحكم تيقنهم من أمجاد الاستشهاد.

على الرغم من أن البوذية[2] قد كفَّت منذ عهد طويل عن أن تكون دين الهند، فإنها لم تبق إلا على الأطراف في سيلان وممالك الهيمالايا، وكانت الهندوسية تشترك معها في أحد معتقداتها الجوهرية وهو "الأهيمسا» (ahimsa)، أو اللاعنف[3]. فالكثير من الهنود لم يظهروا حماساً للقتال، وكانوا يعتقدون أن من الأفضل ترك شأن الحرب

للجنود المحترفين، أو طبقة الكشاتريا (Kshatriya)[4] التي تضرب جذورها في الماضي البعيد. فقد غمرت الهندوسية الذكريات، واحتفت القصائد الملحمية بالإمبراطوريات التي فنيت منذ عهود بعيدة في السهول الشمالية التي أقبلت إليها جموع سايروس الفارسية، والإغريق بقيادة الإسكندر ورحلت عنها. وعلى الرغم من ذلك كله، فإن الهندوس لم يكن في وسعهم أن يغمضوا أعينهم على واقع القرنين الماضيين[5]، [6].

في نهاية القرن الخامس عشر كانت الهندوسية تتشبث بخط دفاعي عند «خاصرة» شبه القارة، على امتداد نهر كريشنا الذي يتدفق شرقاً ليصب في خليج البنجال. وإلى الغرب امتدت الجبال الموازية للمحيط الهندي، والتي تشكل حاجزاً ضد أي محاولات لتجاوز الخط النهري. وحتى «الدكان» (Deccan) أو الهضبة الوسطى لشبه القارة تم التخلي عنها للإسلام، ولم يبق إلا مثلث الجنوب الآخذ في التقلص.

أيا كان مدى سوء الاحتمالات المطروحة، فإن الهندوسية وجدت أمامها فسحة تلتقط فيها أنفاسها، وذلك بسبب اضطراب في صفوف أعدائها. فقد اهتم السلاطين المتنافسون بالاقتتال فيما بينهم بأكثر مما اهتموا بالزحف على الجنوب، وعندما زحفوا نحوه بالفعل أدت قسوتهم إلى توحيد كل الهندوس ضدهم، وكان أحمد شاه أشهرهم، وقد حكم هضبة «الدكان» في أوائل القرن الخامس عشر، ولم تقتصر أعماله الوحشية على الهندوس وحدهم على نحو ما بدا جلياً عندما أمر بدس السم لأخيه الأصغر وخنقه.

وإذ ضاق المتصوفون والفلاسفة المسلمون والهندوس على حد سواء بدورات العنف التي لا تنتهي، وبوضع السيف على أعناق أهل مدن بكاملها، فقد شرعوا في البحث عن أسلوب للتوفيق بين دينين مختلفين على نحو بالغ العمق؛ وكان من أبرز دعاة التوفيق شخص يدعى «كبير» وهو شاعر مسلم ولد في حوالي عام 1440، وقد جرؤ على انتقاد العديد من المظاهر والمعتقدات في الدينين، بما في ذلك الأهمية التي ينظر فيها الدين الإسلامي للقرآن الكريم (الكتاب المقدس) ولفريضة الحج لبيت الله الحرام. وفيما يتعلق بالهندوسية فقد شجب عبادة الأصنام ونظام الطوائف؛ فقد كان

كبير في آن واحد من متصوفة المسلمين ومن تلامذة الناسك الهندوسي رامانندا، وهكذا فإنه بالنسبة إليه لم يكن الله وراما إلا اسمين مختلفين لإله واحد[7]. وقد دعا أتباعه إلى السعي إلى ديانة عالمية يقبلها الناس من كل الأجناس. وكان من معاصري كبير المعلم ناناك الذي شدد بصورة مماثلة على أنه ليس هناك إلا إله واحد، وقد أفضت تعاليمه إلى إيجاد ديانة جديدة تماماً هي السيخية[8].

غير أن مثل هذه الأفكار لم يكن لها أن تبزغ إلا خارج نطاق الديانة الهندوسية، التي تخللت كل جانب من جوانب الحياة وما كان يمكن أن تتغير أبداً، وحتى خلال المرحلة الأخيرة من الصراع مع الإسلام تم الإعراب عن الثقة في الهندوسية، من خلال إنشاء مدينة يمكن أن تحظى بتقدير جنوب الهند المحاصر بأسره. ولم تكن هذه المدينة عاصمة عادية وإنما هي رمز لآخر إمبراطورية هندوسية وقلعة لها. وقد أسّست المدينة التي تحلى من شادوها بالشجاعة فدعوها فيجايانجارا، أو مدينة النصر، في عام 1336. وصممت على نطاق واسع يدخل الرهبة في النفوس، حيث إنها ستضم بين من تضمه الآلهة والملوك وكذلك نصف مليون من المخلوقات الأقل شأناً[9].

شمخت فيجايانجارا على الضفة الجنوبية لنهر تونجابهادرا في أرض تتخللها الصخور والتلال الجرانيتية التي كانت بمنزلة الحد الغربي للخط الدفاعي الهندوسي، واعتمد الراجات الذين حكموا هناك في جانب كبير من قوتهم العسكرية على دعم الممالك الهندوسية الممتدة في الداخل والمترامية جنوباً نحو سيلان، وكان في وسعهم في أوقات الحرب حشد مليون رجل في ساحة القتال. ولم تكن تلك إمبراطورية شكلتها قوة مركزية وإنما إمبراطورية دفعتها ديانة إلى رحاب الوجود.

وكانت أقرب نقطة على الساحل إلى فيجايانجارا هي جوا (كوة) الواقعة على بعد مئة وخمسين ميلاً إلى الغرب منها، ولكنها كانت قد سقطت في أيدي المسلمين في القرن الخامس عشر، وهكذا فإن حلقات الوصل الرئيسة مع العالم الخارجي امتدت عبر كالكوت وغيرها من مواني ساحل المالبار، الواقعة في مناطق أكثر إيغالاً باتجاه الجنوب. كما اعتمدت مدينة النصر كذلك على الريف الواقع وراء ساحل المالبار

للحصول على الأرز وغيره من الأطعمة. فقد كانت أرض المالبار أخصب أراضي الهند بسبب الأمطار الغزيرة التي تجلبها إليها في كل عام الرياح الموسمية الجنوبية-الغربية.

أول وصف قدمه أجنبي لمدينة النصر هو ذلك الذي طرحه جوّاب الآفاق البندقي نيكولو دي كونتي، حيث يقول إن فيجايانجارا (التي دعاها باسم بزنجاليا) يبلغ محيطها ستين ميلاً، وبها حامية قوامها تسعون ألف جندي، ولكنه يقدم تفاصيل محدودة عن تصميمها. ويدور جانب كبير من ذكرياته على نحو ما سجلت بعد عشرين عاماً في روما حول زوجات الراجا، البالغ عددهن اثنتي عشرة ألف زوجة، وممارسة السوتي في أعقاب وفاة العاهل، والحماس الذي يضحي الناس به بأنفسهم تحت عجلات العربات التي تحمل تمثال إله[10].

يتمثل ما هو أكثر أهمية من ذلك في الرواية التي أوردها شاهد عيان يدعى عبدالرزاق، وهو سفير بعث به البلاط الفارسي في عام 1442 إلى جنوب الهند، وقد مضى في البداية إلى كالكوت. وهناك وصلته رسالة تفيد أن راجا فيجايانجارا يريد مقابلته، وهو يوضح أن كالكوت لم تكن خاضعة لقوانين فيجايا نجارا، ولكن حاكمها كان يحترم سلطتها ويهابها. وبعد رحلة استغرقت شهراً بحراً وبراً وصل السفير إلى المدينة العظيمة، وقد كانت من الضخامة بحيث أن «بؤبؤ العين لم يقع من قبل على مكان مثلها قط، وأذن اللبيب لم تسمع من قبل قط بأنه قد وجد لها نظير في الدنيا». وكانت هناك سبع قلاع تحيط بها سبعة أسوار، وقدر السفير أن عرض المدينة يبلغ سبعة أميال. وبين الأسوار الخارجية كانت هناك حدائق وبيوت، بينما إلى الداخل باتجاه القصر الملكي كانت هناك أحياء كثيفة السكان.

«وفي المسافة الممتدة من السور الثالث إلى السابع، يقابل المرء حشوداً لا حصر لها من الناس والعديد من المحال وسوقاً. وقرب قصر الملك توجد أربع أسواق، إحداها قبالة الأخرى. . . وفوق كل سوق انعقد سقف عال قائم على أعمدة مقنطرة، مشكلاً بهواً بديعاً. . . وتباع الورود في كل مكان، فهؤلاء الناس لا يطيقون العيش من دونها، وهم ينظرون إليها باعتبارها ضرورية كالطعام. . . وكل طبقة من الرجال تنتمي إلى

مهنة واحدة لها حوانيت متجاورة، أحدها يحاذي الآخر، والصاغة يبيعون في الاسواق اللآلئ والياقوت والزمرد والألماس. وفي هذا الموقع الملائم وكذلك في قصر الملك يشاهد المرء العديد من الغدران والقنوات الجارية المشكلة من الحجر المنحوت والمصقول ناعم الملمس».

لقد وجد عبدالرزاق نفسه في مدينة صممت وفقاً للمفهوم الدائري للمندالا أو هيكل الكون[11]، وحددت الشاستر ا أو الكتابات السنسكريتية القديمة[12] مخطط امتدادها؛ حيث يوجد لها مركزان أحدهما مقدس والآخر ملكي، وقد ازدانت بالمعابد والتماثيل والقصور. وأعظم المعابد حيث يتعبد الراجات كسي بالنقوش البارزة، وكرّس لراما إله الأسطورة البطولية. وكان معبد راما أشبه بمركز دائرة، حيث تلتقي الطرق معاً، وأحيت الطرق المجاورة للنهر الواقع عند حافة المدينة بعض العناصر الواردة في قصة الرامايانا[13]. وحسب المعتقد الهندوسي فإنه من هذا المكان انطلق راما لإنقاذ زوجته سيتا من قبضة "الهولة رافانا"، وفي تجواله تلقى العون من مساعد موال له، هو القرد هانومان، الذي كُرّم في نقوش مدينة النصر البارزة (لاتزال المنطقة بأسرها أحد المراكز الرئيسة لعبادة هانومان في الهند).

وقام بالترفيه عن سكان فيجايانجارا، البالغ عددهم نصف مليون نسمة في مهرجاناتهم الدينية عازفون موسيقيون ورواة قصص وحواة وراقصون، وجنود يبارز بعضهم بعضاً بالسيوف. وبينما كان السفير في المدينة دعا الراجا الملوك والقادة من كل أنحاء الإمبراطورية إلى المثول في قصره؛ فقدموا مصطحبين 1000 فيل محارب عليها الدروع المتألقة، وقد علت ظهورها أبراج كالقلاع، فكان مشهداً أثار حماس شاعرات الإمبراطورية المحاربات، وهن نسوة جمعن بين المهارات الأدبية والشجاعة في الحرب.

كانت المدينة مركزاً تجارياً عظيماً كذلك، بحيث إن طوابير الثيران المثقلة بحمولاتها كانت تذرع شوارعها العريضة جيئة وذهاباً[14]. وعلى امتداد أحد هذه الشوارع كانت هناك منحوتات تصور الأسود والنمور والفهود وغيرها من الحيوانات، تعلوها منصات حجرية «وقد وضعت عروش ومقاعد فوق هذه المنصات، وأجلست عليها المحظيات

وقد ارتدين الثياب البديعة وتزين بالجواهر». وفي وقدة حر النهار كان نبلاء فيجايانجارا يمضون الساعات في اللهو في الحمَّامات العميقة.

قبل أن يغادر عبدالرزاق المدينة استقبله الملك ديفا راجا الثاني (وكلمة «ديفا» تعني «الإلهي») وبعد اجتياز قاعات كسيت جدرانها وأسقفها بذهب «سميك كنصل السيف»، ورصعت بالجواهر، وسمرت بالمسامير الذهبية، وقعت عيناه على عرش الراجا الهائل. وكان هذا العرش بدوره من الذهب، و«قد رصع بالأحجار الكريمة ذات القيمة الباهظة».

ربما كانت لدى البرتغاليين فكرة غامضة على الأقل عن مذكرات نيكولو دي كونتي عن أنه توجد في الهند مدينة يمتلك حاكمها ثروات طائلة، ويقود جيشاً كثيف الجند، وهو عدو لدود للإسلام. وفضلاً عن ذلك فإن راجات فيجايانجارا المتحلين بالجواهر كانوا يشبهون على نحو ملحوظ يوحنا الراهب على نحو ما ورد في أسطورة ماندفيل، فقد كانت لدى كل منهم جيوش جرارة وثروة تبدو بلا حدود. وكان لدى إمبراطورية فيجايانجارا الكثير مما يرشحها لتغدو حليفاً طبيعياً.

غير أن الحكايات التي تأخذ شكل الشذرات عن مدينة النصر ما كان يمكن أن تنافس كل الأدلة التي مضت لشبونة تجمعها حول «ساحل الفلفل» وميناء كالكوت العظيم. ووفقاً لما قاله نيكولو دي كونتي، فإن هذا الميناء كان «مركزاً تجارياً نبيلاً» للهند بأسرها، وتوجهت كل أفكار البرتغاليين إليه، ولم يكونوا يدركون بعد إلى أي مدى كان حاكم كالكوت ألعوبة في أيدي التجار المسلمين الذين استقروا في مدينته.

الفصل الثامن عشر

داجاما يدخل المحيط الإستوائي

إن ما ميز قباطنة أوربا وملاحيها ومستكشفيها هو أنه كانت في حوزتهم سفن وقوة نيران يحققون بها طموحاتهم، وأنهم جاؤوا من بيئة سياسية سادها التنافس والمخاطرة وأنشطة متسمة بالمغامرة.

بول كنيدي - **«نشأة القوى العظمى وسقوطها»** (1988)

عندما دار بارتلميو دياز حول رأس الرجاء الصالح، أعد الساحة لبروز بلاده باعتبارها قوة عالمية، وقد بدا على نحو غريب أن البرتغال ترددت طوال عقد من الزمن قبل أن تخطو الخطوة النهائية. وقد برهن دياز على صحة ما أورده كوفيلهام في تقريره من أن «الطريق يتواصل بحراً من جنوب أفريقيا وحتى الهند. ولقد كان الطريق إلى الشرق مفتوحاً»، ولكن في النصف الأول من تسعينيات القرن الخامس عشر الذي قام خلاله كولومبوس بالإبحار مرتين عبر الأطلسي بدا أن البرتغاليين لم يفعلوا شيئاً، والحقيقة أنهم فعلوا الكثير سراً.

وكما أنه من المحتمل أن يكون هناك أوربيون آخرون قد وصلوا إلى أمريكا قبل كولومبوس، فإنه لا يدور شك كبير حول أن رحلات برتغالية تم القيام بها إلى المحيط الهندي من دون تسجيل لها، بين عودة دياز إلى لشبونة في عام 1488، وبداية رحلة فاسكو داجاما التاريخية في عام 1497. وتكمن المؤشرات في السجلات البرتغالية حيث يحتفظ بالأوامر الملكية الصادرة بتسليم بسكويت السفن والمسامير الصغيرة القصيرة الصلبة لأطقم السفن الشراعية الصغيرة. ومن عام 1488 فصاعداً، كانت هذه الشحنات تغطي ثمانين رحلة منفصلة، ولكن غالباً ما لا يكشف عن مقصد السفن. وهكذا فإنه في آب/ أغسطس 1489، أي بعد تسعة أشهر من عودة دياز، صدرت أوامر متعاقبة من الخزانة الملكية تتعلق بأربعين طناً وستين طناً من هذا النوع من البسكويت، وكل شحنة منهما كافية لتموين سفينتين شراعيتين صغيرتين لرحلات تمتد عاماً ونصف

العام أو ما يزيد، وقد استغرقت رحلة دياز هذا الوقت على وجه الدقة. وأشارت التعليمات المرافقة لأمر تسليم ستين طناً من البسكويت على نحو غامض إلى أنها ينبغي أن تسلم إلى «من يحدده جلالة ملكنا»[1].

إن الخبرة المكتسبة في مثل هذه الرحلات السرية هي وحدها التي تفسر الثقة، التي أبحرت بها سفن فاسكو داجاما باتجاه الجنوب الغربي عبر المحيط الأطلسي، بعيداً عن مرأى البر على امتداد ثلاثة أشهر، ثم انعطفت باتجاه الجنوب الشرقي، مع الرياح التجارية المندفعة في أشرعتها، وتقوم - بالاستعانة بجداول البحاثة زاكوتو المدرجة في كتابه «قواعد الأسطرلاب» - ببلوغ اليابسة بدقة على بعد حوالي مئة ميل إلى الشمال من رأس الرجاء الصالح. وكانت تلك انطلاقة بحرية امتدت لمسافة أربعة آلاف وخمسمئة ميل بلا توقف، ولا مثيل لها في حوليات السفر البحري الأوربية. وكان الطريق مختلفاً تماماً عن ذلك الذي تم المضي فيه قبل عشر سنوات بسفن بارتلميو دياز التي بقيت قريبة من الساحل الأفريقي، والتي شقت طريقها بمشقة صوب الجنوب ضد رياح معاكسة تعترضها.

وقد قيل إن فاسكو داجاما قد اختير لقيادة هذه الحملة التاريخية لأنه كان «محنكاً فيما يتعلق بالأمور البحرية»، ولكن ما من رواية قدر لها البقاء لتحدثنا عن أي جانب من جوانب هذه الحنكة، عدا رحلة قصيرة قام بها داجاما لأسر بعض السفن الفرنسية، قبالة الساحل البرتغالي في عام 1492. وتصادف كذلك أن كل السجلات المتعلقة بالخزانة الملكية البرتغالية مفقودة بالنسبة إلى السنوات 1493-1495. ولابد أن الافتراض المنطقي هنا هو أن فاسكو داجاما قد تعلم «الأمور البحرية» من خلال قيادته لإحدى تلك الرحلات الطويلة السرية غير المسجلة، خلال العقد الذي بدا متسماً بالجمود بعد وصول دياز إلى الرأس.

ثمة وثيقة تحكي القصة من جانب المحيط الهندي، في أرجوزة نظمها في عام 1500 الربان أحمد بن ماجد[2] تعرف بالأرجوزة السفالية[3]، وهي في جانب منها دليل إلى ساحل شرقي أفريقيا، ولكنها تصف كذلك وصول البرتغاليين[4].

يوافق عام 900 هجرية بالتقويم الميلادي قسماً من عامي 1495 ـ 1496، أي قبل عامين من رحلة فاسكو داجاما الشهيرة، وعيد كبير الملائكة ميكائيل (وهو مهرجان مسيحي محض، ولكن ابن ماجد كان عارفاً به) احتفل به في 29 أيلول/ سبتمبر، عندما غيَّرت الرياح الموسمية اتجاهها إلى الاتجاه المقابل.

هكذا تشير أرجوزة ابن ماجد السفالية إلى أن البرتغاليين الذين لا عهد لهم بأنماط حركة الرياح في المحيط الهندي، لم يرتادوا الطريق إلى الشرق من دون أن يتكبدوا خسائر، ولم يكشف النقاب عن تلك الحقيقة في البرتغال قط، غير أن ابن ماجد لابد أنه قد عرفها، وذلك بسبب التعاملات عن قرب التي أجراها في وقت لاحق مع «الإفرنج»[5].

هناك أسباب أخرى تقف وراء هذا التأجيل الطويل للحملة الحاسمة التي من شأنها أن تجعل البرتغاليين يكسبون الكثير أو يخسرونه؛ وأحد هذه الأسباب هو الحاجة إلى «تقسيم العالم» بين البرتغال وإسبانيا بعد عودة كولومبوس من الكاريبي في عام 1493، فعندما يحدث ذلك يمكن للبرتغاليين أن يشعروا بأنهم محميون من طعنة في الظهر يوجهها لهم جيرانهم الكبار. وللدفع باتجاه مثل هذا الاتفاق كان جون الثاني قد هدد في نيسان/ إبريل من عام 1493، أي بعد شهر من عودة كولومبوس، بإرسال أسطول كبير للمطالبة بكل الأراضي الواقعة إلى الغرب من جزر الأزور لأن إسبانيا قد «تعدت على الحقوق البرتغالية». وقد نجحت هذه الخديعة في إحداث التأثير المطلوب منها، ووافق فرديناند وإيزابيلا ملكا إسبانيا على التصالح مع البرتغال، وقد كان في وسعهما أن يكونا كريمين بعد انتزاعهما غرناطة من أيدي مسلمي الأندلس، وعودة كولومبوس الظافرة[6].

كانت النتيجة صدور حكم من البابا، تم تجسيده في معاهدة توردزيلاس (الموقعة في حزيران/ يونيو عام 1494)[7]. وكان الخط الفاصل الذي تم الاتفاق عليه هو دائرة خط الطول، المارة على بعد ثلاثمئة وسبعين فرسخاً إلى الغرب من جزر كيب فيردي (الرأس الأخضر). وكل ما يقع فيما وراء ذلك - أي الأراضي التي اكتشفها كولومبوس

حديثاً - تستغلها إسبانيا، وكل العالم الواقع إلى الشرق من «خط البابا» يذهب إلى البرتغال، وهو ما يضم أفريقيا والمحيط الهندي بأسره.

وصدرت الأوامر الآن ببناء العديد من السفن المتميزة، وكان لابد من أن تصمم للقيام برحلة أطول من أي رحلة تم تسجيلها في تاريخ أوربا. وتم قطع أخشاب اختيرت بمزيد من العناية لصنع أبدان السفن وأرسلت إلى لشبونة، حيث كلف بارتلميو دياز القبطان الذي دار حول رأس الرجاء الصالح بتولي مسؤولية كل الاستعدادات، وقد حمل هذه المهمة محمل الجد فصمم سفينتين قويتين تتخذ أشرعتهما وصواريهما شكل المربع، وتفوقان في الحجم السفن الشراعية الصغيرة المعروفة بالكارفل.

وكانت هاتان السفينتان (اللتان سيطلق عليهما اسم الناوس) مريحتين بشكل أكبر بالنسبة إلى أطقم البحارة، وإذا تم الوصول إلى الهند فإن عنابرهما ستكون لها طاقة أكبر للعودة بالتوابل والكماليات الشرقية الأخرى. وزودت السفينتان باحتياجاتهما بغض النظر عن التكلفة. وأصر دياز على أن تكون كل أجزاء السفينتين قابلة لتبادلها فيما بينهما، وأن يكون لكل سفينة طاقمان كاملان من الأشرعة والدّقلات. وكانت سفينة القيادة قلعة عائمة مزودة بعشرين مدفعاً وقوية البناء بحيث تتحمل ضغط إطلاق النيران من الجانبين، وزودت كل سفينة بمدافع تعمل بفتيل الإشعال، وبمدافع صغيرة تمسك باليد وتتميز بفاعليتها في القتال على مدى قريب.

لم يقدَّر للملك جون ذي الطموح الكبير إلى تحقيق المجد لأمته أن يرى هاتين السفينتين وهما تنطلقان في البحر؛ ففي نهاية عام 1494 كان قد أصابه مرض الاستسقاء، وتوفي بعد تسعة شهور[8]. كما كان ابنه ووريثه أفونسو قد مات، بعد سقوطه عن صهوة جواده، وهكذا أعقب جون في الجلوس على العرش شقيق زوجته مانويل الحسود المزهو بنفسه، والذي كان أحد أعضاء المجموعة التي لقنت كوفيلهام وبايفا سراً تفاصيل مهمتيهما قبل سبع سنوات.

وقد ساورت مانويل رغبة عارمة في غزو المحيط الهندي، ولكن كانت هناك مهمة أكثر إلحاحاً لابد من إنجازها أولاً تدور حول يهود البرتغال ومسلميها. وقبل ثلاث

سنوات، قدم فرديناند وإيزابيلا مثالاً يمكن أن يحتذى؛ فقد تم القيام بنفي كل من ليسوا مسيحيين إلى خارج الأراضي الإسبانية، بمن فيهم الذين عاش أسلافهم في البلاد عدة قرون. وهرب مئات الألوف منهم، يهوداً ومسلمين على السواء، إلى رحاب الأمان في الأراضي التي تخضع لحكم الأتراك العثمانيين. وهرب مئة ألف يهودي على الأقل - أي ما يعادل عشر عدد السكان في ذلك الوقت - إلى البرتغال. وقد تزوج ملك البرتغال الجديد مانويل من الأرملة الشابة التي تركها الأمير التعس أفونسو وراءه بعد موته. وكانت ابنة حاكمي إسبانيا العتيدين اللذين تمثل شرطهما الوحيد للموافقة على هذا الزواج في أن تطبق البرتغال هذه القواعد الدينية عينها.

وهكذا فقد صدر مرسوم في عام 1496، يقضي بأن كل يهودي ومسلم لم يتم «تعميده ليدخل الدين المسيحي» ينبغي أن يغادر البرتغال في غضون عشرة شهور. وانطبق هذا المرسوم على كل من اللاجئين من إسبانيا، وغير المسيحيين المستقرين في البرتغال بصورة دائمة؛ من أطباء وتجار وحرفيين. وتعين أن يتم بالقوة تعميد كل الأطفال اليهود والمسلمين الذين تقل أعمارهم عن الرابعة عشرة، وتم جر الكثيرين منهم وهم يصرخون إلى الكنائس ليتم تعميدهم في الحفل المقام لذلك. واختار الألوف من اليهود أن يتم تعميدهم هم أنفسهم، خوفاً من ألا يروا أولادهم مرة ثانية، إذا لاذوا بالهرب إلى بلد آخر. وقد عرفوا باسم «المسيحيين الجدد» واتخذوا أسماء برتغالية، غير أن ذلك لم يكسبهم القبول، فقد أطلق عليهم على نحو تقريعي اسم «المسيحيون بالإكراه».

وبغض النظر عما ارتبط بهذه الأحداث من بؤس إنساني، فقد سببت اضطرابات في تجارة لشبونة. غير أنه كانت هناك فوائد مباشرة لمانويل (الذي عرف بلقب «المحظوظ») لأن ممتلكات وأعمال اليهود والمسلمين الذين تم نفيهم قد صادرتها جمعية المسيح التي كانت أداة للعائلة المالكة البرتغالية منذ عهد الأمير هنري. وكانت هناك مفارقة في هذه الإجراءات، حيث إن الباحثين غير المسيحيين قد فعلوا الكثير لمساعدة الملاحين البرتغاليين في شق طريقهم عبر البحار المفتوحة. غير أن معظم متعلقات نشاط الأعمال المصادرة تم تأجيرها لإيطاليين من فلورنسا، وهكذا توافرت للخزانة الملكية

أموال جاءت في وقتها، حيث كان مانويل بحاجة إلى المال بصفة خاصة لتمويل الحملة التي سيقودها فاسكو داجاما.

بحلول الوقت الذي تم فيه حل المسألة اليهودية على النحو الذي أرضى مانويل، كان فاسكو داجاما على أهبة الاستعداد، ودفع لأعضاء أطقم السفن البالغ عددهم مئة وثمانية وأربعين بحاراً، والذين اختيروا بعناية بالغة، ما يزيد كثيراً على ما يدفع للرجال العاملين على متن السفن البرتغالية عادة. وبصعوبة استطاع قبطان جليل من قادة السفن الشراعية الصغيرة يدعى دوارتي باتشيكو بيريرا أن يخفي غيرته، وهو يكتب بعد سنوات قلائل قائلاً: «كان المال الذي أنفق على سفن هذه الحملة القلائل طائلاً، حتى إنني لن أتطرق إلى التفاصيل خوفاً من ألا يصدقني أحد». وتفيد إحدى الروايات أن فاسكو داجاما، باعتباره أميرالاً، قد دفع له ألفا كروزادو ذهبية قبل الإبحار - وهي ثروة بمعايير ذلك العهد - وأعطي مبلغ مماثل لأخيه باولو الذي كان ترتيبه الثاني في قيادة الحملة. وأعطي كل أعضاء أطقم البحارة دفعات كبيرة مقدماً لإعالة عائلاتهم خلال وجودهم بعيداً عن بلادهم. وتم التخطيط لكل شيء حتى أدق التفاصيل. وحملت السفن طعاماً يكفي لثلاث سنوات، وكانت مقادير الطعام المخصصة لكل رجل يومياً وافرة، وتتألف من رطل ونصف الرطل من البسكويت، رطل من لحم البقر أو نصف رطل من لحم الخنزير، وباينتين[9] ونصف الباينت من الماء، وباينت ونصف الباينت من النبيذ وزيت وخل. وشملت مخازن أخرى الطحين، وأسماك السردين، والبرقوق المجفف، واللوز، والثوم، والملح، والخردل، والسكر، والعسل[10].

بات كل شيء معداً في أوائل عام 1497. وأصبح الأمر الآن معلقاً بالانتظار حتى منتصف العام، وهو أفضل وقت للحاق بالرياح المواتية. وبلغت حمولة سفينة القيادة «سان جبريل» أقل من ثلاثمئة طن، وكانت حمولة رفيقتها «سان رفايل» أقل من ذلك. ولكنهما أدخلتا في النفوس شعوراً بالاعتزاز عندما ملأت الريح أشرعتهما البيضاء التي يجملها الصليب الأحمر، كالدم، شعار جمعية المسيح، وأفصح اسم سفينة القيادة عن عمق إيمان فاسكو داجاما بمهمته، ذلك أن جبريل كبير الملائكة هو مبعوث السماء إلى الأرض وحامل الأوامر الإلهية. وكانت السفينتان الأخريان في هذه العمارة البحرية

سفينتين شراعيتين صغيرتين تقليديتين، هما «بيريو» وسفينة مستودع كبيرة وغير مسلحة، صممت بحيث تفرغ حمولتها وتفكك، بمجرد استنفاد السفينتين الرئيستين لقدر من المؤن التي على متنهما، يتيح لهما حمل ما بقي عليها في عنابرهما.

كان معظم المجموعة الكاملة من رجال هذه السفن البالغ عددهم 180 رجلاً من البحارة الذين اختيروا في ضوء خبرتهم في الترحال عبر المحيط، أو جنوداً قادرين على القتال براً وبحراً. وكان هناك حرفيون، وبصفة خاصة نجارون وحدادو مدافع، ولكن كان هناك كذلك عبيد سود من غرب أفريقيا، ممن قد يكون في استطاعتهم اكتساب صداقة السكان المحليين القاطنين على الجانب البعيد من القارة. وأهم طائفة هم مرشدو السفن والملاحون، وهم رجال سبق لهم السفر جنوباً مع الساحل الأفريقي، بمن فيهم شخص يدعى بيرو دي الينكير، كان قد أبحر إلى رأس الرجاء الصالح مع دياز. وكانت هناك مجموعة يمكن إلى حد كبير الاستغناء عنها، وهي مفيدة في إنزالها على الشاطئ في أماكن مجهولة لاكتشاف نوعية الاستقبال الذي يمكن توقعه من جانب السكان، وتتألف من حفنة من المجرمين، المعروفين باسم «الديجريدادو» ومعظمهم نجا من الإعدام بالتطوع للعمل في هذه الحملة، واختير العديد منهم لتمكنهم من ناصية اللغة العربية التي أصبح من المعروف الآن أنها اللغة الأكثر ذيوعاً في أرجاء المحيط الهندي.

أمضى فاسكو داجاما الليلة السابقة لإقلاع السفن في الصلاة مع ضباطه في كنيسة شيدها الأمير هنري، وشحنت هذه اللحظة بجو من الحماسة المميزة للمبشرين برسالة نبيلة، فأقسموا بأن الموت هو البديل الوحيد عن النجاح، وبأن السفن لن تعود أبداً من دون أن تكون قد حملت راية الملك مانويل والرمز المقدس لجمعية المسيح عبر المحيطات إلى الشرق. وفي الصباح الباكر قاد الأميرال موكباً مهيباً عبر شوارع لشبونة حتى الشاطئ. وكان مع رجاله حفاة، لا يرتدون إلا أردية كهنوتية بسيطة تصل إلى ركبهم. وحملوا شموعاً في أيديهم، ثم انحنوا ليتلقوا غفران خطاياهم كافة، وأعقبت ذلك قراءة المرسوم البابوي الموجّه للرجال الراحلين إلى مقاصد مجهولة ودوى قرع الطبول، وعلا ترتيل الرهبان، وانخرط المودعون في البكاء. وسيطرت عاطفة دينية غلابة على

فاسكو داجاما، واتقدت عيناه المطلتان من وجه شاحب كثيف اللحية. وعلى صدره استقر صليب مذهب معلق في منديل قرمزي يحيط بعنقه، فقد كان في سبيله إلى الانطلاق في رحلة اكتشاف هي أيضا حملة صليبية مقدسة[11].

أبحرت الحملة إلى مصب نهر التاجوس، تصاحبها لبعض الوقت سفن أصغر، تقل الأقارب الملوحين والصائحين بتحيات الوداع الأخيرة، ولكن الريح لم تكن في الاتجاه الملائم، وهكذا اضطر فاسكو داجاما إلى إبقاء سفنه راسية ثلاثة أيام. وعندما تغير اتجاه الريح في الثامن من تموز/ يوليو عام 1497 انطلقت الحملة في المرحلة الأولى من الرحلة، في طريقها إلى جزر كيب فيردي (الرأس الأخضر)، وكانت ثقة أطقم السفن مطلقة بأن الرب يحفظ لهم جائزة أعظم قيمة من تلك التي منحها للجنوي كولومبوس قبل أربع سنوات.

«باسم الرب. آمين» تلك هي الكلمات التي استهلت بها اليوميات التي دونها ألفارو فيلهو أحد جنود داجاما، وتعد رواية شاهد العيان للحملة التي وصفها (ولم تبق رواية سواها) عملاً أدبياً سلساً، وإن كان في بعض الأحيان مملاً. وهو يبدو غير مبال على نحو مدهش بالرحلة التي استغرقت تسعين يوماً لم تقع الأنظار خلالها على اليابسة، من جزر كيب فيردي (الرأس الأخضر) إلى جنوب المحيط الأطلسي (وبالمقابل غابت اليابسة عن أنظار كولومبوس ثلاثة وثلاثين يوماً فحسب، خلال رحلته الاستكشافية، في عام 1492) ويشير هذا بقوة إلى أن بعض رفاق فيلهو سبق لهم الإبحار من قبل في هذا الطريق الرهيب.

شوهد الساحل الأفريقي قرب رأس الرجاء الصالح في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر، بعد رحلة بحرية تجاوزت أربعة آلاف ميل، وتم الاحتفال بهذا الإنجاز في الملاحة بتزيين السفن بالأعلام، وارتدى الرجال «ثياب الاحتفالات» ثم قضوا أسبوعاً في تنظيف السفن المزدحمة التي تفوح منها الروائح الكريهة[12]. وجرت لقاءات مع السكان المحليين، فألقي القبض على طفل وتم تسليمه للعبيد السود المعروفين بـ«صبية السفن» وأمروا بمعاملته معاملة حسنة، ولم يكن السكان المحليون ممن

يخضعون للغرباء، وفي صدام معهم أصيب داجاما نفسه بجرح طفيف، من رمح رفيع من النوع الذي يستخدمونه.

استؤنفت الرحلة بعدئذ، وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر تم الدوران حول الرأس المرهوبة، ثم على امتداد أسابيع عديدة اضطرت السفن إلى مكابدة الطقس العاصف والتيار القوي، وبدأ الماء بالتسرب إليها. وقبالة ساحل الناتال (الذي أطلق عليه هذا الاسم لأنه تم الوصول إليه في يوم عيد الميلاد)[13] كانت هناك مؤامرة من النوع الذي غُلب معه دياز على أمره قبل تسع سنوات؛ فقد أراد بعض أعضاء أطقم البحارة العودة إلى البرتغال بدلاً من محاربة المجهول، ورد داجاما بوضع الأغلال في أيدي قادة حلقة المتآمرين وأقدامهم.

توقفت الحملة مرة واحدة لتفكيك سفينة التخزين وإعادة التزود بما كان عليها من مؤن، كما توقفت عدة مرات أخرى للمقايضة مع الجماعات الأفريقية الودودة التي تقطن الساحل. وأنزل اثنان من «الديجريدادو» على الشاطئ لاستكشاف ما يمكنهما العثور عليه حول «الراهب يوحنا» ومحاولة البقاء على قيد الحياة بقدر ما يستطيعان. وأخيراً ألقت السفن الثلاث الباقية مراسيها قرب دلتا نهر الزامبيزي. وسواء بالمصادفة أو بتخطيط سابق فقد أبحرت مباشرة بمحاذاة سفالة، ميناء الذهب العتيق، الذي تناوله كوفيلهام في تقريره. وأخيراً، قابل البرتغاليون رجالاً يتحدثون بعض العربية، ويرتدون ملابس فضفاضة من القطن والحرير، وأوضحوا بالاستعانة بلغة الإشارة أن سفناً أخرى زارتهم في بعض الأحيان آتية من الشمال. وكانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها فاسكو داجاما، وقد عرف الآن في نهاية كانون الثاني/ يناير من عام 1498، أن الثغرة الأخيرة قد اجتيزت وانفتح الطريق حول أفريقيا. وأطلق على الخليج الصغير الذي رست فيه السفن اسم ريو دوس بونس سينايس أو نهر البشارات الطيبة، حيث توقفت شهراً لإجراء الإصلاحات وإتاحة الفرصة لأعضاء الطاقم للشفاء من الأسقربوط والأمراض الأخرى.

أسبوع آخر من الإبحار باتجاه الشمال أوصل الحملة إلى موزمبيق، وهو ميناء صغير قدر لبلد بكامله في نهاية المطاف أن يستمد اسمه منه. وكانت البلدة الواقعة على جزيرة

قبالة الساحل مباشرة مؤلفة أساساً من أكواخ من الطين مسقوفة بغصون الأشجار وسعف النارجيل، ولكن العديد من الدور المبنية بالحجر لاح للعيان. وفي المرفأ كانت هناك أربع سفن عربية تقليدية. وغمر هذا المشهد مشاعر داجاما ورجاله بالتأثر فبكوا متأثرين بفكرة الثروات التي أصبحت في مطال أيديهم، فالفتح الأوربي للمحيط الهندي يوشك أن يبدأ.

ويكتب الفارو فيلهو: «صرخنا فرحاً، وتوسلنا للرب أن يمنحنا الصحة، لكي نشهد ما ننشده جميعاً». ولم يقصد بذلك أرض التوابل، الهند فقط، وإنما كذلك مملكة «الراهب يوحنا» المسيحية، التي سأل المستكشفون البرتغاليون عنها مراراً وتكراراً من دون جدوى حيثما نزلوا إلى الشاطئ في أفريقيا.

بدا جلياً أنه ليس هناك مسيحيون في بلدة موزمبيق، وفضلاً عن ذلك فإن البرتغاليين سرعان ما أدركوا أن الشيخ الحاكم هناك[13] يفترض أنه لابد لهم من أن يكونوا من الأتراك المسلمين. وقرر فاسكو داجاما من دون أن يشعر بوخز ضمير، أن يستفيد أقصى استفادة ممكنة من سوء الفهم هذا. وبدا الشيخ العجوز المبتسم والمجامل حريصاً على مصادقة زواره ذوي البشرة الفاتحة في سفنهم الغريبة. وقد زار السفينة الشراعية الصغيرة «بيريو» أولاً، وفي معرض الإظهار الكامل لحسن النوايا والثقة، سلم الشيخ القبطان مسبحته الخاصة وتم تبادل الهدايا بين الجانبين؛ فبعث البرتغاليون إلى الشاطئ بسترات صفراء، وأباريق نحاسية، وقبعات، وبالمقابل تلقوا جراراً مليئة بالمربى العربي. وعندما زار الشيخ سفينة القيادة استقبل استقبالاً رسمياً، حيث رفعت الأعلام ودوت الأبواق وتم استعراض أعضاء الطاقم وهم يرتدون أفضل أزيائهم المحلاة بالشرائط المجدولة، وأبعد المرضى منهم عن الأنظار.

لاح مشهد الشيخ مؤثراً في النفوس، في ردائه الأبيض الفضفاض، وسترته المطرزة، وعمامته الحريرية المزخرفة بخيوط ذهبية، وحمل بيده سيفاً فضياً مما يستخدم في التشريفات. وأوضح في حديثه، من خلال مترجم ينقل ما يقوله، أن سلطانه يحكم في كلوة وأن هذه المدينة القوية تقع على مسيرة عدة أيام إلى الشمال بحراً.

وعلى نحو مهذب، سأل عما إذا كان في وسعه أن يرى مصحف فاسكو داجاما. ورد هذا الأخير، على لسان المترجم، قائلاً إنه من سوء الحظ أنه ترك مصحفه في موطنه وهو قرب تركيا لأنه لا يحمله معه في ترحاله. وأقدم على الكذب بجرأة لرغبته في تفسير وصوله المفاجئ إلى ساحل أفريقيا الشرقي، مشيراً إلى أن سفنه القلائل جزء من أسطول بحري أكبر كثيراً، افترقت عنه خلال إحدى العواصف، وأعلن أن موطنه أقوى بلاد العالم، وأن عاهله قد بعث بهذه السفن للبحث عن بلاد التوابل.

انخدع الشيخ تماماً بهذه الاختلاقات، وأبلغ الزوار بأنهم لن يجدوا صعوبة في ابتياع الفلفل وكل التوابل الأخرى لدى وصولهم إلى الهند، طالما أن لديهم الذهب والفضة، ورد داجاما بأن لديه مقادير وفيرة منهما ولكنه بحاجة إلى مرشدين بحريين لمساعدته في عبور المحيط. ووعد الشيخ بتقديم هؤلاء المرشدين طالما أن أجورهم ستدفع لهم مسبقاً ويعاملون معاملة حسنة[14]. ثم عاد إلى البلدة على متن قاربه بصحبة مرافقين يعزفون أنغاماً بالنفخ في أبواق عاجية.

كتب فيلهو يقول في مذكراته: «رجال هذه الأرض خمريو اللون حسنو البنية. دينهم الإسلام ويتحدثون كالعرب المسلمين. وملابسهم من الكتان والقطن الخفيفين ذات خطوط متعددة الألوان ومطرزة على نحو وافر. ويضع جميعهم عمائم أطرافها من الحرير ومطرزة بخيط ذهبي. وهم تجار يتاجرون مع العرب البيض الذين كانت في هذا الموضع أربع من سفنهم، تحمل الذهب والفضة والقماش والقرنفل والفلفل والزنجبيل والخواتم الفضية ذات اللآلئ العديدة واللآلئ الصغيرة والمحلاة بالياقوت، وما إلى ذلك».

تصف هذه الإشارات إلى «رجال خمريو اللون» و«العرب البيض» بشكل جيد الثقافة السواحيلية بجانبيها الأفريقي والعربي، والتي كانت تتطور على امتداد العديد من القرون، بطول ساحل أفريقيا الشرقي، الذي عرف بداية باسم أرض الزنج.

كانت السفن المحلية التي تشد أجزاؤها إلى بعض بالحبال المتخذة من النارجيل بأسلوب المحيط الهندي التقليدي موضعاً للفضول، وخلافاً للسفن البرتغالية كانت غير

مسلحة بصورة فعلية، وعلى أي حال فإن أبدانها ما كان يمكن على الإطلاق أن تتحمل ضغط إطلاق نيران المدافع الثقيلة. وابتهج القادمون الجدد أشد الابتهاج وهم يتأملونها، فقد عرفوا الآن أن قوة النيران المتاحة لهم تعني أنهم ليس لديهم على الإطلاق ما يخشونه في هذه المياه.

وظل البرتغاليون يتظاهرون بأنهم أتراك وقايضوا السكان للحصول على الدجاج والماعز والفواكه، وأرسلوا المزيد من الهدايا إلى الشيخ: عبارة عن مرآة، وأمتار من القماش القرمزي، وأجراس نحاسية فلمنكية، وغيرها من الأشياء الطريفة. ولكن الخداع لم يكن من الممكن أن يدوم؛ فقد شاهد أحد المرشدين البحريين المحليين أفراد الأطقم وهم يعدون للصلاة، وأدرك أنهم نصارى. وعندما ذاع هذا النبأ وبلغ الشيخ، أدرك أنه تعرض للخداع فاستشاط غضباً؛ فقرر البرتغاليون على عجل التحرك بعيداً عن البلدة، وألقوا مراسيهم قرب جزيرة أخرى سموها سان جورج.

جرب داجاما بنفسه مشاعر المرارة والتشكك الجديدة، عندما انطلق قاصداً البلدة في حشد من الزوارق الصغيرة، بعد أن هرب أحد المرشدين البحريين المحليين إلى الشاطئ، فقد كان البرتغاليون قد دفعوا مسبقاً أجر المرشدين، وعقدوا العزم على ضرورة تنفيذ الصفقة التي أبرموها بهذا الصدد. لكن رجال الشيخ كانوا في الانتظار، وحاولت عدة سفن تقليدية شن هجوم بالأقواس والسهام والحراب؛ فردّ البرتغاليون بإطلاق نيران بنادقهم ذات فتيل الإشعال. ثم شاركت السفينة «بيريو» في القتال، حيث كان في وسعها بفضل غاطسها المحدود، أن تتحرك إلى مدى قريب من الشاطئ، وعندما فتحت مدافعها الأكثر ثقلاً، بادر السواحيليون المذهولون إلى الهرب[15].

رفعت الحملة مراسيها وانطلقت شمالاً بهدف الوصول إلى كلوة. وقد عرفت هذه الجزيرة الدولة ـ المدينة، التي دون اسمها على الخرائط المعطاة لداجاما في لشبونة، بأنها من أهم مراكز شرق أفريقيا التجارية، واكتسبت المزيد من الأهمية عندما قال المرشد البحري الباقي من موزمبيق للبرتغاليين إن سكانها يضمون المسيحيين والمسلمين كذلك. واتقدت في نفس داجاما بقوة رغبة في إجراء اتصال مع «مؤمنين حقيقيين»

ذلك أنه إذا وجد مثل هؤلاء الناس فمن المؤكد أنهم سيقودونه إلى مملكة الراهب يوحنا. واستمرت الشائعة المغرية حول وجود مسيحيين في هذه المناطق تتردد، وازدادت قوتها عندما اصطحب «هندي مسيحي» مشهور إلى قمرة الأميرال، ورأى صورة للقديس جبريل معلقة على الباب الخارجي، فخر ساجداً على الأرض.

وفي حقيقة الأمر كان هؤلاء «المسيحيون» هندوساً، جاء معظمهم إلى شرقي أفريقيا خلال القرن الخامس عشر، كتجار ومرابين وحرفيين. وبالنسبة إلى المسلمين والأفارقة المحليين فإن الممارسات الدينية المسيحية والهندوسية ربما أمكن الخلط بينها بسهولة، لأن كلتا الديانتين تتضمن التعبد أمام أصنام مذهبة وتماثيل لآلهة وقديسين، وقد عزلهم هذا كلياً عن المسلمين الذين كانت الصور شيئاً مقيتاً بالنسبة إليهم. وكان الخلط بين المسيح وكريشنا الإله الثاني في الثالوث الهندوسي[16] أمراً يسيراً كذلك.

وكما تبين فإن الظروف أنقذت الحملة من خيبة أمل دينية في كلوة؛ لأن الرياح الموسمية كانت ما تزال تهب من الشمال الشرقي. وبعد عدة أيام وجد البرتغاليون أنفسهم وقد دفعوا إلى الوراء، ومن جديد ألقوا مراسيهم قبالة موزمبيق. وعلى الرغم من أن الشيخ طلب إنهاء الأعمال العسكرية، فإنه سرعان ما حدث المزيد من المتاعب، عندما بعث داجاما برجال لجلب مياه الشرب ونشر لحمايتهم زوارق مسلحة قرب الشاطئ. وكان أهل المدينة قد أقاموا سياجاً خشبياً عالياً على الشاطئ، ولكنهم عندما رأوا أن هذا ليس بالدفاع المناسب أمام نيران المدافع، لاذوا جميعاً بالفرار إلى البر الأفريقي. ونزلت مجموعة من الجنود إلى الشاطئ، لأخذ الرهائن، والبحث عن عبد من أفريقيا الغربية لاذ بالهرب من إحدى السفن، وتم أسر أربعة من الأفارقة ولكنه لا يوجد سجل يوضح ما إذا كان قد تم الإمساك بالعبد الهارب من عدمه. ثم عادت المجموعة التي نزلت إلى الشاطئ وقد حملت حصيلة نهب متواضع، يشمل أكياساً من الحبوب، ووعاء كبيراً من الزبد، وكؤوساً زجاجية، وزجاجات ماء ورد، والعديد من الكتب باللغة العربية. ولم يكن هناك شيء آخر يستحق البقاء من أجله. ولكن كإيماءة وداع أبحرت السفن الثلاث جيئة وذهاباً أمام المدينة المهجورة وقصفتها قصفاً شاملاً، وكان ذلك هو أول عرض محسوب للقوة الأوربية في المحيط الهندي.

برهن المرشد البحري المحلي الوحيد الذي ظل على ظهر السفينة سان جبريل على أنه أبعد ما يكون عن إرضاء البرتغاليين، فقد تجاوز كلوة، ولم تجد الجهود التي بذلت للرجوع إليها؛ لأن الرياح الموسمية تحولت ومضت تهب من الجنوب. وساور فاسكو داجاما الشك في أن المرشد البحري قد تجاوز كلوة عن عمد لإبعاد البرتغاليين عن مسيحييها ذائعي الصيت. وربما كان ذلك صحيحاً وكان المرشد البحري يستمتع ببعض الانتقام لأنه في وقت سابق جلد لقوله خطأ إن ثلاث جزر صغيرة تشكل جزءاً من البر الأفريقي، وبمرح ثقيل أطلق على إحدى الجزر اسم «جزيرة المجلود Ilha do Acoutada».

حقق الرواد البرتغاليون الذين ملأت الريح أشرعتهم تقدماً سريعًا باتجاه ممباسا، وهي مكان قدر له أن يؤدي دوراً كبيراً في تاريخ أمتهم. ووصلوا إلى هناك في غسق السابع من نيسان/ إبريل عام 1498، بحيث أتيح لهم الوقت لمشاهدة غروب الشمس وراء التلال على البر الأفريقي. وللترحيب بهم أرسل إليهم زورق، يحمل الفاكهة والدجاج والماعز، ووجهت رسالة من السلطان الدعوة إلى فاسكو داجاما للإبحار مباشرة إلى المرفأ الداخلي. ولكن الأميرال الذي لم يفارقه التشكك رفض هذا العرض، فقد كان يعلم أنه في عملية المواجهة من قريب قد يهزم رجاله لمجرد التفوق العددي لخصومهم. ومع ذلك كان لايزال يتشبث بالأمل في العثور على مسيحيين في ممباسا؛ لأن اليوم التالي كان هو أحد السعف، ومن شأن الاحتفال بالقداس في كنيسة على اليابسة أن يرفع معنويات رجاله كثيراً.

لم يقدر لهذا أن يحدث، فعلى الرغم من ظهور رجلين طرحا ادعاءات مشكوكاً فيها بأنهما مسيحيان، فإنه تم التخلي سريعاً عن أي فكرة تتعلق بالعثور على جماعة تدين بالولاء للراهب يوحنا. ومع ذلك فقد كانت ممباسا مؤثرة في النفوس بعد أن فاقت كمركز تجاري كلوة وزنجبار وكل الموانئ الأخرى الواقعة على امتداد الشاطئ السواحيلي. وكانت بالمدينة دور حجرية عديدة تتخللها المباني التقليدية المبنية بالطين والمسقوفة بغصون الأشجار. وكانت هناك دفاعات أولية، ولكن من الواضح أن حكام ممباسا لم يتصوروا أن لهم أعداء قد يرغبون في شن هجوم عليهم من البحر[17].

كان هذا كما وصفه المؤرخ دوارتي باربوسا الذي كتب بعد أقل من عشرين عاماً:

«مكاناً رائعاً للغاية به دور مشيدة من الحجر والطين، مصطفة على جانبي شوارع جيدة الاستقامة، وأخشابها مثبتة ببراعة، ولها ملك عربي، والرجال حنطيو اللون أو سود أو بيض. نساؤهم يمضين بجرأة بالغة في الزي مرتديات أثواباً عديدة بديعة من الحرير، وقد تحلين بوفرة من الذهب، إنه مكان مزدحم بحركة المرور وله ميناء جيد، ترسو فيه على الدوام مراكب ذات أنواع عديدة، وكذلك سفن عظيمة... والرجال هنا منهمكون في الحرب غالباً، ونادراً ما يكونون في سلام مع رجال البر الأفريقي، وهم يواصلون التجارة معهم، ويجلبون من هناك مقادير كبيرة من العسل، ومن الشمع والعاج».

لم تكن هناك أمام رجال داجاما فرصة كبيرة للاستمتاع بزيارتهم الأولى لمدينة مزدهرة من مدن المحيط الهندي، وكانت سفينة محلية قد جلبت نبأ الأحداث التي وقعت في موزمبيق إلى ممباسا، فأحاطت مراكب محملة بالرجال المسلحين بالسفن البرتغالية في الظلام. وأرسل اثنان من «الديجريدادو» إلى البر كمبعوثين، وعلى الرغم من أنهما أخذا إلى قصر السلطان وقاما بجولة في الشوارع الرئيسية، فإنهما عادا من دون فكرة أكثر وضوحاً عما قد يحدث عقب ذلك.

وحاولت السفينة «سان جبريل» الاقتراب من الميناء ولكنها جنحت خلال المحاولة، فاستغل المرشد الموزمبيقي الهرج والمرج الذي عم في تلك اللحظة، ليفر قفزاً إلى الماء. وحذا حذوه آخرون من الأهالي المحليين الذين كانوا على ظهر السفينة. ولكن بعضهم فقط أفلح في الهروب.

وحينئذ ثارت شكوك داجاما كلها، ويروي الجندي كاتب اليوميات القصة قائلاً:

«حقق الأميرال في الليل مع اثنين من العرب كانا على متن سفينة القيادة، وذلك بسكب الزيت المغلي على جلدهما، لكي يعترفا بأي خيانة يعتزمان الإقدام عليها في مواجهتنا. فقالا إن الأوامر قد صدرت بإلقاء القبض علينا بمجرد دخولنا المرفأ، بغية الانتقام منا لما فعلناه في موزمبيق، وعندما تم إنزال هذا العذاب للمرة الثانية، ألقى أحد

العربيين بنفسه في البحر، على الرغم من أن يديه كانتا مربوطتين، بينما فعل آخرون ذلك خلال نوبة الحراسة الصباحية».

وإلى جانب الألم العضوي، كان للعذاب الذي أنزله داجاما بالضحيتين مصدر إيلام آخر، حيث استخدم في تعذيبهما دهن الخنزير المغلي.

ثم أقبلت مراكب محملة بالرجال لمهاجمة السفن، وسبح رجال آخرون ليلاً لمحاولة قطع حبال المرساة. واستخدم هؤلاء على نحو ما سجل فيلهو «حيلاً خبيثة». ويضيف: «لكن إلهنا أفشل مسعاهم لأنهم لم يكونوا من المؤمنين».

الفصل التاسع عشر

النظرة الأولى إلى الهند

لسوف يركع التركي، مكفهر الجبين، في ضراعة.
والملوك الهنود، الذين ينعمون الآن بالأمان والحرية،
سينحنون تحت نير العاهل القدير،
إلى أن تمتد قوانينك العادلة بعيداً فوق الشرق.

لويس دي كامونس[1] - «اللوسيادة»[2] - الكتاب الثاني (ترجمة ميكل - 1778)

في نيسان/ إبريل من عام 1498، واصل أسطول فاسكو داجاما البحري الصغير اندفاعه شمالاً على امتداد ساحل شرق أفريقيا إلى خط الاستواء، الذي كان قد عبره قبل تسعة شهور طويلة، أثناء الإبحار جنوباً في المحيط الأطلسي. وأضاف كل فرسخ يقطعه المزيد إلى الشعور بالوحدة، والبعد عن المياه المألوفة وأرض الوطن البرتغالية. وعلى الرغم من أن التوقف عند ممباسا قد أعاد إلى بعض الرجال المرضى صحتهم، فقد أخذ عدد رجال القوة الكاملة للأسطول البحري البالغة 180 رجلاً في التقلص بإطراد، بفعل مرض الأسقربوط وعمليات الهرب والمناوشات مع المسلمين المعادين. وكانت العزلة الدينية هي أصعب ما يمكن احتماله بالنسبة إلى رجال يعتمدون إلى حد كبير على إيمان مستمد من عقيدتهم بغض النظر عن المصاعب المادية.

كان احتمال التعاون مع الراهب يوحنا، وهو مصدر إلهام منذ عهد الأمير هنري الملاح، قد بدا قريباً للغاية من التحقق، بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح، وتم انتهاز كل الفرص المتاحة لإرسال المبعوثين إلى الشاطئ للبحث عن النبأ اليقين حول ذلك الحاكم المقدس المحارب، ولكن ذلك كان على الدوام بلا طائل. وربما ساهمت عمليات الاستفسار عن الراهب يوحنا، في مساعدة فاسكو داجاما لبعض الوقت في الإبقاء على المعنويات عالية، وذلك بتشجيع رفاقه على الاعتقاد بأنه وراء كل رأس في اليابسة قد يكون ميناء مسيحي صديق في الانتظار لتحيتهم، ولكنهم بعد أن قطعوا

حوالي ثلاثة آلاف ميل شمالاً، انطلاقاً من رأس الرجاء الصالح، مضت هذه الآمال في الانحسار، ذلك أنه كان من الممكن رؤية ازدياد قوة النفوذ العربي على البر السواحيلي، وعرف الرجال أنهم كانوا يبحرون باتجاه الأراضي التي تشكل قلب الإسلام.

يتعين النظر إلى اعتماد داجاما ورجاله على إيمانهم، وكراهيتهم الشديدة لكل المسلمين، في ضوء خلفية قوامها قرون من الصراع الديني في شبه جزيرة أيبيريا والمغرب، وكانت الحرب المقدسة هي الموضوع الذي لا يغيب عن العظات الدينية، التي تربُّوا روحياً عليها، ولم يكن السمو المطلق للرسالة المسيحية موضع شك قط. وعلاوة على ذلك فإن دخول المحيط الهندي حدث حين بلغ التنافس بين القوتين الدينيتين العظميين في أوربا والشرق الأدنى ذروته. وقد اعتقد داجاما، شأن كولمبوس، أن تحويل العالم إلى المسيحية هو فريضة بحكم الكتاب المقدس، وأن رحلاتهما تخدم الغرض الرباني المتمثل في تحقيق تلك الغاية. وآمن الأتراك العثمانيون على نحو مماثل بأن الله قد اختارهم لنشر الإسلام على امتداد العالم، ولم يكن فتح القسطنطينية إلا خطوة على الطريق المفضي إلى ذلك الهدف.

نظر البرتغاليون الكاثوليك والأتراك العثمانيون إلى المنشقين عن صفوفهم على أنهم هراطقة، ينبغي التعامل معهم بلا رحمة، ولكن بينما نظر بعض الأتراك إلى أعدائهم المسيحيين باعتبارهم من «أهل الكتاب» فإن البرتغاليين الكاثوليك ميزوا بين المسلمين، الذين نظروا إليهم على أنهم من ذوي الأرواح الملعونة التي سقطت في قبضة الشيطان، وبين غير المؤمنين الآخرين، ذلك أن الفريق الأول ينبغي القضاء عليه إرضاءً للرب، أما الفريق الثاني فهو ينتظر التحول إلى الدين الحق فحسب. وقد حكمت هذه المقدمة الموقف البرتغالي المثير للغثيان من مانيكونجو ورعاياه الوثنيين، تماماً كما أملت المعاملة التي عوملت بها شعوب جزر الهند فيما بعد.

غير أن هناك أوقاتاً تراجع التحيز فيها أمام الاحتياجات الملحة، على نحو ما أظهر فاسكو داجاما عندما توقف قبالة ميناء ماليندي بعد أيام قلائل من الهرب من ممباسا.

فقد اكتشف البرتغاليون أن هناك تنافساً بين هاتين المدينتين السواحيليتين، وقرروا أن يستغلوا هذا لصالحهم. ومما لا شك فيه أن ماليندي بقعة مسلمة، ولكن الرغبة في مصانعة الأصدقاء، على امتداد ساحل شرق أفريقيا، أجبرت المسيحيين الذين ارتحلوا طويلاً، على إغماض أعينهم عن ذلك. وكان هناك على متن سفينة القيادة «سان جبريل» أحد الرهائن، وهو «رجل ذو مكانة» من ماليندي، كان قد وثب إلى البحر، وتم سحبه، بمرساة زورق عندما أسر البرتغاليون سفينة تقليدية مارة ونهبوها. وأهاب هذا الرجل بداجاما أن يمضي نحو مرفأ موطنه، قائلاً إن من اليسير العثور هناك على مرشدين بحريين على معرفة جيدة بالطريق إلى الهند.

عقب بعض التردد أظهر السلطان وأعيان ماليندي أنهم من الدهاء، بحيث رحبوا بمبادرات هؤلاء الغرباء غير المألوفين. وقد كان الحفاظ على النفس أحد دوافعهم لذلك، ذلك أن الروايات التي دارت حول النزعة القتالية لدى البرتغاليين وضراوتهم قد انتشرت سريعاً على امتداد الساحل. وفضلاً عن ذلك فإن السلطان كان يبحث على الدوام عن حلفاء جدد يتحالف معهم ضد ممباسا. وعلى الرغم من أن ماليندي انتشر في أرجائها أكثر من اثني عشر مسجداً، فإنها كانت منذ وقت طويل مدينة عالمية (كوزموبوليتانية) تتمتع بصلات قوية مع الهند والبنجال وفارس (وشأن الفرس، كان أبناء ماليندي من الشيعة)[3]، وقد جاءت الزرافات التي أدهشت الصين كثيراً قبل ثمانين عاماً من ماليندي.

أدرك داجاما في التو أن مرفأ ماليندي لا يقارن بنظيره في ممباسا، ولكنه كان مرفأ آمناً بما فيه الكفاية في الطقس الهادئ. وأثر مشهد الشاطئ في النفوس كثيراً: «تشمخ هذه المدينة في امتداد عريض على شاطئ البحر، ويحوطها العديد من أشجار النخيل، مع أنواع أخرى من الأشجار التي تتوهج بالخضرة على مدار العام، وكذلك العديد من الحدائق والبساتين». وقام البرتغاليون في إطار سعيهم لإقناع أبناء ماليندي بحسن نواياهم بإطلاق سراح أسيرهم وأنزلوه على ضفة رملية قرب الشاطئ، وطلبوا منه أن يؤكد لمواطنيه أن هؤلاء الغرباء مسالمون، وأنهم أبحروا عامين للوصول إلى شرقي أفريقيا (وهما أمران يعتبران إفراطاً في المبالغة). ثم بعث داجاما برسائل إلى الشاطئ،

تؤكد أن مليكه "أعظم عاهل مسيحي في العالم"، وأن السفن الثلاث الراسية قبالة ماليندي هي جزء من أسطول يضم مئة سفينة تشارك في رحلة استكشافية هائلة.

وإذ تأثر السلطان كثيراً بما سمع، فقد بادر بالقيام بالإيماءة الودية الأولى، وذلك بإرسال قارب محمل بالماعز والبرتقال وقصب السكر، ورد داجاما بإصدار أمر إلى أحد «الديجريدادو» بالتوجه إلى الشاطئ، ومعه معطف أصفر وقبعة وبعض القلائد والأباريق النحاسية والحلي المختلفة. واستمرت هذه العملية الحذرة عدة أيام، إلى أن جاء السلطان في سفينة تُستخدم في الاحتفالات كسي سطحها بالسجاد، وتم ربطها إلى جانب «سان جبريل». ورحب به داجاما، الذي بدا متألقاً في عباءته القرمزية، وقام معه بجولة في السفينة التي أطلقت مدافعها تكريماً له. وأعجب البرتغاليون بالملابس الحريرية ذات الألوان الزاهية التي يرتديها السلطان، وبسيفه ذي الغمد الفضي الذي يحمله تابع عجوز، وبالمظلة الحمراء الكبيرة المرفوعة فوق رأسه والنحاس المشغول على عرشه، وبفرق الموسيقيين الذين ينفخون في الأبواق وأنياب الفيلة المجوفة. ولكن داجاما لتخوفه من أن تكون هناك خدعة رفض تلبية دعوة للنزول إلى الشاطئ، واكتفى بالسماح لبعض رجاله بزيارة قصر السلطان، وأعطي رهائن لضمان عودتهم سالمين. وكتب فيلهو على نحو يوحي بشعوره بالحنين، بأن ماليندي قد ذكرته بالكوشيت وهي مدينة تقع على ضفاف نهر التاجوس.

كان هناك قول مأثور يتردد على البر السواحيلي: «خيالة ممباسا ونساء ماليندي». وكان معنى ذلك أن إحدى المدينتين تتباهى بمحاربيها بينما الأخرى تزهو بنسائها الجميلات. ولم تتح للبرتغاليين فرصة تذكر خلال مكوثهم تسعة أيام للتعرف على نساء ماليندي ولكنه كان في وسعهم على الأقل أن يعجبوا بحياة المدينة المتحضرة. ويقول أحد المؤرخين إن الحدائق بها «كل أنواع الأعشاب والفواكه» وخاصة ثمار البرتقال الكبيرة «شديدة الحلاوة ذات المذاق اللذيذ». وقد شيدت الدور من الكلس والحجر على امتداد شوارع منسقة.

كان معظم السكان من السود، ولكن بينهم التجار من شبه الجزيرة العربية والهند. ولما كانت الهند هي هدف البرتغاليين، وكانوا مقتنعين بأن معظم سكانها من

المسيحيين، فقد أمعنوا النظر إلى البحارة في السفن القريبة «هؤلاء الهنود رجال خمريو البشرة، ولا يرتدون إلا القليل من الثياب، ولهم لحى مسترسلة وشعر طويل يضفرونه، وقد أبلغونا بأنهم لا يتناولون لحم البقر، وتختلف لغتهم عن لغة العرب، ولكن بعضهم يعرف القليل من العربية»[4].

خلال الاحتفالات التي شارك فيها كل من السكان المحليين وضيوفهم، حُمل السلطان السابق الطاعن في السن وشبه الضرير على محفة إلى الشاطئ، وانطلق شبان المدينة المتأنقون بجيادهم يعدون على امتداد الشاطئ[5]. وبعد حلول الليل أطلقت الألعاب النارية إلى عنان السماء من السفن البرتغالية والهندية.

وعلى الرغم من هذه التجليات لحسن النوايا، فإن داجاما كان تواقا لتحقيق مصلحته والانطلاق بعيداً، فعلى الرغم من أنه أقسم أمام ملكه أنه سيصل إلى كالكوت، فإن الحنين إلى الوطن قد استبد ببحارته، وعرف أن الهند على مبعدة عدة أسابيع أخرى. وهكذا فقد أحس بالارتياح عندما قام بتجنيد مرشد بحري راغب في إنجاز مهمته ومتمرس في عبور المحيط الهندي؛ ذلك أن كل الملاحين السواحيليين الذين حاول من قبل إقناعهم بإرشاد منشآته البحرية الصغيرة إلى الهند قد رفضوا ذلك خوفاً أو تحدياً «على الرغم من أنهم قد تعرَّضوا للتعذيب».

تغيرت رياح الحظ في ماليندي، حيث جلب السلطان قبطاناً عربياً، كتب فيلهو اسمه على أنه «ماليما كانا أو كاناكا Malema Cana or Canaqua» وهذا «العربي الكهل من جوزرات»، كان على تمام المعرفة بطريق كالكوت وأعلن استعداده لإرشاد القادمين الجدد المسيحيين. وعرض أدواته الملاحية التي تساعده على معرفة المواقع في البحر، وكانت لديه خريطة للجانب الغربي من الهند، ولم يدهش بحال عندما عرض عليه الأسطرلاب[6].

وقبل أن يغادر داجاما ماليندي ترك على الشاطئ مجدداً أحد «الديجريدادو» ومنحه بعض النقود، وترخيصاً بالقول إنه يمثل البرتغال. وكان هذا الرجل الذي لم تذكر السجلات اسمه، وربما هو أحد الأوغاد الذين تلقوا نصيباً من التعليم، مؤهلاً ليكون

أول مقيم أوربي في شرقي أفريقيا. وقد قيل له إن عليه أن يكتشف كل ما يستطيعه عن البر الأفريقي (ولاشك كذلك أن يسأل عن الراهب يوحنا) وقد وعد بأنه إذا بقي على قيد الحياة وعاد إلى لشبونة فسوف يعاد تأهيله باعتباره «أحد السادة العاملين في البلاط الملكي». وليس هناك ذكر في السجلات حول ما انتهى إليه مصيره.

ودع السلطان البرتغاليين وحدد مرشدهم البحري مسارهم باتجاه الشمال الشرقي، مبقياً اليابسة على مرمى النظر من السفن، وسرعان ما تغيرت اليابسة، من الخضرة الوافرة لأشجار النخيل والقرم إلى شواطئ جافة قاحلة. ولكن بحارة داجاما ابتهجوا إذ رصدوا من نجوم السماء أنهم قد غدوا من جديد في نصف الكرة الشمالي «يوم الأحد التالي، رصد بحارتنا الشمال ورصدوا الجنوب كذلك، وشكروا الرب على حسن الطالع الذي شاء لهم ذلك». وبعد خمسة أيام بلغت السفن شاطئاً ممتداً، معروفاً للمرشد البحري باسم «السيف الطويل» وهنالك انعطف مبتعداً عن أفريقيا، ومضى نحو الشرق تقريباً[7]. وأعجب البحارة بالأدوات الملاحية التي استخدمها وبثقته بنفسه التي يكتنفها المرح، وعرفوا كذلك أن مصيرهم في يديه.

بعد ثلاثة وعشرين يوماً من الإبحار في طقس صحو، صاح الرقباء بأن ساحل الهند يلوح للعيان؛ فقد تحقق لداجاما قدره الذي قدر له بعد أطول رحلة بحرية في التاريخ. وكان ذلك في الثامن عشر من أيار/ مايو عام 1498. والآن عليه أن يستعد لملاقاة الرجل الذي كان يعرف أنه أقوى حاكم على الساحل الهندي، والملقب بـ «راجا كالكوت» في الرسالة التي يحملها إليه من الملك مانويل. ولن يكون من السهل على داجاما أن يقدم نفسه بكبرياء مهيب في سفنه الثلاث الصغيرة، التي أثر عليها المناخ أسوأ تأثير. ولابد أنه الآن قد غدا يدرك أن الهدايا المخصصة للراجا ستبدو هزيلة ومبهرجة عندما تستخرج من صناديقها المانعة لنفاذ الماء، ولكن شد من أزره إيمانه بالله وبمدافعه.

كان المرشد البحري قد بلغ اليابسة شمالي كالكوت بمسافة قصيرة، ولدى رصد العمق تبين أنه خمس وأربعون قامة، ثم انعطفت السفن جنوباً وسط عواصف رعدية.

وعندما ألقت مراسيها قبالة كالكوت، وجدوا أنها مماثلة على وجه الدقة لما ساقتهم إلى توقعه روايتا بيرو دي كوفيلهام ونيكولو دي كونتي، فهي مرفأ مفتوح يعج بأنواع السفن وشاطئ تكتنفه المتاجر والمخازن، ووراء ذلك مدينة فسيحة، وعلى جانبي المرفأ خلجان يمكن للسفن الاحتماء فيها من البحر العاصف.

أثار وصول البرتغاليين الذين لا تشبه سفنهم أي شيء شوهد من قبل في الهند موجة من الانفعال. وأقبلت مراكب صغيرة مليئة بالمتفرجين الذين جلبوا أطفالهم «في مرح لمشاهدة السفن». ومضت زوارق أخرى تقايض الأسماك وثمار النارجيل والدواجن بالبسكويت. وتبيعها مقابل النقود». وعلى الرغم من أن رجال داجاما كانوا عند أبعد المواضع من بلادهم، فإن روحهم المعنوية قد ارتفعت. «إنهم لا يفكرون كثيراً في البرتغال على أي نحو مشرف يتم استقبالنا هنا».

كان أول رجل أرسل إلى الشاطئ هو أحد «الديجريدادو» كالمعتاد، ويدعى جواو نونيز وهو من «المسيحيين الجدد» وكان يتحدث العبرية، والعربية، والبرتغالية، والإسبانية، وهو «رجل لماح». وبينما كان يستعد لتسليم الرسالة الموجهة من الملك مانويل، ذهل عندما هتف به أحد النظارة بالقشتالية: «فليأخذكم الشيطان! ما الذي جاء بكم إلى هنا؟».

وتختلف هوية المتحدث في الروايات المختلفة لهذه الحادثة. وبحسب إحدى هذه الروايات، فإنه كان أحد أبناء إشبيلية ويدعى ألونسو بيريز، وكان العرب قد أسروه خلال الحروب الناشبة في إسبانيا، واحتجز أسيراً في العديد من الأماكن وأطلق سراحه بعد دخوله في الإسلام. وتفيد رواية أخرى أن الرجل الذي هتف بهذه التحية الغليظة هو تاجر تونسي، يدعى «أبو الطيب» اصطحب في وقت لاحق نونيز إلى داره وقدم له وجبة مؤلفة من الخبز والعسل. وأيا كانت الرواية الصحيحة، فإنها تصور كيف أن حرية السفر كانت مضمونة حقاً في العالم الإسلامي. ويقول نونيز الذي قدم تقريراً عما وقع بعد عودته إلى داجاما، إنه قد رد على السؤال عن السبب في قدوم البرتغاليين إلى الهند بالقول: «إننا نسعى وراء المسيحيين والتوابل». وباعتباره يهودياً أجبر على

اعتناق المسيحية، وأدين بجرم كان من الممكن أن يشنق بسببه، إذا لم يرض الأميرال ذا النزعة الدينية القوية، فإن نونيز قد أحسن صنعاً بذكره للمسيحيين قبل التوابل.

أذهل ثراء كالكوت البرتغاليين. وكان هناك شارع مزدحم يدعى بـ«النداكافا» (جادة الأشجار) يفضي إلى القصر، وقد تناثرت البراعم البيضاء المتساقطة من الأشجار على الأرض. واحتل القصر نفسه ميلاً مربعاً، وأحاطت به أسوار طليت بألوان براقة، وتنقل كبار القوم في أرجاء المدينة محمولين على محفات يسبقهم رجال ينفخون في الأبواق؛ ليفسح المارَّة الطريق لهم. وكانت هذه الأبواق من الذهب أو النحاس وفقاً لمكانة الشخص.

وبدا جلياً للبرتغاليين أن التجار وأصحاب السفن العرب يؤدون دوراً كبيراً، في هذا المركز الثري من مراكز التجارة في المحيط الهندي. فدورهم فسيحة، وبعضهم يمتلك سفناً يصل عددها إلى خمسين سفينة قادرة على عبور المحيط الهندي، وصولاً إلى البحر الأحمر، تقل حمولات من البضائع وحجيجاً إلى مكة، وقد قيل إن المسلمين سيطروا على طرق المحيط من الهند إلى كل من الشرق والغرب؛ لأن معتقدات الهندوسية تحظر على أتباعها القيام برحلات بحرية طويلة. واستقر العديد من العرب الأقوياء المنتمين إلى مناطق بعيدة مثل مصر في كالكوت، ولكنهم حرصوا على عدم الإساءة إلى معتقدات مضيفيهم الدينية؛ فأبدوا الاحترام للأبقار، ولم يأكلوا لحومها قط. ومن جهة أخرى فقد كان هناك العديد من الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام هرباً من نظام الطوائف.

وعلى الرغم من أن داجاما قد رفض على الدوام منذ مغادرة لشبونة الذهاب إلى الشاطئ للقاء الحكام المحليين، فإنه كان يعرف أنه ليس في وسعه الإبقاء على هذا الموقف في كالكوت. فقد كان إبداء الاحترام لحاكمها أمراً على جانب كبير من الأهمية. وقد أتيح له الوقت للاستعداد لأن نونيز عاد ليبلغه بأن «الراجا» السامري ملك البحر كان خارج المدينة في إحدى الرحلات[8]. ولدى تلقيه رسالة مفادها أن السامري قد عاد وأنه في انتظاره، بادر إلى ارتداء عباءة قرمزية تلامس الأرض، فوق رداء أزرق

من الأطلس يشد بحزام حول الخصر، وانتعل حذاء أبيض يبلغ منتصف الساق، واعتمر قلنسوة زرقاء من المخمل تعلوها ريشة تجملها. وكضمان لسلامته، أرسلت مجموعة من الناير وهم محاربو السامري ينتمون إلى مرتبة رفيعة القدر[9] في إطار نظام الطوائف، إلى السفن البرتغالية، حيث سيحتجزون هناك كرهائن لحين عودته سالماً.

عندما وطئ داجاما أرض الهند قاطعاً خطاه الأولى ومعه مرافقوه الذين أحاطوا به، وجد محفة في انتظاره، واصطفت الجموع لرؤية الموكب وهو يمر. وفي الطريق لاح معبد هندوسي؛ فابتهج البرتغاليون إذ حسبوه كنيسة من كنائس «المسيحيين الهراطقة» وترجل داجاما من محفته وولج المعبد وركع مصلياً، أمام تمثال أم تحتضن طفلاً - هو تمثال ديفاكي[10]، وهي ترضع كريشنا[11] - وحذره أحد مساعديه من أنه قد يكون راكعاً أمام «إله زائف».

حينما بلغ الموكب بوابات القصر، راح السامري يرقب المشهد من الشرفة، بينما قام تابع يرتدي ثوباً من الأطلس الأحمر بمساعدة داجاما على الترجل من المحفة. وتقدم الأميرال البرتغالي على مهل يسبقه مرافقوه. ويتبلور في هذا المشهد منعطف في تاريخ المحيط الهندي، فقد أوشكت على الانهيار أنماط للحياة والتجارة، كانت قد تماسكت على امتداد قرون طويلة.

ومن خلال مراسم استقبال أقرب إلى طقس شديد التعقيد، سار داجاما، خلال سلاسل من القاعات الأمامية ذات أبواب ذهبية سميكة، إلى أن بلغ القاعة الملكية. وعلى أريكة خضراء تمدد السامري، مانا فيكراما، تعلوه قبة حريرية، وكان ما فوق خصره عارياً وقد مضى يمضغ بزرة الفوفل[12]. وعلى عضده الأيسر، فوق المرفق، تألق سوار تدلت منه ماسة ضخمة، وحول عنقه التفت عقود من اللآلئ. وتحلى كذلك بزمردة على شكل قلب تحيط بها اليواقيت هي الباثاكام (PathaKam) أي شعار الملك في المالبار.

كان السامري يبصق بين الحين والآخر في كأس ذهبية يمسك بها أحد الأتباع، ووراءه وقف تابع آخر، شاهراً سيفاً، وممسكاً تُرساً أحمر اللون، تألق على حوافه

الذهب والجوهر. وقبل أن تبدأ المناقشات عن طريق المترجمين تم تمرير أطباق الفاكهة. وخلال اللقاء الذي قدر له أن يكون مقدمة للعديد من الأحداث العنيفة، انحنى داجاما وقدم رسالة من الملك مانويل. وأقسم على أنه لو كان قد عاد إلى البرتغال من دون الوصول إلى كالكوت لكان ملكه قد قطع رأسه. وأمنيته الوحيدة هي أن يشتري التوابل لتحميل سفنه بها والرحيل في سلام. ورد السامري بأنه على استعداد لمقايضة «القرفة والقرنفل والفلفل والأحجار الكريمة» بالذهب والفضة والقماش من النوع الذي يرتديه داجاما. ولكن تغير المناخ النفسي عندما أبرز البرتغاليون هداياهم: «أحواض لغسيل الأيدي وعقود من المرجان وقبعات وبرانس قرمزية وجرار عسل؛ إذ لم يعرب السامري عن أي شعور بالسرور. وقال عربي عهد إليه باستضافة مرافقي داجاما في تلك الليلة معقباً وساخراً: «إن أفقر تاجر عربي كان يمكن أن يعطي ما هو أكثر من ذلك». ففي نهاية المطاف كان السامري معروفاً كذلك بلقب «كونا لكوناثيري (Kunnalkkonathiri) أي سيد التلال والأمواج»، وكانت موان عديدة مجاورة على ساحل المالبار خاضعة لسلطته، وما كان عليه إلا أن يطلب فتوضع بين يديه أروع منتجات أراضي آسيا بأسرها. وكانت هدايا كأحواض غسيل الأيدي وجرار العسل جديرة بالازدراء تماماً، وتوحي بالازدراء من جانب مقدمها.

وكان أحد المرافقين لداجاما، هو الفارو فيلهو، وهو جندي وكاتب يوميات، وهو يقدم لمحة مترعة بالحيوية للكيفية التي تصرف بها هو وزملاؤه في صباح اليوم التالي، أثناء انتظارهم للمضي مجدداً إلى القصر. فعلى الرغم من الحر «رفهنا عن أنفسنا بالغناء والرقص بمصاحبة الأبواق» ولكن هذا المرح لم يقدر له أن يدوم؛ فعندما ارتقى داجاما المحفة ليحمل عائداً إلى السفينة، اقتيد مع رجاله إلى الأسر. ولم يكن هناك سبيل للمقاومة؛ لأن المرافقين أقبلوا إلى الشاطئ حاملين العصي بدلاً من الأسلحة، وهي الطريقة المقبولة لإظهار أنهم قدموا من دون نوايا عدوانية.

احتُجز البرتغاليون أياماً عديدة في دار أحاط بها رجال يحملون فؤوس الحرب، ويتقلدون السيوف، ويتسلحون بالأقواس والسهام. وكانت الظروف التي وجدوا أنفسهم فيها تجمع بين الشعور بالحر وعدم الارتياح. وأرسل أفريقي غربي، هو أحد

العبيد التابعين للحملة سراً لإنذار السفن وإبلاغها بما وقع، وتسلل مبتعداً، وأفلح في استئجار قارب صيد صغير، وتحت جنح الظلام وصل إلى العمارة البحرية الصغيرة. وعندئذ بدأت مفاوضات معقدة بين باولو داجاما الذي تولى قيادة السفن خلال غياب أخيه والسامري، وبالنسبة إلى شخص حاد المزاج مثل داجاما فإن عجزه كان إذلالاً لا يطاق.

وسرعان ما كشف النقاب عن أن كبار التجار العرب في كالكوت كانوا وراء هذا التحول في مجرى الأحداث؛ حيث بلغتهم الأنباء من شرقي أفريقيا عن سلوك البرتغاليين، ولابد أن المسلمين قد سمعوا كذلك بأمر الحروب التي شنها البرتغاليون في المغرب، على امتداد قرن تقريباً، وعرفوا أن هؤلاء القادمين الجدد المسيحيين محدودو العدد، بحيث لا يمكنهم بدء القتال في الوقت الراهن، ولكنهم الآن وقد وجدوا الطريق البحري المفضي إلى الهند في نهاية المطاف، فمن المؤكد أنهم سيعودون بقوة أكبر. وربما أراد بعض القائمين بعملية الاحتجاز قتل قائد «الإفرنج النصراني» بينما هو في قبضتهم، لكن ذلك لم يكن حلاً، فالسفن الثلاث الراسية قبالة كالكوت ستبحر إلى وطنها لتروي القصة وسيكون الانتقام مؤكداً.

لو أن الحملة البرتغالية بأسرها أمكن القضاء عليها قضاء مبرماً في تلك اللحظة، بحيث يغدو مصيرها لغزاً، فلعل شعوب المحيط الهندي كان لها أن تتمتع بفسحة قبل أن يباغتها القدر[13]. غير أن السامري كان يبتعد على أي محاولة للقضاء على ضيوفه الذين فرضوا أنفسهم؛ لأن مثل هذه الفعلة من شأنها انتهاك المبدأين اللذين جلبا الازدهار لكالكوت؛ وهما حرية التجارة واحترام حركة السفر بحراً من قبل الأجانب. كما كان هناك كابح عملي كذلك، وهو مدافع السفن البرتغالية الموجهة إلى الشاطئ، بحيث يتعين اعتلاء متن السفن الثلاث والتغلب على أطقمها في قتال متلاحم، حيث إن كالكوت ليست لديها مدافعها الخاصة بها، وتركيبة البارود معروفة جيداً، ولكنها استخدمت أساساً في الألعاب النارية[14].

وشجع السامري على إطلاق سراح داجاما محاربو الناير الأربعة الذين قبلوا كرهائن، ولكن باولو داجاما قام في إيماءة تدل على بعد النظر بإطلاق سراحهم.

ووقفوا بين يدي الحاكم وطالبوا بقطع أعناقهم، وإذا لم يتم ذلك فإنهم سينتحرون، لأنهم قدموا للبرتغاليين كتأكيد لحسن نوايا السامري، وقد «حملوا رؤوسهم على أكفهم فداء لذلك». وهكذا، فإنه قبل ذهاب الأميرال البرتغالي إلى سفينة قيادته، أرسلت إليه من القصر هدايا وفيرة، جنباً إلى جنب مع رسالة اعتذار ودعي لشحن سفنه بالتوابل.

كانت كل محاولات السامري للمصالحة بلا طائل، فلن يتسامح داجاما مع ما جرى قط، وتوقد فؤاده لهفة للانتقام لهذه الإهانة التي لحقت بشرفه. وعلى سطح السفينة «سان جبريل» عانق أخاه، بينما أفراد طاقم السفينة ينظرون إليهما، وينخرطون في البكاء لفرط السعادة. وبعد ابتياع التوابل أعدت السفن لمغادرة كالكوت، في إطار الرحلة الطويلة إلى الوطن. وكتب فيلهو يقول: «ابتهج الجميع أشد الابتهاج لحسن طالعهم الذي تمثل في تحقيق اكتشاف عظيم». وقبيل رفع المراسي مباشرة، شق القشتالي الذي حيا نونيز بقوله: «ما الذي جاء بكم إلى هنا؟» طريقه إلى القصر، وقال إن البرتغاليين سيعودون بالتأكيد لمعاقبة كالكوت. وسيطر هاجس موح بالشر على السامري.

فبعث السامري برسول إلى داجاما، مهيباً به أن يبقى وقتاً أطول ويحمل المزيد من التوابل، قائلاً إنه سوف يعاقب من احتجزوه رهينة. وفي استجابة مشؤومة لهذه الرسالة، أمر الأميرال رجال المدفعية بإطلاق المدافع المنصوبة على جوانب السفن فوق المدينة، ثم رفعت الأشرعة البيضاء ذات الصلبان الحمراء الدموية. وقال داجاما، وهو يغادر كالكوت، إنه سيحين الوقت الذي «سيزداد فيه ندم» السامري.

لم تبق إلا رواية واحدة ذات طابع تقريري لهذه الزيارة الحافلة لدى الجانب الهندي، وجاء فيها: «أقبلت ثلاث سفن إفرنجية إلى بندارام كولام (قرب كالكوت). . . وفي هذه المرة لم تتاجر، وإنما عادت إلى بلادها البرتغال».

نكبت رحلة العودة إلى الوطن بالرياح المعاكسة؛ لأن البرتغاليين لم يتفهموا بعد الرياح الموسمية، وكانوا الآن من دون المرشد البحري الذي جلبهم من ماليندي.

وخلال تسكعهم قبالة الساحل الهندي احتموا بجزر اللاكاديف. وهناك زارهم زائر غير متوقع، هو مبعوث يتحدث الايطالية من دولة جوا (كوة) الواقعة على البر الرئيسي. وسرعان ما ثارت الشكوك حول أن هذا الشخص ذا القامة الممشوقة واللحية البيضاء هو جاسوس؛ فتم احتجازه، وأقر تحت التعذيب للبرتغاليين بأن أربعين سفينة حربية صغيرة تجدّ في أثرهم، وأنها لا تنتظر إلا صدور الأمر منه لشن هجوم عليهم. أما هو فإنه يهودي بولندي سافر إلى الشرق عن طريق الإسكندرية ومكة. وقد خان عن طواعية سادته الهنود، وذلك على أساس أنه «كان على الدوام مسيحياً في قرارة نفسه»، وكشف هذا الصديق الجديد لداجاما الموقع المحدد الذي تختبئ فيه سفن جوا.

أبحر البرتغاليون في صمت تحت جنح الظلام وألقوا بقنابل مليئة بالبارود وسط صفوف سفن أسطول الأعداء المتقاربة التي غرقت أطقمها في النوم. وتتابعت مشاهد الذعر مع اكتساح البرتغاليين لأعدائهم، فقد وثب الهنود إلى البحر، وبدأ العديد منهم في السباحة إلى جزر قريبة. وفي ضوء الفجر الرمادي، قاد داجاما رجاله في مهمة إنجاز مذبحة، وباستخدام مجاديف السفن «مضوا في البحر لقتلهم جميعا، وأوغلوا لقتل كل من لاذ بالجزر الصغيرة، حيث لم يبقوا على أحد». وبعد أن شحنوا سفنهم بالأرز والسمك المجفف وثمار النارجيل من السفن المهجورة، جمعوا العبيد الذين كانوا يقومون بالتجديف، واختاروا الأقوى منهم للقيام على شؤون مضخات سحب المياه المتدفقة للسفن وأعدموا الباقين.

وحرص داجاما على أن يشاهد الصيادون المحليون ما يجري، لكي ينشروا نبأ الكيفية التي ثأر الفرنجة بها لأنفسهم، ثم أظهر امتنانه للجاسوس الخائن الذي منحه هذا النجاح. ومتخذاً لنفسه دور الأب الروحي أصدر تعليماته لقسيسه بتعميد هذا البولندي تحت اسم جاسبار. وقدر لمن سمي بجاسبار داجاما، أو جاسبار جزر الهند، أن يصبح شخصية شهيرة في الأساطير البرتغالية.

حفلت رحلة العودة عبر المحيط الهندي بالكوارث؛ وكما يقول كاتب اليوميات فيلهو: «كنا وجهاً لوجه مع الموت». واستغرق الأمر من البرتغاليين الذين أثار حيرتهم

عدم هبوب الرياح بانتظام، وعجزوا عن تحديد مواقعهم على خطوط العرض، ثلاثة أشهر لقطع ما لم يستغرق ثلاثة أسابيع في رحلة الذهاب إلى الشرق. وتحول الابتهاج الذي استشعره رجال داجاما من قبل إلى يأس قاتم. واحتفلوا بعيد ميلاد عام 1498 دون حماس وانتهى العام من دون أن تقع أنظارهم على اليابسة. وأخيراً، وفي الثاني من كانون الثاني/ يناير عام 1499 بلغوا ساحل أفريقيا. كان ثلث الرجال التسعين الباقين على قيد الحياة، الذين انطلقوا من كالكوت عائدين إلى الوطن قد لقي حتفه، وسقط الكثيرون مرضى، ولم يكن هناك من الرجال الأصحاء ما يكفي لتشغيل السفن إلا بصعوبة.

لما كان ملاحوه قد لاقوا حتفهم، فإن داجاما لم تكن لديه إلا فكرة بالغة الغموض عن موقعه، حيث اعتقد أنه قبالة موزمبيق، ولدى رؤية البرتغاليين لميناء كبير، وإدراكهم أنه ميناء مقديشو (على بعد ما يزيد على ألف وخمسمئة ميل إلى الشمال من موزمبيق) قاموا بقصفه، وربما كان عدوانهم عائداً لضعفهم، حيث كان الهدف هو ردع أي سفن محلية عن شن هجوم عليهم. وعلى مسافة أبعد باتجاه الجنوب، قرب لامو، اقترب منهم أسطول صغير من السفن العربية، وعادت مدافعهم تدوي من جديد.

وعندما لاحت ماليندي للعيان انتعش الأمل أخيراً في قضاء فترة راحة، وكان السلطان ما يزال ودوداً، ولكن داجاما صار الآن شديد الحرص على الإسراع بالدوران حول رأس الرجاء الصالح، والانطلاق إلى مياه الأطلسي المألوفة لدى البرتغاليين بشكل أكبر. وتناول رجاله المتناقصون ما طاب لهم من البيض والدجاج والبرتقال، لكن الموت واصل مطاردتهم، فحصد سبعة في أسبوع واحد. وقدم السلطان ناب فيل نحت على هيئة بوق كتلك الأبواق التي ينفخها تابعوه وذلك كهدية للملك مانويل، كما أمدهم بالمرشدين البحريين الذين سيرشدون البرتغاليين إلى أفضل الطرق جنوباً على امتداد الساحل الأفريقي ثم يصحبونهم في طريق العودة إلى لشبونة.

لم يرغب داجاما في التوقف في أي موضع، ولكن على مسيرة أيام قلائل إلى الجنوب من ماليندي بدأ الماء يتسرب بشكل بالغ السوء إلى السفينة «سان رفايل» التي

يقودها أخوه بحيث تعين التخلي عنها. وتم توزيع أعضاء الطاقم ومقتنياتهم بين سفينة القيادة «سان جبريل» والسفينة الشراعية الصغيرة والقوية معاً، التي يقودها نيكولو كويلو، والمسماة «بيريو» وأضرمت النار في السفينة الخاوية، واستؤنف الرحيل باتجاه الجنوب.

أبقت السفينتان اللتان تولى توجيههما المرشدون البحريون المحليون اليابسة على مرمى البصر. وكان ذلك في وقت من العام تجتاح خلاله ذلك الجزء من شرقي أفريقيا عواصف مطيرة، ولكن داجاما أصر على التوقف عند جزيرة موزمبيق لإقامة أحد الأعمدة التي تشكل معالم برية. ويلاحظ فيلهو بمزيد من الحزن في مذكراته أن: «المطر انهمر بغزارة بالغة، إلى حد أننا لم نستطع إشعال النار لصهر الرصاص، وتثبيت الصليب على العمود، ولذلك ظل من دون صليب».

وعندما ابتعدوا عن موزمبيق، توقفوا مرة أخرى في خليج هادئ لذبح الفقمات وصيد الطيور، وتم تمليحها، وتخزينها تحت سطحي السفينتين لاستخدامها في المرحلة النهائية، أي من جنوب المحيط الأطلسي إلى لشبونة.

وتم الدوران حول رأس الرجاء الصالح بحلول نهاية شهر آذار/ مارس، والإبحار نحو خط الاستواء وساحل غينيا، وخلال ما يتجاوز الشهر بقليل تم الوصول إلى كيب فيردي (الرأس الأخضر)، وعرف داجاما أن لواء الفوز قد انعقد له حيث كانت هذه الجزر بمنزلة الوطن تقريباً للبرتغاليين. ومع ذلك فقد كان الثمن البشري الذي تم دفعه لقاء هذا الفوز باهظاً، فأولئك الرجال الذين اختيروا بعناية لما تميزوا به من صلابة وشجاعة، والذين انطلقوا معه، لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلثهم. وقدر لأخيه باولو أن يصبح الضحية الأخيرة. وعندما رأى داجاما صحة أخيه باولو تضمحل، أمر السفينة الشراعية «بيريو» بالإسراع بالتوجه إلى الوطن حاملة نبأ النجاح، وترجل الأخوان من السفينة «سان جبريل» التي كان الماء يتسرب إليها، وأثر عليها المناخ تأثيراً بالغ السوء، واستأجرا سفينة صغيرة سريعة لتقلهما إلى لشبونة عن طريق جزر الأزور حيث قضى باولو نحبه.

واستقبل الملك مانويل فاسكو داجاما الفخور وإن كان الحزن قد استبد به، باعتباره «أمير البحر الصديق». وألقى داجاما بنفسه على الأرض بين يدي الملك، ولف ذراعيه حول ساقي العاهل البرتغالي، وصاح: «مولاي لقد انتهت كل مشاقي في هذه اللحظة، وإني راض تمام الرضا، حيث أحضرني الرب لأمثل أمام جلالتكم في نهاية المطاف سالماً غانماً حسبما أردت!». وانهالت على داجاما آيات التكريم، وكوفئ بمنحه مبلغ عشرين ألف كروزادو[15]. وقص لحيته رمزاً لتحقق مهمة عظيمة حيث لم يكن قد شذبها منذ مغادرته البرتغال قبل ما يزيد على العامين. وإجمالاً كانت رحلته التي قطع خلالها أربعة وعشرين ألف ميل أطول من رحلة كولومبوس لاكتشاف العالم الجديد أربع مرات، وأطول من ضعفي أي رحلة قام بها البحارة الأوربيون في بحار مجهولة قبلهم.

أما الملك مانويل فقد أخذ هذا الانتصار مأخذاً شخصياً، وأعلن نفسه في التو «سيد غينيا وفاتح أثيوبيا وشبه الجزيرة العربية وفارس والهند وصاحب الإبحار والتجارة فيها».

الفصل العشرون

كبرياء ابن ماجد

لقد ألفت زهر النجوم رعايتي
فإن غبت عنها فهي عني تسائل
يقابل بالتسليم منهن طالع
ويومئ منهن آمل[1]

ابن ماجد - في الفائدة الرابعة

من كتاب **«الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول»** (حوالي 1490)

على الرغم من أن إنجاز داجاما كان رائعاً، فإنه لاشك في أن المساهم الرئيسي في نجاحه كان من غير دينه، وهو المرشد البحري المسلم العجوز الذي أطلعه على الطريق عبر المحيط الهندي إلى كالكوت. وقد غدت السفن البرتغالية قريبة من الدمار عندما تركت وشأنها في رحلة العودة، وأثارت الرياح والتيارات حيرة ملاحيها.

في وقت لاحق أظهر العرب مرارة يمكن تفهمها حيال هذا المرشد البحري وهو رجل من بني جلدتهم أطلع طواعية «الفرنج الملاعين» على الطريق إلى الهند. وبالنسبة إليهم كان هذا هو أشد ألوان الخيانة، ذلك أنه من دونه ربما مضى هؤلاء القادمون الجدد العدوانيون يضربون على غير هدى في أرجاء البحر، من دون معرفة بالرياح الموسمية ولا بالتيارات ولا بموقع المدينة التي يستهدفونها. وبالنسبة إلى البرتغاليين لم يكن هذا المرشد البحري إلا موظفاً ودوداً، لقبوه باسم «المعلم كاناكا» أو «القبطان الفلكي» وهي إشادة بمهارته في استطلاع النجوم*.

* تعد الادعاءات القائلة بأن ابن ماجد، والذي يعد أشهر الملاحين العرب، قد قاد البرتغاليين من الشاطئ الأفريقي إلى كالكوت مجرد افتراضات لا تستند إلى وثائق يعتد بها، مما يرجح عدم مصداقية هذه الادعاءات التي تهدف النّيل من إنجازات ابن ماجد المقدرة في تاريخ الملاحة من جهة، وتعزيز إسهامات البرتغاليين في التاريخ الملاحي من جهة أخرى. (المحرر)

يرد ذكر من يلقب بـ«المعلم كاناكا» مرتين في «اللوسيادة» وهي القصيدة الملحمية التي نظمها لويس دي كاموس، احتفاء بالاكتشاف البرتغالي للهند. وترد الإشارة الأولى لدى مغادرة السفن الثلاث للساحل الأفريقي:

يبحر المرشد في مواجهة كاملة للشمس المشرقة،
وينطلق بعيداً عن الشاطئ، في قلب المحيط.
ثم عندما يرصد الرجال اليابسة من المرقب
عالياً يهتف مرشد ماليندي
انظر، أيها الربان، ها هي ذي شواطئ الهند تلوح للعيان!

الاسم الحقيقي لهذا المرشد البحري الجليل هو أحمد بن ماجد. وقد كشف النقاب عن هويته للمرة الأولى عربي من أبناء جلدته هو قطب الدين النهروالي[2] في تأريخه للفتح العثماني لليمن. والفقرة التي تعنينا يرد فيها:

«وقع في أول القرن العاشر للهجرة (1495 ـ 1591) ميلادية من الحوادث الفوادح النوادر، دخول «الفرتقال» اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند. وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر، ويلجون الظلمات، ويمرون بموضع قريب من جبال القُمْر، بضم القاف وتسكين الميم، جمع أقمر، أي أبيض، وهي مادة أصل بحر النيل، ويصلون إلى المشرق، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل، والجانب الثاني بحر الظلمات، في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم، وتتكسَّر فلا ينجو منهم أحد. واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في هذا المكان، ولا يعبر من طائفتهم أحد إلى بحر الهند، إلى أن عبر منهم غراب إلى الهند، فلازالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر، يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج، وكان يقال له الملندي، فقال لهم: «لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج»، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر الكثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند، وبنوا في كوة من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا. ثم أخذوا هرمز وتقووا هنالك، وصار المدد

يترادف عليهم من البرتغال، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصباً، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم المسافرين»[3].

مع ذلك فإن هناك أسباباً أخرى أقل إثارة للاختلاف، تدعو لتذكر اسم ابن ماجد، فهو من أعظم الكتاب في الشؤون البحرية نشاطاً، في أي الأعراق أو العصور. وهو ابن وحفيد لقبطانين عربيين، ينسب إليه تأليف أربعين عملاً على الأقل؛ تقع كلها تقريبا في أشكال شعرية مختلفة هي مزيج من الشعر والنثر[4]. وقد بقي أكثر من نصف هذه الأعمال في مجموعات مختلفة من المخطوطات. وعن جدارة دعاه البرتغاليون بـ «القبطان الفلكي». حيث إن أراجيزه المطولة تتطرق إلى أدق التفاصيل، حول القياس النجمي لتحديد موقع السفينة[5]. وكانت المهارات الملاحية على طرق المحيط الهندي المزدحمة بالحركة البحرية، متطورة إلى حد كبير بالفعل لدى وصول البرتغاليين. ولكن ابن ماجد يوضح أنه يعتبر نفسه حجة في هذا الشأن.

في أشهر أعماله المتضمنة توجيهات للبحارة، والذي يقع في اثنى عشر جزءاً، والمسمى **«الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول»** يبلغ القارئ مراراً وتكراراً، بأنه أمضى حياته في البحر، ورصد النجوم على نحو مستمر، وأن إرشاده ينبغي أن يعمل به كل من يسعى لتجنب الكوارث. وهو أبعد ما يكون عن التواضع، ولكن استناداً إلى سبب وجيه، فمقدرته تصل إلى حد أنه حتى عندما يحتجب النجم القطبي وراء السحاب، فإنه في قدرته تحديد موقعه على وجه الدقة، بقياس موقع عشر نجوم أخرى أو أكثر يمكن رؤيتها. وهو في أحد المواضع ينظم قصيدة عن نفسه يقول فيها:

أنفقت عمري على علم عرفت بـه   فازددت بالعلم توقيراً على كبري
لو لم أكـن[6] كـذا أهـلاً لما عنيـت   بي الملوك، وهـذا غايـة الوطر[7]

غير أن شعر ابن ماجد لا يتسم كله بهذا المنحى الجدي، وإنما تتخلل إرشاداته البحرية قصائد قصيرة، تظهره على نحو بارز عاشقاً للمباهج[8].

لقد أشار بعض المعجبين بكتابات بن ماجد إلى أنه قد لا يكون في نهاية المطاف المرشد البحري الذي قاد «الفرنج الملاعين» إلى الهند. ويمكنهم أن يستمدوا التأييد، بهذا

الصدد من الإشارات البرتغالية إليه، ففي هذه الإشارات يدعى هذا المرشد على الدوام بـ «المعلم كاناكا» أو بلقب آخر مستمد من هذه التسمية، ولكنه لم يُدع ابن ماجد قط، كما يوصف كذلك بأنه الـ«عربي من جوزرات» وهو ما يعني ضمناً أنه جاء من جالية عربية في أحد الموانى المزدهرة إلى الشمال من جوا (كوه) بينما مسقط رأس ابن ماجد الأكثر احتمالاً يقع في شبه الجزيرة العربية[9]. وربما كان يمكن أن نجد مصدراً يعتمد عليه في الجندي كاتب اليوميات الفارو فيلهو، ولكن ملاحظاته المشوشة تزيد من غموض اللغز، فهو في وصفه للرحيل عن ماليندي يقول: «سعدنا كثيراً بالمرشد البحري المسيحي الذي بعث به الملك إلينا». وهو يزعم أن «المعلم كاناكا» (Canaqua) أو (Kanaka) هو اسم طائفة المرشد الملاحي، على الرغم من أن الـ «العربي من جوزرات» لا يحتمل أن يكون مسيحياً، ولا يمكن أن يكون منتمياً إلى أي طائفة.

غير أن كتابات ابن ماجد تؤكد أنه قد أبحر إلى جوزرات مرات لا حصر لها. والتفسير الأكثر احتمالا هو أنه عندما وجده البرتغاليون في ماليندي كان قد تولى لتوه قيادة سفينة عبر المحيط الهندي إلى أفريقيا، لحساب أحد تجار جوزرات الأثرياء الكثيرين، وربما أذكت غروره فكرة إظهار جرأته لهؤلاء الغرباء الأقوياء. فعلى الرغم من أنه كان قد أوغل في الستينيات من عمره، فإنه كان لايزال مفعماً بالحيوية والكبرياء، وربما اجتذبه فضول مهني يدور حول سفنهم إلى الحوار معهم، ناهيك عن اكتشافه أن لديهم على متن السفن مخزوناً وفيراً من الخمر، التي يقول في وصفها:

صفراءُ ساطعةٌ كالنارِ لم أرها ... في الكاسِ إلا نفتْ هميٍّ وأحزاني

أصلحتها بقراحِ الماء من حذري ... وكيف تصلح أمواهٌ لنيـران[10]

هناك رأي أخير يدعو لتبرئة ابن ماجد من تهمة الخيانة وكشف أسرار المحيط الهندي، وقوامه أن اسمه ربما تم زجه في هذا السياق لمجرد الانتقام في إطار نزاع طواه النسيان. ومن المؤكد أن العداء الديني هو أمر محتمل، حيث أشيع بأن ابن ماجد من الشيعة، ولم يشتهر بالتقوى والورع، بينما كان أبرز متهميه، وهو قطب الدين النهروالي، يعيش في مكة، ومن المرجح أنه كان سنياً[11].

غير أن البرهان الحقيقي كمن منذ عهد طويل في كتابات ابن ماجد نفسه، من دون أن يكشف أحد النقاب عنه، وبصفة خاصة في أرجوزته الأخيرة المعروفة **بالأرجوزة السفالية**. وقد كان وجود هذه الأرجوزة مجهولاً، حتى منتصف القرن العشرين، عندما اكتشفها باحث سوفيتي في المحفوظات في لنينجراد (سان بطرسبرج). وربما نظمت هذه الأرجوزة في عام 1500، وفيها يروي كيف أن السفن البرتغالية قد منيت قبل سنوات عديدة من حملة داجاما بكارثة بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح، والإبحار إلى ميناء سفالة الموزمبيقي، على وجه التقريب.

وتحدثنا **الأرجوزة السفالية** بالمزيد عن البرتغاليين، وعن صلات ابن ماجد بهم. وهي أرجوزة تستطرد من موضوع إلى آخر، مكررة العديد من التفاصيل الواردة في كتاباته الأقدم عهداً. وهو يعود مراراً وتكراراً إلى أفعال البرتغاليين في المحيط الهندي، ويصف كيف أن الحال وصلت بهم إلى مهاجمة مكان بعد الآخر. ويرجع أول ظهور لهم، بحسب تأريخه، وبعد تحويله من التقويم الهجري إلى الميلادي، إلى عامي 1495-1496 عندما حلت كارثة بإحدى سفنهم قبالة سفالة. ثم يعاودون الظهور، فيصلون إلى مبتغاهم: «ورجعوا من هندهم للزنج»[12] وقد تحدث بن ماجد عن وصول البرتغاليين إلى كالكوت[13]، [14].

وهو لا يتيح كبير مجال أمام القارئ للشك في صلاته الوثيقة بالبرتغاليين، مستخدماً عبارات مثل: «أسنده أيضاً لنا الفرنج»[15]. ثم ترد روايته للجزء الأول من رحلة البرتغاليين عبر المحيط الأطلسي.

إن هذا على وجه الدقة الوقت الذي سجله الفارو فيلهو في يومياته، والذي استغرقته الرحلة من دون توقف من جزر كيب فيردي (الرأس الأخضر)، عبر جنوب المحيط الأطلسي إلى رأس الرجاء الصالح. والطريقة الوحيدة الممكنة التي كان يمكن لابن ماجد أن يطلع من خلالها على مثل هذه المعلومة من البرتغاليين الكتومين هي العيش بين ظهرانيهم، على نحو ما فعل خلال رحلة العبور التي استغرقت ثلاثة أسابيع من ماليندي إلى كالكوت.

يقول ابن ماجد إنه يعجب بالبرتغاليين لـ«علمهم» ومهارتهم في الملاحة، وهو يحث قراءه العرب على أن يتعلموا منهم «من بعد موتي». ولكن قبيل نهاية الأرجوزة تأتي صيحة الندم المفعمة بالألم:

يا ليتَ شعري ما يكونُ منهمُ
والناس معجبون منْ أمْرِهُمْ(16)

ومن المعتقد أن ابن ماجد قد توفي بعد عام أو عامين من نظمه للأرجوزة السفالية.

الفصل الحادي والعشرون

هدير الغيظ الأوربي

أثارت السفن التي شحنت بأكوام عالية من الأسلاب؛ وبينها الفلفل والقرفة وجوز الطيب والحرائر واللآلئ والياقوت نهم أوربا؛ فقد أحدث البرتغاليون الثغرة التي تسابقت بنات آوى عبرها للنهش حتى الامتلاء. وسوف تتصدى قلة محدودة من المؤرخين الأوربيين لعواقب الهجوم الغربي القاتل على الهند والشرق، الذي لم يمزق نسيج التجارة فحسب، وإنما الثقافة كذلك، وقسم الممالك وأوقف استمرارية الحياة السياسية، ودفع بالصين واليابان إلى عزلة معادية.

بروفسور جي. هـ. بلومب

«مقدمة لإمبراطورية البرتغال البحرية» - تأليف: ك. ر. بوكسر (1969)

عندما وصل أوائل الباقين على قيد الحياة من حملة داجاما إلى لشبونة، على متن السفينة الشراعية الصغيرة «بيريو»، لم يستطع العاهل البرتغالي كبح جماح كبريائه وانفعاله، وسارع بكتابة رسالة إلى فرديناند وإيزابيلا ملك وملكة إسبانيا، يبلغهما فيها بالإنجازات التي حققها بحارته في المحيط الهندي. وكان العاهلان الإسبانيان قد أصيبا في ذلك الحين بشعور بخيبة الأمل حيال الاكتشافات التي توصل إليها كولومبوس قبل سنوات باسميهما، وهكذا لم يكن مانويل بحاجة إلى التلميح إلى أن النصف الخاص به من العالم بدا واعداً على نحو أكبر؛ فقد كان ذلك جلياً وبلغ رجاله الهند، وعادوا بالتوابل كبرهان على ذلك، بينما من المؤكد أن الجزر التي اكتشفها كولومبوس لم تكن الهند، ولم تجلب سفنه إلى الوطن أي شيء له قيمة تذكر. لقد التقى البرتغاليون «راجا كالكوت» المتزين بالجواهر في قصره المتألق، لكن سكان الجزر في الجانب الغربي من الأطلسي لم يكونوا إلا فقراء ومتخلفين وهمجاً.

أمر مانويل بانطلاق مواكب دينية في مختلف أرجاء مملكته الصغيرة احتفالاً بهذا الانتصار؛ هذا الفوز الذي انعقد لواؤه للعالم المسيحي. وأكد لفرديناند وإيزابيلا أن في

الهند العديد من المسيحيين «على الرغم من أنهم ليسوا بعد راسخي اليقين، ولا يمتلكون ناصية المعرفة بالدين». ولكن ما أن يجعلهم البرتغاليون يعتنقون تعاليم الكاثوليكية الحقة «حتى تتاح الفرصة للقضاء على عرب هذه الأرجاء». وكان مانويل يعرف أن هذا القول سيلمس وتراً حساساً، فلم تمض إلا سبع سنوات منذ قيام العاهلين الإسبانيين بطرد آخر المسلمين من قشتالة. وقد عقد فرديناند وإيزابيلا العزم على مواصلة مقاتلة «العرب» في أي مكان يجدونهم فيه، لذا فقد كان من قبيل المفاجأة لهما ألا يكون للعرب وجود عبر الأطلسي. وهكذا فقد كان امتيازا ممتعاً لمانويل أن يوسع نطاق الجهاد المقدس في الأقاليم النائية، والحرب «سيتم المضي بها قدماً بمزيد من الحماسة، في الأراضي التي غزوناها» حسبما وعدهما.

تصاعد الشعور بأن هذا الأمر يشكل مهمة مقدسة، وهو الشعور الذي سيطر على مانويل؛ لأن نهاية القرن التي تشكل نقطة انتصاف الألفية الثانية، غدت جد قريبة. وفي ذلك العصر الذي سادته الخرافات دار الحديث عن عودة المسيح وعن الزلازل والفيضانات والأوبئة لمعاقبة الأشرار. وآمن الكثير من البرتغاليين بالاعتقاد الصوفي في «المحتجب» الذي سيظهر ويمنحهم الحق في حكم العالم بأسره. كان عصر اختمار ديني تصاعدت فيه المطالبات بإصلاح الكنيسة الكاثوليكية. وقد شهد القرن المحتضر كذلك كلاً من الانتصار والهزيمة في الحرب ضد الإسلام، فقد تم طرد المسلمين من أراضي أوربا الغربية، ولكن إلى الشرق كان الهلال التركي دائماً في مزيد من الصعود. وعن طريق الإبحار إلى المحيط الهندي لم يكن البرتغاليون على أهبة الاستعداد لانتزاع تجارة التوابل من البندقية فقط، وإنما كانوا كذلك متأهبين لمحاصرة الإسلام والقضاء على الحلم العثماني بغزو العالم، وأجّج هذا نيران تصوراتهم للتواصل مع الراهب يوحنا، والقيام بهجوم مشترك لتدمير مكة التي كانت بالنسبة إليهم «قلعة الكفرة».

وشعر مانويل بالزهو لأن وصول أسطول داجاما البحري الصغير قد أخذ إقليم المحيط الهندي على غرة. وقد كان ذلك راجعاً في أحد جوانبه إلى سعة حيلة ملوك لشبونة المتتابعين، ولكن كان هناك عامل آخر، فالانقسام الأكثر حدة بين العالمين المسيحي والإسلامي الذي أوجده الفتح التركي للقسطنطينية عام 1453، كان معناه أن

تدفق المعلومات من البحر المتوسط إلى الشرق أصبح أقل بكثير، ومع سقوط غرناطة عام 1492 فقد المسلمون موقع التنصت الأخير لهم على بر أوربا الغربية. وحتى البنادقة الذين كان لهم جواسيسهم في لشبونة، لم ينشروا فيما يبدو أي شائعات حول الأحداث الكبرى التي قدر لها أن تكون مدمرة تماماً، لاحتكارهم للتجارة الأوربية في التوابل.

ولى عهد التزام السرية الآن، وبدأ التجار والمصرفيون الإيطاليون في إرسال أنباء الحملة من البرتغال إلى وطنهم، مع أوصاف شهود عيان للحياة الهندية. وجاء في تقرير من هذا النوع أن كالكوت «أكبر من لشبونة».

وحرصاً من مانويل على ردع أي منافسين يعلقون الآمال على اغتصاب حقوقه، أصدر أوامره بإبحار مجموعة سفن ثانية إلى الهند في بداية الربيع التالي، وبينما أعطيت لداجاما ثلاث سفن، ومجموعة كاملة من الرجال، تقل عن مئتي رجل، فإن القائد الجديد ستوضع تحت إمرته ثلاث عشرة سفينة وألف ومئتا رجل[1]. وستكون اثنتا عشرة سفينة من طراز «الناوس» القادرة على نقل حمولات كبيرة، حيث إنه كان واضحاً مما دفعه داجاما مقابل الحصول على التوابل في الهند، مقارنة بتكلفتها في أوربا، أن من الممكن جني أرباح طائلة. وأكد ذلك آمال مانويل التي علقها على أن المهمة الربانية المتمثلة في القضاء على الإسلام ستقترن على نحو موات بالمنافع الدنيوية الخاصة بالسيطرة على تجارة التوابل، وليس من قبيل المصادفة أن مانويل سرعان ما سيتعرض للسخرية – من جانب نظيره ملك فرنسا – الذي تحدث عنه باعتباره «الملك البقال».

أبحرت مجموعة السفن التي تولى قيادتها بيدرو ألفاريز كابرال[2]، وهو أرستقراطي في أوائل الثلاثينيات من العمر، من نهر التاجوس، في الثامن من آذار/ مارس عام 1500. وكان هذا وقتاً مبكراً بالنسبة إلى فصول العام للانطلاق في مثل هذه الرحلة، لكن الملك أصر على ذلك. وخلال إحدى العواصف فقدت سفينة اتصالها بباقي سفن الأسطول وعادت إلى الوطن، لكن كابرال واصل المسير شاقاً

طريقه عبر قوس أوسع من تلك التي سار فيها داجاما في المحيط الاطلسي في عام 1497 . ولتعويض افتقاره للخبرة كان معه قباطنة لبعض السفن يعرفون هذه الأقاليم جيداً، وكان أحدهم هو بارتلوميو دياز. الذي كان قد دار حول رأس الرجاء الصالح قبل خمسة عشر عاماً تقريباً، وهناك قبطان آخر هو نيكولو كويلو، الذي قاد السفينة الشراعية الصغيرة «بيريو» إلى الهند وعاد بها مع داجاما.

وأوغل كابرال في المسير غرباً إلى حد أنه بلغ ساحل البرازيل، وتوقفت سفنه هناك قليلاً، قبل أن تعالج أمر رأس الرجاء الصالح[3] (من شبه المؤكد أن البرازيل قد اكتشفها قبل ذلك بعامين دوارتي باتشيكو، ولكن في هذا الوقت كان الاهتمام البرتغالي بها محدوداً). وأبحرت السفن مجدداً وغذت المسير، ولكن عاصفة عنيفة ضربتها قرب رأس الرجاء الصالح؛ فغرقت أربع سفن بكل من كانوا على متنها، ومنها السفينة التي يقودها دياز.

بعد هذه النكسة شق كابرال طريقه صعداً في ساحل الناتال باحثاً عن سفالة التي اشتهرت باعتبارها المرفأ الذي يمضي الذهب الأفريقي منه إلى الهند. وأدرك البرتغاليون أنهم باحتكارهم تجارة سفالة قد يحصلون على الذهب بسعر أرخص من ذلك الذي يمكن ابتياعه به في أوربا، ثم يستطيعون استخدامه لدفع ثمن توابل الهند، وبذلك تتضاعف أرباحهم النهائية، ولو قدر لدياز أن يحيا لأصبح حاكم سفالة البرتغالي. وتقرر التخلي في الوقت الراهن عن أي فكرة تتعلق بإنشاء مستعمرة هناك، فدخول المرفأ صعب، ولذا فربما خشي كابرال المياه الضحلة القريبة منه لأن السفن الموجودة تحت إمرته مباشرة لم تعد تتجاوز الآن الست فحسب، وانقطع الاتصال بالسفن الأخرى. ورست إحدى السفن قبالة سفالة ثم تقدمت بتقرير موجز وبعيد عن الدقة جاء فيه: «هذه جزيرة تقع قرب عائق في نهر، يسكنها العديد من التجار، وتجلب مقادير لا متناهية من الذهب إلى هناك من داخل أفريقيا من قبل رجال قصار القامة ولكنهم أقوياء وبشعون للغاية، خفيضي الأصوات، من أكلة لحوم البشر، وبصفة أساسية لحم أعدائهم». ومدينة سفالة «تحت سلطان ملك كلوة».

انطلق كـابرال قـاصـداً كلوة وهو على يقين الآن من أنهـا إحدى ثلاث مدن رئيسـة، على امتـداد سـاحل أفـريقيـا الشـرقي، والأخـريان همـا ممبـاسـا ومـاليندي. وتمثلت التعليمات المعطاة له في إنشاء محطة تجارية هناك والمطالبة بقبول السكـان للمسيحية ديناً لهـم من الآن فصاعـداً. غير أن الأنبـاء التي تفيـد معـاودة البـرتغاليين الظهور في المحيط الهندي كانت قد أثارت الخوف في كلوة بالفعل، وبدت الأساليب التي يحتمل أن يستخدمها الفرنج واضحة تماماً لحاكم كلوة السلطان إبراهيم. وكان قد شاد دفاعاته، وجند المئات من حملة الأقواس والسهام الأفارقة الذين جلبهم عبر الممر المائي الضيق، الذي يفـصـل الجـزيرة عن البـر الأفـريقي. وعلى الرغم من هذا كله، كـانت خطواته الأولى ذات طابع تصـالحي عندما ظهـر الضيـوف الذيـن لم يَدعُهم أحد، حيث أرسل حمولات قوارب من الطعـام؛ بما فيها الماعز الحية، ووجه الدعوة إلى الأميرال للقدوم إلى الشاطئ لإجراء محادثات.

رفض كـابرال هذه الدعـوة قـائلاً إنه لا يهبط إلى الشـاطئ أبداً إلا للقتـال، وبدلاً من ذلك فـإن على السلطان المجيء إليـه. ورفض حـاكم كلوة ذلك خـوفـاً من أن يقـوم النصارى باتخاذه رهينة. وساد الجمود طوال يومين دنا خلالهمـا كابرال من الشـاطئ، وواصل توجيه مدافعه إلى المدينة. وأتيح للبرتغاليين وقت مناسب لدراستها، وإن كان ذلك من بعيد، وتأثروا بهـا تماماً على نحو ما تأثر ابن بطوطة قبل قرن ونصف القرن(4). فالدور «مبنية بطرقنا» ولها أبواب جميلة النحت، حسبما أشار مؤرخ في وقت لاحق. ويرتدي المواطنون الأثرياء «ملابس مذهبة، وحريرية، وقطنية». وحول المدينة بساتين وحدائق، تتخللها «قنوات عـديدة عـذبة المياه». وقد أطل القصـر، وهو مجمع مؤلف من قاعات استقبال وغرف خاصة، تحف بمسبح ونافورات في المركز يطل على المحيط، وله مرفأ خاص به.

وأعلن السلطان بعد يومين أنه على استعداد لملاقاة الأميرال في البحر، وأبحر بمعية كثيرين، وقد ارتدوا جميعاً أفخر الثياب والخناجر التقليدية في خصورهم، عبر المرفأ على مركب مؤلفة من زورقين. ومضى موسيقيوه ينفخون في الأبواق العـاجية، ورد البرتغاليون بأبواقهم. وكاستعراض للقوة أطلق كابرال مدافعه فأثار هديرها المدوي

كالرعد، والذي لا يحاكيه أي شيء سمعه الناس في كلوة من قبل، شعوراً بالفزع، ثم سلم إلى السلطان رسالة باللغة العربية من الملك مانويل تفيد بأن البرتغال ترغب في الحصول على ذهب سفالة، وتعتزم إنشاء مركز تجاري في كلوة. وفي نهاية المطاف جاءت مسألة التخلي عن الإسلام، وهو مطلب ليس بالهين يطرح على مدينة تضم أضخم مسجد في البر السواحيلي بأسره.

قال السلطان إن عليه أن يفكر في توقيع معاهدة حول هذه الأمور، وأن يتداول في الأمر مع مستشاريه، ولكن بعضاً منهم كانوا في البر الأفريقي لشن الحرب ضد «كفار المولي». ثم عاد إلى قصره في الجزيرة. وكما اكتشف البرتغاليون بعد ذلك بمزيد من الأسى فإن «السلطان» لم يكن إلا شخصاً ينتحل اسمه، حيث تطوع شيخ يدعى لقمان علي مالك في جرأة للقيام بهذا الدور تحسّباً لمحاولة الزوار اختطاف السلطان إبراهيم.

انتظر الأميرال بصبر نافد وصول رد على اقتراحاته فلم يصله شيء، وقيل للبرتغاليين إن بضاعتهم لم تلق الاستحسان، وعندما طلبوا ماء للشرب جلب إلى الشاطئ في جرار فخارية، ثم هشمت الجرار كافة، وأوضح السلطان أن هذا التهشيم هو من عمل أحد المعتوهين، لكنه لم يقدم المزيد من الماء. وتشاور كابرال مع قباطنته، وتم الاتفاق على رفع المراسي ومواصلة الإبحار، على أن تتم معالجة أمر كلوة المشاكسة في وقت لاحق.

تم الاستيلاء على عدد محدود من السفن التقليدية العربية في الطريق شمالاً، ولكن القطع البحرية بقيت بعيداً عن ممباسا، وأرشدها إلى ماليندي المرشدون البحريون المحنّكون، الذين كانوا قد ارتحلوا مع داجاما. وكما كانت الحال في السابق، ظل السلطان على كرم وفادته ولكن أعرب عن شكواه من أن ممباسا تشن الحرب عليه، كعقاب له على صداقته للفرنج، وأبدى كابرال تعاطفه مشيراً إلى أن معالجة أمر ممباسا ستتم في وقت لاحق.

توقف البرتغاليون خمسة أيام فقط قبل معالجة أمر عبور المحيط الهندي، ولكن فترة بقائهم حسبما يقول المؤرخون، استغرقتها احتفالات مترفة للغاية. ومثل هذه الروايات

ينبغي التعامل معها بتحفظ، حيث إن المبالغة في وصف عظمة الأصدقاء من الملوك من شأنها أن تجعلهم أكثر جدارة بلفتات مانويل السخية، وفضلاً عن ذلك فقد عوضت عن إخفاقهم حتى الآن في الاتصال بالراهب يوحنا.

تمثلت إحدى الخطوات الأخيرة التي قام بها كابرال في ماليندي، في إرسال اثنين من «الديجريدادو» إلى الشاطئ بعد إصدار أوامر إليهما بالسفر إلى الداخل، إلى أن يبلغا أرض الراهب يوحنا[5]. ولو أنهما أفلحا في ذلك لكان إنجازاً مثيراً للدهشة، فلم يكن البرتغاليون يعرفون شيئاً عن الداخل الأفريقي، وحتى فكرتهم عن خط الساحل كانت لاتزال بعيدة عن الوضوح. وتؤكد إحدى الروايات المعاصرة: «هاتان المملكتان، كلوة وماليندي، تقعان على الجانب الغربي من البحر الأحمر، قرب أراضي الأغيار ويوحنا الراهب». ويقع مدخل البحر الأحمر على مسافة تزيد على ألف ميل إلى الشمال من ماليندي.

ومع إبحار كابرال نحو الهند لم يساوره شك في أن التجار المسلمين في كالكوت سينظرون إلى البرتغاليين باعتبارهم أعداء في كل من الدين والتجارة. ومن ناحية أخرى فإن فاسكو داجاما قد أشار للملك مانويل أن السامري حاكم الميناء العظيم، قد يتضح أنه مسيحي مهرطق يمكن اكتسابه إلى جانب اليقين الكاثوليكي الحق. وكان هذا الافتراض يتعارض مع كل ما رآه البرتغاليون في كالكوت، ولكنه يمكن فهمه في سياق الاهتمام الذي تملكهم بالعثور على حليف مسيحي في المحيط الهندي.

لابد أن فكرة التحالف مع السامري بالشروط البرتغالية قد صادفت هوى في نفس الملك، فنظر إليها بوصفها أيسر السبل المتاحة أمامه للتيقن من دفق لا ينقطع من الشحنات من الفلفل وجوزة الطيب والقرفة التي تحقق أرباحاً طائلة. ولذا زود كابرال بحشد متنوع من الهدايا بالغة الوفرة بحيث إنها يمكن أن تزيل تماماً ذكرى هدايا داجاما البائسة. وكحافز إضافي للسامري جلب مجدداً العديد من الهنود الأسرى، الذين نجوا من المذبحة التي أوقعها داجاما في صفوف أسطول جوا (كوة) ليحدثوا بعجائب أوربا. غير أنه كان هناك شرط ضروري ولا غنى عنه في مقابل الصداقة، وهو أن يوافق

السامري وأبناء بلاده على طرد كل المسلمين المقيمين في كالكوت كافة، وألا يبيعوا التوابل إلا للبرتغاليين وحدهم.

تم التظاهر لوقت قصير بأن هذا الترتيب الاستسلامي قد يتم التوصل إليه من دون قتال، وأن العرب الذين يقفون في وجه مخططات كابرال سيتخلون في هدوء عن حقوقهم الراسخة. وإذا لم يحدث ذلك فإن الأميرال على استعداد للقتال وهو موقن من النتيجة، في ضوء اكتشاف داجاما أنه فيما وراء رأس الرجاء الصالح ليست هناك قوة على البر أو في البحر قادرة على التصدي لنيران المدافع الأوربية. وبفضل تفوقهم العسكري يمكن لكابرال ومن سيخلفونه أن يفرضوا فكرة لم يحلم بها أحد قبل قدومهم قط؛ وهي فكرة ملكية البحر. وبالجمع بين هدير مدافعهم ومعتقدهم المسيحي فإنهم يكرسون حقاً في تقرير من الذي ينبغي منحه حق استغلال عطايا الطبيعة، والرياح الموسمية، والتيارات البحرية، أي تقرير من يكسب عيشه بالتجارة بين ميناء وآخر. وكخطوة أولى صدر الأمر لكابرال بأسر سفن «عرب مكة» حيثما كان ذلك ممكناً، ثم إغراقها. وحتى ذلك الوقت كانت حرية التجار في إجراء معاملاتهم، من دون أن يعترضهم أحد، هي محور حياة المحيط الهندي ذاته.

ثم تجاوز الهدف المتمثل في فرض هيمنة على المحيط الهندي، حد التدمير العرضي للسفن الصغيرة التي يشاء لها سوء الطالع أن تؤسر في عرض البحر. وفي وقت لاحق سيقوم المؤرخ جواو دي باروس بمزيد من العناية بطرح تبرير بهذا الصدد:

«صحيح أنه يوجد بالفعل حق للجميع في الإبحار في البحر، ونحن في أوربا نقر بهذا الحق الذي يحرمنا منه الآخرون. ولكن هذا الحق لا يمتد إلى ما وراء أوربا، وبالتالي فإن موقف البرتغاليين مبرر في استخدام قوة أساطيلهم في إجبار العرب كافة على الالتزام بسلوكيات مسالمة، وإلا تعرضوا للمصادرة والقتل؛ فالعرب والأغيار هم خارج شريعة عيسى المسيح، وهي الشريعة الحقة التي على الجميع اعتناقها وإلا تعرضوا لعذاب نيران سرمدية. فإذا كانت الروح ملعونة، فأي حق للجسد في مزايا قوانيننا؟».

على الرغم من أن كابرال فقد عدة سفن، فإن السفن الباقية قطعت الرحلة الطويلة في توقيت جيد ووصلت إلى كالكوت بعد ستة أشهر فقط من مغادرة لشبونة. ولو كان

السامري متعاوناً لكان في وسعهم العودة إلى الوطن مجدداً مع حمولاتهم من التوابل في منتصف عام 1501 . وتلقى البرتغاليون ما شجعهم في البداية؛ ذلك أنه «على بعد فرسخ من مرفأ كالكوت، أقبل المواطنون والسادة المحيطون بالملك لتحيتهم، باحتفالات عظيمة.» وقرر كابرال أن يلقي مرساته مباشرة أمام المدينة، ثم أعلن وجوده بإطلاق النيران بمدافعه تحية، مما أثار إعجاباً كبيراً في نفوس السكان، ولاشك في أن البرتغاليين تمنوا أن يثيروا مشاعر أخرى كذلك.

وتتمثل أفضل رواية عن التقدم اللاحق الذي أحرزه كابرال في رسالة مطولة، زعم البعض أن مانويل كتبها لفرديناند وإيزابيلا، عاهلي إسبانيا (وتم تداولها في روما، وإذا لم تكن أصلية، فمن المؤكد أنها استمدت من روايات شهود عيان.) وبعد تبادل الرهائن مضى كابرال إلى الشاطئ، وحمل في محفة مسقوفة بالحرير الأرجواني. وعلى العكس من سلوكه خلال زيارة داجاما، فإن السامري مانا فيكراما لم يكن ممدداً على أريكة وإنما جلس على عرش فضي له ذراعان من الذهب، وقد تحلى بالأحجار الكريمة. ولم يكن يرتدي إلا الساورنج[6] ولكن الخواتم غطت أصابعه، وكانت اللآلئ في قرطيه «في حجم البندقة». وقد أنيرت قاعة العرش بستة مصابيح عربية من الفضة تتوهج بنورها ليلاً ونهاراً.

أعرب السامري عن سروره لظهور الفرنج للمرة الثانية في كالكوت، ورد كابرال بتقديم هدايا مناسبة على نحو يفوق كثيراً تلك التي جلبها داجاما، ومنها أوعية باهظة الثمن، وسجاجيد، وقماش مقصب، وأقمشة بديعة، وصولجانات ملكية. ومن دون إهدار للمزيد من الوقت، تم الاتفاق على إبرام معاهدة صداقة بسيطة، ونقشت على رقاقة من الفضة المطروقة تحمل خاتم السامري بالذهب، ولكن الرسائل التي حملها كابرال من ملكه جعلت المعاهدة مجردة من المعنى؛ فقد قيل للسامري إن عليه «أن يلتزم بواجبه بحسبانه ملكاً مسيحياً» (وهو صدى لمفهوم داجاما عن أن الهندوس من المؤمنين بالمسيحية، لكنهم من المهرطقين)، ولابد له من أن ينفي المسلمين كافة من مملكته، فقد كان البرتغاليون يعتزمون شن الحرب عليهم باعتبارهم «أناساً بيننا وبينهم عداء عظيم وقديم للغاية». وفي عظة طويلة تحدث خلالها عن «الإرادة الربانية» في كل جملة، هدد مانويل بقوله:

«وإذا ما حدث أن وجدنا فيك ما يخالف ذلك بفعل سوء الطوية، أو النفوس التي تأبى الخير والتي ليست بالقليلة . . . فإنا عازمون على اتباع الإرادة الربانية وليس إرادة البشر، وعلى ألا نحجم بسبب العقبات عن المضي قدماً في هذا الأمر، ومواصلة ملاحتنا وتجارتنا وتوغلنا في تلك الأراضي التي يشاء الرب أن تخدمها أيدينا على نحو جديد».

لم يصل إلينا أي من الروايات الهندوسية حول رد السامري؛ وذلك بسبب العادة السائدة في ساحل المالبار، وقوامها الكتابة على شرائح من السعف الهش، ولكن المؤرخين البرتغاليين يرون أن هذه اللحظة كانت ذات أهمية حاسمة، حيث سيطر التطير على كالكوت عندما فهمت حقيقة ما يحاول الزوار المطالبة به. واستبد الخوف بخمسة من الرهائن المحتجزين في سفينة القيادة البرتغالية، وحاولوا الهرب بإلقاء أنفسهم من سطح السفينة ولكن سرعان ما تم الإمساك بهم وإعادتهم إليها مجدداً.

ثم جاء سبب الحرب[7] بعد رسو سبعين برتغالياً على الشاطئ من بينهم ثلاثة من الرهبان الفرنسيسكان، لتأسيس محطة تجارية تحت قيادة إيريس كوريا، وكيل كابرال. فطوال شهرين كاملين ظل كابرال يحتدم غيظاً في مرساه، وأخيراً أعطيت الموافقة للوكيل ببدء شراء التوابل، وكانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية (والمعروفة باسم رياح الإياب) تهب الآن، وهي مثالية لعبور المحيط الهندي باتجاه الغرب وصولاً إلى الساحل الأفريقي. وكان السامري الخائف قد وعد بأنه عندما يأتي وقت المزايدة على التوابل فإن البرتغاليين ستعطى لهم الأولوية، حتى على التجار العرب المقيمين منذ زمن بعيد في المدينة. غير أن الريح كانت كذلك مواتية تماماً للإبحار إلى البحر الأحمر، وكانت سفينة كبيرة من «سفن مكة» قد حملت بالبضائع، وشوهدت وهي تتأهب للإبحار في طريقها إلى عدن.

كانت لحظة حاسمة؛ فقد استولى كابرال على السفينة، فاندلع شغب في كالكوت، وهوجم «المجمع» البرتغالي، وقتل ثلاثة وخمسون من البرتغاليين السبعين بمن في ذلك الرهبان الثلاثة، ولم يستطع مواطنوهم على متن السفن الراسية قبالة الساحل مساعدتهم. ولكن مع إلقاء الفجر بأضوائه على كالكوت هدرت المدافع جدياً.

وقصفت سفن كابرال الست بالمدافع المنصوبة على جانبها المدينة، مرة تلو الأخرى. وكانت هناك عشر سفن تجارية راسية على مقربة، فتم أسرها وذبح معظم بحارتها في التو، ولكن البعض تم إعفاؤهم من هذا المصير، ليلقوا ما هو أسوأ منه حيث شد وثاقهم وأحرقوا وهم أحياء، على مرأى من الواقفين على الشاطئ. وكانت آثار يومين من القصف قاسية للغاية، حتى إن مانا فيكراما اضطر للهرب من قصره وهو إذلال لن ينساه قط. أما البرتغاليون فقد أقسموا ألا يغتفروا المذبحة التي تعرض لها مواطنوهم الذين رسوا على الشاطئ بنية حسنة بعد أن وقع السامري معاهدة صداقة.

وجد البرتغاليون في إحدى السفن الأسيرة ثلاثة فيلة مستأنسة، وأرادوا أن يحملوا أحدها على الأقل كغنيمة غير مألوفة تدخل السرور على نفس الملك، لولا أن المؤن نفدت فذبحت الفيلة كلها وتم التهام لحمها.

بعد إلحاق أضرار بالغة بكالكوت ومدينة مجاورة، لتلبية الواجب الفوري المتمثل في الانتقام لمصرع رجال كابرال الثلاثة والخمسين أبحر كابرال جنوباً إلى ميناء كوشين. وقد أدرك البرتغاليون الآن أن الراجا حاكم هذا الميناء ويدعى أوني راما فارما، كان يتقد غيظاً لبقائه تحت هيمنة كالكوت، وهكذا فإن الأساليب التي لجأ إليها داجاما في شرق أفريقيا والقائمة على التحالف مع ماليندي، بعد الاشتباك مع ممباسا الأشد بأسا، قام كابرال بتقليدها حرفياً[8]. وعلى الرغم من أن كوشين كانت أقل أهمية من كالكوت، فإنها تمتاز بوجود مرفأ عميق الغور، بداخله جزيرة يمكن الدفاع عنها بيسر، كما يسهل فيها ابتياع التوابل.

رحب الراجا بكابرال على نحو فيه خنوع، وواجه خياراً بين القصف إذا جابه هؤلاء الزوار بالرفض، أو الانتقام المحتمل من كالكوت، لوقوفه إلى جانب أعدائها، فرأى في هذه اللحظة فرصته لتأكيد استقلاله. وتم تحميل السفن البرتغالية بتوابل كوشين ودفع مقابلها بالقطع الذهبية. وكشفت الأسعار التي دفعها كابرال له عن أن الخزائن الملكية في لشبونة سرعان ما ستمتلئ من خلال هذه التجارة، وهكذا فإن رغبته الأساسية كانت شق طريقه بأمان إلى رأس الرجاء الصالح، والإسراع باتجاه الشمال. ولدى مغادرته كوشين ترددت أنباء عن أسطول مؤلف من ثمانين سفينة أرسلها

السامري، تبحر جنوباً سعياً وراء القتال. ولم يكن من عادة البرتغاليين تجنب دعوة للقتال، لكن كابرال كان يعرف أن أولويته هي حمل التوابل إلى الوطن.

وصلت السفن إلى لشبونة في 21 تموز/ يوليو عام 1501، وأبهجت حمولاتها مانويل مثلما أبهجه تقرير كابرال الذي أفاد أن هناك هنوداً يؤمنون بمعتقدات مسيحية لا جدال فيها، يقطنون الريف القريب من كوشين. وعلى نحو ما أكد لفرديناند وإيزابيلا، فها هنا نفوس ينبغي أن تدخل في رحاب الكنيسة الكاثوليكية.

في دول أخرى من أوربا كانت الاحتمالات المتعلقة بالنفوس التي قد يكسبها مانويل إلى صف الكاثوليكية أقل أهمية من توابله، وكان حجم الحمولات التي جلبها كابرال إلى الوطن دليلاً على أن الطريق التجاري الجديد إلى الهند هو طريق يمكن ممارسة التجارة عبره[9]. وبلغت هذه الأنباء سريعاً البندقية، حيث كتب المصرفي جيرولامي بريولي في مذكراته: «وإذا استمرت هذه الرحلة، حيث إنه يبدو لي الآن أن من اليسير إنجازها، فإن ملك البرتغال يمكنه أن يطلق على نفسه لقب ملك المال».

وقدر بريولي أن ما يمكن ابتياعه بدوكاتية واحدة في كالكوت، يكلف ستين أو مئة دوكاتية عندما يصل إلى البندقية، بسبب كل المكوس والرشاوى التي يتعين دفعها على امتداد الطريق، وطريق رأس الرجاء الصالح أطول بكثير ولكن المبالغ التي يتم توفيرها هائلة. وقد «ذهل» زملاؤه التجار حيال الأنباء الواردة من لشبونة، وكان محقاً عندما تنبأ بأن الدمار سيحل بالبندقية قريباً.

الفصل الثاني والعشرون

انتقام داجاما

يمكن أن ننسب إلى فاسكو داجاما . . . بداية حضارة جديدة بدأت في الانتشار بين السكان الوطنيين . . . وشرع علم الغرب في تبديد ظلام الجهل الذي ساد بين الكثيرين، ومن ذا الذي يمكنه أن يحصي كل التغيرات الاجتماعية إلى الأفضل، التي يمكن ردها إلى هذا الحدث؟

الأب مافاي، من جمعية المسيح
في حديثه في كالكوت 1897 في الذكرى المئوية الرابعة
لنزول البرتغاليين على الشاطئ الهندي للمرة الأولى

كانت حملة بناء السفن في البرتغال خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر موضع تعجب الأمم الأخرى وحسدها. وقد أدرك الملك مانويل سريعاً أن عليه أن يرسل الأساطيل البحرية إلى المحيط الهندي كل عام لكي تؤكد احتكاره الكامل لتجارة التوابل الأوربية. ولكن على الرغم من أن طموحاته كانت بلا حدود، فإن خزانته لم تكن عامرة، ولذا فقد وجه الدعوة إلى تجار لشبونة الأثرياء للمشاركة في هذه المغامرة[1]. ولم يحتاجوا إلى تشجيع كبير عندما أدركوا أن سعر القنطار (128 رطلاً) من الفلفل، تسليم لشبونة، يعادل جزءاً ضئيلاً من السعر المدفوع في الإسكندرية لكمية مماثلة تجلب من المحيط الهندي بالطرق المألوفة في السفن التقليدية التي تشق طريقها عبر البحر الأحمر، ثم تحمل بعدها على ظهور الجمال.

وحتى قبل وصول الناجين من قطع كابرال البحرية إلى الوطن، كانت مجموعة بحرية مؤلفة من أربع سفن قد غادرت نهر التاجوس تحت قيادة قبطان محنَّك هو جواو دا نوفا، وكان دوره الأساسي هو المساعدة في جمع الذهب الأفريقي الذي يجلب إلى الساحل عند سفالة، حيث ستتم مقايضة الأقمشة والمرايا والحلي الصغيرة الواردة من البرتغال بالذهب الذي سيستخدم بدوره لشراء التوابل في الهند. وافترض دا نوفا أن

هذه التجارة يشرف عليها بالفعل بارتلوميو دياز، لأنه لم يكن معروفاً في لشبونة أن قاهر رأس الرجاء الصالح قد غرق مع سفينته.

توقفت السفن الأربع في الطريق إلى سفالة في خليج يقع مباشرة فيما وراء رأس الرجاء الصالح، وهناك صادفها الحظ المتميز المتمثل في العثور في هذا الشاطئ المهجور على رسالة في حذاء، كتبها أحد ضباط كابرال وتحدث فيها عن الكارثة التي حلت بدياز، ولذا أبحرت الحملة مباشرة إلى كلوة حيث قابلها بالترحيب أحد اثنين من «الديجريدادو» تركهما كابرال في ماليندي قبل عامين. وكان هذا الرجل الذي يدعى أنطونيو فرنانديز قد شق طريقه جنوباً على متن السفن الساحلية العربية، وهويقيم الآن قانعاً في دار شيخ من أهالي المنطقة. وكانت تعليمات كابرال لفرنانديز والشخص المدان الآخر بأن يرحلا إلى الداخل الأفريقي إلى أن يعثرا على الراهب يوحنا لا تروق لهما. ولما كان فرنانديز مرشداً نافعاً، فقد تُرك في كلوة، ثم واصل دانوفا الإبحار إلى الهند.

وهناك تم تقليد أسلوب كابرال بإتقان حيث قصفت كالكوت بالمدفعية، وتحولت كل سفينة من سفن المسلمين إلى طريدة يتم الصعود إلى متنها ونهبها. واكتشف القبطان على متن إحداها وكانت راسية قبالة كالكوت ألفاً وخمسمئة لؤلؤة، والعديد من الجواهر، وأدوات ملاحية بديعة. وتم الإبقاء على حياة القبطان وحده، تحسباً للاحتياج إلى مهاراته الملاحية في رحلة العودة، وأحرق باقي أعضاء الطاقم في سفينتهم.

وفي سفينة أخرى أسرت قبالة الساحل الهندي عثر على «يهودية من إشبيلية» كانت قد هربت من الأندلس، لتتجنب الاضطهاد من جانب الإسبان، ووصلت إلى الهند عن طريق مصر. وقد روت ما قيل لها إنه أسباب متاعب كابرال في كالكوت، فقد أقنع التجار العرب السامري بأن القادمين الجدد هم «لصوص وسيقضون على البلاد». وبعد استماع البرتغاليين لما قالته المرأة، قرروا اصطحابها معهم، ولكنها بعد أيام قلائل ألقت بنفسها في الماء!

ربما يبدو أن هذه الحادثة ترمز لمناخ من الشعور بالعجز بدأ ينتشر في عالم المحيط الهندي، فقد أوشكت على الاختفاء طريقة حياة بدت فيما مضى وكأنها لا سبيل إلى

تغييرها؛ مثل هبوب الرياح الموسمية وتغير اتجاهاتها. وقد عبر عن هذا الجندي والبحاثة البرتغالي دوارتي باتشيكو بحسه التاريخي في إيجاز بالغ في غمار مدحه لملكه على إرسال الأساطيل القوية إلى الشرق: «وبهذه الأساطيل غزا، ويغزو كل يوم، البحار الهندية وشواطئ آسيا، وقتل ودمر وأحرق عرب القاهرة وشبه الجزيرة العربية ومكة، وغيرهم من سكان الهند ذاتها، جنباً إلى جنب مع أساطيلهم التي استخدموها على امتداد ثمانمئة عام، لإحكام السيطرة على تجارتهم بالأحجار الكريمة واللآلئ والتوابل».

سرعان ما حصل نمط القتل والتدمير والإحراق هذا على الموافقة من فاسكو داجاما نفسه عندما أبحر مجدداً في منتصف عام 1502 إلى المحيط الهندي. والآن قاد «الأميرال الصديق» للملك خمساً وعشرين سفينة تحتوي العشر الأكبر حجماً منها «مدفعية قوية للغاية مع الكثير من الذخيرة والأسلحة بكميات وافرة». وكانت ثلاث عشرة من السفن التي يتولى قيادتها داجاما، ملكاً للتجار البرتغاليين الأثرياء. فقد تغير كل شيء منذ ظهوره لأول مرة، قبل أقل من خمس سنين، عندما كان يقود ثلاث سفن صغيرة، تتلمس طريقها نحو هدف غير مؤكد. وبات الأمر واضحاً بالنسبة إلى داجاما الآن حول المكان الذي يمضي إليه وما يعتزم القيام به، فقد عامله السامري «بازدراء»، ولذا فإنه «استشعر في قرارة نفسه رغبة هائلة في المضي وإلحاق الدمار به».

لقد اتجه العزم في الأصل لوضع المجموعة البحرية الكبيرة تحت قيادة كابرال الذي كان حريصاً كذلك على إنزال المزيد من العقاب بكالكوت. ولكنه كان قد ابتعد عن إطار رضا الملك البرتغالي الذي وصفه على نحو يوحي بالتأثر بالخرافات، بأنه «منحوس في البحر» وهكذا فإن داجاما الذي ظل على الدوام من رجال البلاط، أفلح في الفوز بهذه المهمة التي طالما تاق إليها.

وحلت أولى لحظات اغتباطه بعيد عبوره المحيط الأطلسي بتسع عشرة من سفن أسطوله البحري (حيث تم تحويل ست منها باتجاه الشمال، حاملة أوامر بحصار البحر الأحمر) وقطع الطريق على سفينة تجارية كبيرة تسمى «مريم» اكتشف أن مالكها هو أكثر

العرب ثراء في كالكوت، وهو رجل تربطه صلة قرابة بسلطان مصر، وكانت السفينة المثقلة بالحمولة تقل حجيجاً عائدين من مكة. وكان «العديد من العرب البارزين» بين الركاب. وأمر داجاما رجاله بإفراغ الحمولة بكاملها ونقلها إلى عنابر سفنه ولم يكن هدفه من وراء ذلك موضع شك قط.

يروي المؤرخ جاسبار كوريا[2] الذي كتب في القرن السادس عشر ما حدث بعد ذلك. فقد اقتيد قبطان السفينة «مريم» الذي ورد اسمه على أنه يوسف الفقيه إلى حضرة داجاما، عندما تم على وجه التقريب تفريغ سفينته. وتضرع القبطان وهو رجل حسن السمعة بأفضل ما يستطيع قائلا:

«يا سيدي، إنك لن تكسب شيئاً بإصدار أوامرك بقتلنا. فمر بأن نوضع في الأصفاد وأن نحمل إلى كالكوت، وإذا لم يحملوا سفنك هناك بالفلفل والأدوية من دون أن تدفع شيئاً مقابلها فعندئذ يمكن أن تأمر بإحراقنا... وخذ في الاعتبار أنهم في الحرب يعفون عمن يستسلمون، وبما أننا لم نقاتل فكن نبيلاً في عفوك عنا».

غير أن مخاطبة النبل لم تجد نفعاً، فقد رد داجاما قائلاً: «أحياء ستحرقون، لأنكم أشرتم على ملك كالكوت بقتل البرتغاليين ونهبهم، وأقول إنني لن أحجم عن قتلكم مئة مرة، مقابل أي شيء في العالم، إذا استطعت ذلك». وفي غمار اليأس، يحاول القبطان العربي اللجوء إلى حجة أخرى، فيقول لو أن داجاما أبقى على حياتهم، فإنه سيكون في استطاعته الحصول على أكثر من ذلك بكثير إذا قبل الفدية عنهم.

وظل الرد هو نفسه فالسفينة الكبيرة ستملأ بالبارود وتوقد النار فيها، ويتم إغراقها، وعلى متنها سبعمئة راكب وبحار. وعند ذلك بدأ البحارة العرب الذين حان أجلهم في القتال «مفضلين أن يلقوا حتفهم بالسيف بدلاً من التعرض لعذاب الموت حرقاً». ومع صدور الأمر بإحراق السفينة، قفز من قدرت لهم النجاة إلى الماء، وكثير منهم من النساء والأطفال. وأمر داجاما رجاله بإنزال الزوارق وإكمال المهمة، فاستخدموا حرابهم إلى أن اصطبغ البحر باللون الأحمر. غير أن الآباء الفرنسيسكان على متن الأسطول منحوا فسحة لتأدية واجبهم المقدس، «فقد تم إبعاد عشرين طفلاً عن ألسنة النيران لتنصيرهم».

حتى قبل وصول داجاما إلى كالكوت مضى السامري الذي استبد به الخوف يرسل المبعوثين طلباً للسلام؛ ولم تجد كل هذه الجهود لأن الأميرال كان قد عقد العزم قبل أن يغادر لشبونة على العقاب الذي ستنزله «مدفعيته القوية». وفي رحلته الأولى كان هو المتوسل الذي يسعى إلى أن يسترضي السامري، بل وتخيّله مسيحياً وحليفاً محتملاً ضد المسلمين. أما هذه المرة فإن السامري هو المتوسل، وداجاما يعرف الآن أنه وثني، ولذلك فإن العمل الذي يريده الرب لابد من القيام به.

عندما رست القطع البحرية الكبيرة قبالة كالكوت بعث السامري بأكثر رسله إقناعاً، وهو أحد البراهمة[3] (والرواية البرتغالية تدعوه بـ«الراهب» حيث اقتضى الأمر وقتاً للتخلص من الانطباع بأن الهندوسية هي إحدى الأشكال المهرطقة للمسيحية). وجادل البرهمي قائلاً: إن البرتغاليين قد ألحقوا بالفعل أضراراً بالمدينة، تفوق ما تعرضوا له، وبالتالي سيكون من المشرف للجانبين معاً أن يسدلا الستار على الماضي، ويتعاهدا على التجارة في سلام. ولم يؤد ذلك إلا إلى استشاطة داجاما غضباً مما بدا له أنه إهانة مقصودة، وعند ذلك مضى البرهمي قدماً في حديثه، فالسامري سيسلم اثني عشر من كبار التجار العرب في كالكوت لتتم التضحية بهم لقاء قتل البرتغاليين خلال زيارة كابرال، كما سيدفع كذلك مبلغاً كبيراً، على سبيل التعويض، ورفض داجاما هذه الجهود بازدراء، وتم أسر المبعوث التعس وصدرت الأوامر ببدء القصف.

مضى داجاما الذي استعان بأضعاف قوة النيران المتاحة لكابرال والذي اتسم بطبيعة أشد منه وحشية لتدمير المدينة. وكما كتب مانويل في وقت لاحق متباهياً للعاهلين الإسبانيين، فإن الأميرال ألحق «ضرراً لا سبيل إلى حصر مداه» بكالكوت. ومع انهمار قنابل المدافع من السماء وتهديمها للدور وتدميرها للمعابد وسحقها لكل ما يعترض طريقها، لم يكن أمام سكان المدينة إلا الهرب أو الاختباء وسط الحطام. وكان السامري، في إطار توقعه المسبق لما سيحدث، قد أمر بإقامة حواجز من النخيل بإزاء البحر، ولكنها كانت دفاعاً لا طائل وراءه في مواجهة قصف دام ثلاثة أيام. وكان البرتغاليون يظهرون ضراوة لم يكن من الممكن حتى الآن تصورها على ساحل المالبار، حيث كانت الحروب تأخذ في العادة صبغة شبه استعراضية. وأعلن السامري أنه سيقاوم الفرنج «حتى آخر رجل في مملكته».

بعد قيام داجاما بإشباع شهيته للقتل، انتقل إلى التعامل مع السفن التجارية العشرين التي وجدها راسية قبالة كالكوت لدى وصوله. حيث أحاطت بها جميعها السفن الشراعية الصغيرة التابعة له، وسمح لعدد محدود منها بالرحيل من دون إلحاق أذى بها، لأنها قدمت من كنانور وهو ميناء أظهر صداقة للبرتغاليين، ونهبت من باقي السفن حمولاتها - من الأرز وجرار الزبد والأقمشة - وأسر أعضاء أطقمها، وهم حوالي ثمانمئة رجل.

مع وقوع كالكوت تحت رحمة داجاما، صار في وسعه أن يبعث بجنوده إلى الشاطئ ليضعوا السيف في أعناق أكبر عدد من سكانها، يمكن أن يضعوا أيديهم عليه. وبدلاً من ذلك أمر رجاله باستعراض الأسرى ثم قطع أيديهم، وصلم آذانهم، وجدع أنوفهم. وخلال التنفيذ، جمعت الأوصال المبتورة وكدست في قارب صغير، ووضع البرهمي الذي بعثه السامري موفداً في هذا المركب، وسط حمولته الجديدة الرهيبة، وذلك بعد التمثيل به بالطريقة نفسها.

وصف المؤرخ جاسبار كوريا ما فعله داجاما بعد ذلك بقوله:

«عندما تم إعدام كل الهنود على هذا النحو (هكذا في الأصل)، أمر بربط أقدامهم معاً حيث إنه لا أيدي لهم ليحلوا وثاقهم، وحتى لا يحلوا القيود بأسنانهم أمر بضربهم بالعصي على أسنانهم حتى أسقطوها في أفواههم، ووضعوهم على متن السفينة مكومين بعضهم فوق البعض الآخر، ومختلطين بالدماء المتدفقة منهم، وأمر بنشر الحصر وأوراق الأشجار الجافة عليهم، وبتوجيه الأشرعة، بحيث تدفع السفينة نحو الشاطئ وإشعال النار في هذه السفينة. وأرسل كذلك إلى الشاطئ المركب الصغير الذي يقل البرهمي ومعه كل الأيدي والآذان، من دون إشعال النار فيه».

أرسلت رسالة من داجاما إلى السامري، مكتوبة على سعف النخيل، مفادها أن في وسعه أن يعد الكاري من قطع اللحم البشري المرسلة على المركب.

أما السفينة الأكبر حجماً والتي عمتها ألسنة اللهب فقد مضت على مهل نحو الشاطئ. وأقبلت عائلات الرجال الذين كانوا على متنها، وانخرطت في البكاء على

الشاطئ، وحاولت إطفاء النار وإنقاذ من بقوا على قيد الحياة، لكن داجاما لم يشف غليله بعد تماماً، فطرد هذه العائلات، وأمر بجر الناجين وتعليقهم في الدقّلات، وأمر رجاله من حملة الأقواس والسهام باطلاق السهام عليهم «بحيث يراهم من وقفوا على الشاطئ».

وكان تعليق الرجال يتأرجحون في الهواء ورميهم بالسهام، من أشكال الإعدام الأثيرة عند الأميرال، حيث أتاح المجال أمام الجنود للتدرب على الرماية. غير أنه وقعت حادثة غريبة عندما رفع ثلاثة أشخاص من بين مجموعة من البحارة المأسورين من ساحل الكوروماندل أيديهم للسماء، وقالوا إنهم يريدون اعتناق المسيحية، فلم يتأثر كثيراً وأمر المترجم بأن يقول لهم: «إنهم على الرغم من دخولهم المسيحية، فإنه سيقتلهم». ومع ذلك سمح لقسيس السفينة بتعميدهم، وبينما مضى يردد: «أبانا الذي في السماء» و«التحية المريمية» مضوا يرتلون كلماته. «وعندما تم القيام بهذا، شنقوهم حتى لا يحسوا بالسهام». وثبت حملة الأقواس والسهام بقية ضحايا داجاما المتدلين من طرف عارضة الشراع، ولكن السهام التي أصابت الرجال الثلاثة، الذين عمدوا حديثاً «لم تخترق أجسامهم ولم تحدث بها أثراً». وعند هذا بدا الضيق على الأميرال، وتم تكفين الجثث الثلاث وألقيت في اليم، وهو ما وصفه مؤرخ هذه الحادثة بأنه «الرحمة الواسعة» التي غمر الرب الأغيار بها. وردد القسيس الصلوات والترانيم المقدسة[4].

غير أن ضيق داجاما، بسبب هذه الحادثة لم يستمر وقتاً طويلاً، وعندما أرسل برهمي آخر من كالكوت للتوسل من أجل إقرار السلام، بترت شفتاه وأذناه وخيطت أذنا كلب مكانهما، وأرسل البرهمي إلى السامري على تلك الحال. وكان قد جلب معه ثلاثة صبية، هما ابناه وابن أخيه، فشنقوا من طرف عارضة الصاري وأرسلت جثثهم إلى الشاطئ.

في ضوء حرص قباطنة داجاما على نيل رضاه، فقد بذلوا قصارى ما في وسعهم لمجاراته في فعلاته، وقرر أحدهم ويدعى فنسنت سودري أن يجعل من تاجر عربي شاء حظه التعس أن يقع في الأسر أمثولة. وكان هذا السجين البارز ويدعى الخوجة

محمد مرقار، قد تاجر في مختلف أنحاء البحر الأحمر وعلى ساحل أفريقيا، وكان موطنه القاهرة.

تتحدث الرواية عن الكيفية التي أمر سودري بها أن يجلد هذا التاجر بربطه إلى الصاري من قبل بحارين أسودين، ثم يضرب بالحبال المكسوة بالقار «حتى بقي كالميت حيث فقد الوعي بسبب الدم الذي نزف منه». وعندما تم إنعاش الأسير، فتح فمه عنوة وحشي بالقذارة (من نوع غير محدد) على الرغم من تضرعات الأسرى العرب الآخرين، الذين أكرهوا على مشاهدة ما يجري، ثم ثبت لحم خنزير على فمه، الذي حشر فيه عكام هو عبارة عن عصا قصيرة، ثم عرض على جموع الحاضرين وقد أحكم وثاق ذراعيه، وأخيراً أطلق سراحه.

ومن غير المدهش أن الخوجه محمد مرقار قد أصبح عدواً لا يقر له قرار في عدائه للبرتغاليين، وكرس حياته لإقناع الأتراك العثمانيين بحمل السلاح ضدهم.

وسط هذه المذابح خرج داجاما عن مساره، لكسب بعض الأصدقاء في المحيط الهندي وأبرزهم في كوشين، التي أظهر حاكمها استعداداً للتحالف مع المسيحيين، ضد منافسه الكبير السامري. وتم تبادل العديد من الهدايا في كوشين وكانت أبرز هدايا الملك مانويل على الإطلاق خيمة دائرية، عبارة عن «شيء جميل للغاية» بطنت بالأطلس الملون، وقد ضربت خلف القصر.

بلغت ثقة البرتغاليين ببسالتهم حداً دفع داجاما إلى أن يقرر، قبل الإبحار عائداً إلى الوطن بعنابر مليئة بالتوابل، أن يترك وراءه خمس سفن في كوشين. وتم اتخاذ مقار لمجموعة شديدة البأس من الجنود والمهنيين، بقيادة البحاثة المحنك دوارتي باتشيكو على الشاطئ، وأرسيت السفن قريباً لحمايتهم[5].

ذلك كان في عام 1503 وللمرة الأولى منذ أيام الإمبراطورية الرومانية أصبح هناك وجود أوربي دائم في المحيط الهندي، وكانت مستعمرة كوشين بذلك نذيراً بحلول أربعة قرون من الاستعمار من جانب البيض[6].

الفصل الثالث والعشرون

نائب الملك في شرقي أفريقيا

هناك دور عديدة الطوابق، محكمة البناء من الحجر، ومطلية بالجص الذي زينته ألف صورة.

كلوة كما وصفها كاتب برتغالي مجهول الهوية في يومياته (1505)

أحكم الملك مانويل قبضته على تجارة توابل الشرق، لكنه أراد المزيد، أي بناء إمبراطورية، فالبرتغال ينبغي أن تكون على قدم المساواة مع إسبانيا، لتظفر مثلها بأراض في العالم الجديد في آن واحد. ومن المهم بدرجة مماثلة أن يتلقى باقي أوربا وبصفة خاصة البندقية رسالة قوامها أن البرتغاليين لم يعودوا مجرد تجار، وإنما هم غزاة أمجاد. وكان مانويل يعرف أن مجلس الشيوخ البندقي قد شكل لجنة خاصة لإعداد مقترحات للتحرك «حتى لا ينتزع ملك البرتغال الفضة والذهب من أيدينا، الأمر الذي يلحق الدمار بتجارتنا وازدهارنا». غير أنه كان على يقين من أن البندقية ليس في وسعها القيام بالكثير، على الرغم من توقيعها معاهدة جديدة مع الأتراك، وإرسال جاسوس إلى لشبونة صراحة ليدرس كيف تبيع البرتغال فلفلها.

وأظهر مانويل روحه المتغطرسة عندما هدد سلطان مصر قنصوه الغوري[1] بنفي جميع المسيحيين وتدمير الأماكن المقدسة في القدس، إذا واصلت السفن البرتغالية التعرض للتجارة بين الهند والبحر الأحمر. وكان مبعوث السلطان هو رئيس رهبان ديرسانت كاترين في سيناء، وبعد إبلاغ رسالته للبابا مضى لتكرارها في لشبونة، ورد الملك مانويل بتهديد مألوف «فليحذر السلطان من أن البرتغال تعتزم أداء واجبها المسيحي بدخول البحر الأحمر وتدمير مكة وقبر النبي ونبش رفاته».

وحدد مانويل الاسم الذي سيطلق على إمبراطوريته وهو «دولة الهند» Estado da India. وبالنسبة إلى ملك يحكم أحد أصغر بلاد أوربا، فربما بدا هذا حلماً بعيد المنال

لا يشمل شبه القارة الهندية وحدها، بقدر ما عُرف عنها ذلك الحين، وإنما يشمل كذلك الأراضي الواقعة في مختلف أرجاء المحيط الهندي: شبه الجزيرة العربية، وفارس، وأفريقيا، وأماكن أكثر إيغالاً باتجاه الشرق لم تسمع بعد هدير المدافع البرتغالية. ومع ذلك فإن مانويل وهو في السادسة والثلاثين كان مشحوناً بالعنفوان والطموح. ففي نهاية المطاف ألم تخصص معاهدة تورديزلاس نصف العالم للبرتغال؟

وأياً كان غموض مدى اتساع «دولة الهند» البرتغالية على البر، فلقد كان من الواضح تماماً لمانويل أنها تعني حكم المحيط. وقد خطا فاسكو داجاما على نحو ما رتب مسبقاً مع الملك الخطوة الحاسمة المتمثلة في ترك خمس سفن وراءه في كوشين، عندما عادت حملته الثانية إلى الوطن. وقد كانت هذه السفن مؤشراً إلى هدف البرتغال، فقد كان يجري الآن تجميع أسطول جديد مؤلف من اثنتين وعشرين سفينة مقاتلة في لشبونة، سيبحر على متنها 1500 من البحارة والجنود المختارين بعناية إلى أفريقيا والهند. وتم تسليح بعض هذه السفن بمدفع برونزي ألماني الصنع أغلى ثمناً ولكنه أكثر أمناً من المدافع الحديدية المنتجة في المصاهر البرتغالية. وكان الهدف هو فرض السلطة البرتغالية بشكل دائم على الإقليم والقضاء على المعارضة حيثما أطلت برأسها. ومن الطبيعي أن التجارة قد ارتبطت بهذه المهمة، وكما أن ألمانيا قدمت المدافع، فكذلك تحملت شركات تجارية ألمانية تكلفة بناء ثلاث سفن كبيرة مقابل الحصول على امتيازات في تجارة التوابل.

واختير لقيادة هذا الأسطول دون فرانشيسكو دي ألميدا[2]، وهو نبيل أكثر ميلاً إلى العنف حتى من داجاما، وخلع عليه لقب نائب الملك، وتلقى أوامر مطولة حول سلوك الأسطول وانضباطه وما سيصادره، والنقاط الاستراتيجية التي ينبغي إقامة الحصون فيها، وكيف ينبغي فرض نظام جوازات السفر (القراطيس Cartazes)[3] على كل التحركات البحرية. وأي سفينة - وبصفة خاصة أي سفينة للمسلمين - تضبط في أعالي البحار من دون جواز سفر برتغالي ينبغي الاستيلاء عليها ونهبها وإغراقها. وينبغي أن يغلق مدخل البحر الأحمر، بالاستعانة بحصن لمنع أي توابل من أن ترسل إلى أوربا عبر ذلك الطريق و«إقناع أهل الهند جميعاً بتنحية التصور الخيالي بأنهم يمكن أن يتاجروا من جديد مع أي كان غيرنا».

وأسندت إلى ألميدا، الذي برهن على جسارته خلال الحروب في المغرب، المسؤولية الكاملة عن الإمبراطورية الجديدة لمدة ثلاث سنوات. وقد عرف أن القوى المناوئة للبرتغال تستجمع قدرتها، ولكن ألميدا تعهد بتنفيذ كل المهام المسندة إليه، والتحق ابنه لورنكو الذي اشتهر بشجاعته بالحملة للمشاركة في المجد. وكتب الملك الذي يصغر ألميدا بعشر سنوات، يقول له: «أخوِّلك سلطة كما لو كنت أمنحها لنفسي» ووعد بأنه طالما ظل في الحكم فما من رجل آخر غير ألميدا سيحمل لقب نائب الملك.

سمح الطقس الصحو والخبرة التي اكتسبتها الأساطيل السابقة صغيرة وكبيرة على السواء، للأسطول بأن يشق طريقه بسرعة كبيرة إلى رأس الرجاء الصالح. وتوقف ألميدا في الطريق لفترة وجيزة في البرازيل، التي كان كابرال قد زارها قبله (والتي بموجب خط الطول المتفق عليه في معاهدة تورديزلاس كانت تقع في النصف المخصص للبرتغال من العالم). واتجه نائب الملك في انطلاقه إلى المحيط الهندي مع العديد من السفن الناوس ذات التسليح الثقيل مباشرة من رأس الرجاء الصالح إلى كلوة. وإذا لم يكن السلطان إبراهيم بن سليمان يرفع العلم البرتغالي الذي منحه إياه داجاما قبل ثلاث سنوات، فإنه ينبغي أن يعاقب، واعتزم ألميدا كذلك بناء حصن على الجزيرة وترك حامية من القوات البرتغالية هناك.

وكان داجاما من خلال التهديد بقصف كلوة لتدميرها، قد أفزع السلطان، ودفعه لتوقيع معاهدة، يعلن بمقتضاها نفسه تابعاً للبرتغال، ويتعهد بدفع ضريبة سنوية ذهباً. وحذر عقب ذلك من أنه إذا برهن على تحديه للبرتغاليين فإنهم سيمضون به إلى الهند، ويُشهِّرون به هناك ويضعون طوقاً حديدياً في عنقه، ولكن عندما حاولت سفينة كارفل تحصيل الضريبة المستحقة في العام التالي لجأ السلطان إبراهيم إلى المراوغة، وبدا جلياً أن الحاجة ماسة لمعاملة حازمة معه.

أعلن ألميدا عن وصوله بطلقات من نيران المدافع فوق المدينة؛ فبعث السلطان سريعاً بالفاكهة لأطقم البحارة، ولكن ذلك لم يهدئ من غضب نائب الملك؛ حيث لم يبد العلم البرتغالي في أي مكان في أفق كلوة، كما كانت هناك مؤشرات تدل على

استعدادها للقتال. وكان داجاما قد أجرى اتصالاً مع أحد أعداء السلطان وهو شيخ هرم يدعى محمد العنقوني الذي بعث سراً برسالة مفادها أن المئات من حملة الأقواس والسهام الأفارقة يُجلبون من البر الأفريقي.

وعندما طلب ألميدا معرفة ما فعله السلطان بعَلَم الملك مانويل، رد بقوله إنه أعطي لسفينة مبحرة إلى سفالة لترفعه تأميناً لنفسها، ولكن السفينة أوقفتها سفينة برتغالية وانتزعت العلم منها. وعلى الرغم من استياء ألميدا فقد قرر منح السلطان فرصة أخيرة فنزل إلى الشاطئ وتجمع حوله كبار ضباطه، تحت قبة من الحرير الأرجواني، وانتظر مجيء إبراهيم للحوار معه.

ولم يَظهر السلطان حيث لاشك في أنه تذكر التهديد بأنه قد يحمل إلى الهند للتشهير به هناك ووضع طوق من الحديد حول عنقه، وإنما بعث بموفد عنه يقول إنه مشغول ببعض الضيوف، وفضلاً عن ذلك فإن قطة سوداء قد اعترضت طريقه، ومعنى ذلك أن أي اتفاقيات يبرمها لن تدوم طويلاً، وكان في ذلك الكفاية. ودار ألميدا في المساء حول الجزيرة بسفينة قيادته وأعد لمعركته الأولى في المحيط الهندي، وابتهج الرجال الذين أمضوا أربعة أشهر تحت إمرته متزاحمين في السفن، حيال إمكانية النزول إلى الشاطئ ونهب هذه المدينة الغنية المترفة التي استطاعوا رؤية دورها المطلية بالجص الأبيض وسط النخيل.

هاجم البرتغاليون المدينة مع أول خيط من خيوط الفجر، ونزل لورنكو نجل ألميدا، إلى الشاطئ مع 200 رجل قرب القصر العظيم الذي يدعى بالقَبْوة الحسينية، والواقع خارج المدينة، واكتسحت قوة أكبر عدداً شوارع المدينة الضيقة، لكنهم لم يجدوا من يتصدى لهم. وتمثلت إحدى علامات الحياة القليلة في رجل يطل من نافذته، ملوحاً بالعلم البرتغالي المراوغ[4].

ويقول كاتب يوميات مجهول الهوية[5] إن نهب المدينة كان شاملاً حيث حطم المهاجمون الأبواب الخشبية الثقيلة ونهبوا «كمية كبيرة من السلع التجارية والمؤن». ويحكي شاهد عيان ألماني يدعى بلتازار شبرنجر وهو مدفعي ملحق بالأسطول، كيف

أن الجنود «قتلوا العديد من الأفراد بإطلاق النار عليهم، ونهبوا المدينة في الوقت نفسه، وعثروا على العديد من الكنوز؛ بما في ذلك الذهب والفضة واللآلئ والأحجار الكريمة وملابس باهظة الثمن». غير أنه في القصر كانت خيبة الأمل في انتظارهم، فقد فرَّ السلطان إبراهيم إلى البر الأفريقي خلسة مع زوجاته وحليه، وتمت مصادرة كل المقتنيات ذات القيمة التي خلفها وراءه لصالح الملك مانويل.

ونزل راهبان فرنسيسكانيان إلى الشاطئ حاملين الصلبان وهما يصيحان: «فلنمجد الرب!» واختيرت دار كبيرة ليشغلها ألميدا، وشيد صليب فوقها. وفرض النظام على الرجال الذين كانوا قد شرعوا في إضرام النار في الدور بعد نهبها، وجمعت الأسلاب لكي تقسم وفق ما جرى عليه العرف، ولم يأخذ نائب الملك لنفسه إلا سهماً ليكون تذكاراً لانتصاره الأول.

تأثر البرتغاليون كثيراً بكل ما رأوه حولهم. وكانت كلوة أقل قوة على الصعيد السياسي في ساحل أفريقيا الشرقي مما كانت عليه قبل 170 عاماً، عندما زارها ابن بطوطة، وكان هذا راجعاً بالأساس إلى المنافسات المريرة التي ثارت في صفوف نخبتها الحاكمة، والتقلص الذي طرأ على تجارة الذهب في سفالة، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت مدينة ناضجة ومزدهرة.

كتب نائب الملك إلى مانويل يقول: «تتمتع كلوة، يا جلالة الملك، من بين كل الأماكن التي أعرفها في العالم بأفضل ميناء وبأجمل أرض... وفيها توجد الأسود والغزلان والوعول والحجلان والسمان والقُبرات والعديد من أنواع الطيور، والبرتقال الحلو والرمان، والليمون والخضر والتين الشوكي والنارجيل واليام، ولحوم سائغة وأسماك، وماء عذب للغاية يستمد من الآبار». وعلى الرغم من أن ألميدا كان يبالغ فيما يتعلق بالأسود، فقد وصل إلى كلوة في موسم تصفو السماء خلاله من السحب وتمتلئ الحدائق بالزهور والفواكه.

وبعد العديد من الأسابيع من السفر في البحر والعيش على اللحم المملح والبسكويت، ابتهج كاتب اليوميات المجهول كذلك لمرأى الحدائق، ووصف «أنواع

الفجل والبصل الصغير والسمسق[6] الحلو والبازلاء الحلوة». كما كان هناك أيضاً الشهد والزبد والشمع. «وقد أحيطت الحدائق كافة بأسوار خشبية... ويصل القش إلى ارتفاع قامة الرجل، وسطح التربة أحمر اللون، وهناك خضرة تلوح على الدوام في الأفق». وكان القطن يزرع والقماش ينسج وماء الورد ينتج للبيع في الخارج، وأنجز معظم العمل العبيد السود الذين يمتلكهم «العرب البيض»[7].

وترسم هذه الرواية صورة شديدة الحيوية لملامح الحياة في كلوة، بل وتحكي كيف أن «العرب البارزين» كانوا يمضغون الفوفل: «تجعل وريقات هذه الشجرة الفم والأسنان تتحول إلى اللون الأحمر القاتم ويقال إنها منشطة للغاية». وكل الناس «ينامون عالياً عن الأرض» على أرجوحة شبكية من السعف «يتسع كل منها لشخص واحد». وفي طقس كلوة الرطب كان العرب يرتدون رداءين، أولهما إزار يمتد من الخصر حتى قرب الأرض، والثاني يلقى على الأكتاف من دون إحكام، وكلهم يمسكون بالمسابح في أيديهم.

وكان هناك الكثير مما يتعين القيام به في كلوة بخلاف دراسة الحياة اليومية لسكانها، فقد قرر ألميدا سريعاً أن السلطان الذي لاذ بالهرب يتعين أن ينحّى عن العرش، وأن يحل عدوه مكانه أي الشيخ العنقوني، فبنيت منصة ترفرف عليها الأعلام، وارتدى الشيخ الزي البرتغالي الملون باللون القرمزي، والمزين بخيوط الذهب. وخلال الاحتفال وضع نائب الملك لوقت قصير على رأس السلطان الجديد تاجاً ذهبياً، كان مقرراً أن يعطيه في وقت لاحق لراجا كوشين. ثم انطلق موكب في أرجاء المدينة، حيث امتطى السلطان جواداً برتغالياً تقدّمه علم برتغالي، وكتبت معاهدة باللغة العربية، وأعلن البرتغاليون أن كلوة ستظل إلى الأبد تابعة لملك البرتغال.

ظل الأسطول راسياً قبالة الجزيرة طوال ما يزيد على أسبوعين، بينما بدأ العمل في بناء حصن مربع له أربعة مواقع محصنة، وبعد أن بدأ البناء يأخذ شكله بورك في قداس جليل، واختار نائب الملك قائداً للحصن وزوده بحامية مؤلفة من 150 رجلاً وبسفينة كارفل، ثم أبحر مجدداً باتجاه الشمال[8].

وغدت ممباسا كبرى مدن الساحل الآن هدف ألميدا، ومنذ قوبل فاسكو داجاما بالعداء فيها في رحلته الأولى تجنبها البرتغاليون ومضوا إلى ماليندي بدلاً منها. غير أنهم عرفوا أن ممباسا تحظى بمرفأين بديعين، بينما كانت السفن تتعرض للعواصف الموسمية خلال رسوها قبالة ماليندي. وفضلاً عن ذلك كان مما يبعث على الضيق أن السفن العربية التي ربما راوغت السفن الكارفل، القائمة بأعمال الدورية في عرض البحر، يمكنها الاختباء في مرفأي ممباسا اللذين لا يجرؤ البرتغاليون على دخولهما، من دون المخاطرة بصراع شامل. وقد أسرت سفن عربية عديدة مبحرة باتجاه ممباسا وصودرت حمولاتها ولم ينج البحارة بحياتهم غالباً. واستغلت سفن أخرى معرفة ملاحيها بساحل أفريقيا الشرقي للاختفاء في مستنقعات القرم ثم دخول ممباسا خلسة تحت جنح الليل.

وأدرك سلطان ممباسا أن وقت محنته يدنو، وهكذا فإنه في الموضع الذي تطل فيه الجزيرة على البحر من الشرق، شيد حصناً مزوداً بموقعين قويين فوق حافة صخرة مرجانية منحدرة. وسارع أهل المدينة بالتأقلم مع فنون الحرب في العصر الجديد، فانتشلوا ستة مدافع أو سبعة، وكمية وفيرة من القنابل من سفينة برتغالية غرقت قريباً منهم على الساحل في عام 1501. وبإرشاد بحار برتغالي هارب اعتنق الإسلام نصبت المدافع في الحصن الجديد انتظاراً لهجوم الفرنج.

وأرسلت مجموعة من الجنود إلى الشاطئ لاستطلاع دفاعات ممباسا، ونقلوا بزوارق صغيرة وعادوا ليقولوا إن مواطنهم المنشق قد صرخ بهم من الحصن، قائلاً: «أبلغوا الأميرال أنه لن يجد ممباسا مثل كلوة، ولن يجد الدجاج في انتظار مقدمه لكي يذبح له!». وقف ألوف المحاربين ومن بينهم 500 من الرماة الأفارقة بالسهام للدفاع عن المدينة، وقد عقد السلطان العزم على المقاومة حتى النهاية. وكانت ممباسا على نحو ما كان داجاما قد أدرك مكاناً جديراً بالقتال من أجله، وتطلع إليه مقاتلو ألميدا بمزيد من الشغف، واستبد الحنق بنائب الملك إلى حد الشحوب، عندما كرّر على مسامعه التوبيخ الساخر الذي صاح به المنشق.

ويصف المؤرخ الذي صحب أسطول ألميدا الدور البديعة المشيدة بالحجارة التي كان التجار الأثرياء يقطنونها والتي تخللتها مبان أصغر منها اتخذت الأغصان لتعريشها، حيث يأوي إليها العبيد والماشية وحيوانات أخرى. وكانت الجزيرة والبر الأفريقي المجاور لها ينتجان الفاكهة والعسل والأرز وقصب السكر، «ويقول العرب إن هذه المدينة هي الأروع في الساحل بأسره».

قبل أن تبدأ المعركة الحقيقية، تعرضت سفينتان من أسطول ألميدا تتسمان بأنهما أصغر حجماً لأضرار من جراء قصفهما بالقنابل من الحصن، بينما كانتا تقومان بعملية سبر أعماق المناطق المختلفة في المرفأ. وحل الرعب بالمدافعين عن المدينة عندما أصابت طلقة موفقة من إحدى السفينتين، مخزن البارود الذي اشتعلت فيه النار وانفجر. وكانت هذه هي النهاية المأساوية لحصن ممباسا الأول، وإن لم تكن نهاية المقاومة من جانب المدينة نفسها؛ ففي هجوم ذي أربعة شعب مضى البرتغاليون يشقون طريقهم في مواجهة مقاومة صلبة نحو قصر السلطان وهم يعملون النهب والقتل حيثما مضوا. وقام لورنكو نجل ألميدا بدور قيادي في الهجوم. وأبطأ المدافعون تقدم المهاجمين بسيل من الأحجار ينهمر من أسطح البيوت على الشوارع الضيقة. وكان الراهبان الفرنسيسكانيان اللذان أبديا حماساً فائقاً في كلوة قد عادا من جديد ليتصدرا المعركة، وعندما وصلا إلى القصر تسلقا إلى سطحه وأقاما صليباً هناك.

ثم لجأ المدافعون السواحيليون كملاذ أخير إلى دفع فيلين هائجين إلى ساحة المعركة، ولكن البرتغاليين لم يرتدعوا واستباحوا كل شيء، وأوغلوا في النهب حتى أصابهم الإعياء. وعثروا على «عدد كبير من قطع الملابس وعلى الذهب والحرير والسجاجيد والسروج، وبصفة خاصة سجادة لا وجود لما هو أفضل منها في أي مكان، والتي أرسلت إلى ملك البرتغال مع العديد من الأشياء الثمينة». ومنح ألميدا كل قبطان من قباطنته مساحة من المدينة لينهبها، وتم تكديس وتكويم كل شيء أمام القصر لكي يتم اقتسامه بحسب الرتبة، وكان هناك أكثر مما يمكنهم حمله والمضي به بعيداً[9].

وأضرمت النار أخيراً في المدينة وسهل انتشارها وجود الدور ذات السقوف المتخذة من السعف، وكما هو ثابت في السجلات، فإن «المدينة بأسرها اتقدت كأنها حريق

واحد هائل دام طوال الليل تقريباً» وتطلع السلطان وبعض الأعيان إلى المشهد من مزرعة للنخيل في أقصى الجزيرة. وتداعت دور كثيرة ضخمة وسط ألسنة اللهب واحترقت ثروة هائلة، فمن هاهنا كانت تحمل بحراً عروض التجارة مع سفالة وكنباية».

وإذ نحى السلطان المهزوم جانباً الصراعات القديمة مع ماليندي، فقد أورد رواية للأحداث في رسالة بعث بها إلى حاكم هذه الأخيرة، يقول فيها:

«حفظ الله السيد علي. أحيطكم علماً بأن قائداً قد مرّ من هنا مضرماً النار. واقتحم هذه المدينة بضراوة وقسوة بالغتين، حتى إنه لم يبق على أحد؛ امرأة أو رجل شاب أو عجوز أو وليد كائناً ما كان عمره... ولم يقتل البشر وحدهم ويحرقهم، وإنما تهاوت الطيور التي تحلق في السماء كذلك إلى الأرض. حتى إن رائحة الجيف وصلت إلى حد أنني لا أجرؤ على دخول هذه المدينة. وما من أحد يمكن أن يتصور الثروة الطائلة التي نهبوها ولا أن يُثمّنها»[10].

الفصل الرابع والعشرون

هزيمة الأتراك العثمانيين في معركة ديو

لم يكن لدى البرتغاليين في القرنين السادس عشر والسابع عشر ما يعلّمونه لشعب الهند، باستثناء الطرق المحسنة المستخدمة في قتل البشر، والشعور الضيق الأفق بالتعصب الأعمى في الدين. ومن المؤكد أن هذين الأمرين لم يكونا من الأهمية بحيث يجعلان من الضروري بالنسبة إلى الهنود أن يشعروا بالامتنان لفاسكو داجاما أو من أعقبوه.

ك. م. بانيكار - **«المالبار والبرتغاليون»** (1929)

قبل أن يبدأ فرانسيسكو دي ألميدا في جعل حضوره ملموساً في المحيط الهندي بوقت ليس بالقليل، كان السلطان المصري في القاهرة وسادته الأتراك[1] قد عقدوا العزم على التصدي الشامل للتوغل المسيحي. ولكن لما كان هذا التصدي سيدور في البحر، فقد كان هناك أكثر من مأزق؛ يتمثل أولها في معرفة نوعية السفن التي سيواجهها أسطول المسلمين. فالبرتغال دولة بعيدة عن شرق البحر المتوسط، ولم تتح للأتراك قط فرصة فحص سفنهم عن قرب، وكل ما عرفوه من الأخبار التي وصلت إلى مصر هو أن الفرنج لديهم قوة نارية رهيبة ويستخدمونها بضراوة.

كان حرياً بالأتراك أن يدركوا في الحال أن السفن التجارية التي تمضي جيئة وذهاباً على امتداد الطرق البحرية بين الهند وشبه الجزيرة العربية لا جدوى منها في أي مهمة حربية، حيث إن هياكلها أكثر هشاشة من أن تحمل مدافع من الضخامة، بحيث تصمد في وجه البرتغاليين. ولم يكن هناك مصدر لسفن مناسبة في أي مكان من أرجاء المحيط الهندي. وكان الرد الوحيد هو بناء أسطول على شواطئ البحر الأحمر (لم يكن الأتراك قد شقوا طريقهم عنوة بعد إلى الخليج) والإبحار خروجاً منه إلى المحيط الهندي لخوض غمار القتال[2].

شكل هذا الحل بدوره صعوبة فلم يكن هناك وجود لأخشاب صالحة لبناء هياكل السفن العابرة للمحيطات، سواء في مصر أو في شبه الجزيرة العربية، ويتعين نقلها في

سفن للشحن عبر البحر المتوسط إلى مصر من الأناضول أو البلقان، ثم نقلها بالجمال إلى ميناء مطل على البحر الأحمر. ويتعين كذلك جلب المدافع والقنابل من تركيا، لأن طبقة المماليك التي حكمت مصر لم تكن تصنع إلا المدافع المخصصة للأغراض الدفاعية براً، وكانوا يزدرون القتال البحري ويتشبثون بنمط من الفروسية سرعان ما سيقدر له أن يقضي عليهم.

وعلى الرغم من أن 260 من القوادس التركية قد حاربت 170 سفينة بندقية، وألحقت الهزيمة بها عام 1499 في معركة بحرية قبالة مدينة سابينزا اليونانية، فإن الأتراك لجؤوا الآن إلى البندقية طلباً للعون. فقد كانت هناك مصلحة متبادلة في طرد البرتغاليين من المحيط الهندي، وأدرك الطرفان أن القوادس التقليدية المتوسطية، التي تحاربا على متنها، ستكون بلا طائل في مواجهة «الحصون العائمة». فهذه السفن ستمزق إرباً قبل أن تستطيع الاقتراب على نحو كاف، يتيح لجنودها الفرصة للصعود إلى متن سفن العدو والالتحام مع جنودها.

وكان البنادقة قد فكروا في وقت من الأوقات في دعوة المصريين إلى حفر قناة عبر برزخ السويس، باعتبار ذلك أيسر السبل لدفع سفن إلى المحيط الهندي. ولكنهم تراجعوا عن الفكرة لخشيتهم من أن السلطان سوف يتشكك في أنهم يريدون فتح طريق لتجارتهم. وبدلاً من ذلك قدموا له النصح بشأن البرتغاليين على أساس ما عرفوه في لشبونة عن طريق عميلهم ليوناردو دي كاماسا، كما سمحوا بقطع الأخشاب في غابات دالماسيا لشحنها إلى السويس، وفي نهاية المطاف وضع فريق من رجال المدفعية البنادقة رهن تصرف السلطان.

وبينما كان يجري بناء الأسطول المصري ليضم اثنتي عشرة سفينة كبيرة في الطور بشبه جزيرة سيناء، مضى ألميدا يبحر من دون عائق صعوداً وهبوطاً على امتداد الساحل الهندي، الذي وصل إليه في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1505. وكانت زيارته لكوشين من أولى الزيارات التي قام بها لمواني الساحل، فقد كان راجا كوشين لايزال يدين للبرتغال بالولاء على الرغم من أنه اضطر، في وقت من الأوقات، إلى اللجوء لمعبد هندوسي هرباً من قوات السامري. وقد صمد حصن خشبي يهيمن على الميناء،

وتحتله الحامية البرتغالية بقيادة دوارتي باتشيكو، في مواجهة محن شديدة. وعندما بذل المهاجمون جهوداً لتجويع الحامية، قام باتشيكو باختطاف كبير التجار المسلمين في كوشين واتخاذه رهينة لحين تسليم إمدادات من الأرز له. وخارج المدينة دافعت قوة صغيرة من البرتغاليين عن معبر نهري، طوال ما يزيد على ثلاثة أشهر، إلى أن انسحب جيش كالكوت وقد تكبد خسائر فادحة. وكأحد مظاهر الاحتفال بالنصر تم هدم مسجد مقام إلى جوار المحيط وبنيت كنيسة في موضعه.

اعتمر الراجا الآن التاج الذهبي الذي زين لوقت قصير جبين السلطان الذي فرض على كلوة. غير أن ألميدا سرعان ما وجد نفسه بعد هذه الفسحة القصيرة، غارقاً في تعقيدات الحياة السياسية للبر الهندي. فقد كانت كالكوت من الناحية الشكلية، جزءاً من إمبراطورية جنوب الهند الهندوسية الكبرى التي تحمل اسم عاصمتها، فيجايانجارا، مدينة النصر المقدسة. لكن كالكوت تصرفت كما لو كانت مستقلة استقلالاً تاماً، ومن جانبهم كان الهندوس المتشددون ينظرون إلى السامري كما لو كان صنيعة التجار المسلمين الذين يحيطون به. وفضلاً عن ذلك فإن فيجايانجارا كانت إمبراطورية تتعرض لهجوم متقطع من الممالك الإسلامية الواقعة إلى الشمال منها، ولم يكن ملكها يكترث كثيراً بما يقع لموانىي الفلفل الواقعة على بعد مئات الأميال باتجاه الجنوب. وفي البداية علق البرتغاليون الآمال على تحريضه على الهجوم على كالكوت ولكن مثل هذه الآمال كانت على الدوام تفتقر إلى الواقعية.

ولو أن قوات ألميدا كانت أكثر عدداً، لربما عرض على فيجايانجارا أن يقاتل إلى جانب جيوشها ضد أعدائهما المسلمين. ولكنه لم يجرؤ على التقدم بهذا العرض، لأنه كان أقوى أنصار النظرية القائلة بأن دولة الهند البرتغالية ينبغي أن تكون إمبراطورية بحرية، بصورة خالصة من دون أي التزامات برية باستثناء عدد محدود من الحصون الاستراتيجية. وهكذا ظلت الحيرة تستبد بالبرتغاليين حيال القليل الذي يعلمونه عن ممالك الهند الداخلية. وأقصى ما وصلوا إليه في سعيهم لإبرام تحالف مع فيجايانجارا هو مصادقة تيموجا، وهو قرصان ومرتزق قوي كان يقوم بنقل الجياد عبر المحيط، لإمداد خيالة الراجا بها(3).

أسند ألميدا الآن إلى ابنه لورنكو الذي كان قد تصرف كفاتح حقيقي في كلوة وممباسا، قيادة العديد من سفن الأسطول البرتغالي، وشجعه على التحرك بشكل مستقل. وقد علم لورنكو من أحد العملاء في ميناء كنانور الواقع إلى الشمال من كالكوت والذي يتسم بموقف ودي من البرتغاليين، أن السامري يعد بصورة جدية لشن الحرب وأن اثنين من الفارين من صفوف رجال حملة داجاما الثانية، وهما بيرو أنطونيو وجواو ماريا، قد أقاما مصهراً في كالكوت وصنعا 500 مدفع صغير.

بعد الحصول على هذه المعلومات بدا لورنكو وكأنما قد تاه بالفعل. فبينما كان يبحث عن جزر المالديف (ذيبة المهل) الواقعة على بعد 500 ميل من الطرف الجنوبي الغربي للهند، وجد نفسه بدلاً من ذلك في سيلان، الواقعة إلى الجنوب الشرقي[4]. ولسوف تصبح مستعمرة برتغالية ولكن لم يكن هناك وقت في تلك اللحظة يمكن إهداره في إخضاعها.

ارتكب أحد مرؤوسي لورنكو، ويدعى جونزالو فاز خطأ متعمداً، عندما اعترض طريق سفينة يملكها أحد التجار البارزين في كنانور، وكانت تحمل «قرطاساً» برتغالياً يخولها الإبحار في أعالي البحار، ولكن "فاز" زعم أن هذا «القرطاس» مزوّر ونهب حمولة السفينة، ثم أمر بقتل طاقمها ووضع الجثث داخل شراع سفينتهم وحياكته، ثم أمر بإغراق السفينة. وعندما انشق الشراع حملت الأمواج الجثث إلى الشاطئ، وحمل الاستفظاع الشديد لما حدث حاكم كنانور على الانتقال من موقف الصديق للمسيحيين إلى العداء الشديد لهم.

كانت الفظائع التي ارتكبها البرتغاليون قد جعلتهم منبوذين في شتى أرجاء المحيط الهندي، ولكن بدا أن الرد على هذه الفظائع سيكون في القريب العاجل. حيث كان الأتراك في أوائل عام 1507 قد أكملوا بناء أسطولهم عند رأس البحر الأحمر، وانطلق أمير البحر الذي يتولى القيادة ويدعى الأمير حسين بالأسطول على الفور، حيث توالت الأنباء من الهند وشبه الجزيرة العربية عن الضرر الذي يتم إلحاقه بحركة السفن غير المسلحة والموانئ التي لا حماية لها. وعلى الرغم من البداية النشطة للأمير حسين، فإنه أحرز تقدماً بطيئاً في مسيرته، ذلك أن سفنه الاثنتي عشرة كانت مثقلة بحمل 1500 رجل مع أسلحتهم، وكذلك أفضل المدافع التي كان بوسع الأتراك تجميعها.

استغرق الأسطول الإسلامي ثمانية شهور في رحلته، مع التوقف في عدد من الموانى، نزولاً في البحر الأحمر وشرقاً على امتداد سواحل اليمن وعمان، ثم مدخل الخليج العربي، وصولاً إلى شمال الهند. ولم يقابل أي برتغاليين في الطريق. وانعطف حسين باتجاه الجنوب فيما وراء دلتا نهر السند، ثم ألقى مراسيه قبالة جزيرة ديو المزدهرة. وقد بدت هذه الجزيرة قاعدة مثالية حيث كانت تقع في النهاية الجنوبية لشبه جزيرة كاتيوار، وهي جزء من مملكة جوجارات (جوزرات) التي حكمها المسلمون. وكانت الأهمية الاستراتيجية التي تتمتع بها ديو بالغة الوضوح، حتى إن البرتغاليين كانوا قد قرروا بالفعل أن يجعلوا منها (لدى تمكنهم من الاستيلاء عليها) إحدى نقاطهم الحصينة في المحيط الهندي.

وكان في انتظار أسطول حسين للترحيب به مالك عياض، حاكم ديو المتحدر من أصل روسي، وهو رجل له تاريخ فذ؛ فقد استعبده الترك ودخل في الإسلام على أيديهم بعد أن كان قد وقع في الأسر في طفولته، وبلغ الهند بمعية أحد التجار، وهناك استعاد حريته، حيث بهر محموداً الأول ملك جوجارات (جوزرات) المسلم بمهارته الفائقة في الرمي بالسهام، وعلت مكانته ليصبح حاكم ديو وليحول الجزيرة إلى أحد أكفأ مرافئ شمالي الهند في الإدارة[5]. وقد وعد حسيناً بالتأييد الكامل، على الرغم من أن ملك جوجارات (جوزرات) الذي يحكم عياض باسمه، لم يظهر اهتماماً يذكر بالأمر بأسره (وكان خلفه بهادور شاه يسخر من الحروب البحرية باعتبارها لا تعدو أن تكون «شأناً من شؤون التجار»). ولما كان قد ترك لعياض أن يحدد موقفه بنفسه فقد لعب دوراً خطيراً في الصراع الذي كان يوشك على الاندلاع.

وفي غضون ذلك كان السامري حاكم كالكوت يعد 100 سفينة خفيفة مسلحة بالمدافع التي صنعها المنشقان المسيحيان، وقد أرسلت هذه السفن لمسافة 700 ميل على امتداد الساحل الهندي شمالاً، حاملة المؤن للسفن الحربية الإسلامية. ولسوف تقدم لها العون أيضاً عندما تنضم إليها في المعركة. ومع تزايد ثقة حسين بنفسه على نحو مطرد، غامر بالانطلاق من ديو باتجاه الجنوب، بينما مضى يغذ السير إلى الشمال ذلك الجزء من الأسطول البرتغالي الذي يتولى قيادته لورنكو دي ألميدا.

كـان دون لورنكو قـد سـمع بالشائعـات التي تدور حـول سفـن كـبيرة في الجـوار، وتصور أنها سفن برتغالية، فرحل على عجل إلى ميناء شول (شوردار) ولم يكن متأهباً للقاء عندما انقض حسين عليه هناك. كان البرتغاليون أقل عدداً وبدا أن دائرة المعركة قد انقلبت عليهم مع حلول الغسق. وأهاب قباطنة لورنكو به أن يلوذ بالهرب تحت جنح الظلام، لأن هذه اللحظة بدت من النوع الذي يظهر المرء فيه أقصى قدر من البسالة بالاعتصام بالحيلة. غير أن ألميدا الشاب رفض الإصغاء لتوسلاتهم خوفاً من أن يتهمه أبوه بالجبن، وجـددت سـفـن المسلمين هجـومـهـا مع أول ضـوء من أضـواء النهـار. وأصـابت إحدى القنابل لورنكو في فخذه أولاً، لكنه أمر رجـاله بربطه بدّقل سـفـينة القيادة حتى يستطيع مواصلة توجيه مسار المعركة ثم قصمت قنبلة ثانية ظهره، وغرقت سـفـينة القـيـادة وتراجعت بقـايا القـوة البرتغـاليـة جنوباً، بعـد أن قـتل 140 رجـلاً من عناصرها وأسر الكثيرون غيرهم (وقتل في المعركة كذلك قائد السفن المرسلة من كالكوت، وقد شيدت مقبرة فخمة على الشاطئ لتضم رفاته، وقد عُبد لخوضه غمار القتال ضد المسيحيين).

وعندما بلغت نائب الملك أنباء مصرع ابنه، أقسم أنه لن يشذب لحيته أبداً إلا بعد أن يثأر لمصرع هذا الابن، وقال: «لقد التهموا الديك الصغير والآن يتعين عليهم أن يأكلوا الديك الكبير».

اقتضى الأمر عاماً كاملاً من فرانشيسكو دي ألميدا لكي يصل إلى مرمى المدافع من الأسطول الإسلامي، ولكنه قام خلال ذلك الوقت سراً، بإجراء اتصال بمالك عياض حاكم ديو، وأهاب به أن يغير الجانب الذي يسانده. وقد جوبه هذا الحاكم بخيار دقيق؛ فالخيانة المفضوحة لأبناء دينه المسلمين ستكون بمنزلة حكم إعدام إذا انعقد لواء النصر لهم، ولكن التأييد العلني لهم إذا ما حاقت الهزيمة بهم سيجعله طريدة إذا ما شن البرتغاليون ذات يوم هجوماً على ديو. ولما كان الاحتمال الأرجح هو أن البرتغاليين بسفنهم الثماني عشرة، سيتغلبون على السفن العشر التي بقيت تحت قيادة حسين، فقد مضى عياض إلى أقصى ما يجرؤ عليه في التنكر لوعده الذي قطعه للأتراك قبل عام.

وصل ألميدا إلى ديو في الثاني من شباط/ فبراير 1509، ووجد الأسطول الإسلامي مصطفاً وراسياً، في وضع إلقاء المرساة ينتظر قدومه جنباً إلى جنب مع حشد من السفن الأصغر حجماً. كان كل من الجانبين يدرك أن المعركة ينبغي أن تحسم هوية من سيسيطر على المحيط الهندي على امتداد سنوات طويلة مقبلة. ومن شأن الهزيمة أن تجلب على ألميدا العار، المتمثل في أنه لن يكون أول نائب للملك على دولة الهند البرتغالية فحسب، وإنما آخر نائب كذلك، وفي أفضل الأحوال سيتمكن البرتغاليون في المستقبل من التجارة في سواحل المالبار بعد استئذان أقل الراجات شأناً، وحتى هذا الاحتمال بدا مستبعداً حيث إنهم قد أثاروا بالفعل الكراهية والمقت ضدهم.

وبالنسبة إلى المسلمين فإن انتصارهم سيتيح عودة عهد التجارة الحرة التي لا تتعرض للانقطاع بين الهند وموانئ البحر الأحمر، كما أنها ستقضي كذلك على هالة القوة التي لا تقهر التي أحاطت بالمسيحيين، وتتيح الوقت للاستعداد لأي محاولة قد يقومون بها للعودة إلى المحيط الهندي.

غير أن نتيجة الهجوم الذي شنه ألميدا في صباح اليوم التالي، لم تكن موضع شك على الإطلاق، فقد مضى أسطوله مرات عديدة ماراً قبالة جانبي خط الدفاع الذي أقامه حسين، مطلقاً نيران مدافعه المنصوبة على جانبي السفن حيثما ذهب، ولم تكن نيران المدفعية المعادية في مستوى الرد على هذا الهجوم[6]؛ فقد كانت السفن البرتغالية التي يحمل بعضها أربعين مدفعاً تعلو كثيراً عن سطح الماء بحيث كانت قنابلها تسقط من علٍ على خصومها.

وفي غضون ساعات تحطم خط حسين الدفاعي، وفي جزيرة ديو كان مالك عياض مجرد مراقب لا يحير حراكاً، ولم يطلق طلقة واحدة في مواجهة الهجوم المسيحي، وبقيت سفنه على مدى بعيد من النيران. وفي غمار النصر أظهر البرتغاليون شهوتهم المألوفة للدماء، فما أن تغرق سفينة للمسلمين حتى يبادروا إلى إنزال قواربهم الصغيرة لقتل أعدائهم الذين يتخبطون في الماء. وبعد أن بدا للأتراك أنهم قد خسروا كل شيء استسلموا، ورفعت بقية أسطولهم المراسي ولاذت بالهرب. وعندما حكى حسين

للسلطان في القسطنطينية بالكيفية التي خسر بها المعركة، قال إنه تعرض للخيانة في اللحظة الحاسمة من جانب حاكم ديو الذي ولد مسيحياً[7].

شذب ألميدا لحيته بعد أن انتقم لـ «الديك الصغير». وخرج البرتغاليون منتصرين مما كان بمعايير ذلك الزمان والمكان، معركة بحرية يعادل الانتصار فيها الفوز الذي حققه الأسطول الروماني على أبناء قرطاجنة في الحرب البونية الأولى. وتعين الآن فرض هذا الانتصار على الجميع على امتداد الساحل الهندي، فلابد من إطلاعهم على حقيقة أن تحدي مدافع البرتغاليين لا يعود على من يقوم به إلا بالعاقبة الوخيمة. ولم يستغرق نائب الملك وقتاً طويلاً ليقرر كيف يفعل ذلك. فعلى الرغم من عمليات القتل العديدة في الماء، فإنه تم أخذ بعض الأسرى في ديو، وهكذا فإنه عندما كان الأسطول يمر بأحد الموانى كان ألميدا يصدر أمراً بالتوقف، ويتم إعدام مجموعة من الأسرى، وتمزق الجثث أشلاء، ثم من مدى قريب تطلق الرؤوس والأذرع والسيقان بالمدافع إلى مركز المدينة.

الفصل الخامس والعشرون

أفونسو دي ألبوكيرك الكبير

ها هنا تبدأ أراض خاضعة جديدة تم اكتسابها مع لقب نبالة بمقتضى الحق الإلهي. ترسل السفن في أول فرصة مواتية ويطرد السكان الأصليون أو يقضى عليهم، ويعذب أمراؤهم لاكتشاف ذهبهم، وتباح كل فظائع الوحشية والشهوة، وتضرج الأرض بدماء سكانها. وهذا الطاقم الرهيب المؤلف من الجزارين الذين وظفوا في مثل هذه الحملة الورعة هو مستعمرة حديثة، أرسل رجالها لهداية برابرة وعبدة أصنام، وتحويلهم إلى الدين المسيحي.

جوناثان سويفت ـ **«رحلات جاليفر»** (رحلة إلى بلاد الهويهنهنم)

كان تأثير الانتصار البرتغالي في معركة ديو على الشرق عظيماً، كتأثير فتح محمد الثاني للقسطنطينية في الغرب قبل نصف قرن من الزمان. ومع ذلك فقد ظلت «دولة الهند» البرتغالية بعيدة عن أن تضرب جذورها، وراح قباطنة سفنها يجولون البحار كالبدو الرحل، عاجزين عن وضع أقدامهم على الشاطئ في أي بقعة احتلت باسم الملك مانويل. وهكذا فإنه بينما كان لايزال يتعين وضع الخطط العظيمة للإمبراطورية في لشبونة، مست الحاجة إلى ملاذ آمن في المحيط الهندي، حيث يمكن حسم الأمور الأقل أهمية، من دون الانتظار عاماً ونصف العام أو أكثر من ذلك لوصول الرد على طلب التعليمات. كما يمكن لهذا الملاذ أيضاً أن يكون مكاناً لإصلاح السفن وتخزين الذخيرة ويهرب البحارة فيه لبعض الوقت من عنابرهم المزدحمة ذات الرائحة التي تضيق بها النفس، المخصصة لهم تحت أسطح السفن، وحيث يمكن للمرضى والجرحى أن يتعافوا ويتم دفن الموتى. ولم تكن الحاجة ماسة إلى حصن بقدر ما كانت ماسة إلى مستعمرة.

بدا شرقي أفريقيا وغربي الهند الموضعين الظاهرين اللذين يمكن فيهما الاستيلاء على ميناء جيد وأرض محيطة به، ثم إعلانهما من الممتلكات البرتغالية. غير أنه كان قد ثبت أن أفريقيا كانت تعجُّ بأنواع الحمى القاتلة، وتعيّن التخلي عن حصن كلوة الذي

كتب ألميدا عنه بحماس بالغ إلى مانويل لدى إقامته، وذلك بعد سبع سنوات فقط. وعلى البر الأفريقي على مسافة أكثر إيغالاً نحو الجنوب قصد بالمحطات التجارية التي أقيمت في سفالة وموزمبيق أن تقدم العون للسفن التي دارت لتوها حول رأس الرجاء الصالح، ولكن هذه السفن اكتشفت غالباً موتى ومحتضرين على الشاطئ يفوقون من كانت تحملهم.

وهكذا وصل البرتغاليون سريعاً إلى استنتاج أن من الأفضل إقامة مستعمرة في غربي الهند، وفضلاً عن ذلك فإنه في الهند تزرع التوابل، وهناك يتعين القيام بأعمال الدوريات على الساحل لمطاردة «سفن مكة» التي تجرؤ على تحدي المرسوم القاضي بضرورة حمل السفن لـ«قرطاس» برتغالي، يخولها الإبحار في المحيط الهندي. ولكن أبرز صعوبات الهند تمثلت في ثروتها وسكانها. وعلى الرغم من أن البرتغاليين قد ازدروا أي بسالة تظهر في القتال باستثناء البسالة التي يظهرونها هم أنفسهم، فإنهم كانوا يعرفون أن في استطاعة الحكام الهنود الدفاع عن أرضهم بأعداد لا نهاية لها تقريباً من الرجال، كما أنهم على قدر طائل من الثراء بحيث يمكنهم تسليحهم بالبنادق والجياد والفيلة.

وواصل بعض مستشاري مانويل المقربين المجادلة بالقول إنه من الخطأ بالنسبة إلى البرتغال أن تفكر في إنشاء مستعمرة تقع فيما وراء رأس الرجاء الصالح، ذلك أن مجرد بناء حصون وإمدادها بالحاميات من شأنه إضعاف القوة البحرية البرتغالية. كما أن الحصون الحارة الكئيبة لم تلق حماساً من جانب رجال حامياتها، حيث إنه لم تكن هناك فرصة للمشاركة في شن عمليات الإغارة والنهب، التي شكلت المصدر الأساسي لجاذبية الحياة لدى البرتغالي في جزر الهند. وإذا ضربنا الذكر صفحاً عن حراسة الحصون من هجوم مفاجئ عليها براً أو بحراً، فقد كانت الشهور تمر طويلة مضجرة من دون أن يجد الرجال ما يصنعونه خيراً من مسح الأفق، ترقباً لظهور شراع برتغالي يريحهم مما هم فيه.

ومع ذلك فقد سخر مانويل من أولئك الذين أشاروا عليه، في ضوء اعتبارات التكلفة والمخاطر، بعدم إقامة مستعمرة، ورجع موقفه هذا لأمر واحد هو أن المسألة

غدت بالنسبة إليه مسألة كرامة واعتبار حيث أقام الإسبان بالفعل مستعمرات في العالم الجديد. وهكذا فإنه بعد أقل من عام على رحيل ألميدا عن المحيط الهندي ووفاته، تم الاستيلاء على جزيرة جوا (كوه) بأوامر مباشرة من مانويل. وكان الرجل الذي عهد إليه بالمسؤولية عن ذلك هو خلف ألميدا، أفونسو دي ألبوكيرك، المؤسس الحقيقي لـ«دولة الهند» البرتغالية. وغالباً ما يعرف بـ«أفونسو دي ألبوكيرك الكبير» وهو لقب خلعه عليه ابنه المخلص الذي قام في وقت لاحق بتدقيق نصوص رسائله المستفيضة إلى الملك.

كان ألبوكيرك الذي يجمع بين أصول برتغالية وإسبانية وجرت في عروقه دماء ملكية، مؤهلاً بحكم نشأته وتربيته لحياة تقوم على الجسارة في الحروب. ووصفه أحد معاصريه بأنه مهيب المظهر ثيابه كلها سوداء «يحمل خنجراً من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة على جانب خصره». وفي سنوات لاحقة من عمره، استرسلت لحيته الرمادية حتى بلغت خصره تقريباً. واتقد حماسة لقتل المسلمين، وأمضى عمراً بكامله في القتال في شمال أفريقيا، قبل أن يقوم بزيارته الأولى للمحيط الهندي وهو في الخمسين من عمره. وفي ذلك الحين بقي عدة أشهر أشرف خلالها على بناء حصن كوشين ثم عاد إلى لشبونة في منتصف عام 1504.

وكان ألميدا قد أبحر في ربيع 1505 من البرتغال ليصبح أول نائب للملك، وبعد عام واحد تبعه ألبوكيرك، على رأس أسطول يتولى قيادته. وقدر للرجلين أن يصبحا عدوين لدودين، فقد تصرف ألبوكيرك منذ البداية بثقة في النفس توحي بأنه عرف بالفعل أن الملك قد اختاره سراً ليكون خلفاً لألميدا. كما كانت لديه أفكاره الخاصة عن الكيفية التي ينبغي أن تحكم بها «دولة الهند» البرتغالية.

وتشبث ألبوكيرك الذي اتسمت تصوراته الدينية بالتشدد، بأمل أثير كان معظم معاصريه قد تخلوا عنه، وهو أن «الراهب يوحنا» كان مستعداً وقادراً على الاتحاد مع البرتغال في جهد مشترك للإطاحة بالإسلام. وساوره حلم باستخدام أثيوبيا كقاعدة لتدمير مكة، وتحدث عن جلب مهندسين من ماديرا، للعمل في المشروع العبثي المتمثل في تحويل النيل إلى البحر الأحمر، وبذلك يتم تجويع مصر ودفعها للخضوع[1].

وتمثل واحد من أول الأعمال التي قام بها لدى وصوله إلى ساحل شرق أفريقيا في عام 1506 في إنزال اثنين من رجاله مع مترجم تونسي، ومعهما أوامر بأن يحملا التحيات إلى الحاكم الأثيوبي من الملك مانويل. وخلافا للبرتغاليين الآخرين الذين أرسلوا في مهام مماثلة، فإنهما قد شقا طريقهما على ما يبدو إلى هناك ربما بحراً. وفي وقت لاحق تلقى مانويل رداً من الملكة هيلين العجوز التي كانت نائبة الملك، وتحكم باسم وريث العرش في أثيوبيا. وقد خاطبته في الرسالة المكتوبة بالعربية والفارسية، باعتباره «غازي البحار مخضع الكفرة وغير معتنقي الدين الحق "المسلمين" ومذلهم» ثم أفاضت في الوعد بتحالف عسكري مع مسيحيي أوربا يقهر الجميع.

ولم تردع ألبوكيرك الحقيقة التي مضت تظهر حول أثيوبيا، فقد كتب إلى مانويل معلناً أن «الراهب يوحنا» كان «لديه عدد كبير من الجياد والكثير من الفيلة» وقد امتدت مملكته «وصولاً إلى سفالة وسواحل مقديشو وممباسا وماليندي». وعلى الجانب الآخر من أفريقيا، بلغت مملكته الأطلسي، وبها العديد من مناجم الذهب، والذهب الذي يصل إلى المحيط الهندي عند سفالة جاء من أرض تخضع لحكم الراهب يوحنا. وكان هذا كله خليطاً من التفكير بالتمني، استمد من خريطة العالم التي رسمها الراهب مورو، وذلك في مفارقة حادة للواقع العملي الفظ الذي أبداه ألبوكيرك في المسائل العادية.

وقد تمكن من إظهار ضراوته خلال إبحاره على امتداد ساحل شرقي أفريقيا، في النصف الأول من عام 1507 مع قريبه تريستان دا كونها (مكتشف جزيرة في جنوبي المحيط الأطلسي، مازالت تحمل اسمه). وكان هناك ما يزيد على اثنتي عشرة سفينة في أسطوليهما المسلحين تسليحاً مكثفاً، وعندما بلغا ميناء ماليندي الذي تربطه صداقة بالبرتغاليين، أشار سلطان ماليندي إلى أنهما قد يكلفان نفسيهما عناء تأديب أحد أعدائه، وهو شيخ مدينة تسمى حجة، تقع على الساحل على مسافة أبعد شمالاً. ولم يحتج ألبوكيرك وكونها إلى مزيد من التشجيع فألقيا مراسيهما قبالة حجة، وأمراها بالاستسلام باسم ملك البرتغال.

بعث شيخ حجة، وهو من أقارب سلطان ممباسا، برسالة قوامها أنه لا يدين بالولاء إلا للخليفة في القاهرة[2]، وأنه لا شأن له بالمسيحيين الذين طاردوا التجار المسالمين الذين يمارسون تجارتهم المشروعة في المحيط الهندي وقتلوهم. ولم يكن لدى القائدين إلا رد واحد على هذا التحدي، ففي صباح اليوم التالي داهموا الشاطئ، وكل منهما على رأس مجموعة من المقاتلين، ولم يكن لأبناء المدينة قبل بمقاومة هذه الضراوة فهربوا إلى الأدغال، بينما صمد الشيخ وأقرب رفاقه في قتال يائس لا طائل من ورائه، في أجمة نخيل، فقتل ألبوكيرك الشيخ بنفسه، وتم نهب المدينة وإشعال النار فيها، وبلغ انهماك العديد من الجنود في النهب حداً التهمتهم معه ألسنة اللهب.

لم يلق البرتغاليون مقاومة في لامو، وتعهد حاكمها الذي استبد به الخوف بدفع ضريبة سنوية إذا لم يتم القضاء على مدينته، ولما لم يكن لديه ذهب أفريقي، فقد دفع القسط الأول في صورة دوكاتيات بندقية وهي عملة كانت متداولة في ذلك الوقت، على امتداد المحيط الهندي. وكانت برافا محطة التوقف التالية في الرحلة نحو البحر الأحمر، وهي مدينة مبنية بالحجر تهيمن على الساحل الصومالي القاحل. وفي هذه المرة انطلق السكان الذين يبلغ عددهم ألوفاً عديدة في مسيرة على امتداد الشاطئ استعراضاً لقوتهم، ولكنهم بعثوا برسل إلى الأسطول، رداً على مطالب البرتغاليين بإجراء «مباحثات سلام». وعندما طالت المباحثات كثيراً بلا طائل، تقرر تهديد المبعوثين بالموت غرقاً، وذلك لاكتشاف ما إذا كانوا يعملون وفقاً لتعليمات سرية. وكشف هذا التهديد النقاب عن أن سلطان برافا قد علق الآمال على إطالة أمد المفاوضات، لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية سيحل أوان هبوبها في أي يوم، وهذا من شأنه أن يجعل من المستحيل على سفن البرتغاليين أن تظل راسية قبالة المرفأ.

عند ذلك أهاب بعض الضباط بالقائدين ألا يكترثا بالأمر كله وأن يواصلا الإبحار، ولكن ألبوكيرك أصر على ضرورة إنزال العقاب بمدينة برافا، وبرهنت ثقته في الروح القتالية البرتغالية على أنها في موضعها، فقد تم التغلب على المدينة بمهاجمة واجهتها وقتل ما يزيد على ألف من سكانها، بينما تكبد المهاجمون خسائر محدودة. وعلى امتداد ثلاثة أيام نهبت الدور، وتم جمع المئات من الخواتم والأساور والأقراط الثمينة

من النساء المسلمات بقطع أصابعهن وأذرعهن وآذانهن. وتمثل سوء الحظ الوحيد الذي حل بساحة البرتغاليين في فقدان مركب يقل حصيلة النهب، بينما كان ينقلها إلى الأسطول، وكان كبير القسيسين بين من غرقوا.

بعد غارات محدودة أخرى، من بينها هجوم على جزيرة سقطرة الواقعة قرب مدخل البحر الأحمر، افترق القائدان[3]؛ فمضى تريستان دا كونها جنوباً إلى ساحل المالبار، لتحميل السفن بشحنات من التوابل، بينما آثر ألبوكيرك البقاء بعيداً عن ألميدا الذي كان لايزال في المحيط الهندي باعتباره نائباً للملك. وأمضى باقي عام 1507 مبحراً على امتداد ساحل شبه الجزيرة العربية، مستخدماً المدافع المنصوبة على سفنه السبع في إحداث تأثير مدمر في كل ميناء يبلغه. وتباهى في رسالة بعث بها إلى ألميدا بالكيفية التي احتل بها مسقط ونهبها، وأشعل النار في كل السفن التي كانت راسية في الميناء ثم في المدينة نفسها: «احترقت المدينة ببطء بالغ؛ لأن كل الدور في هذه الأرجاء مبنية بالحجر والملاط، ومطلية بالجص الأبيض، وبالغة الجمال والقوة».

وقد أحرز أكبر نجاح له في هرمز المدينة التجارية العتيقة الواقعة عند مدخل الخليج العربي، والتي زارها ماركو بولو قبل قرنين، وكان الرجال الذين يواجهونه يزيد عددهم بكثير على عدد رجاله (وحتى مع الأخذ في الاعتبار بميله إلى المبالغة، فلابد أن فرص انتصاره قد بدت محدودة) ولكنه استخدم مدافع أسطوله محدثاً تأثيراً هائلاً، بحيث أصاب الفزع العدو فقفز المئات من الرجال إلى الماء «وكان مشهداً مذهلاً». وكالمعتاد أنزل البرتغاليون قواربهم واستخدموا حرابهم: «قتلنا عدداً لا يحصى منهم في الماء وغرق الباقون الذين نال الإعياء وثقل أسلحتهم منهم. وأؤكد لسموكم الحقيقة، عندما أقول إنه كان معنا رجل قتل في ذلك اليوم ثمانين رجلاً في البحر».

بعد هذا الانتصار، انتزع ألبوكيرك وعداً بأن سيف الدين حاكم هرمز الذي يبلغ الثانية عشرة من عمره، والذي كان أحد الأوصياء يحكم باسمه كنائب عنه سيعتبر نفسه من الآن فصاعداً تابعاً للبرتغال. كما وافقت المدينة كذلك على أن تدفع ضريبة سنوية كبيرة ذهباً. ولم يكن لدى ألبوكيرك القوة الكافية التي تمكنه من الاستيلاء على هرمز، على نحو ما كان يعتزم، ولذا فإن أقصى ما استطاع القيام به هو إرهاب المدن القريبة

منها، حيث قام بجدع أنوف النساء وبتر آذانهن، وجدع أنوف الرجال وبتر أيديهم اليمنى، وفي النهاية قصف هرمز نفسها إلى أن قاربت الذخيرة على النفاد.

وقد أراد ألبوكيرك بناء حصن قرب المدينة، ولكن قباطنة أسطوله نزعوا إلى التمرد حيال الفكرة ذاتها، فقد كان الموقع قاحلاً وحاراً على نحو لا يطاق، ففضلوا مواصلة الإبحار لمهاجمة مدن أخرى ونهبها. وسرعان ما وجد خمسة منهم أعذاراً للتخلي عنه، بحيث لم يعد معه إلا سفينته وسفينة أخرى وهو يبحر للانضمام إلى ألميدا.

قدر لألبوكيرك أن يصبح أشهر حكام «دولة الهند» البرتغالية، وألا يحمل أبداً لقب نائب الملك على الرغم من الدم الملكي الذي يسري في عروقه. وقدر للملك مانويل أن يحافظ على وعده لألميدا بأن يكون طوال حياته الوحيد الذي يحمل لقب نائب الملك. غير أن وعي هذا الأخير بمكانته الفريدة لم يمنعه من التميز غيظاً عندما واجهه خلفه، وقال إن الأوان قد آن لنقل السلطة، وأمر بإلقاء القبض على ألبوكيرك وبعث به إلى حصن في جنوب الهند، ليوضع تحت حراسة مشددة إلى أن يجيء من لشبونة دليل مقنع على صحة مزاعمه.

دام هذا الاحتجاز عدة أشهر إلى أن وصلت سفينة تقل فرناندو كوتينهو، وقد كان يحمل لقب مارشال البرتغال، وفضلاً عن ذلك فقد كان من أقارب ألبوكيرك، ولم تترك الوثائق التي حملها من الملك شكا لدى ألميدا في أن وقت شغله لمنصب نائب الملك قد انتهى.

غادر ألميدا في الحال إلى أوربا، ولكن في خليج سلدانا قرب رأس الرجاء الصالح توقفت سفنه للتزود بالماء والمؤن. وخلال هذا التوقف مضى خادمه الخاص إلى الشاطئ، وأهان اثنين من القرويين من قبائل الخوي إهانة بالغة، إلى حد أنهما ردا بلكمه، فأطاحا أسنانه. وقرر ألميدا أن يقود غارة انتقامية ألقى رجاله خلالها القبض على مجموعة من الأطفال. وفي طريق العودة إلى الشاطئ وقعت المجموعة التي شنت الغارة في كمين نصبه القرويون الذين احتدموا غيظاً لفقد أطفالهم. أدى دفق من الأحجار والعصي والسهام إلى مصرع خمسين برتغالياً. ولقي القائد المنتصر في معركة ديو البحرية مصرعه، وقد سقط على ركبتيه، ونفذ سهم في حلقه[4].

وفي غضون ذلك سلم محرر ألبوكيرك إليه تعليمات صادرة من لشبونة تقضي بالاستيلاء على جوا (كوة)، وقد اختير هذا الميناء الواقع في جزيرة في قلب ساحل الهند الغربي عن حكمة من قبل المجلس الملكي، كموقع مثالي للقاعدة الأساسية لـ«دولة الهند» البرتغالية. أما كوتينهو نفسه فقد كانت لديه أوامر منفصلة «أن يهاجم كالكوت ويحقق استسلامها التام، وذلك باستخدام خمس عشرة سفينة و3000 رجل تحت قيادته. وكانت تلك أكبر قوة عسكرية مفردة بعثت بها البرتغال إلى المحيط الهندي. وما كان كوتينهو إلا رجل التحرك النشط، ولذا تقرر مهاجمة كالكوت أولاً، على الرغم من تحفظات ألبوكيرك وترك جوا (كوة) حتى وقت قصير، بعد السيطرة على كالكوت.

تم النزول في كالكوت من دون صعوبة تذكر، وبلغت الثقة بالمارشال حداً نزع معه خوذته التي كان يعتمرها، واعتمر قبعة بدلاً منها، وسلم سيفه وحربته لتابعه الخاص. وقال: «بعصا في يدي سأقود الرجال، للاستيلاء على قصر السامري» ثم سيعود إلى الوطن، إلى لشبونة، ليعلم الملك «على أي نحو زائف ضللوه بالخوف من كالكوت الشهيرة هذه، التي ليس لديها إلا زنوج صغار عراة، من العار أن يحاربهم الرجال المسلحون». وحين فرغ المارشال من قوله هذا، قاد 400 رجل من قوته نحو القصر، بينما قاد ألبوكيرك مؤخرة القوة المهاجمة.

يرسم المؤرخ المعاصر جاسبار كوريا ملامح المشهد، حيث كتب يقول: «كانت الشوارع التي سلكها المارشال ضيقة للغاية، شأن حارات ريفية، وعلى الجانبين امتدت جدران حجرية، يبلغ ارتفاعها طول نصف حربة، وعلى دعائم قوية تعلوها امتدت الدور والنخيل، ومن الشوارع كان الأفراد يصعدون إلى الدور على أحجار ناتئة تشبه درجات منحوتة في بئر».

قاتل البرتغاليون بضراوة على امتداد الطريق، وبلغوا الميدان الرئيسي للمدينة. وفي قلب الميدان، كانت هناك دور فسيحة اتخذت من الخشب المنقوش على نحو متأنق، وشغلها السفراء الأجانب لدى كالكوت. وحارب المدافعون على نحو يائس للتشبث بالميدان، وقتلوا العديد من البرتغاليين، وعندما كان بوسعهم وضع أيديهم على الجثث

كانوا يقطعون الرؤوس، ويبعثون بها في التو إلى السامري. ولكن في نهاية المطاف اكتسح المهاجمون الميدان وأشعلوا النار فيه.

تم الوصول إلى القصر أخيراً، وانتزعت أبوابه النحاسية الثقيلة المكسوة بالذهب من موضعها، باستخدام بلطات القتال، حيث أقسم المارشال على حملها معه إلى لشبونة، كتذكارات نصر يقدمها للملك مانويل. ولكن ما إن ولجوا القصر، حتى بدأ معظم الجنود والبحارة والعبيد في القوة البرتغالية النهب، على نحو لا سبيل إلى السيطرة عليه - «صناديق مليئة بالكتان الأبيض الثمين، وبالحرير، والذهب، والخز والقماش المقصب المكي» - وصرفوا كل طاقاتهم في جرّ ما نهبوه إلى الشاطئ.

ناضل المارشال لشق طريقه إلى الأمام، وقد عقد العزم على بلوغ قاعة داخلية قيل إنها تضم كنز السامري، ومضى أتباعه يحطمون الأبواب النحاسية المتألقة التي تعترض طريقهم، وتعرض الكثير من البرتغاليين للكمائن فلاقوا مصرعهم، بينما هم يجرون ما نهبوه في الشوارع. ولكن داخل القصر بدا أن المارشال قد غاب عنه أنه يوشك على أن يعزل تماماً عن أي خط رجعة للسفن الراسية في الميناء.

وصل ألبوكيرك، وصاح قائلاً: «أرجوك، باسم مولانا الملك، أن تبتعد عن هنا، ودعنا لا نبق هنا لحظة أخرى، فلو أننا بقينا لحل بنا الهلاك جميعا!» ولم يتوقف المارشال إلا ليشعل النار في القصر، ولكنه قتل قبل أن يعود إلى الشاطئ. وجرح ألبوكيرك مرتين وحمل فاقداً الوعي إلى سفينته. وهكذا فإنه على الرغم من كل الفوضى التي أحدثها البرتغاليون، فإن المحاولة الأولى لشن هجوم بري على أرض هندية كانت نكسة باهظة الثمن، وكانت ذكرى النكسة بمنزلة حجر يثقل قلب ألبوكيرك، الذي عقد العزم على الثأر من السامري الذي كبده خسارة أحد أقاربه. غير أنه اضطر الآن إلى الإسراع لتنفيذ الأوامر الصادرة له شخصياً من الملك.

شأن ممباسا على الجانب الآخر من المحيط، فإن جوا (كوة) كانت جزيرة يحيط بها البر الرئيسي بصورة كاملة تقريباً، وتتيح ممراتها المائية مراسي آمنة خلال أكثر أجواء الرياح الموسمية عصفاً. وكان الأتراك الباقون على قيد الحياة من الأسطول الذي ألحق

به أليدا الهزيمة، قد لاذوا بجوا (كوة) ومعهم عدة سفن، وأدرك ألبوكيرك أن من المهم الاستيلاء على الجزيرة قبل أن تصلها التعزيزات من مصر. وكان معظم السكان من الهندوس، ولكن جوا كانت جزءاً من سلطنة بجابور الإسلامية القوية، وحاكمها الجديد هو إسماعيل عادل شاه. ومن حسن الطالع بالنسبة إلى ألبوكيرك أن عادل شاه قد سحب كل القوات المدافعة عن الجزيرة تقريباً للمساعدة في خوض غمار حرب في الجانب البعيد من مملكته، وخلال الرحلة إلى جوا التقى ألبوكيرك بالقرصان تيموجا الذي تربطه صلة ودية بالبرتغاليين، والذي قال إن الوقت مثالي لشن هجوم على جوا.

برهن الهجوم حقاً على أنه غزو سهل، ولكن عندما أصبحت المدينة تحت رحمة ألبوكيرك، أظهر الولع بالفظائع التي تعلمها خلال عمر أنفقه في القتال في المغرب. وكتب يقول لمانويل، قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد:

«ثم أحرقت المدينة، ووضعت السيف في عنق الجميع، وطوال أربعة أيام سفك رجالك الدماء بلا توقف. وبغض النظر عن المكان الذي كنا نعثر فيه على المسلمين، لم نكن نبقي على أحد منهم وملأنا المسجد بهم، ثم أحرقناهم حرقاً. . .

وجدنا أن 6000 مسلم رجالاً ونساء قد لقوا مصرعهم، ولقي العديد من مشاتهم ورماتهم مصرعه. كان عملاً عظيماً يا مولاي ومعركة أجدنا خوضها وأحسنا القتال فيها. وبغض النظر عن كون جوا مكاناً بالغ العظمة والأهمية، فإنه حتى الآن لم يكن قد تم الثأر من المسلمين لما أبدوه نحو جلالتكم وشعبكم من مخاتلة وخبث».

(ربما كان ألبوكيرك قد بالغ في تصوير أفعاله ليؤكد حماسه الصليبي، فهناك أدلة على أن العديد من نساء جوا الأصغر سناً قد تركن على قيد الحياة بغض النظر عن دينهن، ولكن من المؤكد أن القتل كان أمراً يسيراً بالنسبة إليه).

أقسم ألبوكيرك على أن المسيحيين والهندوس هم وحدهم الذين سيسمح لهم بالإقامة في جوا الجديدة التي انطلق في بنائها[5]. وكان تصوّره يدور حول بناء مدينة برتغالية في المناطق الاستوائية؛ بها كاتدرائيتها ومحاكمها ومبانيها الإدارية ونوافيرها ودورها الأنيقة المعدة لسكنى مسؤوليها وتجارها الموسرين. غير أن العقبة الأساسية

كانت الافتقار التام للعائلات المسيحية، لأنه لم يكن من المسموح به أن تسافر النساء على متن الأساطيل التي تغادر لشبونة إلى جزر الهند في تلك السنين المبكرة. وهكذا فإنه في تلك اللحظة اتخذ ألبوكيرك قراراً سيترك بصمته طويلاً على الإمبراطورية البرتغالية: لسوف تقطن في جوا ذرية رجال برتغاليين تزوجوا من نساء هنديات.

لم يجد الحاكم نقصاً في أعداد الرجال الذين أبدوا استعداداً للتقدم لخوض غمار هذه التجربة. وعلى الرغم من أنه كتب للملك يقول إن المتطوعين الأوائل كانوا «من منبت طيب، ولهم خصال الرجال المهذبين» فإنهم ما كان يمكن إلا أن يكونوا متهمين مدانين صدر العفو عنهم وحرفيين صغاراً وبحارة لم يعودوا قادرين على الخدمة. ولما كانت الظروف بالغة الصعوبة، والآمال في البقاء على قيد الحياة محدودة للغاية، فإن الرجال الذين مضوا إلى البحر كانوا على الدوام ممن لفظهم المجتمع البرتغالي، وبالنسبة إليهم كانت حياة جديدة في جوا، بمباركة من حاكمها ودعم منه فرصة يتعين اغتنامها، فكل منهم سيمنح حصاناً ومنزلاً ومساحة من الأرض وحيوانات للمزارع.

ولم تسجل المشاعر الحقيقية للنساء اللواتي اخترن لهذا التجديد التاريخي. غير أن ألبوكيرك حرص على التدقيق فيمن يتم اختيارهن، بحيث يكنَّ من ذوات المظهر الحسن، و«من ذوات البشرة البيضاء»، ورفض رفضاً قاطعاً أي عرائس مرشحات من جنوب الهند؛ لأن بشرتهن أكثر دكنة، ولشيوع ظاهرة تعدد الأزواج بينهن.

وإلى جوار التخطيط لجوا الجديدة، وإيجاد نواة لمجتمعها المسيحي «إجمالاً سيكون هناك حوالي 450 نسمة» نشط ألبوكيرك، في أمور أكثر اتساماً بالطابع الحربي، حيث قاد أسطولاً باتجاه الشرق عبر المحيط الهندي إلى ملجا (ملاجة)، وهو ميناء موجود في ماليزيا الحالية لمهاجمة الحاكم المسلم هناك، وضمان احتكار البرتغال لكل التجارة مع إندونيسيا والصين، وقد قوبل بمقاومة مريرة، ولكن في النهاية كفلت قوة مدافعه ومضاء عزم رجاله النصر له. وتمثلت إحدى مزايا السيطرة على المضيق بين ملجا (ملاجة) وسومطرة في أن الموانى الواقعة في المحيط الهندي، والتي كانت لاتزال تقاوم السيطرة البرتغالية، أمكن حرمانها من منتجات الصين.

وبدا في الحال المزيد من القتال وشيكاً، عندما أبحر ألبوكيرك عائداً إلى الهند، فقد تعرضت جوا للهجوم من جانب 3000 رجل أرسلهم إلى الجزيرة حاكم بيجابور، الذي ضاق بما حدث. وبعد جمع قوة مساوية أمر الحاكم بقرع جميع الأجراس في المدينة، ثم مضى إلى المعركة. وبينما هو واقف أمام صخرة ليرقب تحركات رجاله، أهاب به أحد مساعديه أن ينتقل تواً إلى وراء الصخرة، وفيما هو يقوم بذلك لقي رجل كان بقربه مصرعه بقنبلة أصابته، وبلغ رشاش دمه الحاكم (وقد احتفظ ألبوكيرك بالقنبلة، وترك وصية بأنه عندما يموت، ينبغي أن تغلف القنبلة بالفضة وتحول إلى مصباح، مرصّع بالأحجار الكريمة، وتهدى إلى كنيسة في جوا).

وبعد أن تمكن البرتغاليون من استدراج أعدائهم إلى أحد الحصون، وقصفه بلا هوادة، عرضوا عليهم الخروج بأمان من الجزيرة، إذا سلموا كل مدافعهم وجيادهم. وفرض ألبوكيرك شرطاً واحداً على رسول خان، قائد القوة المعادية، وهو أن يسلمه مجموعة من «المنشقين» المسيحيين، الذين انضموا إلى الجانب المسلم. وقال رسول خان إنه ليس في استطاعته أن يفعل ذلك؛ حيث إن في هذا مخالفة لتعاليم دينه، ولكنه وافق في نهاية المطاف على أن يسلمهم إذا تعهد ألبوكيرك بعدم قتلهم. ووعد ألبوكيرك بذلك، وعندما أصبحوا في قبضته لم يقتلهم وإنما مثل بهم بطرق بالغة الغرابة.

حتى بمعايير ذلك العصر كانت هذه القسوة شديدة التطرف. ويدين الشاعر كامونس في ملحمته «اللوسيادة» الحاكم لمعاملته لرودريجز دياز، وهو ضابط شاب ضبط وهو يغتصب نسوة سبين خلال القتال في جوا. وكما يقول كامونس عن دياز، فإن «جريمته الوحيدة كانت التهافت العاطفي الذي يعتري المرء في شرخ الشباب». ولم يعبأ ألبوكيرك بتوسلات الضباط الآخرين الذين أعجبوا ببسالة دياز في القتال، وأصدر حكماً بشنقه. وفي لحظة تنفيذ الحكم قام مؤيدو دياز الذين استبد بهم الانفعال بقطع الحبل الذي سيشنق به، وتوسلوا مجدداً لألبوكيرك لكي يبقي على حياته؛ فسارع الأخير بقمع هذا التحدي، وأمر بتقييد عدد من الضباط بالسلاسل الحديدية، وحرص على المضي قدماً في عملية الإعدام.

ووسط كل هذه المشاغل في الهند، لم يفقد ألبوكيرك حماسه لإبرام تحالف مع «الراهب يوحنا» في أثيوبيا، فمعاً سيدمران مكة. وقد تجدد حماسه عندما وصل إلى الهند رجل يدعى ماتيو مع زوجتين ومعية كبيرة، قائلاً إنه سفير من الإمبراطور الأثيوبي. وكانت معه أيضاً شظية من الخشب، زعم أنها من «الصليب الحقيقي» في القدس (وكانت قطع «الصليب الحقيقي» المتداولة بين الأيدي في ذلك العهد من الكثرة بحيث تساوي حجم الخشب المأخوذ من غابة صغيرة بأكملها). وقد تشكك الكثيرون ممن التقوا ماتيو في أنه كان مدعياً، ولكن ألبوكيرك وصل إلى استنتاج أنه سفير حقيقي، وبعث به إلى لشبونة في أول سفينة استطاعت أن تقله. ووصل ماتيو إلى لشبونة في خير حال، كما نجح في إقناع مانويل بدوره، بدليل أن مانويل بكى عندما قدمت قطعة الصليب إليه.

وفي جوا كان ألبوكيرك على أهبة الاستعداد في عام 1513 للمغامرة بدخول البحر الأحمر، بما يزيد على اثنتي عشرة سفينة و3000 رجل. وكانت مهمة محفوفة بالمخاطر، حيث كان البحر الأحمر يشبه زجاجة ضيقة العنق (هي مضيق باب المندب) وكانت هناك على الدوام المخاطر المتمثلة في احتمال الوقوع في حصار إذا استطاع الأعداء السيطرة على ذلك المضيق الجنوبي. وبسبب الرياح المعاكسة لم تكن هناك إلا أسابيع قلائل من العام يمكن للسفن فيها أن تدخل البحر الأحمر وتخرج منه في يسر. وكان هدف ألبوكيرك الأول هو شن هجوم على قلعة عدن الحصينة، عند مدخل البحر الأحمر. وقد كان طموح البرتغال على الدوام هو الاستيلاء على عدن، فعندئذ يمكن أن تفرض حظراً فعلياً على أي سفينة للمسلمين تحاول حمل التوابل إلى مصر.

مني الهجوم بإخفاق تام لأن الطريق الوحيد إلى الحصن يمر باستخدام سلالم صاعدة، تحطمت مراراً تحت ثقل الرجال. وبعد عدة محاولات تمت وسط حر خانق، اضطر البرتغاليون إلى التراجع، وتكبدوا خسائر فادحة. ولم يساورهم الشعور بالرضا إلا عندما أشعلوا النار في جميع السفن العربية الراسية في الميناء.

غامر ألبوكيرك بالمضي 200 ميل متجاوزاً عدن، على امتداد الساحل الشرقي من البحر الأحمر، ثم أمر سفنه بأن تلقي مراسيها قرب الشاطئ اليمني. ولم تكن هناك

رياح قوية، وكان في استطاعة سفينة كارفل واحدة أن تعبر البحر إلى الساحل الأثيوبي. بدأ الرجال يلقون حتفهم من جراء الحمى، ومست الحاجة إلى حدث مثير، لرفع معنويات الأسطول. ومن حسن الطالع أن معجزة قد وقعت:

«وقتذاك، وبينما نحن راسون، ظهرت علامة في السماء فوق بلاد الراهب يوحنا، صليب، يبدو على هذا الشكل (بعث ألبوكيرك برسم إلى الملك يوضح المقصود) يتألق، على نحو جد منير، وتعلوه سحابة. وعندما بلغت السحابة الصليب، انقسمت من دون أن تمسه، أو تقلل من نوره المتألق. وبدا المشهد جلياً من عدة سفن، وركع العديد من الرجال ورتلوا الصلوات، بينما انهمرت دموع آخرين لفرط تأثرهم.

وقد استنتجت من هذا أن سيدنا المسيح مسرور من رحلتنا، وبعث إلينا بهذه العلامة، لتوضح لنا أفضل مكان يمكن أن نخدمه فيه. غير أننا - شأن محدودي الإيمان - لم نجرؤ على الإبحار إلى هناك، على الرغم من أنني أحسب أنه كان في استطاعة سفننا أن تبحر في هذه الرحلة بالسير في خط متعرج. كما لم تمض الأمور على ما يرام، لأنني رجل عجوز، غلبته طبيعة البشر ونزعاتهم»[6].

كانت مياه الشرب المتاحة للأسطول في طريقها إلى النفاد، واضطر ألبوكيرك إلى التراجع والخروج من البحر الأحمر وعدن من دون أن يحقق شيئاً، باستثناء جمع أخبار تفيد أن الأتراك لم يشرعوا بعد في بناء أسطول آخر في السويس. غير أنه كتب مبالغاً إلى ملكه، يقول: «أحس بأن جلالتكم وجهتم إلى المسلمين أعنف لطمة تلقوها على مدى قرن من الزمان بحملتنا على البحر الأحمر». ولو أن البرتغاليين استطاعوا اتخاذ موطئ قدم في أثيوبيا، لوصلوا إلى الذهب المتاح للراهب يوحنا كله، وهو «مبلغ طائل للغاية إلى حد أنني لا أجرؤ على الحديث عنه»[7].

وفي الطريق إلى جوا مضى الحاكم ألبوكيرك على امتداد ساحل شبه الجزيرة العربية، وعرج على هرمز واستمتع بانتصار أخير جاء عزاءً عن الإخفاق الذي مني به في عدن. فقد وجد لدى وصوله إلى هرمز أن الملك الشاب سيف الدين قد وقع إلى حد كبير تحت تأثير وزير فارسي يدعى الريس حامد، الذي بدا منه العداء، وازداد

إصرار ألبوكيرك على إتمام بناء حصن في هرمز، وهو مشروع كان قد اضطر للتخلي عنه، قبل سنوات عديدة، كما عقد العزم كذلك على تحصيل ضريبة لم تدفعها المدينة عن عامين مضيا.

وبينما ألقى أسطول ألبوكيرك مراسيه قبالة الميناء، دخل هو نفسه في معركة، سلاحها الحيلة والذكاء. وكان الريس حامد عدواً لا يستهان به، لا يفارق الملك أبدا، ويهيب به أن يقاوم مطالب البرتغاليين. وغدا من الواضح أنه ليس هناك إلا رد واحد، وهو قتله. ولكن الوزير الفارسي الشاب، أبى أن ينال منه الحاكم، على نحو محبط. وتوالى مرور الأيام وهو يفلت من كل فخ ينصب له. وفي نهاية المطاف أقنع ألبوكيرك الملك بأن يقوم بزيارة الحصن، الذي لم ينته العمل فيه بعد، وأن يصطحب الريس حامد معه.

أمر ألبوكيرك رجاله بحمل السلاح والبقاء على أهبة الاستعداد، وبصفة خاصة بييرو دي ألبوكيرك ابن عمه الثاني. وهكذا فإنه عندما ولج الملك ومعيته الصغيرة غير المسلحة الحصن، أغلقت البوابة وراءهم في هدوء. وتنبه الريس حامد للخطر فانقلب على عقبيه، تمهيداً للمغادرة، ودعا الملك إلى أن يحذو حذوه، ولكن لم يعد هناك الآن مجال للخروج.

اقتيد الريس حامد إلى ألبوكيرك. وبسرعة دفعه الحاكم بعيداً عنه، وصاح: «اقتلوه! اقتلوه!» فاندفع بييرو دي ألبوكيرك، وخنجره في يده إلى الأمام ليتصدر المهاجمين الذين انقضوا على الريس حامد، «وفي لحظة تلقى العديد من طعنات الخناجر بحيث إنه لقي حتفه قبل أن ينادي مستغيثاً». ونظراً لتأثره بالخرافات، أدار الحاكم ظهره ليتجنب نظر عيني القتيل. وبينما هو يمضي مبتعداً، صاح محدثاً قادته: «لا شيء هناك لقد انتهى الأمر».

وعندما شاهد الملك الشاب الجثة، وافق على كل مطالب ألبوكيرك، وأصبح بالإمكان استكمال الحصن، بل وسمح للبرتغاليين كذلك بالاستيلاء على المدينة بأسرها. ولم يسمح لمن يقطنونها من العرب بحمل السلاح. ولكي يوضح ألبوكيرك

الطريقة التي سيتم بها التصدي لأي معارضة، أوقع العقاب في قلب المدينة بستة من رجاله، تم ضبطهم في غمار محاولتهم الهرب من الخدمة، حيث أحرقوا أحياء في القارب الذي استخدموه في محاولتهم للهرب.

كانت السيطرة على هرمز في نيسان/ إبريل 1515 هي مساهمة ألبوكيرك الكبرى الأخيرة في تأسيس الإمبراطورية البرتغالية في الشرق. وكان قراره البقاء هناك لمدة خمسة أشهر، أشرف خلالها على بناء الحصن أكثر مما تحتمله صحته المنهكة. وبعد تسليم مفاتيح الحصن إلى بييرو دي ألبوكيرك، وإبلاغه بضرورة الاحتفاظ بابني الملك الصغيرين كرهينتين، أبحر إلى جوا. وكانت صحته في تدهور مستمر، وحلت به اللطمة الأخيرة عندما سمع أن الملك بعث بحاكم جديد ليحل محله، وليستولي على الإمبراطورية التي كان يعرف أنه هو الذي أوجدها. ويقول ابنه إنه صاح محدثاً نفسه: «أيها العجوز، هيا إلى القبر! لقد أغضبت الملك من أجل رعاياه، وأغضبت الرعايا من أجل الملك!».

وبينما كانت سفينته تدنو من مدخل مرفأ جوا، في الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1515، مات ألبوكيرك قبيل انبلاج الفجر وهو في الثالثة والستين من عمره. وكان تأثيره في تاريخ المحيط الهندي مما لا سبيل إلى محوه. وكان قد حظي بالشعور بالرضا النابع من معرفة أن أبرز أعدائه، مانا فيكرام سامري كالكوت، قد مات قبله. وقد بذل قصارى جهده لترتيب ذلك، وكما كتب في العام السابق للملك مانويل: «اعتبر أن من المؤكد أن النامبياديري ولي العهد قد دس السم للسامري؛ لأنني في كل رسائلي دعوته مشدِّداً إلى قتله بالسم، وقلت إنني في معاهدة إقرار السلم سأتوصل إلى ترتيب نهائي معه».

الفصل السادس والعشرون

مغامرات التوغل في أفريقيا

يتألف الساحل الممتد من موزمبيق إلى كلوة في معظمه من الجبال التي تشمخ على نحو بالغ الروعة والغرابة والجمال، بحيث إنها تجعل المرء يتصور أنه هاهنا الفردوس الأرضي. . . ولكن هذه البلاد وهذا المناخ يعدان من أسوأ ما في العالم، ولا يناسبان إلا سكاناً من البرابرة كالكفرة.

الأب فرانشيسكو دي مونكلارو من جمعية المسيح
وقائع حملة بقيادة فرانشيسكو باريتو (1569)

كانت أفريقيا من وجهة نظر لشبونة جزءاً من الإمبراطورية الجديدة تماماً كالهند ذاتها، فقد ارتبطت القارتان معاً من خلال الرياح الموسمية التي اعتمد عليها بحارة قوافل الملك مانويل السنوية في عبور المحيط. غير أن الفوارق الحادة بينهما تجسدت في مصير منطقتين تباينت أحوالهما كثيراً، وعلق عليهما العاهل البرتغالي آمالاً كباراً، فسرعان ما بدأت "جوا" تتحول إلى معقل مزدهر كما كان ألبوكيرك يعتقد. فضمت الكثير من الملامح التي تذكر المرء بالحياة في أوربا، بينما شهدت سفالة التي طالما عرفت بـ «ميناء الذهب» تقدماً وئيداً ينبع عن طبيعة أفريقيا المناوئة.

وبالنسبة إلى المتطيرين كانت النذر لا تبشر بخير لسفالة؛ فبارتلميو دياز الذي اختير كأول حاكم لها فُقد في البحر قبل أن يصل إليها ليتقلد منصبه. وبعد خمس سنوات غرقت سفينة تقل كتلاً من الجرانيت كصابورة توازن في قاع نهر التاجوس، بينما كانت توشك على الإقلاع، وكان من المقرر أن تستخدم هذه الكتل في بناء أسوار حصن سفالة.

غير أن هذه الحادثة المنذرة بسوء الطالع لم تكن إلا انتكاسة عابرة، فقد أرسل قرصان إسباني يدعى بيدرو أنايا على رأس قافلة بحرية صغيرة، كان هدفها الوحيد السيطرة على سفالة. وعلى الرغم من أن أنايا صدرت له تعليمات دقيقة، حول أفضل

كيفية يمكنه بها إلقاء القبض على التجار المسلمين والاستيلاء على ذهبهم؛ وذلك من خلال الإبحار قرب الشاطئ بطريقة مسالمة، مع إخفاء المدافع، ثم الانقضاض على المدينة، فإنه آثر اللجوء إلى تكتيكات أخرى.

نزل أنايا إلى الشاطئ حاملاً الهدايا من دون إظهار للقوة، وطلب لقاء الحاكم المحلي. وكان هذا الحاكم وهو الشيخ يوسف الذي أوغل في العمر وكف بصره تابعاً لسلطان كلوة، وخلال اللقاء أدرك أنايا سريعاً أن الشبان «العرب»، الذين يشيرون على الشيخ، كانوا يعارضون فكرة تشييد حصن مسيحي إلى جوار مدينتهم.

غير أن الشيخ يوسف كان يعلم بالفعل بأمر نهب كلوة وتدمير ممباسا، ومن هنا فقد شعر بأن من الحكمة أن يبدو أكثر ترحاباً، وهكذا سمح للبرتغاليين بالبدء في البناء في اليوم التالي. وكان بين الإمدادات التي نقلوها على عجل إلى الشاطئ ثمانية مدافع وغيرها من الأسلحة، وعين الشيخ عبداً حبشياً تم إعتاقه ويدعى أكوتي ليكون وسيطاً بين الجماعتين.

وقد صحب نبيل قشتالي يدعى مارتن فرنانديز دي فيجيروا الحملة، وتقدم لنا مذكراته صورة متوهجة للحياة في سفالة[1]، فقد كانت الأرض شديدة الخصوبة، تنمو فيها كل أنواع الفاكهة والخضر، بما في ذلك التين الذي «يتحول إلى زبد في فمك». ولبت أشجار النخيل احتياجات عديدة، بل إن سعفها يستخدم كملابس من قبل السكان الأكثر فقراً. وقد كانت ثروة سفالة وسلطتها في قبضة أقلية محدودة من العرب ذوي البشرة الفاتحة، ومن الجلي أنه كانت تربطهم صلات ودية بالمجتمعات الأفريقية المقيمة في الداخل، في أعالي نهر يخترق المدينة.

ولم يكن في وسع القادمين الجدد أن يعرفوا متى درج العرب على شراء الذهب من سفالة، ويقدر ذلك بحوالي ألف عام، منذ عهد يرجع إلى ما قبل أيام المسعودي والربان بزرك بن شهريار، ومع ذلك فقد بدا جلياً كيف استقرّ الإسلام بشكل راسخ الأركان في هذا الإقليم الجنوبي من أفريقيا، على بعد 3000 ميل من شبه الجزيرة العربية. وعلى نحو ما ذكر الراهب جواو دوس سانتوس، وهو مؤرخ قديم لدولة الهند البرتغالية، فإنه «في معرض الحديث عن مملكة سفالة هذه، ينبغي أن يكون معروفاً أنه

في الماضي، وعلى امتداد هذا الساحل وبصفة خاصة عند مصبات الأنهار وفي الجزر، كانت هناك تجمعات سكانية كبيرة يقطنها العرب وتنتشر فيها أجمات النخيل، وتمتلئ بعروض التجارة، ولكل مدينة منها ملك . . . وكانت لسكانها تجارتهم، ويسود السلام بينهم وبين الملوك الكفرة الذين كانوا سادة الداخل» . وقد كانت هذه من الناحية العملية هي التخوم الجنوبية للإمبراطورية الإسلامية الكبرى .

ومن سوء الطالع أنه كانت هناك نذر توحي بأن سفالة قد لا تكون على مستوى التوقعات الكبيرة، التي طرحها مانويل أصلاً في رسائله إلى فرديناند وإيزابيلا . وعلى الرغم من صعوبة تبيّن الأسباب، فإن كمية الذهب التي كانت تجلب من الداخل بدت أقل كثيراً مما توقعه البرتغاليون[2]، ومن الطبيعي أن بيدرو دي أنايا ومرؤوسيه سرعان ما تشككوا في أن مؤامرات تُحاك لإلحاق الكساد بتجارتهم .

ومضت الأمور في مسارها المألوف على امتداد عدة أشهر، وتعايشت الجماعتان معاً من دون شعور بالارتياح، وقد عقد البرتغاليون العزم على استنفاد حيوية تجارة المسلمين براً وبحراً . وتم إرسال مبعوثين إلى الداخل حاملين الهدايا إلى حكام القبائل ومعها عروض بشراء ذهبهم، بينما مضت سفن أنايا تجوب الساحل لتنقض على سفن التجار السواحيليين الصغيرة، التي تجلب السلع الهندية من الموانى التجارية الواقعة إلى الشمال من سفالة . وفي أوائل العام الجديد بدأت مواجهة من نوع آخر مع انتشار حمى الملاريا، وكانت الأمطار قد بدأت في الهطول، وعانت الحامية البرتغالية المؤلفة من 100 رجل من موجات القشعريرة، ولم يستطع الكثير من الرجال الوقوف، ولم يعد في استطاعة آخرين السير إلا استناداً إلى عكازات . وبالنسبة إلى الشيخ يوسف كانت هذه هي اللحظة المثالية للتخلص من الفرنج الممقوتين .

تطوع زعيم قبيلة غير بعيد عن المدينة بتعزيز الشيخ بألف محارب، ووضعت خطط لشن هجوم على الحصن المطوق بحاجز دفاعي، ولكن أكوتي العبد السابق الآتي من أرض «الراهب يوحنا» أنقذ البرتغاليين بتحذيرهم من أنهم على وشك التعرض لهجوم، ثم لجأ إلى الحصن مع زوجاته وخدمه، بينما أمر أنايا كل من كان قادراً على القتال أن يتخذ موقعه عند المواقع الدفاعية في الحصن .

اندفع المحاربون الأفارقة وهم يطلقون صيحات القتال، ويلوّحون بحرابهم القصيرة، نحو الحصن، فقابلهم قصف مدفعي راعد ووابل من المقذوفات النارية التي يطلقها النشاب. ولم يكونوا قد واجهوا مثل هذه الأسلحة من قبل قط، وما كانوا قادرين على الصمود في مواجهتها. وترك هربهم سفالة تحت رحمة البرتغاليين، الذين بادروا إلى الانتقام في التو؛ حيث قاد أنايا في منتصف الليل أقوى رجاله إلى دار الشيخ، وأشعل النار في المباني خلال مسيرته، وقتلوا كل المسلمين الذين صادفوهم في طريقهم.

عندما ولج البرتغاليون الدار التي كانت غارقة في الظلام بدؤوا في البحث عن صاحبها الضرير، ويروي القشتالي فيجيروا القصة، فيحدثنا كيف أن أنايا في نهاية المطاف عثر على الشيخ العجوز (الذي يشار إليه باعتباره «الملك») عند مدخل المطبخ.

«ضرب الملك بغضب عاصف بيدرو دي أنايا في عنقه بحربة قصيرة ولكنه لم يفلح إلا في إصابته بجرح سطحي. ومع ذلك فإنه هتف برجاله، وقد عرف أنه جرح ليجلبوا مصدراً للضوء، إن لم يكن لشيء فلمعرفة من الذي ضربه. ولدى وصولهم حاملين مشعلاً معهم رأوا ملك سفالة العربي واقفاً هناك، فانهالوا عليه ضرباً، وانتزعوا منه مملكته وحياته، وقطعوا رأسه ورفعوه على رمح، وحملوه عائدين إلى الحصن، حيث ظل هناك تذكاراً لانتصارهم كما خربوا كل الأراضي والمدينة التي شيد فيها الملك قصوره».

(على الرغم من أن سفالة كانت مدينة عتيقة معروفة على امتداد النصف الغربي من المحيط الهندي، فإن الحديث عن «قصور» كان مبالغة مألوفة في ذلك الوقت لتضخيم نطاق الانتصار البرتغالي).

وكانت رأس الشيخ يوسف قد قطعت بسيف مانويل فرنانديز، أقدم وكيل تجاري في سفالة، وتقديراً لصنيعه منحه الملك مانويل شعار نبالة يحمل صورة رأس عربي. وقد كان هذا شعاراً مألوفاً، وكانت بعض الخوذات تجمل بقبضة مكسوة بالزرد مطبقة على رأس عربي من شعرها، والدم يتقاطر من العنق[3]. وكانت فرحة الانتصار قصيرة

الأمد بالنسبة إلى أنايا؛ حيث لقي حتفه من جراء حمى أصابته بعد أيام قلائل وتبعه الكثير من مرؤوسيه. وبحلول منتصف حزيران/ يونيو لم يبق هناك أكثر من عشرين رجلاً مايزالون على قيد الحياة في داخل الحصن، غير أن قوته النارية كانت من التأثير، بحيث لم يجرؤ أحد على مهاجمته مجدداً. وعندما اختار التجار المحليون واحداً منهم ليحل محل يوسف في منصب الشيخ، لم يفعلوا ذلك إلا بموافقة مسبقة من المسيحيين.

وبعد أن أكد البرتغاليون تفوقهم على التجار المسلمين، توقعوا أن الذهب سيتدفق بوفرة من دون عائق إلى سفالة. وعندما لم يحدث ذلك، زادت الحيرة التي استبدت بهم حيال ممالك الداخل الأفريقي. وتوافد مبعوثون من رؤساء القبائل القاطنين قريباً، في الشريط الساحلي الواقع وراء سفالة، جالبين معهم العاج والقليل من الذهب، لمبادلتهما بالقماش وغيره من السلع التجارية. ولكنه غدا واضحاً للقادة الذين أعقبوا أنايا، أن السلطة الحقيقية تكمن في مناطق أبعد صوب المرتفعات، حيث كان معظم الذهب يتم تعدينه. وفي حقيقة الأمر كانت العروق الحاملة للذهب في العديد من المناجم بأراضي قبائل المانيكا، الأكثر قرباً إلى الساحل قد استنفد الذهب منها منذ وقت طويل.

وبدأت المحاولات لمعرفة المزيد عن المناطق الداخلية بإرسال اثنين من المسيحيين السود، باتجاه أراضي ملك كارانجا الكبير، المعروف بلقب المونوموتابا التقليدي الذي يعني «السيد المدمر». وربما كان هذان المبعوثان من أبناء أفريقيا الغربية، فوجدا نفسيهما وقد ضلا الطريق وحارا في أمرهما، في مثل هذا الوسط غير المألوف المحيط بهما، شأن البرتغاليين تماماً. غير أنهما توغلا، حتى حدود إمبراطورية المونوموتابا (فيما يعرف الآن باسم زيمبابوي) ووطدا عرى الصداقة مع زوجة أحد زعماء القبائل، التي ذكر أنها أقسمت على الولاء للملك مانويل نيابة عن زوجها وبالأصالة عن نفسها، وبالمقابل أعطياها خيوطاً من الخرز وهدايا أخرى متواضعة.

وانتشرت الروايات عن الدمار الذي تحدثه المدافع البرتغالية، وأثارت اهتمام سادة الحرب الأفارقة الأكثر طموحاً، وكان أكثرهم دأبا نياموندا، حفيد إمبراطور سابق للمونوموتابا، وقد وعد بالكثير من الذهب مقابل الحصول على مدفع ورجل أبيض لإطلاقه، ولكن عندما أعطي له مدفع طلب على الفور ثلاثة مدافع أخرى. ولم يقدر

للبرتغاليين أن يعرفوا تمام المعرفة ما إذا كان نياموندا سيسمح لتجارهم بالعبور أم سيقتلهم فحسب.

وسرعان ما غدا جلياً أن قتالاً محتدماً تدور رحاه في الداخل بين المونوموتابا وحكام أقل شأناً، كان ينظر إليهم باعتبارهم من أتباعه، ولكنهم غالباً ما عمدوا إلى التمرد، وكان هؤلاء الأتباع منغمسين في القتال فيما بينهم. وقد كان هذا سبباً إضافياً لجفاف نبع إمدادات الذهب المتجه إلى سفالة، ولكن هناك أسباباً أخرى أكثر تعقيداً وفي مقدمتها هجرة شعب الكارانجا من عاصمتهم القديمة، في زيمبابوي الكبرى، الواقعة إلى الغرب من سفالة. وكانوا مايزالون يسيطرون على معظم إنتاج الذهب في الهضبة المرتفعة، ولكن عاصمتهم الجديدة - الواقعة على بعد 200 ميل باتجاه الشمال - كانت تطل على وادي النهر الكبير الذي يدعوه الأفارقة بوادي الزامبيزي. وقد ثبت الآن أن من الأيسر على المونوموتابا أن يبيع ذهبه للتجار المرتحلين نحو أعالي النهر، بدلاً من إرساله جنوباً إلى سفالة، عبر طريق برية يسيطر عليها أعداؤه.

وفي غمار جهود البرتغاليين لمعرفة كنه أو جوهر أسرار إمبراطورية المونوموتابا، أطلقوا يد مجرم مدان ممن يعرفون بـ«الديجريدادو» هو أنطونيو فرنانديز، وقد فقدت منذ وقت طويل التفاصيل المتعلقة بالجرائم التي ارتكبها وجلبت له النفي، ولا يعرف عن خلفيته شيء إلا أنه ولد في سانتاريم، وهي مقاطعة مزدهرة عرفت بزراعة أشجار الزيتون، لا تبعد كثيراً عن لشبونة. ولكن من المؤكد أن الرجل الذي نظر إليه باعتباره المستكشف الأول لجنوب أفريقيا، قد جمع بين الجرأة والمبادرة السريعة في اتخاذ الأصدقاء، وقدر له الارتحال ألوف الأميال عبر الداخل الأفريقي وخلال ممالك متحاربة، ومكث في بعض الأحيان عاماً أو يزيد بعيداً عن سفالة. وكما سيذكر أحد رؤسائه في وقت لاحق في تقرير رفعه للملك مانويل، فإن الديجريدادو فرنانديز «موضع ثقة وتقدير بالغين في تلك الأراضي، إلى حد أنهم عبدوه كأنه إله، بحيث إنه حيثما مضى وكانت هناك حروب، فإنهم يوقفونها تواً محبة فيه». وكان ممن يجتازون المحن، وفي وسعه تحمل المناخ الأفريقي، بينما يحتضر الآخرون من حوله. وتشير الأدلة المحدودة إلى أن منفاه الأصلي كان الكونجو، حيث بدأ البرتغاليون في غرس

رايتهم ودينهم، حتى قبل أن يتمكنوا من الدوران حول رأس الرجاء الصالح. وأول ذكر له في شرق أفريقيا يرد في عهد رحلة كابرال إلى جزر الهند في عام 1500. وقد ترك كابرال وراءه العديد من الديجريدادو، وأحدهم هو أنطونيو فرنانديز الذي التقطه في وقت لاحق في كلوة قبطان آخر، وربما تم اصطحابه إلى البرتغال، وعاد إلى أفريقيا كأحد أفراد حامية سفالة في عام 1506[4].

وغالباً ما يشار إليه في سجلات سفالة باعتباره نجاراً، على الرغم من أنه لا يمكن القطع بما إذا كانت النجارة هي حرفته التي امتهنها في البرتغال، أو هي مهارة اكتسبها خلال مكوثه في السجن[5]. وقد أدرج في وقت لاحق في قوائم الحصن على أنه مترجم، ولابد أنه خلال رحلاته في مناطق الداخل الأفريقي قد تعلم التفاهم مع الآخرين بالعديد من اللغات الأفريقية على اختلافها.

ويبدو أن أعظم استكشافاته قد بدأت في عام 1511 بتشجيع من قائد سفالة الجديد، أنطونيو دي سلدانا، فبعد رحلتين طويلتين عبر الأراضي التي تشكل زيمبابوي الآن، جلس في الحصن مع الكاتب التجاري جاسبار فيلوسو وحدثه بكل ما رآه. وعلى الرغم من أن هناك تلميحاً إلى أنه سجل رحلاته في كراسة خاصة به، فإنه كان في الغالب الأعم أمياً، ولكن فيلوسو يلتقط روح ما رواه فرنانديز، حيث يصف زعيم قبيلة صغيرة بأنه «ليس أفضل كثيراً من قاطع طريق» بينما يجري الحديث على الدوام بتوقير عن إمبراطور المونوموتابا. وقد قام فرنانديز على نحو ما صدرت إليه الأوامر، بدراسة دقيقة لإنتاج الذهب في أماكن مختلفة من البلاد؛ وهو يذكر بشكل عابر كيف أن الأفارقة كانوا يكشفون وجود ترسبات الذهب، بالبحث في الأدغال عن مؤشرات وجود نبات يشبه البرسيم إلى حد كبير.

واكتشف فرنانديز كذلك أن التجار المسلمين ينشطون بالفعل في مناطق بعيدة موغلة في الداخل الأفريقي، وبهذا سبقوا البرتغاليين، وكانت هذه مساهمة كبيرة في تفهم التحدي الذي يتعين مواجهته في شرق أفريقيا، وتفسيراً جزئياً للسر المتمثل في أن سفالة كمصدر للذهب كانت بمنزلة خيبة أمل كبيرة. وكان المسلمون يرتحلون نحو أعالي نهر الزامبيزي، ويسيرون على البر أحياناً، وفي أحيان أخرى يستخدمون مراكب

صغيرة. وقد التقى فرنانديز بهم في الأسواق والمهرجانات، التي تقام في القرى على امتداد أراضي المونوموتابا (وقد شبه أحد هذه المهرجانات بمهرجان مماثل كان يقام في مسقط رأسه بالبرتغال البعيدة). وقد تجمع التجار والأفارقة من مناطق نائية في مثل هذه المهرجانات التي كانت تقام في يوم بعينه من أيام الأسبوع. وكان الذهب هو العملة المستخدمة في التداول، ولكن فرنانديز أولع بالمتاجرة باستخدام كتل نحاسية مصبوبة صنعت على شكل صليب القديس أندرو، وتشبه نظيرتها التي رآها على الساحل الأطلسي، وقال إنها كانت تشبه أذرع طواحين الهواء في أوربا.

وبدا جلياً لفرنانديز أنه إذا أراد البرتغاليون السيطرة على أحد المصادر الرئيسية لثروة أفريقيا الداخلية فإن عليهم أن يحذوا حذو المسلمين في اختراق وادي الزامبيزي. وقدر لهذا التقويم للموقف الذي نقله رؤساؤه إلى لشبونة أن يملي السياسة التي تم الأخذ بها، ودفع باتجاه إيجاد أولى المستوطنات الأوربية في الداخل الأفريقي. غير أن اقتراحه الخاص الذي تقدم به كان متواضعاً، وهو ضرورة بناء محطة تجارية، في جزيرة صغيرة، قال إنها في حجم «مضمار لسباق الخيل» في رافد من روافد نهر الزامبيزي. فبوسع البرتغاليين من هذه الجزيرة الصغيرة الواقعة على مسيرة عشرة أيام من عاصمة المونوموتابا، السيطرة على تجارة الذهب والعاج في المنطقة بأسرها إذا ما تم دعم المحطة التجارية بمركب مسلح يرابط في النهر.

ولم يتم الأخذ بفكرته هذه على وجه الدقة، ولكن خلال العقدين التاليين بدأ بعض التجار البرتغاليين في شق طريقهم إلى الداخل الأفريقي فيما وراء المياه الضحلة والمستنقعات، في دلتا نهر الزامبيزي، وصولاً إلى الموضع الذي يأخذ فيه النهر مظهر طريق رئيسي يفضي إلى قلب القارة. وقد أطلق على هؤلاء الرواد اسم «السيرتانجو» (أي رجال الغابات الداخلية) ومضت مجموعات كبرى تجوب أرجاء المناطق الداخلية الواقعة وراء سفالة، بحثاً عن الذهب، لكن معظمها لم يلق إلا الموت.

وفي سنوات لاحقة بلغت الثقة الشديدة التي وضعت في المجرم المدان الذي تحول إلى مستكشف، إلى درجة أن عهد إليه بقيادة السفن الكارفل المتنقلة على امتداد

الساحل لشراء الطعام. وقد كون ثروة كبيرة حيث إن إحدى الوثائق تذكر «تجاوزات» في حسابات ما خلفه وراءه لورثته. وقد توفي في سفالة في وقت ما بعد عام 1520 وربما قضت عليه الملاريا أخيراً. وكان هناك اثنا عشر قائداً لحصن سفالة على الأقل في السنوات التي كان هذا الحصن خلالها يشكل القاعدة التي ينطلق منها في رحلاته، وقد قضت الحمى على معظمهم. ومن المحتمل إلى حد كبير أن فرنانديز خلف وراءه زوجة أفريقية وأبناء أنجبهم منها، ولكن لم يسجل أي شيء فيما يتعلق بهم.

الفصل السابع والعشرون

من مصوع إلى الجبال

هناك تتكسر أمواج البحر الأرتيري المقدسة على شاطئ زاهي الحمرة، وعلى مسافة ليست ببعيدة عن المحيط، تقع بحيرة في لون النحاس، البحيرة التي تعد جوهر أثيوبيا، التي يعود إليها إله الشمس الجبار مراراً وتكراراً، ليغمس فيها هيئته الخالدة، ويجد العزاء عن مسيرته الدائرية المرهقة، في التموجات الرهيفة، التي لا تعدو أن تكون دغدغة دافئة الملمس.

إسخيلوس (572 ـ 456 ق. م.) الشذرة 67

في حوالي العام الذي توفي خلاله المستكشف أنطونيو فرنانديز في سفالة، بدأت مغامرة برتغالية أخرى في الداخل الأفريقي، انطلاقاً من مصوع، وهو ميناء يقع بعيداً إلى الشمال على البحر الأحمر. ولم يكن هدف الذين شاركوا في هذه المغامرة السعي وراء الذهب (على الرغم من أن الأسطورة تذهب إلى القول بأن الذهب كان موجوداً في كل المناطق المحيطة بهم) فقد كانوا يبحثون عن الرجل الذي كان مصدر إلهام كبير لانتصارات بلادهم في الشرق: الراهب يوحنا إمبراطور أثيوبيا.

قاد البعثة المؤلفة من أربعة عشر رجلاً، والتي تحمل رسائل وهدايا قيمة، سفير يدعى رودريجو دي ليما، وضمت معيته حلاقاً ـ حجاماً، فناناً، ورسام خرائط طوبوغرافية وموسيقياً معه آلة بيان قيثاري وأرغن. وكان هناك كذلك قس في أواسط العمر، يدعى فرانشيسكو ألفاريز، سيكتب فيما بعد رواية تتسم ببصيرة ثاقبة، وفي الغالب بروح المرح، حول السنوات الست التي قدر للبعثة أن تمضيها في أثيوبيا.

ويحرص ألفاريز على أن يتجنب التصدي على نحو مباشر لأسطورة «الراهب يوحنا» حيث كان من قسيسي ملك البرتغال الذي كان يؤمن بهذه الأسطورة بكثير من الحماس. وعلى الرغم من أن الأثيوبيين أنفسهم قد سخروا منها، فإنه يشير على الدوام إلى حاكمهم بهذا اللقب الوهمي، حيث جعل عنوان كتابه **«القصة الحقيقية لأراضي**

الراهب يوحنا». وقد وصل إلى أنه ليس من شأنه أن يقدم آراء مثيرة للجدل. وهو يوضح في بداية كتابه الذي يقع في 142 فصلاً كيف أنه يسطر كل ما رآه، خلال إقامته بين ظهراني الأثيوبيين «من دون أن أنتقد أو أحبذ عاداتهم وما درجوا عليه، وإنما أترك كل شيء لقرائي».

وقد شكلت البعثة لترافق ماتيو السفير الذي فرض نفسه، من لشبونة إلى وطنه، وقد كان على الدوام موضع شك وفضول، منذ بعث به ألبوكيرك من الهند إلى البرتغال. واتهمه بعض مستشاري الملك مانويل بأنه ليس سوى جاسوس تركي، حيث إن بشرته ليست داكنة، كبشرة الأثيوبيين (وربما كان أرمنيا مولوداً في القاهرة). وعلى امتداد عامين، عامل الملك ماتيو بمزيد من التكريم، ولكن ساد شعور عام بالارتياح، عندما حانت لحظة التخلص من هذا الضيف المشكوك في أمره.

وفي نيسان/ إبريل 1515 أبحرت البعثة المرافقة لماتيو من لشبونة، مع أسطول لوبو سواريز، حاكم «دولة الهند» البرتغالية المعين حديثاً. ولو أن كل شيء مضى على ما يرام، لربما توقع الأب ألفاريز وزملاؤه الابتعاد عن بلادهم حوالي خمس سنوات، بما في ذلك الوقت اللازم للإبحار من البرتغال إلى الهند، مع قضاء عام أو عامين في أثيوبيا، غير أن كل شيء لم يمض على ما يرام، حيث قدر لهم أن يقضوا اثني عشر عاماً، قبل أن يروا لشبونة مجدداً. وفي بعض اللحظات أحس ألفاريز إحساساً مؤكداً أنه لن يعود إلى وطنه أبداً.

وكانت أثيوبيا بلاداً يتعذر دخولها، فعلى الرغم من الآمال الخيالية بالوصول إليها بعبور الداخل الأفريقي، انطلاقاً من ماليندي، فإن الطريقة العملية الوحيدة لبلوغها تمثلت في الإبحار لمسافة 350 ميلاً شمالاً في البحر الأحمر إلى مصوع، وهو ميناء أعلن الأثيوبيون فرض سيادتهم عليه، ولكن التجار العرب وتجار الرقيق هم الذين سيطروا عليه بصورة فعلية. وقد ازدهرت المدينة بفعل التجارة التي تمر بها، ولكن كلاً من السفن المسيحية التي كانت ترسو في المرفأ الضيق الواقع بين جزيرة مصوع والبر الأفريقي، تعرضت للمخاطرة بالوقوع في الفخ والقضاء عليها، إذا ما ظهرت السفن التركية فجأة في الأفق قادمة من السويس.

وكان مناخ البحر الأحمر على نحو ما وجده ألبوكيرك مناخاً مهلكاً؛ فالرياح متقلبة، والقنوات الملاحية خطرة، وكان أمراً شديد الأهمية بالنسبة إلى أي سفينة من المحيط الهندي، تغامر بالانطلاق شمالاً في البحر الأحمر إلى مصوع، ألا تبقى هناك إلا لفترة قصيرة، وتغادره خلال الوقت القصير الذي تهب فيه الرياح الشمالية حتى باب المندب، ذلك المخرج الضيق من البحر الأحمر، وعندئذ يتاح الوقت للحاق بالرياح الموسمية الصيفية التي تهب باتجاه الهند.

أحدث كل هذه العوامل أثره عندما أبحر الأسطول بقيادة لوبو سواريز متجاوزاً عدن، لينزل البعثة البرتغالية على الشاطئ، حيث لم يجرؤ على الذهاب إلى مصوع. وفضلاً عن ذلك فقد كان عدواً لألبوكيرك، الذي بعث بماتيو إلى لشبونة، في المقام الأول. ولذا فقد حاول إنزال البعثة بكاملها في إحدى الجزر قبالة الساحل. وقد رفض ماتيو النزول، وشدد على أنه على يقين من أن سكان الجزر سيقتلونه باعتباره مسلماً ارتد عن دينه واعتنق المسيحية. وهكذا فقد أبحر الأسطول إلى مجموعة أخرى من الجزر على ساحل شبه الجزيرة العربية المطل على البحر الأحمر، حيث كان ألبوكيرك قد ألقى مراسيه قبل ثلاث سنوات، ولقي العديد من رجاله حتفهم من جراء الإصابة بالحمى. وكانت النتائج الآن كسابقتها، ومن بين من لقوا حتفهم دوارتي جالفاو، أول من عينهم الملك لشغل منصب سفير البرتغال لدى أثيوبيا (ولا عجب في هذه النهاية الحزينة، حيث كان جالفاو قد أوغل في السبعينيات من عمره). وارتد الأسطول خارجاً من البحر الأحمر، ولم يتوقف إلا ليشعل النار في ميناء زيلع القديم، ثم عبر المحيط الهندي إلى جوا.

أمضى الناجون من أعضاء البعثة، بمن فيهم ماتيو الذي كان يتمتع بحضور دائم، عدة سنوات مترقبين في الهند وصول حاكم جديد هو دييجو لوبيز، لديه من الإرادة ما يكفي للمضي بهم إلى مصوع. وعلى الرغم من أن قائد البعثة غدا الآن رودريجو دي ليما، وهو أرستقراطي جليل الشأن، فإن الأب ألفاريز قد أحس على نحو جلي بأنه يتمتع بمكانة خاصة باعتباره القس الوحيد في البعثة. وفي بادرة نادرة للتعبير عن الفخر والكبرياء، يحكي كيف أن الحاكم «بحضور الجميع» قد أبلغ دي ليما، لدى افتراقهما

في مصوع في نيسان/ إبريل 1520: «إنني لا أبعث بالأب فرانشيسكو ألفاريز معك، وإنما أبعثك معه، فلا تفعل شيئاً من دون أن تستشيره فيه».

مع شروع البعثة في شق طريقها في الداخل باتجاه المرتفعات الأثيوبية، ازدادت حدة عداء البرتغاليين لماتيو بسرعة بالغة، وكان قد أصر على أن يتركوا الطريق الرئيسي خوفاً من قطاع الطرق، ثم الارتقاء إلى دير على قمة جبل، حيث لديه شأن لابد من إنجازه. وسرعان ما ندم ألفاريز على إقناعه للبعثة بكاملها بقبول فكرة ماتيو، حيث كان الطريق صعب المرتقى وشديد الوعورة، إلى حد أن «الجمال مضت تجعجع كأنما سيطرت الخطيئة عليها».

ساد الجميع تشكك في أن ماتيو يوشك الآن على أن يبرهن على أنه وغد شرير، من خلال إيقاع البرتغاليين في كمين وسرقتهم وقتلهم. ولم يتحقق هذا التخوف، ولكن عندما أفلحت البعثة التي استبد بها الإعياء في الوصول إلى الدير، أعلن ماتيو إن عليها الانتظار ثلاثة أشهر إلى أن يتحسن الطقس ويغدو مناسباً للسفر. وأحس ألفاريز ورفاقه بأنهم قد وقعوا في شرك. ولكن قبل أن يتمكنوا من إبداء رد فعلهم حيال هذه الورطة سقط «آسرهم» مريضاً فجأة ولقي حتفه. وانتهت حياة ماتيو على نحو ملغز مثلما بدأت[1].

وبعد أن بعث البرتغاليون برسالة إلى حاكم أثيوبي محلي، تمت مساعدتهم على الانطلاق في طريقهم مجدداً. وتخلوا عن مدافعهم وبراميل بارودهم لأن الطرق الجبلية كانت شديدة الانحدار، ولكن باقي معداتهم تم حملها على ظهور حيوانات الجر والعبيد. وبعد العديد من الاحباطات وكثير من التعطيل، اندفعت البعثة 400 ميل باتجاه الجنوب من الساحل إلى قلب أثيوبيا الجبلي، والأمل يساورها في أنه وراء الأفق التالي سيصلون إلى معسكر «الراهب يوحنا». وقد قيل لهم إنه كان في حالة تنقل دائم، ولكنه حيثما حل فَثَمَّ عاصمته.

لم يكن ألفاريز متعمقاً في الجغرافيا، فكان يشكو من أنه حيل بينه وبين تسجيل الطرق التي سلكها على امتداد البلاد؛ لأن الأثيوبيين لا يقيسون المسافات إلا بعدد الأيام التي تستغرقها رحلة ما، منذ الفجر وإلى أن تساق الأبقار إلى مراقدها ليلاً. وغالباً ما يشيع الارتباك في نصه حول الموضع الذي توجد فيه البعثة في أي وقت من الأوقات[2].

ويضفي التوهج الذي يكتب به ألفاريز عن حوادث بعينها الحيوية على كتابه؛ فبينما كانت البعثة لاتزال في طريقها إلى لقاء أول مع الإمبراطور، قام القرويون قرب كنائس لاليبيلا الصخرية الشهيرة بإلقاء الصخور من أعلى التلال على الطريق؛ فتهاوت منهمرة كالمطر (وهو خطر شائع إلى حد كبير). وتفرقت البعثة في ليلة حالكة السواد «إلى حد أن الأمر بدا كما لو أن المرء ليست له عينان» ووجد ألفاريز نفسه وحيداً، وهو يمتطي بغلاً يقوده عبد، وترجل خوفاً من التعرض للرمي بالأحجار ثانية، وحتى لا يسمع أحد وقع قوائم البغل، ولكنه في هذه اللحظة أنقذه «رجل شريف». «وكان هذا الرجل طويلاً للغاية، وأقول إنه رجل شريف لأنه عاملني معاملة طيبة، وأخذ رأسي تحت ذراعه حيث لم تكن رأسي لتصل إلى أعلى من ذلك، ومضى بي كأنني منفاخ عازف مزمار القربة، وهو يقول: أتيفرا! أتيفرا! (يعني: لا تخف! لا تخف!) ومضى بي وبالبغل والعبد، إلى أن وصل بنا إلى حديقة مزروعة بالخضر تحيط بداره».

ثم قدمت وجبة من لحم الدجاج والخبز والنبيذ لألفاريز، وفي صبيحة اليوم التالي أعلن الغريب أنه حارس الجبل الذي يحتجز فيه الأمراء الأثيوبيون سجناء. فعندما يموت حاكم ما يختار أحد أبنائه في التو ليخلفه على العرش، ويُسجن الأبناء الآخرون في «جبل الأمراء» طوال حياتهم. ومن يحاولون الهرب تفقأ أعينهم. ثم قاد منقذ ألفاريز، في الليلة الماضية الأب البرتغالي إلى باب موصد أمام جانب أحد التلال، وقال: «انظر! لئن اجتاز أحدكم هذا الباب إلى الداخل، فلن يكون هناك خيار إلا قطع يديه ورجليه وفَقْء عينيه، وتركه ملقى هاهنا». وليس الجبل المنتصب أمامهما إلا «أمبا» وهو أحد تكوينات الجرانيت الفريدة الخاصة بالأراضي الأثيوبية المرتفعة، ذات الجوانب الرأسية تقريباً والقمم المسطحة، والتي غالباً ما تكون مواقع للحصون والأديرة.

وفي موضع لاحق من الكتاب يذكر ألفاريز كيف أنه بعد سنوات رأى أحد إخوة الملك، لدى إعادته إلى السجن بعد محاولته الهرب، ويقول بهذا الصدد: «وغُطي هو وبغله بملابس سوداء، بحيث لا يرى منه شيء ولا يبين من البغل إلا عيناه وأذناه. وقال الرجال الذين مضوا سيراً على أقدامهم: إن هذا الرجل هرب للمرة الثانية مرتدياً زي راهب وبصحبة أحد الرهبان». وقد وشى الراهب بالأمير الهارب، بينما كان يوشك على الإفلات مجتازاً حدود أثيوبيا. «وقال الجميع إنه سيقتل أو إنهم سوف يفقؤون عينيه، ولست أدري ما الذي حلّ به»[3].

مع اقتراب البعثة من المكان الذي ضرب الإمبراطور مخيمه فيه إلى جوار دير ديبرا - ليبانوس التاريخي، ظهر غريب أبيض هو بيرو دي كوفيلهام، الذي كان قد غادر البرتغال قبل ثلاثين عاماً مضت للتجسس ورصد الطريق إلى الهند، تمهيداً لرحلة فاسكو داجاما، ولم تقدر له العودة قط. وعلى الرغم من أن أعضاء البعثة ربما كانوا يعرفون أنه لايزال على قيد الحياة، فإنه بدا لهم كشبح من قرن آخر وعصر مختلف، يعود إلى ما قبل دوران دياز حول رأس الرجاء الصالح، واكتشاف كولمبوس للعالم الجديد. وهو الآن يمتلك مزارع كبيرة في أثيوبيا، وله العديد من الأبناء في سن النضج (الذين يصف ألفاريز لونهم بأنه «رمادي»).

وفي بحثه الدؤوب للتعرف على أسرار المنطقة، أصبح ألفاريز الرفيق المقرب لكوفيلهام، وسرعان ما غدا شديد الإعجاب بالجاسوس السابق، وكرَّس فصلاً كاملاً في كتابه لتفاصيل حياته العملية (على الرغم من أنه ترك ثغرات تثير الحيرة في هذه السيرة). وقد سعد بلباقة صديقه الجديد وذكائه، ووصفه بأنه «رجل شريف مميز وجدير بالثقة» وليس هناك نظير له في البلاط الأثيوبي، ويصف كوفيلهام في اعتزاز (على الرغم من أنه كان أكبر سناً بكثير منه) بأنه «ابنه الروحي» حيث إنه لم يقم بطقس الاعتراف طوال ثلاثين عاماً حتى وصول ألفاريز.

ويشير النص مراراً وتكراراً إلى دور كوفيلهام كمترجم ودليل، وقد كان موضع ثقة تامة من جانب الأثيوبيين، وكانت داره في مقاطعة شوا قريبة من الكهوف التي يحتفظ فيها بالكنز الملكي، ولكن سرعان ما يكشف النقاب عن أن موقف كوفيلهام من البعثة البرتغالية يتضمن أكثر من مجرد حسن النية حيال مواطنيه. وأيا كانت مشاعره خلال السنوات السابقة التي أمضاها في أثيوبيا فإنه الآن يرغب في الذهاب إلى وطنه؛ ليموت هناك، وقد قدمت البعثة له خير فرصة للهرب يمكن أن تتاح له على الإطلاق.

وكان أي قرار بترك هذا البرتغالي يمضي إلى بلاده ينبغي أن يصدر عن «الراهب يوحنا» - وهو لبنا دينجل، النجاشي (الحاكم الأعلى) - ولكن البرتغاليين سرعان ما اكتشفوا أن النجاشي متقلب ومخاتل ومتعجرف. وكان لايزال في الثالثة والعشرين من عمره، على الرغم من اعتلائه العرش طوال اثني عشر عاماً تقريباً، وقد أحكم قبضته

على مقاليد السلطة عندما كان في الثامنة عشرة من عمره ليس غير، وذلك من خلال إيقاع جيش للمسلمين في كمين خلال محاولته شن هجوم على مملكته، ويقول مؤرخ البلاط الأثيوبي إنه نتيجة لذلك فقد «ساد الهدوء والسلام في كل مكان».

وعندما وصلت البعثة البرتغالية إلى معسكر النجاشي، طلب السفير رودريجو دي ليما لقاء النجاشي ليسلمه الرسائل والهدايا التي بعث بها ملكه، وقد رد عليه رسل طرحوا عليه، مراراً وتكراراً، أسئلة بدت أنها لا معنى لها. وفي بعض الأحيان كان لبنا دينجل (الذي يعني اسمه «بخور العذراء») يبعث بمطالب وقحة للحصول على الهدايا، وفي أحيان أخرى كان يغرق البرتغاليين بكميات من الطعام والنبيذ تفوق ما يمكنهم استهلاكه. وغدا صبر رودريجو دي ليما الأرستقراطي المنبت على المحك عندما قيل له إنه: «يستطيع البدء في التجارة، إذا ما رغب في ذلك» فرد على نحو غاضب، بأنه لا هو ولا أي من أبيه أو أمه أو أسلافه كانوا تجاراً، وقد قدم إلى أثيوبيا سفيراً يمثل ملك البرتغال، وازدادت حالته النفسية سوءاً، عندما سرق معظم ملابسه من خيمته خلال نومه.

وإلى جانب كوفيلهام، كان هناك حشد من الأوربيين الذين تربطهم علاقة ببلاط لبنا دينجل، ومعظمهم من أبناء جنوة، ولكن كان هناك كذلك العديد من القشتاليين وأحد الألمان[4]. وقد كانوا جميعاً أسرى في قبضة الأتراك، ولكنهم أفلحوا في الهرب واللجوء إلى أثيوبيا، والآن استبد بهم الخوف من أن يحتجزوا في هذه البلاد إلى أن يلقوا حتفهم، وجلب اثنان منهم أنباء عن أن بعض «الكبار في البلاط» يهيبون بالنجاشي أن يمنع البعثة البرتغالية من مغادرة البلاد أبداً؛ لأنها «تسيء إلى البلاد، وسوف تسيء إليها على نحو أكبر إذا غادرتها».

أثار لبنا دينجل الذي لم تقع عليه العيون غيظ البرتغاليين أسابيع عديدة، إلى أن تم استدعاؤهم إلى البلاط، بعد أن أسدل الليل ستاره، ومضوا بين صفوف من الرجال يحملون الشموع، وعبر مقاتلين وقفوا بسيوف مشهرة، إلى منصة مكسوة بالدمقس الثقيل. وظل لبنا دينجل محتجباً وراء ستار، وعن طريق المسؤولين في بلاطه أبلغ زواره بأن عليهم أن يظهروا براعتهم في المبارزة بالسيف، وأبدى جنديان ما قدرا عليه

من مهـارة في هذا المجال، ثم تقـدم إلى السـاحة السفير ونـائبه جورج دابريو. وكـما يلاحظ ألفاريز على نحو موجز فقد «أظهرا قدراتهما على نحو جيد، كما هو متوقع من مثل هذين الرجلين اللذين ربيا ودربا في غمار الحروب ووسط الأسلحة».

ثم طرح النجاشي أسئلة على البرتغاليين حول أفضل السبل لمقاتلة الأتراك، فقد كـان أعظم طموحـاته أن يفتح عنوة طريقاً يفضي إلى الجنوب الشرقي مجتازا أرض جيـرانه المسلمين إلى أن يصل إلى البحـر قرب زيلع، الأمر الذي من شأنه أن يتيح له الوصول المباشر إلى المحيط الهندي[5]. غير أن مثل هذه المغامرة تقتضي الحصول على عدد كبير من البنادق. وطلب الإمبراطور معرفة السر في أن البرتغاليين جلبوا معهم هذا العـدد المحدود للغاية منها، فأوضح السفيـر أنهم أقبلوا في مهـمة سلمية ولـم يرغبـوا بالظهـور بمظهـر المحاربين، ولكن المزيد من البنادق يمكن إرسـالها في العـام المقبل عن طريق سـفينة تنطلق من الهند. وطلب لبنا دينجل مراراً وتكراراً معرفة الكيفية التي عرف بها الأتراك طريقة صنع البنادق والقنابل. ورد السفير بالقول إن «الأتراك رجال، ولديهم المهـارة والمعرفة اللتان يتمتع بهمـا الرجال» واتسموا بالكمـال في كل شيء، باستثناء عدم اعتناقهم المسيحية.

وبعد عدة ليال استُدعي ألفـاريز إلى خيمة لبنا دينجل، حيث قيل له إن عليه ارتداء زيه الكـهنوتي، ثم خلعـه، ومن ثـم القيـام بارتدائه مـجـدداً، وإيضـاح الغـرض من كل ثوب ومعناه بينما هو يفعل ذلك. وأعـقب ذلك نقاش ديني مسـتفيض، وتم الإلحاح على ألفاريز مراراً في تبرير التزام قسيسي الكنيسة الكاثوليكية العفة والامتناع عن إتيان النسـاء؛ لأن المعتقدات البيزنطية التي تبنتها أثيوبيا عبر ما يزيد على 1000 عام لا تضم مثل هذه القاعدة. وكانت المسيحية الـدين السائد في العاصمـة القديمة أكسيوم، قبل وقت طويل من بلوغـها البرتغال، وأوضح الحاكم الشاب الجالس وراء السـتار أنه لم يتأثر بالطرح الكاثوليكي في هذا المجال.

وعقب شهر من المراوغـات وقعت أنظار أعضاء البعثة للمرة الأولى على الرجل الذي عرف طويلاً بـ «الراهب يوحنا» إذ جلس لبنا دينجل على منصة مرتفعة في الخيمة

الملكية، وقد اعتمر تاجاً طويلاً من الذهب والفضة، وارتدى عباءة من القماش المقصب، وأسدل على ركبتيه ثوباً ذهبياً آخر يبلغ الأرض. وامتدت أمامه ستارة من نسيج حريري رقيق أزرق اللون يرفعها أتباعه ويسدلونها. وفي بعض الأحيان لم يكن من الممكن إلا رؤية عينيه فحسب، وفي أحيان أخرى كان في الوسع مشاهدة محياه كاملاً، «وربما كانت بشرته كستنائية أو كُمَيْتية، وليست داكنة للغاية» على نحو ما يشير ألفاريز، ويضيف: «إنه رجل بالغ التهذيب، متوسط القامة، ويقولون إنه في الثالثة والعشرين من عمره، ويبدو عليه ذلك إلى حد بعيد».

انحنى البرتغاليون في صف واحد بين يديه، مرتدين الملابس الأثيوبية الحريرية، التي أمروا بارتدائها قبل دخولهم عليه. وعندما قيل لهم إن عليهم أن ينهضوا، استخرج السفير رسائل الملك مانويل من لفائفها القرمزية وقبلها مرتين، ووضعها في وعاء فضي. وكان كوفيلهام واقفاً على مقربة ليترجم ما يقال، وأبلغه لبنا دينجل بأن عليه أن يترجم الرسائل إلى اللغة الأثيوبية، ثم صرف الوفد.

وغدت الاتصالات أكثر تعدداً، بعد أن زالت بعض الشكوك من الجانب الأثيوبي، وانعقدت المقابلات على نحو متكرر حول المسائل الدينية، ثم تحولت إلى مناقشة أفضل السبل للاستيلاء على زيلع. وذات يوم دعي الزوار لانتداب أحد رجالهم لمصارعة أحد رجال لبنا دينجل المفضلين ويدعى جبرا مريم (خادم مريم). وقبل الفنان لازارو داندرادي التحدي، وفي الحال كسرت ساقه. وفي صبيحة اليوم التالي سأل لبنا دينجل عما إذا كان لدى الزوار المزيد من المصارعين، وتقدم أفضل اثنين من المرشحين، وعندما كسرت ذراع أحدهما في التو، وصل البرتغاليون إلى القول بأنهم قد نالوا كفايتهم من المصارعة الأثيوبية. وقد ابتهج النجاشي بأداء بطله، وكان أكثر سعادة عندما بلغته في أصيل اليوم نفسه أنباء عن انتصار أحد قواده على جيش للمسلمين، وأنه قد بعث إليه برؤوس القادة المهزومين، جنباً إلى جنب مع الكثير من الذهب، والعديد من العبيد.

أحس البرتغاليون بالتفاؤل في الأيام الأخيرة من عام 1520، فبمجرد استلامهم رسائل لبنا دينجل التي تضم رداً على العرض الذي تقدم به الملك مانويل لإبرام تحالف

بين الجانبين، سارعوا عائدين باتجاه الشمال إلى مصوع، حيث توقعوا وجود سفينة من الهند في الانتظار، ولكن كتابة الرسائل برهنت على أنها أمر يقتضي وقتاً طويلاً في أثيوبيا. وكما يلاحظ ألفاريز فقد كان من المألوف إجراء كل المعاملات، وإنجاز كل الأعمال مشافهة.

لم تغادر البعثة أثيوبيا في عام 1521، فقد شاء القدر أن تمضي الأمور على غير ما توقع البرتغاليون، وقدر لست سنوات أخرى أن تنقضي قبل أن يتمكنوا من الرحيل. وفي بعض الأحيان مضوا إلى مصوع، عندما توقعوا أن يجدوا سفينة في انتظارهم، ولكنهم لم يجدوا أي سفن هناك. وفي أعوام أخرى أوقفتهم مراوغات لبنا دينجل وضعف موقفهم أمامه بسبب المشاجرات التي نشبت بينهم، ومن خلال الرحيل في مجموعتين تعادي إحداهما الأخرى قرَّر السفير رودريجو دي ليما قيادة إحداهما، على أن يتولى قيادة الأخرى نائبه جورج دابريو. وهنا بعث الإمبراطور إليهما برسائل؛ مفادها أنه ليس في وسعهما الرحيل قبل حسم خلافاتهما. ورفض السفير ذلك معلناً أن دابريو، الذي حظي بعطف لبنا دينجل، كان يدبر مؤامرة لقتله.

وفي عام 1523 وصلت مجموعة من الرسائل إلى البرتغاليين، وعلموا منها أن الملك مانويل قد مات، وعلى الرغم من أن الوفاة حدثت منذ عامين مضيا، فقد حلقوا جميعاً رؤوسهم حداداً. وقد أعجب لبنا دينجل بمثل هذا الإظهار للإخلاص من جانب البرتغاليين لعاهلهم، ولكنه كان أقل تأثراً بكثير بخريطة للعالم قدمها ضيوفه؛ لأن بلادهم وإسبانيا بدتا صغيرتين في المساحة مقارنةً ببلاده، ومن ثم تراجع إجلاله للفرنج.

وأمضى ألفاريز أعواماً يجوب أرجاء أثيوبيا، وتراوح حماسه بين الصيد ودراسة الكنائس الدائرية التي انتشرت في الريف الأثيوبي. وغالباً ما كان بصحبة كوفيلهام، وفي أوقات أخرى بصحبة الشخصيات القبطية البارزة، وبذل جهداً كبيراً في النقاش حول طقوس الكاثوليكية. وبين الحين والآخر تم ذلك بحضور «أبونا مرقس» بطريرك الكنيسة الكاثوليكية العجوز. وكان الختان موضوع مناقشة مثيرة، عندما ذهب أحد القسيسين إلى القول بأنه مضى للنوم «عندما كان قد بلغ العشرين من العمر بالفعل» ولدى استيقاظه وجد أنه قد ختن. وذكر ألفاريز أن ذلك لابد أنه كان من عمل

الشيطان، حيث إن الله ما كان ليجترح معجزة، على يد شخص محدود الشأن. «أغرق أبونا وكل الحاضرين بالدار في الضحك . . . ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، غدا هذا القس صديقي الأثير، وحضر قداسنا كل يوم، والتزم موقفاً بالغ الود من البرتغاليين».

وحانت في نهاية المطاف اللحظة التي شعرت البعثة فيها بالثقة من قدرتها على انتزاع نفسها من براثن لبنا دينجل، وبينما رأى كوفيلهام مواطنيه على وشك الرحيل «استبدت به رغبة عارمة في العودة إلى بلاده» ومضى إلى لبنا دينجل، مناشداً إياه السماح له بالرحيل كذلك، وصحبه ألفاريز وآخرون، ومضوا يتوسلون ويناشدون، ولكن كل ذلك كان بلا طائل.

وبعد وداع حزين من جانب كوفيلهام(6)، سافرت البعثة إلى بروة الواقعة على مسيرة بضعة أيام من مصوع باتجاه قلب القارة، لانتظار أنباء عن أي سفينة آتية من الهند مع الرياح الموسمية، وأرسل رجلان إلى الميناء لاستطلاع كل ما يمكنهما رصده. ولكن السفن العربية التي تناهت منها أصوات الموسيقى والاحتفال، كانت الأسبق في الوصول. وعاد الرجلان من الساحل «في حالة من الإعياء، وقد شارفا على الجنون» قائلين: «لن تجيء سفن برتغالية لنستقلها، وليست هناك سفن في الهند، فقد حوصرت جميعها وضاعت الهند». ولم يكن لذلك معنى إلا أن الأتراك قد انعقد لهم لواء النصر أخيراً في المحيط الهندي. ولن يكون في الوسع في نهاية المطاف الإفلات من أثيوبيا.

ومضى ألفاريز وحيداً على ضفة نهر، إلى أن بلغ صخرة كبيرة «وبكيت طوال الطريق، وسط الدموع والتنهدات، رقدت في الظل ما يزيد على الساعة» ثم مضى يعزي نفسه ويقوي إرادته، بتقبل مشيئة الله بأن يمضي ما بقي له من عمر في أثيوبيا، وصار يعرف البلاد، وسوف يعالج الأمر على أفضل وجه:

«لسوف أمضي إلى جوار منطقة بها ماء، وأشيد سوراً قوياً لإبعاد الحيوانات البرية، وسأضرب خيمتي التي ستقيني ورفاقي، وسأقيم صومعة داخلها، وفي كل يوم سأقيم قداساً، وأسلم أمري إلى الله حيث إن المسيح ارتضى لي أن أظل هنا، ولسوف آمر

بقطع الأشجار؛ لأتمكن من إنشاء حدائق، وسوف أزرع حبوباً من كل الأنواع، وسأقيم أودي بمحاصيلي وما أصطاده، ومعي أتباعي وخدمي».

وإذ ارتاحت نفسه لما استقر رأيه عليه بهذا الصدد، فقد مضى عائداً إلى رفاقه الذين كانوا يحاولون أن يُنَحُّوا أحزانهم جانباً، ومضوا جميعاً للصيد، وأفلحوا في اقتناص العديد من الأرانب والحبارى عن طريق الفخاخ، ثم أعدوا عشاء عيد الفصح لأنفسهم. وبينما هم ينطلقون إلى مراقدهم، ظهر خادم على نحو غير متوقع «وهو يعدو بسرعة بالغة إلى حد أنه عجز عن الحديث من فرط التعب». وفي النهاية أفصح عن أخباره؛ فقد وردت أنباء عن سفن برتغالية تبحر شمالاً في البحر الأحمر نحو مصوع، وقد سمع هدير مدافعها يدوي من بعيد، وكانت القصص التي روجها العرب عن هزيمة البرتغاليين في الهند بعيدة عن الصحة تماماً.

وبينما سارع ألفاريز ورفاقه إلى الميناء، وأعدوا عدتهم لركوب إحدى السفن، أقبل أربعة مبعوثين أرسلهم النجاشي على عجل؛ ليقولوا إن على البرتغاليين العودة إلى بلاطه «حيث سيعطينا الكثير من الذهب والملابس ويبعث بنا إلى أخيه ملك البرتغال مبتهجين وراضين». ولكن أحداً لم يكترث لإطاعة هذا الأمر، وكان أقلهم حماساً لذلك هو زاجازابو، وهو كاهن اختاره لبنا دينجل ليكون سفيره لدى ملك البرتغال. وكما أوضح زاجازابو، فلو أنه عاد بمفرده فمن المؤكد أنه سيلقي به إلى الأسود الأربعة المقيدة بالسلاسل، والتي تصاحب النجاشي حيثما ذهب، أما الرحلة عبر المحيطات المجهولة إلى أوربا فمخاطرها لا تصل إلى هذا الحد.

الفصل الثامن والعشرون

الحرب مع الغازي الأعسر

لن أزوجك إياها، لأنك لا إيمان لك، ومن الخير لها أن تمضي إلى رحاب الرب، الذي يعادل جلاله رحمته، على أن تمضي إلى دارك.

الإمبراطور الأثيوبي لبنا دينجل،
عندما طلب منه الإمام أحمد الغازي الملقب بالأعسر الزواج من ابنته[1] (1538)

بعد ثلاثة عشر عاماً من عودة أول بعثة لأثيوبيا إلى لشبونة سالمة صدر كتاب الأب فرانشيسكو ألفاريز أخيراً وقد حمل غلافه صورة خيالية يبدو فيها «الراهب يوحنا» على نحو ما تصوره الكثيرون في القرون الوسطى، وقد اعتمر قبعة يزينها الريش وامتطى صهوة جواد مزركش السرج، وقد وقف في خدمته فارس تقلد درعه. وكان ألفاريز قد مات، فعولج مخطوطه بكثير من التصرف، حيث كانت هناك رقابة محكمة على الكتابات المتعلقة بـ«دولة الهند» البرتغالية.

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد أثار هذا العمل اهتماماً واسع النطاق في صفوف الأكاديميين المنتمين إلى عصر النهضة، وأدركوا أنه يقدم الصورة التفصيلية الأولى لأرض اكتنفها الغموض طوال ما يزيد على ألف عام. وسارع أحد هواة جمع سجلات الرحلات، وهو بندقي يدعى جيوفاني باتيستا راموزيو، إلى إدراجه في مجلد أعده عن أفريقيا، وطبع في عام 1550. وأشاد بألفاريز لجلبه مثل هذه المعلومات الوفيرة، قائلاً إنه «حتى الآن لم يكن هناك ما تمكن قراءته حول بلاد أثيوبيا، مما كتبه الإغريق أو اللاتينيون أو أي نوع من الكتاب يستحق الاهتمام» ولكنه يمضي ليتحدث عن الطبيعة «الشاقة والصعبة» لهذا العمل. وكان راموزيو ينظر إلى البرتغال باعتبارها مكاناً ريفياً متخلفاً، حيث يكتب الأفراد «بأسلوب مرتبك ومضجر، فمثل هذه الطريقة في الكتابة طبيعية بالنسبة إلى أبناء تلك البلاد». وكم كان القراء سيزداد سرورهم لو أن ألفاريز

«كلف نفسه عناء رؤية منابع النيل»، أو استخدم أسطرلاباً لقياس الارتفاع الزاوي للنجم القطبي. ومع ذلك فإن على المرء أن يشعر بالامتنان لـ «كتابات هذا الرجل» حيث إنها قد تشجع أحد أمراء إيطاليا العظام على أن يرسل شخصاً أكثر جدارة «لبلاط أمير الزنوج هذا».

كان هذا التعالي تجسيداً لموقف عام حيال البرتغال؛ وهو الحسد غالباً دون سواه، تم تبنيه على امتداد دول البحر المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وتبدى ذلك على نحو مماثل في مؤلف بلداسير كاستيليون بعنوان «**كتاب رجل البلاط**». وتحدثنا إحدى شخصيات كاستيليون الأنيقة كيف أن قرداً جلب من «جمهورية القردة الهندية» يلعب الشطرنج أفضل من صاحبه البرتغالي، ويلحق الهزيمة به في هذه اللعبة. «وكنتيجة لذلك استبد الحنق بهذا السيد المهذب (على نحو ما يفعل من دون استثناء من يهزمون في الشطرنج) والتقط الشاه (وهي القطعة الضخمة بما أنها من صناعة البرتغال) ولطم القرد لطمة هائلة على رأسه».

وقد نشرت هذه السخرية بعد أن أرسل الملك مانويل مجموعة من الحيوانات الغريبة إلى البابا ليو العاشر في روما؛ وشملت هداياه الفهود، والنمور، والببغاوات، والقردة، والجياد الفارسية التي تصدرها في موكب فيل هندي أبيض، انحنى ثلاث مرات لليو عند جسر سان أنجيلو ونثر الماء من خرطومه على النظارة. وحمل هذا الفيل الذي قاده هندي يرتدي ملابس فاخرة على ظهره صندوقاً مليئاً بالكنوز، ومنح البابا كذلك العديد من العبيد الأفارقة. وبعد عام ونصف العام، أي في عام 1516 بعث مانويل إلى ليو بوحيد قرن، ولكن السفينة التي أقلته غرقت قبالة الساحل الإيطالي بكل ما فيها، وتم على وجه السرعة تحنيط جثة وحيد القرن التي لفظتها الأمواج إلى الشاطئ، ونقلت بعربة تجرها الجياد إلى روما. وهكذا جلب مانويل لنفسه السخرية والهزء من خلال مثل هذه الجهود التي بذلها لاستعراض الهدايا التذكارية للإمبراطورية الشرقية.

وعلى الرغم من الهزء الذي تراكم على كاهل البرتغاليين، فقد كانت هناك سمة يتمتعون بها لا سبيل إلى المساس بها؛ وهي الشجاعة التي يبدونها في القتال، وأصبح

استعدادهم للاندفاع قدماً في مواجهة الأعداء في البر والبحر بغض النظر عن العواقب، موضع إعجاب على نطاق واسع، وتردد اسم دون كريستوف داجاما، في أرجاء أوربا كتجسيد لهذه الروح. وقد كان الابن الرابع للمستكشف العظيم فاسكو، الذي مات في جوا سنة 1524 بعد أشهر قلائل من تعيينه نائباً للملك في شيخوخته. وقد أظهر كريستوف قدراته وهو لايزال شاباً في زيارته الأولى للشرق بإنقاذه سفينة كبيرة هي السفينة «أسبيرتو سانكتو» التي كان على متنها عندما دفعت بها الريح من مرساها قبالة ساحل شبه الجزيرة العربية، وتولى قيادة العدد المحدود من الرجال الذين كانوا على متنها وأبحروا بها بأمان، نزولاً مع الساحل الأفريقي إلى أن تمكنوا من الرسو بها في مرفأ بموزمبيق.

وقد ارتبطت مصائر آل داجاما بشكل وثيق على الدوام بالهند، وأصبح ابن آخر من أبناء فاسكو، هو استفاو، نائباً للملك في عام 1540، وفي العام التالي وجه استفاو الدعوة إلى كريستوف لمرافقته، عندما قاد أسطولاً إلى مصوع، رداً على نداءات الاستغاثة اليائسة من الإمبراطور الأثيوبي لبنا دينجل. وكان من الجلي أن حظ النجاشي الذي كانت له كبرياؤه في السابق قد تخلى عنه على نحو ينذر بالخطر، وكانت هذه هي النتيجة المباشرة للبعثة التي كان فرانشيسكو ألفاريز أحد أعضائها، على الرغم من أن البرتغاليين لم يدركوا هذا.

استشعر المسلمون في المنطقة الخطر من جراء البعثة؛ لأنهم نظروا إلى أثيوبيا باعتبارها القاعدة المحتملة، التي يمكن أن تشن المسيحية منها الهجوم الذي تكرر التهديد به على مكة. فخلصوا إلى أنه لابد من فتح هذه البلاد من دون تأخير. وكانت قد بذلت محاولات في الماضي (عادة خلال الصوم الكبير، عندما يصوم الأثيوبيون صوماً صارماً إلى حد يعجزهم عن القتال)[2]. ولكن الهجوم الذي تم شنه في عام 1528، كان أعظم خطراً بكثير، فقد كان قائد القوة الإسلامية هو أحمد الغازي، وهو أمير وإمام، وقائد ومرشد روحي، وقد عرفه الأثيوبيون بلقب «جران» أي «الأعسر». ولتزويده بما يلزم لفتح المعقل المسيحي الجبلي أمده الأتراك بالبنادق والمدافع، وبعث شريف مكة إليه بكتيبة من المقاتلين العرب.

لم يكن هناك سبيل لمقاومة «الأعسر» وبنادقه، فقد شن هجومه من جهة الأراضي الجنوبية الخفيضة، التي كان لبنا دينجل يعلق الآمال على أن يشق طريقه عبرها عنوة إلى المحيط الهندي، ومضى بحملته عبر الجبال مكتسحاً الجيوش الأثيوبية، ومحولاً الإمبراطور إلى رجل هارب.

وصلت الأنباء الأولى عن محن «الراهب» إلى العالم الخارجي في عام 1535، حيث حملها جواو برموديز، الحلاق-الحجام الذي كان أحد رفاق ألفاريز، وكان قد مكث في أثيوبيا وخطط ليصبح رأس الكنيسة هناك. وفي طريقه إلى لشبونة طلباً للنجدة أسره الأتراك الذين بتروا جزءاً من لسانه ثم أطلقوا سراحه.

وفي ضوء المسافات وصعوبة دخول أثيوبيا لم تكن هناك فرصة كبيرة لإغاثة عاجلة للنجاشي لبنا دينجل، غير أنه التزم بموقف التحدي حتى النهاية[3]. إذ مات الإمبراطور وحيداً تقريباً في دير يقع على قمة جبل، حزيناً على الهزائم التي مني بها في المعركة[4].

وكان هناك احتمال حقيقي في تلك اللحظة للقضاء على المسيحية إلى الأبد في أثيوبيا، وكانت المسيحية القبطية للنوبيين، شأن نظيرتها لدى الأثيوبيين قد كرست قبل وقت طويل من ظهور الإسلام، وبالمثل كان بطاركتها يأتون من مصر. غير أن العلاقات بين هاتين المملكتين المسيحيتين المتورطتين في الحروب مع المسلمين لم تكن وثيقة، وقد شاهد فرانشيسكو ألفاريز ستة مبعوثين يتوسلون بلا جدوى للبنا دينجل أن يبعث إليهم بالقسيسين لإبقاء المسيحية في النوبة. وقد كانت جغرافية أثيوبيا الوعرة هي وحدها التي سمحت لها بتجنب مصير أسود حتى ذلك الوقت[5].

عندما وصل البرتغاليون إلى مصوع في عام 1541 سمعوا بموت لبنا دينجل، وعلموا بأن ابنه كلوديوس النجاشي الجديد في أشد حالات الضيق. ومع ذلك قرر استفاو داجاما القيام بغارة باتجاه السويس مصطحباً معه شقيقه كريستوف. وتركا قريباً آخر لهما هو مانويل داجاما، ليتولى المسؤولية عن باقي سفن الأسطول. وبلغ من حرص الجنود الذين بقوا في السفن التي ألقت مراسيها قبالة الساحل، على القيام بالقتال على البر الحد الذي جنحوا معه إلى التمرد، فتعين شنق خمسة منهم؛ للحفاظ

على الانضباط في صفوفهم. ومع ذلك فقد نزل مئة منهم إلى الشاطئ، ووقعوا في كمين نصبه لهم الأتراك فذبحوا جميعاً، باستثناء اثنين منهم.

عندما عاود نائب الملك الظهور قبالة مصوع لم تردعه هذه الأنباء، وقرر إرسال 400 متطوع إلى المرتفعات الأثيوبية، تحت قيادة كريستوف «الذي سيضحي به من أجل الملك، وليس بابن رجل آخر» حيث إنه بدا من غير المحتمل أن يتمكن أي عضو من أعضاء هذه الحملة من الإفلات من الموت. غير أنه لم يكن هناك نقص في المتطوعين للمسيرة مع كريستوف؛ لأنه وهو في الخامسة والعشرين من عمره كان في عنفوانه واشتهر ببسالته. وانطلق الرجال الأربعمئة الذين تحمسوا لاحتمال استشهادهم باسم المسيحية في التاسع من تموز/ يوليو 1541، وقد حملوا معهم عشرة مدافع دوارة و1000 بندقية وإمدادات وافرة من البارود والطلقات تحملها البغال. وصحب المقاتلين حدادون، ونجارون، وصانعو دروع وأحذية، ونافخو أبواق، وقارعو طبول. وكان هناك أيضاً 150 عبداً.

وكانت الرحلة مجهدة، وكان من الممكن السير ليلاً فحسب في السهل الساحلي الحار. وعندما وصلوا إلى الأراضي الأكثر ارتفاعاً، ساعد كريستوف وضباطه في جر البنادق والمؤن على الدروب صعبة المرتقى. وقد ألحقت الحروب الدمار بالريف، بحيث هجر السكان المزارع، وشح الغذاء، وكانت الحيوانات البرية وحدها هي المتوافرة، وكانت القوات الأثيوبية الباقية التي يتولى قيادتها كلوديوس ذو الأعوام الثمانية عشرة، على مسافة عدة مئات من الأميال إلى الجنوب في منطقة شوا، ولكن بما أن الموسم المطير كان في ذروته الآن، فإنه لم تكن هناك فرصة للحاق بهذه القوات قبل شهور عديدة.

واستغل البرتغاليون هذا التعطيل في المسيرة لإطلاق سراح أرملة لبنا دينجل من سجن تقليدي، عند الحافة الشمالية للمرتفعات. وقد كانت هذه القمة الجبلية سجناً للملكة الأم سابلا ـ وانجل، وأحد أبنائها لسنوات عديدة (وقد أودعت هناك، ضمن أسباب أخرى، لإنقاذها من براثن «الأعسر» الذي حاصر الجبل عاماً، إلى جانب

إبعادها هي وابنها عن الهرم القيادي الأثيوبي). وكانت جوانب الجبل منحدرة للغاية، وفقاً لإحدى الروايات البرتغالية، بحيث «إنها بدت كما لو كانت قد نحتت بالمعاول»، فتعين رفع ضابطين بعث بهما كريستوف أمامه بالاستعانة بسلة حملا فيها، أحدهما تلو الآخر، لصعود الجزء الأخير من مقدمة الصخرة.

ويصف أحد قادة داجاما وهو ميجيل دي كاستنهوزو على نحو رومانسي، المشهد الذي بدا عندما هبطت الملكة من الجبل لتحية محررها بقوله:

«استقبلها مع قواته استقبالاً نبيلاً، حيث ارتدى الجميع الزي الكامل بناء على أمره، واصطفوا جميعاً، القادة مع الجنود وكل رجال المدفعية براياتهم المتخذة من الدمقس، والتي تجمع بين اللونين الأبيض والأزرق والصلبان الحمراء، والعلم الملكي المتخذ من الدمقس القرمزي والأبيض، وصليب المسيح يعلو باقي القوات. وارتدى القائد وهو سيد شريف عظيم القدر سروالاً ضيقاً وصُدْرة من الساتان الأحمر والقماش المقصب بالذهب، الذي تتدلى منه جدائل عديدة، ورداء فرنسياً بلا أكمام، يطرح على الكتفين من قماش أسود بديع مقصب بالذهب، واعتمر قبعة سوداء بزخرفة بالغة الثراء».

وسرعان ما حل وقت متابعة المسيرة لخوض معركة مع «الأعسر» وجنوده الأتراك[6]. وحملت المؤن على ظهور البغال، وجَرَّت المدافع ثيران مشدودة إلى عربات، وانطلق داجاما على قدميه إلى جوار رجاله. وفي بداية شباط/ فبراير 1542 وقعت المناوشة الأولى والتي في إطارها أبعد البرتغاليون قوة مسلمة حاولت اعتراض طريقهم. وفي غمار هذا القتال استولى البرتغاليون على مسجد، أمر كريستوف بتحويله إلى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة سيدة النصر. وعقب ذلك قصف البرتغاليون هضبة رحبة واقتحموها، في مواجهة 1500 من رماة السهام المدافعين، وقتل جميع الأسرى على يد 200 من حملة الرماح الأثيوبيين الذين ربطوا مصيرهم بمصير القادمين الجدد البيض.

ومع اقتراب البرتغاليين من قلب أثيوبيا، تقدمت قوة المسلمين الرئيسية التي يقودها «الأعسر» للقائهم من بحيرة تانا، منبع النيل الأزرق، ومضى المبعوثون جيئة وذهاباً حاملين التقريعات والتهديدات. وقال «الأعسر» إنه سمع بأن القائد المسيحي ليس إلا

«مجرد صبي . . . بريء وبلا خبرة» ولذا فإنه بدافع من الشفقة، سيدعه يغادر البلاد، من دون أن يلحق به أذى. وبعث كريستوف بالمقابل مرآة كبيرة وزوجاً من الملاقط المستخدمة في تزجيج الحواجب، مما يشير ضمناً إلى قوله إن عدوه ليس مناسباً إلا لمتابعة شؤون النساء.

أعقبت ذلك عدة مصادمات، هي المعارك البرية الأولى بين المسلمين والمسيحيين الأوربيين، على الجانب الشرقي من أفريقيا. وفي البداية أحرز البرتغاليون نتائج طيبة، فهم لم يجرحوا «الأعسر» ويجبروه على التراجع فحسب، وإنما اضطر جيشه إلى التخلي عن إمدادات غذائية كبيرة، غنموها بكثير من الفرح. كما تركت نسوة مسلمات وراء الجيش «وبين السيدات النبيلات الكثيرات اللواتي بقين، كانت هناك إحدى زوجات الأمير، وكانت على قدر كبير من الجمال، فاصطفاها دون كريستوف لنفسه».

قلبت المعدات الحربية المتاحة للقوة البرتغالية الصغيرة الموازين. وفضلاً عن ذلك فقد تم تعليم الأثيوبيين كيفية صنع البارود واستخدامه. وقد أجبر هذا «الأعسر» على التراجع شرقاً باتجاه البحر الأحمر، ولكنه عزز قواته سريعاً من شبه الجزيرة العربية، بحوالي ألف من حملة البنادق تقريباً وعشرة مدافع، ولم يهدر المسلمون وقتاً في السعي للثأر من الفرنج، فتقدموا في الموسم المطير لمباغتتهم. وفي المعركة النهائية التي تجاوز عدد المسلمين أعداد البرتغاليين فيها، تم دحر البرتغاليين وقتل نصفهم تقريباً، ولاذ الباقون بالهرب تحت جنح الليل. وحمل كريستوف داجاما الذي جرح جرحاً بليغاً، على ظهر بغل بعيداً (وقد ذبح البغل في وقت لاحق لاستخدام شحمه في علاج الجروح).

وسرعان ما أطبق المسلمون على الهاربين الجرحى، ومن بينهم كريستوف، واقتادوهم في عرض أمام قائدهم. وجلس «الأعسر» مغتبطاً وسط رؤوس البرتغاليين البالغ عددهم 160 رجلاً الذين قتلوا في المعركة، وأمر أن يقطع عنق كريستوف داجاما ويقطّع جسده. وقد مر ما يزيد بقليل على العام ليحقق الشهادة التي كان أخوه قد وعد بها لدى افتراقهما في مصوع[7].

وانضم البرتغاليون الناجون من المعركة إلى القوات الأثيوبية الرئيسية، وساعدوا في قلب الموازين العسكرية، حيث كان الأعسر قد بلغت به الثقة بعد انتصاره الأخير الحد الذي بعث معه بحملة البنادق الأتراك إلى حيث أقبلوا، وخلال شهرين أحيط به في هجوم مفاجئ شنه كلوديوس، وأردي قتيلاً بطلقة أطلقها عليه الخادم الخاص السابق لكريستوف داجاما[8]. وانهار الانضباط في صفوف المسلمين الذين هربوا وقد عمَّتهم الفوضى باتجاه الساحل. وهكذا بعد خمسة عشر عاماً من الحرب المدمرة استمتعت أثيوبيا من جديد بالسلام، وبدأ كلوديوس في محاولة العودة بالبلاد إلى الازدهار الذي حظيت به في السنوات الأولى من حكم لبنا دينجل.

وقد حمل إلى العالم الخارجي الأنباء الأولى عن انتصار كريستوف داجاما وموته ميجيل دي كاستنهوزو الذي شق طريقه بصعوبة إلى مصوع مع خمسين ممن بقوا على قيد الحياة، على أمل العثور على سفينة برتغالية هناك (وكانت بقية الحملة قد حال الإمبراطور بينها وبين السفر إلى الساحل). ووصلت سفينة بالفعل، ولكنها كانت صغيرة للغاية، ومزدحمة بالركاب إلى حد كبير، بحيث إنه لم يكن هناك متسع إلا لراكب واحد من رجال الحملة. وكان كاستنهوزو قائداً وجريحاً كذلك، وهكذا فقد ظفر بهذا المكان على متن السفينة. وقبل أن يغادر رفاقه ظفروا بوعد منه بأنه سيجتهد في الطلب بلا هوادة في الهند - وإذا اقتضى الأمر أمام الملك في لشبونة - بأن تمضي سفن أكبر إلى مصوع لتقلهم، وكانوا يعرفون أنهم يواجهون احتمال الاحتجاز في أثيوبيا طوال ما بقي لهم من عمر؛ لأن الأتراك العثمانيين مضوا يسيطرون على نحو متزايد على البحر الأحمر، ومن الممكن أن يستولوا على مصوع في أي لحظة.

وعندما رفعت السفينة مرساها لمح كاستنهوزو الرجال على الشاطئ، وهم يركعون ليصلّوا للصليب الذي تحمله رايتهم، ثم امتطوا جيادهم وبغالهم، ومن عرض البحر مضى يراقبهم وهم يسيرون على مهل عائدين إلى داخل البلاد.

الفصل التاسع والعشرون

المضي بالإنجيل وبالسيف إلى مونو موتابا

يشن حروباً ضروساً على الراهب يوحنا إمبراطور الأحباش، ويعقد مجلس بلاطه في زيمبابوي، حيث يتخذ عادة حرساً مؤلفاً من النساء و200 كلب ضخم مخيف.

نقش على لوحة متخيلة لـ «مونوموتابا إمبراطور الذهب»
من تصوير ب. برتران - باريس (1631)

خلال العقود الأولى التي أمضاها البرتغاليون في شرق أفريقيا لم يهتموا كثيراً بدعوة الوثنيين إلى اعتناق المسيحية. وقد شكل هذا مفارقة ملحوظة مع ما حدث في جانب القارة المطل على المحيط الأطلسي، حيث كانت الدعوة إلى المسيحية تمضي على قدم وساق، حتى قبل رحلة فاسكو داجاما المظفرة إلى الهند، فقد تم تعميد ملك الكونجو، ونقل مسيحيون في مقتبل العمر إلى لشبونة لتلقي التدريب في الأديرة، ولم تشب هذه المهمة شائبة إلا تجارة الرقيق.

غير أن الدعوة لاعتناق المسيحية كانت شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف في مناطق ما وراء رأس الرجاء الصالح لأن الإسلام ساد الساحل الأفريقي، ولم يكن للبرتغاليين في البداية كبير اتصال بالحكام السود الذين قد يمكن إقناعهم باعتناق المسيحية. كما كان مناخ شرق أفريقيا عاملاً رادعاً، وهكذا فقد وجهت الجهود التبشيرية التي قام بها الآباء الفرنسيسكان والدومينكان المرافقون للغزاة البرتغاليين في البداية نحو هندوس المالبار وجوا.

بدا التغير في الإيقاع جلياً بعد أن أعلن عن إنشاء جمعية المسيح بإيعاز من حركة الإصلاح الديني المضاد، وذلك في عام 1540، من خلال مرسوم بابوي. وبعد ذلك بأقل من عام انطلق أحد مؤسسي طائفة اليسوعيين، وهو فرانسيس كزافيه[1] من لشبونة

قاصداً جزر الهند الشرقية، بدافع من الحماسة الدينية التي ستحمله إلى أن ينصب قديساً[2]. وقد ساندته كذلك أعلى السلطات الدنيوية والروحية؛ حيث زوده الملك جون الثالث الذي اعتلى العرش في العام 1521 برسائل تتضمن أمراً للمسؤولين البرتغاليين في كل مكان بتقديم المساعدة للجهود المسيحية، وعينه البابا بول الثالث ممثلاً له في كل شواطئ المحيط الهندي.

مضت السفينة التي أقلت كزافيه على مهل صاعدة في الساحل الشرقي لأفريقيا، الأمر الذي منحه وقتاً مناسباً لإدراك مدى قوة القبضة الإسلامية على السكان السواحيليين. وأجرى في ماليندي حواره الأول مع أحد المسلمين، وتتضمن الرواية التي سجلها لهذا الحوار، مثالاً واضحاً على المنطق الذي اتبعه اليسوعيون:

«سألني أحد الرجال العرب من مدينة ماليندي، وهو من أكثرهم تمتعاً بالتقدير والمكانة البارزة، أن أحدثه عما إذا كانت الكنائس التي اعتدنا الصلاة فيها، يمضي إليها الأفراد كثيراً. . . وحدثني بأن التقوى تتراجع في صفوف أبناء شعبه؛ لأنه كان في تلك المدينة سبعة عشر مسجداً، لا يتردد الأفراد على أكثر من ثلاثة منها، ولا يمضي إلى هذه الثلاثة منها إلا قلة من المصلين، وقد أثار ذلك حنقه إلى حد كبير. . . ولم يقتنع بما قلته له من أن الرب الذي يتسم بالإخلاص المطلق في كل ما يأتيه لا يرضى عن غير المسيحيين وهو أقل رضاء عن صلواتهم، وهذا هو السر في أنه أراد للصلاة أن تنحسر في صفوفهم؛ حيث إن صلاتهم لا تخدمه. . . ومن المناسب أن غير المؤمنين ومرتكبي المعاصي الكبيرة يعيشون في شك وقلق، ومن قبيل الرحمة أن ربنا يجعلهم يعيشون هكذا من دون أن يعرفوا سبباً لذلك».

وقبل أن يواصل كزافيه رحلته، صلى في كنيسة ماليندي الصغيرة التي بنيت قبل ثلاثين عاماً، وأحاط بها العديد من قبور البرتغاليين، والتقى كذلك بالسلطان الفتح بن علي، ثم سرعان ما مضى عبر جزيرة سقطرة (حيث درس أوضاع الجماعة المسيحية المهرطقة فيها، والتي سرعان ما سيستأصل الإسلام شأفتها) إلى جوا، ومن هنالك بدأ رحلاته في الشرق التي لم يعرف الراحة خلالها، وصولاً إلى اليابان.

وعندما توفي كزافيه سنة 1552 قرب مستعمرة مكاو البرتغالية، كان اليسوعيون قد جلبوا قوة دينية جديدة إلى المحيط الهندي، من خلال إحساسهم بالتميز الفكري، فهم لم يكونوا نظاماً رهبانياً يعتمد التسول، وصولاً إلى قمع غلواء النفس البشرية؛ مثل الفرنسيسكان، على الرغم من أنهم في بعض الأحيان عمدوا إلى التسول لقهر الجسد وكبح جماح شهواته. وكان معظمهم ينحدر من أصول أرستقراطية، وهكذا استشعروا تقارباً مع كبار المسؤولين في «دولة الهند» البرتغالية، وكانوا يعتقدون أن المسيحية لابد أن تفرض فرضاً من قبل سلطة الإمبراطورية. وقد حولوا الفقراء والعامة إلى المسيحية، ولكنهم كانوا يسعون وراء الأثرياء والأقوياء من ذوي النفوذ. وفي غمار الموجة الأولى من حماس اليسوعيين هدمت معابد الهندوس، وصدر في جوا حظر على رفع الأذان من قبل المسلمين[3].

ورددت هذه الأعمال في أحد جوانبها أصداء الاضطرابات الدينية العنيفة التي سادت أرجاء أوربا. وكانت آفاق الكاثوليكية تزداد رحابة على نحو مستمر، وهكذا بدا جلياً أن الوقت لن يطول قبل أن يدعى اليسوعيون إلى التبشير في أجزاء أخرى من المحيط الهندي. ومن منظور كزافيه، فإن نفوس الأفارقة السود لم تكن تختلف عن نفوس الهندوس الذين كان يدعوهم كذلك بـ«الزنوج» ولكنهم ما أن يعتنقوا المسيحية، حتى يصبحوا مساوين للبيض.

وسرعان ما أدرك من خلفوا كزافيه في جهوده إلى أين ينبغي أن تتجه جهودهم التبشيرية في أفريقيا، فوراء الحاجز الساحلي الذي شاد الإسلام صرحه، كان هناك ملك غير مسيحي طارت شهرته حتى في أوربا، وهو حامل لقب المونوموتابا. واشتهرت إمبراطوريته بأنها تمتد بعيداً إلى الداخل من الضفة الجنوبية لنهر الزامبيزي، ولما كان اليسوعيون يحبون على الدوام البدء من القمة في كل المجتمعات، بحيث إن تقبل الحاكم للتعميد يجعل المسيحية تتدفق كالشلال في صفوف العامة، فإن المونوموتابا بدا هدفاً مثالياً. وعندما وصلت إلى جوا في عام 1559 رسالة من قائد حصن سفالة، سباستيانو دي ساه مفادها أن هناك قدراً من الاهتمام بالمسيحية في صفوف بعض القبائل، وعندما زعم راهب دومينكاني أن المونوموتابا نفسه ربما يمكن اكتسابه إلى صفوف المسيحية، بدأ اليسوعيون في إبداء اهتمام كبير.

وخلال أشهر قلائل تم اختيار الأب جونزالو دا سيلفيرا لمهمة إدخال أقوى الملوك في أفريقيا جنوب خط الاستواء في المسيحية، وقد كان اختياراً مثالياً لهذا الهجوم المسيحي على الأراضي المجهولة، فهو يجمع بين نبل المحتد والشجاعة المستندة إلى إرادة حديدية، وهو من خريجي المعهد اليسوعي اللاهوتي الأول في البرتغال، وقد فاق أقرانه باعتباره المسؤول عن إدارة كل أعمال اليسوعيين التبشيرية في الهند.

في بداية عام 1560 ركب سيلفيرا مع اثنين من رفاقه اليسوعيين سفينة أقلتهم من جوا إلى أفريقيا، وهبطوا على شاطئ جزيرة موزمبيق الذي يمر به العديد من السفن البرتغالية في طريق عودتها إلى الوطن، ثم انتقل إلى مركب تجاري صغير يعرف بالسمبوك. وعلى الرغم من توجسات رفيقيه، فقد أصر على الإبحار جنوباً إلى سفالة، وهو الأمر الذي استغرق شهراً على وجه التقريب، ثم واصلوا المسير ثمانية أيام أخرى إلى مدينة إنهمباني. ورأى سيلفيرا أن الحاكم المحلي الزعيم جامبا الذي يقيم على مسافة قصيرة إلى الداخل من تلك المدينة مرشح محتمل للتنصر، حيث إن أحد أبنائه قد تم تعميده في كنيسة جزيرة موزمبيق، ثم بعث به إلى داره مرتدياً أفخم الملابس المتوافرة. وستكون هذه المغامرة بمنزلة إعداد لسيلفيرا لنيل الجائزة الأعلى قدراً، وهي الإمبراطور مونو موتابا نفسه.

وزاد بؤس رحلة اليسوعيين الساحلية الطويلة خلال الموسم المطير عندما أصيبوا بالملاريا في سفالة، وفضلاً عن ذلك فقد كانوا في غمار الصيام الكبير، وبدا أحد الثلاثة وهو راهب عادي أنه أشرف على الموت، إلى حد أن سيلفيرا رخص له بتناول اللحم. وخلال الرحيل إيغالاً في الداخل الأفريقي تفاقمت الأمور إلى حد تعين معه حمل سيلفيرا في محفة، تعرف محلياً باسم «ماتشيلا»؛ حيث كان أضعف من أن يسير على قدميه، ولكنه خلال أسابيع قلائل أدخل الزعيم جامبا وكبرى زوجاته في المسيحية، ومنحهما اسمين مسيحيين، هما كونستانتينو وإيزابيلا.

بالنسبة إلى الشرائح الدنيا من المجتمع كانت عملية تنصيرها بسيطة، حيث يقرع جرس لجمع حشد من البشر، ثم يلقي الراهب الوصايا العشر بطريقة خطابية، ويتلو

الصلاة الربانية وقانون الإيمان المسيحي مستخدماً أحد المترجمين، لحث الجمهور على ترتيل هذه الأصوات غير المألوفة على أفضل نحو ممكن، ويكتمل حفل التنصير بتمجيد العذراء. وعندما يعتقد الراهب أن رسالته قد تم استيعابها بشكل كاف (قد تستمر جلسة الترتيل نصف نهار) يصطف الذين تنصروا حديثاً للتعميد. وبمثل هذه الوسائل أدخل سيلفيرا ومساعدوه سريعاً 400 أفريقي في المسيحية، وبدا أن التغلغل اليسوعي في شرق أفريقيا يقوم على أساس وطيد وقبل أن يعود سيلفيرا إلى موزمبيق، قام بتوديع مضيفه وداعاً حاراً، ووصل إلى القول بأنه «رجل صالح للغاية في ضوء أنه كان كافراً في السابق».

ومن سوء الطالع أن دون كونستانتينو لم يحافظ على دينه الجديد فسرعان ما ارتد إلى الوثنية، وكان اليسوعيون قد تركوا وراءهم أحد الآباء ويدعى الأب أندريه فرنانديز، لإبقاء من تنصروا حديثاً عند المستوى الروحي والأخلاقي المطلوب، وإدخال المزيد من الأفراد في المسيحية كلما كان ذلك ممكناً. وقد مكث عامين تراجعت خلالهما شعبيته مع معاداته للسحر وتعدد الزوجات والأعراف المعمول بها، والتي تنظر إليها المسيحية على أنها زنا بالمحارم. وعندما حلت موجة جفاف، واستدعى دون كونستانتينو قواه السحرية لإنزال المطر كما يقتضي الواجب منه، أدانه الأب فرنانديز علانية. وإزاء هذا قرر زعيم القبيلة في سورة غضبه التخلص من ساحره الأبيض، وتم قطع المؤن عن الراهب ثم ضرب نطاق من العزلة حوله، فهرب إلى الساحل واستقل أول سفينة منطلقة إلى الهند. ولكنه صور ما حدث في إطار يوحي بالشجاعة حيث كتب يقول: «يتلقى كل هؤلاء الأفراد التعميد عن طواعية. . . والنسوة يظهرن إخلاصاً عظيماً لأيقونات العذراء. . . وقد عمَّدت حوالي 450 مسيحياً في الطريق إلى سفينتي».

وقدر لمصير الأب سيلفيرا أن يكون أكثر فظاعة بكثير، فقد أعد في موزمبيق الخطط النهائية للقائه مع الإمبراطور الأسود، ثم استقل سفينة أخرى كانت في طريقها إلى مركز سينا التجاري في أعالي نهر الزامبيزي. وكان هذا المركز مجموعة من الدور المسقوفة بأغصان الأشجار، والتي شيّدت جدرانها باللبن، وتقع إلى جوار حصن

حجري صغير عند موضع سوق إفريقية تقليدية. وقد استقرت هناك مجموعة سكانية مؤلفة من بضع عشرات من البرتغاليين، من المغامرين واللاجئين، هرباً من أنظمة الحياة الأوربية، ومشتري الذهب والعاج والعبيد[4]. وعلى الرغم من أن المسيحيين كان يفترض أنهم في تنافس مع التجار المسلمين الذين نجحوا في تحويل التجارة بعيداً عن سفالة، فإن المواقف الدينية والعرقية قد اتسمت بالتسامح واليسر في سينا. وكانت لمعظم البرتغاليين خليلات أفريقيات كما كانت الحال بالنسبة إلى المسلمين، وشمل هذا التجمع السكاني كذلك مسيحيين من هنود جوا، وإذا ما حكم المرء من خلال ملاحظات سيلفيرا، فقد كانت هناك جماعات أخرى كذلك. وقد أعرب سيلفيرا عن شكواه من أن برتغاليي سينا «قد اختلطوا باليهود المهلكين».

وقبل أن يغادر سيلفيرا سينا بذل قصارى جهده لفرض قدر من مجاراة الاعتبارات الدينية؛ وذلك من خلال إقامة مراسم الزواج للتجار البيض وعشيقاتهم الخلاسيات أو الأفريقيات، وقام بتعميد المئات من الأطفال والعبيد، ثم مضى إلى تيتي، أبعد مركز تجاري برتغالي باتجاه قلب القارة، ويقع على بعد 250 ميلاً باتجاه أعالي النهر. ومن بين التجار العاملين في تيتي كان أنطونيو كايدو هو الأكثر اقتداراً وثقافة، وكان يتحدث لغة الكارانجا، وقد أعرب عن استعداده لمصاحبة الراهب اليسوعي إلى عاصمة إمبراطورية المونو موتابا.

ثم انطلقوا عبر البلاد مجتازين الأنهار التي تفيض بالمياه. وفي عيد رأس السنة من عام 1561، وصل سيلفيرا إلى بلاط نجومو موبونزاجوتو، إمبراطور المونوموتابا الشاب، وكان الراهب يرتدي زيه الديني الذي ترك جنباً إلى جنب مع مظهره الارستقراطي أثراً فورياً في نفس نجومو، شأن رفض سيلفيرا المهذب قبول هدايا تتألف من الماشية والذهب والنساء. وقال العاهل الأفريقي العظيم: «ليس من الممكن ألا يرغب إنسان في أي من هذه الأشياء التي قدمتها، حيث إن من الطبيعي في نفس كل منا أن يرغب في اقتنائها، ومن المؤكد أن هذا الرجل ليس كسواه من البشر». وكان الوعّاظ المسلمون قد زاروا نجومو بالفعل؛ ولذا فقد أطلق على سيلفيرا لقب «القسيسي» وهو مشتق من الكلمة العربية «قَسّ». غير أن هذا الرجل كان ينتمي بوضوح إلى معدن مختلف من البشر.

بدأ الملك وأمه محادثات مع المبشر وجلس ثلاثتهم على سجادة فارسية، وقام التاجر كايدو بمهمة الترجمة من مجلسه بباب القاعة، بل إن الراهب اليسوعي تم إعفاؤه من الطقس المألوف للاقتراب من ملوك الكارانجا، وهو الزحف على البطن كالتمساح فوق الأرض التي نثر عليها روث أبقار حديث العهد، والتصفيق خلال القيام بذلك. وكانت هذه بداية واعدة، وخصص لسيلفيرا كوخ قريب وخدم للقيام على شؤونه وتلبية احتياجاته، ولكن سرعان ما راجت شائعات حول أن «القسيسي» على قدر كبير من الاختلاف عن سائر البشر. في ذلك الحين عرض سيلفيرا بمزيد من التوقير أيقونة لمريم العذراء، وسلم الأيقونة للمونو موتابا بحيث يمكنه النظر إليها في داره.

ولم يلبث العاهل الشاب أن أصبح مولعاً بالأيقونة بعدما تلقى تشجيعاً رقيقاً، فقد كان سريع التأثر. وقال إنه ليلة بعد الأخرى مضت أم المسيح تحادثه، ولكن بلسان لم يستطع له فهماً. وكان التفسير حاضراً عند سيلفيرا؛ وهو أن كلماتها المقدسة لا يفهمها إلا المسيحيون.

عند هذا حسم نجومو أمره وقرر اعتناق الدين الذي يؤمن به الرجل الأبيض، وأصغى صابراً وأمه إلى جواره بينما مضى سيلفيرا يعلمهما كل ما تمس الحاجة إليه للقيام بالتعميد. وبعد ثلاثة أسابيع رأى أنهما أصبحا على أهبة الاستعداد، وأقيم الحفل في جو أقرب إلى النشوة الحذرة. وحذا المئات من الرعايا حذو حاكمهم. ومنح اسم ملك البرتغال الشاب سباستيان لنجومو، ومنح اسم دونا ماريا لأمه؛ لأن ذلك هو اسم أم المسيح عليهما السلام. وفي وقت لاحق قبل سيلفيرا هدية مؤلفة من الماشية من العاهل الذي قام بتنصيره، وأعطاها لكايدو التاجر الذي قام بذبحها في الحال، ثم جفف لحومها للانتفاع بها.

رأى المسلمون في بلاط الإمبراطور كيف استطاع هذا المتطفل المسيحي انتزاع السلطة من أيديهم في أقل من شهر، وكان يدعو بالفعل إلى طردهم. فما الذي يمكن أن يحدث في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر؟ وبدؤوا الترويج لقصة مفادها أن سيلفيرا ساحر يستخدم ماء التعميد في السحر، كما أنه جاسوس أرسل من الهند للإحاطة علماً بالبلاد، بحيث يتمكن جيش جرار من القدوم وغزوها. وفضلاً عن هذا فإن هذا

الرجل الأبيض حليف لأعداء المونوموتابا الأفارقة، والموت وحده هو القادر على إبطال مفعول رقاه وتعاويذه. وأوجدت هذه الشائعات هستيريا في الدائرة الملكية، واستُدعي أحد الأطباء السحرة للتصدي لهذا الخطر بإلقاء العظام. ولما كانت سلطته التقليدية تتعرض للتهديد كذلك فقد أعلن أن كل هذه الاتهامات صحيحة.

وعرف كايدو في الحال تقريباً أن مواطنه في خطر، فقد نصحه الملك بإبعاد أي ممتلكات له يتصادف وجودها في كوخ سيلفيرا. وكتب التاجر رسالة قصيرة على عجل إلى الراهب، يهيب به فيها أن يلوذ بالهرب طالما أن الوقت متاح أمامه للقيام بذلك. ولكن سيلفيرا عرف قدره واعترف لكايدو بقوله: «إنني على يقين من أنني أكثر استعداداً لملاقاة الموت من العرب الذين يتعين عليهم قتلي، وإنني لأغتفر للملك فهو ليس إلا شاباً في مقتبل العمر واغتفر لأمه فقد خدعهما العرب». ومضى في تعميد من يعتنقون المسيحية من الأفارقة ومنح للآخرين مقتنياته القليلة الباقية.

وفي مساء 15 آذار/ مارس 1561 بعث كايدو باثنين من خدمه للسهر على الراهب الذي ظل يمضي جيئة وذهاباً في الظلام حتى منتصف الليل. وبمجرد لجوئه إلى كوخه لحقت به مجموعة من الرجال وخنقوه وجروا جثته إلى نهر، حيث ألقيت إلى التماسيح(5). وكتب كايدو في وقت لاحق إلى صديق يلقي اللوم على المسلمين في غرس «مفاهيم خاطئة» في ذهن الملك.

جلب مصرع سيلفيرا بما له من صيت تهديدات محتمة بالانتقام من لشبونة، فقد تلقى الملك الشاب سباستيان تعليمه على يد اليسوعيين، وكان مرشده الديني منهم. ومن الناحية الدنيوية، كان الحدث تحدياً مباشراً لسلطة البرتغاليين. وقد أدرك نجومو إمبراطور المونو موتابا نفسه في التو هذه الحقيقة، وفي محاولة لتجنب العواقب أمر بإعدام أربعة من كبار المسلمين في بلاطه فأعدم اثنان منهم ولاذ الآخران بالفرار.

واستغرق الأمر في هذه الحالة عقداً من الزمان لتنظيم حملة عقابية، وكان الهدف آنذاك هو السيطرة على مناجم الذهب في هضبة زيمبابوي، بقدر ما كان الثأر لمصرع سيلفيرا. وكان القائد الذي اختير لهذه المهمة هو فرانشيسكو باريتو، الذي منح لقب

«قائد حملة غزو موتابا» وقائد حصن موزمبيق. ولم تفتقر مؤهلاته لهذا المنصب إلى البريق، حيث تولى في السابق منصب حاكم الهند، وكان صديقاً مقرباً من الراهب القتيل. وتحولت الحملة إلى قضية الساعة في لشبونة بعد أن تم إعلانها «حرباً عادلة» على الكفرة للاقتصاص منهم، جزاءً وفاقاً لما اقترفته أيديهم في الماضي. وتطوع بضع عشرات من النبلاء للخدمة تحت قيادة باريتو، وشملت قوة الحملة التي ضمت 600 رجل و100 سائس خيل مغربي للعناية بالجياد العربية التي سيمتطي النبلاء البرتغاليون صهواتها، وهم يتقدمون إلى المعركة.

وكان باريتو، وهو ينطلق إلى أفريقيا، ينظر إلى المهمة التي تنتظره من منظور أسطورة «موت الملك آرثر» محبوب البرتغاليين، وبلغ من تأثير حماسه المفعم بالتباهي الحد الذي اكتشف معه ثلاثة رجال مختبئين على متن السفن الثلاث المبحرة تحت قيادته، وذلك بعد أن أبحرت من البرتغال في ربيع 1569. وقد التزم كل من ركاب السفن الثلاث بصورة مشروعة بالقاعدة الصارمة، التي تقضي بأن كل من يبحر إلى الشرق ينبغي أن يودع وصية وشهادة أخيرتين لدى «دار الهند». وكان ذلك احتياطاً حكيماً.

وعهد لليسوعيين بدور بارز في تصريف شؤون الحملة، وكان ذلك أمراً أقرب إلى الكارثة، فقد أصر أربعة من الرهبان، وعلى رأسهم الأب فرانشيسكو دي مونكلارو، على أن الطريق الذي سيتم المضي من خلاله إلى الداخل الأفريقي ينبغي أن يكون باتجاه أعالي نهر الزامبيزي إلى سينا، ثم على امتداد الضفة الجنوبية للنهر وصولاً إلى تيتي، قبل الانطلاق لمهاجمة عاصمة إمبراطورية المونو موتابا. وعبر المضي على هذا النحو مقتفين أثر الراهب القتيل، فإنهم يكرمون ذكراه. ولو أن باريتو رفض الاستجابة لهذا الطلب، فإن اليسوعيين كان يمكن أن يشعروا بأنهم مضطرون إلى الانسحاب من الحملة، ولم تكن هناك حاجة للتأكيد على ما سيكون عليه رد فعل الملك سباستيان، إذا ما وقع مثل هذا الحدث.

وتمثلت النصيحة المضادة التي تقدم بها التجار البرتغاليون المقيمون بالمنطقة، في قيام باريتو بالتقدم إلى الداخل الأفريقي عن طريق سفالة، حيث المسافة المفضية إلى

الأراضي المرتفعة ذات الطابع الصحي أقصر، وحيث يمكن توقع المساعدة من زعيم قوي من قبيلة المانيكا كان يقاتل ضد المونو موتابا. وأشاروا إلى أن طريق وادي نهر الزامبيزي يتعرض سالكوه للإصابة بالحمى، ومن المؤكد أنها ستكون قاتلة بالنسبة إلى رجال لا عهد لهم بظروف الحياة في أفريقيا، وفضلاً عن ذلك فقد كانت هناك قبائل معادية على امتداد الطريق.

ولم يكن مونكلارو مجرد راهب من اليسوعيين، ولكنه الراهب الذي يؤدي باريتو طقس الاعتراف بين يديه. وقد غدا الطرف الرابح في النقاش بسهولة. وبعد مسيرة متقطعة شمالاً وصولاً إلى ماليندي ولامو، انصرف ذهن قائد الحملة في نهاية المطاف إلى نهر الزامبيزي. وقد ازدادت قواته الآن لتبلغ 1000 رجل، بمن فيهم جنود من الحصون الساحلية و200 جندي تم سحبهم من قوة كانت في طريقها إلى الهند. وشمل العتاد مدفعاً خفيفاً وبنادق ونشّابات، وفي قافلة حمل الأمتعة كانت هناك مجموعة من الجمال والحمير. وفي بداية تشرين الثاني/ نوفمبر 1571 تقلد باريتو درعه وأعطى الأمر ببدء المسير.

في البداية سار كل شيء على ما يرام فيما يبدو، وبحلول عيد الميلاد كانت القوة بأسرها تخيم على ضفة النهر عند سينا، حيث يمكن شراء المؤن من التجار المحليين، سواء أكانوا من البرتغاليين أم المسلمين أم الهنود. وتم إرسال مبعوث إلى المونوموتابا ليطلب مجيء سفير إلى سينا للتفاوض. وبسرعة بالغة بدأ الجنود يلقون حتفهم من جراء الحمى، والخيول تنفق من ذبابة التسي تسي، وإذ لم يتفهم البرتغاليون الأسرار الكامنة وراء مثل هذه الكوارث، فقد داخلهم الشك في أن المسلمين المحليين يدسون لهم السم، على الرغم من أن التجمع السكاني التزم موقفاً ودياً طوال الوقت، بل إن تاجراً قام بإقراض باريتو مبلغاً كبيراً من المال ليدفع رواتب جنوده.

وبعد القيام بتعذيب أحد التجار على نحو بالغ القسوة، إلى حد إدلائه بـ «الاعتراف» المطلوب، بدأ الانتقام. ويسجل الأب مونكلارو في هدوء ظاهري «الابتكارات الغريبة» التي استخدمت لقتل المسلمين «فقد تمت خوزقة البعض أحياء، وقُيِّد البعض إلى الغصون العليا في الأشجار، مع اجتذاب الغصون عنوة، ثم إطلاقها فجأة، مما

ينجم عنه تمزيق الضحايا أشلاء، بينما قطع آخرون تقطيعاً من ظهورهم، باستخدام الفؤوس، وأطلقت قذائف المدافع على غيرهم».

نشرت هذه المذبحة سحابة مثقلة بالنذر فوق الحملة، وعندما قرر باريتو التقدم براً من سينا، فإنه سرعان ما وجد نفسه متورطاً في حرب عصابات مع شعب المونجا الذي كان ملكه تابعاً صعب المراس من أتباع المونو موتابا. وعلى الرغم من أن البرتغاليين كان لديهم 2000 عبد أفريقي يحملون مؤنهم، فإن الطعام بدأ في النفاد، ووجدت الآبار مردومة، وساور باريتو شعور مزعج بأن كل حركة يقوم بها يتم رصدها، وتفاقم قلقه؛ لأن الرجال استمروا في التساقط من جراء الحمى، وكان هناك آخرون أكثر ضعفاً من أن يمسكوا بأسلحتهم. وهاجم أبناء شعب المونجا البرتغاليين بقوة مستخدمين التشكيل القتالي التقليدي الذي يشبه هلالاً ممتد الأطراف، ومضوا يطلقون صيحات حربهم، فيرد البرتغاليون عليهم بأسماء القديسين. وعلى الرغم من أن قوة النيران كانت شديدة، بحيث ترد 10000 محارب على أعقابهم، فإن البرتغاليين اشتبكوا مع مهاجميهم مراراً، وفي كل مرة كانوا يتكبدون خسائر وتنخفض روحهم المعنوية.

وقبل نشوب إحدى المعارك، سارت إحدى الساحرات نحو البرتغاليين، وألقت عليهم حفنات من التراب استخرجتها من ثمرة يقطين، وهي تقسم على أن هذا سوف يصيبهم بالعمى والعجز عن المقاومة. وبلغت ثقة الأفارقة بقواها السحرية الحد الذي حملوا معه الحبال لتقييد الرجال البيض وشد وثاقهم واقتيادهم بعيداً عن أرض المعركة. ويقص الراهب الدومينيكاني دوس سانتوس كيف أن باريتو التفت إلى كبير رماته، وأمره بتوجيه مدفعه الخفيف وإطلاق قنبلة تزن عدة أرطال نحو المرأة العجوز «المتغطرسة ذات الثقة الشديدة بفنونها الشيطانية». فقام المدفعي بذلك، كان تصويبه بالغ الدقة إلى حد أنه أصاب الساحرة فتمزقت أشلاء أمام رجالها». وبدا المحاربون «وقد استبدت بهم الدهشة» على الرغم من أنهم تجلدوا بما يكفي لإلقاء أنفسهم تحت رحى المعركة.

اضطر البرتغاليون في نهاية المطاف إلى التراجع إلى معسكر سينا المجاور للنهر. ووصل إلى هناك الفريق المفاوض الذي بعث به إمبراطور المونو موتابا، وبرفقته 200

رجل أجيد تسليحهم. وقال المبعوثون بلطف إن ملكهم قادر على إرسال 100000 مقاتل مثلهم لمساعدة باريتو إذا ما أراد مواصلة حربة ضد أبناء شعب المونجا. وكان التهديد الضمني واضحاً بما فيه الكفاية، ولم يكن هناك مفر من الإقرار بالهزيمة.

في ذلك الوقت كان قد تبقى 180 رجلاً فقط من القوة البرتغالية المتغطرسة التي انطلقت لغزو الداخل الأفريقي؛ فقد سقط معظم رجالها ضحية للحمى، أو لقوا مصرعهم في المعركة، وفر البعض هارباً، وعاد باريتو إلى سينا بعد رحلة لا طائل فيها إلى الساحل للحصول على تعزيزات، وهنالك لقي حتفه في نهاية أيار/ مايو 1573.

سيطر فاسكو هوميم، الرجل الثاني في القيادة بعد باريتو، على مقاليد الأمور بالنسبة إلى فلول الحملة، وأفلح في تجنيد المزيد من الرجال، ثم قاد عملية استطلاع للداخل انطلاقاً من سفالة، وهي نقطة الانطلاق التي رفضها اليسوعيون قبل عامين، وبعد زيارة مناجم ذهب مانيكا وإشعال النار في حاضرة وخوض غمار عدة معارك، عادت القوة إلى الساحل من دون أن تحقق الكثير. ومرة أخرى تم القيام بمحاولة لاختراق وادي الزامبيزي، وهذه المرة بحثاً عن مناجم الفضة التي دارت حولها الشائعات. وفي نهاية المطاف تخلى هوميم عن الأمر في إحباط وتخلى عن القيادة لضابط يدعى كاردوسو. وقتل الكثيرون من آخر 200 رجل بقوا على قيد الحياة من رجال الحملة في كمين، ومات آخر أربعين رجلاً وهم يدافعون عن حصن بُنيت أسواره باللبن.

وهكذا لم تثمر هذه المحاولة التي طرح حولها الكثير من زخرف القول؛ لفرض السلطة البرتغالية على امتداد نهر الزامبيزي. وقتل ألوف الأفراد، وكان الثمن فادحاً بالنسبة إلى الخزانة في لشبونة التي تتعرض لضغوط كبيرة، ووصل اليسوعيون إلى أنه من الأفضل أن يتركوا مهمة التنصير في شرق أفريقيا لتقوم بها الطوائف الرهبانية الأخرى. وعلى السطح بقيت ممالك الداخل الأفريقية من دون مساس بها، على الرغم من أنها اضطرت أن تبدي اهتماماً أكبر بالمدافع والسلع الأوروبية الأخرى. غير أن انحسار الطموح العسكري البرتغالي ترك وراءه فيضاً من المشردين البيض الهاربين من صفوف القوات البرتغالية، التحق بعضهم بالجماعات السكانية التجارية المبعثرة في وادي الزامبيزي، بينما ارتبط البعض الآخر بالحكام الأفارقة باعتبارهم من المرتزقة.

وهؤلاء الباحثون عن الغنائم في غمار تحركهم بعيداً عن سيطرة لشبونة، سيقومون تدريجياً بتقويض سلطة المونوموتابا والحكام الآخرين على جانبي وادي الزامبيزي.

وقد وافق أحد ملوك المونو موتابا، ويدعى مافورا، على أن يقوم بتعميده راهب دومينيكاني أسود، بعد أن أعاده البرتغاليون إلى سدة السلطة. وفي غضون عام ونصف العام وقعت انتفاضة على مستوى لم تقع عليه الأنظار من قبل. وحارب بعض الأفارقة ببنادق كانوا قد اشتروها من التجار بالذهب والعاج. وفي النهاية، قتل 300 من البرتغاليين والخلاسيين جنباً إلى جنب مع عدة آلاف من عبيدهم وخدمهم. ومُزِّق الراهب الدومينيكاني الذي أدى طقس التعميد أشلاء بالحراب الأفريقية القصيرة، ودُفع براهب آخر إلى قاع هاوية.

وبقي على قيد الحياة أقل من خمسين برتغالياً في الأراضي الداخلية بحوض نهر الزامبيزي، وجاء انتقامهم عاجلاً، فقد اكتسح قائد ساحل موزمبيق دييجو دي سوسا دي منسيز الأراضي باتجاه الداخل بـ300 من حملة البنادق، وألحق الدمار بإمبراطورية المونو موتابا. وزعم في وقت لاحق أنه قتل 12000 محارب وسبى النساء وصادر الماشية، وقال رهبان صحبوا رجاله إنهم استمدوا إلهامهم في المعركة من صورة سماوية «متألقة كالشمس». ولكن هذه المعجزة المزعومة لم تفد منسيز كثيراً؛ لأن الغيرة استبدت برؤسائه؛ فصدر له أمر بتقديم نفسه في جوا، حيث جرد من المنصب الذي كان يشغله وصودرت ممتلكاته، ثم أودع رهن الإقامة الجبرية المنفردة لمدة عام ونصف العام.

وقد أصبحت هذه النزعة اللاعقلانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالطريقة التي تدار بها الإمبراطورية البرتغالية وعجلت بانهيارها[6]، حيث كان البرتغاليون يهربون من الواقع بوضع مشروعات دقيقة لكنها مستحيلة؛ وتمثل أحد هذه المشروعات في إرسال 2000 عائلة من البرتغال لاستعمار منطقة الزامبيزي. وكان من المتصور أن يقوم هؤلاء الرعايا الموالون باستغلال مناجم الذهب والفضة ذات الثروة الأسطورية وبزراعة القمح وتحدي أي قوة أوربية أخرى تسعى لموطئ قدم في هذه الأرض التي اكتسبت بشق الأنفس[7]. ولم يكن هؤلاء المستعمرون سوى مجرد أشباح في حلم تضمنته مخطوطة رقية. وفضلاً عن ذلك فإن الرواد البيض في وادي الزامبيزي لم يرغبوا في أن يكون لهم دور

في مثل هذه المشروعات، وعندما ظهر قاض يدعى دكتور بيرو كويلهو في مستعمرة سينا الواقعة على ضفة النهر للقيام على إقرار العدالة وكذلك لاكتشاف ما إذا كان هناك وجود لمناجم فضة، أطلقت عليه النار فأصيب بجرح قاتل. وبعد ذلك بحوالي أربعين عاماً، أرسلت مجموعة من المهاجرين مؤلفة من رجال ونساء وأطفال من لشبونة، ولكن نسبة من حصدهم الموت كانت عالية للغاية.

وتمثل أفضل ما أمكن تحقيقه في نهاية المطاف في قيام التاج بتأجير مزارع ذات مساحة رحبة، عرفت باسم «البرازوس» مقابل إيجارات رمزية، ومنح بعضها لبنات النبلاء اليتيمات. ولسوف تصبح هذه المزارع القائمة على العمل العبودي جوهر مستعمرة موزمبيق. وفي مناطق أخرى في الهضبة المرتفعة، تم الترحيب بالجنود الهاربين والناجين من حوادث غرق السفن، باعتبارهم رموزاً تدخل ضمن حاشية زعماء القبائل الأفارقة، وغدوا مؤسسين لقبائل خلاسية قوية.

تم استخدام القوة التي يحتفظ بها البرتغاليون في شرق أفريقيا بعد هزيمة باريتو الكاملة، للسيطرة على الساحل مع الاستئثار تدريجياً بالتجارة التي كانت مزدهرة ذات يوم، والتي مارستها المدن العربية والسواحيلية. ويصف راهب دومينيكاني يدعى جواو دوس سانتوس في كتابه «**أثيوبيا . . . ذلك البلد الشرقي**» حالة عرب سفالة الذين كانت لهم ذات يوم كبرياؤهم الشامخة، بعد قرن تقريباً من بناء بيدرو دي أنايا لأول حصن هناك، بقوله: «إنهم جميعاً فقراء بائسون ويعيشون بصفة عامة في خدمة البرتغاليين في رحلاتهم، وتجارتهم، وبالعمل كبحارة أيضاً. وتعمل النساء العربيات والمسيحيات كذلك في الزراعة، ويدفعن العشور عن محاصيلهن لكنيستنا».

وأعرب دوس سانتوس عن أسفه إلى حد ما لما وصل إليه حال العرب، وهو يحكي بمزيد من الفخر كيف أنه أشعل النار في مسجد في جزيرة قرب سفالة، بعد أن أبلغه بموقعه ثلاثة من المسلمين الشبان. وقد بني هذا المسجد الذي كانت له جدران خشبية وسقف من فروع الأشجار، تشريفاً لقبر مولاي محمد، وهو تاجر سواحيلي:

«علقت على جوانب هذا المسجد ستائر من قماش الشيت، وزخرف الضريح بخشب الصندل المعطر، وتدلت حوله مباخر عديدة كانوا يلقون البخور فيها لتضوع

رائحته في المسجد . . . وبعد أن فحصته جيداً، أشعلت النار فيه باستخدام فتيل، مما يستخدم لإطلاق المدافع، كنت قد أمرت أحد الشبان بحمله من دون إبلاغه بالغرض الذي سيستخدم فيه، فلو أنني فعلت ذلك أو لو أن هؤلاء الشبان تصوروا ما كنت أوشك على الإقدام عليه، لما صحبوني إلى هناك، حيث يساورهم خوف عظيم من الإساءة إلى الموتى، دع جانباً ميتاً كهذا ينظر إليه العرب على أنه من الأولياء».

وبعد أن تحول المسجد إلى جمرات متوهجة، أراد المسلمون المحليون الثأر من دوس سانتوس، ولكنه يتذكر مغتبطاً أن الخوف من البرتغاليين و«توقير الرهبان المسيحيين» قد أنقذه من إلحاق أي ضرر به.

الفصل الثلاثون

مغامرون أتراك وأكلة لحوم بشر جائعون

ستقوم بالاستعدادات في السويس للجهاد، وبعد أن تجهز الأسطول وتزوّده بالمؤن. . . ستحبط أعمال البرتغاليين الكفرة الخبيثة، وتزيل أعلامهم من البحر.

السلطان سليمان، موجهاً أوامره إلى سليمان باشا (1538) (1)

واصل البرتغاليون من نقاطهم القوية التي لا يزيد عددها على عدد أصابع اليدين في شرق أفريقيا، التطلع بقلق شمالاً نحو مدخل البحر الأحمر، فعلى الرغم من أن الأتراك العثمانيين قد طردوا من المحيط الهندي لعدة عقود من خلال انتصار ألميدا في معركة ديو البحرية، فإن سيطرتهم في وقت لاحق على مصر منحتهم نفوذاً أعظم بكثير على عدن والصومال. ولو أنهم قاموا بإرسال أسطول جنوباً على امتداد ساحل أفريقيا، فإن هدفهم الأكثر احتمالاً سيكون الاستيلاء على ممباسا، بمرافئها الطبيعية المتميزة. وفضلاً عن ذلك فإنه منذ الزيارة الأولى التي قام بها فاسكو داجاما، أظهر السكان عداء بالغاً نحو البرتغاليين. ولئن قدر للأتراك السيطرة على ممباسا، فإن كل سفينة تبحر بين جوا ورأس الرجاء الصالح كان يمكن أن تتعرض للخطر.

مع ذلك فقد تردد البرتغاليون أنفسهم في احتلال ممباسا، حيث كانوا يفتقرون إلى الرجال اللازمين لإحكام السيطرة عليها. وكانت هناك موان عديدة أخرى، تستخدم كمنافذ لصادرات أفريقيا الأساسية - الذهب والعاج والعبيد - ولما كانت موزمبيق وماليندي هما المحطتين المعتمدتين للسفن التي تحتاج إلى الماء والمؤن، فقد كان هناك حل مغر هو محو ممباسا من الوجود، ومعاملتها على نحو ما عاملت به روما قرطاجنة.

لقد حاول نونو دا كونها - الذي كان حاكماً عاماً للهند عين حديثاً - القيام بهذا، عندما اضطر إلى قضاء ستة أشهر في شرق أفريقيا بين عامي 1528 ـ 1529، فقد تسبب

الطقس المتقلب في المحيط الأطلسي، في دوران أسطوله حول رأس الرجاء الصالح في وقت جد متأخر، بحيث لم يتح له اللحاق بالرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي كان من شأنها أن تمضي به إلى جوا. وبعد أن فقد دا كونها ورجاله سفينة قيادتهم والعديد من السفن الأخرى، انخفضت روحهم المعنوية، وساورهم الشعور بالمرارة حيال فكرة اضطرارهم للتلكؤ في المياه الأفريقية حتى موعد نهاية هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية في أوائل العام التالي. وبدا احتمال قضاء شهور عديدة خارج حاجز ماليندي المرجاني أمراً لا يطاق، ولذا قرر دا كونها حسم الأمر بالقوة مع ممباسا، وبعث بموفدين أمامه ليقولوا إن سفنه توشك على الرحيل إلى المرفأ الأساسي، وإلقاء مراسيها هناك.

استاء السلطان لذلك وشعر بنذر الخطر، فقد كانت الذكريات ماتزال ماثلة في الأذهان في المدينة حول الخراب والدمار اللذين أحدثهما أسطول ألميدا، قبل ثلاثة وعشرين عاماً. وإذ تطلع السلطان للوصول إلى حل وسط، فقد عرض تقديم الطعام والماء، ولكنه شدد على أن الرجال الذين سيحملون هذه الإمدادات هم وحدهم الذين يمكنهم النزول إلى الشاطئ.

ولم يكن ذلك أمراً مرضياً بما فيه الكفاية للبرتغاليين، فبعد ستة أشهر في البحر على متن سفن قذرة ومزدحمة، تاق الجنود والبحارة الألف والخمسمئة العاملون تحت إمرة دا كونها إلى أن يستشعروا وجود أرض صلبة تحت أقدامهم، ويتناولوا طعاماً طازجاً. وكان الكثير منهم مصاباً بالأسقربوط* أو بأمراض أخرى؛ ولذلك مضى الأسطول من فوره إلى ممباسا لفرض إرادة البرتغاليين.

قوبل الأسطول بقصف عنيف من جانب الحصن القائم في مدخل المرفأ، حيث استخدمت المدافع التي انتشلها السواحيليون من السفن الشراعية الصغيرة والقراقير البرتغالية العديدة الغارقة، وكان الحصن أقوى كثيراً من ذلك الذي واجه ألميدا، والآن كان هناك أربعة من المنشقين البرتغاليين يقومون بتشغيل المدافع، وقد كبدوا مواطنيهم العديد من الخسائر، ولكنهم لم يستطيعوا منع الأسطول من دخول المرفأ. ودعا في

* الأسقربوط: مرض يصيب الجسم من سوء التغذية، ومن أعراضه الضعف العام وآلام في الأطراف.

داكونها السلطان للاستسلام، وعندما رفض ذلك أصدر أمراً بالقصف العام الذي استمر طوال الليل، فرد المدافعون البالغ عددهم ثلاثة آلاف رجل بوابل من السهام. وعندما أشرقت الشمس، اقتحم عدة مئات من الرجال الشاطئ وعلى رأسهم قوة من حملة البنادق، ومن جديد ثبت أن جسارة الجنود البرتغاليين لا سبيل إلى مقاومتها.

لاذ سكان المدينة بالهرب إلى البر الأفريقي، واحتل المنتصرون المدينة بأسرها. وكانت تلك غزوة يسيرة لم يتكبد فيها الجانب البرتغالي إلا خسائر محدودة. لكن الشعور بالرضا الذي أحس به دا كونها وهو يرقب مشهد النجاح الذي كلل به من فوق سقف القصر لم يدم طويلاً[2]. فقد تعددت الاشتباكات مع الجنود المسلمين، ومع امتداد الموسم المطير إلى نهاية العام، بدأ معدل الوفيات من جرَّاء الملاريا بالارتفاع في صفوف رجاله. وكان البرتغاليون بالفعل في حالة من الوهن، واعتمد جراحو السفن على الحجامة كعلاج وحيد للشفاء من الحمى. وعندما حان الوقت أخيراً لاستئناف رحلة الأسطول إلى الهند، كان عدد الموتى البرتغاليين من جراء القتال والمرض قد وصل إلى ثلاثمئة وسبعين شخصاً.

وكإيماءة وداع، أراد دا كونها تعيين شيخ موال من ماليندي حاكماً جديداً على ممباسا، غير أن ذلك كان شرفاً تكتنف المخاطر قبوله، ورفضه أول رجل اختير لنيله مؤكداً أنه بما أن أمه كانت جارية، فليس في وسعه التطلع إلى مثل هذا المنصب الرفيع[3]. وطلب مرشح بديل أن يبقى مئة وخمسون جندياً برتغالياً بعد رحيل الأسطول لحمايته. وهو مطلب مستحيل التحقيق في ضوء الخسائر التي تكبدها البرتغاليون.

قرر داكونها عند هذا تدمير ممباسا تدميراً تاماً؛ فأمر بهدم كل الدور الحجرية، وإشعال النار في كل ما يمكن أن يحترق. ويقول أحد المؤرخين البرتغاليين: «بدا أوار ألسنة اللهب وأعمدة الدخان المتصاعدة، وتصدع الجدران الحجرية مماثلاً لمشهد من الجحيم» واجتثت إلى حد كبير مزارع النخيل التي تعتمد عليها الحياة التجارية للمدينة اعتماداً ملحوظاً.

ورفع دا كونها بمزيد من الفخر تقريراً إلى لشبونة، مفاده أن حصن ممباسا قد هدم، وأن المدينة حولت إلى أكوام من التراب. غير أنه كان نصراً باهظ الكلفة، وظل السكان على تحديهم للبرتغاليين. ومع عودة السلطان لاستطلاع الأطلال التي يتصاعد الدخان منها، ساوره على الأقل إحساس بالرضا لمعرفته بأن شعبه عاش ليستعد لمعركة أخرى، ولديه من الأسباب الوجيهة ما يحدوه للقيام بذلك.

وقد ضَمن الصراع الأوسع نطاقاً في المحيط الهندي أنهم لن يقاتلوا وحدهم، فبعد أقل من عشر سنوات بدأت السفن التركية تغامر بالمضي إلى شرق أفريقيا[4]. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً تفاقمت مشاعر القلق لدى البرتغاليين، حيث قاموا بتدعيم العديد من الحصون الصغيرة على امتداد الساحل، وتم شن غارات لإنزال العقاب بالمدن المؤيدة للأتراك، وشن هجوم آخر على ممباسا في عام 1551؛ فرده السكان من وراء دفاعات أقوى، فاضطرت القوة البرتغالية إلى التراجع إلى زنجبار وقد جرح قائدها من جراء إصابته بسهم مسموم في عنقه.

غير أن الأتراك أنفسهم برهنوا مراراً وتكراراً على عجزهم عن إحراز نصر بحري حاسم في المحيط الهندي، وتعثر مضاء عزم السلاطين بعد عام 1554، عندما تم إعدام صانع الخرائط المسلم الشهير «الريس بيري»[5]؛ لأن حملته التي تم التخطيط لها بمزيد من العناية قد كللت بالفشل. وفي الثمانينيات من القرن السادس عشر، تجلت إطلالة جديدة للتحدي التركي مع ظهور الأمير علي بك، وهو مغامر جسور. وكان قد اكتسب خبرة في محاربة البرتغاليين، بعد أن شن هجوماً مفاجئاً في عام 1581 على نقطتهم الحصينة في عُمان (في مدينة مسقط تحديداً) حيث أعمل النهب والسلب في المدينة، ثم انسحب منها على جناح السرعة. وبعد أربع سنوات أبحر خارجاً من البحر الأحمر مجدداً على متن قادسين، كان أحدهما من القدم وتسرب الماء إليه بحيث تعين التخلي عنه حتى قبل دورانه حول القرن الأفريقي.

وصل علي بك إلى مقديشو في السفينة الثانية، وهناك أقنع المواطنين بالتحالف معه وإعلان ولائهم للإمبراطورية العثمانية، وأعطي المزيد من السفن ومئات من المساعدين، وعندئذ انطلق إلى لامو وباتي عند النهاية الشمالية للساحل السواحيلي.

وكان ذلك انتصاراً للتظاهر بالشجاعة، وبعث الحكام المحليون من مناطق نائية تمتد جنوباً حتى ممباسا بسفراء ليبلغوا علي بك مدى توقهم إلى التخلص من الفرنج.

أسر الأتراك ما يزيد على أربعين من البرتغاليين، من بينهم قبطان رفيع الرتبة، وأبحروا بهم عائدين إلى البحر الأحمر، ومعهم من الغنائم ما يكفي لدفع تكاليف بناء بعض السفن الأكبر حجماً والأفضل عدة. ولم يصل علي بك إلى ممباسا في هذه الجولة، ولكن سلطانها بعث إليه برسالة يطلب منه فيها أن يشيد حصناً على الجزيرة ويجعل فيه حامية تركية دائمة.

عندما وصلت أنباء الانتصار التركي إلى جوا، ساد الإجماع على ضرورة إنزال أقسى الانتقام بساحة المدن التي ساعدت علي بك. وأرسل أسطول من ثماني عشرة سفينة، وكان ميناء فزه هو أول ميناء ينال نصيبه. وبعد معركة قصيرة ومحتدمة، أحدث البرتغاليون خلالها فتحات في أسقف الدور المسطحة، وألقوا عبرها بالقنابل، لاستئصال شأفة المدافعين، تم اكتساح المدينة، وقتل السلطان استامبادور، ورفعت رأسه على رمح[6]، ثم أوقع البرتغاليون مذبحة راح ضحيتها كل من كان بالمدينة. وكما يعبر المؤرخ والراهب الدومينيكاني جواو دوس سانتوس الذي كان في شرقي أفريقيا في ذلك الوقت، فإنه: «لم يعف البرتغاليون عن أي كائن تدب فيه الحياة؛ فقد قتلوا النساء والأطفال والقردة والببغاوات وحيوانات بريئة أخرى، وذلك بحنق هادر، كما لو أنها كانت مسؤولة عن خطايا المدينة»، ثم اشعلت النار في المدينة، واجتثت عشرة آلاف نخلة.

أبحر الأسطول إلى ممباسا، ومن جديد تم تدمير المدينة هذه المرة لأنها وجهت الدعوة إلى علي بك لبناء حصن فيها. وبعد أن تم تدمير جانب كبير منها، والبساتين المحيطة بها، دفع أبناؤها مبلغاً كبيراً ذهباً لإبعاد البرتغاليين عنها.

بدت الحملة وكأنها مهمة أجيد تنفيذها، ولكن بعد عام ونصف العام عاد علي بك إلى شرق أفريقيا على رأس أسطول أفضل من سابقه، وعلى متنه رجال أجيد تسليحهم[7]. وقد لقي ترحيباً حماسياً من جانب معظم حكام الساحل، وتوجه مباشرة إلى ممباسا

لبدء تشييد تحصينات دفاعية من القوة بحيث تردع البرتغاليين عن التفكير في اقتحامها. وفي هذه المرة أحس المسلمون بأن علي بك قد جاء ليبقى.

كانت تلك لحظة يمكن فيها أن يقع ساحل أفريقيا الشرقية بأسره وصولاً إلى موزمبيق جنوباً تحت السيطرة التركية الدائمة، لولا أنه ظهرت عند مشارف ممباسا قوة ثالثة مفزعة، هي حشد من أكلة لحوم البشر، هم الزيمبا الذين لا تنقع لهم غلة، وهم قبيلة دار الكثير من الجدل حول هويتها وأصولها، حيث إن أكل لحوم البشر أمر مجهول اليوم في شرق أفريقيا[8]. وربما كانوا شعباً فقد أرضه في غمار الاضطرابات التي أعقبت غزو البرتغاليين لوادي الزامبيزي، وحشداً يائساً وجائعاً توحد تحت الاسم الحربي «سيمبا» الذي يعني «الأسد» في العديد من اللغات الأفريقية، والأسد في نهاية المطاف هو من الحيوانات التي تأكل لحوم البشر.

قبل وصول الزيمبا إلى ممباسا، كانوا يشقون طريقهم أكلاً، بالمعنى الحرفي للكلمة، عبر القارة باتجاه الشمال. وأقيمت أعظم مآدبهم في مدينة كلوة العتيقة التي اكتسحوها في منتصف الليل بعد أن أرشدهم أحد الخونة عبر جسر بري يربط الجزيرة بالبر الأفريقي. وقتل ثلاثة آلاف شخص، أو أسروا في حظائر، ليجلبوا منها بحسب الحاجة إليهم، وتم التهام الخائن كذلك عقاباً له على افتقاره إلى مكارم الأخلاق.

أدخل قدوم الزيمبا إلى ممباسا الرعب في نفوس السكان السواحيليين، والأتراك الذين استقروا بها حديثاً، وتعين توزيع اهتمام علي بك بين تشييد حصنه، استعداداً للهجوم الحتمي من جانب البرتغاليين بحراً، والتيقن من أن أكلة لحوم البشر لن يكون في وسعهم العبور إلى الجزيرة من البر الأفريقي. ولابد أنه كان يعلق الآمال على أنه قبل وصول البرتغاليين سيتخلى الزيمبا عن حصارهم للجزيرة، ويتوجهون إلى مكان آخر لملء بطونهم. ولم يقدر لذلك أن يحدث؛ لأن أنباء معاودته الظهور في المحيط الهندي كانت قد وصلت إلى جوا بسرعة غير مألوفة، فبعث مانويل دي سوسا كوتينهو - نائب الملك - على جناح السرعة بأخيه تومي إلى أفريقيا، على رأس أسطول مؤلف من تسع عشرة سفينة، يقودها غليون (سفينة شراعية كبيرة) مسلح بالمدافع الثقيلة، ويحمل على متنه حوالي ألف رجل.

بالاستعانة بالرياح الموسمية الشمالية الشرقية، وقعت أنظار الأسطول على الساحل الأفريقي إلى الجنوب مباشرة من مقديشو في أقل من ثلاثة أسابيع، ثم انعطف جنوباً لخوض غمار المعركة في ممباسا، حيث وصل إلى هناك وقت بزوغ ضوء الخامس من آذار/ مارس عام 1589. وعندما شوهد نيزك متوهج لدى انقشاع الظلام اعتبر بشرى طيبة، وعندما شاهد الأتراك الأسطول، وقد بدت سفنه قوائم سوداء، تسطع الشمس خلفها، فتحوا نيران مدافعهم الثقيلة، ورفعوا رايات حريرية لإعلان استعدادهم للقتال، لكن الأحداث ستظهر أن ثقتهم انهارت بسبب الاضطرار إلى الدفاع عن أنفسهم على جبهتين.

وتجلت دقة تصويب رجال المدفعية البحرية البرتغالية سريعاً عندما بدؤوا في إسقاط القنابل في الحصن مباشرة، وقتلت إحدى هذه القنابل قائد المدفعية التركية، وعندئذ شرع زملاؤه في التراجع إلى المدينة. وعندما شوهد علي بك نفسه وهو يهرب على صهوة جواد، أرسل نبيل برتغالي إلى الشاطئ ومعه ثلاثة مرافقين للاستيلاء على الحصن، فألفوا بداخله أربعة من الأتراك، اثنين منهم قتلى والآخرين على قيد الحياة، فوضعوا السيف في عنقيهما، ورفع العلم البرتغالي بدلاً من رايات الأتراك.

إذا كان البرتغاليون قد ذهلوا حيال ضعف الدفاع البحري التركي، فإنهم سرعان ما اكتشفوا السر في ذلك، حيث كان علي بك قد حشد خيرة رجاله في اثنتين من سفنه، عند مؤخرة جزيرة ممباسا، حيث لا تفصلها عن البر الأفريقي إلا قناة ضيقة. وعبر هذه القناة تجمعت حشود جائعة من الزيمبا تلوح بالحراب. وانطلقت مجموعة من البرتغاليين، لم تكن تدرك وجود أكلة لحوم البشر وراء السفينتين التركيتين اللتين شرع بحارتهما يحاربون في يأس هؤلاء الرجال بلا جدوى. وقام البرتغاليون بذبح مئة من الأتراك، وأسروا سبعين غيرهم، من دون أن يتكبدوا إلا خسارة أربعة من زملائهم(9)، وتم تحرير عشرات من المسيحيين السود الخلاسيين، كانوا مقيدين بالسلاسل في أعمدة قرب ساحة القتال، وتم الاستيلاء على أكثر من عشرة مدافع برونزية. وعلى الجانب البعيد من الجزيرة، ظلت بقية سفن علي بك تتعرض للهجوم، فعندما يتعلق الأمر بالبسالة في القتال لم يكن الأتراك أنداداً للبرتغاليين، الذين قفزوا من فوق سفنهم

والسيوف بين أسنانهم، وسبحوا إلى الشاطئ للانضمام إلى جهود الإجهاز على الأتـراك.

وإذ تبددت آمال شاه بن مشعم سلطان ممباسا، فقد بعث برسول إلى البرتغاليين، يناشدهم أن يجنحوا للسلم، فرد تومي دي سوسا كوتينهو بأنه سيبحث الأمر، ولكن ذلك لن يحدث إلا بعد تسليم كل الأتراك في المدينة له. ومر يوم من دون رد. وقبع الزيمبا متربصين خارج المدينة، وألقى الأسطول البرتغالي مراسيه في المرفأ، وأمر دي سوسا كوتينهو رجاله بالتوجه إلى الشاطئ، فمضوا من دون أن يتصدى لهم أحد إلى المدينة، وقد تقدمتهم أعلام عليها صورة المسيح على الصليب، وحدث النهب المعتاد وأشعلت النار في الدور، وحولت الأسوار الدفاعية إلى أطلال.

وعندما استقل البرتغاليون سفنهم، حل الدور على زعيم الزيمبا لكي يبعث برسالة إلى دي سوسا كوتينهو، يقول فيها إنه بما أن البرتغاليين «قد أنهوا على نحو مشرِّف مشروعهم» فإنه يطلب الإذن له ببدء مشروعه «أي قتل كل شيء حي على هذه الجزيرة والتهامه». ولم يبد القائد المسيحي اعتراضاً، ولذا تدفق أكَلة لحوم البشر جماعات عبر البرزخ، وانتشروا في أنحاء المدينة، دافعين أمامهم السواحيليين، الذين اختبؤوا في البساتين ومزارع النارجيل.

ومع بدء المذبحة لاذ علي بك وثلاثون من ضباطه بالهرب إلى البحر جنباً إلى جنب مع مئتي سواحيلي أفلتوا من براثن الزيمبا، وضجوا بالصراخ طالبين الرحمة والحماية من أكَلة لحم البشر؛ وأشفق البرتغاليون عليهم فانتشلوهم من الماء وأطلقوا بعض القنابل لردع مطارديهم، ثم أبحر الأسطول بعيداً تاركاً ممباسا لقدرها.

وبعد قطع رقاب بعض الشيوخ والسلاطين على امتداد الساحل لإظهارهم التعاطف مع الأتراك، مضى دي سوسا كوتينهو ظافراً في طريق العودة إلى الهند، مصطحباً علي بك باعتباره أبرز تذكارات النصر. ولدى مثول التركي المهزوم بين يدي نائب الملك، جمع في سلوكه بين التواضع والتظاهر بالشجاعة، فوضعه نائب الملك على متن إحدى السفن المنطلقة إلى لشبونة، وسرعان ما أعلن علي بك بعد وصوله إلى لشبونة بمزيد من الحذق والدهاء اعتناقه المسيحية.

وتلتزم السجلات على نحو يثير الضيق الصمت حيال ما بقي من حياته العملية[10]، وبالمثل سرعان ما اختفى الزيمبا من سجلات التاريخ؛ فبعد اقتراف أسوأ أفاعيلهم في ممباسا انطلقوا شمالاً من جديد وهاجموا مدينة ماليندي، وأفلح السكان المحليون وعدد محدود من البرتغاليين المتمركزين هناك في إبعادهم. وعندئذ انضم ثلاثة آلاف من محاربي قبيلة تدعى بالسيجيجو إلى المتصارعين في حلبة النزاع، وأخيراً قابل الزيمبا أندادهم، ولم يبق على قيد الحياة منهم إلا مئة رجل، واختفى زعيم القبيلة وقلة من أتباعه في الداخل الأفريقي.

الفصل الحادي والثلاثون

السلطان المنشق

لم أحظ بالإنصاف قط، ولم يحض شخصي بالتوقير، ولم تتفق المعاملة التي عوملت بها مع مكانتي. والقلب الملكي تؤثر فيه الإهانات، والإساءات، وما يلقاه من ظلم أعظم التأثير . . . ليس للضرورة قوانين تحكمها، والأمر كذلك، على نحو خاص، حيث إن رعاياي هم مجرد كفرة.

السلطان يوسف، سلطان ممباسا، في رسالة إلى جوا (1637)

تركت الصراعات التي نشبت للسيطرة على جزيرة ممباسا قلة من آثار ازدهارها السابق. واكتمل فراغ السلطة بمصرع السلطان وأبنائه الثلاثة في ظروف غامضة. وتحرك البرتغاليون الذين كانوا قد اتخذوا قراراً لا رجعة فيه باحتلال الجزيرة لملء هذا الفراغ، فجلبوا معهم السلطان أحمد من ماليندي «الموالية» ليصبح الحاكم الجديد. وكان الدافع الأساسي وراء هذا التحرك هو احتمال توغل تركي أقوى بكثير من سابقه، حيث وردت تقارير الآن عن خطط يجري وضعها في مصر لربط الطرف الشمالي للبحر الأحمر مع النيل، عن طريق قناة تبحر فيها القوادس الحربية العثمانية من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي مباشرة.

في عام 1586 وردت إلى باريس رسالة بعث بها سافاري دي لانسكوزم السفير الفرنسي لدى القسطنطينية، جاء فيها أن مئة ألف عامل وأربعين ألف حمار واثني عشر ألف جمل سوف تستخدم لشق هذه القناة، وعندما يتم شقها فإن مئتي سفينة مسلحة سوف تجتازها لطرد البرتغاليين إلى ما وراء رأس الرجاء الصالح. وفي حوالي الوقت نفسه، كتب المؤلف المجهول لكتاب **«طريق الهند الغربي»** يتحدث على نحو متفائل عما سيحدث عقب شق القناة، والقيام بطرد الكفرة الأشرار من بحر الزنج، حيث سيغدو من الأيسر عند ذلك بالنسبة إلى القسطنطينية أن تستمتع بـ«أشياء الهند والسند الرائعة وطرف أثيوبيا [أفريقيا]»(1).

بعد سنوات قلائل من ورود تقارير إلى لشبونة عن هذه الخطط التركية بدأ البرتغاليون أخيراً العمل على تشييد حصن في ممباسا، وتقرر أن يكون قاعدة قوية بحيث يهيمن على ساحل شرق أفريقيا، ويتمكن من تحدي أي قوة يمكن أن يجلبها عدو إلى الساحة، وسيدعى حصن اليسوع، وسوف تغطى تكاليف إنشائه وتشغيله وصيانته من خلال رسم جمركي معدله 6٪ تدفعه في ممباسا كل السفن التي تتاجر في شرق أفريقيا.

قدر لحصن اليسوع[2] أن يصبح نصباً تذكارياً لا سبيل إلى تدميره، لمجد البرتغال الإمبراطوري قصير الأمد. ولكن أمر بناء الحصن صدر عن إسباني، وكان المعماري الذي شاد صرحه إيطالياً. وكان الإسباني هو الملك فيليب الثاني الذي وصل في عام 1580 إلى سدة العرش البرتغالي، عندما فنيت من الوجود عائلة أفيز الملكية.

وكان لفيليب العديد من الأشخاص المقربين منه، وأحدهم يدعى جيوفاني باتيستا كايراتي، وهو إيطالي من أبناء ميلانو، أشرف في صدر شبابه على بناء تحصينات مالطة، قبل أن يضرب الأتراك الحصار حولها. واشتهر كمهندس معماري عسكري، في مختلف أنحاء جنوب أوربا. وفي سبعينيات القرن السادس عشر كان يعمل في خدمة فيليب في إسبانيا.

بعد وقت قصير من اتحاد دولتي إيبيريا سيئ الطالع، بعث فيليب بكايراتي ليصبح كبير المهندسين المعماريين للتحصينات البرتغالية في الشرق. وبعد توليه منصبه في جوا، وهو في حوالي الخمسين من العمر، غيَّر كايراتي اسمه ببراعة دبلوماسية إلى نظيره البرتغالي، أي جواو باتيستا كايراتو. وفي السنوات الثلاث عشرة الأخيرة من عمره، قدر له أن يصمم الحصون في مناطق مختلفة من المحيط الهندي وصولاً باتجاه الشرق إلى مضيق ملجا. وكان حصن اليسوع هو إنجازه الأخير والأكثر عظمة، والذي تطلع فيه إلى أصوله الإيطالية. وهو نموذج متميز لنظريات عصر النهضة المزدهر، حول الطريقة التي ينبغي أن يستمد بها فن العمارة إلهامه من «الشكل المكتمل» للجسم البشري. ويجعل المخطط الأساسي لحصن اليسوع هذا أمراً واضحاً للغاية؛ فالمواقع المحصنة الأربعة هي الذراعان والقدمان، والتحصينات الخارجية المواجهة للبحر هي

الرأس، والمنطقة المركزية للبناء بأسره هي الجذع[3]، والبوابة التي اتخذ موضعها بحيث تكون في مرمى النيران من أحد المواقع المحصنة هي من الناحية العملية تحت أحد الإبطين.

لم يستخدم كايراتي هذا «الشكل الإنساني» انطلاقاً من الحنين إلى الأفكار الفلسفية، التي كانت ذائعة الانتشار في إيطاليا في شبابه فحسب، ذلك أن مخطط حصن اليسوع يعد مناسباً على نحو مثالي للموارد الطبيعية والبشرية التي يمكن حشدها محلياً، خلال فرض الحصار على الحصن. فقد كان حرياً بكايراتي، خلال زياراته لمباسا من جوا، قبل بدء البناء، أن يدرك أن الحامية الفعلية ستكون صغيرة العدد (نادراً ما تتجاوز مئة رجل) بسبب النقص الدائم في القوى البشرية، الذي عانت منه «دولة الهند» البرتغالية. وهكذا فإن التصميم تعين أن يكون بسيطاً، مع وجود نقاط دفاعية محدودة، تكشف أقل ما يمكن للمهاجمين من القوة الموجودة داخل الحصن.

ومع ذلك فقد صمّم حصن اليسوع على مستوى كبير بما فيه الكفاية بحيث يجعل ظروف الحياة داخله محتملة، خلال حصار طويل، إذ يصل طوله إلى مئة وخمسين ياردة تقريباً، وعرضه إلى مئة وثلاثين ياردة، عند نهايتي الذراعين المحصنتين. وصمم الفناء المركزي، وامتداده خمس وسبعين ياردة تقريباً، بحيث تحيط به الثكنات والمخازن وكنيسة تحميها بشكل جيد الجدران التي تشبه الستائر. ووفرت بئر عميقة مياه الشرب، وأقيمت دار قائد الحصن الذي سيكرم بحمل لقب حاكم ممباسا فوق البوابة.

أجيد حساب مواقع أسوار حصن اليسوع المصمتة المواجهة للبحر، والتي ترتفع فوق منصة من الصخر المرجاني، بحيث تلقي الرهبة في نفوس الأعداء المحتملين، فهذه الأسوار التي اتخذت واجهتها من الصخور المرجانية، وملئت بكتل صخرية بلغ سمكها اثني عشر قدماً، أي ما يكفي لمواجهة أي مدافع بحرية كان يمكن تصورها في نهاية القرن السادس عشر. وفي أسفلها وجدت الدفاعات الخارجية (المعروفة في اللغة

البرتغالية باسم الكوراسا Couraca)، وهي قريبة من البحر، ويتم الوصول إليها من الفناء الداخلي، عن طريق باب خفيض على هيئة عقد ودهليز ضيق.

لابد أن كايراتو قد أدرك في التو أن الطرف الغربي لحصن اليسوع، الذي يواجه وسط الجزيرة، هو الموضع الذي يمكن من خلاله لهجوم عنيد أن يبلغ قلب الحصن في يسر. وجاء الحل الذي توصل إليه لمعالجة هذه المشكلة متفقاً مع أفضل الأعراف التي درجت عليها الهندسة المعمارية العسكرية الإيطالية، فقد أخفت «القدمان» الغليظتان للقلعة مرابض مدفعية على جانبيهما. وكان في وسع كل مربض من هذه المرابض أن يمشط مناطق الاقتراب من الحائط الخلفي للنقطة القوية المقابلة له. كما سمحت المخططات كذلك بحفر خندق جاف حول الجوانب البرية للحصن.

وعلى امتداد عدة سنوات كان التقدم في تشييد حصن اليسوع سريعاً. وفي ظل رئاسة القائد الأول لمباسا، ماثيوس منديز دي فاسكونسيلوس، الذي عرف بمضاء عزمه، تم جلب فرق من البنائين والحجارين والنجارين الهنود من جوا. وانضم كل من كان موجوداً إلى العاملين في البناء، بمن في ذلك أطقم العديد من السفن الراسية في المرفأ، تحسباً لأي قدوم جديد من جانب الأتراك. وعمل الضباط جنباً إلى جنب مع رجالهم، وحتى السلطان الجديد بدرت منه إيماءة رمزية، حيث قدم إلى الشاطئ مع رجال بلاطه للمساعدة في حمل الأحجار.

وكان حرياً بكايراتو أن يسعد لرؤية كل هذا النشاط، وربما كان يأمل في زيارة ممباسا في طريق عودته إلى أوربا، ذلك أنه بعد أكثر من عشر سنوات في الشرق، أبلغ فيليب الثاني بأن أغلى أمنياته أن يتقاعد في ميلانو (كانت المدينة التي ولد بها لاتزال محط عواطفه، واعتزم تكريس معظم مدخرات عمره في توسيع نطاق مستشفى محلي بها) وأبلغه الملك بأن عليه الانتظار إلى أن يمكن العثور على من يحل محله. ومات كايراتو عام 1596 وهو مايزال ينتظر في جوا.

وعلى نحو ما حدث غالباً في أماكن أخرى من الإمبراطورية البرتغالية الاستوائية، بدأت الطاقة والأموال في النفاد سريعاً في ممباسا، ووصل العمل في حصن اليسوع إلى

حد التوقف تقريباً، بينما مجموعة متتابعة من الحكام يبددون الأرصدة أو يسرقونها. وبعد عشرين عاماً تقريباً من البدء في تشييد الحصن، كان التجار البرتغاليون الرواد في ممباسا يعربون عن شكواهم لكل من يكترث بالإصغاء لهم من أن أسوارها الدفاعية ليست على قدر كاف من الارتفاع، وأن الكثير لايزال يتعين القيام به. وعلى الرغم من ذلك فقد نمت المستعمرة بصورة مطردة، بل كان هناك ما يمكن اعتباره الشارع الرئيسي، والذي دعي على نحو ساخر باسم «رابوسيرا Raposeira» (أي جحر الثعلب). وبالفعل اجتذبت ممباسا حوالي سبعين عائلة، إضافة إلى عبيدهم ومن يلتف حولهم. وعلى الرغم من عدم وجود سجل يرد ذكرهم فيه، فإن بعض أصحاب الحوانيت والحرفيين الهنود لابد أنهم قد هاجروا عبر المحيط، قادمين من جوا. وشيدت الدور وكذلك كنيسة ودير أغسطيني باستخدام الكتل الحجرية المستمدة من مباني التجار العرب التي حاق بها الدمار.

غير أن البرتغاليين لم يثقوا بالسواحيليين الذين يشاركونهم الجزيرة، لأن الصداقة الأولى التي ربطتهم بالسلطان أحمد سرعان ما انحسرت، فقد كان يعتقد أن الانتقال من ماليندي إلى ممباسا من شأنه أن يجعله الحاكم الأعلى للشاطئ السواحيلي كله، بينما كانت السلطة الحقيقية تقبع داخل أسوار حصن اليسوع التي مضت ترتفع على مهل، وأمسك القادة البرتغاليون بمقاليد هذه السلطة، وظل السلطان موجوداً في ممباسا على مضض[4]. وعبثاً مضى السلطان يكتب إلى الملك في لشبونة، قائلاً إنه لا حاجة إلى الحصن، وإن مكانته الخاصة يطاح بها، وإنه في الشؤون التجارية كان التجار البرتغاليون المقيمون يعطون مزايا غير منصفة، وإن قادة متوالين قد عاملوه بازدراء.

وكان من الممكن للشكوى الأخيرة أن تلقى تفهماً من جواو روبيرو، وهو قائد برتغالي ذو خبرة اكتسبها من العمل سنين طويلة في الشرق في القرن السابع عشر، وقد كتب يقول: «لست أشك في أنه بين من مضوا لحكم تلك الحصون كان هناك البعض ممن تصرفوا بلطف، ولكنه لم يكن في استطاعتهم وضع الأمور في نصابها، ذلك أن الإساءات التي يقوم بها رجل واحد سيئ يظل أثرها في النفس أعمق من المعروف الذي يسديه مئة رجل طيب».

تلقت كبرياء السلطان أحمد لطمة أخرى، عندما طلب السماح له بإرسال سفن تجارية إلى الصين. وليس من المحتمل أنه كان يملك سفناً من الضخامة بحيث تقوم برحلة الذهاب والعودة، عبر حوالي خمسة عشر ألف ميل، ولكنه كان في وسعه استئجارها بسهولة من الهند. وكالعهد دائماً ستكون الحمولات المرسلة إلى الصين مؤلفة من العاج والعنبر والذهب الأفريقي وجلود الحيوانات النادرة، وستعود السفن محملة بالخزف والحرير. وربما كانت لاتزال في ماليندي أساطير تدور حول الزيارة التي قامت بها سفن «زينج هي» الهائلة قبل مئتي عام تقريباً، وحول الزرافة التي بعثت بها المدينة إلى الإمبراطور الصيني.

وكان السلطان يعرف أنه لابد له من طلب الإذن من البرتغاليين، لأن أي سفينة تضبط وهي تبحر في المحيط الهندي من دون «القرطاس» يمكن أن تتعرض للنهب والإغراق، ولابد أنه قد حسب أنه سيحصل على هذا الإذن بسبب الولاء الذي أظهره وأسلافه للبرتغاليين، ولكن طلبه رفض بجفاء.

في عام 1610 وصل سلطان جديد هو السلطان حسن إلى سدة العرش، وكان هناك قائد جديد في الحصن هو مانويل دي ميلو بيريرا، وسرعان ما احتدم العداء بينهما إلى حد هرب السلطان حسن من ممباسا، للإقامة مع تجمع سكاني أفريقي في البر الإفريقي، وطالته يد مانويل دي ميلو هناك، فقتل في كمين نصب له. ودفع البرتغاليون ألفي طول من القماش لقاتليه، وعندما أعيد الجثمان إلى ممباسا، قطعت الرأس وأرسلت إلى نائب الملك في جوا مع تقرير مفاده أن السلطان قد حاق به ما يستحقه، لأنه وجد مذنباً بجرم الخيانة العظمى.

وكان ولي العهد صبياً في السابعة من عمره يدعى يوسف، ولذا عين قائد ممباسا نائباً للملك من جناح كان يعارض السلطان القتيل، وأرسل يوسف إلى الهند حيث دفع لاعتناق المسيحية، وعهد به إلى راهب أغسطيني لتعليمه، ثم أرسل إلى البحر على متن سفن برتغالية لتعلم فنون الملاحة والحرب. ولدى وصوله إلى السنوات الأخيرة من العقد الثاني من عمره وتغيير اسمه من يوسف إلى الدون جيرونيمو، غلب الاعتقاد

على رعاته بأنه غدا مناسباً لتولي العرش الذي انتزع من أبيه. وكرم بلقب «ملك ممباسا وماليندي وبمبا» وتوج في جوا، ومنح لقب فارس من فرسان طائفة المسيح، وأرسل إلى وطنه في عام 1626 ببعض مظاهر التفاخر، ومضى معه راعيه الروحي الأغسطيني، وفضلاً عن ذلك فقد كانت له زوجة من جوا تدعى إيزابيلا.

ومن سوء الحظ أن جيرونيمو صار الآن أكثر اتساماً بالطابع البرتغالي مما يمكن أن يتفق مع مصالحه الخاصة؛ فلم يبد في صورة القائد الذي أراده السواحيليون المحليون لأنفسهم، فقد رأوه مرتدياً سروالاً وسترة ضيقين بدلاً من الرداء الأبيض الطويل، ومعتمراً قبعة عريضة الحواف بدلاً من العمامة، بل إنه كان يأكل لحم الخنزير. وتصف مقدمة كتبها راهب مجهول حمل رسالة بعث بها جيرونيمو، معلناً ولاءه للبابا، تصف السلطان الجديد بأنه «ملك مسيحي يحظى بالطاعة من أتباعه العرب» ثم على نحو مفعم بالنذير، يقتطف من المزمور العاشر بعد المئة عبارة: «احكم وسط أعدائك!»[5].

وإذ تمزق جيرونيمو بين ثقافتين فقد تصرف على نحو لا يخفي اليأس الذي يشعر به، وإذا كان شعبه لا يثق به فإن الفرنج في حصن اليسوع لم يثقوا به كذلك. وفي عام 1629 عين قائد جديد للحصن هو النبيل بيدرو ليتاو دي جامبوا. وقدر له القيام باكتشاف مشؤوم، ففي منتصف الليل كان من عادة الملك الذهاب سراً إلى القبر الذي دفن فيه جثمان أبيه بعد قطع رأسه، وهناك يصلي عليه صلاة المسلمين. ومن منظور القائد، فإن هذا جعل من جيرونيمو خائناً، لا بد من عزله وإرساله إلى جوا لمحاكمته.

اتخذ ليتاو دي جامبوا قراره في أوائل آب/ أغسطس عام 1631، ولكنه قبل أن ينفذه، لابد أن تلميحاً في هذا الشأن قد تسرب إلى الملك، وفي أواخر أصيل السبت 16 آب/ أغسطس، وبينما القائد يرقد طريح الفراش لمرضه في داره، وصل جيرونيمو إلى بوابة حصن اليسوع، وطلب زيارته. وكان هذا طلباً غريباً لأن الرجلين كانا على عداء شديد بحيث إنهما نادراً ما التقيا، ولكن القائد سمح له بالدخول فمضى إلى مخدعه، ودار حوار قصير، ثم أمسك الملك وأحد مرافقيه بالقائد من ذراعيه وانهالا عليه طعناً حتى الموت.

عقب ذلك استُدعيت قوة من الرماة الأفارقة والجنود العرب المنتظرين خارج الحصن، فاندفعوا إلى المدخل مطلقين السهام وملوّحين بالسيوف. ولدى وصولهم إلى الفناء الرئيسي شرعوا في القتل العشوائي، وكانت زوجة القائد وأطفالها في مقدمة الضحايا. ومن بين الجنود البرتغاليين الذين بلغ عددهم خمسين جندياً أو نحو ذلك، فإن من لم يقتلوا في التو استبد بهم الذعر على ما يبدو، فلاذوا بالهرب إلى الكنيسة القريبة التي يديرها الرهبان الأغسطينيون. وبحلول الليل انتهى كل شيء، فقد سقط حصن اليسوع، وأشعلت النار في دور البرتغاليين في مدينة ممباسا[6].

لم يعد المنتصر هو دون جيرونيمو منذ تلك اللحظة، وإنما تخلص في القصر من ملابسه البرتغالية وارتدى زيه السواحيلي، بخنجره المعقوف في خصره، وأعلن أنه السلطان يوسف بن حسن المسلم الحق، ثم عاد إلى حصن اليسوع، وأعلن أنه ليس أمام المسيحيين في ممباسا إلا طريق واحد لتجنب المصير الذي حاق بمن لقوا حتفهم في القلعة، وهو اعتناق الإسلام. وذلك في عصر كان الناس فيه يؤثرون الموت على الارتداد عن عقيدتهم، بل إن زوجة يوسف تحدّته ومر وقت طويل قبل أن تعتنق الإسلام.

وعندما وصلت تقارير إلى الهند البرتغالية حول خسارة حصن اليسوع، ثار خلاف حول ما إذا كان السلطان المتمرد ينبغي أن يقطع رأسه أمام العامة في ممباسا، أم يعدم في جوا. غير أن المهمة الأولى تمثلت في الإمساك به. وفي أوائل عام 1632 ظهر قبالة ممباسا أسطول مؤلف من عشرين سفينة، تقل ألف رجل بقيادة نبيل يدعى فرانشيسكو دي مورا. وداخل الحصن كان هناك أربعمئة رجل، هم خليط من السواحيليين المحليين، والقراصنة الآتين من البر الأفريقي، كما كان لدى يوسف عدة مئات من المحاربين الأفارقة، الذين كمنوا في نقاط رئيسية، في مختلف أرجاء الجزيرة.

ومع بدء السفن في إطلاق وابل من قذائفها على حصن اليسوع، كشفت عن سوء تقدير حقيقي، فلم تكن مدافعها من القوة بحيث تحطم الأسوار، فقد صمم كايراتو الحصن بشكل جيد للغاية لردع الأتراك، حتى إن البرتغاليين الذي وجدوا أنفسهم على الجانب الآخر من دون توقع خارج الحصن، لم يستطيعوا شق طريقهم إلى الداخل عن

طريق القصف. والأمر الأسوأ من ذلك هو أن رجال يوسف قد استغلوا المدافع البرتغالية المنصوبة في نقاط القلعة القوية، واستخدموها ضد الجنود الذين حاولوا الاستيلاء على السفن العربية التقليدية الراسية في المرفأ، ثم لمضايقة السفن الأخرى في القناة الضيقة، التي جلبت المؤن عبرها إلى جزيرة ممباسا.

وعندما نزل أربعمئة من الجنود إلى الشاطئ قرب الحصن تعرضوا للهجوم من قبل المئات من حملة الحراب والرماة الأفارقة، وبينما كان فرانشيسكو دي مورا يستحث رجاله، أصابه ثلاثون سهماً، أطراف بعضها مغموس في السم، ولم ينج من الموت إلا بتطوع شاب بامتصاص السم من جروحه، ويقال إن هذا الشاب لقي حتفه.

كشف الهاربون من الخدمة مرات عديدة عن خطط الهجوم، وبعد أسابيع بدأ القادة البرتغاليون الذين انخفضت معنوياتهم، في الشجار حول ما ينبغي عليهم القيام به بعد ذلك. وأرسلت هدايا إلى موانا تشامبي تشاندي، وهو حاكم أفريقي في البر الأفريقي، بهدف إقناعه بالانضمام إلى الجانب البرتغالي، وقد بذل جهداً رمزياً، ثم قال إن أنصار السلطان يعترضون طريقه. وفي آذار/ مارس بدأ هطول الأمطار، الأمر الذي تعذر معه على حملة البنادق استخدام فتائل الإشعال. وفي النهاية نصب مدفعان على أقرب نقطة في البر الأفريقي من الحصن، وشرعا في إطلاق وابل منتظم من النيران عبر الماء. ولم يسفر ذلك عن تحقيق الكثير، ورد يوسف بنصب أحد مدافع الحصن على سطح أحد المساجد لقصف مكان للرسو كان البرتغاليون يحصلون على الماء منه. وبعد أربعة أشهر بدأ الطعام في النفاد. وفضلاً عن هذا، فإن بعض القائمين بالحصار شرعوا في تكريس طاقاتهم لما وصفته إحدى الروايات على نحو غامض بأنه «رذائل شهوانية، بل وفظيعة». فرفع الحصار وأبحر الأسطول الذي تكلف كثيراً من النفقة عائداً إلى جوا، واحتدم تبادل الاتهامات بالمسؤولية عن هذه الهزيمة المطلقة، ولكن بما أن فرانشيسكو دي مورا كان على اتصالات جيدة مع لشبونة، فقد أفلت من الأمر من دون أن يلحقه ضرر.

وكانت سفينتان قد تركتا للتظاهر بحصار ممباسا، لكنهما سرعان ما وقعتا في يدي السلطان يوسف، وليس من المعروف على وجه اليقين كيف وقع ذلك، وربما تمت

رشوة طاقميهما، أو انهارت أعصابهم؛ فهربوا في زوارق صغيرة إلى مستعمرات برتغالية أقل اضطراباً على الساحل الشرقي لأفريقيا.

كان يوسف بحاجة إلى هاتين السفينتين اللتين غنمهما، فقد أدرك أنه عندما تصل الحملة التالية لاستعادة حصن اليسوع قد لا يظل الحظ حليفاً له، فقد آن أوان الرحيل، وتم تحميل كل ما يمكن نقله على متن السفينتين، بما في ذلك المدافع المنصوبة في الحصن. وبهبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في أشرعة السفينتين اللتين حصل عليهما حديثاً، اختفى آخر سلاطين ممباسا في رحاب المحيط الهندي، وساعدته السنوات التي أمضاها في البحرية البرتغالية، لأنه قرر الانطلاق في حياة عملية جديدة كقرصان.

وعلى امتداد سبع سنوات أبحر يوسف في خضم البحار الاستوائية من مدغشقر إلى شبه الجزيرة العربية، وفي بعض الأحيان بصحبة قراصنة من الإنجليز والهولنديين. وترددت شائعات حول أنه ناشد الهولنديين مساعدته في استرداد ممباسا، فشعر نائب الملك في جوا بيرو دا سيلفا بنذر الخطر، حيال احتمال سقوط حصن اليسوع في يد المغامرين الأوربيين، وعلى رأسهم السلطان المنشق، ولم يكن لديه شك في هوية من يتعاطف معه من أبناء الشاطئ السواحيلي، ولم يكن هذا التعاطف ليتحول إلى البرتغاليين.

فأقسم نائب الملك على أن يلقي القبض على يوسف، بل إنه لجأ ذات مرة إلى مداواة الأمر بالتي كانت هي الداء، فدفع أموالاً لقرصان برتغالي للقيام بهذه المهمة، ولكنه لم يفلح في ذلك قط. وفي بعض الأحيان كان يوسف ينسل عائداً إلى مواني شرق أفريقيا حيث يلقى ترحيب الأبطال. وفي النهاية قتل في اشتباك وقع في البحر الأحمر. وقبيل حدوث ذلك كان قد أرسل أحد أسراه وهو راهب دومينيكاني إلى جوا حاملاً رسالة يطلب فيها العفو، وقد أعلن أن وحشية القادة البرتغاليين المتعاقبين على حصن اليسوع هي التي دفعته إلى الانتفاضة.

الفصل الثاني والثلاثون

كبرياء لوزيتانيا المهدرة*

> من نتائج براعة البشر وعنفهم أن ألوان الدمار التي تحدثها حروبنا لا تقتصر على أوربا، فنحن نستنفد ما لدينا من قوة بشرية ومال، لكي نمضي إلى الأطراف النائية في أفريقيا وأمريكا من أجل دمارنا.
>
> فولتير - **«عصر لويس الرابع عشر»** (1751)

لدى مقارنة «دولة الهند» البرتغالية بالإمبراطورية الإسبانية في الأمريكتين، فإنها تبدو هشة على الدوام؛ إذ ليس من المنطق أن أصغر أمم أوربا الغربية، والتي لا يكاد عدد سكانها يزيد على مليون نسمة، تسيطر على ما يزيد على ستة عشر مليون ميل مربع، هي مساحة امتداد محيط استوائي، وتجعل سيطرتها تمتد من ممباسا إلى ملجا ومن هرمز إلى مكاو، على الساحل الصيني ونجازاكي في اليابان. ولابد أن المرسوم البابوي الذي يتضمن منح البرتغال نصف العالم قد برهن سريعاً على أنه لا يعدو أن يكون مجرد عبارات لاتينية متأنقة، كتبت في مخطوط رقي عتيق.

وكان استنزاف الموارد البشرية مما لا سبيل إلى احتماله؛ لأنه في كل عام كان المئات من الشباب يبحرون من نهر التاجوس، ولم تقدر العودة إلا لأقل من ثلثهم. وكان افتقار البرتغاليين للقوة البشرية يعني أنه لن يكون في قدرتهم استعمار الأجزاء الداخلية من القارات، فأقاموا حصونهم على أطرافها فقط. وحتى جزيرة جوا، عاصمة الإمبراطورية الشرقية، كانت تسيطر على مساحة من البر الآسيوي لا تتجاوز جزءاً من خمسة وعشرين جزءاً من مساحة البرتغال الصغيرة، فقد كان احتلال مساحات كبيرة من الأراضي على غرار ما قامت به إسبانيا في الأمريكتين أمراً مستحيلاً، ولم يكن هناك تفكير حتى في غزو أصغر دولة من دول الهند.

---

* لوزيتانيا مرادفة لاسم البرتغال. (المترجم)

وعلى الرغم من أن الأتراك لم يفلحوا في إحراز نصر استراتيجي قط، فإنهم برهنوا هم وإخوانهم في الدين على أنهم مصدر مضايقة دائمة للبرتغاليين؛ فقد طرد نائب الملك نونا دا كونها من جزيرة ديو سنة 1531 من قبل مصطفى بن بهرام، الذي هبط إلى الشاطئ مع قوة من العبيد الأثيوبيين (وكان مصطفى يؤمن بأهمية الذهاب إلى الحرب بمظهر راق، فجلب حريمه في سفينة وكنزه في سفينة أخرى). وقد كان هجوم المغول على مملكة جوجارات (جوزرات) التي تنتمي إليها ديو، هو الذي سمح للبرتغال بالاستيلاء على موطئ قدم في الجزيرة بعد ذلك بعدة سنوات، ثم حوصروا مرتين في الحصن، ولم يسيطروا سيطرة كاملة على ديو إلا بعد سنة 1555.

وفي مقابل هذا النجاح الوحيد الذي سمح لهم بإحكام قبضتهم على التجارة في أرجاء الخليج العربي[1] كان هناك تناقص مطرد في جهود البرتغاليين لمحاصرة مدخل البحر الأحمر. وظل إخفاق ألبوكيرك في الاستيلاء على عدن في تلك السنوات الأولى – التي بدا فيها أي شيء ممكناً – شبحاً يطارد البرتغاليين. وبحلول عام 1570، عندما تراجعت الصدمة الأولى إزاء ضراوة البيض، عادت التوابل والمصنوعات الشرقية لتباع في أسواق الإسكندرية. وكان من الممكن بالمثل لحكام إندونيسيا المسلمين شراء مدافع برونزية كبيرة من الأتراك العثمانيين ونقلها عبر المحيط الهندي، تحت سمع البرتغاليين وبصرهم، لاستخدامها في حال حصار حصونهم.

ومع ذلك فقد ظل نظام «القرطاس» سارياً، وبقيت السفن التي تضبط في أعالي البحار من دون تصريح برتغالي، عرضة للإغراق أو على الأقل للنهب. وتعلم التجار من كل الجنسيات حفاظاً على أنفسهم، أن يتحدثوا «لغة برتغالية مبسطة». وفسر بعض المسلمين ضروب الإذلال هذه على أيدي الفرنج بأنها أقدار جاءت عقاباً لهم على ما جنته أيديهم. وقد كانت هذه هي الكيفية التي فسر بها الشيخ زين الدين[2]، الذي كتب في حوالي عام 1570 ما وقع لأبناء دينه في ساحل المالبار، فقد حل بهم العذاب لأنهم «ضلوا سواء السبيل» وانقسموا على أنفسهم شيعاً وأحزاباً:

«ولهذا السبب أنزل الله عليهم أهل أوربا، من الفرنج النصارى الذين شرعوا في قهر المسلمين والقضاء عليهم، واقترفوا أفعالاً شيطانية تقشعر لها الأبدان ويعجز عن

وصفها اللسان، وجعلوا من المسلمين هزأة يسخرون منها، وازدروهم أعظم الازدراء، وسخروهم في جلب الماء من الآبار، وغير ذلك من الأشغال الوضيعة، وبصقوا في وجوههم وعلى أشخاصهم، وأعاقوهم في رحلاتهم، وخاصة عندما يشدون الرحال حجيجاً إلى مكة، ودمروا أملاكهم وأحرقوا مساكنهم ومساجدهم، وأخذوا كل سفينة لهم غصباً، ومحوا قراطيسهم وكتاباتهم وداسوها بالأقدام، وأحرقوا سجلاتهم، وانتهكوا حرمات مساجدهم».

وتمثل ما يفوق هذا كله في سبيهم للمسلمات، وشدّ وثاقهن، ووضع الأغلال في أقدامهن وانتهاك حرماتهن. وحتى إذا سمح المرء بهامش من المبالغات نابع من العداء، فإن هذا السجل يظل مقيتاً.

وافتقر البرتغاليون بشدة إلى الأصدقاء على الدوام، حيث كان العداء الذي يكنونه ويعلنونه للمسلمين واجباً مقدساً بالنسبة إليهم. وكان يمكن للهندوس أن يصبحوا رفاق سلاح لهم، ولكن لم يحدث أي تقارب دائم معهم قط. وفي البداية بدا أن هناك احتمالاً لإبرام تحالف مع فيجايانجارا، في غمار المحاولات التي قام بها أفونسو دي ألبوكيرك، حيث بُعث راهب فرنسيسكاني يدعى الأب لويس إلى كريشنا ديفا، الذي توّج حديثا راجا لمدينة النصر، فناشده الانضمام إلى البرتغاليين في حربهم ضد كالكوت و«العرب» الذين يقيمون هناك. ومقابل ذلك وعد ألبوكيرك بأنه سيساعد كريشنا ديفا في الهجوم على أعدائه المسلمين في الشمال. وليس مما يثير الدهشة أن الراجا لم يحر رداً، فالسامري قد يكون حاكماً ثانوياً مستبداً لا يوثق به، ولكنه هندوسي. وفي وقت لاحق أجرى المزيد من المفاوضات، وكان ألبوكيرك لدى وفاته على وشك الموافقة على أن الهندوس ينبغي أن تكون لهم الأولوية في شراء جياد الحرب المستوردة إلى الهند عبر جوا.

وسرعان ما أدرك البرتغاليون الإمكانية الكبيرة للتجارة مع «مدينة النصر» حيث كانت هذه المدينة في أوج ازدهارها في ظل حكم كريشنا ديفا الذي دام عهده أكثر من عشرين عاماً. وقد ساعده مهندس برتغالي على إدخال التحسينات على المدينة، بما في

ذلك حفر بحيرة اصطناعية، ويدعى جواو دي لابونتي، كما شارك جنود برتغاليون يستخدمون البنادق في العديد من المعارك إلى جانب الهندوس. وأقام تاجران هما دومينجو بايز وفرناندو نونيز في «مدينة النصر» خلال ثلاثينيات القرن السادس عشر، وبعث كل منهما بحوليات مستفيضة إلى لشبونة. وربما كانت الكيفية التي صور بها بايز العاصمة الهندوسية هي التي دفعت البرتغاليين إلى إدراك الفرصة المتاحة للحصول على حليف قوي:

«لن أذكر حجم المدينة هنا لأنه لا يمكن رؤيتها كلها من أي موضع فيها، ولكنني تسلقت تلاً استطعت من فوقه رؤية جانب كبير منها. . . وبدا لي ما رأيته من هناك كبيراً مثل روما، وجميلاً للغاية، وكانت فيها أشجار متعانقة كثيرة في بساتين الدور، والعديد من السواقي التي تتدفق وسطها، وهناك في مواضع منها بحيرات. . . والسكان في هذه المدينة لا حصر لهم، وهم من الكثرة بحيث إنني لا أدون عددهم هنا، خوفاً من أن يظن بأن العدد من اختلاق الخيال، ولكنني أعلن أنه ما من قوات من الخيالة أو المشاه يمكنها شق طريقها عبر أي شارع أو حارة، وأعداد الأفراد والفيلة هائلة. وهذه هي أفضل مدن العالم من حيث العناية بها»[3].

وفي عام 1547 أبرم البرتغاليون أخيراً معاهدة مع فيجايانجارا، ولكنها لم تسفر عن شيء من شأنه مساعدة الإمبراطورية الهندوسية المتشظية بصورة متزايدة، فقد كان سقوط «مدينة النصر» قاب قوسين أو أدنى. وفي عام 1564 شكل سلاطين الدكن المسلمون تحالفاً عسكرياً. وفي كانون الثاني/ يناير 1565، اكتسحوا فيجايانجارا وأزالوا الأصنام[4]. وكان البرتغاليون مجرد متفرجين. ولم يقدر للمدينة أن يسكنها أحد بعد هذا؛ وعندما شاهدها رحالة إيطالي يدعى سيزارو فريدريتشي بعد ذلك بعامين، لم يكن يقطن الدور التي لم تهدم سوى «النمور والحيوانات البرية الأخرى».

وكانت نهاية فيجايانجارا كارثة بالنسبة إلى «دولة الهند» البرتغالية، لأن جوا كانت قد أصبحت معتمدة إلى حد كبير على التجارة معها، وأقر المؤرخ دي كوتو بأن البرتغاليين «أزعجهم كثيراً» فقدان أرباحهم من «الجياد والقطيفة والأطلس والأنواع

الأخرى من عروض التجارة». وبلغت الخسارة من الضخامة بحيث إن سكان جوا غدوا أكثر فقراً مع مرور الزمن، وشعر البرتغاليون كذلك بأنهم معزولون بشكل أكبر.

وبينما تراجعت بقايا إمبراطورية فيجايانجارا باتجاه الجنوب، بزغت قوة جديدة في الشمال، قدر لها أن تسيطر على الهند كلها تقريباً. وسرعان ما عرف المغول ضعف «الفرنج» وبدؤوا يتحدثون عنهم بازدراء عرضي. فلم يشر جهانكير - الإمبراطور الثالث الذي حكم خلال الفترة من 1605 إلى 1627 - إلا إشارة واحدة عابرة إليهم، في مذكراته المطولة، وذلك خلال سرده لقصة رواها بحار عربي عن سحر البرتغاليين، وكيف أن عنق رجل قد قطعت بسيوفهم ثم أعيدت الرأس إلى موضعها. وشبه جهانكير البرتغاليين بالمشعوذين البنجاليين. أما الإمبراطور شاه جهان (1628 ـ 1658) فكان أكثر استهانة بهم؛ حيث قال عنهم: «في حقيقة الأمر فإن الفرنج كان يمكن أن يكونوا شعباً عظيماً، لولا ثلاث صفات خبيثة؛ فهم أولاً كفرة، وهم ثانياً يأكلون لحم الخنزير، وهم ثالثاً لا يتطهرون»[(5)].

وكان يمكن لمثل هذا الازدراء أن يكون أكثر اعتدالاً إلى حد ما لو أن المغول تفهموا بشكل أفضل الحقيقة القائلة بأن كفرة أعظم قوة كانوا قد شرعوا بالفعل في طرد الفرنج من إمبراطوريتهم البحرية. وعرف البرتغاليون أنفسهم بحلول عام 1600 أن هناك سفناً في المحيط الهندي يمكنها أن تقارع سفنهم، أو تفوقها في المدفعية والملاحة. وتماماً كما انتزعوا تجارة التوابل من البندقية، فإن آخرين عقدوا العزم الآن على انتزاعها منهم.

حاولت البرتغال بأفضل ما تستطيع ولأطول مدة ممكنة حجب أسرار الشرق عن المتطفلين المحتملين، بما في ذلك الطرق البحرية عبر المحيطات والرياح والتيارات الموسمية والأخطار الملاحية، والمصادر الرئيسة للتوابل والأقمشة النادرة والخزفيات البديعة. وعلى امتداد وقت طويل كان أي برتغالي يبيع الخرائط أو الأدلة البحرية الخاصة بالمحيط الهندي، أو يفشي المعلومات عن أعمال «دولة الهند» البرتغالية يعتبر مجرماً عقوبته الإعدام. وأحرزت مثل هذه الضوابط بعض النجاح في الإبقاء على غموض عام في أوربا حول جغرافية المحيط الهندي، ففي خريطة إيطالية تعود إلى

منتصف القرن السادس عشر، تظهر كالكوت باعتبارها شبه جزيرة منفصلة تتدلى من كتلة البر الآسيوية بين شبه الجزيرة العربية والهند، بينما تصور خريطة إنجليزية تعود إلى الفترة نفسها وتسجل رحلة سير فرانسيس دريك حول العالم ماليندي على أنها تشغل معظم شرق أفريقيا، امتداداً حتى رأس الرجاء الصالح.

لم يعن ذلك قط أن البرتغاليين استطاعوا إبقاء جميع المتطفلين بعيداً، فخلال ربع قرن من الرحلة الاستكشافية التي قام بها فاسكو داجاما قام العديد من السفن الفرنسية الصغيرة التي يملكها القرصان ومالك السفن جان أنجو من دييب بالدوران حول رأس الرجاء الصالح للبحث عن موان في سومطرة، يمكنهم منها ابتياع التوابل. وانتهت هذه المغامرة على نحو سيئ، بسبب الأمراض وسوء حالة المناخ، ولكنها كانت بمنزلة سابقة لها دلالاتها. وفي عام 1527 أبحرت سفينة فرنسية أخرى هي السفينة «ماري دي بون سيكور» على امتداد الطريق إلى الهند، إلى أن أفلح البرتغاليون في الإمساك بها. وبعث البحارة الستة والثلاثون الذين كانوا على متنها بالتماس لإطلاق سراحهم إلى نائب الملك في جوا، مقسمين على أن رحلتهم التي مولها تجار من رون، قد حظيت بموافقة ملكهم وأميرال فرنسا. وكان قبطان السفينة هو البرتغالي استفاو دياز، ولم يكن لينتهي إلى حسن مآل، وإن كان لم يسجل شيء عما انتهى إليه أمره.

وكانت هناك ثغرات أخرى في متاريس السرية، ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى أن البرتغال اضطرت غالباً إلى توظيف الأجانب للتعويض عن النقص في عدد الأيدي العاملة فيها، وكان معظمهم من البحارة البسطاء، وغالبا من الكاتالونيين، أو الجنويين، لا يجيدون القراءة ولا الكتابة، ولا يعون بالكثير مما يدور وراء جدران السفن الخشبية التي يبحرون على متنها.

وكان الضرر أعظم كثيراً عندما نقل البرتغاليون إلى الهند على متن سفنهم، من دون تشكك في الأمر، من يجيد تدوين ما شاهده. وكان من هؤلاء الأب توماس ستيفنز، وهو راهب يسوعي إنجليزي أبحر من لشبونة إلى جوا سنة 1579، وبعث إلى أبيه في ولتشاير بصورة مسهبة لرحلته. وعلى الرغم من بعض الجوانب المحدودة التي بالغ فيها

وتستعصي على التصديق، فإن هذه الرسالة كشفت الكثير بالنسبة إلى التجار ورجال البحر الإنجليز الذين وقعت في أيديهم[6]، وقد أوشكت السفينة التي استقلها على الغرق بالانجراف إلى الصخور قرب رأس الرجاء الصالح:

«كان الشاطئ بالغ السوء. . . والأرض نفسها مليئة بالنمور، والسكان متوحشون ينهالون قتلاً على الغرباء، حتى إنه لم يساورنا أمل في الحياة أو الراحة» ثم هبت الريح، فكتبت لهم النجاة. «ولسوف تفهم أنه بعد تجاوز الرأس يوجد طريقان إلى الهند، أولهما في نطاق جزيرة سانت لورنس [مدغشقر] وهو طريق يسلكونه عن رضا، لأنهم ينعشون أنفسهم في موزمبيق على مسيرة أسبوعين أو شهر، بعد أن تمس الحاجة إلى ذلك، ومن هناك في غضون شهر أو يزيد يرسون في جوا. أما الطريق الآخر فلا يمر بجزيرة سانت لورنس، وهم يسلكونه عندما يتقدمون وقد تأخر بهم الوقت كثيراً ووصلوا إلى ذلك الموضع [الرأس] متأخرين للغاية، بحيث لا يتاح لهم وقت لسلوك الطريق إلى موزمبيق، حسبما أوضحناه أعلاه، ثم يمضون مثقلين بالمؤن؛ لأن هذا الطريق لا يمر بموان. وبسبب الإبحار طويلاً وقلة الماء والطعام يتعرضون لأمراض عديدة؛ فترتخي لثاتهم وتتورم فيضطرون لقطعها والتخلص منها، وتتورم سيقانهم، وتعم الأوجاع أجسامهم بأسرها ويصيبها الخدر، فلا يمكنهم تحريك قدم ولا يد، وهكذا يهلكون من فرط الإعياء، ويصاب آخرون بالإسهال والحمى فيلقون حتفهم من جرائهما. وقدر لنا أن نسلك هذا الطريق، ومع أنه كان معنا أكثر من مئة وخمسين مريضاً، فلم يمت منهم أكثر من سبعة وعشرين شخصاً، وهي خسارة لا يعتبرونها كبيرة مقارنة بمرات أخرى. . . وهذا الطريق مليء بالصخور الغادرة والرمال المتحركة، بحيث إننا في بعض الأحيان لا نجرؤ على الإبحار ليلاً، ولكننا بفضل اللطف الإلهي لم نر شيئاً من هذا ولم نغص إلى القاع إلى أن بلغنا ساحل الهند».

ثم يكشف ستيفنز عن هشاشة فنون الإبحار البرتغالية، ذلك أن «البحار الجارية» قد دفعت السفينة بعيداً عن مسارها. «ونحن الذين كنا نعتقد أننا قد دنونا من الهند كنا عند خط الطول الواقع قرب سقطرة؛ وهي جزيرة تقع عند مدخل البحر الأحمر»[7]. وبعد أن خرجت السفينة عن مسارها ألف ميل، انعطفت شرقاً نحو هدفها: «كان أول بشائر

الاقتراب من اليابسة أنواعاً معينة من الطيور، عرفوا أنها طيور الهند، وثانيها هو سعف النخيل، وثالثها ثعابين تسبح في الماء».

في عام 1586 دنت سفينة تجارية يدعى قبطانها توماس كافنديش من ساحل الناتال، وبعد ثلاث سنوات ألقت أول سفينة إنجليزية تبحر مباشرة إلى سواحل شرق أفريقيا، وهي السفينة «إدوارد بونافينتوري» مراسيها في زنجبار، ومكثت هناك ثلاثة أشهر، منتظرة أن تغير الرياح الموسمية اتجاه هبوبها لكي تبحر إلى الهند، وقدر طاقم السفينة الطعام الذي عرضه الزنجباريون للبيع أعظم التقدير. وأدانت لشبونة هذه الزيارة بحسبانها محض قرصنة؛ حيث إن السفينة دخلت المحيط الهندي من دون إذن منهم. ولم ترقَ مثل هذه الشكاوى إلى شيء يذكر عند الإنجليز الذين أوضح بطلاهم المغامران دريك وهوكنز كيفية نهب ممتلكات الإسبان الذين يعلنون ملكيتهم للنصف الآخر من العالم. وفضلاً عن ذلك فإن البرتغال كانت في ذلك الوقت تحت الحكم الإسباني. وبعد عام 1588 شعر الإنجليز بأنهم أحرار في الإبحار حيثما طاب لهم وذلك في ضوء انتصارهم على أسطول الأرمادا العظيم[8].

وسرعان ما وجد المتطفلون الإنجليز أنفسهم يبحرون في المسالك نفسها حول أفريقيا، شأن أمة أخرى من شمال أوربا هي هولندا. وتمكن هؤلاء القادمون الجدد من الاستفادة من الرؤية الثاقبة التي قدمها لهم أحد مواطنيهم، والذي يحظى بمعرفة فريدة بالإمبراطورية البرتغالية، وهو يان فان لينشوتن، وكان قد أمضى خمس سنوات في الهند، وعمل كاتباً لدى كبير مطارنة جوا. ولما كان المطران عضواً في أعلى المجالس الموجودة بالدولة فقد كان لينشوتن في وضع مثالي يتيح له معرفة كيفية عمل النظام. وفي عام 1590 وفور عودته إلى أوربا عكف على العمل الجاد، مسجلاً تفاصيل كل شيء اكتشفه حول رأس الرجاء الصالح. وقد تمكن قباطنة الأسطول الهولندي الأول الذي غامر بالرحيل إلى الشرق، من قراءة كتاب **«اليوميات»** الذي ألفه لينشوتن قبل إبحارهم في عام 1596، والذي عُدَّ مؤلفاً قيِّماً لكل من يتصدون لتحدي البرتغاليين. وفي عام 1598 صدرت طبعة إنجليزية من هذا الكتاب.

ولاشك في أن الإنجليز سرُّوا حيال الشكوى التي أعرب عنها قبطان برتغالي أبحر لينشوتن إلى وطنه على متن سفينته، فبينما كان هذا القبطان يحاول الدوران حول الرأس في عاصفة «لم يعجب من شيء - حسب زعمه - قدر عجبه من السر في أن ربنا قد جعلنا (نحن البرتغاليين) كما ينبغي للمرء أن يكون، نعبر الرأس بهذا العذاب والطقس الخطر مع كوننا مسيحيين أخياراً وكاثوليك رغم أن لدينا مثل هذه السفن القوية العظيمة، بينما الإنجليز الهراطقة المجدفون على الرب، والذين يركبون سفناً بالغة الضعف والضآلة، يعبرون الرأس بكل هذا اليسر».

وأبقى لينشوتن عينيه مفتوحتين جيداً حتى خلال الرحلة إلى جوا عندما توقفت سفينته في موزمبيق، ولاحظ أن الحصن هناك لديه «مخزون محدود من العتاد والذخيرة، ولا وجود إلا للقائد ورجاله الذين يقطنون هناك». وعندما وصلت السفن الهولندية إلى قبالة شرق أفريقيا، وجدت عدم استعداد البرتغاليين الذي أتى على ذكره صحيحاً تماماً، فسارعت لاستغلاله.

وكان منصب لينشوتن المتواضع في السلك الديني ستاراً مثالياً لتجسسه في هدوء، وكتب عن أفضل الشهور التي تناسب الرحلات وفقاً لمواسم الرياح الموسمية، والأوقات التي تصل فيها السلع إلى جوا من مختلف أرجاء المحيط الهندي، والكيفية التي يتم بها بيعها بالمزاد، ولكنه اهتم كذلك بالأعراف الاجتماعية، وجمع الكثير من الطرائف ذات الأهمية الجغرافية. ومن أكثر المعلومات التي أوردها إثارة للاهتمام أن بعض العرب اعتادوا على عبور أفريقيا بين أنجولا وسفالة، وقد مر قرنان من الزمان قبل أن يؤكد أي دليل موثق أمر هذه الرحلات.

دفعت روايات لينشوتن وغيره من الرحالة الأوائل بالممولين الهولنديين إلى إرسال أساطيلهم الأولى إلى المحيط الهندي. وحققت الشحنات التي جلبت إلى أمستردام أرباحاً هائلة للغاية، بحيث إن أبناء المدينة قرعوا أجراس كنائسهم ابتهاجاً عندما لاحت السفن العائدة إلى الوطن للعيان. وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يتم عبر قرن من الزمان إلا تعلم القليل حول الكيفية التي يمكن بها لرجال البحر العاديين النجاة من الأسقربوط

وغيره من الأمراض خلال الأشهر العديدة التي يقضونها في البحر ، أو أفضل كيفية يمكن بها للأساطيل التعامل مع الطقس العاصف . وقد عادت السفن الأربع التي يمتلكها كورنيليس دي هوتمان من جاوه في عام 1597 بعدد لايزيد كثيراً عن ثلث بحارتها البالغ عددهم 249 بحاراً، وهي نفسها نسبة البحارة الأحياء الذين عاد بهم فاسكو داجاما إلى نهر التاجوس ، بل إن جاكوب فان نك ، وهو قبطان قدير ، فقد ثلث سفنه في جنوب الأطلسي وفي المحيط الهندي .

وقد تعيّن تحمل هذه المتاعب البالغة ، فكما تحول اقتصاد البرتغال في مستهل القرن السادس عشر ، بعد رحلات فاسكو داجاما ومن أعقبوه ذات التكلفة الباهظة ، كذلك تحول اقتصاد الجمهورية الهولندية في بداية القرن السابع عشر على يد دي هوتمان ومن أبحروا في أعقابه . وكرس ملاك السفن في أمستردام أنفسهم بمزيد من الحزم والإصرار لتقليل مخاطر الرحلات البعيدة المدى ، حيث تمت مضاعفة قواعد السلوك والانضباط في البحر ، الخاصة بالجمهورية الهولندية ، واشتهرت السفن الهولندية بنظافتها . وخضعت كل السفن لمجموعة من القواعد السلوكية ، وكانت الصلوات تتلى والمزامير ترتل مرتين يومياً ، وكل من يتغيب يتم تغريمه .

وسرعان ما أدت عمليات سبر الأغوار التي قامت بها السفن الهولندية والإنجليزية ، إلى أعمال تاريخية في أمستردام ولندن ، حيث أنشئت شركتان متنافستان للهند الشرقية (وكرس الهولنديون ثمانية أضعاف ما استثمره الإنجليز من رأس المال ، وأربعة أضعافه من السفن) ، ومنحت الشركتان امتيازات تكفل لهما مكانة لدى الحكومات بشيء قليل من التمويه . ومنحتا حقوق احتكار وطنية للتجارة في أي مكان يقع بين رأس الرجاء الصالح والمحيط الهادي . وعلى الرغم من أن مديري هاتين الشركتين كانوا أكثر اهتماماً بجني الأرباح منهم بالسلطة ، فإنهم كانوا يعلمون تمام العلم أن اختباراً شاملاً للقوة في مواجهة البرتغال وحاكمها الأعلى الإسباني كان يلوح في الأفق . وكان البرتغاليون يدركون الأمر نفسه بالقدر ذاته من الوضوح ، فقد شنقوا قبطانين هولنديين قبض عليهما راجا كوشين ، وبعث بهما إلى جوا بعد قدومهما إلى ساحل المالبار لشراء الفلفل .

وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد أعطيت قائمة حقوق وواجبات استفزازية، شملت تشييد «الحصون والنقاط القوية» وتجنيد العاملين العسكريين والبحريين، وتوقيع المعاهدات، وخوض غمار الحروب الدفاعية. وعلى الرغم من أن البرتغاليين كانوا في سبيلهم إلى أن يكونوا أول من يقف في خط النار بالمعنى الحرفي، فإن الإنجليز والهولنديين كانوا يدركون أنه بمرور الوقت، فإنه حتى المحيط الهندي لا يعد كبيراً بالقدر الكافي لاستيعاب الطموحات المتعاظمة التي تراودهما معاً. وكان من المؤشرات الدالة على هذا التنافس الوشيك أن ترخيصي الشركتين قد منحا بفاصل عامين بينهما.

غير أن التنافس الإنجليزي-الهولندي كان رهناً بالمستقبل، وتعيّن أولاً رفع قبضة لشبونة المتهالكة عن الأسواق الشرقية. وفي عام 1605 كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد جابت أنحاء الشرق، وصولاً إلى ملجا الواقعة على خط العرض ذاته الذي تقع عليه اليابان، وذلك للاستيلاء على حصن أمبوينا البرتغالي. وهكذا أعلنت التحدي، وتبدد أي وهم في الشرق، حول أن ظهور هؤلاء القادمين الجدد ذوي الشعر الأشقر والحديث الحافل بالتبجح والوعيد، قد يجلب الخلاص من أعمال البرتغاليين الوحشية، فقد برهن الأوربيون الشماليون على أنهم أكثر كفاءة بكثير، ولكنهم ليسوا أقل وحشية. وتمثل معادل أفونسو دي ألبوكيرك بعد قرن من الزمان في الحاكم الهولندي العام جان بيتريز كوين، بل لقد أعرب بعض مواطنيه عن شكواهم من أن فظاعته السادية لم تكن مخالفة للأعراف المسيحية فحسب، وإنما تلحق الضرر بالعمل كذلك.

وفي غضون عشرين عاماً تعرض البرتغاليون للضغوط من كل جانب؛ حيث أغرقت عشرات من سفنهم أو تعرضت للأسر، وفرض الحصار على حصونهم. وفي وقت مبكر يعود إلى عامي 1607 و1608 هوجم حصن موزمبيق الذي لاحظ لينشوتن ضعفه بدقة، من قبل الأساطيل الهولندية التي تقل أفواجاً من الجنود. وسويت البلدة المحيطة بالحصن بالأرض، ولكن المدافعين الذين اختلت النسبة العددية بشدة بينهم وبين المهاجمين، صمدوا في وجه حصارين. وكانت رغبة الهولنديين هي تدمير «محطة الاستراحة» الحيوية هذه بين لشبونة وجوا، وإذ أحبطت جهودهم فقد اكتفوا بمحاولة قطع الطريق على القوافل البرتغالية لدى خروجها من قناة موزمبيق.

وعلى بعد ستة آلاف ميل إلى الشرق هاجم المغامرون الهولنديون الساعون وراء المغانم مستوطنة مكاو المزدهرة على ساحل الصين في عام 1622، ولكنهم ردوا على أعقابهم من قبل مجموعة من العبيد الأفارقة وضعهم البرتغاليون في الحصن[9]. وفي العام ذاته سارع «أسطول الدفاع» الذي يحمل اسماً على غير مسمى، ويقوده الهولندي جاكوب ديديل، على متن السفينة «جود فورتشن» والإنجليزي مايكل جرين، الذي يليه في القيادة على متن السفينة «رويال إكستشينج» بالاتجاه غرباً، بعد غزوة قاما بها في إندونيسيا لقطع الطريق على القافلة السنوية المقبلة من لشبونة إلى جوا، وانقضت القوة الإنجليزية ـ الهولندية على القراقير* البرتغالية قبالة موزمبيق، وهاجمتها بلا رحمة وألحقت بها خسائر كبيرة.

وعلى متن أحد القراقير كان هناك راهب يسوعي يدعى جيرونيمو لوبو، وهو يقدم رواية شاهد عيان للكيفية التي شوهد بها المهاجمون في ضوء القمر، واعتقد في البداية أنهم عرب على متن سفن تجارية عربية. وعندما أطل الفجر نشبت معركة دامت طوال النهار، وكانت الخسائر جسيمة، ويحكي لوبو كيف أنه مزق قميصه ليضمد جراح بحار، بترت ساقه. وفقدت في المعركة ثلاثة قراقير برتغالية؛ اثنان منها جنحا خلال القتال قرب الشاطئ. ولكن المحاولات الهولندية لاقتحام حصن موزمبيق بالهجمات البرية ثبت مجدداً أنها لا طائل فيها.

وشهد عام 1622 اشتباكاً أعظم أثراً بكثير من هذه الاشتباكات الدموية؛ فعند مدخل الخليج العربي قام الإنجليز بدور حاسم في طرد البرتغاليين من ميناء هرمز[10]، الذي كان ساحة الانتصار الأخير العظيم الذي أحرزه ألبوكيرك في عام 1515، وكان حليفهم في هذه المعركة هو الحاكم الفارسي الشاه عباس، وحطم هذا الانتصار حلقة مهمة في سلسلة النقاط الحصينة البرتغالية في المحيط الهندي، وفتح الخليج العربي أمام وكلاء شركة الهند الشرقية. وشكل فقدان هرمز ضربة دامية للشبونة حيث كان هذا الميناء أغنى مصدر لعوائد المكوس في «دولة الهند» البرتغالية.

* القرقور: سفينة شراعية ضخمة.

وعلى الجانب المنتصر، كان لهذا الاقتفاء العدواني للربح التجاري خسائره البشرية؛ حيث كان من بين الخسائر رجل البحر الإنجليزي الشهير وليم بافين، الذي بحث عبثاً قبل سنوات قلائل عن مسلك بحري يفضي إلى الصين، حول شمال أمريكا، وفي غمار هذه العملية اكتشف الجزيرة القطبية التي لاتزال تحمل اسمه. وقد لقي بافين – وهو قبطان في الأسطول الإنجليزي – حتفه في الهجوم الأول على حصن قشم على الجانب المقابل لهرمز عبر المضيق. وسرد طبيب الأسطول في وقت لاحق كيف وقع ذلك: «مضى السيد بافين إلى الشاطئ بأدواته الهندسية لقياس ارتفاع وامتداد سور القلعة من أجل توجيه مدافعه أفضل توجيه ممكن تحقيقاً لإصابة محكمة، ولكن بينما كان عاكفاً على ذلك، أصيب بطلقة صغيرة العيار من القلعة في معدته؛ فانتفض ثلاث مرات ولفظ نفسه الأخير في التو[11]. وكانت تلك حادثة واحدة في حرب استنزاف طويلة».

بل إن جوا تعرضت للتهديد واضطرت السفن التي ألقت مراسيها في مرفئها مراراً وتكراراً إلى الخروج للقتال على الرغم من أن أعداد السفن المتربصة بها تفوقها كثيراً. وقد أرغمها على ذلك حصار إنجليزي-هولندي، وربما كانت تلك هي المرة الأولى التي يخضع فيها أي ميناء عاماً بعد الآخر إلى تكتيك متعمد، قوامه التجويع تجارياً حتى الموت. وعندما كانت الرياح الموسمية تهب من الاتجاه الشمالي الشرقي، وهو الموسم الذي تشحن فيه السفن البرتغالية بكامل حمولتها، وتوشك على بدء رحلتها إلى أوربا، كانت الأساطيل القوية تظهر قبالة جوا، وهناك ترابط منذرة بالخطر متأهبة للقتال، إلى أن تعكس الرياح الموسمية اتجاه هبوبها، ويعجز البرتغاليون عن الخروج من المرفأ، وعندئذ يرحل الإنجليز والهولنديون لمضايقة البرتغاليين في سيلان، ثم يعودون بعد ستة أشهر[12].

وإذ استبد اليأس ببعض القادة البرتغاليين إزاء ما يحدث بمثل هذه السرعة لإمبراطوريتهم فقد عمدوا إلى الرد الوحشي. وكان أشدهم ضراوة هو الأرستقراطي روي فيريرا أندرادي، وهو فارس من طائفة فرسان المسيح. وقد وقع أندرادي في قبضة الإنجليز ذات مرة، وبقي وصف له بين الوثائق، حيث نقرأ: «سيد مهذب، طويل

القامة، داكن البشرة، متجهم الملامح، لا يتحدث كثيراً، ومعنوياته عالية». وقد درج على وضع السيف في أعناق كل الأسرى «من دون أن تأخذه بأحد شفقة، بسبب العمر أو الجنس. . . ومن دون أن يترك وراءه أي شيء تدب الحياة فيه. . . أو حجراً فوق الآخر». وبعد الاستيلاء على ليما، وهو حصن فارسي قرب هرمز، قام بإلحاق الدمار بهذا الحصن، فقضى على السكان والبضائع والدور. وبناء على أوامره دمرت مدينة براميم وقطعت أعناق 2000 فارسي بينهم أطفال كثيرون.

بعد أن فقد البرتغاليون هرمز، كرسوا أنفسهم لمطاردة السفن التجارية الإنجليزية والهولندية في الخليج العربي. وكانت قاعدتهم متمثلة في حصن قوي في البحرين. وخلال إحدى المعارك في عام 1625، شبت النيران في السفينة الإنجليزية «لايون» واحترقت حتى مستوى الماء. وعُرض الناجون منها وعددهم ثمانون شخصاً على روي فيراير أندرادي، فأمر بوضع السيف في رقابهم جميعاً، وكان الرجل الوحيد الذي صدر العفو عنه هو طباخ السفينة؛ ويدعى توماس ونتربورن، إذ تذكر أندرادي أنه كان يطعمه طعاماً جيداً، خلال الوقت الذي أمضاه أسيراً لدى الإنجليز، وتم لف رؤوس الآخرين في أقمشة حريرية وأرسلت «هدية» لأقرب وكيل لشركة الهند الشرقية.

وجرى التفاوض بين الحين والآخر في أوربا، من جانب القوى الثلاث المتنافسة بهدف التوصل إلى الهدنات، ولكن الشركات المرخص لها في المحيط الهندي التزمت هذه الهدنات على مضض شديد. وبالنسبة إلى البرتغاليين لم يكن من الممكن إلا أن تكون هناك نتيجة واحدة، ففي غضون ما لا يزيد كثيراً على خمسين عاماً، كان احتكارهم التجاري فيما وراء رأس الرجاء الصالح قد تهاوى، وتمثلت الضربة النهائية في فقدان سيلان في عام 1658، عندما استولى عليها الهولنديون الذين طالما تطلعوا إليها لإنتاجها الوفير من القرفة ولموقعها الاستراتيجي.

وفي الوقت ذاته كان التجار الإنجليز يدعمون وضعهم في العديد من النقاط على ساحل الهند، ولم يهتم بهذا التطور كثيراً حكام الداخل الأقوياء، على الرغم من أن شركة الهند الشرقية سرعان ما ستبدأ في إرسال جواسيسها إلى بلاطهم. ومن المناطق

التي حصل عليها الإنجليز في يسر جزيرة ومرفأ لم تمتد إليهما يد التطوير، يقعان إلى الشمال من جوا، ويطلق عليهما اسم بومباي. وكان هذا المكان جزءاً من مهر أميرة برتغالية، هي كاثرين براجانزا، عندما زفت إلى تشارلز الثاني، وبعث الملك بـ 400 جندي لاحتلالها، وبحلول الوقت الذي أنجزوا فيه هذه المهمة لم يبق منهم على قيد الحياة إلا سبعة وتسعون جندياً. وسرعان ما وجد أنها غير ذات نفع له، فباعها لشركة الهند الشرقية لقاء 10 جنيهات استرلينية في عام 1668.

وأدخلت كاثرين كذلك إلى محيطها الجديد الصرعة التي كانت سائدة في صفوف الأرستقراطية البرتغالية، والمتمثلة في شرب الشاي الذي كان حتى ذلك الوقت مشروباً لا يعرف الإنجليز عنه الكثير. وقد ألهم الشاعر إدموند وولر[13] بعض الأبيات عنها بعنوان «عن الشاي الذي أوصت به جلالتها»:

لفينوس آسها، ولفويبوس إكليل غاره،
والشاي يفوقهما معاً، وقد منحته ثناءها.
خير المليكات، ندين لها بأفضل النباتات،
لتلك الأمة الجسور، التي يمضي بها الطريق
إلى الأقاليم القصية، حيث تشرق الشمس،
التي نقدِّر، محقين، نتاجها الثري.
الشاي، صديق ربة الفتنة، يعين خيالنا،
ويكبح جماح تلك الأبخرة، التي تغزو الرأس،
ويبقى قصر الروح ذاك شامخاً،
ومؤهلاً ليحَيّي الملكة في عيد ميلادها.

غير أن هذه المشاعر الودية كانت أبعد ما تكون عن ذهن أنطونيو دي ميلو دي كاسترو، نائب الملك في جوا، عندما كتب عن بومباي لملك البرتغال، يقول: «أعترف، ماثلاً عند قدمي جلالتكم، بأن الطاعة التي أدين بها لكم، باعتباري أحد أتباعكم، هي وحدها التي اضطرتني إلى إتيان هذه الفعلة [التخلي عن بومباي] لأنني أتنبأ بالمتاعب الجمة التي سيتعرض لها البرتغاليون من جراء هذه المنطقة المجاورة، وبأن

الهند سنخسرها في اليوم نفسه الذي تستقر الأمة الإنجليزية في بومباي» وستثبت الأيام ذلك. وربما يكون البرتغاليون قد أسدوا خدمة للإنجليز، بتعريفهم بالشاي، ولكن من المؤكد أنهم قد وجهوا إساءة لأنفسهم بالتخلي عن بومباي بهذه البساطة.

تابع مصرفيو لشبونة وتجارها، في فزع واكتئاب هذا التربص الذي لا هوادة فيه بـ «دولة الهند» البرتغالية، من جانب منافسيها. وفي أوائل القرن السابع عشر، كانت أساطيل هائلة تحشد في نهر التاجوس كل ربيع للانطلاق في رحلة الذهاب والإياب المهمة إلى جوا التي تستغرق عادة ستة وثلاثين شهراً، ولكن مع كر سنوات القرن قلّت الأساطيل السنوية وانحسرت أعداد سفنها لتصل إلى عدد محدود من السفن المثقلة بحمولتها. وكانت تحمل بالشكل ذاته في طريق عودتها إلى الوطن، فتتناثر الصناديق على أسطحها، وتشد السلال إلى ألواح الخشب الناتئة من جوانبها.

وكان هناك كذلك ميل لصنع سفن أكبر حجماً وأكثر تعقيداً بحيث تعذر على أطقمها التحكم فيها خلال الطقس العاصف، وغدت حوادث غرق السفن أكثر عدداً، ووقع معظمها قبالة ساحل الناتال، بين رأس الرجاء الصالح وقناة موزمبيق، نتيجة لعدم استعداد السفن ذات الإعداد السيئ والطاقم المحدود للتعامل مع الرياح والتيارات المائية المعاكسة. وكانت هناك قصص رهيبة طبعت في لشبونة تحت عنوان **«تاريخ البحر المأساوي»**، وقرأتها أجيال من البرتغاليين بافتتان ممزوج بالرهبة، وتحدثت عن ضروب المعاناة التي تعرض لها من كتبت لهم النجاة من هذه الكوارث، وكيف أنهم ناضلوا على امتداد الشاطئ الأفريقي الصخري محاولين الوصول إلى سفالة وغيرها من المستعمرات، ولم تفلح إلا قلة محدودة في القيام بذلك.

ومن بين من غرقت سفنهم قرب رأس الرجاء الصالح الراهب اليسوعي الذي ضرب في الآفاق طويلاً جيرونيمو لوبو، وقد حدث له ذلك في عام 1635 بينما كان في طريق عودته إلى لشبونة، ولدى وصوله إلى رحاب الأمان على الشاطئ، ألقى نظرة على الحطام، ويقول بهذا الصدد: «كان الشاطئ الذي رحنا نمعن النظر فيه، مكدساً بثروات الشرق، من توابل، وأقمشة، وأشياء مذهبة، وكميات من الصناديق

والخزائن». ووجد لوبو لنفسه كوخاً يقطنه، وملأه بالأثاث المزخرف الذي جره من حافة الماء، ثم التقطته سفينة مع غيره من الناجين، فمضى تاركاً كل هذا الكنز وراءه»[14].

إنه مشهد يجسد فشل البرتغاليين، فقد بدا حيناً من الدهر أن ثروة نصف العالم في قبضة أيديهم، ولكنهم لم يستطيعوا الإمساك بها؛ ويرجع ذلك في أحد جوانبه إلى الافتقار إلى الثقة بالنفس في اللحظات الحاسمة، وبصفة خاصة عندما غدت البرتغال تحت الحكم الإسباني المرفوض على نحو مرير، وفقدت العديد من أفضل سفنها في الحرب الكارثية التي خاض فيليب الثاني غمارها ضد الإنجليز.

غير أنه حتى من دون تلك النكسة، فإن البرتغال ما كان لها أن تأمل طويلاً في إبعاد كل من الإنجليز والهولنديين؛ فقد كانت قوتهم المشتركة تعادل عدة أمثال قوتها. وفي المقام الأول كان هذا سجالاً بين نظام عتيق، غالباً ما خلط بين البراعة اللفظية والأبهة والقوة، وبين نظامين رأسماليين ناهضين ينشدان تحقيق أهداف تجارية، وكانت الطاقات البرتغالية لاتزال موزعة بين تجارة التوابل والتنصير وفق المذهب الكاثوليكي، أما الإنجليز والهولنديون فكانوا معنيين بتحقيق الأرباح.

وبالنسبة إلى فاسكو داجاما، ومن جاؤوا بعده مباشرة، بدا كل شيء ممكناً، وفي غضون 150 عاماً، تبددت آمالهم على شاطئ التاريخ وحطام الإمبراطورية الغارقة.

الفصل الثالث والثلاثون

هكالفينيون ومستعمرون وقراصنة

إنهم يعرفون أن الرغبة الجامحة في جمع المال هي أصل البلاء بكل صوره؛ فهي وحش هادر، جائع، لا تنقع له غلة، وخليج بلا قاع لا يمتلئ، أو حالة استسقاء متقدمة، حيث يبادر المرء الذي يستبد به العطش إلى تمزيق أمعائه بأكثر مما يروي عطشه.

والتر هاموند ـ عبارة ظاهرة التناقض تبرهن على أن سكان مدغشقر، أو سانت لورنس هم أسعد أهل الأرض في الأمور الدنيوية (1640)

حكمت العلاقات مع الهند ذاتها في نهاية المطاف الطموح الأوربي في منطقة المحيط الهندي بأسرها؛ فقد كان شبه القارة الهندية على الدوام النقطة المحورية، ومفتاح القوة. وكما يعبِّر لورد كيرزون[1] في وقت لاحق: «إن امتلاك الهند هو بمنزلة شارة السيادة التي لا سبيل إلى التخلي عنها في النصف الشرقي من الكرة الأرضية». غير أن الحصول على الشارة ظل طويلاً بعيداً عن مطال قدرات أوربا، وحتى لو حدث انقلاب في الأدوار في شبه جزيرة أيبيريا في عصر الاستكشاف، مع قيام البابا بمنح النصف الشرقي من العالم لإسبانيا القوية، لما تمكنت من غزو الهند واستعمارها، على نحو ما فعلت مع الأمريكتين. فقد كان حرياً بملوك المغول والهندوس أن يبرهنوا على أنهم أقل قابلية للإصابة بالرهبة، وأكثر عناداً بكثير من مونتزوما في المكسيك أو أتاهوالبا في بيرو.

وفي وقت لاحق، بعد الثورة الصناعية، تم تأكيد السلطة الأوربية على الهند وبعض الأجزاء الأخرى من آسيا، وكذلك أفريقيا بأسرها تقريباً، والفارق الجوهري عما حدث في الأمريكتين هو أنه بدلاً من الاستعمار الدائم، وسيطرة إحدى الثقافتين على الأخرى، فإن هذه الهيمنة ستأخذ بشكل عام شكل النزعة الاستعمارية العابرة.

وعلى الرغم من ذلك فإن الأوربيين كانوا قد ثبتوا أقدامهم بشكل دائم، حسبما بدا في العديد من النقاط البارزة في مختلف أرجاء المحيط الهندي. ففيما عدا جيب جوا،

فإن أقدم مستعمرة ذات حجم يعتد به، كانت مجموعة من مزارع «البرازو» على امتداد وادي الزامبيزي[2]، غير أن صلاتها بثقافة البيض كانت محدودة، على الرغم من أن تيتي كبرى مدن الداخل كانت بها كنيسة قصد بها أن تكون كاتدرائية. وقد كانت «زامبيزيا» بصورة جوهرية ثقافة أفريقية هجينة تأثرت بالتجار الهندوس الذين هاجروا من جوا. وقد بقيت صامدة من خلال العلاقات التكافلية مع الممالك المحلية المحيطة بها. وبالمقابل فإن مستعمرة أخرى أكثر اتساماً بالطابع الأوربي، سرعان ما سيتم إنشاؤها في الجنوب عند طرف القارة الأفريقية.

وعلى الرغم من أن بعض البرتغاليين قد لاحظوا الشبه بين رأس الرجاء الصالح وأوربا، في المناخ والمشاهد الطبيعية، فإن الرحيل في الربيع عن لشبونة قد وصل بهم دائماً على مرأى من قمة جبل "تيبل ماونتن"، التي يبلغ ارتفاعها 3500 قدم خلال منتصف الشتاء في نصف الكرة الجنوبي. وكانت الـ 1000 ميل التالية تمتد بمحاذاة ساحل أجرد، مع وجود تيارات بحرية معاكسة وشاطئ صخري لقيت قراقير عديدة نهايتها عليه. وهكذا كان يسعدهم على الدوام الانطلاق مسرعين إلى ما وراء الرأس للوصول إلى موزمبيق في الوقت المناسب للحاق بالرياح الموسمية التي تحملهم إلى الهند. وفي رحلة العودة فإن رغبتهم الوحيدة كانت العودة إلى المحيط الاطلسي والإبحار شمالاً، في إطار المرحلة الأخيرة نحو الوطن. وبين الحين والآخر كان بعض السفن البرتغالية يلقي مراسيه في مرفأ خليج تيبل، وقد بنيت أكواخ قليلة على الشاطئ، ولكن لشبونة لم تعلن بصورة جدية قط ملكيتها للمكان.

وفي أوائل القرن السابع عشر بدأت السفن في المرور بالرأس في معظم مواسم العام. وكان الهولنديون بشكل خاص أقل اعتماداً على الرياح الموسمية في المحيط الهندي، حيث إن الإقليم الذي تحقق فيه شركتهم التجارية معظم أرباحها، كان في جنوب شرق آسيا. وللوصول إليه فإن سفن شركة الهند الشرقية تبحر مباشرة عبر المحيط مستغلة الرياح التجارية التي تهب جنوب خط الاستواء، ولذا بدأ القباطنة الهولنديون التعود على إلقاء مراسي سفنهم في خليج تيبل. وتركوا رسائل في زجاجات مربوطة في أعمدة لمواطنيهم. ولم يكن أحد يقطن هذا الموضع، باستثناء

الرعاة الخويخوي ذوي البشرة الشاحبة (والذين كان الهولنديون يطلقون عليهم بصورة ساخرة لقب «الهوتنتوت» تقليداً لإيقاع لغتهم)[3] .

وفي بداية القرن السابع عشر، ظهر اهتمام أكبر بإمكانيات الرأس، وكتب القبطان جوريس فان سبيلبرجن يقول إنه «صحي ومعتدل» وأمكن زراعة جميع أنواع المحاصيل فيه، وكانت الغزلان ترعى في الوديان الجميلة. وفي عام 1611 وصل تاجر إنجليزي يدعى توماس ألدورث، وهو في طريقه إلى الهند، إلى القول إنه «لم ير أرضاً أفضل في حياته». ودعا إلى تأسيس مستعمرة، وضرورة نقل 100 مجرم مدان إلى الشاطئ كل عام، مع مدافع للدفاع عن حصن فيها، ولم تكترث شركة الهند الشرقية لهذه الفكرة.

في عام 1647 أدت عاصفة إلى غرق السفينة الهولندية «هارلم» في خليج تيبل، وظل الناجون الستون مشردين على الشاطئ، طوال ما يقرب من عام، وبحلول الوقت الذي التقطتهم فيه سفينة أخرى تابعة للشركة، كانوا قد شيدوا مساكن يمكن الدفاع عنها، وأحبوا المكان، وبدا «الهوتنتوت» ودودين، والمحاصيل تنمو بسهولة، وكان الطقس جيداً. وأصغى مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية في أمستردام، وهم يمعنون التفكير في الأوصاف التي أدلى بها البحارة، حيث إنهم بدورهم كانوا قد وصلوا إلى النظر إلى الرأس على أنه نقطة استراتيجية قد يحاول أعداؤهم البرتغاليون والإسبان احتلالها لمضايقة السفن الهولندية المارة، وهي نقطة يمكن من الناحية العملية أن تمسك بمفاتيح المحيط الهندي.

وتحركت الشركة بسرعة بمعايير ذلك الوقت، وفي نيسان/ إبريل 1652 أرست على الشاطئ مجموعة مؤلفة من تسعين حرفياً، بقيادة جان فان رايبك، مع أوامر ببناء حصن قوي وبدء زراعة المحاصيل. وتم استملاك ستة آلاف فدان بالاستعانة بسور من أشجار اللوز لإبعاد السكان المحليين الفضوليين. وتمثل الجانب غير المواتي من شبه جزيرة رأس الرجاء الصالح في اتصالها بالبر الأفريقي، وبامتداد أفريقيا الهائل الحافل بالمخاطر، فقد كانت الجزر أكثر أمناً، على نحو ما عرف البرتغاليون حق المعرفة. وهكذا طرحت فكرة تحويل شبه الجزيرة إلى جزيرة، عن طريق حفر قناة طولها ثمانية

أميال من خليج تيبل إلى خليج فولز الأكثر إيغالاً باتجاه الجنوب، لكن تم التخلي عن هذا المشروع باعتباره مكلفاً أكثر مما ينبغي.

وأمضى فان رايبك، وهو طبيب يعمل على متن سفينة، عقداً من الزمن في إيجاد نواة ما قدر له أن يعرف باسم «كابشتاد» كيب تاون. واختار عدد محدود من الرجال - الذين انتهت مدة سريان عقودهم مع الشركة - البقاء باعتبارهم مواطنين أحراراً وشرعت نساؤهم في القدوم من هولندا للانضمام إليهم. وساورت الأعضاء السبعة عشر لمجلس إدارة شركة الهند الشرقية الهولندية مشاعر متضاربة حيال هذا كله، حيث كانوا لايزالون ينظرون إلى خليج تيبل باعتباره مجرد محطة يمكن لسفنهم التردد عليها للتزود بالماء والمؤن، أو حيث يمكن إجراء الإصلاحات العاجلة للسفن. ولم يرغبوا قط في تحمل المسؤولية عن مستعمرة في رأس الرجاء الصالح، حيث إنها لا تقدم مجالاً كبيراً للتجارة أو الربح، وقيل للحكام الأوائل إن عليهم أن يثبطوا همة من يفكرون في الاستيطان.

وقد تأثرت الشركة في موقفها هذا بالتكلفة المثيرة للضيق التي تكبدتها في جزيرة موريشوس، حيث تم احتلال هذا المركز المتقدم في المحيط الهندي في وقت مبكر، يعود إلى عام 1598؛ لأن هذا المرفأ الرائع أتاح ملاذاً في البحار الموحشة الواقعة إلى الشرق من مدغشقر. وفضلاً عن ذلك، فإن قصب السكر الذي تم جلبه من جاوه، نما بصورة جيدة هناك، وكان طائر الدودو مصدراً جيداً للحم (إلى أن انقرض في ثمانينيات القرن السابع عشر). وعلى الرغم من ذلك كله فإن الجزيرة لم ينظر إليها بعين الرضا، من قبل مديري شركة الهند الشرقية الهولندية الذين أبدوا اهتماماً كبيراً بعنصر التكلفة؛ فالجزيرة لم تنتج شيئاً يمكن بيعه، وسيتم التخلي عن موريشوس بعد ما يزيد قليلاً على القرن.

غير أنه كانت هناك صعوبة في اتخاذ موقف صارم بأكثر مما ينبغي حيال رأس الرجاء الصالح، في وقت كانت الجمهورية الهولندية في أوج ازدهارها، في العصر الذي كان رمبرانت، والعديد من الفنانين الأقل قدراً، يكسبون عيشهم عن طريق رسم صور لتجار أمستردام الراضين عن أنفسهم، والذين ازدادوا ثراء بفعل بيع التوابل والحرير والخزف الصيني[4]. وازدهرت أحوال شركة الهند الشرقية الهولندية، وتوسعت

مستعمرة رأس الرجاء الصالح على نحو مرض تماماً، وشعر سكانها بالأمان من الهجمات من قبل أمم أخرى، حتى من قبل الإنجليز، الذين خاض الهولنديون غمار ثلاث حروب بحرية ضدهم في النصف الثاني من القرن السابع عشر. وكان المكان يحظى بدفاع جيد؛ حيث إن سفينة أو سفينتين جيدتي التسليح كانتا على الدوام ترسوان في الخليج، وهما في طريقهما إلى الشرق أو خلال العودة منه. كما كانت هناك قلعة حاميتها من حملة البنادق، على الرغم من أنهم كانوا يتلقون أجوراً لا يحسدون عليها، وكان تدريبهم سيئاً.

ودخل عنصر جديد في حياة سكان المستعمرة في عام 1685، مع وصول 180 من الفرنسيين الهيجونوت هاربين من الاضطهاد في وطنهم، وسرعان ما تبعهم المزيد منهم. وكانت معتقداتهم الدينية كالفينية على نحو مناسب. وفضلاً عن ذلك فقد كانوا من المزارعين المجتهدين الذين غرسوا الكروم، وكانوا على استعداد للقيام بالأعمال اليدوية. وخلال حكم سيمون فان ديرشتيل للمستعمرة، الذي دام عقدين من الزمان (1679 ـ 1699)، تشكلت مستعمرة رأس الرجاء الصالح باعتبارها شيئاً يفوق مجرد مرسى للتزود بالمؤن والماء. وفي عام 1720 بلغ عدد السكان البيض 2000 نسمة، مع وجود عدد مماثل من العبيد السود.

وإذا كان ما قدر له أن يصبح مستعمرة رأس الرجاء الصالح قد نما، على الرغم من النوايا الأولية التي اعتزمتها شركة الهند الشرقية الهولندية، فإن الاستيلاء على سيلان كان على الدوام هدفاً مقصوداً، فجزيرة القرفة والأحجار شبه الكريمة، المتدلية كاللؤلؤة من شبه القارة، أدخلت بهجة بالغة على نفوس مديري الشركة السبعة عشر، إلى حد أنهم فكروا في أن يطلقوا عليها اسم «هولندا الجديدة» (وذلك بعد استيلاء الإنجليز في عام 1664 على المستعمرة الأصلية التي حملت ذلك الاسم في الأمريكتين).

وقد تم الفوز بسيلان بتكلفة باهظة، حيث لم يجد الهولنديون أنفسهم في مواجهة مع المستوطنين البرتغاليين وحدهم، وإنما في مواجهة مع السكان الأصليين كذلك، وقد أسر السنهاليون أكثر من 300 جندي هولندي، ومضوا بهم إلى كاندي (كندر) باعتبارهم رهائن، وقتل القائد أدريان فان ديرشتيل وأرسل رأسه إلى رفاقه عند

الساحل. وتكشف الوثائق النقاب عن أن الهولنديين أرادوا طوال الوقت السيطرة على الجزيرة بأسرها، على الرغم من أن الحاكم يان ماتسوكير قد أبلغ راجا سنها ملك كاندي (كندر) في العام 1646 بقوله: «لم يكن توقعاً للكثير من الربح أن قمنا لأول مرة بإحضار قواتنا إلى هذه الجزيرة، وإنما رغبة منا في أن نسدي خدمة لجلالتكم فحسب». وتوضح رسالة بعث بها مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية، قبل ذلك بسبع سنوات، إلى الحاكم العام أنطونيو فان ديمان أن السنهاليين في حقيقة الأمر لم يكونوا إلا مخلب قط في الصراع بين القوتين الاستعماريتين. «لقد آن الأوان لطرد البرتغاليين من نقاطهم الحصينة، وحرمانهم من تفوقهم في جزر الهند الشرقية، والحلول محلهم. ويبدو الوقت الحالي أكثر ملاءمة لتحقيق هذا». وقبيل كتابة هذه الرسالة كان فان ديمان قد بدأ بغزو شامل لسيلان، بتشجيع من راجا سنها الذي كان في ذلك الوقت يعتقد أن طرد البرتغاليين هو أهون الشرّين.

وجرى خوض غمار معارك يائسة عديدة، وعزز البرتغاليون صفوفهم بعبيد سود، وفي إحدى المواجهات كان هناك 300 «كافر» على الأقل. واستخدم الهولنديون السنهاليين كعناصر دعم لصفوفهم، ووقعت مواجهة حاسمة في جنوب الجزيرة في آذار/ مارس 1640 للسيطرة على غالي الميناء القديم الذي زارته الأساطيل الصينية قبل ثلاثة قرون. وألقى القادة الهولنديون بـ700 رجل في أتون المعركة، قتل منهم 100 رجل وجرح 400، قبل أن يرفع البرتغاليون راية الاستسلام البيضاء على الحصن، وأسر مئات من البرتغاليين وذويهم وعبيدهم، وقدر لهم أن يتم نقلهم أكثر من ألفي ميل إلى باتافيا، ولكن الكثيرين منهم لقوا حتفهم في الطريق.

شعر الإنجليز بنذر الخطر بالفعل حيال عمليات الاستيلاء هذه التي يقوم بها من كانوا حلفاء لهم فترة من الزمن، والذين كانوا يلقبونهم بـ«الخبثاء». وعندما استولى الهولنديون على العديد من الحصون البرتغالية في المالبار، فإنهم كذلك تدخلوا بعمق في التجارة الإنجليزية في جنوب الهند. فبعثت المحطة التجارية الرئيسية في سورات بتقرير إلى لندن مفاده «يسود الهولنديون الوقحون كل الأماكن، ويظهرون أنفسهم بالفعل بمظهر ملوك البحار الهندية»، أما بالنسبة إلى البرتغاليين فقد أمسوا في «أكثر الورطات بؤساً».

وجاءت النهاية عملياً في سيلان عندما سقطت كولومبو في قبضة 2000 جندي هولندي، بعد حصار دام سبعة أشهر. وكان البرتغاليون المحاصرون قد ردوا بشجاعة تنبع من التعصب على وحشية محاصريهم الذين ارتكبوا العديد من الفظائع، أملاً في تحطيم إرادة المقاومة في نفوسهم. وردّوا النساء والأطفال المتضورين جوعاً، والذين حاولوا الهرب من الحصار، على أعقابهم؛ الأمر الذي أضاف المزيد من الضغوط على آخر ما بقي للمحاصرين من المؤن. وفي نهاية المطاف خرج عدد محدود من الرجال متعثرين في مشيتهم ليعلنوا استسلامهم. ولم يكن المنتصرون ممن يعرفون الصفح، وعندما اكتشفوا أن هولندياً كان يعد خائناً قد لقي حتفه بالفعل، بحثوا عن قبره وأخرجوا جثته وشنقوها.

تمثل ما ورثه الهولنديون في جزيرة وصلت معنوياتها إلى الحضيض، وأوشكت على أن تدمر تماماً من الناحية الاقتصادية، فقد خلت حقول الأرز من مزارعيها، وتحطمت السدود والمستودعات القديمة، وانهارت نظم الري، وأخليت القرى من ساكنيها، ومضت قطعان من الفيلة البرية تجوب الطرقات. كما ترك البرتغاليون وراءهم تراثاً دينياً؛ فالعديد من البوذيين السابقين في المناطق الساحلية كانوا ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم من معتنقي شكل بدائي من أشكال الكاثوليكية (كانوا يعرفون كيفية رسم الصليب ويرتلون صلاة أو صلاتين) وفي وقت لاحق أحبطت محاولات الكنيسة الهولندية الإصلاحية لتأكيد الهيمنة الدينية في سيلان بصورة مستمرة، على أيدي مجموعات من المبشرين الكاثوليك المهجنين الذين أقبلوا على الجزيرة من جوا. وفضلاً عن ذلك، وجد الهولنديون أنفسهم في صراع مع الكهنة البوذيين.

وبذل حكام عامون متتابعون قصارى جهودهم لإحياء التجارة والزراعة، وكان الأمل معلقاً على جعل سيلان رمزاً للمشروع القومي، يفوق الجهود التي يبذلها الإنجليز في الهند ذاتها. وقبل كل شيء كانت الحاجة ماسة لجمع لحاء القرفة وتصديره، وهو من التوابل الواعدة بفوائد كبيرة في أوربا. وحيث كان هناك الكثير من العمل يتعين إنجازه؛ فقد تم استيراد عبيد من التاميل من ساحل الكوروماندل الواقع جنوبي الهند، ودمغهم بشعار شركة الهند الشرقية الهولندية، ثم تشغيلهم إلى أن يسقطوا موتى من فرط الإعياء(5).

جمع الهولنديون بين الصرامة والكفاءة الملحوظة، وفي غضون عامين من سيطرتهم على الجزيرة سيطرة كاملة، تمكنوا من مضاعفة صادرات القرفة إلى أمستردام لتصل إلى 515 ألف رطل، وبعد ذلك بأربع سنوات تمت زيادتها لتصل إلى مليون وخمسمئة ألف رطل، وزادت الأرباح لأن القرفة راجت في دوائر الأثرياء والميسورين في أوربا، بسبب ما عرف عن تأثيرها في طرد الغازات من الأمعاء. وتضاعفت الأسعار في أسواق أمستردام تقريباً في الأعوام 1654 ـ 1664، من 1.9 جيلدر للرطل إلى 3.6 جيلدر للرطل. وهكذا ارتفعت صادرات سيلان من القرفة بمعدل أربعة أمثال في ذلك الوقت القصير.

ومما أثار الضيق أن الهولنديين الذين جرى توطينهم كحرفيين ومزارعين، سرعان ما برهنوا على محدودية قيمتهم، بحيث إن الآمال التي علقت على تحويل سيلان إلى مستعمرة بيضاء بدأت في التعثر. وأعرب الحاكم العام الجديد ريكلوف فان جوين عن شكواه في رسالة إلى أمستردام في عام 1663، من أن «معظم مستعمرينا كانوا في السابق جنوداً أو بحارة، وبالتالي فهم على جانب محدود من التعليم، ولا يتقنون أي حرفة، ولا يصلحون إلا لافتتاح الحانات وبيع الخمر . . . ينبغي علينا أن نجعل سيلان معتمدة على ذاتها».

ولكن لم يقدر لذلك أن يحدث؛ فقد كان عدد محدود من سكان المدن على استعداد لزراعة الأرض، أو الانغماس في أي لون آخر من ألوان العمل الشريف. وفضلاً عن ذلك، ففي بداية القرن الثامن عشر تراجعت نسبة الهولنديين في صفوفهم، وتزايد تأثرهم بمجتمع العبيد الذي يعيشون فيه. فأصبحت بعض الرقصات تؤدى على إيقاعات أفريقية، ومنها رقصات «كافرينا» و«تشيكوتي» و«بايلا»، وأطلق على إحدى الرقصات اسم «موزمبيق». كما تأقلم المستوطنون الجدد مع الطريقة البرتغالية في اختيار العرائس من بين نساء السكان السنهاليين المحليين، وكذلك اتخذوا زوجات من المهجنات اللواتي قمن بتربية أطفالهن على الحديث بالعامية البرتغالية، ولم يكن هناك الكثير من البدائل، على الرغم من استياء رجال الدين الكالفينيين، فقلة من النساء البيضاوات هن اللواتي أقبلن من هولندا على هذه الجزيرة الاستوائية النائية.

أدى التزاوج داخل جزيرة سيلان إلى اختلاف حاد بين بنيتها الاجتماعية والبنية المناظرة في مستعمرة رأس الرجاء الصالح التي تقع على بعد ثلثي الطريق إلى الهند، مقوماً بالأميال البحرية، ولكن بصفة عامة أقل من نصف المسافة، بحسب وقت إنجاز الرحلة. وكانت إدارة هاتين الجزيرتين تتم وفقاً للقانون الروماني - الهولندي، ولكن في بيئتين متباينتين. وعلى الرغم من أن شركة الهند الشرقية الهولندية كانت بحاجة إلى خليج تيبل، كمحطة «إنعاش» للسفن المبحرة إلى جزر الهند الشرقية، والسفن القادمة منها، فإن سكان رأس الرجاء الصالح لم يشعروا قط بأنهم هم أنفسهم ينتمون إلى الشرق. وحتى أولئك الذين لم تكن لديهم فرصة أو رغبة تذكر في العودة إلى أوربا احتفظوا بالكثير من جوانب ثقافة وطنهم، وأصبحت كيب تاون مكاناً عالمياً إلى حد كبير بحلول منتصف القرن الثامن عشر.

وبالمقابل فإن قلة من الزوار ارتادت كولمبو عاصمة سيلان، ومال من قاموا بزيارتها إلى انتقادها؛ فقد كانت المدارس بائسة، والكنائس مهملة، والمجتمع شبه الأوربي يبدو غارقاً في الشراب والخطيئة. وفي محاولة بلا طائل للفصل بين الأعراق والأديان، صدر مرسوم بأن أي امرأة مسيحية ترتبط برجل «وثني» ينبغي أن تجلد إلى أن يتدفق الدم من جسمها، وتدمغ بميسم، العار ثم تقيد بالأصفاد مدى الحياة ويستعبد أبناؤها.

ومع ذلك ففي كل عام كانت سيلان تتحول إلى ملتقى للأساطيل العائدة إلى الوطن، والمؤلفة من سفن شركة الهند الشرقية الهولندية، وعندما تتيح الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ذلك، كانت هذه السفن تتجمع في غالي قادمة من موان بعيدة، مثقلة بحمولاتها من التوابل والموسلين والحرير، وكان من المألوف أن تبدأ الرحلة الطويلة إلى الوطن في عيد الميلاد، بعد أن يصلي القبطان في كنيسة غالي الكالفينية. ولم تكن العواصف وحدها هي التي يخشونها، وإنما هم في زمن الحرب - وكانت الحال كذلك غالباً - يواجهون احتمال الهجوم من جانب المغامرين الساعين وراء الغنائم في المياه المحيطة بمدغشقر، والتي تقع في الطريق بين سيلان ورأس الرجاء الصالح.

وتابع الهولنديون على الدوام بعين يقظة الأنشطة التي تجري في مدغشقر، والتي تقوم بها القوى الأوربية الأخرى، ذلك أن هذه الجزيرة الكبرى تحظى بقيمة استراتيجية

واضحة. ومع ذلك فإنه بعد الهجمات الأولى على السكان الذين لم تساورهم الريبة، والتي قام بها ألبوكيرك وغيره من البرتغاليين، فإن مدغشقر تم «تجاوزها» بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فلم يكن بها ذهب ولا فيلة، وبالتالي لم يكن بها عاج ولا توابل، وقد شرعت إمكانية الجزيرة كمصدر للعبيد في الظهور للعيان.

غير أنه قبل تسع سنوات من وصول فان ريبك إلى رأس الرجاء الصالح، كان الفرنسيون قد أسسوا مستعمرة في الطرف الجنوبي من مدغشقر. وقد صدرت الأوامر بمشروع بناء تلك الإمبراطورية في عام 1642 من الكاردينال ريشيليو رئيس وزراء لويس الثالث عشر، قبيل وفاته، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن فرنسا ينبغي ألا تتأخر في استخدام قوتها في الشرق، وبدت مدغشقر مناسبة لتكون نقطة وثوب إلى الهند. وأطلق على المستعمرة اسم «حصن ولي العهد» تكريماً للويس الرابع عشر، الذي كان طفلاً صغيراً، في ذلك الوقت، والذي سيعلن رسمياً في وقت لاحق ضم مدغشقر (وهي تفوق فرنسا مساحة) باعتبارها جزءاً من إمبراطوريته. والآن باتت هناك أربع قوى أوربية تتنافس بشكل حاد إلى الشرق من رأس الرجاء الصالح؛ وهي البرتغال وهولندا وإنجلترا وفرنسا.

لم يكن شعور ريشيليو بضرورة التحرك السريع فيما يتعلق بـ «الجزيرة الكبرى» في غير موضعه، ذلك أنه في آذار/ مارس 1645، وقبيل تأسيس «حصن ولي العهد» مباشرة، كانت مجموعة مؤلفة من 140 من المتطهرين الإنجليز (أتباع المذهب البيوريتاني) قد رست في خليج سانت أوجستين، الواقع في جنوب الجزيرة، وقد اعتزموا البدء بإنشاء مستعمرة كتلك التي أسسها الآباء الحجاج قبل ربع قرن في فرجينيا. وقد شجع هذه الفكرة والتر هاموند، وهو طبيب يعمل على متن إحدى السفن، وقد توقف في الجزيرة عدة مرات خلال عمله في خدمة شركة الهند الشرقية الإنجليزية. وقد زعم أن سكانها - وهم أسعد أهل الأرض «في الأمور الدنيوية» - سوف يرحبون بالمستعمرين. وأشار في كتاب صدر في عام 1640، إلى «الغرس المأمول فيه والمناسب لمستعمرة هناك، في ضوء خصوبة الأرض، واعتدال الهواء، وإمداد السفن الإنجليزية بالمؤن والماء».

وجادل هاموند الذي كتب قبل عامين من مبادرة ريشيليو، بأنه: «ما من أمير مسيحي» يمكنه الادعاء بحق له في مدغشقر «وملك إسبانيا منهمك في كثير مما يشغله، بحيث لا يمكنه التصدي لشعبنا هناك، حيث يمكن لنا الاستمتاع بالثمار الأولى من حصاد وفير، وهو أمر أفضل من خيرات أمريكا». وقد عكس هذا الزعم اعتقاداً كان شائعاً في ذلك الوقت، مفاده أن الإسبان الذين كانوا مايزالون يحكمون البرتغال يحكمون بقبضة بالغة القوة على العالم الجديد، بحيث لا يمكن إخراجهم منه. كما كان ذلك الوقت أوج ازدهار أحوال التجار الإنجليز المغامرين الذين كانوا يحلمون بإقامة مستعمرات على امتداد أرجاء العالم، ومنهم رجال مثل سير وليم كورتن، الذي أنزل 1850 مستعمراً على شاطئ بربادوس في عام 1627، ولم يحبط إلا موته وحده مشروعاً مماثلاً في مدغشقر. وشجع كتاب **«اليوتوبيا»** لتوماس مور، وكتاب **«أتلانتس الجديدة»** لسير فرانسيس بيكون حلم إقامة مجتمعات مثالية بعيدة عن أطماع أوربا وصراعاتها.

ونشر تاجر يدعى ريتشارد بوثباي في عام 1646 تصوره عن مشروع مدغشقر، وجاء هذا التصور على نحو أكثر بريقاً من كتاب هاموند. وفي ذلك الوقت كان المتطهرون قد وصلوا بالفعل، ولكن الوقت كان أكثر تبكيراً من أن يتيح معرفة ما صار إليه أمرهم. وتنبأ بوثباي بأن مدغشقر ستتجاوز كل المزارع الأخرى في أمريكا أو أي مكان آخر. ولكن المستعمرين التعساء تعلموا بالفعل ما يخالف ذلك، فلم تكن الأرض خصبة في المنطقة التي أنزلتهم السفن إليها، وكان السكان المحليون أبعد الناس عن إبداء المودة، بعد أن درجوا على الربط بين الأوربيين والاتجار بالرقيق. وحوصر المستعمرون وراء أسوارهم إلى أن بدؤوا في الاحتضار من جراء نفاد المؤن.

لم يقدر إلا لاثني عشر شخصاً من أصل 140 شخصاً، العودة إلى إنجلترا، وتم إنقاذ عدد محدود للغاية ونقلهم إلى الهند، وفي عام 1647 حملت سفينة تدعى «صن» ثلاث نساء وواعظاً إلى موريشوس. وكتب أحد الناجين ويدعى باول والدجريف رداً مريراً على الكتب التي صورت مدغشقر باعتبارها «جنة حقيقية على الأرض» قائلاً إن هاموند كان من الأفضل له أن يلزم عمله كجراح(6).

وبقي «حصن ولي العهد» وقتاً أطول من مستعمرة المتطهرين، وتكبد خسائر في الأرواح أعلى كثيراً، فقد أرسل إليه 4000 فرنسي على الأقل، ما بين مستوطنين وجنود، قبل أن يتم التخلي عنه في نهاية المطاف في عام 1674، ولم يعد منه إلا القلائل؛ حيث مات الكثيرون من جراء الإصابة بالأمراض، وقتل آخرون في صدامات مع الجماعات المحلية. وبدعم مطرد من الوطن، كان يمكن للمستعمرة أن تتاح لها فرصة أفضل، ولكن الأعوام كان يمكن أن تنقضي من دون وصول أي سفينة فرنسية. وسحبت بقية الحامية إلى جزيرة ريونيون (وكانت تسمى وقتذاك جزيرة بوربون) وإلى بوندشيري، وهي محطة فرنسا التجارية الرئيسية في الهند. وبعد عشرين عاماً زار قبطان هولندي «حصن ولي العهد» فوجده تحت حكم «الملك صمويل»، وهو قرصان من جزر المارتنيك في الهند الغربية. وقد سيطر صمويل الذي قاد عصابة مؤلفة من عشرين من البيض الخارجين على القانون و300 رجل من المليشيا المحلية وأسطولاً من الزوارق المزودة بالهياكل الخشبية الخارجية، على مساحة ممتدة حتى ساحل مدغشقر الجنوبي.

ولم يُقم الهولنديون مستعمرة في مدغشقر، ولكنهم اشتروا عبيداً من هناك لتشغيلهم في المزارع التي يملكونها في موريشوس، واستغلت الجزيرة في وقت لاحق كمصدر لليد العاملة التي ترسل إلى رأس الرجاء الصالح. وقد كانوا كذلك أول من أدرك الصلة العرقية التي تربط الجزيرة بإندونيسيا، وذلك من التماثل بين اللغات المستخدمة في ممتلكاتهم على الجانب الشرقي من المحيط الهندي وتلك التي تستخدمها النخبة المالاجاشية، وفي الكتلة الجبلية المركزية، التي ترتفع فيها الجبال إلى ما يزيد على 6000 قدم، حيث يتمركز الشعب الإندونيسي، والمعروف باسم الهوفا، ممارساً سلطته على جماعات أصغر وأقل عدداً.

وعلى مر القرون اكتسب معظم سكان الجزيرة لونهم من خلال امتزاجهم بالأفارقة، وبصفة خاصة على امتداد الساحل الغربي الذي لا يبعد إلا مسيرة يومين بالبحر عن موزمبيق. وفي عصور سابقة كان الواق واقيون قد جلبوا العبيد للعمل من أجلهم. وفي وقت لاحق استورد التجار العرب الأفارقة إلى التجمعات السكنية الواقعة في

الطرف الشمالي من الجزيرة. وكانت هناك في الأراضي الخفيضة مستعمرات عديدة من السود الهاربين المعروفين باسم «ذوي البشرة الكستنائية». وفي أواخر القرن السابع عشر أصبحت مدغشقر مصدراً معروفاً للعبيد الذين يرسلون إلى مزارع أمريكا. وجلب بعضهم إلى الثكنات الساحلية من موزمبيق في مراكب صغيرة، وأسر آخرون خلال غارات شنت على جزر القمر القريبة. وكان تجار العبيد يدفعون الثمن في شكل بنادق وخلاخيل وقماش وقضبان حديدية، وبراندي، ثم يشحنون مشترياتهم، مروراً حول رأس الرجاء الصالح. وكانت السفن الإنجليزية تنشط في ممارسة هذه التجارة على نحو كبير؛ بحيث إن ثماني منها تلقي مراسيها قبالة مصدر واحد لشراء العبيد، فقد كان العبيد المالاجاشيون أرخص كثيراً من عبيد غينيا، ذلك أن المنافسة المحتدمة أدت إلى ارتفاع الأسعار. وقد جاءت أقلية مهمة من العاملين في المزارع في بربادوسا وجزر الكاريبي المجاورة من مدغشقر، بينما شحن آخرون إلى جمايكا.

وعندما كانت الفرصة تتاح لمهاجمة سفينة تجارية تبحر وحيدة مارة بمدغشقر، كان بعض تجار العبيد يتعرضون لإغواء السرقة والسطو في أعالي البحار، ويسعون وراء طريدتهم في تنافس محتدم مع القراصنة قاطعي الرقاب، الذين كانوا قد هاجروا إلى المحيط الهندي من البحر الكاريبي الأكثر ازدحاماً. وسرعان ما اشتهرت مدغشقر بأنها أحدث ملاذ للقراصنة. وشاعت أنباء الحياة المترفة - ذات الطابع الرومانسي - التي يعيشها هؤلاء المغامرون، فوصلت إلى أوربا، فأحيت الوهم الذي روج له هاموند أصلاً حول أن الجزيرة هي فردوس استوائي. ومن المؤكد أن خط الساحل الذي تحيطه الصخور والشعب المرجانية، كان مخبأ يلوذ به جوابو آفاق البحر المنتمون إلى أمم عديدة. وكانت إحدى الجزر القريبة من الشاطئ، وهي جزيرة سانت ماري ملتقى أثيراً لديهم.

بدأ القراصنة الذين يتخذون مدغشقر مقراً لهم، في المغامرة بالإبحار شمالاً، حتى البحر الأحمر لمطاردة الملاحة التجارية، على الرغم من أن مشكلتهم تمثلت في المكان الذي يبيعون فيه غنائمهم، من دون المغامرة بالتعرض لإلقاء القبض عليهم. وعادة ما كان خير ما يأملون فيه هو زيارة من بعض الضالعين معهم من ذوي الجرأة، الذين

يبحرون في هيئة سفينة تجارية شريفة، ويحملون الأسلحة والذخيرة والملابس والشراب فيقدمونها لقاء الحصول على الكنز المنهوب. وجاء عدد محدود من سفن الإمداد السرية هذه من نيو إنجلاند، وربما كانت أولى السفن الأمريكية التي دخلت المحيط الهندي.

ويقول مؤرخو القراصنة في القرن الثامن عشر إن بعض هؤلاء كانوا أقرب إلى المشردين في آفاق البحر، وقد رددت الألسن أسطورة مدهشة، بطلها القبطان ميسون من بروفانس، والذي عرف بتأنقه وبلاغته، واشتهر بأنه تحالف مع الأب كاراتشيولي، وهو راهب دومينيكاني حنث بقسم الرهبانية، لكي يقيما «جمهورية ليبريتاليا» في خليج دييجو سواريز، عند الطرف الشمالي من مدغشقر. وتحالف معهما توم تيو، وهو قرصان إنجليزي من بلايموث[7].

وقد أعلنوا ورفاقهم أنه من الأكرم للرجل أن يسرق من الأغنياء من دون أن يحميه شيء إلا شجاعته، عن أن يسرق من الفقراء تحت حماية القانون، على النحو الذي تستخدم به القوة الشرعية بصفة عامة. وكان شعار ليبريتاليا هو «من أجل الله والحرية» وكان لها برلمان بدائي استخدمت فيه نوعية من لغة الإسبرانتو. وأطلق على أحد المراكب الشراعية، وحيد الصاري، التي بناها ميسون، اسم «تشايلدهود».

لم يقدر لليبريتاليا أن تعيش طويلاً، فعلى الرغم من أن دفاعاتها البحرية كانت شديدة القوة، بحيث تمكنت من رد أي هجوم شنه أسطول برتغالي، فإنه لم تكن هناك حماية من الجانب البري، حيث اعتقد ميسون أن المستعمرة قد كسبت صداقة جيرانها المالاجاشيين. وذات ليلة تبين أن الصواب قد جافاه، واكتسحت المستعمرة اكتساحاً، ولم تكتب النجاة إلا لخمسة وأربعين شخصاً، وكان من بين القتلى كاراتشيولي القرصان ـ الراهب. وكانت تلك هي نهاية جمهورية القراصنة.

أما القرصان الأكثر شهرة من بين قراصنة مدغشقر، فهو القبطان الاسكتلندي وليم كيد، الذي أمضى معظم حياته في نيويورك، قبل أن يبحر إلى المحيط الهندي، وعندما عاد إلى الأمريكتين مصطحباً ثروة طائلة ألقي القبض عليه واقتيد إلى لندن. وبعد

محاكمة تكتنفها ظلال الشكوك تم إعدامه، وهو لايزال مصراً على زعمه أنه لم يكن إلا مغامراً شريفاً يقاتل الفرنسيين، محافظاً على ولائه (وكان المغامر الذي يعمل لحسابه يحمل تكليفاً من حكومته، يسمح له بمطاردة سفن الأعداء ونهب حمولاتها. وإذا جلبت سفينة إلى الوطن باعتبارها غنيمة، فإن ذلك يعد الانتصار الحقيقي، وإلا فإن المعتاد هو إغراقها).

وعلى الرغم من أن القراصنة الإنجليز الحقيقيين منهم والخياليين، قد احتفى بهم الكتّاب كثيراً، من ديفو وحتى روبرت لويس ستيفنسون، فإن المغامرين الفرنسيين كانوا بالتأكيد أكثر عدداً، ففي أوائل القرن الثامن عشر قام حاكم المغول الكبير من خلال الحاكم باسمه في سورات بتقديم شكوى للملك لويس الرابع عشر من أن هؤلاء المغامرين يمنعون رعاياه من الحج إلى مكة، وسلم مسؤول إداري فرنسي في الهند بأن اسم بلاده قد أصبح مرتبطاً حقاً بالقراصنة.

ولسوف تتحرك القوى الأوربية بصورة منظّمة «لتطهير البحار». غير أن القراصنة الفرنسيين تركوا بصمة دائمة على مدغشقر، حيث صبغوها بمسحة فرنسية الطابع (بغض النظر تماماً عن تنشيط النوازع العنيفة لدى شعبها). وفي أعقاب القراصنة جاء التجار والمغامرون الفرنسيون الذين كانوا الرواد على الطرق المفضية إلى الداخل، وعلى الرغم من إخفاق حصن ولي العهد، فإنه كان بمنزلة نذير أو علامة على الطريق إلى النزعة الاستعمارية.

الفصل الرابع والثلاثون

أثيوبيا وآمال روما

أخيراً تحرر قطيع أثيوبيا
من أسود الغرب الشريرة.
وانطلق في مراعيه بأمان.
تغلب مذهبا القديس مرقص وسيريل
على حماقات كنيسة روما.
ابتهجوا، ابتهجوا، ورتلوا ترنيمة الشكر جميعاً!
فما من مزيد من الذئاب الغربية
ستستعبد أثيوبيا أرضنا.

من الحولية الأثيوبية لعام 1632 (ترجمة سي. ف. راي)

مع تدفق مد الصراعات المتشابكة في المحيط الهندي وانحساره، كانت هناك على الهامش جائزة تعد أثمن بالنسبة إلى بعض العقليات من السلطان والثراء الدنيويين، فقد بدأت أثيوبيا تطرح تحدياً جديداً لا سبيل إلى مقاومته بعد وقت طويل من انحسار أوهام أسطورة الراهب يوحنا. وكانت الحملتان البرتغاليتان قد كشفتا النقاب عن أن الأثيوبيين شجعان ولكنهم متخلفون في فنون الحرب، وأنهم متقدون حماسة، ولكنهم هراطقة في الدين. وجعل استشهاد كريستوف داجاما، على نحو ما وصفه رفيقه في السلاح ميجيل دي كاستانهوزو الاكتشاف الأول من هذين الاكتشافين أمراً بالغ الوضوح؛ فقد كانت جبال أثيوبيا هي دفاعها الحقيقي الوحيد ضد الإسلام. أما الاكتشاف الثاني، وهو الطبيعة «العاصية» للمسيحية الأثيوبية، فقد كشفت النقاب عنها يوميات الأب فرانشيسكو ألفاريز الذي صحب البعثة الأولى التي توجهت إلى أثيوبيا.

واكتسب هذا الأمر أهمية جديدة بسبب الاضطرابات الدينية التي كانت تهز أرجاء أوربا؛ فقد أدى الإصلاح، أي رفض الكاثوليكية من قبل بروتستانتيي أوربا الشمالية،

إلى حركة إصلاح مضادة، ولم يكن هذا الرد أكثر قوة في أي مكان منه في البرتغال وإسبانيا، حيث تم تركيز الانتباه على الهرطقة والوثنية في كل مكان. وكانت الحماسة التي ولَّدها قوية للغاية بما فيه الكفاية لحمل المذهب الكاثوليكي إلى مناطق نائية كاليابان وباراجواي. ولم تكن ملايين النفوس التي يتعين إنقاذها من نيران الجحيم المتقدة بالشيء الذي يمكن تجاهله.

وكان اليسوعيون قد فشلوا على نحو أقرب إلى الكارثة في التأثير في وثنيي الزامبيزي، ولكنهم نظروا إلى مسيحيي النيل الأزرق باعتبارهم لم يصلوا إلى الهرطقة إلا عبر العزلة الطويلة، وهم مؤمنون حقيقيون، يمكن جعلهم يتخلون طواعية عن الأخطاء المذهبية. وهكذا فقد تمت في لشبونة رسامة أحد اليسوعيين البرتغاليين، ويدعى جواو نونيز باريتو، ليصبح بطريرك الكنيسة الأثيوبية. وعين أسقفان مساعدان لمعاونته. ومما يجسد الافتراض الأوربي للتفوق أن الأثيوبيين أنفسهم الذين أرسلت لهم مصر بطاركتهم على امتداد ألف عام، لم يتم النظر إليهم على أنهم جديرون بأن يكون لهم رأي في هذه المسألة. وبدا أن التصلب الفكري قد حجب عن أنظار البرتغاليين كل البراهين التي جلبتها الحملتان البرتغاليتان السابقتان حول المخاطر المحتملة التي يحملها هذا المشروع للغزو الروحي. غير أن الملك جون الثالث قرر أنه ينبغي أن يسبق مبعوث محمل بالهدايا المناسبة البطريرك لإبلاغ الإمبراطور الأثيوبي بأن البطريرك في طريقه إلى أثيوبيا.

كان لايزال من الممكن دخول أثيوبيا وإن كان ذلك محفوفاً بالمخاطر، ووصل هذا المبعوث ويدعى دكتور دييجو دياز إلى البحر الأحمر في أمان، وسارع بالانطلاق إلى الداخل من مرفأ صغير يقع إلى الجنوب من مصوع، مع راهب يسوعي وقس عادي. ورحب به الإمبراطور كلوديوس ترحيباً حاراً، حيث كانت البلاد لاتزال تتذكر بالعرفان العون الذي جلبته حملة كريستوف داجاما قبل أربعة عشر عاماً، في وقت الاحتياج اليائس إلى هذا العون. وقد أعطيت للناجين من هذه الحملة مزارع، وصارت لهم عائلات، وأصبحوا أثرياء بالمعايير الأثيوبية.

احتدم كلوديوس غيظاً لدى سماعه بأن البابا والفرنج قد أخذوا على عاتقهم من دون أدنى مشاورة، أن يبعثوا إليه ببطريرك. ويقول جونزالو رودريجيز، الراهب الذي صحب دياز في الرحلة إن الإمبراطور «بدا مضطرباً للغاية ومنزعجاً أشد الانزعاج، إلى حد أننا عندما حدثناه لم يحر رداً في هذا الشأن... ومضى بعيداً لزيارة إحدى جدتيه في مكان يقع على مسيرة ثمانية أو عشرة أيام، وتركنا في العراء، بلا معين إطلاقاً».

وازدادت العلاقات توتراً عندما ألف رودريجيز أطروحة حول الأخطاء المذهبية، التي وقع فيها الأثيوبيون، وطلب أن تترجم إلى الجيز (الأثيوبية القديمة). وعلى الرغم من أن كلوديوس وافق على ذلك، فإنه كتب على جناح السرعة رسالة احتجاج للبابا، مشدداً على أن الأثيوبيين يسيرون بالفعل «قدماً وفي الطريق الحق» من دون أن ينعطفوا يميناً أو يساراً «في إطار مذهب آبائنا الحواريين الاثني عشر، والقديس بولس، نبع الحكمة، وأتباعهم الاثنين والسبعين». وكانت الرسالة رداً مدوياً «هكذا أعلن، وهكذا أعلِّم، أنا كلوديوس، ملك أثيوبيا».

وقبل أن يسرع دياز بالرحيل، قيل له لدينا هنا ما يكفي من المتضلعين في الدين بالفعل وإنه لا حاجة إلى المزيد منهم. وفي إطار إجراء موفق طلب كلوديوس عقب ذلك من الكنيسة القبطية في مصر أن ترسل له بطريركاً جديداً، يحمل اللقب التقليدي «أبونا» (والذي أمر فور وصوله بإنزال الحرمان الكنسي بساحة أي شخص يقرأ الأطروحة اليسوعية). وعندما عرف نطاق هذا «العناد» أحست سلطات جوا بأنه سيكون أكثر التزاماً بالحكمة أن تُرجَأ الرحلة التي سيقوم بها من الهند إلى مصوّع البطريرك باريتو الذي اختاره البابا. وبدلاً من ذلك أرسل أندرو دي أوفيدو، مساعد البطريرك إلى أثيوبيا، مع خمسة يسوعيين آخرين (ولم يقدر لباريتو أن يقوم برحلة العبور هذه، فقد مات في جوا بعد ست سنوات، وهو لايزال ينتظر اللحظة المناسبة).

وفي غضون عدة أسابيع من وصول أوفيدو ورفاقه اليسوعيين الذين حزموا أمرهم إلى مصوع، أغلق الشرك التركي من ورائهم، فأصبح هذا الميناء مغلقاً في وجه غير

المسلمين جميعاً، وستنقضي خمسة أعوام قبل أن يمكن تسريب رسالة إلى الخارج، ثم أصبح معروفاً أن الأمور مضت في مسار سيئ. وعلى الرغم من أن اليسوعيين قد استقبلوا بأدب حذر، فإن أوفيدو اختار مقاطعة البلاط الملكي، ثم أبلغ كل البرتغاليين في البلاد بأنه لم تعد بهم حاجة لطاعة أوامر الإمبراطور؛ وكان ذلك إظهاراً استفزازياً للصلف. وعلى الرغم من ذلك فإن كلوديوس كان على استعداد لمناقشة النقاط المذهبية مع ضيوفه الذين فرضوا أنفسهم، وغالباً ما انعقد له لواء الفوز في النقاش. وأظهر الأثيوبيون كذلك موهبة في السخرية، فأهدوا لليسوعيين الذين يلتزمون العفة كتاباً بعنوان **«زنا الفرنجة»**.

وكانت العلاقات قد وصلت إلى الحضيض عندما قتل كلوديوس على حدود أثيوبيا لدى تجدد القتال مع المسلمين؛ فكانت هذه كارثة بالنسبة إلى أثيوبيا (عرضت جمجمة الإمبراطور فوق عمود لمدة ثلاث سنوات علامة للنصر) وكذلك كارثة على اليسوعيين، حيث لم يهدر الإمبراطور الجديد ميناس وقتاً في إظهار ضيقه بأوفيدو من خلال ضربه علناً والتهديد بقتله بالسيف. وأودع الأسقف المتحدي في السجن لمدة ستة أشهر، ثم اضطر إلى العيش بعض الوقت في كهف، مقتاتاً بالجذور والأعشاب. وأخيراً نُفي اليسوعيون إلى قمة جبل في شمال شرقي البلاد قرب العاصمة القديمة أكسيوم. وهناك عاشوا حياة بائسة، وسعوا للتوصل إلى طرق لإرسال رسائل إلى جوا، وحاول أحد الرهبان الهرب عبر مصوّع، لكن الأتراك قبضوا عليه وقتلوه.

ووصلت بضع رسائل إلى أوربا من أوفيدو مكتوبة بنبرة من الأسى على صفحات منتزعة من كتاب صلواته. وأوضحت أنه ينظر إلى الأخطاء المذهبية التي وقع فيها الأثيوبيون باعتبارها أكثر أهمية بكثير من عداء الأتراك. وناشدت إحدى الرسائل المسؤولين إرسال فرقة قوية من القوات البرتغالية «الذين يمكنهم في يسر جعل أنفسهم سادة الموانى، وإنقاذ البرتغاليين الآخرين، وإجبار الأثيوبيين على الخضوع لكرسي روما الرسولي». غير أن هذا الاقتراح لم ينظر إليه بعين الرضا في أوربا، باعتباره يعكس حب البرتغاليين للحرب، بأكثر مما يعكس الروح المسيحية الحقة. ومات أوفيدو بعيداً عن العيان وعن الأذهان وذلك في عام 1577، وبدأت البعثة في التلاشي.

بعد سبع سنوات بعث البابا جريجوري الثالث عشر بثلاثة رهبان للحفاظ على البعثة، لكن أياً منهم لم يصل إلى أثيوبيا، وقتل القراصنة أحدهم. وفي عام 1595 تم القبض على راهب آخر من اليسوعيين، وضرب المسلمون عنقه بعد نزوله في مصوّع متنكراً. وأخيراً وصل مسيحي هندي - هو براهماني بالميلاد وليس من اليسوعيين - إلى مقر البعثة المعزولة، وذلك بالتنكر في زي عربي. ولم يكن هناك ما يمكنه القيام به سوى الانزواء، وتعليق الآمال على اليوم الذي تدخل فيه البلاد موجة جديدة من الكاثوليك.

وقام راهبان إسبانيان، هما أنطونيو مونسيرات وبيدرو بابيز، بإحدى المحاولات لشق طريق؛ ولكن المحاولة كللت بالإخفاق في التو تقريباً، حيث ألقى المسلمون القبض عليهما في البحر، وبعثوا بهما أسيرين إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، ونقلا بالجمال عبر الصحراء وسيراً على الأقدام إلى صنعاء في اليمن. وبعد ثلاث سنوات أمضياها في الأسر هناك نقلاً إلى ميناء مخا المطل على البحر الأحمر، وعهد إليهما بالعمل عبدين على متن إحدى السفن، يجدفان ضمن العاملين على ثلاثة صفوف من المجاديف الجانبية.

وكتب بابيز في وقت لاحق إلى صديق في إسبانيا يقول: «على امتداد الليل وحتى الفجر، أجبرنا على البقاء مستيقظين، محاولين طوال الوقت التخلص من القُمَّل، وبينما تسقط علينا هذه الحشرات من أعلى، مضينا نلقي بها في البحر. وإذا ما رقدنا عندما يغلبنا التعب أو النوم وغطينا وجوهنا، فإن القُمل كانت تجبرنا على النهوض وتظل تعذبنا حتى الصباح... ولم يكن لدينا ما نرتديه باستثناء بعض الخرق وقميص. وكان طعامنا قبضة من الحبوب، كالشعير، ولا شيء سواها».

كان بابيز في الثانية والثلاثين من عمره فحسب، ولكن مونسيرات الذي شارف على الستين في ذلك الوقت، أدرك آسروه أنه يشرف على الموت، وهكذا فإن الفرنجيين الأسيرين عُهد إليهما بالعمل في أحد المحاجر. وأخيراً أفلح شاب سوري في حمل رسالة منهما إلى جوا؛ فتم إرسال تاجر هندي في التو إلى مخا لافتدائهما بأي ثمن، لأن فيليب الثاني كان مهتماً بصفة شخصية بمصير الراهبين اليسوعيين المفقودين. وبعد

سبع سنوات لا طائل فيها وصل مونسيرات وباييز عائدين إلى جوا، وقد حل بهما الهزال والاضطراب النفسي.

بعد خمس سنوات أصبح باييز على أهبة الاستعداد للقيام بمحاولة جديدة. وكان بحلول ذلك الوقت قد أتقن اللغة العربية، وفي قدرته السفر متنكراً في زي أرمني تحت اسم عبدالله. وبعد مصادقة أحد الأتراك ممن كانوا في سبيلهم إلى الرحيل شمالاً في البحر الأحمر، وإبلاغه بأنه يريد الذهاب إلى الداخل الأفريقي عند مصوّع لجمع مقتنيات صديق قضى نحبه هناك، تسلل مجتازاً الحواجز التي لقي مسيحيون آخرون مصرعهم عندها. وانتظر الصديق التركي عبثاً عودته، ولكن الحماس الديني تغلب على كل الهواجس التي ربما كان باييز قد شعر بها.

ووصل إلى البلاط الأثيوبي في عام 1604 فألفى نفسه في غمار صراع ملكي. وكان إمبراطور في الثالثة عشرة من عمره، يدعى جاكوب، قد أطيح به لتوه على يد عمه زا ـ دينيجل الذي كان في السادسة والعشرين من عمره. ولم يكن هناك الكثير مما يمكن لراهب أوربي القيام به في مثل هذه الأزمة. وعلى أي حال، فإن بيدرو باييز قد اعتبر أن واجبه الأول هو أن يزور بحيرة تانا منبع النيل الأزرق بعد أن سمع بأن أبناء جنود كريستوف داجاما يقيمون هناك. وبعد الاستجابة لاحتياجاتهم الدينية، عاد إلى البلاط، وكانت في انتظاره أنباء مزعجة، مفادها أن زا ـ دينيجل قد قرر اعتناق الكاثوليكية، واعتزم أن يطلب من أوربا إمداده بالجنود والحرفيين والمزيد من المبشرين[1]. وانزعج باييز، حيث تنبأ بأن هذا لن يجلب إلا الكوارث، ولكن نداءاته بالتزام الحذر لم يستجب لها أحد. وفي غضون أربعة أشهر كان زا ـ دينيجل قد قتل في تمرد فجّره هذا القرار الطائش.

أعقبت ذلك سنوات من الاضطراب إلى أن ارتقى سيزنيوس؛ وهو ابن أمير من العائلة المالكة من إحدى الجواري سدة العرش في عام 1608. وسرعان ما صادق باييز الإمبراطور الجديد، الذي قال عنه إنه «يبتسم للجميع بود بالغ» وتشع المودة من عينيه البندقيتين. وللإمبراطور الجديد «وجه مستطيل، لكنه متوازن الأبعاد... وشفتاه رفيعتان، ولحيته سوداء، وكتفاه عريضتان، وعضلاته مفتولة».

وفي السنوات التي أعقبت ذلك بذل باييز قصارى جهوده لجعل نفسه شخصاً لا غنى للإمبراطور عنه، فقد خمدت نيران الصراعات الدينية بعد وهن، وكرّس الراهب الإسباني نفسه للعمل المفيد الذي قصد به إيضاح فائدة اتباع الأساليب الأوربية. ولما كان يميل إلى الاهتمام بالعمارة فقد عرض على الإمبراطور أن يبني له قصراً مؤلفاً من طابقين باستخدام الحجر الأبيض، ولم يكن شيء من هذا القبيل قد بني في أثيوبيا، ولذا حشد باييز فريقاً من الحرفيين، وعلمهم كيف يصنعون أدوات قطع الحجارة وصقلها، كما استعان بنجارين ودربهم على تقليد أعمال النجارة الأوربية.

كانت في القصر الذي أقيم في جوندار قاعة مآدب يبلغ طولها خمسين قدماً، واستندت أقواس سقفها إلى أعمدة منحوتة بشكل متداخل. ومن شرفة تعلو السقف وترتفع سبعين قدماً عن الأرض، كان في وسع الإمبراطور الاستمتاع بالإطلال على مشهد بحيرة تانا، ورؤية قمم جبلية ترتفع إلى 14000 قدم. وكان التصميم الكلي للقصر شبيهاً بتصميم دارة ريفية يملكها أرستقراطي إسباني، وجاء رعايا سيزنيوس من كل حدب لمشاهدة هذه الأعجوبة. ومضى باييز في إنشاء العديد من المباني الأخرى، بما في ذلك كنيسة كبيرة على الطراز الإيطالي. كما اهتم بالأدب الأثيوبي. وشجع على استخدام الأمهرية المكتوبة في التعليم. وفي غضون تسع سنوات أحدث تغييرات ستترك بصمة دائمة على الحياة الأثيوبية[2].

وكلما ازداد إعجاب الإمبراطور بباييز، ازداد إصراره على أن أثيوبيا ينبغي أن تفي بالدين الذي طوق به عنقها كريستوف داجاما قبل سبعين عاماً. وكان معنى ذلك أن الإمبراطورية الأثيوبية وكنيستها ينبغي أن تدخلا في مذهب روما. وأعلن الإمبراطور الذي حجب إخلاصُه كل شيء عن ناظريه أنه سيتصدر المسيرة باعتناقه الكاثوليكية ورفضه للطقوس العتيقة التي تفرضها كنيسته.

وعلى الرغم من أن باييز قد استشعر أن هذا من شأنه أن يطلق العنان لحرب أهلية قاتلة، فإنه لم يكن في وسعه التخلي عن واجب الراهب اليسوعي، وكان قد بذل قصارى جهده لاستقطاب رجال البلاط البارزين، ولضرب طوق من العزلة على البطريرك القبطي، بل إن بعض القسيسين البارزين اختار التحول إلى الكاثوليكية.

وهكذا فإنه في 31 كانون الثاني/ يناير 1613، ساعد في صياغة رسائل موجهة إلى البابا وملك إسبانيا (وهو الآن فيليب الثالث) ونائب ملك البرتغال في جوا. وأبلغ الإمبراطور البابا بأنه عقد العزم على «تقديم فروض الطاعة لنيافتكم» وطلب إرسال بطريرك كاثوليكي من دون إبطاء.

استشعر سيزنيوس الخطر المحدق به، ولذا وجه نداء بإرسال 1500 جندي أوربي، سيقوم 500 منهم باحتلال مصوّع والقيام بدوريات على الساحل، وسيساعده 1000 جندي في حربه على المسلمين. وكان ما أراده في حقيقة الأمر حرساً من النخبة للدفاع عنه ضد سخط شعبه، عندما يعلن تحوّله للكاثوليكية. وقد كان هذا أملاً مستحيل التحقيق ولابد أن بابيز قد عرف ذلك.

ولما كانت السرية أمراً شديد الأهمية، فقد كان يتعين إرسال الرسائل الموجهة إلى أوربا عن طريق يعكس أقل قدر من المخاطرة بقطع مسيرتها. وفي غضون عقد من الزمان، كان أربعة من اليسوعيين الآخرين قد أفلحوا في التسلل عن طريق مصوّع لمساعدة بابيز، ولكن الخروج من شأنه أن يكون أكثر صعوبة. وشدد سيزنيوس على أن أفضل فرصة يمكن أن تتاح للمبعوثين المختارين - وهما راهب يسوعي وأحد الأثيوبيين الذين تحولوا إلى الكاثوليكية - تكمن في الذهاب برا إلى ماليندي، الميناء المطل على المحيط الهندي والذي تمر به السفن البرتغالية بصورة منتظمة. وكان ذلك يعني السفر عبر ما يزيد على ألف ميل جنوباً في أراض مجهولة المعالم، تحتلها قبائل تتربص بالمسافرين، بما في ذلك قبيلة الجالا المحاربة[3]، وليس هناك دليل على أن مثل هذه الرحلة تم القيام بها من قبل.

وقد برهنت هذه الفكرة على أنها أقرب إلى الكارثة منها إلى أي شيء آخر؛ فعلى بعد مسافة محدودة من حدود أثيوبيا الجنوبية وأثناء التوجه إلى بحيرة رودولف، ألقى حاكم محلي القبض على المبعوثين، وعندما غدا جلياً أنه يمعن النظر في فكرة قتلهما، أفلح الراهب اليسوعي في إحراق رسائل الإمبراطور كافة. وأجبر المبعوثان على العودة شمالاً إلى أثيوبيا. وقبل عودتهما بعد أشهر ذهبت هدراً، كان الإمبراطور قد بعث بمجموعة ثانية من الرسائل اتجهت شمالاً هذه المرة، ووصلت بالفعل إلى القنصل

الفرنسي في القاهرة، ومن هناك بعثت إلى روما. وكان البابا بول الخامس شديد التطلع إلى تحرك عسكري في أثيوبيا، وذهب إلى القول إن «أرواحاً لا حصر لها على وجه التقريب» معرضة للخطر. غير أنه لم يحدث شيء. والآن تجمعت فوق سيزنيوس سحب حماقته الرعدية بعد أن وصلت به الأمور إلى حد ارتداء الزي البرتغالي.

وفي شهر أيار/ مايو من عام 1622، مات بايز متأثراً بمرض الملاريا بعد تسعة عشر عاماً قضاها في أثيوبيا. وكان قد عاش حتى رأى اليوم الذي أعلن فيه الإمبراطور، سواء أكان ذلك خيراً أم شراً، اعتناقه مذهب روما، وتناوله القربان المقدس. وغدت المحرقة الدينية أمراً حتميا الآن. وبعد ثلاث سنوات وصل من روما البطريرك الذي انتظره سيزنيوس طويلاً في أثيوبيا، ونزل إلى الشاطئ متنكراً في بيلور[4]، وهو مرفأ صغير يقع مباشرة بعد مدخل البحر الأحمر، ومن هناك قام برحلة خطرة ومجهدة عبر صحراء الدناكل إلى الأراضي المرتفعة.

كان البطريرك هو أفونسو منديز، وهو عالم برتغالي لم يكن يعادل علمه إلا جسارته، وكان في الوقت نفسه رجلاً مزهواً مغرماً بارتداء فاخر الثياب البابوية، وبعيداً كل البعد عن المرونة. وبمجرد اتصاله ورفيق رحلته جيرونيمو لوبو برفاقهما اليسوعيين، بادر إلى ارتداء ثيابه الدينية، وشرع في التقدم وسط مظاهر الأبهة عبر البلاد، بمعية مؤلفة من الخدم والموسيقيين والرهبان. وكان الإمبراطور وقتذاك يتقد حماسة في غمار الانتظار. ومع اقتراب منديز من البلاط في 7 شباط/ فبراير 1626 أرسل له 15000 فارس لمرافقته، ونافس دوي المدافع التي أطلقت تحية له أعلى أصوات الطبول الهادرة.

توقف منديز في خيمة قبيل دخول الكنيسة التي سيرحب سيزنيوس فيها به، وهناك اعتمر تاج أسقفيته وارتدى ثيابه البطريركية، ثم تقدم على صهوة جواد على رأس موكب صاخب. وفي داخل الكنيسة تلقاه الإمبراطور وعانقه، وهو يعتمر تاجاً ذهبياً. ولم يهدر منديز الوقت، وإنما شرع في إلقاء خطبة حول تاريخ المسيحية وصولاً إلى هذه اللحظة التاريخية التي قدر فيها لأثيوبيا أن تنحني لروما. وإذ مضى منديز يتحدث باللاتينية، ويقتطف العديد من الفقرات من الفلاسفة الإغريق والرومان، فإن كل رعايا

كنيسته الذين احتشدوا أمامه تقريباً، لم يقدر لهم أن يفهموا ما يقوله، ولكنه لم يكترث لذلك، فقد كان تقديره لذاته بالغاً[5].

وبعد يومين أصبحت استعارة الانحناء لروما واقعاً، فقد انحنى الإمبراطور علانية أمام منديز، وأقسم يمين الولاء للبابا. وأياً كان ما في داخل نفوس نبلائه وقسّيسي بلاطه، فقد حذوا حذوه، وعلى الفور أصدر البطريرك حكمه بإعادة تكريس الكنائس، وإعادة رسامة كل رجال الدين، وإعادة تعميد كل المسيحيين، وتوقيت كل الأعياد حسب التقويم الروماني، وقد قصد أن تنشق الكنيسة الأثيوبية حتى قواعدها.

وعلى الرغم من أن وصوله قد تزامن مع هجوم رهيب شنته أسراب الجراد، وأقسم القسيسون الأقباط أنه علامة على السخط الإلهي، فإنه لاح في البداية كما لو أنه يكتسح كل شيء أمامه. واتسمت رسائله إلى روما بطابع الفوز، وتسلل المزيد من اليسوعيين إلى أثيوبيا، وزادوا بصورة نشطة من مقار الإرساليات، وقاموا بتعميد الفلاحين بصورة جماعية، وأقاموا المدارس، وألفوا كتب التعليم الديني. وبدعم مالي من الإمبراطور أقيمت مطبعة للمساعدة في نشر الرسالة الكاثوليكية مكتوبة بالأمهرية. وللمرة الأولى في النصف الشرقي من أفريقيا، أدخل الأوربيون الحروف اللاتينية، لإيجاد شكل مكتوب للغة الوطنية المحكية.

وكان هناك جانب أكثر ظلماً، فالتحدي كان عقابه الشنق أو الإحراق على المحرقة، وقطعت ألسنة المنشقين الأكثر حظاً، وألقى بعض القسيسين الأثيوبيين بأنفسهم إلى الهاوية، مفضلين ذلك على التخلي عن معتقداتهم القديمة.

وبذل سيزنيوس قصارى جهده لتمهيد الطريق أمام اليسوعيين الذين نذروا العفة، وكرسوا أنفسهم لمهمتهم، وذلك بالقيام علناً بإدانة المطارنة الأقباط لولعهم بالفساد وإحاطة أنفسهم بالحريم، واقترافهم «أحط الجرائم الممكنة التي لا ترد على الألسنة في مجتمع مهذب». ولكن الأخطاء الفردية ما كان يمكن لها أن تزعزع المعتقدات القديمة. ففي عام 1628 بدأت عمليات التمرد ضد الكاثوليكية المفروضة فرضاً تندلع في أرجاء شتى من أثيوبيا، وشنق زوج ابنة الإمبراطور، ودُفع قائد بارز من فوق صخرة مرتفعة،

واندلعت المعارك من دون توقف تقريباً، ولقي 8000 رجل مصرعهم في إحداها. وتعالت الاحتجاجات على روما لجعل أثيوبيا «تدفع بنصل سيفها في أحشائها».

في عام 1632 أجبر سيزنيوس على التخلي عن العرش، ومات بعد ذلك بثلاثة أشهر كسير الفؤاد عليل البدن من فرط الإعياء، وقام راهب يسوعي بمساعدته في أداء طقوسه الأخيرة. وكان لابنه الإمبراطور الجديد فاسيلاداس بن سيزنيوس هدف واحد عاجل؛ هو طرد جميع الأوربيين والتخلص من عقيدتهم الغريبة، ونفي البطريرك منديز سريعاً إلى القمة الجبلية ذاتها في شمال شرق البلاد، حيث أمضى سلفه أوفيرو قبل نصف قرن أعوامه الأخيرة. ومع إغلاق إرساليات اليسوعيين مضت البلاد بأسرها تغني وترقص فرحاً. ومع ذلك لم يستطع منديز فهم كيف نبذت روما كلية، فشرع في مناشدة جوا إرسال قوات إلى أثيوبيا على أمل استخدامها في بدء انتفاضته.

وعندما أدرك فاسيلاداس أن اليسوعيين يدعون إلى غزو بلاده أمر منديز وجميع الرهبان الأوربيين بمغادرتها في الحال، إذا كانت لحياتهم قيمة لديهم. وبعد بعض المكائد التي لم تسفر عن شيء على الساحل وجد البطريرك وتسعة رهبان أنفسهم يرسلون عنوة إلى سواكن الواقعة إلى الشمال على امتداد البحر الأحمر. وفي البداية فضل الباشا التركي المحلي قتلهم، لكنه في نهاية المطاف قرر طلب مبالغ كبيرة من الهند البرتغالية فدية لهم؛ فدفعت هذه الأموال باعتبارها الخيار الأقل تكلفة مقارنة بإرسال حملة تأديبية. وبعد عودة منديز إلى رحاب الأمان استقر في جوا، ومضى يطلب بصورة متواصلة – من دون أمل حقيقي في الاستجابة – إعادته إلى مقره على رأس جيش فاتح. ولم تقدر له العودة إلى أوربا قط، وإنما مات في الهند بعد عشرين عاماً[6].

ورفض سبعة من اليسوعيين ومساعد أسقف يدعى أبوليناريس دي ألميدا مغادرة أثيوبيا؛ فطوردوا وقتل اثنان منهم بقطع عنقيهما، وشنق الباقون أمام جموع مبتهجة في سوق محلية. وطردت كذلك الجماعات البرتغالية المتحدرة من الناجين من حملة كريستوف داجاما التي دخلت أثيوبيا قبل قرن من الزمان، على الرغم من أن معظمهم كانوا قد غدوا أفارقة أكثر من كونهم أوربيين؛ فأجبروا على الرحيل غرباً، هابطين من المرتفعات إلى إقليم سنار بين النيلين الأزرق والأبيض، حيث اختفوا ولم يبق لهم أثر.

ومنع فاسيلاداس الأوربيين كافة من دخول أثيوبيا، بل وسعى إلى الحصول على مساعدة الحكام المسلمين في عدن وموانى البحر الأحمر، للتأكد من أنهم سيظلون خارج بلاده. وهكذا فإنه عندما نزلت مجموعة من الآباء الكابوشيين الإيطاليين والفرنسيين إلى الشاطئ في مصوّع قتلوا تواً وحشيت رؤوسهم وجلودهم بالقش، وبعث بها الأتراك إلى الإمبراطور ليؤكدوا له أن رغباته يجري تحقيقها.

بعدما يزيد على نصف قرن من الرفض النهائي لليسوعيين، سمح الإمبراطور ياسو بدخول أثيوبيا لطبيب فرنسي يدعى شارل بونسيه وذلك في عام 1698، باعتباره مبعوثاً من الملك لويس الرابع عشر. وسجل هذا الطبيب في يومياته أن الأثيوبيين يكرهون العنب الأبيض لأن لونه يذكرهم بالبرتغاليين.

ومرت سبعون عاماً أخرى، قبل وصول مغامر اسكتلندي، يدعى جيمس بروس إلى أثيوبيا. ووجد أن اليسوعيين لايزال لهم ذكرى سيئة هناك، وذلك بعد ما يزيد على قرن من قيام فاسيلاداس بطرد آخرهم. وبالغ بروس في إظهار معتقداته البروتستانتية، في مناقشة مع الأثيوبيين لإبعاد نفسه عن الكاثوليكية، حيث كتب يقول: «قلت: لقد وصفتموني في المقام الأول بأنني من الفرنجة، وهو اسم سيئ الصيت للغاية في هذه البلاد، ويكفي لتعريضي للموت رجماً بالحجارة من دون أي مقدمات، من قبل أي جمع من البشر، حيثما قدمت نفسي. وأنتم تقصدون بالفرنج من يعتنقون مذهب روما، وهو المذهب الذي تعاديه أمتي، كما تعاديه أمتكم».

الفصل الخامس والثلاثون

الحصار الكبير لحصن اليسوع

كم من ذهب سفالة، وموزمبيق، وكلوة، وممباسا الوفير جاء إلى ملوكنا!.. كم من أبناء شعبنا لم تهلكهم جزر كتاوه، وزنجبار، ومافيه، ومدغشقر!

القبطان جواو رابيرو (1685)

طوال نصف قرن بعد هرب السلطان يوسف المنشق على البرتغاليين، ظلت ممباسا غافية تحت الشمس. ومضت سلطة البرتغال تنحسر على امتداد المحيط الهندي، وغدت التجارة محدودة النطاق، واتسم قادة توالوا على حصن اليسوع بالكسل أو الفساد أو الضراوة، وفي بعض الأحيان جمعوا هذه الصفات كافة. وأشار الزوار النادرون لممباسا إلى فقر مواطنيها - وهم خليط من البرتغاليين والخلاسيين والهنود - في «جحر الثعلب» الذي أعيد بناؤه. وكانت معدلات الوفيات عالية من جراء الحمى وغيرها من الأمراض الاستوائية، حتى بين قادة الحصن.

وفي عام 1661 لاحت نذر صحوة ملموسة عندما ظهر أسطول معاد قبالة ممباسا. ولم يكن قائد هذا الأسطول من الأتراك، وإنما هو حاكم عُمان السلطان سيف بن خليفة[1] الذي كان قبل أحد عشر عاماً قد حطم الأسطورة القائلة إن البرتغاليين لا يقهرون، وذلك بطردهم من مسقط التي ظلت قلعتهم في شبه الجزيرة العربية، طوال مئة وخمسين عاماً تقريباً. وبعد ذلك الانتصار شعر مسلمو شرق أفريقيا بأن وقت تحررهم قد حان، وبعثوا بنداءات إلى السلطان لمد يد العون إليهم، بل لقد جرؤ بعض السواحيليين المتمردين في ممباسا على إرسال وفد سراً. والآن نزل ثمانمئة من رجال السلطان إلى الشاطئ لنهب القسم المسيحي من المدينة. ولم يحاولوا مهاجمة الحصن الذي كان قائده جوزيف بوتيلو دا سيلفا يراقبهم عاجزاً وهم يمضون جيئة وذهاباً، حيث لم تكن لديه إلا حفنة من الرجال تحت قيادته. وشملت الغنائم التي عادوا بها إلى

مسقط على بعد ألفين وخمسمئة ميل إلى الشمال الشرقي، بالاستعانة بالرياح الموسمية، ثلاث سفن برتغالية أسرت وهي ملقية مراسيها في المرفأ.

كان هذا نذير سوء، ذلك أن قوة العمانيين مضت تتعاظم، وراحوا يستخدمون سفناً حربية أوربية التصميم. وبحلول عام 1669 أبحروا موغلين جنوباً حتى جزيرة موزمبيق وأوشكوا أن يستولوا عليها. وإلى الشمال من ممباسا كانت مواني مثل باتي (بته) ولامو قد أعلنت التمرد، بينما دُمرت ماليندي التي كانت ذات يوم الحليف البارز للبرتغال، واحتل العُمانيون دورها وأراضيها.

ثم أنزلت قوة من جوا يقودها بيدرو دالميدا نائب الملك انتقاماً صارماً في مختلف أرجاء الساحل بعد انصراف العمانيين، ووضعت السيوف في رقاب حكام العديد من المدن، ومضت بحمولة سفن بكاملها من الغنائم. واستمرت عمليات الإغارة والقمع هذه، ونقل سلطان باتي (بته) واثنا عشر من شيوخه إلى جوا وأعدموا هناك في عيد الميلاد من عام 1688 ولكن القوة البرتغالية في المحيط الهندي كانت قد تقلصت، إلى حد أنه لم تعد هناك قوة بشرية كافية لاحتلال المدن التي تمت معاقبتها.

وعلى امتداد الساحل الذي عرف في السابق ببر الزنج[2]، جرت استعدادات للجهاد مع انصرام القرن السابع عشر، حيث كانت الساحة تُهَيأ لحصار يعد من أطول الحصارات التي عرفها تاريخ الحرب وأكثرها غموضاً والتباساً.

بدأ هذا الحصار في 11 آذار/ مارس عام 1696، عندما وصل العُمانيون مجدداً قبالة ممباسا. وكانت هناك سبع سفن، تقل ثلاثة آلاف رجل معظمهم من بلوشستان، وأجزاء أخرى من شمال الهند. وعلى امتداد يومين حالت رياح قوية دون ولوج الأسطول المرفأ. وبعد ذلك جنحت سفينة القيادة العربية على ضفة رملية، تواجه حصناً صغيراً على البر الأفريقي، يحرس مدخل المرفأ. وفتحت سفينة القيادة النيران على الحصن، وعند ذلك تخلى عنه شاغلوه - وهم أربعة برتغاليين وثلاثمئة سواحيلي - ولاذوا بالفرار. وعندما تم تعويم سفينة القيادة بعيداً عن الضفة الرملية، اقترب العُمانيون وأنزلوا قواتهم على الشاطئ لاحتلال مدينة ممباسا.

ولاذ بعض المدنيين البرتغاليين بالهرب بحراً، ولكن الباقين هربوا إلى حصن اليسوع. ولم تكن لدى القائد المحنَّك جواو رويز لياو إلا حامية مؤلفة من خمسين رجلاً، ولذا عقد العزم على القيام بتصرف جريء. ففي تحد للأمر المستديم بأنه في حالة وقوع هجوم لا يسمح بدخول الحصن إلا للمسيحيين، دعا لدخول الحصن كل السواحيليين الذين يمكنهم حمل السلاح، ولديهم من الأسباب ما يحملهم على الولاء للبرتغاليين، وقد شمل هؤلاء لاجئين من مدن على امتداد الساحل رفضت تقبل الزعامة العمانية. وبهذه الطريقة استطاع حشد قوة قوامها ألفان وخمسمئة رجل داخل الحصن. واستقر نساء ميليشياته السواحيلية وأطفالهم في الخندق الجاف المحيط بالأسوار. كما دخل الحصن محاربون من إحدى قبائل البر الأفريقي وتدعى قبيلة سيجيجو. وعندما وُجه اللوم إلى قائد حرس البوابة لسماحه لهم بالدخول، مضوا إلى مدينة ممباسا، وقتلوا ثلاثين رجلاً من القوات العمانية، وحملوا رؤوسهم عائدين بها إلى الحصن برهاناً على ولائهم للبرتغاليين.

بعد أن حشد القائد قواته بعث بمركب صغير للتحذير مما يجري، وألقى مراسيه في البداية في زنجبار التي عرضت ملكتها السواحيلية إمداد حصن اليسوع بالطعام، وهو وعد وفت به حتى نهاية الحصار، على الرغم من الغارات التأديبية التي شنها العُمانيون وحلفاؤهم. وعاد المركب بعد ثلاثة أشهر حاملاً معه الطعام وثمانية وعشرين جندياً برتغالياً من حصن موزمبيق.

بحلول ذلك الوقت كان المسلمون الذين يحاصرون الحصن قد شرعوا يلقون حتفهم من جراء الإصابة بالجدري، وغادر «علي الكبير» الأمير البلوشي المسؤول عن القوات العُمانية ممباسا إلى مسقط مع معظم الرجال وكل العاج الذي نهب من المدينة. وبقي حوالي تسعمئة جندي؛ هم خليط من العرب والبلوش والسود المرتزقة والعبيد. وفي هذه اللحظة كان يمكن للمدافعين عن الحصن التغلب على خصومهم، لكن لياو كان أشد ضعفاً – من جراء الحمى – من أن يقوم بتنظيم هجوم على المحاصرين. وقد مات في 23 تشرين الأول/ أكتوبر، والحصار في شهره الثامن.

وصلت أنباء الهجوم العماني إلى جوا، وأدرك الناس أنه إذا فقدت ممباسا فإن موزمبيق يمكن أن تسقط بعدها، ويتعرض الطريق من لشبونة إلى الهند للخطر، الأمر الذي أدى إلى المبادرة بإرسال خمس سفن، وصلت إلى ممباسا في عيد الميلاد تحت قيادة نبيل يدعى لويس دي ميلو دي سامبايو[3]. وكانت هناك مخاوف من أن حصن اليسوع ربما يكون قد سقط، وهكذا تم إرسال مركب بمجاديف لتبين جليّة الأمر. وكانت الأنباء الأولى مطمئنة، فالحصن لايزال في أيد برتغالية.

روى مركب آخر أرسل من الشاطئ عقب منتصف الليل بعد يومين قصة أخرى أكثر مدعاة للانزعاج، فلم يبق داخل الحصن إلا عشرين رجلاً برتغالياً، من بينهم ثلاثة رهبان. وغدا الدفاع عنه الآن يعتمد على ولاء السواحيليين الذين كان عددهم لايزال يبلغ ألفاً وخمسمئة شخص. وكانت حالات الوفاة في صفوف البرتغاليين ترجع إلى الحمى وسوء التغذية وغيرهما من الأمراض، أكثر مما ترجع إلى القتال. وانخفض مخزون البارود والقنابل، وواصل العُمانيون القصف من المرابض التي أقاموها قرب الحصن، وفضلاً عن ذلك فإن جيشهم تم تعزيزه بـ 400 من العبيد السود من شبه الجزيرة العربية.

كان النداء الصادر عن الحصن لإمداده بالتعزيزات يائساً، على الرغم من أن الموقف لم يكن مما يستقطب من اختيروا لإنزالهم إلى الشاطئ. وفضلاً عن ذلك فإن المحاولة الأولى للإنزال إلى الشاطئ، والتي تمت بعد يومين من عيد الميلاد، كانت كارثة؛ فقد أرسل مركب طويل يُقل عشرين جندياً إلى المرفأ، يتبعه مركب صغير (قادس) يقل عشرين آخرين، وعندما وصل المركب الطويل إلى الشاطئ تحت نيران كثيفة، تحت أحد المرابض العربية مباشرة، أمر قائد الحصن بعض جنوده السواحيليين بالمضي عدواً إلى حافة الماء، ومساعدة الرجال في المركب الطويل على بلوغ مأمنهم. ولكن الجنود البرتغاليين ظنوا أن من هرعوا لإنقاذهم كانوا من الأعداء، فوثبوا إلى الماء، وسبح آخرون إلى أجزاء من الشاطئ يسيطر العدو عليها وربما غرق القليلون. وبلغ عشرة رجال فقط الحصن، كما تكبد المركب الصغير خسائر ولكنه أفلح في إنزال معظم جنوده وحمولة من الأرز.

كان ما أراده المدافعون أكثر من غيره هو أن يرسو الأسطول في المرفأ مباشرة، ويقوم بـ «تليين» القوة التي تفرض الحصار بالقصف من مدى قريب، ثم ينزل عدة مئات من الجنود إلى الشاطئ لاستعادة السيطرة على الجزيرة بأسرها. وعقد مجلس حرب في سفينة القيادة لمناقشة هذه الفكرة، ولكن سامبايو كان يفتقر إلى الشجاعة التي تتناسب مع لقبه الفخم: «القائد العام لقوة إغاثة ممباسا» وبدلاً من ذلك بقيت السفن ملقية مراسيها خارج المرفأ، بينما جرى نقل الطعام والذخائر تحت نيران العدو.

ولم يكن المدافعون يسيطرون على ما يكفي من محيط الحصن، لجلب الإمدادات عبر البوابة الرئيسة، وبالتالي تعين إنزالها على الشاطئ المعرض للنيران، أمام التحصينات الخارجية. ومن سوء الطالع أن الباب الفاصل بين التحصينات الخارجية والدهليز المفضي إلى داخل الحصن كان أصغر من أن يسمح بدفع البراميل عبره، لذا تعين فتحها على الشاطئ وحمل محتوياتها شيئاً فشيئاً. وفي بعض الأحيان كانت نيران العدو تصيبها، بحيث إن الخسائر كانت فادحة خلال هذه العملية سواء في الرجال أو في المؤن.

وفي منتصف كانون الثاني/ يناير عام 1697، وصل «القائد العام لقوة الإغاثة» إلى الاعتقاد بأنه قد فعل ما فيه الكفاية، وأبلغ المدافعين في الحصن بأنه سيغادر ممباسا إلى موزمبيق، ولكنه سيعود. واستقبلت هذه الأنباء بمزيد من الفزع، وقام اثنان من الرهبان الأغسطينيين بالرحلة الخطرة إلى سفينة القيادة، لتقديم مناشدة للأخيرة لشن هجوم شامل على الجزيرة. ولكن توسلاتهما لم تلق آذاناً صاغية. وفي 25 كانون الثاني/ يناير، رفعت سفينة القيادة الفرقاطة «سان أنطونيو دي تانا» مرساتها، واختفت عبر الأفق. وتركت سفينة أخرى، بعد أن صدرت لها أوامر بإغلاق مدخل المرفأ، ولكن قبطانها لم ينتظر إلا لحين اختفاء سفينة القيادة عبر الأفق، ثم غادر ممباسا في طريقه إلى زنجبار. ومرة أخرى وجد المدافعون عن حصن اليسوع أنفسهم معتمدين على قوتهم الذاتية.

دخل الحصار شهره الحادي عشر، وبعد أيام قلائل فحسب تبين أن شيئاً آخر قد وصل مع التعزيزات البشرية والمؤن، فقد ظهرت الحالات الأولى من الإصابة بمرض قاتل، أصبح يعرف باسم «مرض التورم». وربما كان هذا المرض هو الطاعون الدبلي،

وقد تسربت عدواه من الهند. ومع ارتفاع معدل الوفيات توالت ضربات أخرى. فقد فر أحد رجال المدفعية البرتغاليين إلى صفوف العرب، وسرعان ما ظهرت قيمته بالنسبة إليهم جلية فقد ازدادت إلى حد كبير دقة قصف المدافع الثقيلة التي تضرب الحصن يومياً.

وبدأ «مرض التورم» في حصد أرواح الجنود البرتغاليين بمعدل مخيف. ففي بداية شباط/ فبراير لم يبق على قيد الحياة إلا عشرون منهم، بينهم القائد أنطونيو موجو دي ميلو، الذي توالت عليه الضغوط. وبدأ الكثير من السواحيليين الموجودين بداخل الحصن في الهرب منه، خشية الإصابة بالطاعون والبقاء مع الجانب الذي يوشك أن يخسر. وإذ راح موجو دي ميلو يحدق مطلاً من مقدمة النقاط الحصينة في قلعته اليائسة فقد شاهد بمزيد من اليأس العرب يسيطرون على نقطة تماسه الأخيرة مع العالم الخارجي، والمتمثلة في الشاطئ المقابل للدفاعات الخارجية.

مضت الأسابيع تكر متثاقلة وأعقبتها الشهور، وبشكل من الأشكال تم إحباط محاولة المهاجمين لتسلق أسوار الحصن بالاستعانة بالسلالم. ولكن السفن العُمانية مضت تجلب المزيد والمزيد من الإمدادات إلى ممباسا حسبما شاءت. ولم تبد في الأفق أي سفينة برتغالية، وقد تواصل الحصار حتى الآن فترة تزيد على العام.

وفي نهاية حزيران/ يونيو لم يبق على قيد الحياة إلا ستة من البرتغاليين، هم القائد وراهب أغسطيني، وجنديان، وطفلان خلاسيان صغيران. أما باقي من ظلوا على قيد الحياة فكانوا بضع عشرات من السواحيليين، وبعض الرجال الأفارقة، وحوالي خمسين امرأة أفريقية، تم تعليمهن كيفية إطلاق نيران البنادق. وبين السواحيليين كان هناك رجل تميز بولائه للبرتغاليين وبصموده تحت النيران، وهو شاب يدعى الشيخ داوود، عرف بصفة عامة باسم «بوانا داوود» من ميناء فازا (فزه) الصغير. وعلى الرغم من أنه كان مسلماً ودمر البرتغاليون مسقط رأسه بوحشية في الماضي، فإنه ساند المسيحيين بقوة. وكان أخوه بين المشاركين في حصار الحصن وأمه رهينة، ولكنه رد بكلمات قصيرة، جافة، وحازمة» على نداءات من خارج الحصن بتغيير الجانب الذي يقف فيه. وكان ابن عمه الذي يبلغ السابعة عشرة من عمره قد لقي حتفه مقاتلاً وسط المدافعين عن الحصن.

حل شهر آب/ أغسطس وكان آخر الرهبان قد مات، وعرف القائد موجو دي ميلو أن أجله قد حان كذلك، فأمر بحفر قبره في الكنيسة المقامة داخل الحصن، ثم استدعى بوانا داوود، وحثه على أن يقاتل حتى النهاية وأن يعتني بالطفلين الخلاسيين. وفي 28 آب/ أغسطس مات القائد، وتولى القيام بمهامه بوانا داوود، وأصبح شيخ عجوز «ذكي وحصيف للغاية» مستشاره المقرب، وكان الحصن قد صمد تحت الحصار لمدة عام وخمسة أشهر.

وفي 16 أيلول/ سبتمبر عاودت سفينة قيادة قوة الإغاثة «سان أنطونيو دي تانا» الظهور خارج ممباسا مع سفينة إمداد. وكان جوزيف بيريرا دي بريتو نائب القائد العام، قد أقنع القائد العام المتردد سامبايو بالتحرك، وجوزيف هذا رجل من أصول متواضعة، بدأ حياته بحاراً وعامل نظافة على سطح السفن. ولم يطل الوقت قبل أن يظهر عامل النظافة البحري السابق معدنه الصلب، فبناء على إلحاح منه، مضت الفرقاطة إلى المرفأ مباشرة وألقت مراسيها هناك، وبدأت في توجيه القصف من مدى قريب إلى بطاريات الشاطئ العربية والخندق المحفور على الشاطئ أسفل الحصن. وكانت النيران المضادة التي يوجهها المدفعي البرتغالي المنشق نيراناً مكثفة. وأرسل إلى الشاطئ مركبان، كل منهما يُقل عشرين جندياً، وعلى الرغم من فقدان أحدهما مع كل من كان على متنه، فإن الآخر تمكن من الوصول.

وعند انتصاف الليل بعثت رسالة من الحصن، وجلبها حاملها سالمة إلى سفينة القيادة، وتضمنت نصاً طاب للبرتغاليين أن يقرؤوه، فقد وصف بوانا داوود كيف أنه مع قلة من السواحيليين والنساء الأفريقيات الخمسين قد صمدوا في حصن اليسوع مدافعين عنه، من أجل جلالة ملك البرتغال. ولقي كل الآخرين حتفهم ومنهم الطفلان الخلاسيان.

أدى الحصار حتى الآن إلى وفاة ألفين وخمسمئة رجل وخمسمئة امرأة وطفل. وكتب بوانا داوود في وقت لاحق يقول للملك: «الولاء عندي يفوق الطموح أو حب الأم لوليدها».

وعندما تم تقبل محتويات الرسالة، باعتبارها رسالة حقيقية وليست فخاً نصب للبرتغاليين، مضى بيريرا دي بريتو إلى الشاطئ مع سبعين رجلاً وشق طريقه عنوة إلى الحصن. وعلى الرغم من مراوغات قام بها سامبايو، فإنه في وقت لاحق شن سلسلة من الهجمات الناجحة على المواقع العربية. وعلى امتداد أسابيع عديدة، تم إنزال المؤن والمزيد من الجنود إلى الشاطئ ليلاً، أما نهاراً فقد كانت الفرقاطة تواصل قصفها للمواقع العربية إلى أن انقطعت أسلاك المرساة السميكة وغرقت بعد ارتطامها بالشاطئ مرتين[4]، وشقّ كل ضباط السفينة ورجالها المئتين طريقهم عنوة إلى الحصن، ثم مات في تشرين الثاني/ نوفمبر القائد العام سامبايو، الذي كان قد تولى قيادة حامية الحصن بعد بوانا داوود. وعن طريق التصويت التهليلي أعلن بيريرا دي بريتو «قائداً وحاكماً للبرتغاليين» وأصبح بوانا داوود «قائداً وحاكماً للحصن».

في كانون الأول/ ديسمبر عندما كان الحصار قد استمر عاماً وتسعة أشهر بلغ حب المغامرة لدى المدافعين حد الإقدام على هدم العديد من تحصينات العدو المقامة حول الحصن. وكان من أشجع المقاتلين خلال هذه الغارات الخادم الصيني الشاب لبيريرا دي بريتو، ومع ذلك فقد كان هناك نشاط دائب في المرفأ، مع قيام السفن العُمانية بجلب التعزيزات والإمدادات، وفضلاً عن ذلك فقد كان «مرض التورم» لايزال يحصد الضحايا داخل الحصن.

وفي 28 كانون الأول/ ديسمبر عام 1697 هتف الحراس البرتغاليون على الأسوار عالياً بأنباء تدعو للابتهاج؛ فقد لاح أسطول آخر عند الأفق، وعندما رسا خارج المرفأ أرسل إليه مركب، وفي التو اقترحت خطة حربية من قبل قادة الحصن؛ فالفرقاطات الثلاث في قوة الإغاثة الجديدة ينبغي أن تأتي مباشرة إلى الجانب القلنديني من مرفأ ممباسا، وتقوم بإغراق كل السفن العربية هناك، بينما ستقوم مجموعة قوية من مقاتلي الحصن، بصورة متزامنة، بشن غارة معاونة. غير أن قائد قوة الإغاثة الأخيرة فرانشيسكو بيريرا دا سيلفا لم يقبل شيئاً من هذا، وزعم أن مهمته هي إنزال الإمدادات ولا شيء غير ذلك. وكما حدث من قبل فإن المدافعين توسلوا عبثاً من أجل تحرك جسور. ويؤكد مؤرخ مجهول لهذه الأحداث أنه «على الرغم من أن حرارة هذه

التوسلات كان يمكن أن تشعل النار في جبال الألب في كانون الثاني/ يناير، فإنها لم تستطع إثارة حماس قائدنا المتكاسل»[5].

أسر العرب أحد مراكب الإغاثة، فوجدوا فيه رزمة أوراق تحمل الأوامر الرسمية الصادرة من جوا، حول الطريقة التي ينبغي بها إغاثة حصن اليسوع؛ وقرئت الأوامر بصوت عال قرب الحصن على مسمع من المدافعين «بلغة برتغالية جيدة» وبنغمات ساخرة «وقد كانوا محقين تماماً، حيث كان بعضها مثيراً للضحك حقاً».

بعد إنزال المؤن مضت المعنويات في الانخفاض على نحو كارثي داخل الحصن، فقد جاء قائد جديد للحامية إلى ممباسا مع قوة الإغاثة، وهو ضابط صارم بعيد عن الروح المتسامحة مع الرفاق، يدعى لياندرو باربوسا سوتوميور، فأهان بوانا داوود، وباقي المدافعين السواحيليين الموالين. وكان ثمة مصدر آخر للانشقاق تمثل في عودة ليوناردو نونيز، رجل المدفعية البرتغالي المنشق إلى حصن اليسوع. ففي ضوء اعتقاده أن لواء النصر قد ينعقد للبرتغاليين في نهاية المطاف، قرر الهرب من الخدمة، وهذه المرة من صفوف العرب. وصوّت أولئك الموجودون داخل الحصن الذين كانوا الجانب المتلقي لقذائف مدفعيته على شنقه في التو، ولكن الرهبان الذين جلبتهم قوة الإغاثة قالوا إنه لابد من إعادته إلى جوا لمحاكمته من قبل إحدى محاكم التفتيش. وبعد إرساله إلى سفينة القيادة قصَّ على دا سيلفا القائد المفتقر للجسارة، مجموعة من الأكاذيب قصد بها القضاء على أي تصميم لديه على التحرك النشط في ممباسا.

وفي 19 كانون الثاني/ يناير عام 1698 كانت سفن الإغاثة على أهبة الاستعداد للرحيل، وعلى متنها بوانا داوود وأفضل رجاله من المقاتلين السواحيليين، لأنهم قرروا عدم البقاء في حصن اليسوع في ظل النظام الجديد. وتحت سطح السفن كانت هناك أربعمئة امرأة، هن من بقين من سكان الخندق الجاف المحيط بالحصن، حيث سيتم إنزالهن في زنجبار، وغادر ممباسا كذلك جوزيف بيريرا دي بريتو الذي أعفي سريعاً من منصبه. وعندما وصل الأسطول إلى جوا، أمر نائب الملك بإيداع بيريرا دي بريتو السجن لتوليه قيادة الحصن من دون تفويض بذلك، بينما أعلنت براءة رجل المدفعية المنشق ليوناردو نونيز، في مفارقة غريبة في سياق العدالة البرتغالية.

وفي ممباسا استمر الحصار وصمد حصن اليسوع بشكل من الأشكال، بعد أن عزل كلية عن العالم الخارجي. وفي أيلول/ سبتمبر وصل نائب جديد للملك إلى جوا، وبدأ في إعداد قوة إغاثة جديدة، وقام بتجميع أربع فرقاطات استقلها ألف ومئتا رجل، ومعهم بوانا داوود الذي ظل على ولائه، وأبدى استعداده لخوض غمار المزيد من القتال. وقد طارت شهرته بعيداً في الآفاق تحت اللقب الذي منحه له البرتغاليون وهو أمير فازا (فزه).

أبلغ نائب الملك جونزالفيز دا كامارا كوتينهو قواده بأنهم إذا وجدوا الحصن لايزال به من يدافع عنه فإنه ينبغي في التو شن هجوم شامل لطرد العرب من جزيرة ممباسا، والبر الأفريقي القريب منها، وإعادة فرض السلطة البرتغالية، أياً كانت التضحيات التي تقدم لتحقيق هذا الهدف. ولكن عندما تم بلوغ ممباسا في 13 كانون الأول/ ديسمبر عام 1698 كان هناك مشهد رهيب؛ فقد كان علم عمان الأحمر القاني يرفرف على حصن اليسوع، حيث انتهى الحصار بعد أن دام ثلاثة وثلاثين شهراً.

مضى الأسطول مبتعداً من دون أن يحاول اكتشاف أي شيء آخر ومضى مبحراً إلى زنجبار. وعلى الرغم من النداءات من بوانا داوود وملكة زنجبار، لم تبذل أي محاولة للهجوم على ممباسا أو لاكتشاف كيفية سقوط الحصن.

وبعد ثلاث سنوات تقريباً، وفي أيلول/ سبتمبر عام 1701 وصل خادم هندي يدعى براز فيالهو إلى جوا، ولديه قصة يرويها؛ فقد تم أسره لدى سقوط حصن اليسوع، ونقل إلى شبه الجزيرة العربية. وبعد هربه، شق طريقه عائداً إلى الهند ماضياً في البداية إلى فارس، ومن هناك إلى بومباي. وحكى فيالهو كيف أن مجموعة المدافعين المتناقصة في العدد قد صمدت حتى بداية كانون الأول/ ديسمبر عام 1698. وفي ذلك الوقت كان هناك تسعة جنود برتغاليين فقط على قيد الحياة، جنباً إلى جنب مع القائد لياندرو باربوسا الذي كان يحتضر. وكان هناك أيضاً ثلاثة من الهنود (أحدهم براز فيالهو) وامرأتان أفريقيتان، والعبد الأفريقي الشاب التابع للقائد. ودنا المحاصرون من أسوار حصن اليسوع، ولكنهم ترددوا في مهاجمته، لأنه لم تكن لديهم فكرة واضحة عن أن القوة الموجودة بداخله ضعيفة على هذا النحو الذي يدعو للإشفاق.

وفي 12 كانون الأول/ ديسمبر أمر القائد عبده الشاب بالمضي إلى خارج الأسوار لجمع بعض الأعشاب، لمعالجته من مرضه، واحتج الفتى بأنه سيتم إلقاء القبض عليه من قبل قوة الحصار، فرد لياندرو باربوسا قائلاً: «إذا أمسكوا بك فأبلغهم بأنني في انتظارهم، ولست أهابهم، وإذا كانوا سيهجمون غداً فالأمر سيّان فليأتوا اليوم». وقد أسر الفتى بالفعل وكشف لدى التحقيق معه عن مدى ضآلة عدد المدافعين.

بدأ الهجوم النهائي ليلاً وتم تسلق الأسوار التي قصفت بالمدفعية، وتراجع المدافعون إلى إحدى النقاط الحصينة، وهناك قاتلوا إلى ما بعد بزوغ فجر الثالث عشر من كانون الأول/ ديسمبر بقليل. وكإيماءة تحد أخيرة تقدم القائد المحتضر خارجاً من النقطة الحصينة حاملاً بندقية قصيرة، فأطلقت عليه النيران، وقتل وقطع رأسه حيث رقد[6]. ورفعت راية المنتصرين على الحصن قبل ساعات من وصول قوة الإغاثة إلى قبالة المرفأ. وربما كان الأشخاص الوحيدون الذين كانوا في حصن اليسوع عندما بدأ الحصار وكانوا لايزالون فيه عند النهاية هم امرأة أو امرأتين أفريقيتين. وقدرت الخسائر في صفوف المدافعين من جراء القتال والمرض بستة آلاف وخمسمئة قتيل، بينهم حوالي ألف برتغالي وألفان وخمسمئة سواحيلي، وكان الباقي هم المدنيون الذين استقروا في الخندق. وليس هناك تقدير للخسائر على الجانب العُماني.

وبسقوط حصن اليسوع امّحت السلطة البرتغالية من خريطة المنطقة الواقعة بين البحر الأحمر ومصب نهر الزامبيزي، بعد قرنين تقريباً من إبحار فاسكو داجاما على امتداد الساحل في رحلته الاستكشافية إلى الهند، ولم يبق الآن شيء من «دولة الهند» البرتغالية في شرق أفريقيا باستثناء موان قليلة صغيرة شبه منسية في موزمبيق و«البرازو»، أو المزارع التي تقوم على العمل العبودي في الداخل الأفريقي المجهول، الذي يحيط بشاطئ نهر الزامبيزي[7].

الفصل السادس والثلاثون

أهداف غربية وتأثيرات شرقية

خدم سيف الرب وسيف جدعون البرتغاليين خدمة عظيمة، كشعار للغزو، ولكن في غمار إهمالهم المفعم بالازدراء لفنون السلام، وفي غياب أي عبقرية استعمارية، فإنه لم يسهل الاحتفاظ بما امتلكوه. وقد كان البرتغاليون متعصبين، وطغاة، ومجردين من الروح التجارية الحقة.

لورد كيرزون. «**فارس والمسألة الفارسية**» (1892)

في غمار حزن البرتغاليين على تفكيك إمبراطوريتهم في الشرق - وهي عملية شارك فيها الإنجليز والهولنديون والعرب جميعاً - كان في استطاعتهم أن يعزّوا أنفسهم بخاطرة نبيلة، وحسبما تقضي هذه الفكرة، فإنهم أنقذوا أوروبا، بكبح جماح طموحات إمبراطورية أخرى؛ هي إمبراطورية الأتراك العثمانيين، وقد قاموا بذلك من خلال احتلال المحيط الهندي في لحظة تاريخية حرجة، وبإيقاع الهزيمة بالأتراك في معركة ديو البحرية، فقوة النيران والبراعة البحرية البرتغاليتان هما وحدهما اللتان أوقفتا تقدم الأتراك شرقاً في آسيا بعد سقوط القسطنطينية. وكان في قدرة الأتراك - بالاستعانة بثروة فارس والهند وقوتهما البشرية - أن يصبحوا قوة لا سبيل إلى مقاومتها، وفي استطاعة جيوشهم اكتساح كل ما أمامها غرباً، من الأراضي التي فتحوها بالفعل في البلقان، وصولاً إلى المحيط الأطلسي.

وقد شاع في مختلف أرجاء أوروبا الاعتقاد بأن العالم المسيحي قد أفلت بصعوبة من هذا المصير، وذلك حتى وقت غير مبكر من القرن الثامن عشر، عندما كان حصار فيينا الثاني من قبل 150000 رجل من القوات العثمانية، لايزال حياً في الذاكرة[1]. وكان أحد أنصار هذا الاعتقاد الدكتور وليم روبرتسون، وهو أحد مؤرخي أدنبرة ويتمتع بتأثير واسع النطاق، وقد أعجب بإنجازات الإسبان والبرتغاليين، وذهب إلى القول: «إن أوروبا تدين بدين لا يقدر لفاسكو داجاما لفتحه الطريق إلى الهند». وقال:

«مما حمل السعادة للجنس البشري أن حكومة الإمبراطورية العثمانية القائمة على الطغيان» كنتيجة مباشرة لذلك «حيل بينها وبين مد نطاق سيطرتها ليشمل أوربا وبين القضاء على الحرية والعلم والذوق الرفيع»[2].

غير أن مثل هذا التفلسف لم تكن له قيمة تذكر في نهاية القرن السابع عشر، عندما قرع فقدان ممباسا جرس جنازة السلطة البرتغالية في النصف الغربي من المحيط الهندي. وانضم حصن اليسوع الذي شيد ليقف رمزاً للتفوق المسيحي الدائم إلى قائمة الممتلكات التي كانت مرموقة ذات يوم، فأصبحت الآن في أيدي الخصوم وهي: هرمز، ومسقط، وكوشين، وملجا، وسيلان، وحتى بومباي، لقيت جميعها المصير ذاته.

ويمكن إلى حد كبير إلقاء المسؤولية عن انهيار «دولة الهند» البرتغالية على كاهل شكل الحكم السائد في لشبونة، والمنتمي على نحو عتيد إلى القرون الوسطى؛ فكل منصب رفيع - ومعه فرصة الثراء - كان يمنح بحسب الهوى العرضي الملكي. ونظرياً احتكر الملوك البرتغاليون تجارة جزر الهند الشرقية، ولكن على الدوام كان يسرقهم النبلاء الذين كانوا موضع رعايتهم. ولما كان يفترض أن كل أرستقراطي في الشرق يراكم الثروات من خلال منصبه، فما كان له إلا أن يتوقع الحسد من مرؤوسيه. وكان النظام الاستعماري المتصلب غير مؤهل للحفاظ على السيطرة على الرجال والأحداث وراء رأس الرجاء الصالح. وفي البداية كانت كل القرارات المهمة تحال إلى لشبونة، ولكن بما أن تبادل الرسائل قد يستغرق عاماً ونصف العام، وفي نهاية هذه الفترة كان من الممكن أن تسود وضعية مختلفة تمام الاختلاف، فإن نواب الملك ومرؤوسيهم ترك لهم المزيد والمزيد من الشؤون لحسمها من خلال توجهاتهم المشكوك في أمرها[3].

وفوق ذلك فإن اقتصاد البرتغال قد استنزف خلال الستين عاماً التي تعرض فيها لـ «الأسر» على يد إسبانيا، بعد أن وصل فيليب الثاني إلى العرش في العام 1580 عندما انقطع وجود عائلة أفيز المالكة. وقد وقع هذا عندما بدأ التحدي المحتم لـ «دولة الهند» البرتغالية في الظهور في بداية القرن السابع عشر. وكان طارحا التحدي فضلاً عن ذلك هما ألد أعداء إسبانيا، أي إنجلترا وهولندا. واستُدرج البرتغاليون إلى حروب فيليب الكارثية ضد الإنجليز والهولنديين، وفقد الكثير من أفضل سفنهم ورجال بحريتهم في

الأرمادا العظيم. وفرضت الضرائب على البرتغال إلى حد هوى بها إلى درك الفقر المدقع وأدى بمعنويات شعبها إلى الشلل. وكانت البرتغال الصغيرة حجماً والمتخلفة في المستوى، قد حافظت عليها النزعة الوطنية في مواجهة كل الظروف. أما الآن فإن قلة من رعاياها في الشرق هي التي ترغب في القتال والموت من أجل فيليب الثاني البغيض الذي يحكم في الجانب الآخر من العالم، وأصبح النفع الذاتي هو الحافز الأساسي الذي يحرك هؤلاء الرعايا.

وشجع بعد المسافة كذلك على فقدان الضوابط الاجتماعية؛ فقد كانت الرحلة إلى الهند طويلة للغاية وحافلة بالأخطار البالغة، حتى إن الكثير من البرتغاليين قرّروا نسيان الروابط القديمة وإلقاء أنفسهم كلية في ملذات المناطق الاستوائية. وقد لوحظ هذا الاتجاه الذي أثار يأس رجال الدين في جوا في وقت مبكر يعود إلى خمسينيات القرن السادس عشر بمزيد من الاستياء؛ «ذلك أن هناك من تجاهلوا ضمائرهم وغرقوا في الخطيئة، إلى حد أنهم تركوا عشرين عاماً أو ثلاثين تمضي من دون أن يتذكروا أنهم متزوجون، ومن دون أن يعولوا زوجاتهم أو يكتبوا إليهن»(4). وحتى أكثر المجتمعات زهداً كان يمكن أن تتفاقم الضغوط عليها مع تعدد الأعداء، بحيث لا يتاح لها الدفاع عن إمبراطورية البرتغال البحرية المترامية، ولم يؤد التكاسل واليأس وانحطاط المعنويات إلا إلى التعجيل بسقوطها. فقد تم تمجيد مثالية الغزاة في الشرق في أشعار كامونس ولكن الستائر تميل إلى أن تسدل على المشاهد السوداوية في العصور اللاحقة.

وربما كان أكثر وصف للشرق البرتغالي إفصاحاً عن التردي الرهيب هو ذلك الذي قدمه الفرنسي الذي ارتحل طويلاً وجاب الآفاق جان موكيه، والذي حمل اللقب التشريفي «أمين خزانة طُرَف ملك فرنسا». وقد جمع موكيه بين الاهتمامات العلمية حيث كان دارساً لعلم النبات على جانب من الشهرة، والولع بالقيل والقال. وقد مضى إلى جوا في النصف الأول من القرن السابع عشر، على متن إحدى السفن المبحرة في أسطول مؤلف من ثلاث عشرة سفينة، يقوده نائب جديد للملك، هو الكونت دي لافيرا.

كانت الرحلة أقرب إلى الكارثة منذ البداية، وتوضح الصورة التي يرسمها موكيه للظروف السائدة في المناخ الأطلسي العاصف بشكل جلي السر في أن الرحيل عن لشبونة كان بمنزلة حكم الإعدام: «ساد بيننا أعظم قدر يمكن تخيله من الاضطراب والفوضى، بسبب من اصيبوا بحالات القيء والإسهال، ولم يكن هناك ما يسمع إلا النواح والأنين... وراح الركاب يلعنون وقت رحيلهم، وآباءهم، وأمهاتهم، وأنفسهم».

وسرعان ما انهار نائب الملك نفسه، ولم يكن وحده، حيث كان هناك آخرون يحتضرون في الأركان وفي وسط أسطح السفن ووراء الصناديق «والفئران تلتهم عيونهم وبطون أقدامهم». وسرعان ما أصيب موكيه بمرض الأسقربوط «الذي يسميه البرتغاليون داء البربر»؛ حيث يمضي كل يوم في جانب السفينة، ليشق لثته الآخذة في التحلل. «متوقفاً إلى جوار حبال السفينة، ومرآة صغيرة في يدي لأرى موضع القطع» ولدى انتهائه من قطع اللحم المتحلل «واستنزاف دم أسود وفير» يغسل موكيه فمه، حيث يذهب إلى القول إن أفضل علاج للأسقربوط هومنقوع القرنفل و«النبيذ الأحمر الطيب».

ويصل الأسطول إلى موزمبيق بالفعل، ويتوقف هناك بلا حراك خمسة أشهر، حيث لم يلحق بالرياح الموسمية التي كان يمكن أن تمضي به إلى الهند. ويرتفع معدل الوفيات إلى ما يتراوح بين عشر حالات إلى خمس عشرة حالة يومياً، ويبلغ الإجمالي 725 حالة وفاة. ويشفى موكيه من مرض الأسقربوط الذي أصيب به، ولكن متاعبه تظل أبعد ما تكون عن الانتهاء؛ لأن قائد الأسطول يصل إلى الظن بأنه جاسوس، يعكف سراً على إعداد خريطة بحرية لفرنسا، ويأمر بإيداعه السجن على البر مع تطويق عنقه بالحديد. وتسلب من الفرنسي نقوده ويوشك أن يتضور جوعاً، ولكن يتم إطلاق سراحه بعد ثلاثة أسابيع، ويسمح له بالعودة إلى الأسطول؛ فيكتب قائلاً بانحياز مفعم بالمرارة: «البرتغاليون، باعتبارهم من جنس اليهود أساساً، قساة بطبيعتهم، وناكرون للجميل».

ويغامر بالنزول إلى الشاطئ مجدداً لدراسة النباتات، حيث يجد «ألف نوع من النباتات والفاكهة مجهولة بالنسبة إلي»، وخلال أشهر انتظار هبوب الرياح الموسمية،

يجمع موكيه كل أنواع الثرثرة والقيل والقال التي يمكنه جمعها حول الأفارقة، بما في ذلك حكاية رهيبة حول جنود المونوموتابا[5]. ويدون كل طرفة تصل إلى مسامعه، بغض النظر عن فظاعتها أو بعدها عن إمكانية الحدوث، بما في ذلك طُرفة عن مصير السجناء الهولنديين الذين تم تسليمهم للأفارقة، ويزعم جندي أنه شاهد أحد أكلة لحوم البشر «يقطع عنق أحد الهولنديين. . . ويشرب من الدم حاراً».

وعندما يتم الوصول إلى جوا أخيراً، يتحول موكيه باهتمامه إلى تمحيص سلوك المستوطنين البرتغاليين ومواقفهم؛ حيث يقول: «فور وصولهم إلى جز الهند يطلقون على أنفسهم ألقاب النبالة، فيدعون أنفسهم بلقب الفيدالجو، أي السيد المهذب، على الرغم من أنهم ليسوا إلا فلاحين وتجاراً» ويرفضون دفع الفواتير المستحقة عليهم في الحوانيت، ويعذبون الهندوس بالتهديد بقتل الطيور أو الحيوانات، إلى أن يجد الهندوس المال لشرائها وإطلاق سراحها. «ويقوم البرتغاليون بهذا عن عمد لابتزاز مالهم».

ويصدم موكيه حيال المعاملة التي يلقاها العبيد «عندما كنت في النُزُل الذي أقمت به في جوا، لم أكن أسمع شيئاً سوى اللطمات طوال الليل وبعض الأنّات التي يند عنها نحيب، حيث كانوا يكممون أفواههم بقطع من قماش كتاني لمنعهم من الصراخ». ويورد قائمة بأنواع عديدة من التعذيب يتم إنزالها بالعبيد، وأحد هذه الأنواع يتم باستخدام دهن الخنزير المغلي، ونوع آخر يتم إنزاله باستخدام الموسى لإحداث جروح تدلك بالملح والخل. ولم يكن كل العبيد من الأفارقة، بل كان الكثير منهم هنوداً، وبعضهم من اليابان والصين[6].

وفي وقت سابق كتب لينشوتن الكاتب العامل لدى كبير الأساقفة يقول: «يحمل من موزمبيق أعداد كبيرة من هؤلاء الكفرة إلى الهند، وفي مرات عديدة يباع الرجل أو المرأة الذي بلغ تمام قوته مقابل دوكاتيتين، أو ثلاث دوكاتيات». وكان كاريري أكثر دقة وتحديداً، حيث يقول إن العبيد يجلبون من ممباسا وسفالة وموزمبيق «ومناطق أخرى على امتداد ساحل أفريقيا». وقد أسر بعضهم في الحروب الأفريقية وبيع للسفن البرتغالية المارة، ولكن آخرين باعوا أنفسهم «يأساً» خلال المجاعات. وكانوا لايزالون

في غاية الرخص «خمسة عشر أو عشرون كراوناً نابولياً للرأس» إلى حد أن كاريري اعتقد أنه سيكون هناك المزيد منهم في جوا لولا الخرافة الشائعة في صفوف الأفارقة، والقائلة إن البرتغاليين ما اشتروهم إلا ليحوّلوا أجسامهم إلى بارود. ومضى يقول: «لكن هؤلاء الأفارقة الذين نتحدث عنهم – على الرغم من سوء الظن بهم – كان بعضهم من النبل والتهذيب بحيث إنه من البركة أن يغدو كل سيد أوربي مهذب على شاكلتهم».

ولم يكن البرتغاليون هم وحدهم الذين استسلموا لمناخ الشرق وثقافاته، فقد اكتشف الهولنديون والإنجليز سريعاً مدى عبث أحلامهم حول إعادة بناء صرح الأخلاق البروتستانتية، وسلوك شمالي أوربا المنمق في المناطق الاستوائية، فقد كانت كل سفينة تجارية تبحر إلى المحيط الهندي تحمل «سراي» مؤلفاً من المحظيات. وأعلن ميجور صمويل شو القنصل الأمريكي في كانتون في أواخر القرن الثامن عشر حنقه لاكتشاف أن «فتيات المتعة» الخاصات بقباطنة السفن القادمة من الهند، يقمن وسط العائلات المحترمة. وكانت هؤلاء «المخلوقات» على نحو ما دعاهن شو، يتحدرن جزئياً من أصول ماليزية أو جوانية. وقد اكتسبت بومباي منذ وقت طويل صيتاً سيئاً بسبب غرقها في الخطيئة. وبالمثل اعتمد العديد من السفن البريطانية المتجهة إلى الشرق من كلكتا على الأفيون المهرب إلى الصين للحصول على أرباحها.

ومن ناحية أخرى فإن الشركات المرخص لها بممارسة التجارة والأنشطة الأخرى، لم تثقل كاهلها بالمبادئ السامية التي أسست «دولة الهند» البرتغالية عليها؛ فهي لم تكن مسؤولة أمام الرب، وإنما أمام حملة الأسهم (ولذا فإنه عندما أفلست الشركة الفرنسية لم يعد لها وجود على الإطلاق). وقد أحرقت محاكم التفتيش في جوا الهراطقة الهنود على المحرقة، بينما لم تقم الشركات المرخص لها حتى بمنح المبشرين حق الركوب على سفنها مجاناً.

وتذكر الكثيرون جيداً كلمات الملكة اليزابيث وهي تمنح مباركتها للشركة الإنجليزية، فعلى المؤسسين «خوض غمار المغامرة بحثاً عن عروض التجارة، والذهب، واللؤلؤ، والمجوهرات، وغيرها من السلع التي يتعين شراؤها، أو

مقايضتها، أو جلبها، أو مبادلتها، أو الحصول عليها بطرق أخرى». وكان من الممكن تفسير تعبير «الحصول عليها بطرق أخرى» على أنه يشمل أي نوع من أنواع الخداع والقرصنة.

وأصبح الإنجليز بصورة حتمية مفتقرين إلى الأمانة على نحو أذهل مواطنيهم الذين قاموا بزيارتهم. وأبلغ روبرت كليف مجلس المديرين في شركة الهند الشرقية في العام 1765 بالأوضاع التي وجدها:

«أدى الاستيلاء المفاجئ وغير المسوغ من قبل الكثيرين على الثروات إلى الترف بكل أشكاله وفي أكثر جوانبه خبثاً وضرراً... وظن كل شخص أن له الحق في أن يثري في كل الأحوال وبقدر ما يستطيع... وأخشى أن مصادر الطغيان والقمع التي فتح الأبواب لها الوكلاء الأوربيون العاملون في ظل سلطة مسؤولي الشركة، والوكلاء والوكلاء الفرعيين السود، الذين لا حصر لهم، العاملين تحت رئاستهم، ستظل مسؤوليتها تلقى على كاهل الإنجليز في هذه البلاد، ومن المستحيل حصر الشكاوى التي رفعها إلي السكان من ذوي الطالع السيئ.

وبلغت الفوضى في سبعينيات القرن الثامن عشر الحد الذي دفع الشركة إلى اقتراض مليون جنيه استرليني من الحكومة، وبالمقابل تخلت عن جانب من استقلالها لها.

وكان من الحجج التي طرحت في معرض الدفاع وطلب العذر عن الفساد والخداع السائدين، أن معظم موظفي الشركة الإنجليزية يتلقون رواتب محدودة، ويحتمل أن يموتوا في صدر أعمارهم. وكان ذلك صحيحاً؛ فالكتبة الشبان الذين تقلهم السفن إلى خارج إنجلترا كانوا في بعض الأحيان يصابون بحمى البول الأسود أو الملاريا في غضون أسابيع قلائل من وصولهم إلى كلكتا أو بومباي أو مدراس. وقد وصل رجل دين يدعى جيمس أوفينجتون إلى بومباي قادماً من إنجلترا في عام 1690 في بداية الموسم المطير، وفي نهاية الموسم لم يبق على قيد الحياة إلا أربعة من أربعة وعشرين رفيقاً له في السفر، ولقي خمسة عشر بحاراً في السفينة التي أقلتهم حتفهم. وكتب أوفينجتون يقول: «إن أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر كانا «شهرين قاتلين»،

حيث إن اشتداد الرطوبة «أدى إلى تخمر الهواء» ورفع درجة الحرارة «على نحو بالغ، إلى حد أن أحداً لم يستطع الصمود في وجه تأثيرها الجالب للحمى على الأرواح»(7). وفي إحدى السنوات لقي ثلث السكان البيض المقيمين في كلكتا حتفهم خلال الموسم المطير، وأصبح من المألوف إقامة حفلات عشاء يردد فيها من حضروا صلاة الشكر على بقائهم على قيد الحياة.

غير أن التجاوزات التي أقدم عليها كبار المسؤولين الذين أطلق عليهم لقب «النواب» قد أثارت الاستياء. وقد عبر الشاعر وليم كاوبر(8) عن هذا الاستياء بمزيد من الانفعال في عام 1781(9).

وفي وقت انهيار شركة الهند الشرقية البريطانية، بعد تمرد عام 1856، أوجز سير جورج كورنوول لويس وزير الخزانة السابق، خصائص الشركة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عندما قال أمام البرلمان البريطاني: «إنني أؤكد بمزيد من الثقة أنه لم توجد على وجه الأرض حكومة متحضرة أكثر فساداً ولا غدراً ولا شراً».

وأياً كانت بشاعة السجل الأخلاقي، فلا مجال لإنكار أن التجارة مع الهند قد فعلت الأعاجيب لصالح رفاهية إنجلترا ورخائها. وكما كانت الحال بالنسبة إلى ملكية المزارع التي تقوم على العمل العبودي في جزر الهند الغربية، فإن التجارة الشرقية كانت ذات عائد هائل، حيث ساعدت لندن على أن تصبح مركزاً تجارياً، ومولّت بناء العديد من الدور الفخمة، وكان في استطاعة رجال من أصول متواضعة، ويحظون بقوة جسدية تمكنهم من الصمود في مواجهة حمى المواسم المطيرة، وبذكاء يتيح لهم إبرام صفقات طيبة، أن يراكموا ثروات طائلة في الهند. ومن بين «المتطفلين» (أي التجار غير المرخص لهم) توماس بيت الذي وصل إلى منصب حاكم الهيئة الرئاسية في مدراس، والذي أسس عائلة ذات نفوذ سياسي يضارع نفوذ العائلات المالكة. وتولى ابنه وحفيده منصب رئيس وزراء إنجلترا. وكان منهم أيضاً إلياهوييل، وهو أمريكي من بوسطن، وقد أصبح بدوره حاكماً لمدراس، وزوّج اثنتين من بناته لعائلتين إنجليزيتين أرستقراطيتين، وأسس جامعة ييل. وكانت حياته العملية أبعد ما تكون عن المثالية، وتنتهي أبيات الشعر التي نقشت على شاهد قبره في لندن في عام 1721، ببيتين يوحيان بالقلق:

أتى الكثير من الخير، وبعض الآثام، وهكذا فإن الأمل بين بين

في أن تمضي روحه، برحمة بارئها، إلى الفردوس[10].

وقد أصبحت الشركات المرخص لها بفضل نجاحها المالي، نماذج تحتذى للمشروع الرأسمالي في أوربا، وقطع تأثيرها شوطاً أبعد، حيث إن صادرات الشرق كان ثمنها يدفع على نحو متزايد، بقطع نقدية مسكوكة من الفضة المستخرجة من مناجم الأمريكتين. ثم في غمار الانبعاثات الأولى لثورة أوربا الصناعية، جاء نذير بالصراع الذي لا ينتهي بين التجارة الحرة والصالح الذاتي الوطني، عندما كبح المنتجون الإنجليز جماح الواردات من الموسلين من البنجال إلى حد الاختناق، وذلك عن طريق الاحتيال للأمر بفرض ضريبة جمركية تصل نسبتها إلى 75٪ على كل الواردات من السلع القطنية الهندية. وكانت الخطوة التالية هي إدخال المنسوجات القطنية الإنجليزية المنتجة في ظل نظام الإنتاج الكبير بالمغازل التي تعمل بالطاقة، من دون أي رسوم جمركية، إلى كل الأراضي التي تسيطر عليها شركة الهند الشرقية. وفي غضون ثلاثين عاماً تم القضاء على صناعة قديمة كانت حياة الملايين من النساجين اليدويين الهنود تعتمد عليها.

ويلاحظ سير جورج بيردوود أحد المسؤولين الكبار بالشركة، أن الخراب الذي ضرب دكا والمدن الهندية الأخرى التي كان الموسلين يصنع فيها كان «محزناً ومذلاً». وما كان في وسعه التنبؤ بأنه في غضون قرن سيلحق الخراب إلى حد كبير بصناعة القطنيات الإنجليزية ذاتها، من خلال إنتاجها في الشرق باستخدام آلات باعتها بريطانيا هناك.

الجزء الثالث

وصاية مفروضة

الفصل السابع والثلاثون

مستوطنون على الطرق الجنوبية المؤدية إلى الهند

> يا أصدقائي، من كل مئة رجل - خاصة إذا كانوا جنوداً - يمضون إلى الهند نادراً ما يعود أكثر من الثلث أحياء . . . تذكروا هذه الأمور يا أصدقائي، ولا تذهبوا إلى الشرق!

أوتو منتزل ـ **«الحياة في رأس الرجاء الصالح في منتصف القرن الثامن عشر»** (1784)

بلغ تعداد المستوطنين البيض في رأس الرجاء الصالح (كيب تاون)، في خمسينيات القرن الثامن عشر ستة آلاف نسمة. وأدى تردد مديري شركة الهند الشرقية الهولندية في السماح بتحويل «محطة إنعاش» إلى مستعمرة إلى إثارة حماس حكام متتابعين. وحقّق رأس الرجاء الصالح بصورة متزايدة الاكتفاء الذاتي، بل إنه زرع بالقمح للتصدير إلى جزر الهند الشرقية. واستقر بعض البوير (وهو اسم يعني حرفياً: المزارعين) بعيداً في الداخل الأفريقي. وهناك قطعوا أشجار الغابات وزرعوا الأرض وشرعوا في تربية الأغنام والماشية. وكانوا إذا صادفوا أبناء القبائل البوشمن يبادرون بإطلاق النار عليهم. وقد استعبدوا بصفة عامة الخويخوي (الهوتنتوت) ولكنهم اتخذوا في بعض الأحيان من بعض نسائهم زوجات لهم. كما مضى هؤلاء البوير الذين راحوا يشقون طريقهم بصعوبة، في القيام باتصالاتهم الأولى قرب نهر فيش مع خصوم أشد بأساً هم الهاوسا، الذين كانوا رأس حربة البانتو المقيمين في الداخل الأفريقي ذي الاتساع الهائل.

مضت نذر الصراع التاريخي هذه إلى حد كبير من دون أن يرصدها أحد في شبه جزيرة الكاب، فقد كان السكان هناك يتطلعون إلى البحر، ونادراً ما كانوا يتطلعون إلى أفريقيا. وكانت أعدادهم لاتزال محدودة، ومع ذلك فقد كانت هذه المستعمرة هي الأكثر ازدهاراً خارج الأمريكتين وفيما وراء البحار، والتي تتألف من الأوروبيين، وتحتفظ عن وعي بالثقافة الأوروبية المغروسة في أرض غريبة. وبدا مما لا شك فيه أن

أمنية فان رايبك التي تعود إلى مئة عام مضت، بأن سكان المدن الأحرار سوف «ينظرون في الوقت المناسب إلى هذه البلاد باعتبارها أرض الآباء» كانت تتحقق.

غدت كيب تاون الآن مرفأ رائجاً تمرّ به السفن من كل الأمم لتقوم بنشاط الأعمال والتجارة في المحيط الهندي. وحظيت بلقب «حانة المحيطَين». وكسب مواطنو شوارع كيب تاون المنظمة بشكل جيد عيشاً يتسم بالبحبوحة، عن طريق تأجير الغرف للبحارة الذين تتوقف سفنهم في المرفأ. وقد عقب عميد بحري هولندي يدعى جان سبلنتر ستافورينوس في ملاحظات حول انطباعاته عن الكاب، على شغف أهلها الذي لا يكبح له جماح بانتزاع المال من الأجانب. وكان الإنجليز موضع ترحيب كبير من جانبهم؛ لأن بحارتهم بدوا الأكثر إنفاقاً بين من يرتادون الكاب[1].

وقد مر بالكاب زائر إنجليزي رفيع القدر في خريف عام 1744، هو الكومودور جورج أنسون، الملقب بأبي البحرية الملكية الإنجليزية. وكان في مرحلة قريبة من ختام رحلة مرهقة وخطرة حول العالم. وسجل الراهب الذي ارتحل بصحبته، ريتشارد والتر، أن الكومودور ابتهج كثيراً في الكاب وفي مستعمرتها المتحضرة؛ فالفاكهة وغيرها من الأطعمة هي الأشهى بين ما يمكن أن يصادفك في أي مكان، والهواء عليل والماء ممتاز. وباختصار فإن «هذه المستعمرة هي الأفضل من بين نظائرها في العالم المعروف لإنعاش رجال البحر بعد رحلات طويلة». وكتبت السيدة جميما كيندرسلي التي توقفت في كيب تاون في طريقها إلى كلكتا سنة 1765 في رسالة إلى الوطن بحماس مماثل تقول: «لم أزر من قبل قط مكاناً يبدو أن الناس يحظون فيه بمثل هذا القدر من الارتياح؛ فالأثرياء للغاية قلة، ولا وجود للفقراء على نحو بائس».

ومن الطبيعي أن جميما كيندرسلي، وهي ابنة العصر الذي عاشت به، لم تدرج كل سكان الكاب في حكمها هذا. فقد جاءت من بلاد أثْرت موانيها - كبيرها وصغيرها - من إرسال سفن الرقيق إلى غرب أفريقيا منذ العهد الأليزابيثي، بلاد اعتمدت مستعمراتها الأمريكية الشمالية على عمل العبيد الأفارقة. ولما كان الإنجليز يتمتعون بالهيمنة على تجارة الأطلسي، فإن قلة محدودة منهم فحسب هي التي كان يمكن أن تنتقد الأوضاع السائدة في الكاب التي يزيد عدد عبيدها كثيراً على عدد سكانها

الهولنديين، ومن دون عمل هؤلاء العبيد، ما كان يمكن للمستعمرة أن تزدهر[2]. وكان الشيء الوحيد الملحوظ هو تنوع العبيد، فبعضهم جاء من غرب أفريقيا، والبعض الآخر من جاوة والصين، وآخرون من مدغشقر القريبة على نحو ملائم للغاية. وكانت هناك أقلية من الخويخوي، على الرغم من أن الكثيرين من هؤلاء قد لقوا حتفهم عام 1713 من جراء الإصابة بالجدري الذي انتقلت عدواه من الملابس المتسخة التي بعثت بها إلى الشاطئ السفن الراسية في المرفأ. وبدأ الناجون منهم يتزاوجون مع مجموعات العبيد الأوسع نطاقاً. وفي شريحة اجتماعية تقع بين سكان المستعمرة الأحرار وأقنانهم، كان هناك العبيد الذين أعتقوا، وهم الأبناء الذين جاؤوا إلى الدنيا ثماراً لعلاقات بين البيض والسود، أو المسيحيين السود الذين جرى تعميدهم. وأعتق آخرون لقيامهم بأعمال تشهد لهم بالبسالة، أو لقيامهم بالوشاية برفاقهم من العبيد الذين يعدون للهرب. وكان من اليسير التعرف على هوية العبيد الذين نالوا حريتهم حيث كانوا يعتمرون القبعات وينتعلون الأحذية.

وقد عومل العبيد في الكاب معاملة جيدة بصفة عامة، في إطار القواعد الصارمة التي تفرضها النزعة الكالفينية التي تشكل المذهب الديني لسادتهم، وأدمج عن كثب العديد منهم في العائلات التي تمتلكهم. غير أن الرد على أي تلميح إلى التمرد كان رداً رهيباً. وغالباً ما كان العبيد يلوذون بالهرب في السنوات الماضية، وكان الكثيرون يتذكرون جيداً كيف توهجت النيران التي أوقدوها موحية بالوعيد على منحدرات «تيبل ماونتن». أما المعاملة الآن فقد كانت تتوقف على المثال الذي يضربه حكام الشركة، وقلة منهم هي التي أظهرت مناقب الرحمة. وكشفت العقوبات التي أنزلت بالعبيد المخطئين عن نزوع إلى الإرهاب، خوفاً من الاضطرار إلى إبلاغ مديري شركة الهند الشرقية الهولندية المعروفين بـ«السبعة عشر» في أمستردام بأنه تم السماح لاضطراب أمني بأن يطفو إلى السطح.

وفضلاً عن ذلك فإن الأنباء حول الانتفاضات المتكررة التي يقوم بها العبيد في جزر الهند الغربية كانت تدعو إلى الشعور بالخطر، ففي عام 1760 ثار ألف من العبيد في جمايكا، معلقين الآمال بلا طائل على قتل البيض كافة، وتحويل الجزيرة إلى جمهورية

زنجية، ودامت الاضطرابات ستة أشهر، وتوّجت جارية، أعـدمت في وقت لاحق، ملكة على الجزيرة. ولو أن أي انتفاضة مماثلة حدثت في الكاب، وخرجت عن نطاق السيطرة، لهددت وجود المستعمرة ذاته، فقد كانت أوربا أكثر بعداً من أن يتم اللجوء إليها طلباً لتعزيزات عاجلة وقت الشدة. ولذا ثمة إجراء احترازي تم فرضه بصرامة، وتمثل في الحرص على ألا يضع العبيد أيديهم على الأسلحة أبداً.

بينما كانت السيدة كيندرسلي في كيب تاون، أعدم عبد مجنون، أدين بتهمة توجيه طعنات. وخلال احتضاره تم تعذيبه «باستعمال أدوات للحرق بطريقة بشعة لا يمكن وصفها». وقبل عدة سنوات كان ثمانية عشر عبداً هارباً قد أشعلوا النار في عدة بيوت، ولكنهم سرعان ما قبض عليهم وأودعوا في أقبية القلعة، وأفلح ثلاثة منهم في الانتحار لمعرفتهم بما ينتظرهم، أما باقي العبيد فإما أنهم خوزقوا أو شنقوا أو قيدوا أحياء إلى العجلة بعد تهشيم أذرعهم وسيقانهم بعصى حديدية. وشنقت النساء على مهل، بينما كان مساعد الجلاد يلوح أمام أعينهن بحزم من الأغصان المشتعلة. ويقول أوتو منتزل، وهو معلم أطفال ضابط رفيع الرتبة، في مذكراته إنه: «من المعتاد في الطقس الدافئ أن يظل العبيد الذين تمت خوزقتهم أو هشمت أطرافهم على العجلة على قيد الحياة ما بين يومين أو ثلاثة أيام، ولكن في هذه المرة كان الجو بارداً، فلفظوا جميعاً أنفاسهم الأخيرة عند انتصاف الليل». وساد الاعتقاد بأن مثل هذا العقاب ضروري للحفاظ على ذلك المناخ الهادئ الذي أدخل البهجة في نفوس زوار الكاب بعد رحلاتهم البحرية الطويلة.

وقد برهن العبيد المجلوبون من مدغشقر إلى الكاب على أنهم أكثر العبيد تمرداً؛ وكان شراؤهم حافلاً بالمخاطر؛ لأن العديد من الحكام محدودي النفوذ على الساحل الغربي للجزيرة كانوا من الزانا - مالاتا المرهوبين، وهم الخلاسيون المتحدرون من أصلاب القراصنة. وكان العبيد المالاجاشيون كذلك باهظي الثمن، حيث يبلغ ثمن الواحد منهم 35 «مكسيكياً»، وهو الدولار الفضي الذي عرف أحياناً بالريال الإسباني (كانت ثالرات* ماريا تريزا، التي تعرف كذلك بالدولارات، أو القرش، عملة أخرى رائجة في المحيط الهندي)[3]. غير أن الحاجة كانت ماسة على الدوام إلى شحنات

* الثالر: نقد جرماني فضي توالى إصداره من القرن الـ 15 إلى القرن 19. (المحرر)

جديدة؛ لأن العبيد ما كانوا ليعيشوا طويلاً في الكاب، حيث لم يكن في استطاعتهم التأقلم مع مواسم شتائها الشديدة البرد، وكان نصفهم يموت في غضون عام.

في أوائل السبعينيات من القرن الثامن عشر، قرر مسؤولو شركة الهند الشرقية الهولندية في الكاب إرسال بعض سفنهم عبر مسافة تمتد إلى ما يزيد على ألفي ميل إلى زنجبار في بعثات تجارية لشراء العبيد. وبقيت روايتان عن هذه الرحلات كتبهما اثنان من كتبة الشركة؛ هما فريدريك هولتزابل وكونستانت فان نولد أونكريجت. ولم تكن لدى أي منهما فكرة عما يتوقعه لدى الوصول الى زنجبار، حيث إنهما كانا يقطنان في مركز معزول عن باقي أفريقيا. وقد خلت الرحلتان صعوداً مع الساحل الأفريقي من الأحداث، ولدى الوصول إلى زنجبار، ذهل الكاتبان حيال الثروات التي وجداها في أسواق الجزيرة، حيث عرضت للبيع الحرائر والخزف الصيني والسجاجيد البديعة والحلى الذهبية. ولم تثر السلع التي جلباها للاتجار فيها اهتماماً يذكر في صفوف التجار المحليين، وإنما تركزالطلب على «الدولارات المكسيكية».

علم الكاتبان كذلك بالسلطة واسعة النطاق التي يحظى بها السلطان العُماني في مسقط. وقد قام الحاكم المختار من قبله بحكم زنجبار واحتل أحد الرجال الذين عينهم، وهو من عائلة المزاريع القوية، حصن اليسوع في ممباسا (وكان انتزاع الحصن من أيدى البرتغاليين قبل ثمانين عاماً قد غدا أسطورة يتغنى بها الشعراء على امتداد الساحل). وأبلغ حاكم زنجبارالهولنديين بأنه تلقى أوامر مشددة بألا يبيع العبيد قط للنصارى، حيث إن «التجارة بأسرها على امتداد الساحل ينبغي أن تكون في أيدي العرب». وكانت الدوافع التي حدت بالسلطان الى إصدار هذه الأوامر دينية وتجارية كذلك؛ فالعبيد الذين يمتلكهم المسلمون يفترض أنهم سيدخلون رحاب الدين الحق.

وألمح حاكم زنجبار مع ذلك إلى أنه قد يكون في استطاعته توفير بعض العبيد إذا ما تمت مساعدته على ذلك بقرض قيمته خمسمئة دولار مكسيكي؛ وقام الهولنديون على نحو ساذج بدفع هذا المبلغ لكنهم لم يتلقوا شيئاً بالمقابل، ثم عرض شاب - وصف على نحو غريب بأنه «راهب» - إمدادهم بالعبيد سراً، وفي منتصف الليل نقل بالقوارب المنحوتة في جذوع الأشجار تسعة عشر رجلاً وامرأة وطفلاً. وكتب أحد

الكاتبين الهولنديين باكتئاب يقول: «إن ضوء القمر يعوق إلى حد كبير مجيء العبيد إلى السفينة».

كان ذلك عملاً بطيئاً حافلاً بالمعاناة، وتعيّن إيواء المجموعات الأولى من الأفارقة الذين تم شراؤهم في ظروف تجمع بين الحر والرائحة المقيتة تحت سطح السفينتين إلى أن يتم جمع عدد كاف منهم، وسرعان ما بدؤوا في الوقوع ضحية للأمراض، وكان بعضهم ما يزالون صغاراً على صدور أمهاتهم أدرجوا في السجل على أنهم «رُضَّع». وأعرب فان نولد أونكريجت عن شكواه من أن العبيد الذين تم شراؤهم في زنجبار كانوا ضعفاء بالفعل؛ وأرجع ذلك إلى مجاعة على البر الأفريقي تفاقم تأثيرها بفعل تدفق أسراب من الجراد. ويقول هولتزابل إن مشتري العبيد كان عليهم «التوغل في الداخل» حاملين معهم أغراضاً تجارية ليدفعوا بها الثمن. وكان قد سمع بأن مئتي شخص أقبلوا من الأدغال دفعة واحدة وعرضوا بيع أنفسهم؛ لأنهم كانوا يوشكون على الموت جوعاً.

أبحرت إحدى السفينتين شمالاً على أمل العثور على عبيد أقل ثمناً وأقوى بنية، واجتازت ماليندي التاريخية التي أصبحت الآن في أيدي «سكان محليين معادين» وذلك للوصول الى ميناء برافا. «اخترنا عبداً وجارية، ولكننا رفضنا شراء جاريتين عجوزين وثلاثة صبية صغار؛ لأن التاجر رفض تخفيض الثمن» ومن الطبيعي أن الكاتبين كانا منشغلين كثيراً بالأسعار؛ فالسعر الحالي للعبد الأفريقي السليم يبلغ 25 دولاراً، أو 120 رطلاً من البارود (كان ثمن البقرة 30 رطلاً من البارود). ولكن بعد جهود استغرقت عاماً، لقي خلاله العديد من رجال طاقمي السفينتين حتفهم، كانت إحدى السفينتين قد جمعت ثمانية وستين عبداً، بينما كانت الأخرى أكثر توفيقاً، حيث بلغت حصتها 328 عبداً.

تتناثر في هذين النصين لمحات عن شرقي أفريقيا في أواخر القرن الثامن عشر، على نحو ما رأتها عيون أوربية بالغة التحامل. «فالعرب متغطرسون بما أن لديهم بشكل عام العديد من العبيد، فإنهم أكثر استعلاءً وكسلاً من أن يعملوا، وهم يؤثرون الموت جوعاً على إرغام أنفسهم على العمل اليدوي»[4]. (وإذ يجيء هذا التعبير من هولندي فإن له

مغزاه). وحاول فان نولد أونكريجت تصنيف الأنواع المختلفة من المسلمين على الساحل، حيث وضع السواحيليين في أسفل القائمة، و«المسلمين من مختلف الأعراق» في الوسط باعتبارهم «أتباعاً» والعرب في القمة، وأخيراً يضيف: «غير أنهم جميعاً يخشون حكومة مسقط أشد الخشية»

وبالنسبة إلى العبيد الأفارقة فإن آسريهم لم يكترثوا لهم باعتبارهم بشراً، وكان جُلَّ اهتمامهم هو العودة بهم أحياء إلى كيب تاون. وبرهنت رحلة السفينة الثانية التي تحمل تحت سطحها أكثر من ثلاثمئة رجل وامرأة وطفل على أنها كارثة مالية، فقد كان معدل الوفيات عالياً، وتعين إلقاء الجثث من السفينة يومياً خلال إبحارها جنوبا عبر قناة موزمبيق. وتتحول قصتها إلى مجرد سجل يومي موجز: «ذكران وأنثى»، «ذكر»، «أنثيان وصبي». ونادراً ما تتضمن اليوميات مادة أكثر إسهاباً. «الجمعة 14 تشرين الثاني/ نوفمبر. مع حلول المساء مات بالغان، وكانا أفضل العبيد على متن السفينة تقريباً. . . ولم نستطع فهم السر في موتهما المفاجئ على هذا النحو، ومن هنا اقترح الجراح تشريح جثتيهما، وهو الأمر الذي سمح له بالقيام به، ولكنه بعد التشريح والفحص الدقيق أفاد بأنه لم يجد شيئاً غير طبيعي».

تم الوصول أخيراً إلى «خليج تيبل» ولكن الرياح كانت معاكسة، فتعيَّن على السفينة الانتظار في جزيرة روبن، إلى أن استطاعت دخول المرفأ[5]. وابتهج طاقم السفينة عندما زودهم المشرف على سجن الجزيرة بعشرة خراف، حيث لم يتناولوا اللحم الطازج منذ فترة طويلة. ولكن من بين العبيد البالغ عددهم ثلاثمئة وثمانية وعشرين عبداً الذين تم الحصول عليهم بجهد جهيد في شرقي أفريقيا، لقي الثلث تقريباً حتفهم في رحلة العودة.

وبينما كان الهولنديون يتخبطون صعوداً وهبوطاً على الساحل الأفريقي، كان تاجر رقيق أعظم حنكة بكثير يبذل قصارى جهده في توجيه مسار تاريخ المحيط الهندي، وفي 14 كانون الأول/ ديسمبر 1776 وقع سلطان كلوة معاهدة صاغها رجل يدعى موريس، ونصها كالتالي:

«نحن ملك كلوة، السلطان حسن بن السلطان إبراهيم بن السلطان يوسف الشيرازي الكلوي، نعد السيد موريس الفرنسي الجنسية، بأننا سنزوده بألف عبد سنوياً، لقاء عشرين قرشاً عن العبد الواحد، وأنه سيدفع للملك مكساً قيمته قرشان عن الرأس من العبيد. ولن يكون في استطاعة أحد غيره المتاجرة بالعبيد، سواء أكان فرنسياً أم إنجليزياً أم هولندياً أم برتغالياً، أو خلاف ذلك، ما لم يتلق عبيده، ولا يطلب المزيد. وقد أبرم هذا العقد لمدة 100 سنة بينه وبيننا. ولضمان كلمتنا فإننا نمنحه حصناً يمكنه أن ينصب فيه العدد الذي يشاؤه من المدافع وأن يرفع عليه علمه. ومن الآن فصاعداً سيصبح الفرنسيون والمسلمون وملك كلوة واحداً.

ومن يهاجم أحدنا، فإننا نحن الاثنين سنهاجمه معاً.

حُرِّر في 14 كانون الأول/ ديسمبر، ومهر بتوقيعنا وختمنا».

وشهد على الوثيقة ووقع على الشهادة ثلاثة من ضباط موريس؛ هم بيشار وباين وبرووار من ضباط سفينته «لابيسين» التي ألقت مرساتها في مرفأ كلوة، حيث نظر إليها على أنها مقدمة لمشروع أكثر طموحاً بكثير؛ فقد راود موريس حلم بجعل كلوة محوراً لأول مستوطنة فرنسية على امتداد ساحل شرق أفريقيا، حيث كانت في موقع استراتيجي مناسب، يكفل لفرنسا تأثيراً دائماً في البر الأفريقي.

لا يعرف الكثير عن موريس باستثناء أنه ولد تعلم في ميناء بريست، ثم جاب أرجاء العالم عبر عقدين من الزمان كجراح سفينة في شركة الهند الشرقية الفرنسية. وبعد انهيار الشركة عام 1769 تحول إلى تجارة الرقيق بنجاح بالغ، إلى حد أنه سرعان ما امتلك أسطولاً صغيراً، تحمل سفنه أسماء مثل «لاسبيرانس» و«لوجراسو» و «لاتوال دي ماتان». وفي البداية كان يشتري الرقيق من ساحل موزمبيق، لبيعهم في جزر المارتنيك، مع التوقف في كيب تاون، لعلاج من أصيبوا بالأمراض قبل عبور المحيط الأطلسي. بالإضافة إلى أن العديد من قباطنة سفن الرقيق كانوا طغاة أفظاظاً يسيئون إلى رجالهم كما يسيئون إلى العبيد الذين يشحنونهم، فإنهم لم يروا ما يشين في عملية نقل العبيد ذاتها، وخلت مراسلات موريس من أي إشارة إلى شعوره بأن تجارة الرقيق التي امتهنها هي تجارة مستنكرة خُلقياً، وعلى الرغم من أن خلفيته الطبية جعلته

يحرص على تطعيم الرقيق عندما كان الجدري يهدد بالانتشار، فإن ذلك لم يكن إلا نوعاً من الحرص التجاري.

وحظيت خطط الجراح الذي انقلب إلى امتهان تجارة الرقيق بالتأييد من عالم وأديب جليل هو جوزيف فرانسوا كاربنتيه دي كوسيني، وهو أحد مستوطني «آيل دي فرانس»، وهي موريشوس سابقاً (بعد أن تخلى عنها الهولنديون استعمرها الفرنسيون وأطلقوا عليها هذا الاسم الجديد). ولفت موريس وكاربنتيه معاً نظر وزير البحرية الفرنسي في فرساي إلى الطابع المنطقي والمرغوب فيه الذي تتسم به خطتهما لبناء إمبراطورية. وشدد كاربنتيه على أن كلوة يمكن أن تستخدم لنشر المسيحية «أقوى الوسائل وأسرعها وأكثرها فاعلية لجعل هؤلاء الأفراد قوماً متحضرين، أي لإخضاعهم لطائلة القانون، وتغيير أفكارهم وتعويدهم على العمل، وتدريبهم على فنون الزراعة».

وأعد الاثنان معاً وثيقة طويلة[6] حول الساحل والداخل الأفريقيين، طرح فيها موريس معرفته المستفيضة رداً على أسئلة من كاربنتيه، حيث يقول إن العبيد يجلبون من مسافات تبعد ستمئة ميل عن الساحل، ويباعون لأكثر من مالك في الطريق. وفي كل عام يجمع التجار قافلة لعبور القارة إلى أنجولا، حيث تستغرق الرحلة منهم شهرين، ويمضون عن طريق بحيرة مترامية الأطراف يستغرق عبورها بالقوارب ذات المجاديف يومين «يا لها من تجربة عجيبة أن يقوم المرء برحلة مماثلة!» وقد كان اعتقاد موريس بأنه من الممكن قطع المسافة من كلوة إلى أنجولا في شهرين فقط اعتقاداً خيالياً، ولكن شهادته تحمل أصداء الصدق بصفة عامة، فهناك أدلة كافية على أن تجاراً برتغاليين شبه منبوذين، من جانبي أفريقيا، كانوا يلتقون بالفعل في أسواق قرب منبع نهر الزامبيزي.

تقع «آيل دي فرانس» على مسيرة أربعة عشر يوماً فقط بالبحر من كلوة، حيث يتم الإبحار دوراناً حول الطرف الشمالي لمدغشقر ثم الاتجاه جنوباً بشرق. وخلال الأربعين عاماً الماضية كان الموطن السابق لطائر الدودو قد تحول إلى رمز للطموح الفرنسي في المحيط الهندي، تعويضاً عن الفشل السابق الذي كللت به مستوطنة حصن ولي العهد. وكانت «آيل دي فرانس» في نظامها والشعور الذي تعطيه بالهدف الواضح

هي المقابل الفرنسي لموطئ قدم الهولنديين في الكاب، على الطرق الجنوبية المؤدية إلى الهند.

أرسيت أسس ازدهار الجزيرة في العقد التالي لعام 1735 على يد حاكم عبقري هو برتران ـ فرانسوا ماهي دي لا بوردونيه، وفي زمن موريس كانت النخبة البيضاء المؤلفة من مزارعي قصب السكر والقائمين على الإدارة يبلغ تعدادها ما يزيد على أربعة آلاف نسمة. وكانت هناك جماعة أصغر من «الأحرار» و«الكريبولي»[7] وحوالي أربعين ألفاً من العبيد الأفارقة الذين تم شراؤهم ليعملوا في مزارع قصب السكر. وفي جزيرة ريونيون كان هناك مجتمع مماثل يزرع البن والتوابل.

وإلى جانب إنجازات فترة توليه منصب حاكم الجزيرة، فإن لابوردونيه قد أبقى على حياة آمال فرنسا في طرد الإنجليز من الهند، حيث كان المرتزقة من كلتا القوتين الأوربيتين يخوضون في شبه القارة غمار الحروب الناشبة بين الأمراء المتنافسين. وبأسطول من السفن التجارية التي تم تحويلها لتلائم الأغراض الحربية، سيطر على خليج البنجال في 1745 ـ 1747 واستولى على مدراس، ولم يتخل عنها إلا لقاء فدية هائلة. وفي أوائل النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت القوتان الأوربيتان تواصلان التنافس على صداقة أمراء الهند، مع قيام قوات تابعة لكل من شركتي الهند الشرقية الخاصتين بهما بخوض غمار القتال كمرتزقة في حروب شبه القارة.

وفي المواجهات الدبلوماسية لكسب ود هؤلاء الأمراء برهن الفرنسيون بشكل عام على أنهم الطرف الأكثر حذقاً وبراعة، وكان ضباطهم ناجحين بصورة مماثلة في تدريب الجيوش في الممالك الهندية، غير أنه عندما خرجت إنجلترا منتصرة من حرب السنوات السبع (1756 ـ 1763)، جُرد الفرنسيون من مستعمراتهم في أمريكا، وتُركوا عاجزين تقريباً في الهند، في أعقاب انتصار روبرت كليف المدوي في بلاس[8]. وتمثلت ملكيتهم الوحيدة الباقية، والتي تتمتع بقدر من الأهمية، في ميناء بوندشيري في الجنوب الشرقي، ولكن الإنجليز كانوا قد هدموا كل تحصيناته الدفاعية.

وأعربت جميما كيندرسلي ذات الميول الأدبية التي كانت تجوب أرجاء الهند بعد زيارتها للكاب، عن أسفها للطريقة التي دمرت بها بوندشيري، ولكنها أحست بالفخر

لمشاهدة الطريقة التي تعزز بها الحاميات الإنجليزية، في الله أباد والمدن الأخرى. وعلى الرغم من مشاعر الفزع التي أثارتها «حفر كلكتا السوداء» قبل عشرين عاماً، فإنها أحست بالنشوة وكتبت تقول: «لو أن الموسم البارد كان هو السائد دائماً، فمن ذا الذي يكره الهند؟ إنها مبهجة حقاً! صفت السماء وما من سحابة تلوح فيها». وتعرب نبرة حديثها عن الاعتقاد الوطني بأنه بعد انتصار كليف الكبير، فإن إنجلترا قد تفوقت على منافسيها الأوربيين في الشرق، وغرست الجذور الاستعمارية الدائمة في الهند.

في سياق هذا الصراع الأوسع نطاقاً، أبرم موريس معاهدته مع كلوة، وكانت تجارة الرقيق التي يمارسها وجهاً واحداً من وجهي العملة. وفي وثيقة أرسلت إلى شخصيات رفيعة المستوى في الحكومة الفرنسية بعنوان «خطة لإنشاء مركز تجاري على الساحل الشرقي لأفريقيا» شدد على الكيفية التي يمكن بها للبر الأفريقي أن يقدم ما يكفي من الشعير لتغذية العبيد في آيل دي فرانس، ويصبح سوقاً لسكر الجزيرة. ويعد ميناء كلوة أفضل من أي ميناء شاهده على امتداد العالم، ولا مثيل له إلا ميناء ريو دي جانيرو. وكلوة ملائمة لقطع الطريق على السفن المعادية الخارجة من قناة موزمبيق والمتجهة إلى الهند. أما بالنسبة إلى منصب المقيم الرسمي في كلوة فهو على استعداد لتقلده. غير أن الرد الذي جاء من باريس في شباط/ فبراير 1779 كان رداً حذراً، حيث أبلغ إدارة آيل دي فرانس بإعطاء موريس كل دعم ممكن، وبالبقاء على علاقة ودية مع سلطان كلوة، ولكن مع عدم اتخاذ أي خطوة بخلاف ذلك.

ولم يكن من العسير البقاء على علاقة ودية مع السلطان حسن الذي سرَّه أن المعاهدة دعته بالملك، وأوردت شجرة نسبه، وصولاً إلى أصوله الشيرازية في فارس. وفي حقيقة الأمر أن كلوة التي كانت قوية ذات يوم لم تعد إلا أطلالاً، ونمت النباتات الاستوائية لتغطي دورها ومساجدها الرائعة منذ وقت طويل، وما عاد أحد يتعرف عليها بحسبانها الدولة ـ المدينة المزدهرة، التي زارها ابن بطوطة قبل أربعة قرون، وذهل لمرآها أول زوارها من البرتغاليين. ولم يبق الكثير مما يمكن للسلطان أن يتباهى به، باستثناء الزعم بانحداره من أصلاب من أقاموا المدينة قبل ألف عام. وقد كانت كلوة في وقت من الأوقات تتحكم في صادرات سفالة من الذهب، ولكنها أضحت الآن

أفضل مستودع للرقيق المجلوبين من الداخل في شرق أفريقيا. وكانت هذه التجارة هي كل ما يحول بين السلطان وحاشيته وبين الفقر المدقع.

وإلى جانب الوعد بدخل منتظم، فإن معاهدة موريس منحت السلطان حسن بعض الأمل في الحفاظ على استقلاله عن سلطان عُمان، الذي أعلن منذ عام 1750 فرض سلطته على ساحل شرقي أفريقيا بأسره، بل وكان يتطلع إلى ما وراء ذلك نحو جزر القمر ومدغشقر. وكان حاكم عُماني كذلك عين لحكم زنجبار قد وصل إلى كلوة قبل سبع سنوات من ظهور موريس، ولكن السلطان أفلح في التخلص منه. والآن ربما يقوم الرجل الفرنسي موريس بردع العُمانيين بمدافعه، عندما يحاولون العودة إلى كلوة، وهذا يفسر تظاهر المعاهدة بالشجاعة حول الوقوف معاً في وجه المهاجمين. وتعين على السلطان كذلك التفكير في التهديدات المحتملة من اثنين من إخوته، كان قد نحَّاهما ليستولي على السلطة؛ الأول لأنه سكير، والآخر لكونه معتوهاً.

وكان الحصن الذي قُدم لموريس هو قصر القبة الحسينية المهجور منذ زمن طويل، والواقع باتجاه الطرف الشمالي من جزيرة كلوة. وهنا كان يأمل في أن فرنسا سوف تؤسس مستعمرة مع حامية قوية. وراج القول إنه دفع للسلطان أربعة آلاف دولار إسباني لقاء القصر الذي نصب على أسواره ثمانية مدافع للدفاع عن المرفأ.

رفع موريس علم فرنسا بمزيد من الفخر على القصر مثلما رفعه على صواري سفنه. وكان مواطنوه يحظون بالترحيب في هذا الجزء من المحيط الهندي، حتى إن سفن الرقيق الإنجليزية غالباً ما كانت تبحر رافعة علم فرنسا، لتضمن المزيد من الترحاب والقبول. وعلى العكس من جهود الهولنديين المتعثرة، أفلح موريس في شراء تسعمئة وخمسة وعشرين عبداً من زنجبار في بداية عام 1776 (بقوا على قيد الحياة خلال الرحلة إلى آيل دي فرانس باستثناء سبعين منهم) وقد حصل شجار مع قبطان فرنسي آخر جعله يتحول من زنجبار إلى كلوة في أواخر ذلك العام.

وفجأة توقف ذلك السيل من المقترحات المسَلَّمة إلى قباطنة السفن المتجهة إلى فرنسا لتوصيلها إلى فرساي؛ فقد مات السيد موريس تاجر الرقيق والرجل الوطني وسط

أطلال القبة الحسينية، إثر فقده إحدى سفنه؛ وهي السفينة «سان بيير». والغالب أن الملاريا قد أودت به، وماتت معه معاهدته، على الرغم من أن سلطان كلوة سرعان ما وجد مشترين آخرين لرقيقه، هم قباطنة فرنسيون منافسون مبحرون إلى ميناء ريو دي جانيرو وغيره من موانى البرازيل، وكذلك إلى آيل دي فرانس. ويورد أحدهم، وهو جوزيف كراسون دي مديو، قائمة بأكثر من اثنتي عشرة سفينة حملت بالرقيق مؤخراً في كلوة، ومن بينها السفينة «لاسامرتان».

وقد لاحظ كراسون خلال تجواله وسط أطلال كلوة التي غطتها النباتات الاستوائية، أقواس المسجد الكبير ذات التصميم الرائع، ومضى يحدث نفسه متكهناً: «لقد كانت هذه المدينة على جانب كبير من الأهمية ذات يوم». غير أن روعة كلوة كانت شيئاً ينتمي إلى الماضي، وحتى آخر مظاهر استقلالها سرعان ما ستنتزع منها، ففي عام 1785 وصل حاكم عُماني جديد أشد حزماً إلى الجزيرة، وانتزع من السلطان كل سلطته، ولم يسمح له إلا بالتشبث بلقبه وكان ذلك اللقب هو آخر ما بقي من سلالة نبيلة[9].

الفصل الثامن والثلاثون

البحار البعيدة عن قبضة نابليون

هاجموا بريطانيا الغادرة في مياهها!

أوجستين، ماركيز دي كزمان ـ «**تاريخ الفرنسيين**» (1793)

لم يكن مما يثير الدهشة كثيراً أن فرنسا لم تبد حماساً يذكر للتورط في مغامرات استعمارية على الساحل الشرقي لأفريقيا، حسبما دعا السيد موريس؛ لأن الحرب مع إنجلترا كانت تستنفد طاقاتها مجدداً؛ فقد كانت تحالفت في آذار/ مارس 1778 مع المستعمرات الأمريكية التي تقاتل من أجل استقلالها عن إنجلترا، ليس بسبب التعاطف معها، بقدر ما وجدت الفرصة مواتية للثأر من الإنجليز للخسائر المذلة التي تكبدها الفرنسيون في الهند، قبل خمسة عشر عاماً، من خلال شروط السلام في نهاية حرب السنوات السبع. وقد شعر الفرنسيون بالمرارة؛ لأن العديد من أكثر إدارييهم وجنودهم موهبة قد ضحوا بحياتهم في الهند، فما كان مصيرهم إلا انتزاع جائزتهم الكبرى منهم!

في البداية بقي الصراع المتجدد قريباً من الوطن، ولكن عندما أعلنت إسبانيا وهولندا كذلك الحرب على إنجلترا شعر الفرنسيون بقدر كاف من الجرأة لإرسال أسطول إلى المحيط الهندي مجدداً؛ لمساعدة تحالف من أمراء الهند يخوض غمار القتال لطرد الإنجليز إلى البحر. وكان أكثر هؤلاء الأمراء تصميماً واقتداراً هو السلطان تيبو حاكم مايسور (ماشورة) وكان مسلماً ورعاً، ومحباً كذلك للفنون، ومفتوناً بالاختراعات العلمية، وعندما كان يقوم بأسر أي من الكفرة الإنجليز، كان يحرص على ختانه عنوة، تماماً كما تم ختان سبعين ألف أسير هندوسي ثم استعبادهم، بعد انتصار مايسور (ماشورة) على دولة كورج المجاورة لها. وبعث تيبو الذي كانت شركة الهند الشرقية ترهبه وتكرهه بسفراء إلى فرنسا؛ طالباً الدعم العسكري من لويس

السادس عشر، لكن هذا الأخير عمد إلى التسويف، فكان ذلك موقفاً قاتلاً بالنسبة إلى تيبو.

قررت فرنسا في نهاية المطاف أن تبعث بثلاث قوافل منفصلة تحمل ألوف الجنود، للقتال جنباً إلى جنب مع الأمراء الهنود. ولو أن السفن الحربية وصلت قبل ذلك بعام، أو لو أن القوافل كلها دارت سالمة حول رأس الرجاء الصالح، لاتخذ تاريخ شبه القارة مساراً مختلفاً. لكن السفن الحربية الإنجليزية اعترضت قافلتين قبل خروجهما من المياه الأوربية وقطعت عليهما الطريق. وفي الهند انهار تحالف الأمراء بعد سلسلة من الهزائم التي تلقاها على يد حملة البنادق ورجال المدفعية والفرسان الإنجليز.

في البحر كان حظ الفرنسين أفضل، ففي سلسلة من المعارك الدامية قبالة الهند، أوقع الأميرال الفرنسي البارع بيير أندريه دي سوفرين سان تروبيه الهزيمة بالإنجليز، الذين أضعفهم انتشار مرض الأسقربوط بين بحارتهم. وحتى على البر بدأت الفوضى تدب في صفوفهم. ثم بلغت الهند في حزيران/ يونيو عام 1783 أنباء حول إتمام التفاوض على إقرار السلام في باريس قبل خمسة أشهر. وأبحر أسطول سوفرين عائداً إلى الوطن وقد ذهبت انتصاراته كلها بلا طائل، ذلك أن إنجلترا بتوقيعها على التخلي عن مستعمراتها الأمريكية لإنهاء القتال قد استبعدت إلى حين أي تهديد فرنسي في المحيط الهندي[1].

في العام التالي قام وليم بيت الأصغر بتمرير قانون «التحكم المزدوج» في البرلمان البريطاني، والذي منح التاج البريطاني السلطة المطلقة على ما تحكمه شركة الهند الشرقية. وهكذا ولد نظام الحكم المعروف باسم «الراج» وابتعد اتجاه النزعة الاستعمارية البريطانية من الأمريكتين ليتجه إلى الشرق. وفي الوقت ذاته بات بالإمكان، نتيجة لموارد الثورة الصناعية تحقيق سيطرة على شبه القارة الهندية، أكثر شمولاً وأعظم مردوداً على الصعيد التجاري من أي سيطرة سبق أن حققتها أي سلطة شرقية أو أوربية.

على الرغم من كل الخلافات الحادة في الوطن فإن البريطانيين (أي الإنجليز والاسكتلنديين والويلزيين وحتى الأيرلنديين) أصبح يجمعهم الآن الهدف المشترك

المتمثل في حكم الأعراق الأخرى الأكثر عدداً وإن كانت أميل إلى سمرة البشرة، وتتصف بالوثنية ومن ثم هي أدنى شأناً. وهكذا فإن اصطلاح «الإمبراطورية البريطانية» قد اكتسب دلالة جديدة. وكذلك كلمة «إنجلترا»، حيث لم تصبح دالة على المكان وحده، وإنما على حالة ذهنية، وثقة فطرية، وكبرياء وطنية، هي التي استحثها وأثارها نلسون، قبل خوض غمار القتال مع الفرنسيين في الطرف الأغر بقوله: «تتوقع إنجلترا من كل رجل أن يؤدي واجبه»[2].

لقد تعززت هذه الروح المغالية في الوطنية في جولة قتال أخيرة مع فرنسا، حيث أصبحت الحرب أمراً محتماً بعد الثورة الفرنسية عام 1789، واندلعت من جديد في أوربا، ولكن آثارها سرعان ما بدت ملموسة في أماكن نائية. وعندما احتلت هولندا، وأصبحت تابعة لفرنسا، تحت اسم «جمهورية باتافيا» (وقد كان الباتافيون قبيلة قديمة تقطن ضفاف الراين)، فإن هذا كان ذريعة مثالية اتخذتها بريطانيا لاحتلال الكاب. وفضلاً عن ذلك فإن المستوطنين الهولنديين هناك لم يشعروا بتقارب كبير مع فرنسا الثورية، التي أصدرت مرسوماً يقضي بتحرير جميع العبيد اعتباراً من تاريخ صدوره.

حذر لورد مكارتني الذي عين حاكماً عسكرياً في الكاب، بعد عامين من الاستيلاء عليها عام 1795 من أنه إذا قام عدو لا ينقصه التصميم مثل فرنسا، بالاستيلاء على «جبل طارق المحيط الهندي» فإنه قد «يهز حتى الأساس، وربما يقلب ويدمّر نسيج ثروتنا وممتلكاتنا الشرقية بأسره». وقد وافقه العديد من السياسيين في لندن على قوله هذا، بل إن الكاب كان يمكن للإنجليز أن يستولوا عليها قبل ذلك بسنوات لو لم يتدخل الأميرال الفرنسي سوفرين لإحباط الخطط الإنجليزية.

أثار ظهور نابليون واحتلاله لمصر عام 1798 على رأس قوة مؤلفة من خمسة وثلاثين ألف رجل مرة أخرى احتمال شن هجوم فرنسي في الشرق. وقد اعتزم نابليون من دون أي شك أن تكون مغامرته التي قام بها في البحر المتوسط خطوة أولى نحو غزو الهند؛ فقبل ثلاث سنوات كان القنصل الفرنسي في القاهرة قد كتب بحماس إلى باريس يقول إن سفناً تبنى في السويس يمكن أن تحمل جيشاً إلى ساحل المالبار، في غضون ما يزيد قليلاً على شهر ونصف الشهر. وقد قال نابليون الذي كان يتوق على

الدوام إلى تقليد الإسكندر الأكبر «في الشرق وحده يمكن للمرء أن يصنع عظائم الأمور».

وكان من الملائم أن تنزل قوات نابليون في مدينة الإسكندرية، التي أسّسها بطله الأثير الإسكندر الأكبر، وقد نقل شعوره بالمصير المرتقب في خطاب لجنوده يقول فيه: «أيها الجنود، إنكم توشكون على القيام بفتح لا مجال لحصر تأثيراته على الحضارة والتجارة. والضربة التي توشكون على توجيهها إلى إنجلترا ستكون أقسى ضربة توجه إليها والأكثر تأثيراً من بين الضربات التي يمكن أن تتلقاها، إلى أن يأتي الوقت الذي يمكنكم فيه أن توجهوا إليها الضربة القاضية». وقد نشر الخرائط على أرض غرفة مقر قيادته في القاهرة، وعكف على دراسة الكيفية التي سيقود بها ثلاثين ألف رجل فرنسي إلى الفرات، ومنه إلى فارس والهند، بينما تبحر سفنه نزولاً في البحر الأحمر من السويس وتمضي عبر المحيط الهندي.

بعيداً في المحيط يشمخ ذلك المتراس الذي لا سبيل إلى قهره، والذي سُمّى آيل دي فرانس منتظراً لحظة المجد. كانت هذه الجزيرة أثيرة لدى نابليون، حيث إنها كانت الساحة التي جرت عليها أحداث رواية «بول وفرجيني» التي تجمع بين الحب الرومانسي والمأساة، كان مواطنوه يؤثرونها على كل الروايات الأخرى في ذلك الوقت. وقد مَنَحَ وساماً رفيعاً لمؤلفها جاك-هنري برناردان دي سان بيير(3) وخصص له معاشاً، معلناً أن هذا العمل يتحدث بـ«لغة الروح». والآن ستلعب آيل دي فرانس دورها في مخططه الكبير.

علق بونابرت آمالاً كباراً على إقامة تحالف مع حكام في الهند وشبه الجزيرة العربية. وفي 25 كانون الثاني/ يناير عام 1799، قام بمبادرة تمهيدية باتجاه سلطان عُمان؛ حيث كتب له يقول: «أكتب لكم هذه الرسالة؛ لأبلغكم بوصول الجيش الفرنسي إلى مصر. ولما كنتم على الدوام تلتزمون موقفاً ودياً نحونا، فلابد أنكم مقتنعون برغبتنا في حماية كل السفن التجارية التي ترسلونها إلى السويس. كما أرجوكم المبادرة بإرسال الرسالة الموجودة طيَّ هذا الخطاب إلى "تيبو صاحب" في أول فرصة متاحة». أما الرسالة المبعوثة إلى تيبو (والتي يخاطبه فيها باعتباره «المواطن السلطان») فقد كانت أكثر وضوحاً وصراحة، حيث يقول فيها:

«لقد علمتم بالطبع بوصولي إلى شواطئ البحر الأحمر بجيش كبير لا يقهر. ولتوقي إلى تحريركم من نير إنجلترا، فإنني أسارع إلى أن أطلب منكم بأن ترسلوا لي عن طريق مسقط أو مُخا صورة لوضعكم السياسي. كما أتمنى أن يكون في استطاعتكم أن ترسلوا إلى السويس أو إلى القاهرة الكبرى رجلاً قديراً تثقون به يمكنني التشاور معه».

لابد أنه كانت هناك أسباب قوية تدعو إلى توقع التعاون من جانب تيبو وفرصة للحصول على التأييد من عُمان، فقد أصبح طبيب فرنسي مستشار السلطان المؤتمن على سره، وذلك بعد افتتاح قنصلية فرنسية في مسقط عام 1795. ولكن هذه المقدمات لم تكن أكثر من ادعاء للشجاعة؛ لأن نابليون أجبر على التزام موقف الدفاع قبل ذلك بستة أشهر عندما دمر نلسون أسطوله في معركة النيل[4]. وبعد أسبوعين من إرسال الرسالتين غادر نابليون مصر إلى غير رجعة.

كشف النقاب كذلك عن هشاشة خطوط اتصالاته عندما سقطت الرسالتان سريعاً في يد العدو، حيث تم قطع الطريق على حامليها من قبل الوكيل البريطاني في مُخا «ميناء البن» بشبه الجزيرة العربية، وأرسلت الرسالتان سريعاً إلى الهند. وحتى إذا كانت الرسالتان قد وصلتا سالمتين إلى عُمان، فمن غير المؤكد أن السلطان كان سيبادر بإرسال الرسالة الموجهة إلى تيبو في جنوب الهند؛ لأنه كان قد وقَّع مؤخرا معاهدة تقضي بوقوفه في صف واحد مع شركة الهند الشرقية ضد فرنسا.

في الهند ذاتها لم يدع حاكمها العام الجديد لورد ولسلي - الأخ الأكبر لدوق ولنجتون المقبل - شيئاً للمصادفات، فعندما عرف أن «المواطن تيبو» قد بعث بسفيرين متنكرين في زي تاجرين إلى آيل دي فرانس، لإبرام تحالف مع نابليون، أعدت شركة الهند الشرقية في التو خططاً للغزو الشامل لمايسور (ماشورة) وسوف يتم بالفعل الاستيلاء على العاصمة سرينجا باتام (صدرافيتن) في أيار/ مايو عام 1799 وسيلقى تيبو مصرعه في غمار القتال. وقد غنمت كنوزه وأرسلت إلى إنجلترا، ومن بينها نمر يعمل بطريقة ميكانيكية ويزمجر وهو ينهش تمثالاً لجندي بريطاني يئن[5].

يقع اللوم بصورة جزئية على الفرنسيين أنفسهم في خسارة هذا الحليف ذي الأهمية البالغة، فبينما رغب تيبو في التزام السرية، رحب حاكم آيل دي فرانس بسفيريه

بإطلاق المدافع وإقامة الولائم لهما خلال إقامتهما بالجزيرة، وسرعان ما تسربت أنباء زيارتهما إلى الهند.

مع ذلك فإن كل هذه الشائعات حول نابليون قد عجلت بدفع البريطانيين إلى تقوية نقاطهم الحصينة التي تستند إليها سلطتهم في جميع أرجاء المحيط الهندي. وكانت ذريعة مثالية للاستيلاء على سيلان، وهي جزيرة طال التطلع إليها. وقد تقبل معظم سكانها المختلطين من غير السنهاليين كذلك الفكرة القائلة بأن قدرهم هو أن يتم استيعابهم في إطار الإمبراطورية البريطانية، حيث خيّم ظل الأحداث في الهند على تلك الجزيرة، وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدير شؤون سيلان، محققة خسارة حقيقية، وتنظر إليها على أنها تعد الملاذ الأخير لـ «الحمقى والمتحللين والمفلسين»[6].

على امتداد عقود عديدة مضت شركة الهند الشرقية البريطانية ترمق صادرات سيلان من القرفة والأحجار شبه الكريمة، وفي وقت يعود إلى عام 1760 بعثت بموفد إلى ملك كاندي حاملاً اقتراحاً بالتحالف ضد الهولنديين. وفي عام 1782 حاولت حكومة مدراس التي تهيمن عليها الشركة الاستيلاء على المواني التجارية السنهالية وانتزاع احتكار القرفة، ولكن تدخل البحرية الفرنسية أحبط جهودها.

وكان الهولنديون خلال الأعوام الأخيرة من حكمهم للجزيرة، قد شهدوا آمالاً في انتعاش الاقتصاد؛ حيث جرت زراعة القطن وقصب السكر بنجاح. غير أن الخناق البريطاني أخذ يضيق. وفي غمار شعور شركة الهند الشرقية الهولندية باليأس، قبلت اقتراحاً تقدم به نبيل سويسري، هو شارل كونت دي ميرون بأن يقوم مقابل أتعاب كبيرة بتجنيد فرق من المرتزقة ونقلهم إلى سيلان. وكان الكونت في وقت سابق قد قام بإمداد الكاب بالمرتزقة، ووفاءً بما تعهد به وصل إلى كولمبو على رأس ألف من المرتزقة تقريباً، وبعد أن عمل على استقرارهم، ترك شقيقه بيير في موقع المسؤولية عنهم، ثم عاد إلى سويسرا. وأرسل دوق فيرتمبيرج، وهو «مالك» آخر لقوات المرتزقة، مجموعة أكثر تواضعاً منهم إلى كولمبو، كما كان المرتزقة الألمان أيضاً تحت إمرة بيير دي ميرون.

عندما بلغت هذه المعلومات البريطانيين في مدراس عمّ الاستياء، فقد كان معروفاً أن حاكم سيلان الهولندي فان أنجلبيك، لم يكن لديه في السابق إلا ما يزيد قليلاً عن

ثمانمئة جندي أبيض تحت إمرته، بالإضافة إلى حشد من المساعدين السنهاليين الذين لا يعتمد عليهم. وقد قلب المرتزقة الميزان على نحو حاسم، وجعلوا الاستيلاء على كولمبو ذات التحصينات الكثيفة أمراً أكثر تعقيداً، وحتى إذا كُلل الهجوم بالنجاح، فإن التكلفة المدفوعة في شكل خسائر في الأرواح ستكون مرتفعة. وهكذا بعثت رسائل إلى لندن للسؤال عما إذا كانت هناك فرصة لرشوة الكونت دي ميرون.

عند هذا المنعطف يخطو هيو كليجهورن، وهو أستاذ جامعي اسكتلندي متخصص في التاريخ المدني، إلى رحاب تاريخ المحيط الهندي ليؤدي دوراً قصيراً ومشهوداً طاله النسيان منذ زمن بعيد. وقد شغل كليجهورن منصبه في التعليم الجامعي في جامعة سانت أندروز منذ كان في الثانية والعشرين من عمره، أما الآن فهو في الأربعينيات. ولكنه منذ نشوب الثورة الفرنسية نادراً ما لزم مكتبه، وإنما كان يجوب أرجاء القارة كأستاذ جامعي أو متنكراً بهيئة تاجر، ولكنه على الدوام يرسل التقارير إلى لندن. وباختصار كان كليجهورن جاسوساً، وقد نحيت جانباً كل الشكاوى من رؤسائه الأكاديميين في سانت أندروز حول فترات غيابه التي لا تفتأ تتزايد، وتشع صورته بالتوقد والنشاط، وكان أنيقاً تحيطه ثقة بالنفس ممزوجة بهدوء الأعصاب.

كان كليجهورن يعرف الكونت دي ميرون بالفعل. وفي شباط/ فبراير 1795 تلقى رسالة كتبت عليها كلمة «سري» من هنري دونداس وزير الحربية البريطاني تبلغه بأن عليه المضي بأقصى سرعة إلى نيو شاتل، حيث يقيم الكونت الكهل، والمفاوضات «ينبغي، إذا كان ذلك ممكناً، أن تصل إلى نتيجة بصورة فورية» ثم على كليجهورن أن يقوم بمرافقة الكونت إلى الهند للتأكد من أن المرتزقة سيتخلون عن الصف الذي يقفون فيه، وينحازون إلى الصف المقابل من دون تأخير. وإذا أظهر الكونت تردداً في مجاراة هذه الخطة، فإنه ينبغي أن تعرض عليه «رشوة قيّمة» قدرها ألفا جنيه استرليني (رفع هذا الحد الأقصى في وقت لاحق إلى خمسة آلاف جنيه استرليني)(7) لضمان موافقته، وينبغي أن يضمن للمرتزقة «سبع سنوات مؤكدة» من العمل في خدمة بريطانيا.

قد يعترض دي ميرون بالطبع قائلاً إن شرفه الشخصي عرضة للإساءة إليه، ولكن كليجهورن كان على استعداد لمواجهة ذلك الاعتراض، ففي استطاعته الذهاب إلى

القول بأن أمير أورانج الذي طردته حكومة باتافيا الثورية، ويقيم الآن في المنفى في كيو هو الذي يدين له الكونت حقاً بالولاء، ولذا فإن مسألة «الهرب من الخدمة» ليست مطروحة. وكان الأمير قد بعث بالفعل برسائل إلى كل الحكام الهولنديين، يهيب بهم فيها التعاون مع بريطانيا. وفضلاً عن ذلك فقد خُوّل الأستاذ الجامعي أن يعرض على الكونت حافزاً آخر، يضيف إلى بريق الذهب وهج العظمة والوقار.

تكشف الرسائل التي بعث بها دونداس عن ثقة مطلقة بمواهب كليجهورن، حيث أعطي نفقات غير محدودة، وتم إبلاغه بأن إحدى سفن البحرية الملكية ستكون في انتظاره والكونت في ليجهورن لتقلهما عبر البحر المتوسط «إلى أي ميناء تعتقد أنه الأكثر ملاءمة لتسهيل رحلتكما إلى الهند» (وقد اعتبر أن من الأسرع السفر عن طريق مصر والبحر الأحمر، وهي رحلة لا تخلو من المخاطر، غير أنها يحتمل بدرجة أقل أن تنتهي بكارثة، مقارنة بالدوران حول رأس الرجاء الصالح والمخاطرة بالتعرض للأسر على يد العدو)، ووعد كليجهورن بأنه إذا لقي حتفه خلال هذه المهمة فإن زوجته وأطفاله السبعة ستتم رعايتهم.

خلال ساعات من تلقي كليجهورن للتعليمات الصادرة إليه، غادر لندن إلى يارموث، حيث استقل سفينة مبحرة إلى ألمانيا، وكان يسافر تحت اسم أندرو جونستون. ورتب لإرسال رسائل مشفرة عن طريق صديق له، هو الاسكتلندي أندرو ستيوارت عضو البرلمان. وكان نهر الألب متجمداً ولكن الجليد أخذ في التفكك، وأفلح كليجهورن في عبوره مع دليلين ألمانيين، سمع في وقت لاحق بأنهما غرقا في رحلة العودة «ربما بعد أن سكرا من جراء الإفراط في احتساء البراندي» حسبما سجل في يومياته.

وإذ دفع الكونت ميرون إلى العمل بفعل رسالة أشارت على نحو بليغ إلى «ترتيبات من شأنها أن تخدم مصالحكم الخاصة، وتتفق مع ميلكم إلى الخدمة العسكرية في الوقت ذاته» فقد بادر إلى الترحيب بكليجهورن أعظم ترحيب، وكان يشعر بالضيق من الهولنديين، الذين تأخروا كثيرا في دفع مستحقات المرتزقة له. وهكذا فإنه في غضون أيام قلائل، وبطريقة تعكس ذوقاً رفيعاً، تم الاتفاق على الشروط، حيث سيُعيَّن

الكونت بصورة فورية ضابطاً برتبة لواء في الجيش البريطاني، ويعين أخوه ضابطاً برتبة عميد (أما في خدمة الجيش الهولندي فلم يتجاوزا رتبة العقيد)، كما تقرر توظيف المرتزقة بشروط مجزية عندما يتحول ولاؤهم إلى بريطانيا، وستدفع كل متأخرات الهولنديين للكونت، بالإضافة الى تلقيه مبلغ أربعة آلاف جنيه استرليني كمقدم فوري يخصم من راتبه بالجيش مستقبلاً، بحيث يستطيع تسوية أموره قبل الانطلاق إلى الهند. وخلال الرحلة «سيعامل بطريقة تتفق مع رتبته».

يبدو كليجهورن سعيداً أشد السعادة لدى إرساله رسالة سرية إلى لندن يشير فيها إلى قبول هذه الشروط. ولاشك في أن الفرصة المفاجئة لأن يصبح الكونت جنرالاً في الجيش البريطاني في خريف العمر هو ما كان لا سبيل إلى مقاومته من قبل الكونت، غير أنه كانت هناك لحظات مشحونة قبل مغادرة نيو شاتل. فعلى الرغم من أن دي ميرون قد جرح في شبابه ثلاث مرات خلال القتال لحساب الفرنسيين في جزر الهند الغربية، فإنه بدا الآن وقد فقد رباطة جأشه، وقال في رسالة إلى كليجهورن إنه «من الحماقة في هذه السن وبعد تقاعد بهيج» أن ينطلق من سويسرا في مثل هذه المغامرة. ثم تصله فجأة أنباء من الهولنديين، مفادها أنهم قد رقّوه إلى رتبة عميد، الأمر الذي أثار المخاوف من أن سر صفقته مع البريطانيين ربما يكون قد تسرب.

يكتب كليجهورن إلى لندن مجدّداً، موضحاً مدى احتياجه العاجل إلى مبلغ الأربعة آلاف جنيه استرليني، الذي ينبغي أن يدفع كمقدم للكونت، والأموال الأخرى الضرورية لتغطية الرحلة المقبلة. ويرتب أمر الحصول على هذه الأرصدة في البندقية، وهي وجهتهما الأولى بعد مغادرة نيو شاتل. وبالفعل يتم الانطلاق سراً في إطار الرحلة. ويسافر الكونت بصحبة خادمه الخاص الأسود جوليوس، ويصر على إحضار شخص يدعى الكابتن بول بصفة مساعده العسكري، أما الأستاذ الجامعي فلم يصحب معه إلا خادمه الخاص مايكل ميروفسكي.

تشير رسائل كليجهورن ويومياته في بعض الأحيان ومن طرف خفي إلى الضيق برفيقه المضجر والمتباهي، ولكن كل ما يهم هو نقله حياً إلى سيلان، ليقوم هناك بإقناع أخيه بترك صفوف الخدمة لدى الهولنديين. وكما يبلغ الأستاذ الجامعي سير ريتشارد

ورسلي السفير البريطاني في البندقية والأدميرال وليم هوثام فإن «المهمة التي كُلف بها على أعلى قدر من الأهمية بالنسبة إلى مصالح بلادنا». وفي 8 أيار/ مايو، قبل أيام قلائل من مغادرة البندقية، يتلقى رسالة تهنئة من دونداس، يعده فيها بأنه فور عودته إلى لندن «سيتم تعويضه على نحو كريم». ويرد كليجهورن في ولاء قائلاً: «ربما لن يكون لي دور نشط في الترتيب الخاص بسيلان، ولكن ثمة مصدر للرضا لن أحرم منه، فسوف أشارك في المصاعب وسأواجه كل الأخطار إلى أن تصبح الجزيرة جزيرتنا». وفي رسالة إلى صديقه عضو البرلمان البريطاني أندرو ستيوارت يعترف بأنه سافر من دون أن يكتب رسالة لزوجته وعائلته حول الرحلة، ويقول: «كنت أخشى البريد، وبصراحة لم تواتني الشجاعة للكتابة».

في الإسكندرية أتيح له الوقت لتدبير مؤامرة للحصول على رسائل مرسلة من أمستردام إلى القنصل الهولندي، لكي يبعث بها الى سيلان. فأبلغ القنصل البريطاني لتدبير الهجوم على حامل الرسائل («ولكن على ألا يقتل») ومصادرة الرسائل التي يحملها «والتي سترسلها إليَّ في أقرب فرصة ممكنة»، ثم يسرع كليجهورن منطلقاً بالكونت من القاهرة وعبر الصحراء إلى البحر الأحمر، وهو يخشى على الدوام من أن يكتشفه العدو.

في السويس استقلوا سفينة قذرة ومزدحمة، ويصف كليجهورن المشهد بقوله: «مضت النساء في الحديث بلسان سليط، والأطفال يبكون، وبعض الرجال يتناول الطعام، والبعض الآخر يغني، والكثير يصلون، ويلصقون جباههم بسطح السفينة، وكانت الرائحة خانقة ومنفّرة، وسرعان ما وجدت نفسي مضطراً الى العودة إلى قمرتي الضيقة تحت السطح». وحملتهم السفينة ببطئها الباعث على الضيق نزولاً في البحر الأحمر، وشعر كليجهورن بالاستياء في جدة عندما علم أن السفن البريطانية التي تقوم بالرحلة السنوية إلى الهند ومنها قد رحلت بالفعل، لتعود بالاستعانة بالرياح الموسمية الجنوبية الغربية. وتفاقمت مشاعر القلق التي ساورته عندما أودعه مسؤولون في جدة السجن ثمانية أيام لانتزاع ماله ومقتنياته، بل إنه فقد ساعة ثمينة انتزعت منه وأعيدت إليه وانتزعت منه مجدداً. ولكن مثل هذه الخسائر لم تكن ذات بال بالنسبة إليه، في

وقت «لم تكن مصالح الدولة تسمح بأي حساب إلا حساب الوقت والوسائل التي يمكن بها تنفيذ مهمتي على أتم وجه وبأقصى سرعة».

أضاف الكونت المزيد إلى مشاعر القلق لديه، فقد عانى من أعراض مرضية متفاقمة، وبدأت قوته تخذله في الحر الذي لا تتراجع حدته (ويلاحظ كليجهورن أنه «كان يأكل أكثر مما ينبغي»). وهكذا أحس بالارتياح عندما وصلوا إلى مخا، وقابل اثنين من الإنجليز ممن يشترون البن، من وكلاء شركة الهند الشرقية. وأبلغهما كليجهورن بأمر مهمته واستفاد من كرمهما الذي أشاد به في وقت لاحق في رسالة بعث بها إلى لورد هوبارت، حاكم الهيئة الرئاسية في مدراس. ولكن لم يكن هناك وقت يمكن إهداره. وعلى متن سفينة عربية تقليدية، ودعت المجموعة البحر الأحمر بمزيد من الارتياح وأبحرت متجاوزة عدن، وبدأت المرحلة الأخيرة، أي الرحلة عبر المحيط الهندي.

بحلول هذا الوقت كان الكونت يبدي اعتزازه بما صنع، وساوره الشعور بالابتهاج الشديد حيال فكرة أنه وأخاه بيير سرعان ما سيصبحان جنرالين في الجيش البريطاني. وبينما هم يبحرون باتجاه سيلان، أعلن رغبته في الذهاب الى الشاطئ للقيام بالاستطلاع. وبعد جدال محتدم وضع كليجهورن حداً لهذه الفكرة «هكذا تم التخلي عن هذا الموضوع، في الوقت الراهن وآمل ألا تحييه رؤية سيلان». وأخيراً، وبعد رحلة من سويسرا استغرقت ستة أشهر، وصلوا إلى جنوب الهند، ونزلوا في ميناء صغير تسيطر عليه بريطانيا، حيث رأى كليجهورن أنهم سيثيرون أقل قدر من الاهتمام.

علمت المجموعة أن الهولنديين الذين يدعم صمودهم وجود المرتزقة السويسريين، لايزالون يتخندقون في كولمبو. وعلى الرغم من أن البريطانيين سيطروا بالفعل على معظم ساحل الجزيرة، فإن الحاكم فان أنجلبيك قد أقسم على القتال حتى النهاية. ولم يهدر كليجهورن وقتاً، وبعد مقابلة لورد هوبارت، أسرع إلى سيلان حاملاً رسالة من الكونت تتضمن إبلاغ أخيه بكيفية مجيئه إلى الهند، ويستحثه على الهرب من خدمة الهولنديين مع كل رجاله فرتبة الجنرال في انتظاره. غير أن ترتيب نقل الرسالة بسلام إلى يدي العقيد بيير دي ميرون كان صعباً، حيث إن من الطبيعي أن فان أنجلبيك كان

يتشكك في أي اتصال يتم بين المرتزقة والعالم الخارجي. غير أن ذلك لم يفت في عضد كليجهورن، حيث أخفى الرسالة داخل جبن هولندي، تم إرسـاله عبر الخطوط إلى كولمبو كهدية شخصية للعقيد من أحد محبيه.

ومضى الكولونيل دي ميرون الذي استهوته على نحو ما استهوت أخاه فكرة أن يصبح جنرالاً في الجيش البريطاني برجاله إلى خارج كولمبو، متجاهلاً تهديد فان أنجلبيك بأن يتم إيداعهم السجن. ووضع المرتزقة شرطاً واحداً، فإذا ما تم شن هجوم على المدينة، فينبغي ألا يطلب منهم أن يشاركوا فيه حيث إنهم تركوا عائلاتهم وأصدقاءهم داخل الأسوار. ولكن كل شيء كان يتوقف الآن على الهولنديين، وقد انخفضت معنوياتهم بفعل فقدانهم لفوج دي ميرون؛ وهكذا فإنه عندما نزلت قوات شركة الهند الشرقية المرسلة من مدراس في كولمبو في أواخر عام 1795، لم تكن هناك مقاومة على الإطلاق تقريباً.

وعاد كليجهورن إلى لندن ظافراً، عبر الطريق ذاته الذي جاء منه، ومنحته الحكومة البريطانية الممتنة لخدماته مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه استرليني. غير أن ذلك لم يكن آخر عهده بجزيرة سيلان، ففي عام 1798 أعلنت الجزيرة مستعمرة تابعة للتاج البريطاني لأن وحشية إدارة شركة الهند الشرقية وفسادها أديا إلى حدوث تمرد. وسافر كليجهورن ليتولى منصب سكرتير شؤون المستعمرة. وقد بدأ العمل في منصبه بداية طيبة، ثم حدثت وقيعة بينه وبين الحاكم المتقلب سيرفريدريك نورث (لورد جيلدفورد لاحقاً) وفي عام 1800 استقال من منصبه، وعاد إلى مسقط رأسه في فايف.

يعلن شاهد على قبر كليجهورن في مقبرة سترافيثاي بمبالغة يمكن اغتفارها أنه «العميل الذي من خلال جهوده ضمت سيلان إلى الإمبراطورية البريطانية»[8] أما شارل وبيير دي ميرون فقد ابتهجا بعض الوقت بالخدمة في صفوف سادتهما الجدد، ثم تقاعدا في سويسرا على نحو أكثر ترفاً مما كان يعلقان الآمال عليه. وأمر كل منهما بإعداد لوحة لنفسه تصوّره في زي جنرال بالجيش البريطاني. وخدم مرتزقة فوج دي ميرون خدمة عسكرية متميزة في الهند، ولقي الكثير منهم حتفه في حصار سرينجاباتام (صدرافيتن) وأشير على شواهد قبورهم إلى أنهم من «القوات السويسرية»[9].

الفصل التاسع والثلاثون

المتراس الفرنسي وجزيرة الرقيق

طالما أن الفرنسيين يحكمون قبضتهم على آيل دي فرانس، فإن الإنجليز لن يكونوا سادة الهند.

وليام بيت الأكبر (لورد تشاتهام) - (1761)

في عام 1801 وخلال فترة توقف الحروب النابليونية، تخلت بريطانيا عن مستعمرة الكاب نظراً لنفقاتها الباهظة، وكان نيلسون قد ذهب إلى القول في مجلس اللوردات بأن السفن الحربية التي تبطّن هياكلها الآن بالنحاس لم تعد بحاجة إلى التوقف للتنظيف والإصلاح، وهي في طريقها إلى الهند. وكان يشعر بقدرته على الحكم على مثل هذه الأمور جيداً، نظراً لخدمته كضابط صف بحري قبل خمسة وعشرين عاماً في المحيط الهندي. ولكن بعد عام من مصرع نيلسون في معركة الطرف الأغر، في تشرين الأول/ أكتوبر 1805، استولى البريطانيون نهائيًا على الكاب، وسط شائعات تفيد أن نابليون يعتزم استخدامها كرأس حربة في هجوم بحري على الهند.

تبنى لورد بالمرستون الشاب، الذي بدأ لتوه حياة عملية سياسية سيصل خلالها إلى أعلى المناصب، وجهة نظر تشاؤمية حول المسار المحتمل للأحداث؛ فالساحة الأوربية تكفي لتلبية طموح نابليون. «ونحن وحدنا نحول بينه وبين إخضاع الهند وأمريكا وأفريقيا لسلطته» (تظهر القيمة البارزة للهند من منظور بريطانيا الآن من ذكر بالمرستون لها في المقام الأول، وفضلاً عن ذلك فإن هذا يرد في رسالة كتبها إلى لورنس سوليفان، وهو صديق تعود الصداقة التي تربطه به إلى أيام دراستهما معاً في كامبريدج، والذي ولد في كلكتا لعائلة تعمل في شركة الهند الشرقية)[1].

في حقيقة الأمر فإن هذا الخطر المتصور كان وهماً لا سبيل إلى تحقيقه، حيث إن القوة البحرية الفرنسية قد دُمرت في معركة الطرف الأغر، وبعد موت تيبو لم يعد هناك

حلفاء يعتد بهم يمكن لفرنسا التنسيق معهم في شبه القارة. وقد كتب ولسلي بابتهاج إلى بيت يقول: «إذا اختار بونابرت زيارة المالبار، فإنني على يقين من أنه سيجد العشاء معداً له قبل أن يصل إلى كلكتا». ولم يقدر لنابليون تذوق هذا الطعام الإنجليزي قط.

بالنسبة إلى القادة الميدانيين ظل هناك مصدر ضيق واحد لبريطانيا في المحيط الهندي، وهو آيل دي فرانس، فقد كانت هذه الجزيرة قاعدة للمغامرين الفرنسيين، الذين كانوا مصدراً لخراب كبير، إلى حد أنه في عام 1808 أعرب تجار كلكتا عن شكواهم من محدودية الحماية التي تقدمها البحرية الملكية لهم. فقد أغرقت أربعون سفينة على الأقل، وساد غضب شديد حيال أنباء مفادها أن مهربي الأسلحة الأمريكيين يقدمون معدات تناسب المغامرين، ثم يتقاسمون العوائد معهم[2]. وأصدر القائد العام لمحطة شرق الهند أمره بتجنب جزيرة آيل دي فرانس، وأن السبائك الذهبية التي تنقل إلى إنجلترا ينبغي أن توزع حمولتها على أسرع السفن، والتي ينبغي أن تمضي في طريق مباشر إلى بورتسموث، وأصبح الإبحار في المحيط الهندي وكذلك في المحيط الأطلسي بأي شكل بخلاف الإبحار في قافلة محمية، جريمة تفرض على مرتكبها عقوبات صارمة. وفي وقت لاحق قدرت الأضرار التي أوقعها المغامرون العاملون لحسابهم بحركة الشحن البحري البريطانية خلال الحروب النابليونية، بحوالي عشرة ملايين جنيه استرليني.

كانت الكيفية التي يمكن بها احتلال ذلك المتراس الفرنسي موضع مناقشة مطولة، ذلك أن صخوراً مرجانية خطرة كانت تحرس مرفأه الرائع، وفضلاً عن ذلك فقد بدا أن السكان قد عقدوا العزم على القتال، على الرغم من تعرضهم لحصار طويل فرضته عليهم البحرية البريطانية، وأدى عملياً إلى قطع صلتهم بالوطن الأم. وفي عام 1810 هاجمت قوة بريطانية كبيرة من حملة البنادق ومشاة البحرية آيل دي فرانس، جنباً إلى جنب مع جزيرة ريونيون المجاورة، وذلك بدعم من الجنود السباهيين* الهنود. وسرعان ما استسلمت آيل دى فرانس، وتم الاستيلاء على سبع سفن حربية فرنسية وحوالي ثلاثين سفينة تجارية، وأطلق سراح ألفي أسير بريطاني.

* السِّباهي: هندي مجند في الجيش الإنجليزي. (المحرر)

بعد الاستيلاء على الجزيرة عقد المنتصرون العزم على ألا يرفعوا قبضتهم عنها قط، ولأسباب واضحة أعيد تسمية الجزيرة باسم موريشوس، وهو الاسم الذي حملته قبل مئة عام. وسمح للفرنسيين بالاحتفاظ بجزيرة ريونيون، حيث لم يكن بها أي ميناء يمكن استخدامه في زمن الحرب، وفضلاً عن ذلك يمكن إخضاعها للرقابة من الجزيرة المجاورة.

غدا بالإمكان الآن النظر إلى المحيط الهندي على أنه بحيرة إنجليزية، وحسب كلمات الأغاني الوطنية أصبحت بريطانيا سيدة البحار. وقد تقوم السفن التجارية التابعة للأمم الأخرى بالاتجار هناك، ولكن بريطانيا تتحكم في الموانى الاستراتيجية: فميناء كيب تاون وميناء بورت لويس في موريشوس يسيطران على المداخل من المحيط الأطلسي. وبومباي التي تتمركز فيها البحرية الهندية تسيطر على بحر العرب ومدخل الخليج العربي. ومن سيلان وكلكتا العاصمة الإدارية لشركة الهند الشرقية، يمكن للبحرية الملكية القيام بدوريات في خليج البنجال والطرق البحرية إلى الصين. وأتاحت السيطرة على ملجا، التي انتزعت من الهولنديين، لبريطانيا التحكم في كل السفن التي تستخدم هذا الشريان البحري التجاري الضيق الذي تحيط به ماليزيا وسومطرة.

في ذلك الوقت ظلت هناك قوة بحرية أخرى على قدر من الأهمية في ذلك الإقليم بأسره، هي عُمان. وقد تولى السلطان السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي(3) مقاليد السلطة منذ عام 1806 وهو في الخامسة عشرة من عمره، بعد موت ابن عم له نافسه على العرش. وكان رعاياه يمتلكون المئات من السفن العربية التقليدية، التي تجوب الطرق البحرية إلى الهند، وفارس، والبنجال، وإندونيسيا، والبحر الأحمر. وشمل أسطوله الشخصي العديد من السفن ذات التصميم الأوربي، وكان له جيش كبير من الرِّعاع يقاتل بصورة مستمرة خصومه المختلفين في شبه الجزيرة العربية.

وعلى الرغم من أن العاصمة العُمانية مسقط تقع قرب مدخل الخليج العربي، وعلى مسيرة عدة أيام بحرًا فحسب من الهند، فإن شهرة السلطان طارت عبر ثلاثة آلاف ميل وصولاً إلى ساحل شرقي أفريقيا. وقد عقد العزم شأن حكام عُمانيين

سابقين على استعادة هيمنة شبه الجزيرة العربية على زنجبار وسلسلة التجمعات السكانية السواحيلية الممتدة على البر الأفريقي.

لقد تاجر بعض سفن السلطان السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي في اتجاهات بعيدة في الجنوب وصولاً إلى موريشوس، بينما كانت لاتزال تحمل اسم آيل دي فرانس، حيث حملت هذه السفن الجياد والبغال إلى هناك، لمقايضتها بالسكر. وفي عام 1807 وقع معاهدة تجارية مع الجزيرة، وبين الفينة والأخرى كان المغامرون الفرنسيون يتزودون بالمؤن والماء من مسقط. غير أن احترامه للبريطانيين القريبين منه في بومباي على نحو ضاغط للغاية قد زاد بصورة حتمية مع تفوقهم على الفرنسيين وتغلبهم عليهم.

وكانت بريطانيا حريصة بالمثل على أن تبقى على علاقة طيبة مع هذا السلطان الشاب الطموح، بحيث يمكن توجيه سياساته بحذر بالغ، وساد شعور بالقلق من أن يطيحه أحد منافسيه العرب القاطنين على امتداد الشواطئ الصخرية لمدخل الخليج العربي. وكانت للعديد منهم أساطيل تتصدى للسفن التجارية المبحرة بين بومباي وموانئ الخليج العربي. وكانت بعض السفن التقليدية العربية المملوكة للقراصنة جيدة التسليح إلى حد أنها كانت على استعداد لمحاربة السفن الحربية التابعة للبحرية الملكية، وفي بعض الأحيان تغلبت عليها وأوقعت الهزيمة بها. ولو أن السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي راح ضحية مكيدة محلية عنيفة، فإن قلعة مسقط التي يبدو أنه لا سبيل إلى اختراقها، قد تقع في أيد أقل وداً تجاه بريطانيا، وذلك من شأنه أن يمثل تهديداً لتجارة الراج.

وهكذا فإن السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي والبريطانيين سرعان ما ازداد اهتمامهم المشترك بتأكيد السيطرة على الخليج العربي(4). ومن بومباي أقبلت إحدى عشرة سفينة حربية وسفينة نقل، تقل ألفاً وستمئة جندي بريطاني وألف جندي سباهي هندي. وجمع السلطان سعيد ست سفن حربية تقل عشرين ألف رجل من القبائل الصحراوية الموالية. وتم قصف أهداف الحملة حيث دمرت بالنيران خمسون سفينة

تقليدية مسلحة. ومن سوء الطالع أن القوة البريطانية قد انسحبت إلى بومباي قبل الأوان، تاركة السلطان سعيد لخوض غمار المعركة وحده، فأوقعت الهزيمة به[5].

في ذلك الوقت كان البريطانيون لايزالون يركزون على الفرنسيين، ويفسر هذا بشكل جزئي السر في أنهم كانوا حلفاء لاتتسم سياستهم بالاستمرارية ولا التماسك. وعلى الرغم من أن السلطان سعيد قد تعرض لنكسات متكررة على أيدي حشد من الأعداء، في داخل الأراضي العُمانية وخارجها على السواء، فإن نداءاته لبومباي لمساعدته لم تلق آذاناً صاغية. وكان دون العشرين من عمره، وحوله قلة ممن يمكنه الوثوق بهم، باستثناء عمة لا تقهر، والآن ها هي نصائحها الصائبة تلعب دوراً كبيراً في تمكينه من الصمود أمام ما يواجهه.

وباستثناء البريطانيين الذين لا يُعتمد عليهم كان لدى السلطان سعيد ملاذ أخير، يتمثل في أكياس نقوده المليئة بدولارات ماريا تريزا، فقد كانت لديه على الدوام الثروة التي يستطيع بها شراء خصومه، حيث كان يسيطر على مسقط. ولم يقدر للصراعات حول السيطرة على عُمان قط أن تؤدي إلى انقطاع دور الميناء، باعتباره أحد أكثر الأسواق ازدحاماً في المحيط الهندي؛ ومن يسيطر على مسقط فلابد له بالضرورة من أن يكون ثرياً، فالتجار من شتى الأعراق كانوا يتساومون في شوارعها الضيقة والمتربة، والهنود كانوا كثيرين هناك، وهم جزء من شبكة "البانيان" للتجارة والتمويل التي مضت الآن تتسع في مختلف أرجاء المحيط الهندي في ظل السلطة البريطانية.

توجه السلطان سعيد والمقربون منه في بعض الأحيان إلى الهنود للحصول على التمويل منهم. ولكن نشاطاً تجارياً واحداً ظل في أيدي العُمانيين بصورة محكمة وهو تجارة الرقيق التي كان مصدرها الأصلي زنجبار، نقطة الارتكاز الأفريقية الشرقية لإمبراطوريته. وقد شحن إلى مسقط كل عام مئة ألف عبد أفريقي على الأقل، ليباع معظمهم في العالم العربي وفارس. وكان العبيد هم المصدر الرئيسي لدخل السلطنة، حيث كانت تحصل ضريبة رأس على كل منهم، وقُدر عائد هذه التجارة بسبعين ألف دولار سنوياً[6]، [7].

كان أول شاهد عيان أوربي يصف ما يجري في الطرف الزنجباري من طريق العبيد هو الكابتن توماس سمي، الذي قام برحلة على امتداد ساحل شرقي أفريقيا نحو الجنوب في عام 1811، بناء على أوامر من حكومة بومباي. وقد وجد أن الأسرى الأفارقة «من الجنسين ومن كل الأعمار من السادسة إلى الستين» كانوا يدفعون يومياً للسير في أرجاء المدينة، وأصغرهم سنًا في المقدمة، ويفحصهم فحصًا عضويًا من يرغبون في الشراء بدقة «لامثيل لها في أي سوق للماشية في أوربا». وكانت ضريبة الرأس المفروضة على العبيد المصدرين من زنجبار يقوم بجمعها كبير مسؤولي المكوس المعينين في زنجبار من قبل السلطان سعيد، وهو حبشي يدعى ياقوت بن عنبر. وكان التجار العرب يدفعون دولاراً عن كل عبد ينقل إلى إحدى السفن العربية التقليدية التابعة لهم. وكانت هناك في مرفأ زنجبار سفن أوربية تنتظر جمع حمولات من العبيد. وكان النصارى يجبرون على دفع مكوس تزيد بعشرة أمثال على تلك التي يدفعها العرب ولكن التجارة تظل مربحة بالنسبة إليهم، لأن معظم حمولتهم البشرية كانت تنقل مباشرة إلى موريشوس للعمل في مزارع قصب السكر بالجزيرة. وإلى جانب العربية والسواحلية، صارت اللغة الأكثر شيوعاً في التداول في زنجبار هي الفرنسية.

لم تأت رواية الكابتن "سمي" مفاجأة لرؤسائه في بومباي؛ فقد كانوا يدركون تمام الإدراك أن السلطان سعيد هو الشخصية الأعظم سلطاناً بالنسبة إلى تجارة الرقيق في المحيط الهندي، ولم يضعوا موضع التساؤل التقدير القائل بأن ثلاثة أرباع سكان زنجبار كانوا من الأفارقة المجلوبين عنوة من البر الأفريقي. وقد كان للسلطان نفسه مئات من العبيد الملحقين بمعيته(8).

على الرغم من ذلك كانت ثمة ورطة دبلوماسية في ضوء الرغبة في الحفاظ على الصداقة مع السلطان سعيد، ذلك أنه في عام 1807 أقر البرلمان في وستمنستر في صورة قانون ما ينظر إليه كثيرون من الشعب الإنجليزي بفخر على أنه رد بريطانيا الأخلاقي على الثورة الفرنسية، وهو قانون إلغاء الرق الذي حظر الاتجار بالعبيد. وقد استهدف القانون في المقام الأول إيقاف تصدير الزنوج من أفريقيا الغربية على متن السفن الإنجليزية إلى الأمريكتين، ولم يخول أي سلطة للتدخل في شؤون الأمم

الأخرى. غير أن أنصار إلغاء الرق كانوا يتوقون إلى ميادين جديدة لفرض القانون فيها. وفي وقت لاحق سيتعرض السلطان سعيد للضغط في هذا الشأن.

وفي غمار توقع المتاعب من قلب الوطن، بدأت حكومة بومباي على نحو لبق في تحذير السلطان سعيد بأن هناك قوانين تسن في الهند لحظر الاتجار في العبيد. وكانت السفن العُمانية ما تزال تنقل الحمولات من الأفارقة إلى بومباي وكلكتا وموانى الراج الأخرى، وهكذا أهيب بالسلطان أن يُعلم مواطنيه بالعقوبات التي يمكن أن تترتب على هذا الوضع الجديد(9).

لم يحر السلطان سعيد رداً، وهذا أمر مفهوم لاعتماد خزائنه على المكوس التي يجبيها في زنجبار ياقوت بن عنبر المخلص له، والضرائب التي تفرض في مسقط ذاتها. ومن المؤكد أن أي ضغوط للتوافق مع القانون الإنجليزى من شأنها بالتأكيد أن تثير سخط رعاياه، الذين يشكل شراء العبيد وبيعهم مصدراً لكسب العيش يدعمه العرف السائد. وقد كانت سلطات بومباي تعرف أنه على أسوأ الافتراضات فإن بريطانيا قد تغامر بالمساهمة في إطاحة السلطان، وفي أفضل الأحوال قد تشجّعه على أن يسعى وراء حلفاء أقل إصراراً على فرض توجيهاتهم.

سرعان ما لفتت هذه الوضعية المربكة نظر موظفي وزارة الخارجية في لندن إلى جزء من العالم لا يعرفون عنه الكثير ولايكترثون له، وهو شرق أفريقيا. ولم يكن في استطاعة أحد في ذلك الحين التنبؤ بالكيفية التي سيؤدي بها الكشف المتواصل عن تجارة الرقيق في زنجبار إلى إثارة المشاعر في بريطانيا على امتداد أكثر من نصف قرن، وسيكون له دور مهم في صياغة السياسة الاستعمارية تجاه أفريقيا بأسرها.

الفصل الأربعون

فراغ في الجغرافيا بالمعنى الحرفي للكلمة

> يقتضي مُلاك خليج تيبل الجدد مراقبة دقيقة، وإلا فإن افتقارنا إلى الطاقة البشرية سيمكّنهم من التوسع باتجاه الشمال. من ذا الذي سيمنع هؤلاء المستعمرين الجدد من بيع عبيد الداخل الجنوبي التابع لنا، وهكذا يلحقون الضرر بشكل ملموس بتجارتنا التي فقدت بالفعل ثلث قيمتها.
>
> د. فرانشيسكو دي لاسيردا - في رسالة إلى لشبونة (1798)

على امتداد الصراع الذي دام ستين عامًا بين بريطانيا وفرنسا للسيطرة على المحيط الهندي كان هناك مراقب يرصد الأحداث من دون شعور بالارتياح. فقد انتظرت البرتغال بكبرياء جريح رؤية الكيفية التي ستؤثر بها نتيجة الصراع في حقوقها؛ حيث نظرت إلى المتصارعين باعتبارهما غاصبين لما تم اكتسابه في الماضي ببسالة الأبطال اللوزيتانيين العظام. وتفاقم هذا الشعور بالسخط بفعل اللامبالاة القريبة من الازدراء التي صارت تعامل بها بشكل عام.

مع ذلك فقد كانت البرتغال ماتزال لها أهميتها النسبية، ففي أفريقيا تشبثت بأنجولا وموزمبيق اللتين كانت أهميتهما أكثر من مجرد أهمية رمزية، حيث كانتا مصدراً لا ينضب للرقيق الذين يصدرون إلى مزارعها في البرازيل. وكانت هذه المستعمرات البرتغالية الثلاث الواقعة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية لاتزال تدار مباشرة من لشبونة، كأنها إقطاعيات ملكية. وقد عمل في إداراتها الكسالى بصفة أساسية من رجال بلاط متملقين، يغامرون بقضاء سنوات قلائل في المناطق الاستوائية لوضع أيديهم على فرصة للثراء.

بين الحين والآخر كان النظام يفرز رجالاً من معدن مختلف وإلى هؤلاء الرجال ينتمي فرانشيسكو خوسيه ماريا دي لاسيردا، الذي ولد في ساو باولو بالبرازيل في

منتصف القرن الثامن عشر[1] وقد أرسل إلى الوطن الأم لدراسة الرياضيات، وهناك حصل على درجة الدكتوراه في علم الفلك. ولدى عودته إلى البرازيل بدأ في الترحال إلى مناطق نائية في قلب أمريكا الجنوبية، وداوم على كتابة سجلات وافية لتفاصيل مغامراته واكتشافاته. وقد رصدت هذه الطاقة النادرة في لشبونة، وصدرت الأوامر إلى لاسيردا بعبور الأطلسي إلى أنجولا. وفي آذار/ مارس 1797 أمر نائب الملك البرتغالي (جون السابع لاحقًا) بأن تسند إلى لاسيردا قيادة حملة اكتشاف طريق يخترق أفريقيا بكاملها.

كانت تلك فكرة جديدة لإعادة تنشيط كل من موزمبيق وأنجولا. ففي الأيام الأولى من الغزو البرتغالي كان الديجريدادو أنطونيو فرنانديز قد استكشف الداخل الأفريقي من سفالة إلى ما وراء زيمبابوي الكبرى. وفي القرون التالية زار التجار المولدون من أصول بيضاء وسوداء بانتظام أسواق الداخل الأفريقية، وجاب المنقبون عن الذهب والفضة الآفاق - بعيدها وقريبها - محرزين نجاحاً محدوداً، انطلاقاً من مزارع البرازو في زامبيزيا. والآن عهد إلى لاسيردا بخوض غمار تحد واضح، هو شق طريق رئيسي عبر القارة يتمتع بأهمية تجارية، أي «خط مواصلات سهل بين الساحلين» ويرمز كذلك إلى حقوق البرتغال التاريخية.

جاء توقيت تعيينه في أنجولا على درجة كبيرة من الأهمية، حيث جاء بعد عامين فقط من انتزاع البريطانيين الكاب من أيدي الهولنديين. وبينما كان الهولنديون بعد أفول نجمهم أبعد ما يكونون عن تشكيل خطر حقيقي، فإن البريطانيين كانوا أمراً مختلفاً تماماً على نحو ما توضح جهود بناء الأمبراطورية في الهند. بل كانت لديهم «جمعية لتطوير اكتشاف الأجزاء الداخلية من أفريقيا» تأسست عام 1788، وتركزت اهتماماتها أولاً على غرب أفريقيا حيث أرسل اسكتلندي يدعى مونجو بارك في عام 1795، حاملاً أوامر لاستكشاف مجرى نهر النيجر[2]. والآن وقد سيطر البريطانيون على الطرف الجنوبي للقارة، فقد خشي البرتغاليون أن تبدأ الجمعية تركيز جهودها هناك.

علّق لاسيردا الآمال على استباق هؤلاء المنافسين الجدد - وكما عبّر عن تصوره، فإن ذلك سيتم عن طريق «إلقاء عقبة في طريق الإنجليز» - وبالتالي منعهم من سرقة أسواق التجار البرتغاليين في أنجولا وموزمبيق. وقد كان من المهم بصفة خاصة حماية تجارة الرقيق ذات الأهمية البالغة لمسقط رأسه البرازيل، ذلك أنه في نهاية القرن الثامن عشر كان البريطانيون لايزالون نشطين في نقل الرقيق، الآن حانت لحظة التحرك، وقد كان لاسيردا وطنياً شديد التمسك بوطنيته. وكان يقتطف قول كاموس الذي أرَّخ للعصر البطولي شعراً: «لديَّ ما يكفيني من المجد لأتباهى به، وقد همت حباً بأرضي ووطني». وإلى جوار ما اتسم به من تصميم، فقد كانت لديه أفكار جديدة، فعندما ترسم خريطة الطريق العابر للقارة، ينبغي أن تستخدم قوافل الجمال لنقل السلع على امتداده، بدلاً من الاعتماد على الحمالين الأفارقة.

ولم ينطلق لاسيردا إلى مهمته من أنجولا، وإنما شغل نفسه بجمع المعلومات هناك. فقد تشبث المستوطنون البرتغاليون الذين بلغ عددهم حوالي ألف نسمة بالساحل غالبًا، حيث كانت هناك شعوب قوية في الداخل؛ مثل التشوكوي والمبوندو تكره أي شخص يرتدي الملابس الأوربية. وقد أدت تجارة الرقيق على مدى ثلاثة قرون إلى تدمير الإقليم، ومعظم التجارة التي تمضي بعيداً عن الساحل يحملها شبه منبوذين يدعون باسم «البومبيروس». وعلى الرغم من ذلك أفلح تاجر أبيض قبل سنوات قلائل في الوصول إلى منابع الزامبيزي، حيث يبدأ النهر العظيم مسيرته إلى المحيط الهندي والتي لم ترسم على الخرائط.

ظل قلب القارة لغزاً غامضاً، فبين أقصى نقاط التوغل في الداخل من أنجولا ومركز زومبو الموزمبيقي امتدت هوة مؤلفة من مئات الأميال، حيث كانت التجارة كلها في أيد أفريقية. وعلى بعد ستمئة ميل في الداخل بعيداً عن ساحل الأطلسي، كانت هناك أسواق مزدحمة في مملكة عاهل يعرف باسم مواتا يامفو، أو «سيد الموت»[(3)]. وكان حكام أقل شأناً تقع أرضهم باتجاه الشرق، يدينون بالولاء لمواتا يامفو، بحيث إن المنتجات الأوربية؛ مثل الملابس والمرايا وأدوات المائدة وأدوات المطابخ والأسلحة، تسربت بسهولة إلى قراهم. وبين الحين والآخر كانت أشياء قد بدأت رحلتها على

الشاطئ الغربي تشق طريقها عبر القارة مباشرة إلى موزمبيق. وكانت بعض الأشياء الأقل اتساماً بالطابع النفعي المباشر تحظى بالتقدير على امتداد أجيال، ومنها زوج من التماثيل الصغيرة لمريم العذراء، عثر عليهما ضمن آثار إحدى المناطق المميزة.

أدت التساؤلات التي قام بها لاسيردا في أنجولا إلى اقتناعه بأنه ينبغي أن يبدأ رحلته لعبور القارة من الشرق. وبينما كان يستقل سفينة متجهة من بنجويلا إلى موزمبيق، كان في وسعه أن يرى على رصيف الميناء مقعداً من المرمر سيجلس عليه أسقف ليبارك الرقيق خلال حملهم في المراكب الطويلة إلى السفن الراسية في المرفأ. وخلال الرحلة حول الطرف الجنوبي للقارة، كانت هناك في كل الأحوال زيارة إلى كيب تاون للتزود بالماء والمؤن. وكان من شأن هذا أن يتيح للاسيردا الفرصة لدراسة خصومه.

وكان لاسيردا قد عُيِّن حاكماً لسينا المطلة على نهر الزامبيزي في آذار/ مارس 1798، ولكنه لم يضع وقتاً في القيام بمهام هذا المنصب، حيث تمثلت رغبته الوحيدة في بدء الرحلة إلى عاصمة مواتا كازيمبي، وهو حاكم قوي كان يدفع الضرائب لحاكم أقوى هو «سيد الموت» مواتا يامفو(4). وكان الطريق إلى عاصمة الرجل الذي يدعوه البرتغاليون بالملك كازيمبي يقع إلى الشمال تقريباً من أقرب نقطة انطلاق مطلة على نهر الزامبيزي، وهي مسافة تقدر بحوالي خمسمئة ميل. وقد بعث الملك بصورة منتظمة بمقادير كبيرة من العاج والنحاس إلى ساحل موزمبيق لمقايضتها بسلع مصنعة، ولذا فقد غلب الظن أنه من المحتمل أن يرحب بزيارة يقوم بها مبعوثون أوربيون.

وفقاً لخرائط ذلك العصر، على الرغم من أنها لم تكن إلا أعمالاً تقوم على الظن والتخمين، فإن حملة لاسيردا ستمضي باتجاه «بحيرة زيمبري» الأسطورية، التي يشيع أنها تنبع منها أنهار أفريقيا الكبرى كلها بما فيها النيل والزامبيزي. وإذا ما تم الانطلاق غرباً بعد الوصول إلى أراضي كازيمبي، فإنه من الممكن الوصول إلى ساحل الأطلسي في غضون ثلاثة أشهر حسبما أفادت الشائعات.

تغلب طموح لاسيردا على فطرته السليمة، وجمع في مدينة تيتي الواقعة وسط الغابات قوة كبيرة للغاية إلى حد أنها بدت أقرب إلى الجيش، تألفت من أربعمئة

أفريقي استؤجروا كحمالين، وخمسين جنديًا بقيادة المقدم بيدرو نو لاسكو، وراهب يدعى الأب فرانشيسكو بينتو، وحشد من الخدم الشخصيين، والعديد من المرشدين. وكان هناك كذلك من يتبعون المعسكر، والذين ساروا وراء هذا الحشد وهو يغادر تيتي في مطلع تموز/ يوليو 1798 (5).

وكانت سمعة مواطني لاسيردا السيئة أبرز السلبيات التي واجهته، فقد كان أسلوبهم التكتيكي للبقاء في الأجزاء الداخلية من موزمبيق هو تحريض مجموعة أفريقية ضد أخرى. وفضلاً عن ذلك فإن الجهود المتواصلة من جانب الرهبان والكهنة لنشر المسيحية لقيت رفضًا شديداً من قبل الحكام الأفارقة الذين نظروا إليها باعتبارها تحديًا لسلطتهم الروحية. ومن الاستثناءات النادرة بهذا الصدد الراهب اليسوعي الأب بيدرو دا ترينيداد، حيث شيَّد مستوطنة في زومبو، ستنطلق منها حملة لاسيردا إلى رحاب المجهول. وخلال مجاعة كبرى في وقت سابق من القرن ذاته أنقذ الأب بيدرو العديد من البشر من الموت جوعًا.

من سوء طالع لاسيردا أنه لم يكن لديه دليل مثل الأب بيدرو، وإنما اضطر للاعتماد على رجل من أصول بيضاء وسوداء يدعى جونزالو كايتانو بيريرا، الذي زعم أنه قد زار كازيمبي منذ سنتين. وكان الأفارقة يطلقون على كل شخص لقباً، وقد لقبوا كايتانو بدامبو-دامبو، أي «المروِّع» وقد اعتز بهذا اللقب. ولكن مع كل خطوة تخطوها الحملة بعيداً عن نهر الزامبيزي كانت تجد نفسها أقل قدرة على فرض إرادتها على السكان المحليين. فعلى امتداد الطريق المتعرج الذي سلكته عبر الأدغال الكثيفة - والذي كان لاسيردا يصفه في يومياته بـ «الطريق الرئيسي» - كان هناك العديد من المسافرين الآخرين يحملون السلع في كل الاتجاهات، وكانوا تجاراً أفارقة من جماعة بيسا غالباً، وكان من الجلي أنهم يكرهون هذا التوغل الأوربي في الداخل الأفريقي. واضطرت الحملة كذلك لمواجهة شعب محب للحرب هو شعب بيمبا «وهم عدو لدود لشعب كازيمبي، ولا يبقون عليه».

وكانت هناك مشكلات أكثر إلحاحاً، فقد أحس الحمالون الذين يحملون أثقالاً من القماش والخرز وغير ذلك من السلع بالتعب سريعاً من هذا العمل، ولاذوا بالهرب في

الأدغال. ورد رؤساؤهم البيض بإجبار الباقين على السير مصفدين بالأغلال، وجلد كل من يحاول الهرب من صفوف الخدمة بالحملة، وخلال المسيرة قام لاسيردا باستخدام مئتي امرأة للحلول محل الحمالين حيث اشتهرن بأنهن أكثر ميلاً إلى الطاعة، وكتب في هذا الشأن: «طار النوم من عيني، وصرت أنفق أيامي ولياليَّ في التفكير في كيفية تجنب التعطيل، والمسيرات البطيئة، وعناد الكفرة... وعندما أبعث بأمر يتعين تنفيذه فإن الجميع يأخذون في الصراخ ولا يفعلون شيئاً». وبالمقارنة بمثل هذه الرحلات، فإن السفر في أمريكا الجنوبية كان متعة حقيقية.

وأصبح الجلد بالسياط حدثاً يومياً، ويصف لاسيردا الحمالين بأنهم «برابرة». ولكنه يضيف بأنهم يتوقعون «الصدق، والأمانة، والشرف» من الرجل الأبيض. وكان يعلم أن مثل هذه الصفات نادرة بين مرؤوسيه.

وأخيراً، وبعد أكثر من ثلاثة أشهر من شق طريق الحملة عنوة عبر الغابات والمستنقعات وصلت متعثرة إلى عاصمة كازيمبي الواقعة بجوار بحيرة مويرو. وتم الترحيب بقدومها بالرقص وقرع الطبول، ومد أحد مساعدي الحاكم ذراعيه مشيراً إلى الطريقين اللذين يمضيان عبر القارة، عبر أنجولا وموزمبيق، إلى الأطلسي والمحيط الهندي. ولكن الرجل الذي كان حلمه شق هذا الطريق كان قد تجاوز مرحلة الاكتراث به، فقد هد اليأس والملاريا لاسيردا، وحمله العبيد طوال أسابيع عديدة على محفة، وبعد أسبوعين، أي في 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1798 لفظ أنفاسه الأخيرة.

غدت الحملة بلا قائد، فتفرقت في التو إلى جماعات، وحرص كل من فيها على العودة إلى الأمان النسبي في مستعمرتي تيتي وسينا المطلتين على نهر الزامبيزي. وتولى المسؤولية الاسمية الراهب بنتو، ولكن الذين يكترثون به كانوا قلائل، وبدأت مجموعات صغيرة في التسرب مبتعدة للهرب من محنة القرى المعادية الواقعة على امتداد الطريق المتجه جنوباً، وشرعت الأمطار في الهطول فجعلت الارتحال شبه مستحيل، وسببت المزيد من حالات الملاريا، ومضت الشهور بينما البقايا من الحملة المنغمسة في الشجار تهدر الوقت عند أطراف عاصمة كازيمبي الموحلة، مبددة حمولات

القماش والخرز في ابتياع الطعام، وتم التخلي تماماً عن أي تفكير في مواصلة الانطلاق إلى أنجولا، وهو ما كان لاسيردا يتوق إلى القيام به.

لم يستجمع الأب بنتو مايكفي من قوة الإرادة قبل تموز/ يوليو 1799، بعد أن أقلعت السماء بوقت طويل لبدء رحلة العودة الخطرة، وقد بدأت هذه الرحلة بنذير سوء، حيث عورضت عملية استخراج رفات لاسيردا لحملها إلى الوطن من جراء نشوب شجار، وتناثرت الرفات في كل الاتجاهات. وخلال المسيرة حمل الأب بنتو على محفة، ولكن «كفرته المتوحشين» رفضوا القيام بهذا العمل، وأجبر عبيد القائد الراحل على القيام به. ولم يستطع بعض العبيد المرضى مجاراة إيقاع السير السريع الذي حدّده الجنود؛ فأعدموا تواً. ولما كانوا من أملاك التاج البرتغالي فقد ضاق بنتو بذلك أشد الضيق.

غدت مسيرة العودة على نحو ما سجلت في يومياته تراجعاً مضطرباً، وملحمة مفعمة باليأس. وأدرك بنتو عندما لا يوافق القرويون على بيع الطعام إلا بأسعار تعد «ابتزازاً» أن تجار بيسا قد وجهوا تعليمات بتجويع الحملة والسطو عليها؛ فالسهام المسمومة تطلق عليها من الأشجار، والإمدادات يتم التخلي عنها، وحتى الدليل كايتانو «المروّع» أصبح في حالة من العوز والحرمان، إلى حد أنه اضطر إلى التخلي عن جارية في مقتبل العمر للحصول على الطعام. وكان لدى الأب بنتو كذلك «زنجية صغيرة»، فاضطر إلى التخلي عنها لقاء بعض الشعير وقليل من الفول السوداني.

وفي الأسابيع الأخيرة من عام 1799 اقترب الناجون من مشارف تيتي التي كان لاسيردا قد انطلق منها قبل عام ونصف العام حاملاً معه آمالاً كباراً. وبدا الراهب قذراً مهلهل الثياب، حيث أسقطه حملة محفته خلال حملهم له في أحد الأنهار عن عمد بحسب يقينه. ولما لم يكن راغبًا في الكشف عن نطاق الكارثة في وضح النهار، فقد قرر الانتظار خارج المدينة إلى أن يسدل الليل أستاره.

في عام 1808 بعد عقد من الزمان من تحذير لاسيردا من أن «الملاك الجدد لخليج تيبل» قد يسارعون بشق طريق شمالاً، تمكن جراح مساعد يدعى أندرو كوان من مقابلة

لورد كاليدون الحاكم العام للكاب، وكان كوان قد وصل إلى جنوب أفريقيا في 1806 مع الفوج 72 مشاة، ولكن علاج أمراض رجال المشاة البريطانيين أصبح عملاً مضجراً. وفضلاً عن ذلك فإنه باعتباره رجلاً من أصل متواضع، لم يكن من المحتمل أن يصل إلى منصب أرفع كثيراً في سلك الخدمة الطبية، ولذا تقدم الآن بمطلب جريء، وهو أن يسمح له بقيادة حملة من الكاب لاستكشاف داخل القارة[6].

تأثر لورد كاليدون بروح المغامرة هذه فسمح بالقيام بهذه الحملة، واختار كوان إيرلندياً مثله - هو الملازم دونوفان من الفوج 83 مشاة - رفيقاً له في الحملة. وتم التعاقد مع عشرين من الخويخوي لمرافقتهما، وكذلك مع أحد رجال «البوير» ويدعى كروجر ويتمتع بخبرة في السفر في الأراضي غير المدونة على الخرائط.

قاد كوان فريقه عبر نهر الأورانج ولحق به مبشر اسكتلندي يدعى وليم أندرسون، كان يتخذ مقراً له في مركز متقدم. وانطلق الفريق في مسيرته ثم توقف في مساء عيد الميلاد عام 1808، في منطقة تقع إلى الشمال من أقصى حد وصله الأوربيون من قبل. وكتب كوان رسالة يوضح كيف أنه سوف يستمر في مسيرته إلى أن يبلغ ساحل موزمبيق للاتصال هناك بإحدى المستعمرات البرتغالية، وقد تم الوصول بالفعل إلى النقطة التي تشكل منتصف الطريق. وحمل أندرسون هذه الرسالة وعاد بها، ووصل كيب تاون سالماً. وابتهج لورد كاليدون حيال هذه الأنباء، فأمر بإرسال مركب شراعي وحيد الصاري إلى موزمبيق لنقل كوان ودونوفان ومن برفقتهما.

ولكن لم يقدر لهم أن يظهروا قط، كما لم تصل كلمة منهم، وغدا مصير هذه الحملة لغزاً مجهولاً. وظهرت دلائل محيرة حول هذا المصير بعد ذلك بسنوات طويلة مع اكتشاف أزرار قلائل مما يستخدم في أزياء أفواج المشاة. وعلى امتداد سنوات ترددت شائعات حول أن المستكشفين لايزالون على قيد الحياة ولكنهم محتجزون كرهائن. ووفق نظرية أخرى فإن الحمى قد قضت على الفريق بكامله قضاء مبرمًا. وبعد ذلك بوقت طويل صارت كل سفينة بريطانية مبحرة إلى موزمبيق تكلف بالقيام بتحريات دقيقة ورصد أي أنباء عن كوان ورفاقه.

كان البحث عن البعثة أحد الواجبات التي أسندت إلى فرقاطة البحرية الملكية «نيسوس» قبل خروجها من خليج تيبل في عام 1812 في رحلة إلى شرقي أفريقيا، وكان على طاقمها كذلك البحث عن سفن معادية، غير أن الحرب التي بدا أنها لن تنتهي مع نابليون كانت مستمرة، وكانت فرص لقاء هذه السفن محدودة للغاية، حيث تم اكتساح الفرنسيين وطردهم إلى خارج المحيط الهندي، منذ الاستيلاء على موريشوس. وهكذا فإن المهمة الرسمية للفرقاطة كانت القيام ببعثة دبلوماسية إلى جزر القمر الواقعة بين موزمبيق ومدغشقر.

وكان مبعوث من سلطان أنجوان أشهر جزر القمر قد وصل إلى كيب تاون ليطلب الحماية البريطانية ضد مغيرين من مدغشقر. وذهب المبعوث إلى القول إن هؤلاء المغيرين الذين يستقلون قوارب تجوب أعالي البحار قد «أقبلوا بالألوف» لاسترقاق سكان الجزيرة (كان لدى مسلمي أنجوان العديد من الأرقاء الذين يعملون في خدمة المنازل، ولكن رؤية شعبهم الحر يحمل إلى عالم الرق كانت أمراً مختلفًا تمامًا).

كان ذلك مؤشراً للآفاق الآخذة في التغير في المحيط الهندي، حيث تطلّع السلطان الذي يشار إليه بمزيد من التعظيم على أنه «ملك جزر القمر» إلى مساعدة من الكاب، الواقعة على بعد ألفي ميل إلى الجنوب من أنجوان. ولم يحدث من قبل قط أن غامرت السفن العربية التقليدية بالإبحار إلى الكاب، ولذا فلابد أن المبعوث استقل إحدى سفن الهند العائدة إلى الوطن. وقد استقبل نداء السلطان بالترحيب لأن الحاكم العام الجديد للكاب سير جون كرادوك كان يدرك تمام الإدراك «الخدمات المدنية والإمداد بالماء والمؤن، الذي يقدمه أهالي الجزر البسطاء المسالمون هؤلاء للسفن الإنجليزية المبحرة إلى الهند». وكان ذلك صحيحًا تمامًا، فقد كانت أنجوان معروفة للبحارة باعتبارها «جوانا» وكان السكان مولعين باتخاذ أسماء إنجليزية، وكانت منذ وقت طويل مكانًا مناسبًا تلجأ إليه السفن في طريقها إلى بومباي أو كلكتا. وفي السبعينيات من القرن الثامن عشر ساعدت سفينة مملوكة لشركة الهند الشرقية السلطان على إخماد تمرد قام به العبيد والمزارعون، كما أرسلت الشركة هدايا ثمينة إلى الحاكم لقيامه بإنقاذ طاقم سفينة غرقت قبالة أنجوان، ذكر أنها كانت تقل عبيدًا غرقوا جميعًا.

واكتشف أن المبعوث الموقر الذي كان يعتمر عمامة ويرتدي ثياباً عربية، يتحدث بلغة إنجليزية «مقبولة» تعلمها خلال إقامته في الهند. وأطلق عليه مضيفوه، كمؤشر لتقديرهم لقدراته، لقب «جاك بومباي» (سجل اسمه على نحو لا سبيل من خلاله إلى تبين اسمه الأصلي باعتباره بارا كومبا) وقد تقرر أن يعود إلى أنجوان على متن سفينة حربية بريطانية، مع هدايا وكلمات حافلة بالتأييد الحار. وفي الطريق ستقوم السفينة بزيارة إلى مدغشقر لتحذير سكانها «بالتهديدات أو بالمفاوضات» بأن عليهم في المستقبل أن يدعوا أصدقاء بريطانيا في سلام. وقد كان هذا القرار بإرسال سفينة حربية إلى أنجوان تجلياً مبكراً في المحيط الهندي، لرغبة بريطانيا في أن تصبح «شرطي البشرية».

دون جيمس بريور طبيب السفينة سجلاً مفعمًا بالحياة للرحلة التي قامت بها السفينة نيسوس (التي أطلق عليها أحد دارسي الكلاسيكيات في البحرية الملكية اسم بطل ثانوي من أبطال طروادة)[7]. وهو يحدّثنا كيف أنه أقام بسهولة صداقة مع جاك بومباي، الذي يصفه بأنه «في حوالي الخمسين من العمر، يتدفق بالحيوية والمرح، وله عينان نفاذتان وملامح معبرة» ويلاحظ بريور الشاب في شموخ أن ما يفوق ذلك هو أنه «يفهم شيئاً من طبيعتنا». ولاتدع هذه الرواية شكاً في أن مبعوث السلطان كان يفهم الكثير.

وجهت الدعوة مراراً وتكراراً إلى جاك بومباي خلال الرحلة ليتناول طعام العشاء مع ضباط السفينة؛ فكان بين الحين والآخر يشرب القهوة معهم، ولكنه بخلاف ذلك يظل بمعزل عنهم و«غالباً ما يقول إننا طيبون كثيراً ورقيقون للغاية» بما يزيد على ما يستحقه «رجل أسود عجوز لا خير يرجى منه». وبغض النظر عما يمليه عليه دينه فيما يتعلق بإعداد الطعام، فربما كان الشيخ ينتحل الأعذار لأنه يجد صحبة الضباط الشبان مضجرة للغاية.

لم يتحقق أحد الأهداف الأساسية من الرحلة، وهو تهديد المالاجاشيين الذين يهاجمون الجزيرة للاسترقاق؛ لأن الطقس السيئ حال بين نيسوس والاقتراب من شاطئ الجزيرة. وبدلاً من ذلك أبحرت الفرقاطة على امتداد ساحل موزمبيق، وقامت

بالاتصال بالبرتغاليين حيثما كان ذلك ممكنًا، ويبدو بريور أبعد ما يكون عن المجاملة، عندما يتعلق الأمر بهم فيقول «مناخ المكان بعيد تمامًا عن الطابع البطولي، فعلى الرغم من أنه تأسس على أيدي أبطال، فلم تعد روح البطولة تحفز السكان الحاليين منذ وقت طويل». واكتشف أنه لم يبق إلا القليل من سفالة التي كانت يوماً ما ذات شهرة واسعة النطاق. أما الآن فهناك يقيم برتغالي واحد «تحميه قوة ضئيلة من الجنود السود وحصن صغير».

وعندما بلغت الفرقاطة جزيرة موزمبيق، أتيحت لبريور الفرصة لممارسة مواهبه الأدبية[8] فالحاكم البرتغالي يقيم هنا «اسم سعادة الحاكم هو دون انطونيو مانويل دي ميلو كاسترو إي مندوزا، ووفقًا لما يتردد فإنه شخص لا يقل أهمية عما يوحي به اسمه الطويل».

وحينما نزل الضباط البريطانيون إلى الشاطئ، وقع بصرهم على الحاكم لأول مرة في مقر حرس قصره، حيث «يتلقى التحية المعتادة وقد استلقى تماماً على محفته». واكتشفوا أن الحاكم نادراً ما يرتحل إلى أي مكان أو يتعرض لأشعة الشمس «حتى لا يعرض للخطر صحته الغالية» ولم يفعل شيئاً لتنشيط الزراعة أو التجارة. غير أنه باستغلال مزايا منصبه جمع ثروة طائلة، وتمثل أعظم مصدر فخر له في طاولة بلياردو، كان يسلي نفسه باللعب عليها عدة ساعات كل يوم.

وبعد أن يسخر بريور طويلاً من الحاكم (الذي يلزم الفتور على نحو ظاهر حيال زواره البريطانيين) فإنه يدون كل ما يستطيع اكتشافه عن الداخل الأفريقي. وهو يعلم أن اثنين من الهجناء هما بيدرو جواو باتيستا وأمارو خوسيه قاما مؤخراً فحسب برحلة عبر القارة، من أنجولا إلى نهر الزامبيزي ثم عادا إلى أنجولا. والرحلة في اتجاه واحد لا تستغرق إلا مئتي يوم، ولكن هذا يقتضي سرعة دائبة «وهو وضع غير محتمل الحدوث في أي جزء من أفريقيا». وعلى الرغم من أن بريور لا يذكر لاسيردا بالاسم، فإنه يسجل أن العديد من حكام موزمبيق السابقين الأكثر نشاطاً من الحاكم الحالي، قد حاولوا عبثاً قيادة حملات إلى الداخل «ومن المعتقد هنا بصفة عامة أن المحاولات التي

تبذل للتوغل في الداخل انطلاقاً من هذا الساحل لن يقدر لها النجاح. غير أن هذا لا يعدو أن يكون افتراضًا لا مسوِّغ له».

فيما يتعلق بكوان ودونوفان فليست هناك أنباء مشجعة، والاعتقاد العام الذي يقوم على أسس أخبار غامضة من الداخل، هو أنهم تعرضوا لمذبحة أودت بهم حتى آخر رجل منهم في موضع ما جنوب سفالة، يقع على بعد حوالي «أربعين فرسخاً» في الداخل الأفريقي. ويسأل بريور عن نهر الزامبيزي فيقال له إنه ينبع من بحيرة على بعد سبعمئة إلى ثمانمئة ميل من الساحل. وثمة قبائل معينة «جريئة وضارية» تنشط بصورة مستمرة وراء موزمبيق، وتهاجم بقوة مستخدمة الحراب والسهام والأقواس والبنادق.

ويبدو لبريور أن معظم أفريقيا غارق في الغموض، أي أنه «فراغ في الجغرافيا بالمعنى الحرفي للكلمة». والأفراد بشكل عام «متوحشون في العادات، وبرابرة في طباعهم» غير أن التعرف عليهم «قد يعني تحضيرهم». وهو يسجل أن بين أتباع جاك بومباي عبداً يطلق عليه "الاسم التقليدي المألوف موسى" «لا يمكن لأي من الأفارقة الآخرين على متن السفينة فهم لغته الأم، ومن الجلي أن هناك تنوعاً هائلاً في هذه الأراضي المجهولة، والعديد من الألغاز التي لم تحل بعد. وعلى الرغم من كل تحيزه، فإن الطبيب البحري الشاب يظهر أنه رجل ينتمي إلى عصر جديد حريص على جمع الحقائق واستخلاص النتائج المنطقية منها.

وكانت الرحلة من موزمبيق إلى أنجوان خالية من الأحداث، باستثناء أن أحد بحارة الفرقاطة البريطانية أبلغ العبد موسى بأنه سيتم طهوه والتهامه في الغد. ويسارع الرجل وقد استبدّ به الذعر إلى الاختباء في أحد عنابر الفرقاطة، ويقضي جاك بومباي وقتاً طويلاً في محاولة احتواء ما وقع من ضرر، موضحًا لموسى أن الأمر لا يعدو مزحة من جانب الرجل الأبيض. وليست هناك إشارة إلى أن البحار قد استحق أو وجه إليه أي لوم أو تقريع.

وفي أنجوان تم إنزال إمدادات من الأسلحة والذخائر إلى الشاطئ، لرد المهاجمين الساعين وراء الرقيق على أعقابهم، واستُدعي بريور لعلاج الأمراض المختلفة في عائلات السلطان وشيوخه.

ـد أن بذلت الفرقاطة أقصى ما في وسعها لسلطان أنجوان، الذي زوّد قصره المشيد
خور المرجانية بالبنادق على نحو جيد، أبحرت إلى كلوة، وهو آخر ميناء أفريقي
. وهناك علم بريور بأمر المعاهدة التي صاغها السيد موريس قبل خمسة وثلاثين
بل إن هناك جزيرة صغيرة في ميناء كلوة يقال لها جزيرة موريس «تيمنًا باسم أول
ـمر أتى من موريشوس». وزعم يوسف حاكم كلوة أنه يسيطر على جانب من
حل، فمضى بعض أعضاء طاقم الفرقاطة إلى الشاطئ في رحلة بحث خطرة ولا
فيها للوصول إلى أخشاب مناسبة لصنع الصواري، ووجدوا البر الأفريقي قد
إلى حد كبير من السكان بفعل نشاط تجار الرقيق.

كان بريور قد لاحظ في موضع سابق أن البرتغاليين كانوا في وقت من الأوقات
رون عشرة آلاف من الرقيق سنويًا من موزمبيق إلى أمريكا وجزر المحيط الهندي،
لآن فإنه يذهب إلى القول بأن هذا الرقم قد انخفض إلى ثلاثة آلاف من الرقيق،
«جهود إنجلترا». وهذه المبالغة التي صيغت جيداً لإرضاء أنصار إلغاء الرق من
المسؤولين، تتراجع في كلوة مفسحة المجال لحس بريور الفكاهي الغليظ. فهو
نا بأن الفرنسيين كانوا في السابق يشترون الرقيق هنا، مقابل اثنين وثلاثين دولاراً
س، أي ما يعادل ثمانية جنيهات استرلينية «وهي طريقة شديدة الاختصار في حشد
جال، يدهشني أن أياً من دعاة الحرب في أوربا لم يفكر فيها». ويمضي قائلاً:
ني لأتعجب من أن نابليون لم يخطر بباله مثل هذا المشروع قليل التكاليف لحشد
ش لمهاجمتنا أو على الأقل لتخويفنا في الهند». وذلك لا يعدو أن يكون المرح
جح من جانب أمة واثقة من أنها تغلبت على خصمها اللدود[9].

الفصل الحادي والأربعون

طريقتان في التعامل مع غنائم الحرب

عندما سعت بريطانيا للوصول إلى العالم الشرقي،
ورفرف علمها الظافر،
فإنها جاءت لتبرئ الجراح، لا لتجرح المشاعر،
ولتحطم أصفاد الأسير.
ومصدر فخارها ومناط شهرتها
أنه ما من شيء يبقى وراء الاسم.
مع ذلك فها هنا يبقى الأفريقي،
رغم أن أصفاد عبوديته قد حطمت،
متأهباً للنصر، أو للموت
من أجلها؛ فهي التي جعلت أصفاده تتكسر.

توماس أجاكس أندرسون ـ **«جولات في سيلان»** (1817)

كان أمراً مناسباً أن يتضمن كتاب **«جولات في سيلان»** الذي ألفه الكابتن أندرسون، من ضباط الفوج التاسع عشر مشاة، والذي يغلب عليه الميل إلى الشعر، بعض الأبيات المؤثرة حول الرق. ويجسد تصور الكابتن للأفارقة - الذين لا يترددون في مواجهة الموت لشعورهم بالامتنان تجاه محرريهم - المزاج النفسي البريطاني بصورة دقيقة، بعيد الحروب النابليونية، والذي يجمع الشعور بالفخر والورع بأن الحق كان معهم. وفضلاً عن ذلك فإن مصدر إلهام جد قريب جعل أندرسون يتحول بملكته الشعرية نحو هذا الموضوع، ذلك أن الفوج السيلاني الثالث كان يتألف بكامله من عبيد سابقين. وكان حكام الجزيرة البريطانيون فخورين بمشاتهم من الأفارقة، وشأن الهولنديين من قبلهم كانوا يستفيدون من المواهب الموسيقية لهؤلاء المجندين «الذين حرروا من أغلالهم» بتدريب بعضهم على أن يكونوا من أعضاء الفرق الموسيقية بالجيش.

يعد أصل الجنود السود الذين يشكلون الفوج الثالث تصويراً غريباً للعلاقات المتداخلة في المحيط الهندي، غير أنه في الوقت الذي كان الكابتن أندرسون ينظم أشعاره كانت هذه المرحلة الوجيزة من التاريخ بعيدة عن اهتمام رؤسائه، حيث كانت ترجع إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما كانت تجارة الرق ما تزال عملاً مشروعاً. كما كانت لحظة يفتقر فيها البريطانيون إلى الجنود على نحو مؤلم، وما يزالون يكنون مخاوف حادة من نابليون.

وكان سير فريدريك نورث حاكم الجزيرة في ذلك الوقت قد وجه نداء من أجل إرسال فوج من زنوج الهند الغربية إلى سيلان، حيث إنهم سوف يتأقلمون مع المناخ بشكل جيد، ولكن النداء لم يسفر عن شيء، فلجأ إلى حل آخر في تكتم وحذر؛ وهو شراء عبيد أفارقة وتدريبهم على القتال دفاعاً عن بريطانيا.

في البداية فكر سير فريدريك في تجميع ما لا يزيد عن «مجموعة كفرة» ولكن نطاق طموحه اتسع ليصل إلى شراء ما يكفي من العبيد لتشكيل فوج كامل يتألف من ألف رجل. وكانت المصادر الواضحة والقريبة للغاية هي جوا وغيرها من المراكز التجارية البرتغالية، على امتداد المحيط الهندي، وسرعان ما تبادل المراسلات حول هذا الموضوع مع سير وليم كلارك السفيرالبريطاني فى جوا[1]. وفي تموز/ يوليو 1804 كتب السفير قائلاً إنه قام بالفعل بتجميع خمسين من السود لإرسالهم إلى كولمبو، ووجد شخصاً يدعى الكابتن سكوت أبدى استعداداً لنقل «أي عدد قد يكون جاهزاً فى سفينته «هركيوليز» مقابل ألفي روبية. غير أن ثمن الرقيق أنفسهم غدا موضعاً لنقاش محتدم، حيث يشير كلارك فى رسائله إلى نورث إلى أن وكيلاً قائماً بالشراء يدعى الكولونيل تايلور كان يدفع أربعين جنيهاً استرلينياً مقابل الرأس الواحدة، بينما «الكفرة الذين جمعتهم لن يكلفوك أكثر من ثلاثين جنيهاً للرأس».

وبالفعل أصبح الشراء من جوا أمراً بطيئاً على نحو مرهق؛ لأن الرهبان الكاثوليك هناك يرفضون مناولة القربان المقدس لأي برتغالي يبيع الرقيق لبروتستانتي. ويتفاخر كلارك بأنه «لجأ إلى حيلة صغيرة» لخداع الرهبان، ولكن سير فريدريك قرر بالفعل

القيام بالخطوة المنطقية وشراء السود من المنبع؛ فقام بإرسال سفينة إلى موزمبيق لتحميلها بشحنة كاملة من الرقيق، وبصفة أساسية من الرجال لإلحاقهم بالفوج، وكذلك بعدد محدود من النساء.

وتم شراء خمسمئة من الأفارقة تقريباً لحساب الحاكم، ولكن رحلتهم إلى سيلان كانت كابوساً. فمع انطلاق السفينة من موزمبيق لعبور المحيط الهندى، بدأ الرقيق فى الشجار مع الجنود الهنود الذين استقلوا السفينة للحفاظ على النظام على متنها، وقتل ثلاثة وعشرون منهم، ولقي كثيرون آخرون حتفهم من جراء المرض قبل الوصول إلى كولمبو.

وعلى الرغم من هذه الخسائر فإن نورث حشد عدداً كافياً من الرقيق لتشكيل الفوج؛ وذلك بإضافة الأفارقة الذين تم الحصول عليهم من السفن الفرنسية المأسورة. وشعر بالفخر حيال إنجازه هذا، حيث إنه على يقين من أنهم سيكونون أفضل للمهمة من أي قوة مماثلة شكّلت من بين «السكان الأصليين لقارة الهند». غير أنه أبلغ كبير ضباطه بأنه ينبغي ألا يكون هناك المزيد من عمليات شراء العبيد «خصوصاً أن المدى الذي مضيت إليه في شراء الكفرة للمؤسسة العسكرية لم يكن معروفاً لصاحب السمو الملكي القائد، ولا لوزراء جلالة الملك الآخرين». وقد نفذ مشروع سير فريدريك في الوقت المناسب تمامًا، لأنه بعد عامين اثنين من تشكيل فوج سيلان الثالث، أقر البرلمان البريطاني القانون الذي يحظر على جميع رعايا جلالة الملك الاتجار في الرقيق.

لم يقدر للفوج الأسود أن يشتبك مع جنود نابليون، ولكنه أثبت جدواه في بداية عام 1815 في حرب قصيرة ضارية، شنت ضد آخر ملوك كاندي، وهو سري ويكراما راجاسينها. وقد شارك في هذه الحرب كذلك مؤلف كتاب **«جولات فى سيلان»** حيث قاد جانباً من الفوج التاسع عشر مشاة، وهو أحد سبعة طوابير زحفت بجرأة نحو المرتفعات من نقاط مختلفة في سهل سيلان الساحلي.

وشُن الهجوم على كاندي في تجاوز للتحذيرات الصادرة عن وزير المستعمرات في لندن لورد باثورست؛ الأمر الأكثر أهمية من المغامرة بسفك الدماء هو أنه لم يبد

ارتياحه إزاء التكلفة المحتملة لانتزاع مساحات أخرى من أراض استوائية والاحتفاظ بها بينما ليست لها فائدة تجارية، كما كانت هناك تعبيرات عن الاستياء من جانب القوات البريطانية التي لم تبتهج حيال اضطرارها لتكبد عناء السير صعوداً من كولمبو لما يزيد على مئة ميل عبر طرق منحدرة وخلال غابات كثيفة. وعلى الرغم من أن كاندي ذاتها تقع على ارتفاع يقل عن ألفي قدم، فإن الجبال الأكثر إيغالاً باتجاه داخل الجزيرة بما في ذلك قمة آدم، كانت ترتفع شاهقة إلى حوالي ثمانية آلاف قدم، مهددة باحتمال الاضطرار إلى شن حملة مجهدة تأخذ نمط الكر والفر.

غير أن حاكم سيلان الجنرال سير روبرت براونريج لم يتزحزح عن موقفه قط، وكان داعي الأسف الوحيد بالنسبة إلى الجيش هو أنه لم ينشب قتال إلا نادراً، وكانت الخسائر التي لم تتجاوز عدد أصابع اليدين في الجانب المدافع وحده، فلم يكن ويكراما عاهلاً من نوع سلطان تيبو «نمر مايسور» (ماشورة) الذي لقي حتفه شاهراً سيفه؛ وإنما استسلم وهو محاط بنسائه. وبالنسبة إلى أندرسون ورفاقه من الضباط الذين كانوا ينظرون إلى البسالة باعتبارها أسمى الفضائل، فقد بدا هذا السلوك تجسيداً لطبيعة السنهاليين، فهم في حاجة إلى قيادة حازمة، وسوف تمدهم بريطانيا بها.

كان براونريج قد عزف على وتر الخصومات السائدة في صفوف النبلاء السنهاليين، وسرعان ما تمكّن من إحضار الملك الأسير إلى كولمبو، على نحو يجسد الانتصار البريطاني. وفي غضون ذلك مضت القوات البريطانية تتطلع في دهشة إلى قصور كاندي وبحيرتها الرائعة وحدائقها الملكية. وكان هناك الكثير مما يمكن نهبه في المعابد، على الرغم من أن العرش الملكي تم إنقاذه على يد براونريج، وأرسل في وقت لاحق إلى قلعة وندسور. وكان مكسواً بالذهب ومرصّعاً بالأحجار الكريمة، والذراعان تأخذان شكل أسدين جاثمين بعينين من الجمشد (وهو نوع من الأحجار الكريمة) كل منهما أكبر من طلقة البندقية.

عقد براونريج العزم على صد أي نقد لهذه المساهمة الشخصية في بناء الإمبراطورية، فرتب لكتابة تبرير لها على وجه السرعة في كولمبو وإرسالها إلى لندن.

وقد نشر رأيه في صورة كتيب مؤلف من ثلاث وسبعين صفحة بعنوان «سرد للأحداث التي وقعت مؤخراً في جزيرة سيلان، كتبه سيد مهذب شاهدها عن كثب»[2]. وتحرص الرواية على أن تصور الملك بأنه «سفاح وطاغية لا يعرف الشفقة» و«غول». وتصور براونريج على أنه إداري حميد السلوك، لا يهتم إلا بـ«تحرير شعب بريء وعاجز» من الطغيان و«استقبالهم في رحاب الحماية الأبوية والتملك الدائم» من قبل الحكومة البريطانية. ولم يكن هذا التفسير صورة زائفة كلية لأن ويكراما كان قد أظهر حقاً قسوة بالغة حيال أعدائه. وفضلاً عن ذلك فإن عائلة كاندي المالكة قد أصبحت عن طريق المصاهرة أكثر اتساماً بالطابع الهندي منها بالطابع السنهالي، وهكذا بدت أجنبية تقريباً كالبريطانيين أنفسهم بالنسبة إلى معظم السنهاليين. وقد وصف مؤلف الكتيب المجهول الملك المطاح بأنه «فوق المعدل المتوسط في الحجم، وهو بدين، لكنه مفتول العضلات، ومظهره الخارجي أنيق الهندام على الدوام، وغالباً ما يكون مرآه مما تسر له النفوس».

ونُفي الملك مع عائلته طوال ما بقي من عمره (أي عشرين عاماً تقريباً) إلى فيلور، وهي مدينة تقع على ساحل الهند الشرقي. وغادر كولمبو بكبرياء مرتدياً أفضل ملابسه ومتزيناً بجواهره خلال المضي به إلى رصيف الميناء في عربة براونريج الشخصية، وبينما كان يستقل السفينة الحربية البريطانية التي ستمضي به إلى منفاه، خاطب السنهاليين الذين ساعدوه باعتبارهم «أبناءه». وبناء على أوامر براونريج، عومل ويكراما في المنفى كأسير حرب «من دون أبهة ولا مراسم تكريم» ولكن بما يكفل له الراحة.

بعد أن تم هذا الأمر شدد المؤلف المدافع عن موقف الحاكم على فوائده: «هكذا، ومن دون فقدان رجل واحد في صفوف رجالنا، أضيف للتاج البريطاني الامتلاك السلمي الكامل لجزيرة سيلان الجميلة، الممتدة، والخصبة... والمزايا المتحقّقة من هذا الانتصار لا حصر لها. ولابد أن موقع سيلان، ومرافئها البديعة، ومنتجاتها الوفيرة والمميزة، كل ذلك يجعل منها مكاناً يحظى بأهمية بالغة في ممتلكاتنا الشرقية». ولم يخفّف ذلك من شكوك لورد باثورست، فأمر في العام التالي بإيقاف كل الأعمال العسكرية في سيلان وتقليص طاقمها الإداري.

شكل انتصار براونريج معلماً بارزاً على طريق مسيرة الإمبراطورية البريطانية قدماً إلى الأمام، وكان في بعض الجوانب أكثر حسماً من الاحتلال السريع لأراض أخرى أوسع منها مساحة، والذي كان قد بدأ يحدث في الهند. وهناك تم ترك العديد من المهراجات وغيرهم من الأمراء التقليديين على عروشهم، ولكن تم توجيههم من خلال «المسؤولين السياسيين» البريطانيين. وبالمقابل، وفي مختلف أرجاء سيلان، كان هناك حكم مباشر من قبل الإداريين الاستعماريين من دون أي ادعاء جدي بأن السكان لهم رأي في الحياة السياسية للبلاد؛ فقد كان هناك نمط جديد يتم تكريسه وسوف يلقى بظله على العقود اللاحقة في القرن التاسع عشر، حيث شعرت بريطانيا بالثقة الآن بحيث تعلن ما تراه الأفضل للشعوب الأصلية، أي أن «تتلقاهم تحت الحماية الأبوية» وترفع علمها فوقهم، وتوصل إليهم نعم التقدم من وجهة النظر الأوربية.

لقد بلور سير توماس مونرو أحد الإداريين الأكثر ليبرالية في الشرق أفكاره حول الهند في قوله إنها يجب النظر إليها «ليس على أنها ممتلكات مؤقتة، وإنما ممتلكات يتعين الاحتفاظ بها بشكل دائم إلى أن يتخلص السكان الأصليون من معظم أفكارهم المتحيزة، ويصبحوا على قدر كاف من الاستنارة يتيح لهم أن يقيموا حكماً منتظماً لأنفسهم، ويديروا هذا الحكم ويحافظوا عليه».

تبنت مثل هذه النظريات رؤية بعيدة المدى للإمبراطورية بصورة متزايدة. ومن المؤشرات الأخرى للفكر الجديد الترويج لسيلان على أنها مثالية بالنسبة إلى المستوطنين البيض، حيث أصبحت مرتفعاتها الصحية الآن مفتوحة لهم تماماً. وعلى الساحل كانت هناك بقية باقية من الهولنديين، وعدة ألوف من ذوي الأعراق المختلطة يحملون أسماء برتغالية، ولكن المستعمرة البريطانية تحتاج إلى بريطانيين. ووصل أول القادمين الجدد في غضون عقد من إطاحة ويكراما لكي يزرعوا البن، وبحلول عام 1840 كانت هناك موجة من «حمى الأراضي». كما أضافت حيوانات الجزيرة وبصفة خاصة قطعان الفيلة المزيد إلى مصادر جاذبيتها، واجتذبت هواة الصيد الأثرياء إليها[3]. واتخذت سيلان مكانها كإحدى الجواهر الصغرى في التاج البريطاني، وأطلق اسم براونريج على شارع رئيسي في كولمبو تكريماً له.

من الناحية العملية، فإن استيلاء الإنجليز على الجزيرة لم يؤثر كثيراً في حياة معظم سكانها؛ فالنبلاء وحدهم هم الذين قاوموا، وقد أطيح رأس أحدهم، فقد انتحر قبل أن يشنق علناً أمام جمع حاشد. واعتصم معظم السنهاليين بالديانة البوذية، وهي الديانة الأساسية في سيلان على مدى أكثر من ألفي عام. وقد صدر مرسوم بأنه لايزال من الممكن ممارسة كل الأديان القائمة، والتي لم تكن بالقليلة؛ فإلى جوار البوذية كان التاميل من أتباع الهندوسية، وكان العرب من المسلمين، وذوو الأعراق المختلطة من الكاثوليك بصفة عامة. وعندما بدأ المبشرون البريطانيون في الوصول وجدوا من الصعب استقطاب الكثيرين. ولم تتصل إلا أقلية من السنهاليين مباشرة بالمستوطنين البريطانيين، سواء من خلال العمل في منازلهم أو في أراضيهم، ولولا الحاجز اللغوي لاكتشفوا أن سادتهم الجدد يميلون إلى وصفهم بالهمج.

كان إدخال سيلان في إطار النفوذ البريطاني أمراً بسيطاً، ولكن استيعاب الجزر الأخرى التي تم الاستيلاء عليها في المحيط الهندي خلال الحروب النابليونية، كان أكثر صعوبة. فقد كان في موريشوس مستوطنوها البيض، وهم مجموعة معادية مؤلفة من عدة ألوف من الفرنسيين، جنباً إلى جنب مع عبيدهم الذين يبلغ عددهم ستين ألف عبد. ولم يكن الفرنسيون ولا عبيدهم بمنزلة إضافات موضع ترحيب في الإمبراطورية. وقد وقعت مهمة حل هذه المعضلة على كاهل روبرت فاركوهار، الذي اختير حاكماً للجزيرة، على الرغم من أنه لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، للحنكة التي أظهرها كأحد إداريي شركة الهند الشرقية في ملجا، ولاهتمامه بمشكلة الرق. وكان قد أكد في رسائل إلى مسؤولين في كلكتا في عام 1805 قوله: «الرق هو أعظم الشرور كافة، ومحاولة تنظيم مثل هذا الشر هي ذاتها محاولة عبثية تقريباً».

ونشر على نفقته الخاصة في عام 1807 أطروحة مطولة، بعنوان «مقترحات مبعثها إلغاء تجارة الرق الأفريقية لتلبية متطلبات مستعمرات الهند الغربية». وقد اتسمت أفكار فاركوهار بالجدة، حيث اقترح هجرة جماعية من جانب اليد العاملة الصينية عبر العالم إلى الكاريبي، وبما أن الصين عرفت بمعاناتها من مشكلة زيادة السكان؛ فقد تصور أن حكومتها يمكن أن تتعاون في تنفيذ هذا المشروع، على الرغم من ميلها العام إلى عرقلة

المشروعات. وذهب فاركوهار إلى القول إن الصينيين أشد دأباً من فقراء أوربا وأكثر «ملاءمة» من الأفارقة. وينبغي نقلهم في أوضاع مريحة بشكل معقول، حيث تحمل السفن إمدادات من الخنازير الحية، إذ لا يحب الصينيون شيئاً كحبهم للحم الخنزير.

لم يقدر لخطة فاركوهار أن تنفذ قط، لكنها رسخت مكانته وساعدته في الوصول إلى منصب حاكم موريشوس، الذي يقتضي حزماً ودبلوماسية. وقد وجد الجزيرة قريبة من التضور جوعاً، بعد الحصار البريطاني الطويل الذي فرض عليها، وليس من المدهش أن محاولاته لانتزاع تعهدات حقيقية بالولاء من المستوطنين الفرنسيين لسادتهم الجدد كانت بلا طائل. أما بالنسبة إلى حشود العبيد المقيمين في الجزيرة فقد كان ما يهم فاركوهار هو استيراد ما يكفي من الحبوب لإبقائهم في حالة يصلحون معها للعمل في قطع أعواد قصب السكر.

تمكن فاركهور في عيد الميلاد عام 1810 من أن يبعث برسالة يؤكد فيها لوزير الخارجية البريطاني لورد ليفربول أن الجزيرة في حالة جيدة. ولكن بعد أقل من شهرين مضى يؤكد ضرورة السماح لموريشوس باستيراد المزيد من العبيد لإنقاذها وجزيرة ريونيون المجاورة لها من أن تصبحا «صحاري» عاجزة عن مواصلة إنتاج المحاصيل. وفضلاً عن ذلك، كانت هناك سفن فرنسية تجارية عديدة – على الرغم من استمرار الحرب – على استعداد لجلب هذه الحمولات المألوفة من شرقي أفريقيا أو مدغشقر. وعرض فاركوهار بعد أن خفضت الضغوط الراهنة من حماسه لمثله العليا المناهضة للرق، طريقة جيدة للالتفاف حول قانون إلغاء الرق الصادر في عام 1807، حيث يقول: «أعتقد أن قانوناً تم سنه قبل الاستيلاء على مستعمرة ما. . . لن يكون بصفة عامة ملزماً لتلك المستعمرة التي تم الاستيلاء عليها بعد صدوره»[4].

وكان لورد ليفربول الذي سيتولى رئاسة الوزارة بعد ذلك بوقت قصير، سياسياً محافظاً، ولكنه على مستوى رفيع من التمسك بالمثل والتفكير الذهني الراقي. وقد أصابه اقتراح فاركوهار بالصدمة، حيث يقول في معرض الرد: «ليس في وسعي أن أعرب بما فيه الكفاية عن شعوري بالدهشة من أنك قد افترضت أن برلمان المملكة المتحدة

عندما رأى بناء على مبادئ عامة أن يلغي تجارة الرقيق فيما يتعلق بكل المستعمرات القديمة . . . فإنه يمكن أن يكون قد جال بذهن أعضائه أن هذه التجارة ينبغي أن توجد بالنسبة إلى تلك الجزر أو الممتلكات الأجنبية التي شاءت لها أوضاع الحرب أن تصبح من أملاك جلالة الملك» . ولم يكن هناك مجال للخطأ بالنسبة إلى مثل هذه الصاعقة ، وصدر قانون تحريم تجارة الرق ، في الشهر ذاته الذي بعثت خلاله رسالة ليفربول ، وتضمنت النص على «الإلغاء الفعلي لتجارة الرق حيثما تمت محاولة ممارستها أياً كان المكان الذي تجرى فيه هذه المحاولة» .

لدى قراءة فاركوهار الطموح لرفض لورد ليفربول ، كان في استطاعته أن يرى الطريق الذي يتعين عليه أن يسلكه ، حيث أعلن أن هدفه هو أن يحظر كل شحنات الرقيق إلى موريشوس من الآن فصاعداً ، غير أن هذا الحظر جرى انتهاكه في التو من خلال اتفاقه مع المزارعين الفرنسيين في تاماتافي على الجانب الشرقي من مدغشقر . فعندما استسلموا لبريطانيا قدم لهم بالمقابل وعداً بأن في قدرتهم نقل أملاكهم الخاصة بما في ذلك الرقيق عبر المحيط إلى موريشوس . وضمت قائمة الرقيق التي قبلها فاركوهار ما مجموعه ثمانمئة وثلاثة وستين عبداً ، ولكن سرعان ما ارتفع الرقم إلى ما يزيد على ألف عبد . وعندما وصلت ثلاث سفن أخرى إلى تاماتافي وجدت عنابرها مكتظة بالعبيد . وأرسلت هذه السفن مع سفن مرافقة لها إلى الكاب ، ولكنه تقرر هناك أن كل هؤلاء العبيد ينبغي أن يتم تقسيمهم بين المطالبين بهم من الفرنسيين ، وذلك على أساس أن سكان موريشوس لم يتح لهم الوقت لتفهم القانون الإنجليزي .

لم تؤد المحاولات التي تم القيام بها لفرض حصار مناهض للرق على موريشوس إلى نتيجة ، حيث لم يكن هناك عدد كاف من سفن البحرية الملكية للقيام بهذه المهمة . وفي الليل كانت عمليات مطاردة خطرة تجرى وسط الشعاب المرجانية ، ونادراً ما كان يتم أسر إحدى سفن الرقيق ، وحتى في هذه الحالة كان القباطنة يمضون مطلقي السراح ؛ لأن فاركوهار كان مضطراً لتسليمهم للمحاكمة أمام قضاة الجزيرة الفرنسيين الذين كانوا يرفضون إدانتهم . وعندما حاول الحاكم إرسال أحد القباطنة المذنبين على نحو لا موضع للمماراة فيه إلى الكاب غاص إلى القاع في مرفأ بورت لويس ، بعد أن قفز من سطح السفينة وسبح إلى الشاطئ ، ولم ير أحد أي أثر له عقب ذلك .

مضى المزارعون الفرنسيون في لعبة المراوغة مع فاركوهار، وفي عام 1819 بلغ عدد الرقيق في موريشوس ثمانين ألف عبد، بعد أن كان ستين ألف عبد في وقت استيلاء الإنجليز على الجزيرة إبان الحرب. وليس من المدهش أن يلاحظ أنصار الدعوة لإلغاء الرق في لندن ذلك، وخاصة من يشنون الحملات بمزيد من الحماس، من أمثال توماس فاول باكستون. فما الذي يجري في هذه الجزيرة النائية التابعة للتاج الملكي؟ هل الحاكم أضعف مما ينبغي أو أنه متواطئ مع ملاك العبيد؟ سرعان ما ترددت أصداء مثل هذه الأسئلة عبر مجلس العموم. وازدادت حدة عدم الارتياح حيال أداء فاركوهار، عندما قام اللواء هول الذي يدير شؤون الجزيرة خلال إجازة الحاكم بإرسال ثلاثة بحارة فرنسيين إلى بريطانيا لمحاكمتهم في محكمة أولد بيلي في عام 1819. وكانوا أعضاء في طاقم سفينة شراعية صغيرة تم ضبطهم وهم ينزلون اثنين وتسعين من الرقيق في موريشوس، وقد حكم على كل منهم بالسجن ثلاثة أعوام مع الأشغال الشاقة[5].

وقيل في معرض الدفاع عن فاركوهار إنه قد بذل قصارى جهده لإيقاف تدفق الرقيق من مدغشقر؛ عن طريق معاهدته الموقعة في عام 1817 مع راداما حاكم الهوفا، والذي يطلق عليه على سبيل المبالغة «جلالة ملك مدغشقر». ومقابل التعهد بإيقاف أي عمليات تصدير أخرى للرقيق من بلاده، فإنه سيقدِّم إلى راداما كل عام 1000 دولار ذهباً وألف دولار فضة ومئة برميل من البارود ومئة بندقية وزياً رسمياً كاملاً وملابس لجنوده. وأكد فاركوهار لراداما أن ملك إنجلترا سيسعد عندما يسمع بأن ملك مدغشقر قد «حذا حذو الملوك البيض الحكماء» وألغى «بيع الزنوج».

لم يؤد هذا كله إلى تحقيق الكثير، فقد كانت هناك أجزاء كثيرة من مدغشقر لا تسري عليها أحكام راداما، وكان لايزال من الممكن شراء الرقيق من هناك، كما كان من الممكن شراؤهم من موزمبيق ومواضع أخرى من البر الأفريقي (ومن المعترف به أنه كانت هناك منافسة محتدمة من جانب البرازيل، التي صارت تستورد الآن عشرين ألف عبد موزمبيقي أو أكثر كل عام).

كان ثمة عنصر تعقيد آخر في موريشوس يتمثل في الرغبة في اكتساب ود الفرنسيين المهزومين، الذين كان بطلهم نابليون يقضي أيامه الأخيرة في جزيرة بريطانية أخرى هي سانت هيلانة. وقد نظر مزارعو قصب السكر في حسد إلى جزيرة ريونيون القريبة،

حيث كان علم فرنسا ثلاثي الألوان لايزال يرفرف في أفقها، والحاكم يظهر موقفاً متساهلاً من استيراد الرقيق (وكانت جزيرة ريونيون قد تمت إعادتها إلى الفرنسيين في مؤتمر فيينا).

كانت باريس تشجع سراً على التخلص من الحكم البريطاني واتخاذ اسم «آيل دي فرانس» مجدداً، وقد ساد شعور مرير في العاصمة الفرنسية حيال فقدان الجزيرة، وبصفة خاصة في صفوف كبار ضباط البحرية، وكانوا ينزعون إلى تأكيد أن العدو القديم لا ينبغي له على الإطلاق أن يحكم إطباق براثنه على مدغشقر، حيث كان المبشرون الإنجليز ينشطون بالفعل. وعلى نحو ما سيحذر الأميرال دوبريه وزير البحرية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، فإنه «سيكون موضع لوم دائم» أن تقوم أي حكومة فرنسية بترك مدغشقر تضيع منها لتصبح من ممتلكات بريطانيا[6].

عندما تقاعد فاركوهار منح لقباً من ألقاب النبالة وعين عضواً في مجلس مديري شركة الهند الشرقية ودخل البرلمان، وهناك واجه من كالوا له الاتهامات. وكان لايزال معنياً بكسب ود مزارعي قصب السكر، وأفلح في خفض الرسوم الجمركية المفروضة على سكر موريشوس تسليم بريطانيا إلى مستوى نظيرتها المفروضة على الواردات من جزر الهند الغربية. غير أن الجزيرة مضت تكتسب سمعة سيئة؛ باعتبارها وكر عبيد الإمبراطورية، وهو ما كان موضع حملات متواصلة من جانب جمعية مناهضة الرق. ومن الأمور التي بعثت القشعريرة في الجماهير البريطانية أن الجاريات كن يجلدن علناً.

تضمن تقرير لجنة برلمانية عينت في عام 1828 من الفظائع ما يكفي لجعل ولبرفورس يتقلب في قبره، فحتى الآن ما يزال الرقيق ينقلون إلى موريشوس. وعلى الرغم من أنهم يصفدون بالأغلال، فإنهم يبذلون جهوداً محمومة للهرب قبل أن تغادر السفن أفريقيا، وعندما يتم إنزالهم إلى الشاطئ يصفون صفوفاً في المخازن، وأثمانهم مدلاة من أعناقهم. ودعت اللجنة التي تولى رئاستها ميجور كولبروك إلى وضع نهاية سريعة لامتلاك العبيد في موريشوس.

أبدى مزارعو قصب السكر ردود فعل غاضبة، وبعثوا بأحدهم ويدعى أدريان ديبناي، إلى لندن للدفاع عن موقفهم، وذهب إلى القول إنه من دون العبيد أو

التعويض الكامل، فإن مواطنيه سيتعرضون للدمار. وفي بداية عام 1832 وصلت إلى موريشوس أنباء عن أن نداءات ديبناي مضت بلا طائل، وأن العبيد على وشك أن يتم تحريرهم. وتمت الدعوة إلى الإضراب، ووزعت ألوف البنادق، ومضى المتطوعون يجوبون أنحاء بورت لويس بصورة حافلة بالتهديد. وفي المرفأ مضت السفن الحربية البريطانية تنتظر الأوامر بإرسال جنود البحرية إلى الشاطئ.

ومما دعا إلى ارتياح السكان الناطقين بالإنجليزية اعتقادهم أنه إذا اندلع القتال فإن من المؤكد أن العبيد سيقفون إلى جانبهم. وقد انحسر مناخ التمرد هذا في آخر الأمر، وعرف مزارعو قصب السكر أن لحظتهم قد فات أوانها، عندما وصل اللواء السير وليم نيكولاي، بصفته الحاكم الجديد. وكان رجلاً لا يعرف أنصاف الحلول، حيث أعلن أنه سيتم جلب القوات إلى الجزيرة من الهند إذا برزت أي مؤشرات أخرى للاضطرابات.

وكان من نتائج لجنة التحقيق لعام 1828 تعيين آر. إم. توماس «حامياً للعبيد» في موريشوس. وقد انشغل بمعالجة الشكاوى من المعاملة الوحشية، ولكنه مال غالباً إلى الوقوف في جانب السادة؛ ومن الأمثلة الدالة بهذا الصدد أنه أمر بـ«الضرب بعصا شجرة بتولا» كعقاب لفتى يدعى إيبوليت يتراوح عمره بين «تسعة إلى عشرة أعوام» وذلك عقاباً له على زعمه أن مالكه السيد رينو قد أجبره على احتساء مزيج من مشروب العرق المسكر والفضلات البشرية. وقد نفى رينو ذلك قائلاً إن المزيج لم يكن مؤلفاً إلا من مشروب العرق ومشروب عرق الذهب(7)، لجعل الفتى يقلع عن ولعه بالكحول، وقدم الحامي توماس سجلاً لتصرفات الفتى. ومن غير المدهش أنه وجد نفسه موضع انتقاد من جانب لوردجودريتش وزير الحرب والمستعمرات(8).

وعندما آن أوان تحرير العبيد البالغ عددهم سبعين ألفا في موريشوس، بعد إقرار قانون عام 1833 الذي ينهي امتلاك الرقيق في جميع الأراضي الواقعة في الإمبراطورية البريطانية، تمت تهدئة أصحاب المزارع البيض بتعويض من قبل دافعي الضرائب البريطانيين قيمته مليونا جنيه استرليني. وكان المعدل المدفوع على الرأس الواحد أعلى بمعدل 50٪ من ذلك الذي دفع لملاك الرقيق في جزر الهند الغربية. وعلى الرغم من

ذلك كان هناك سؤال: من الذي سيقطع أعواد قصب السكر في المستقبل؟ وكان السود مجبرين على الخدمة باعتبارهم «متدربين» لدى سادتهم لمدة ثلاث سنوات، وبعد ذلك وفي غمار ابتهاجهم بحريتهم شرعوا في التقدم بمطالب اعتبرها أصحاب المزارع لا تطاق.

اضطرت الجزيرة إلى التطلع نحو موضع آخر بحثاً عن قوة عمل رخيصة، وسرعان ما وجدت الرد من داخل المحيط الهندي، ففي عام 1830 كان أحد التجار في جزيرة ريونيون قد استورد مئة وثلاثين حرفياً من كلكتا، وسرعان ما بدأت حمولات مراكب من العاملين بمقتضى عقود من الهنود في الوصول إلى موريشوس. وتم إحضار ألف منهم مع عدد قليل من النساء في عام 1835، كما استخدم المجرمون المدانون المنفيون مدى الحياة من الهند في شق الطرق. وقد زار تشارلز داروين الجزيرة في عام 1836 وكتب يقول: «هؤلاء الرجال بصفة عامة هادئون وحسنو السلوك» ومتميزون بحكم «نظافتهم وحرصهم بإخلاص على طقوسهم الدينية الغريبة». وهو يصل إلى أنه من المستحيل النظر إليهم «النظرة ذاتها التي نرمق بها مجرمينا التعساء في نيو ساوث ويلز».

كان «حمالو التلال» الذين جلبوا من ريف بيهار ذي الفقر المدقع للعمل في مزارع قصب السكر يتقاضى الواحد منهم أجراً شهرياً قدره خمس روبيات (أي ما يعادل عشرة شلنات إنجليزية) بالإضافة إلى جرايات من الأرز والتوابل والسمن. وفي عام 1837 كان هناك عشرون ألفاً منهم. أما في عام 1860 فأصبح هناك ما يزيد على ستين ألفاً منهم. وارتفع إنتاج السكر بصورة موازية من خمسة وثلاثين ألفاً وخمسمئة وثمانين طناً في عام 1843 إلى مئة وتسعة وعشرين ألفاً ومئتين وعشرة أطنان بعد ذلك بعشرين عاماً. وقد عادت قلة محدودة للغاية من «حمالي التلال» الى الوطن قبل انتهاء مدة عقودهم، على الرغم من أنهم جلبوا إلى موريشوس بمقتضى عقود مدتها خمسة أعوام. واحتج بعض أنصار إلغاء الرق في مقالات بالصحف البريطانية، قائلين إن حياة هؤلاء المهاجرين ليست أفضل كثيراً من العبودية. وعلى الرغم من ذلك فإن الأوان لن يطول قبل أن يحل الوقت الذي يستحقون فيه إشفاقاً أقل، عندما يرتفعون من وضعيتهم المزرية، ليجعلوا من موريشوس «هنداً صغيرة فيما وراء البحار»(9).

الفصل الثاني والأربعون

السلطان وبحرية الملك

إنه رجل طويل القامة، قوي البنية، نبيل المظهر، مطبوع على حب الخير. . . ويبدو أنه ينظر إلى الإنجليز باعتبارهم أصدقاءه.

الكابتن هنري هارت من البحرية الملكية البريطانية، في وصفه للسيد سعيد بن سلطان، سلطان عُمان

شعرت شركة الهند الشرقية في العقود الأولى من القرن التاسع عشر بالرضا النابع من إدارتها لجوهرة الإمبراطورية البريطانية، فلم يحدث في التاريخ من قبل قط أن كان هناك مثل هذا الكيان الرأسمالي الهائل، الذي يتمتع بسلطة ومسؤولية لا نظير لهما، ومع ذلك يحتفظ بمعظم مزايا الاستقلال. وعندما كان موعد تجديد ترخيص الشركة يحل كل عشرين عاماً، كان مجلس المديرين ملزماً بالخضوع لمراجعة برلمانية لأنشطتها، وقد أخذوا هذا بأكبر قدر ممكن من سماحة النفس، أو إذا شئنا الدقة بصلف غير واع، فقد شعروا عن حق بأن هيئاتهم الرئاسية الثلاث، في كلكتا وبومباي ومدراس، تعرف عن الهند أكثر بكثير مما يعرفه أي عضو في البرلمان.

اضطر المديرون في بعض الأحيان إلى تقديم تنازلات، على نحو ما أسفرت مراجعة عام 1813 عن منح المبشرين المسيحيين الحق الذي طالما رفضت الشركة منحهم إياه في التبشير في الهند. وقد تمثلت السياسة السابقة التي درجت الشركة على اتباعها في تجنب أي تدخل في المعتقدات والأعراف الهندوسية، وحتى في السوتي أو طقس حرق الزوجات. ولكنّ تحدياً لا سبيل إلى مقاومته طرحه وليم ولبرفورس، بطل حركة مناهضة العبودية، فقد مال بعد صدور قانون إلغاء العبودية لعام 1807 إلى اعتبار نفسه راعي واجب بريطانيا الأخلاقي في جميع أرجاء المعمورة، وأعلن فيما يتعلق بالهند أن: «الآلهة الهندوسية ليست إلا وحوشاً للشهوة والظلم والخبث والقسوة. وباختصار، فإن نسقها الديني ليس إلا شيئاً بغيضاً على نطاق هائل». وسرعان ما

استحضر أنصاره وهم الحرس الطليعي للفيالق التبشيرية في العصر الفيكتوري في أذهانهم رؤية مندفعة: فلسوف يجتذبون الهند بأسرها إلى المسيح. وكان أحد الآثار الجانبية النابعة من هذه النزعة التبشيرية غير المؤثرة مطلقاً هو إثارة النزوع إلى التحامل على الآخرين في أوساط الأوربيين المقيمين في الهند وعددهم أربعون ألفاً، في مواجهة الديانات والثقافات التي يعتنقها المئة وخمسون مليون نسمة الذين يحكمونهم ويتاجرون معهم، وهكذا نشأت هوة عرقية لم يكن لها وجود من قبل قط.

غير أن «الشركة الموقرة» نظرت إلى المبشرين وغيرهم من المتدخلين في شؤون غيرهم، بضيق أكثر مما نظرت إليهم بتخوف، فهي في التحليل النهائي كانت تشعر بأنها كيان لا سبيل إلى اختراقه. ومع اتساع نطاق الراج، فإن السوق الداخلية الهندية الهائلة غدت الدعامة الأساسية لرخاء الإمبراطورية، حيث اعتمدت ثروات ملاك مصانع مانشستر وبيرمنجهام وغيرهما من المدن البريطانية إلى حد كبير عليها، وكان سادة الهند هم القائمين على شؤون إوزة تبيض بيضاً ذهبياً.

مع ذلك فإن المدى الكامل لحرية الشركة كان يكتنفه شيء من الغموض. والأمر الأكثر أهمية هو: ما هي حدودها فيما وراء الهند؟ في الشرق كان هناك احتكار فعلي للصادرات الأوربية إلى الصين (بما في ذلك تجارة الأفيون المربحة)[1]. وفي الغرب كان للشركة حضور على شواطئ البحر الأحمر. وإلى الجنوب تقع مستعمرتا التاج الملكي في المحيط الهندي، وهما سيلان وموريشوس خارج نطاق سيطرتها المباشرة، ولكنهما كانتا بالتأكيد داخل منطقة نفوذها. وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى ساحل أفريقيا الشرقية حتى موزمبيق جنوباً. غير أن إمبراطورية السلطان السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي، سلطان عُمان غير المحددة بوضوح، والتي تتاخم بحر العرب، كانت بمنزلة اللغز؛ فعندما كانت الشركة تجري معاملات معه، فإلى أي حد يمكن أن تتطابق أهدافها مع أهداف بريطانيا؟

كان هذا السؤال أبعد ما يكون عن مجرد الاتسام بالأهمية الدبلوماسية فحسب؛ حيث نظرت شركة الهند الشرقية إلى العاصمة العُمانية مسقط، باعتبارها ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى تجارتها في الخليج العربي. ومن المحقق أن أي اضطراب في الأراضي

العُمانية من شأنه أن يتهدد بالخطر بقاء السلطان كان مثار قلق تجاري بالنسبة إلى الشركة. لكن إمبراطورية السلطان سعيد كانت ذات أهمية بصورة مماثلة، بالنسبة إلى وزارة الخارجية في لندن، وهي ترصد ميزان القوى المتقلقل بصورة مستمرة في العالم الإسلامي. وفي عشرينيات القرن التاسع عشر، ظهر هاجس جديد، وهو أن روسيا قد تكتسح فارس وتنفذ إلى المحيط الهندي وتهدد السيطرة البريطانية عليه. وكان السلطان سعيد يلمح بصورة مرضية إلى أنه على استعداد للقتال إلى جوار بريطانيا ضد روسيا، إذا اقتضى الأمر ذلك.

وهكذا توافقت سياسات الحكومة البريطانية بشكل أساسي مع سياسات شركة الهند الشرقية، حيث نظرتا إلى التوغل الروسي في فارس باعتباره نذير سوء، ورمقتا بعين بعيدة عن الرضا أي أشرعة أجنبية تبحر في المحيط الهندي، وأرادتا معاً رؤية نهاية لما جرى الزعم بأنه القرصنة العربية والنزاع في الخليج. غير أن مثل هذه الوحدة في الهدف قوضها في بعض الأحيان الهدف الأساسي من وجود الشركة وهو التجارة. ومن الأمثلة على ذلك الرد على من تم وصفهم "بعرب الخليج"، حيث كانوا على الدوام بحاجة إلى الخشب لإصلاح سفنهم، ولما كانت شبه الجزيرة العربية خالية من الأشجار تقريباً، فقد تم ابتياع الخشب من بومباي، ولو فرض حظر على صادرات الأخشاب إلى الخليج لكان ذلك أسلوباً بسيطاً للقضاء على نشاط أهاليها التجاري، ولكن حكومة الهند رفضت فرض مثل هذا الحظر خوفاً من إلحاق الضرر بجيوب تجار بومباي.

وكان هناك ميل أقل للاختلاف والمجادلة مع السلطان سعيد بن ناصر البوسعيدي حول مصدر أساسي من مصادر ثروته، وهو المكوس المفروضة على الرقيق المنقولين من قبل رعاياه من شرقي أفريقيا، بما في ذلك أفراد عائلته. فقد ارتفع إجمالي عائده ليصل إلى مئتين وخمسين ألف دولار سنوياً، وجاء ربع هذا الإجمالي تقريباً من تجارة الرقيق، وعملت البحرية العمانية كدرع لهذه التجارة، وكما عبر تاجر أمريكي فإن السلطان سعيد كانت له قوة بحرية تتمتع بالكفاءة على نحو يفوق كل الأمراء من السكان الأصليين في المسافة من رأس الرجاء الصالح إلى اليابان»[2] وقد طلب معظم

هذه السفن من ترسانات بومباي المزدهرة. وكان السلطان زبونا ممتازاً، ودعمت أمواله إعرابه الفطن عن حسن النوايا والصداقة. غير أنه سرعان ما آن الأوان لمعالجة مشكلة الرق بينه وبين محاربي ولبرفورس الذين تحولوا بنظرتهم من الأطلسي إلى المحيط الهندي، وكان من المسلم به في لندن أن السلطان سعيد سيستسلم لتيار التاريخ سريعاً. وكان لورد باثورست وزير المستعمرات قد تنبأ في عام 1822 متفائلاً في رسالة بعث بها إلى روبرت فاركوهار حاكم موريشوس، بأن السلطان عندما «ينظر بتروٍّ في المزايا المؤكدة» لإنهاء تجارة الرقيق، فإنه لن يتأخر في تحقيق أعز أمنيات بريطانيا العظمى.

أعربت المؤسسة الأفريقية (التي أصبحت في وقت لاحق جمعية مناهضة العبودية) عن تفاؤل أكبر، فقد نظرت لجنتها إلى السلطان سعيد باعتباره حليفاً «قديماً يمكن الركون إليه» لشركة الهند الشرقية. وكانت العلاقة حميمة بينه وبين حاكم بومباي، و«الثقة من جانب المسلمين في طيبة المسيحيين بالغة للغاية» إلى حد أن السلطان كان يبعث بأخته إلى بومباي بصحبة معية كبيرة العدد كل عام حفاظاً على صحتها. وشعرت اللجنة بالثقة في أن الحكومة البريطانية «ما عليها إلا أن تعرب عن رغبتها» في إيقاف الاتجار بالرقيق، وأن يبرم السلطان معاهدة «وأن يرحب بقيام السفن الحربية التابعة لشركة الهند الشرقية بتنفيذها». ولم يستطع أنصار إلغاء الرق إدراك أن الشركة، وبالمثل بعض مسؤولي وزارة الخارجية لا يكترثون كثيراً بالعبودية الشرقية.

وكان إقلاع السلطان سعيد عن عاداته القديمة أكثر صعوبة مما يتصور لورد باثورست وذوو النوايا الحسنة المحيطين به، على الرغم من أنه بدأ بداية واعدة عندما وقع السلطان متردداً على معاهدة في أيلول/ سبتمبر 1822 تحظر بيع العبيد من ممتلكاته إلى أي من الدول المسيحية(3). ووافق كذلك على أنه ليس في وسع السفن العُمانية التي تقل عبيداً إلى دول إسلامية أن تبحر إلا داخل منطقة تبدأ جنوب كلوة مباشرة في مياه قريبة من شرقي أفريقيا على امتداد ساحل شبه الجزيرة العربية، حتى تصل إلى ميناء "ديو" في شمال الهند، وحتى سواحل فارس. فاستبد الغضب برعاياه عندما تسربت إليهم أنباء ما أقدم عليه، حيث عرفوا أنه تم السماح للبريطانيين بوضع أنشوطة حول رقابهم، وذات يوم سيحكمون خناقهم.

أصبحت هذه الطلقة المدوية؛ أي اتفاقية عام 1822 معروفة باسم معاهدة مورسباي، نسبة للمبعوث الذي أقنع السلطان سعيد بتوقيعها. وقد كان فيرفاكس مورسباي ضابطاً شاباً من ضباط البحرية الملكية برتبة كابتن يقود أسطولاً صغيراً مركزه موريشوس، سيغدو في مرحلة لاحقة من عمره أميرالاً. وقد تصرف بناء على أوامر من روبرت فاركوهار الذي تقلد منصب الحاكم طويلاً، والذي كان بدوره ينفذ أوامر صدرت له من لورد باثورست. ومنحت إحدى مواد المعاهدة سفن البحرية الملكية حق الاستيلاء على السفن العمانية التي تضبط حاملة الرقيق خارج المياه المشار إليها في المعاهدة. غير أن المعاهدة، خلافاً لتوقعات المؤسسة الأفريقية، حجبت مثل هذه السلطات عن سفن بحرية بومباي وهي الذراع البحرية لشركة الهند الشرقية.

كانت هذه الفقرة الشرطية في المعاهدة مخالفة لما كان السلطان سعيد يرغب فيه، حيث إنه كان يعرف أن له من الأصدقاء في الشركة من يفوقون من له منهم في الحكومة البريطانية. وفضلاً عن ذلك، فإن الفقرة أكدت التمييز بين وضعيتي البحريتين البريطانيتين اللتين تبحران في الوقت ذاته في المحيط الهندي. وبمقتضى مرسوم صادر في عام 1798 ظل واجب بحرية بومباي الأول هو «حماية التجارة» بينما البحرية الملكية ملزمة بحماية مصالح الإمبراطورية الأوسع نطاقاً. وتجسد معاهدة مورسباي هذا الدور الأعلى مكانة. كما كان هناك كذلك تمييز في المكانة بين البحريتين، فضابط البحرية الملكية له الأولوية دائماً على ضابط بحرية بومباي الذي يحمل الرتبة ذاتها.

من السهل تصور كيف أن إرسال كابتن مورسباي من موريشوس، لإبرام معاهدة مع سلطان تقع أراضيه على الجانب الآخر من خط الاستواء، قد ألهب الصدور بالغضب في بومباي. وكان هناك انقسام في الآراء، وإن عمد أصحابه إلى إخفائه، وتزايد احتمال تفجر الخلاف لأن الرسائل كانت ترتحل بين بريطانيا والهند في شهور. وقد تجلى هذا سريعاً عندما تحدى كابتن آخر من ضباط البحرية الملكية الشركة، وتصرف بما لا يعود عليها بالفائدة بتوريط بريطانيا في مكائد إمبراطورية السلطان سعيد.

كان الكابتن وليم فيتزوليام ونتورث أوين ابناً لكابتن لقي مصرعه في القتال مع الفرنسيين، وكان أخوه الأكبر أميرالاً، وقد عرف عنه أنه الملاح وعالم وصف المياه

الأكثر بروزاً في البحرية الملكية. وكان قد التحق بالخدمة وهو في الرابعة عشرة من عمره، وشارك في العمليات الحربية برتبة ضابط صف، وأسره الفرنسيون في وقت لاحق في المحيط الهندي، وأبقوه أسيراً في موريشوس لمدة عامين. وعندما يتعلق الأمر باتخاذ القرارات فقد كان بكل المعايير سريعاً في حسم أمره، ومن المستحيل أن يتراجع عما عقد العزم عليه.

عاد أوين في عام 1822 إلى المحيط الهندي على رأس حملة مكلّفة من الأميرالية بمسح ساحل شرقي أفريقيا[4]، وكانت هذه المهمة تقديراً لمواهب أوين، حيث إنه لم تكن هناك خرائط موجودة يمكن بدء العمل انطلاقاً منها. غير أن عملية المسح بدأت بشكل كارثي؛ لأن أعضاء طاقم أوين تساقطوا صرعى الملاريا وهم يشقون طريقهم شمالاً من كيب تاون. وقد قضت سرية بكاملها تقريباً نحبها على متن سفينة واحدة خلال قيامها بأعمال المسح جنوبي سفالة، وبين مغادرة الكاب والعودة إلى هناك بعد سبعة أشهر فقدت الحملة ثلثي ضباطها ونصف بحارتها. ولخصت المآسي الشخصية في جملة أو جملتين: «كانت زوجة مساعد النجار على متن السفينة، وقد سقطا كلاهما مريضين، وفي غمار هذيان الحمى ألقى بنفسه من السفينة إلى البحر ولم تقع عليه عين بعد ذلك، وماتت زوجته بعد سويعات».

على الرغم من أن هذه الخسائر تعد كبيرة، فإنه كان ينظر إليها بصبر وتحمل، حيث كانت الحمى لاتزال القاتل الكبير في المناطق الاستوائية (وفي ذلك الوقت كان يعتقد أن الجنود البريطانيين ليست أمامهم فرصة تزيد على الخُمس للبقاء على قيد الحياة مدة خمس سنوات). ومن ناحية أخرى فإن عقل أوين العلمي كان مشغولاً باحتمال أن البعوض يعدّ السبب الحقيقي للإصابة بالحمى، وليس جو المستنقعات الخانق على نحو ما شاع الاعتقاد. وقد دون ملاحظات أدلى بها أحد ضباطه، جاء فيها: «في غمار تجربتنا، فإن أول من يصابون بالحمى هم على الدوام أولئك الذين عانوا أعظم معاناة من البعوض». وأفصح الكابتن عن توجهه الذهني المستقل بإبداء سخريته من جراحي البحرية الملكية، لقيامهم من دون هوادة بفصد دماء المرضى الذين يعانون من الحمى، وغلب على ظنه أنهم «تغيب عنهم الحقيقة تماماً فيما يتعلق بطبيعة المرض، كأنهم لم يدرسوا الطب على الإطلاق»[5].

انطلقت الحملة مجدداً من الكاب، حيث انضم العديد من العبيد إليها للعمل كمترجمين. وبالنسبة إليهم جميعاً «اتضح أنهم أناس في غاية النظام ومفيدون، وبعد بعض الوقت سرحوا من الخدمة في بلد كل منهم، وقد حقّقوا ثراء من قبض أجور متراكمة». وكما هي الحال بالنسبة إلى معظم الأمور الأخرى فقد كانت لأوين وجهات نظر محددة حول الرق، وكتب بمزيد من الانفعال حول شروره[6].

بينما كانت سفنه تشق طريقها شمالاً إلى زنجبار، قابل سفينة نقل رقيق كبيرة في طريقها إلى ريودي جانيرو، ولما كانت ترفع علم البرتغال ويتولى قيادتها شخص يدعى السنيور ألفاريز، فلم يكن في الوسع إيقافها. ولكن أوين لاحظ تأثراً بالروح الوطنية، أن ألفاريز بسبب عمله في الهند وسط الإنجليز قد اهتم على نحو يفوق المعتاد «بحمولته البائسة» وتوقع أن يظل أربعة أخماسها على قيد الحياة لدى وصوله إلى البرازيل. وفي المتوسط كان نصف العبيد يلقون حتفهم في الطريق، وكان «جلب ثلثي الحمولة إلى السوق يجعل الرحلة مربحة من المنظور التجاري». ومن كل ما شاهده أوين في زنجبار وعلى امتداد الساحل الأفريقي، فإن المعاهدة التي تفاوض حولها زميله الكابتن فيرفاكس مورسباي لا تفعل أي شيء يقترب بما فيه الكفاية من إيقاف هذه «التجارة الجهنمية». وكان بعض تجار الرقيق البرتغاليين يلجؤون ببساطة إلى استخدام العلم العُماني كوسيلة للتنكر وإخفاء حقيقة أمرهم. وقدر لغضب أوين الشديد حيال ما نظر إليه على أنه مؤامرة للاحتيال على بريطانيا، أن يكون له تأثير مباشر على أحداث وشيكة الوقوع.

في نهاية عام 1823 أبحر الكابتن أوين إلى مرفأ بومباي في سفينة المسح الأساسية التي يتولى قيادتها؛ وهي السفينة «ليفين» للتزود بالمؤن، فوقعت خلال وجوده هناك حادثتان لهما أهميتهما. وفي إطار أقل هاتين الحادثتين شأناً، شق ضابط من جيش بومباي التابع لشركة الهند الشرقية طريقه من دون أن توجه إليه الدعوة إلى السفينة، وأمعن في السكر وإثارة الاضطراب إلى حد وضعه رهن الحجز. وتلقّى أوين في وقت لاحق احتجاجاً مكتوباً من قيادة الجيش، حول الطريقة التي احتجز بها أحد ضباط الجيش، لكنه «لم يظن أن من المناسب القيام بإرسال أي رد».

أوضحت هذه الحادثة معدن الكابتن وموقفه من «الشركة الموقرة». ومما كانت له أهمية أعظم من ذلك، اللقاء بينه وبين وفد من عرب ممباسا على الشاطئ، كان قد حمل التماساً إلى حكومة بومباي لمنحهم الحماية تحت التاج الملكي البريطاني، حيث أرادوا تسليم ممباسا إلى بريطانيا. وكان هذا اقتراحاً مدهشاً لم تكن لدى مونتستيوارت ألفنستون حاكم بومباي أدنى نية لقبوله، ذلك أن سادته أي شركة الهند الشرقية ما كان في استطاعتها اتخاذ هذه الخطوة من دون موافقة الحكومة البريطانية. وعلى أي حال فقد كان ألفنستون يعرف أن من شأنها أن توجه إهانة قاتلة لـ «صديقه المقرب والمقيم على الصداقة» السلطان سعيد.

تحدث الوفد الموجود في بومباي باسم قبيلة المزاريع، التي كانت تحاول تأكيد استقلالها عن عائلات مالكة متتابعة في عمان على امتداد قرن من الزمان. وعلى الرغم من الحروب المتقطعة مع السلاطين العمانيين، فقد سيطر المزاريع على حصن اليسوع بصورة مستمرة تقريباً منذ عام 1728. وقد قامت فرقة اغتيالات أرسلت عام 1746، بطعن الحاكم الشيخ المزروعي حتى الموت، ولكن قبطان إحدى السفن الأوروبية غير المسلحة، والتي تصادف وجودها في مرفأ ممباسا، ساعد القبيلة على استعادة سيطرتها على الجزيرة. وقد تمتع المزاريع بالتأييد على امتداد الساحل، وأوشكوا أكثر من مرة على السيطرة على زنجبار، وأعلنوا بشكل خاص أن جزيرة بمبا الخصبة القريبة من زنجبار هي من ممتلكاتهم وقد كانت بالفعل مملوكة لهم، في وقت من الأوقات، ولاتزال تمد ممباسا بالكثير من غذائها.

وفي عشرينيات القرن التاسع عشر أصبح المزاريع يواجهون الهزيمة، حيث افتقروا إلى أي شيء يقاومون به السفن الحربية ذات التسليح الثقيل التي يرسلها السلطان سعيد ضدهم. وكل ما كانوا يملكونه إلى جوار البنادق هو أسوار حصن اليسوع الضخمة. وكان قد أتى عليهم وقت كان الساحل بأسره وكل جزر شرق أفريقيا في أيديهم بصورة فعلية. أما الآن فإن سلطتهم تنحسر، وأكثر من هذا فإنهم يعرفون ما ينتظرهم بعد هذا التحدي الذي طال أمده إذا ما قدر لهم أن يجدوا أنفسهم في ظل سلطة السلطان سعيد.

وكان ذلك هو السر في أن المزاريع واصلوا توجيه النداءات إلى بومباي، فلم يبد أن هناك مكاناً آخر يلجؤون إليه. فطالبوا بعلم يبين أن ممباسا «خاضعة لملك إنجلترا» بل إنهم عرضوا على بريطانيا نصف عوائد مينائهم. ولكن مونتستيوارت ألفنستون لم يصغ إليهم. وأبلغ المزاريع اليائسين أنه «من المخالف لسياساتنا أن ندخل في مثل هذه الاتصالات الوثيقة في أفريقيا كتلك التي تقترحونها». ثم أضاف: «وفضلاً عن ذلك فإن الإخلاص لالتزاماتنا مع جلالة إمام مسقط [السلطان سعيد] سيحول دون قبولنا لاقتراحكم».

وعندما سمع أوين بالفتور الذي عامل به ألفنستون وفد ممباسا انفتحت شهيته، فها هي فرصة أرسلت من السماء لتكريس الوجود البريطاني في ساحل شرق أفريقيا، للقضاء على تجارة العبيد، التي رأى بنفسه أن السلطان سعيد الذي لا تنقصه سعة الحيلة يبقي عليها. وكان من الجلي أن المنفعة السياسية لـ«الشركة الموقرة» أصبحت تعلو على المبادئ. وأصبح المزاريع في مأزق بحيث إنهم في مقابل الحماية البريطانية يمكن إقناعهم في يسر بأن ينهوا «التجارة الجهنمية» انطلاقاً من ممباسا، وكل الموانى الأخرى التي يسيطرون عليها. فكتب إلى ألفنستون يهيب به إلى تغيير رأيه لكن الحاكم لم يكترث له.

عرف أوين الآن ما الذي سيقوم به فأبحر في الأسابيع الأخيرة من عام 1823 في الطريق إلى مسقط، حاملاً رسائل من سلطات بومباي تطلب من السلطان سعيد أن يعطي للحملة تصاريح سفر تضمن لها الترحيب بها في شرقي أفريقيا. وعلى الرغم من أن ألفنستون ربما كان سعيداً بالتخلص من زائره المولع بالجدل، فإنه ما كان يمكن أن يشعر إلا بعدم الارتياح حيال ما يحتمل أن يقع عقب ذلك.

وحل عيد الميلاد عندما ولجت السفينة «ليفين» المرفأ الذي يشرف عليه قصر السلطان سعيد. ولم يرق لأوين ما وقعت عليه عيناه[7]. ولكنه تأثر كثيراً بعدد السفن العربية التقليدية الراسية في الميناء، وبالفرقاطات العمانية الخمس التي ألقت مراسيها فيه. وكان السلطان نفسه هو أكبر التجار، حسبما استنتج أوين، حيث استخدم فرقاطاته في التجارة. أما مسقط ذاتها فهي «نوع من المراكز التجارية العملاقة» تخدم أفريقيا والهند ومدغشقر وأسواقاً أخرى.

أبدى السلطان سعيد جاذبيته المعتادة عندما أقبل أوين للقائه، ولكنه سرعان ما اكتشف أن هذا الكابتن من ضباط البحرية الملكية أقل دبلوماسية بكثير من فيرفاكس مورسباي الذي سبقه بعام. فلم يكد الحوار يبدأ، حتى هاجم أوين الاتجار بالعبيد، في شرق أفريقيا، وأبلغ السلطان أن عليه أن يحظرها في غضون ثلاث سنوات، وأعلن أن سفينته ستزور ممباسا قريباً، وتوقع من أهلها أن يطلبوا الحماية من بريطانيا. وأضاف: «أرى بأن من واجبي نحو ملكي أن أمنحها لهم بهدف حظر هذه التجارة الشيطانية». وليس هناك شك من واقع الروايات الأخرى حول طريقته في الحديث، في أنه كان حاد المزاج وكان يقترب من الخمسين من عمره، والسلطان أصغر منه بعشرين عاماً تقريباً، وهكذا فربما ضلل الكابتن ما وصف به مضيفه بأنه ذو أخلاق معتدلة وطبع رقيق، وحدا به إلى الظن بأنه طواه تحت ذراعه.

احتدم السلطان سعيد غيظاً حيال هذا الهجوم ولكنه لم يظهر ذلك. وقد رد بالطبع بأنه يتطلع إلى اليوم الذي يحكم فيه البريطانيون العالم «من مشارق الشمس إلى مغاربها». وسوف يسعده بالطبع أن تكون ممباسا لهم. وقد كان هذا حقاً أكثر مما يستطيع الكابتن أن يصدقه، وقد فكر في وقت لاحق بأنه «ربما تكون هناك بعض علامات عدم الإخلاص»، لكن الواقع كان أخطر من ذلك بكثير.

مع ذلك روعيت المجاملات والمظاهر، وقبل رحيل أوين في عيد العام الجديد في عام 1824، أهدى إلى السلطان سعيد نسخة من العهد الجديد مترجمة إلى اللغة العربية، وتلقى بالمقابل هدية من السلطان؛ هي عبارة عن سيف من الصلب الدمشقي مذهب المقبض. وعندما قام السلطان سعيد بزيارة للسفينة «ليفين» لتوديعها، كانت الأعلام ترفرف عليها، وقد اصطف طاقمها عند طرف عارضة الشراع، بل كانت هناك لمسة من المرح الصاخب، سببتها الخنازير الحية التي حملتها السفينة لتمدها باللحم الطازج خلال الرحلة. وتقديراً من أوين للحساسيات الدينية من جانب مضيفه، أمر بإبعاد الخنازير عن السفينة، ولكنها مضت تصرخ صراخاً حاداً طويلاً وبصوت عال إلى حد أن « الأصداء ترددت من التلال القريبة» وبدا ذلك أمراً مسلياً للجميع.

غير أنه فور عودة السلطان سعيد إلى قصره جلس، وأملى رسالة احتجاج إلى صديقه مونستيوارت ألفنستون في بومباي. وقال إنه مما لا يطاق أنه بعد أقل من عام من قيامه بتوقيع معاهدة لمناهضة العبودية مع البريطانيين، رغم الخطر الذي يتعرض له من ورائها، ها هم يوشكون على تقديم العون للمزاريع خصومه اللدودين. وسرعان ما أصبحت هذه الشكوى موضوع مراسلات محتدمة بين حكومة الهند وشركة الهند الشرقية في لندن والمجلس الهندي والأميرالية[8].

بعث السلطان كذلك برسالة على متن سفينة سريعة إلى ثلاث من سفنه عكفت على حصار حصن اليسوع، يأمرها أن تبادر إلى التوقف عن أي قصف، وتجنب المشكلات مع البحرية الملكية، وإذا أصدر لها الكابتن أوين أمراً فعليها أن تطيعه؛ ونتيجة لذلك ما أن وصلت السفينة «ليفين» إلى ممباسا وأطلقت طلقة معلنة حضورها، حتى عرضت كبرى السفن العُمانية الثلاث تقديم مرشد بحري لإرشادها إلى المرفأ. وسعد أوين لسماعه القائد يقول إن لديه أوامر بتقديم كل مساعدة ممكنة له، وكان مما يلفت النظر كذلك أنه عندما ألقت السفينة «ليفين» مرساها قبالة حصن اليسوع، شوهدت السفن العُمانية التي تضرب الحصار، وهي تبدي موقفاً ودياً تماماً حيال نظيراتها القريبة من الشاطئ. أما الأمر الأغرب فهو أن العلم المرفرف فوق شرفات الحصن التي تعلو الحصن العتيق كان يشبه العلم البريطاني.

تفقد أوين المرفأ ورأى أنه لا يقل عن أي ميناء مناظر له في العالم، ثم أمر أحد ضباطه، وهو الملازم جون ريتز، بالنزول إلى الشاطئ ودخول الحصن بهدف الاتصال بالشيخ سليمان بن علي المزروعي. وسرعان ما عاد الملازم ريتز بصحبة ابن أخي الشيخ، الذي طرح على مسامع أوين النداء المألوف طلباً للحماية البريطانية للجزيرة، كما قدم كذلك رسالة من بومباي موجهة للشيخ ولكنها مكتوبة بالإنجليزية. واكتشف أوين أنه مامن أحد في ممباسا كان في استطاعته قراءة الرسالة، لكن الشيخ ومستشاريه أقنعوا أنفسهم بأن الرسالة قد منحتهم الحماية، وذلك هو السر في أنهم مضوا قدماً بصنع علم بريطاني بدائي التصميم، ورفعوه عالياً. وفي حقيقة الأمر لم تكن الرسالة تعدو طلباً بإمداد السفن الإنجليزية المارة بالعجول.

قرر الكابتن النزول إلى الشاطئ بنفسه صباح اليوم التالي، وقد عقد العزم على ما سيقوم به، حيث كان لديه تصور مستقبلي لدور بريطاني أعظم شأناً في هذا الجزء من أفريقيا، ولسوف يوضحه في وقت لاحق في رسالة إلى الأميرالية: «إنه لمن الواضح لي وضوح الشمس أن الله قدر لشرق أفريقيا أن يكون ملكاً للأمة الوحيدة على ظهر البسيطة (المراد الأمة البريطانية) التي تملك قدراً كافياً من الفضيلة العامة، يدفعها لحكم تلك المنطقة لصالحها، والأمة الوحيدة على ظهر البسيطة التي تتخذ من كلمة الوحي الرباني قانوناً أخلاقياً لها».

وشدد أوين على أن بريطانيا ينبغي أن تقوم عاجلاً بشراء كل ممتلكات السلطان سعيد في شرق أفريقيا، وتدفع له بصفة مستديمة ما كان يحصل عليه من عوائد منها. وأنه «لواجب مجيد» أن يتم منح الحماية «لتلك المخلوقات البائسة» لأنه من دون صعوبة يمكن جعل «كل شبر من الساحل» تحت الحكم البريطاني. وهكذا وبضربة واحدة يمكن استئصال شأفة تجارة العبيد.

لما لم يكن أوين بالرجل الذي يهدر وقتاً في مثل هذه الأمور، فقد وضع شروطه لمنح الحماية البريطانية لمباسا. وقد تضمنت هذه الشروط وعداً جريئاً للحاكم المزروعي أنه «سيتم له استرداد سلطانه على ممتلكاته السابقة» مع وجود وكيل بريطاني في حصن اليسوع. وبالمقابل فإن جزيرة ممباسا والساحل بأسره من ماليندي جنوباً إلى نهر البانجاني - أي أكثر من مئة وخمسين ميلاً - سيتم التخلي عنهما لبريطانيا العظمى. وكانت هناك فقرات تعد بأن التجار البريطانيين يمكنهم الاتجار مع الداخل الأفريقي، وأن كل صادرات الرقيق من ممباسا سيتم إلغاؤها بشكل فوري. وسيتم فرض تعرفة جمركية بنسبة 5٪ على كل الواردات والصادرات، تقسم بالتساوي بين القائمين بالحماية ومن يحظون بها (تمثل الشرط اللازم من منظور أوين في إلغاء الاتجار بالرقيق. ويعكس قبوله، حتى وإن كان ظاهرياً، مدى يأس المزاريع).

وأبلغ الكابتن مجلساً يضم شيوخ ممباسا، في 10 شباط/ فبراير 1824، بأن المعاهدة معلقة على التصديق عليها من قبل بريطانيا، ولكنه أحس في قرارة نفسه باليقين من أن التاريخ يجري نسج خيوطه، وأن هذا ليس إلا مقدمة لخطى أعظم باتجاه قلب قارة

أفريقيا، وتم إنزال العلم البريطاني المصنوع يدوياً، وحل مكانه علم أصلي رفع رسمياً على استحكامات حصن اليسوع.

قام أوين بتعيين جون ريتز الملازم الذي كان أول من نزل إلى الشاطئ، حاكماً على محمية ممباسا، على أن يعاونه صف الضابط جورج فيليبس، بالإضافة إلى عريف بحري وثلاثة من بحارة السطح الأسفل للسفينة، وتبرع الشيخ سليمان المزروعي بدار قريبة من الحصن لتكون مركز قيادة لهذه الجماعة. وبعد ثلاثة أيام أبحرت السفينة «ليفين» بعيداً، وسط أصداء صيحات الوداع من أول المقيمين البريطانيين في البر الرئيسي لشرق أفريقيا، والتي تناهت عبر الماء من حصن اليسوع، حيث أضيف فصل آخر مميز إلى القصة الطويلة الممتدة عبر قرنين من الزمان، والتي كان مسرحها القلعة التي سيطر عليها البرتغاليون حيناً من الدهر.

الفصل الثالث والأربعون

التراجع عن شرقي أفريقيا

أولاً أكد ملك ممباسا وكل وزرائه وكل زعماء القبائل في أراضي ممباسا رغبتهم الطوعية في أن يصبحوا رعايا لملك إنجلترا، وأن كل بلادهم ستصبح تحت حكمه، وأنه سيحصل على نصف الدخل.

رد على أسئلة طرحها في عام 1824
السير لوري كول، حاكم موريشوس، على وفد من ممباسا

كان جون ريتز أول حاكم لمحمية ممباسا في الثانية والعشرين من عمره، وقد أبرزه مرحه ولماحيته ومواهبه العديدة بالفعل، باعتباره مرشحاً للارتقاء عالياً في البحرية الملكية. وقد ولد في كيب تاون لكابتن في البحرية الهولندية حارب في شبابه الإنجليز. غير أن ولاء جون ريتز لبلاده التي اختار التجنس بجنسيتها لم يكن موضع شك[1]. وعلى الرغم من افتقار هذا الملازم الشاب إلى أي تعليمات محددة، فإنه عقد العزم على القيام بواجبه في ممباسا كممثل للملك جورج الرابع، فاستغل على أفضل نحو الجماعة المحدودة العدد الممثلة لبلاده، وحاول تأكيد بعض السلطة في معاملاته مع خليط العاملين في حصن اليسوع من العرب والسواحيليين. وساعده في إيضاح وجهات نظره لهم مساعده ضابط الصف فيليبس، الذي علم نفسه اللغة العربية منذ وصوله إلى المحيط الهندي.

وعلى الرغم من ذلك فإنه كان من الصعب على الضابطين الشابين سبر أغوار طبيعة التسلسل القيادي في صفوف مضيفيهما. وكان المزاريع قد بادروا إلى الإلحاح في المطالبة بالحماية البريطانية، ولكنهم كانوا يبدون توقيراً كبيراً لأحمد بن الشيخ زعيم الجماعات السواحيلية المحلية. وكان ينحدر من العائلة المالكة السابقة في ماليندي، ويتحدث اللغة البرتغالية وإن لم يكن بطلاقة، ويبدا أنه ما من شيء يمكن تقريره من دون الرجوع إليه. وكان العرب هم الأقلية الحاكمة، أما السواحيليون ذوو البشرة الأكثر

سُمرة فهم أكثر عدداً، وكلتا المجموعتين متميزة عن أبناء البر الأفريقي الذين يقيمون في ممباسا، ومعظمهم من العبيد.

أقبل التجار من البر الأفريقي إلى الجزيرة لمقايضة العاج، وقرون وحيد القرن، والصمغ الراتنجي القاسي بالقماش الأزرق والخلاخيل النحاسية والخرز، وغيرها من المنتجات التي تجلب بالسفن التقليدية من الهند. وكان هناك كذلك (البانيان)، وهم التجار الهنود نظراء التجار في مسقط وزنجبار وعدن، والعديد من الموانئ الأخرى في بحر العرب. وشعر ريتز بمسؤولية خاصة عن البانيان، حيث إنهم كانوا من رعايا الإمبراطورية البريطانية[2]. وعلم أن بعض العرب يسلبونهم أموالهم بالخداع، إذ يأخذون سلعاً على الحساب، ثم لا يدفعون ثمنها أبداً.

لابد أن شباب ريتز وفيليبس وقف منذ البداية حجر عثرة في طريقهما. وقد تلقى أوين وعداً بتقديم اثني عشر من الجنود السود إلى ريتز للقيام بواجبات الشرطة، ولكن لم يبد أثر لقدومهم. وضاعف من تأثير الغضب الذي أثاره ذلك في نفوس البريطانيين تردي الأوضاع داخل الحصن؛ فقد كان علمهم يرفرف فوق ما كان ذات يوم نقطة عسكرية حصينة رائعة، بينما لا يعدو اليوم أن يكون خرائب. وعندما رست سفينة أخرى تابعة للبحرية الملكية في ممباسا بعد أسابيع قلائل من إعلانها محمية بريطانية، لاحظ قائدها كونستانتين مورسوم، أن الحصن كان «في حالة من التهدم التام، ولا يكاد يوجد هناك مدفع واحد صالح للخدمة، وامتلأ داخله بالأكواخ المسقوفة بأغصان الأشجار ومساكن رئيس القبيلة وعائلته الممتدة وعبيده».

سرعان ما أدرك ريتز أن مضيفيه ليست لديهم رغبة أصيلة في أن يصبحوا رعايا بريطانيين، وإنما أرادوا العلم البريطاني ليبعدوا به السلطان سعيد عنهم، وأن تساعدهم سفن البحرية الملكية في استعادة جزيزة بمبا. وطرح الملازم في رسائل بعث بها إلى أوين هذه الشكوك، مؤكداً ما اكتشفه الكابتن بالفعل: أن رغبته المثالية في بناء الإمبراطورية محفوفة بالمتاعب. فعندما ترك ممباسا صحب معه على متن السفينة «ليفين» أحد الأعضاء البارزين في قبيلة المزاريع على أمل تنصيبه حاكماً على بمبا ثم مواصلة الإبحار، لكن الحاكم المعين من قبل سلطان عُمان رفض الانصياع، على الرغم من

حديث طويل ألقاه أوين على مسامعه. وفي زنجبار كان هناك المزيد من المنازعات. وسرعان ما وصلت إلى السلطان سعيد في مسقط أنباء عن أن الكابتن البريطاني صعب المراس قد استخدم «لغة الوعيد» و«عبارات معينة لا يليق تكرارها». ومن الطبيعي أنه لم يضع وقتاً قبل أن يبادر بإرسال هذه الأنباء إلى صديقه ألفنستون في بومباي.

كانت قائمة المهام التي عهد بها الكابتن إلى ريتز ذات طابع عاجل، ولكن الأولوية فيها كانت للقيام بجولة تفقدية إلى الجنوب من ممباسا، فوفقاً للمعاهدة تم في نهاية المطاف التخلي عن الساحل حتى نهر البانجاني لبريطانيا. ولما كانت الحياة في أجواء حصن اليسوع شديدة الإحباط، فقد حرص ريتز على الانطلاق بعيداً، حتى وإن كان ذلك يعني مواجهة الريح والمطر، حيث كانت الرياح الموسمية الجنوبية-الغربية ماتزال تهب بقوة. ووافق أحد القادة من قبيلة المزاريع على مصاحبته، مقدماً مجموعة مرافقة كبيرة وحميراً لركوبها، ولكن العواصف الاستوائية جعلت التقدم بطيئاً.

مضت المجموعة تشق طريقها بصعوبة عبر بلدات موحلة فقيرة يدين شيوخها بالولاء للمزاريع، وبدت جلية في كل مكان على امتداد الساحل آثار الضربات الانتقامية من جانب قوات السلطان سعيد. وكان ميناء تانجا تجسيداً دقيقاً لذلك، حيث كان ذات يوم «سوقاً للعاج تفوق ممباسا أو أي مكان آخر بقربها» أما الآن فعدد سكانه لا يتجاوز ثلاثمئة نسمة، يقتاتون على السمك وعلى بعض الحبوب من الداخل الأفريقي.

لتتويج هذا الاستكشاف البريطاني الأولي للبر الرئيسي لشرقي أفريقيا، علق ريتز الآمال على الإبحار نحو منابع نهر البانجاني، وهو طريق رئيسي يفضي إلى الداخل الأفريقي. وللوصول إلى مصب النهر انطلق مع مجموعة محدودة من القائمين بالتجديف في زورق صغير مفتوح، ولكن هطول المطر بغزارة أعاقهم بشكل مستمر، ومع حلول الليل اضطر الزورق إلى الرسو قرب شاطئ صخري، وفي الصباح مع إطلالة الحادي والعشرين من أيار/ مايو، كان ريتز يرتجف بتأثير حمى الملايا؛ فقرر رفاقه الإسراع به عائدين إلى ممباسا.

لم تستغرق رحلة العودة إلا ثمانية أيام، ولكن ريتز مات والمدينة على مدى النظر، وذهب ضحية للمرض الأفريقي الذي أودى بالفعل بحياة عدد كبير من رفاقه الضباط، ودفن وسط أطلال الكنيسة البرتغالية التي انتظر فيها سكان ممباسا المسيحيون قدرهم قبل قرنين تقريباً على يد السلطان يوسف المنشق على البرتغاليين. وفي غضون الشهور التالية دفن ضابط الصف فيلبس، وكذلك العريف البحري وليم سميث في المكان ذاته[3].

تولى ريتز منصب الحاكم أقل من أربعة أشهر، ويمكن أن يقال إن الطيش ورفض الانتظار إلى أن ينتهي الموسم المطير هو المسؤول عن موته. ومع ذلك فإن نبأ موته أضاف المزيد إلى التخوف الذي ساور بومباي ولندن حول تكريس وجود بريطاني على ساحل شرقي أفريقيا، فمثل هذه الخطوة لا ينبغي النظر إليها باستهانة.

ضمن بُعد ممباسا وبطء وسائل الاتصال ألا تتفجر ردود الأفعال حيال مغامرة الكابتن أوين إلا بعد حين. حيث انقضت شهور قبل أن تبدأ الرسائل في التوالي بين لندن وبومباي، وجاءت هذه الرسائل مطالبة بإجراء عاجل حيث لم يكن هناك مجال لتجاهل موقف يحتمل إلى حد كبير أن يسفر عن ضجة دبلوماسية. وحذرت الحكومة الهندية من أن الموقف قد يغضب عُمان، الأمر الذي يفسح المجال لفارس أو روسيا للسيطرة على مدخل الخليج العربي. ثم كانت هناك تلميحات إلى أن المزاريع الذين أغضبهم فشل البريطانيين في تلبية طموحاتهم يخططون لتسليم مقاليد السيطرة على ممباسا إلى الفرنسيين الذين عادت سفنهم تجوب المحيط الهندي من جديد، بل تمت الإشارة كذلك إلى أن البرتغاليين قد يستاؤون حيال فكرة رفع العلم البريطاني على حصن اليسوع، الذي لايزالون يزعمون أنه تابع لهم.

اضطر الكابتن أوين بسبب حاجته لمؤيدين للقضية التي يؤمن بها إلى قضاء المزيد من الوقت بعيداً عن أداء واجبات المسح البحري التي كلف بها في المحيط الهندي، وكان لايزال يحمل على متن السفينة «ليفين» وفداً من ممباسا. ولذا فقد كانت موريشوس هي محطة توقفه الأولى حيث حاول إقناع الحاكم المعين حديثاً سير لوري كول بتأكيد قيام المحمية رسمياً باسم بريطانيا، ولكن كول لم يجرؤ على المضي إلى هذا الحد، وبدلاً من

ذلك كتب إلى اللورد باثورست وزير المستعمرات البريطاني، يقول: «إنه ليس مقتنعاً تمام الاقتناع بأن المزاريع مخلصون، ولكنهم إذا كانوا مخلصين حقاً فإن حكومة جلالته يحتمل أن تجد أن في ذلك صالحهم». ولم يكن على استعداد لأن يكون إيجابياً أكثر من ذلك، حول مركز متقدم على البر الأفريقي، يقع على بعد ألفي ميل من جزيرته المعزولة.

أما بالنسبة إلى نداء أوين بأن ترسل حامية عسكرية إلى حصن اليسوع، فإن الحاكم لم يكن واثقاً من أن أبناء ممباسا سيقبلونها، على الرغم من كل الردود المنطوية على الرياء التي طرحها وفدهم على سلسلة من الأسئلة وجّهها إليهم. وقد تأثر الحاكم بالكابتن مورسوم الذي وصل حديثاً إلى موريشوس بعد زيارة لمباسا، وأعرب عن اعتقاده بأنه من دون حامية هناك فإن العلم البريطاني قد يتعرض لانتهاك حرمته.

بعث ألفنستون وقتذاك من بومباي إلى لندن بما يفيد بموقف شركة الهند الشرقية، حيث أقر بأن المطالبة بممباسا من قبل «حليفنا المخلص والودود» السلطان السيد سعيد مشكوك في أمرها، ولكن من المهم عدم مضايقته، وإذا أرادت بريطانيا أن تمضي قدماً بإعلان ممباسا محمية للتاج البريطاني، فإنها على الأقل ينبغي أن تعرض عليه تعويضاً. ومن المعسكر المقابل مضى أوين خطوة أبعد بطرح فكرة إبعاد السلطان سعيد بالاستعانة بالمال، حيث يقول «أوصي حكومتنا بأن تفاوض إمام [سلطان] مسقط حول كل ممتلكاته في شرقي أفريقيا، وأن تدفع له بصفة مستديمة ما يحصل عليه الآن من عوائد منها، على وجه الدقة». وقد طرح هذا الاقتراح في إحدى رسائله الحافلة بالانفعالات والتي شكلت سلسلة ممتدة بعث بها إلى قيادات الأميرالية.

أياً كان مدى إيجابية الرسائل المبعوثة من المحيط الهندي، فإن الحكومة البريطانية ظلت محجمة عن قبول إعلان ممباسا محمية بريطانية، فأوان استعمار أفريقيا لم يكن قد آن بعد. وحتى قبل أن يعلن ألفنستون وجهات نظره كان باثورست قد أصدر حكمه بأن المحمية ينبغي التخلي عنها، ولم يُطل في عمرها عاماً ونصف العام بعدئذ إلا تحرك هامشي من قبل أوين والمتعاطفين معه.

في غضون ذلك استقرت مقاليد منصب الحاكم البريطاني في ممباسا في يد ملازم آخر هو جيمس إيمري الذي أنزلته البحرية الملكية إلى الشاطئ بعد وقت قصير من وفاة ريتز. واحتفظ إيمري العنيد الذي يكبر سلفه بعشر سنوات بسجل يومي لحياته مع المزاريع. ويوضح هذا السجل أنه لم يقدر له قط أن يعرف ما الذي ينتظره، ففي بعض الأحيان كان مضيفوه ودودين على نحو يوحي بالرياء، وفي أحيان أخرى كانوا يعلنون اشمئزازهم من الإنجليز لعدم إعادتهم ممبا إليهم. ولم تكن هناك نهاية للمكائد، وبين الحين والآخر كان إيمري يخشى أن تتعرض حياته للخطر، غير أنه أفلح على الرغم من نوبات الحمى الحتمية في إنشاء رصيف لتحميل السفن وحفر بئر، واستخدم لإنجاز هاتين المهمتين عبيداً حرروا من سفينة تقليدية في المرفأ.

وجد إيمري كذلك وقتاً لجمع المعلومات حول الداخل الأفريقي، وكان أفضل مرشديه فومولوتي، وهو سلطان محدود السلطة، نجح في أن يصطنع لنفسه جيباً مستقلاً على الساحل بين ماليندي ولامو. وعندما زار ممباسا سعياً وراء المساعدة في رد الهجمات التي تشنها قوات السلطان سعيد أسعده أن يقضي عدة ساعات محدثاً الرجل الإنجليزي عن رحلاته في الداخل الأفريقي.

من بين ما التقطه إيمري من فومولوتي تفاصيل عن بحيرة هائلة «تقع إلى الغرب تقريباً من ممباسا» ويقيم الكثيرون على شواطئها. وهذه الإشارة الموجزة التي لم يلتفت إليها أحد في ذلك الوقت، هي الأولى من نوعها التي سجلها أوربي عن إحدى أعظم البحيرات الداخلية في العالم، والتي لن يقدر لأي شخص من خارج أفريقيا أن يراها إلا بعد ثلاثين عاماً أخرى. وقد أثارت الحقائق المتباعدة التي جمعها إيمري خياله، فعقد العزم على أنه فور إعفائه من واجباته المضجرة في ممباسا، سيقود حملة عبر أفريقيا بصحبة ابن فومولوتي.

لم يقدر لذلك أن يحدث، فعلى الرغم من الرسائل الحافلة بالانفعالات التي بعث بها أوين، ومحاولة تعطيل أخيرة من قبل الكومودور هود كريستيان وهو ضابط بحري كبير في الكاب، التزمت الحكومة البريطانية بحزم بتخليها عن المحمية[4]. وأكثر من

ذلك فإن العلاقات في ممباسا كانت تنذر بالسوء على نحو متزايد؛ حيث أعلن المزاريع في تموز/ يوليو 1826 أنهم لم يعودوا يعترفون بإيمري حاكماً مدنياً. وفي هذه الآونة وصلت سفينة حربية أخرى تابعة للبحرية الملكية إلى المرفأ، وقرر قائدها تشارلز أكلاند أن من واجبه إجلاء البريطانيين قبل أن يتعرضوا للقتل. وساعد أفراد طاقم أكلاند إيمري ومرؤوسيه على الصعود إلى متن السفينة ومعهم كل متاعهم بما في ذلك الأسلحة والذخيرة، ولم يتركوا وراءهم شيئاً يذكر باستثناء مدفعين نصبا فوق تحصينات حصن اليسوع.

وهكذا تم إنزال العلم البريطاني في 26 تموز/ يوليو، وراقب العرب في صمت، بعد كشف خدعتهم، إيمري ومرؤوسيه وهم يرحلون عن ممباسا مع ستة عشر من العبيد المحررين وطاقم سفينة تجارية بريطانية صغيرة من سيلان، كانت قد غرقت قبالة الساحل قبل شهر مضى[5].

أدت هزيمة ممباسا الكاملة إلى تقوية اعتقاد في لندن - وبصفة خاصة في صفوف المسؤولين الكبار في مقر شركة الهند الشرقية في ليدنهول ستريت - بأن كل التعاملات مع عُمان وشرقي أفريقيا ينبغي أن تترك في أيدي سلطات بومباي. وكان العنصر غير المواتي المترتب على ذلك هو أن هذا لابد أن يضيف بصورة حتمية المزيد من الضغوط على الشركة، لكي تتبنى موقفاً أكثر حزماً ضد الرق، وهو موضوع كان معظم المديرين يؤثرون تجاهله. وكان في استطاعة الشركة أن تذهب إلى القول بأنها لم تعتمد قط على العبودية بصورة مباشرة في الهند حيث لم تكن هناك حاجة كبيرة تدعو لذلك؛ لأن قوة العمل الرخيصة كانت بالغة الوفرة هناك، كما لم يكن هناك أي ميل للاعتذار عن عدم تحقيق أرباح في الماضي خارج الهند، في أراض تعتمد على الرق، فقد كان المديرون بعيدين عن الشعور بتأنيب الضمير حيال ذلك فهم رجال أعمال وليسوا مبشرين.

وعلى الرغم من أن الشركة باتت تتصرف الآن باسم بريطانيا المنتصرة، أعظم قوة في العالم، فإنها كانت ما تزال تحجم عن تحدي الرق في أراض تقع في مجال نفوذها، وإن كانت خارج سيطرتها المباشرة، مثل عُمان، أو جيب جوا البرتغالي. وقد صدم ضابط برتبة كابتن يدعى هنري بيفان من ضباط فوج مدراس البحري السابع

والعشرين، لجنة برلمانية صدمة مروعة في لندن عام 1831 بسرد تجربته عندما كان مسؤولاً عن مجموعة من الرواد تعمل قرب الحدود مع جوا، حيث اتصل به بعض «العبيد الأفارقة أو الكفرة» وعرضوا أنفسهم عليه كمجندين، وتم قبولهم. وفي التو طلب حاكم جوا أن يقوم البريطانيون بإعادة العبيد إلى ملاكهم. وقد رفض الضابط الذي يعمل بيفان تحت رئاسته، ولكن تم تجاوزه من خلال «تدخل حكومة مدراس [التابعة لشركة الهند الشرقية]». وقص بيفان النتيجة النهائية بقوله: «شاهدت بعد عدة أشهر آثار المعاملة القاسية التي عومل بها هؤلاء البشر التعساء الذين جلدوا بضراوة بالغة مرات متتابعة، وفركت جراحهم بالفلفل الأحمر والملح»(6).

كان في استطاعة الشركة في معرض ردها على السخط الذي تفجره مثل هذه الحادثة الاستناد إلى الحجة القائلة بأنه لابد من الالتزام بالقانون الدولي، غير أنها كانت أكثر تعرضاً للهجوم في مواجهة تقارير تقدم بها مبشرون فضوليون، مفادها أن تجار الرقيق مازالوا ينشطون في الموانئ الهندية الرئيسة. وأعرب المبشرون عن شكواهم من السيل الذي لا ينقطع من الأفارقة الذين يدخلون كلكتا، حيث يصلون مصفدين بالأغلال على متن سفن تقليدية، ليباعوا «مثل حيوانات الحقل» (وبالمقابل كانت فتيات هنديات في مقتبل العمر يتم شحنهن في رحلة العودة على السفن ذاتها للخدمة في المنازل في منطقة شبه الجزيرة العربية). وعلى الرغم من ذلك كانت لدى المديرين أسباب تدفعهم إلى تجاهل ما يجري؛ فقد كانوا لا يريدون إغضاب أمراء الهند الذين اعتادوا الاحتفاظ بأعداد كبيرة من العبيد - تصل في بعض الحالات إلى الألوف منهم - وذلك عن طريق الاستيراد من المصادر التقليدية في المحيط الهندي. وفضلاً عن ذلك وعلى الرغم من جهود المبشرين وأمانيهم كان أربعة أخماس الهنود يعتنقون الهندوسية، وقيل إن الهندوسية تقر خمسة عشر نوعاً من أنواع العبودية المحلية، وكان الفصل بين الأنواع التي يمكن قبولها وتلك التي لابد من رفضها يمكن أن يجرّ الشركة إلى مخاطر.

استخدمت مثل هذه الحجج كأساليب تكتيكية للتسويف، ولكن في أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ترددت نداءات جديدة من أنصار إلغاء الرق إلى الراج بترتيب بيته من الداخل. واحتدمت هذه المطالبات بفعل قضية أثارت اهتمام

الرأي العام بطلها ضابط برتبة كوماندر يدعى تشارلز هوكنز، قبطان السفينة «كليف» وهي مركب حربي وحيد الصاري تابع لبحرية بومباي. وتبين أن التهمة الموجهة إلى الكوماندر شبيهة على نحو ملحوظ بمبادرة التجنيد التي قام بها في وقت سابق من القرن سير فردريك نورث حاكم سيلان، وتمثل الفارق في أن شراء سير فريدريك للعبيد لتشكيل فوج مشاة، حدث قبيل صدور قانون إلغاء الرق الصادر عام 1807.

كانت متاعب هوكنز قد بدأت عندما بعث به رؤساؤه الذين أثار قلقهم النقص في صفوف البحارة اللازمين للعمل على متن السفن (وكان الخدم العسكريون أنفسهم يرفضون الخدمة بالأجور المعروضة) عبر المحيط الهندي للبحث عن مجندين. وفي بداية رحلته التي أحيطت بالحذر والتكتم مر بمسقط، حيث حول أكياساً مليئة بالروبيات الهندية إلى دولارات ماريا تريزا؛ وهي العملة الأكثر رواجاً في أوساط تجار العبيد، ثم استعانت السفينة «كليف» بالرياح الموسمية في الانطلاق إلى أفريقيا، وقامت بعمليات استطلاع باتجاه الجنوب على امتداد الشاطئ السواحيلي. وفي ليندي الواقعة على مسيرة يومين بحراً من ممباسا، وجد الكوماندر ما كان ينشده، وهو تاجر أعرب عن استعداده لبيعه ثلاثين فتىً مقابل ألفي دولار. وكان مبلغ ستين دولاراً للرأس يعد ثمناً مناسباً في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وهكذا نقل الفتية إلى السفينة، وغادر هوكنز ليندي بمعنويات مرتفعة، وزادت سعادته خلال توقفه في زنجبار، حيث قام حاكمها الذي ينوب عن السلطان سعيد فيها بإرسال أربعة فتية آخرين إلى السفينة. وفي جو من المرح، أطلقت عليهم أسماء بريطانية مثل: والتر سكوت وتشارلز فوكس، بينما صفوا على سطح السفينة لتقديمهم لعالم آخر مختلف عن عالمهم الذي ألفوه.

لقي عدد محدود من الفتية الأفارقة حتفهم خلال رحلة العودة إلى بومباي، وسقط أحدهم في البحر، ولكن أمكن النظر إلى الرحلة بصفة عامة باعتبارها نجاحاً كبيراً. حقاً إن الكثير من المجندين كانوا في سن صغيرة جداً، وبعضهم دون الثانية عشرة من العمر، ولكن حسبما أشار هوكنز فإن هؤلاء الفتية الصغار «بكوا مطالبين بالانضمام إلى إخوتهم»، وعلى أي حال فكلما كانت السن أصغر كان ذلك أفضل إذا ما أريد تشكيلهم وفق ما جرى عليه العرف في البحرية.

من سوء الطالع أنه بعد عودة هوكنز بأربع وعشرين ساعة ألقي القبض عليه، إعمالاً لقوانين مكافحة القرصنة الهندية؛ وذلك لقيامه بنقل العبيد؛ حيث إن الرحلة التي قام بها إلى أفريقيا لم تمر من دون أن ترصدها العيان. وأثارت التهمة التي وجهت إليه مشاعر الغضب الشديد في نفوس زملائه الذين تبنوا وجهة النظر القائلة بأنه في المقام الأول قد أطاع الأوامر الصادرة إليه فحسب، وقد عرفوا كذلك أن الدافع إلى اتخاذ هذه الخطوة قد تمثل في نزاع بين الإدارة والسلطة القضائية في الهند. ومع انتقال العملية القضائية على نحو لا سبيل إلى مقاومته باتجاه المحاكمة في محكمة بومباي العليا، انقسم الرأي العام البريطاني في الهند على نفسه؛ فقد ذهب الكثيرون الى القول بأن الحياة في صفوف البحرية ستكون أفضل بالنسبة إلى الفتية البحارة من أي شيء آخر يمكن لهم أن يأملوا فيه في ظل «بربرية» موطنهم. وأكد تشارلز مالكولم المشرف الأعلى على البحرية الكيفية الجيدة التي تأقلم بها هؤلاء «السيدي» (وهو اصطلاح هندي يطلق على العبيد الأفارقة)[7] مع الحياة على متن سفن البحرية، «فقد اندمجوا بشكل جيد مع الأوربيين الذين أحبوهم». وقد كانوا من المجتهدين في عملهم والودودين و«يأتون في المرتبة التالية للأوربيين، بالنسبة إلى الشجاعة».

عمل أصدقاء هوكنز على التخفيف عنه خلال فترة احتجازه في مقره انتظاراً للمحاكمة، وكان أحد هؤلاء الأصدقاء هو الكابتن روبرت كوجان مساعد المشرف الأعلى على البحرية، والذي قام بدور الوسيط مع الإدارة. ولكن العون الذي تقدم به كوجان ذهب كله بلا طائل، ففي آذار/ مارس 1831 وفي قاعة محكمة بومباي الحارة المزدحمة أدين هوكنز وحكم عليه بالترحيل إلى نيوساوث ويلز لقضاء سبع سنوات من الأشغال الشاقة هناك.

بعد خمسة أشهر نشر تقرير مطوّل في صحيفة **«التايمز»**[8] بعد وصول النبأ إلى لندن، وكان الضباط العاملون تحت قيادة هوكنز قد رسموا صورة طيبة لأحداث الرحلة البحرية، ولكن الدليل الحاسم جاء من الفتية أنفسهم، وسرد أحدهم ويدعى متشل من خلال مترجم الكيفية التي مضى بها إلى السفينة. «حدثت نفسي بأنني أباع وأنني غدوت عبداً، ولما كنت عاجزاً فقد مضيت حسبما أريد لي» وقد حاول الهرب في وقت

لاحق، ولكنه تم الإمساك به وإعادته وضرب بالسياط على مرأى من هوكنز. وكان أحد الفتية صغيراً للغاية حسبما جاء في تقرير «التايمز» إلى حد أمكن معه رؤيته بصعوبة في منصة الشهود «وبدا أنه لايتجاوز السادسة من عمره».

مع اتخاذ الإجراءات لترحيل هوكنز بحراً إلى أستراليا شنت حملة لإلغاء الحكم، وأرسلت نداءات من ضباط جيش شركة الهند الشرقية وبحريتها إلى لندن، تضمنت الإهابة بالملك وليم الرابع لمنح هوكنز العفو، وقبل أن يصل أي رد عليها كان هوكنز في طريقه لبدء تنفيذ الحكم الصادر ضده، وتوقفت السفينة التي أقلته في العديد من مواني الساحل الهندي وأقيمت له في كل منها المآدب على شرفه.

عندما وصلت السفينة إلى جزر الهند الشرقية الهولندية، توقفت ثانية خلال الرحلة التي مضت على مهل لتنفيذ الحكم الصادر بالعقوبة. وهناك وصل الرد الذي علقت عليه الآمال من إنجلترا، حيث صدر العفو الملكي عن هوكنز حقاً. وبدلاً من نزوله مجللاً بالخزي والعار في خليج بوتاني، شق طريقه إلى لندن لشهود حفل استقبال في قصر سانت جيمس. وحياه وليم الرابع بحرارة، مضيفاً تأكيدات بأن كل شيء سيكون على مايرام لدى عودته إلى الهند. وهذا ما حدث بالفعل، حيث تم إبلاغه في المحكمة بأنه لا غبار على شخصه، وتم تعويضه مالياً عما تكبده من عناء، وأعيد ظافراً إلى قيادة السفينة «كليف». غير أنه لم يغامر بالانطلاق إلى شرقي أفريقيا مجدداً، كما لم يسعد برؤية فتية البحارة وهم ينظفون أسطح السفينة أو يرقون الدقلات، حيث نقلوا إلى مدرسة للعبيد المحررين.

أما بالنسبة إلى الكابتن أوين، المغامر الحالم الذي حسب أنه قد وصل إلى طريقة للقضاء على «التجارة الجهنمية» قبيل سنوات من سعي الكوماندر هوكنز للاستفادة منها، فإنه سرعان ما أدرك أن انهيار محمية ممباسا سيسبق انهيار حياته العملية في البحرية؛ فقد حجبت عنه في عام 1833 الترقية التي أرادها أكثر من غيرها، في أن يغدو خبير الخرائط الملاحية بالأميرالية. وكانت قدراته مما لاموضع للشك فيه، ولكن مزاجه العصبي كان من الصعب احتماله. وقد نظر هو نفسه للأمر على نحو مختلف «في

التاسعة والخمسين من العمر، حال الفساد في مراكز عليا بيني وبين طموحي في هذه الدنيا».

قام أوين بمحاولة يائسة لرسم خريطة حياة عملية جديدة، وذلك بالكتابة بعد ذلك بعام إلى وزير الخارجية بالمرستون؛ ليقترح العمل في منصب «القنصل العام لشرقي أفريقيا وجنوبي شبه الجزيرة العربية». وتضمنت رسالته التي افتقرت إلى التماسك إلى حد ما، الزعم بأن تعيينه في هذا المنصب من شأنه أن يلقى الترحيب من قبل السلطان سعيد الذي أشاد به باعتباره «ودوداً، ومتفتح الذهن، وعادلاً». وقد كان ذلك تحولاً مثيراً للإشفاق، وعندما وصل الرفض المحتوم تقاعد أوين ليطويه النسيان في ضيعة عائلته في نوفاسكوتشيا، ومات هناك عن ثلاثة وثمانين عاماً[9].

الفصل الرابع والأربعون

الأمريكيون يكتشفون زنجبار

من أيلول/ سبتمبر 1832 إلى أيار/ مايو 1835 زارت إحدى وأربعون سفينة زنجبار.
منها اثنتان وثلاثون سفينة أمريكية (5497 طناً) وسبع سفن إنجليزية (1403 أطنان).

إدموند روبرتس - عميل أمريكي خاص -
في تقرير إلى واشنطن (أيلول/ سبتمبر 1835)

كان إدموند روبرتس الذي ولد في أسرة تعمل بالبحر، وتقيم في نيوإنجلاند تاجراً موسراً حتى أوائل الأربعينيات من عمره، ثم تعثر به الحظ فقرر اللجوء إلى عمل جسور لاستعادة ثروته؛ فاستأجر السفينة التجارية «ماري آن» في بورتسموث بنيو هامشاير، وحملها بعروض التجارة، وأبحر بها إلى زنجبار التي بلغها في أوائل عام 1828، من دون أن يلقى أي مصاعب، وأدهشه النشاط المتدفق في المرفأ الرئيسي للجزيرة، حيث كان هناك «ما يزيد على مئتين وخمسين شراعاً تعلو السفن العربية التقليدية والبغلات[1]، وغيرها من السفن المحملة بالحجيج والعقاقير والبن والسمك والماء . . . إلخ». وقد أقبلت هذه السفن من موانى البحر الأحمر العديدة ومن بومباي والخليج العربي والساحل الأفريقي امتداداً نحو الجنوب حتى موزمبيق.

وبينما الأمريكي عاكف على بيع سلعه، ازداد المرفأ ازدحاماً؛ فقد وصل الأسطول العُماني، وعلى رأسه سفينة القيادة «ليفربول» ذات الأربعة والسبعين مدفعاً (والتي أطلق عليها هذا الاسم تكريماً لرئيس الوزراء البريطاني، الذي شغل هذا المنصب طويلاً)، وجاءت في أعقاب سفينة القيادة خمس سفن حربية أصغر حجماً ومئة سفينة تقليدية على متنها قوة قوامها ستة آلاف رجل. وكان السلطان سعيد موجوداً على متن سفينة القيادة، حيث أقبل لتوه عائداً من أحدث غزواته (بعد انسحاب فرقة الكابتن أوين) لإخضاع متمردي ممباسا. وتم إحراز النجاح من خلال مزيج تقليدي من نيران المدافع والحيلة، حيث يحتل عدد من الجنود العُمانيين الآن حصن اليسوع، وإن كان الأعداء يحدقون بهم.

لقد تصادف أن روبرتس كان شاهداً على لحظة حاسمة في تاريخ المحيط الهندي، حيث كان السلطان سعيد يقوم بزيارته الأولى لشرقي أفريقيا، فحتى ذلك الحين كان مشغولاً للغاية بالدفاع عن مسقط ضد خصومه الكثيرين، إلى حد أنه لم يتح له الابتعاد كثيراً عن ساحل شبه الجزيرة العربية، وإنما اعتمد على وزرائه الموثوق بهم في حكم الأراضي النائية التابعة له وجباية المكوس منها. وأخيراً تمكن من تفقد زنجبار، وفتنه في الحال خصبها الوافر الذي يختلف عن أرض عُمان الوعرة، الواقعة على بعد ألفي ميل إلى الشمال الشرقي.

سرعان ما أدرك السلطان سعيد أن زنجبار أطيب وأوفر خيرات من عُمان، بل إنها كعاصمة محتملة لملكه ستكون أوفر أمناً وأكثر قرباً إلى مصادر ثروته؛ وهي صادرات العبيد الأفارقة والعاج والصمغ الراتنجي. وكانت الجزيرة ذاتها تجني مالاً من محصول جديد واعد هو القرنفل. وفضلاً عن ذلك فإن الحكام الذين عينوا حديثاً في زنجبار قد برهنوا على أنهم أقل نشاطاً أو أدنى شرفاً من ياقوت؛ ذلك الأثيوبي الوفي الذي مات قبل عشر سنوات. وأحس السلطان بأنه لو كان موجوداً هناك بنفسه للإشراف على الأمور، فإن العائد سرعان ما سيزيد.

لقد كان في مزاج نفسي مفعم بالثقة والميل إلى خوض القتال، ولدى رؤيته للسفينة «ماري آن» في المرفأ، بعث فى استقدام إدموند روبرتس، وأحس بالود نحوه، وشرع بعد العديد من اللقاءات في كشف طموحاته له. وكتب الأمريكي الذي كان يتمتع بملكة الوصف الدقيق، يقول في وقت لاحق:

«إنه يعلن أن البرتغاليين لن يمتلكوا شبراً من الأرض على ساحل شرقى أفريقيا. وقد قال: «هل نسيت المعاملة التي عومل بها أجدادي من البرتغاليين الملاعين قبل ثلاثمئة عام» قالها وفي الوقت ذاته راح يتلمَّس لحيته التي بلغت خاصرته، والنار تتقد من عينيه، كأنما سيقضي على جنس البرتغاليين بنظرة واحدة. وتابع: «لسوف أبددهم كرمال الصحراء».

يقدم روبرتس هذه الصورة الدرامية التي يرسمها للسلطان سعيد في رسالة كتبها في وقت لاحق إلى ليفي وودبري؛ وهو عضو مجلس الشيوخ عن نيوهامشاير (والذي

أصبح فيما بعد وزيراً للبحرية الأمريكية). ويمضي موضحاً كيف أن السلطان قد طلب منه إمداده بالقنابل وغيرها من الذخائر الثقيلة للهجوم على موزمبيق «وهو حريص على ألا تعلم الحكومة البريطانية بمخططاته». وكان أمراً مفهوماً تماماً أن يرغب السلطان سعيد فى إبقاء خطته سراً لا يعلم بها البريطانيون، الذين أعلنوا أنفسهم سادة للمحيط الهندى وحراساً للسلام فيه[2]. وبالمقابل، لم تكن أمريكا منغمسة سياسياً في هذا الإقليم، واشتهر تجارها كموردين للأسلحة والذخائر، وبصفة خاصة البنادق ذات الزناد المصون، والتي تباع في عبوات بحجم قفص الشحن البحري.

في وقت مبكر من لقاءات السلطان سعيد مع روبرتس، شرع الأخير فى الإعراب عن الشكاوى من الأوضاع التجارية الخاصة بالسفن الأمريكية التي تزور زنجبار، حيث لم يسمح لها بالبيع إلا من خلال وكلاء السلطان، وحصلت منها مكوس أعلى من تلك التي تحصل من السفن الإنجليزية، التي كانت حرة في الاتجار مع أي شخص. وحذر روبرتس بشدة من أنه إذا لم يعامل الأمريكيون بشكل أفضل فإنهم سيتوقفون عن المجيء إلى زنجبار. ولم يكن هذا بالتهديد الأجوف، ذلك أن أكثر من عشر سفن أمريكية كانت تمارس التجارة في زنجبار وحولها خلال السنوات القليلة الماضية متجاوزة في عددها بكثير نظيرتها البريطانية (أو الفرنسية التي كانت تنشد في المقام الأول الحصول على العبيد)، ورد السلطان سعيد بالقول إنه يريد إبرام معاهدة تجارية مع أمريكا، على الرغم أن روبرتس يلاحظ أنه «أظهر جهلاً يكاد يكون تاماً بها». وأوضح السلطان في معرض تفسيره للامتيازات التي يحظى بها البريطانيون أنه كان قد وقع معاهدة معهم، وأنهم أعطوه دعماً مالياً، وبهذا الصدد كان ينسج الأكاذيب مستعيناً في تمريرها بجاذبيته الطبيعية.

توضح هذه المساجلات سعة أفق السلطان، وكيف أنه كان يحلم بحكم إمبراطورية واسعة في المحيط الهندي بعد إخفاقات متكررة في توسيع نطاق سلطته في الخليج العربي. ولم تكن موزمبيق هي وحدها التي يطمح إليها، وإنما مدغشقر وجزر القمر كذلك. وسرعان ما أدرك الفائدة من وراء إثارة التنافس بين بريطانيا والأمريكيين المندفعين قدماً.

أبحر روبرتس عائداً إلى نيو إنجلاند؛ ليمارس الضغوط من أجل الحصول على حق التفاوض مع السلطان سعيد باسم بلاده، ودعا كذلك إلى تعيين قنصل في زنجبار، ففي نهاية القرن السابق كان هناك قنصل أمريكي في كيب تاون منذ عام 1799. ولكن عملية الإقناع كانت بطيئة على نحو مرهق، حيث كانت قلة محدودة من المسؤولين في واشنطن هي التي لديها فكرة عن موقع زنجبار. وفي غضون ذلك مضى المزيد والمزيد من السفن الأمريكية في الظهور في مياه شرق أفريقيا[3]. وكان بعض هذه السفن من سفن صيد الحيتان التي ترسو في زنجبار للراحة والاستجمام. وكان رجال أطقمها من المشاغبين الذين يتمردون غالباً، أو يفرون من العمل على متنها، بسبب الظروف القاسية التي يتعرضون لها في البحر.

كان معظم الزوار الأمريكيين ممن يأتون على متن سفن تجارية من «سالم» في ماساشوستس. ومن هذه السفن السفينة «فرجينيا» التي قرر ربانها هنري ليفيت زيارة ممباسا، وكان المزاريع لايزالون يسيطرون عليها. وطلب هنري ليفيت من سالم بن أحمد المزروعي «ملك ممباسا» السماح له بالحصول على الماء العذب. وعندما رفض الملك متعللاً بوجود نقص في المياه تدفق غضب ليفيت هادراً على صفحات سجل سفينته «لا وجود لما يكفي من الماء! يدهشني هذا، ويصيبني بالذهول، هناك ما يكفي من الماء للغرق. . . هناك ما يكفي من الماء لتعويم خمسين سفينة مثل «فرجينيا». الأمر برمته حيلة واضحة لإبقائنا هاهنا. إنني أعرف أن في استطاعتي قراءة ما يدور بخلدك أيها الملك».

استغرق الأمر سنوات من إدموند روبرتس للحصول على التخويل الذي سعى إليه من واشنطن، وربما ما كان ليوفق في ذلك لولا سلسلة من الرسائل سلمها السلطان سعيد إلى قباطنة أمريكيين، كانوا في طريق العودة إلى وطنه، حيث وجه النداء في هذه الرسائل من أجل إبرام المعاهدة التجارية. وأخيراً في عام 1832 قام الرئيس أندرو جاكسون بتعيين روبرتس «وكيلاً خاصاً» لحكومته، وتم تسليمه صندوقاً مزيناً بالفضة والذهب وبالنسر الأمريكي على غطائه، وبداخله الختم الأمريكي الكبير. ومن المعدات الرسمية كذلك حزمة من ورق نفيس شبيه بالرقوق لكتابة المعاهدات عليه

(وأعرب روبرتس في وقت لاحق عن شكواه من أن المسؤولين كانوا شديدي البخل فيما يتعلق بهذا الورق النفيس). وقيل للوكيل الخاص روبرتس إنه ليس عليه الوصول إلى اتفاق تجاري مع السلطان سعيد وحده، وإنما كذلك مع ملك سيام، وذلك بركوب مركب شراعي وحيد الدقل تابع للبحرية الأمريكية، هو المركب «بيكوك» الذي كان من المقرر أن يقوم برحلة حول العالم عن طريق كيب هورن ورأس الرجاء الصالح.

في ضوء خشية روبرتس من إحباط البريطانيين لخططه سافر متنكراً، حيث أدرج في القوائم باعتباره كاتب القبطان، ولم يعرف إلا عدد محدود من كبار الضباط بالدور الحقيقي الذي يقوم به زميلهم ذو البنية القوية. وتم توقيع معاهدة على نحو مناسب في سيام، ثم أبحرت السفينة «بيكوك» إلى بومباي. وبينما تم تبادل المجاملات المعهودة مع السلطات البريطانية التي لم ترتب في ما يجري، بقي «الكاتب» على نحو حذر بعيداً عن العيان. ثم واصل الأمريكيون إبحارهم إلى مسقط، حيث تصادف أن السلطان سعيد كان يحشد قواته تأهباً لهجوم آخر على ممباسا. وأطلقت «بيكوك» إحدى وعشرين طلقة تحية من مدافعها، ووجه روبرتس الدعوة إلى السلطان للقدوم إلى السفينة لحضور «مأدبة فخمة في القمرة».

لم يستغرق إبرام المعاهدة التجارية وإعطاء السفن الأمريكية معاملة تفضيلية في كل الأراضي العُمانية، بما في ذلك زنجبار والشاطئ السواحيلي، إلا ثلاثة أيام، وكتبت بالإنجليزية والعربية، ووقعت في 21 أيلول/ سبتمبر 1833 لتكون أول معاهدة من نوعها بين السلطان سعيد وأي قوة أجنبية. واستخدم روبرتس ختمه الكبير، ووصف السلطان سعيد نفسه، حسب التعبيرات التقليدية، باعتباره «الفقير إلى الله تعالى»[(4)]. وأبحر روبرتس إلى الوطن ظافراً حاملاً معه ورقة الرَّقّ* النفيس، وقدم لوزير الخارجية لويس ماكلين تقديراته لـ «الموارد الوفيرة كافة» التي يمتلكها السلطان سعيد. وكانت هذه الموارد «مستمدة من التجارة وتسييره بنفسه لعدد كبير من السفن التجارية، ومن المكوس المفروضة على عروض التجارة الأجنبية، ومن الجزية». وعلى نحو حذر، لا يرد أي ذكر على الإطلاق لتجارة العبيد، كما لا يرد ذكر للعبودية عندما ينتقل روبرتس

* الرَّقُّ: جلد رقيق يُكتب فيه. والصحيفة البيضاء.

لوصف صادرات أفريقيا التي تدرج على أنها تشمل: «العاج، ودرقات السلاحف، وقرون وحيد القرن، والجلود، وشمع النحل، والأرز... إلخ».

بعد رحيل روبرتس بوقت قصير عن مسقط، بدأت شائعات عن زيارته تترامى إلى الهند من عُمان؛ ودفع هذا بقائد البحرية الملكية في المحيط الهندي نائب الأميرال سيرجون جور، إلى إرسال سفنه لاكتشاف ما تدبره له البحرية الأمريكية في مياه يهيمن عليها القانون البريطاني. ووقعت مهمة القيام بهذا الاكتشاف على كاهل الكابتن هنري هارت الذي وصل إلى زنجبار على متن السفينة «إيموجين» في نهاية كانون الثاني/ يناير 1834. وكان هارت نشطاً ووطنياً إلى حد كبير ويوحي مظهره بالعظمة والأبهة إلى حد ما.

ابتهج هارت لمعرفة أن السلطان سعيد موجود كذلك في زنجبار، حيث يقيم في قصره الذي شيده مؤخراً، فبادر إلى النزول للشاطئ والقيام بزيارة مجاملة للسلطان. وبعث السلطان في الحال بعجلين وكمية وفيرة من الفاكهة لطاقم السفينة «إيموجين». وقدم أحد العجلين في طعام العشاء تلك الليلة، كما قدمت الفاكهة كحلوى في ختام الوجبة، وصبيحة اليوم الثاني أطلقت مدافع البحرية الملكية إحدى وعشرين طلقة تحية، وردت التحية إحدى السفن الحربية التابعة للسلطان، والتي كانت راسية في المرفأ[5].

خلال سلسلة من اللقاءات في القصر وجد هارت نفسه يناقش أحدث طموحات مضيفه ومخاوفه، والأكثر إثارة للاهتمام في بند الطموحات كانت مبادرة السلطان حيال رانا فولانا؛ ملكة مدغشقر المتقلبة[6]؛ حيث كان قد بعث لها بمبعوثين على متن إحدى فرقاطاته طالباً إمداده بألفي رجل على سبيل الإعارة؛ لمعاونته في الاستيلاء على ممباسا، وقال لهارت في اكتئاب: «إن العرب ليسوا مقاتلين». ومضى خطوة أبعد بتقدمه طالباً الزواج منها؛ حيث إنها أرملة وإن كانت لا تزال في مقتبل العمر؛ فرفضت رانافولانا خطبته قائلة: إن زواج الملكة مرة أخرى يتعارض مع قوانين بلادها، غير أن هناك أميرة قد تناسبه. وساد الغموض حديثها حول القوات المطلوبة، وقالت إن في استطاعته الحصول «على أي عدد يريد من الرجال» لكنها كانت أكثر تحديداً في طلبها قلادة يبلغ ثمنها ألف دولار، على أن ترسل القوات إليه فور وصول القلادة إليها.

سرعان ما أحس هارت بأن محاولات السلطان التقرب من هذه الملكة الصعبة المراس لا يحتمل أن تحرز تقدماً، فتحول في الحديث إلى السبب الحقيقي لزيارة «إيموجين» لزنجبار، أي المعاهدة الأمريكية التي تناثرت الشائعات حولها. وفي التو بدأ السلطان سعيد في الحديث همساً بحيث لا يسمعه رجال معيته، وأشار الكابتن إلى أنهما ينبغي أن يلتقيا وحدهما في اليوم التالي، وفي غضون ذلك حمل معه نسخة السلطان من المعاهدة ليقرأها خلال الليل. وفي صباح اليوم التالي عندما أعلن الكابتن شعوره بالصدمة حيال التنازلات التي اكتشف أنه قدمها للأمريكيين وتنبأ بأن بريطانيا ستنظر إلى المعاهدة باعتبارها «انتهاكاً للثقة» ناشده السلطان سعيد التعاطف مع موقفه.

قال السلطان سعيد إن إدموند روبرتس هو «رجل عجوز متبجح. وقد أسعدني توقيع المعاهدة للتخلص منه، ولم أنظر إليها على أن لها أي أهمية». ولكن إذا «كانت حكومة الهند البريطانية تريد ذلك، وستقوم بتأييده» فإنه سيلغي المعاهدة تواً. «كما أعد بأنه في المستقبل لن أبرم أي معاهدة من دون نصيحة حلفائي القدامى وأصدقائي الطيبين الإنجليز وموافقتهم». وأفلح الكابتن هارت على نحو جلي في إشعار السلطان بنذر المخاوف. وتم تدبير رسالة تحمل معنى الاعتذار الشديد إلى حاكم بومباي، يعتذر فيها السلطان سعيد عن عدم ذكر المعاهدة التي لا تعدو أن تكون «شأناً هيناً»، وتعهد بأن كل شيء «سواء أكان بالغ الأهمية أم لا أهمية له» سيتم إبلاغه للحاكم «لإزالة كل الشكوك من صدر هذا الصديق القديم».

أعقب ذلك قيام السلطان سعيد بالمضي قدماً إلى ما لم يكن بوسع هارت تخيله، فإظهاراً لأسفه ولإقناع الإنجليز بمشاعره نحوهم، قال إنه عقد العزم على تقديم «ليفربول» سفينة قيادته ذات الأربعة والسبعين مدفعاً هدية للملك وليم الرابع. وكانت السفينة راسية في مرفأ زنجبار، وكانت أكبر بكثير من احتياجات عُمان. ولم يكن هارت على يقين من الكيفية التي سترد بها الأميرالية على مثل هذا العرض غير المألوف، ولكنه أكد للسطان أنه سيقوم بنقله على جناح السرعة.

أتيح للكابتن في رحلة العودة إلى الهند الوقت لكي يكتب للأميرال جور صورة مفصلة لكل ماوقع في زنجبار، مع الكثير من التفاصيل الشخصية عن السلطان سعيد،

واصفاً الآفاق الاقتصادية للجزيرة، وذكر كيف أنه وافق على أن يحمل ثمانية آلاف دولار فضي إلى بومباي باسم السلطان. وهو يلاحظ كذلك أنه «من بين السفن الثلاث عشرة التي قدمت إلى هنا العام الماضي. . . . كانت أربع فقط إنجليزية، والسفن الباقية كلها أمريكية».

ساوره شعور بالرضا البالغ عن موقفه الحازم من المعاهدة الأمريكية، وبطريقته المباشرة لم يترك شيئاً من دون أن يذكر في رسالته الأساسية. وهو يسرد شكاوى السلطان سعيد المريرة حول عدم رد شركة الهند الشرقية على رسائله، فقد كانت لامبالاة الشركة هي بصورة جزئية السبب في الترحيب بإدموند روبرتس(7). وأكثر من ذلك أن السلطان سعيد كان قد ساد علاقته مع ملك فارس الذي كان قد تزوج من حفيدته لون من الفتور؛ لأن البريطانيين حذروه من أنه لا ينبغي أن يساعد الفرس في مهاجمة أبناء بوشهر إذا كان يريد الاحتفاظ بصداقة الإنجليز؛ وكنتيجة لذلك فقد أثار ضيق ملك فارس برفضه مساعدته. وعلى الرغم من ذلك فقد تم إبقاؤه لمدة ستة أشهر في انتظار رد من بومباي على أي من رسائله.

من الجلي أن هارت قد التقى السلطان سعيد وهو يعاني من انحسار ثقته وتعثر حظه، وهو الأمر الذي انعكس في الفكرة اليائسة المتمثلة في استخدام قراصنة من مدغشقر للقتال من أجل السيطرة على ممباسا. وكان السلطان كذلك يحاول استعادة مهابته، بعد محاولته القيام بخطوة غير موفقة نحو أحد أقاربه، وهو السيد هلال، الذي ساورت السلطان الشكوك في أنه يعد لمخططات تستهدف الاستيلاء على السلطة في عُمان. وإذ تم إحضار السيد هلال إلى مسقط في ظل وعود مؤكدة بضمان سلامته؛ ولكن أخته التي استشاطت غيظاً أثارت تمرداً فأجبرت السلطان على إطلاق سراحه.

لم تسمح هذه الأحداث المتباينة لهارت بتنفيذ الأوامر الصادر له فحسب، وإنما بقطع خطوات إضافية كبيرة إلى الأمام، بل إنه حمل معه من زنجبار كتذكار للنصر النسخة الأصلية الخاصة بالسلطان من المعاهدة الأمريكية، لكي يراها نائب الأميرال جور. وقد سعد هذا الأخير كثيراً بما جرى، وبعث بنسخ من رسالة الكابتن إلى الأميرالية وإلى لورد كلير، الذي أصبح الآن حاكماً لبومباي. وكتب كذلك للسلطان

سعيد معيداً إليه المعاهدة ومعرباً عن أسفه لعدم استطاعته قبول السفينة «ليفربول» باسم ملكه إلى أن يتلقى تفويضاً أعلى بذلك. وفي البداية كان رد الفعل في الهند صامتاً، حيث كانت وجهة النظر السائدة هي أنه إذا أراد السلطان سعيد تقديم تنازلات تجارية لقوة أجنبية فإن ذلك من حقه. أما فيما يتعلق بشكواه من أن حكومة الهند البريطانية تبطئ في الرد على رسائله فقد تقرر تدبيج رد اعتذاري عن ذلك، يتضمن قائمة بالتواريخ التي أرسلت فيها الردود.

بالمقابل، عندما وصلت نسخ من رسالة هارت إلى مقر شركة الهند الشرقية في لندن في آب/ أغسطس 1834 كان رد الفعل هادراً؛ فقد تدخل هارت في الأمور السياسية في منطقة تمثل الشركة بها السلطة العليا. وأمرت اللجنة السرية المؤلفة من ثلاثة أعضاء والتابعة للمجلس الهندي بأن تقدم تقريراً في الحال حول الكيفية التي من خلالها «فوض نائب الأدميرال ضابطاً لإجراء اتصال مع دولة أجنبية». وبدا جلياً أن الشركة أكثر حرصاً على حقوقها مما كانت عليه قبل اثني عشر عاماً عندما أبرم الكابتن مورسباي معاهدته المناهضة للعبودية مع السلطان سعيد. وبالإضافة إلى ذلك فإن الذكريات كانت لا تزال ماثلة في الأذهان حول الكيفية التي أعلن بها الكابتن أوين محميته في ممباسا. وهنا بدا أن هناك ضابطاً آخر من ضباط البحرية الملكية يفسد الأمور من خلال تجاوز صلاحياته والتلاعب بالدبلوماسية.

كان من الشخصيات البارزة في هذه الضجة هنري سان جورج تكر رئيس مجلس مديري شركة الهند الشرقية[8]. وقد كان مغروراً بطبيعته على الرغم من أن ماضيه لم يكن بالماضي المشرف تماماً؛ حيث حكم عليه بالسجن ستة أشهر لمحاولته اغتصاب امرأة في الهند وهو في مقتبل عمره. وكان لورد بالمرستون وزير الخارجية يستشيره في ذلك الوقت حول تقرير مفاده أن السلطان سعيد يريد إرسال أحد أقاربه إلى لندن. هل ينبغي تقديم هذا المبعوث إلى الملك؟ رد تكر بقوله: «أستطيع تماماً أن أتصور أنه سرعان ما سيتدفق العديد من الزوار الذين يحملون الصفة ذاتها من جميع أرجاء الهند». وقد كان هذا قولاً يحمل عن عمد سخرية لاذعة، ذلك أنه في العام الماضي تزامن تجديد ترخيص الشركة مع صدور تحذيرات من البرلمان بأن «السكان الأصليين» لابد أن تتم

معاملتهم بقدر أكبر من التعاطف، بل إنه ما من أحد يجب أن يحال بينه وبين تولي أي منصب في الشركة لاعتبارات تتعلق بالدين أو العرق أو اللون. ومن منظور تكر، فإنه إذا كان بالمرستون وأصدقاؤه السياسيون متشوقين للغاية إلى أن يكونوا لطفاء مع الآسيويين، فإن عليهم الاستعداد للترفيه عنهم في لندن.

كانت الشركة في هذه اللحظة في غمار عملية التأقلم مع دورها الجديد بمقتضى الترخيص الذي تم تجديده والذي يتضمن أن تحكم لا أن تتاجر. وأدرك المديرون وعلى رأسهم تكر الفرصة السانحة لتأكيد دورهم السياسي على امتداد المحيط الهندي إلى الأبد. وجاء تقرير اللجنة السرية مكتوباً بلهجة فخمة. «بالإشارة إلى المعاهدة التي تبدو للكابتن هارت مسألة ذات أهمية فائقة، فإنها قد لا تكون معاهدة على الإطلاق». ولو أنها كانت كذلك، فإن هذا ليس له قيمة تذكر «الأمريكيون ليسوا في موضع غيرة سياسية بالنسبة إلينا في الهند (أما فيما) يتعلق بالتجارة التافهة التي قد يحملونها في سفنهم الصغيرة من أراضي إمام مسقط فليس من المحتمل أن تتضارب مع تجارتنا». وحتى حزيران/ يونيو من العام التالي ظل المجلس الهندي على موقفه، حيث تحدثت الرسالة التي بعث بها إلى حكومة بومباي عن «شخص يدعى روبرتس، يقال إنه قبطان سفينة أمريكية حربية. . .» ولم يجد المجلس برهاناً على أن هذا الفرد لديه «التكليف الذي يزعم أنه أنيط به»[9] (في حقيقة الأمر صدق مجلس الشيوخ الأمريكي على المعاهدة قبل عام من ذلك).

في إنجلترا «أوصى المكتب بشدة» الأميرالية بأن من الضروري إبلاغ نائب الأميرال جور وضباطه بأن عليهم «الامتناع عن إجراء أي اتصال مع الدول الواقعة في الشرق حول نقاط لها الطبيعة المشار إليها، مالم يكن ذلك بالتنسيق مع حكومة الهند»[10]. وبعثت الأميرالية في خنوع بهذه الرسالة إلى جور، مع أمر يقضي بأن عليه وعلى ضباطه التوقف عن «توريط أنفسهم في السياسة». وأطلع جور هارت على الرسالة بما في ذلك ملاحظات اللجنة السرية، التي افترضت ضمناً أن الكابتن متخبط وساذج لا يعرف موقع خطاه.

لم يشعر هارت بالإذلال بقدر ما استبد به الحنق، فبعث إلى تكر في الوطن برسالتين غاضبتين، تشيران إلى أنه لم يمض إلى زنجبار إلا بناء على أوامر صدرت إليه، وأعرب عن اشمئزازه لأن مجلس المديرين يحمل «كل هذه الغيرة على سلطاته». وبهذه الإشارة كان هارت يوضح بجلاء أنه قد اطلع على تقرير اللجنة السرية، وهكذا فقد قام المجلس الهندي بتصويب نيرانه مجدداً إلى الأميرالية، ذلك أن رؤية هارت للتقرير جاءت «مناقضة تماماً للعرف وأصول اللياقة». كيف حدث ذلك؟ كان الجميع بالطبع يعرفون كيف حدث ذلك، ولكن الأميرالية لم تكن على استعداد لترك ضابط يتلقى اللوم. وهكذا، وتحويلاً للأنظار عن الأمر، أجبر هارت على الاعتذار لتكر مبدياً «كامل الاستعداد لتغطية الأضرار». وتبين أن هارت، شأن أوين من قبله، تضرر ضرراً لا سبيل إلى إصلاحه في حياته العملية في البحرية من خلال «توريط نفسه في السياسة». وعلى الرغم من أنه كوفئ بلقب من ألقاب النبالة، فإنه لم يترق في قوائم الضباط العاملين بعد رتبة الكابتن قط.

بعناد ملحوظ تشبثت شركة الهند الشرقية برأيها القائل إن المعاهدة الأمريكية لا يعتد بوجودها. غير أنه في أيلول/ سبتمبر 1835 عاودت السفينة الحربية الأمريكية «بيكوك» الظهور، ذلك أن الإدارة الأمريكية قد أعطت موافقتها النهائية على المعاهدة في كانون الثاني/ يناير من العام ذاته. وسعى روبرتس بلا طائل للوصول إلى السلطان سعيد في زنجبار، ثم اتجهت السفينة وحيدة الصاري إلى مسقط، وجنحت على شاطئ شبه الجزيرة العربية وهاجمها القراصنة، لكن إحدى سفن السلطان انتزعتها من بين الصخور. وفي نهاية المطاف تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في اليوم الأخير من أيلول/ سبتمبر 1835، وواصل روبرتس إبحاره، وعلق آمالاً كباراً على العودة إلى المحيط الهندي، لكي يصبح أول قنصل أمريكي في زنجبار، لكنه مات بعد ذلك بأشهر قلائل في مكاو.

وعهد بهذا المنصب في زنجبار لريتشارد ووترز، وهو رجل أعمال مسيحي إنجيلي. وعلى الرغم من أنه ولد في مستوطنة للآباء الحجاج في مدينة «سالم» وأنه ينتمي إلى عائلة من البحارة، فإنه لم يكن قد شد الرحال إلى الشرق من قبل قط. وقد التقط ما

عرفه عن زنجبار من أخيه الأكبر جون الذي تولى قيادة سفن تجارية تمارس التجارة فيما بين نيو إنجلاند والمحيط الهندي. وإذ نشط ريتشارد ووترز في إطار الحركة المناهضة للعبودية، فقد رشح لشغل منصب القنصل من جانب رجل دين كان أخاً لليفي وودبري وزير البحرية والصديق القديم لإدموند روبرتس. وكان اسم ريتشارد ووترز مقبولاً لقباطنة مدينة سالم، الذين أحسوا بأن في وسعهم الثقة برجل من المرفأ الذي ينتمون إليه ليحتفظوا لأنفسهم بمجمل تجارة زنجبار.

لم ينطو هذا المنصب على الكثير من المال، ولكن ووترز أقلع في خريف 1836 وقد عقد العزم على أمرين؛ أولهما أن يحقق الازدهار المالي كوكيل للشحن، وثانيهما أن يجتذب الكثيرين لاعتناق المسيحية. وقد كتب وهو لا يزال يواصل رحلته بحراً: «لقد رغبت في أن أكون مفيداً لأرواح أولئك الوثنيين الذين استدعيت للنزول بين ظهرانيهم، وإن ذهابي للإقامة معهم لموسم قد يكون وسيلة لتقديم الكتاب المقدس إليهم». وفي الطريق صعوداً على ساحل شرقي أفريقيا، رست السفينة في ميناء موزمبيق، حيث رأى سفن نقل العبيد البرتغالية، وهي تشحن بالأفارقة الذين ستمضي بهم إلى البرازيل، وهم غالباً يصحبون أطفالاً تتراوح أعمارهم بين العاشرة والرابعة عشرة. وراح يتأمل: «ما الذي يمكنني قوله لمن انغمسوا في هذه التجارة عندما أتذكر ملايين العبيد الموجودين في بلادي؟». ولكنه كان له جانب عملي بشكل محدد، حيث إنه كان «على استعداد للعمل بجد لبضع سنوات. . . إذا كان في استطاعتي جمع القدر المطلوب من الثروة».

وصل ووترز إلى زنجبار في آذار/ مارس 1837 باعتباره أول ممثل لقوة أجنبية يحمل أوراق اعتماد دبلوماسية لدى بلاط السلطان سعيد. وتلقى التحية بإطلاق ثلاث عشرة طلقة، من سفينة تجارية أمريكية راسية في المرفأ، وتلقاه السلطان بترحاب حار، ومنحه داراً وجواداً.

ولعل الحالة المزاجية المواتية والكريمة التي كان فيها السلطان سعيد، ترجع جزئياً في أحد أبعادها إلى النجاح الذي حظي به أخيراً في صراع ضد أقدم أعدائه؛ المزاريع. فقبل شهر واحد من وصول ووترز استسلم آخر حاكم مزروعي لممباسا، وهو راشد بن

سالم، ووعد بالاعتراف بالسلطان سعيد باعتباره سلطانه، وأسلمه عنان السيطرة الكاملة على حصن اليسوع. وبالمقابل وافق السلطان على استمرار بقاء راشد في ممباسا باعتباره حاكماً لها، ثم غير رأيه وحاول إقناع راشد بالرحيل نظير ثمن، والقدوم للإقامة في زنجبار، وقد اعتذر راشد عن عدم قبول هذا العرض.

الفصل الخامس والأربعون

التطلع غرباً من الراج

> ينبغي على الكابتن هامرتون انتهاز كل الفرص المتاحة للتأكيد لهؤلاء العرب على أن أمم أوربا من المحتم أنها ستضع نهاية للاتجار بالعبيد الأفارقة، وأن بريطانيا العظمى هي الأداة الرئيسة في يدي العناية الإلهية لتحقيق هذا الهدف، وأنه مما لا طائل فيه أن يبذل هؤلاء العرب جهودهم لمقاومة تحقيق ذلك الذي كتب في اللوح المسطور، وأنهم ينبغي عليهم أن يرضخوا للقوة العظمى.
>
> مذكرة من لورد بالمرستون إلى حكومة بومباي
> لتوصيلها إلى قنصل جلالة الملكة في زنجبار (1846)

لم تمض الأشهر الأولى من الوجود الدبلوماسي الأمريكي في زنجبار في يسر وسهولة، حيث إن ريتشارد ووترز ترك نزوعه المسيحي يتغلب على حرصه والتزامه الحذر، فهو لم يكتف بالإفصاح عن وجهات نظره الدينية للسلطان، وإنما سرعان ما بدأ في توزيع نسخ من الكتاب المقدس وكتب الصلوات على الزنجباريين العاديين. وقد ضاق بعض المسلمين الورعين بذلك ضيقاً شديداً، وانهالت الأحجار على سقف القنصلية، فاضطر ووترز إلى الانتقال إلى موضع آخر من المدينة. وفي نهاية عام 1837 كان السلطان قد قرر اللجوء إلى عمل سريع؛ فسوف يطلب من الرئيس الأمريكي أن يرسل بدلاً من القنصل الحالي شخصاً راغباً في التركيز على التجارة، وليس على إثارة فتنة دينية.

كانت سفينة شراعية بدقلين من مدينة سالم، هي السفينة «شيروكي»، راسية في مرفأ زنجبار، وهكذا قرر السلطان سعيد أن يسلم لقبطانها رسالة موجهة إلى الرئيس الأمريكي فان بورين. ويمكن العثور على رواية لما حدث عقب ذلك في رسالة كتبها بعد ثلاث سنوات إدوارد براون كاتب السفينة «شيروكي» إلى وزير الخارجية الأمريكية دانييل وبستر الذي علم بالأمر في وقت متأخر. فقد قدم أحمد بن عامر أمين سر السلطان إلى القنصلية للسؤال عن الكيفية التي ينبغي بها صياغة رسالة موجهة إلى

الرئيس الأمريكي. وكتب براون الذي كان يقيم بالقنصلية الصيغة الصحيحة على رقعة من الورق. وبعد وصول الرسالة من السلطان رآها الكاتب على منضدة، ولاحظ أن حرف «إي» قد سقط من اسم بورين. وفي صبيحة اليوم التالي، وبينما كانت السفينة «شيروكي» على وشك الإقلاع، شوهد القنصل ووترز وفي يده رسالة مفتوحة، ثم أمر الجميع بالخروج من الغرفة. ويبلغ براون وزير الخارجية وبستر بأن «ما وقع عقب ذلك لا يمكنني تحديده بناء على ما أعلمه، حيث إنني لم أكن موجوداً، ولكنني أعرف أن الرسالة المذكورة الموجهة إلى الرئيس الأمريكي لم تمض إلى وجهتها على متن شيروكي»[1].

لقد تمكن ووترز بإتلاف الرسالة من إتمام مدة خدمته كقنصل، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بذل جهداً أقل من أجل الرب، وجهداً أكبر من أجل «جمع القدر المطلوب من الثروة». ويبدو أن السلطان سعيد قد تقبل عدم وصول رد من الرئيس فان بورين من دون تعقيد للأمر، ورضي عن ووترز عندما تبدل سلوكه. وبالنسبة إلى العالم الخارجي فإن الأمريكيين قد قاموا بتوجيه ضربة دبلوماسية محدودة الأثر في المحيط الهندي، وسبقوا البريطانيين. وتحققت التحذيرات التي وجهها الكابتن هارت سيئ الطالع، على الرغم من أن شركة الهند الشرقية لم تقر بذلك إطلاقاً.

من وجهة النظر البريطانية كان الجانب الأكثر إثارة للضيق في وجود ريتشارد ووترز في زنجبار يتمثل في الطريقة التي سمحت له بها حكومته بالجمع بين أداء المهام الدبلوماسية والعمل التجاري الخاص. فهو لم يهدر وقتاً يذكر؛ حيث شكل فريقاً للعمل مع جيرام سويجي، وهو تاجر هندوسي، إذ حصلا على عقد مثمر من السلطان لإدارة جمارك الجزيرة، وسرعان ما أحكما قبضتيهما على تجارة زنجبار، الأمر الذي لم يكن في صالح إحدى الشركات اللندنية التي كانت قد أقامت وكالة تابعة لها في الجزيرة. وحيث إن جيرام كان من رعايا بريطانيا بحكم كونه هندياً؛ فقد أصبح هذا الواقع مثيراً للضيق على نحو أكبر. كما مضى القنصل الأمريكي يروج بصورة نشطة لبلاده ويطور علاقتها مع السلطان سعيد ويقدم له هدية؛ هي عبارة عن صورتين مؤطرتين لتعليقهما في مجلس القصر، تظهران السفن الأمريكية وهي تلحق الهزيمة بالبريطانيين في إحدى المعارك خلال حرب عام 1812.

ثمة حادثة أخرى وجهت اهتمام البريطانيين إلى عالم السلطان سعيد الجزيري؛ وهي الوصول المفاجئ للسفينة «ليفربول» ذات المدافع الأربعة والسبعين إلى نهر التايمز. وقد قادها في الرحلة إلى لندن الكابتن روبرت كوجان، كبير ضباط بحرية بومباي الذي تحرك لمساندة الكوماندر هوكنز، عندما اتهم بشراء الفتية العبيد من أفريقيا. وقد تقاعد كوجان من الخدمة بعد عشرين عاماً في الهند، وعمل في صفوف بحرية السلطان سعيد الذي دعاه «كوجيم خان». وأعلن الكابتن أنه تلقى أوامر ببيع السفينة عصية القيادة التي عهد إليه بها بعد تفكيكها؛ إذا لم يتقبلها الملك وليم الرابع كهدية من السلطان. وأخيراً وبسبب ترددها بين احتمال إغضاب السلطان إغضاباً شديداً، واحتمال المخاطرة بالحد من حرية النشاط البريطاني في التعامل معه، قبلت الحكومة الهدية مع إظهار امتنانها، وهي هدية كان يمكنها الاستغناء عنها في زمن السلم.

أعيدت تسمية السفينة «ليفربول» لتحمل اسم «الإمام» تكريماً للقب الذي يحمله السلطان سعيد، ثم ردت بريطانيا الهدية بإرسال يخت يحمل اسم «برنس ريجنت» إلى زنجبار. وبادر السلطان مسرعاً بإرسال اليخت إلى الحاكم العام للهند، قائلاً إنه ليس من المناسب بالنسبة إليه كمسلم، وذلك بسبب قطع الأثاث المسيحية الفخمة الموجودة به، فلم يكن أحد قد لاحظ قبل إرسال «برنس ريجنت» إلى المحيط الهندي، أن التنجيد في القمرات قد استخدم فيه جلد خنزير (وعلى أي حال فقد كان اليخت سفينة مبهرجة على نحو سقيم الذوق)[2].

على الرغم من بعض اللحظات الصعبة، ووجود القنصل الأمريكي في زنجبار، مضت العلاقات البريطانية مع السلطان سعيد تزداد قوة، وبعد وقت قصير من ارتقاء الملكة فيكتوريا العرش، عاد «كوجيم خان» إلى لندن مصطحباً الشيخ علي بن ناصر الذي جاء باسم سلطانه لتقديم التهنئة للملكة. وتعامل بالمرستون مع هذا الموقف على أنه أقرب إلى تحد دبلوماسي منه إلى أي شيء آخر، وقرر أن الشيخ يتعين استضافته «ضمن حدود معينة» على نفقة الحكومة، حيث إنه كان أحد الوزراء الذين يثق بهم السلطان سعيد. وأعطى لكوجان مبلغ مئتي جنيه استرليني لهذا الغرض مقدماً، ولكنه تم تحذيره من أن عليه أن يقدم حساباً عن هذا المبلغ بصورة مفصّلة[3].

وتم ترتيب زيارة لقصر وندسور في آب/ أغسطس 1838، حيث تناول الشيخ وبصحبته كوجان طعام العشاء على مائدة الملكة الشابة، وأمضى الليلة في القلعة. واستمتع الشيخ بهذه المناسبة استمتاعاً بالغاً إلى حد أنه طلب أن يؤخذ إلى هناك مجدداً ليودع الملكة. وقد امتنع وزير الخارجية البريطاني بحزم عندما سعى كوجان للحصول على مرتبة ممثل السلطان في بريطانيا؛ فذلك لا مجال له لأن الكابتن من رعايا بريطانيا، وقلب بالمرستون الفكرة رأساً على عقب، باقتراح أن كوجان يمكن أن يصبح قنصل بريطانيا في مسقط. ورفض الكابتن المراوغ ذلك قائلاً إن ذلك «سيكون قاتلاً بالنسبة إلى صحته» ثم اقترح بلا طائل أن يتولى أحد أقاربه هذا المنصب، فقد كان طموحه الحقيقي أن يمارس التجارة في زنجبار. وهكذا فقد تناسب الأمر مع خططه، عندما قبل بالمرستون عرضه بعد عدة أسابيع من زيارة وندسور للتفاوض حول معاهدة تجارية مع السلطان سعيد. وحسبما قاله كوجان، فإن الأمريكيين ليسوا هم وحدهم الذين يهدّدون التجارة البريطانية، وإنما الروس يريدون «إرساء أسس التفاهم مع جلالته». وقبل العودة إلى المحيط الهندي ألقى الكابتن خطاباً أمام الجمعية الجغرافية الملكية التي أنشئت حديثاً، وأقنعها بمنح عضويتها الفخرية للسلطان سعيد. ولم يكن ذلك هو البرهان الوحيد على تقدير بريطانيا له، فقد حمل الشيخ علي بن ناصر معه إلى الوطن هدية لمولاه؛ هي عبارة عن صورة للملكة فيكتوريا أهدته إياها.

علق بعض زملاء بالمرستون الآمال على أن كوجان قد يتفاوض في الوقت ذاته على إنهاء تجارة العبيد في شرقي أفريقيا. وكان جوهر النظرية المطروحة بهذا الصدد هو أن «تجارة مشروعة» يمكن أن تحل محل التعامل بالعبيد كمصدر دخل بالنسبة إلى السلطان سعيد، والحكام الأقل شأناً في الإقليم. وألمح كوجان إلى أن سيده الجديد قد يكون على استعداد لوضع حد لهذه التجارة، إذا ما أمكن لبريطانيا أن تعطيه «المعادل المالي» للعائد الذي يحصل عليه منها[4]. وقال كوجان إنه يمكن أن يكون هناك زهاء خمسين ألف أفريقي يمضون عبر سوق زنجبار وحدها كل عام[5]. ومن المؤكد أن تلك كانت مبالغة، ولكنها ستكون لصالح السلطان إلى حد كبير إذا ما صدقتها بريطانيا وقبلت فكرة دفع تعويض، وقد نحّى بالمرستون مسرعاً هذه الفكرة. وفي وقت لاحق نجح أحد

مسؤولي شركة الهند الشرقية في إدخال تعديلات محدودة على معاهدة مورسباي الأصلية المبرمة عام 1822 حول تجارة العبيد، ولكن من الناحية العملية استمر تصدير الأسرى الأفارقة إلى شبه الجزيرة العربية والخليج العربي من دون عائق. ووعد السلطان سعيد بريطانيا بأنه سيعمل على إنهاء هذه التجارة، ولكن عليه أن يتحرك بشكل تدريجي بهذا الصدد، حيث إن «الإعلان العام لمشاعره سيؤدي إلى إثارة الشك في أذهان رعاياه». وإذ رأى بالمرستون إن السلطان سعيد يسيطر على ميناء مسقط الاستراتيجي، فقد كان من الأفضل له بصورة مباشرة أن يبقيه حليفاً في سياسات الخليج المتقلبة.

قصر كوجان جهوده على القيام بوضع نص معاهدة تجارية بسيطة في أيار/ مايو 1839 تعطي لسفن السلطان حقوق الأفضلية في الموانى الهندية، وتضع بريطانيا على قدم المساواة بشكل عام مع الأمريكيين الذين يمارسون التجارة في زنجبار. وكانت معاهدة روبرتس قد سمحت من حيث المبدأ للسفن الأمريكية بأن تحظى بحرية فريدة في التجارة مباشرة مع البر الأفريقي، ولكن على صعيد الممارسة العملية فإنها مضت في شراء العاج والصمغ الحجري والقرنفل في زنجبار، شأن غيرها من السفن. وحرص العرب ومموليهم الهنود على التأكد من إحكام قبضتهم على تجارة شرقي أفريقيا.

من بين كل مشكلات العالم آنذاك، فإن مضايقات زنجبار الصغيرة واصلت شق طريقها إلى مكتب بالمرستون، فقد كان السلطان سعيد قد وعد بأن يرسل للملكة فيكتوريا هدية من الجياد العربية الأصيلة، ولكنها تأخرت في الوصول؛ فاضطر وزير الخارجية بضغط من قصر بكنجهام إلى الكتابة للمجلس الهندي للتساؤل عن وضع هذه الجياد، والتأكيد على ضرورة شحنها إلى إنجلترا من دون إبطاء. وبغض النظر عن هذه الجياد فقد تضايق بالمرستون من مخطط أعده سير توماس فاول بكستون صاحب الحملات المناهضة للعبودية، والذي كان قد ورث مكانة ولبرفورس عام 1821. وقد انشغل بكستون كثيراً بغرب أفريقيا، ولكنه مع ذلك وجد من الوقت ما يكفي للذهاب إلى القول بأن إنشاء مستعمرة بريطانية في الجانب الشرقي من أفريقيا، سوف يؤدي إلى خنق تجارة العبيد العربية، ونشر الحضارة المسيحية بين أبناء المنطقة الأصليين.

لم يفتً في عضد بكستون أن ممباسا اكتسبت سمعة سيئة بسبب إخفاق المبادرة البريطانية فيها، حيث اختارها كموقع مثالي لمشروعه الجديد، وتخيّل الميناء والمناطق المجاورة له باعتباره موطناً استوائياً مثالياً تسوده المسرة والرضا لإنجيليين يعملون بجد، وفي وسعهم زراعة المحاصيل لتصديرها - كالقطن والبن وجوزة الطيب - وكذلك التبشير بالمسيحية. وفضلاً عن ذلك فقد كان جديراً بالملاحظة أن المبشرين البريطانيين قد حظوا بالفعل ببعض النجاح في ذلك الجزء من العالم؛ حيث تغلغلوا في مدغشقر في عشرينيات القرن التاسع عشر، وأقاموا المدارس وترجموا الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية ووزعوا ألوفاً من كتب الصلوات، ولم يوقف عملهم في عام 1835 إلا قيام الملكة رانافولانا بإصدار قانون يقضي بأن أياً من رعاياها يقوم باستخدام «الفنون الجديدة التي أدخلها الأوربيون» سوف يتم إعدامه.

وازداد إيمان بكستون بأن ممباسا أرض أخصب من مدغشقر «للمشروع المقدس» بفضل التشجيع الذي تلقاه من شخص يدعى مونتجومري مارتن، زعم بكستون أنه يعرف عن ممباسا من المعلومات أكثر مما يعرفه «أي إنسان آخر على قيد الحياة». وقد كان مارتن يعمل جراحاً على متن إحدى سفن أوين خلال القيام بمسح الساحل الأفريقي، وليس من الواضح ما إذا كان قد وطئ أرض ممباسا أم لا.

ولكي يحصل بكستون على تأييد الحكومة لمشروعه، قام أولاً بالضغط على لورد جلينيلج وزير المستعمرات، وكان هذا الأخير إنجيلياً، وقد أصغى بتعاطف إلى ما يقوله صديقه الذي لعبت جهوده دوراً كبيراً في وضع حد للعبودية في جزر الهند الغربية[6]. ثم حمل وزير المستعمرات الفكرة إلى بالمرستون الذي اتسمت استجابته بالكآبة، فعلى الرغم من أن وزير الخارجية لم يكن يستسلم لأحد في معرض إبداء ضيقه بالعبودية، فإنه كان رجلاً عملياً على نحو بارز. وبينما كان يحرص على الدوام على الإشارة إلى الرب القدير لإضفاء المهابة على طروحاته، إلا أنه وجد النزوع الذي لا هوادة فيه إلى الدين والتقى من جانب بكستون أمراً مرهقاً.

تختصر رسالة بالمرستون إلى جلينيلج أفكاره التي تتسم بالروح التجارية حول هذا الموضوع :

«لاشك في أن مد نطاق التجارة في أفريقيا هو هدف ينبغي السعي إلى تحقيقه، ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأن مثل هذا المد للنطاق سيكون بمنزلة النتيجة وليس السبب بالنسبة إلى القضاء على تجارة العبيد. . . إننا نريد أن نبيع سلعنا في أفريقيا، ونحن نرسلها إلى هناك. والأفارقة الذين يريدون الشراء سيدفعون لنا بأي طريقة نشاء، وإذا أصررنا على الحصول على العبيد فسوف يقدمونهم لنا، وإذا فضلنا أن تدفع لنا مستحقاتنا على شكل عاج فيلة، فإن العاج سيجمع وسيجهز ليتسلمه تجارنا».

وهو يسخر من أفكار بكستون باعتبارها «هوائية وفجة» مضيفاً أن رئيس الوزراء لورد ملبورن يعتقد ذلك أيضاً ولأسباب وجيهة. وهكذا فإن مشروع ممباسا لم يفض إلى شيء، ومع ذلك فإن بكستون كانت له الجوانب التي يوظف فيها، ففي العام التالي بعث به بالمرستون إلى روما باعتباره مبعوثاً سرياً من الملكة فيكتوريا لدعوة البابا جريجوري السادس عشر للانضمام إلى «العصبة المسيحية» لمناهضة تجارة العبيد. وقد تم كسب البابا إلى العصبة، وأصدر منشوراً بابوياً عاماً حول هذا الموضوع.

غدا جلياً بحلول ذلك الوقت أنه يتعين على بريطانيا القيام بالخطوة الحاسمة المتمثلة في إرسال قنصل إلى زنجبار، وحتى السلطان سعيد فقد أبدى اهتماماً بذلك، وأبلغ بالمرستون في رسالة بعث بها إليه بطبيعة الشخص الذي يريده لشغل هذا المنصب؛ فهو يريد «رجلاً موثوقاً به حكيماً وإنجليزياً أصيلاً». وأضاف أن أي أفراد آخرين يأتون للإقامة في زنجبار أو مسقط ينبغي أن يكونوا كذلك «صادقين تماماً، وإنجليزاً خُلَّصاً». وقد كانت هناك رسالة كتبت بالشفرة بهذا الصدد، حيث إن روبرت نورسورثي أول إنجليزي يرسل للإقامة في الجزيرة كتاجر، قد غادرها مكللاً بالعار بعد عامين، لأنه سرق أموال من قاموا بتشغيله.

لم يكن من اختير لشغل منصب القنصل «صادقاً وإنجليزياً خالصاً» بشكل جلي، فقد كان الكابتن أتكنز هاميرتون أيرلندياً من مقاطعة دبلن، يخدم في صفوف الفوج الخامس عشر من مشاة بومباي الخفيفة. وكان كاثوليكياً في السادسة والثلاثين من عمره، أعزب، قوي البنية، مولعاً بالشراب، لا يكُن الاحترام كثيراً لغير الأوربيين، عصبي المزاج، ينتقل سريعاً من الود الفائق إلى الحنق البالغ، ولكن خلفيته العسكرية

منحته عناداً بالغاً في المفاوضات، ولسوف يبرهن على أنه كاتب رسائل وتقارير إلى رؤسائه لا يعرف السأم ولا التعب.

لقد جاء تعيينه تلبية لإصرار شركة الهند الشرقية على أن شرقي أفريقيا يقع في منطقة سيطرتها السياسية، وأن القنصل ينبغي أن يكون «من ضباط حكومة الهند». وقد عين هاميرتون أولاً في عام 1840 وكيلاً للشركة في مسقط، وفي وقت لاحق فقط قيل له إنه سيصبح قنصل جلالة ملكة بريطانيا لدى بلاط جلالة السلطان سعيد حيثما كان.

تصادف أن هاميرتون تولى مهام منصبه في الوقت الذي تخلى فيه السلطان سعيد بشكل دائم عن مسقط رأسه في شبه الجزيرة العربية؛ فقد كانت مسقط في حالة تمرد مستمرة. وهكذا فقد عهد لابنه الأكبر ثويني بالعناية بها، باعتباره نائب السلطان[7].

شكل هاميرتون والسلطان سعيد ثنائياً بالغ الغرابة، وتداخل مصيراهما على امتداد السنوات الخمس عشرة التي أعقبت ذلك، وكان الكابتن في مجالسه الخاصة يعرب عن كراهيته للعرب، حيث قال عنهم - «ليس هناك شعب في العالم يصعب الحصول على معلومات من أبنائه على هذا النحو» - ولكنه كان حريصاً دائماً على الإشارة إلى السلطان سعيد باعتباره «صاحب الجلالة» أو «الإمام».

اعتمد السلطان سعيد من جانبه على الجاذبية الطبيعية والقدرة على إخفاء أعمق خلجاته، وكان صارماً في التعامل مع بني جلدته، أما مع الأوربيين فقد مال أسلوبه إلى اعتماد الود والسخاء. وكانت الجياد مما يشترك السلطان والقنصل في الاهتمام به. وكانت لدى السلطان حكمة أثيرة مفادها أن: «الوُعَّاظ والنساء والجياد لا يمكن وصفهم بالجودة إلا بعد أن تنتهي أعمارهم». ومع تزايد عمق صداقتهما أصبحا أحياناً ينطلقان بجواديهما على امتداد الشاطئ في الصباح الباكر، حيث إن هذه الجولات أتاحت لهما الفرصة لمناقشة قضايا الساعة من دون أن يستمع أحد لما يقولانه.

غير أن اللقاءات الأولى بين السلطان والقنصل لم تكن واعدة، حيث التقيا في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو عام 1841. وأحس هاميرتون بالضيق عندما بدأ السلطان

سعيد يضيق عليه الخناق بشأن ولائه الخاص، ملمحاً إلى أن القنصل ليس إلا رجلاً في خدمة شركة الهند الشرقية، وليس مبعوثاً أصيلاً من الملكة فيكتوريا.

رد هاميرتون على السلطان سعيد معلناً: «أقول لك الآن ما سبق لي قوله، وهو أن مصالح الملكة والشركة واحدة ليست مختلفة بأي حال من الأحوال، حيث إنها لا سبيل إلى فصل بعضها عن الآخر». ونفى الفكرة القائلة بأن المئات من التجار والحرفيين الهنود الذين يقيمون في زنجبار وعلى امتداد الساحل الأفريقي ليسوا رعايا بريطانيين، فإنهم كذلك وسوف يحظون على الدوام بحماية الملكة، وبما أن الكثير منهم يحقق أرباحاً من خلال تمويل تجارة العبيد فإن عليهم كذلك التزام الحذر من انتهاك قوانين جلالتها. وقد بدا لهاميرتون أن استخدام ما أسماه بـ «النبرة العالية» مع السلطان حول مثل هذه الموضوعات يأتي بالأعاجيب.

أدرك هاميرتون أن أقاصيص تروج ضده من قبل القنصل الأمريكي ريتشارد ووترز، الذي نظر إليه بطبيعة الحال باعتباره يشكل تهديداً له. غير أن بعض الوقت سينقضي قبل أن يتمكن من تكريس تفوقه على ووترز، ويرجع ذلك في أحد جوانبه إلى أن إحدى سفن السلطان، وهي السفينة «سلطانة» قد عبرت مؤخراً المحيط الأطلسي، وعلى الرغم من أن بعض أعضاء الطاقم قد تضايقوا من قيام النيويوركيين الأفظاظ بشد لحاهم، فإن آخرين أقسموا أن أمريكا لابد أن تكون أروع مكان على ظهر الأرض.

بمرور الوقت أدت الزيارات المنتظمة من قبل سفن البحرية الملكية لزنجبار إلى رفع مكانة هاميرتون. وقبل نهاية عام 1841 كان السلطان سعيد يعلن أنه يثق تمام الثقة بممثل الملكة فيكتوريا، وأنه متقبل لمبدأ وضع نفسه «تحت حماية الإنجليز». وتفاخر القنصل كذلك أمام رؤسائه بأنه قد رتب لإزالة الصورتين المعلقتين وراء مقعد السلطان سعيد، واللتين تظهران سفناً أمريكية تلحق الهزيمة بالإنجليز. وزعم أن هاتين الصورتين قد حلت محلهما صورة قدمها للسلطان تظهر الهزيمة التي ألحقتها البحرية الملكية بالأسطول التركي في معركة نوارين في عام 1827 (في حقيقة الأمر أن مبشراً أمريكياً يدعى إبنزر بيرجيس كان قد شاهد لوحتين لمعركة نوارين معلقتين في مجلس السلطان في عام 1839 أي قبل عام من وصول هاميرتون إلى زنجبار).

كان المستشارون العرب المحيطون بالسلطان سعيد أبعد مايكونون عن الاستعداد لأن يستقطبهم الإنجليز، فهم يعرفون أن جانبًا من مهام عمل هاميرتون يتمثل في تضييق أنشوطة مناهضة العبودية حول أعناقهم. ومع ذلك فإنهم لم يبذلوا جهداً يذكر لكي يبعدوا عن ناظريه الدليل على ضروب الوحشية التي تقترف في إطار ممارسة هذه التجارة. وفي غضون أسابيع قلائل من وصول القنصل إلى زنجبار، شرع في الكتابة بمزيد من الانفعال إلى رؤسائه، فقد كان العبيد «في حالة بالغة التعاسة من جراء شدة الجوع والمرض «لدى وصولهم إلى زنجبار بحيث إن بعضهم لم يكن جديراً بعرضه للبيع في المزاد، ولتوفير مكوس الواردات المقدرة بدولار عن كل رأس ألقي بهم على الشاطئ ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة هناك. ولا يمكن في أي مكان من العالم أن يوجد «مثل هذا البؤس وهذه المعاناة الإنسانية». ومع ذلك، فقد حاول هاميرتون على الدوام التماس العذر لـ «جلالة السلطان» قائلاً إنه لو كان السلطان سعيد وكيلاً تجارياً حراً لحلت المشكلة سريعاً.

حركت هذه الرسائل حكومتي بريطانيا والهند، فشرعتا في إمطار السلطان بالمطالبات بإنهاء العبودية في جميع أرجاء إمبراطوريته. ومن ناحية أولى كان مدى ملاءمة هذه المطالب موضع تساؤل، حيث إن تعيين قنصل لدى بلاط السلطان سعيد قد منحه الاعتراف الرسمي من قبل بريطانيا بحسبانه حاكماً لدولة ذات سيادة. ومن ناحية أخرى كان القضاء على العبودية واجباً مسيحياً، نظر البريطانيون إلى أنفسهم باعتبارهم مؤهلين على نحو فريد للقيام به، ولم تترك الرسائل التي بعثوا بها إلى السلطان سعيد مجالاً للشك في ذلك.

كما أدرك السلطان سعيد أنه مازال خاضعاً للحكومة الهندية التي تعززت سلطتها المعنوية كثيراً، من خلال الإنهاء الرسمي للعبودية على امتداد أراضيها في عام 1843 (وقد وضع قوانين الإلغاء توماس ماكولي الذي لقي احتفاء كبيراً به في أواخر عمره، بسبب كتابه الذي يقع في خمسة مجلدات بعنوان «تاريخ إنجلترا»[8] وذلك على الرغم من مقاومة زملائه الإداريين في كلكتا لهذه القوانين). وعلى امتداد عقود تعرض هذا القانون للانتهاك أكثر مما احترم والتزم به. غير أن الحقيقة القائلة بأن ملاك العبيد الهنود

لايتلقون تعويضاً، على أساس أن العبودية تفتقر إلى الوضعية القانونية في شبه القارة الهندية، كانت قد قللت من توقع السلطان سعيد أن تقوم بريطانيا بتعويضه مالياً إذا ما وافق على حظر هذه التجارة.

مع وجود بالمرستون في صفوف المعارضة في أوائل الأربعينيات من القرن التاسع عشر ألفى السلطان سعيد نفسه واقعًا في غمار شبكة مراسلات تثير الضيق مع لورد أبردين وزير الخارجية في حكومة السير روبرت بيل. ووردت مرة واحدة إيماءة إلى أن بريطانيا ربما تعوض السلطان سعيد تعويضًا مالياً لفترة قصيرة، غير أن أبردين طرح بصورة متكررة الحجة المألوفة القائلة: إن الأرباح العائدة من «التجارة المشروعة» سرعان ما تردم الهوة الناشئة من فقدان عائد المكوس المفروضة على العبيد. وكان لهذا الطرح صدى رائع في وستمنستر، لكن الحقائق الواقعية كانت مختلفة تمام الاختلاف في زنجبار، حيث كانت التجارة المشروعة - إذا ضربنا صفحاً عن تجارة العاج - تعنى زراعة القرنفل والذرة والسرغوم* وكذلك قطف ثمار النارجيل (للحصول على لبها المجفف الذي يستخدم لإعداد زيت الطهي) والصمغ الراتنجي لصنع أنواع الطلاء. وكان المهاجرون العرب الموسرون الذين جاؤوا إلى شرقي أفريقيا مع السلطان سعيد بحاجة إلى قوة عمل لا تفتأ تتزايد من أجل مزارعهم، ولم يكونوا يعرفون إلا سبيلا واحداً للحصول على قوة العمل تلك.

تلقى هاميرتون دليلاً صارخاً على الاقتصاد العبودي عندما اتصل به الكابتن كوجان الذي كان قد تفاوض للوصول إلى المعاهدة التجارية، التي وقّعتها بريطانيا مع السلطان سعيد. وكان «كوجيم خان» يدير الآن شركة تجارية في زنجبار، وقد بدأ مشروعاً مشتركاً مع السلطان لإقامة مزرعة لقصب السكر. وكانت مشكلته باعتباره بريطانياً هي أن استخدام العبيد لقطع أعواد القصب جريمة في ظل القانون البريطاني. ومن ناحية أخرى، فإنه لم يكن هناك بالفعل قوة عمل «حرة» في الجزيرة. وعرض كوجان اقتراحاً على القنصل؛ فهو سيقوم بشراء العبيد وتشغيلهم باعتبارهم عبيداً، على أن يضمن

---

* السرغوم: نبات كالذرة يستخرج من بعض أنواعه (الذرة السكرية) عصير سكري وتتخذ من بعضها الآخر مكانس وفراش.

تحريرهم بعد عدد محدد من السنوات. وقد أدان هاميرتون الفكرة في التو، قائلاً إنها لن تؤدي إلا إلى «معاونة الاتجار في العبيد والتحريض على القيام به».

لم يكن هناك ود يذكر بين الرجلين، وأعرب هاميرتون عن شكواه لوزارة الخارجية فيما يتعلق بـ«المغامرين الأوربيين» الذين جاؤوا إلى زنجبار، وبدا جلياً أنه قد أدرج كوجان ضمن هذه الفئة، حيث كتب يقول: «من المحزن حقاً رؤية أمير منحه العلي القدير الكثير من عطاياه، وقد جرى استدراجه وفرض الأمور عليه فرضًا». ومن جانبه ذهب كوجان على نحو مقنع إلى القول بأن هاميرتون يلحق الضرر بالمصالح البريطانية، وقد وصلت هذه الآراء إلى لندن بل إن المجلس الهندي نصح حكومة بومباي بإرسال قنصل جديد (وربما أمكن أن يؤخذ على هاميرتون ولعه بالشراب، وقد صعد ذات مرة في الصباح الباكر إلى متن سفينة فرنسية، ظاناً أنها سفينة بريطانية، خلال رسوها في مرفأ زنجبار، وعلى الرغم من ذلك فقد دعاه القبطان الفرنسي لتناول طعام إفطار جيد). وقد خرج القنصل من هذا الصراع من دون أن يناله شيء، بينما اضطر كوجان إلى إغلاق شركته ومغادرة الجزيرة.

في تشرين الأول/ أكتوبر 1845 فرضت بريطانيا معاهدة جديدة على السلطان سعيد، وسلمت هذه المعاهدة بأنه لايزال من الممكن شحن العبيد من دون عائق في إطار الأراضي الأفريقية التابعة له - في أي مكان على امتداد الشاطئ السواحيلي، إلى زنجبار وغيرها من الجزر الواقعة قبالة الساحل - ولكن للمرة الأولى وعد السلطان سعيد بإيقاف تصدير العبيد من الأراضي التابعة له إلى شبه الجزيرة العربية ومناطق آسيا الأخرى. كما وافق كذلك على أنه سيكون لسفن البحرية الملكية، وكذلك على نحو خاص لسفن شركة الهند الشرقية، الحق في مصادرة أي سفينة مملوكة له أو لرعاياه تضبط وهي تقل عبيداً خارج مياهه الأفريقية[9].

ناضل السلطان سعيد بشدة للحصول على العديد من التنازلات؛ مثل الحق في مواصلة استيراد الخدم من أثيوبيا. وعلى الرغم من أن هذه الحقوق لم تمنح بصورة محددة، فإن بعض مواد المعاهدة قد تركت غامضة بصورة حذرة. وفضلاً عن ذلك، فإنه لم تكن هناك محاولة على الإطلاق لتقييد امتلاك السلطان ورعاياه للعبيد، حيث

كان هاميرتون يعرف إلى أي مدى يمكنه أن يضغط على صديقه الذي يمتلك من العبيد أكثر مما يمتلكه أي شخص آخر في زنجبار.

سرعان ما انكشفت أوجه القصور في المعاهدة الجديدة، حيث أبلغت حكومة بومباي هاميرتون بأن سفن نقل العبيد المنطلقة من زنجبار كانت ماتزال تصل بصورة مستمرة إلى موانئ شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، وتم التعرف على إحداها باعتبارها سفينة يمتلكها السلطان سعيد نفسه. غير أن السلطان سارع إلى الإعراب عن استفظاعه لما يقوم به آخرون ينشطون في مثل هذه المشروعات. وعندما قامت البحرية الملكية بهدم العديد من محاجر الأرقاء الكبيرة في البر الأفريقي إلى الجنوب من كلوة، وصف السلطان سعيد أصحاب هذه المحاجر من الهنود بأنهم «وحوش ضارية». وضرب بعض تجار العبيد بالسياط علناً بين الحين والآخر؛ إذ لم يعد السلطان يشملهم بعين الرضا لأسباب أخرى.

تظهر الرسائل التي بعث بها هاميرتون أنه في بعض الأوقات قد تحلى بالتفاؤل؛ فتجارة العبيد تتقلص وإخلاص السلطان سعيد لم يكن محل شك قط، وهو في أوقات أخرى كئيب ويقر بأنه لم يتم تحقيق الكثير، وأن أبناء السلطان يتحدونه، وأنه ما من ضابط من ضباطه يطيع أوامره بصورة حقيقية.

وكانت رغبة بريطانيا أن يتم القضاء على تجارة عبيد شرقي أفريقيا من منبعها، غير أنه كان هناك على الدوام افتقار للمنطق في هذا الشأن. فأين على وجه الدقة يوجد هذا المنبع؟ لم يكن هذا المنبع في زنجبار ذاتها التي كانت موقعاً للسوق الكبيرة، التي اكتسبت الآن سمعة سيئة بين كل جمعيات إلغاء العبودية الأوربية. كما لم يكن في موان مثل باجامويو (ومعنى الاسم هو «المكان الذي تلقي فيه بالعبء عن كاهلك») المطل على الساحل المواجه لزنجبار، حيث كانت الموانئ مجرد نقاط تجمع للقوافل التي كانت تعود بعد شهور عديدة تقضيها في قلب أفريقيا بصفوف من السجناء المصفدين الذين يحملون أثقالاً من العاج. فمن أين يجيء العبيد إذاً؟ لدى التحقيق معهم تحدثوا عن جبال وأنهار وبحيرات نائية، ولكنهم عجزوا عن وصف الطرق التي اقتيدوا عبرها إلى البحر. واختار العرب والسواحيليون الذين سيطروا على القوافل ألا يكشفوا الكثير

من الحقائق والأسرار. وبدا جلياً أن معدل وفيات العبيد في هذه الرحلات البرية يعادل في الارتفاع نظيره على متن سفن نقل العبيد.

على الرغم من أن الفضول مضى يتعاظم حول داخل شرقي أفريقيا في أوربا، وبصفة خاصة في دوائر لجان الاستكشاف التابعة للجمعيات الجغرافية الموقّرة، فإن هاميرتون والأوربيين المقيمين في زنجبار الذين لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليد الواحدة لم يكونوا يميلون إلى المغامرة بالتوغل في البر الأفريقي، فقد تأكدوا أنهم لن يكونوا موضع ترحيب هناك، وفضلوا الاعتماد على الأقاويل التي قد يتمكنون من تجميعها وهي تتردد غير بعيد عنهم.

غير أن موقفاً إيجابياً على نحو مميز اتخذه المبشر الأمريكي أبنزر بيرجيس الذي توقفت سفينته في زنجبار في أيلول/ سبتمبر 1839[10]. وكان في طريقه للتبشير في الهند، ولكن الفضول تملكه بشأن «القارة السوداء»؛ فأمضى بعض الأيام في التحقيق مع تجار من شعب النيمويزي الذي يقع موطنه قرب «بحيرة داخلية كبرى» بعيدة عن الساحل، وقد دعاهم بـ«المانوموازيين». وقد التقى الكابتن توماس سمي بهم قبل ثمان وعشرين سنة ودعاهم بـ«المينهاميزيين». وخلص بيرجيس إلى أن «المانوموازيين» هم «أغنى القبائل وأكثرها دأباً في ذلك الجزء من أفريقيا». وتحادث مع مجموعة منهم كانت قد أقبلت إلى الساحل لإبرام معاهدة مع السلطان، حول ضمان الأمان على امتداد الطرق التجارية. وكان لبعض الرجال ثمانون زوجة وأربعمئة عبد. «تقوم النساء بأداء العمل، أما الرجال فإن الواحد منهم يعمل إلى أن يحصل على ما يكفي لابتياع زوجة ثم لا يعود يعمل إلا في التجارة والقتال». وقبل أن تنطلق سفينة المبشر إلى بومباي مجدداً أتيحت له الفرصة للقاء مجموعة أخرى من «المانوموازيين». وسجل الكلمات الأساسية المتداولة في لغتهم والأعداد التي يستخدمونها حتى ما يعادل رقم عشرين، وعندئذ ضجروا، وكتب يقول: «سرّيت عنهم وقتاً قصيراً، عن طريق قياس طولهم وفحص حليهم. . . إلخ، ولكنهم سرعان ما تركوني».

طرح بيرجيس كذلك أسئلة على عرب من قافلتين تجاريتين أرسلهما حديثاً إلى الداخل الأفريقي السلطان سعيد. وكانت إحدى القافلتين، بعد السير لمدة خمسة

وأربعين يوماً، قد وصلت إلى منتصف الطريق المؤدي إلى «البحيرة الداخلية الكبرى». وألمح السلطان إلى أنه قد يسمح للرحالة البيض الراغبين في الإلمام بالداخل الأفريقي بالالتحاق بهذه القوافل. وقد تحمس بيرجيس لهذه الفكرة، وأعرب عن أسفه لأن قافلة كانت قد انطلقت قبيل وصوله مع زملائه المبشرين بوقت قصير للغاية: «لو أننا وصلنا في الوقت المناسب؛ لفكرنا في أن نرسل واحداً منا مع القبيلة، حيث إن ذلك لن يكبدنا شيئاً إلا خسارة الوقت».

أثرت زنجبار في نفس بيرجيس، باعتبارها «نقطة يمكن انطلاقًا منها معرفة الجانب الشرقي من أفريقيا». ولم يخفه الطقس على الإطلاق. «وعلى الرغم من أن الطقس كان قاتلاً تماماً بالنسبة إلى الفرنسيين، فإن الإنجليز والأمريكيين قد تمتعوا بصحة طيبة. وبالطبع فإن التزام الحرص هنا أكثر مما يتم التزامه في نيو إنجلاند، وسيكون أمراً ضرورياً». غير أن البوسطني اللامبالي اضطر إلى مواصلة الإبحار إلى بومباي، من دون أن يضع نزعته المتفائلة موضع الاختبار، ولسوف يترك لضابط فرنسي بحري شاب أن يقوم بالمحاولات الأولى لاختراق مجاهل شرقي أفريقيا.

الفصل السادس والأربعون

نذر التغيير في «البحيرة الإنجليزية»

إننا نعتبر الاتصال بالهند باستخدام الطاقة البخارية، على نحو ما هو قائم في هذه اللحظة، يقدم أحد التجسيدات الفذة لعظمة بريطانيا العظمى.

ليتش رايتشي - العالم البريطاني في الشرق (1847)

لم يتجاوز الملازم أول بحري يوجين ميزان صدر العشرينيات من عمره عندما سيطرت عليه رغبة في إحراز المجد لفرنسا. وباعتباره ضابطاً في بداية السلك العسكري من ضباط الحراقة الفرنسية «دوردوني» فقد ألم ببعض المعلومات عن المحيط الهندي، من خلال زياراته لمدغشقر وريونيون وشبه الجزيرة العربية، ولكن شرقي أفريقيا هو الذي أثار خياله. وكان طموحه متميزاً، شأن خلفيته العامة، فهو ابن غير شرعي ولد في مونتوبان بجنوب غربي فرنسا، ولكنه شق طريقه إلى كلية التقنية «الإيكول بوليتكنيك» في باريس، وهناك وصف بأنه فتى عابث، ومشوش الذهن، وشخصيته «محيرة» ولكنه تخرج بأرفع الدرجات، والتحق بالبحرية الفرنسية.

عندما راودته فكرة أن يصبح مكتشفاً، أقدم في جسارة على الكتابة للأمير دي جوانفيل، الابن الثالث للملك لويس فيليب. وتأثر الأمير الذي كان هو نفسه ضابطاً بحرياً بالفكرة، وحوّل رسالة ميزان إلى وزارة البحرية والمستعمرات. وبهذا التأييد الملكي غدا الملازم أول بحري يوجين ذو المنبت المتواضع قوة لا سبيل إلى إيقافها. وفي 23 نيسان/ إبريل عام 1844، وصف القسم السياسي والتجاري بالوزارة هذا المشروع بأنه «مناسب للغاية». فمع تكريس الإنجليز لوضعهم في مدخل البحر الأحمر والكاب، فإنه يتيح فرصة لفرنسا لتكريس وضعها واستغلال ثروات شرقي أفريقيا.

على النحو ذاته كانت رسائل ميزان التي بعث بها من قاعدة بريست البحرية، حيث تنبأ بأن رحلته إلى قلب أفريقيا ستستغرق منه عامين، وتجلب عوائد لا حصر لها، ونجح

في المطالبة بالحصول على جميع الأدوات العلمية وكذلك على تمويل سخي، وبحلول حزيران/ يونيو عام 1844 كان في طريقه للقيام بمهمته.

وصف الكابتن شارل جويليان قائد السفينة «دوردوني» الملازم أول بحري يوجين ميزان، وهو خريج أكاديمية متميزة في باريس، بأنه «ذكي، وعلى قدر رفيع من التعليم، وشجاع»[1]. وبالنسبة إلى مثل هذا الرجل كانت هناك قدوة تحرك خياله، تمثلت في المستكشف الفرنسي رينيه كاليه الذي كان قد سافر في عشرينيات القرن التاسع عشر متنكراً عبر الصحراء الأفريقية إلى تمبكتو، وجعلت منه مغامرته هذه بطلاً قومياً.

هكذا وصل ميزان في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1844 إلى زنجبار، على متن إحدى سفن فرنسية ثلاث، قدمت من جزيرة ريونيون. وكانت هذه المجموعة البحرية تحت قيادة الكابتن رومان ديفوسيه، الذي تم تخويله سلطة توقيع معاهدة تجارية مع السلطان سعيد وتعيين قنصل لفرنسا في الجزيرة. ولم يكن ذلك إلا أحدث مثال على الكيفية التي يقوم بها الفرنسيون وسط استياء عارم من قبل البريطانيين، بشق طريقهم عائدين إلى المحيط الهندي بعد غياب دام ثلاثين عاماً. وسرعان ما تم الاتفاق على إبرام المعاهدة، واتخذ القنصل بروكون مقراً له، ورفع العلم ثلاثي الألوان على شرفته. وأطلقت المدافع تحية له على النحو التقليدي، ثم رحلت المجموعة البحرية الفرنسية، وبدأ ميزان في إعداد خططه، ومن نافذة القنصلية كان في استطاعته أن يحدِّق عبر البحر إلى البر الأفريقي.

عندما بلغت أنباء المعاهدة فرنسا مضت الجمعية الجغرافية التي تتخذ من باريس مقراً لها تفرط في الثناء على مزاياها، سواء على الصعيد التجاري أو في مجال الاكتشاف؛ فقد كانت أقل المعلومات التي ترد عن شرقي أفريقيا بمنزلة جائزة كبرى، ومن شأن المستكشف الأول، الذي «يحمل شعلة العلم الأوربي إلى هذه البلاد البربرية» أن يجد مجالاً رحباً وجديداً للملاحظة والتأمل.

ربما كان ميزان قد بدأ في الشعور بأن كاهله مثقل بعبء واجبه نحو فرنسا، وربما كان يدقق أكثر مما ينبغي في ترتيباته، ومن المؤكد كذلك أنه قد تناهت إلى سمعه روايات

رهيبة من السكان البيض القلائل المقيمين في زنجبار حول الأخطار التي تنتظره. وأياً كانت الأسباب فقد تلكأ حتى منتصف عام 1845، من دون أن يتحرك حركة واحدة باتجاه البر الأفريقي، متيحاً بذلك وقتاً مناسباً لزعماء القبائل، لتصلهم الرسائل بأن رجلاً أبيض في الطريق إليهم ليمر عبر أراضيهم.

وعندما شعر السلطان سعيد بعدم الارتياح حيال احتمال وقوع كارثة في أراض كان قد أعلن سيادته عليها، فقد عرض على الضابط الفرنسي إمداده بمرافقين مسلحين لاصطحابه في رحلته، غير أن ميزان رفض قبول هذا العرض بدافع «الشك أو التهور» (على نحو ما كتب قائده السابق جويليان في وقت لاحق). وبدا لبعض الوقت أنه «لم يقرر بعد المضي قدماً بمشروعه أو التخلي عنه». وكان يستطيع مرافقة قافلة عربية تمضي إلى الداخل لكن الفرصة فاتته. ثم وصلت أنباء تفيد أن سفينة تابعة للبحرية الفرنسية تقترب من زنجبار، وفجأة استبد الخوف بميزان من أن تأخره ربما انعكس سلباً على شجاعته وشرفه، فسارع إلى المغادرة بمركب صغير باتجاه البر الأفريقي، تاركاً أوامر بجلب متاعه واللحاق به.

مضى ميزان مع خادمه المالاجاشي وعدد محدود من الحمالين السواحيليين شاقاً طريقه إلى الداخل الأفريقي بصحبة تاجر هندي يدعى موسى بضعة أيام، ثم افترقا، حيث أعلن الضابط الفرنسي أن في استطاعته العناية بنفسه، وسلك طريقاً متعرجاً، طوال عشرين يوماً، إلى أن وصل إلى قرية في غابة كثيفة يطلق عليها اسم «نجة المهولو» أو «الطائر في العش». وتوقف انتظاراً لوصول أمتعته. وإذا قيس موقعه في خط مستقيم، فإنه كان لايزال على مبعدة ثلاث مسيرات من الساحل. وكتب ميزان رسالة «مفعمة بالشجاعة» وبعث بها إلى القنصل بروكون. وفي تلك الليلة وسط صوت متصاعد لقرع الطبول، هاجم زعيم ثانوي يدعى هيمبي الضابط الفرنسي وقتله بمخنقة حديدية، وقطع جسمه إلى أشلاء صغيرة[2]. وعقب ذلك بوقت طويل، قال هيمبي إن عملية القتل لم تكن فكرته وإنما أمره بتنفيذها أبوه وهو أحد مسؤولي السلطان سعيد على الساحل.

عندما وصلت تقارير عن مصير ميزان إلى زنجبار، بعث القنصل برسالة عاجلة مع أول سفينة مبحرة إلى ريونيون. وفرض الفرنسيون ضغطًا كبيرًا على السلطان سعيد لكي يبادر إلى القبض على الجناة ويعاقبهم، وعندما ذهب إلى القول إن الموضع الذي لقي فيه الضابط الفرنسي حتفه يقع خارج نطاق سيطرته، هددوا بارسال مجموعة بحرية إلى الشاطئ لإنجاز هذه المهمة. وبفضل قدرة السلطان سعيد التي صقلتها التجارب على إخفاء أعمق خلجات نفسه، أعلن أن ذلك سيكون من دواعي سروره، ولكنه بدأ في وقت لاحق يتساءل عما إذا كان الفرنسيون جادين فيما قالوه. وكان يعرف أنه ليس في استطاعته تقبل مثل هذه الإساءة، وبعث بقوة قوامها عشرون رجلاً من رجاله إلى البر الأفريقي. وقامت هذه القوة باكتساح بعض القرى، ولكن هيمبي هرب إلى الغابة. ولم يؤسر إلا الرجل الذي قرع طبل الحرب في تلك الليلة المشؤومة، وأحضر إلى زنجبار وعلى امتداد عامين تم تقييده بالأصفاد في العراء قرب القنصلية الفرنسية، ثم قيّد إلى مدفع قديم في السجن السلطاني لمدة ثماني سنوات لقي حتفه في نهايتها.

كان مصرع ميزان نكسة للطموحات الفرنسية في شرقي أفريقيا على الأقل، كما أنه أضر بالسلطان سعيد لكونه أوحى بتقلص سلطته المفروضة على البر الأفريقي. وحقيقة الأمر أن الحكام المستقرين في الشريط الساحلي بشكل مباشر كانوا على استعداد لتلقي الأوامر من السلطان سعيد (فقد كانوا يذكرون جيداً وضع المزاريع في ممباسا) ولكن اليد العليا وراء ظهورهم في الداخل الأفريقي كانت للقوى التقليدية. ولم يرد حاكم زنجبار إنشاء إدارة فعالة يمكن أن تضع أي جزء من البر الأفريقي تحت سيطرته. وكان يتصرف بهذا الصدد نحو شرقي أفريقيا على نحو ما فعل العرب على امتداد ألف عام، ولم يسع إلى امتلاك الأرض قط، ولم يهتم إلا بالتجارة. وقد كان هذا موقفًا ستدفع عائلته المالكة ثمنه غالياً في آخر الأمر[3].

كانت زنجبار ما تزال نقطة نائية إلى جوار قارة مجهولة لم تمتد إليها يد الاستكشاف، وهكذا لم تصل إلا روايات متناثرة عن مصرع ميزان إلى أوربا، وسرعان ما تراجعت ذكرياتها بعيداً عن الأذهان. وعلى الرغم من ذلك فقد ساعد مصرعه على دفع

حكومتي بومباي ولندن باتجاه «سياسة المضي قدماً» على نحو أكبر في شرقي أفريقيا. فمع الخوف من الفرنسيين واستمراره على قوته المعهودة، حرصت الحكومتان على كبح جماح انطلاق هذا العدو التقليدي، ذلك أن المصالح الفرنسية مضت تطل برأسها بصور ملحوظة، بل وأشارت إلى أن القارة هي مكان يمكن إرسال السكان غير المرغوب فيهم إليه. وبعد وقت قصير من الانتفاضة الثورية لعام 1848، ألح العالم الفرنسي فولنس فريسنل بالتساؤل على جمعية باريس الجغرافية، بقوله: «بينما تستغل إنجلترا العالم بأسره، لماذا لا يفكر الفرنسيون إلا في الشجار حول استغلال فرنسا؟ إنهم لا يعرفون أن أفريقيا يمكن أن تقدم مملكة لكل بروليتاري!»[4].

كانت هناك جدائل أخرى في حبل المصالح المتشابكة الذي يجذب البريطانيين نحو «سياسة المضي قدماً»، فقد أقروا بالحاجة إلى التعجيل بوضع حد للعبودية، وكانت هناك رغبة في توسيع الحضور التجاري البريطاني في أفريقيا بصفة عامة. فقد عاشت بريطانيا وازدهرت من خلال بيع منتجاتها الصناعية للإمبراطورية ولبقية العالم، على نحو ما تم إيضاحه للستة ملايين زائر الذين زاروا «المعرض العظيم» الذي أقيم في العام 1851. ودعا بالمرستون الذي عكست مواقفه طابع العصر في العديد من الجوانب، إلى تبني وجهة النظر القائلة بأن أفريقيا في استطاعتها توفير أسواق جديدة لمنتجات مصانع بريطانيا ومعاملها.

بالطبع كان الكثيرون يتشككون في جدوى الانغماس في القارة؛ فمناخها قاتل، وكان غرب أفريقيا على وجه التحديد يعتبر معادياً لأوربا على نحو لا يطاق. وكما يقول بيتا الشعر الشهيران، فإنه:

كن حذراً، وتجنب أنشوطة بنين،
فمقابل كل شخص يفلت منها، هناك أربعون تطبق عليهم.

كانت أكثر وجهات النظر حدة هي تلك التي تبناها سير جيمس ستيفن، الوكيل الدائم لوزارة المستعمرات، الذي كتب يقول: «لو سيطرنا على تلك القارة بأسرها لما فزنا إلا بأرض لا قيمة لها». وحذر أنه سيكون من المستحيل استعمار أفريقيا «من دون

الاحتكاك بالعديد من القبائل المحبة للحرب وتوريط أنفسنا في نزاعاتها وحروبها وعلاقات كل منها بالأخرى»[5].

غير أن السلطات في الهند لم يكن لها بعد أدنى اهتمام باستعمار أفريقيا الاستوائية، وكل ما أرادته هو التأكد من أن بريطانيا ستحكم قبضة أقوى على ناصية تجارتها. وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت قيمة صادرات زنجبار تبلغ حوالي مليون دولار فضي سنوياً، تحصل أمريكا على ربعها، وتحصل بريطانيا على أقل من ذلك قليلاً، وتحصل فرنسا على 12٪ وألمانيا على 10٪. وكانت الأرباح التي يمكن الحصول عليها وبصفة خاصة من العاج مرتفعة بصورة ملموسة. وقد طرد الأمريكيون كذلك الأقطان الهندية كلها تقريبًا من سوق شرقي أفريقيا ليحل محلها نوع من الشيت الخشن الشديد التحمل ينسج في نيو إنجلاند ويعرف باسم «الميريكاني»[6].

أدرك الأمريكيون من جانبهم الخطر الوشيك، وكانوا يتشككون بشدة في التأثير الذي يحظى به أتكنز هاميرتون القنصل البريطاني الذي شغل هذا المنصب طويلاً، في السلطان سعيد. وفي تموز/ يوليو 1850 تلقى وزير الخارجية الأمريكية دانيل وبستر رسالة مطولة بعث بها تشارلز وارد، الذي شغل منصب القنصل الأمريكي في زنجبار خلفاً لريتشارد ووترز، حول وضع التجار الهندوس في شرق أفريقيا، جاء فيها:

«الآن تعترف بريطانيا بهذا العدد الكبير من الأفراد الذين يمارسون كل أنواع الأعمال تقريباً في زنجبار والساحل الأفريقي، باعتباره من رعاياها، لا اقتناعاً منها بذلك وإنما في ظل الضوابط المفروضة. ويشعر التجار الأمريكيون بأن الأوان قد آن ليعرفوا ما إذا كان زعم القنصل البريطاني بأن هؤلاء الأفراد من رعايا بريطانيا العظمى، صحيح وقانوني من عدمه. وهم يتشككون في صحته. فإذا كان الأمر كذلك فإن القنصل البريطاني، نظراً لوجود كل التجار [الهندوس] طوع أمره، لا بد أنه يملك من السلطة ما يفوق ما يملكه السلطان نفسه».

على الرغم من أن تحليل هذه القضايا كتابة لم يكن سهلاً على وارد، فإنه واصل العودة إليها في رسائله ووصل إلى جوهر الموضوع في رسالة بعث بها إلى واشنطن

خلال وجوده في عطلة في بلدة كينبنكبورت في آذار/ مارس 1851، حيث يقول: «إن مخاوف السلطان تستغل في يسر تام من قبل القنصل البريطاني، وإذ يعرف السلطان قوة إنجلترا وسياستها الاستحواذية في الهند، فإنه يحس بالتخوف على الدوام من المخططات التي يتم تدبيرها لممتلكاته في القارة. وليس القنصل البريطاني أثيراً لدى السلطان، لكن هذا الأخير يخشى من الإساءة التي قد يوجهها له، بحيث إنه يلزم الحذر الآن أكثر من أي ظرف آخر».

يمضي وارد ليصف مخاوف عرب زنجبار من أنه عندما يتوفى السلطان المريض سيقرر البريطانيون من الذي سيخلفه. ومنذ ذلك الحين فصاعداً ستفرض الحماية على الجزيرة «يتبين مما سمعته ومن الحوارات العديدة التي أجريتها مع القنصل البريطاني، أن سياسة الحكومة البريطانية هي الاستيلاء في يوم غير بعيد على الساحل الشرقي لأفريقيا». وإذا حدث ذلك، فإن إنجلترا ستكسب «تجارة ثمينة ومزدهرة» و«الموارد الهائلة للداخل الأفريقي»[7].

كان تقدير وارد للموقف أقرب إلى النبوءة، كما كان صحيحاً كذلك أن السلطان سعيد صار بمنزلة الألعوبة في يد الإنجليز يدير ما أصبح بلغة الراج «دولة تابعة» وكان لدى عرب زنجبار أساس للتخوف مما سيحدث عندما يتوفى السلطان سعيد، في ضوء «سياسة الاستحواذ» التي تتبعها بريطانيا، والتي تبدو جلية الآن في الهند. فقد كان الحاكم العام ذو النزعة التوسعية لورد دالوسي يطلق العنان للمبدأ الذي قال به، وهو مبدأ «الضم بالتقادم» فإذا كان هناك نزاع على شخصية من يرث السلطة في دولة تابعة، فإن البريطانيين يبادرون إلى ملء الفراغ عن طريق ضم هذه الدولة إلى ممتلكاتهم[8].

وكان دالوسي هو الذي وضع في جيبه ماسة «كوة النور» رمز النزعة القومية السيخية بعد ضم البنجاب، وبعث بها إلى الملكة فيكتوريا لتزين بها تاجها الإمبراطوري. وكان المزاج المواكب لنزعة الانتصار والاعتقاد بأن في وسع بريطانيا أن تفعل أي شيء في ذروته، كما لخصه المؤلف ذائع الصيت ليتش رايتشي في عام 1847 بقوله: «تأتي بريطانيا العظمى في مقدمة الأمم الغربية، حاملة أكثر الصولجانات التي رآها العالم كبرياء، والذي تحمله يدان نسائيتان رقيقتان، على نحو يفوق في سهولته إمساك

الإسكندر بصولجان الإغريق. ويندرج في رعايا ملكة الجزر البريطانية سُبع البشر، وتمتد أراضيها إلى ما يزيد عن سبع الكرة الأرضية».

نشأت هذه الكبرياء بفضل الإنجازات في المحيط الهندي ومناطق تتجاوزه؛ مثل استعمار أستراليا، وتنازل الماوري عن نيوزيلاند في عام 1840 ونمو سنغافورة. ومن المهم على نحو مماثل قهر بريطانيا للرياح الموسمية من خلال إحكام سبل اتصال الإمبراطورية في الشرق. فمثلما غيرت قوة النيران البرتغالية عالم المحيط الهندي في القرن السادس عشر، أوشكت الطاقة البخارية البريطانية في القرن التاسع عشر أن تكتسح أنماطاً للسفر تعود إلى ما يزيد على ألفي عام. ولم تختف الأشرعة من المحيط بين عشية وضحاها، ولكن هدير المحركات البخارية المنتظم في مواجهة الرياح الموسمية قد غدا صوت العصر الجديد.

وقد قامت سفينة بخارية صغيرة تدعى «هيوليندساي» في عام 1829 برحلة رائدة من السويس إلى بومباي، وبعد عشر سنوات أدخلت شركة الهند الشرقية في الخدمة العديد من السفن الأكبر حجماً، والتي دفعت الخزانة البريطانية 50٪ من تكلفتها، وقامت بحرية بومباي بتشغيلها، وكان في استطاعتها كذلك أن تخدم كسفن حربية في الخليج العربي. وعلى الرغم من أن معظم الحمولة التجارية كانت لاتزال تنقلها السفن الشراعية بالدوران حول رأس الرجاء الصالح - وهي رحلة تستغرق ستة أشهر- فإن إدخال السفن البخارية في الخدمة في الرحلات بين السويس وبومباي كان يعني الآن أن الهند يمكن الوصول إليها من لندن على مدار العام في وقت لا يتجاوز أربعين يوماً. وغدت الرحلة الصحراوية التي كانت ذات يوم بطيئة ومتربة أسهل من ذي قبل بفضل الجهود البريطانية بين الإسكندرية والسويس، بينما تتم بقية الرحلة - عن طريق سفن بخارية عبر القناة الإنجليزية والقطارات عبر الأراضي الفرنسية والسفن السريعة إلى مصر - وفق جداول زمنية دقيقة.

حدث هذا التحول على نحو سريع استجابة لمطالبات من جانب التجار البريطانيين في الأراضي الواقعة تحت الحكم البريطاني أو الراج، على الرغم من أن مؤيدي طريق رأس الرجاء الصالح لم يستسلموا بسهولة. ففي عام 1839 قام مهندس يدعى هنري

وايز – وهو أحد المعجبين بالسفن التي تسير بدفع الرفاصات الخارجية كما تحدث عنها الكاتب هيرمان ملفيل – بتأليف كتاب يذهب فيه إلى القول إن طريق السويس لا يمكن الوثوق به بسبب «تقلّب حكام مصر». وقال وايز إن من الأفضل الالتزام بطريق رأس الرجاء الصالح مع استخدام سفن شراعية تساعدها محركات بخارية والرفاصات الخارجية التي كانوا يتباهون بها. وكان التغلب على هذه المشكلة «موضوعاً جديراً بأن نبذل فيه قصارى جهدنا وأن نوظف فيه تلك الموارد الكبيرة التي تتمتع بها الأمة البريطانية بفضل بركات العناية الإلهية»[9].

غير أنه في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر انتهى هذا الجدل تماماً، فالرحلة إلى الهند لم تعد تستغرق الآن إلا شهراً، وتم قياس زمن رحلة الذهاب من السويس إلى كلكتا بالاستعانة بسفن شركة الملاحة البخارية لشبه الجزيرة والشرق فوجد أنه يبلغ على وجه الدقة 523 ساعة وزمن رحلة العودة 543 ساعة. وكانت الشركة عرضة لمطالبتها قانوناً بدفع غرامات عن «كل الأعطال غير الضرورية». وتمثل التنازل الوحيد الذي تم تقديمه في مواجهة الرياح الموسمية في إضافة 120 ساعة إلى توقيت رحلة العودة في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو وتموز/ يوليو. ونظمت رحلات كل أسبوعين لنقل الركاب والبريد من السويس إلى الهند وسنغافورة، ثم إلى هونج كونج التي استولت عليها بريطانيا بعد «حروب الأفيون».

عقدت بريطانيا العزم في المقام الأول على الاحتفاظ بالسلطة في البحر الأحمر الذي غدا الآن الشريان الحيوي للمواصلات. وقد ظهر هذا التصميم جلياً في وقت مبكر من عام 1839، عندما تم قصف عدن وإجبارها على الخضوع لشركة الهند الشرقية. وكانت هناك في ذلك الوقت اقتراحات بوضع عدن تحت السيطرة الرسمية للسلطان سعيد، لكن بالمرستون اعترض على هذه الفكرة بشدة فأجهضها، فقد أراد أن تكون عدن بريطانية على نحو حصري؛ لضمان أنه ما من قوة أخرى يمكنها الاستيلاء عليها وتهديد الطريق الجديد. وكان ميناء عدن كذلك يقع في موقع مثالي لتحويله إلى محطة لإمداد السفن البخارية بالفحم، حيث يقع في منتصف الطريق بين السويس وبومباي.

نُظرَ إلى هذه الوسيلة الجديدة للمواصلات مع الشرق باعتبارها برهاناً على البراعة الفيكتورية. واعتقد سير روبرت جرانت حاكم بومباي أن السفن البخارية ستسمح لبريطانيا بالحفاظ على نفوذ متواصل في أماكن كانت في السابق بعيدة عن متناولها، خلال فترات هبوب الرياح الموسمية. ومن خلال قهر الظروف الجغرافية أصبحت الحياة في الهند «متحضرة» بالنسبة إلى الإداريين البريطانيين وضباط الجيش وزوجات الموظفين، فقد أصبح الوطن فجأة قريباً للغاية، وبدا أنه ما من شيء يمكن أن يعكر صفو هذا الانتصار الجليل، إلى أن غشيه ظل منافس أوربي آخر بصورة صارخة.

اكتسب كل العداء البريطاني لفرنسا قوة دفع جديدة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1854 عندما منح سعيد باشا خديوي مصر لفرديناند ديلسيبس امتياز حفر قناة عبر برزخ السويس تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر. وأطل شبح من الماضي غير البعيد برأسه، ذلك أن نابليون نفسه كان قد تلاعب بهذه الفكرة ذاتها. والآن اشتهرت القاهرة مجدداً بأنها تموج بحشود من الفرنسيين والأجانب من الجنسيات الأخرى الذين شاع أنهم يقومون خلسة بعمليات مسح لموان في البحر الأحمر. ودارت شائعات حول أن فرنسا تدبر للاستيلاء على ميناء بربرة المواجه لعدن. وكان بالمرستون من خصوم مشروع القناة المتشددين؛ حيث وصف بأنه «مراوغ وخال من الإبداع».

أوجز إرنست رافنشتاين الزميل الألماني المولد للجمعية الجغرافية الملكية الخطر المتصور، على نحو مبالغ فيه؛ بقوله: «إن المخطط الذي عقدت فرنسا العزم على تنفيذه هو تأسيس إمبراطورية في بحار الشرق لمنافسة الهند البريطانية، إن لم يكن التفوق عليها، وهي الإمبراطورية التي تشكل مدغشقر مركزها. وعبر برزخ السويس يمضي أقصر طريق من جنوبي فرنسا إلى مدغشقر (والهند) وبالتالي فإن امتلاك هذا الطريق، من قبل قوة ترغب في مد نطاق ممتلكاتها في ذلك الاتجاه، وقادرة على الاستعانة بمزاياه، ستكون له أوخم العواقب. ومجرد كون البرزخ جزءاً من الإمبراطورية التركية أو من مصر لن يردع فرنسا عن احتلاله، ذلك أن تلك الأمة لا تسمح لاعتبارات الضمير بالتدخل في أفكارها السياسية»[10].

وبالنسبة إلى القائلين بنظرية المؤامرة من أمثال رافنشتاين، فإن القناة المقترحة والسيطرة الفرنسية المتزايدة على مدغشقر، بل ومحاولة «ميزان» سيئة الطالع للتوغل في شرقي أفريقيا، تعد كلها جزءاً من خطة شاملة وضعتها باريس. وقد آن الأوان للسلطة البريطانية لأن تقوم بعرض جديد.

الفصل السابع والأربعون

السير على خطوات مبشر

إن العالم مدين لشجاعة ذلك الرجل الشهم ودأبه وحماسه التبشيري بفتح ساحل شرق أفريقيا الذي كان موصداً على نحو محكم تقريباً . . . وينبغي أن يبقى للدكتور كراف شرف ارتياد ذلك الطريق .

تشارلز نيو - حياة وجولات وأعمال في شرقي أفريقيا (1874)

كانت طبيعة دكتور لودفيج كراف أبعد ماتكون عن نوعية الأشخاص الذين يحب أن يختلط بهم ريتشارد بيرتون[1]، ضابط الجيش الهندي الشاب الخليع . ولكن لدى سماع هذا الأخير بأن المبشر والمستكشف الألماني كراف موجود في القاهرة سعى بإصرار لمقابلته . وعلى الرغم من أن بيرتون كان قد عاد لتوه من رحلة حافلة بالمخاطر إلى مكة والمدينة بعد دخول شبه الجزيرة العربية متنكراً في زي أحد الحجاج ، فقد كانت شهرة كراف أعظم رسوخاً ، فخلال زيارته الأخيرة للندن في عام 1850 أي قبل ثلاث سنوات من لقائه ببيرتون استقبله الأمير المرافق وكبير أساقفة كانتربري ولورد بالمرستون . فقد سر البريطانيون لإحساسهم أنهم أصحاب الاكتشافات التي حققها كراف ، فعلى الرغم من أنه ولد في فريتمبيرج وتلقى تدريبه في بازل ، فإن عمله في أفريقيا تم تحت رعاية الجمعية الكنسية التبشيرية . وقد حظى بالاحترام في بلاده ، بعد أن وجهت الدعوة له لمناقشة القضايا الجغرافية مع البارون فون همبولت الموقر الذي يعد أعظم علماء ألمانيا ، ولتناول طعام العشاء على مائدة الملك وليام فردريك ملك بروسيا[2] .

مع ذلك فإن كراف لم يسع إلى الشهرة الدنيوية قط ؛ فقد كانت القوة الدافعة حقاً في حياته تتمثل في الإيمان بأن عودة المسيح وشيكة ، وواجبه المسيحي هو هداية البشر طالما ظل في العمر متسع لذلك ، وكذلك«ري البراري القاحلة» في عالم الوثنية . وقد طاردته الشهرة لأنه تصادف أنه قام بأداء هذه المهمة في شرقي أفريقيا ، وهو جزء من العالم غدا ساحة للتنافس السياسي على نحو متزايد . وقد ارتبطت بهذا التنافس بصورة

وثيقة جهود بذلها الأكاديميون الأوربيون لكشف أسرار هذا الإقليم، «لملء الأماكن الخالية في الخريطة». وبما أن كراف غامر بالانطلاق بجرأة إلى الداخل الأفريقي باحثاً عمن يحتمل إدخالهم في المسيحية ممن لم يدن منهم بالإسلام، فلم يكن في وسعه الابتعاد عن بؤرة الاهتمام.

أما ما أثار إلى حد كبير أصحاب النظريات و«الجغرافيين الذين لا يغادرون مقاعدهم» - وأثار سخرية البعض - فهو ما زعمه كراف من رؤيته للجليد على قمة جبل يقع على مسافة ثلاثمئة ميل في الداخل الأفريقي، على خط الاستواء، ويسميه الأفارقة باسم جبل كينيا. وذكر أن جبلاً ثانياً تتوج الثلوج قمته ويدعى بجبل كليمنجارو، قد شاهده جوهان ريبمان وهو أحد مرؤوسي كراف على مبعدة أكبر باتجاه الجنوب. وحتى سير رودريك موريتشسون، الذي يحرص عادة خلال خطبه الرئاسية التي يلقيها أمام الجمعية الجغرافية الملكية في لندن على أن يشيد بأي اكتشاف قد يحرك خيال الجمهور، ألقى ظلال الشك على هذه الحكايات عن الثلوج الاستوائية. ولكن المبشرين أكدوا أنهم يصدقون ما رأته عيونهم. وقد ذهل ريبمان إزاء مشهد جبل كليمنجارو، إلى حد أنه اقتعد الأرض في الأدغال ليقرأ في الكتاب المقدس، فوقع نظره في التو على المزمور الحادي عشر بعد المئة الذي يرد فيه: «لقد أخبر شعبه بقوة أعماله ليعطيهم ميراث الأمم»[3].

لم تلق هذه المواقف الورعة من الاستكشاف استجابة لدى بيرتون، لكنه سارع إلى انتهاز الفرصة المتاحة أمامه، حتى قبل أن يتجاذب أطراف الحديث مع كراف، فهو سيستأنف المسير من حيث اضطر المبشرون إلى التوقف في شرقي أفريقيا، بسبب نقص العناصر البشرية الجديدة. وقد تحدث كراف ذات مرة عن غرس صف من المستعمرات يمتد عبر القارة إلى المحيط الأطلسي، وكأنها قلادة مسيحية، ولكنه الآن تخلى عن هذه الفكرة. وعندما التقى به بيرتون في القاهرة، كان قد أوغل في الأربعينيات من عمره، واستبد به التعب، وها هو الآن يمضي إلى أوربا للعلاج.

كان كراف يشعر كذلك بخيبة الأمل في زملائه الأصغر سناً، الذين بدا أنهم قد فقدوا إرادة المغامرة بعيداً عن المقر الرئيسي للبعثة الذي أقامه قبل ثماني سنوات قرب

ممباسا، فغالباً ما كانوا يتمددون، وقد أصابتهم الحمى التي قضت على عدد منهم، وأجبرت آخرين على التراجع إلى أوربا. واكتفى الناجون بصفة عامة بالتبشير بكلمة الرب، من خلال إلقاء عظاتهم من فوق أسقف دورهم المسطحة على أي أفريقي يتصادف قدومه. وهكذا فإن الرحلة من الساحل إلى الساحل الثاني عبر أفريقيا ظلت ثمرة مغرية ناضجة تنتظر من يقطفها.

بعث بيرتون بسلسلة من الرسائل من القاهرة إلى صديقه نورتون شو، سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية في الوطن، محدثاً إياه بأنه سوف «يضغط» على كراف؛ ليخبره «ما تم القيام به حقاً، وما لايزال ينبغي إنجازه». وهو يغامر بالقول: «لو أتيح لي الوقت [من قبل جيش بومباي] فإنني سأجتاز القارة عبوراً إلى الأطلسي». ولما كان بيرتون على استعداد على الدوام للسخرية من أي «زميل» فإنه يزعم أنه عندما تحدث كراف عن «منابع النيل الأبيض وكليمنجارو وجبال القمر» فإن ذلك ذكّره بـ «دي لوناتيكو» (منابع النيل المكسوة بالثلوج الموقعة على خرائط بطليموس كانت تدعى بجبال القمر، أو لوناي مونت). وعلى الرغم من ذلك كله فإنه يذهب في رسالته إلى القول إن إقليم شرقي أفريقيا يحظى بـ «موارد هائلة لم يتم تطويرها» بينما المزيد من الاستكشاف في شبه الجزيرة العربية لن يؤدي إلى إحراز نتائج عملية، بخلاف اكتشاف «صحاري وأودية وقبائل».

وفي مقابل هذا الإصرار كان كراف على الدوام بعيداً تماماً عن الأغراض الدنيوية، ومع ذلك فإن اكتشافاته يمكن أن يقال إنها قد أضاءت الدرب أمام التدخل الاستعماري؛ فقد حركت الأمل في أنه انطلاقاً من الساحل المواجه لزنجبار يمكن شق طريق باتجاه قلب القارة المجهول نحو البحيرات والجبال الأسطورية، التي فتنت المغامرين الرومانسيين من أمثال بيرتون. ولو أن اتجاهات كراف وبيرتون الدينية، وخلفيتهما الدينية وسلوكهما الشخصي لم تكن على هذا القدر الكبير من الاختلاف، لأمكن أن يصبحا شريكين في هذه المرحلة التالية من الاستكشاف، فقد استمتع كل منهما بالترحال لذاته، وكتب ببلاغة عن تجاربه.

وشأنه شأن المبشر الألماني كان بيرتون لغوياً بارزاً؛ فلدى زيارته الأولى لزنجبار في عام 1844 سرد كراف على السلطان سعيد باللغة العربية الأحداث التي عاشها على امتداد السنوات الست السابقة في أثيوبيا. وقد تأثر السلطان للغاية بما سمعه إلى حد أنه أبلغ كراف بأنه حر في بدء بعثة تبشيرية على البر الأفريقي، وهي البعثة الأولى منذ طرد البرتغاليين قبل حوالي مئة وخمسين عاماً مضت. وربما كان جوهر الأمر أن السلطان سعيد أبدى استعداده لإعطاء هذا الإذن؛ لأن كراف قال إن هدفه هو شق طريق يعد بمنزلة «باب خلفي» من شرقي أفريقيا إلى جنوبي أثيوبيا. غير أن هذه الفكرة سرعان ما تم التخلي عنها، وعلى الرغم من أن زوجة كراف وابنته الوليدة قد لقيتا مصرعهما بعد فترة قصيرة من وصولهما إلى ممباسا، فإنه استقر هناك ليبدأ العمل في أول كتب باللغة السواحيلية المكتوبة وقواميسها، وكذلك الحال بالنسبة إلى العديد من لغات البر الأفريقي، وكذلك إعداد ترجمات للكتاب المقدس إلى هذه اللغات.

كانت إحدى الهوات التي لا سبيل إلى عبورها بين كراف وبيرتون هي سلوك كل منهما حيال الغرباء، فقد كان المبشر يحس بالسعادة وهو يتجول في الداخل الأفريقي، وليس معه ما يدافع به عن نفسه إلا مظلته التي تقيه وقدة الشمس، بينما كان بيرتون يؤمن بالعنف، وسعى بالفعل للترقي في الجيش بنشر كتاب تعليمي بعنوان **«نظام كامل للتدريب بالحراب»**، وقد آمن بغرس الخوف في النفوس عن طريق «القسوة العادلة دون أدنى شفقة»[4].

وقد اعتقد كراف أن الأفارقة غارقون في «البؤس والتردي الأخلاقي» وذلك على الرغم من أن مذكراته توضح أنه تعاطف مع معاناتهم المتولدة من تجارة العبيد والمجاعة والحروب. ومن جانبه لم يشعر بيرتون نحوهم إلا بالازدراء. وشأن معظم زملائه الضباط في الهند كان يشير إلى العرب والهنود بلا تفرقة على أنهم «زنوج». ولكن الأفارقة كانوا في رأيه لا يفضُلون الحيوانات إلا بشيء بسيط. وبينما لم يقدر لكراف أن يحظى بالكثير من النجاح في إدخال السود في «المسيحية والحضارة»، فإن بيرتون كان يعتبر أن محاولته القيام بذلك هي بمنزلة ارتكاس وخروج على المألوف.

وتصادف أنه في الأسبوع الذي مضى فيه بيرتون «يضغط» على كراف في القاهرة شرع رحالة، له معتقدات تشبه كثيراً معتقدات كراف في رحلة جعلته أشهر مكتشف

في القرن التاسع عشر، ومن المحتمل أن بيرتون لم يسمع بديفيد لفنجستون قط[5]. ولكن من المؤكد أن كراف كان على معرفة به؛ ففي العام السابق، وبينما أهدت جمعية باريس الجغرافية ميداليتين فضيتين إلى كراف وريبمان، نال ديفيد لفنجستون ورفيقه وليم كوتن أوزويل التكريم ذاته عن اكتشافات قاما بها في جنوبي نهر الزامبيزي.

انطلق لفنجستون من قرية تدعى لنيانتي في المنطقة الواقعة عند منتصف نهر الزامبيزي، بخطة جريئة تتضمن أولاً المضي غرباً إلى الأطلسي ثم العودة شرقاً إلى المحيط الهندي. ولقيت المرحلة الأولى، أي الانطلاق من الزامبيزي إلى الأطلسي، الترحاب في الجمعية الجغرافية الملكية من قبل اسكتلندي مثله، هو سير رودريك مورتشيسون، باعتباره «أعظم انتصار في البحث الجغرافي تم إحرازه في عصرنا الحالي». وانهال المزيد من الإطراءات عليه.

هكذا قدر لـ «زميل» آخر أن يوشك على أن يسبق بيرتون في الوصول إلى أكاليل غار الاستكشاف الأفريقي، ولكن لم يكن هناك مايمكن القيام به بهذا الصدد، فبعد فراقه لكراف، اضطر بيرتون للعودة من القاهرة إلى بومباي، كي يسعى جاهداً للحصول على دعم لبعثة جديدة، وليمارس الضغوط من أجل إجازة أخرى من فوج المشاة الذي يخدم في صفوفه. وقد حالفه النجاح في هذين المجالين معاً، ففي ذلك الوقت كانت شركة الهند الشرقية تنظر إليه بعين الرضا، حيث برهنت رحلته المحفوفة بالمخاطر إلى مكة على حذقه وسعة حيلته، وقد أهدى أنجح كتبه حتى ذلك الحين وهو كتاب **«الأعراق التي تقطن وادي نهر السند»** على نحو يوحي بالنفاق إلى مجلس مديري الشركة، باعتباره «محاولة لرسم الخطوط الكبرى لمقاطعة من الإمبراطورية تدين بالكثير لحكمهم المديد».

عاد بيرتون في منتصف عام 1854 إلى عدن فأصبح قريباً من أفريقيا على نحو مغر للغاية. وتعين عليه أن ينتظر هنا طوال عدة أشهر وصول رسالة من المديرين بلندن، تتضمن منح الموافقة على خطط رحلته. وفي البداية كان بيرتون يقترح أن يبحر من عدن إلى الصومال ويمضي جنوباً نحو زنجبار، وينعطف غرباً ويواصل المسير إلى أن يصل إلى ساحل أفريقيا الغربي، يساعده في هذه المغامرة ثلاثة ضباط غيره في صفوف

الخدمة العاملة بالهند. وفي شباط/ فبراير من العام التالي قبيل مغادرة عدن، مضى يؤكد لصديقه شو قائلاً: «فيما بيننا فإنني أريد حسم مسألة كراف والثلوج الخالدة. وليس ثمة شك في أن هناك طريقاً مفتوحاً على امتداد أفريقيا يفضي إلى المحيط الأطلسي».

في حقيقة الأمر، فإن بعثته جهزت للقيام برحلة محدودة إلى القرن الأفريقي، وحتى هذه الرحلة منيت بالإخفاق الشديد. فعلى الرغم من أن بيرتون قام منفرداً برحلة - متنكراً من جديد - إلى مدينة هرر ذات الأسوار، فقد وقع ورفاقه في كمين نصبه الصوماليون لهم عندما وصلوا إلى موضع عودتهم إلى عدن. وقتل ضابط من ضباط البحرية الهندية، هو الملازم وليم سترويان، وأصيب ضابط بالجيش هو الملازم جون سبيك بأحد عشر جرحاً، وطعن بيرتون برمح في وجهه.

تركت الحربة ندبةً لا تزول في وجنة بيرتون، وبالمثل ستترك التحقيقات التي أجريت حول هذه الكارثة ندبة تدوم العمر بأسره في سمعته، فقد كان الضابط المسؤول عن البعثة، ولم يقتصر الأمر على سقوط قتلى، والتخلي عن الكثير من الممتلكات الحكومية للمهاجمين الصوماليين، وإنما كان لطمة إلى الكبرياء البريطانية كذلك. ووصلت الأوراق التي تتناول هذا الموضـوع إلى مكتب لورد دالوسي، الذي وجـه كلمات قاسية إلى أعضاء البعثة: «في مثل هذا البلد، ووسط مثل هؤلاء الأفراد، فإن إهمالهم وعدم اكتراثهم ببذل الحذر المألوف والحرص العادي لا يمكن التخفيف من جرمه، أو حتى اغتفاره».

لما كان واضحاً أن بيرتون قد فقد بعض المكانة التي كانت له عند شركة الهند الشرقية، فقد حرص على توثيق علاقته بالجمعية الجغرافية الملكية، بينما كان يتعافى من جرحه في إنجلترا خلال عام 1855، وبحلول ذلك الوقت كان موريتشسون وأعضاء مجلسه قد فتنهم إنجاز لفنجستون المتمثل في الوصول إلى لواندا، وتاقوا إلى أنباء عن الموعد والمكان اللذين سيعاود فيهما الظهور من جولاته المتجددة في البرية. وقد منح لفنجستون في غيابه بالفعل ميدالية «باترون» التي يتوق إليها الكثيرون.

أضحت الجمعية الجغرافية الملكية التي عانت في سنواتها الأولى اضطرابات مالية بالغة، مزدهرة الآن من خلال تصدرها لسباق كشف أسرار «أفريقيا الداخلية». وتولدت قوة دفع جديدة لاستكشاف أفريقيا في أواخر عام 1855، مع نشر خريطة تبين بحيرة عملاقة وغريبة الشكل تقع في منتصف القارة. وقد رسم هذه الخريطة جاكوب إرهارت أحد المبشرين من رفاق كراف في شرقي أفريقيا، استناداً إلى قصص جمعها في مدينة ساحلية تقع إلى الجنوب من ممباسا. وعلى الرغم من أن العديد من «الجغرافيين الذين لا يغادرون مقاعدهم الوثيرة» كانوا لايزالون يرفضون تصديق روايات شهود العيان التي تدور حول «الثلوج الدائمة»، فإنهم كانوا على استعداد لأن يأخذوا على محمل الجد ما أصبح يطلق عليه لقب «خريطة الكسالى» لأنها تتناسب تماماً مع نظرياتهم.

أعلنت شخصية بارزة في الجمعية الجغرافية الملكية التأثر الشديد، ولم تكن هذه الشخصية إلا جيمس ماكوين الذي حقق قبل سنوات قلائل مع الليث بن سعيد، وهو عربي من زنجبار كان يقوم بزيارة لبريطانيا في ذلك الوقت[6]. وقال الليث بن سعيد إنه توجد في قلب أفريقيا بحيرة كبرى قام بزيارتها مرتين لمقايضة سلع تجارية بالعاج. وللوصول إلى هذه البحيرة من زنجبار لابد للقافلة من المسير لمدة أربعة أشهر ونصف الشهر «باتجاه مغيب الشمس تماماً». وجميع من يقطنون بجوار البحيرة يعرفون أنها «منبع النهر الذي يخترق مصر». وهكذا فإن «خريطة الكسالى» التي رسمها إرهارت بدا في نهاية المطاف أنها تؤكد مثل هذه القصص. واستشعر الباحثون الكلاسيكيون الغبطة النابعة من أنها تدعم ما يقوله بطليموس فيما يبدو.

قام بيرتون بزيارة القسطنطينية في النصف الثاني من عام 1855 في محاولة غير مجدية للمشاركة في القتال في الشهور الأخيرة من حرب القرم. ولدى عودته إلى بريطانيا كان كل الحديث بين الجغرافيين يدور حول البحيرة الأفريقية الهائلة. ومن جديد أمعن التفكير في هذه الفرصة بحذق فلم يعد يتحدث عن عبور القارة الأفريقية، حيث إنه كان من الواضح أن ديفيد لفنجستون، إذا ما كان لايزال على قيد الحياة، يقترب من الحصول على تلك الجائزة. وما يهم الآن هو العثور على منبع النيل.

وفي النصف الأول من عام 1856 كرَّس بيرتون جهوده لحشد التأييد للقيام ببعثة إلى البحيرة الكبيرة، التي دعتها خريطة إرهارت ببحر تنجانيقا. وجمع جون سبيك الذي كان متشوقاً للعودة إلى أفريقيا، على الرغم من أنه كاد يلقى حتفه هناك، بعض المال. ومع أنه كان لديه بعض السمات الغريبة التي تتسم بها شخصيته، فإنه كان قوي البنية (كما لاحظ بيرتون، فإن قدرته على النجاة على الرغم من إصابته بأحد عشر جرحاً تعد «درساً في صعوبة قتل رجل يتمتع بصحة سليمة») وقد أكدت ثروته الآن مكانته كشريك لبيرتون.

على الرغم من عدم ثقة موريتشسون في «الشيطان ديك» فإن الصفوف المتقدمة في الجمعية الجغرافية الملكية قد اشتملت عدداً كافياً من المعجبين بكتاب بيرتون الذي يقع في ثلاثة مجلدات حول **«الحج»** إلى مكة بحيث نجح في مسعاه، وجاءه دعم على جانب كبير من الأهمية من وزارة الخارجية التي قدمت ألف جنيه استرليني أصرت على تخصيصها للبحث العلمي. وجاء إظهار آخر للاهتمام من جانب شركة الهند الشرقية، على الرغم من أنها كانت قد سحبت عرضها التبرع بمبلغ للمساهمة في نفقات البعثة بسبب ردود بيرتون المتغطرسة على النقد الذي وجه إلى طريقة إدارة المغامرة الصومالية. وكان العقيد وليم سايكس رئيس مجلس مديري الشركة هو كذلك رئيس لجنة الاستكشافات التابعة للجمعية الجغرافية الملكية، وقد حسم الموقف بدعوة الجمعية إلى «توجيه الدعوة للحصول على تعاون حكومة جلالة الملكة وشركة الهند الشرقية» من أجل البعثة. وقال إن البعثة جديرة بالدعم والتأييد «على أسس الاكتشاف الجغرافي التي لا تقل شأناً عن المزايا التجارية المحتملة، وربما المزايا السياسية كذلك». ولسوف تشمل أهداف البعثة «تحديد منتجات البلاد القابلة للتصدير والأصول العرقية للقبائل».

كانت موجة العبارات ذات الأصداء البليغة التي عجَّلت بانطلاق بيرتون وسبيك في طريقهما تنبع في أحد جوانبها من الرغبة في أن يعرف الجميع من هو السيد في المحيط الهندي، وبصفة خاصة وقد مضى ديليسبس الآن يخطط لمشروع شق قناة عبر برزخ السويس. وقد مضت زنجبار ترتفع عالياً في إطار الحسابات الجيو-سياسية، ذلك أنه على نحو ما يلاحظ كراف في مذكراته «إن من يملك شرقي أفريقيا سيكون قد ظفر

بالخطوة الأولى نحو السيطرة على أراضي الهند». وقد أرادت الحكومة التي صار بالمرستون يتولى الآن رئاسة الوزراء فيها، ومن دون أن تقول ذلك صراحة، استغلال البعثة لكي تقول لفرنسا وللقوى الأخرى إن بريطانيا تعتبر زنجبار بوابتها المفضية إلى أفريقيا[7].

للسبب ذاته كان المبعوثون الذين يرسلهم السلطان سعيد إلى لندن يلقون الترحاب باهتمام متعمد، وترسل له رسائل تحمل الإعراب عن النوايا الطيبة على فترات متقاربة. وقد أطلق السلطان الذي تراجعت حالته الصحية على فرقاطته المفضلة اسم «كوين فيكتوريا» وعامل القنصل هاميرتون الذي غدا الآن يحمل رتبة مقدم كما لو كان وزيره الأول، الأمر الذي بعث الشعور بالطمأنينة لدى بريطانيا. وعندما كان السلطان يغادر زنجبار كان يصر على بقاء هاميرتون في الجزيرة لمتابعة الأمور والتصدي لأي مؤشرات للتمرد[8].

على الرغم من ذلك فقد عاش هاميرتون خائفاً يترقب ما هو محتوم، أي وفاة السلطان سعيد، العماد الرئيسي لعالمه. وقد حدث ذلك في تشرين الأول/ أكتوبر 1856 قبل شهرين من وصول بيرتون وسبيك إلى زنجبار؛ فقد سقط السلطان وهو في السابعة والستين ضحية للدوزنتاريا على متن السفينة «كوين فيكتوريا» خلال رحلة العودة إلى زنجبار من مسقط، حيث أمضى أكثر من عامين محاولاً إخماد نيران التمرد.

تزايدت الأمور تعقيداً في ضوء وفاة ولي العهد المعترف به وهو الأمير خالد في وقت سابق من جراء إصابته بالسل في زنجبار، وبعد وفاته حدث تمرد منذر بعواقب وخيمة من جانب جماعات سواحيلية وعبيد من العاملين في مزارع القرنفل[9]. وكان هاميرتون قد فرض حظر التجول، وأمر المرتزقة البلوشيين المتمركزين في الجزيرة بقتل كل من يتحرك بعد حلول الظلام، فمات التمرد في مهده. وكان السلطان الموغل في العمر، قد قام لدى سماعه بوفاة خالد بإرسال رسالة من مسقط مفادها أن وريثه الجديد الآن هو أحد أبنائه الأصغر سناً؛ وهو ماجد العليل الذي يفتقر إلى بريق الشخصية القوية. وقد اغتبط هاميرتون لذلك؛ حيث نظر إلى ماجد باعتباره من السهل السيطرة على قياده.

غير أن وفاة السلطان سعيد نفسه فجّرت شرارة المزيد من الاضطراب في الجزيرة، بحيث إنه عندما جاء بيرتون وسبيك إليها أدركا في التو أن ذلك من شأنه أن يعطل تنظيم بعثتهما. ومن ناحية أخرى فقد كان معنى ذلك أنه لن تكون هناك حاجة لطلب الإذن قبل العبور إلى البر الأفريقي وبدء مسيرتهما، حيث كانت لدى ماجد الذي استقر في موقع السلطة حديثاً مشاغل أكثر إلحاحاً، وفي مقدمتها إخوته العديدون الأكبر منه سناً، وأحدهم في زنجبار والآخرون في مسقط.

هكذا اضطر المستكشفان إلى الاكتفاء بتحذيرات هاميرتون الممزوجة بالفكاهة من فظائع شرقي أفريقيا، وقد بدا أن هذه التحذيرات قد تحققت، عندما عادا من اكتشافهما التمهيدي على امتداد الساحل وقد استبد بهما الإعياء من جراء الحمى. وبينما كانا في مرحلة النقاهة، عكف بيرتون على تجميع مواد عن تاريخ زنجبار، وأدرك سريعاً أن اللغة السواحيلية هي برهان آخر على الصلات القائمة عبر المحيط الهندي، حيث كان قد صادفها في السابق متداولة بين العبيد السود في شمال غربي الهند، بينما كان يؤلف كتابه عن السند، وكانوا قد حدثوه عن الكيفية التي بيعوا بها في طفولتهم في أفريقيا مقابل الحبوب أو القماش. وقد اشتد اهتمامه إلى حد كبير بحيث إنه أعد قائمة مطولة بكلمات من لغتهم التي لم تكن مفهومة بالنسبة إلى الآخرين في الهند. وهاهو الآن يكتشف أن هذه اللغة هي السواحيلية التي يستعملها الجميع في زنجبار وعلى الساحل.

وعلى الرغم من انشغال بيرتون بتدوين الملاحظات لاستخدامها في أعمال أدبية مستقبلاً، فإن سبيك قد أبدى ضيقاً شديداً حيال التعطيل الذي تتعرض له البعثة. وكانت الأنباء حول ديفيد لفنجستون بمنزلة مهماز حاد، ذلك أنه مع عودة الطبيب الاسكتلندي إلى بريطانيا، عقب رحلته الظافرة من الأطلسي إلى المحيط الهندي، تتابعت المآدب التي أقيمت تكريماً له باعتباره رجل الساعة. ومضى يتلقى درجات الدكتوراه الفخرية ومفاتيح المدن، وتناول الشاي مع الملكة فيكتوريا، وراح يضع اللمسات النهائية على كتاب **«رحلات تبشيرية وأبحاث في جنوب أفريقيا»** وهو الكتاب الذي قدِّر له أن يظل من أفضل الكتب مبيعاً على امتداد عقد من الزمان. وتجمعت الجماهير المرحبة به حيثما مضى، والتقطت الصحف والمجلات الأسبوعية كل

كلمة ينطق بها. وبدا جلياً أن الاكتشاف الأفريقي يوشك على الوصول إلى أوجه، ولم يكن التخلي عن المخاوف في زنجبار بالسبيل إلى احتلال بؤرة الضوء.

أخيراً في منتصف عام 1857 عندما بدا المناخ مناسباً، استقل بيرتون وسبيك مركباً إلى باجامويو حيث تبدأ القوافل التي تتاجر مع سكان البحيرات رحلاتها وتنهيها. وفي الأشهر الستة التي أمضاها الضابطان في الانتظار، كانا قد جمعا قوة تم تنظيمها على غرار هذه القوافل؛ فهي تضم مرشدين وحمالين ومرافقين مسلحين تسليحاً جيداً. وإذا اضطرا إلى شق طريقهما عنوة فهما على استعداد لذلك، على الرغم من أن أياً من لفنجستون أو كراف لم يختر السير بهذه الطريقة، ولم يقدم الأوربيون المقيمون بزنجبار لهما كثيراً من النصح، وعلى نحو ما قال بيرتون ساخراً، فإنهم كانوا «في الغالب جاهلين بأي شيء يقع فيما وراء الجزيرة».

عبر هاميرتون إلى باجامويو لتوديعهما؛ فأطلقت الأبواق ودوت طلقات البنادق وعلت الصيحات بالأوامر، وسادت فوضى كبرى وأدى نقص الحمالين في اللحظة الأخيرة إلى ترك بعض المعدات، وعلى الرغم من ذلك فإنه لو كان السلطان سعيد لايزال على قيد الحياة، ويقف هناك ليتابع مشهد مئتي رجل معظمهم مسلح، ينطلقون تحت سيطرة البيض، لشعر بعدم الارتياح حيال مستقبل إمبراطوريته الواقعة في شرقي أفريقيا غير المحددة بدقة. وكما أدرك بيرتون، فإن العرب «معادون ومتخوفون» من الرحالة البيض.

كان العبور إلى باجامويو لتوديع البعثة من الواجبات الرسمية الأخيرة التي قام هاميرتون بأدائها، فبعد ثلاثة أسابيع لفظ أنفاسه الأخيرة وهو في الثالثة والخمسين، وقد أبقى عليه في زنجبار لمدة خمسة عشر عاماً الويسكي والكينين والعناد الصلب. وكانت قيمته بالنسبة إلى بريطانيا تفوق أي تقدير، غير أن نبأ وفاته لقي اهتماماً أقل مما يستحقه، حيث كان التمرد الهندي قد بدأ[10].

سوف تنجرف شركة الهند الشرقية التي ظلت طويلاً رمزاً لقوة إنجلترا في الشرق، إلى ظلال النسيان بين عشية وضحاها تقريباً من خلال «تمرد السباهي». وعلى الرغم

من كل أبهة الراج المفعمة بالتحدي، فقد قدر له أن يدفع في مسار لا نجاة من عاقبة السير فيه. غير أنه كأنما في منزلة التعويض، سينفتح أفق استعماري جديد في هذه اللحظة على الجانب الغربي من المحيط الهندي الذي طالما تعرض للإهمال ردحاً طويلاً من الزمن.

الفصل الثامن والأربعون

محاربون وصيادون وتجار

امتد النظام العربي إلى مسافات بعيدة، وشأن الأخطبوط أحكم قبضته على كل تجمع قروي صغير لا تتوافر له الحماية، محولاً البلاد بأسرها إلى ساحة معركة رحبة، لا يحظى فيها أحد بالأمان خارج الأسوار.

إيه. جي. سوان - **محاربة صيادي العبيد في وسط أفريقيا** (1910)

استخدمت كلمة «استكشاف» على نحو مبرر[1] لوصف رحلات بيرتون وسبيك والرحالة الأوربيين الذين تدفقوا بعدهما؛ لأنهم نقلوا إلى خارج أفريقيا معلومات حول أقاليم القارة المتسعة المعزولة. غير أنها تفترض ضمناً أن شعوب الداخل الأفريقي كانت تشغل موطناً جغرافياً منسياً لا يتغير بمرور الزمن. ولم يكونوا هم ولا الجبال ولا الأنهار ولا البحيرات التي يقيمون بجوارها ظاهرين على أي خريطة. وهكذا كان من المسلم به أنهم ينتظرون في سكون لكي «يتم اكتشافهم» ولا يمكن إلا أن يبدوا عرفانهم بالجميل عندما يحدث ذلك.

من الطبيعي أن العديد من بناة الإمبراطورية الذين جاؤوا فيما بعد، قد اختاروا أن يشجعوا الوهم الذي مفاده أنهم قد مضوا يضربون على امتداد الغابات الخالية من الطرق والبراري الواسعة للوصول إلى أهدافهم. ولكن سبيك بطبيعته الخالية من الحذق كشف النقاب عن الواقع منذ البداية في رسالة بعث بها إلى الساحل، بينما كان في سبيله إلى العودة مع بيرتون من بحيرة تنجانيقا، حيث يقول: «هذه بلاد تبعث على الشعور بالصدمة، فيما يتعلق بالطرائد فيها، حيث لا يبدو أن هناك شيئاً إلا الفيلة، وهي بدورها من جراء الصيد المستمر تم إبعادها عن الطرق الرئيسة». وكلمتا «الطرق الرئيسة» تبدوان مجردتين من المعنى، تماماً كافتراض سبيك أن الجمعية الجغرافية الملكية بحاجة إلى معرفة أن صيد الطرائد في قلب أفريقيا لم يرقَ إلى مستوى توقعاته.

على الرغم من ذلك فإن سبيك وبيرتون - إن لم يكونا على طريق رئيسي - فقد كانا على الأقل يسلكان درباً واضح المعالم استخدمته القوافل لمدة أربعين عاماً على الأقل، وكان علم حاكم زنجبار القرمزي يرتفع عالياً في مقدمة مسيرة البعثة، وكان معروفاً ومهاباً في كل مكان. وهكذا فإنه على الرغم من تجاهلهما لهذه الحقيقة، فإن معظم القادمين الجدد البيض لأفريقيا شقوا طريقهم عبر الأدغال في دروب واضحة المعالم، على الرغم من أن هذه الدروب غالباً ما كانت شائكة بشكل لا يصدقه عقل. وعندما كانت الفرصة تتاح، كان العديد من المستكشفين المستقلين يبادرون إلى الالتحاق بقافلة، إذا كانت تمضي في الاتجاه المنشود.

كانت القوافل في شرقي أفريقيا بحلول خمسينيات القرن التاسع عشر يسيطر عليها العرب بشكل عام، وهم مسلمون، وبالتالي كان مما يشكل عبئاً على نواياهم الحسنة أن يساعدوا رجالاً بيضاً من المسيحيين. غير أنهم باعتبارهم رعايا لسلطان زنجبار، حرصوا على أن يخفوا ضيقهم عندما يسعى البريطانيون بصفة خاصة للحصول على العون منهم في طرق السفر؛ لأنهم كانوا يعرفون مدى قوتهم. وكان بعض البيض من أمثال «أبونا داوود» والمبشر ديفيد لفنجستون، يسافرون طوال شهور عديدة مع العرب، ويتقبلون الطعام منهم، ويقيمون في مخيماتهم ذات الحراسة الجيدة.

واستغل بيرتون مقابلاته مع التجار خلال الرحلة استغلالاً كاملاً ليطرح عليهم الأسئلة حول الأراضي الواقعة فيما وراء بحيرة تنجانيقا. وتأكد له أن بعض العرب قد قطعوا بالفعل الطريق بكامله وصولاً إلى الأطلسي، وهكذا فإنه كان يعرف على وجه اليقين أن «الطريق مفتوح» فيما وراء النقطة التي عاد منها مع سبيك، وأتاح له ذلك الفرصة ليعلن شكواه في رسالة بعث بها: «إننا نأسف أشد الأسف لأن ترتيبات البعثة لم تكن على أساس أكثر مرونة، فبالاستعانة بمبلغ 5000 جنيه استرليني أعتقد أنه كان بوسعنا من دون صعوبة تذكر أن نعبر أفريقيا من الشرق إلى الغرب». وقد جعل الأمر يبدو هيناً على الرغم من أن الكتب التي ألفها كلا الرجلين في وقت لاحق قد شددت على الفظائع التي لا سبيل إلى التنبؤ بها، قبل أن يضطرا إلى احتمالها، ومن أكثرها فظاعة محاولة سبيك لانتزاع خنفساء اختبأت في أذنه الداخلية بالاستعانة بمطواة

جيب. وفي حقيقة الأمر كان بيرتون سعيداً بالعودة بعد الوصول إلى بحيرة تنجانيقا، على نحو يفوق سعادته بإمكانية مواصلة المسير إلى رحاب المجهول.

كانت هذه الرحلة بهدفها الجغرافي الواضح مختلفة على نحو جلي في أسلوبها عن رحلات المبشرين، إلا أنه لم ينظر إليها قط على أنها عملية استطلاع استعداداً لغزو. ولم يحل ذلك دون قيام سبيك تحديداً بالتكهن في هذا المجال؛ حيث كتب في وقت لاحق يقول:

«يبدو أمراً عجيباً أن الزنجي قد عاش عهوداً عديدة من دون تقدم، بينما كل البلاد المحيطة بأفريقيا متقدمة للغاية مقارنة بها. . . ولو أنه أمكن تشكيل حكومة لهم تشبه حكومتنا في الهند فسوف يتم إنقاذهم، ولكنني أخشى أنه من دونها فليس هناك مجال يذكر لذلك؛ ففي الوقت الحالي لا يستطيع الأفريقي أن يساعد نفسه ولن يكون من الممكن أن يساعده الآخرون؛ لأن بلاده في حالة اضطراب مستمرة بحيث يعاني الكثير من القلق مما يواجهه في غمار بحثه عن طعامه، فلا يتاح له التفكير في أي شيء آخر»[2].

لقد لاحت لسبيك الذي أمضى كل سنوات نضجه في الهند الفكرة القائلة بأن أفريقيا بأسرها من الممكن أن تحكمها حكومة واحدة، تماماً شأن الراج، وبدا أنها فكرة قابلة للتطبيق. ولم يكن هناك سبب في تلك اللحظة لتصور أن أفريقيا مقدر لها أن تقسم إلى كيانات استعمارية مصطنعة تماماً، كما أنه لم يكن في استطاعة سبيك أن يتفهم من خلال معرفته المحدودة بتاريخ القارة، أن «حالة الاضطراب المستمرة» التي كان شاهداً عليها تنبع من عملية تغيير متسارعة خلال العقود الخمسة السابقة، فقد تغيرت الحياة في الداخل الأفريقي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بأكثر مما تغيرت خلال الألف وخمسمئة عام السابقة.

كان الأفارقة يعيشون في الماضي في عزلة فعلية في توازن مع بيئتهم، وتباينت التجمعات السكانية في حجمها إلى حد كبير؛ فقد كان بعضها قرى صغيرة تفصلها عن أقرب جيرانها رحلات طويلة عبر أدغال لا يقطنها أحد، بينما كان البعض الآخر وبصفة خاصة قرب البحيرات الكبرى دولاً راقية البنيان يتألف كل منها من أمة واحدة،

تدفع لها المجتمعات الأضعف منها الضرائب؛ في صورة عاج وماشية وعبيد. وكانت هناك مئات من اللغات المتميزة بعضها عن بعض على امتداد داخل القارة، وأنواع عديدة من البنى الاجتماعية. واشتركت كل هذه المجتمعات في وجود رابطة روحية متصلة مع أسلافها، الذين يهدونهم من خلال وسطاء في أوقات اتخاذ القرارات الحاسمة. وكان معنى ذلك أن الحياة الأفريقية هي حياة محافظة، ولكنها ليست مجردة من التغيير، وقد طورت كل جماعة ردودها المنفصلة على مشكلات البقاء على قيد الحياة - مثل كيفية ري المحاصيل أو حماية الماشية من الوحوش - وعرف كل شخص الواجبات والضوابط التي يتعين احترامها من الطفولة حتى الموت.

والآن غدا ذلك العالم في حالة تغير متواصل. وتمثل أحد أسباب ذلك في استزراع محاصيل جديدة جلبت من الأمريكتين؛ مثل الذرة والكسافا (المنيهوت). فقد كانت تشغل المساحة ذاتها من الأراضي ما يفوق ما يعطيه الدُّخْن*، الأمر الذي أفضى إلى زيادة كبيرة في عدد السكان (في عام 1850 كانت أفريقيا تضم جنوبي خط الاستواء ما يزيد على ثلاثين مليون نسمة). وقد أدى ذلك إلى احتدام التنافس على الأرض الخصبة الواقعة قرب الأنهار والبحيرات.

تمثل عنصر آخر من عناصر التغيير في طوفان السلع المصنعة التي تجلب إلى أفريقيا من أوربا وأمريكا؛ ومنها القماش، والأطباق، والأكواب، وأدوات المائدة، وكل المنتجات الأخرى الأصغر التي أفرزتها الثورة الصناعية والتي يمكن للرجال حملها على رؤوسهم إلى الداخل الأفريقي[3]. وفي غربي أفريقيا مضت ممالك قوية كانت في وقت من الأوقات تتوجه كلية تقريباً إلى تصدير العبيد، تكتسب دوافع جديدة، وعلى الرغم من أن الاتصالات الأوربية مع أجزاء أخرى من القارة كانت أقل مباشرة، فإنها مع ذلك لم تقل حسماً.

ثمة سبب أشد وضوحاً في التغييرات الجارية هو إدخال البنادق الرخيصة التي ساعدت على تلبية الطلب الذي لا سبيل إلى إشباعه من جانب العالم الخارجي على

* الدُّخْن: نبات عشبي طبي، ذو حب صغير أملس كحب السمسم.

العاج إلى جانب نتائج أخرى تمخضت عن استخدامها. فتزايد تصدير أنياب الفيلة من زنجبار بمعدل عشرة أمثال خلال القرن التاسع عشر.

لقد تردد صدى هدير المدافع المعلنة عن التفوق الأوربي في أرجاء السواحل الأفريقية منذ عهد فاسكو داجاما، وهكذا يمكن تصور أن أفارقة الداخل قد بدؤوا يستخدمون الأسلحة النارية منذ وقت يعود إلى القرن السادس عشر لوضعهم على قدم المساواة مع الأوربيين، أو ليعطوا أنفسهم ميزة على جيرانهم المسلحين بالحراب وحدها. ومع ذلك فإنه إذا ضربنا صفحاً عن البنادق التي يستخدمها زعماء القبائل الذين يعملون بالاتجار في العبيد في غربي أفريقيا، أو المرتزقة الذين يخدمون البرتغاليين في أنجولا وموزامبيق، لم تكن هناك إلا بنادق قليلة قابلة للإطلاق في أيدي الأفارقة إلى أن انتهت الحروب النابليونية.

جرت العادة على تقديم بنادق قليلة للحكام الأفارقة، الذين كان الأوربيون يحرصون على ترك انطباع قوي لديهم، وقد استمرت هذه العادة طويلاً. وفي وقت يعود إلى أربعينيات القرن التاسع عشر قدمت بعثة من شركة الهند الشرقية إلى سايلاسلاسي الملك الأثيوبي في شوا مدفعاً يطلق قنابل زنة ثلاثة أرطال وبعض البنادق[4]. وساعة موسيقية وصناديق تصدر موسيقى. ولكن مثل هذه الطرف كانت تعامل على أنها أدوات للتسرية عن القصر، بأكثر مما توضع موضع الاستخدام العملي.

كان السلاح الناري الذي بدل أفريقيا تبديلاً هو البندقية ذات الزناد المصنوع من الحجر الصوان التي تلقم من فوهتها، وهي السلاح الأوربي الأساسي لما يقرب من قرنين. وكان تقبلها بطيئاً لأنها غالية الثمن، وعندما تنكسر فإن معظم الحدادين المحليين كانوا يفتقرون إلى المهارات اللازمة لإصلاحها، وعلاوة على ذلك فإن الرصاصة قد لا تنطلق منها في اللحظة الحاسمة - وبصفة خاصة خلال الموسم المطير - وعندئذ يجد الرجل المسلح بالحربة نفسه في وضع أفضل كثيراً، وأخيراً كانت هناك صعوبة الحصول على البارود اللازم لتشغيلها.

وفي العشرينيات من القرن التاسع عشر بدأت البندقيات الرخيصة تصل إلى أفريقيا السوداء، وكان الكثير منها من مخلفات الحروب النابليونية. وكانت مدينة برمنجهام

الصناعية لديها مخزون من البنادق بلغ مليون بندقية بعد عام 1815، بينما كانت أفريقيا من أكثر الأسواق تأهباً لها. وعندما بيع هذا الفائض كله، بدأت برمنجهام تنتج نوعاً من البنادق الرخيصة من أجل أفريقيا على وجه الخصوص. ومع انتصاف القرن كان نصف نتاج برمنجهام من البنادق (ومقداره 100,000 بندقية سنوياً) يباع في القارة الأفريقية، كما كانت البنادق يلحق بها قدر كبير من البارود[5].

تكلف صنع البندقية ذات النوعية غير الرفيعة التي غالباً ما عرفت بـ «أنابيب غاز الحديد الزائف اللعين» حوالي خمسة شلنات (وكان السلاح الذي يمكن الاعتماد عليه يتكلف ستة عشر شلناً) وغالباً ما كانت تنفجر لدى إطلاقها. ومضت مصانع في لييج في إنتاج أعداد من «البنادق التجارية» تعادل ما ينتجه منافسوها في برمنجهام، واعتبرت بنادق ذات نوعية سيئة، ومع ذلك فقد واصلت أفريقيا استيرادها.

بالمقابل طلب التجار البيض على الدوام الحصول على العاج، وهكذا أصبح صيادو الفيلة نخبة متميزة جديدة. وأصبح التشوكوي الأنجوليون الذين يتمتع حدادوهم بمهارات رفيعة المستوى، من المجتمعات الأولى التي تستخدم البندقية في الصيد بتشجيع من البرتغاليين. وفي إطار نمط سيتكرر في مناطق أخرى، قضوا تماماً على كل قطعان الفيلة الموجودة في منطقتهم، ثم انطلقوا بعيداً إلى ضفاف نهري الكونجو والزامبيزي. وبمثل هذه الطرق وصلت شعوب كانت ذات يوم نائية بعضها عن البعض الآخر إلى التواصل فيما بينها بشكل منتظم.

في شرقي أفريقيا - من الصومال إلى موزمبيق - اشتدت حدة السعي وراء العاج كذلك، وعلى الرغم من أن الفيلة لم يعد من الممكن العثور عليها قرب شاطئ البحر وهي تجوب الأرض، كما كانت الحال في القرون الوسطى، فإن القطعان في الداخل بدت وكأنما لا نهاية لها. ومع ذلك فقد كان هناك عامل فريد في الأقاليم التي مضى عبرها بيرتون وسبيك، وهو أن تجارة العاج قد سيطر عليها غير الأفارقة؛ فالقوافل التي يسيرها العرب كان يموّلها البانيان الهنود المستقرون في زنجبار، وأنياب الفيلة يشتريها ويصدرها تجار أوربيون (الوازونجو) الذين يتخذون من الجزيرة قاعدة لنشاطهم.

لم يكن دفع قيمة أنياب الفيلة للأفارقة في الداخل في صورة قماش أو خرز زجاجي، إلا جزءاً محدوداً من الثمن الذي يدفع في زنجبار، غير أن الانطلاق لجلب العاج من بعض المناطق كان من الممكن أن يكون عملاً خطراً، على نحو ما أشار لودفيج كراف في أربعينيات القرن التاسع عشر. فقد شاهد قوافل «قوامها يتراوح ما بين ستمئة وألف رجل، معظمهم مسلحون بالبنادق» وهي تغامر بدخول أراضي الماساي، ولكن «غالباً ما كانوا يذبحون جميعاً». وقد جعلت الأرباح الكبيرة العائدة من بيع شحنات من أنياب الفيلة الجيدة للتجار الأوربيين مثل هذه الخسائر جديرة بتكبد عنائها، فالرجال رخيصون وكذلك بنادقهم.

غير أن العرب أبقوا البنادق بعيدة عن أيدي الأفارقة بقدر ما وسعهم ذلك، باستثناء البنادق التي سلموها لمن أعتقوهم، وللعبيد الذين يثقون بهم. والأمر على نحو ما عبر عنه بيرتون: «من حسن الطالع أن الأسلحة النارية لاتزال نادرة في الداخل [الأفريقي]، فالعرب أكثر حكمة من أن يسلحوا البرابرة ضد أنفسهم»[6].

على الرغم من هذا الاشتهاء السائد للبنادق، فإن الحربة باعتبارها سلاحاً من أسلحة الحرب كانت تكتسب احتراماً جديداً في شرقي أفريقيا، مع قدوم جماعات من المحاربين من منطقة بعيدة في القارة. وحارب الغزاة بضراوة لم يسبق لها نظير، وأضاف وجودهم المزيد إلى «حالة الاضطراب» التي أشار إليها سبيك، لأنهم كانوا يعملون على تنشيط نمو إمبراطوريات القرصنة القادرة على تحدي البنى التقليدية.

لم تكن هناك أهداف محدّدة في أذهان سادة الحرب السود الذين قادوا الأفواج السوداء نحو شرق أفريقيا، وإنما دفعتهم إلى المضي قدماً آمال السلب مما يسمى بالمفكيني (وهو ما يعني حرفيا «السحق»). ويستمد المفكيني أصولهم من جنوبي أفريقيا قرب حدود الناتال الحالية، ولكن آثار ذلك الغزو امتدت بعيداً حتى مناطق تصل إلى بحيرة فيكتوريا. وعندما مضت الهجرة المسلحة قدماً ثم توقفت لتستعيد عنفوانها بعد كل معركة، كانت أفواج جديدة تشكل من المهزومين غالباً مع بروز قادة جدد. غير أن الطرق التي اعتمدها المفكيني لم تتغير قط، حيث إن المحاربين كانوا يهاجمون في تشكيلات هلالية، ويستخدمون تروسهم الغليظة المتخذة من جلود الثيران في الاحتماء

من الحراب التي يرشقهم بها أعداؤهم، ثم يشتبكون في قتال متلاحم باستخدام حرابهم القصيرة المعدة للطعن، وقدر لهذه التكتيكات أن يتم تقليدها على نطاق واسع.

كانت بوتقة المفكيني تقع في الأراضي الساحلية المحصورة بين جبال دريكنسبيرج والمحيط الهندي، وقد أقامت هناك الشعوب التي تتحدث لغة النجوني على نحو ما فعلت منذ قرون عديدة، حيث عكفت على الزراعة ورعي الماشية. ولم يكن هناك اتصال مع الأوربيين، باستثناء حالات الناجين من السفن الغارقة على امتداد ساحل الناتال بين الحين والآخر، وبعض التجار البرتغاليين إلى الشمال من خليج ديلجوا.

لايزال الجدل يدور حول ما غيّر طريقة حياة النجوني الرعوية فجأة في أوائل القرن التاسع عشر وحوّلهم إلى مجموعة من الدول المتحاربة والمتنافسة[7]، وربما يعود ذلك إلى الطمع في الاستيلاء على الأراضي أو إلى التنافس على الاتجار مع البرتغاليين. وأياً كان السبب، فليس من قبيل المصادفة أن هذا الشتات العنيف قد حدث بينما كان مزارعو جنوب أفريقيا من البوير يتحركون شمالاً.

في حوالي عام 1820 وبعد صراعات دموية على السلطة ظهر شعب الزولو في الناتال، باعتباره القوة الأرفع شأناً، تحت قيادة الطاغية شاكا وبانضباط لم يعرف من قبل في أي مكان من أفريقيا. وقد كان شاكا هو الذي وصل إلى مرحلة الكمال بطريقة القتال المميزة التي يستخدم فيها الطعن بالحراب. وبسبب النهب والقتل على يد أفواج مقاتليه تحولت أجزاء من الناتال إلى أرض يباب لا يقطنها أحد. ونظر تجار رواد من البيض في الكاب إلى شاكا بمزيج من الإعجاب والخوف، واستخدم البعض بنادقهم لمساعدته في حروبه، وعاد آخرون إلى الكاب لإدانته باعتباره وحشاً متعطشاً للدماء[8].

في عام 1828 دفع الدمار الذي أوقعه شاكا في صفوف الزولو أنفسهم اثنين من إخوته بمساعدة أحد أقرب أصدقائه إلى قتله. ولكن المفكيني كانوا قد اكتسبوا بحلول ذلك الوقت قوة دفع لا سبيل إلى إيقافها، وانطلقت الجيوش هائجة عبر جنوبي أفريقيا، وانطلق بعضها شمالاً إلى موزامبيق حيث اكتسحت سفالة ومستعمرات

برتغالية أخرى، وسارت جيوش أخرى إلى الغرب عبر جبال دريكنسبيرج. وتوقفت إحدى الجماعات وهي النداببلي بقيادة مزيلكازي في بولاوايو، وهناك أقاموا مملكة تمتد إلى الهضبة المرتفعة، التي كان حكام زيمبابوي الكبرى قد سيطروا عليها قبل خمسة قرون. وكانت هذه هي الهضبة التي بذل المبشرون البرتغاليون الأوائل قصارى جهدهم لغرس مذهبهم الكاثوليكي فيها، على الرغم من أنه لم يبق له من أثر فيها.

انطلقت ثلاثة جيوش أخرى على الأقل من جيوش الرُحَّل صعوداً إلى الزامبيزي، عرف أقواها باسم النجوني، وتولى قيادته أحد أمراء الحرب ويدعى زوانجندابا، وعبرت قوته النهر الكبير قرب مستعمرة زومبو البرتغالية، في يوم شهد كسوف الشمس، وكان ذلك في التاسع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1835. واندفع زوانجندابا شمالاً نحو بحيرة تنجانيقا ساحقاً الجماعات المحلية، ومستوعباً من بقي على قيد الحياة من محاربيها في أفواجه. واستقر إلى الشرق من البحيرة في مكان أطلق عليه اسم مابوبو (الأحلام) ومات هناك في عام 1848، وغرست أجمة أشجار حول قبره.

انقسم النجوني عقب ذلك إلى خمس مجموعات عقب صراعات دارت حول من يخلف زوانجندابا في السلطة. وبحلول ذلك الوقت كان في وسع «سلاح الضباط» وحده في الأفواج المنطلقة للنهب الزعم بأنه بدأ مسيرته قبل جيل مع المفكيني الأصليين، من الموطن الواقع على بعد ألف وخمسمئة ميل جنوباً، ولكن القواعد التي عاشوا وحاربوا وفقاً لها لم تتغير، فالجميع يعتم بغطاء الرأس المميز الذي يعلوه الريش والخاص بالنجوني، ويطلق صيحات القتال ذاتها ويشنق أي رجل يظهر خوفاً في المعركة.

اندفعت إحدى المجموعات مرتدة على أعقابها لتحتل أرضاً خصبة قرب بحيرة مالاوي. وسرعان ما اكتسح الأمبيون قرى المنطقة المتناثرة بحرابهم المستخدمة في الطعن، واستعبدوا السكان وحشدوهم في قرى جديدة على النسق النجوني. ودرجت الجماعات المقيمة على شاطئ البحيرة والتي تقع في نطاق يمكن غزوها فيه على أن تبني مساكنها فوق ركائز في الماء على مسافة ليست بالقليلة من الشاطئ؛ وذلك بسبب كراهية النجوني المعروفة لخوض الماء[9].

كانت المنطقة التي استقر فيها هذا القسم من جيش زوانجندابا بمنزلة تقاطع طرق لتجارة شرقي أفريقيا بعيدة المدى؛ فالطرق تفضي شرقاً إلى كلوة، وغرباً إلى مناجم النحاس في كاتنجا، وباتجاه الشمال الغربي إلى بحيرة تنجانيقا. ومنذ ما قبل بداية القرن التاسع عشر كانت قبيلة تجارية محاربة هي قبيلة الياو، قد شنت غارات هنا للحصول على العاج والعبيد للبيع في كلوة كيفينجي (كلوة الملوك) وهي بلدة من بلدان البر الأفريقي، نمت لتغدو أكبر نقطة تجميع للعبيد في شرقي أفريقيا.

أقبلت القوافل السواحيلية في وقت لاحق سعياً وراء السلع ذاتها، وزاد الطلب على العبيد بمعدل كبير للغاية، بحيث إنه في ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان اليتامى الذين تم استيعابهم تقليدياً في عائلات أقاربهم يباعون للقوافل، والأمر كذلك بالنسبة إلى مقترفي الجرائم الهينة الذين كان يتم في الماضي الإبقاء عليهم في القبيلة كعبيد يقومون بأداء الخدمات المنزلية. ولم يوافق النجوني على هذا، حيث إن سياستهم كانت لاتزال القيام بإدماج الناجين من أبناء الأراضي التي غزوها في صفوفهم، وأفضى التنافس بينهم وبين مشتري العبيد من الساحل إلى سفك الدماء على مر عقود جديدة.

استنفد الاندفاع شمالاً من قبل المفكيني في نهاية المطاف طاقته على الهضبة الواقعة إلى الشرق من بحيرة تنجانيقا، وهناك تشظى النجوني متحولين إلى عصابات أقل عدداً تحيا على قطع الطرق، أو بالعمل كمرتزقة لدى زعماء القبائل الذين يرغبون في دعم القدرة القتالية لشعوبهم. وحتى ظهور القادمين الجدد المتوحشين من الجنوب، كان محاربو شرق أفريقيا ووسطها رجالاً ينتمون إلى القرى، لا يحملون حرابهم وتروسهم وفؤوسهم إلا في أوقات الخطر، وعندما ينحسر هذا الخطر، فإنهم يُنَحّون أسلحتهم جانباً ويعودون إلى مهامهم المعتادة؛ الصيد وجمع الشهد ورعي الماشية وصنع الأدوات.

بالمقابل كان النجوني طبقة من المحاربين المميزين، وفي بعض الأحيان تتحد العصابات المفردة للإغارة على قطيع، وعلى الدوام كانوا يواصلون استيعاب المقاتلين الشبان من القبائل المحلية في صفوفهم، ونشروا الذُعر الذي طالما كان هدفهم. وبالنسبة إلى الأفراد الذين عاشوا على الإغارة عليهم، كانوا يعرفون باسم «روجا -

روجا»، وربما كان مرد هذا إلى أنهم كانوا يدعون شعرهم يسترسل طويلاً ويضفرونه على شكل جدائل غليظة متدلية.

لقد احتفظ الروجا - روجا المنتمون إلى شرقي أفريقيا بغطاء رأس النجوني، الذي ساعدهم على أن يتبع أحدهم تقدم الآخر وسط الأدغال ذات الحشائش المرتفعة، ولكنهم غيروا عاداتهم في جوانب أخرى. فقد كانوا في بعض الأحيان يسدلون على أكتافهم قطعاً من قماش أحمر زاه، ويشيرون إليها عندما يواجهون خصماً ويصيحون ساخرين: «هذا هو دمك!» وشملت حليهم قلنسوات تتخذ من فروات رأس البشر، وأحزمة تتخذ من الأمعاء وقلائد من الأسنان. وفي إطار حرصهم على جعل أنفسهم محاربين لا سبيل إلى قهرهم كانوا يحتسون جرعات أعدت من أجزاء من جثث ضحايهم. وانتشرت حكايات عن هذه الممارسات الرهيبة في أرجاء شرقي أفريقيا، ومع ذلك فإن الأنباء التي تواترت عن الطريقة التي يستخدمون بها حرابهم في الطعن أثارت خوفاً أكثر عمقاً، فحتى الروجا ـ روجا الذين حصلوا على بنادق كانوا مايزالون يحتفظون بحرابهم.

عندما وصل النجوني إلى شرقي أفريقيا اتصلوا سريعاً بالنيمويزي (الذين وجد فيهم المبشر الأمريكي إبنزر تيرجيس «أغنى شعوب المنطقة وأكثرها دأباً»). وقد اتحدوا في إطار شبكة من زعامات القبائل، تمتد بين بحيرتي فيكتوريا وتنجانيقا وعبر الهضبة الوسطى، وهي أرض يقتضي الوصول إليها رحلة تستمر ثلاثة أشهر انطلاقاً من الساحل. وقد اختير قادة النيمويزي على الدوام بناء على المؤهلات القيادية، وليس على أساس نظام وراثي.

على امتداد القرون نشأت ممالك أفريقية وسقطت في هذا الإقليم، من دون أن يعرف عنها العالم الخارجي شيئاً، تاركة خلفها أثراً محدوداً لا يتجاوز أنظمة الري والأبنية المقامة باللبن. ومنذ بداية القرن التاسع عشر حل الدور على النيمويزي ليقيموا صرح مملكة من هذا النوع، وقد شعروا بأنهم لا يقلون جدارة بأي حال عن العرب وأبناء الساحل.

شأنهم شأن النجوني كان النيمويزي رحَّالين عظاماً، ولكنهم على العكس منهم عاشوا على التجارة وليس على الحرب، وقد غامروا بالمضي إلى الجنوب على امتداد أبعد شواطئ بحيرة تنجانيقا. وفي أكثر مواضع البحيرة إيغالاً نحو الجنوب، انعطفت قوافلهم غرباً إلى عاصمة الزعيم القوي كازيمبي، التي بلغها الرحالة البرتغالي سيئ الطالع فرانشيسكو دي لاسيردا في عام 1798، انطلاقاً من نهر الزامبيزي (ربما كان تجار النيمويزي هناك بالفعل عند وصول البرتغاليين، وبعد ستين عاماً قيل لديفيد لفنجستون إن رجال لاسيردا قد بدؤوا شجاراً مع زائرين بعينهم من بحيرة تنجانيقا، ولكن الملك أعاد السلام بإعطاء كل من الجانبين هدايا من العبيد). وقد اشتهرت أرض كازيمبي بأنها سوق يمكن فيها ابتياع نحاس كاتنجا «الأحمر»، وقد حمله النيمويزي عائدين به شمالاً في شكل أسلاك وخلاخيل[10].

بدأ النيمويزي في وقت مبكر من القرن التاسع عشر في الرحيل نزولاً باتجاه المحيط الهندي، حاملين معهم العاج وشمع العسل وبعض العبيد للمقايضة بقماش «الميريكاني» والخرز البندقي. ونادراً ما تمكنوا من التعامل بشكل مباشر مع سفن أوربا وأمريكا التجارية في زنجبار؛ لأن التجار المسلمين والهندوس كانوا قد رسخوا أقدامهم بالفعل على الساحل. وفضلاً عن ذلك فإن شهرة النيمويزي باعتبارهم سكان أرض بعيدة ذات فيلة كثيرة هي التي اجتذبت بعض العرب الأكثر جسارة إلى مرافقتهم في رحلات العودة إلى بلادهم. ويحكي التاريخ الشفوي للنيمويزي كيف أن رحالتهم الأوائل الذين وصلوا إلى المحيط الهندي عند باجامويو، قد التقوا «رجالاً مسترسلي اللحى» (العرب) وأطلعوهم على العاج «وعندما رأى العرب هذا أرادوا المضي إلى البلاد التي تم الحصول على العاج منها».

كان النيمويزي شعباً فخوراً وباسلاً، واشتهر أبناؤه بقوتهم في حمل الحمولات الثقيلة على امتداد مسافات كبيرة. وربما كانت قوافلهم بعيدة المدى هي التي حملت للمرة الأولى سلع الهند وأوربا المصنعة من الساحل إلى المجتمعات الأكثر بعداً حول البحيرات الكبرى، مثل مملكة بوغندا المزدهرة التي سرعان ما ستصبح هدف المبشرين وبناة الإمبراطوريات الأوربيين، ولم يصل أول التجار العرب إلى بوغندا الواقعة على بعد ثمانمئة ميل من المحيط الهندي إلا في أربعينيات القرن التاسع عشر.

بدا أن الصداقة بين شعب النيمويزي وزنجبار قد ازدهرت لبعض الوقت، لأنه في عام 1848 بعث زعماء قبائلهم بقافلة قوامها ألفا رجل إلى الساحل تحمل هدايا إلى السلطان. غير أنه مع إيغال القرن التاسع عشر في مسيره كان العرب قد سيطروا على المزيد والمزيد من طرق التجارة الرئيسية، وانحدر النيمويزي إلى حد كبير ليصبحوا حمالين أو مرشدين مأجورين يحملون العاج المشترى في الداخل الأفريقي، والذي يحرز أربعة أمثال سعره عند الساحل. وفي أي اختبار للقوة كان من المحتمل أن يفوز العرب، حيث كانت تصلهم كل البنادق التي يحتاجونها من التجار الأوربيين في زنجبار. وكما أشار بيرتون فإن إحدى الشركات الألمانية كانت تبيع ثلاثة عشر ألف بندقية سنوياً هناك. ومن ناحية أخرى فإن العرب كانوا محدودين للغاية في عددهم، وكان ولاء عبيدهم موضع شك على الدوام، وقد جعلهم هذا في رأي بيرتون «أقوى من أن يستسلموا من دون قتال» ومع ذلك «ليسوا على قدر كاف من القوة بحيث يقاتلون بنجاح».

أخذ تقدم العرب تدريجياً من الساحل سعياً وراء التجارة شكل نزعة استعمارية مراوغة زاحفة[11]، وعلى الرغم من أنه لم توجد خرائط تبين ممتلكات سلطان زنجبار، كما أنه – في رأي هاميرتون – لم يوجد «أي شخص في استطاعته أن يعين الحدود»، فإن العرب كانوا يستقرون في الداخل الأفريقي على نحو دائم. وكان الكثيرون منهم يعدون من القادمين الجدد إلى شرقي أفريقيا تجاراً من عمان هاجروا إلى زنجبار في أعقاب السلطان سعيد في عام 1840. وقد أقاموا جنباً إلى جنب مع زعماء القبائل التقليديين، وعلى نحو دائم اللطف والمجاملة تزوجوا من بناتهم، ولكنهم حافظوا على طريقة الحياة العربية، ونظروا إلى أنفسهم باعتبارهم السادة. وإذا ما سخطوا على زعيم قبيلة فإنهم كانوا يبادرون إلى إطاحته ثم يمارسون سلطانهم في اختيار من يخلفه.

في عام 1861 التقى جون سبيك في بعثته الثانية القائد النيمويزي مانوا سيرا «مع ثلاثين من أتباعه المسلحين الذين يحملون البنادق». وقد حكم مانوا سيرا أونيانييمبي، وهي أهم مقاطعات النيمويزي. وكان هناك في مركز أراضيه تجمع سكاني عربي هو «كازي» (الذي عرف في وقت لاحق باسم طابوره) في منتصف الطريق إلى بحيرة

تنجانيقا. وعندما حاول النيمويزي فرض ضريبة على تجارة العاج اندلعت حرب. وقيل لسبيك في وقت لاحق من جانب العرب إنه كان لهم جيش قوامه أربعُمئة عبد مسلحون جميعاً بالبنادق، على أهبة الاستعداد لمطاردة مانوا سيرا «الذي كان يقطع طريق قوافلهم تقطيعاً، وقد صادر لتوه بحسب أحدث الأنباء التي وردتهم قافلة بكاملها من قوافل ذخيرتهم». واستغرق الأمر من العرب أربع سنوات للقبض على مانوا سيرا وإعدامه.

الفصل التاسع والأربعون

بيان عند دار الفرضة (الجمارك)

سيصبح ازدهارنا - بمشيئة الله - مع مضي الوقت كازدهاركم، وحريتنا كحريتكم.

السلطان برغش، لدى تلقيه المفتاح التذكاري لمدينة لندن (12 تموز/ يوليو 1875)

لن يعرف العالم سلطاناً ثانياً كالسلطان سعيد، وما كان ذلك بالأمر الممكن الحدوث[1]. لقد اعتمد السلطان سعيد أسلوب تصفية أعدائه. وقد حظي بحساسية تكفل له النجاة دائماً، الأمر الذي سمح له بالإمساك بناصية السلطة على امتداد نصف قرن، وحوّل زنجبار التي جعل منها موطناً له إلى محور لإمبراطورية تجارية واسعة تمتد أطرافها إلى قلب أفريقيا. وقد لا تكون تلك إمبراطورية تلائم النحو الذي يفهم به الأوربيون هذا الاصطلاح على وجه الدقة، ولكن بحلول منتصف القرن كان سلطان زنجبار يُنظر إليه باعتباره جديراً بالاحترام العالمي.

ألهمت وفاته رسائل التأبين والرثاء من الملكة فيكتوريا «سببت الأنباء الأليمة المتعلقة بوفاته شعوراً حقيقياً بالأسف لدينا» والإمبراطور الفرنسي «السلطان سعيد الذي تحاط ذكراه بآيات التمجيد، والذي برهن على الدوام على أنه صديق مخلص ووفي لفرنسا» والرئيس الأمريكي «عاهل يطاع بمزيد من التوقير»[2]، [3].

مضت تجارة العبيد كعهدها بعد وفاته ولكن الكثير عدا ذلك شرع في التغير؛ فالسلطان الذي ترك وراءه أكثر من عشرة من الأبناء، نظر العديد منهم إلى نفسه بحسبانه مؤهلاً تماماً للحلول محله، وكان كل منهم من أم مختلفة ولم يكن هناك كبير ود بينهم.

حظي ولي العهد المعلن ماجد بميزة توليه قيادة جيش زنجبار، وتمتعه بتأييد البريطانيين. وقد حكم أخوه الأكبر ثويني في مسقط، وكان تحت إمرته قوة بحرية، ولكنه كان يتعين عليه عبور ألفي ميل في المحيط، قبل أن يكون بوسعه أن يعلق الآمال

على أن يوحد بالقوة شطري السلطنة في عُمان وزنجبار. وقد تمتع المنافس الثالث والأصغر سناً برغش بالميزة الأولية المتمثلة في كونه مع أبيه لدى وفاته في عرض البحر، وقد تمكن برغش من نقل جثمان أبيه إلى الشاطئ ودفنه في التو وفق العرف الإسلامي، ثم مضى إلى القلعة المطلة على مرفأ زنجبار، وتبددت آماله في انقلاب سريع لا لشيء إلا لأن ضابطاً بلوشياً ارتاب في الأمر ورفض تسليمه المفاتيح(4).

مع ذلك فإن برغش كان يحظى بتأييد العديد من الشرائح السكانية الزنجبارية، بمن في ذلك أبناء قبيلة الحوارث، وهي قبيلة عربية أقامت في شرقي أفريقيا طوال قرون عدة، وضاقت ذرعاً بالنفوذ الكبير الذي تمتع به البريطانيون كذلك العديد من الهديمو (العبيد) وهم المتحدرون من أصلاب السكان الأفارقة الأصليين في الجزيرة، وقد قاد العديد من التجار الأثرياء في زنجبار قبيلة الحوارث، وكان لديهم جيش خاص قوامه ألفا رجل.

تمهلت العاصفة في هبوبها ولم يلاحظ البريطانيون بصفة خاصة دمدماتها الأولى، حيث إن القنصل أتكنز هاميرتون كان قد توفي، وتركز كل الانتباه على التمرد الهندي. وحدث تأخير امتد طويلاً في إحلال قنصل آخر محل هاميرتون، وعندما وصل القنصل الجديد إلى الجزيرة برهن أنه على الرغم من كونه ضابطاً برتبة عقيد في الجيش الهندي، فإنه شخصية مختلفة أشد الاختلاف. فقد كان كريستوفر ريجباي رجلاً صريحاً ومتصلباً فيما يعتقده، بينما اعتمد هاميرتون على الدهاء، وكما أشار الكابتن الفرنسي جويليان في براعة، فإن دسائسه اختفت تحت ستار من «الحديث الودود والعكوف المرح على الشراب». ولكن ريجباي لم يلفظ الكلمات متصنعاً قط حول أي شيء أو أي شخص، وفي رسالة بعث بها إلى صديقه جيمس جرانت، وصف ريتشارد بيرتون بأنه «كاذب» و«جبان»(5).

بينما كره هاميرتون على الدوام الدخول في الشجار المباشر حول تجارة العبيد، أظهر ريجباي استعداده للشجار، وقد بدأ بالإصرار على أنه بما أن الهنود الذين يقطنون زنجبار هم جميعاً من رعايا بريطانيا، فلابد لهم من التخلي عن عبيدهم من الآن فصاعداً. وقد أحدث هذا على نحو متوقع ضجة كبرى، ولكنه نجح في تحرير ثمانية

آلاف من الأفارقة. وقد اعتبر أن مهمته هي أن يحرر العبيد حيثما صادفهم، وقد حكى مباهياً في رسالة إلى جرانت كيف أنه كان قد حرر في الهند فتى أفريقياً «فتى صغيراً حاد الذكاء» وأنه يرتب أمر ذهابه إلى إنجلترا، وأضاف ريجباي أنه مقتنع تماماً بأن الأفارقة عندما يتعلمون منذ سن مبكرة «لن يكون بهم نقص طبيعي مقارنة بأي عرق آخر»[6].

بمرور الوقت أدت عمليات المراوغة من جانب ماجد بشأن إيقاف تجارة العبيد إلى استفزاز ريجباي ودفعه لإدانته ووصفه بأوصاف حادة، ولكنه في البداية وقف في صفه ضد أخويه ثويني وبرغش. وقد كان أكبرهما سناً هو الذي بادر بالتحرك ضد ماجد؛ وذلك بتجميع أسطول غزو في مسقط، وعندما بلغت زنجبار أنباء الهجوم الوشيك، ذهل ريجباي لرؤية النطاق الواسع الذي بوسع ماجد أن يصل إليه لتجميع قوة دفاعية، فقد وصلت إحدى الوحدات من جزر القمر الواقعة بين مدغشقر وموزمبيق. وأقبلت وحدات أخرى من المدن التابعة الواقعة على امتداد ساحل شرقي أفريقيا، وجاء حملة الأقواس والسهام من مناطق بعيدة في الداخل الأفريقي، وقد وصفهم ريجباي بأنهم «رجال على قدر كبير من الضراوة لم يقتربوا من البحر من قبل قط».

ولم يكن عزمهم على القتال موضع اختبار قط، وقد عهد لسفينة حربية تابعة للبحرية الملكية بالانطلاق من بومباي للقيام بأعمال الدورية قبالة ساحل شبه الجزيرة العربية، وعندما أبحر أسطول ثويني من مسقط تم اعتراضه سريعاً، وكان التحذير من أن القوة ستستخدم إذا لم تعد السفن إلى المرفأ، كافياً للحفاظ على «السلام البريطاني» وتم تحييد ثويني.

وقع عبء التحدي الآن على كاهل برغش الذي قيل عنه إنه في حالة تقارب مع القنصل الفرنسي الجديد لاديسلاس كوشيه. وتمت تغذية ريجباي بهذا المفهوم بمزيد من الدأب، فتم إلقاء القبض على العديد من أقرب مناصري برغش ووضعت الأغلال في أيديهم، ثم سجنوا في لامو على البر الأفريقي. وخاف برغش من أنه هو نفسه أصبح معرضاً للاغتيال فأقام دفاعات حصينة حول قصره في مزرعة للقرنفل. وكانت سفينتان حربيتان تابعتان للبحرية الملكية راسيتين في المرفأ، وهكذا شن مئة بحار وجندي من مشاة البحرية تحت رئاسة ضابط برتبة ملازم هجوماً استغرق يومين، استخدمت فيه

المدافع وأحدها من طراز الهاوتزر (قاذف) والصواريخ، ولقي ستون من المدافعين عن القصر مصرعهم، واضطر السيد برغش إلى تسليم نفسه.

فتح هذان التدخلان القويان لمساعدة ماجد ضد أخويه صفحة مرحلة جديدة في العلاقات بين سلطنة زنجبار وحاميتها. بل وجاءت الخطوات التالية أكثر دقة وتعمداً، فقد أبلغ ريجباي برغش بأنه سيتم نفيه إلى الهند البريطانية. وقبل صعوده إلى متن إحدى سفن البحرية الملكية أجبر على أن يعد بأنه لن يقبل نصحاً من الفرنسيين أبداً[7]. وأرسل معه إلى الهند أيضاً أخ أصغر من إخوته هو عبدالعزيز، نظر إليه ريجباي كذلك باعتباره مثيراً محتملاً للمتاعب، غير أن هذا النفي لم يكن موجعاً إلى حد كبير؛ حيث قدمت الحكومة الهندية داراً رحبة في بومباي ومخصصات مالية وعربة تجرها الجياد.

شأنها شأن ربة بيت ترتب فناء دارها، قامت بريطانيا بدعوة ماجد وثويني إلى أن يطلبا منها القيام بالتحكيم في شأن العلاقات المستقبلية بين سلطنتيهما. ولما لم يكن أمامهما مجال كبير للاختيار فقد وافقا على ذلك، وقام عميد في الجيش الهندي بكتابة تقرير في هذا الشأن. وتمثلت مساهمة ريجباي في هذا التقرير، في التنبؤ بأن زنجبار المستقلة في استطاعتها - مع انتهاء تجارة العبيد - أن تصبح قاعدة قد يمكن انطلاقاً منها نشر الحضارة في الداخل الأفريقي.

كانت تسوية الخلاف بين مسقط وزنجبار عملاً يسيراً بالنسبة إلى اللورد «كليمنسي» كانينج، الحاكم العام للهند، الذي كان قد انتزع لتوه الراج من حمأة التمرد. وفي نيسان/ إبريل من عام 1861 أعلن كل منهما، من الآن فصاعداً، سلطنة منفصلة عن الأخرى. ولما كانت مسقط تتردى إلى الفقر، حيث لم يعد لديها ما تقدمه للعالم إلا التمر، فقد أمرت زنجبار بأن تدفع لها سنوياً أربعين ألفاً من دولارات ماريا تريزا، ولم يكن هذا بالأمر الذي لا تطيق احتماله زنجبار، حيث إنه يشكل حوالي خمس عوائدها من تجارة العبيد، ولكن هذا المبلغ لم يدفع بصورة منتظمة.

على الرغم من هذا الانفصال المفروض، لم يتمتع أي من السلطانين بالكثير من السلام الداخلي؛ فبعد خمس سنوات لقي ثويني مصرعه[8].

على الرغم من أن ماجد راوغ الخنجر القاتل، فقد هاجم رعاياه قصره للإعراب عن سخطهم على الأساليب العدوانية التي اعتمدتها البحرية الملكية البريطانية في مواجهة تجارة العبيد (لم يكن هناك مجال لإنكار أن بعض السفن التقليدية التي يتم الاستيلاء عليها في أعالي البحار ويجري إغراقها كانت بريئة تماماً من تجارة العبيد). وغدا القنصل ريجباي عدواً لدوداً لا يكاد السلطان يتبادل الحديث معه، في مفارقة حادة للود الصافي الذي كان قائماً قبل سنوات قلائل بين هاميرتون والسلطان سعيد. وعندما غادر ريجباي زنجبار بعد ثلاث سنوات حافلة بالصدامات، كانت مراسم الوداع خاطفة وباردة. وقد أشاد به رؤساؤه لـ «أعماله المتميزة» ورقي إلى رتبة جنرال، ولكنه لم يكن من قبيل الصدفة أن العقيدين اللذين اختيرا على التوالي لقنصلية زنجبار أحجما عن إقحام نفسيهما في الحملة المناهضة للعبودية.

والآن أصبح الأساس الوحيد للشكوى من جانب ماجد هو معاودة برغش الظهور، ولكن البريطانيين الذين لم يرفعوا أعينهم عن المستقبل اقتنعوا بأن الأخ الأصغر سناً قد أخذت عريكته تلين بعد العامين اللذين أمضاهما في بومباي، وأنه مقدر له أن يكون السلطان المقبل عندما يتوفى ماجد المعتل الصحة، وقد أرادوا أن يكون برغش قريباً عندما تحين تلك اللحظة، وقد عرف برغش بدوره فبقي خارج دائرة الضوء ومضى ينتظر.

ربما يفسر هذا قيامه باستخدام جانب من ثروته لإنشاء مدينة جديدة في البر الأفريقي هي دار السلام. وبعد قيام فرانك ويب القنصل الأمريكي الجديد بزيارة موقع المدينة كتب في تقرير إلى واشنطن يقول: «إن جلالته يعتزم جعل هذا المكان في نهاية المطاف عاصمة ممتلكاته»[9]. وتدخل القدر، ففي عام 1870 سقط ماجد ميتاً في قصره المنعزل في دار السلام، وتوفي عن ستة وثلاثين عاماً من دون أن يخلف وراءه من الذرية إلا ابنة، وأتيح المجال لبرغش ليصل إلى عرش السلطنة.

جاء وقت في منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر نظر فيه الرأي العام البريطاني إلى السلطان برغش باعتباره أحد «حكامه» الأجانب، وبحسبانه واحداً من تلك الشخصيات التي تتوافد على لندن، فيما يبدو أنه فيض لا نهاية له من الزوار من جميع أقطار العالم للإعراب عن تقديرهم، وليطاف بهم في أرجاء العجائب في قلب

الإمبـراطورية[10]. ولابد من الإقـرار بأن زنجبـار لم تكن على وجه الدقـة جـزءاً من الإمبراطورية، ولكن اسمها استقر في الوعي القومي باعتبارها المكان الذي وصل إليه جثمان البطل العظيم ديفيد لفنجستون في آذار/ مارس 1874، في طريق عودته إلى الوطن من مجاهل أفريقيا. وتواترت العديد من الروايات الرائجة التي دارت حول حياة لفنجستون وموته خلال الأعوام القليلة التالية، ونشرت فيها غالباً صور لبرغش مرتدياً أبهى ملابسه.

عندما قام برغش بزيارة رسمية للندن في صيف عام 1875 رافقه خلالها السير جون كيرك، الذي كان عضواً في بعثة لفنجستون الثانية لنهر الزامبيزي في الستينيات من القرن التاسع عشر، ويشغل الآن منصب القنصل العتيد في زنجبار (وقد كتب في وقت لاحق يقـول: «لدي كل السلطة التي يحظى بهـا طاغـيـة، ولكنني لدي طاغـيـة في قبضتي»)[11]، والتقى السلطان الملكة فيكتوريا وأمير ويلز وكبار أعضاء الحكومة. وأقيم في الكريستال بالاس عرض للألعاب النارية تكريماً له، وتألقت في سماء الليل الحروف العربية التي تشكل اسمه، وسافر في قطار ملكي لمشاهدة أعظم المصانع في شمالي إنجلترا، واصطحب لمشاهدة السباقات في دونكاستر وأسكوت. وخلال وجوده في أوربا زار كذلك باريس وبرلين ولشبونه.

تأثر السلطان تأثراً بالغاً بما شاهده، إلى حد أنه أمر بطباعة كتاب تذكاري باللغة العربية عن الرحلة. وأظهرته إحدى الصور في أسكوت واقفاً في عربة مكشوفة، وقد حمل بإحدى يديه نظارة متابعة السباق وإلى جواره أحد مرافقيه، والتف حول العربة جمع من الأرستقراطيين البريطانيين يبدون إعجابهم.

كان مضيفو السلطان على قدر من اللباقة منعهم من أن يذكروا له أن رحلته جاءت بمنزلة مكافأة لاستجابته قبل عامين لمطالب بريطانية تدعمها القوة حول تلك القضية الأكثر حساسية؛ وهي قضية العبودية، فالأنشوطة التي بقيت مرتخية حول عنق السلطان سعيد قبل خمسين عاماً، يحكم شدها الآن على نحو خانق حول عنق السلطان برغش. وكان القرار الذي اتخذ بفرض معاهدة جديدة على السلطان هو إلى حد كبير استجابة لغضب الرأي العام في بريطانيا، إزاء الأوصاف التي بعث بها ديفيد

لفنجستون إلى الوطن حول فظائع تجارة العبيد في الداخل الأفريقي. وكانت ماتزال تتردد في الوعي الوطني أصداء العاطفة الجيَّاشة لخطبه الموجهة ضد التواطؤ البرتغالي في هذه التجارة، والتي ألقاها خلال زيارته الأخيرة للوطن. ثم في خريف عام 1872 عاد الصحافي الأمريكي ذو المولد الويلزي، هنري مورتون ستانلي من بعثته للعثور على لفنجستون، وجلب معه رسائل من الطبيب البطل، تقدم روايات شاهد عيان على فظائع تجار العبيد العرب في الأراضي المجهولة الواقعة فيما وراء بحيرة تنجانيقا.

كان الرجل الذي اختير لمواجهة برغش هو السير بارتل فرير، أحد كبار رجال الحكومة الهندية[12]. وقد أمر بالذهاب إلى زنجبار في كانون الثاني/ يناير 1873 حاملاً رسالة من الملكة فيكتوريا. وأثارت الأنباء المسبقة حول زيارته قدراً كبيراً من الانزعاج، إلى حد أن صلوات خاصة قد أقيمت شعائرها في مساجد الجزيرة، غير أن ذلك لم يحل دون وصول أربع سفن حربية بريطانية إلى مرفأ زنجبار، وكانت هناك في الانتظار سفينة حربية أمريكية كذلك.

مضى فرير مصحوباً بحشد من كل ضباط المجموعة البحرية البريطانية، وقد ارتدوا الزي التشريفي الكامل، جنباً إلى جنب مع كيرك وموظفي قنصليته في أرجاء شوارع زنجبار لتسليم الرسالة الملكية لقصر السلطان برغش. ومضت الجموع الواجمة ترقب الموكب وهو يمضي في مسيرته. وأطلقت المدافع السلطانية طلقاتها تحية، وردت مدافع سفينة القيادة التحية هادرة. وأبلغ فرير في وقت لاحق وزير الخارجية بأن السلطان أخذ الرسالة «ووفقاً للعرف الشرقي رفعها إلى رأسه إجلالاً». ولربما أحس برغش الذي كان في تمام الإدراك لمحتويات الرسالة، بميل أكبر إلى إطاحتها أرضاً ودعسها بقدميه.

مرت الشهور ورفض برغش الانصياع للمطالب القاضية بأن عليه أن يأمر رعاياه بإنهاء كل عمليات النقل البحري للعبيد وإغلاق كل أسواق الرقيق في أراضيه، وذهب إلى القول بأن مزارع القرنفل قد تعرضت للخراب في العام الماضي بفعل إعصار، وهكذا فإن قوى العمل الجديدة من البر الأفريقي كانت شيئاً لا غنى عنه لإصلاحها ولإنعاش الاقتصاد. وبالإمكان تنفيذ المعاهدة الجديدة، ولكن بصورة تدريجية وإلا

حدث تمرد. وصاح برغش قائلاً: «إن حربة توجه إلى كل عين من عينيَّ، فبأيهما أختار أن أطعن؟».

حث مستشارو السلطان الموقرون مولاهم الشاب على مواصلة المقاومة، فأجرى اتصالاً مع ألمانيا وفرنسا ساعياً إلى حمايتهما له، ورحل فرير ساخطاً وقد عهد إلى كيرك بمتابعة المفاوضات، ولكن برغش كان ما يزال يحافظ على المظاهر؛ ففي عيد ميلاد الملكة فيكتوريا، أي 24 أيار/ مايو، أمر بإطلاق إحدى وعشرين طلقة تحية للمناسبة، وبعث إلى كيرك بخروف مطهو. وفي مساء اليوم التالي مضى لحضور حفل استقبال أقيم في القنصلية البريطانية. وقد افتقر الحوار على نحو يمكن تفهمه إلى روح الود، ولكن برغش قبل أن يغادر مقر القنصلية لاحظ وجود نسخة من الكتاب المقدس على مائدة؛ فقال في تحد للعديد من المبشرين الذين يقفون غير بعيد عنه، إنه «كتاب كريم أجاز العبودية كمؤسسة اجتماعية».

لم يكن يعرف أن كيرك كان يتحين اللحظة المناسبة ليوجه ضربته بعد أن تلقى أوامره الجديدة من مجلس الوزراء البريطاني قبل عشرة أيام؛ فالسلطان سيقال له إن سفناً حربية تابعة للبحرية الملكية في طريقها إلى زنجبار، وإذا لم توقع المعاهدة الجديدة فسوف يتم فرض الحصار البحري على الجزيرة. وبعد أسبوع مضى كيرك إلى القصر حاملاً هذا الإنذار النهائي، وقال: «لم أجئ للمناقشة وإنما لأملي ما لدي». وعندما قال برغش إنه يود الذهاب إلى لندن لعرض قضيته هناك، تم إبلاغه بأنه سيمنع من مغادرة الجزيرة، وقد أحبط هذا التحدي الصريح لسيادته خطة أخرى من خططه، قوامها العبور إلى البر الأفريقي وشن حملة مقاومة من هناك.

لم تكن ألمانيا ولا فرنسا قد استجابتا لمبادرات السلطان برغش ومطالبته لهما بتأييده، بل إنه في غمار شعوره باليأس فكر في التنازل عن العرش. وفي 5 حزيران/ يونيو 1873 استسلم، ووقع بياناً ألصق على جدار دار الفرضة (مكتب الجمارك) في زنجبار تضمن حظر نقل العبيد بحراً، وإغلاق كل أسواق الرقيق. وعرف الجميع الآن في يد من تستقر السلطة المطلقة.

الفصل الخمسون

لقاء سادة الداخل الأفريقي

يبدو أن هناك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن أجزاء من أروع مناطق اليابسة في العالم تمتد أرضاً يباباً، تحت غلالة الملاريا التي تكسوها، وفي ظل الفوضى التي حلت لعنتها فيها. وتتجلى لبعضنا فكرة مفادها أن مصيراً أفضل لا يزال في انتظار هذا الإقليم الذي حبته الطبيعة الكثير، وما تطوير أفريقيا إلا خطوة لا يزال يتعين أن نخطوها في تطوير العالم.

افتتاحية صحيفة «التايمز» اللندنية (9 كانون الأول/ ديسمبر 1873)

بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر كانت الخطوط الممتدة عبر خريطة أفريقيا لتبين رحلات الرحالة البيض قد بدأت في جعلها تشبه جالفر الذي قيده أقزام ليليبوت بالحبال، فالبعثة الرائدة التي قام بها بيرتون وسبيك إلى منطقة البحيرات الكبرى، سرعان ما تبعتها بعثة أخرى أكثر طموحاً صحب سبيك فيها الكابتن جيمس جرانت، وهو أيضاً ضابط من ضباط الجيش الهندي، وقد فتحا طريقاً برياً يمتد من زنجبار إلى القاهرة مروراً ببحيرة فيكتوريا - على نحو ما أسماها سبيك بدافع الولاء - وبالنيل[1].

كان الكثير ممن أقبلوا بعدهما منخرطين في السلك العسكري ذاته، ومنهم العقيد شارل كاليه لونج، وهو أمريكي وصل إلى بحيرة فيكتوريا انطلاقاً من السودان، وألف كتاباً عن تجاربه بعنوان **«حقائق عارية»**[2]. ومن بين «المكتشفين» الآخرين لبحيرة ألبرت هناك صمويل بيكر الصاخب الذي كان يطلق النار على الفيلة كما يذب الآخرون الذباب. وأول أوربي عبر أفريقيا من الشرق إلى الغرب هو فيرني لوفيت كاميرون؛ وهو ضابط اسكتلندي بحري انطلق من زنجبار على رأس خمسة وأربعين رجلاً من الأفارقة مسلحين بالبنادق التي تلقم من مؤخرتها. واتصف بالعدوانية منهم على نحو فريد هنري مورتون ستانلي، الذي كان قد خدم كلاً من طرفي الحرب الأهلية الأمريكية

ونظر إلى إطلاق صفة «المحارب» على أي شخص باعتبارها أعظم مجاملة له على الإطلاق.

كان هناك مفارقة حادة ما بين أسلوب مخترقي الدروب هؤلاء، الذين كانت بنادقهم معدة للإطلاق دائماً، وأسلوب الرحالة الأرفع ثقافة، والذين كانوا من الألمان بصفة غالبة؛ مثل هاينريش بارت الذي قام بدأب في الخمسينيات من القرن التاسع عشر بدراسة ثقافات الشعوب التي تقطن الأطراف الجنوبية للصحراء. ومع ذلك فسوف يكون من الخطأ افتراض أنه حتى أكثر الأوربيين ضراوة ومادية ممن مضوا يخترقون أفريقيا في تلك السنوات المبكرة قد تصرفوا كأعضاء منتمين إلى جنس انعقد له لواء السيادة. فهم لم يكونوا في وضع يجعلهم متصلفين، ذلك أن أفريقيا كانت ما تزال للأفارقة الذين عاملوا هؤلاء الزوار الذين لم يدعهم أحد، بوجوههم المتوردة وملابسهم غير المناسبة على أنهم أشخاص مثيرون للفضول إلى حد كبير، وكان السماح للبيض بالمرور يعني إسداء جميل لهم.

تمثل واجب زعيم كل قبيلة نحو شعبه في أن يكتشف بحسب التوقيت الذي يحدده، من هم هؤلاء المتسللون، وما هي نواياهم، وعليهم الانتظار إلى أن يعرف ذلك على وجه اليقين، ففي أفريقيا الكثير من الوقت. وكان لزعيم القبيلة كذلك الحق المستمد من العرف في أن يفرض الضرائب التي تعرف باسم «الهونجو». وكان بمنزلة تحد لكل الأعراف أن يضيق أحد هؤلاء الغرباء ذرعاً وينفذ صبره ويختار شق طريقه بإطلاق النار، فعندما يظهر الغريب التالي كان من المحتم أخذ الثأر بشكل من الأشكال.

من المؤكد أن تكتيكات التعطيل التي لجأ إليها كل زعيم صغير، والمطالبات التي لا تنتهي بالهونجو كانت مما يضيق به الصدر، ومع ذلك فإن اللجوء إلى القوة تعين على الدوام أن يكون آخر ما يتم اللجوء إليه، ذلك أنه إذا أخفق اللجوء إليها فليس هناك أمل في تلقي العون في رحابة «القارة السوداء». وحتى إرسال رسالة إلى العالم الخارجي كان مقامرة، فلو أن حامل هذه الرسالة وصل بها إلى الساحل بالفعل، فإن الرحلة يحتمل أن تكون قد استغرقت منه شهوراً عدة.

توضح مذكرات الرحالين الأوائل أنهم قد وجدوا أن السبيل الأكثر اتساماً بالحكمة هو التأقلم مع إيقاع أفريقيا والاستسلام لعادات مضيفيهم، وخاصة عندما يحلون ضيوفاً على حاكم ذي شأن. وربما تكون هناك حقاً مكافآت على اعتماد هذا السلوك. وكما اكتشف جون سبيك وجيمس جرانت، خلال الأشهر الستة التي أمضياها مع موتيسا كاباكا ملك بوغندا الشاب، فإن الحياة في المجتمع الأفريقي قد منحتهما فرصة مناسبة لكي ينحّيا جانباً المخاوف التي يعرفها المجتمع الفيكتوري.

عندما صدر كتاب سبيك بعنوان **«يوميات اكتشاف منابع النيل»** في أواخر عام 1863 أحدث دوياً واسعاً، فقد كانت الحكومة والجمهور في بريطانيا قد دفعا نفقات البعثة، وأكد السرد الذي يقع في ستمئة صفحة لمحنتها وانتصارها أنهما قد حصلا على ما يعادل النفقات. ومع ذلك فقد كان هناك شعور باللهاث في صفوف من قاموا بكتابة عروض للكتاب، حيال العجائب التي تستغرق نصف الكتاب تقريباً، وتصف كيف تصرف سبيك على وجه التحديد في بوغندا المملكة الغنية القوية (نواة أوغندا الحالية) الواقعة على الشواطئ الشمالية لبحيرة فيكتوريا.

بدا واضحاً من البداية أن الضابطين الأبيضين كانا في قبضة موتيسا إلى أبعد الحدود وتحت رحمة تقلباته المزاجية، والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو التعاملات مع نساء موتيسا. فهل كان من اللائق بالنسبة إلى ضابط بريطاني شاب أن يبلغ الملكة الأم السوداء بأن اتخاذ زوج جديد هو أفضل علاج للأرق الذي تعاني منه؟ وحسب رواية سبيك نفسه فإن الملكة الأم قد أمدته بخادمتين مرحتين، ولا بد أن ذلك قد وضعه في «وضع مربك» حسبما ألمح أحد كتاب عروض كتابه. ويصف سبيك بصورة متكررة ما تتصف به النساء البوغنديات من «دلال» وسلوك «آسر». وأثار ذلك كله المخاوف من أن الكابتن المتهور ربما يكون قد تصرف بطريقة لا تتناسب تماماً مع ممثل للإمبراطورية.

مثل هذه المخاوف ما كان يمكن التخفيف من حدتها لو أن القراء أتيح لهم أن يروا نسخ المراجعة الأصلية لمخطوط سبيك قبل أن يقوم الناشرون بتهذيبها[3]. فحتى بعد قيام الناشر في إدنبره عن بعد نظر وحكمة بحذف بعض الفقرات المنافية للحشمة، فإن سبيك يبرز من بين صفحات الكتاب باعتباره شخصاً ودوداً رحب الأفق لا يكبح

جماحه في غمار تعاملاته مع الأفارقة. وفي مفارقة حادة مع بيرتون، لم ينظر إلى الأفارقة هو وجرانت، باعتبارهم أدنى بطبيعتهم، وإنما على أنهم أناس سيئو الحظ عزلوا عن التيارات الرئيسة للحضارة. وقد شعر سبيك مع الكثير من معاصريه في الجيش الهندي بأنه يتفهم الأفارقة على نحو أفضل من تفهمه للهنود (يتضمن الفصل الأول من يومياته المصورة رسماً كاريكاتيرياً لتاجر هندي في زنجبار، وقد كتب تحته تعليقاً جاء فيه «تاجر من البانيان يتأمل دفتر حساباته»).

كان سبيك يكتب بعد أربع سنوات فحسب من طرح تشارلز داروين لنظريته في التطور. وكان «القائلون بتعدد الأصول» لايزالون يذهبون إلى القول بأن الأفارقة هم كائنات مختلفة تمام الاختلاف عن الأجناس البيضاء، وبصفة خاصة عن الأنجلوساكسونيين(4). وعلى الرغم من كل ضروب تحيز سبيك فإنه ما كان ليقبل شيئاً من هذا القبيل، فهو يقول في الفقرة الاستهلالية من مقدمة يومياته:

«إن القول بأن الزنجي غير قابل للتعليم هراء محض؛ لأن أولئك الفتية السود القلائل الذين تعلموا في مدارسنا قد برهنوا على أنهم أسرع تعلماً من فتيتنا، بينما فيما بينهم يعد عمق مكرهم وحضور بديهتهم شيئاً مدهشاً تماماً، ويظهر بصفة خاصة في تمكنهم من إطلاق الأكاذيب بطريقة عفوية تجعلها طريفة للغاية».

لقد اهتم سبيك بصورة أصيلة برفاهية الأفراد الذين قابلهم خلال رحلته الملحمية، وبعد ظهور كتابه أهاب بأوربا أن «تمد يدها» إلى أفريقيا الوسطى. وكانت هناك استجابة محدودة لهذا النداء في بريطانيا إلى حد أن الضيق استبد به وتحول بندائه إلى اتجاهات أخرى. وفي 25 آب/ أغسطس 1864 حظي بلقاء إمبراطور فرنسا، وكتب للوطن منتشياً من فندق الجراند أوتيل الذي نزل به في باريس يقول: «لقد ابتهج الإمبراطور حيال الإمكانية التي طرحتها عليه والمتمثلة في إنشاء إمبراطورية جديدة، وقال إنني بينما كنت أشق طريقي في النيل لتطوير هذه الأقاليم، كان هو يعمل انطلاقاً من الجابون باتجاه الشرق (إلى أن يجعل البحرين يلتقيان)». ولم يوضع وعد الإمبراطور الباذخ موضع الاختبار قط، فبعد ثلاثة أسابيع انتحر سبيك باطلاق النار

على نفسه، قبل ساعات من مناظرة علنية مقررة مع ريتشارد بيرتون حول منابع النيل. وأعلن أن إطلاق النار كان حادثة عرضية وليس عمداً[5].

مضت عشر سنوات قبل أن تصل بعثة يقودها أوربي إلى بوغندا من ساحل شرقي أفريقيا. وكان القادم الجديد هو هنري ستانلي الذي كان كبار مسؤولي الجمعية الجغرافية الملكية لايزالون يشعرون بالضيق حيال بحثه الناجح عن لفنجستون في عام 1871؛ لأن هذا الإنجاز قصد به زيادة الترويج لإحدى صحف نيويورك. وقد عقد ستانلي العزم الآن على اكتساب الاحترام، من خلال إنجاز الكثير للغاية متجاوزاً أي رحلات سابقة في أفريقيا الاستوائية في المسافات التي يقطعها ـ بحيث يتم إلزام منتقديه الصمت للأبد. وتمثلت إحدى المهام التي فرضها على نفسه في الإبحار حول مختلف جوانب بحيرة فيكتوريا، وقد قام بذلك بالفعل وأجرى أول مسح دقيق للبحيرة.

لدى وصوله إلى بوغندا ذهل حيال طرقها ودورها جيدة البناء ومزارعها المزدهرة. ومنذ البداية ذاتها أدهشته أخلاق شعبها و«شبه الحضارة» التي يتمتعون بها. وهو يصف وصوله إلى بلاد موتيسا من البحيرة بقوله: «على بعد نصف ميل، رأيت الأفراد على الشاطئ قد نظموا أنفسهم على شكل صفين كثيفين، وفي نهاياتهما وقف العديد من الرجال الذين يرتدون ثياباً فاخرة والتفوا بأثواب قرمزية وسوداء وبيضاء كالثلج، ومع اقترابنا من الشاطئ، أطلقت زخات من رصاص البنادق. . . ودوت أصوات قرع طبول عديدة في ترحيب صاخب، ورفعت أعلام ورايات وشارات، وأطلق الأفراد صيحة ترحيب عالية». ومنذ ذلك الوقت فصاعداً توالت مرات الإعراب عن الدهشة إحداها إثر الأخرى.

كان الأمر الأبعد احتمالاً الذي لم يتوقعه ستانلي هو الانطباع الذي تركه في نفسه متيسا (على نحو ما كان ستانلي يفضل هجاء اسمه) فعندما كان سبيك في بوغندا كان الكاباكا مجرد شاب متهور، غالباً ما يبدو متقلباً وقاسياً. أما الآن فقد بدا واثقاً من نفسه على نحو موح بالنضج «ترك متيسا انطباعاً قوياً في نفسي باعتباره أميراً لماحاً ومتميزاً، لو أنه تمت مساعدته بمرور الوقت من قبل أناس خيرين وأتقياء، فإنه سيعمل من أجل أفريقيا الوسطى ما يزيد على ما يمكن لخمسين عاماً من التبشير من دون مثل

هذه السلطة أن تقوم به. وأعتقد أنني أرى فيه النور الذي سيضيء ظلام هذا الإقليم الجاهل». ويعد هذا القول مديحاً استثنائياً، حيث يجيء من شخص تعكس كتاباته بصفة عامة كل خشونة الكتابة الصحافية الأمريكية.

أدرك ستانلي الآن أن أمامه مهمة أخلاقية، وكان أكثر صلابة من أن يعطي ذريعة لمنتقديه بالظهور بمظهر الذي وقع - شأن سبيك - في فخ الولع العاطفي. ويكرّس الكثير من الفصول الثمانية التي عقدها ستانلي حول بوغندا، لسرد الكيفية التي يساعد بها موتيسا على خوض غمار حرب، وعلى تحسين قدرته على إطلاق النار، وكذلك دفعه إلى التخلي عن ميوله إلى الإسلام والتحول إلى المسيحية(6). ففي العقد الذي انقضى منذ زيارة سبيك لبوغندا، كان العرب يتمركزون في العاصمة البوغندية وينشرون الإسلام، وقد شعر ستانلي بأن الفضل ينبغي رده إليهم في الكثير من وجوه التحسن في سلوك موتيسا، غير أنه اعتبر أن المبشرين المسيحيين يمكنهم إنجاز ما هو أفضل من ذلك.

يتسم نثر ستانلي في كتاب **«على امتداد القارة السوداء»** بوقع يشبه فرقعة السوط في المشاهد الحافلة بالحركة، ولكنه يحمل نفحة من الهراء عندما يتعلق الأمر بالكتابة عن الدين، وهذا يجعل الأمر ملحوظاً واستثنائياً بشكل أكبر عندما أدت رسالة بعث بها من بوغندا إلى أن تكون مصدراً لفيض لا مثيل له من الجهد التبشيري في شرقي أفريقيا، وعجلت بمجيء النزعة الاستعمارية.

كانت رسالته التي نشرت في **«الديلي تلجراف»** و**«النيويورك هيرالد»** في تشرين الثاني/ نوفمبر 1875 رائعة من روائع التباهي والتفاخر، حيث جاء فيها: «ولكن آه لو أن مبشراً ورعاً وعملياً جاء إلى هنا! يا له من حقل وحصاد نضيج ينتظر منجل الكتاب المقدس! لسوف يمنحه متيسا أي شيء يرغب فيه؛ الدور، الأراضي، الماشية، العاج... إلخ. لربما يجعل مقاطعة طوع بنانه في يوم واحد... إن المعلم المسيحي العملي هو الذي يمكنه أن يعلم البشر كيف يصبحون مسيحيين ويعالج أمراضهم ويشيد المساكن ويتعلم الزراعة، ويمكن أن يعمل يده في أي شيء، شأن بحار بارع، هذا هو الرجل المراد ها هنا، ومثل هذا الرجل إذا ما أمكن العثور عليه فسيصبح منقذ أفريقيا».

كان هناك الكثير على الغرار ذاته، وقدر ستانلي أن الكاباكا لديه مليونان من الرعايا، ينتظرون جميعاً من يخلصهم «ها هنا، أيها السادة فرصتكم، فاغتنموها!».
ولو أن موتيسا عرف أنه هو ورعاياه موضع نقاش محتدم على هذا النحو لابتهج كثيراً، فقد كان يريد بشدة حضوراً أوربياً في بوغندا؛ لأنه اعتقد أن ذلك من شأنه أن يساعده في إبعاد المصريين الذين كانوا يهددون بغزو إقليم البحيرات الكبرى، انطلاقاً من السودان وأعالي النيل (وهو الطريق الذي سلكه في وقت سابق كاليه لونج»[7]. وإذا تم اعتماد ما يقوله ستانلي من قبل الكاباكا، فإن الاستنتاج الذي يصل إليه هو أن الأوربيين لديهم الكثير من البنادق، وكانت البنادق إلى جوار زوجاته السبعمئة تشكل اهتمامات موتيسا الأساسية في الحياة. ولم يكن الدين واحداً من أعمق اهتماماته، فهو لم يعتنق الاسلام قط لأنه لم يستطع تحمل فكرة إجراء الختان له، وفي الإعراب عن رغبته في اعتناق المسيحية كان يساير فحسب ستانلي الراغب في ذلك رغبة جارفة. غير أن العالم الخارجي لم يقدَّر له أن يعرف ذلك.

في ألمانيا قرأ لودفيج كراف الذي أوغل في العمر ترجمة لهذه الرسالة، وكتب إلى الجمعية الكنسية التبشيرية في لندن، يهيب بها التحرك على نحو عاجل لخوض غمار المعركة مع الإسلام في قلب القارة. وقد تصادف أن تلك هي اللحظة التي أدت فيها حالات وفاة متتابعة من جراء الملاريا إلى الانحسار في العمل التبشيري في أفريقيا الاستوائية مجدداً، وكان آخر من لقي حتفه في أوائل عام 1875 تشارلز نيو، وهو مبشر ميثودي من أبناء الطبقة العاملة يحمل مثلاً عليا اشتراكية، أقام بين الأفراد الذين يسكنون قرب جبل كليمنجارو، وقد اشتهر أمره لأنه كان أول أوربي يتسلق الجبل وصولاً إلى خط الثلج الدائم به[8].

كان الحماس إلى الاستجابة للتحدي الذي طرحه ستانلي كبيراً للغاية إلى حد أن روبرت أرثنجتون، وهو مليونير متقشف يقيم في ليدز، عرض تمويل بعثة مسيحية إلى بوغندا إذا قادها كراف، ورفض كراف ذلك؛ فقد عرف أن أيام ترحاله قد ولّت، ولكن آخرين تحمسوا لذلك، وفي غضون ستة أشهر كانت الطليعة قد وصلت إلى زنجبار. غير أن الوصول إلى بوغندا كان شيئاً آخر، وكان أول بروتستانتي يصل إلى

هناك بعد ثلاث سنوات كاملة من إطلاق نداء ستانلي، هو اسكتلندي عنيد يدعى ألكسندر ماكاي. وكان العديد من رفاقه قد قتلوا، أو أودت الحمى بحياتهم ونقل آخرون إلى بريطانيا بعد إصابتهم بالمرض، ولسوف يدفع الكثيرون غيرهم أغلى ثمن في غضون عقد من الزمان.

كانت لدى الجمعية الكنسية التبشيرية مشكلة أخرى يتعين عليها التعامل معها؛ فقد عقد أصحاب العقيدة الكاثوليكية الرومانية فجأة العزم على اكتساب قلب وسط أفريقيا. وفي حزيران/ يونيو 1878 بدأت مجموعة مؤلفة من عشرة من الآباء البيض المسير باتجاه بوغندا انطلاقا من الساحل المواجه لزنجبار، وقد شكلوا مشهداً مهيباً في عباءاتهم الكهنوتية والصلبان تتدلى من مسابحهم الملتفة حول أعناقهم. وأظهرت قافلتهم المؤلفة من خمسمئة حمال ورجل مسلح بالبنادق قوة تصميمهم، وكان معظم هؤلاء الآباء البيض فرنسيين، وهو الأمر الذي كان مقصوداً لإثارة حنق بريطانيا، فقد بدأ التدافع الديني في الانطلاق نحو أفريقيا.

انتقل ستانلي من بوغندا قبل أن تتاح لأوربا الاستجابة لرسالته بوقت طويل، وبينما هو يغذ السير في اتجاه الجنوب الغربي نحو بحيرة تنجانيقا، تقاطع طريقه مع أراضي ميرامبو، ثاني القادة الثلاثة التاريخيين الذين قدر له أن يقابلهم في رحلته عبر أفريقيا(9). وكان ستانلي قد أوشك على مقابلة قائد النيمويزي الكبير قبل خمس سنوات في رحلته إلى بحيرة تنجانيقا للعثور على لفنجستون، وفي ذلك الوقت اجتذبه عرب الطابورة إلى مساعدتهم في حربهم ضد ميرامبو. ولم يشارك ستانلي إلا في اشتباك أولي؛ لأن اهتمامه الأساسي كان الاندفاع للعثور على لفنجستون. ومع ذلك فقد جمع حول الرجل من المعلومات ما يكفي، وقد كان في ذلك الوقت مجهولاً تماماً، لوصفه بأنه «بونابرت أفريقيا» وقد رسم صورة لميرامبو باعتباره زعيماً شاباً ماهراً يميل إلى قطع الطريق، وإلى خوض غمار حروب الأدغال.

في عام 1871 كان ميرامبو قد استولى تقريباً على الطابورة التي تعد التجمع السكاني الرئيسي للعرب في الداخل الأفريقي، وأحرق معظم دورها واستولى على مخازن كبيرة للعاج، كما أوقع في كمين أبرز سكانها، وهو تاجر عماني يدعى خميس

ابن عبدالله، وقتله. وقد كان خميس هو الذي أقسم في السابق على أن يقتل ميرامبو، تماماً على نحو ما سبق أن قتل حاكم النيمويزي «المتمرد» مانوا سيرا، واحتز رأسه قبل سنوات عدة.

ألمحت الصورة التي رسمها ستانلي لميرامبو في كتابه **«كيف عثرت على لفنجستون»** بشكل مبكر إلى أن زعيماً أفريقياً مهيب القدر على نحو غير عادي يسيطر على امتداد كبير من الأراضي الواقعة إلى الشمال الشرقي من بحيرة تنجانيقا، ويحاول - شأن مانوا سيرا سيئ الطالع من قبله - أن يكسر الاحتكار التجاري العربي. وشمل جانب من قواته من كان ستانلي قد دعاهم بـ «الروجا - روجا المخيفين» ورثة تقاليد محاربي النجوني.

تسربت حقائق إضافية قليلة أخرى حول ميرامبو إلى زنجبار في وقت لاحق وقام القناصل الأجانب هناك بتحليلها، فاسمه الحقيقي هو متيلا كاسندا، وقد جاء من خلفية تعود إلى زعماء القبائل، وبدأ في العشرين من عمره يطلق على نفسه الاسم الحربي ميرامبو، الذي يعني «الجثث» وهو بمنزلة تحذير صارم لأعدائه. ومن حيث المظهر كان طويل القامة مهيب الطلعة. وإذ أدرك في وقت مبكر أنه لن يتغلب على العرب بالحراب وحدها، فقد سلح محاربيه بالبنادق وابتاع أعداداً كبيرة منها بالعاج، أو غنمها خلال الغارات التي شنها على قوافل العرب.

كان سلطان زنجبار في غمار حرصه على حماية أراضيه في البر الأفريقي من هذا المنافس الوثني المغوار، قد أرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل مؤلفاً أساساً من المرتزقة البلوشيين، إلى الطابورة. وأدى افتقار حملة السلطان إلى الغذاء والقيادة الماهرة إلى عدم الوصول إلى شيء يذكر، وقد بلغت تكاليفها مئة ألف دولار، وتعين زيادة المكوس المفروضة على العاج والقرنفل في زنجبار لتغطية هذا المبلغ.

لما كانت نقطة ضعف ميرامبو البارزة هي البارود، فقد بادر السلطان إلى فرض حظر بحري عليه. وفي بداية عام 1874 بعثت القنصلية البريطانية التي كانت تملي على السلطان التكتيكات التي يعتمدها، بتقرير إلى وزارة الخارجية تشير فيه راضية إلى أن

ميرامبو «مجرد تماماً من الذخيرة» ولم يعد هناك ما يخشى منه «من جانبه أو من جانب أتباعه». ومع ذلك فقد نجا ميرامبو، وامتدت إمبراطوريته غير المحكمة في ترابطها الآن من شواطئ بحيرة فيكتوريا إلى الأطراف الجنوبية النائية من بحيرة تنجانيقا. وكان في بعض الأوقات يعلن الهدنة مع العرب، ولكن كان في استطاعته عندما يرغب أن يقوم بتجميع جيش قوامه سبعة آلاف رجل، مؤلف من رجال شعبه من النيمويزي وأتباعهم.

عندما التقى ستانلي بميرامبو عام 1876 كان هذا الأخير يدنو من ذروة قوته، وكانت عاصمته أورامبو، وهي مدينة يقطنها عدة آلاف من السكان، وقد نشرت أنباء مسيرته من أورامبو الذعر في أرجاء الريف الذي كان ستانلي يجتازه في رحلته، ولكن «بونابرت الأفريقي» لم يكن قد عزم على شن الحرب، وإنما كان حريصاً فحسب على أن يقدر حجم الرجل الأبيض الذي يمر بأراضيه. وبعث بثلاثة موفدين يسبقونه، هم من أعضاء حرسه الخاص الذين يرتدون أثواباً زرقاء وحمراء ويعتمرون عمامات بيضاء؛ ليسأل عما إذا كان الرحالة الأبيض يرغب في لقائه. وقد رد ستانلي بأنه «سيبتهج بعقد أواصر صداقة قوية» مع الزعيم.

بعد مصافحتهما الأولى أحس ستانلي بنفسه وقد «فتن تماماً» بهذا «السيد المهذب الأفريقي تماماً». الذي كان مختلفاً تمام الاختلاف عن الانطباع الذي حصل عليه عنه من العرب، وكتب في يومياته يقول:

«سيكون هذا اليوم من الأيام التي لا تنسى بالنسبة إلي بسبب زيارة ميرامبو الشهير... وهو رجل يبلغ طوله خمسة أقدام وإحدى عشرة بوصة، وفي حوالي الخامسة والثلاثين من العمر، حسن التكوين، ولكن جسده ليست به أوقية واحدة من اللحم الزائد، ويبدو جذاباً، متناسق الملامح، معقول المزاج، خفيض الصوت. ولم يشر هذا الرجل غير المتفاخر، الهادئ العينين، ذو المظهر الحليم وغير العدواني، والذي بدا حديثه معتدلاً من دون إشارة واحدة من يديه، إلى شيء من عبقريته النابليونية، التي أظهرها طوال خمس سنوات في قلب أفريقيا».

وفي ذلك المساء تعاهدا على الارتباط بأخوة الدم، وأحدث كل منهما جرحاً في ساقه اليمني فوق الركبة، واستخلص الدم ودلك به الجرح في ساق الآخر. وأعلنت لعنة تحل بمن ينتهك هذه الأخوة «ألا فليلتهمك أسد، ولتلدغك أفعى، وليكن المرار طعامك، وليهجرك أصدقاؤك، ولتصيبك بندقيتك، وليحل بك هاجس كل ما هو سيئ حتى الموت!». وفي اليوم التالي مضى كل منهما في سبيله، وأعطى ميرامبو أخاه الجديد حرساً لمرافقته مؤلفاً من خمسة رجال، للتأكد من أن أحداً لن يؤخره للمطالبة بالهونجو. وعلى نحو ما هو مألوف تمثلت هدية ستانلي الوداعية لميرامبو في مسدس وبعض الذخيرة.

كان ستانلي الرجل الأبيض الثاني الذي يرى ميرامبو الذي كانت في انتظاره شهرة أعظم (ومأساة نهائية). أما الرجل الأبيض الأول فهو تاجر عاج سويسري شاب يدعى فيليب برويون، كان قد غامر بالتوغل في الداخل الأفريقي قبل أشهر عدة، وقد أعطاه ميرامبو داراً وزوجة، ودعاه للاستقرار في أورامبو. وقد سمع ستانلي ببرويون خلال مسيرته، وبعث إليه برسالة يطلب فيها فيما يطلب زيت الخروع، وملحاً إنجليزياً، فبعث إليه برويون بزيت الخروع، مع قطعتين من صابون قشتالة، ونسخ من صحيفة «الفيجارو» تعود إلى ستة أشهر مضت.

بعد ستة أشهر وصل ستانلي إلى بلاد المانيما الواقعة إلى الغرب من بحيرة تنجانيقا، وكان الجزء الأسوأ من رحلته لايزال في انتظاره، وقد عرف أنه إذا استطاع الوصول إلى القناة الملاحية الرئيسة لآخر الأنهار العظيمة في أفريقيا الذي لم يتم مسحه بعد؛ وهو نهر الكونجو، وتتبع مجراه وصولاً إلى البحر، فإنه يكون قد سجل حدثاً تاريخياً. ولكنه كان يمكن أن يموت في غمار هذه المحاولة مع المئة وخمسين رجلاً الذين بقوا على قيد الحياة من رجال البعثة، ومن بينهم العديد من الزوجات والأطفال وفرانك بوكوك، وهو المساعد الأبيض الوحيد الذي لايزال على قيد الحياة من بين ثلاثة مساعدين بدؤوا الرحلة. وكانت البعثة تدخل الآن غابة كثيفة متتبعة نهراً قاتماً موحلاً يتضح فيما بعد أنه أحد فروع نهر الكونغو.

كان مصدر الخوف الذي يطبق بشكل مباشر على ستانلي هو أن كل رجاله تقريباً سيهجرونه خوفاً من مواجهة أرض مجهولة تماماً، وقد كان هناك العديد من التجمعات

السكانية التي تقوم بمطاردة العبيد وجمع العاج، والتي يديرها العرب والسواحيليون في أرض الداخل التي بلغوها، ويمكن للفارين من رجال البعثة في يسر الاختباء في هذه التجمعات السكانية قبل بدء رحلة العودة الطويلة إلى زنجبار. وكانت فرصته الوحيدة هي أن يجد طريقة للحفاظ على أفراد البعثة أثناء المسير إلى أن تغدو هذه التجمعات السكانية بعيدة للغاية، بحيث إن أياً من الفارين من رجال البعثة حين ينقلب على عقبيه سيلقى بالتأكيد حتفه على أيدي سكان الغابة المعادين.

كان حل ورطته يكمن في يد تيبو تيب الذي كان اسمه الحقيقي حامد بن محمد[10]. وكان حاكم تجارة العاج هذا ثالث أقوى الشخصيات في داخل أفريقيا الوسطى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد كان في شبابه صائد عبيد تقليدياً، على نحو ما توضح حادثة من بين حوادث عديدة في يومياته: «مضيت إلى كل أرجاء بلاد الزارامو، وفي غضون خمسة أيام أمسكت بثمانمئة رجل، وقد أطلقوا علي اسم الكنجوجوا - أي الفهد - لأن الفهد يهاجم من دون تمييز هنا وهناك، وقد صفدتهم بالأغلال جميعاً معاً، ومضيت بهم عائداً إلى مكامبا». وبحلول الوقت الذي التقى فيه ستانلي كانت ثروته وشهرته قد جعلتاه سلطاناً تقريباً، وتم حشد ما يزيد على ألفي حمال في قوافله المنطلقة إلى الساحل يحمل كل منهم ناب فيل.

لسوف يبرهن تيبو تيب الذي استمد لقبه من دوي رصاص بنادقه، على أنه - من بعض الجوانب - أكثر أهمية من كل من موتيسا أو ميرامبو. وقد بقي على قيد الحياة وقتاً أطول، وكافح - بلا طائل - من أجل الاحتفاظ بأراضيه الفسيحة في مواجهة الزحف الأوربي الذي لا سبيل إلى مقاومته. وصمد إلى أن بلغ الحد الذي لم يعد هناك أي أمل، ثم أعلن نفسه تابعاً حقيقياً لسلطان زنجبار البعيد وشدد على أن أراضيه جزء من إمبراطورية السلطان.

التقى ستانلي بتيبو تيب عند أحد أبعد التجمعات السكنية العربية، وكتب يقول عنه: «كان رجلاً طويل القامة، أسود اللحية، زنجي البشرة، في ريعان عمره، يسير منتصباً سريع الحركة، صورته مجسدة للطاقة والقوة، وله محيا لطيف يوحي بالذكاء، مع حركة عصبية متوترة من العينين». ولم يكن لقاء الأوربيين بالأمر الجديد بالنسبة إلى

تيبو تيب، فقد نشأ أساساً في زنجبار، وخلال رحلاته في الداخل الأفريقي التقى لفنجستون وأعطاه بعض الطعام، ولدى عودته إلى الساحل، حمل رسالة من لفنجستون إلى السير جون كيرك القنصل البريطاني في زنجبار. وفي وقت أقرب ساعد الضابط البحري فيرني لوفيت كاميرون في العثور على طريق آمن يفضي به إلى أنجولا.

على الرغم من أن تيبو تيب كانت له كل الأخلاق والمواقف التي لرجل عربي، فإن جذوره كانت عميقة في أفريقيا؛ فقد عاش أسلافه على الشاطئ السواحيلي طوال أجيال عدة (على نحو مختلف تماماً عن العرب العمانيين، الذين انتهزوا فرصة القدوم إلى زنجبار في أعقاب السلطان سعيد في أربعينيات القرن التاسع عشر). وكانت جدته جارية وزوجة أبيه الثانية ابنة زعيم قبيلة أفريقية. ونظر إلى ميرامبو باعتباره صديقه، على الرغم من دسائس العرب التي استهدفت الإيقاع بينهما، وكان بينهما احترام متبادل واتفاق على ألا يقاتل أحدهما الآخر أبداً، حيث إن كلاً منهما كان حاكماً على مناطق واسعة تقف بتخومها عند الشواطئ المتقابلة لبحيرة تنجانيقا.

في الوقت الذي التقى فيه ستانلي بتيبو تيب في تشرين الأول/ أكتوبر 1876، لم يكن هذا الأخير قد عاد إلى زنجبار منذ تسع سنوات، ولكنه كان يرسل بصورة منتظمة قوافل إلى الساحل تحمل العاج والعبيد، وكانت ثروته يقوم على حفظها تاريا توبان عميد التجار الهنود المسلمين في الجزيرة، وكان من الصعب التأثير فيه، ولكن ستانلي نجح في ذلك في اليوم الذي أعقب أول لقاء لهما، فتيبو تيب يتذكر في يومياته:

«صبيحة اليوم التالي مضيت لرؤيته فأطلعنا على بندقية، وقال لنا: «من هذه البندقية تنطلق خمس عشرة طلقة!» الآن لم نكن نسمع بمثل هذه البندقية التي تطلق خمس عشر طلقة، لم نعرفها، ولم نر مثيلاً لها. سألته: «من ماسورة واحدة؟» فقال إنها تخرج من ماسورة واحدة، وهكذا طلبت منه إطلاقها لنرى ذلك بأنفسنا. ولكنه قال إننا ينبغي أن ندفع أتعاباً تتراوح ما بين عشرين إلى ثلاثين دولاراً لإطلاقها لمرة واحدة. وفي قرارة نفسي، حسبت أنه يكذب. . . قلت له: «هناك في رومامي قوس واحدة تطلق عشرين سهماً، وعندما تطلقها فإنها جميعها تنطلق معاً، وكل سهم منها يقتل رجلاً». عند ذلك مضى إلى الخارج، وأطلق اثنتي عشرة طلقة، ثم سحب مسدساً وأطلق ست طلقات، وعاد فجلس في الشرفة، وقد أدهشنا ما رأيناه».

سارع ستانلي بعد هذه الحادثة إلى عقد صفقة مع تيبو تيب، حيث عرض عليه مبلغاً ضخماً هو خمسة آلاف من دولارات ماريا تريزا، إذا ما صحب البعثة برجاله لمدة شهرين. وكان الإغواء المتمثل في المال والتحدي لشجاعته، أقوى من أن يقاومه تيبو تيب. وحاول أعضاء أسرته تثبيط همته فقالوا له: «تمضي مع أوربي. هل فقدت عقلك؟ لديك مخزونك من العاج، فلماذا تتبع كافراً؟» وبلغهم تيبو تيب بألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم. ووقع عقداً مع ستانلي. وخلال أيام بدأ الانطلاق على متن زوارق تمضي في النهر العابس الذي تظلم آفاقه بفعل الأشجار المتدلية حوله، وبعد حين تابعوا الرحلة سيراً على ضفتيه. ونشبت سلسلة من الاشتباكات مع القرويين المعادين الذين رموهم بسهام مسمومة من الغابة الكثيفة، ولكن البعثة واصلت مسيرتها.

ثم حانت اللحظة الحاسمة لحظة الفراق، وحذر تيبو تيب رجال بعثة ستانلي من أنه إذا حاول أي منهم اللحاق به في رحلة عودته إلى بحيرة تنجانيقا فإنه «يقيناً سيقتلهم». ويورد تيبو تيب هذا في مذكراته، على الرغم من أن هذا التهديد لا يرد له ذكر في رواية ستانلي للأحداث. وهو بدلاً من ذلك يرسم صورة عاطفية لمراسم الوداع التي أقيمت في منطقة اجتثت منها الأشجار في الغابة، والتي توجتها وجبة من الأرز ولحم الغنم المشوي عشية الرحيل. وفي صبيحة اليوم التالي، 28 كانون الأول/ ديسمبر عام 1876 استمع ستانلي إلى أغنية وداع تتناهى خافتة عبر الأشجار، ينشدها رجال تيبو تيب، بينما جدف رجاله مندفعين بزوارقهم إلى «المدخل البراق إلى المجهول».

في غضون عشر سنوات من هذه الرحلة تغير مجرى التاريخ الأفريقي بأسره.

الفصل الحادي والخمسون

فشل رجل الأعمال الخيرية الإسكتلندي

> لا شك في أن النمويزي شعب نشط، وقد قاموا تحت قيادة زعيمهم ميرامبو بالاعتراض بنجاح على العرب[1]، وهم يبشرون تحت قيادته الفعالة بأن يصبحوا أمة مزدهرة ومسالمة ومتحضرة. وقد تم بنجاح تسيير أمور محطة تبشيرية في الجوار المباشر لمدينة ميرامبو على امتداد العامين الماضيين. اكتسبت نفوذاً مدهشاً على يد هذا الزعيم يُسَخَّر لأجل الخير، حيث يقول الزعيم إنه قد عقد العزم على أن شعبه وبلاده سوف يتعلمان ليحتلا مكانهما بين الأجناس المتحضرة.

إدوارد هور - من الجمعية التبشيرية بلندن (1883)

مع امتلاك المحاربين الذين يدينون بالولاء لميرامبو وسادة الحرب الأفارقة الأقل شأناً المزيد والمزيد من البنادق مضى ميزان القوى في البر الأفريقي يتغير، فعلى الرغم من أن هذه الأسلحة ربما لا يعتمد عليها غالباً، فإنها وضعت موضع الهزء والسخرية القول السائر القديم إنك عندما تعزف على الناي في زنجبار، فإن الأفراد امتداداً حتى البحيرات الكبرى سوف يرقصون على أنغامه. فقد افتقر التجار العرب في زنجبار إلى الرجال أو الإرادة لدخول حروب فتح في الأدغال الأفريقية ضد أناس لديهم بنادق يحاربون بها، وإذا ما أرسل العبيد ليحاربوا في الأراضي الرئيسية لأفريقيا، فإن ذلك سيعني تجريد مزارع الجزيرة من قوتها العاملة، وهم على أي حال قد يهربون وينقلبون على سادتهم السابقين.

هكذا فإن دعوى السلطان برغش بسيادته على مساحة كبيرة من شرقي أفريقيا قد اعتمدت على أنشطة الساعين وراء الغنائم؛ من أمثال تيبو تيب الذين أبقوا على ثرواتهم وعائلاتهم في زنجبار، وعندما يخرجون كل بضع سنوات من إقطاعياتهم في الداخل[2]، فإنهم يعبرون إلى الجزيرة من باجامويو؛ لكي ينحنوا أمام السلطان برغش ويؤكدوا له ولاءهم. وحيث إنه ما من أحد آخر كان يؤكد السيادة على البر الأفريقي،

باستثناء حكامه المحليين بالطبع، فإنه كان يحس بالرضا والأمان لمعرفته بأن كل صادرات البر الأفريقي من العاج والمطاط البري والصمغ الراتنجي تشق طريقها عبر زنجبار.

كانت المكوس التي يجمعها كافية لكي يبدأ في تسديد ديونه للممولين الهنود، حيث إن الصادرات من الجزيرة قد ارتفعت من حيث القيمة من سبعمئة وخمسة وستين ألف دولار في عام 1843 إلى ما يزيد على أربعة ملايين دولار في عام 1879. وعلى الساحل كان العرب يديرون مزارع كبيرة بالاستعانة بقوة عمل من العبيد السود، وعادت مدينة ماليندي التي ظلت أطلالاً خربة طوال قرنين لتضج بالحياة من جديد وتحاط بمزارع الذرة والسمسم.

لقد ازدهرت تجارة شرقي أفريقيا إلى هذا الحد الكبير بفضل ذلك الحدث الذي طال انتظاره في المقام الأول؛ وهو افتتاح قناة السويس. وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت تخشى القناة قبل شقها وتنظر إليها على أنها أداة للنزعة الاستعمارية الفرنسية التي قد تهدد الراج، فإن الواقع برهن على أن الأمر بخلاف ذلك تماماً؛ فقد قام رئيس الوزراء البريطاني بنجامين دزرائيلي عام 1875 سراً بالحصول لبريطانيا على حصة قوامها 43٪ من أسهم شركة القناة، وذلك باقتراض أربعة ملايين من الجنيهات الأسترلينية من عائلة روتشيلد لابتياع كل أنصبة الخديوي إسماعيل المفلس[3]. وقد هيمنت البحرية الملكية البريطانية على البحرين المتوسط والأحمر من قواعدها في جبل طارق ومالطة وعدن، وهكذا فقد قوت القناة الروابط بين بريطانيا والهند، بل والمحيط الهندي بأسره[4].

كان معنى هذا كله أن زنجبار لم تعد في موضع خلفي من المحيط الهندي، منعزلة في الجانب الممتد طويلاً من أفريقيا، فعلى امتداد أربعة قرون تقريباً منذ عهد فاسكو داجاما كان الطريق البحري الوحيد الذي يربط الجزيرة بأوربا هو ذلك الذي يمر برأس الرجاء الصالح، أما الآن فإن القناة تقرب شرقي أفريقيا من المناطق الصناعية في نصف الكرة الشمالي (وتمثلت إحدى النتائج العرضية لذلك في التقلص الحاد الذي طرأ على التجارة الأمريكية مع زنجبار، فقد بدأت الجغرافيا تلقي بثقلها كثيراً في غير صالح التجار الآتين من نيو إنجلاند).

هكذا بدا المشهد العام مقبولاً في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، بالنسبة إلى كل من السلطان والقنصل البريطاني السير جون كيرك. وكان السلطان برغش قد نجح في أن ينحي جانباً الذكريات المريرة المتعلقة بمعاهدة مناهضة العبودية لعام 1873 بعد زيارته لأوربا التي ابتهج لها كثيراً. وكانت لديه الآن الثروة التي يمكنه بها أن يبتاع لشعبه بعض التحسينات التي تليق به؛ فتم سك عملات تحمل اسمه، ونقلت المياه النقية عبر الأنابيب إلى مدينة زنجبار من ينابيع في داخل الجزيرة، لتحل محل الإمدادات الملوثة التي جلبت من الآبار. واعتبرت الجالية الأوربية من المظاهر الأخرى للتقدم أن يتردد السلطان في قطع رؤوس السجناء الذين تصدر أحكام الإعدام ضدهم علناً بالطريقة التقليدية، فيتركهم بدلاً من ذلك مودعين في سجن زنجبار.

مع مغيب شمس كل يوم، يقف السلطان برغش في شرفة قصره مع رجال بلاطه مطلاً عبر البحر إلى البر الأفريقي إلى أن يطلق مدفع وتعزف الموسيقى السلام الوطني وينزل العلم الأحمر. أما ما هو أكثر من ذلك، فإن رعاياه لم يتخلوا عن تجارة العبيد على الرغم من معاهدة عام 1873، بل كان الأمر أبعد ما يكون عن ذلك، حيث قدر كيرك أن حوالي خمسة وثلاثين ألف أسير أسود كانوا لايزالون يجلبون سنوياً إلى ساحل شرقي أفريقيا من أرض الداخل[5]، [6].

لم يكن السلطان برغش قد أنجب ورثة لعرشه إلا بعد عودته من أوربا إلى زنجبار، إذ أنجبت له زوجته (وهي الزوجة الوحيدة) ابنين[7]، وعندما كانا لايزالان وليدين، سأل السلطان عما إذا كانت بريطانيا تضمن وراثتهما العرش من بعده ورعايتهما إذا ما توفي وهما لايزالان قاصرين. وقد رفضت بريطانيا ذلك مستخدمة الحجة الملغزة القائلة إن ذلك قد يفسر على أنه تدخل، ويشكل انتهاكاً لمعاهدة أنجلو-فرنسية حول استقلال زنجبار. وفي حقيقة الأمر فإن بريطانيا أرادت تجنب أي التزام فيما يتعلق بمن سيكون السلطان التالي، إذا ما كان سيوجد سلطان تال حقاً، ولسوف يحين الوقت بالنسبة إلى نجل السلطان برغش الذي سيبقى على قيد الحياة، لخوض تجربة التدخل البريطاني في أكثر صورها إضراراً.

تعمد القنصل كيرك عن طيب خاطر أن يظهر التوقير للسلطان برغش، بعد أن ضغط عليه أشد الضغوط للوصول إلى معاهدة عام 1873. وفي أحاديثه الخاصة مع أصدقائه ألمح إلى أنه في استطاعته أن يدير أمور زنجبار على نحو أفضل بالاعتماد على نفسه، دون الكثير من الوقت المهدر في «حوارات مطولة مع السلطان»[8]. وقد كان كيرك شخصاً شديد الاعتداد بنفسه ويخفي ذلك بخفة وراء قناع من الورع، وقد استثمر على الدوام الحقيقة القائلة بأنه قد عمل مع البطل العظيم لفنجستون فيما يتعلق بنهر الزامبيزي. وقد وصف هنري ستانلي لقاءه الأول مع كيرك بقوله: «تخيلت في تلك اللحظة أنه قد رفع جفنيه بصورة لماحة، فبدت عيناه مستديرتين واسعتين، وأستطيع أن أصف هذه النظرة بأنها تحديق بملء العين». وقد تزلف كيرك بصورة فجة لمن يشعر أنهم أشخاص مهمون ما عدا صحافياً من صحيفة أمريكية، وعندما نشرت الصورة القلمية التي رسمها له ستانلي في كتاب **«كيف وجدت لفنجستون»** لم يغتفر كيرك له ذلك قط.

أياً كان مدى ضيق القنصل، فإنه لم يكن بحاجة إلى القلق حول أن الذم الصحافي له سيسيء إلى مكانته لدى المسؤولين في لندن، فقد كانت حكومته تشعر بالرضا عن العناية التي يرعى بها المصالح البريطانية في جزء من «الإمبراطورية غير الرسمية». وتم على نحو مناسب دعم التصور القائل بأن اهتمامه الأول كان رعاية حقوق السلطان، عندما قامت الحكومة المصرية بتحرك مسلح مفاجئ عن طريق البحر الأحمر لإقامة قاعدة في المحيط الهندي. وقد لقي الخديوي إسماعيل خديوي مصر تشجيعاً في هذه المغامرة من قبل الجنرال تشارلز جوردون[9]، الذي كان يعمل من أجله في السودان، وكان قوام الفكرة هو فتح طريق عبر البر إلى بوغندا التي علق جوردون الآمال على استيعابها في إمبراطورية أعالي النيل المصرية، وكان من بين قادة هذه القوة الضابط الأمريكي السابق شارل كاليه لونج، الذي وصل في السابق إلى بوغندا انطلاقاً من السودان.

لقد نزلت الوحدة المصرية المؤلفة من خمسمئة رجل في المرفأين الصوماليين برافا وكسمايو، اللذين يشكلان التخوم الشمالية لأراضي السلطان برغش، وتم إنزال

الأعلام الزنجبارية فيهما ورفع العلم المصري مكانها؛ وأدت هذه الإهانة إلى فيض من الرسائل الدبلوماسية بين لندن والقاهرة وزنجبار. وتمثل رد الفعل الأول من جانب السلطان برغش في طلب شراء صفقة كبيرة من البنادق الإنجليزية، وأبحر كيرك إلى برافا للتحقيق في الأمر، ولكن قبل وصوله في بداية عام 1876 كانت القوة المصرية قد رحلت، فقد أذعن الخديوي لضغوط لندن. وكتب كاليه لونج يقول بمرارة إن أهداف البعثة كانت «علمية وتجارية» لجلب الحضارة إلى بلاد الداخل الأفريقي «غير أن البعثة قد استدعيت قبل أن يتم تحقيق هدفها المشروع»[10].

كان «الغزو» المصري - بغض النظر عن قصر مدته - نذيراً بما سيعقبه، حيث مضى جوردن لضم أعالي النيل لمولاه في القاهرة، وحدث تطور آخر على نحو سريع (على الرغم من أن مغزاه الحقيقي لم يبد جلياً بصورة فورية) فقد عقد ليوبولد الثاني ملك بلجيكا مؤتمراً دولياً في خريف عام 1876 أعلن ظاهرياً أنه يستهدف مناقشة الطرق التي يمكن بها نقل الحضارة إلى قلب أفريقيا. وفي تلك اللحظة كان ستانلي لايزال يبذل قصارى جهده للوصول إلى الأطلسي في رحلته الملحمية عبر نهر الكونجو. والتقى رجال الأعمال والمستكشفون والمبشرون معاً في بروكسل، وهم يبدون دهشتهم حيال الروح الخيرية الحميدة التي أبداها العاهل البلجيكي[11]. واستعاد أحد الاقتراحات المطروحة مشروع كراف الذي مضى عليه أكثر من عشرين عاماً، والذي يقضي بإقامة خط من المستوطنات يمر عبر القارة بأسرها، ووافق الجميع على أن المكان الذي يتعين البدء منه هو شرقي أفريقيا.

سرعان ما سيغدو واضحاً أن دوافع ليوبولد تتجاوز العمل الخيري؛ فقد كان في قرارة نفسه يستشعر الغيرة من ابنة عمه الملكة فيكتوريا لكونها ملكة على إمبراطورية تغطي سبع مساحة يابسة العالم، وكان قد كتب يقول قبل وقت طويل من إنشاء «الرابطة الدولية الأفريقية» بهذا الصدد: «البلجيكيون لا يقومون باستغلال العالم، وينبغي تعليمهم اكتساب هذا التوجه». فقد أوشك التسابق على أفريقيا أن يبدأ.

مع بداية عام 1879، كانت أولى بعثات ليوبولد «العلمية» تنطلق من زنجبار إلى الداخل الأفريقي، وعلى الرغم من أن أعضاءها قد عانوا الأمرين من جراء الحمى، فإن

الملك لم يقر بالهزيمة. وتم القيام بمحاولة ثانية مع حمل المؤن على ظهر فيلة سيلانية مدربة، وليس بالاستعانة بالحمالين الأفارقة الذين كانوا يميلون على نحو يثير الضيق البالغ إلى الفرار، حيث تم إنزال أربعة من الفيلة إلى الشاطئ قرب دار السلام، وبدأت مسيرتها الطويلة إلى بحيرة تنجانيقا، وحملت الفيلة وهي ذكران وأنثيان المؤن بمعدل ما يحمله خمسة عشر حمالاً بالنسبة إلى كل منها. ونفق الذكران من جراء الإصابة بالسكتة الدماغية في وقت مبكر من الرحلة، ونفقت إحدى الأنثيين قرب نهاية الرحلة، ولكن الفيلة التي بقيت على قيد الحياة والتي تدعى بولمالا، وصلت إلى قاعدة الرابطة في كاريما قرب الطرف الجنوبي للبحيرة.

في ذلك الحين كان ستانلي قد أكمل رحلته الكبرى عبر أفريقيا، وسارع ليوبولد إلى الاستعانة بخدماته لاجتياز ما سيطلق عليه مستقبلاً دولة الكونجو الحرة، التي تبدأ من الساحل الأطلسي. وكانت فكرة اختراق القارة من الغرب نحو منابع نهر الكونجو فكرة جديدة وجريئة، ولكنها كانت تعني أن ليوبولد سيكون له عدد أكثر محدودية من المنافسين. وقد فكر كذلك في توظيف جوردون الذي كان قد استقال من منصبه في السودان، ولكنه كان في إحدى مراحله الأكثر هوساً، وقد تملكته هستيريا دينية، ومضى يكتب رسائل مطولة ومتوترة إلى أخته أوجستا، ولم يكن بالرجل الذي يمكنه أن يحتل قارة من دون أن يطرح أسئلة محرجة. وهكذا اكتفى ليوبولد بالاستعانة بستانلي الذي سيتقدم بمرور الوقت نحو منابع نهر الكونجو، حيث كان تيبو تيب مايزال مهيمناً، ويعلن سيطرته على هذا الإقليم كجزء من إمبراطورية السلطان برغش غير المحددة على وجه الدقة.

في نهاية السبعينيات من القرن التاسع عشر كان المزيد والمزيد من المبشرين يضربون جذورهم في شرقي أفريقيا، وكل منهم يأمل في أنه قد وجد ميادين التبشير الأكثر وعداً بالعطاء، ولم يردعهم معدل وفيات رهيب في صفوفهم، ولا ذبح مجموعة كانت قد سبقت في محاولة للوصول إلى سهول بوغندا الخصبة. واستقر بعض المبشرين إلى جوار بحيرة تنجانيقا، بينما استقر آخرون بصحبة زعماء أفارقة قرب كليمنجارو. واكتسب ميرامبو زعيم النيمويزي بصفة خاصة الإعجاب من المبشرين من خلال ترحيبه

بهم في أراضيه، ودعوتهم للبقاء في عاصمته أورامبو. وقد بدا أنه يوجد ها هنا ملك أفريقي قوي على استعداد لتلقي كلمة الرب[12].

بدأت هذه التطورات تثير قلق العرب الذين استقروا في الداخل الأفريقي، وكان في وسعهم إدراك أن هؤلاء البيض الجدد القادمين لم يكونوا مهتمين بنشر دينهم الغريب في صفوف أمثالهم من المسلمين، وإنما أرادوا مصادقة «الأوشنزي» أو «الوثنيين» وحدهم. وحاولوا إقناع ميرامبو بأن المبشرين ليسوا إلا عبيداً من البيض هاربين من «سلطان أوربا» ولكنه لم يقتنع بذلك، وسرعان ما رأى فرصة سياسية متاحة له في صداقته المزدهرة مع البيض. فإذا كان بمستطاع سلطان زنجبار أن يكون لديه مسؤول رسمي بريطاني مقيم، يتحدث باسم الملكة فيكتوريا، فإنه بدوره يريد مثل هذا المسؤول.

كان كيرك يدرك مدى قوة ميرامبو، وقد تعاطف مع ندائه الذي يطالب فيه بقنصل لدى بلاده، ولكنه كان يعرف أنه ليس هناك مجال لتلبية هذا النداء. ومن حسن الحظ أن الجمعية التبشيرية اللندنية كانت قد قررت أن تبعث إلى «بونابرت الأفريقي» بأقرب شخص إلى القنصل. وكان ساوثون مثل كيرك طبيباً، حتى وإن لف الغموض مصدر مؤهلاته العلمية. وعلى الرغم من أنه بريطاني فقد أمضى جانباً من حياته في تكساس، وقد استقر سعيداً في أورامبو، ومضى يعالج السكان المحليين من أمراضهم ويحاول أن يدير مدرسة، ويزرع المحاصيل. وقد أطلق رحالة بلجيكي يدعى جيروم بيكر على داره وصف «جنة عدن مصغرة». وكان ساوثون قد نسق حديقته على النمط الأوربي، حيث يقسم البستان طريق مشجر، زرعت أشجار الموز الفارعة على جوانبه. وأشاد بيكر بالطبيب لاعتماده أساليب تكساس «وتلك السرعة في التنفيذ التي يتميز بها رواد العالم الجديد».

أصبح ساوثون هو الكاتب الذي يملي عليه ميرامبو رسائله، وبعث بفيض مطرد من الرسائل إلى كيرك، وأعرب عن شكواه عندما تبطئ الرسائل في الورود. وبدأ ميرامبو يشعر بأنه من القوة بما يكفي للمطالبة بإبعاد حاكم الطابورة العربي المرسل من قبل السلطان برغش، وقد حذر السلطان بقوله: «لسوف أقود شعبي للقتال، وأقول إنني

لن أكون مسؤولاً عن تعرض أي قوافل للهجوم، وسوف يغلق الطريق، وإذا ما قتل أوربي أو عربي، فلا توجهوا اللوم لشعبي». وعلى نحو ما أوضح للزوار الأوربيين، فقد كره العرب لأنهم نظروا إليه نظرة دونية باعتباره «مشينزي» (بربريا) وعلى الرغم من ذلك فإنه إذا استطاع الوصول إلى سلام مشرف فإنه سيلتزم به. ولبعض الوقت بدا كما لو أن كيرك وبرغش قد يستسلمان لمطالب ميرامبو، ويسمحان له بأن يكون حاكماً معترفاً به لامتداد رحب من أرض الداخل الأفريقي، لقاء وعد بحرية الحركة للقوافل التجارية. ولو أن الأمور سارت على ما يرام لربما أثر ذلك مادياً في طبيعة النزعة الاستعمارية المطلة برأسها. وقد واصل ميرامبو مدّ نطاق سلطته، بينما راح ينتظر صابراً أن تبعث إليه الملكة فيكتوريا بقنصل يمثلها.

كان إيقاع الأحداث في البر الأفريقي يتسارع بصورة جلية، ولذا أشار كيرك على السلطان برغش بأن أضمن طريقة بالنسبة إليه لحماية المصالح الزنجبارية هي أن يضع نفسه بصورة أكبر تحت جناح بريطانيا. وفضلاً عن ذلك فإن جيش الجزيرة بحاجة إلى قائد قادر على فرض انضباط صارم عليه وجعله على أهبة الاستعداد على الدوام، وباختصار فإنه بحاجة إلى ضابط بريطاني. ووافق السلطان على ذلك، واختار كيرك الرجل المناسب لهذه المهمة، وهو ملازم من البحرية الملكية يدعى لويد ماثيوز، كان قد خاض غمار الحرب التي شنت لغزو ساحل الذهب (غانا) ومن الممكن منحه إجازة مفتوحة من أسطول المحيط الهندي، لأداء هذه المهمة الجديدة على اليابسة. وبدأ ماثيوز عمله بثلاثمئة مجند أفريقي، وفي غضون ثلاث سنوات قفز هذا العدد إلى أربعة أمثاله[13]، وكان هذا الجيش هو جيش السلطان برغش ولكنه يطيع أوامر الأنجليز.

في هذه اللحظة حدث تطور آخر، كان يمكن أن يغير مصير زنجبار ويؤثر في مستقبل شرقي أفريقيا، وجاءت قوة الدفع من مليونير اسكتلندي، هو السير وليم ماكينون، الذي بدأ حياته العملية كاتباً لبقال في «مول أوف كنتاير» ثم هاجر إلى الهند، وكون ثروة من التجارة وأنشأ خطاً ملاحياً عبر المحيط الهندي. وكان أول اتصال لماكينون بشرقي أفريقيا قد تم في أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر، عندما بدأ خطاً تجارياً منتظماً للسفن التجارية بين عدن وزنجبار[14]، وسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين

ماكينون وكيرك باعتبارهما اسكتلنديين، وقد رحب القنصل على الدوام بالأثرياء وبالغ في إطراء صاحب الخط البحري على مبادرته وعلى عمله من أجل المساعدة في نشر المسيحية والحضارة. وكانت هذه المجاملات من جانب أحد رفاق لفنجستون القدامى بمنزلة موسيقى في أذني السير وليم الذي صار في الخمسينيات من عمره الآن، وقد شعر بأن الوقت مناسب لإنجاز أعمال طيبة.

عندما عقد ليوبولد في وقت سابق مؤتمره في بروكسل، كان ماكينون بين أعضاء الوفد البريطاني، فقد كان من الطبيعي أن يدخل السرور على نفس هذا الرجل العصامي أن يشارك في الأعمال الخيرية مع أحد رؤوس أوربا المتوجة، ولكن بعد مرحلة غزل مع الرابطة التي أنشأها ليوبولد، مضى ماكينون يسير في الطريق الذي اختاره لنفسه، فقد استقر عزمه الآن على أنه لا يريد أقل من الحصول على امتياز واسع النطاق من السلطان، يضم كل إمبراطورية زنجبار في البر الأفريقي، على أن يدوم هذا الامتياز سبعين عاماً.

منحه كيرك كل تشجيع ممكن، بل وقام بعملية استطلاع للموانئ الموجودة بين دار السلام وكلوة، لتبين أفضل موضع يمكن لماكينون أن يبدأ فيه طريقاً برياً، تمضي عبره العربات التي تجرها الجياد إلى بحيرة مالاوي التي اختيرت باعتبارها أفضل موضع للتجارة والتبشير. وكتب القنصل بحماس إلى لورد ديربي وزير الخارجية البريطاني، في نيسان/ إبريل 1877 متنبئاً بأن المشروع بكامله سينهي تجارة العبيد، وينشر النظام والعدالة، ويجلب الثراء للسلطان برغش، ويرفع عن كاهله عبء محاولة السيطرة على البر الأفريقي، حيث سيقوم بهذا كله مشروع ماكينون الذي يعد صورة حديثة من شركة الهند الشرقية.

بدا السلطان برغش محبذاً للفكرة منذ البداية، ربما لأنه اعتقد أن من شأنها أن توقف الاندفاع جنوباً من قبل المصريين المرهوبين الجانب. وتصور كيرك الذي يفترض أنه يرعى مصالح السلطان، أن هذا الأخير لم يتفهم بصورة حقيقية «الطبيعة العملاقة» للامتياز، وآمن اللورد ديربي بوجهة النظر ذاتها: «لست أعتقد أن السلطان يعرف ما هو بسبيله؛ فهو يفكر في تخويل كل سلطته تقريباً والتنازل عنها بتوقيع هذا الامتياز».

بمضي الوقت تفهم السلطان الأمر على نحو أفضل فأثار الاعتراضات، وطرح الاقتراحات المضادة، وتم تقديم مسودة منقحة من الامتياز، ولكنه لم يجر حسم شيء فيما يتعلق بها. وفي غضون ذلك أظهر ماكينون ثقته في الامتياز بإرساله فريقاً من العمال من بريطانيا لبدء شق الطريق المفضي إلى بحيرة مالاوي، وشرعوا في العمل على الرغم من نصيحة كيرك قرب دار السلام، ولم يحدث شيء ملموس بصورة أكبر لأن الجميع مضى ينتظر إشارة الموافقة من الحكومة البريطانية.

لم يصل الرد، فقد تتابعت الشهور وانحسرت شجاعة ماكينون التي بدا أنها بلغت ذروتها في بداية عام 1877، وذلك بحلول منتصف العام التالي، وربما تمثلت الضربة القاتلة للمشروع في تولي اللورد سالزبوري الذي لم تكن لأفريقيا في ذلك الوقت أدنى أهمية بالنسبة إليه، منصب وزير الخارجية خلفاً للورد ديربي، وقد ساوره الشك في أن هذا التأييد الكامل لهذا المشروع غير المألوف قد يورط بريطانيا في وضع معقد مع «الأجناس البربرية».

بحلول نهاية عام 1878 كان المشروع الذي ربما كان من شأنه أن يضع شرقي أفريقيا تحت الحماية البريطانية، قد لفظ أنفاسه الأخيرة، وتم التخلي عن الطريق الذي كان قد امتد باتجاه الداخل لمسافة تزيد قليلاً عن سبعين ميلاً، وسرعان ما نمت الأدغال فوقه من جديد. وحرص كيرك على التأكيد على أنه إذا ما تم توجيه اللوم إلى شخص بعينه، فإنه لن يكون هذا الشخص. فقد كتب إلى هوراس وولر، وهو صديق له نفوذه في لندن، يقول: «لقد سئمت وضجرت من الرياء الذي يحدثني به الجميع عن وجهات نظر ماكينون النزيهة [كذا في الأصل] يا للهراء! إنني في المقام الأول لا أصدق هذا الذي يقال، وإذا ما صدقته، فلست أعتقد أن من شأنه أن يفيد أفريقيا»(15) بل إن كلماته الأخيرة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1878 تبدو أكثر اتساماً بالشعور بالمرارة: «لقد أهدرت الفرصة، ولم يكن ماكينون قط على قدر كاف من الحماس لها بحيث يجعل منها مشروعاً ناجحاً»(16).

الفصل الثاني والخمسون

الإمبريالية تمقت الفراغ

يا حامد، لا تغضب مني، فلم تعد بي رغبة في أن يكون لي شأن بالبر الأفريقي! الأوربيون يريدون انتزاع زنجبار مني، فكيف لي بالحفاظ على البر الأفريقي؟ إن من ماتوا والذين لا يرون من هذا شيئاً، هم الذين يعرفون السكينة حقاً.

السلطان برغش لحامد بن محمد (الملقب بتيبوتيب) تشرين الثاني/ نوفمبر (1886)

في الوقت الذي تم خلاله التخلي عن طريق ماكينون بدت طموحات الملك ليوبولد الاستعمارية مكشوفة أمام أعين الجميع، على الرغم من أن الآمال التي علقها على الاستيلاء على حوض نهر الكونجو بأكمله سرعان ما سيتم إحباطها، من خلال معاهدة أبرمها ضابط من البحرية الفرنسية هو بيير سافورنان دي برازا. ومضت الأحداث في طريقها في أماكن أخرى سراعاً، ففي غربي أفريقيا كان البريطانيون يحتلون ساحل الذهب، ويسيطرون على التجارة في نهر النيجر. وفي مدغشقر كان أسلوب الخطوة-خطوة الذي تبنته فرنسا يجعل من ضم الجزيرة إلى فرنسا كما أعلن لويس الثالث عشر في القرن السابع عشر حقيقة واقعة بعد مرور وقت طويل، وشرعت إيطاليا في تحقيق مطلب لها في القرن الأفريقي[1].

حتى النقاط الأمامية المحتضرة الخاصة بالبرتغال في موزمبيق وأنجولا كانت تستحث للعودة إلى الحياة. وأبلغ وزير خارجية سابق هو جواو دي أندرادي كورفو، البرلمان البرتغالي بقوله: «في اعتقادي أن مصلحة بلادنا تقتضي بصورة عاجلة القيام بتطوير مستعمراتنا، فمن خلال هذه المستعمرات وحدها ستتمكن البرتغال من أن تحتل المكان الذي تستحقه بين الأمم، وتعتمد عظمتها المستقبلية على الحفاظ على المستعمرات وعلى ازدهارها».

من الغريب أن القوة الأوربية الوحيدة التي لم يكن لها موطئ قدم في أفريقيا، والتي تفتقر إلى أي اهتمام جلي للحصول على أي موطئ قدم لها كانت ألمانيا. غير أن المظاهر

كانت خداعة؛ ففي عام 1878 تم تشكيل رابطة للجغرافيا التجارية وتنشيط مصالح ألمانيا في الخارج. وفي العام التالي ثار اهتمام الرأي العام الألماني بفضل كتيب ألفه مبشر بارز هو فريدريش فابري، بعنوان **«هل تحتاج ألمانيا إلى مستعمرات؟»**. وأشار فابري في حماس إلى أنه يتعين العثور على فرص بهذا الشأن في أفريقيا، وتزايدت قوة الدفع، وقال المؤرخ هاينريش فون ترايتشه إن: «كل أمة نشطة» لها مستعمراتها، وفي عام 1882 كان قد تم إنشاء رابطة ألمانية للمستعمرات.

تزامن مع ذلك تواتر الطلب من جانب المنتجين الصناعيين من أرجاء أوربا كافة على أسواق جديدة؛ لأن الركود الاقتصادي كان مستمراً، وساد الإجماع على أن أفريقيا قد بدت خير مكان لبيع فائض الإنتاج فيه. وكما عبرت صحيفة غرفة تجارة لندن، فإن النزعة الاستعمارية يمكن أن تكون الحل أي من خلال: «تكرار التحرك الذي أسس إمبراطوريتنا الهندية في أفريقيا الوسطى».

ظل القنصل كيرك الذي هيمن على الأمور في زنجبار، على يقين من أن بريطانيا يمكن أن تحدد الإيقاع الذي يسير عليه الجميع. وأعرب للورد سالزبوري عن رأي مفاده أن مشروع ليوبولد «المصطنع» ربما سيمنى بالفشل في الكونجو، وبلجيكا أضعف من أن تبادر إلى إنقاذه. «لأبناء وطننا موطئ قدم أفضل على الساحل الشرقي، وهو موطئ قدم ليس من المحتمل أن نفقده». ومع ذلك فقد اقترح كيرك على لندن في عام 1881 أنه قد يكون من المفيد القيام بتعيين حدود أراضي السلطان برغش في البر الأفريقي، فقد كانت إحدى الورطات فيما يتعلق بـ «الطبيعة الهائلة» لامتياز ماكينون الوليد أنه ما من أحد كان في وسعه أن يحدد على وجه اليقين مدى ضخامته، وكما سبق للقنصل هاميرتون أن لاحظ منذ وقت طويل، فإنه لم تكن هناك خريطة لممتلكات السلطان.

لم يلق اقتراح كيرك آذاناً صاغية، فلو أن بريطانيا قامت بتعيين الحدود فقد يطلب منها ذات يوم الدفاع عنها. وقد عبر لورد ريبون نائب الملك في الهند الذي عينه جلادستون والذي يشاركه وجهات نظره المناهضة للإمبريالية بوضوح بالغ عن الأمر بقوله: إن بريطانيا ربما تغامر بإقحام نفسها في أمور ليس لها فيها نفوذ حقيقي «من دون إنفاق مالي وعرض للقوة لا يتناسبان بحال مع المزايا، التي يمكن اكتسابها». وقد حملت وجهات نظر ريبون ثقلاً يعتد به، فقد أمعن التفكير في حماقة المشروعات

الإمبريالية في المناطق النائية الموحشة، وقد كان يخوض غمار جهد كبير لإخراج بريطانيا من حرب عبثية في أفغانستان.

بينما وضعت بريطانيا ثقتها في الوضع القائم، ازدادت الحياة في داخل شرقي أفريقيا تقلقلاً مع ازدياد أعداد الرحالة البيض، وارتحل مبشرون من مختلف الأنواع باتجاه البحيرات، جنباً إلى جنب مع علماء الطبيعة والجغرافيين ومنتهزي الفرص الذين يصعب تصنيفهم. ومال المبشرون العاديون، وهم في الغالب حرفيون هاربون من الفقر في بلادهم، إلى التخلي عن العمل من أجل الرب، والتحول إلى تجارة العاج. وكان من الصعب بصورة أكبر رصد دوافع بعض المتسللين. وفي عام 1880 بدا أن بعثة ألمانية تعكف على دراسة الإمكانيات التجارية قرب كاريما، وهي المستوطنة المطلة على بحيرة تنجانيقا التي رحبت بآخر الفيلة السيلانية. ولم يحظ عمل هذه البعثات إلا باهتمام محدود؛ حيث إنه ما من أحد جرى تكليفه بهذه المهمة. ولم يكن بوسع السلطان برغش الذي توالت عليه المضايقات إلا أن يحث المغامرين التجار من أمثال تيبوتيب الذي قام بإحدى زياراته النادرة لزنجبار في عام 1882 على العودة إلى الداخل الأفريقي، وإبقاء أكبر قدر يستطيعونه من التجارة في أيد عربية.

كانت السلطة كلها في حالة غياب، ومضى القرويون الأفارقة ومجموعات العصابات التي تنتقل سعياً وراء فرص النهب، ترقب بعين الحسد الرجال البيض المزودين بالمعدات بوفرة وهم يمضون في طريقهم، وفي بعض الأحيان كان الإغراء أقوى مما ينبغي. ففي عام 1878، قام أربعمئة من رجال الروجا - روجا باكتساح قافلة الفني البريطاني وليم بنروز التي كانت تنقل محركاً إلى بحيرة فيكتوريا لحساب الجمعية الكنسية التبشيرية، ولقي بنروز مصرعه ونهبت مستودعاته. وكان مهاجموه الذين يرتدون عباءاتهم الحمراء ويعتمرون أغطية رؤوسهم العالية ذات الريش، تحت قيادة أحد سادة الحرب، وهو رجل أعور يدعى نيونجو - يا - موي (ومعنى الاسم الوعاء الحجري الذي لا ينكسر) كانت أرضه على مشارف أرض ميرامبو العظيم[2].

ثم وقع حادث أقرب إلى الكارثة عام 1880، فقد قام رجال الروجا - روجا التابعون لميرامبو بقتل بريطانيين آخرين بعد قتال يائس. وكان فريدريك كارتر، وهو كابتن بالجيش الهندي، واسكتلندي شاب يدعى توماس كيدنهيد عضوين في فريق حاول

إدخال فيلة حمل الأمتعة إلى شرقي أفريقيا. وأثار نبأ مصرعهما غضب كيرك، وكانت هذه هي نهاية إمكانية القبول بميرامبو، على الرغم من نداءاته من أجل الصفح عما جرى، وتأكيداته بأنه الآن ينبذ الروجا-روجا، وينظر إليهم على أنهم ليسوا أفضل من «قطاع طرق». ورفض كيرك استقبال مبعوثيه، أو الإصغاء إلى الرسائل التصالحية التي جلبها مبشرون من البيض الذين كان بعضهم قد أصبح ينظر إلى ميرامبو على أنه رجل دولة أسود. وعندما قام تيبوتيب الذي كان آنذاك في طريقه إلى الساحل بزيارة قائد النيمويزي، طلب منه هذا الأخير المساعدة في تحسين العلاقات مع القنصل. وقد بعث كيرك برسالة مهذبة، ولكنه لم يغير قط رأيه القائل إن ميرامبو لا يعدو أن يكون سيد حرب جامح[3].

بحلول ذلك الوقت كانت صحة ميرامبو قد أخذت في التراجع، على الرغم من أنه لا يأكل إلا القليل ويمقت الكحول، ولايزال في أوائل الأربعينيات من عمره، ولربما كان بالإمكان أن يساعده نصح صديقه الطبيب ابنزر ساوثون، ولكن هذا الأخير كان قد توفي، فقبل عامين أصيب بالرصاص في ذراعه من بندقيته، وعلى الرغم من عمليتي بتر بدائيتين أجراهما رفاقه من المبشرين، فإن داء الغرغرينة تمكن منه. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1884 رقد ميرامبو بدوره في فراشه محتضراً من جراء مرض في الزور لم يتم تشخيصه، وفي نهاية المطاف قام أتباعه بخنقه وفقاً لما جرى عليه العرف.

كان الحاكم البوغندي موتيسا الذي دفعت الطاقات الكامنة فيه ستانلي إلى إطلاق نداءه المدوي لمبشري أوربا، قد توفي قبل شهرين من وفاة ميرامبو. وعلى نحو ما كان هذان الرجلان أسعد حظاً من تيوتيب؛ فقد أفلتا من إذلال الإعصار الإمبريالي، الذي كان يوشك على الانطلاق.

اجتاحت سلسلة الأحداث التي بدأت في أوائل عام 1885 سكان شرقي أفريقيا بسرعة بالغة، إلى حد أنهم لم يتح لهم الوقت لإدراك حقيقة ما يجري؛ ففي 27 شباط/ فبراير، وبعد مؤتمر برلين الذي كان هدفه المعلن هو الحفاظ على حرية التجارة في أفريقيا الاستوائية، أصدر المستشار بسمارك[4] بياناً وقعه القيصر فيلهلم، يتضمن إعلان الحماية على أجزاء من البر الأفريقي المواجه لزنجبار، على أساس اثنتي عشرة معاهدة، جلبها معه إلى الوطن شاب ألماني وطني النزعة؛ يدعى كارل بيترز، من بعثة

سريعة قام بها إلى الجماعات الصغيرة الممتدة لحوالي مئة وخمسين ميلاً إلى الداخل الأفريقي، انطلاقاً من الساحل، وهي جماعات اليوسجولا، والأوجورا، واليوساجارا واليوكامي.

بمساعدة البراندي والرشوة كان بيترز قد تمكن من إقناع الحكام والقادة المحليين البارزين بوضع أختامهم على وثائق تسلم أراضيهم للرايخ. ومن الأمثلة على هذه المعاهدات «معاهدة صداقة أبدية» وقعت مع «سلطان المانجولجو في أرض المسوفيرو» وفيها يقدم هذا الحاكم المحدود النفوذ «كل أراضيه، مع حقوقها المدنية والعامة للدكتور كارل بيترز، باعتباره ممثل الجمعية الألمانية للمستعمرات، للاستخدام الحصري والشامل للاستعمار الألماني».

كان بيترز وهو لايزال في العشرينيات من عمره، يدفعه إلى حد كبير حسده لبريطانيا التي عاش فيها سنوات عدة. وقبل اختياره أفريقيا فكر في محاولة الاستيلاء على جزء من البرازيل لحساب وطنه. وكانت عيناه المصابتان بقصر النظر والمحدقتان عبر عدسات ألمانية لهما نظرة جريئة ضارية، وقطع مع رفيقين لم يسبق لهما أن زارا أفريقيا من قبل المرحلة الأخيرة من الرحلة والممتدة من عدن إلى زنجبار على متن سفينة بريطانية. وقد استخدموا أسماء مستعارة، وتظاهروا بأنهم حرفيون، وسافروا في درجة المسافرين على سطح السفينة. وقدر لأحد الرحالة الألمان الثلاثة أن يلقى حتفه خلال جولة إعداد المعاهدات اليائسة هذه، ومضى بيترز متعثراً وهو يوشك على فقدان الوعي إلى مقر بعثة ألمانية صغيرة على الساحل في النهاية، قبل أن يسارع بالعودة إلى برلين بقصاصات ورقه المشكوك فيها.

لم يكن السير جون كيرك المتربع بجلال في القنصلية البريطانية بزنجبار، قد ألمّ بأي شيء يتعلق ببعثة بيترز قط، وقد صدم من جراء ازدواجية المسألة برمتها[5]. وربما كان حرياً به أن يأخذ حذره، حيث وصل إلى زنجبار قبل أشهر قلائل قنصل ألماني جديد، هو جيرهارد رولفس، الذي عرف كرحالة في أفريقيا، حيث حقق شهرة مدوية بعبوره الصحراء من طرابلس إلى لاجوس. لماذا أرسلت مثل هذه الشخصية البارزة إلى شرقي أفريقيا؟ لقد تبين أن بسمارك كان يعرف طوال الوقت ما يقوم به بيترز؛ ففي تشرين الثاني/ نوفمبر 1884 بعث ببرقية إلى القنصلية الألمانية في زنجبار، وقد سلمت هذه

البرقية إلى بيترز لدى وصوله، وجاء فيها أن الحكومة الألمانية لا تتحمل أي مسؤولية عن أعماله. وفي الشهر ذاته كان بسمارك يؤكد للسفير البريطاني في برلين أن ألمانيا ليست لديها أي مخططات فيما يتعلق بزنجبار.

ربما كان الاهتمام الذي أبدي في بريطانيا بقنبلة بسمارك أقل مما كان يمكن توقعه، فقبل ثلاثة أسابيع وصل نبأ مصرع جنرال جوردون الذي قضى عليه المهديون في الخرطوم[6]. وقد وصلت بعثة الإنقاذ متأخرة أكثر مما ينبغي. ودوت هذه الكلمات الرهيبة «متأخرة أكثر مما ينبغي» في بريطانيا. ولكنه كان كذلك من المتأخر أكثر مما يجب أن تتم مساعدة السلطان برغش الحليف الذي وثق دائماً بالإمبراطورية البريطانية.

مضى السلطان برغش في الاحتجاج. فكتب يقول للقيصر: «هذه الأراضي هي أراضينا، وقد كانت ملكاً لنا منذ عهد أسلافنا». وبعث كيرك الذي استبدت به الحيرة ببرقيات متوالية إلى لندن. ولكن جلادستون ووزراءه لم يكونوا في حالة مزاجية تسمح لهم بالاصطدام ببسمارك، بسبب «خلاف استعماري صغير» بينما هم يحاولون اكتساب تأييده ضد فرنسا، فيما يتعلق بسيطرتهم مؤخراً على مصر. لقد كان الأمر على العكس من ذلك تماماً؛ فقد شجعوه بهدوء، وأمروا كيرك بأن يكون متعاوناً. وقبل أن يسلم بيترز معاهداته المشكوك فيها، لم يكن بسمارك يريد أكثر من اتفاقية تجارية واسعة النطاق مع السلطان برغش، أما الآن فقد استجاب للحالة المزاجية السائدة لدى ناخبيه. وفي الخامس من آذار/ مارس 1885 أصدر بياناً يجعل مناطق المعاهدات - وهي مناطق في حجم بافاريا - أرضاً يسري عليها القانون الألماني، وفضلاً عن ذلك فقد أمر خمس سفن حربية تحت قيادة العميد كارل باشين بالتوجه إلى زنجبار[7].

طالب بسمارك السلطان برغش بحق العبور الحر عبر أراضيه الساحلية إلى المحمية المعلنة حديثاً التي لا منفذ لها على الساحل، ورفض السلطان ذلك. وبعث كيرك إلى لندن ببرقية، يقول فيها إنه: «إذا ترك السلطان وشأنه، فلابد من أن يستسلم، أو يبحث عن حماية أخرى». ولم تكن هناك حماية أخرى. وكان القنصل يعرف ذلك، وكذلك كان بسمارك يعرفه، حيث بعث إليه وزير الخارجية البريطاني لورد جرانفيل ببرقية في 25 أيار/ مايو يقول فيها: «إن الافتراض القائل بأن حكومة جلالة الملكة ليست لديها أي نية لمعارضة المشروع الاستعماري الألماني بجوار زنجبار هو افتراض صحيح تماماً.

وعلى العكس فإن حكومة جلالتها تنظر بعين العطف إلى هذه المشروعات التي من شأن تنفيذها أن يؤدي إلى جلب الحضارة إلى مساحات واسعة لم تتم حتى الآن ممارسة نفوذ أوربي عليها».

في 7 آب/ أغسطس وصل الأسطول الألماني وجهز لإطلاق مدافعه على مدينة زنجبار، وفي 11 آب/ أغسطس أعطى السلطان مهلة 24 ساعة للاستسلام، وإلا تعرض للقصف. وكان القائد قد جلب معه على نحو استفزازي، أميرة سابقة من زنجبار هي أخت السلطان. ومضت الأميرة في التجول جيئة وذهاباً خارج قصر السلطان، مع حرس مرافق من الضباط الألمان، ولو أن ذلك أدى إلى تفجير حادث عنيف، فإنه كان سيعطي للألمان ذريعة للقيام بعملية الضم[8]. وقد قاوم السلطان الوقوع في هذا الشرك، وحصل كيرك له على مهلة 24 ساعة أخرى. وفي 13 آب/ أغسطس استسلم. ولم يكن هناك وجود للبحرية الملكية البريطانية التي جعلت من المحيط الهندي على امتداد زمن طويل «بحيرة إنجليزية».

منذ ذلك الوقت فصاعداً، مضت عملية تدمير سلطة السلطان قدماً على مهل، وتم إقناعه بأن يعطي للألمان الميناء المطل على الساحل الأفريقي الذي رغبوا فيه، أي دار السلام، كنقطة وصول للأراضي «التي تم التنازل عنها» لبعثة بيترز. وفي نهاية عام 1885 تم تشكيل لجنة مؤلفة من ممثلي ثلاث دول؛ هي ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، لتقرير مناطق النفوذ في شرقي أفريقيا. وقال رئيس الوزراء البريطاني اللورد سالزبوري، على نحو رقيق إنه يأمل في أن مداولات هذه اللجنة ستقوم على أساس «مبادئ القانون والعدالة السليمة». وتم الوصول إلى صفقة نهائية في تشرين الأول/ أكتوبر 1886 حيث سمح للسلطان بالاحتفاظ بزنجبار والجزر المجاورة لها، جنباً إلى جنب مع شريط بعمق عشرة أميال على طول الساحل، وتمت تنحية كل مطالبه ودعاواه بملكية مزيد من الأراضي في الداخل جانباً.

بدأ الخط الفاصل بين المنطقتين الألمانية والبريطانية على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من ممباسا، ثم مضى باتجاه الشمال الغربي إلى شواطئ بحيرة فيكتوريا. وكان خطاً مستقيماً يمتد عبر الخريطة، مثل العديد من الخطوط التي رسمت خلال «التسابق»

على أفريقيا، من دون اكتراث على الإطلاق برغبات من يقيمون في المناطق التي يمر بها. غير أنه كان هناك منعطف غريب في الحدود، حيث تدور حول شمالي جبل كليمنجارو، فقد كان القيصر حريصاً للغاية على امتلاك أعلى جبل في أفريقيا.

قاوم السلطان برغش المعاهدة حتى كانون الأول/ ديسمبر 1886، وقبل ذلك بأسابيع قلائل كان تيبوتيب قد مضى إلى قصره، وسمعه يقول له: «يا حامد، لا تغضب مني، فلم تعد بي رغبة في أن يكون لي شأن بالبر الأفريقي». وقال تيبوتيب في وقت لاحق: «عندما سمعت كلمات السلطان برغش عرفت أن كل شيء قد انتهى»[9].

بعيداً في لندن ترددت كلمات أسف عميق وجيزة على لسان رئيس الوزراء الجديد اللورد سالزبوري: «إن سلطان زنجبار تتم معاملته بقسوة».

تطلع أحد المشاركين في هذه الأحداث إلى الأمام، وأدرك أهميتها للأمن البريطاني، وبصفة خاصة للدفاع عن خطوط المواصلات مع الهند وأستراليا في أي حرب مقبلة. وكان هذا المشارك هو هربرت كتشنر[10]، الذي كان في ذلك الحين برتبة عقيد وتمت ترقيته في وقت لاحق إلى رتبة مارشال، وقد مثل بلاده في اللجنة الثلاثية. وفي مذكرة سرية بعنوان «ملاحظات حول خطوط المواصلات البريطانية مع المحيط الهندي» دعا إلى تقوية المواقع على مدخل البحر الأحمر، وعلى مسافات أبعد باتجاه الشرق، لأن التوازن الاستراتيجي آخذ في التغير.

أما فيما يتعلق بشرقي أفريقيا فقد اقترح أن تقوم بريطانيا بإقناع السلطان بمنحها حقوقاً في ممباسا مثلما حظيت ألمانيا بحقوق في دار السلام. وإذ عاد كتشنر بالذاكرة إلى محمية الكابتن أوين التي لم يطل بها العهد قبل ستين عاماً، فقد كتب يقول: «لم تغب ذكرى العلم البريطاني الذي رفرف يوماً ما فوق ممباسا، ولسوف يلقى ترحاباً حاراً إذا عاود الظهور في ظل ترتيب للأمور مع السلطان. وممباسا هي الميناء الأكثر احتمالاً، الذي يمكن أن يبدأ منه أي نظام للسكك الحديدية لإعادة فتح الداخل الأفريقي. ومن شأن امتلاكها أن يعطي لبريطانيا قاعدة تجارية، سيكون من المستحيل من دونها تطوير تجارة وسط أفريقيا».

الفصل الثالث والخمسون

بسمارك و«الشركة»

فلتسعدي يا نفس، ولتلقي عنك كل الهموم،
سرعان ما نصل إلى المكان الذي طالما تقت إليه،
بلد النخيل، باجامويو.
بعيداً، ما كان أشد وجع قلبي،
عندما كنت أفكر فيك، أيتها اللؤلؤة!
يا موطن السعادة، يا باجامويو!
هناك تفرق النساء شعرهن من المنتصف،
ويمكنك أن تحتسي من العرق قدر ما يطيب لك
في بستان الهوى باجامويو.

أنشودة تقليدية، يرددها الحمالون، في القوافل
العائدة إلى الساحل (سجلها أ. ليو في عام 1900)

عندما تقاسمت أمم أوربا أفريقيا فيما بينها، كانت جاهلة على نحو ملحوظ بما حصلت عليه كل منها. وقد كان بوسعها بالطبع أن تقيس على الخريطة المساحات التي حددتها خطوط بسمارك الحمراء، ولكنها لم تكن لديها إلا أفكار ملتبسة عن عدد من يقطنون هذه الممتلكات الجديدة، وعما إذا كانت هناك ثروة معدنية تنتظر الاكتشاف، أو إذا كانت الأرض خصبة ومناسبة للاستيطان من قبل البيض. كانت إمبريالية كيفما اتفق، ولم تكن السيادة نتيجة لعمليات غزو، وإنما سلمت السيادة أولاً، وجاءت عمليات الغزو عقب ذلك.

قدمت النزعة الشوفينية والمنافسات القومية في أوربا الكثير من القوة الدافعة لاحتلال أفريقيا، ولكن التكاليف كانت أشد صعوبة في تبريرها، فكيف يمكن لهذا الاندفاع الاستعماري أن يغطي تكاليفه؟ لقد شجع العثور على الذهب والماس في جنوبي أفريقيا في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر الأفكار القائلة بأنه من الضروري أن يكون هناك المزيد من الثروات في شمالي القارة، ولكن هذا لم يعد كونه

تكهناً. وهكذا تم التشديد على السوق التي لم يتم استنزاف طاقتها الاستيعابية للسلع المصنعة. وتحركت صفوف من الأرقام كجنود النمال عبر صفحات الكتب والمجلات، في أواخر القرن التاسع عشر، موضّحة كيف يمكن لأفريقيا الاستوائية أن تستوعب كميات هائلة من الواردات من أوربا. وكانت مثل هذه الجداول خادعة إلى حد كبير، ولا تعدو أن تكون جزءاً من جهد يبذل «للإقناع» بإمكانات أفريقيا، وبالتالي الحد من شكوك وزراء المالية ودافعي الضرائب الأوربيين.

كانت الأسواق في نهاية المطاف تحتاج إلى مشترين وكذلك إلى بائعين، ولدى الأفارقة طاقة شرائية محدودة على نحو ملموس، وتمثلت أصولهم المباشرة في العاج، ولكنه غدا من الجلي أن البنادق التي تلقم من مؤخرتها تقضي على قطعان الفيلة بصورة سريعة. كما لم يكن هناك احتمال لأن يكون من الممكن تحويل الأفارقة بأعداد كبيرة إلى كاسبي أجور، في جيوبهم أموال، شأن الطبقات العاملة في نصف الكرة الشمالي. وقد ذهب لفنجستون ذات مرة إلى القول إن هناك «مساحات واسعة» من القارة مناسبة لزراعة القطن وقصب السكر، ثم حذر بطريقته المراوغة قائلاً: «يتعين عليكم ألا تفترضوا أن الأفريقي سيعمل إذا لم تدفعوا له».

كانت رؤية لفنجستون لملاك مزارع من البيض يدفعون للعمال السود ما يستحقونه عن قدر منصف من العمل في اليوم أبعد ما تكون عن أذهان معظم بناة الإمبراطورية الشبان، الذين يرسلون من بريطانيا وألمانيا إلى شرقي أفريقيا. وقد تحدث هؤلاء القادمون الجدد عن إنشاء أسواق وعن واجب «إكساب الأفارقة الحضارة» وانتزاع جذور العبودية، ولكنهم عرفوا أن الأولوية هي لانتزاع الأرض وغرس أعلامهم، حيثما كانت الحدود غير محددة بوضوح.

بقدر ما قد يعترض السكان الأصليون طريق إنجاز هذه المهمة العاجلة فإنهم يشكلون مصدراً للمضايقة، ولم يتم وضع رغباتهم موضع الاعتبار على نحو جدي قط خلال عملية التقسيم، وذلك من منطلق أنهم لايزال يتعين تعليمهم ما فيه الخير لهم، وبالتالي فلا معنى للحصول على موافقتهم في أمور تم حسمها في مكان آخر. وكان من المسلم به أن الأفارقة سوف يتقبلون عن طواعية أنه لابد لهم من البدء في طاعة القوانين

الأوربية، وأداء التحية للأعلام الأوربية، وفي وقت لاحق دفع ضرائب أوربية[1]. وهكذا فقد جاء مدى تحديهم لوضعهم تحت حماية أي قوة أجنبية شاء لهم القدر أن يوضعوا تحتها بمنزلة صدمة للموجة الأولى من الإداريين الاستعماريين، وسرعان ما تم التخلي عن الآمال في عملية سيطرة غير مؤلمة تجلب عوائد سريعة. ولكن لأن التاريخ يكتبه المنتصرون فإن الدرجة الحقيقية التي كانت عليها المقاومة من جانب الأفارقة والبؤس الذي نجم عن قمع هذه المقاومة سيتم إخفاؤهما في الروايات الرسمية للأحداث.

قد يمكن القول إن الضحية البارزة للعهد الاستعماري في شرقي أفريقيا كان السلطان برغش سلطان زنجبار، فعلى نحو ما أقرّ كيرك في وقت لاحق تمت «التضحية» بالسلطان. وفي وقت مبكر يعود إلى عام 1877 كان السلطان قد أعلن اهتمامه بإعطاء وليم ماكينون، صديق كيرك، امتيازاً يمتد سبعين عاماً يشمل البر الأفريقي. وعلى الرغم من أن المشروع قد لفظ أنفاسه الأخيرة، فإنه كان برهاناً إضافياً على العلاقة الخاصة مع بريطانيا، ومع ذلك ففي أقل من عشر سنوات وبحسب نظرة السلطان برغش للأمور فقد خانه الإنجليز تماماً من خلال صفقتهم التي أبرموها مع ألمانيا لتقسيم ساحل البر الأفريقي بينهم. ولم يكن كيرك موجوداً في زنجبار ليواجه الاتهامات، بعد أن مضى في عطلة قبل أشهر قلائل، ولم يعد منها إلى الجزيرة قط.

عندما وصل هنري ستانلي إلى زنجبار في آذار/ مارس 1887 للإعداد لرحلته الأخيرة إلى أفريقيا، استقبله السلطان برغش الذي كان في ذلك الوقت في الرابعة والخمسين من عمره، وأدرك ستانلي أن العمر لن يطول بالسلطان، وأن «همومه السياسية ترهقه صحياً إلى حد الاستنفاد على نحو عاجل». وبإلحاح من ستانلي وقع السلطان صيغة جديدة من امتياز ماكينون تغطي ساحل «منطقة نفوذ» بريطانيا[2]، وتضمنت هذه الصيغة إعطاء شركة بريطانية، لم يحدد اسمها بعد، الحق على امتداد خمسين عاماً في جمع المكوس في ممباسا وموان أخرى، لقاء دفع هذا العائد من المكوس للسلطان، مضافاً إليه 50٪ من قيمته. ووعد السلطان برغش كذلك بتشجيع زعماء القبائل الأفارقة في منطقة النفوذ البريطانية على توقيع معاهدات مع الشركة.

وقد كانت هذه الاتفاقية تصرفاً يائساً من جانب السلطان لاستخلاص شيء من الساحل، وتم الاتفاق على أن يظل علمه مرفرفاً على حصن اليسوع.

تشبث السلطان برغش بالحياة عاماً آخر، مرض خلاله بالاكتئاب والسل وداء الفيل. وقبل أشهر من احتضاره، أظهر غضبه على مسار الأحداث؛ فقد بدأ الألمان التصرف وكأن زنجبار ملك لهم، فسفنهم الحربية موجودة بصفة مستمرة في المرفأ، وبحارتهم على جانب كبير من الصلف على الشاطئ، وشركة شرقي أفريقيا التابعة لهم تقيم بصورة عدوانية مراكزها التجارية في دار السلام وموانئ البر الأفريقي الأخرى.

دفنت آخر أشلاء الاستقلال الزنجباري تقريباً مع السلطان برغش في آذار/ مارس 1888، وقد خلفه على العرش بتأييد من السادة الاستعماريين الجدد أخوه الأصغر خليفة. ومنح السلطان خليفة بعد شهر واحد من استقراره على العرش الشركة الألمانية امتيازاً لمدة خمسين عاماً - صيغ على غرار الشروط البريطانية - يضم الأراضي الساحلية بكاملها الواقعة في «منطقة نفوذها» ومع ذلك فقد كان لديه من الكبرياء ما يجعله يطالب بأن تتم جميع عمليات جمع الضرائب باسمه وتحت علمه.

ربما كان من شأن حاكم قوي يحظى بالإجلال والتوقير أن تتاح له الفرصة ليجعل الألمان يمضون بخطى حذرة، بينما يظل في الوقت ذاته محتفظاً بولاء الحكام المحليين على امتداد الساحل، لكن السلطان خليفة لم يكن في وسعه القيام بأي من هذين الأمرين. وشهد شهر أيلول/ سبتمبر بداية أول حرب مقاومة في شرقي أفريقيا. وقد بدأت المتاعب بقرار من الشركة الألمانية صدر في آب/ أغسطس برفع علمها في باجامويو التي تعد محطة النهاية المطلة على المحيط الهندي لطريق القوافل الرئيسي الممتد من الداخل الأفريقي. ولما كانت المئات من السفن التقليدية تصل من زنجبار بصورة مستمرة إلى باجامويو لتفريغ سلعها هناك، وجمع صادرات البر الأفريقي، فقد كانت هذه الخطوة الألمانية خطوة حافلة بالتهديد. واعترض المبعوثون العرب الذين أوفدهم السلطان باعتبار أن ذلك انتهاك للاتفاق، ولكن السفن الحربية الألمانية الراسية قبالة الساحل أجبرتهم على التزام الصمت.

صعوداً على الساحل عند ميناء بانجاني الصغير هدد مسؤول صغير يدعى إميل فون زيليفسكي الحاكم العربي المحلي وأهان الإسلام. وسرعان ما أطلق على هذا المسؤول لقب مفعم بروح العداء هو «نيوندو» (أي المطرقة) وأبلغ زيليفسكي سكان البلدة بأنه سيدعو البحرية إلى المبادرة بالقصف إذا تحدوه، وكجرعة من نواياه جعل مئة من مشاة الأسطول ينزلون إلى الشاطئ، فسحقوا الممتلكات وأنزلوا علم السلطان.

وفي 4 أيلول/ سبتمبر 1888 برز أول قائد للمقاومة، وهو الشيخ البوشهري بن سالم، وهو مالك ثري لمزرعة لقصب السكر قرب بانجاني، وقد ولد لأب عربي وأم من المحظيات من جنوبي أثيوبيا، وكان قصير القامة، ثاقب النظر، يخالط بياض لحيته سوادها[3]. وكان يرتدي ثياباً فخمة على الطراز العربي، وقد شعر على الدوام بأن له جدارة السلطان، حيث كان ينتمي لقبيلة الحوارث ذات الجذور القوية الراسخة. وقد زار البوشهري زنجبار لآخر مرة منذ عشرين عاماً، وزعم أنه لو زارها فإنه سيخاطر بالتعرض للموت شنقاً، ومن منظوره فإن السلطان خليفة لم يكن محقاً في تسليم الساحل لأي كان. وهكذا ومن دون السعي للحصول على موافقة من السلطان، شن هجوماً مسلحاً على بانجاني، وحاصر زيليفسكي في مقر قيادته، وأمهل الألمان يومين لمغادرة الساحل، وتم إطلاق النار على إحدى سفنهم الحربية لدى اقترابها من الشاطئ.

كان الرجل الثاني في قيادة المقاومة بعد البوشهري هو أخو زوجته الشيخ جهادي المولود في جزر القمر، والذي اشتهر أهله بالجسارة، وقد ارتحل عبر أفريقيا مع هنري ستانلي كمدفعي. وعلى الرغم من انتماء الرجلين إلى الجماعة العربية، فإنهما لم يفتقرا إلى الأنصار الأفارقة قط، حيث تدفق المحاربون من الداخل الأفريقي، ووصلت وحدات أخرى من كل أرجاء الساحل. وسرعان ما أصبح الشيخ يقود جيشاً، وإن كان جيشاً يصعب تحقيق انضباطه، ويصل قوامه إلى حوالي ثمانية آلاف رجل. وعندما حاول الألمان النزول في بانجاني تم ردهم على أعقابهم وقتل اثنان من ضباطهم عندما تم اكتساح المركز الألماني في كلوة. وبالفعل لم ينقذ زيليفسكي ورفاقه الألمان إلا جنرال بريطاني هو لويد ماثيوز قائد جيش السلطان في زنجبار، والذي لم يمكث طويلاً في الساحل فقد أدرك أن رجاله يقفون في صف البوشهري.

بحلول نهاية العام كان الألمان قد طردوا جميعاً من البر الأفريقي، بغض النظر عن تشبثهم بمركزين تجاريين صغيرين في دار السلام وباجامويو، وتم هذا التشبث لا لشيء إلا بسبب دعم السفن الحربية الراسية قرب الشاطئ، وقد قام الطراد «ليبزج» بقصف باجامويو وتدميرها جزئياً لرد رجال البوشهري على أعقابهم. وفي السادني - وهو ميناء صغير يقع بين باجامويو وبانجاني - تولى الحاكم الأفريقي المحلي ويدعى بونا هيري قيادة جيش للمقاومة كذلك.

أكد البوشهري لدى حديثه مع رحالة أسترالي أسير يدعى أوسكار بومان - والذي أطلق سراحه في وقت لاحق من دون أن يلحقه أذى - أنه لا يقيم وزناً لأي معاهدات يوقعها سلطان زنجبار، فالساحل الآن مستقل. ولكن البوشهري لم يكن قد حسب حساب كبرياء بسمارك الذي أدرك أن مقاومة ناجحة للحكم الألماني في شرقي أفريقيا من شأنها أن تتهدد بالخطر السلطة الاستعمارية الألمانية التي تشبه بيتاً من ورق، وأنه لابد من الحفاظ على هالة البيض باعتبارهم لا يقهرون.

كتحرك يستهدف إزاحة الستار عن العمل العسكري أمر بسمارك الصحف الحكومية في ألمانيا بالبدء في الكتابة عن الحاجة إلى «استعادة النظام» على الساحل كرأس حربة في حملة ضد تجار العبيد. وقد كانت تلك الطريقة على نحو واضح أفضل طريقة لحشد تأييد الرأي العام للتدخل الحكومي المباشر، وساعدته الأحداث عندما قامت مجموعة من «المتمردين» بقتل ثلاثة من المبشرين الكاثوليك من بينهم امرأتان، في غارة قرب دار السلام. وارتفعت حدة المشاعر في ألمانيا إلى حد كبير، وذلك بمساعدة جماعات مناصرة للاستعمار ومصارف استثمرت أموالاً في شركة شرقي أفريقيا الألمانية (التي كانت قد اقتربت من الإفلاس بالفعل).

تمثلت أولى الخطوات التي اتخذها «المستشار الحديدي» في الدعوة إلى حصار بحري لمنع وصول الأسلحة والذخيرة إلى البوشهري، ومما له أهميته أن بريطانيا قد شاركت في هذا الحصار، وقامت البحريتان بتسيير دوريات على امتداد خمسمئة وخمسين ميلاً من ساحل شرقي أفريقيا، وهي مسافة كان ثلثاها يشكلان منطقة النفوذ الألمانية. وفي البرلمان الألماني كان المنتقدون الوحيدون تقريباً لتدخل بسمارك هم

الديمقراطيين الاجتماعيين الذين أدان أوجست بيبل المتحدث باسمهم الشركة الألمانية باعتبارها «مجموعة صغيرة من الأثرياء الرأسماليين والمصرفيين والتجار والصناعيين» الذين لا علاقة لمصالحهم بمصالح الشعب الألماني: «إن القوة الدافعة هي الثروة، الثروة ولا شيء غيرها، ولتحقيق أوسع نطاق من استغلال الشعوب الأفريقية، ومن دون أي انقطاع تقدم ملايين الماركات من جيوب دافعي الضرائب من الخزينة الوطنية».

على الرغم من هذا فإن الماركات سرعان ما تدفقت. وفي نهاية كانون الثاني/ يناير عندما غدا جلياً أن الحصار لا جدوى منه، اقترع البرلمان باعتماد أربعة ملايين مارك «للقضاء على تجارة العبيد وحماية المصالح الألمانية». وأسندت إلى الرحالة الشهير هرمان فون فيسمان الذي عبر أفريقيا الوسطى مرتين مهمة تنظيم قوة عسكرية. وقام في القاهرة بتجنيد ستمئة من المرتزقة السودانيين، وفي موزمبيق جند ثلاثمئة وخمسين من الشانجان (الذين وصفوا بالزولو لجعلهم أكثر إثارة للخوف) ولم يتم تجنيد إلا عدد محدود من القوات المحلية لأن ولاءها سيكون محل شك على الدوام. وتم اختيار ثمانين ضابطاً ألمانيا وضباط من الرتب الأخرى لقيادة «وحدة فيسمان» التي أخذت في التدريب بقوة، بينما كان قائدها يتظاهر بأنه منهمك في محادثات سلام مع البوشهري.

عندما قدر فيسمان أنه على أهبة الاستعداد، أنزلت قواته إلى الشاطئ في مجموعتين عند باجامويو ودار السلام، وكانت مزودة بالأسلحة الحديثة بما فيها ست وعشرون قطعة مدفعية ميدانية، وتم إسنادها بسبع سفن حربية. ووفقاً لتعبير الدكتور أ. بيكر الذي كان قد وصل لتوه إلى شرقي أفريقيا، فإن واجبها تمثل في «استعادة التفوق الألماني» و«تحرير» البلاد من «المتمردين». وسرعان ما غدا واضحاً أن البوشهري سينهزم لا محالة لأن العديد من المقاتلين من الداخل الأفريقي قد عادوا إلى موطنهم، وأدى الانتظار الطويل في الموسم المطير إلى خفض الروح المعنوية لأنصاره السواحيليين. واقتحم الألمان مخيمه المحاط بالأسوار الخشبية، وأوقعوا في صفوف رجاله خسائر كبيرة، ثم انتشروا على امتداد الساحل، وأحرقت القرى وشنق زعماء القبائل الذين تدور شكوك حول أنهم موالون للبوشهري، ولاذ القائد المهزوم بالفرار إلى الداخل، وعندئذ أعلن فايسمان عن مكافأة قدرها عشرة آلاف روبية (خمسة عشر ألف مارك) لمن يقتله أو يقدم معلومات تؤدي إلى أسره.

على امتداد شهور عدة أفلت البوشهري من الأسر، بل وعاد إلى الساحل لشن هجوم جريء لم يكتب له النجاح على دار السلام. ومع إطباق اليأس على الآفاق الممتدة أمامه شرع في مجاراة الألمان في ضراوتهم، فعومل السكان المحليون الذين يخونونه معاملة صارمة. ثم في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1889 وردت أنباء عن أن الشيخ المفعم بروح التحدي، يبني حصناً محاطاً بالأسوار في موويندا على مسيرة أربعة أيام فقط من مسقط رأسه بانجاني.

جلب هذا النبأ إلى الألمان زعيم أفريقي يدعى محمد الصوا أغرته المكافأة التي رصدها فيسمان. وقاد المرشدون التابعون له قوة من المرتزقة السودانيين وضباطهم البيض إلى قرية تزود البوشهري بالطعام. وبعد اشتباك قصير أضرمت النار في القرية، ثم أطلع المرشدون القوة على الطريق إلى موويندا ذاتها، وقرر الألمان شن هجوم عند انتصاف الليل وزحف جنودهم حتى قلب المخيم النائم، قبل أن ترتفع صيحة التحذير. وتم قتل أكثر من ثلاثين من رجال البوشهري، وأفلح هذا الأخير في الهرب تحت جنح الظلام، ولكنه خلف وراءه كل مقتنياته، ومن بينها بنادقه، وعلمه، وصندوق وثائقه.

بعد أسبوع خان أحد الأعيان - ويدعى مجايا - البوشهري، وكان الهارب المجهد قد وصل إلى قريته كوامكورو ساعياً للحصول على بعض الطعام، فأسره مجايا. وتم المضي بالألمان المبتهجين إلى كوخ رقد فيه الشيخ مصفداً بالأغلال، وقد غلت عنقه في عصا ذات شعبتين مما يستخدم مع العبيد، وتم نقله إلى الساحل عند مسقط رأسه بانجاني. وأبلغ البوشهري المحققين معه، وقد استبد به الشعور بالمرارة، بأن رجال بانجاني قد أقسموا على المصحف أن يقاتلوا حتى النهاية لطرد الألمان «كل الآخرين حنثوا بقسمهم، وأنا وحدي من بقي باراً بقسمه حتى اليوم».

حوكم الشيخ مع اثنين من القادة التابعين له محاكمة فورية، وشنقوا في 15 كانون الأول/ ديسمبر 1889 (4). وقبيل إعدامه أعلن البوشهري أنه لم يكن في نهاية المطاف منقطع الصلة تماماً بسلطان زنجبار، وأنه بعد أن بدأ حرب المقاومة التي أعلنها شجعته رسائل من السلطان خليفة على القتال. واتفق الألمان والبريطانيون في وقت لاحق،

على أن هذه العبارة ينبغي اعتبارها «سرية للغاية» لتجنب إلقاء ظلال الشك على حسن نوايا السلطان.

بقمع «الانتفاضة العربية» وشنق قادتها، أحكم الألمان قبضتهم على ما دعي في وقت لاحق باسم تنجانيقا، وهي أرض تبلغ مساحتها ثلاثة أمثال مساحة ألمانيا. وامتدت سنوات من القتال على الرغم من أن النهاية لم تكن موضع شك قط، وعرضت أعلام ألمانية على الحكام المحليين، وعوقب من رفضوها بإحراق قراهم، وانهال العقاب بالجلد على من التزموا العناد، وليس من المدهش أن البعثات المكلّفة بعمليات التأديب قد تعرضت للوقوع في الكمائن. فقد قتل الكابتن زيليفسكي الذي فجر سلوكه حرب البوشهري خلال توليه قيادة هجوم على الزعيم مكواوا، وهو حاكم شعب الهيهي الذي عرف بتماسكه. وقتل معه تسعة ضباط ألمان وثلاثمئة جندي أفريقي.

تغلبت قوة النيران في نهاية المطاف؛ حيث تم إخضاع زعيم قبيلة إثر الآخر، وانتحر مكواوا مفضلاً هذه النهاية على الوقوع في الأسر والتعرض للشنق، وقد احتزت رأسه وأرسلت إلى برلين. وكان ماتشيمبا زعيم الياو أكثر حظاً، فقد تحدى الألمان من بلاد ماكوندي في أقصى جنوبي تنجانيقا. وكتب أحد المساعدين الذي كان قد تعلم الإنجليزية على يد المبشرين رسالة ماتشيمبا إلى فيسمان، الذي أمره بالقدوم إلى دار السلام: «لقد سمعت كلماتك ولكنني لست أرى سبباً لطاعتك، وإنني لأوثر الموت على ذلك... لو أن الأمر كان متعلقاً بالصداقة لما رفضت اليوم وعلى الدوام، ولكنني لن أكون من رعاياك... ولن أجيء. إذا كنت قوياً بالقدر الكافي فتعال واقبض عليّ!» وبعث فيسمان بوحدات دمرت القرى والمحاصيل، وقاوم ماتشيمبا على امتداد تسع سنوات ثم هرب عبر الحدود إلى موزمبيق البرتغالية.

في صفوف النيمويزي تم إحياء روح الاستقلال والقتال التي أظهرها ميرامبو فيما سبق على يد الزعيم أيسيكي الذي سيطر حصنه الواقع قرب مركز الطابورة التجاري على الطريق التجاري الرئيسي الممتد بين الساحل وبحيرة تنجانيقا. وقد رفض أن تكون

له أي تعاملات مع الألمان. وباءت محاولتان بذلتا للاستيلاء على حصنه بالخيبة، وذلك على الرغم من استخدام المدفعية. وفي نهاية المطاف أدت محاولة ثالثة قادها الملازم فون برنس إلى اختراق دفاعات الحصن، وتراجع أيسيكي مع عائلته إلى غرفة كان البارود يخزن فيها، وفضل أن ينسف نفسه على أن يقع أسيراً. وخشي فون برنس أن يكون أيسيكي قد أفلت من العقاب الذي يستحقه بهذا العمل الأخير من أعمال التحدي الذي أقدم عليه، ولكنه عندما علم أن الزعيم الكبير مايزال على قيد الحياة وإن كان يحتضر سارع إلى إخراجه وشنقه[5].

الفصل الرابع والخمسون

أفريقيا تسمع تعاليم الدين وهدير مدافع الحرب

إنكم تحرقونني، ولكنكم كما لو كنتم تصبون الماء البارد على جسمي. إنني أموت من أجل الدين الحق، ولكن فلتأخذوا حذركم، وإلا فإن الرب الذي تعصونه سوف يُلقي بكم يوماً في وهدة النار الحقيقية.

تشارلز لوانجا، زعيم القتلى المسيحيين في أوغندا (1886)

بينما مضت ألمانيا تفرض سلامها الصارم على تنجانيقا، سارع البريطانيون باستغلال «منطقة نفوذهم» على الجانب الشمالي من الحدود الدولية. وعلى الرغم من أن ترخيصاً تم منحه في نهاية المطاف في أيلول/ سبتمبر عام 1888 لشركة شرقي أفريقيا الإمبراطورية البريطانية، فإن الأنشطة كانت قد بدأت قبل ذلك بوقت طويل. وجمعت الشركة من دون عناء مئتين وأربعين ألف جنيه استرليني، كقسط أول من رأس المال، وانطلق مجلس إدارة ـ شمل بين أعضائه السير جون كيرك، القنصل البريطاني السابق في زنجبار - مفعماً بروح التفاؤل، على الرغم من أن الحكومة كانت تحيط الشركة بالضوابط من دون أن تحمل على كاهلها أي مخاطر مالية.

عاد إلى الساحة السير وليم ماكينون باني الإمبراطورية بعيد النظر، مردداً القول المألوف إن أسواق أفريقيا تنتظر منتجات الصناعة البريطانية. ولم يسعه إلا أن يضيف قائلاً إن الشركة سوف «تأخذ نصيبها في مجال الأعمال الخيرية». فقد تضمن طلب الترخيص للشركة أن المديرين يعتقدون أن النتيجة المباشرة للجهد الأوربي ستكون إدخال الحضارة في صفوف «السكان الأصليين الذين يقطنون الأراضي المشار إليها».

على الرغم من الحيوية البالغة التي أبداها ماكينون وشركاؤه، فإنهم كانوا مايزالون جاهلين إلى حد كبير بما يقع وراء الجزء الخاص بهم من ساحل شرقي أفريقيا الممتد من ممباسا إلى لامو. وعلى الرغم من أن المبشر لودفيج كراف كان قد قام باستطلاع المناطق

الممتدة حتى جبل كينيا قبل ما يزيد على ثلاثين عاماً مضت، فإن شهرة الماساي الرهيبة كفلت ردع الجميع باستثناء عدد محدود من الأوربيين عن المغامرة بالمضي إلى مسافات أبعد في الداخل الأفريقي. وعندما بدأت شركة شرقي أفريقيا الإمبراطورية البريطانية في الاندفاع إلى الداخل، لم يكن هناك إلا القليل الذي يتم الانطلاق على أساسه، باستثناء مذكرات باحث اسكتلندي متخصص في الجيولوجيا، يدعى جوزيف تومسون. ولم يكن قد مضى إلا خمسة أعوام فحسب على مغامرة تومسون بلقاء الماساي، في غمار اندفاعه للوصول إلى بحيرة فيكتوريا عبر طريق مباشر من ممباسا.

هكذا قام فريدريك هولمود نائب كيرك السابق في قنصلية زنجبار بتحري أسرار الداخل الأفريقي لحساب الشركة، حيث غامر في النصف الثاني من عام 1887 بالانطلاق على امتداد مئة وخمسين ميلاً من ممباسا نحو جبل كليمنجارو بصحبة قوة قوامها مئة رجل. ولم يكن في هذا اكتشاف لأرض مجهولة - فقد أنجز لودفيج كراف وزملاؤه ما هو أكثر من ذلك في منتصف القرن - ولكن هولمود كان داعية بليغاً للقضية التي يتبناها[1].

في مذكرة طويلة بعث بها هولمود إلى رئيس الوزراء البريطاني لورد سالزبوري في نهاية أيار/ مايو 1888 طرح الفكرة المألوفة عن احتمال وجود «مجال جديد ورحب للهجرة، وسوق واسعة لتجارتنا، من النوع الذي يسعى إليه بمزيد من الحرص رجال دولتنا ورأسماليونا ومنتجونا الصناعيون وحرفيونا المهرة». وكل ما كان ناقصاً بالنسبة إلى المشروع الأوربي لاستغلال هذا الإقليم «النافع» هو سكة حديدية. وهنا كان هولمود يتحدث لغة عصره، فقد أظهرت لوحة في مستهل مذكرات جيروم بيكر الصادرة حديثاً بعنوان **«الحياة في أفريقيا»** قطاراً ينفث الدخان، وقد أقبل من غبشة الفجر نحو مجموعة من الأسود استبد بها الفزع، وكتب تحتها التعليق التالي «أفريقيا في المستقبل - إدخال الطاقة البخارية».

تمثلت الأجزاء الأكثر أصالة في مذكرة هولمود في أفكاره عن سبب عدم امتداد التنمية إلى داخل شرقي أفريقيا، وهي أرض خصبة «ربما لا نظير لها في العالم». فالاحتلال الطويل للساحل من قبل «المهاجرين المسلمين ومن اعتنقوا دينهم من السكان

الأصليين» أدى إلى عزل «الأجناس الأفضل والأكثر ذكاء» عن الاتصال بالعالم الخارجي، وكان «معادياً تماماً لامتداد النفوذ الأوربي». وحيل بين الأفارقة والوصول إلى المحيط الهندي، على امتداد قرون من قبل «مغامرين ساميين نصف متمدينين، وغادرين، وبعيدين عن الدقة، سبقتهم سمعتهم السيئة في كل مكان». وفضلاً عن ذلك فإن تجارة العبيد قد أفرغت بعض مناطق الداخل الأفريقي من سكانها، وجعلت السكان الأكثر استقلالاً من الناحية الذهنية يميلون إلى مهاجمة أي شخص يغامر بدخول بلادهم[2].

هبط هولموود سريعاً من علياء هذا التحليل إلى أرض الواقع ومتطلبات السوق. فالأفارقة القاطنون في «المرتفعات الرائعة» مرغمون الآن على حماية أنفسهم من المناخ البارد بارتداء فراء الحيوانات وجلودها، بينما يحتاجون الملابس المصنعة حقاً، وقد كانت هناك ملايين القطع منها. وكان احتمال قيام كل أولئك الأفراد بابتياع القمصان والسراويلات والسترات والفساتين كافياً لإثارة الحماس حتى بالنسبة إلى اللورد سالزبوري المتشامخ.

فيما وراء المرتفعات امتدت «الجائزة الحقيقية» على نحو ما سيصفها كيرك في وقت لاحق، أي بوغندا والممالك المجاورة لها، على الجانب البعيد من بحيرة فيكتوريا. وكان الرجل الذي اختير للاستيلاء على هذا الإقليم المراوغ هو فريدريك لوجارد. وشأن الكثيرين من الرحالة البريطانيين من قبله في شرقي أفريقيا، وبصفة خاصة بيرتون وسبيك وجرانت، فقد كان لوجارد ضابطاً في الجيش، وخدم في أفغانستان وبورما. غير أن هذا الرجل الكتوم لم يكن «مستكشفاً» وإنما كان غازياً له اهتمامات تختلف تمام الاختلاف عن اهتماماتهم[3]. كان «المستكشفون» مجرد عابرين في أراض لا يملكونها، وقد حكم هذا سلوكهم.

وبعد ربع قرن لم يخالج لوجارد الشعور قط بأنه على استعداد لمراقصة امرأة سوداء أو السير وذراعه في ذراعها. وإنما كان رفيقه الأثير في شرقي أفريقيا مدفعاً رشاشاً من طراز ماكسيم الذي جاء اختراعه في الوقت المناسب في عام 1884 من قبل هيرام ماكسيم الأمريكي المولد يمهد الطريق أمام الهجمة الاستعمارية على امتداد القارة.

وعلى الرغم من أن ملايين البنادق القديمة كان قد تم بيعها لأفريقيا (وخلال العقود اللاحقة من القرن التاسع عشر بيعت آلاف من البنادق الحديثة)، فإنها لم يكن لها تأثير يذكر في مواجهة سلاح يطلق ثلاثمئة وثلاثين طلقة في الدقيقة إلى مسافة ميل. وقد أصبح الرشاش ماكسيم مثاراً للكثير من الأحاديث، بل وموضعاً للأحاديث اللماحة والتعليقات البارعة، فقد طلب جيمس جرانت في عام 1890 من السير صمويل بيكر - الذي كان رحالة بارزاً في بداية عمره - أن يساهم في الجهد المبذول لإطلاق سفينة بخارية تبشيرية في بحيرة فيكتوريا. وأعربت الرسالة التي بعثها في معرض الرد عن أسفه لأنه ليس في وسعه توفير المال اللازم، لكنه خفف من وقع هذا الرفض بطرفة صغيرة؛ حيث يقول: «أتوقع أن السفينة سوف تحمل مدفعاً رشاشاً من طراز ماكسيم إلى جانب التعاليم المسيحية[4]»[5].

لقد بلغت لهفة مخترع هذا المدفع الرشاش لتجربته في العمل الميداني، حداً دفعه إلى تقديم رشاشه إلى هنري ستانلي للاستعانة به في بعثته لعبور أفريقيا في الأعوام 1887 ـ 1889. وقد أعرب ستانلي عن اعتقاده بأنه «سلاح مدهش» فباستطاعة رجل أبيض واحد يتخذ من الدرع الواقي للرشاش ماكسيم ترساً، أن يحصد حشداً بأسره من المحاربين السود. وقد تم تمرير الرشاش الذي مضى به ستانلي عبر القارة إلى لوجارد، وشكل أكثر معداته أهمية عندما انطلق من ممباسا إلى بوغندا في خريف عام 1890 على رأس ستة وستين من المرتزقة السودانيين والصوماليين، يتبعهم حشد الحمالين الأفارقة المعتاد الذي يحمل كل منهم ستين رطلاً من الأثقال والحمولات على رأسه، وصحبه كمساعد له ضابط شاب يدعى فينويك دي وينتون.

كان لوجارد يعرف حق المعرفة أنهم يمضون نحو قلب العاصفة، فقد صورت التقارير الواردة من بوغندا مجتمعاً تمزقه الصراعات الدينية إرباً. وكان بلاط حاكمه الشاب موانجا ساحة للمكائد يتصارع عليها المسلمون مع المسيحيين. كما انقسم المسيحيون على أنفسهم إلى بروتستانت يعرفون باسم «إنجليزا» (Inglesa) نسبة إلى رعاتهم الإنجليز، وكاثوليك يدعون باسم «فرانسا» (Fransa) لأنهم دخلوا في المسيحية على يد الآباء البيض الذين كانوا في غالبيتهم من الفرنسيين، وقد أضيف هذان الدينان الجديدان إلى الدين التقليدي في بوغندا، الذي يضم واحداً وعشرين إلهاً.

على الرغم من أن موانجا الكاباكا والزعيم الروحي قد أحاط به جمع من رجال البلاط الذين اعتنقوا الدينين الجديدين، فإنه كان كذلك بحاجة إلى أن يظهر للكتلة الهائلة من رعاياه الذين لم يدخلوا في أي من هذين الدينين، أنه مايزال يحترم معتقداتهم ويوقر أرواح الموتى. وكان الكاباكا السابق موتيسا قد لجأ إلى إله قديم للبحيرة طلباً للعون في مواجهة الأمراض التي لقي حتفه من جرائها في عام 1884.

أبدى موانجا رد فعل متسماً بالعنف على ضغوط الدينين الجديدين، التي تداخلت مع ضروب التنافس السياسي بين زعماء قبائله. وشكَّل سلوكه نموذجاً للخوف والحيرة اللذين سيطرا على أفريقيا، فيما العالم الخارجي يقبل مندفعاً إليها، وقد مال في البداية نحو جناح المسلمين، على نحو ما كان موتيسا قد فعل؛ لأنه بدا غير مبالغ في مطالبه (بغض النظر عن عملية الختان التي رفض كل منهما أن تجرى له). وبسبب رفض البعض الانصياع لنزواته فإنه في خميس الصعود من عام 1886 أمر موانجا بإعدام واحد وثلاثين من المسيحيين البارزين، حيث اقتيدوا إلى ناموجونجو على بعد أميال قلائل من عاصمته في مينجو وقتلوا بطرق مختلفة، حيث أحرق البعض أحياء على مهل ومُزِّق آخرون إلى أشلاء صغيرة أو التهمتهم الكلاب، وماتوا جميعاً وهم يصرخون بكلمة كاتوندو (أي الرب).

كان موانجا قبل عام من ذلك قد أصدر أمره بقتل قس إنجليزي على شيء من الغرور والصلف يدعى جيمس هانينجتون، كان قد وصل إلى حدود بوغندا قادماً من الساحل لتكريس نفسه باعتباره أول «أسقف لأفريقيا الاستوائية». ولم يقتل هانينجتون بسبب مسيحيته فحسب، وإنما كذلك بسبب التشكك في أنه طليعة للسيطرة البيضاء.

أدت التقارير التي تواترت حول مصرع هانينجتون ومحن «الشهداء السود» إلى تذمر صاخب في أوربا حيث ألقي اللوم على كاهل الإسلام، وكان الرد هو إدخال بوغندا بالكامل في المسيحية. وكانت الجمعيات التبشيرية تعرف أنه ليس في وسعها القيام بذلك اعتماداً على ذاتها، ومن هنا فإنها لم تكن بحاجة إلى الكثير من الجهد لإقناعها بفضائل الاستعمار. وعلى الفور تم الترحيب بنبأ تقدم فريدريك لوجارد من

الساحل مع مدفعه الرشاش من طراز ماكسيم من قبل البروتسانت والكاثوليك على السواء حيث إنهم جميعاً أدركوا أنهم في خطر.

على الرغم من أن لوجارد كان ابن قس يعمل بالجيش في الهند، فإن الدين لم يكن موضع اهتمام من جانبه قط. وكانت رغبته البسيطة هي أن يجبر موانجا على وضع توقيعه على معاهدة، تضع بوغندا تحت «حماية» شركة شرقي أفريقيا الإمبراطورية البريطانية. ولن يؤدي هذا بالمعنى الدقيق إلى وضع كل الأراضي الواقعة بين بحيرة فيكتوريا ودولة الكونجو الحرة التابعة للملك ليوبولد في قبضة الشركة، ولكن لوجارد أدرك أنه ما أن يتم اكتساب بوغندا حتى يعقب ذلك كل ما عداها. وقد قام بالفعل بالسعي وراء توقيع المعاهدات في بلاد الكيكويو، الواقعة قرب جبل كينيا، وعرف كيف يمكن توسيع نطاق الامتيازات بتشجيع أصغر زعماء القبائل على الزعم بأن سلطاتهم تمتد إلى ما وراء أبعد الآفاق. وكانت مسودة المعاهدة التي يحملها لوجارد معه الآن لا تغطي بوغندا وحدها، وإنما تشمل «كل الدول التابعة لها».

تمثلت مشكلة موانجا، بغض النظر عن ميله إلى القتل، في أنه كان معروفاً بالجمع بين الكبرياء والنزوع إلى التقلب، ولم يرغب في التوقيع على ما يكفل للأوربيين الاستيلاء على مملكته. وعلى نحو ما كتب في نيسان/ إبريل 1890 إلى تشارلز يوان سميث، القنصل البريطاني في زنجبار، فإنه سيرحب بالأجانب لـ «البناء والتجارة» ولكنه لم يكن يرغب في أن «يعطيهم أرضه». وقبل أسابيع قلائل من كتابته هذه الرسالة كان قد زاره كارل بيترز المغامر الألماني، الذي كان في عام 1884 قد أدخل «التسابق» إلى شرقي أفريقيا، من خلال مجموعة معاهداته المشكوك في أمرها مع زعماء القبائل قرب جبل كليمنجارو. وفي هذه المرة اندفع كارل بيترز مسرعا إلى بوغندا من ويتو، وهي «محمية» ألمانية لم يطل العهد بها على الساحل إلى الشمال من ممباسا.

علق بيترز الآمال على أن يكون في قدرته خداع موانجا وجعله يلزم نفسه بقبول «الحماية» الألمانية، ولكن الكاباكا العصبي ذا الضحكة المجلجلة، راوغه حيث لم يمنحه إلا معاهدة صداقة والحق في التجارة. ومع ذلك فقد تشبث الألمان بالآمال في أن يكون

في استطاعتهم أن يسبقوا البريطانيين بالوصول مرة أخرى إلى بوغندا عن طريق الشاطئ الجنوبي لبحيرة فيكتوريا. وعندما انطلق أمين باشا (إدوارد كارل شنايتزر) الذي «أنقذه» ستانلي في وقت سابق، من الساحل في رحلة عبر أفريقيا، كان من بين أهدافه توقيع معاهدة محددة مع موانجا.

وسط هذا التنافس المحتدم مُنح لوجارد فجأة سلاحاً أقوى من رشاش ماكسيم الذي يحمله معه، حيث كان اللورد سالزبوري قد اقترح على ألمانيا الاعتراف بحماية بريطانيا لزنجبار مقابل هيليجولاند، وهي جزيرة حجرية صغيرة تقع قبالة الساحل الألماني، سيطرت عليها بريطانيا منذ الحروب النابليونية. وكان عرضاً لا تستطيع برلين أن ترفضه، فقد شعر الأميرالات الألمان بأن امتلاك قوة أجنبية لهيليجولاند من شأنه أن يشكل تهديداً خطيراً لقناة كييل في حالة اندلاع حرب. وهكذا فإنه في تموز/ يوليو 1890 أصبحت هذه الصفقة عنصراً أساسياً في التسوية للمنازعات على الأراضي في العديد من مناطق أفريقيا (تم استرضاء الفرنسيين باعتراف متأخر بحكمهم في مدغشقر وفي مناطق هائلة من الصحراء).

بالنسبة إلى شركة شرقي أفريقيا الإمبراطورية البريطانية ووكيلها لوجارد تضمنت المعاهدة مادة شديدة الأهمية حول الحد الأنجلو ـ ألماني الفاصل في داخل شرقي أفريقيا، فحتى الآن كان هذا الفاصل ينتهي عند الشاطئ الشرقي لبحيرة فيكتوريا، أي درجة واحدة إلى الجنوب من خط الاستواء. والآن امتد على الخريطة أفقياً عبر البحيرة، إلى مشارف دولة الكونجو الحرة. وهكذا فإن موانجا سواء أراد ذلك أو لم يرده، وسواء عرفه أو لم يعرفه، قد وضع في منطقة النفوذ البريطاني. وكان يمكن أن يكون تابعاً للقيصر فيلهلم الثاني وليس للملكة فيكتوريا، لولا تلك الهكتارات المحدودة من الحجر الرملي التي تبرز ناتئة فوق سطح مياه بحر الشمال.

عندما تلقى أمين باشا رسالة رسمية من الساحل تحمل أنباء تسوية شهر تموز/ يوليو كتب بمزيد من الحزن في يومياته يقول: «من الصحيح يقيناً أن البريطانيين قد حصلوا على نصيب الأسد». ولم يعد هناك أي معنى للمضي إلى بوغندا، ولذا مضى يشق طريقه بصعوبة موغلاً في أفريقيا، إلى أن وقع في أيدي قطاع الطريق ولقي مصرعه.

أما فيما يتعلق بلوجارد فقد مضى إلى بوغندا بدعم قوي، وعندما وصل إلى عاصمة موانجا، في 18 كانون الأول/ ديسمبر 1890 مع مرتزقته الخمسين الذين بقوا على قيد الحياة، عقد العزم على أن يصدر الأوامر فحسب، لا أن يفاوض[6]. وقد رفض البقعة التي وجهت إليه الدعوة لضرب مخيمه فيها، واختار تل كمبالا، باعتباره الموضع الأكثر سيطرة على المناطق المحيطة به. وفي صبيحة اليوم التالي قطع ميلاً مع اثني عشر رجلاً من المرتزقة السودانيين في مزارع الموز التي فصلت مخيمه عن القصر الملكي، وهو بناء أنيق كسيت أسقفه بالأغصان، يعلو تلاً منحدراً. وبعد مصافحة موانجا، اتخذ كرسياً كان قد جلبه في لماحية وذكاء معه، وأوضح من خلال مترجم أنه قد جاء مخولاً بالصلاحيات اللازمة «لإبرام المعاهدات وتسوية النزاعات». وضحك موانجا في عصبية مداعباً بعض فتيان بلاطه المحيطين به والمرتدين أردية بيضاء.

غادر لوجارد مسرعاً وعاد إلى التل الذي يخيم فوقه لإعداد الأساليب الكفيلة بإخضاع موانجا، وكان لديه مدفعه الرشاش من طراز ماكسيم، وكان على أتم الاستعداد لاستخدامه، ولكنه كان لديه كذلك إيمان بقوة شخصيته. وفي اليوم السابق لعيد الميلاد مضى مرة أخرى إلى القصر بصحبة فينويك دي وينتون، وطالب الملك وزعماء قبائله بالتوقيع «إذا أراد السلام». وبادر موانجا إلى المراوغة، ولطم لوجارد المائدة: «قطبت جبيني، وبدوت ضارياً بقدر استطاعتي»، وبدأ الملك في الارتجاف. وفجأة بدا رجال مسلحون - «المشاكسون» كان هذا هو التعبير الذي استخدمه لوجارد فيما بعد - بوضع الطلقات في بنادقهم، وهم يصيحون بأن أي شخص يوقع ستطلق عليه النار، وكذلك الحال بالنسبة إلى الرجلين الأبيضين. ووجه أحد «المشاكسين» بندقيته الملقمة بالذخيرة إلى لوجارد مباشرة الذي تراجع عندئذ في حرص. وحاول مرة أخرى في مساء عيد الميلاد، على أمل أن تتاح فرصة لاستدراج موانجا في جلسة خاصة، ولكن من جديد أطبق الرجال المسلحون بالبنادق عليهما، واضطر لوجارد إلى الهرب في جنح الظلام، وسط النداءات الهازئة والضحك الساخر.

كان الآباء البيض المبشرون الفرنسيون هم الذين رجّحوا كفة لوجارد في هذه اللحظة الحافلة بالتهديد، ففي غمار خشيتهم من اندلاع حرب أهلية أبلغوا معتنقي

المسيحية المعروفين باسم «فرانسا» بين زعماء القبائل المحيطين بموانجا أن عليهم أن يحثوه على التوقيع، وكان الآباء البيض يعرفون أن الاستعمار حتمي، وتقبلوا أن الإنجليز سيفوزون في نهاية المطاف، ووصلوا إلى أن لوجارد خير من الفوضى، على الرغم من أن تعاطفه يقيناً سيتجه في النهاية إلى الجناح البروتستانتي «الإنجليزا». وفي اليوم التالي مضى حشد من زعماء القبائل المعروفين بـ «فرانسا» إلى تل كمبالا، وأعلنوا أنهم على استعداد لتوقيع المعاهدة. وإذ لم يدرك لوجارد «الدبلوماسية الهادئة» التي تبناها المبشرون، فقد تصور مختالاً أن بوغندا آخذة في الخضوع لتهديداته وتكشيراته. وانتهز الفرصة فمضى إلى البلاط الملكي، ووضع ورقة التنازل عن «السيادة» «للشركة البريطانية، وأعطى موانجا قلماً يضع به توقيعه الذي «رسمه بحنق، دافعاً القلم على الورقة، وملطخاً إياها ببقعة فحسب، ولكنني جعلته يرسمها مجدداً، فسيطر على نفسه في النسخة الثانية ورسم توقيعاً مناسباً». وكان العديد من رجال البلاط البارزين قد تعلموا الكتابة والقراءة على أيدي المبشرين؛ ولذا استجمع لوجارد صبره بينما هم يكتبون أسماءهم بمزيد من الجهد.

جرؤ موانجا ومساعدوه على إضافة فقرة، مفادها أن المعاهدة ستلغى «إذا ما جاء رجل أبيض أعظم من الرجل الحالي في وقت لاحق». وبدا أنه عندما يلتقط موانجا أنفاسه فإنه سيبادر إلى انتهاز أي عذر يتيح له التنصل من «حماية» شركة شرقي أفريقيا الإمبراطورية البريطانية. ومن حسن الحظ بالنسبة إلى لوجارد أن الرجل الأبيض الذي ظهر عقب ذلك ببضعة أسابيع كان وكيلاً آخر للشركة، هو الكابتن وليامز. والأمر الأفضل من كل ما عداه هو أنه كان لديه كذلك مدفع رشاش من طراز ماكسيم، فقد جاء البريطانيون ليبقوا.

أقر أحد المبشرين المعروفين بـ«الإنجليزا» وهو آر. إتش. ووكر بأن موانجا قد كره البريطانيين الذين «التهموا أرضه» ولم يعطوه شيئاً بالمقابل. وكان أحد الآباء البيض، وهو الأب أوجست آشت أكثر صراحة، حيث قال إنه بالنسبة إلى موانجا ذي الكبرياء: «أي إذلال هذا الذي تمثل في أن يتخلى عن السيطرة على رعاياه وأملاكه لبعثة تجارية صغيرة!». وأضاف آشت إن الملك بمزيد من الاشمئزاز تدنى بنفسه إلى مرتبة التابع.

وما كان في وسع لوجارد إلا أن يوافق على ذلك، فقد أقر بلا حياء في سنوات لاحقة بإجباره موانجا على التوقيع قهراً: «من المؤكد أن المعاهدة تم الحصول عليها ضد إرادته، لم أقل عكس ذلك قط».

قدر لكابتن لوجارد الذي لا يعرف التعب سبيلاً إليه أن يمضي عامين في القتال وتوقيع المعاهدات وفرض إرادته بصورة عامة على ما سيعرف سريعاً باسم أوغندا (لم يستطع المترجمون السواحيليون نطق حرف الباء الذي يتصدر الاسم). وخلال هذا الوقت عاش لحظة منذرة بالخطر، فقد وصلته رسالة تبلغه بأن عليه الانسحاب إلى الساحل؛ لأن شركة شرقي أفريقيا الإمبراطورية الإنجليزية كانت على وشك الافلاس. وقد حدث ذلك بسبب الانهيار الأول لمصرف بارنجز الذي يعد من أبرز المصارف المميزة في لندن. وعلى الرغم من أن مصرف إنجلترا قد بادر إلى إنقاذ مصرف بارنجز، فإن المدينة كانت لاتزال ترتجف من جراء الصدمة، فقد كان معناها أن المشروعات التي تتعرض للمضاربات في أفريقيا الاستوائية ليست أمامها فرصة للحصول على مزيد من رأس المال.

كان لوجارد لايزال غارقاً في اليأس في حصنه المشيد بالطوب على تل كمبالا عندما وصلت إليه رسالة أخرى في كانون الثاني/ يناير عام 1892، فقد أعطيت الشركة مهلة إضافية؛ لأن الجمعية الكنسية التبشيرية قدمت أرصدة مالية لدعمها. وهكذا كان من المناسب تماماً عندما اندلعت حرب بعد أيام قلائل بين «الإنجليزا والفرانسا»، أن يوضع مدفع ماكسيم موضع الاستخدام الفعلي على الجانب البروتستانتي الذي قدم لوجارد لرجاله كذلك خمسمئة بندقية. وفي المعركة الأولى تم إطلاق نيران مدفعي ماكسيم من حصن كمبالا باتجاه الكاثوليكيين المتجمعين حول كنيستهم المقامة على تل روباجا. وكانت المسافة مثالية باستخدام زاوية رماية عالية، وبرهن الرعب الذي أثاره المدفعان في النفوس على أنه كان حاسماً.

هرب موانجا مع الكاثوليك إلى جزيرة صغيرة في بحيرة فيكتوريا، ولم يكن لوجارد على استعداد لاحتمال مثل هذا التحدي، فقد نظر إليه على أنه استعداد للهرب إلى

الأراضي الألمانية عند الطرف الجنوبي للبحيرة. وقد ارتكب موانجا كذلك خطأ سيئاً، حيث كانت الجزيرة تقع على مسافة تقل عن نصف ميل من الشاطئ، بينما مدى مدفع ماكسيم ميل كامل. وحسب تقدير لوجارد فقد لقي مئة شخص مصرعهم بإطلاق النار عليهم، بالإضافة إلى قلة لقيت حتفها غرقاً خلال محاولتها الهرب بالزوارق. وأعرب شهود عيان آخرون عن اعتقادهم بأن الخسائر كانت أكبر من ذلك بكثير. وبعث جان-جوزيف هيرث الأسقف الكاثوليكي في بوغندا بروايته للأحداث إلى أوربا: «تجسدت دراما رهيبة لتوها... وهذه هي إحدى الصفحات الحافلة بالعار في حضارة القارة السوداء... يا لها من صرخات! ويا لها من عمليات قتل بالرصاص! ويا لها من حالات موت!».

لقد حصل لوجارد على ما أراده حيث استسلم موانجا، وسرعان ما سيغدو في قبضته تماماً. وعندما غادر الكابتن في طريقه إلى إنجلترا، في حزيران/ يونيو 1892، لكي يشق طريقه إلى أن يصبح واحداً من القناصل الأوائل العظام للإمبراطورية البريطانية، حمل معه رسالة مذهلة موجهة إلى الملكة فيكتوريا. وهذه الرسالة التي ذكر أن الكاباكا كتبها، تتضمن ما يلي عن لوجارد: «إنه رجل قدير للغاية، وكل الواغندا يحبونه أشد الحب، وهو رقيق وأحكامه عادلة وفي موضعها، ولذا فإنني أريدك أن تعيديه إلى أوغندا». وأعلن موانجا ولاءه لفيكتوريا، حيث يقول: «إنني وزعماء قبائلي تحت العلم الإنجليزي، تماماً كما أن الهند تحت علمك، ونحن نرغب كثيراً في أن يقوم الإنجليز بترتيب هذه البلاد» (وعلى الرغم من ذلك فإن علاقات موانجا بسادته المستعمرين لم تنته بشكل جيد، فقد تم أسره مع حاكم آخر غير متعاون، هو كاباريجا حاكم بونيورو في عام 1899 وأرسلا إلى المنفى في جزيرة سيشل).

استغرقت ألمانيا وبريطانيا أقل من عقد من الزمان، لرفع علميهما على ما يزيد على ستمئة ألف ميل مربع من بر شرقي أفريقيا، وكانت المناطق الصغيرة الأخيرة من أفريقيا الاستوائية التي بقيت من دون أن يعلن أحد سيطرته عليها، مملكتي رواندا وبوروندي النائيتين الواقعتين إلى الشمال من بحيرة تنجانيقا. وقد تطلع إليهما الملك ليوبولد الذي أراد جعلهما جزءاً من الدولة الحرة التابعة له والتي اكتسبت سمعة سيئة بالفعل،

وكذلك تطلع إليها سيسيل رودس الذي علّق الآمال على أنهما قد تصبحان حلقتين في طريق الكاب ـ القاهرة الخيالي. ولم تتخل المملكتان سريعاً عن استقلالهما، ولكن بمرور الوقت تمكنت ألمانيا من استغلال الانقسامات في صفوف أرستقراطية التوتسي الحاكمة، وتم ضم رواندا عام 1897، وجرى إخضاع بورندي في نهاية المطاف عام 1903[7].

حتى قبل رسم هذه الحدود الاستعمارية الأخيرة كانت عمليات التطوير في البر الأفريقي تنطلق بسرعة، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى قرار الحكومة البريطانية مد خط للسكك الحديدية إلى الداخل انطلاقاً من ممباسا، تماماً على نحو ما كان الكولونيل كتشنر قد دعا قبل سنوات، وتمثل الهدف في مد الطريق باتجاه الشمال الغربي إلى خط الاستواء تقريباً، وصولاً إلى بحيرة فيكتوريا وحدود أوغندا. ولم يكن التصميم على الانطلاق في مثل هذا المشروع نابعاً بصورة خالصة من الرغبة في «فتح» الأراضي أمام المستوطنين البريطانيين، أو التفوق على ألمانيا في الإنجاز، والتي كانت تنفذ بالفعل طريقاً للسكك الحديدية في الجزء الخاص بها من شرقي أفريقيا في أيار/ مايو 1893، وإنما ساعدت العوامل الاستراتيجية على التغلب على العقبات التي تقف في وجه مثل هذه المغامرة باهظة التكاليف؛ فهذا الطريق يمكن استخدامه في نقل القوات بسرعة إلى الداخل لحماية أوغندا ولمواجهة أي تحركات فرنسية أو بلجيكية نحو أعالي النيل. وكان المهديون لايزالون يحكمون الامتداد السوداني الهائل، ولكن بريطانيا عقدت العزم على العودة إلى هناك للانتقام لمصرع جنرال جوردون في الخرطوم واستعادة هذه الأراضي لمصر[8] التي كان الإنجليز يحكمونها الآن (سيقع على كاهل كتشنر نفسه عام 1898 أن يقوم بسحق جيش المهدي في معركة أم درمان).

لقد ذهل مهندسو السكك الحديدية البيض الذين أحضروا إلى ممباسا من الهند، حيال العقبات الجغرافية التي وجدوها في انتظارهم؛ فالطريق إذ يبدأ من مستوى سطح البحر يتعيّن شقه عبر الغابات والأدغال صعوداً إلى هضبة يبلغ ارتفاعها سبعة آلاف قدم، ثم هبوطاً إلى مستوى ألف وخمسمئة قدم إلى وادي الأخدود الأفريقي العظيم، ومعاودة التسلق وصولاً إلى ثلاثة آلاف قدم إلى جرف كيكويو، ثم الهبوط أخيراً أربعة

آلاف وستمئة قدم إلى بحيرة فيكتوريا وذلك في مسافة تسعين ميلاً من طول السكة. وعلى الرغم من ذلك، فإنه في أيار/ مايو 1896 كانت صحيفة **«التايمز»** اللندنية تنشر نبأ مفاده أن «سكة حديد أوغندا» (لم تكن عربات النوم قد وضعت عربة واحدة منها على الخط) تمضي قدماً بتكلفة ربما تصل إلى ثلاثة ملايين جنيه استرليني. «يوجد في الموقع الآن ألف ومئة عامل وحرفي من الهند، ومن المتوقع أن ينضم إليهم ألف غيرهم، وقد تم بالفعل اعتماد تشغيل قوة العمل من السكان الأصليين». وكان قرار تشغيل الأفارقة مصدر سعادة لكيرك الذي تابع مسار الأحداث من لندن، وكتب إلى لوجارد في وقت لاحق يقول: «نصف أعمال الحفر أنجزها السكان الأصليون، الأمر الذي أسعدني؛ لأن هاردنج وكيرزون يعتقدان أن الزنوج لن يعملوا، بينما أقول إنهم سيعملون إذا ما عوملوا بطريقة منصفة وعادلة».

قبل إكمال مئتي ميل من عمليات مد الطريق، كان مبلغ ثلاثة الملايين جنيه استرليني قد نفد واستنفد القوة العاملة بصورة مستمرة؛ بسبب المرض والإجهاد وهجمات الحيوانات البرية[9] (كانت الحاجة ماسة إجمالاً إلى اثنين وثلاثين ألف عامل، تدعمهم جيوش من الحمالين والعمال الأفارقة الذين مات الألوف منهم). ومع ذلك فلم يكن هناك مجال للتراجع، وبمجرد مد الطريق عبر مساحة من الأرض تنطلق القاطرات هادرة، عبر مناطق لم يرها رجل أبيض قبل عشرين عاماً. وغرس الانتصار الفعلي لـ «الخط المجنون» بتكلفة زادت على خمسة ملايين جنيه استرليني، أقدام النزعة الاستعمارية البريطانية في شرقي أفريقيا.

الفصل الخامس والخمسون

من جزيرة السلطان إلى مرتفعات المستوطنين

> أمر طيب إذاً أن ندرك أنه لصالحنا - وليس فقط بحسب ما يمليه الواجب - أننا قد حملنا على كاهلنا عبء مسؤوليات في شرقي أفريقيا، وهناك البعض ممن يقولون إنه ليس لنا حق في شرقي أفريقيا على الإطلاق، وإنه «ينتمي إلى السكان الأصليين». وأنا أعتقد أن حقنا هو الضرورة الملقاة على كاهلنا لأن نقدم لسكاننا المتزايدين احتياجاتهم - سواء بفتح مجالات جديدة للهجرة أو بتقديم فرص العمل التي يقتضيها تطوير الامتداد عبر البحار - وتنشيط التجارة بالعثور على أسواق جديدة، حيث إننا نعرف أي بؤس يجلبه كساد التجارة على الوطن.
>
> العقيد فريدريك لوجارد - **نشأة إمبراطوريتنا في شرقي أفريقيا** (1893)

بعيداً عن البر الأفريقي في زنجبار بدا لبعض الوقت أن أدوات عصر آخر ووسائله ربما سيكتب لها البقاء من دون مساس بها، وكان السلطان لايزال «جلالة السلطان» ويعامله القنصل البريطاني بلباقة متعمدة. ففي نهاية المطاف لم ينقض إلا عشرون عاماً فحسب منذ قيام السلطان برغش بزيارته الرسمية لبريطانيا، وسط مظاهر أبهة بارزة. وكانت المدافع تطلق تحية والموسيقى تعزف بالسلام الوطني في أعياد الميلاد الملكية، وكل ذلك جزء من "وهم" قوامه أن حاكم الجزيرة مستقل كأسلافه.

كانت الأحداث توشك أن تبرهن على أن هذا "الوهم" ربما تمت المحافظة عليه بأفضل مما ينبغي، فقد بدأ السلطان حامد الذي استقر على العرش عام 1893 يقوم في هدوء بتشكيل جيش خاص، في وقت كان اهتمام إنجلترا منصباً على القلاقل التي ثارت على امتداد الساحل إلى الشمال من ممباسا (وهي قلاقل بالغة الشدة إلى حد الاحتياج إلى نقل حمولات سفن بكاملها من الهند لمواجهتها)[1]. وكانت لدى السلطان الجديد أسس للشعور بالسخط؛ لأن الحكومة البريطانية قد صادرت مئتي ألف جنيه استرليني أعطتها ألمانيا لزنجبار، باعتبارها ثمن شراء نصيبها من الساحل، ومضت بريطانيا تستخدم هذه الأموال للمساعدة في تسوية ديون شركة شرقي أفريقيا

الإمبراطورية البريطانية، كمقدمة للاستيلاء على كينيا وأوغندا كمستعمرتين تابعتين للتاج البريطاني. وعلى الرغم من أن زنجبار سيدفع لها تعويض سنوي قيمته سبعة عشر ألف جنيه استرليني عن الأرصدة التي لم تعد تمتلكها، فإن المسؤولين البريطانيين رغم ذلك نظروا إلى هذا الترتيب باعتباره يندى له الجبين خجلاً.

كان السلطان حامد من البراعة بحيث تمكّن من زيادة عدد رجال جيشه إلى أكثر من ألف رجل وتزويده بالأسلحة الحديثة، قبل أن يطلق الإنجليز صيحة التحذير. وقد نظر القنصل الجديد السير أرثر هاردنج إلى السلطان حامد باعتباره لا يعدو أن يكون «أميراً محمياً» وأشعره مسار الأحداث بالضيق الشديد. وحمل هاردنج المستشار الرئيسي في بلاط السلطان هلال بن عامر المسؤولية عما وقع، وقرر ترحيله عن الجزيرة.

بحلول ذلك الوقت أي حزيران/ يونيو عام 1896 كانت زنجبار ترتبط بالعالم الخارجي عن طريق كابل تلغرافي بحري، كما كان هناك كذلك مراسل لصحيفة **«التايمز»** اللندنية. وجاء في مستهل تقرير لهذا الأخير في 22 حزيران/ يونيو «نفذ البارحة حكم الترحيل بحق هلال بن عامر». ومضى التقرير ليصف كيف أن عرباً مسلحين حاولوا التدخل، ولكن الجنرال السير لويد ماتيوز قتل عدداً منهم بمسدسه «والهدوء مستتب الآن».

مضى خالد الابن الوحيد الباقي على قيد الحياة من أبناء السلطان برغش يرقب هذه الأحداث عن كثب. وكان في أوائل العشرينيات من عمره، ويجمع بين المهارة والنشاط، وتمتع بتأييد معظم نخبة زنجبار العربية. وكان يمكن أن يكون اختياره لشغل العرش اختياراً جماهيرياً عندما توج حامد سلطاناً، ولكن القنصل هاردنج حرص على التأكد من أنه سيتم تجاوزه، حيث أدرك أنه قد يكون أصعب مراساً من أن يتم التحكم فيه، وفضلاً عن ذلك فقد أظهر مؤشرات تدل على ميله للألمان.

بعد شهرين من ترحيل هلال بن عامر توفي السلطان حامد من دون سابق إنذار، فاقتحم خالد القصر، وأعلن نفسه سلطاناً جديداً للبلاد بعد القيام على وجه السرعة بدفن جثمان السلطان الراحل كما يقتضي العرف الإسلامي. وأطلقت مدافعه تحية

ورفع علمه عالياً، بينما احتل الجيش الذي أنشأه السلطان حامد مواقع دفاعية. وأطبقت التوقعات الكئيبة على زنجبار حيث دهمت الأحداث البريطانيين وهم يغطون في نومهم.

سرعان ما شق وفد من القنصلية البريطانية طريقه إلى القصر محذراً السلطان خالد من أن تحديه غير مقبول، وأنه «تمرد صريح» وعليه الإذعان أو احتمال العواقب. وقال خالد إنه يؤثر الموت على الاستسلام، وتم نصب أكبر مدافعه على امتداد سقف القصر.

في 27 آب/ أغسطس وتحت عنوان «زنجبار: إنذار بريطاني» ذكرت صحيفة **«التايمز»** اللندنية أن السفن الحربية البريطانية قد اتخذت مواقع في الميناء تواجه القصر. وجاء في نبأ ورد في وقت متأخر للصحيفة: «الساعة التاسعة مساء. تم توجيه إنذار إلى السيد خالد، تضمن إبلاغه أنه ما لم يتم إنزال علمه واستسلامه استسلاماً كاملاً بحلول الساعة التاسعة من صباح الغد، فإن القصر سيتم قصفه. وكانت تقف في صف خالد قوة قوامها ألفا رجل».

في صباح اليوم التالي، كانت في الميناء خمس سفن حربية تابعة للبحرية الملكية، وفي التوقيت المحدد تماماً بدأ القصف الذي دام أربعين دقيقة. واتسم تقرير المراسل الخاص في 28 آب/ أغسطس بالطابع التصويري، فقد فتحت السفن نيران مدافعها الثقيلة ورشاشاتها من طراز ماكسيم. «على مثل هذا المدى القصير، وقع ضرر جسيم للغاية، ولكن المتمردين قاتلوا بعزم وتصميم وردوا بنيران كثيفة». وحول القصر إلى «كتلة من الأطلال المشتعلة باللهب». وقدر عدد القتلى بخمسمئة رجل «حارب الكثير من العرب البارزين إلى جانب السلطان خالد في اشتباك الأمس، ومن المفترض أن ممتلكاتهم ستصادر»[2]. وأطلقت سفينة بخارية عتيقة تدعى «جلاسجو» وتنتمي إلى السلطان نيرانها على سفن البحرية الملكية البريطانية، ولكنها أغرقت على وجه السرعة. وباستثناء جرح بحار واحد، لم تقع خسائر في الجانب البريطاني[3].

وجد المراسل مكاناً في تقريره المطول ليأتي فيه على ذكر النسوة البيضاوات المقيمات في الجزيرة: نقلت السيدات إلى متن سفينة القيادة «سانت جورج» وقد تصرفن بشكل

رائع طوال الوقت. وساد رأي أجمعت عليه الجالية البريطانية مفاده أن الأوان قد آن لرفع العلم البريطاني والتخلص من «الحكم العربي» إلى الأبد.

أما فيما يتعلق بالسلطان خالد فقد نجا من القصف وانسل من بين الحطام وشق طريقه إلى القنصلية الألمانية، ورفض الألمان تسليمه للإنجليز من دون ضمانات بأنه سيعامل كأسير سياسي (وسيتم نقله سراً في وقت لاحق إلى تنجانيقا). وبعد ذلك بشهر نشرت **«التايمز»** اللندنية نبأ عن السلطان الجديد المقبول حمود بن محمد، وقالت إنه «على اتفاق تام في الرأي مع مستشاريه الإنجليز» وكان قد أصر على ضرورة إرسال ابنه علي لتلقي العلم في مدرسة بريطانية.

أطاح القصف كل المظاهر القديمة في رحاب النسيان. وكما سيعبر القنصل البريطاني في زنجبار، الميجور إف. بي. بيرس بعد سنوات بصراحة ووضوح عن الأمر: «في التاسعة من صباح 27 آب/ أغسطس عام 1896، تعلم العربي والسواحيلي في زنجبار درسه ولم ينسه».

مع بدء القرن العشرين، لم تعد زنجبار أكثر من جزيرة في ركن قصي مجهول، ساحة لذكريات قوة مضى عهدها. ومضى ملازم بريطاني شاب هو ريتشارد ماينرتزاجن إلى الجزيرة عام 1903 للتعافي بعد سقوطه من صهوة جواده، خلال إخضاعه الأفارقة في البر الأفريقي. وصحبه صديق له للقاء «رجل موغل في العمر» لم يكن إلا تيبو تيب. وكتب ماينرتزاجن في مذكراته يقول: «ليس من المسموح له أن يغادر زنجبار كما أنه لا يرغب في مغادرتها، وقد حاولت دفعه إلى الحديث عن أيام غاراته لاقتناص العبيد ولكنه حسبما بدا بجلاء لم يحب ذلك . . . وتحدث العجوز قليلاً وبدا من الواضح أن نشاطاته الماضية تثير شعوره بالحرج». وخلال الزيارة أبدى ماينرتزاجن إعجابه بدلة قهوة فضية بديعة تم صب القهوة له منها. وفي لحظة الوداع أصر تيبو تيب على أن يقدمها هدية لماينرتزاجن، وجاء الدور الآن على هذا الأخير للشعور بالحرج، حيث ما كان ليجرؤ على رفض الهدية، خوفاً من الإساءة إلى مضيفه.

عادماينرتزاجن لأداء واجباته في شرقي أفريقيا البريطاني. ولم يعد هناك وجود للشركة ذات الترخيص التي كانت قد خطت الخطوة الباهظة الأولى لتطوير المنطقة، ثم لحقها الدمار المالي وسوت الخزينة البريطانية دفاترها بمبلغ باعث على السخرية، هو خمسون ألف جنيه استرليني، وحل محلها حكم بريطاني مباشر.

لم يكن هناك شك بالفعل في أن ما كان حتى وقت قريب «فراغاً على الخريطة» سيصبح جوهرة من جواهر التاج البريطاني. وحذر لوجارد من أن هذه الممتلكات الجديدة «ليست أرض ذهب خرافية» ولكنه أشاد بـ«خصب التربة والطابع الصحي لأراضي المرتفعات ووفرة الأمطار والتميز العام للمناخ». ولم تكن الأعين مستقرة على وفرة خصب أوغندا فحسب، التي سيصفها ونستون تشرشل الشاب على نحو شهير، بأنها «لؤلؤة أفريقيا»، إنما على أراضي المرتفعات المحيطة بنيروبي العاصمة الجنينية لما سيصبح كينيا. وعلى الرغم من أن تكلفة خط السكك الحديدية كانت هائلة في الأرواح والأموال، فإنه بحلول عام 1899 كان من الممكن قطع مسافة ثلاثمئة ميل إلى نيروبي في يوم واحد، بدلاً من أسابيع عديدة من الخوض في الأوحال سيراً على الأقدام.

سجل الملازم ماينرتزاجن يوميات تغطي الوقت الذي أمضاه في كينيا خلال العقد الأول من القرن العشرين. وهي تعد صورة مليئة بالحيوية وباعثة على الشعور بالصدمة، وكتبت بلا حياء، وربما جاءت الشهادة الأكثر إقناعاً من جانب شاهد عيان على إخضاع السكان الأصليين لكي يمكن «إعادة اختراع» أفريقيا بحسب الشروط الأوربية. ولم يكن ماينرتزاجن ضابط جيش من النوع المألوف، فهو من أصول يهودية وابن شقيق بياتريس ويب، وهي مفكرة اشتراكية واسعة النفوذ، وكان كذلك قاتلاً للأفارقة، وحريصاً على صيد كل حيوان يقع في مرمى بندقيته.

كان العنف حتمياً خلال «تهدئة» كينيا؛ ويرجع ذلك في أحد جوانبه إلى أن مجيء الرجل الأبيض تزامن مع سلسلة من الكوارث التي ضربت المجتمعات الأفريقية خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، فقد تتابع الجفاف والمجاعة والجدري وأسراب الجراد في القدوم إلى القارة. وتمثل أسوأ ما هنالك في طاعون الماشية الذي قضى على قطعان الماشية، ولم تكن لدى الحيوانات الأفريقية حصانه ذاتية ضده. وتفيد إحدى النظريات

التي دارت حوله أنه قد جاء إلى القارة من الهند مع ثيران الجر التي استخدمت في شق السكك الحديدية، ولكن الأكثر احتمالاً أن هذا المرض جلبه من أوربا الإيطاليون الذين كانوا يديرون مستعمراتهم في الصومال وإرتيريا. وفي وقت لاحق جاء وباء ذباب الرمل الذي حملته السفن من البرازيل، وقد هاجمت هذه الذبابات الأفارقة في أقدامهم، وسببت إصابتها بالغرغرينة[4]، (وانتشرت هذه العقوبات البيئية الناجمة عن النزعة الاستعمارية جنوباً إلى تنجانيقا، وضاعفت من التقلص السكاني الناجم عن القتال المتقطع بين الألمان ورعاياهم المترددين في قبول حكمهم)[5].

عملماينرتزاجن أولاً بين شعب الكيكويو الذي كان معدل الوفيات في صفوفه عالياً من جراء المجاعة وغيرها من المتاعب، وأدى الخوف من المستعمرين ومقتهم إلى قتل رجل أبيض على يد قرويين قيدوه إلى عمود إلى أن اختنق، وجاء الانتقام عاجلاً، حيث يقول ماينرتزاجن:

«على الرغم من أن طبول الحرب دوت طوال الليل، فقد بلغنا القرية من دون حادث وأحطنا بها... أصدرت الأوامر بأن يقتل من دون رحمة كل شيء حي فيها، باستثناء الأطفال، وقد كرهت هذا العمل وتقت إلى إنجازه سريعاً، وبمجرد تمكننا من الرؤية أطبقنا على القرية. وحاول العديد من الرجال أن يلوذوا بالهرب، ولكنهم قتلوا في التو بالرصاص، ثم هاجمت المكان قبل أن يكون من الممكن إعداد أي دفاع عنه، وقتل الجميع إما بالرصاص أو بحراب البنادق».

لقد وجد ماينرتزاجن أنه من الأمور المثيرة للفضول تلك السهولة التي تخترق بها الحربة الجسد البشري، وتنتزع منه.

جعلته الفترة الثانية له في الخدمة العسكرية يتصل بشعب الناندي الذي تقرر أن يقتصر تحركه على محمية مساحتها أربعمئة وخمسون ألف فدان. وعلى الرغم من سعة هذه المساحة، فإن الناندي كانوا من رعاة الماشية الذين لا معرفة لهم بمفاهيم الحدود أو ملكية الأرض؛ ولذلك فقد اقتضى الأمر قدراً كبيراً من القوة. وقاد الحملة التي أرسلت ضدهم ثمانون ضابطاً من البيض مع عدة ألوف من الجنود السود والكشافة

والحمالين. وحملت القوة عشرة مدافع رشاشة، وبغض النظر عن سحق كل مقاومة، فقد كان الهدف هو عقاب هذه الجماعة بمصادرة ماشيتها. وسرعان ما تمكن ماينرتزاجن من أن يلاحظ في مذكراته (7 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1905): «يبدو أن الناندي قد تلقوا عملية نفض غبار جيدة عنهم خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، فقد خسروا عشرة آلاف رأس من ماشيتهم، وقتل حوالي خمسمئة من محاربيهم، بالإضافة إلى ذبح سبعين ألفاً من أغنامهم وماعزهم، وهم يسعون الآن لإقرار السلام بأي ثمن» وفي نهاية «عملية نفض الغبار» - وهو تعبير شائع - فقد الناندي ما يزيد على ألف محارب وانتزع منهم ستة عشر ألف رأس من الماشية[6].

وعلى امتداد سنوات فرض خلالها البيض النظام الذي انتهى عملياً عام 1910، لم يمت إلا ستة ضباط بريطانيين، ووصلت الخسائر في صفوف حملة البنادق الأفارقة التابعين لهم إلى عدة مئات من الرجال، ولكن الخسائر التي أحصيت بشكل تقريبي في صفوف المهزومين كانت أضعاف ذلك مرات كثيرة. وبحلول عام 1911 كان هناك بالفعل ثلاثة آلاف مستوطن، فيما عرف بـ «مرتفعات البيض» وبيعت الماشية المصادرة لهم. وغطت مساحة الستة عشر ألف ميل مربع من هذه المرتفعات الخصبة التي لم يسمح بملكية الأراضي فيها لغير البيض، ربع الأراضي القابلة للاستزراع في المستعمرة. وكانت معظم الأقاليم المحيطة بها قاحلة، ولكن «مرتفعات البيض» حظيت بما يكفي من المطر لري محصولين سنوياً، كما كانت كذلك صحية ومنعشة وجميلة.

كان هناك منذ البداية تفضيل لجلب «رجال من طبقة الضباط» الذين خدم العديد منهم في الهند، وأعطيت لهم قطع أراض تصل مساحة كل منها إلى ألف فدان[7]. وتمثلت مجموعة أخرى حظيت بالترحيب كمستوطنين في أبناء الطبقات العليا من هواة الصيد، ووجهت سكة حديد أوغندا، في غمار حرصها على اجتذاب ركاب الدرجة الأولى، حملاتها الإعلانية في بريطانيا إليهم «أصبحت أراضي مرتفعات شرقي أفريقيا البريطانية كموطن شتوي للأرستقراطيين صرعة رائجة، وجعلها عشاق الصيد الباحثون عن الطرائد الكبيرة هواية لهم». وكان نموذج المستوطنين من ذوي المنبت الرفيع هيو كولموندلي، واللورد ديلامير الثالث الذي وصل إلى المرتفعات عام 1898 في

رحلة صيد وأمضى الأعوام الثلاثين التالية هناك مروجاً لقضية تفوق الرجل الأبيض. وكانت الطبقة هي كل شيء في النادي غير الرسمي للمستوطنين، ولم يكن بإمكان الأيرلنديين واليهود الانضمام إلى عضوية هذا النادي، باستثناء الأثرياء منهم، أو الذين تلقوا ثقافة رفيعة على نحو استثنائي. وكان الهنود مؤهلين لإدارة الحوانيت، والأفارقة للعمل الشاق.

على الرغم من أن ماينرتزاجن لم يكن يوافق بياتريس ويب في آرائها السياسية، فإنه وجد أن كونه ابن أخيها قد أضفى عليه قيمة نابعة من إثارته للفضول في نفوس رؤسائه. فقد دعاه المفوض السامي لكينيا، السير تشارلز إليوت، لتناول طعام العشاء على مائدته: «يأمل اليوت في اجتذاب ألوف الأوربيين إلى شرقي أفريقيا، ولا يبدو أنه يتقبل أن يكون للسكان الأصليين أي حقوق، وقلت له إن شرقي أفريقيا ملك للأفارقة، وإنه ليس لنا الحق في احتلال أي أراض هي أصلاً أراض قبلية. إن علينا أن نطور شرقي أفريقيا للأفارقة وليس للغرباء».

لقد كان هذا موضوعاً تحاورا حوله في لقاء سابق: «قلت إنه ذات يوم سيتعلم الأفارقة، ويتسلحون، وإن ذلك سيفضي إلى صدام. وأعرب إليوت عن اعتقاده بأن ذلك اليوم بعيد للغاية إلى حد أنه لا أهمية له، وأنه بحلول ذلك الوقت سيكون العنصر الأوربي قوياً للغاية بحيث يستطيع الأوربيون العناية بأنفسهم، ولكنني مقتنع بأنه في نهاية المطاف سينتصر الأفارقة».

من المدهش أن يتنبأ أحد بذلك في السنوات الأولى من القرن العشرين، ولكن عندما نتأمل الأمر اليوم، فإننا نجد أن الأكثر إثارة للدهشة هو الكيفية التي تحققت بها هذه النبوءة.

الخاتمة

المشكلة الكبرى المتعلقة بالاستعمار هي إلى أي حد يمكن لحوالي ثلاثمئة وخمسين مليوناً من الرعايا البريطانيين الذين هم غرباء عنا من حيث العرق والدين واللغة والأخلاق والعادات، أن يحكموا أنفسهم أو نحكمهم. إن روما لم تضطر قط إلى مجابهة قضية من هذا النوع.

لورد كرومر (إفلين بارنج): **الاستعمار قديماً وحديثاً** (1910)

تم احتلال أفريقيا في وقت كان الاستعمار الأوربي قد تم التخلص منه في معظم أرجاء العالم على نحو ما حدث في الأمريكتين، أو تعرض للتهديد في مناطق أخرى، وبصفة خاصة في الهند؛ ولذا كان من الطبيعي أن يشعر حكام المستعمرات الجديدة التي تم الاستيلاء عليها سريعاً بالحاجة إلى تبرير مواقفهم بقياس أعمالهم وأهدافهم مقارنة بأعمال إمبراطوريات سابقة وأهدافها. وكان من الجلي أن الإمبراطورية الأقرب إليهم، وهي «دولة الهند» البرتغالية، تعد أقل كفاءة من أن ينظر إليها باعتبارها مثالاً يقاس عليه. وفضلاً عن ذلك فقد أسست على مبادئ بعيدة تمام البعد عن المبادئ الأثيرة في مطلع القرن العشرين، وعندما قسم «خط البابا» العالم، اعتبرت إسبانيا والبرتغال أن من واجبهما أن تقوم كل منهما بغزو النصف الخاص بها لخدمة العالم المسيحي. أما الآن فإن الاستعمار علماني، والهدف المعلن هو «جلب الحضارة»، وتم الترحيب بالمبشرين المسيحيين للمشاركة في أداء هذه المهمة، طالما أنهم لا يحدثون أي متاعب سياسية.

عندما تأمل الإداريون البيض وجودهم بأفريقيا، والهوة القائمة بينهم وبين الشعوب التابعة لهم، لم يستغرق الأمر منهم وقتاً على الإطلاق لكي يدركوا أين يمكن العثور على النموذج الصحيح. وفي عصر كان كل أوربي متعلم على معرفة بالأعمال الكلاسيكية، ما كان عليهم إلا أن يعودوا بذاكرتهم إلى النصوص التي درسوها أيام

تعليمهم. وكانت القوتان الإيبيريتان قد استمدتا إلهامهما من روما في نهاية القرن الخامس عشر، وقد حذا حذوهما بناة الإمبراطوريات الجدد، ولكنهم تطلعوا إلى روما أسبق عهداً على نحو ما تتجلى في كتابات قيصر وبليني وتاسيتوس. ولم يساور البريطانيين - الذين حكموا أعظم إمبراطورية في عصرهم - شك حول ضروب التماثل التاريخية، ورأوا في الطريقة التي أخضع بها الرومان أسلافهم تبريراً لمعاملتهم للأفارقة. وقد عبر السير أرثر هاردنج، أول مندوب سام لما سيصبح كينيا، على نحو صريح بقوله: «لابد من تعليم هؤلاء الأفراد الخضوع بالرصاص؛ إنها المدرسة الوحيدة، وبعد ذلك يمكنك البدء باللجوء إلى أساليب تعليم أكثر حداثة وإنسانية».

لم يشُكَّ المسؤولون البريطانيون الذين تولوا مسؤولية «نصيب الأسد» في أفريقيا، في أن نشر ثقافتهم يبرر اللجوء إلى بعض القمع. وردد تفكيرهم أصداء تفكير المؤرخ وليم روبرتسون الذي يعود إلى القرن الثامن عشر، والذي عكفت الطبقات الوسطى الفيكتورية على قراءة أعماله. وكان قد قال عن الرومان: «كتعويض لرعاياهم عن فقدهم لحريتهم، أوصلوا إليهم فنونهم وعلومهم ولغتهم وأعرافهم» وفضلاً عن ذلك، فإن «التفاعل بين أبعد أركان الأرض قد تم تأمينه وجعله مقبولاً».

وقد تم تبسيط أوجه التشابه مع روما القديمة في كتاب له تأثيره، حافل بالمقتطفات اليونانية واللاتينية، من تأليف اللورد كرومر، أحد الأسماء البارزة في الاستعمار البريطاني. وكان من أبرز اهتماماته على نحو يمكن تفهمه مصير الهند، وقد ذهب إلى القول بأن الحديث عن الحكم الذاتي هو هراء، «كما لو كنا ندعو إلى الحكم الذاتي لأوربا موحدة». وعلى الرغم من أن الحاجة قد تمس إلى الإصلاحات، فإنه ينبغي القيام بها في الإطار الدائم للتفوق البريطاني. ففي نهاية المطاف بقي السلام الروماني طوال قرون. ووصف اللورد كيرزون وهو قنصل آخر واسع الصلاحيات الإمبراطورية البريطانية بأنها «في ظل العناية الإلهية أعظم أداة للخير عرفها العالم». ونادراً ما كانت مثل هذه المزاعم المتشامخة يغامر بطرحها من جانب القوى الاستعمارية الأقل شأناً، حتى الفرنسيون، ولكن هذه القوى جميعها شعرت من دون شك بأنها ستهيمن على تطور أفريقيا حتى المستقبل البعيد.

غير أن شعوب أفريقيا لم تكد «توضع تحت الاحتلال» وتجبر على تقبل وضع جديد يتمثل في الاستعداد لدفع الضرائب، وتقبل مصادرة الأراضي والسلطة المركزية، حتى رأت سادتها الاستعماريين وقد أخذ كل منهم بخناق الآخر. والأمر الذي يتجاوز هذا كثيراً هو أن العديد من الأفارقة جرى تجنيدهم للقتال مع الأطراف المتصارعة في امتداد استوائي لحرب الرجل الأبيض، وإذا لم تسلم لهم البنادق، فإنهم كانوا يجبرون على حمل الذخيرة وتهريب الطعام عبر الأدغال.

قبل عام 1914 كان كل ما يطلب من الرعايا في المستعمرات هو الطاعة، وعندما بدأ يطلب منهم الولاء غيَّر ذلك على نحو مفاجئ علاقة البيض بالسود. وبحلول الوقت الذي استتب فيه السلم، مضى بعض الأسئلة يتشكل في أذهان الأفارقة، فعلى أي أسس يطالب الحكام بالولاء؟ إن الحدود التي أجبرت الشعوب المستعمرة على البقاء بداخلها لم تبد اهتماماً بالأراضي التقليدية، وغالباً ما كانت تمضي مباشرة قاطعة هذه الأراضي. أفلا يجب على الأفارقة أن يصبحوا موالين لأنفسهم، وأن يتحدوا لاستعادة كبريائهم؟ وسرعان ما انهارت الرهبة التي أحاطت بالأوربيين.

في وقت مبكر يعود إلى أوائل العشرينيات من القرن الحالي، بدأت تطل التلميحات الأولى للقومية السوداء في صورة «جمعيات الرفاه» و«روابط الشباب» التي يقودها أساساً المدرسون والرهبان، الذين تعلموا في البعثات التبشيرية. وقد تأثر الإيقاع السياسي في الهند كذلك بالحرب، وسرعان ما غدت التأثيرات ملموسة عبر المحيط في كينيا؛ فقد سيطر الآسيويون على تسعة أعشار تجارة التجزئة في شرقي أفريقيا بحلول عام 1918، وأقدموا على المطالبة بحقوق سياسية مساوية لتلك التي يتمتع بها المستوطنون البيض. وعلى الرغم من أنهم لم يتحدوا مع الأفارقة، وإنما أرادوا إبعاد أنفسهم عنهم، فإنه بدأ إجراء نقاش سياسي، وترددت الأصداء على امتداد كبير وصولاً إلى تنجانيقا التي أصبحت تحت الانتداب البريطاني بعد هزيمة ألمانيا، وإلى أوغندا، بل وأوغلت جنوباً حتى روديسيا ونياسالاند.

ودفعت المطالب الهندية في شرقي أفريقيا وزارة المستعمرات في لندن إلى إصدار كتاب أبيض في تموز/ يوليو عام 1923. وأرسى هذا الكتاب الأبيض خطاً إرشادياً

تاريخياً «إن كينيا في المقام الأول أرض أفريقية، وتعتقد حكومة جلالة الملك أن من الضروري بصورة قاطعة تسجيل رأيها الذي أمعنت النظر فيه؛ وهو أن مصالح السكان الأفارقة الأصليين ينبغي أن تأتي في المقام الأول». وقد ردد ذلك على نحو ملحوظ أصداء بيان أصدره البرلمان البريطاني حول الهند قبل تسعين عاماً: «من المعترف به كمبدأ لا مجال للمنازعة فيه أن مصالح الرعايا من السكان الأصليين ينبغي وضعها في الاعتبار على نحو يجعلها تسبق مصالح الأوربيين عندما تتضارب هذه المصالح». وكان هناك منطق لا مجال لتجنبه وراء هاتين العبارتين، ولكن دقات ساعة النهاية كانت تدوّي في الأسماع في كينيا بعد أقل من ثلاثة عقود من الحكم البريطاني.

بمعنى من المعاني لم يكن هناك مجال للعودة إلى الوراء بالنسبة إلى الحكام، وبمعنى آخر لم يكن هناك مجال للتراجع بالنسبة إلى المحكومين؛ فقد انتهت العزلة التي امتدت طويلاً، وتمزق ذلك «الإقفال المحكم» وبدأ الداخل الأفريقي يملي إرادته على الساحل (وعلى الرغم من أن علم زنجبار كان لايزال يرفرف على حصن اليسوع، فإن تلك كانت إشارة خاوية من المعنى، ولم يكن بعيداً ذلك اليوم الذي ستتم فيه إطاحة آخر سلطان لزنجبار كي يحل محله أحد أحفاد العبيد، ويعطى هذا السلطان الأخير دارة مطلة على ساحل إنجلترا الجنوبي ليقضي فيها ما بقي له من أيام).

لم يمس التعليم الأوربي إلا أقلية محدودة من الأفارقة، ومع ذلك فقد كان التأثير سريعاً ومذهلاً. وتظهر صورة التقطت عام 1934 الممثل الأمريكي بول روبسون[1]، وقد بدا مرتدياً جلد نمر يحيط بخصره، خلال تصوير فيلم «السفن النهرية» وإلى جانبه يبدو في ملابس أوربية تساير أحدث أزياء العصر، كيني أسود عمل في الفيلم ضمن جموع الكومبارس[2]. ولم يكن هذا الممثل الثانوي الذي لا يعرف تاريخ ميلاده ولا اسمه الحقيقي؛ لأنه ولد يتيماً، إلا جومو كينياتا[3]، وقدر له في وقت لاحق أن يودعه البريطانيون السجن؛ في ضوء أنشطته السياسية، ثم أطلق سراحه ليصبح أول رئيس لبلاده.

بينما كان هذا الفيلم يعرض في مختلف أرجاء العالم (ويعرب روبسون عن ندمه الشديد على القيام ببطولته، بعد أن أدرك متأخراً أكثر مما ينبغي الكيفية التي يمجد بها

دور الرجل الأبيض في أفريقيا) كان التحرك الأخير الكبير الذي يقوم به الاستعمار يتم تنفيذه. فبناء على أوامر أصدرها بنيتو موسوليني[4] غزا الإيطاليون أثيوبيا التي كانت قبل أربعين عاماً قد أوقعت بهم هزيمة حافلة بالإذلال في معركة عدوة. وعلى الرغم من أن إيطاليا شعرت على الفور بالرضا النابع من الأخذ بالثأر، فإن الغزو كان علامة بارزة ضاعفت من مشاعر السخط لدى السود، حيث كانت أثيوبيا بمنزلة رمز، فهي دولة أفريقية احتفظت بحريتها خلال التسابق الأوربي على المستعمرات الأفريقية، ولكن العالم يقف الآن متفرجاً، بينما الإيطاليون يغزونها بوحشية متناهية[5].

صدر كتاب جون جونتر الشهير **«داخل أفريقيا»** في عام 1955. وكان جونتر باحثاً لا يعرف الكلل، ويعد كتابه هذا شاهداً على عصره، يطلق الحقائق والآراء كما يُطلق الرصاص لصيد الطيور. وتحفل صفحاته بأسماء حكام المستعمرات الذين تناول جونتر الطعام معهم خلال رحلاته، ولكن الرسالة الشاملة للكتاب صريحة للغاية: «هناك أمران ينبغي قولهما فيما يتعلق بالاستعمار في أفريقيا من دون إشارة إلى الجوانب اللاأخلاقية والمظالم في هذا النظام: (1) إنه أنجز الكثير من الأمور الجيدة (2) إنه يحتضر». وأورد جونتر قائمة ببعض الأسباب التي تقف وراء كون الحكم الأبيض قد حسم أمره وشارف على الانتهاء بالفعل، بعد أقل من نصف قرن على إقراره: «الأخلاق؛ أي ذلك الشعور الغامر بأنه من الخطأ على الصعيد الأخلاقي أن تحكم أمة ما أمة أخرى؛ ففي نهاية المطاف تعد أفريقيا قارة الأفارقة. والسبب الثاني الغلة المتناقصة؛ أي الحقيقة القائلة إن تكلفة الحكم القمعي (أو حتى غير القمعي) المستمر تزيد على العائد منه، ذلك أن القوة تكلف مالاً. ثالثاً المسيحية، فقد علّم المبشرون أتباعهم أن البشر متساوون جميعاً أمام الرب. وكذلك ودرو ويلسون – الذي دعا إلى حق تقرير المصير للأمم الصغيرة». وأضاف جونتر إلى هذه القائمة تأثير الدومينو لرد الفعل المتسلسل المترتب على استقلال الهند والتخلص من السيطرة الأوربية في الشرق الأوسط. غير أنه أياً كان ما حدث للاستعمار فقد شعر جونتر بالتيقن من أن الروابط بين أفريقيا وأوربا لا سبيل إلى كسرها، وباعتباره أمريكياً فقد نظر إلى أفريقيا على أنها جزء من «التخوم العالمية» للولايات المتحدة الأمريكية، حيث يقول: «إن أوربا، بمعنى من المعاني، ملتصقة بأفريقيا، وأفريقيا ملتصقة بأوربا، وأمريكا ملتصقة بكل منهما».

بعد عام من صدور كتاب جونتر، بدا واضحاً مدى التصاق أمريكا بأفريقيا وأوربا خلال أزمة السويس في تشرين الأول/ أكتوبر 1956، فقد قررت بريطانيا التي كانت ماتزال القوة الاستعمارية الأكثر بروزاً، أن ترد الضربة عندما قام الرئيس المصري جمال عبدالناصر[6] بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس. فقامت بريطانيا بغزو مصر مع اضطلاع فرنسا وإسرائيل بدورين مساعدين وذلك عقب القيام بقصف جوي. وفي واشنطن نظر إلى هذه الممارسة المتأخرة لدبلوماسية البوارج على أنها كارثة أيديولوجية تعد بمنزلة هدية للاتحاد السوفيتي، في التنافس الجاري على اكتساب تعاطف الحركات المناهضة للاستعمار في آسيا وأفريقيا. وأعلنت الولايات المتحدة الأمريكية معارضتها لمغامرة السويس، ثم وجهت ضغطاً مالياً مضت تضيق خناقه على بريطانيا؛ فأجبرتها مع شريكتيها على التراجع، وقد نالها قدر ليس باليسير من الإذلال. وأعلن نائب الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ذلك انتصاراً أمريكياً: «لقد أظهرنا للمرة الأولى في التاريخ استقلالاً عن السياسات الأنجلو-فرنسية نحو آسيا وأفريقيا التي بدا لنا أنها تجسد العرف الاستعماري. وقد كان لهذا الإعلان تأثير صاعق على امتداد العالم».

كانت نتيجة أزمة السويس انتصاراً لمصر وعبدالناصر كذلك؛ فهو حين لوى ذيل الأسد البريطاني أصبح بطلاً لعشرات من البلاد التي ماتزال تحت الحكم الاستعماري، وبخاصة تلك البلاد التي يقطنها عدد كبير من العرب والمسلمين الذين شعروا بالاتحاد معه بحكم الانتماء إلى دين واحد. وراحت نهاية الاستعمار تطل عبر الأفق، ولكن من المؤكد أن الانتصار الذي أحرزته مصر قد عجل بهذه النهاية. وفي عام 1960 قال هارولد ماكميلان رئيس الوزراء البريطاني الذي وصل إلى السلطة في أعقاب أزمة السويس، في خطاب ألقاه في كيب تاون إن «رياح التغيير» تهب في أرجاء أفريقيا، وكان حرياً به أن يضيف قائلاً إنها تهب من القاهرة تحديداً.

شهد صدر الستينيات انهيار الاستعمار في أفريقيا بصورة مفاجئة وبشكل عشوائي، تماماً كما تم فرضه. وكان العديد من المعمرين الأفارقة الذين في وسعهم أن يحكوا كيف فوجئوا وانزعجوا عندما شهدوا قدوم الرجل الأبيض، قد فوجئوا بالمثل، ولكن لم ينزعجوا، لرؤيته يرحل.

تحدت المنطقتان البرتغاليتان وهما أنجولا وموزمبيق والناجمتان عن تقسيم البابا للعالم في القرن الخامس عشر وتأسيس «دولة الهند» البرتغالية، تحدتا حركة المد المناهضة للاستعمار طوال خمسة عشر عاماً أخرى، وكنتيجة مباشرة قدِّر لهذين البلدين أن تدمرهما الحرب الأهلية على امتداد جيل بكامله. وأنهى سفك الدماء والضغوط الاقتصادية على التوالي المقاومة البيضاء في روديسيا (التي أصبحت زيمبابوي) ثم في جنوب أفريقيا في نهاية المطاف.

بعد أربعين عاماً من أزمة السويس تبدو الحدود الدولية قد تغيرت على نحو مذهل، وكذلك توازن الثروة على امتداد العالم. ولاتزال الثقافة الأوربية متغلغلة في أفريقيا، وتفرض الأيديولوجية المالية الأمريكية عليها من قبل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ومع ذلك فإن الجانب الشرقي من القارة من البحر الأحمر حتى الكاب، يعود بصورة متزايدة إلى علاقته التاريخية مع آسيا، حيث يتم بصورة قوية تذكر الصلات التي كانت قائمة قبل الهيمنة السياسية من جانب أوربا. وعندما قام الصينيون بمد أول سكة حديدية عملاقة في أفريقيا المستقلة عبر ألف ميل من دار السلام إلى زامبيا، لم يفتهم أن يذكروا الزيارات التي قامت بها لشرقي أفريقيا قبل خمسة قرون سفن من أساطيل الأميرال زينج هي[7].

لم تعد الرياح الموسمية تملي المواعيد التي يمكن للسفن أن تبحر فيها عبر المحيط الهندي، ومع ذلك فإن إيقاعاتها لاتزال تتخلل حياة ملياري نسمة من البشر على امتداد شبه القارة الهندية ومن شرقي أفريقيا إلى ماليزيا. ويجدد المحيط الهندي في الوقت الراهن مكانته باعتباره «منطقة للقاءات والاتصالات» و«تقاطع طرق للحضارات». وفي معرض تأكيد هذه الوحدة الهيكلية تحدث الرئيس نيلسون مانديلا في بداية عام 1995 عن الآمال التي يعلقها على التعاون في «إطار المحيط الهندي». وأعاد إلى الأذهان كيف أن الحياة العملية للمهاتما غاندي[8] قد بدأت في جنوب أفريقيا وانتهت باستقلال الهند. وفي أيلول/ سبتمبر 1996 تم إنشاء التجمع الاقتصادي الإقليمي لدول المحيط الهندي، ويبدأ ميثاقه بهذه الكلمات: «وعياً بالروابط التاريخية التي امتدت عبر ألف عام. . . » وقد أنشئت أمانة عامة لهذا التجمع في موريشوس، وكان من بين

الأعضاء المؤسسين الهند، إندونيسيا، ماليزيا، أستراليا، والدول المطلة على ساحل شرقي أفريقيا كافة من كينيا إلى جنوب أفريقيا[9].

ستواجه أفريقيا مهمة شاقة، يتعين عليها في غمارها القيام بدمج مستقبلها مع مستقبل آسيا؛ وذلك بسبب التاريخ الطويل من التخلف. وتماماً كما أن القارة كانت لغزاً محيراً في الماضي، وكان داخلها على الدوام أرضاً مجهولة، فإنها ماتزال اليوم لغزاً محيراً، ومن المستحيل التنبؤ بمسار تطورها. وعلى امتداد قرون عديدة بادلت أفريقيا الاستوائية صادراتها غير المصنعة بالواردات المصنعة، وهكذا فإنه لم يقدر لرأس المال أن يتراكم قط[10]. وهي لاتزال واقعة في هذا الفخ، حيث ينظر إلى القارة في المقام الأول باعتبارها مزوداً بالمواد الخام التي تتطلع صناعات الشرق المزدهرة إليها بمزيد من الشوق. وسيتمثل التحدي الذي يتعين على أفريقيا أن تواجهه في القرن المقبل في الإفلات من علاقة التبعية هذه مع جيرانها في المحيط الهندي والعثور على مكان مساو في ساحة ظلت مساهماتها الرئيسة فيها تقتصر طويلاً على العاج والتبر وجلود النمور والعبيد.

الهوامش

المقدمة

1. قد يمكن النظر إلى خط وهمي، يمتد من كيب تاون إلى بيرث في أستراليا، باعتباره الحد الجنوبي للمحيط الهندي، على الرغم من أن ألان فيير Alan Villiers في كتابه بعنوان **«المحيط الهندي»** *The Indian Ocean* سيمد هذا الخط، نزولاً إلى القارة القطبية الجنوبية (المؤلف).

2. هناك مسح للاتصالات الأولى بين أوربا والشرق في كتاب **«روما والهند: التجارة البحرية القديمة»** *Rome and India: the Ancient Sea Trade*, ed. Vimala Begley and Richard De Puma (Madison, Wisconsin, 1991)؛ وكذلك في الفصل الأول من كتاب جورج حوراني George Hourani بعنوان **«الملاحة العربية في المحيط الهندي»** *Arab Seafaring in the Indian Ocean*. وقد تحدث ديو كاسيوس Dio Cassius عن توق الإمبراطور تراجان إلى المضي للهند في كتابه: **«التاريخ الروماني»** *Dio's Roman History* الذي ترجمه إرنست كاري Earnest Cary (لندن ـ 1955) (المؤلف).

3. لاحظ الجغرافي البيروني الذي كتب في القرن الحادي عشر الميلادي أنه في أجزاء من الهند «تمطر السماء بصورة متواصلة على امتداد أربعة أشهر، كأنما الماء يصب من الدلاء». راجع كتاب: **«الريح الموسمية»** *Monsoon* لستيف ماكري Steve McCurry (لندن ـ 1955) حيث يصف الحياة الهندية قبل الأمطار الموسمية وبعدها (المؤلف).

4. ألف جون راي John Ray (1691) كتابا بعنوان «حكمة الخالق في أفعال الخلق» *The Wisdom of God Manifested in the Works of the Creation*. وهناك سيرة حياة بعنوان «جون راي» كتبها تشارلز ريفين Charles Raven (كامبردج ـ 1950) (المؤلف).

5. ينسب إلى هيبالوس Hippalus وهو من رجال البحر الإغريق المنتمين إلى القرن الأول قبل الميلاد، اكتشاف كيفية الإبحار اعتماداً على الريح الموسمية الجنوبية الغربية مباشرة من البحر الأحمر إلى جنوبي الهند (المؤلف).

6. تشمل الآثار الفنية لهذه التجارة تمثالاً هندياً صغيراً للربة لاكشمي، تم العثور عليه في بومبي، وتمثالاً إغريقياً صغيراً يعتقد (بشكل ملائم) أنه لرب البحر بوسايدون، وقد عثر عليه في كولابور بغربي الهند. كما عُثر على الكثير من العملات الرومانية في العديد من أجزاء الهند (المؤلف).

7. فاسكو داجاما (1469 ـ 1524 تقريباً) الملاح البرتغالي الشهير الذي قاد الحملة البرتغالية في 1497 ـ 1499 التي فتحت الطريق البحري بين أوربا والهند، مروراً برأس الرجاء الصالح. ولا يعرف إلا القليل عن صدر حياته، وربما درس في مدينة إيفورا الداخلية، وتلقى في موضع آخر دروساً في الرياضيات وعلوم البحار، وقد حل محل أبيه استفاو الذي كان الملك جون قد اختاره للانطلاق إلى الهند لكسر الاحتكار التجاري الذي يتمتع به المسلمون وللالتفاف حول جناحهم في

المحيط الهندي، وقد ثبت الملك مانويل هذا الاختيار لدى توليه العرش في عام 1495 . وقد انطلق في رحلته الأولى في 8 تموز/ يوليو 1497 بأسطول مؤلف من 4 سفن، وعاد إلى لشبونة في 9 أيلول/ سبتمبر عام 1499، بعد الوصول إلى كالكوت والانطلاق منها ظافراً في الرحلة الأوربية الأولى من نوعها. وقد انطلق في رحلته الثانية وتحت قيادته عشر سفن، إضافة إلى أسطولين صغيرين تحت قيادة اثنين من أقاربه، بهدف تكريس الهيمنة البرتغالية على المحيط الهندي. وقد عيّنه الملك جون الثالث نائباً له في الهند في 1524، ووصل إلى جوا في أيلول/ سبتمبر من العام ذاته، حيث بدأ في تصحيح العديد من الممارسات الإدارية الخاطئة التي ساد العمل بها في ظل النواب السابقين، غير أنه سقط مريضاً، وما لبث أن توفي في كوشين في 24 كانون الأول/ ديسمبر 1524. وفي 1538 نقلت رفاته إلى البرتغال. وعلى الرغم من أن شهرته استندت في المقام الأول إلى شقه للطريق البحري من أوربا إلى الشرق، والمساعدة في تحويل البرتغال إلى قوة عالمية، فإن اسمه لم يرتبط في المحيط الهندي إلا بالبارود والمدافع والقنابل والدمار والدم (المترجم).

الفصل الأول

1. تم تدقيق المقتطف بالرجوع إلى **«ألف ليلة وليلة»** طبعة بولاق، العائدة لسنة 1252هـ. المصورة في طبعة دار صادر ببيروت، وهي غير مؤرخة الصدور. والمقتطف مدرج في الصفحة الثالثة من الجزء الثاني منها (المترجم).

2. لسنا ندري من أين جاء المؤلف بهذه المعلومة، التي تفيد أن في العالم مخطوطة وحيدة، تضم هذا الكتاب، هي الموجودة في أياصوفيا باسطنبول، حيث يعرف الدارسون أن هناك نسخة شهيرة واحدة أخرى، على الأقل، هي المودعة في المدرسة العادلية العلائية بدمشق (المترجم).

3. لا يوجد في موقع سيراف الآن إلا قرية صيد إيرانية صغيرة. وقد قضى على المدينة زلزال ضربها في عام 977 ميلادي، وبعد ذلك تراجعت إلى حد الانحدار (المؤلف).

4. تم تدقيق المقتطف بالرجوع إلى **«أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»** لأبي عبدالله محمد بن أحمد ابن البناء البشاري المقدسي، في طبعة دار إحياء التراث العربي البيروتية، الصادرة في عام 1987، حيث يرد نص المقتطف في الصفحة 107 (المترجم).

5. أود أن أصارح القارئ بأنني لم أعرف لكلمة «الردانية» أصلاً على وجه الدقة، غير أنه من الممكن تصور أنها من الرد، بمعنى الرجوع، حيث إن أولئك التجار كانوا فيما يبدو يقومون برحلات دائرية، بحيث يعودون إلى الميناء الذي بدؤوا منه رحلتهم في إسبانيا. وربما من هنا جاء لقبهم الغريب هذا «الردانية»، بمعنى من يرجعون إلى منطلقهم، نظرا لمعرفتهم بالطرق البحرية والدروب والمسالك، على نحو ما أشار إليه المؤلف في المتن (المترجم).

6. لمعرفة المزيد عن فيل شارلمان، راجع كتاب **«محمد وشارلمان وأصول أوربا»** *Mohammed, Charlemagne, and the Origins of Europe* من تأليف ر. هودجيز R. Hodges ود. هوايتستون D. Whitehouse. راجع كذلك كتاب **«حكم شارلمان»** *The Reign of Charlemagne* من تأليف هـ. ر. لوين H. R. Loyn وجي. برسيفال J. Percival (لندن-1975) (المؤلف).

7. يرد ذكر جبل المغناطيس في عدد كبير من الكتب؛ من بينها **«ألف ليلة وليلة»** - كما يشير المتن - وأيضاً **«عجائب الهند»** لبزرك بن شهريار، حيث ينقل عن «بعض البحريين أنه بين خانفوا، وهي قصبة الصين الصغرى، وبين خمدان، وهي قصبة الصين الكبرى، وهو جبل الصين، وبها بقبور (ملك الصين) الأكبر نهر يجري جرياناً شديداً بماء عذب، وعرضه أكبر من عرض دجلة البصرة، وفي مواضع منه جبال المغناطيس، وأنه لا مسير في ذلك النهر بمركب فيه حديد، لئلا تجذبه الجبال المذكورة لقوتها، وأن الفرسان الذين يسلكون تلك الجبال لا ينعلون دوابهم، ولا يكون في سروجهم حديد وركبهم ولجم خيلهم» (المترجم).

8. هذا الوصف لما يقوم به ريِّس المركب يتكرر في أكثر من رحلة من رحلات السندباد، وأيضاً في العديد من كتب رجال البحر القدامى (المترجم).

9. الترجمة التي أوردناها للمقتطف لنا، فلدى تدقيق النص على سفرات السندباد، لم نجد أي ذكر لهذا المقتطف في طبعة بولاق التي عدنا إليها، ويخيّل إلينا أن ذلك ربما كان مرده اختلاف الطبعات، أو أن الترجمة إلى الإنجليزية التي نقل عنها المؤلف أدخلت فيها عناصر من قصص أخرى (المترجم).

10. كان من المألوف خلال الرحلات العاصفة بالنسبة إلى التجار، أن يستدروا الرحمة الإلهية بالتعهد بتقديم هبات للأماكن المقدسة، وإذا تم الوصول إلى المرفأ بسلام، فإن الربان كان يقوم بجمع هذه الهبات (المؤلف).

11. كان في استطاعة سفن غربي الهند بأشرعتها المثلثة الإبحار «في اتجاه الريح» ولكنها كانت خطرة لدى «تغيير الاتجاه» في الجو العاصف. وكان يتعين القيام برفع عارضة الشراع الثقيلة، ونقلها إلى الجانب الآخر من الدَّقل. وكان يطلق على الزوارق الصغيرة التي تستخدم قرب الشاطئ اسم «متيبي». وقد قيل إن مقدماتها تمثل ناقة الرسول ﷺ الأثيرة لديه (المؤلف).

12. واصل المسلمون استخدام اسم الصين المستمد من اسم عائلة صين المالكة (221 ق. م. - 618 م.) على الرغم من أنه نسي في أوربا، على امتداد قرون (المؤلف).

13. تم تدقيق المقتطف بالرجوع إلى **«عجائب الهند: بره وبحره وجزائره»** لبزرك بن شهريار، تحقيق محمد سعيد الطريحي، في طبعة دار القارئ البيروتية، الصادرة في عام 1987 (المترجم).

14. كذا في الأصل (المترجم).

15. حري بقراء بزرك لدى مطالعتهم قصة إسحاق التي أتى على ذكرها، أن يعرفوا أن التجار كانوا يقومون على نحو مألوف برشوة الحكام لتجنب دفع المكوس (المؤلف).

16. بالنسبة إلى المعتقدات الزرادشتية «تم الحفاظ عليها في إيران تحت غطاء هش من الإسلام» كما قال (أ. س. كارنوي A. S. Carnoy) في **«موسوعة الدين والأخلاق»** *Encyclopaedia of Religion and Ethics*، المجلد الثاني عشر (المؤلف).

الفصل الثاني

1. ترجمة البيت لنا، فعبثاً مضينا نبحث عن أبي مخوف الذي نسب إليه المؤلف هذا البيت، لدى كتّاب التراجم العرب، ولنقل شوقي ضيف، مثلاً، والأجانب، ولنقل عند كارل بروكلمان، على سبيل المثال، ولكننا بعد أن بلغنا مشارف اليأس، وجدنا في «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي إشارة إليه باعتباره: «لوط بن يحيى بن مخنف بن سليمان (أو سالم أو سليم) الأزدي، أبو مخنف. وجده من أصحاب علي بن أبي طالب. وتوفي لوط سنة 157 هـ. وكان راوية إخبارياً، صاحب تصانيف، وكان يروي عن جماعة من المجهولين. قال أبو حاتم: متروك الحديث. وقال الدارقطني: إخباري ضعيف. ومن تصانيفه: كتاب الردة ـ فتوح الشام ـ فتوح العراق ـ كتاب الغارات ـ كتاب الخريدة بن راشد وبني ناجيه ـ كتاب مقتل علي رضي الله عنه ـ كتاب مقتل حجر بن عدي ـ مقتل محمد بن أبي بكر والأشتر ومحمد بن أبي حذيفة ـ كتاب الشورى ـ كتاب مقتل عثمان رضي الله عنه ـ كتاب المستور بن علفة ـ مقتل الحسين رضي الله عنه ـ كتاب المختار بن أبي عبيدة ـ كتاب وفاة معاوية وولاية يزيد ووقعة الحرة ومقتل عبدالله بن الزبير ـ كتاب سليمان بن صرد وعين الوردة ـ كتاب مرج راهط ومقتل الضحاك بن قيس الفهري ـ كتاب مصعب بن الزبير والعراق ـ كتاب مقتل عبدالله بن الزبير ـ كتاب حديث وادي الجماجم ومقتل عبدالرحمن بن الأشعث ـ كتاب نجدة الحروري ـ كتاب الأزارقة ـ كتاب حديث رشتق باز ـ كتاب شبيب الحروري وصالح بن مسرح ـ كتاب المطرف بن المغيرة ـ كتاب يزيد بن المهلب ومقتله بالعقر ـ كتاب خالد القسري ويونس بن عمر وموت هشام وولاية الوليد ـ كتاب زيد بن علي ويحيى بن زيد ـ كتاب الضحاك الخارجي ـ كتاب الخوارج والمهلب بن صفرة، وله غير ذلك من الفتوحات» (المترجم).

2. قد يصح في هذا المقام أن نحقق إطلالة لغوية دقيقة على كلمة «زنج» التي ستصحبنا طويلاً في هذا الكتاب. ففي **«مختار الصحاح»** لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي نقرأ، في طبعة دار الكتاب العربي البيروتية الصادرة في 1982، حول هذه المادة ما يلي: «الزنج جيل من السودان. وهم الزنوج. قال أبو عمر زَنْج وزِنْج وزَنجي بفتح الزاي وكسرها في الكل». وفي **«لسان العرب»** للإمام العلامة ابن منظور، نقرأ في طبعة دار إحياء التراث العربي، البيروتية الصادرة في 1996 حول المادة ذاتها ما يلي: «الزِّنجُ والزَّنجُ، لغتان: جيل من السودان وهم الزُّنُوجُ، وأحدهم زِنْجي وزَنْجي، حكاه ابن السكيت وأبو عبيد مثل رومي وروم، وفارسي وفرس، لأن ياء النسب عَديلة هاء التأنيث في السقوط». ونقرأ في **«القاموس المحيط»** للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، في طبعة دار إحياء التراث العربي البيروتية الصادرة في 1991، ما يلي: «الزَّنْجُ: ويكسر والمَزْنَجة، والزُّنُوج جيل من السودان واحدهم زَنْجِي» (المترجم).

3. غالباً ما كان التمر يحمل من الخليج العربي كأداة لموازنة ثقل السفن في الرحلات إلى شرقي أفريقيا، ليباع لدى الوصول إلى هناك (المؤلف).

4. لما كانت سفالة ستصحبنا طويلاً، على امتداد هذا الكتاب، فقد يكون من المناسب أن يعرف القارئ أنها توجد قرب بيره في موزمبيق الحالية (المترجم).

5. تستنفد الريح الموسمية طاقتها فيما وراء دلتا نهر الزامبيزي وسفالة، وأي سفينة تغامر بالإيغال جنوب مدار الجدي ستضطر إلى خوض غمار عودة صعبة، في مواجهة تيار "الأجولها" المتدفق باتجاه الجنوب (المؤلف).

6. لمزيد من المعلومات عن قيمة العبيد السود في البحر المتوسط، راجع كتاب **«العرب في إسبانيا والبرتغال»** *The Moors in Spain and Portugal* من تأليف جي. ريد J. Read (لندن-1974) (المؤلف).

7. في وسع القارئ الرجوع إلى ص 120 من **«مختار الصحاح»** في طبعة دار الكتاب العربي البيروتية الصادرة في 1982، ليقرأ قول مؤلفه محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي: «الحَبش والحَبشة بفتحتين فيهما جنس من السودان، والجمع حبشان، كحمل وحملان» (المترجم).

8. القائمة المتضمنة لهذه السلع أوردها المقدسي في ص 92 من **«أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»**، طبعة دار إحياء التراث العربي البيروتية-1987 (المترجم).

9. في نشيد الإنشاد نقرأ المطلع: «أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم» وهو ربما يستمد إلهامه من شعر الشعوب الصحراوية في مرحلة الجاهلية، التي كان العبيد يقومون برعي إبلها. وكانت أم شاعر عربي شهير، هو عنترة بن شدّاد العبسي حبشية. وكان معظم خلفاء بغداد أبناء سراريّ، وثلاثة منهم فقط كانت أمهاتهم من الأحرار. راجع **«ملكات الإسلام المنسيات»** *The Forgotten Queens of Islam* لفاطمة المرنيسي (لندن-1993) (المؤلف).

10. هذا الخطأ كثيراً ما يقع فيه المؤلفون الغربيون الذين يجهلون أو ربما يتجاهلون، مفهوم دار الحرب في التقاليد الفكرية الإسلامية؛ فالأحباش لا يتم الصدام معهم لأنهم مسيحيون حصراً، وإنما لأن بلاد الحبشة جزء من دار الحرب، وتوضح لنا الفتوحات الإسلامية كيف أن المسلمين عاملوا أبناء الأقطار المفتوحة، من الذميين خاصة، معاملة إنسانية رفيعة، لم يعرفها التاريخ من أمة محاربة من قبل قط (المترجم).

11. ما يقوله المؤلف من أن الإسلام لم يضع حداً للرق صحيح، ولكنه يتجاهل - أو ربما يجهل - حقيقة على جانب كبير من الأهمية، وهي أن القرآن والسنة ينظران إلى تحرير الأرقاء كعمل من أعمال التقوى يثاب عليه المسلم. وقد أوجد الإسلام طريقة عملية للعتق، والمكاتبة، وهي تشبه تماماً العقود المعروفة في القانون الروماني باسم Peculium وهي أن يحرر السيد عبده، إذا دفع له هذا الأخير مبلغاً من المال يتفقان عليه، وذلك بممارسته مهنة تدر عليه هذا المال اللازم. وقد نص القرآن على المكاتبة على مبلغ معين، ولا يبتاع العبد حريته إلا إذا أدى هذا المبلغ جميعه. وينبغي ألا ننسى أن الشريعة الإسلامية اشترطت ألا يستعبد الأسرى في حالة حرب شرعية مع الكفار إلا بعد الإنذار والإشهار. كما أثر عن الرسول ﷺ جملة أحاديث، تؤكد ميله إلى تحسين وضع الأرقاء ورغبته في عتق رقابهم، ومنها: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» و«اتقوا الله في الضعيفين، المملوك والمرأة» و«لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم». ويقول الإمام الغزالي في هذا الشأن: «كان آخر ما وصّى به رسول الله ﷺ أنه قال (اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، اطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من

العمل ما لا يطيقون، فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله، فإن الله ملككم إياهم، ولو شاء لملكهم إياكم)» (المترجم).

12. دقق المقتطف بالرجوع إلى **«رحلة ابن جبير»** لمحمد بن أحمد بن جبير، في طبعة دار صادر، البيروتية، المنشورة من دون تاريخ، حيث يجد القارئ المقتطف في ص 203 (المترجم).

13. في أسطورة تقليدية عن أكل لحوم البشر، تمضي ملكة زنجية بأسير إلى مسكنها الواقع تحت الأرض، «إذا اكتشفت فيه قوة ومراساً، فإنها تبقي عليه وترعاه وتغذيه بنوع من السمك يزيد طاقته، وهي تواصل تقديم خدماتها له إلى أن يدركه التعب والسأم. وعندما يغدو عاجزاً تقتله، وتأكله» (شرف الزمان طاهر المروي، **«الصين والأتراك والهند»** *China, the Turks and India*، ترجمة وإعداد في. مينورسكي V. Minorsky ـ لندن ـ 1942) (المؤلف).

14. كذا في الأصل (المترجم).

15. يمكن العثور على أكثر الروايات إفاضة، حول انتفاضات الزنج، في كتاب **«ثورة العبيد في العراق»** *La Révolte des Esclaves en Iraq* لمؤلفه ألكسندر بوبوفيتش A. Popovic الصادر بالفرنسية (المؤلف).

16. هكذا وببساطة يحسم المؤلف مسألة ماتزال حتى اليوم لغزاً يحير الباحثين. والواقع أنه لا يمكن القفز إلى ما قاله المؤلف هنا، من دون الوقوع في هاوية التبسيط المخل، فعلي بن محمد، الملقب بصاحب الزنج، وبالبرقع، والذي ظهر في فرات البصرة سنة 225 هجرية، وقاد الزنج في ثورتهم الثالثة - الملقبة بالكبرى - والتي دامت نحواً من أربع عشرة سنة، اختلف المؤرخون في أمره، فالبعض يؤكد فارسيته، والبعض الآخر يقول إنه من أصل عربي، ويسكت فريق ثالث عن نسبه. أما الرجل نفسه فقد زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، غير أنه ما لبث أن غيَّر نسبه وبدَّله من حين إلى آخر، فنسب نفسه إلى يحيى ابن زيد بن علي، بعد أن خرَّب البصرة. وقد ولد في قرية كبيرة تدعى ورزنين، من قرى الري، وبها نشأ، وهي لا تبعد عن طهران الحديثة كثيراً. والطبري يثبت نسبه العربي، ولكنه - شأن المراجع العربية عامة - يجرده من نسبه العلوي (المترجم).

17. يجد القارئ هذه الأبيات، مع أبيات أخرى لصاحب الزنج في كتاب **«ثورة الزنج»** للدكتور فيصل السامر، وقد عدنا لطبعته الثانية الصادرة عن مكتبة المنار في بغداد، وذلك في ص 60 (المترجم).

18. من أشعار علي بن محمد الدالة قوله:

بني عمنا لا توقدوا نار فتنة ... بطيء على مر الليالي خمودها
بني عمنا إنا وأنتم أنامل ... تضمنها من راحتيها عقودها
بني عمنا وليتم الترك أمرنا ... بديئا وأعقابا ونحن شهودها
فأقسم لا ذقت القراح وإن أذق ... ببلغة عيش أو يبار عميدها

ومن الشعر المنسوب إليه أيضاً:

وإنا لتصبح أسيافنا	إذا ما انتضين ليوم سفوك
منابرهن بطون الأكف	وأغمادهن رؤوس الملوك

وذكر ابن أبي الحديد أن من شعره:

وإذا تنازعني أقول لها قري	موت يريحك أو صعود المنبر
ما قد قضي سيكون فاصطبري له	ولك الأمان من الذي لم يقدر (المترجم)

19. كذا في الأصل عملة ذهبية نادرة ضربها صاحب الزنج في عام 261، وهي الآن في المتحف البريطاني. وكانت الآية الكريمة ترفع على رايات حريرية مكتوبة بالخضرة والحمرة (المترجم).

20. قد يبدو من الغريب أن ينضم بعض المهلبيين إلى الحركة. لكننا نتبين جلية الأمر عندما نعرف أن الخلافة العباسية نزعت عن بعض المهلبيين أملاكهم؛ فانضموا إلى ثورة الزنج وساهموا فيها (المترجم).

21. كان سبارتكوس في مبدأ أمره جندياً في الجيش الروماني، يتحدر من أصل تراقي، ثم ذاق مرارة العبودية، ودفع إلى مستعمرات العبيد المصارعين. وقاد ثورة العبيد على روما في عام 73 ق.م. حتى سيطروا على جنوبي إيطاليا بكامله، لكن كراسوس استطاع في عام 71 ق.م. إيقاع الهزيمة بهم بعد حصار استمر ستة أشهر. وشنق ستة آلاف منهم، هم - عملياً - كل من بقي من جيش العبيد، على طول الطريق من كابوا إلى روما (المترجم).

22. من الجلي أن المؤلف يقيم توازناً بين الزنج وحرب الأكراد في القرن العاشر وبين انتفاضة الجنوب وثورة الأكراد على النظام العراقي بعد هزيمة هذا الأخير أمام قوات التحالف الدولي في حرب الخليج الثانية، ولكن من الواضح - بالدرجة ذاتها - أن المقارنة هنا تتم بين سياقين تاريخيين مختلفين. ومن الصعب تصور خطوط التوازي التي يلمّح المؤلف إلى وجودها (المترجم).

23. يلفت نظرنا هنا حقاً أن صاحب الزنج لم يقصد إلى هدم العبودية كنظام وآلية حياة اقتصادية واجتماعية بشكل كلي، بل إلى تحرير الزنج أنفسهم فحسب. فكان يحرّر العبيد الذين انضموا إليه جملة كلما قصد مكاناً أو فتح مدينة، لكنه استرّق أعداءه، وعاملهم معاملة العبيد سواء بسواء. وذكر المسعودي أن عسكر الزنج باعوا الحرائر من العرب الجارية منهن بالدرهمين والثلاثة. وقد وجد الألوف في سجون المختارة عند سقوطها (المترجم).

24. لاتزال هناك قطع نادرة من العملة التي سكّها صاحب الزنج، وتوجد قطعة منها في المتحف البريطاني، وأخرى في اللوفر (المترجم).

25. يقول الطبري عن نهاية علي بن محمد: «انصرف الموفق ورأس الخبيث منصوب بين يديه، والناس من جنبي النهر ينظرون إليه». راجع: «**تاريخ الأمم والملوك**»، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية المصرية، د. ت. (المترجم).

الفصل الثالث

1. كذا في الأصل. راجع: **«مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحفة الأشراف والملوك»** لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى عام 346 من الهجرة - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - مطبعة السعادة ـ الطبعة الثانية ـ 1948. وبحكم اهتمام قديم من جانبي بالدراسات اليابانية، تهمني الإشارة إلى أن المسعودي يقول في ص 155 من هذا الكتاب: «ليس بعد بلاد الصين مما يلي البحر ممالك تعرف ولا توصف إلا بلاد السيلي وجزائرها، ولم يصل إليها من الغرباء أحد من العراق ولا غيره فخرج منها لصحة هوائها ورقة مائها وجودة تربتها وكثرة خيرها، إلا النادر من الناس». ويخيل إليّ أن هذا النص يحسم النقاش حول ما إذا كانت كتب التراث تضم كتابات عن اليابان، فمن الواضح أن المسعودي يجزم باستحالة ذلك (المترجم).

2. النسبة هنا هي إلى جزر الواق واق، ويقول عنها أبو يحيى زكريا القزويني في كتاب **«آثار البلاد وأخبار العباد»** طبعة بيروت، الصادرة في عام 1960 في ص 33: «إنها في بحر الصين وتتصل بجزائر زانج والمسير إليها بالنجوم، قالوا: إنها ألف وستمئة جزيرة، وإنما سميت بهذا الاسم لأن بها شجرة لها ثمر على صور النساء معلقات من الشجرة بشعورها، وإذا أدركت يسمع منها صوت، وأهل تلك البلاد يفهمون من هذا الصوت شيئاً يتطيرون به» (المترجم).

3. ربما هاجر بعض الجماعات الإندونيسية من مدغشقر، هرباً من الاستعمار الهندي لسومطرة، في القرن السابع. راجع كتاب **«أفريقيا والجزر»** *Africa and the Islands* لمؤلفه ر. جي. هاريسون تشيرش R. J. Harrison Church (المؤلف).

4. يقول أبو حامد محمد الغرناطي في كتابه **«تحفة الألباب ونخبة الاعجاب»** في الطبعة الباريسية، الصادرة في عام 1925، في ص 108 عن الرخ إنه: «يكون جناحه الواحد عشرة آلاف باع. ذكر ذلك الجاحظ في كتاب **«الحيوان»**» (المترجم).

5. توضح نقوش بارزة في معبد بوروبودور، في جاوة (حوالي عام 800 ميلادي) سفينة كبيرة مبحرة إلى المحيط ذات دقل ثلاثي وذراع امتداد (المؤلف).

6. تشير كتب الملاحة والجغرافيا العربية إلى هذه الجزر دائماً على أنها جزر ذيبة المهل. ويخيل إلينا أن كلمة «المالديف» ليست إلا التحريف الغربي لهذا الاسم (المترجم).

7. كان أرز أفريقي يعرف علمياً باسم أوريزا جلابريما Oryza glaberrima يزرع قبل أن يحل الواق واقيون النوعية الآسيوية المتميزة من الأرز، المعروفة علمياً باسم أوريزا ساتيفا Oryza sativa محله (المؤلف).

8. التعرف على اللغة الملاجاشية الأصلية، باعتبارها لغة مطابقة للغة جاوة القديمة قام به دكتور سي. سي. بيرج C. C. Berg أستاذ اللغات الأسترالية ـ الإندونيسية بجامعة لايدن. وقد تعرف الرحّالة الأوربيون الأوائل على هذه الصلة الإندونيسية. وفي عام 1603 قام الهولنديون بتأليف قاموس مالاجاشي ـ ماليزي. وفي عام 1708 أنجز أدريان ريلاند Adrien Reland رسالة لنيل درجة الدكتوراه حول هذا الموضوع (المؤلف).

9. ربما نقل الواق واقيون إلى أفريقيا النارجيل والعديد من محاصيل البساتين المختلفة. ويشير الاستخدام المالاجاشي للكلمات السواحيلية الخاصة بالحيوانات المستأنسة مثل الكلاب والحمير والدجاج والقطط والماعز والخراف، إلى أن هذه الحيوانات قد جلبها إلى الجزيرة السكان الأوائل، بعد توقفهم في شرقي أفريقيا (المؤلف).

10. تعد النظرية التي قال بها إ. إم. جونز A. M. Jones والقائلة إن الاستخدام واسع النطاق في غربي أفريقيا للأكزيلفون جاء نتيجة للرحلات الإندونيسية في المحيط الأطلسي. راجع: **«أفريقيا وإندونيسيا: برهان الأكزيلفون وغيره من الأدوات الموسيقية والاعتبارات الثقافية»** *Africa and Indonesia: the evidence of the xylophone and other musical and cultural factors* (لايدن ـ 1964) – تعد هذه النظرية رومانسية، ولكنها غير محتملة – (المؤلف).

الفصل الرابع

1. كذا في الأصل. والمقصود (الزبج) أي إندونيسيا الحالية (المترجم).

2. دقق المقتطف بالرجوع إلى ص 60 ـ 61 من كتاب **«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»** لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي، طبعة عالم الكتب البيروتية الصادرة في عام 1989 (المترجم).

3. على امتداد ألف عام اتخذ العرب الذين استقروا في شرقي أفريقيا زوجات محليات، طوعاً أو كرهاً. وقد كانت النسوة اللواتي يتم أسرهن في الحرب يعاملن باعتبارهن من الغنائم (المؤلف).

4. لسنا ندري من أين أتى المؤلف بهذا الطرح؛ فهو فضلاً عن مخالفته للوقائع التاريخية الثابتة، يخالف صميم الطابع الحضاري للدين الإسلامي، ومجاف للأمر الصريح: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة». وعلى أي حال، فإن مثل هذا الطرح ليس بالجديد، ويندرج في بعض التصورات التي تصب في تهميش الرسالة الحضارية والإنسانية التي أنجزها الإسلام، ولايزال، في العديد من أصقاع العالم ومناطقه النائية (المترجم).

5. كذا في الأصل. وإن كنت أصارح القارئ بأنني لم أستطع الامتناع عن التساؤل مراراً وتكراراً، عما إذا كانت هي نفسها «الشعبين» الواردة فيما وراء سفالة بحسب شكل البلدان والأختان على نحو ما هو وارد في **«أرجوزة تحفة القضاة»** لشهاب الدين أحمد بن ماجد، شرح حسن صالح شهاب، ص 40 من الطبعة الأولى التي أصدرها اتحاد كتاب وأدباء الإمارات في عام 1991 (المترجم).

6. طوَّر شرقي أفريقيا علاقات أوثق مع عدن والبحر الأحمر بعد نهاية الألف الأول لظهور المسيحية، وبحلول ذلك الوقت كانت مصر قد حلت محل العراق باعتبارها مركز السلطة الإسلامية (المؤلف).

7. بعض العملات الذهبية التي استخدمها التجار على ساحل أفريقيا حتى مدغشقر جنوباً هي عملات فاطمية (إسماعيلية) ترجع للحكم الفاطمي لمصر وصقلية وشمالي أفريقيا في القرن الحادي عشر الميلادي. وعلى الرغم من استخدام العملات النحاسية في المستوطنات الساحلية فقد ظلت الأصداف عملة شائعة في المناطق البعيدة عن الساحل (المؤلف).

8. تم اكتشاف تمثال برونزي صغير لأسد يبلغ ارتفاعه واحداً وستين ملم، من النوع الذي عثر عليه في المعابد الهندية في منطقة شانجا عند مستوى يعود إلى عام 1100 ميلادي. وربما كان قد تم صبه في شرقي أفريقيا (م. هورتون M. Horton وتي. آر. بلرتون T. R. Blurton في بحث "**الأشغال المعدنية الهندية في شرقي أفريقيا**") (المؤلف).

9. تم تدقيق النص على **«مروج الذهب»** للمسعودي، ص 106 من الجزء الأول (المترجم).

10. كذا في الأصل (المترجم).

11. لمزيد من المعلومات عن التطور العرقي في شرقي أفريقيا، راجع: جون ميدلتون John Middleton **«عالم السواحيلي»** *The World of the Swahili*(ييل ـ 1992) (المؤلف).

12. يصف المسعودي الأمواج قبالة ساحل الزنج (ربما في ذروة الرياح الموسمية) بأنها «عالية كالجبال» وهناك «موج أعمى» و«موج مجنون» لا زبد فيه ولا قمم (المؤلف).

13. يؤكد الجغرافي الإدريسي الذي عاش في صقلية ونقل روايات المتحدثين، أن سحرة ماليندي كان بوسعهم جعل أكثر الثعابين سماً بلا ضرر لأحد «باستثناء من يريدون إلحاق الضرر بهم، أو الذين يريدون الثأر منهم» (المؤلف).

14. دقق النص بالرجوع إلى ص 13 من **«صورة الأرض»** لأبي القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي المعروف بابن حوقل النصيبي، طبعة منشورات دار مكتبة الحياة البيروتية، الصادرة في عام 1979 (المترجم).

الفصل الخامس

1. طبعت يوميات الحاخام بنيامين التودلي للمرة الأولى في القسطنطينية في عام 1543، وتصور مشاعره الدافئة نحو الإسلام التغير العميق في العلاقات بين الديانات «السماوية» منذ عصره (المؤلف).

2. يمكن العثور على رواية بنيامين عن أسر الأفارقة من خلال إغوائهم باللحوم في العديد من المصادر الأخرى، وعلى سبيل المثال: **«شرف الزمان طاهر المروي»** (مرجع سابق) (المؤلف).

3. يعد نص ماركو بولو المقبول خلاصة لصياغات متضاربة في لغات مختلفة. وقد ترجم نص إنجليزي مطبوع ذائع في عام 1527 عن صياغة إسبانية لترجمة بندقية غير دقيقة للمخطوط المكتوب بالفرنسية القديمة (المؤلف).

4. مملكة الخطا هي Cathay . وهذا هو الاسم الذي أطلقه العرب والمسلمون عليها، حيث يقول ابن ماجد في أرجوزة تحفة القضاة:

ومن يكن في صينه إلى الخطا   يستقبل المرزم وقيت الخطا

ويجعلها ابن بطوطة خارجة عن أعمال الصين، لكنها تابعة لملك الصين، ويجعل خانقو، عاصمة ملك الصين، من بلاد الخطا (المترجم).

5. في عام 1238 بلغ من شدة خوف أبناء فريزلاند من لقاء المغول حد أنهم لم يجسروا على الرحيل إلى إنجلترا لشراء أسماك الرنكة، بحسب ما يورد دبليو روكهيل W. Rockhill في ترجمة لـ **«يوميات وليم أوف روبروك»** William of Rubrouck's *Itinerarium* (لندن ـ 1900) (المؤلف).

6. ليس هذا التعبير والكثير غيره في الأدبيات الغربية إلا الجزء الطافي من جبل جليد حرب فكرية طاحنة تفرض وجودها، حتى على الرغم من تراجع أصداء الحروب الصليبية ضد الإسلام من جانب أوربا (المترجم).

7. على الرغم من أن أسلوب بناء السفن في المحيط الهندي قد جاء مفاجأة لماركو، فإن المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس Procopius، الذي ينتمي إلى القرن السادس قد عقّب على السفن المعدة بطريقة أقرب إلى الحياكة بقوله: «إنها تشد بعضها إلى بعض بنوع من الحياكة بالحبال» (**«بروكوبيوس»** *Procopius* ـ ترجمة هـ. ب. ديونج H. B. Dewing ـ كامبردج ماساشوستس ـ 1914) (المؤلف).

الفصل السادس

1. على الرغم من الإشارات العرضية إلى أن ماركو لم يذهب إلى الصين قط، فإن روايته تحمل مذاق أصالة قوياً. ويعقّب آر. إي. لاثام R. E. Latham على ذلك بقوله: «لا وجود لأي شيء يمكن أن يوضع موضع المقارنة، ولو من بعيد، مع الصورة البانورامية التي يرسمها بولو» للأمم، عند أي كاتب غربي منذ سترابو قبل ثلاثة عشر قرناً، ولقرنين آخرين على الأقل (المؤلف).

2. الجُنْك Junk هي النوع الأول من ثلاثة أصناف من السفن الصينية، أوردها أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين في ص 565 من رحلته، في طبعة دار صادر البيروتية، غير المؤرخة، حيث يشير إلى الجنوك، واحدتها جُنْك، وهي السفن الكبيرة، وتليها المتوسطة وتسمى الزّو، ثم الصغيرة، واحدها يسمى الككم. ويلاحظ أن الجنك يكون فيها اثنا عشر شراعاً فما دونها إلى ثلاثة، وأشرعتها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبداً، ويديرونها بحسب دوران الريح، وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح، ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم ستمئة من البحرية (المترجم).

3. البانيان هم تجار هنود من مناطق السند بصفة خاصة، هاجروا إلى أرجاء متباينة من المحيط الهندي، ومن بينها بالطبع منطقة الخليج العربي، وأسسوا فيها محلات تجارية وأسواقاً عرفت

باسم «أسـواق البانيـان». وعلى الرغم من كشافة التعـامل التجـاري مع أبناء المناطق التي هاجروا إليهـا، فإنهم في الخليج العربي ارتبطوا إلى حد ما في الوجدان الشعبي بصورة سلبيـة نابعة من الانتماء إلى ديانة وثقافة مختلفتين، وهذا ما يشير إليه د. فالح حنظل في ص 69 من **«معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات العربية المتحدة»** الصادر في أبوظبي عن وزارة الإعلام، من دون تاريخ نشر. وعلى الرغم من ذلك، فإن قوة ارتباطهم بالتجارة والتعامل النقدي تصل إلى حد أن كلمة «البانيان» تطلق على الوجه الذي وسمت عليه الصورة في النقد المعدني الهندي (المترجم).

4. هذه الثقة التي يلقاها ماركو بولو قائمة بين التجار الآسيويين. ويقول ابن جبير الرحالة المنتمي إلى القرن الثاني عشر الميلادي في غمار وصفه لرحلة من البحر الأحمر إلى القاهرة، إنه من الأمور الغريبة أنك ستكتشف في الصحراء أحمالاً من الفلفل والقرفة وما شابههما، متروكة بلا حراسة على جانب الطريق، وهي تترك على هذا النحو من جراء مرض أصاب الإبل التي تحملها، وتظل على حالها آمنة من كل المخاطر، على الرغم من عدد الرجال، من كل الأنواع، الذين يمرون بها (المؤلف).

5. مقتطف في ر. أ. ل. هـ. جوناوردانا R. A. L. H. Gunawardana «الطرق البحرية إلى سيلديبا» Seaways to Sielediba (المؤلف).

6. اليوجا هي أصلاً كلمة سنسكريتية معناها «النير» أو «الاتحاد». وهي مدرسة مهمة في الفلسفة الهندوسية، أثرت بقوة في الفكر الهندي. نصوصها الأساسية هي «سوترا اليوجا» وجانبها العملي أهم من النظري، ويشمل ضبط التنفس، والجلوس في وضع معين، والامتناع عن الجنس، والعديد من الضوابط الأخرى (المترجم).

7. الجروتات جمع جروت Groat. وهوعملة بريطانية قديمة تساوي أربعة بنسات (المترجم).

8. يتحدث القزويني في ص 33 من الطبعة البيروتية لكتابه **«آثار البلاد وأخبار العباد»** عن جزيرة النساء فيزعم أنها: «في بحر الصين، فيها نساء لا رجل معهن أصلاً، وأنهن يلقحن من الريح ويلدن النساء مثلهن. وقيل: إنهن يلقّحن من ثمرة شجرة عندهن، يأكلن منها فيلقّحن، ويلدن نساء» (المترجم).

9. تشكل هذه النوعية من الأوصاف نسيج العديد من الكتب وأعمال المؤلفين والمصنفين الأوربيين، وينبغي أن تفسر في ضوء عصرها كجزء من خطاب الصراع الديني الذي يأخذ في أوربا طابع الهاجس الذي لا يغيب (المترجم).

10. كانت المسيحية النسطورية في أوجها في عصر الربان صوما، حيث وجد من يعتنقون هذا المذهب في طول آسيا وعرضها. وقدِّر للمذهب الاستمرار مع تراجع عدد معتنقيه، حتى الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918) حيث أحيط بحوالي أربعين ألفاً من النساطرة باعتبارهم من اللاجئين عبر شمالي العراق، وقد اندمج الناجون مع جماعة مسيحية في سوريا، حيث اكتشفت صيغة محورة من قصة صوما (المؤلف).

11. مثل هذه التعبيرات ليست إلا ثمرة مريرة أخرى من ثمار الخطاب الديني السائد في أوربا في تلك الفترة، والذي لا يعدو أن يكون امتداداً فكرياً ولغوياً للحروب الصليبية (المترجم).

الفصل السابع

1. تم تدقيق جميع المقتطفات التي أوردها المؤلف من ابن بطوطة على كتابه **«تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»** والذي يعرف اليوم بـ**«رحلة ابن بطوطة»** وذلك من واقع طبعة دار صادر البيروتية، والمقتطف الذي نقف عنده هنا يرد في ص 701 من هذه الطبعة، وهي الصفحة الأخيرة من الكتاب (المترجم).

2. لمزيد من المعلومات حول العبودية في جزر شرقي البحر المتوسط، راجع كتاب شارلز فرلندين Charles Verlinden بعنوان **«بدايات الاستعمار الحديث»** *The Beginnings of Modern Colonialism* (المؤلف).

3. كانت إقامة ابن بطوطة في مكة قصيرة بمعايير بعض الفقهاء؛ ففي جنوب الهند التقى الشيخ المغربي فقيها صوماليا درس في مكة أربعة عشر عاماً، ومثلها في المدينة، وقام برحلة إلى الصين كذلك (المؤلف).

4. عندما زار ابن بطوطة أرض الزنج كان هناك مئة تجمع سكاني إسلامي على الأقل على امتداد الساحل، وقلة منها مثل ماليندي وممباسا وزنجبار وكلوة كانت موانئ تزورها عابرات المحيطات. أما الأخرى فكانت السفن الساحلية تخدمها (المؤلف).

5. ليست هناك إشارة واحدة إلى مثل هذا التصور في أي موضع من مواضع **«تحفة النظار»**، وربما كانت هذه الرؤية لا تتجاوز تخريجات للمعلقين الغربيين على رحلته، تأثر بها المؤلف على نحو ما يبدو في المتن (المترجم).

6. كذا في الأصل (المترجم).

7. ظلت كلوة مدينة مزدهرة لعدة قرون قبل وصول ابن بطوطة. وربما يمكن أن نعزو عدم تذكره لمسجدها العظيم، الذي ربما شيده حرفيون هنود، إلى حياته التي أمضاها في زيارة دور العبادة (المؤلف).

8. يتضمن كتاب سوتون Sutton بعنوان **«ألف عام من شرقي أفريقيا»** *A Thousand Years of East Africa* تصوراً مسقطياً axonometric لقصر القبة الحسينية، وربما كان بناء الندوة الحسينية المجاور مكاناً لتجميع العبيد (المؤلف).

9. لا شك في أن ربط المؤلف بين جهاد السلطان الحسن بن سليمان ضد المولّي بالاسترقاق هو قراءة متعسفة للموقف، ولسنا ندري هل جهل المؤلف، أو تجاهل، قول ابن بطوطة نفسه عن أهل كلوة إنهم: «أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفّار الزنوج» (المترجم).

10. غني عن البيان أن المقصود بالشرفاء هنا آل النبي ﷺ (المترجم).

الفصل الثامن

1. وصل ابن بطوطة إلى دلهي براً من الخليج العربي، ولكن الكثير من الأماكن التي زارها قبل الوصول إلى الهند لا يمكن الآن التعرف عليها (المؤلف).

2. يخيل إليَّ، وأتمنى أن أكون مجافياً للصواب في هذا، أن المؤلف يخلط بين الشيخ شهاب الدين بن الشيخ الجام - الذي كان يقيم بغار احتفره خارج دلهي، وقد أخذه السلطان في نهاية المطاف وسأل أولاده عمن كان يزوره، فذكروا أناساً، كان ابن بطوطة في جملتهم، فأمر أربعة من عبيده بملازمته بالمشور، وهو أمر متى حدث لأحد فقلما يتخلص منه - وبين كمال الدين عبدالله الغاري الوارد في المتن وكان من الأولياء، وله كرامات، ولكن ابن بطوطة لا يذكر أن السلطان بطش به وعذبه، وقطع رقبته كما يشير المؤلف (المترجم).

3. أقرب ميناء مطل على المحيط الهندي من دلهي هو ميناء كامباي (كنباية) الذي يقع على بعد 300 ميل إلى الجنوب الغربي (المؤلف).

4. كان التجار المسلمون من شبه الجزيرة العربية ومن مصر قد بدؤوا يصبحون عصبة قوية في بلاط السامري.

5. قال الحاخام بنيامين التودلي إن يهود المالبار قلائل، وهم من السود (المؤلف).

6. سبقت لنا الإشارة إلى أن المالديف ليست إلا التحريف الغربي للاسم العربي القديم «ذيبة المهل» (المترجم).

7. اعتمد سكان المالديف (ذيبة المهل) الذين كان يبلغ عددهم في عصر ابن بطوطة مئتي ألف نسمة، إلى حد كبير، على تجارة الودع التي كان يسيطر عليها السلطان. وفي القرن الرابع عشر كان هذا الودع يصل إلى غربي أفريقيا عبر بلاد المشرق. وقد ناقش أهميته جيمس هايمان James Heimann في مقال بعنوان «تجارة الودع كنموذج للتاريخ الاقتصادي للمحيط الهندي» ورد في *South Asia* عدد كانون الثاني/ يناير 1980 (المؤلف).

8. كذا في الأصل. وإذا كان ابن بطوطة يكتب اسم المدينة العظيمة على هذا النحو، فإن ابن ماجد على سبيل المثال يكتبه «دلى». ويخيّل إليّ أن هذا الفارق يرجع إلى اختلاف أبناء المناطق الهندية التي احتك بها كلا الرجلين (المترجم).

9. دفعت رواية ابن بطوطة الخاطفة حول الصين بعض الشراح إلى افتراض أنه - كما كانت الحال بالنسبة إلى ماركو بولو - لم يصل إلى هناك قط. ومع ذلك فإن الحوادث الشخصية التي يرويها تحمل نبرة الصدق، كما حدث عندما أصيب بخفقان القلب بعد مشاهدة مشعوذ صيني، وتعين القيام بإعطائه دواء. ودعاه صديق له إلى عدم الخوف «والله ما كان من صعود ولا نزول، ولا قطع عضو، وإنما ذلك شعوذة» (المؤلف).

10. أدى الموت الأسود (الطاعون الدَّبلي) إلى مصرع أربعين مليون نسمة - أي ما يزيد على ثلث سكان أوربا - في النصف الثاني من القرن الرابع عشر. وقد جلب إلى البحر المتوسط، عندما تم تفريغ سفن جنوية قادمة من البحر الأسود في جنوبي إيطاليا (المؤلف).

11. استقر العديد من العرب في غربي أفريقيا. وقد دفن شاعر عربي شهير من غرناطة، هو أبو إسحاق السهلي في تمبكتو. وتقع مدينة مراكش المحاطة بالأسوار والتي توفي بها ابن بطوطة، على طريق القوافل المفضي إلى مالي، وهي حافلة بالمعالم المعمارية التي تطابق نظائر لها في الأندلس (المؤلف).

الفصل التاسع

1. درجت المصادر والمراجع العربية التقليدية على وصف الخصي Eunuch بالفتى، وهذا هو بالضبط ما فعله ابن بطوطة وغيره كثير، فرأينا من المناسب العودة إلى هذا التقليد، على امتداد الإشارات إلى زينج هي. على أن يكون هذا المعنى - الذي قصدناه هنا - واضحاً بالنسبة إلى القارئ (المترجم).
2. إلى جوار الخزف الذي كان يستخدم لموازنة ثقل السفينة، فإن السلعة التجارية الرئيسة التي حملتها أساطيل «زينج هي» كانت الحرير. وقد شقّ قدر كبير منه طريقه إلى البندقية وغيرها من مدن البحر المتوسط (المؤلف).
3. اكتُشفت دفة إحدى سفن زينج هي في عام 1962 قرب نانكنج، ويبلغ طولها عشرين قدماً، ويصل عاضدها إلى ست وثلاثين قدما (جوزيف نيدهام Joseph Needham **«العلم والحضارة في الصين»** *Science and Civilisation in China*) (المؤلف).
4. بلغ متوسط سرعة الأساطيل العظيمة ما يزيد قليلاً على ست عقدات. ويعادل المقياس الصيني للسرعة، والمعروف باسم «لي» أصلاً ربع الميل، وقد تم تعديله بحلول القرن الخامس عشر الميلادي إلى ما يصل إلى خمسي الميل تقريبا (المؤلف).
5. تم تجنيد الكاتب فاي زين Fei Xin الذي وصف إحدى رحلات المحيط الهندي، وإدخاله سلك الخدمة العسكرية، تكفيراً عن خطيئة اقترفها أبوه أو جده، وقد مضى فاي زين إلى شرقي أفريقيا، ووصف الصومال مقللاً من أهميتها بأنها «أرض قاحلة» (المؤلف).
6. يشير نيدهام إلى أن بعض السفن الصينية ربما أرسل في رحلات استكشافية إلى ما وراء رأس الرجاء الصالح (المؤلف).
7. كل من قرأ **«تحفة النظار»** بحب وتعاطف وتدقيق وحرص على الفهم لابد له من أن يلاحظ أن ابن بطوطة بالفعل لا يأتي على ذكر ماليندي، ولكن ذلك أبعد ما يكون عن الرجوع إلى السبب الذي أشار إليه المؤلف في المتن، فمثل هذه الحساسية المصطنعة ما كان يمكن أن توجد لدى الفقيه المغربي (المترجم).

الفصل العاشر

1. تعود الأساطير الصينية التي تدور حول القلن إلى عام 2700 ق.م. (المؤلف).
2. ورد ذكر وحيد القرن الأسطوري في عام 400 ق.م. عند المؤرخ الإغريقي ستيسياس Ctesias على أن له عينين زرقاوين ورأساً أرجوانية. وقال سترابو Strabo عن «الجمل - النمر» إنه ليس بالحيوان المفترس. «وإنما هو حيوان مستأنس، حيث لا تظهر عليه مؤشرات التوحش» (المؤلف).

3. اشتهر عن بيبرس مؤسس حكم المماليك في مصر أنه بعث بأكثر من ألف زرافة نوبية إلى «خان الجموع الذهبية» في عام 1260 . وكانت الزرافة في ذلك الوقت أكثر الحيوانات عدداً في أفريقيا (المؤلف).

4. تم الكشف عن نصب "زينج هي" ذي اللغات الثلاث قرب جالي Galle في عام 1910 (المؤلف).

5. أتلفت سجلات «السفينة النجمية» في عام 1480 أو حوالي ذلك الوقت، ولكن «خريطة» ماوكون حفظت في المحفوظات الإمبراطورية (المؤلف).

6. ربما كان المبعوثون الذين أرسلوا إلى الإمبراطور الصيني من مصر وربما من كلوة في عام 1441 آخر المبعوثين الذين قاموا بهذه الرحلة كنتيجة لحملات زينج هي (المؤلف).

7. في الأصل Dondra وقد أسماها ابن بطوطة في ص 600 من **«تحفة النظّار»** دينور، ويقول عنها إنها «مدينة عظيمة على البحر، يسكنها التجار، وبها الصنم المعروف بدينور في كنيسة عظيمة فيها نحو ألف من البراهمة والجوكية، ونحو خمسمئة من النساء بنات الهنود، ويغنين كل ليلة عند الصنم. والمدينة وقف على الصنم، وكل من بالكنيسة ومن يردون عليها يأكلون من ريع وعوائد ذلك الوقف، والصنم من ذهب على قدر الآدمي. وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان، أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين» (المترجم).

الفصل الحادي عشر

1. الأسماء مدرجة كما في الأصل (المترجم).

2. عثر المنقبون على العديد من الآثار الفنية، وحملوها معهم بعد «اكتشاف» أطلال زيمبابوي الكبرى من قبل الأوربيين في أواخر القرن التاسع عشر (المؤلف).

3. يقول وبر ندورو Webber Ndoro المحاضر في قسم التاريخ بجامعة زيمبابوي، في مقال مهم بمجلة *Scientific American* عدد تشرين الثاني/ نوفمبر 1997 إن الأخطاء المتوالية في عمليات التنقيب في موقع زيمبابوي الكبرى جعلت الوصول إلى الحقائق التاريخية المتعلقة بها أمراً مستحيلاً، وإن هذه الحقيقة لن تتغير في المدى القريب، خاصة في ضوء الإمكانيات المحدودة المتاحة في المنطقة. ففي عشر دول جنوبي الصحراء في أفريقيا ينفق أقل من مئة وخمسين ألف دولار سنوياً على علم الآثار والأنشطة المتعلقة بها، ولا يوجد فيها إلا عشرون اختصاصياً محترفاً في هذا المجال، بينما بيع القطع الأثرية الأفريقية في الخارج يدر عائداً يقدر بملايين الدولارات على من يتعاملون فيها بشكل غير قانوني (المترجم).

4. حسب بعض التقديرات كان هناك ألف ومئتان وخمسون منجماً للذهب في الهضبة تتم السيطرة عليها من زيمبابوي الكبرى، وقد استخرجت منها ثروات على امتداد قرون عديدة، وكان الصخر الحامل لعروق الذهب هو الجرانيت، وتم سحقه آنذاك باستخدام الدولورايت، وهو صخر أشد صلابة من الجرانيت (المؤلف).

5. شملت الأشياء المستوردة التي عثر عليها الأثريون: أدوات المائدة، والأدوات الفخارية، والسلاسل النحاسية، والأدوات النحاسية، وحامل المصابيح الحديدي (المؤلف).

6 أحاطت أسوار أكثر خشونة بمناجم الذهب كمؤشرات للملكية (المؤلف).

7. يشير رولاند أوليفر Roland Oliver في كتابه بعنوان **«التجربة الأفريقية»** *The African Experience* إلى «أقلية عنيدة محدودة، تعود إلى ما قبل الميلاد من شمال غربي تنزانيا ورواندا، رفضت على الرغم من إعادة اختبارها أن تمضي بعيداً». ويقول جون ليف John Iliffe في **«الأفارقة: تاريخ القارة»** *Africans, the History of a Continent* (كامبردج - 1995) إن النقاش حول مصدر المهارات الزواندية في صهر المعادن «لم يحسم» (المؤلف).

8. دعمت سلطة الحاكم، من خلال الطقس الديني والسحر والموسيقى. وعندما يمضي الوسطاء في غيبوبة، كان يعتقد أن أرواح الموتى سيطرت عليهم. وكان أي رجل من رجال البلاط يرفض احتساء جعة الدخن مع الملك يتهم بدس السم له، ويعاقب بالموت (المؤلف).

9. وضع روجر سومرز Roger Summers جدولاً يقيس التقدم الحضاري، الذي أحرزته زيمبابوي الكبرى («هل كانت زيمبابوي الكبرى متحضرة؟» - ورقة مقدمة لمؤتمر تاريخي - معهد رودس لفنجستون - لوساكا - 1963). وقد خلص إلى أنه إذا نحيّنا الأمية جانباً، فإنها قد اكتسبت كل خصائص الحضارة في القرن الرابع عشر (المؤلف).

10. يؤكد جاك جودي Jack Goody في **«التعلم في المجتمعات التقليدية»** *Literacy in Traditional Societies* (كامبردج - 1968) أهمية القراءة والكتابة في «التخفيف من الاتجاهات الانقسامية في الإمبراطوريات الكبيرة» (المؤلف).

الجزء الثاني

الفصل الثاني عشر

1. تشكّل هذه التعبيرات جزءاً من خطاب العصر، الذي يستمد نسيجه من الصراع المحتدم الذي اتخذ طابع الصدام الديني بين المسلمين والمسيحيين، والذي تحوّل في التقاليد الفكرية الأوربية، إلى ملمح رئيسي من ملامح الوجود (المترجم).

2. وضع الاستيلاء على سبتة (في 21 آب/ أغسطس 1415) البرتغال «على الطريق الاستعماري الذي لم تكن هناك نقطة عودة تطوعية منه» (بيلي دبليو. ديفي Baily W. Diffie **«مقدمة للإمبراطورية»** *Prelude to Empire*، لنكولن - كندا - 1960) (المؤلف).

3. يستمد تعبير أساطير كاميلوت دلالته من أنه على الرغم من التسليم عامة بأن شخصية الملك أرثر الرومانسية ربما كان لها أساس تاريخي، فإن المؤرخ المعاصر للفترة التي ينسب إليها، وهو جيلداس Gildas لا يأتي على ذكره، ولو مرة واحدة، وهو الموقف ذاته الذي يلتزمه الشعراء الويلزيون الرئيسون في القرنين السادس والسابع الميلاديين. وأياً كان الأمر فإن أساطير الملك أرثر وفرسانه قد ذاع صيتها، وأثرت في مختلف بلاطات أوربا على امتداد قرون طويلة (المترجم).

4. ساد الاعتقاد بأن نهر الذهب الموقّع على خرائط الذهب المرسومة في القرن الرابع عشر، باعتباره يصب في المحيط الأطلسي، يلتقي بنهر النيل (المؤلف).

5. كما في العصور الرومانية كان الذهب يستنزف من أوربا في القرون الوسطى لابتياع التوابل والحرير وألوان سلع الترف الأخرى من الشرق. ولم يكن لدى أوربا الكثير بخلاف ذلك، مما يمكن أن يقبل، لتقدمه لقاء الحصول على هذه السلع (المؤلف).

6. يعكس هذا التجلي لخطاب العصر في أوربا طابعه الدموي في الصدامات المحتدمة بين المسيحيين الأوربيين والمسلمين، سواء على الجبهة الأندلسية ـ المغربية، أو على الجبهة التركية ـ الأوربية (المترجم).

7. ربما كانت جمعية المسيح من أغرب المنظمات التي عرفها تاريخ البشرية على الإطلاق، وعلى الرغم من أنها أسست أصلاً للدعوة إلى المسيحية في تقاليدها الكاثوليكية الرومانية، فإن تاريخها حمل بصمات محددة كوقوفها وراء مذابح رهيبة في أفريقيا، إلى حد تتجمد معه الدماء في العروق - كما في أثيوبيا في إحدى المراحل - لمجرد ذكر اسمها أو اسم مبعوثيها. ومن ناحية الوقائع التاريخية فقد أسسها القديس اجناتيوس لويولا لدى عودته إلى أوربا من الأراضي المقدسة، وذلك في باريس في عام 1534، على أن يلتزم المنتمون إليها بالعفة والفقر والولاء والخضوع للكرسي الرسولي، وصدر مرسوم بابوي بقيامها رسمياً في عام 1540. ودارت أنشطتها الأساسية حول الوعظ والتربية الدينية وتلقي الاعتراف، وشكّلت ما يمكن وصفه بالجيش الروحي. وتمثّل أحد أهدافها في دعم كنيسة روما في صراعها مع المطالبين بالإصلاح في القرن السادس عشر، ونشر الكاثوليكية في مختلف أرجاء العالم، بما في ذلك مناطق كاليابان والصين. وأدت السلطة السرية التي حظيت بها الجمعية إلى صدامها مع السلطات المدنية، حتى في الدول التي تأخذ بالمذهب الكاثوليكي الروماني، وهو ما أدى في بعض الحالات إلى نفي أعضائها (المترجم).

8. عرف الملاح القرطاجني هانو بأنه قد أبحر نزولاً مع ساحل الأطلسي إلى خط الاستواء تقريباً، في حوالي عام 740 ق. م بستين سفينة تقل ثلاثين ألفاً من الباحثين عن موطن للاستقرار به. وقد أسسوا سبع مدن. وهذه الأسطورة موضع شك (المؤلف).

9. انطلق فيرير Ferrer، وهو رسام للخرائط في 10 آب/ أغسطس 1346 للبحث عن نهر الذهب. راجع جي. بي. هارلي J. B. Harley ود. وودوارد D. Woodward **«تاريخ رسم الخرائط»** *History of Cartography*، المجلد الأول (شيكاغو ـ 1987) (المؤلف).

10. عرفت جزر الكناري في العصور الكلاسيكية باعتبارها «الجزر سعيدة الطالع». ويأتي بليني على ذكر بعثة إليها في عام 40 ق. م. وقد أبحر مبشرون من مايوركا إلى هذه الجزر في عام 1342. وبدؤوا في دعوة سكانها لاعتناق المسيحية، ولكن السكان المعروفين بالجانشي قضوا عليهم في عام 1391 (المؤلف).

الفصل الثالث عشر

1 . لمزيد من المعلومات، حول رفض هنري عرض الجلاء عن سبتة لقاء إطلاق سراح أخيه، انظر: م. د. د. نيويت M. D. D. Newitt «الأمير هنري والاستعمار البرتغالي» Prince Henry and Portuguese Imperialism (المؤلف).

2 . توصف الفخامة والترف اللذان صادفهما الأمير بيدرو بصورة مليئة بالحيوية في كتاب «**البندقية: العظمة والسقوط**» *Venice, the Greatness and the Fall* من تأليف جون جوليوس نورويتش John Julius Norwich (لندن ـ 1981) (المؤلف).

3 . بدأ جونزالو فيلهو كابرال في عام 1445 احتلال جزر الأزور (وهذا الاسم مستمد من الكلمة البرتغالية *açores* التي تعني الصقور (المؤلف).

4 . كان أرسطو أول من طرح النظرية القائلة بأن الأفارقة هم «عبيد بطبيعتهم» (المؤلف).

5 . هناك تقويم لشخصية هنري طرحه جي بنسود J. Bensaude في «**حملة صليبية بقيادة الأمير هنري الشاب**» *A Cruzado do infante Dom Henrique* (لشبونة ـ 1946) باللغة البرتغالية. حيث نقرأ: «ليس هناك شيء مما يذكِّر المرء بأدنى درجة بأمير من أمراء عصر النهضة...» بل هو بالأحرى «رجل تقليدي يسعى وراء كأس القربان المقدسة» (المؤلف).

6 . من المعتقد أن الغنائم التي تم الحصول عليها في أصيلة، تبلغ حوالي ثمانمئة ألف دوبلون ذهبي (المؤلف).

الفصل الرابع عشر

1 . إلى أن تم الوصول إلى مملكة الكونجو كانت أفريقيا جنوب خط الاستواء تشكّل مفارقة حادة بالنسبة إلى البرتغاليين، مع مدن الدول ذات الكثافة السكانية الكبيرة مثل بنين المطلة على ساحل غينيا (المؤلف).

2 . بذلت البندقية جهوداً مضنية في فهم الشرق الذي يعد مصدر ثروتها. وبين الكتب التي أعطاها قس القنصل في قنصلية البندقية بدمشق لبرتراندون دي لا بروكيير Bertrandon de la Brocquiére كان هناك كتاب باللاتينية عن حياة الرسول ﷺ (المؤلف).

3 . السوتي Suttee كلمة دخلت اللغة الإنجليزية في عام 1786 وهي كلمة سنسكريتية أصلاً انتقلت إلى الهندية والأوردو، وتعني الزوجة المخلصة أو الفاضلة، وجذرها «سوت» بمعنى حسن أو حكيم، وحرفياً: كائن، أو موجود. وقوام عادة السوتي التقليدية أن تكون الأرملة الهندية من الإخلاص لزوجها ومن الالتزام بالأعراف، بحيث تلقي بنفسها طائعة في محرقته، لتشاركه مصيره (المترجم).

4. كان تعدد الأزواج معروفاً في المجتمعات البربرية، وهو من الموضوعات التي تعود إلى العهود الكلاسيكية. راجع: يوليوس قيصر في كتاب **«بلاد الغال»** *De Bello Gallico*، المجلد الخامس (المؤلف).

5. من غير المحتمل أن يكون نيكولو قد زار أثيوبيا، وذلك في ضوء ما نعلمه من أن الأثيوبيين قد درجوا على أن يحتجزوا في بلادهم كل من يصلها من الرحّالة الأجانب، وذلك في ضوء تخوفهم من أن ينتزع أعداؤهم أسرار دفاعاتهم من هؤلاء الرحالة (المترجم).

6. هناك مرشد آخر هو جوزافات باربارو، وهو مبعوث بندقي إلى فارس عاد بأنباء عن الصين وكالكوت «ملاذ للتجار من مختلف الأماكن» (بواز بنروز Boise Penrose **«السفر والاكتشاف في عصر النهضة»** *Travel and Discovery in the Renaissance*) (المؤلف).

7. ربما كان المقصود هنا سرنديب (المترجم).

8. لاحظ فيما يتعلق بما يشير إليه المؤلف عن «البشر ذوو الوجوه المثلثة» أننا نقرأ في ص 46 من **«أخبار الزمان»** وهو كتاب مجهول المؤلف، نسب خطأ إلى المسعودي، لتشابه العنوان مع عنوان كتاب المسعودي الكبير **«أخبار الزمان»** – نقرأ في الطبعة القاهرية الصادرة في عام 1938 ما يلي: «في خبر ذي القرنين أن مراكبه وقعت إلى جزيرة بيضاء، نقية، ذات أنهار وأشجار وأثمار، وفيهم خلق على خلق الانسان في الانتصاب، رؤوسهم مثل رؤوس السباع والكلاب، فلما دنوا منهم، غابوا عن أبصارهم»، (المترجم).

9. توفي الراهب مورو عام 1459، وهو العام الذي أكمل فيه خارطته (المؤلف).

الفصل الخامس عشر

1. منذ إعادة اكتشاف جزر الأزور، أبحر البرتغاليون مسترشدين بالنجوم في أعالي البحار. لكن النجم القطبي لم يكن من الممكن استخدامه عندما تكون السفينة قرب خط الاستواء أو جنوبه. راجع: إي. جي. آر. تايلور. E. G. R. Taylor «الملاح السابق» (*Geographical Journal*) ـ عدد 113 ـ 1949) (المؤلف).

2. الفرسخ يعادل ثلاثة أميال برتغالية (ألفان ومئتان وتسع وخمسون ياردة) (المؤلف).

3. مثل هذه التعبيرات التي تندرج في صميم خطاب العصر توضح إلى أي حد وصل احتدام الصراع، وكيف أن التقاليد الفكرية الأوروبية قطعت الشوط كاملاً في العداء للمسلمين، وهو العداء ذاته الذي سيتخذ واجهة لعملية النهب الهائلة لثروات الشرق، التي ستقوم بها القوى الغربية في مرحلة لاحقة (المترجم).

4. كان عالم الراهب يوحنا «الأرض التي تتحقق فيها الأحلام» حيث يمكّن حجر سحري الضرير من أن يبصر، أو يمكّنه من أن يجعل الأفراد يحتجبون عن العيان (إلين سانسو Elaine Sanceau ـ "سعي البرتغال وراء الراهب يوحنا") (المؤلف).

5. الراهب يوحنا Prester John هو الاسم الذي أطلق في القرون الوسطى على راهب وملك مسيحي مزعوم، كان يفترض أصلاً أنه يحكم في أقصى الشرق، ولكنه بصفة عامة حدِّدت هويته في وقت لاحق على أنه ملك أثيوبيا أو الحبشة. والاسم ينتمي من الناحية اللغوية بوضوح إلى القرون الوسطى بصياغة محددة هي Prester John وفي الفرنسية القديمة Prester Jehan وفي الفرنسية الحديثة Pretre Jean وفي اللاتينية الوسيطة Presbyter Iohannes وفي الإنجليزية Priest John (المترجم).

6. تم ربط أرض العجائب هذه بـ«فردوس الرب» على نحو ما يصوره لاهوتيو القرون الوسطى، وعرفت كذلك بـ«حديقة المباهج» وأثرت في فنانين مثل هيرونوموس بوش (المؤلف).

7. السنادل جمع سمندل Salamander وهو عظاية خرافية يزعم أنها قادرة على العيش في النار، وتنسب لها الأعاجيب، ومنها ما هو وارد في النص، من إعدادها للغزل للثياب الملكية، على جبل النار (المترجم).

8. كتصوير لأعاجيب الشرق كانت قصة ماندفيل Mandeville الخيالية أكثر رواجاً خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر من مذكرات ماركو بولو (المؤلف).

9. في قول المؤلف «أسقف كولمبوم في الهند الكبرى» ربما كانت الإشارة هي إلى مدينة كولم التي حدثنا عنها ابن بطوطة خلال رحلته الشهيرة من الهند إلى الصين (المترجم).

10. كان معنى اسم «أثيوبيا» على نحو ما استخدمه هيرودوتس، مجرد إقليم مجهول يمتد بلا حدود، يقطنه أناس لوحت الشمس وجوههم. وفي وقت لاحق خلعت أوربا العصور الوسطى هذا الاسم على أرض تعرف بالهند الوسطى، أو الحبشة، وفي نهاية المطاف تبناه السكان أنفسهم (المؤلف).

الفصل السادس عشر

1. من المحقَّق أن الخريطة التي أعطيت لكوفيلهام، قد رسمت على أساس خريطة العالم التي أنجزها الراهب مورو، والتي كان البرتغاليون قد حصلوا عليها قبل عام 1460 (المؤلف).

2. من المؤكد أنه منذ تلك المرحلة من تطور الدبلوماسية كان هناك تقاطع بين العمل الدبلوماسي وبين التجسس، على الأقل بمعنى النشاط الذي يستهدف الاطلاع على كل الخبايا والأسرار والمعلومات المطلوبة لبلد الدبلوماسي حول البلاد الأجنبية. وهو أمر تسلم به الأدبيات المتعلقة بتطور الدبلوماسية في مراحلها المبكرة. وليس كوفيلهام إلا التجسيد الأكثر بروزاً للتداخل الشديد – على الأقل في التقاليد الأوربية – بين المهنتين في تلك المرحلة (المترجم).

3. لم يكن جون الثاني يخشى المكائد التي تدور حول العرش فحسب، وإنما كذلك التهديد القشتالي لممتلكاته خارج أوربا. ولتأكيد حقوقه على الأرض وكذلك البحر، بعث بعملاء عبر الصحراء إلى تمبكتو (المؤلف).

4. اشتهرت كنانور (أو كننور) بأنها «ميناء زنجبيل» الهند (المؤلف).

5. يشير ابن بطوطة في «تحفة النظّار» (ص 560) إلى كنانور باعتبارها منجرور، ويقول عنها إنها: «مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدنب، وهو أكبر خور ببلاد المليبار، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن. والفلفل والزنجبيل بها كثير جداً» (المترجم).

6. ذكر هذا التاجر الجنوي هيرونومو دي سانتو ستيفانو Hieronomo de Santo Stephano كذلك أن أهل كالكوت «قد عبدوا الشمس والثور»، وهو وصف مشوّش للهندوسية (المؤلف).

7. هذه الإشارة إلى أنه لم تكن هناك دفاعات؛ لعدم توقع التعرض لهجوم من الأعداء، سوف تصادفنا كثيراً، وربما على امتداد المحيط الهندي كله. وهي تضيء لنا معالم درس ثمين من دروس الأمن القومي؛ فهذه البلاد بنت أمنها على نمط العلاقات القائم في المحيط بالفعل، وليس على ما يمكن أن يحمله المستقبل من أخطار متوقعة، على الرغم من أن نذر هذه الأخطار كانت تطرق الأبواب بقوة. وهو أمر لا يقتصر على المحيط الهندي، وإنما فرض نفسه في شرقي المتوسط على النحو الذي نراه الآن مجسداً فيما يسمى بصراع الشرق الأوسط (المترجم).

8. كانت في هرمز جالية يهودية مستقرة بها منذ زمن طويل، الأمر الذي يفسّر رغبة الحاخام في زيارتها (المؤلف).

9. لا تتحمس الغالبية العظمى من الباحثين العرب لنظرية المؤامرة في تفسير التاريخ، ربما لافتقارها إلى الأساس العلمي الذي يبرِّر حملها محمل الجد. ولكن أي باحث لا يمكنه إلا التوقف طويلاً عند ما يشير إليه النص من أن شبكة بأسرها من التجار اليهود في أوربا والمشرق على السواء، كانت ضالعة في أعمال التجسس والتخريب ضد العالم الإسلامي، ومنها دور اليهود في التجسس لحساب البلاط البرتغالي. ومن المؤكد أن كثيراً من علامات الاستفهام تطرح ها هنا، وتضاف إلى العديد من العلامات المناظرة التي لاتزال تنتظر من يتصدى للإجابة عليها على أساس البحث العلمي الشامل والمعمَّق (المترجم).

الفصل السابع عشر

1. الهندوسية ديانة معظم شعب الهند، وتعد الفيدا من أقدم كتبها المقدسة، وتليها مجموعة شروح دينية تؤمن بتعدد الآلهة، وأضاف البراهمة مجموعة معقدة من العقائد، وربما كان هذا التعقيد أحد العناصر التي جعلت الملايين من أبناء شبه القارة يبادرون إلى اعتناق الإسلام بتعاليمه الواضحة، والتي تخاطب كل البشر (المترجم).

2. البوذية ديانة وفلسفة، أسسها سدهارتا جوتاما في شمالي الهند في القرن السادس ق.م. ثم انتشرت في وسط آسيا والصين وكوريا واليابان. وهي تعتمد على تركيز التأمل للوصول إلى الحالة المسماة بالنرفانا، أو إنكار الذات، وضبط العواطف، وقتل الرغبة، أكثر من عنايتها بالشعائر (المترجم).

3. الأهيمسا كلمة سنسكريتية تعني حرفياً «اللا أذى»، وتعد بمنزلة مبدأ أخلاقي أساسي في ديانات الهند؛ وبخاصة الهندوسية والجينية والبوذية، يقوم على عدم إيذاء الكائنات الحية، وقد كان هذا هو المبدأ ذاته الذي لجأ إليه المهاتما غاندي في مواجهة قوات الاحتلال الإنجليزية (المترجم).

4. الكشاترايا هي طبقة الجنود والمقاتلين التي تعد الطبقة الثانية في مجتمع الفيدا الهندي (المترجم).

5. البراهمة: جمع برهمي، وهي أعلى طبقة اجتماعية في الهندوسية، وهي طبقة الكهنة، ويرجع وضعهم الرفيع إلى تقسيم الفيدا للسكان إلى أربع طوائف مغلقة. وكلمة براهمانا قد تعني أقوال البرهمي أو شرح معنى الكلمات المقدسة (المترجم).

6. حشد سلاطين شمالي الهند العديد من الأتراك والعرب في صفوف جيوشهم. وحارب الأفارقة في صفوف الجانبين، وبحلول القرن الخامس عشر كان البارود يستخدم ضد الفيلة في الحرب (المؤلف).

7. تنتمي هذه الفقرة إلى مقاطع عديدة في الكتاب يتمنى القارئ لدى الوصول إليها أن يضع المؤلف عندها يدنا على المراجع التي تؤكد ما يورده (المترجم).

8. السيخ جماعة دينية في الهند وباكستان، أسسها المعلم الروحي (ناناك 1469) نادت بالوحدانية والتقارب بين جميع الأديان، عارضت نظام الطبقات المغلقة بالهند والنظام الكهنوتي (المترجم).

9. تنتشر أطلال فيجايا نجارا على امتداد ما يزيد على مئة ميل مربع. ويرد العديد من اللوحات التي تصور الآثار الباقية؛ ومن بينها القصور وقاعات الاستقبال وقنوات المياه والأبهاء ذات العقود المقوسة، والحمامات المحفورة في الأرض، في كتاب **«العاصمة فيجايا نجارا»** *Metropolis Vijayanagara* من تأليف باركور ناراسيمهايا Barkur Narasimhaiah (دلهي-1992) (المؤلف).

10. أبلغ الملك كامبيلاديفا الذي ينتمي إلى القرن الرابع عشر، قبيل دخوله إحدى المعارك، زوجاته وبناته بأنه إذا لحقت الهزيمة بهم، فعليهن أداء طقس السوتي *(suttee)* لتجنب السقوط في أيدي المسلمين، وعندما هزم في المعركة، أطاعته النسوة جميعهن. وقد احتزّ رأسه وحفظ وأرسل إلى دلهي (المؤلف).

11. تعني المندالا بصورة حرفية حلقة أو دائرة، وهي رمز تخطيطي يرمز إلى الكون، ووسيلة التأمل عند بوذية اليابان (المترجم).

12. الشاستر Shaster أو الشاسترا Shastra كلمة دخلت اللغة الإنجليزية في عام 1630، وكما يشير المتن يقصد بها أي من الكتابات الهندوسية المقدسة (المترجم).

13. الرامايانا هي الملحمة الهندوسية الشهيرة التي تروي مغامرات راما وزوجته سيتا، حيث تخطف هذه الأخيرة على يد رافانا ملك سيلان الهولة، ويستطيع راما بمساعدة ملك القرود هانومان إنقاذ زوجته في نهاية المطاف والقضاء على رافانا (المترجم).

14. تم نظم النصوص الرئيسة لملحمة «الرامايانا» في حوالي عام 500 ق. م. (المؤلف).

15. جاء التجار إلى فيجايا نجارا من مناطق بعيدة، تصل إلى فارس وشبه الجزيرة العربية، واستوردوا الكثير من الخزف الصيني، وعلى الرغم من الحروب المستمرة مع المسلمين فقد كان بالمدينة حي إسلامي كبير (المؤلف).

الفصل الثامن عشر

1. ترد هذه التفاصيل في كتاب أ. كورتيسانو A. Cortesano بعنوان «**لغز داجاما**» *The Mystery of da Gama* (المؤلف).

2. ابن ماجد كما عرّف بنفسه في متن مخطوطة باريس لكتاب «**الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول**» هو أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق بن أبي الركايب، وهو - بإجماع الآراء - أشهر ربابنة بحر الهند العرب في تاريخ الملاحة العربية. ويعد منظّر علم الملاحة العربي، ومطبّق علم الهيئة فيه، ولا يناظره إلا ابن فاطمة المغربي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، وارتبط اسمه بالدوران حول أفريقيا عبر الطريق الغربية، أي المحيط الأطلسي، وبالوصول إلى جزيرة القمر أي مدغشقر قبل البرتغاليين بثلاثة قرون (المترجم).

3. «**الأرجوزة السفالية**» نص من أكثر النصوص التي تركها لنا ابن ماجد جدارة بالبحث والدراسة، وقد ظلت مفقودة حتى منتصف القرن العشرين تقريباً. ومن المؤسف أن المستشرقين السوفييت الذين وضعوا يدهم على مخطوطة نادرة لها في مكتبة الاستشراق في مدينة لنينجراد وعلى رأسهم اجناطيوس كراتشكوفسكي وثيودور شوموفسكي قد خفي عليهم النص الأصلي للأرجوزة من حيث علاقته بالأبيات المدسوسة عليها، الأمر الذي قادهم إلى نتائج بالغة الخطورة، فيما يتعلق بالموقف من الاتهامات الموجهة إلى ابن ماجد (المترجم).

4. تم تدقيق النص بالرجوع إلى: إبراهيم خوري، «**أحمد بن ماجد**» ـ الجزء الثالث: شعره الملاحي، (رأس الخيمة: مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري - ودمشق: مطبعة الأندلس، د. ت.). ومن المهم أن نلاحظ أن خوري لم يورد هذا النص في متن السفالية، وإنما في الملحق الخاص بالأبيات المنحولة والمدسوسة عليها (المترجم).

5. ما يقال عن تعاملات ابن ماجد مع الإفرنج يندرج في الاتهام الموّجه إليه بأنه هو الذي قاد البرتغاليين من الشاطئ الأفريقي إلى كالكوت. وهذه القضية برمتها هي في أفضل الأحوال مسألة خلافية، وباستثناء وثيقة واحدة - هي المعروفة بوثيقة النهروالي، وهي قابلة للتفنيد تماماً - ليس هناك نص واحد في التراث العربي ينسب هذه الفعلة إلى ابن ماجد (المترجم).

6. احتدم قلق يوحنا الثاني في أيار/ مايو 1493 عندما منح البابا ألكسندر السادس، وهو إسباني المولد، لقشتالة العالم بأسره، باستثناء الأراضي التي احتلها بالفعل حكام مسيحيون (المؤلف).

7. كان مقر بلاط الملوك القشتاليين عادة في توردزيلاس، الواقعة إلى الجنوب الغربي من بلد الوليد (المؤلف).

8. أبلغ الملك جون على نحو أقرب إلى النبوءة، بينما كان يحتضر، مانويل بأن عليه أن يضيف الكرة الأرضية إلى شعاره الرسمي (المؤلف).

9. الباينت وحدة قياس تعادل ثُمن الجالون (المترجم).

10. كانت سفن هذا العهد تحتشد إلى حد الازدحام بأعضاء الطاقم، ولكن كل رجل كانت لديه مساحة كافية، ليحتفظ فيها بصندوق بحري صغير، وبفراغ على سطح السفينة كاف لإعداد فراشه (المؤلف).

11. من المؤكد أن دوافع هذه الرحلات أكثر تعقيداً بكثير مما تبدو، فإذا كانت ثروات الهند هي هدفها الأول والرئيسي، فإن ذلك لا يمنع من أنه تعلق بها الالتفاف حول مؤخرة قوى الإسلام، وأيضاً التبشير بالمسيحية وفتح العالم للبيض (المترجم).

12. كانت نقطة النزول على وجه الدقة هي خليج سانت هيلانة، وقد اعتمد الملاحون بصورة كبيرة على الأسطرلاب (المؤلف).

13. لاحظ أن ابن بطوطة أشار في **«تحفة النظار»** إلى أن لقب الشيخ هو الذي يطلق عادة على سلطان البلاد في أفريقيا، غير أنه من الجلي هنا أنه يطلق أيضاً على القادة والزعماء المحليين (المترجم).

14. دفعت للقباطنة مستحقاتهم في صورة ذهب وسترة لكل رأس (المؤلف).

15. حسب كلمات ترجمة وليم مايكلز William Mickle's التي تعود للقرن الثامن عشر لـ «اللوسيادة» "The Lusiads" التي أبدعها كاموس، فإن هذا اللقاء الأول «أظهر للشرق ألوان الرعب التي يحوزها جاما» (المؤلف).

16. كريشنا واحد من أكثر أعضاء مجمع الآلهة الهندي توقيراً وشعبية، عبده الهنود باعتباره التجسيد الثامن للإله فشنو، وقد جذب عدداً من الفرق التي نظمت له الأشعار والأغاني والقصص الكلاسيكية. وكلمة «كريشنا» تعني حرفياً «الأسْود» أو «الداكن» مما يدل على أنه كان إلهاً للهنود الأصليين المائلين إلى السواد (المترجم).

17. سيصادفنا هذا التعبير الموحي بعدم استعداد أي من كيانات المحيط الهندي لاختراق قوي لأمنها من طرف خارجي، حيثما سرنا مع البرتغاليين على امتداد المحيط الهندي، الأمر الذي سيعيد إلينا بقوة أصداء ما أشرنا إليه في مقدمة المترجم لهذا الكتاب عن البعد المتعلق بالأمن القومي؛ فهذه التجمعات أقامت تصورها للأمن على ما هو قائم، وعادي، ومألوف، لا على ما هو مستقبلي ومتوقع ومحتمل، على الرغم من تعدد المؤشرات الدالة على أن الخطر الداهم يطرق الأبواب (المترجم).

الفصل التاسع عشر

1. لويس دي كاموس (أو كامويس) (1524-1580) شاعر برتغالي يتحدر من أصول جاليشية، عاش حياة مليئة بالمتاعب والمغامرات فقد خلالها عينه أثناء الخدمة العسكرية في الحروب ضد العرب، وسجن، وغرقت سفينته قبالة ساحل كوشين بالصين، وذلك من بين ألوان أخرى عديدة من سوء

الطالع حاقت به. ومات على نحو بائس في لشبونة. وكتب مسرحيات وسوناتات وأغنيات، ولكنه يعرف خارج بلاده بقصيدته الملحمية الشهيرة المعروفة باسم «اللوسيادة» (المترجم).

2. موضوع ملحمة **«اللوسيادة»** (1572) هو تاريخ البرتغال؛ وهي تتغنى بأمجاد سلالة لوسوس Lusus المؤسس الأسطوري للوزيتانيا أو البرتغال. وتتغنى هذه القصيدة الملحمية، على نحو أكثر تحديداً، بأمجاد فاسكو داجاما الملاح البرتغالي الشهير. وفي عشر قصائد مما يعرف بالكانتوس المؤلفة من مقاطع يضم كل منها ثمانية أبيات، يتابع هذا العمل الملحمي رحلات داجاما، ناسجاً الماضي والحاضر التاريخيين للأمة البرتغالية. ويضم العمل وقائع شهيرة؛ مثل قصة إينيز دي كاسترو (الكانتو الثالثة) ومسابقة الاثني عشر الإنجليزية، التي يرتب فيها دوق لانكاستر قتالاً بين فارسين، أحدهما إنجليزي والآخر برتغالي (الكانتو الرابعة)، ووصول رجال داجاما إلى جزيرة العشق التي ربما كان المقصود بها زنجبار (الكانتو التاسعة) حيث يتزوج داجاما رمزياً من ثيتيس إلهة البحر (المترجم).

3. هذه الإشارة إلى المذهب السائد في ماليندي لا قيمة لها في تحديد الموقف من البرتغاليين، ففي كل مكان من المحيط الهندي شارك الشيعة السنة في التعرض لفظائع البرتغاليين الوحشية التي مورست بشكل منظَّم ومقصود، ثم في التصدي لهم في مرحلة لاحقة، والمشاركة في تقويض دعائم إمبراطوريتهم (المترجم).

4. جاءت السفن الهندية الأربع الراسية في ميناء ماليندي من كنانور، الميناء المالباري، الذي رسا فيه كوفيلهام، لدى وصوله إلى الهند لأول مرة قبل عشر سنوات (المؤلف).

5. يعد وجود الجياد المستوردة من شبه الجزيرة العربية في ماليندي مؤشراً يؤكد ازدهارها (المؤلف).

6. ستتحول هوية هذا المرشد البحري الغامض إلى إحدى أكثر قضايا هذه المرحلة التاريخية تعقيداً. وعلى الرغم من أنها قد تبدو للبعض قضية أكاديمية، فإنه أريق فيها من الحبر وأنفق من الوقت، ما يؤكد أن صراع وجهات النظر هو أكثر بكثير من أن يكون قضية أكاديمية صرفة، ولسوف نرى ذلك حالاً مع مواصلتنا لرحلتنا في المتن (المترجم).

7. كتب بطليموس عن «الشاطئ العظيم» حيث وصلت السفن المقبلة من الهند إلى الساحل الأفريقي. وتعبير «السيف الطويل» يشير إلى الشكل الذي يبدو به الشاطئ من البحر (المؤلف).

8. كان السامري ينغمس بصورة متكررة في عمليات قمع تستهدف قادة الجماعات المحاربة الذين يسيطرون على المناطق الجبلية الواقعة إلى الداخل من كالكوت. وبمقتضى العرف المحلي فإنه كان يعيد إليهم أراضيهم بعد أن يخضعهم في ساحة القتال (المؤلف).

9. بلغ قوام جيش كالكوت ستين ألف رجل، وفيهم بعض المسلمين (K. V. K. Ayyar **«موجز تاريخ كيرالا»** *A Short History of Kerala*) (المؤلف).

10. ديفي، أو ديفاكي، أو ماهاديفي، هي إلهة الهند الكبرى، ورفيقة شيفا وزوجته، ولها وجهان، فهي العطوف والقاسية في آن، وهي «أوما» الضوء، و«جواري» الصفراء اللامعة، و«بارفاتي» متسلقة الجبال و«جاكناماتا» أم العالم. وتجليها الآخر «دورجا» الرهيبة التي لا سبيل إليها،

و«كالي» السوداء، و«جاندي» القاسية و«بارافي» المفزعة، وهي تمثل مع شيفا المادة الأولية لبراهما الكلي. وتقول الأسطورة الهندية إنها تحمل العالم في رحمها، وتشعل ضوء الحكمة، أي إنها إلهة الأرض، وهي التي تدخل السرور إلى قلب شيفا سيدها (المترجم).

11. لكريشنا الطفل حضوره الكبير في الميثولوجيا الهندية، وتتابعه الأساطير في شتى مراحله، وخاصة مع رعيه للأبقار، وحبه لحالبة الأبقار «رادها» حيث نلمح الإيماء إلى تقديس الحياة، لأن الحليب رمز الأمومة والحياة (المترجم).

12. الفوفل، كما يصفه لنا ابن بطوطة في **«تحفة النظّار»** (ص 263)، هو شبه جوز الطيب، يكسر، حتى يصير أطرافاً صغاراً، ويجعله الإنسان في فمه، ويعلكه، ثم يأخذ ورق التنبول، فيجعل عليها شيئاً من النّورة ويمضغها مع الفوفل، فيطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام (المترجم).

13. من وجهة النظر التاريخية، فإن القضاء على حملة داجاما ما كان يمكن أن يغير تاريخ المحيط الهندي على الإطلاق، فقد تكاملت في أوربا عناصر موضوعية تدفع بقوة باتجاه السيطرة على العالم بأسره. ومن ناحية أخرى - كما رأينا وسنرى في متابعتنا للمتن - لم يكن المحيط الهندي مؤهلاً، على الأقل إلى حين، للتعامل مع القوة النارية وأساليب القتال التي شرعت تطرق أبوابه، سواء تمثلت قبضة الطارق في يد داجاما أو غيره (المترجم).

14. كون تركيبة البارود أمراً معروفاً جيداً في المحيط الهندي جرى توظيفه أساساً للألعاب النارية، حقيقة تاريخية لا يمكن إلا أن تلفت النظر من زاوية الأمن الإقليمي أو القومي، فأقوى أسلحة الأعداء المتدفقين على المحيط الهندي معروف ومتوافر، لكنه لا يوظف على نحو فعال. وستمر قرون بأسرها قبل أن يوظف العُمانيون المعادلة المراوغة المؤلفة من البارود والمدافع والسفن الحديثة والرجال المدربين في صراعهم ضد الإمبراطورية البرتغالية (المترجم).

15. زادت مكافأة داجاما، مقدرة بالأسعار الحالية، عن مليون جنيه استرليني (المؤلف).

الفصل العشرون

1. عبثاً يحاول القارئ العثور على هذا النص، في الفائدة الرابعة من كتاب **«الفوائد في أصول البحر والقواعد والفصول»** لابن ماجد، على نحو ما هو وارد في المتن، وقد تمكنا من رصده وتدقيقه، بالرجوع إلى الاستطراد رقم 29، المدرج خارج متن كتاب ابن ماجد، والموجود في ص 290 من: إبراهيم خوري (محقق)، **أحمد بن ماجد** - الجزء الرابع (مصدر سابق) (المترجم).

2. النهروالي هو محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود النهروالي، الملّقب بقطب الدين الحنفي؛ مؤرّخ من أهل مكة تعلم بمصر ونُصِّب مفتياً بمكة. له **«البرق اليماني في الفتح العثماني»** المشار إليه في المتن، ومثار الجدل المحتدم حتى اليوم، وله كذلك **«الإعلام بأعلام بلد الله الحرام»**

و«**منتخب التاريخ**» وله في التراجم «**ابتهاج الإنسان والزمن في الإحسان الواصل إلى الحرمين من اليمن، لمولانا الباشا حسن**» و«**التمثيل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة**» و «**التذكرة**» و «**الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية**» و«**كنز الأسما في فن المعمى**». وله شعر رقيق في الغزل والحكمة (المترجم).

3. لم ندقّق النص على أصله في كتاب «**البرق اليماني في الفتح العثماني**» فهو أكثر من شهير، ويرد في العديد من الدراسات البحرية العربية، وقد دقّقناه بالرجوع إلى ص 217-218 من الجزء الأول من: إبراهيم خوري (محقق)، **أحمد بن ماجد**، مصدر سابق. وأيضاً بالرجوع إلى ص 87-88 من الجزء الثاني من: **الندوة العلمية لاحياء تراث ابن ماجد** (اللاذقية: اتحاد كتاب وأدباء الإمارات ودار الحوار للنشر، 1989) (المترجم).

4. يقول ت. شموفسكي T. Shumovsky في ورقة مقدمة للمؤتمر الدولي للمستشرقين، في دورته الخامسة والعشرين (التي عقدت في موسكو في عام 1960) إن ابن ماجد كان عبداً تم إعتاقه، وأن سيده هو أحمد بن التمال. وهذا أمر غير مرجح، فابن ماجد يفخر بكرم محتده، ويقول عن أبيه إنه كان من ربابنة البحر الأحمر، وترك أراجيز بحرية بدوره (المؤلف).

5. كان الفلكيون العرب مايزالون يتقدمون كثيراً على نظرائهم الأوربيين، وكان حرياً بابن ماجد أن يكون على معرفة بأعمال البيروني، الذي كتب في القرن الحادي عشر الميلادي، والذي درس بكثير من التفصيل موضوعات بريق عطارد والزهرة، ومداريهما بالنسبة إلى الشمس (المؤلف).

6. كذا في الأصل (المترجم).

7. تم تدقيق النص على الاستطراد التاسع والأربعين لكتاب «**الفوائد**» ص 300 في: إبراهيم خوري (محقق)، **أحمد بن ماجد**، مصدر سابق (المترجم).

8. تم تدقيق النص على الاستطراد السادس والخمسين الوارد في ص 303 من كتاب «**الفوائد**» في: إبراهيم خوري (محقق)، **أحمد بن ماجد**، مصدر سابق (المترجم).

9. أرجح الأقوال في الانتماء الأرضي لابن ماجد رواية علي بن الحسين، مؤلف كتاب «**المحيط**» نقلاً عن ربابنة الخليج العربي وبحر الهند، والتي يقول فيها إن أحمد بن ماجد جلفاري من أبناء إمارة رأس الخيمة. ويرجح أيضا أن يكون علي بن الحسين قد اطلع على البيت الخامس والثمانين من الفصل الحادي عشر من «**حاوية الاختصار في أصول علم البحار**»؛ وهو:

تَّمتْ بِشَهرِ الحَجِّ في جُلْفَارِ   أوطانِ أسْدِ البَحْرِ في الأَقْطَارِ (المترجم)

10. الأصل لا يضم إلا البيت الأول، وقد أردفناه بالثاني، إيضاحاً للمعنى، ودقّقناه على الاستطراد رقم 21 الوارد في ص 281 لكتاب «**الفوائد**» وذلك في: إبراهيم خوري (محقق)، **أحمد بن ماجد**، مصدر سابق (المترجم).

11. يبدو القول باتهام النهروالي لابن ماجد باقتراف مثل هذه الجريمة التاريخية لمجرد أنه كان شيعياً، شيئاً عبثياً ومنافياً للعقل والمنطق، ودخيلاً على مجمل التقاليد الفكرية العربية الإسلامية (المترجم).

12. لاحظ أن إبراهيم خوري في تحقيقـه للسفـالية لا يورد هـذه الأبيات في متن الأرجـوزة، وإنما في المقطع الثـامن من الأبيات المنحولة المدسوسة في السفـالية، وهو مـا يذهب إليه عـدد من البـاحثين العرب أيضـاً. راجع ص 62 من الجزء الرابع من: إبراهيم خـوري (مـحقق)، **أحـمـد بن مـاجـد**، مصدر سابق (المترجم).

13. كذا في الأصل (المترجم).

14. وقد دققنا النص على المقطع السـادس ص 61-62 الذي لم يورده المحقق إبراهيم خوري لا في متن السفالية، وإنما في الأبيات المنحولة المدسوسة فيها. راجع: إبراهيم خوري (محقق)، **أحمد بن ماجد**، مصدر سابق (المترجم).

15. يشكّل هذا البيت المقطع التاسع من الأبيات المنحولة المدسـوسة في السفـالية، بحسب تأكيـد المحقق إبراهيم خوري في كتاب **أحمد بن ماجد**، الجزء الثـالث، المصدر السابق، ص 63 (المترجم).

16. تم تدقيق النص على البيت الأخير في المقطع الثامن من الأبيـات المنحولة المدسـوسة في السـفـالية ص 63، المصدر السابق (المترجم).

الفصل الحادي والعشرون

1. كـانت سفن «الناوس» التي قادها كـابرال مسلحة تسليحـاً كثيفـاً، وقـد تم تجنيد رجـال مدفعيـة من الألمان ومن أبناء إقليم فـلاندرز لهذه الحملة، حيث إن كل السفن التي ستتم مقابلتهـا يتعين نهبهـا، باستثناء سفن ماليندي والمينـاءين الهنديين اللذين حسبهمـا داجـاما صديقين، وهمـا كنانور وكوشين (المؤلف).

2. بيـدرو ألفـاريز كـابرال (1467-1520) مسـتكـشف برتغـالي يرتبط اسمـه في المقام الأول باكـتـشـاف البرازيل، إضـافة إلى قيادته للحملة المشار إليهـا في المتن إلى الهند في عام 1500، حيث أوغل غرباً في المحـيط الأطلسي، في شكل قـوس هائل قـاده إلى البـرازيل التي أعلن ملكيـة البـرتغـال لهـا (المترجم).

3. أعيـدت إحدى السفن إلى لشبـونة حاملة تفـاصيل عن سـانتا كروز (وهو الاسم الذي أطلق في أول الأمر على البرازيل) (المؤلف).

4. تأثّر ابن بطوطة بمشاهدته لكلوة، حيث قـال عنها في ص 257 من **(تحفة النظّار)** إنها «مدينة عظيمة سـاحلية، أكثر أهلهـا الزنوج مستحكمـو السـواد، ولهم شرطات في وجوههم كمـا هي في وجـوه الليـميين من جناده... ومـدينة كـلوة من أحسن المدن وأتقنهـا عـمارة، وكلهـا بالخـشب، وسـقف بيوتها الديس (نوع من القصب) والأمطار بها كثيرة، وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج، والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب» (المترجم).

5. يبـدو أن كـابرال قـد ترك العـديد من الديجريدادوس في مـاليندي، وقـد صـدرت الأوامر إلى لويس دي مـورا وجـواو مـاشادو بالبـحث عن الراهب يوحنا، ولكن مـاشادو مضى إلى الهند حيث التحق بخدمة أحد الحكام المسلمين، وعاود الظهور كمبعوث يتفاوض مع البرتغاليين (المؤلف).

6. الساورنج (الإزار) هو الزي الرئيس للجنسين في أرخبيل الملايو وغيره من مناطق آسيا، ويتألف من قطعة قماش تستر النصف الأدنى من الجسم على شكل يشبه التنورة (المترجم).

7. Casus belli اصطلاح لاتيني لا يعني «سبب الحرب» فقط، وإنما كل ما يبرر الحرب، وبصفة خاصة كل ما يتخذ ذريعة لشنها (المترجم).

8. يعد ميناء كوشين أقدم من كالكوت، ولكن تم تجاوزه على الصعيد التجاري خاصة منذ زيارات الأساطيل الصينية، في ظل قيادة زينج هي. وقد سيطرت كالكوت كذلك على جانب كبير من التجارة الخارجية مع فيجايانجارا (المؤلف).

9. أثارت الخسائر في الأرواح التي تعرض لها كابرال في بداية الأمر مناقشة في لشبونة، حول ما إذا كان يمكن تحمل عبء الرحلات إلى الهند، وقد حسمت الأرباح الطائلة التي تم تحقيقها من التجارة في الفلفل هذا النقاش (المؤلف).

الفصل الثاني والعشرون

1. يمكن تصوير المبالغة الهائلة فيما يطالب به مانويل من امتلاك نصف العالم، وذلك على المستوى الديمجرافي. ففي عام 1500 لم تكن البرتغال تضم إلا ما يزيد قليلا على 1٪ من عدد سكان أوربا، المقدرين بأربعة وثمانين مليون نسمة. وكان عدد سكان آسيا 245 مليون نسمة (م. ليفي - باتشي M. Livi-Bacci **«السكان والغذاء»** *Population and Nutrition*) (المؤلف).

2. أمضى كوريا، وهو كاتب نشط، معظم حياته في الهند، وهو يصف بحماس يوشك أن يكون سادياً العنف الذي شاهده أو حُكِيَ له (المؤلف).

3. البراهمة: جمع برهمي، وهم يشكلون أعلى طبقة اجتماعية في الهندوسية، وهي طبقة الكهنة (المترجم).

4. من المؤكد أن هذه الحادثة التي تتناهى إلينا مثقلة بركام من الأساطير والخرافات والصور التي تغلب عليها لغة العصر تحمل أكثر من دلالة، فإذا كان البرتغاليون يزعمون أنهم أقبلوا ليحملوا البشارة قبل التجارة، فالحادثة المذكورة في المتن توضح أنهم أقبلوا ليضعوا السيف في الأعناق لخدمة التجارة (المترجم).

5. كانت لباتشيكو (الذي ولد في عام 1450) حياة جديرة بالتذكر قبل قيادته لكوشين وبعدها. ومن المحتمل أن يكون هو مكتشف البرازيل، وقد ألف كتاباً بعنوان **«زمردة في الكرة الملكية»** جرؤ على أن يعطي فيه تفاصيل دقيقة، عن الأماكن المعروفة للبرتغاليين إلى الجنوب من خط الاستواء، وذلك على الرغم من المرسوم الذي أصدره الملك مانويل، والذي يقضي بأن الكشف عن مثل هذه الأسرار يعاقب مرتكبه بالإعدام. وإذ تقاعد وحصل على معاش يقيه شر الحاجة، فقد عاود الظهور في عام 1520، ليصبح قائداً للحصن البرتغالي في غربي أفريقيا، ولكن حياته العملية انتهت عندما اتُّهم ظلماً بإساءة ممارسة سلطاته، فأعيد مصفَّداً إلى لشبونة (**«زمردة في الكرة الملكية»** *Esmeraldo de Situ Orbis*، ترجمة جي. هـ. تي. كمبل G. H. T. Kimble) (المؤلف).

6. وصل داجاما إلى لشبونة في أيلول/ سبتمبر 1503، وتولى ابن عمه ستيفان داجاما قيادة أسطول أصغر، ووصل بشكل منفصل، بعد أن أبحر من دون توقف من ماليندي (المؤلف).

الفصل الثالث والعشرون

1. قنصوه بن عبدالله الظاهري (نسبة إلى الظاهر خشقدم) الأشرفي (نسبة إلى الأشرف قايتباي) الغوري، أبوالنصر، سيف الدين، الملقب بالملك الأشرف، سلطان مصر، جركسي الأصل، مستعرب، خدم السلاطين، وولي حجابة الحجاب بحلب، ثم بويع بالسلطنة بقلعة الجبل سنة 905 هـ. وبنى الآثار الكثيرة، وكان ملماً بالموسيقى والأدب، شجاعاً، فطناً، داهية. قصده السلطان سليم العثماني على رأس جيوش تركية جرارة، فتصدى له في الموقعة الشهيرة قرب حلب، وهي موقعة مرج دابق. وهزمت جيوشه في الموقعة، وقيل إنه أغمي عليه وهو على فرسه، فمات قهراً، وضاعت جثته تحت سنابك الخيل حسب ما يرويه ابن إياس. أما العبيدي فيقول في **«قلائد العقبان»** إن «الأمير عكلان» وهو من رجال الغوري القلائل الذين ثبتوا معه في المعركة، لما رأى الغوري قد وقع على الأرض أمر عبداً من عبيده فقطع رأسه وألقاه في جب مجهول مخافة أن يقتله العثمانيون ويطوفوا برأسه في بلادهم (المترجم).

2. ولد دون فرانشيسكو دي ألميدا حوالي عام 1450 في لشبونة، ومات في الأول من آذار/ مارس 1510 في تيبل باي بكيب تاون الحالية، وهو جندي ومستكشف، وأول نائب لملك البرتغال في الهند. وبعد أن برهن على جسارته في الحروب ضد عرب شمال أفريقيا، عهد إليه مانويل الأول بمنصب نائبه في الهند في آذار/ مارس 1505، حيث انطلق في رحلته على رأس أسطول قوي مروراً بأفريقيا، ووصولاً إلى الهند، حيث استقر في كوشين. وأنشأ سلسلة من القلاع القوية لتخدم مخططاً يستهدف جعل البرتغال القوة الأكثر بروزاً في الشرق، والتي تحتكر تجارة التوابل. وارتبط اسمه بالانتصار على الأسطول التركي في شباط/ فبراير 1509 في موقعة ديو البحرية. وقام بحبس ألبوكيرك لتشككه فيما طرحه من أنه جاء بتعليمات من الملك ليتولى منصب النائب خلفاً له، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1509 اضطر للاعتراف بسلطة ألبوكيرك. ولقي حتفه في اشتباك مع أبناء قبائل الخويخوي في تيبل باي، ليجسّد بحياته وموته نقاط القوة والضعف أيضاً في الإمبراطورية البرتغالية (المترجم).

3. القراطيس جمع قرطاس، وهي كلمة عربية تنطق بكسر القاف وضمها لتعني ما يكتب فيه، والمراد الترخيص والتخويل بالإبحار، الذي حظره البرتغاليون على أي سفينة، لا تحمله صادراً عنهم، أن تنطلق في المحيط. والدلالة الخطيرة هنا هي إدخال مبدأ جديد في العلاقات الدولية، قوامه أن البرتغال هي التي تملك هذا المحيط وتحتكر التجارة فيه، ولا استثناء إلا بإرادتها المفردة، ممثلة في القرطاس. وهو ما يعني أن الإقرار بمبدأ حرية الملاحة حكر على المياه الأوروبية وحدها، أما خارجها، فكل شيء في رحاب الكون بما في ذلك البحر واليابسة والبشر ملك لهم بمقتضى إرادة إلهية خولت لهم، أي للبرتغاليين، باعتبارهم حملة كلمة الرب الحقة حسب زعمهم (المترجم).

4. المقصود بالعلم البرتغالي المراوغ في المتن هو بالطبع العلم الذي كان داجاما قد أعطاه للسلطان إبراهيم بن سليمان ليرفعه في آفاق كلوة (المترجم).

5. إذا لم يكن كاتب المذكرات برتغالياً، فربما كان هانز ميير Hans Mayr، وهو ألماني ارتحل مع الأسطول. وقد نشرت روايات أعمال ألميدا في لشبونة على يد طباع ألماني المولد، يدعى فالنتيم فرنانديز (المؤلف).

6. المقصود بالسَّمْسَق هو المردقوس، أو العترة، وهو نبات عطري من الفصيلة الشفوية (المترجم).

7. سوف نلاحظ أن هذا الطرح عن العبيد السود والعرب البيض يتردد بشكل متكرِّر في العديد من الأدبيات الأوربية، وكأن المقصود به تكريس مسؤولية العرب عن الأوضاع التي سيؤدي الأوربيون دوراً هائلاً فيها، لا مجال لإنكاره، والمتعلقة بتكريس تجارة العبيد (المترجم).

8. انفصلت سفينة واحدة عن الأسطول، للقيام بعملية مسح مفصلة لساحل شرقي أفريقيا، والمناطق الضحلة الخطرة في قناة موزمبيق (المؤلف).

9. يقول المنتصرون إن الخسائر في صفوف المدافعين العرب عن ممباسا وحملة الأقواس والسهام السود التابعين لهم، والبالغ عددهم خمسمئة رجل، قد بلغ إجماليها ألفاً وخمسمئة قتيل، بينما لقي خمسة من البرتغاليين مصرعهم، وتم أسر أكثر من ألف شخص، من بينهم نساء «بيضاوات وجميلات» (المؤلف).

10. يقول المؤرخ كوريا Correa إنه بسبب استحالة حمل كل الغنائم، من دون زيادة حمولة السفن بشكل خطر، فقد تم إطلاق سراح معظم الأسرى، ووافق السلطان على دفع ضريبة سنوية للبرتغاليين (المؤلف).

الفصل الرابع والعشرون

1. من الجلي أن الإشارة الواردة في المتن إلى «السلطان المصري في القاهرة وسادته الأتراك» تتضمن غلطة تاريخية؛ فالسلطان قنصوه الغوري آخر سلاطين مصر المستقلة عن حكم الدولة العثمانية، باستثناء الفترة القصيرة التي تولى فيها طومان باي الحكم، قد عاش في الفترة (850 هـ ـ 922 هـ.) أي في الفترة (1446م ـ 1516م.). وهو ما يعني أنه كان لايزال في سدة الحكم، في مصر في عام 1509 الذي وقعت معركة ديو البحرية في شباط/ فبراير منه، وبالتالي فإن الحديث عن «سادته الأتراك» يعكس مفارقة تاريخية، كما سبقت الإشارة (المترجم).

2. بينما نظر المسيحيون الأوربيون إلى الأتراك على أنهم لا يختلفون كثيراً عن العرب، حيث إنهم جميعاً مسلمون، فإن الغزوات العثمانية لشرقي المتوسط ومصر وشمالي أفريقيا قد أعطت لقيادة العالم الإسلامي منحى جديداً تماماً (المؤلف).

3. كان تيموجا يعمل لحساب الهندوس ضد المسلمين؛ الأمر الذي جعله مقبولاً، وقد برهنت ميوله للقيام بأعمال القرصنة على أنه حليف صعب. وقد ألقى البرتغاليون القبض عليه في وقت لاحق (المؤلف).

4 . لم يحتل البرتغاليون جزر المالديف (ذيبة المهل) إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وعندئذ قاموا ببناء حصن، ولكنهم لم يبقوا هناك إلا عشرين عاماً، بسبب الهجمات المتعددة من جانب أبناء الجزر (المؤلف).

5 . علت مكانة عياض، ليحمل لقب الملك (المؤلف).

6 . بعد معركة ديو البحرية لم تجرؤ دولة من دول المحيط الهندي على تحدي البرتغاليين بحراً. ويؤكد قيصر Qaisar في كتابه **«الاستجابة الهندية»** *The Indian Response* الانطباع الذي تركته المهارات الملاحية الأوربية (المؤلف).

7 . أمير البحر حسين، المشار إليه في المتن، شخصية على جانب كبير من الغموض، ويحار المرء: هل هو أمير البحر التركي علي بن الحسين، المعروف باسم كاتب رومي، ومؤلف كتاب **«المحيط في علم الأفلاك والأبحر»**؟ ما أيسر أن يرد المرء بالإيجاب. ولكن هناك أكثر من مشكلة تعترض طريق هذه الإجابة السهلة، فكتاب **«المحيط»** تم الفراغ منه في عام 1557، ومؤلفه عيَّنه السلطان سليمان القانوني في 1554 وكلَّفه بإعادة السفن العثمانية الباقية في البصرة، وهي مهمة جعلته يصطدم بأسطولين برتغاليين، وينتهي بأن تقذف به العواصف إلى بندري الديو وسرت، بعد قرابة نصف قرن من المعركة البحرية الشهيرة، غير أن المراجع المصرية تزيل عنا الحيرة مشيرة أنه الأمير حسين الكردي الذي يعرف أيضا باسم حسين المشرف (المترجم).

الفصل الخامس والعشرون

1 . هناك تمحيص لشخصية ألبوكيرك وأهدافه في مقدمة كتاب إيرل Earle وفيلرز Villiers بعنوان **«ألبوكيرك: قيصر الشرق»** *Albuquerque, Caesar of the East* (على الرغم من أنه يمر مروراً عابراً بالفظائع التي اقترفها) (المؤلف).

2 . ربما كانت الإشارة الواردة في المتن إلى الخليفة بالقاهرة يراد بها الخلفاء العباسيون الذين كانوا يتمتعون بوجود شكلي محض، بعد انتقالهم إلى القاهرة، في أعقاب سقوط بغداد، حيث كان الدعاء لا يزال مستمراً لهم في المساجد، وإن لم تكن لهم أي سلطة فعلية؛ فحضورهم يكاد يكون وجوداً طقوسياً (المترجم).

3 . تم الاعتراف بتمتع سقطرة بقيمة استراتيجية، ولكنها برهنت على أنها بعيدة عن سهولة الاعتصام بها، حيث إنه لا يوجد بها ملاذ من الرياح العاصفة، كما أنها تفتقر إلى الماء (المؤلف).

4 . ربما كان هذا هو الدرس الكبير الذي ستمر عقود طويلة قبل أن يتعلمه أبناء المحيط الهندي، وهو أن أفضل سبيل للتصدي للغزاة الأوربيين هو الضرب في نقطة ضعفهم الحقيقية: عددهم المحدود القابل للاستنزاف في مواجهات مباشرة، معدة مسبقاً، بمزيد من الحرص والعناية (المترجم).

5 . تقع جوا (كوة) على الحافة الجنوبية للغزوات الإسلامية في الهند، وبالاستيلاء عليها وضع البرتغاليون أنفسهم بصورة فعالة في موضع الحليف للهندوسية. وقد سرَّ ملك فيجايانجارا، وهو

كريشنا ديفا راجا كثيراً، وتمت مبادلة التجارة سريعاً بين الداخل الهندوسي والبرتغاليين في جوا. وقد عيّن ألبوكيرك مالهار راو من هوناوار (بجنوبي جوا) حاكماً على البر الرئيسي البرتغالي (المؤلف).

6. ينقل د. فالح حنظل في كتابه «**العرب والبرتغال في التاريخ**» الصادر عن المجمع الثقافي بأبوظبي، في 1997، عن المؤلف البرتغالي د. خوزيه فرانشيسكو دوس سانتوس والمؤلف الإسباني مانويل دي جارسيا سوسا رؤية مختلفة تمام الاختلاف لواقعة ظهور اللهب فوق السفن البرتغالية في السماء، وتوقفه قبالة الساحل الأفريقي باتجاه موقع الحبشة، حيث اعتقد القادة والضباط البرتغاليون أن السماء ستحرقهم بالنار، إن هم توجهوا إلى المدينة المنورة لتنفيذ غرضهم الأثيم، وأن السماء تنصحهم بالتوجه نحو بلد مسيحي هوالحبشة، وهو ما أيقن به ألبوكيرك أيضاً، فأصدر أوامره بخروج السفن من باب المندب وإلغاء الفكرة الجهنمية التي دارت بخلده للإغارة على قبر الرسول ﷺ (المترجم).

7. أدرك ألبوكيرك أهمية ميناء مصوع (وهو في دولة أرتيريا الآن) باعتباره قاعدة محتملة، يمكن أن يشن منها هجوماً على مكة وجدة، وكذلك بحسبانه نقطة دخول إلى مملكة الراهب يوحنا (المؤلف).

الفصل السادس والعشرون

1. مضى فيجيروا في وقت لاحق إلى الهند، ويحمل كتابه الذي عنوانه «**غزو جزر الهند وفارس وشبه الجزيرة العربية الذي نفذه أسطول الملك مانويل: حول الأراضي العديدة والشعوب المتباينة والثروات الغريبة والمعارك العظيمة التي وقعت هناك**» *The Conquest of the Indies, of Persia and Arabia Effected by the Fleet of King Manuel. About the many lands, diverse peoples, strange riches, and great battles which took place there.* (المؤلف).

2. على نحو ما سيغدو واضحاً في وقت قصير فإن صادرات ذهب الداخل تم تحويلها باتجاه الشمال بعد التخلي عن زيمبابوي الكبرى (المؤلف).

3. لم تكن شعارات النبالة البرتغالية وحيدة في توظيف مثل هذه الصور، فقد منحت الملكة اليزابيث الأولى السير جون هوكنز شعار نبالة، يجسّد زنجياً مصفداً، كمؤشر لنجاحه في تجارة العبيد (المؤلف).

4. لما كان أنطونيو فرنانديز من أكثر الأسماء البرتغالية شيوعاً وتداولاً فإن من المستحيل التيقن تماماً من سيرة الحياة العملية الأولى للمستكشف (المؤلف).

5. لم ينحدر كل الديجريدادوس من الطبقات الدنيا، وكان من معاصري فرنانديز في أفريقيا الشرقية دييجو فاز، وهو مجرم منفي إلى موزمبيق في عام 1507، وأعفي عنه في عام 1513، وقد كتب يقول بجرأة للملك مانويل: «أسألكم يا جلالة الملك، السماح لي بالذهاب مع الأسطول

التالي . . . وكونوا على يقين، جلالتكم، من أن التجارة هنا هي للصوص ومن في مستواهم فحسب» («وثائق حول البرتغاليين في موزمبيق وأفريقيا الوسطى» *Documents on the Poruguese in Mozambique and Central Africa* ـ المجلد الثاني) (المؤلف).

الفصل السابع والعشرون

1 . دفن ماثيو في ديبرا ـ بيزان، قرب أسمرة العاصمة الحديثة لأرتيريا (المؤلف).

2 . من مناطق التوقف المبكرة في المرتفعات الأثيوبية نقطة تقع وسط أطلال أكسوم، حيث كانت مراسم التتويج الأثيوبية لاتزال تجري. وقد تأثرت البعثة بشكل أكبر بالقبور والشواهد الجرانيتية، وعرف رجالها أن المسيحية قد ضربت جذورها هناك قبل ألف ومئتي عام، عندما كان البرتغاليون لايزالون وثنيين (المؤلف).

3 . سيغدو مصير الأمراء الأثيوبيين الموضوع الذي تدور حوله رواية صمويل جونسون الرومانسية بعنوان **«تاريخ راسيلاس أمير الحبشة»** *The History of Rasselas, Price of Abyssinia* (المؤلف).

4 . من أبرز الأوربيين الرسام الإيطالي برنساليون الذي قام بزخرفة العديد من كنائس أثيوبيا، وترك تأثيراً دائماً في فنّها (المؤلف).

5 . في القرن السابق قام الإمبراطور إسحاق بالاستيلاء، لوقت قصير على زيلع، فدمَّر مساجدها، وشيّد كنائس مكانها (المؤلف).

6 . لا يرد في السجلات شيء عن نهاية حياة كوفيلهام (المؤلف).

الفصل الثامن والعشرون

1 . هو الإمام أحمد بن إبراهيم المعروف باسم أحمد بن قران، ويلقب أيضاً بأحمد كران المجاهد. وقد قام بقيادة ثورة إسلامية في الحبشة. وخلال فترة قصيرة تمكّن من الاستيلاء على أجزاء كبيرة منها، وطرد القوات الحبشية من إقليم الهرر. ويقول د. فالح حنظل في ص 359 من كتابه **«العرب والبرتغال في التاريخ»** (مرجع سابق) إن هذا المجاهد الذي استطاع أن يأسر ابن النجاشي، ملك الحبشة، كان على اتصال دائم بالحاكم العثماني في عدن، وإن انتصاراته الباهرة بلغت الحد الذي دفع ملك الحبشة إلى طلب النجدة من البرتغاليين في الهند، الأمر الذي ترتبت عليه الأحداث التاريخية التي يسجلها المتن، وقد انتهت باستشهاد القران (المترجم).

2 . على امتداد الصيام الكبير تتمثّل الوجبة الوحيدة في الخبز والخضر، ويتم تناولها بعد الغسق. وبعض الأثيوبيين المندرجين في طوائف دينية مسيحية معينة لا يتناولون الطعام إلا مرة كل يومين (المؤلف).

3 . ربما كانت هذه الإشارة من المؤلف، أو بالأحرى من المراجع التي استند إليها، والتي تعكس قدراً ملحوظاً من المبالغة، دالة في طبيعة الانتصارات الكبيرة التي أحرزها المجاهد القران (المترجم).

4. وفقاً لبعض الروايات، فإن لبنا دينجل عاش حياة داعرة على الرغم من ولائه الديني، وطعن حتى الموت وهو في فراشه (المؤلف).

5. تمت رسامة آخر أسقف للنوبة في الإسكندرية في عام 1372، وبعد ذلك كافح مسيحيو أعالي النيل في غمار العزلة 150 عاماً أخرى. راجع: وليم. واي أدامز William Y. Adams **«النوبة»** *Nubia* (المؤلف).

6. الإشارة إلى الجنود الأتراك هنا ربما كان مصدرها أن جهاد القران قد اجتذب اهتمام الوالي العثماني في عدن مصطفى باشا النشار، الذي ربما دعم ثورة القران ببعض العناصر من حامية عدن في مراحل مختلفة من تطورها. ومن المؤكد أنه قام بذلك بعد قصف المدفعية البرتغالية لقوات القران الموجودة قرب جزيرة دهلك، واضطرارها إلى التراجع إلى داخل البر الأثيوبي، حيث أمدها النشار بقوة تركية نزلت في منطقة ولفا والتحقت بقوات القران. وشنت هذه القوة المشتركة هجوماً كبيراً على البرتغاليين، في معركة فاصلة هزم البرتغاليون في نهايتها. وسقط داجاما أسيراً، حيث أعدمه القران كما يوضح المتن (المترجم).

7. تم تطويب كريستوف داجاما قديساً في وقت لاحق (المؤلف).

8. قام هذا الخادم، ويدعى بيرو ليام، بقطع أذن الأعسر بعد قتله. وعندما قام أثيوبي، زعم أنه هو الذي قتله بإظهار الرأس المحتز أمام كلوديوس، تساءل الخادم: «ألم تكن لهذا المسلم أذنان؟ لابد أن من قتله لديه الأذن الأخرى». وعند هذا أخرج هذه الأذن من جيبه وسط تصفيق مدو. راجع: **«مذكرات جيرونيمو لوبو»** *Itinerário of Jerónimo Lobo* ـ ترجمة دونالد لوكهارت Donald Lockhart (المؤلف).

الفصل التاسع والعشرون

1. القديس فرانسيس كزافيه (1506 ـ 1552) إسباني من مؤسسي جمعية المسيح، اشتهر بالمهام التبشيرية التي أنجزها في الشرق الأقصى. ومات وهو في طريقه إلى الصين، حيث دفن في جوا. ويتم الاحتفال بذكراه في الثالث من كانون الأول/ ديسمبر (المترجم).

2. ولد كزافيه لعائلة ارستقراطية، في نافار عام 1506، ودرس لمدة أربع سنوات في باريس، حيث تشكلت نواة طائفة اليسوعيين في عام 1534، وأكثر الصور لحياته العملية اكتمالاً توجد في كتاب جورج شورهامر Georg Schurhammer بعنوان **«فرانسيس كزافيه»** *Francis Xavier* (المؤلف).

3. ستكتسب محكمة التفتيش في جوا صيتاً سيئاً، نجم عن تدقيقها في عمليات التعذيب (المؤلف).

4. نشط «رجال الغابات الخلفية» البرتغاليون الآن على امتداد منطقة واسعة جنوبي نهر الزامبيزي، وغالباً ما أثاروا الحروب المحلية ليحققوا مزايا تجارية (المؤلف).

5. تعرض خمسون شخصاً اعتنقوا المسيحية على يد سلفيرا المذبحة بعد مصرعه (المؤلف).

6. في عام 1608 كتب فيليب الثاني (فيليب الثالث ملك إسبانيا) إلى جاتسي روسيري، إمبراطور المونوموتابا، يعينه «أخاً في السلاح». وبالمقابل فإنه يتعين عليه أن يسلم كل معادنه، ثم يرسل ابنه وسفراءه إلى نائب الملك البرتغالي في جوا «لكي ينحنوا ويبدوا خضوعهم لي» **«وثائق عن البرتغاليين في موزمبيق وأفريقيا الوسطى»** ـ المجلد التاسع، مصدر سابق (المؤلف).

7. وجد في لشبونة اعتقاد دام طويلاً بأن ترسبات هائلة من الفضة توجد من دون أن يكتشفها أحد في أراضي المونوموتابا. وقد منحت سلسلة من الضباط لقباً رفيعاً لكنه أجوف هو «غازي مناجم الفضة ومكتشفها». ولم يكن هناك شيء يتجاوز بعض العروق الصغيرة المتناثرة (المؤلف).

الفصل الثلاثون

1. المراد بالسلطان سليمان هنا هو السلطان العثماني سليمان القانوني، الذي كان فاتحاً عظيماً، شديد الحماسة للإسلام، حيث سار إلى المجر وفتح بلجراد في عام 1521، وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1530 حاول دخول فيينا، واحتل بغداد في 1534. وقد أصدر أوامره إلى واليه على مصر سليمان باشا الخادم، المشار إليه في المتن، بالقيام بشن حملة عسكرية تسيطر على عدن وتستولي على اليمن كله لإنهاء التمزق السائد فيه، ثم تتوجه إلى الهند لقتال البرتغاليين. وعلى الرغم من أنه أوشك على إسقاط القلعة البرتغالية في ديو، فقد انسحب في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر 1538. وتجمع آراء المؤرخين البرتغاليين والعرب على أن السبب في ذلك هو أن الأمراء الهنود تحسبوا من انتصار العثمانيين في المعركة، ونظروا إليه باعتباره كارثة لا تقل سوءاً عن كارثة البرتغاليين، فزوّروا رسالة، تبدو وكأنها من نائب الملك البرتغالي في الهند إلى قائد قلعة ديو، وتفيد بقرب قدومه لنجدة القلعة في أسطول عظيم وجيش أعظم، ومن هنا جاء قرار سليمان باشا الخادم بالانسحاب. حيث رأى أنه لا قبل لأسطوله بهذه القوات (المترجم).

2. عرض سلطان ممباسا تقديم اثني عشر ألف مثقال من الذهب، أي ما يعادل خمسة عشر ألف كروزادو، إذا لم يتم تدمير المدينة (جوستوس ستراندیز Justus Strandes، **«المرحلة البرتغالية في شرقي أفريقيا»** *The Portuguese Period in East Africa*)، ولكن عرضه لم يلق آذاناً صاغية (المؤلف).

3. اختار داكونها معيني محمد، ابن شقيق سلطان ماليندي، وقد سارع باقتراح أخيه الأصغر، السيد أبي بكر (المؤلف).

4. في عام 1542، حشد أسطول برتغالي صغير مؤلف من سفن خفيفة، قبالة ساحل الصومال، لرصد السفن التركية التي تغامر بالخروج من البحر الأحمر، وبحلول ذلك الوقت كان الأتراك كذلك يتحدون البرتغاليين في الخليج العربي (المؤلف).

5. يعرف الريس بيري أيضاً ببيري بك، وبيري بك ريس، وقبودان مصر، أي قبطانها، حيث كان قائد القوات التركية البحرية العاملة هناك. وقد أقلع في أوائل عام 1552 من مصر، ومعه خمس وعشرون سفينة كبيرة وأربع غلايين وسفينة نقل ضخمة و1600 مقاتل. وتمكن من تحطيم أسطول

برتغالي تصدى له، ففتح الطريق إلى مسقط، التي قصفها على امتداد ثمانية عشر يوماً، حتى استسلام قائدها البرتغالي وأسره، ومعه ستون من رجاله. ولكن الريس بيري لم يستثمر هذا الانتصار في مسقط، ولم يترك بها حامية من رجاله، أو يعهد بها إلى القبائل العربية بالمنطقة. وتوجه إلى هرمز لمقاتلة البرتغاليين، وحاصرها شهرين، لكنه فك الحصار عنها بعد اتصاله بتجارها لجمع النقود والأتاوات منهم. وأبحر إلى البصرة، حيث وقع خلاف بينه وبين الوالي التركي قباد باشا بسبب ما تردد عن استيلاء بيري على أموال تجار هرمز، وإطلاقه سراح الأسرى البرتغاليين لقاء مبالغ كبيرة. وترك بيري البصرة في ثلاث سفن، غرقت إحداها في الطريق، ولدى عودته إلى مقر قيادته بمصر، تم اعتقاله بتهمة التلاعب بأموال الدولة وعدم تنفيذ الواجبات العسكرية المسندة إليه جيداً، وأعدم في اسطنبول في عام 1553 (المترجم).

6. تم حفظ الرأس في الملح وشحنت إلى جوا، حيث عرضت عبر الشوارع في موكب حافل، تحذيراً لأي «صديق آخر للأتراك» (المؤلف).

7. هناك خريطة توضح تفاصيل رحلات علي بك في المحيط الهندي، في كتاب دونالد بيتشر Donald Pitcher بعنوان **«الإمبراطورية العثمانية»** *The Ottoman Empire* (المؤلف).

8. بحسب رواية الراهب جواو دوس سانتوس، فإن أحد زملائه من الرهبان الدومينيكان التهمه الزيمبا الذين انطلق زعيمهم مزهواً بالنصر، مرتدياً الزي الديني الذي كان للضحية، حاملاً كأس القربان في يد وحربته القصيرة في اليد الأخرى (المؤلف).

9. من المؤكد أن هذا الاختلال في الخسائر بين البرتغاليين ومن يتصدون لقتالهم على امتداد المحيط الهندي جدير بالانتباه والتوقف عنده طويلاً، وربما كان راجعاً في أحد أبعاده إلى قوة النيران الكثيفة التي يعتمدونها أسلوبا للتصدي للخصوم، حتى في الاشتباكات عن قرب، حيث استخدموا مدافع صغيرة أقرب إلى الهاونات تحدث فتكاً ذريعاً في صفوف أعدائهم، أو إلى حرصهم على تجنب القتال المتلاحم الذي برع فيه خصومهم، والذي كان يمكن أن يضرب بعنف، في أبرز نقاط ضعفهم وهي المحدودية النسبية لأعداد مقاتليهم (المترجم).

10. الأمير علي بك المشار إليه في المتن شخصية محيرة بلا حدود، فهناك من يقول إنه علي بك شلبي، وهناك من يقول إنه هو نفسه علي بن الحسين الذي ظهر اسمه في عام 1554، في إطار محاولة إنقاذ الأسطول التركي المحصور في البصرة. وهناك من يرى أنه شخص آخر يحمل الاسم ذاته. وأياً كان الأمر، فإن تحركاته في شرقي أفريقيا كانت تصل إلى البرتغاليين، عن طريق حاكم ماليندي الموالي لهم. وقد أسروه في ممباسا بالفعل. ومن المعتقد أنه لدى إرساله أسيراً إلى لشبونة أعلن اعتناقه المسيحية هناك، وقد مات بها (المترجم).

الفصل الحادي والثلاثون

1. نظر المؤلف المجهول لكتاب **«طريق الهند الغربي»** إلى طرد البرتغاليين من المحيط الهندي باعتباره خطوة في إطار خطة أوسع نطاقاً، يقوم الأتراك من خلالها بضم العالم بأسره، بما في ذلك

الأمـريكتين. راجع كـتـاب تومـاس د. جـودريتش Thomas D. Goodrich بعنوان «**الأتراك العثمانيون والعالم الجديد**» *The Ottoman Turks and the New World*(المؤلف).

2. يستمد حصن اليسوع أهميته بالنسبة إلى إمبراطورية البرتغال البحرية من الطبيعة الاستراتيجية لموقعه، فهو من ناحية يتحكم في مسار الأساطيل البرتغالية من الساحل الأفريقي إلى الهند. ومن ناحية أخرى يمكن انطلاقاً منه إغلاق البحر الأحمر، أو على الأقل الحد من خطر الأساطيل المعادية التي تغامر بالخروج منه، وهو بمنزلة نقطة وثوب إلى الداخل الأفريقي، فضلاً عن الأهمية التجارية للمدينة التي يطل عليها. وليس من قبيل المصادفة أن سقوط الحصن كان بمنزلة جرس مدو في جنازة الإمبراطورية البرتغالية (المترجم).

3. يقول أندريه بالاديو Andrea Palladio في الكتاب الأول من مؤلفه «**الكتب الأربعة في فن العمارة**» *The Four Books of Architecture* (1570): «... المباني قد تظهر ككيان جيد التشطيب، تتوافق كل الأعضاء بداخله، وهي جميعها ضرورية...» (المؤلف).

4. يقع قصر السلطان على بعد حوالي ميل من حصن اليسوع (المؤلف).

5. في آب/ أغسطس 1627 كتب جيرونيمو للبابا يقول إنه شخصياً قام «بإدخال 100 من الأتباع المسلمين في المسيحية» (المؤلف).

6. قام جي. إس. بي. فريمان - جرينفيل G. S. P. Freeman-Grenville بترجمة روايات معاصرة للأحداث، بعد انتفاضة السلطان في كتابه «**انتفاضة ممباسا ضد البرتغاليين**» *The Mombasa Rising against the Portuguese, 1631* (المؤلف).

7. أرسل هذا الراهب وهو جواو اليسوعي من جوا للتحقيق في المذبحة (المؤلف).

الفصل الثاني والثلاثون

1. من المؤكد أن الحديث عن إحكام القبضة البرتغالية على التجارة في الخليج العربي في هذه المرحلة، أمر يتضمن قدراً غير قليل من المبالغة، فقد كانت قوة القبائل العربية العريقة ذات التاريخ البحري الممتد كفيلة على الدوام بخلخلة هذه القبضة وجعلها أبعد ما تكون عن الإحكام الذي يشير إليه المؤلف في المتن (المترجم).

2. هذا نموذج آخر مما أشرنا إليه في المقدمة من أن المؤلف يثير في بعض الأحيان الضيق لدى الباحث الراغب في معرفة المزيد. وفي هذا الموضع على وجه التحديد لا نعرف من هو الشيخ زين الدين المشار إليه في المتن بالضبط. وكل ما يتم إبلاغنا به هو أن المقتطف التالي منه مدرج في موضع لا نعرفه، بالضبط، من كتاب: «**تاريخ البرتغاليين في المالبار**» من ترجمة د. لوبيز، الصادر في لشبونة في عام 1898 (المترجم).

3. ترجمت أوصاف البرتغاليين لفيجايانجارا في قمة ازدهارها، في كتاب: «**إمبراطورية منسية**» *A Forgotten Empire*، تأليف ر. سويل R. Sewell (المؤلف).

4. مضى الملك الهندوسي راما راجا إلى المعركة، مصطحباً ستمئة ألف جندي من المشاة ومئة ألف من الفرسان وخمسمئة فيل. ولكن حليفاً مسلماً هو علي عادل شاه غيّر الجانب الذي يناصره في لحظة حاسمة. وفي وقت لاحق قام عادل شاه بنسف رأس راما راجا بمدفع بعد أسره، وبعث ببقاياه إلى بنارس لتلقى في نهر الجانج. راجع: **«مصادر أخرى لتاريخ فيجايانجارا»** *Further Sources of Vijayanagara History* من تأليف ك. أ. نيلاكانتا ساستري K. A. Nilakanta Sastri ون. فينكاتاراماناَيا N. Venkataramanayya (مدراس ـ 1946) (المؤلف).

5. يرد تعقيب شاه جهان كمقتطف في: قيصر Qaisar (مرجع سبق ذكره) (المؤلف).

6. أورد الجغرافي الإنجليزي ريتشارد هكليوت Richard Hakluyt روايات ستيفنز في مختاراته من الرحلات، التي تقع في ثلاثة مجلدات 1598 ـ 1600 (المؤلف).

7. يصور هذا بشكل بارز العجز الذي استمر حتى القرن الثامن عشر عن تحديد خطوط الطول في البحر. وقد بذلت جهود تقريبية للقيام بذلك عن طريق التخمين المحض، وذلك بحساب المسافة والاتجاه اللذين تم الإبحار عبرهما بين خطوط العرض. وهناك شكل إيضاحي يصوِّر هذا الأسلوب في كتاب **«رحلات السفن التجارية الإنجليزية 1450 ـ 1540»** *English Merchant Shipping, 1450 - 1540*، من تأليف د. بورواش D. Burwash (المؤلف).

8. تحطمت قوة البرتغال وكبرياؤها بالفعل في عام 1578، من خلال القضاء على جيشها في معركة القصر الكبير، وقتل الملك سباستيان وهو في الرابعة والعشرين من العمر، الأمر الذي كان معناه الانتهاء الفعلي لعائلة أفيز المالكة، وهو الأمر الذي شكّل مصير البرتغال على امتداد قرنين من الزمان (المؤلف).

9. تم استخدام وحدات من العبيد السود، على امتداد «دولة الهند» البرتغالية. وقد جاء معظمهم من موزمبيق، ولكن بعضهم نقلوا من غرب أفريقيا، والبعض الآخر المعروف باسم «الحبشي» تم أسرهم في الهند (المؤلف).

10. من المؤكد أن السفن والمدفعية الإنجليزية قامت بدور كبير في حصار هرمز، ومن ثم سقوطها في عام 1622، ولكننا ينبغي أن نتذكر أن هذا الحدث الكبير وغيره من الأحداث المماثلة جاء على خلفية من تراكم الضغوط على البرتغاليين في ثلاثة اتجاهات، أولها توسع بلاد فارس نحو الساحل الشمالي من الخليج العربي، والاتجاه الثاني ضغوط القبائل الداخلية في شبه الجزيرة العربية على الساحل الجنوبي، والاتجاه الثالث تراكم الضغوط الناجمة عن تردي الوضع الداخلي مع الفساد الكلي للإدارة البرتغالية (المترجم).

11. مقتطف في كتاب كيرزون بعنوان **«فارس والمسألة الفارسية»** *Persia and the Persian Question* (المؤلف).

12. وصفت هذه التكتيكات في كتاب ج. أ. بالارد G. A. Ballard بعنوان **«حكام المحيط الهندي»** *Rulers of the Indian Ocean* (المؤلف).

13. إدموند وولر (1606 ـ 1687) تلقى تعليمه في إيتون وكنجز كوليدج في كامبردج، ودخل البرلمان في وقت مبكر. وكان في البداية عضواً نشطاً في المعارضة. غير أنه غدا من الملكيين المتحمسين.

وقد سجن لقيادته مؤامرة للسيطرة على لندن تحت راية الملك تشارلز، ونفي من إنجلترا ولكنه عاد إليها مجدداً. وكان شاعراً حذراً، وكتب في وقت يعود إلى عام 1625، قصيدة قدِّر لها أن تصبح شكلاً سائداً من أشكال نظم الشعر في إنجلترا على امتداد قرنين. وقد جمعت قصائده لأول مرة في عام 1645 تحت عنوان «**قصائد إلهية**» ثم أعاد ثورن ديور جمعها في عام 1893 في طبعة شاملة مؤلفة من مجلدين (المترجم).

14. كانت هذه هي محنة لوبو الثانية في جنوبي أفريقيا. وقبل ذلك بثلاثة عشر عاماً، كان قد خاض تجربة معركة حربية قبالة ساحل موزمبيق ضد الهولنديين والإنجليز (المؤلف).

الفصل الثالث والثلاثون

1. جورج ناتانئيل كيرزون (1859 ـ 1925) تلقى تعليمه في إيتون وفي بولويد بجامعة أكسفورد. ودخل البرلمان عن ساوثبورت في عام 1886. وعيِّن نائباً للملك في الهند في السنوات 1899 ـ 1905، ومستشاراً لجامعة أكسفورد، ووزيراً للخارجية في السنوات 1918 ـ 1922، وقد ارتحل كثيراً، وتجسَّدت ثمرة تجاربه في كتابه الجامع «**فارس والفرس**» الصادر في عام 1892، وفي كتب أخرى عن الشرق الأقصى وروسيا الآسيوية. وقد جعله نشاطه وترحاله وتمتعه بالحياة الرسمية شخصية أسطورية (المترجم).

2. يحتفظ البرازيرو بأرضه على أساس الإيجار بصورة اسمية من التاج البرتغالي. وغالباً ما تكون هذه الأراضي من تلك الأراضي التي سبق أن تنازل عنها زعيم قبيلة أفريقي (المؤلف).

3. وصف جاكوب فان إنخوسين Jacob van Enkhuisen في عام 1604 الخويخوي بأنهم «قوم فقراء بؤساء يمضون عراة تماماً، ويحدثون أصواتاً تشبه أصوات الديكة الرومية...». راجع كتاب: ر. ريفين ـ هارت R. Raven-Hart بعنوان «**قبل فان ريبيك**» *Before van Riebeeck* (المؤلف).

4. هناك تفصيلات عن نجاح هولندا الاقتصادي في الداخل والخارج، في كتاب جوناثان آي. إزرايل Jonathan I. Israel بعنوان «**الجمهورية الهولندية**» *The Dutch Republic*. لمزيد من التفاصيل المتعلقة بغزو سيلان راجع: «**بعض الوثائق المتعلقة بنشأة السلطة الهولندية في سيلان 1602 ـ 1670**» *Some Documents Relating to the Rise of Dutch Power in Ceylon, 1602 - 1670* تأليف بي. إي. بيريس P. E. Pieris (المؤلف).

5. كانت العبودية في ظل حكم الهولنديين في سيلان مقننة إلى حد بعيد؛ حيث صدر ثلاثون قانوناً متعلقاً بها («**سجل سيلان الأدبي**» *Ceylon Literary Register* أيلول/ سبتمبر 1935) (المؤلف).

6. باستثناء القراصنة، لم يطأ بريطاني واحد مدغشقر على امتداد قرنين، عقب هذا الإخفاق التام (المؤلف).

7. وضعت أصالة الليبريتاليا، التي كتب عنها لأول مرة في أوائل القرن الثامن عشر، موضع التساؤل، غير أن المؤرخ الفرنسي أوبير ديشامب Hubert Deschamps الذي يعتبر حجة بارزة فيما

يتعلق بمدغشقر يتقبلها. وقد كان توم تيو Tom Tew بالتأكيد شخصية تاريخية، ولايزال لقبه موجوداً في مسقط رأسه في بلايموث بإنجلترا (المؤلف).

الفصل الرابع والثلاثون

1. كان زا ـ دينيجل قد كتب إلى أوربا مقترحاً تزويج ابنه من ابنة العاهل الإسباني، وهو الاقتراح نفسه الذي طرحه الإمبراطور إسحاق على الفونسو ملك أراجون في عام 1306، ومرة أخرى لم تلق الفكرة آذاناً صاغية (المؤلف).
2. وجد بايز في أواخر عمره الوقت الكافي لكتابة تاريخ أثيوبيا باللغة اللاتينية، وتراوح ما كتبه بين الدين والأخلاق والجغرافيا وكيفية صيد وحيد القرن (هناك موجز لما كتبه في كتاب فيليب كارمان Philip Carman بعنوان **«الإمبراطورية المفقودة»** *The Lost Empire*) (المؤلف).
3. كان الجالا (أو على نحو أكثر دقة الأورومو) بحلول ذلك الوقت التهديد الأساسي لأثيوبيا. وقد خشي حكامهم من أن تكون البعثة بصدد عملية استطلاع لطريق من ماليندي، يمكن للبرتغاليين أن يهاجموهم عبره من الجنوب (المؤلف).
4. يصعب التعرف على هذا الميناء الذي يقع في الجانب الداخلي مباشرة من البحر الأحمر، وربما كان ميناء عصب (المترجم).
5. لما كان خطاب منديز، وفقاً لما جاء في مذكراته، يقع في ثلاثين ألف كلمة، فلابد أن إلقاءه قد استغرق أربع ساعات، على الأقل، حتى من دون القيام بترجمته (المؤلف).
6. لم يتم تفهم مدى الكارثة التي حلّت باليسوعيين في أثيوبيا إلا بشكل محدود، إلى أن تمت ترجمة نص ما كتبه جيرونيمو لوبو إلى الفرنسية ونشره في باريس في عام 1728، تحت عنوان **«رحلة تاريخية إلى الحبشة»** *Voyage Historique d'Abissinie* (المؤلف).

الفصل الخامس والثلاثون

1. ربما كان المؤلف يخلط هنا بين الإمام اليعربي الأول؛ سلطان بن سيف اليعربي، محرر مسقط في أول أيام عام 1650 وبين الإمام اليعربي الرابع سيف بن سلطان بن سيف اليعربي، الملقب بـ «قيد الأرض»، والذي ينسب إليه انتزاع ممباسا من البرتغاليين والاستيلاء على حصن اليسوع (المترجم).
2. أصبح ساحل شرقي أفريقيا معروفاً، بعد القرن السادس عشر بالكلمة السواحيلية «مريما» *Mrima* التي تعني «البر الرئيسي» (المؤلف).
3. تعين اقتراض الأموال التي تدفع لأعضاء طواقم السفن، ومعظمهم من المجندين غير المدربين، من مؤسسة دينية في جوا عنوة (المؤلف).

4. تشاهد مجموعات عديدة جلبها الغواصون في عام 1977 من حطام السفينة سان أنطونيو، ذات الاثنين والأربعين مدفعاً، في متحف حصن اليسوع (المؤلف).

5. هذا السجل الذي بقي في المكتبة الوطنية في لشبونة، ربما كتب بناء على طلب دي بريتو، أو ربما كتب هو نفسه جانباً منه (المؤلف).

6. اخترعت أسطورة مفادها أن اثنين من آخر المدافعين عن الحصن قد فجّرا نفسيهما في مخزن البارود بالحصن؛ مما أدّى إلى مصرعهما والقضاء على 200 من العرب، وذلك حفاظاً على الكبرياء البرتغالية (المؤلف).

7. على امتداد عام ونصف العام، بين آذار/ مارس 1728 وتشرين الثاني/ نوفمبر 1729، أعاد البرتغاليون حصن اليسوع إلى حوذتهم، بعد أن كان عبيد سود متمردون قد انتزعوه من أيدي العُمانيين. وفي نهاية المطاف استسلم القائد لقوة فرضت الحصار عليه، وأعطي ثلاث سفن صغيرة، للإبحار بها إلى جوا. وبقي بعض رجاله الذين عشقوا نساء محليات في الحصن، واعتنقوا الإسلام (المؤلف).

الفصل السادس والثلاثون

1. برهن فشل هذا الحصار في عام 1683 على أنه نقطة تحول، حيث تراجعت القوة العثمانية بعدها في أوربا وآسيا (المؤلف).

2. راجع تعقيب روبرتسون Robertson في المجلد الثاني من أعماله الكاملة (المؤلف).

3. استقطبت البرازيل اهتماماً أكبر كثيراً، حيث ازدهرت مزارع قصب السكر وتم اكتشاف الذهب، وبرهن البرتغاليون على أنهم أكثر نجاحاً في إبعاد القوى الأوربية الأخرى (المؤلف).

4. اقتطفت رسالة الملك البرتغال في المجلد السابع من **«وثائق البرتغاليين في موزمبيق وأفريقيا الوسطى»**، مصدر سابق (المؤلف).

5. لم يكن وضع قلائد من أعضاء أجساد الأعداء بعد تجفيفها بالأمر غير المألوف (المؤلف).

6. كتب كاريري Careri بعض الملاحظات تعقيباً على الطعام البائس المخصص للعبيد في جوا، وافتقارهم إلى الملابس، وكذلك «الأعمال الوضيعة» المسندة إليهم. راجع: **«رحلات تيفينوت وكاريري الهندية»** *The Indian Travels to Thevenot and Careri*، من ترجمة إس. إن. سين S. N. Sen وتحريره (نيودلهي-1949) (المؤلف).

7. سرد أوفنجتون Ovington تجاربه في الهند في كتابه **«رحلة إلى سورات في عام 1689»** *A Voyage to Surat in the Year 1689* من تحرير إ. ج. رولنسون E. G. Rawlinson (أكسفورد-1929) وعلى الرغم من الحمى، فقد وجد أوفنجتون من العافية ما يدين معه التحلل الخلقي الذي ألفاه على الشاطئ في صفوف البريطانيين في بومباي (المؤلف).

8. وليم كاوبر (1731-1800) تلقى تعليمه في مدرسة خاصة وفي وستمنستر. لم تكن ترجمته لهوميروس الصادرة في عام 1791 عملاً ناجحاً بمعايير عصره. اشتهرت قصائده بمعالجتها المعمّقة لمشاعر العزلة واليأس. وحظيت رسائله التي نشرت بعد موته بإعجاب الكثيرين من القراء. وقد نشرت هذه الرسائل وكتاباته النثرية، في 3 مجلدات، صدرت في الأعوام 1979-1982 (المترجم).

9. كان كاوبر Cowper (1731-1800) شاعراً له معتقدات دينية قوية وخصماً لدوداً للعبودية. وقد أدان «النواب» في كتابه الساخر بعنوان **«مجادلة»** *Expostulation* (المؤلف).

10. اقتطفها ثيون ولكنسون Theon Wilkinson في كتابه **«تياران من الرياح الموسمية»** *Two Monsoons* (المؤلف).

الجزء الثالث

الفصل السابع والثلاثون

1. ألف ستافورنيوس Stavorinus كتاب **«رحلات إلى جزر الهند الشرقية»** *Voyages to the East Indies* ترجمة صمويل هـ. ويلكوك Samuel H. Wilcocke وقد شمل فضوله نطاقاً بالغ الاتساع، ولاحظ في جنوبي الهند أن الجاليات الهندية هناك قد أعتقت عبيدها، وأجرت عملية الختان لهم، ثم عاملتهم باعتبارهم **«رفاقاً في اليهودية»** (المؤلف).

2. على الرغم من ذلك، وبسبب مناخ الكاب الأوربي، فإن البيض المقيمين هناك قاموا بعمل عضوي يفوق بكثير ما أنجزه زملاؤهم في المستعمرات الاستوائية (المؤلف).

3. ظل دولار ماريا تريزا الذي تم سكه في النمسا عملة للمحيط الهندي على امتداد مئة وخمسين عاماً وكان متداولاً بصفة خاصة في أثيوبيا (المؤلف).

4. ما نلمحه هنا ليس إلا الجزء الطافي من جبل جليد ضخم من التحامل والعداء لكل ما هو عربي في الأدبيات الغربية، وهو الاتجاه الذي يضرب جذوره في صميم الحروب الصليبية، ويتفرع من هذه الشجرة المريرة من الغصون والثمار ما يتواصل حتى اليوم ممثلاً في الصورة التقليدية السلبية عن العربي في الإعلام الغربي، وفي التعامل العنصري مع المهاجرين العرب في غربي أوربا (المترجم).

5. ظلت جزيرة روبن التي سيودع فيها الرئيس المستقبلي نلسون مانديلا وزملاؤه السجن في القرن العشرين سجناً، منذ السنوات الأولى للاحتلال الهولندي للكاب (المؤلف).

6. توجد هذه الوثيقة التي تأخذ صورة سؤال وجواب في الوقت الحالي في دار رودس بأكسفورد، وقد تم تحليلها في كتاب ج. س. ب. فريمان-جرينفيل G. S. P. Freeman - Grenville بعنوان **«الفرنسيون في جزيرة كلوة»** *The French at Kilwa Island* (المؤلف).

7. الكريبولي Creole كلمة دخلت اللغة الإنجليزية في عام 1604، ويعتقد أنها من الفرنسية Creole والإسبانية Criollo، والمراد بها أحد مواليد جزر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية المتحدرين من أصل أوربي، أو من أصل إسباني بخاصة، كما يقصد بها أبيض متحدر من نزلاء بعض الولايات الأمريكية الفرنسيين أو الإسبان الأولين، ولكنه لايزال يحتفظ بلغته وثقافته الأصلية، وهي تطلق أيضا على شخص يجري في عروقه مزيج من الدم الفرنسي (أو الإسباني) كما أن الكريبولية هي الفرنسية التي ينطق بها كثير من الزنوج في الجزء الجنوبي من لويزيانا (المترجم).

8. عارض نوّاب البنجال (أي حاكمها) سراج الدولة قرار شركة الهند الشرقية تحصين كلكتا في مواجهة الفرنسيين. وقد أدت مؤامرة في صفوف رجاله إلى هزيمته في بلاسي (1757). وفي وقت سابق كان كلايف قد طرد الفرنسيين من البنجال (المؤلف).

9. بحلول منتصف القرن التاسع عشر تم القضاء على سلطنة كلوة، حيث لم يبق إلا عدد متناثر من القرويين السواحيليين في الجزيرة. وقد تم التنقيب بشكل جزئي في مناطق الأطلال، ووصفها نيفيل شيتيك Neville Chittick في كتاب **«كلوة: مدينة إسلامية تجارية على الساحل الشرقي لأفريقيا»** *Kilwa, an Islamic Trading City on the East African Coast* (المؤلف).

الفصل الثامن والثلاثون

1. تم وصف الاشتباكات البحرية الأنجلو-فرنسية بشكل جيد، في كتاب بالارد Ballard بعنوان **«حكام المحيط الهندي»** *Rulers of the Indian Ocean*، مرجع سابق (المؤلف).

2. سجلت ليندا كولي Linda Colley في كتاب **«البريطانيون»** *Britons* تكريس الأمة كمقدمة للإمبريالية، والأهمية المستمرة لـ «الطابع الإنجليزي». وبصورة متزامنة دفعت كراهية الفرنسيين إلى حدود قصوى. وقد كتب نلسون عنهم في عام 1799 يقول: «إنهم لصوص وطغاة وكفرة» (المؤلف).

3. جاك-هنري برناردان دي سان بيير فيلسوف طبيعي وروائي، وأحد أنصار روسو المتحمسين، وقد رسم صورة متكاملة عنه في كتابه **«حياة جان جاك روسو وأعماله»** (1820). وقد ظهر عمله المسمّى **«مقالة عن الطبيعة»** الذي يدور حول التاريخ الطبيعي والفلسفة واكتشاف تجليات اللطف الإلهي في نظام الطبيعة وتناغمها في عام 1784. وينظر إلى روايته **«بول وفرجيني»** المشار إليها في المتن باعتبارها رائعته بامتياز، وقد حققت نجاحاً تحوّل إلى ظاهرة فريدة. وتتحدث هذه الرواية ذات الطابع الرعوي عن طفولة طفلين ولدا لأبوين فرنسيين، تربّيا كأخ وأخته، في إحدى الجزر الاستوائية، وهي إيل دي فرانس، وتقرر أماهما تربيتهما وفقاً لقوانين الطبيعة، وبالتالي يعيشان بعيداً عن ألوان التحيز الاجتماعية والأساطير الدينية ومشاعر الخوف من السلطة، حيث يكبران في ظل ظروف مثالية. ولكن فرجينيا ترسل إلى باريس بتدخل العمة الثرية لإحدى صديقاتها. ولدى عودتها، بعد ما يزيد على العامين، يلقي إعصار بالسفينة التي تقلها على الصخور المرجانية قرب الشاطئ، وترفض فرجينيا خلع ملابسها لكي تنجو، وما تلبث أن تغرق، ويموت بول والأمّان بتأثير الصدمة والحزن (المترجم).

4 . لعل المقصود معركة أبي قير البحرية التي تحطم فيها الأسطول الفرنسي، وحسم فيها - بشكل عملي - مصير الحملة الفرنسية كقوة يمكن أن تشكل عنصر تهديد على الطريق إلى الهند (المترجم).

5 . لنمر تيبو الموجود الآن في متحف فيكتوريا وألبرت بلندن أنابيب ميكانيكية فرنسية الصنع تصدر عنها صيحات النمر وصرخات الضحية. ويقوم هذا التصور الخيالي على أساس المصير الواقعي الذي حاق بشاب اسكتلندي، كان أبوه، وهو الجنرال هكتور مونرو، قد أوقع الهزيمة بتيبو في ميدان المعركة (المؤلف).

6 . مقتطف من قبل لينوكس ميلز Lennox Mils في كتابه **«سيلان تحت الحكم البريطاني: 1795 ـ 1932»** *Ceylon under British Rule, 1795 - 1932* (المؤلف).

7 . تأسيساً على مؤشر فيلبس براون، فإن خمسة آلاف جنيه استرليني في تسعينيات القرن الثامن عشر ستعادل حوالي ثلاثمئة وخمسين ألف جنيه استرليني، في تسعينيات القرن العشرين (هذه المعلومات مستمدة من مكتب الإحصاءات المركزي بلندن) (المؤلف).

8 . يعد دور كليجهورن في استيلاء بريطانيا على سيلان من البعد عن الذيوع والانتشار، بحيث إنه لا يرد له ذكر في كتاب هـ. دبليو. كودرنجتون H. W. Codrington بعنوان **«موجز تاريخ سيلان»** *A Short History of Ceylon* (لندن ـ 1926). ويلاحظ كودرنجتون فحسب أن دي ميرون «قد رتب لنقل فوجه من المرتزقة الذي تمركزت خمس فصائل منه في كولمبو، إلى الخدمة في صفوف البريطانيين» (المؤلف).

9 . أحيل معظم المرتزقة السويسريين الذين قدِّرت لهم النجا إلى الاستيداع في كندا عام 1816 (المؤلف).

الفصل التاسع والثلاثون

1 . قامت الجمعية التاريخية الملكية (لندن ـ 1979) بنشر مراسلات بالمرستون ـ سوليفان في الأعوام 1804 ـ 1863، وقد انحدر والد سوليفان من عائلة عملت في خدمة شركة الهند الشرقية، وكانت والدته أرملة تاجر رقيق شهير (المؤلف).

2 . اتهم العميد البحري البيمارل بيرتي في برقية من الكاب في 30 أيلول/ سبتمبر 1808، الأمريكيين بتوقيع عقد لإمداد الفرنسيين في إيل دي فرانس بالمؤن، وهو عقد قامت بتنفيذه 50 سفينة في عام 1805. «قامت هذه السفن بتقديم الإمدادات التي ما كان يمكن لهم من دونها أن تقوم لهم قائمة. وكيف كانت تدفع لهم مستحقاتهم؟ بأملاكنا المصادرة...» تحرير ج. م. ثيل G. M. Theal **«سجلات مستعمرة الكاب»** *Records of the Cape Colony* ـ مجلد 5 (لندن ـ 1900) (المؤلف).

3 . السلطان سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد البوسعيدي (1807 ـ 1856) سلطان عُمان الذي تشير إليه المصادر الغربية تقليدياً بلقب «سعيد العظيم»، عمل منذ توليه الحكم على تنشيط التجارة

العُمانية، وامتدت رقعة أراضيه في أقصى فترات ازدهار حكمه من مسندم إلى ظفار وصولاً إلى موزمبيق. وعزز سلطته على ساحل أفريقيا بجعل زنجبار عاصمة ثانية لملكه. ونعمت هذه الجزيرة في ظله بثمار ازدهار اقتصادي لم يسبق له مثيل، نتيجة لقيامه بتكثيف زراعة القرنفل المربحة وكذلك أشجار النارجيل. وقد عرف بحضوره المتميز كسياسي بارع، وإذ وجد نفسه في مواجهة التنافس الإنجليزي-الفرنسي المحتدم في المحيط الهندي فقد عمد إلى مد الجسور مع الولايات المتحدة الأمريكية، عبر نفوذ التجار الأمريكيين، ووقع معاهدة صداقة وتجارة مع واشنطن في مسقط في 21 أيلول/ سبتمبر 1833. وبعث بسفينته التجارية «سلطانة» إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1840، وعلى متنها مبعوثه الدبلوماسي أحمد بن نعمان الكعبي، حيث وصلت سلطانة إلى ميناء نيويورك في 13 نيسان/ إبريل 1840، لتكون أول سفينة عربية تلقي مراسيها في ميناء أمريكي. وتوفي السلطان سعيد في عام 1856 خلال رحلة من مسقط إلى زنجبار، حيث دفن في حديقة قصره بالجزيرة الأثيرة لديه (المترجم).

4. ربما لم يقدر لمنطقة أن تعرف قدراً من إساءة الفهم والخلط وقلب حقائق التاريخ كذلك المتعلق بما يسمى بـ«ساحل القراصنة» في بعض الأدبيات الغربية. ومن المهم هنا، قبل مناقشة هذه المسألة، أن نأخذ في الاعتبار ما يقوله ب. ج. سلوت في كتابه «**عرب الخليج: 1602-1784**» الصادر عن المجمع الثقافي بأبوظبي في عام 1993، حيث يشير إلى أن علينا أن ندرك أن كلمة «القرصنة» في القرنين السابع عشر والثامن عشر لا تعني المفهوم السيئ المرتبط بها اليوم، ومعظم ما كان يذكر عن القرصنة في ذلك الوقت لا ينطبق مع مفهومنا الحالي لها، حيث إن رعايا الدول المختلفة كانوا يرون الاستيلاء على أي مركب يخص العدو أو أحد حلفائه عملاً طبيعياً، كما أن من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار أن الحرب بين البرتغاليين وعرب الخليج كانت مستمرة تقريباً، ومن ثم فإن استيلاء العرب على المراكب البرتغالية يعتبر أمراً شرعياً حتماً، ويعتبر وصف البرتغاليين لذلك بأنه من أعمال القرصنة مجرد دعاية حربية. ومن الناحية التاريخية فلابد لنا من الانتباه إلى أن نضال أبناء الخليج البحري ضد المعتدين الأوربيين على اختلاف جنسياتهم يندرج تحت ما نسميه اليوم بالنضال الوطني، وتوصيفه بالقرصنة ليس إلا نوعاً من التناغم مع الجبهة الفكرية والدعائية من جانب الكتاب الغربيين، وقد تمكن العديد من الباحثين العرب من البرهنة الموثقة على أن هذه المزاعم عن القرصنة العربية في الخليج ليست إلا أكذوبة (المترجم).

5. ربما كانت هذه الإشارة الواردة في المتن إلى أحداث رأس الخيمة - وهي بالمناسبة الإشارة الوحيدة إليها في الكتاب بأسره - تجسيداً للاعتقاد بأن أحداث الخليج لم تلق من المؤلف ما تستحقه من اهتمام (المترجم).

6. من المؤكد أن دخل السلطان سعيد من الضريبة المفروضة على العبيد كان يعادل ما يزيد على مليون جنيه استرليني سنوياً، بالقيمة الحالية. ومن المفهوم أنه شعر بأن أعماله يدعمها العرف، حيث إن السفن العربية كانت تنقل الأفارقة عبر المحيط الهندي على امتداد ما يزيد على ألف عام (المؤلف).

7. لسنا ندري من أين أتى المؤلف بالتقديرات التي أوردها في المتن، ويلفت نظرنا أنه في الهامش السابق مباشرة لم يحلنا إلى مصدر أو مرجع بعينه، وربما كان قد استمدها من بعض تقارير

الموظفين الإداريين المرفوعة إلى شركة الهند الشرقية أو إلى الخارجية البريطانية، والتي تستند إلى أقوال أو ترجيحات أو تقديرات جزافية (المترجم).

8. يندرج هذا التقدير في بند التقديرات الجزافية غير المستندة إلى أصل توثيقي أو إلى ثوابت تاريخية (المترجم).

9. كان رئيس مجلس مديري شركة الهند الشرقية في عام 1805 هو تشارلز جرانت، وهو من مؤيدي داعية إلغاء العبودية وليم ولبرفورس. واعتقد جرانت الذي كانت له آراء إنجيلية لا ينقصها الحماس أن رفاهية الهند ستقدم له خدمة كبرى بالقضاء على كل من الإسلام والهندوسية. وقد بدأت الجمعية البريطانية للكتاب المقدس في تكريس قدراتها لترجمة النصوص المسيحية إلى كل اللغات الهندية الرئيسة (المؤلف).

الفصل الأربعون

1. أنقذت لاسيردا من النسيان ترجمة ريتشارد بيرتون للوثائق البرتغالية في كتابه **«أراضي كازيمبي»** *The Lands of Cazembe* (المؤلف).

2. كانت رحلات مونجو بارك Mungo Park والبعثات اللاحقة لرصد الطريق إلى النيجر موضوع العديد من الكتب؛ ومن بينها كتاب كريستوفر لويد Christopher Lloyd بعنوان **«البحث عن النيجر»** *The Search for the Niger* (لندن ـ 1973) وكتاب بيتر برنت Peter Brent بعنوان **«النيل الأسود»** *Black Nile* (لندن ـ 1977) (المؤلف).

3. كان مواتا يامفو لقباً وراثياً، وفي زمن لاسيردا ربما كان حامل هذا اللقب يافو يا مباني. وترد رواية سردها ديفيد برمنجهام David Birmingham عن إمبراطورية اللوندا في كتاب **«تاريخ كامبردج لأفريقيا»** *Cambridge History of Africa* ـ المجلد الخامس (المؤلف).

4. قام آي. جي. كانسون I. G. Cunnison بترجمة تاريخ إمبراطورية لوندا الشرقية على نحو ما رواه مواتا كازيمبي الرابع عشر في عام 1942. في كتاب **«النصوص التاريخية لبانتو الوسطى»** *Central Bantu Historical Texts II* ـ المجلد الثاني (لوساكا – 1962) وكان الكازيمبي في عام 1798 هو لونجا الذي كرّس شهرته بغزواته الحربية، ومات في عام 1805 (المؤلف).

5. أعطى لاسيردا نفسه أربعة أشهر مهلة للوصول إلى كازيمبي، قبل بدء موسم الأمطار الذي يغدو الرحيل بعده مستحيلاً تقريباً (المؤلف).

6. يرد وصف موجز لحياة أندرو كوان في **«قاموس سير الحياة في جنوبي أفريقيا»** *Dictionary of South African Biography* ـ المجلد الثاني (كيب تاون ـ 1972) (المؤلف).

7. نيسوس ويوروليوس هما في **«الإنيادة»** رفيقان لإينياس وصديقان مخلصان له، يبرزان في سباق العدو، في الكتاب الخامس، ويلقيان مصرعهما في غارة من المعسكر الطروادي في إيطاليا (المترجم).

8. كتب بريور في سنوات لاحقة سيرة حياة أوليفر جولدسميث Oliver Goldsmith، وأحرز شهرة لا بأس بها باعتباره شاعراً (المؤلف).

9. بحلول عام 1812 أزالت هزيمة نابليون في روسيا الخوف الباقي من أنه قد يهاجم الهند براً عبر بلاد فارس (المؤلف).

الفصل الحادي والأربعون

1. توجد المراسلات ذات الأهمية هنا بين نورث وكلارك وآخرين في الملف رقم 34 / CO 55 في مكتب السجلات العامة بلندن (المؤلف).

2. يرد منظور مختلف على نحو ملحوظ فيما يتعلق بتنحية فيكراما، وما أعقب ذلك، في كتاب **«السنهاليون والوطنيون»** *Sinhalé and the Partiots* لمؤلفه بي. إ. بيريس P. E. Pieris (المؤلف).

3. يُذكِّر كتاب صمويل بيكر Samuel Baker بعنوان **«البندقية والطريدة في سيلان»** *The Rifle and the Hound in Ceylon* (لندن – 1854) بالقضاء الجماعي على الفيلة والغزلان وغيرها من الألعاب (المؤلف).

4. يناقش باستفاضة اقتراح فاركهار ورد الفعل عليه في كتاب **«تاريخ العبودية في موريشوس وسيشل 1810-1875»** *The History of Slavery in Mauritius and the Seychelles, 1810 - 1875*، من تأليف موسيز د. إ. نوليا Moses D. E. Nwulia (روثرفورد-نيوجيرسي-1981) (المؤلف).

5. جلب الفرنسيون الثلاثة العبيد في مركب شراعي ذي دقلين من موزمبيق-*The Observer*-لندن-22 شباط/ فبراير 1819.

6. مقتطف أورده هنري برنشفيج Henri Brunschwig في كتاب **«بريطانيا وفرنسا في أفريقيا»** *Britain and France in Africa*، تحرير: بروسير جيفورد Prosser Gifford ووليم ر. لويس William R. Louis (المؤلف).

7. مشروب عرق الذهب Ipecacuanha يتخذ من نبات متسلق يقال إنه يسبب القيء لمن يشربه (المترجم).

8. غالباً ما كان «الوُصاة» أو «الحُماة» الرسميون للعبيد يقفون إلى جانب سادتهم. وقد قال نظير توماس في الكاب، وهو جورج روجرز، في تقرير وداعي في عام 1828: «إنني من مناصري الرأي القائل إن جنس العبيد الموجود ها هنا هو أفضل حالاً من الملايين من أبناء الطبقات الدنيا في بريطانيا العظمى ومناطق أخرى في أوربا». وقد قارن بين حياة الإناث «الممتلئات والخشنات» من موزمبيق وحياة النساء الإنجليزيات الخاطئات «اللواتي يحكم عليهن بالأشغال الشاقة وطاحون الدوس وغيرها من العقوبات القاسية والمذلة» **«الأوراق البرلمانية البريطانية»** *Parliamentary Papers*-المجلد الخامس عشر 1830-1831). وتقدم *The Cape Gazette* في 12 تشرين الأول/ أكتوبر

1822 الجانب الآخر؛ حيث تعلن عن مزاد لـ «جارية تدعى كاندرا من موزمبيق، 54 عاماً، مع أطفالها الخمسة: سافريه وهي في الثالثة عشرة من عمرها، وإيفا وهي في العاشرة، وكاندرا في التاسعة، وجانثينج في السابعة، وكارلوس في الخامسة، وسيباع كل منهم بشكل منفصل (المؤلف).

9. في عام 1994 كانت موريشوس قد حققت إجمالياً للناتج القومي السنوي يصل إلى ثلاثة آلاف ومئة وثمانين دولاراً لكل فرد، أي عشرة أمثاله في الهند (المؤلف).

الفصل الثاني والأربعون

1. بدأ البرتغاليون عملية تصدير الأفيون من الهند إلى الصين، وفي عام 1767 بلغ إجمالي الصادر ألف صندوق سنوياً، وفي عام 1818 بلغت التجارة التي أصبحت في ذلك الوقت في أيدي البريطانيين إلى حد كبير ستة آلاف صندوق سنوياً. وقد حظرت الصادرات من البنجال، ولكن شركة الهند الشرقية كانت تحصل على عائد من المكوس المفروضة عليها. وفي عام 1839 حظر الصينيون واردات الأفيون وصادروا عشرين ألفاً ومئتين وواحداً وتسعين صندوقاً من التجار الأجانب؛ فأعلنت بريطانيا الحرب، وأجبرت الصين على دفع أربعة ملايين ونصف مليون جنيه استرليني كتعويضات مع التخلي عن هونج كونج (المؤلف).

2. هذا التقدير للبحرية العُمانية ودورها البارز يتردد في مراجع ومصادر عديدة. غير أننا لسنا ندري من أين أتى المؤلف بتقديراته المشار إليها في المتن عن ثروة السلطان سعيد ومصادرها، ومن المهم أن نلاحظ أن مثل هذه التقديرات تظل جزافية، ويصعب توثيقها بشكل حقيقي يجعلها تتمتع بأي درجة من المصداقية (المترجم).

3. ترد رواية مفصلة للمعاملات مع السلطان سعيد فيما يتعلق بتجارة العبيد، على نحو ما رواها الإنجليز، في كتاب السير ريجنالد كوبلاند Sir Reginald Coupland بعنوان **«شرق أفريقيا وغزاته»** *East Africa and its Invaders* (المؤلف).

4. تعد الصورة التي ترد في مجلدين، والتي صدرت باسم أوين تحت عنوان **«سرد لرحلات اكتشاف شواطئ أفريقيا وشبه الجزيرة العربية ومدغشقر»** *Narative of Voyages to Explore the Shores of Africa, Arabia and Madagascar* خليطاً من مقتطفات من يوميات القبطان وضباطه (المؤلف).

5. أدى الجمع بين الحجامة وتسهيل البطن إلى التعجيل بوفاة المرضى الذين أضعفتهم الحمى بالفعل (المؤلف).

6. كان أوين يعد كذلك خططاً للوجود البريطاني على ساحل موزمبيق؛ لمكافحة صادرات العبيد البرتغالية، التي كانت في ذلك الوقت تنطلق بمعدل خمسة عشر ألف عبد سنوياً. وقد شعر بأن «الأفارقة المستحقين لما ينالونه» يعانون في ظل «الطغيان الخبيث» المفروض من جانب البرتغاليين. وحدّد على خرائطه البحرية منطقة تدعى تيمبي في خليج ديلاجوا باعتبارها «مكاناً مقترحاً لمستعمرة إنجليزية». ولم يسفر هذا عن شيء (المؤلف).

7. لست أشك في أن هذا الطرح صادر عن تحيز عدائي مسبق ضد مسقط من جانب أوين، فهو نفسه يعود ليشير إلى وضعيتها كمركز تجاري عملاق. كما أن هناك الكثيرين من الرحالة والبحريين الذين وصلوا إلى مسقط في أوقات سابقة ومتزامنة ولاحقة لزيارة أوين، فأشادوا بها؛ وعلى سبيل المثال فإن بارسونز الذي زار مسقط في عام 1750 ميلادي يشير إلى أن مسقط تحظى بتجارة واسعة وتحظى أيضاً بالغنى والوفرة، ويؤكد أنه «يوجد حالياً في المدينة كميات هائلة من السلع بحيث لا توجد مخازن كافية لإيداعها؛ لذلك تركت في الشوارع، ولا تحدث أعمال سرقة أو نهب، رغم أن هذه البضائع تظل ليلاً ونهاراً دون حراس». ويتابع: «لأهل مسقط تجارة برية كبرى، فهم يستقبلون القوافل التي تأتي بكميات من الصمغ ومواد الطيب وريش النعام وجلود البقر والغنم والمواشي، ويرسلون بالمقابل سلعاً من منتجات الهند مثل الفلفل والزنجبيل والأرز والتبغ والسكر». راجع: إسماعيل الأمين، **«العُمانيون رواد البحر»**، (لندن: دار رياض الريس للنشر، 1990)، وراجع أيضا كتاب *Oman: A Sea Faring Nation* الصادر عن وزارة الإعلام العُمانية، 1979 (المترجم).

8. كان مجلس الهند لجنة تابعة لمجلس شورى الملك، تعاملت مع الموضوعات المتعلقة بالسياسة في الهندمن خلال اللجنة الفرعية السرية المؤلفة من ثلاثة من مديري شركة الهند الشرقية (المؤلف).

الفصل الثالث والأربعون

1. سردت قصة ريتز Reitz في كتاب **«البريطانيون في ممباسا 1824 ـ 1826»** *The British in Mombasa, 1824 - 1826* من تأليف السير جون جراي Sir John Gray وهو العمل المعتمد فيما يتعلق بالمحمية التي لم يطل بها العهد (المؤلف).

2. البانيان (*banians*) هم طائفة قائمة بذاتها، جاءت أساساً من جوجارات (جوزرات) شمالي بومباي (راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب) وبحلول نهاية القرن التاسع عشر سيسود الهنود كلية تجارة التجزئة في شرقي أفريقيا (المؤلف).

3. هناك منطقة ساحلية قبالة ميناء كلينديني في ممباسا، أطلق عليها اسم بورت ريتز تخليداً لذكرى الملازم الإنجليزي، ولايزال هذا الاسم باقياً في الخرائط الحديثة (المؤلف).

4. في **«مختارات من سجلات بومباي»** *Selections from the Bombay Records* (سلاسل جديدة ـ المجلد الرابع والعشرون، بومباي، 1856) يقول تصور تاريخي لمسقط «في وقت متأخر يعود إلى أيار/ مايو 1826، دعا المسيحيون حكومة بومباي بلا طائل، لإقناع سعيد بالاعتراف باستقلال ممباسا» (المؤلف).

5. بعد ذلك بأكثر من نصف قرن، ستورد بريطانيا الحماية التي لم يطل العهد بها، والتي أعلنها أوين في غمار المفاوضات الدبلوماسية، لتبرير مطالبتها بساحل ما أصبح يعرف باسم كينيا (المؤلف).

6. يرد برهان بيفان في **«أوراق برلمانية بريطانية»** *Parliamentary Papers*. المجلد 110 عن الفترة من 1831 إلى 1832 (المؤلف).

7. الاصطلاح «سيدي» Sidi المستمد من الكلمة العربية «سيد» استخدم ابتداء من القرن السادس عشر لوصف الجالية الجانجيرية المؤلفة من الأفارقة في الهند. وفي عام 1668 استولت جماعات من جانجيرا على بومباي من البريطانيين، فدفعت لهم أموال لقاء رحيلهم عنها. راجع: **«بومباي والسيديون»** *Bombay and the Sidis* لمؤلفه د. ر. باناجي D. R. Banaji (بومباي-1932). وفي وقت لاحق أطلق هذا التعبير على كل الأفارقة في الهند، وهو ما يزال يستخدم في باكستان ليعني المنحدرين من أصلاب العبيد السود (المؤلف).

8. تقرير في *The Times* نشر في 3 أيلول/ سبتمبر 1831. وهناك المزيد من التفاصيل في كتاب **«تاريخ البحرية الهندية»** *History of the Indian Navy* لمؤلفه تشارلز ر. لو Charles R. Low (لندن-1877).

9. ترد رواية للسنوات الأخيرة من حياة أوين بقلم ب. ج. كورنيل P. G. Cornell في **«مجموعات جمعية نوفاسكوشيا التاريخية»** *Collections of the Nova Scotia Historical Society* رقم 32 (هاليفاكس-1959).

الفصل الرابع والأربعون

1. البغلات جمع بغلة، وهي كبرى السفن التي استخدمت في الخليج العربي، في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كسفينة تجارية تمخر عباب المحيط الهندي، وتراوحت حمولتها من مئة وخمسين إلى أربعمئة طن، وتجاوزت في حالات نادرة خمسمئة طن، وربما يصل طولها إلى مئة وخمس وثلاثين قدماً. وكانت الأكثر ضخامة منها مكسوة القاع بالنحاس، وغالباً ما احتوت ثلاثة دقلات، ويتم التعرف عليها فوراً من سطحها المرتفع ومقدمتها ذات النوافذ الخمس التي تجملها نقوش بديعة منفذة في خشب الساج الصلب. ويقال إن آخر بغلة صنعت في صور بسلطنة عُمان الشقيقة في عام 1952، وقد نجحت الأبوام في تجاوزها والانتشار بدلاً منها، بحيث لم يعد لها وجود اليوم. ومن المعتقد أنها وليدة استيعاب التقاليد البحرية الخليجية لعناصر التجديد المستمد من السفن الغربية، وربما كانت ترسانات السفن الهندية هي الساحة الكبيرة لهذا اللقاء الفريد، وبخاصة بومباي، ومع التوصل إلى أنماط عملية ثابتة قام صناع السفن الخليجيون بتنفيذها في الخليج بالاستعانة بمواد مجلوبة من شتى أرجاء المحيط الهندي (المترجم).

2. ألقى بعض المعلقين البريطانيين ظلالاً من الشك على رواية روبرتس لوقائع هذا اللقاء، حيث يشيرون إلى أن اللوحة الوحيدة التي رسمت للسلطان (والتي أنجزها فنان هاو، اعتماداً على الذاكرة) تظهره قصير اللحية. صورة في مقدمة كتاب **«سعيد بن سلطان»** *Said bin Sultan*، من تأليف ر. سعيد-روته (لندن-1929). وهذا يتجاهل إمكانية أن يكون السلطان سعيد قد غيّر أسلوب تشذيب لحيته (المؤلف).

3. يورد نورمان ر. بينيت Norman R. Bennett في كتابه **«ملاحظات وسجلات تنجانيقية»** *Tanganyika Notes and Records* المجلدات 56، 57، 60 (دار السلام. 1959-1963) الروايات

المنقحة حول التجارة الأمريكية مع زنجبار في القرن التاسع عشر. وكذلك في كتابه «**تجار نيو إنجلاند في أفريقيا 1802 ـ 1865**» *New England Merchants in Africa, 1802-1865* (بوسطن ـ 1965) (المؤلف).

4. المعاهدة موضَّحة، مع صورة باللغة العربية، في كتاب «**معاهدات الولايات المتحدة ومواثيقها الدولية**» *Treaties and International Acts of the United States* المجلد 3 تحرير هنتر ميللر Hunter Miller (واشنطن ـ 1933) (المؤلف).

5. نشرت رواية هارت نفسه حول زيارته لزنجبار في كتاب «**مختارات من سجلات بومباي 1856**» *Selections from the Bombay Records*. ووضع الحادثة في سياقها ج. س. جراهام G. S. Graham في كتاب «**بريطانيا العظمى في المحيط الهندي 1810 ـ 1850**» *Great Britain in the Indian Ocean, 1810 - 1850* (المؤلف).

6. كانت رانافولانا في هذا الوقت تطرد المبشرين البريطانيين الذين فتحوا مئة مدرسة في مدغشقر، ووزعوا خمسة وعشرين ألف كتاب صلوات مسيحي باللغات المحلية، كما أمرت بإلقاء عدد من المبشرين من فوق صخرة (المؤلف).

7. لا يستطيع المتأمل للأحداث عند هذا المنعطف إلا التساؤل عما إذا لم تكن المبادرة بتوقيع المعاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية هي في جوهرها تحرك سياسي حاذق من جانب السلطان سعيد، استهدف ضمن أمور أخرى الضغط على شركة الهند الشرقية ولفت نظرها إلى عدم ملاءمة قنوات تعاملها مع السلطنة، والإشارة بوضوح إلى وجود بدائل عملية متاحة أمام السلطان في حالة استمرار موقفها اللامبالي بالسلطنة وطموحاتها الإقليمية المشروعة في شرقي أفريقيا (المترجم).

8. ولد تكر Tucker في برمودا في عام 1771 لعائلة تملك أعداداً من العبيد، وكان محافظاً إلى حد بعيد. وفي سنوات لاحقة سيعارض حرية الصحافة في الهند باعتبار أنها يحتمل أن «تثير أفكاراً جديدة» (المؤلف).

9. تظهر وجهات النظر هذه في الرسالة رقم خمسة لعام 1835 ـ من مجلس الهند إلى بومباي (المؤلف).

10. مضى مجلس الهند إلى حد إبلاغ وزارة الخارجية بأنها ينبغي ألا تُجري اتصالاً مع السلطان سعيد «إلا من خلال الحاكم العام في المجلس» (المؤلف).

الفصل الخامس والأربعون

1. هذه الرسالة التي بعثت من مدينة سالم في 31 كانون الأول/ ديسمبر 1841، موجودة في المحفوظات الوطنية بواشنطن (المؤلف).

2. حدثت سقطة أخرى في التعامل مع هدية الملكة فيكتوريا؛ فقد فتح صندوق رسمياً أمام السلطان بحسبان أنه يحتوي على طاقم أدوات مطلية بالفضة لتقديم الشاي، لكنه لم يكن يحتوي إلا على شاهد قبر معد لمدفن بحار بريطاني (المؤلف).

3 . المراسلات المتعلقة بزيارة علي بن ناصر والتعاملات اللاحقة مع السلطان سعيد مدرجة في الملف رقم 3 - FO54/1 بمكتب السجلات العامة بلندن (المؤلف).

4 . طرحت بصورة متكررة منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، وربما استمدت مصدرها منه، فكرة تحسين دخل السلطان إذا تخلى عن تجارة الرقيق (المؤلف).

5 . ربما يتعين علينا أن نلاحظ أن رقم الخمسين ألف أفريقي الذين يمضون عبر سوق الرقيق بزنجبار سنوياً، هو رقم طرح في إطار الشد والجذب المقترنين بمشروع مفاوضات مالية، ومن ثم فإن من الطبيعي أن يعكس مبالغة مستمدة من هذا الإطار الذي طرح فيه (المترجم).

6 . كان الإنجيليون عنصراً قائماً بذاته في النزعة البروتستانتية البريطانية، وقد نشطوا في إطار حركة مناهضة العبودية، والإصرار على إدخال الوثنيين في المسيحية. ويظهر إعلان نوايا إنجيلي تقليدي في تقرير لجنة برلمانية مختارة فيما يتعلق بالسكان الأصليين في عام 1837 «إن من جعل بريطانيا العظمى على ما هي عليه سيسائلنا عن الكيفية التي وظفنا بها النفوذ الذي منحه لنا، في معاملاتنا مع البرابرة غير المتعلمين والمجردين من كل دفاع» (المؤلف).

7 . تعقيب للملازم هـ. ف. دسبراو H. F. Disbrowe مساعد المقيم البريطاني في الخليج العربي في رسالة بعث بها إلى حكومة بومباي في عام 1849 (المؤلف).

8 . على الرغم من إصلاحات ماكولي، فإنه لا يحظى بتوقير الهنود له بسبب ازدرائه للثقافات الآسيوية، ورغبته في إفراز نخبة «هندية الدم واللون، ولكنها إنجليزية الذوق والرأي والأخلاق والذهن» (المؤلف).

9 . أدى دفع الجوائز السخية للبحارة البريطانيين عن كل سفينة رقيق يتم الإمساك بها أو القضاء عليها وكل عبد يتم تحريره وينزل إلى البر على قيد الحياة؛ إلى تنشيط عملية مطاردة السفن العربية التقليدية المبحرة بين أفريقيا وشبه الجزيرة العربية بشكل كبير، وقد أسيء استخدام هذا النظام كثيراً (المؤلف).

10 . كتب بيرجيس عن تجاربه في زنجبار في المجلد السادس والثلاثين (1840) من *Missionary Herald* وهي الصحيفة الناطقة بلسان الكنيسة الأبرشية الأمريكية، التي تتخذ من بوسطن مقراً لها. وقد اختتم تقريره بمقتطف من مذكرة إدموند روبرتس إلى وزارة الخارجية (المؤلف).

الفصل السادس والأربعون

1 . كان جويليان بشكل عام معلّقاً ثاقب النظرة، ويعد كتابه الذي يقع في ثلاثة مجلدات بعنوان **«وثائق حول تاريخ أفريقيا الشرقية وجغرافيتها وتجارتها»** *Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique orientale* أفضل تصوير لشرقي أفريقيا في السنوات الوسيطة من القرن التاسع عشر، وهناك ملف عن ميزان (S 832 / 92 47) موجود في محفوظات البحرية الفرنسية في فنسان بباريس (المؤلف).

2. هناك روايات متضاربة عن كيفية وفاة ميزان ومن الذي قتله. ويقول ريتشارد بيرتون في كتابه بعنوان **«زنجبار: مدينة وجزيرة وساحلاً»** *Zanzibar: City, Island and Coast* إنه قتل على يد الزعيم موزنجيرا. وهو يلقي اللوم بشكل ملغز على تجار زنجبار المسيحيين «مباشرة، بشكل أو بآخر» عن هذه الحادثة (المؤلف).

3. ربما كان المؤلف يلمح هنا إلى أن عدم إقامة بنية تحتية إدارية متماسكة من جانب السلطنة في الساحل الأفريقي ساهمت في توغل الأوربيين في أرجائه وفي زعزعة مطالب زنجبار به. غير أن النظرة الموضوعية تؤكد أن الأطماع الأوربية كانت ستفرض حضورها في الساحل بغض النظر عن الهيكل الإداري أو شكل السلطة القائم فيه، وسواء أكان قبلياً بسيطاً، أو شديد التركيب والحداثة (المترجم).

4. نشر تحذير فريسنل الذي أرسل من جدة في نشرة جمعية باريس الجغرافية ـ المجلد العاشر ـ 1948 (المؤلف).

5. يورد رونالد روبنسون Ronald Robinson وجون جالاجر John Gallagher تقدير ستيفن، المعطى في تموز/يوليو 1840، في كتابهما بعنوان **«أفريقيا والفيكتوريون»** *Africa and the Victorians* باعتباره وجهة النظر الرسمية التي ظلت صامدة حتى الثمانينيات (المؤلف).

6. من الجلي أن هذا القماش يعرف محلياً بهذا الاسم المستمد من الوصف العربي للقماش بأنه «الأمريكي» والذي يحول في العامية إلى «الميركاني» وهي اللفظة الواردة في المتن (المترجم).

7. رسائل وارد Ward القنصلية لوزارة الخارجية الأمريكية موجودة في المحفوظات الوطنية الأمريكية بواشنطن (المؤلف).

8. يناقش مبدأ الضم بالتقادم the "Annexation by Lapse" doctrine في كتاب **«حياة لورد دالوسي»** *Lord Dalhousie* (لندن ـ 1904) لمؤلفه وليم لي وارنر William Lee-Warner (المؤلف).

9. ظهر كتاب هنري وايز Henry Wise الذي لم يحالفه الحظ بعنوان **«تحليل لمئة رحلة من وإلى الهند والصين إلخ»** *Analysis of One Hundred Voyages to and from India, China, etc.,* والذي يدعو إلى السفن الشراعية التي تحركها الطاقة البخارية في العام ذاته الذي انطلقت خلاله السفينة الحديدية العاملة بالطاقة البخارية «نيميسز» والبالغ وزنها 660 طناً والتي أبحرت من بيركنهيد إلى الهند عن طريق الكاب (المؤلف).

10. ترد ملاحظات رافنشتاين في مقدمته لكتاب لودفيج كراف بعنوان **«رحلات وأبحاث وأعمال تبشيرية في شرقي أفريقيا»** *Travels, Researches and Missionary Labours in Eastern Africa* (المؤلف).

الفصل السابع والأربعون

1 . السير ريتشارد فرانسيس بيرتون (1821 ـ 1890) مستكشف وباحث في الأنثروبولوجيا واللغات وأحد أبرز شخصيات عصره. ترك جامعة أكسفورد من دون أن يصل إلى مرحلة التخرج، والتحق بصفوف الجيش الهندي في عام 1842. مضت به رحلاته إلى مكة، وقام بعدة بعثات في أفريقيا والقرم وسولت ليك سيتي، وشغل منصب قنصل بلاده في البرازيل ودمشق وتريستا التي توفي بها. أصدر ما يزيد على أربعين مجلداً من كتب الرحلات؛ أبرزها ما يغطي رحلته إلى مكة والمدينة والبحيرات الأفريقية، إضافة إلى مجلدات عديدة في التراث الشعبي (الفولكلور) وأعمال شعرية تقع في مجلدين. ويتذكره الكثيرون لترجماته لأعمال عالمية لها أفقها الإبداعي الرحب مثل **«ألف ليلة وليلة»** و**«الكاما سوترا»** و**«الروض العطر»**. وربما كان ولعه الذي دام طوال حياته بالأعمال الإروتيكية هو الذي دفع زوجته إيزابيل عقب وفاته إلى إتلاف أوراقه ويومياته، وكذلك مخطوطة ترجمته للروض العطر عن العربية التي أمضى أربعة عشر عاماً في إنجازها (المترجم).

2 . يتم سرد تاريخ حياة كراف العملية في مقدمة كتبها روي بريدجز R. Bridges لطبعة جديدة من كتاب **«رحلات وأبحاث وأعمال تبشيرية في شرقي أفريقيا»**، مرجع سابق (لندن ـ 1968) (المؤلف).

3 . تم تدقيق نص المزمور بالرجوع إلى ص 912 من الكتاب المقدس ـ طبعة جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى (المترجم).

4 . يظل أفضل تقويم لشخصية بيرتون هو ما أورده فاون برودي Fawn Brodie في كتابه **«منعطفات الشيطان»** *The Devil Drives* (لندن ـ 1967). وقد لجأ ضباط الجيش البريطانيون في الهند إلى ممارسة الجلد كعقاب عن أقل الأخطاء شأناً. ويعد بيرتون في هذا الشأن مسايراً لما جرى عليه العرف (المؤلف).

5 . ديفيد لفنجستون (1813 ـ 1873) مبشر ومستكشف. عمل منذ العاشرة من عمره في مصنع للقطن، وعلم نفسه، وحصل على درجة علمية في الطب في عام 1840، وفي العام نفسه التحق بالسلك الكهنوتي، وأبحر إلى رأس الرجاء الصالح. وعلى امتداد الأعوام الثلاثين التالية ارتحل عبر ما يزيد على ثلث قارة أفريقيا، حيث جمع معلومات بالغة الأهمية عن قبائلها وتجار الرقيق فيها. وتشمل مكتشفاته بحيرة نجامي وبحيرة نياسا وشلالات فيكتوريا، وقد انعكس هذا كله في الكتب التي تركها لنا. وخلال بعثته الأخيرة لاكتشاف منابع النيل أنقذه هـ. م. ستانلي حين شارف على الموت في أوجيجي عام 1871. وقد استأنف اكتشافاته ولكنه لم يسترد صحته قط (المترجم).

6 . أبلغ ماكوين الجمعية الجغرافية الملكية أن الليث بن سعيد هو من النمويزي أو («الماثمواز») ولكن هذا ليس بالأمر المحتمل (المؤلف).

7 . تم سرد مناورات القوى الأوربية التي تستهدف إحراز النفوذ في زنجبار بشكل جيد في كتاب من تأليف السير جون جراي Sir John Gray بعنوان **«تاريخ زنجبار منذ العصور الوسطى إلى 1856»** *History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856* (المؤلف).

8. يتم النظر إلى المكائد في صفوف بلاط السلطان سعيد عبر عيون غير أوربية في مذكرات إحدى بناته – وهي إميلي سعيد روته التي فرت مع تاجر ألماني عام 1866 – بعنوان **«مذكرات أميرة عربية»** *Memoirs of an Arabian Princess* تحرير ج. س. بي فريمان – جرينفيل (لندن ـ 1890). وبحسب ما تقوله إميلي (واسمها الأصلي سلمى بنت سعيد) فإن أخاها هلالاً قد نفي «ثم استقطبه المسيحيون والقنصل الفرنسي وقتذاك» (المؤلف).

9. عندما استولى العمانيون على السلطة في زنجبار أطلقوا على سكانها اسم «هديمو» (وهي كلمة سواحيلية تعني العبد) وأجبروهم على قطاف القرنفل، وقطع الخشب، ودفع ضريبة الرؤوس. واعتبر هؤلاء طغاة، وكان التمرد بمنزلة محاولة لم يقدر لها النجاح للتخلص منهم (المؤلف).

10. لم يعلن خبر وفاة هامرتون في *Bombay Gazette* إلا في 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1857. وكان التمرد قد بدأ في 10 أيار/ مايو عندما قتل رجال ثلاثة أفواج من الهنود ضباطهم الإنجليز وزحفوا على دلهي (المؤلف).

الفصل الثامن والأربعون

1. من المؤكد أن كون استخدام كلمة «استكشاف» بهذا الصدد أمراً مبرراً هو – خلافاً لما يذهب إليه المؤلف – أمر موضع مناقشة، وهذا الاستخدام لا يعدو أن يكون انعكاساً لثقافة ترى أوربا مركزاً وحيداً والعالم بأسره مجرد هامش لهذا المركز. ومن المؤكد أن من العبث على سبيل المثال القول بأن داجاما قد «استكشف» الهند، فهذه أرض وشعوب عرفت الحضارة قبل ألوف السنين من دخول المسيحية البرتغال، وبالتالي فإن السؤال هو: أي استكشاف بالضبط هذا الذي نتحدث عنه؟ ومن منظور من؟ (المترجم).

2. تبدو هذه المشاعر في مقدمة كتاب سبيك بعنوان **«يوميات اكتشاف منابع النيل»** *Journal of the Discovery of the Source of the Nile* (المؤلف).

3. ترد إضاءات عديدة لآثار الواردات المصنعة على الحياة الأفريقية في كتاب **«التجارة الأفريقية ما قبل الاستعمار»** *Pre-Colonial African Trade*، تحرير ريتشارد جراي Richard Gray وديفيد برمنجهام David Birmingham (المؤلف).

4. راجع: **«سرد يوميات رحلة إلى شوا»** من تأليف دبليو. سي. باركر W. C. Barker في: **«رحلات ويوميات محفوظة في أمانة سر بومباي»** *Travels and Journals Preserved in the Bombay Secretariat*، تحرير جي. دبليو. فوريست G. W. Forrest (المؤلف).

5. إذا كانت نسب محتويات البارود غير صحيحة، وبصفة خاصة إذا كان هناك أكثر مما ينبغي من نترات البوتاسيوم، فإن البندقية تنفجر. وعلى أي حال فإن «البنادق الأفريقية» المنتجة في برمنجهام كانت تنفجر. ومن المؤكد أنها لم تكن مناسبة لاصطياد الطرائد الكبيرة. وفي عام 1865 كانت البنادق ذات الزناد المصنوع من الصوان تباع في أفريقيا مقابل ستة جنيهات استرلينية أو ما يعادل تسعة دولارات للبندقية الواحدة (المؤلف).

6. غير أن البنادق مضت تشق الآن طريقها إلى أفريقيا من جهات عديدة بحيث استحال على عرب زنجبار السيطرة على المعروض منها (المؤلف).

7. تتمثل مساهمة حديثة في هذا النقاش في مقال بعنوان «هل للمفكيني مستقبل؟» بقلم جي. د. أوميركوبر. ورد في: *Journal of Southern African Studies*ـ المجلد التاسع عشر (جوهانسبرج ـ 1993) (المؤلف).

8. قام ستيفن تيلور Stephen Taylor بإيضاح مسار الحياة العملية لطاغية الزولو ومعاملاته مع التجار البيض في كتابه «**أطفال شاكا**» *Shaka's Children* (لندن ـ 1994) (المؤلف).

9. قام ليروي فيل Leroy Vail بتحليل تأثير النجوني في مقالة بعنوان «تشكيل الشمال الميت» الوارد في كتاب «**قبل شاكا وبعده**» *Before and After Shaka* من تحرير جي. ب. بيرز J. B. Peires (جراهامزتاون ـ 1981) (المؤلف).

10. ترد رواية لفنجستون للشجار الذي نشب بين رجال لاسيردا ومجموعة أخرى من الزوار للملك كازيمبي في كتابه «**يوميات أخيرة**» *Last Journals* **المجلد الأول (لندن ـ 1874)** ويشار إلى هؤلاء الزوار على أنهم «أوجيجان» وهو ما يعني أنهم من الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة تنجانيقا. وقد أصبحت أوجيجي مركزاً تجارياً عربياً. ولكن من المؤكد أن ذلك لم يكن قد حصل بعد في عام 1798 عندما كان لاسيردا مع كازيمبي (المؤلف).

11. من الجلي أن المؤلف يناقض نفسه هنا، حيث يشير إلى نزعة استعمارية مراوغة وزاحفة عند العرب، بينما كان قد أشار في فصل سابق إلى أن السلطان سعيد رفض أن يقيم إدارة تكفل استعمار الساحل، وأن عائلته ستدفع ثمن ذلك غالياً (المترجم).

الفصل التاسع والأربعون

1. عندما نتأمل هذا القول من جانب السير ريتشارد بيرتون، فإننا نجده خلافاً لما يوحي به ظاهره، إشادة حقيقية بالسلطان سعيد، فقد كان بيرتون يكن قدراً ليس باليسير من التحامل على العرب والهنود والأفارقة، ولكن كتبه تحمل هجوماً ضارياً على العرب بشكل خاص، وهذا القول الوارد في المتن يجب أن يفهم في هذا الإطار (المترجم).

2. امتلك أبناء السلطان جميعاً مزارع كذلك. وتصف «إميلي سعيد روته» في «**مذكرات أميرة عربية**» (مصدر سابق) الانطلاق بالجياد عبرها «لساعات» مع أختها زمزم (المؤلف).

3. من حق القارئ أن يتساءل: «من أين أتى المؤلف بهذه الأرقام على وجه الدقة؟ وربما كانت هذه الأرقام مما يتداوله خصوم السلطان سعيد الذين لا ينقصهم التعدد، ويحاولون من خلالها الإساءة إلى باني إمبراطورية وشخصية تاريخية بارزة مثله، أو ربما كانت مما يطرحه بعض كتاب التقارير في الإدارات المعنية بأفريقيا في حكومة الهند البريطانية، والتي تفتقر يقيناً إلى الدقة والمصداقية معاً (المترجم).

4. وصف كوبلاند Coupland محاولة برغش الانقلابية في كتابه «**شرق أفريقيا وغزاته**» *East Africa and its Invaders*، مرجع سابق (المؤلف).

5. رسالة ريجباي - جرانت - 5 كانون الثاني/ يناير 1865 - في المكتبة الوطنية الاسكتلندية - رقم 17910 (المؤلف).

6. كان ريجباي متحيزاً بصورة تقليدية حيثما يتعلق الأمر بالهنود. وقد كتب إلى جرانت في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1864 معرباً عن شكواه من أن «أحد البانيان البدناء» قد عين قاضياً في محكمة بومباي العليا، التي خولت سلطة رفض أحكام القضاة وقرارات المدعين الإنجليز (المؤلف).

7. تكشف يوميات ريجباي المخاوف المسيطرة على البريطانيين حول النوايا الفرنسية في زنجبار وغربي المحيط الهندي بشكل عام (المؤلف).

8. كمؤشر لتغير العصر استخدم سالم بن ثويني المسدس بدلاً من الخنجر التقليدي (المؤلف).

9. تاريخ دار السلام، تأليف سي. جيلمان C. Gillman في «**ملاحظات تنجانيقا وسجلاتها**» *Tanganyika Notes and Records* - رقم 20 (دار السلام - 1945) (المؤلف).

10. غطيت زيارة برغش في *The Times* و*Pall Mall Gazette* وغيرهما من الصحف اللندنية خلال شهري حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو 1875. وقد أعيد نشر تقاريرهما في صحف تنشر في مناطق تمتد إلى القسطنطينية (المؤلف).

11. رسالة كيرك لوجارد - 7 كانون الثاني/ يناير 1902 في أوراق لوجارد - الإمبراطورية البريطانية س 69 (دار رودس - أكسفورد) (المؤلف).

12. أعيد سرد زيارة فرير بصورة متدفقة بالحيوية في كتاب عبدالشريف بعنوان «**العبيد والتوابل والعاج في زنجبار**» *Slaves, Spices and Ivory in Zanzibar* (المؤلف).

الفصل الخمسون

1. الرواية المعروفة بشكل أكبر لهذه الرحلة (التي بعث سبيك في نهايتها ببرقية إلى الجمعية الملكية الجغرافية يقول فيها «موضوع النيل حسم» ترد في كتاب آلان مورهيد Alan Moorhead بعنوان «**النيل الأبيض**» *The White Nile* (لندن - 1960) (المؤلف).

2. اقتطف كاليه - لونج بشكل يحمل الموافقة في مقدمته نقلاً عن الجغرافي الفرنسي فيكتور مالتي - برون قوله إن أفريقيا هي الجزء الأخير من العالم الذي «ينتظر على أيدي الأوربيين اقتران التشريع والثقافة الذي يحظى بالترحيب» (المؤلف).

3. توجد مواد سبيك الأصلية المتعلقة بتجاربه في أوغندا، والمراسلات المتصلة بها في المكتبة الوطنية الاسكتلندية (بلاكوود - رقم 4872) (المؤلف).

4 . ناقش روبرت إي . فانشر Robert E. Fancher الجدل العرقي بين «القائلين بتعدد الزوجات» و«القائلين بأحادية الزوجات» وتأثير فرانسيس جالتون، مؤلف كتاب **«جنوب أفريقيا الاستوائية»** *Tropical South Africa* (1853) وذلك في بحث «إثنوجرافيا فرانسيس جالتون الأفريقية ودورها في تطوير سيكولوجيته»، *British Journal for the History of Science* رقم 16 ـ 1983 (المؤلف).

5 . تعامل سبيك مع البنادق طوال عمره، وإذا كان قد قدر له الموت في غمار حادثة تدور حول بندقية (حيث أطلق على نفسه مباشرة تقريباً النار فاخترقت قلبه) فإنها كانت مصادفة مثيرة للدهشة أن يحدث ذلك في اليوم ذاته الذي كان من المقرر أن تجري فيه المناقشة مع بيرتون (المؤلف).

6 . سبق الإسلام المسيحية بربع قرن في الوصول إلى أوغندا، التي وصل إليها التاجر الزنجباري أحمد بن إبراهيم، وذلك في عام 1844 (المؤلف).

7 . من المؤسف حقاً أن المؤلف هنا لا يحيلنا إلى المصدر الذي استقى منه ما يشير إليه حول «تهديد» المصريين بغزو مناطق البحيرات الكبرى انطلاقاً من السودان وأعالي النيل (المترجم).

8 . كان نيو صانع أحذية قبل الوصول إلى أفريقيا في عام 1862، وله وجهات نظر مختلفة بشكل ملحوظ عن وجهات نظر ضباط مثل كاليه ـ لونج وكتب يقول: «أفريقيا للأفارقة، والأفريقيون لأفريقيا ينبغي أن يكون شعار جميع من يتمنون الخير لهذه البلاد ولهؤلاء البشر» (المؤلف).

9 . تضم سيرة الحياة التي كتبها نورمان بينيت Norman Bennett بعنوان **«ميرامبو التنزاني»** *Mirambo of Tanzania* معاً مواد من مصادر متفرقة. وتظهره لوحات في كتاب جيروم بيكر Jerome Becker **«الحياة في أفريقيا»** *La Vie en Afrique* وصورة التقطها مبشر بريطاني هو الراهب دبليو. جي. ولوباي W. G. Willoughby «نابليون الأسود» باعتباره شخصاً يميل إلى التفكير، وتبدو عليه علامات الأنفة والكبرياء (المؤلف).

10 . تيبو تيب (الذي يكتب اسمه بأشكال متعددة) يظهر في ثلاثة من كتب ستانلي، وتقدم سيرته الذاتية وسيرة الحياة التي كتبتها عنه ليدا فارانت Leda Farrant صورة متكاملة له. وأكثر الدراسات التي كتبت عنه استفاضة هي بعنوان **«تيبو تيب»** *Tippo Tip*. وألفها ف. رينو F. Renault (باريس ـ 1987) (المؤلف).

الفصل الحادي والخمسون

1 . من المؤكد أن القارئ سيتوقف عند هذا التعبير طويلاً، ولا يتردد في اعتباره مفارقة تاريخية بالمعنى الحقيقي لهذا الاصطلاح. والمرء لا يحتاج إلا إلى إلقاء نظرة سريعة على هوية قائله لكي يعرف مصدر هذا التحيز ضد العرب الذي يقلب الحقائق التاريخية رأساً على عقب (المترجم).

2 . ربما كان من المفارق للدقة بشكل جلي الحديث هنا عن نظام إقطاعي في شرقي أفريقيا في هذه المرحلة (المترجم).

3. تميل كتب عديدة في الغرب إلى تقديم الخديوي إسماعيل باعتباره رجل مصر المفلس، ويتجاهل مؤلفو هذه الكتب الدور التاريخي الكبير الذي قام به الرجل في تحديث مصر، كما يضربون صفحاً عن أن مصر تعرضت في هذه الفترة لعملية نهب حقيقية من الأجانب، وعلى رأسهم أعداد كبيرة من الفرنسيين والإنجليز (المترجم).

4. الحجة بأن قناة السويس قد أصبحت الحلقة الأقوى في السلسلة التي تربط الهند ببريطانيا طرحها بقوة ك. م. بانيكر K. M. Panikker في: *India and the Indian Ocean* (المؤلف).

5. ربما كان هذا تقديراً مبالغاً فيه، على الرغم من أن صادرات العبيد العربية من شرقي أفريقيا قد تكون وصلت إلى ثلاثين ألف عبد سنوياً، في سبعينيات القرن التاسع عشر. وفي ذلك العقد بلغ عدد العبيد في زنجبار ما يزيد على مئة وثمانين ألف عبد من إجمالي عدد سكان يزيد قليلاً على مئتي ألف نسمة. راجع: "A Quantitative Assessment of the Arab Slave Trade of East Africa"، إزمـــوند ب. مـــارتـن Esmond B. Martin وتي. سي. آي ريان T. C. I. Ryan في: *Kenya Historical Review*ـ المجلد الخامس (نيروبي ـ 1977) (المؤلف).

6. من الواضح أن التقارير البريطانية تميل إلى المبالغة في تقدير أعداد العبيد، وذلك لفرض المزيد من الضغوط على السلطان سعيد وعلى حكام الخليج وشبه الجزيرة بشكل عام، الذين تزعم التقارير البريطانية أن هؤلاء العبيد كانوا يباعون في بلادهم (المترجم).

7. عانى برغش في شبابه من ورم كبير في صفنه، وربما كان هذا الورم قد عولج جراحياً بنجاح في بومباي أو لندن (المؤلف).

8. «تداخلت حياتا كيرك والسلطان برغش على امتداد ستة عشر عاماً. وكان كيرك متراس سلطة برغش وأداة إضعافها». جون. س. جالبريث في كتاب **«ماكينون وشرقي أفريقيا 1878 ـ 1895»** *Mackinnon and East Africa, 1878 - 1895* (المؤلف).

9. جنرال تشارلز جورج جوردون (1833 ـ 1885) ولد في وولويتش وتلقى تعليمه في سومرست، والتحق بالأكاديمية العسكرية الملكية في 1848، ثم التحق بصفوف سلاح المهندسين الملكي، بعد ذلك بأربع سنوات، وشارك بعمليات عسكرية في القرم والصين والسودان، حيث أحرز ثلاثة وعشرين انتصاراً في الصين، وما لبث أن تولى قيادة سلاح المهندسين عام 1865. وفي عام 1874 التحق بخدمة الخديوي بتصريح من الحكومة البريطانية، وعين حاكماً عاماً للسودان في 1877. واستقال من منصبه في عام 1880. وما لبثت بريطانيا التي كانت قد احتلت مصر في عام 1882 أن أعادته إلى السودان حيث حاصرته الحركة المهدية في الخرطوم، حتى لقي مصرعه في 26 كانون الثاني/ يناير 1885، قبل يومين من وصول الإمدادات التي أرسلت لإنقاذه (المترجم).

10. حول العواقب بالنسبة إلى زنجبار، راجع: "Kirk and the Egyptian Invasion of East Africa in 1875 – a Reassessment" بقلم إي. آر. تورتون، *Journal of African History*ـ مجلد 11 ـ 1970 (المؤلف).

11 . سيتم تفهم شخصية ليوبولد ودوافعه بشكل أفضل مع بداية القرن العشرين، وبصفة خاصة من خلال جهود إدموند موريل Edmund Morel والبراهين مجموعة في كتاب: *The King Incorporated: Leopold the Second in the Age of Trusts* (لندن ـ 1963) تأليف نيل آشرسون Neal Ascherson (المؤلف).

12 . رحب ميرامبو في عام 1878 ببعثة يقودها المبشر جي. ب. تومسون. وقد أهاب هنري ستانلي بالجمعية التبشيرية اللندنية أن ترسل بعثة تستقر في أورامبو (المؤلف).

13 . ستقوم بريطانيا في وقت لاحق بمنح ماثيوز أحد ألقاب النبالة ورتبة جنرال. وقد كتب روبرت لاين Robert Lyne سيرة حياته في كتاب بعنوان *An Apostle of Empire* (لندن ـ 1936) (المؤلف).

14 . كان بعض سفن ماكينون البخارية قد تم استخدامه بصورة مربحة في نقل الإمدادات إلى البحر الأحمر لمعاونة الحملة البريطانية لإطاحة الإمبراطور الأثيوبي ثيودور في عام 1868، وربما شجعه هذا على إدراك الإمكانيات المتاحة في أفريقيا (المؤلف).

15 . من المهم أن نلاحظ هنا أن الضمير عائد على ماكينون، وليس على الكلام الذي يقال لكيرك (المترجم).

16 . كيرك ـ والر Kirk-Waller ـ 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1878 (أوراق والر ـ دار رودس ـ أكسفورد) (المؤلف).

الفصل الثاني والخمسون

1 . في وقت مبكر يعود إلى عام 1870، سيطر الإيطاليون على ميناء عصب المطل على البحر الأحمر (المؤلف).

2 . راجع: "Nyunga-ya-Mawe and the "Empire of the Rugu-Rugas"" بقلم أ. شورتر A. Shorter، (*Journal of African History*ـ المجلد التاسع ـ 1968) (المؤلف).

3 . قلب إمبراطورية ميرامبو خال من السكان الآن بسبب مرض النوم، ولكن أطلال عاصمته كان مايزال من الممكن تبينها وسط الأدغال في الستينيات ـ سوتون (مرجع سابق) (المؤلف).

4 . أوتو فون بسمارك (1815 ـ 1898) لقب بالمستشار الحديدي، وتنسب إليه المقولة الشهيرة بأنه سيعتمد كل وسائل «الدم والحديد» لتكوين ألمانيا الجديدة الموحدة. ويعد أبرز سياسي ألماني في القرن التاسع عشر. وقد حقق كل أحلامه التي انطلق لتجسيدها حول ألمانيا موحدة بقيادة بروسيا، وذلك بتتويج ملك بروسيا إمبراطوراً لألمانيا في 1871، وحرص عقب ذلك على الحفاظ على السلم بإقامة نظام من التحالفات، عرف بعصبة الأباطرة الثلاثة؛ بين ألمانيا والنمسا وروسيا. وعلق الآمال على أن هذا سيمنع فرنسا من شن حرب انتقامية على ألمانيا، والحيلولة بين الروس والنمسا وبين الدخول في المزيد من الصدامات. وتعطي سياسته في أفريقيا صورة واضحة لمنهاجه في العمل السياسي وتحقيق أهدافه بمزيج من الحرب والدبلوماسية. وقد اضطر إلى الاستقالة من

منصبه في عام 1890 لأن الإمبراطور الجديد وليم الثاني وجد سياساته الداخلية والخارجية أكثر اتساماً بالحذر مما ينبغي (المترجم).

5. يقع اللوم عليه بصورة مباشرة لعدم قيامه بإجهاض تحركات بيترز. وقد كتب الرحالة البريطاني هـ. هـ. جونستون في تموز/ يوليو 1884 من منطقة كليمنجارو، يقول: «ها هنا أرض مناسبة إلى حد كبير للاستعمار الأوربي». وحذر من أنه إذا لم تستول بريطانيا عليها فإن الفرنسيين أو الألمان سيبادرون إلى القيام بذلك. وأراد وزير الخارجية البريطانية لورد جرانفيل أن يقوم السلطان بمد حدوده في الداخل لحماية المنطقة. ولدى مغادرة جونستون، وصل بيترز. راجع: "Clement Hill's Memorandum and the British Interest in East Africa" بقلم موريل تشمبرلين Muriel Chamberlain (*English Historical Review*) ـ المجلد 87 ـ 1972) (المؤلف).

6. سقطت الخرطوم في أيدي المهديين في هجوم شنوه فجر 26 كانون الثاني/ يناير 1885، قبل ثمان وأربعين ساعة من وصول الإمدادات المرسلة إلى جوردون من مصر، ويحمله الكثير من المؤرخين المسؤولية مباشرة عن سقوط المدينة بسبب إساءة تقديره لقوة خصومه (المترجم).

7. هناك صورة صريحة للمبادرة الألمانية في شرقي أفريقيا رسمها هلموت شتوكر Helmuth Stoecker في **«الإمبريالية الألمانية في أفريقيا»** *German Imperialism in Africa*. لمنظور أكثر اتساعاً، راجع: توماس بيكنهام T. Pakenham في كتابه الصرحي **«التسابق على أفريقيا»** *The Scramble for Africa* (لندن ـ 1991) (المؤلف).

8. تمثّل تفسير إميلي روته لزيارتها في أنها أرادت المطالبة بإرثها المالي. **«مذكرات أميرة عربية»**، مصدر سابق (المؤلف).

9. التقى تيبو تيب عدداً كبيراً للغاية من الأوربيين في الداخل الأفريقي في العام السابق، إلى حد أنه لابد قد أحس بأن الأحداث تنزلق بعيداً عن سيطرة السلطان برغش. ولكن حتى بعد عودته إلى البر الأفريقي، كتب إليه السلطان برغش بصورة متكررة داعياً إياه إلى التمسك بأراضيه (المؤلف).

10. هوراشيو هربرت كتشنر (1850 ـ 1916) تلقى تعليمه في أيرلندا حيث ولد، والتحق بالأكاديمية العسكرية الملكية في وولويتش، وانضم إلى سلاح المهندسين الملكي. برز اسمه في السودان، حيث قاد القوات البريطانية في معركة أم درمان في 1898 واسترد الخرطوم من المهديين. وتولى قيادة الجيش البريطاني خلال حرب البوير. وفي 1902 أرسل لقيادة الجيش في الهند، وخدم في وقت لاحق في مصر والسودان. ولدى اندلاع الحرب العالمية الأولى في 1914 أصبح عضواً في الحكومة البريطانية ورقي إلى رتبة فيلد مارشال. وكما عاش حياته بالسيف، فقد مات به، حيث لقي حتفه في عام 1916 عندما أدى انفجار لغم ألماني إلى إغراق الطراد «هامشاير» الذي كان يقله في طريقه لإنجاز مهمة في روسيا (المترجم).

الفصل الثالث والخمسون

1. لحل مشكلة الشكوك الأخلاقية التي تدور حول احتلال القارة، تعين القيام بصورة مؤقتة بـ «نزع الطابع الإنساني» عن الأفارقة. وكأحد جوانب هذه العملية، تم إنكار نسبة الفضل إليهم في تشييد زيمبابوي الكبرى، أو تكوين كنوز بنين التي استولى عليها البريطانيون في غربي أفريقيا. راجع كتاب آني إي. كومبس Annie E. Coombes بعنوان **«إعادة اختراع أفريقيا»** *Reinventing Africa* (نيوهافن ـ 1994) (المؤلف).

2. يصف ستانلي لقاءه بالسلطان الذي سيطر عليه المرض في المجلد الأول من كتابه **«في أفريقيا الأكثر سواداً»** *In Darkest Africa* (المؤلف).

3. ترد صورة للبوشهري وموجز لحملته في المجلد السابع من الكتاب الذي أصدرته منظمة التربية والعلوم والثقافة التابعة للأمم المتحدة (اليونسكو) بعنوان **«تاريخ أفريقيا العام»** *General History of Africa* أما أكثر الروايات اكتمالاً حول مقاومة الاحتلال الألماني فهي تلك التي قدمها جون لايف John Iliffe في كتابه **«تاريخ تنجانيقا الحديث»** *A Modern History of Tanganyika* (كامبردج ـ 1979) (المؤلف).

4. يرد إيضاح لأيام البوشهري الأخيرة مع صورة له قبيل إعدامه، في بحث آر. أ. بيكر R. A. Becker بعنوان «القبض على الزعيم المتمرد البوشهري وموته» ترجمة إيريس ديفيز (ملاحظات تنجانيقا ومذكراتها ـ رقم 60 ـ 1964) (المؤلف).

5. انتهت مقاومة النمويزي في نهاية المطاف في عام 1894، وهو العام الذي أعقب وفاة إيسيك (شتوكر في كتابه **«الإمبريالية الألمانية في أفريقيا»**، مرجع سابق) ولكن في كتاب رولاند أوليفر Roland Oliver بعنوان **«التجربة الأفريقية»** *The African Experience* يوضع مدى المقاومة السوداء موضع التساؤل «لم يكن الغزو في حقيقة الأمر، إلا جانباً واحداً من عملية تسلل بطيئة، كان جانب كبير منها خالياً من سفك الدم» (المؤلف).

الفصل الرابع والخمسون

1. كان هولمود داعية لا يكل للاستيطان البريطاني في شرقي أفريقيا، وفي عام 1879 دعا غرفة تجارة مانشستر إلى الاستفادة من الفرص المتاحة هناك. وفي عام 1884 كان قد أيد دعوة جونستون إلى احتلال إقليم كليمنجارو. وفي عام 1886 خلف كيرك في منصب القنصل البريطاني في زنجبار، ولكن تم إبعاده عن هذا المنصب بعد عام واحد، بسبب آرائه المناوئة للألمان التي أغضبت بسمارك، ثم أرسل لكتابة تقرير حول «إمكانيات المنطقة البريطانية» (FO 84 / 122) – مكتب السجلات العامة بلندن (المؤلف).

2. وجهة النظر هذه، التي تحمل عداء لا يخفى عن العين للعرب والمسلمين، تتحدث عن احتلال للساحل من قبل المسلمين، بينما الحقيقة التاريخية أن المسلمين لم «يحتلوا» الساحل قط. وحتى وجودهم في شكل تجمعات سكنية ظل، إلى حد كبير، قاصراً على الجزر ومناطق محدودة للغاية

وذات طبيعة تجارية على الساحل، وخاصة في الموانئ، وبالتالي فإن هذا التبرير لـ «تخلف» الداخل الأفريقي ينهار من أساسه (المترجم).

3. ترد أكثر الصور شمولاً لحياة لوجارد العملية في كتاب مارجري بيرهام Margery Perham بعنوان **«لوجارد: سنوات المغامرة 1858-1898»** *Lugard: the Years of Adventure, 1858 - 1898* وتوجد وجهة نظر أفريقية في كتاب س. ر. كاروجاير S. R. Karugire بعنوان **«تاريخ أوغندا السياسي»** *A Political History of Uganda* (نيروبي-1980) (المؤلف).

4. تدور الطرفة المشار إليها في المتن حول التقابل بين مفهوم الحقائق المسيحية وبين اسم المدفع الرشاش من طراز ماكسيم، حيث يعني هذا الاسم، في اللغة الإنجليزية، الحقيقة (المترجم).

5. رسالة بيكر مؤرخة في 22 جزيران/ يونيو 1890 (المكتبة الوطنية الاسكتلندية - 17931) (المؤلف).

6. ترد صياغة كينيث إيجام Kenneth Igham المتعلقة بالعهد الاستعماري لأعمال لوجارد في كتابه **«تشكيل أوغندا الحديثة»** *The Making of Modern Uganda* (لندن-1958) والتي تتناقض مع تقويم إيغام الأوضح في **«التسابق على أفريقيا»**، مصدر سابق، الصادر في عام 1991 (المؤلف).

7. يمحص كتاب **«رواندا أوروندي»** *Ruanda-Urundi* لمؤلفه دبليو. ر. لويس W.R. Louis أصول المستعمرتين سيئتي الطالع، اللتين أصبحتا عند استقلالهما رواندا وبوروندي (المؤلف).

8. لم تستعد بريطانيا حكم السودان لمصر، وإنما تم فرض ما عرف باسم الحكم الثنائي، والذي كان في حقيقة أمره حكماً فردياً من جانب الإمبراطورية البريطانية لكل من مصر والسودان كمستعمرتين تابعتين للتاج البريطاني (المترجم).

9. على الرغم من أن الخسائر الناجمة عن الحمى والحوادث والأسود، التي تلتهم لحوم البشر كانت كبيرة في عملية بناء سكة حديد أوغندا، فإن هذه الخسائر ما كانت لتوضع موضع المقارنة مع الخسائر البشرية التي تم تكبدها في سكة حديد الكونجو-المحيط، والتي تمتد إلى ساحل الأطلسي. ففي الفترة من 1890-1892 حدث حوالي تسعمئة حالة وفاة خلال مد تسعة كيلومترات فقط، أي بمعدل خسارة إنسان مقابل كل عشرة أمتار من الخط. جوزيف ك. زيبرو Joseph K. Zebro في *Présence Africaine* رقم 11-1957 (المؤلف).

الفصل الخامس والخمسون

1. تعقدت الجهود المبذولة للسيطرة على ساحل «المنطقة البريطانية» بفعل وجود محمية ويتو الألمانية التي لم يطل العهد بها، والواقعة إلى الجنوب من لامو. وقد تم التخلي عن هذه المحمية في عام 1890، ولكن في عام 1893 قام القنصل في زنجبار رينيل رود بقيادة قوة تأديبية قوامها مئتان وخمسون رجلاً لاستعادة منطقة للسلطان من يد زعيم متمرد. وفي وقت لاحق وجد البريطانيون أنفسهم قد وقعوا في غمار حرب عصابات يقودها أحفاد المزاريع الذين حكموا ممباسا في وقت من

الأوقات. راجع كتاب **«أبناء حام»** *Children of Ham* لمؤلفه فريد مورتون Fred Morton (بولدر - كولورادو - 1990) (المؤلف).

2. كانت هذه نبوءة تستند إلى معلومات دقيقة، ففي أيلول/ سبتمبر تمت مصادرة ممتلكات اثني عشر من الأثرياء العرب (المؤلف).

3. كانت ظاهرة الاختلال في أعداد الضحايا مألوفة في الصراعات الاستعمارية، فقد لقي ألف من النداببلي مصرعهم، مقابل مصرع خمسة من البيض في أثناء المعارك في عام 1893 إبان احتلال روديسيا (المؤلف).

4. قام جون لونسديل John Lonsdale وتيامبي زيليزا Tiyambe Zeleza بتقويم السنوات الأولى من الحكم الاستعماري في كتاب **«تاريخ كينيا الحديث»** *A Modern History of Kenya*. تحرير دبليو. ر. أوتشينج W. R. Ochieng (لندن - 1989) (المؤلف).

5. قتل ما يقدر بخمسة وسبعين ألف شخص خلال تمرد الماجي - ماجي، في الأعوام 1905 - 1907 في تنجانيقا (المؤلف).

6. يتضمن كتاب ماينرتزاجن بعنوان **«مذكرات كينية»** *Kenya Diary* (لندن - 1983) مقدمة كتبتها إي. هكسلي Elspeth Huxley تبدأ بالقول: «سيكون مما لا طائل فيه أن ندعي بأن هذا كتاب يدعو للسرور، أو أن مؤلفه يبدو فيه شخصية عطوفة» (المؤلف).

7. استقر المزارعون البوير كذلك في مرتفعات البيض اعتباراً من عام 1905. وقد عادوا إلى جنوب أفريقيا قبل الاستقلال، باستثناء قلة تعد على الأصابع، في عام 1963 (المؤلف).

الخاتمة

1. بول روبسون (1898 - 1976) ممثل ومغن أمريكي من أصل أفريقي، ظهر على خشبة المسرح للمرة الأولى في عام 1921. وتألق في عام 1924 في دور جيم هاريس في مسرحية أونيل **«كل أبناء الرب تنبت لهم أجنحة»** وكذلك في دور بروتوس جونز في **«الإمبراطور جونز»** للمؤلف نفسه. لعب دور البطولة في **«عطيل»** لشكسبير وتحولت إلى أطول عرض يقدم على مسرح برودواي حتى ذلك الحين (1943)، ومن أدواره البارزة دور يانك في مسرحية أونيل **«القرد المشعر»** (1931). قام بدور كبير في خدمة قضايا الأمريكيين من أصل أفريقي، ومن سوء الطالع أن زيارته لروسيا في عام 1963 كشيوعي ملتزم قد أثارت ضجة كبرى وجدلاً حامياً في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، وكذلك الحال بالنسبة إلى إعلانه الصريح لآرائه في كتابه الصادر في عام 1958 بعنوان **«ها هنا أقف»** (المترجم).

2. يتم وصف لقاء روبسون وكينياتا خلال تصوير فيلم *Sanders of the River* (في موقع للتصوير في قرية كونجولية، أعيد إنشاؤها في استوديوهات شبيرتون بإنجلترا) في كتاب مارتن بومل دوبرمان Martin Bauml Duberman بعنوان **«بول روبسون»** *Paul Robeson* (نيويورك - 1989) ولن يتحدث كينياتا أبداً عن دوره في الفيلم (المؤلف).

3. جومو كينياتا (1894 ـ 1978) أول رئيس وزراء لكينيا المستقلة، ورئيسها في وقت لاحق. ولد في اتشاديري لأبوين من قبيلة الكيكيو وتلقى تعليمه في مدرسة يديرها مبشرون من كنيسة اسكتلندا. انخرط في العمل السياسي ومضى إلى أوربا حيث أمضى هناك سبعة عشر عاماً ودرس لمدة عامين في جامعة موسكو ودرس الأنثروبولوجيا في لندن. وصدرت أطروحته عن طريقة حياة قبائل الكيكيو في كتاب في عام 1938 بعنوان **«في مواجهة جبل كينيا»**، وتأثر بعمق بالأفكار التي طالما تنبأ بها، لتأخذ صورة انتفاضة الماو ماو في عام 1952 وسجن بتهمة إدارة منظمة لأعمال العنف في إطار الانتفاضة، وخلال سجنه انتخب رئيساً لاتحاد كينيا الوطني الأفريقي. ولدى إطلاق سراحه تفاوض على استقلال بلاده في عام 1963. وتولى منصب رئيس الوزراء وأصبح رئيساً لكينيا بعد عام واحد، وارتبط اسمه بحركة الاستقلال الأفريقية التي أصبح أحد أبرز قادتها (المترجم).

4. بنيتو موسوليني Benito Mussolini (1883 ـ 1945) زعيم الحركة الفاشية في إيطاليا، ولقب بـ«الدوتشي». بعد المسيرة إلى روما في تشرين الأول/ أكتوبر 1922، أصبح رئيس وزراء الحكومة الائتلافية (1922 ـ 1943)، وفي عام 1925 غدا دكتاتوراً، وتحول الحزب الفاشي إلى الأداة الرسمية الوحيدة للسلطة السياسية، واتبع سياسة قوامها تحقيق الاكتفاء الذاتي اقتصادياً، وإعادة التسلح جنباً إلى جنب مع محاولات لتحقيق طموحات استعمارية كبيرة، على نحو ما بدا في الغزو الإيطالي للحبشة في 1935 ـ 1936. وتحالف مع هتلر في إطار ما عرف بمحور برلين – روما في عام 1936. وبعد سقوط فرنسا في عام 1940 دخل الحرب حليفاً لألمانيا، ولكنه أجبر على الاستقالة في عام 1943، حيث تم إعدامه لتحالفه مع ألمانيا على يد حركة الأنصار الإيطالية المسلحة المقاومة للفاشية (المترجم).

5. بعد محاولة لاغتيال نائب الملك الإيطالي المارشال جرازياني، تم قتل سبعة وثلاثين ألف إثيوبي في مذبحة في أديس أبابا، في شباط/ فبراير 1937 (المؤلف).

6. من المؤكد أنه من غير الإنصاف الاكتفاء بوصف الزعيم العربي جمال عبدالناصر بأنه «القائد العسكري المصري»، فحتى في هذه المرحلة المبكرة من مسيرته الطويلة، كانت قد بدت بوضوح الملامح الكارزمية التي ستجعل منه في وقت لاحق واحداً من أبرز القادة السياسيين في العالم الثالث. وعلى الرغم من أن الحكم يبقى للتاريخ وللأجيال المقبلة في حسم الجدل الذي يبرز بين الحين والآخر حول تقويم مجمل إنجازاته، فإن عمق الخلافات التي تدور حوله يبقى مؤشراً على الأهمية التاريخية الكبيرة التي يتمتع بها (المترجم).

7. راجع كتاب ريتشارد هول Richard Hall وهيو بيمان Hugh Peyman (لندن ـ 1976) بعنوان **«سكة حديد أوهورو الكبرى»** *The Great Uhuru Railway* (المؤلف).

8. موهنداس كاراماتشند غاندي (1869 ـ 1948) ولد في راجكوت بغربي الهند لأبوين من البانيان ودرس الحقوق في إنجلترا، وعمل بالمحاماة في جنوب أفريقيا، حيث كرس جهوده ووقته لرفاه المستوطنين الهنود، وقادهم في حملات المقاومة السلبية ضد القوانين التي تعكس تمييزاً ضدهم. وعاد إلى الهند في عام 1915 ليبدأ المسيرة الطويلة التي قادته إلى أن يكون الزعيم الذي مضى بالهند إلى الاستقلال، وأن يلقب بالمهاتما أو «الروح العظيم». واغتاله في كانون الثاني/ يناير 1948 أحد المتطرفين الهندوس (المترجم).

9. هذه الإشارة إلى التجمع الاقتصادي الإقليمي لدول المحيط الهندي بعث بها المؤلف خصيصاً، تحديثاً للكتاب، لتدرج في الطبعة العربية الماثلة بين يدي القارئ (المترجم).

10. يتم بحث الورطات التي تواجه أفريقيا في علاقتها بباقي العالم في كتاب «كولن ليس» Colin Leys بعنوان **«نشأة نظرية التنمية وسقوطها»** *The Rise and Fall of Development Theory* (لندن ـ 1996) (المؤلف).

FURTHER READING

General bibliography

Despite the example set by the French historian Fernand Braudel with his much-quoted study of the relationships binding together the Mediterranean lands,* only a few books on the same lines have yet been written about the Indian Ocean. The most notable is *Trade and Civilisation in the Indian Ocean: An Economic History from the Rise of Islam to 1750* (Cambridge, 1985) by Kirti N. Chaudhuri, who acknowledges his debt to Braudel. An earlier attempt was Auguste Toussaint's *History of the Indian Ocean* (London, 1966). A wide-ranging approach is also taken by *India and the Indian Ocean, 1500–1800* (Calcutta, 1987), edited by A. das Gupta and M. N. Pearson. Of variable quality is *The Indian Ocean Explorations in History, Commerce and Politics* (Delhi, 1987), edited by Satish Chandra. The best introduction is still *The Indian Ocean*, a medley of travelogue and history by Alan Villiers (London, 1952).

Books dealing with specific topics, but recognizing the Indian Ocean world as an entity, include: *The Portuguese Seaborne Empire 1415–1825*, by C. R. Boxer (London, 1969); *East Africa and the Orient* edited by N. Chittick and R. Rotberg (New York, 1975); *Rulers of the Indian Ocean* by G. A. Ballard (London, 1927); *Great Britain in the Indian Ocean* by G. S. Graham (Oxford, 1967); and the brief but vigorous *India and the Indian Ocean* by K. M. Panikker (London, 1945). A survey ranging far wider than its title suggests is *Arab Seafaring in the Indian Ocean* by G. F. Hourani (Princeton, 1951); an expanded edition, with notes by John Carswell on recent archaeological discoveries, appeared in 1995.

Essential for the historical and religious context is the *Encyclopaedia of Islam* (new edition, Leiden, 1960 onwards, eight volumes to date). All-embracing, if somewhat dated, is the *Encyclopaedia of Religion and Ethics* (twelve volumes, Edinburgh, 1908–26). Stimulating and refreshingly free of 'eurocentricity' is *A History of the World* by John M. Roberts (London, 1976). *Asia in the Making of Europe* by Donald F. Lach (Chicago, 1964) is an impressive synthesis. Another perspective is presented in *Asia Before Europe* by K. N. Chaudhuri (Cambridge, 1990). Discursive and full of esoteric detail is the two-volume *India and World Civilisation* by D. P. Singhal (London, 1972). Philip D. Curtin's *Cross-Cultural Trade in World History* (Cambridge, 1984) takes an economic viewpoint.

* Braudel, F. *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, 2 vols (London, 1972–73).

Norman Daniels offers some new insights in *The Arabs and Mediaeval Europe* (London, 1975).

The African background, viewed in a broad context, is presented in two major works of reference, both in eight volumes: *Cambridge History of Africa* (1975–86), and UNESCO's *General History of Africa* (1981–92); the latter has exhaustive bibliographies. Briefer studies ranging over the entire continent, include: *Short History of Africa* by Roland Oliver and J. D. Fage (London, 1975) and *The African Middle Ages, 1400–1800* by R. Oliver and A. Atmore (Cambridge, 1981). Useful handbooks are Colin McEvedy's *Penguin Atlas of African History* (London, 1980) and Fage's *Atlas of African History* (London, 1978). Lucid and equipped with excellent maps is the two-volume *History of Central Africa*, edited by David Birmingham and Phyllis M. Martin (London, 1983).

Basil Davidson's books on pre-colonial culture – e.g. *Africa in History* (London, 1975) – are much-needed antidotes to prejudice. Informative well beyond its religious theme is *A History of Christianity in Africa* by Elizabeth Isichei (London, 1995); more academic in manner is *The Church in Africa* by Adrian Hastings (Oxcord, 1995).

Providing a long view of history on the African perimeter of the Indian Ocean are: John Sutton's succinct and well-illustrated *A Thousand Years of East Africa* (Nairobi/London, 1990); *The East African Coast: Select Documents* by G. S. P. Freeman-Grenville (Oxford, 1975); and *African Civilisations* by Graham Connah (London, 1987). There is a wealth of material in *Documents on the Portuguese in Mozambique and Central Africa* (Lisbon, 1962 to date, ten volumes so far). Another monumental work is: *Records of South-Eastern Africa* edited by G. M. Theal (Cape Town, 1898–1903).

For exploration and travel, the many scholarly volumes published by the Hakluyt Society, London, since the middle of the nineteenth century are an invaluable source to which the author is much indebted. Outstanding among the countless 'popular' treatments of this field is Eric Newby's superbly illustrated *World Atlas of Exploration* (London, 1975).

The lists below also note key articles in academic journals devoted to historical research on Asia, the Indian Ocean and Africa. Of primary importance are the *Journal of African History* (quoted as *JAH*), the *Geographical Journal* (*GJ*), the *Journal of the Royal Asiatic Society* (*JRAS*), *Azania*, and *Journal of the Economic and Social History of the Orient* (*JESHO*).

PART ONE: A World Apart

Many works in this list are also relevant to Parts Two and Three.

Adams, W. Y., *Nubia* (London, 1984).

Ahmad, N. 'Arabs' Knowledge of Ceylon', *Islamic Culture*, vol. 19, no. 3 (1945).

Allibert, C., Argant, A. and Argant, J. 'Le Site de Dembeni', *Etudes Océan Indien*, no. 11 (Paris, 1990).

Ardika, I. W. and Bellwood, P. 'Sembiran: the Beginnings of Indian Contact with Bali', *Antiquity*, 65 (247), (1991).
Ashtiany, J., Johnstone, T. M. et al. (eds). *Abbasid Belles-Lettres* (Cambridge, 1990).
Bancroft, J. A. *Mining in Northern Rhodesia* (London, 1961).
Burnstein, F. M. *On the Erythraean Sea* (Cambridge, 1989).
Buzurg ibn Shahriyar. *Le Livre des Merveilles de l'Inde*, ed. P. A. van der Lith, trans. L. M. Devic (Leiden, 1883–86).
——, *The Book of the Wonders of India*, trans. G. S. P. Freeman-Grenville (London, 1981).
Carpenter, A. J. 'The History of Rice in Africa' in Buddenhagen, I. W. and Persley, G. J. (eds), *Rice in Africa* (London, 1979).
Casson, L. *Ships and Seamanship in the Ancient World* (Princeton, 1971).
——, trans. *The Periplus Maris Erythraei* (Princeton, 1989).
Chaudhuri, K. N. 'A Note on Chinese Ships in Aden and Jeddah', *JRAS*, no. 1 (1989).
Chittick, N. *Kilwa, an Islamic Trading City on the East African Coast*, 2 vols (Nairobi, 1974).
——, *Manda* (Nairobi, 1984).
Choksy, J. K. 'Muslims and Zoroastrians in Iran in the Mediaeval Period', in *Muslim World*, vol. 80, no. 3/4 (1990).
Clot, A. *Harun al-Rashid*, trans. J. Howe (London, 1989).
Collins, R. O. (ed.) *Problems in African History* (New York, 1968).
Crawford, O. G. S. 'Some Medieval Theories about the Nile', *GJ*, vol. 114 (London, 1949).
Cribb, R. *Historical Dictionary of Indonesia* (London, 1992).
Das, P. K. *The Monsoons* (London, 1968).
Davison, C. and Clark, J. D. 'Trade Wind Beads', *Azania*, vol. 9 (1974).
Dawood, N. J. (ed.) *Tales from the Thousand and One Nights* (London, 1973).
Deraniyagala, P. E. P. *Some Extinct Elephants, their Relatives, and Two Living Species* (Colombo, 1955).
Deschamps, H. *Histoire de Madagascar* (Paris, 1960).
Destombes, M. *Mappemondes AD1200–1500* (Amsterdam, 1964).
Dunn, R. E. *The Adventures of Ibn Battuta* (Berkeley, 1986).
During Caspers, E. C. L. 'Further Evidence for Central Asian Materials from the Persian Gulf', *JESHO*, vol. 37, no. 1 (1994).
Duyvendak, J. J. L. 'The True Dates of the Chinese Maritime Expeditions in the Early Fifteenth Century', *T'oung Pao*, no. 34 (Leiden, 1938).
——, *China's Discovery of Africa* (London, 1949).
Edis, R. *A History of Diego Garcia*, unpublished typescript (1990).
Fagan, B. M. *Southern Africa during the Iron Age* (London, 1965).
Fage, J. D. *A History of Africa* (London, 1978).
Fei Xin. *Triumphant Tour of the Star Raft* (Beijing, 1954).
Filesi, T. *China and Africa in the Middle Ages*, trans. D. Morison (London, 1972).

Fuller, E. *Extinct Birds* (London, 1987).
Garlake, P. *Early Islamic Architecture of the East African Coast* (Oxford, 1966).
——. *The Kingdoms of Africa* (London, 1978).
——. *Great Zimbabwe* (London, 1973; Harare, 1982).
Golding, A., trans. *The Excellent and Pleasant Worke of Caius Julius Solinus*, facsimile (Gainesville, Florida, 1955).
Gray, R. and Birmingham, D. eds. *Pre-Colonial African Trade* (Oxford, 1970).
Grosset-Grange, H. 'La Côte africaine dans la routiers nautique arabes au moment des grandes découvertes', *Azania*, vol. 13 (1978).
Gunawardana, R. A. L. H. 'Seaways to Sielediba', paper for Delhi seminar on the Indian Ocean (Peradeniya, Sri Lanka, 1985).
Hall, M. *The Changing Past: Farmers, Kings and Traders in Southern Africa, 200–1860* (Cape Town, 1987).
Hall, R. *Zambia* (London, 1965).
Hamada, S. and King, N. *Ibn Battuta in Black Africa* (London, 1971).
Harrison Church, R. J. *Africa and the Islands* (London, 1971).
Hart, H. H. *Venetian Adventurer* (Stanford, 1942).
Herodotus. *Histories*, trans. A. de Selincourt (London, 1984).
Hirth, F. and Rockhill, W. W., trans. *Chau Ju-kua: His Work on the Chinese and Arab Trade in the 12th and 13th Centuries* (St Petersburg, 1911).
Hitti, P. K. *A History of the Arabs* (London, 1961).
Hodges, R. and Whitehouse, D. *Mohammed, Charlemagne and the origins of Europe* (London, 1983).
Horton, M. C. and Blurton, T. R. 'Indian Metalwork in East Africa: The Bronze Lion Statuette from Shanga', *Antiquity*, 62 (234), (1988).
Horton, M. C., Brown, H. M. and Oddy, W. A. 'The Mtambwe Hoard', *Azania*, vol. 21 (1986).
Hourani, A. *A History of the Arab Peoples* (London, 1991).
Hsiang Ta. 'A Great Chinese Navigator', *China Reconstructs*, vol. 5, no. 7 (1956).
Huntingford, G. W. B. *The Periplus of the Erythraean Sea* (London, 1980).
Ibn Battuta, *The Travels of Ibn Battuta*, ed. H. A. R. Gibb and C. F. Beckingham, 4 vols (London, 1958–94).
Ibn Hauqal. *Configuration de la Terre*, trans. J. H. Kramers and G. Wiet (Beirut, 1964).
Ibn Jubayr. *Travels of Ibn Jubayr*, trans. R. J. C. Broadhurst (London, 1952).
Ibn Khurradadhbih. *Book of Itineraries and Kingdoms*, trans. Muhammed Hadj-Sadok (Algiers, 1949).
Irwin, G. *Africans Abroad* (Columbia, 1971).
July, R. W. *PreColonial Africa* (Blandford, England, 1976).
Kimble, G. T. H. *Geography in the Middle Ages* (London, 1938).
Kirk, W. 'The North-east Monsoon and Some Aspects of African History', *JAH*, vol. 3, no. 2 (1962).
Kirkman, J. *Men and Monuments on the East African Coast* (London, 1964).
——. 'The Early History of Oman in East Africa', *Journal of Oman Studies*, vol. 2 (1983).

Kuei-sheng Chang. 'Africa and the Indian Ocean in Chinese Maps of the Fourteenth and Fifteenth Centuries', *Imago Mundi*, vol. 24 (1970).

Laufer, B. *The Giraffe in History and Art* (Chicago, 1925)

Levy, R. *The Social Structure of Islam* (Cambridge, 1957).

Lewicki, T. *Arabic External Sources for the History of Africa South of the Sahara* (London, 1974).

Lo Jung-Pang. 'The Emergence of China as a Sea Power in the Late Sung and early Yuan Periods', *Far Eastern Quarterly*, vol. 14, no. 4 (1955).

Lombard, M. *The Golden Age of Islam* (Amsterdam, 1975).

Loutfi, M. I. *Male Hukuru Miskiiy* (Male, Maldives, 1986).

McCrindle, J. W. *Ancient India as Described in Classical Literature* (London, 1901).

Ma Huan, *The Overall Survey of the Ocean's Shores*, trans. J. V. G. Mills (Cambridge, 1970).

Maggs, J. and Whitelaw, G. 'A Review of Recent Archaeological Research in Food-Producing Communities in Southern Africa', *JAH* , vol. 32, no. 1 (1991).

Major, R. H. *India in the Fifteenth Century* (London, 1857).

Martin, E. B. and C. P. *Cargoes of the East* (London, 1978).

al-Mas'udi. *Les Prairies d'Or*, ed. and trans. C. B. de Meynard and P. de Courteille, 9 vols (Paris, 1861–77).

Matveyev, V. V. *Records of Early Arab Authors on Bantu Peoples* (Moscow, 1964).

Mei-ling Hsu. 'Chinese Maritime Cartography: Sea Charts of Pre-Modern China'. *Imago Mundi*, vol. 40 (1988).

Minorsky, V., trans. *The Regions of the World: A Persian Geography* (London, 1937).

Mirsky, J. *The Great Chinese Travellers* (London, 1965).

Montgomery, J. A., trans. *The History of Yaballaha III, Nestorian Patriarch, and his Vicar Bar Sauma* (New York, 1929).

Mudenge, S. I. L. *A Political History of the Munhumutapa, c 1400–1902* (London, 1988).

Needham, J. *Science and Civilisation in China*, vol. 4, part 3 (Cambridge, 1971).

Oliver, R. A. *The African Experience* (London, 1991).

Oliver, R. A. and Mathew, G. *A History of East Africa*, vol. 1 (Oxford, 1963).

Penzer, N. M. *The Most Noble and Famous Travels of Marco Polo and Nicolo Conti* (London, 1937).

Phillipson, D. W. *African Archaeology* (London, 1985).

Polo, Marco. *The Travels of Marco Polo*, trans. L. F. Benedetto and A. Ricci (London, 1931).

———. *The Travels of Marco Polo*, trans. R. E. Latham (London, 1958).

Popovic, A. *La revolte des esclaves en Iraq au III/IX siècle* (Paris, 1976).

Ptak, R. 'China and Calicut in the Early Ming Period', *JRAS*, no. 1 (1989).

Ricks, T. C. 'Persian Gulf Seafaring and East Africa', *African Historical Studies*, vol. 3, no. 2 (Boston, 1970).

Rogers, F. M. *The Vivaldi Expedition* (Cambridge, Mass., 1955).

Sastri, K. A. N. *A History of South India* (Madras, 1976).

Schafer, E. *The Golden Peaches of Samarkand* (Berkeley, 1963).

Seale, M. S. *The Desert Bible* (London, 1974).

Sealy, J. and Yates, R. 'Pastoralism in the Cape, South Africa', *Antiquity*, vol. 68 (258) (1994).

Serjeant, R. B. *Studies in Arabian History and Civilisation* (London, 1971).

Shaw, T., Sinclair, P., Andah, B. and Okpoko, A. *Archaeology in Africa* (London, 1993).

Shboul, A. *Al-Mas'udi and his World* (London, 1979).

Shepherd, G. 'The Making of the Swahili', *Paideuma*, 28 (1982).

Snow, P. *The Star Raft: China's Encounter with Africa* (London, 1988).

Spear, T. *Kenya's Past* (London, 1981).

Steel, R. W. and Prothero, R. M. (eds.) *Geographers and the Tropics* (London, 1964).

Strong, S. A. (ed.) 'The History of Kilwa', *JRAS*, vol. 20 (1895).

Summers, R. 'Was Zimbabwe Civilised?' *Conference of the History of the Central African Peoples* (Lusaka, 1963).

Sun Guangqi. 'Zheng He's expeditions to the Western Ocean and his Navigation Technology', *Journal of Navigation*, vol. 45 (1992).

Suret-Canale, J. *Essays on African History*, trans. C. Hurst (London, 1988).

al-Tabari. *The Revolt of the Zanj*, ed. David Waines (New York, 1992).

Tampoe, M. *Maritime Trade between China and the West: An Archaeological Study of the Ceramics from Siraf* (Oxford, 1989).

Tha'alibi, *The Book of Curious and Entertaining Information*, trans. C. E. Bosworth (Edinburgh, 1968).

Thorbahn, P. F. *The Pre-Colonial Ivory Trade of East Africa*, unpublished Ph.D thesis (Cambridge, Mass., 1979).

Tolmacheva, M. 'Towards a definition of the term Zanj', *Azania*, vol. 21 (1986).

Van Grunderbeek, M.-C. 'Chronologie de l'Age du Fer Ancien au Burundi, au Rwanda et dans la région des Grands Lacs', *Azania*, vol. 27 (1992).

Verin, P. 'The African Element in Madagascar', *Azania*, vol. 11 (1976).

Verlinden, C. *The Beginnings of Modern Colonialism*, trans. Y. Freccero (New York, 1970).

Waley, A. *Ballads and Stories from Tun-Huang* (London, 1960).

Wheatley, P. 'The Land of Zanj: Exegetical Notes on Chinese Knowledge of East Africa Prior to AD1500', in Steel and Prothero (eds), op. cit.

Whitehouse, D. and Williamson, A. 'Sasanian Maritime Trade', *Iran*, vol, 11 (1973).

Wilkinson, J. C. 'Oman and East Africa: New Light on Early Kilwan History from Omani Sources', *Journal of African Historical Studies*, vol. 14, no. 2 (1981).

Wolters, O. W. *Early Indonesian Commerce* (Cornell, 1967).

Wright, H. T. et al. 'Early Seafarers in the Comoro Islands: the Dembeni Phase of the IX–X Centuries', *Azania*, vol. 19 (1984).

Wright, T. (ed.) *Early Travels in Palestine* (London, 1848).

Yajima, H. 'Maritime Activities of the Arab Gulf Peoples', *Journal of Asian and African Studies*, no. 14 (Tokyo, 1977).

——. 'Islamic History of the Maldive Islands', paper for Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa (Tokyo, n.d.).

Yamamoto, T. 'Chinese Activities in the Indian Ocean before the Coming of the Portuguese', *Diogenes*, vol. 3 (1980).
Yule, H. *Mirabilia Descripta* (London, 1863).
——, trans. *The Book of Ser Marco Polo* (London, 1903).
Zhang Jun-Yan. 'Relations between China and the Arabs from Early Times', *Journal of Oman Studies*, vol. 2, part 1 (1983).

PART TWO: The Cannons of Christendom

Albuquerque, A. *Commentaries of Afonso de Albuquerque*, trans. W. de G. Birch, 4 vols (London, 1875–84).
Allen, J. de V. 'Habash, Habshi, Sidi, Sayyid', in J. C. Stone (ed.), *Africa and the Sea* (Aberdeen, 1985).
Alpers, E. A. 'Gujarat and the Trade of East Africa', *African Historical Studies*, vol. 9 (Boston, 1976).
Alvares, F. *The Prester John of the Indies*, trans. C. F. Beckingham and G. W. B. Huntingford, 2 vols (Cambridge, 1961).
Andrade, R. F. *Commentaries*, ed. C. R. Boxer (London, 1930).
Axelson, E. *Portuguese in South-East Africa, 1488–1600 (Cape Town, 1963).*
——, *Portuguese in South-East Africa, 1600–1700* (Johannesburg, 1960.
Ayalon, D. *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom* (London, 1956).
Ayyar, K. V. K. *A Short History of Kerala* (Ernakulam, 1966).
Bagrow, L. 'Ibn Majid', *Studi Columbiani*, vol. 3 (Genoa, 1950).
Bannerman, D. A. *The Canary Islands* (London, 1922).
Beckingham, C. F. 'The Travels of Pero da Covilham and their Significance', *Congresso International de Historia dos Descobrimentos* (Lisbon, 1961).
Bell, A. F. G. *Gaspar Correa* (Oxford, 1924).
Bhattacharya, D. K. 'Indians of African Origin', *Cahiers d'etudes Africaines*, vol. 40 (1970).
Boxer, C. R. *Macau na Epoca da Restauracao* (Macau, 1942).
——. 'An African Eldorado: Monomotapa and Mozambique', *Journal of Historical Association of Rhodesia and Nayasaland.* (1960).
——. *From Lisbon to Goa, 1500–1750* (London, 1984).
Boxer, C. R. and De Azevedo, C. *The Portuguese in Mombasa* (London, 1960).
Budge, W. *A History of Ethiopia* (London, 1928).
Burwash, D. *English Merchant Shipping, 1450–1540* (Toronto, 1947).
Camoëns, Luis de. *The Lusiads*, trans. W. J. Mickle (Oxford, 1778).
Caraman, P. *The Lost Empire* (London, 1985).
Careri, J. F. G. *The Indian Travels of Thevenot and Careri*, trans. S. N. Sen (Delhi, 1949).
Castanheda, H. L. de. *History*, Bk. 1. trans. into English, 1582 (facsimile, Amsterdam, 1973).
Cipolla, C. M. *Guns and Sails in the Early Phase of European Expansion 1400–1700* (London, 1965).
Commissariat, M. S. *History of Gujarat* (Bombay, 1938).

Correa, G. *The Three Voyages of Vasco da Gama*, trans. H. E. J. Stanley from 'Lendas da India' (London, 1869).

Cortesano, A. *The Mystery of Vasco da Gama* (Lisbon, 1973).

Cowburn, P. *The Warship in World History* (London, 1965).

Crawford, O. G. S. *Ethiopian Itineraries, ca. 1400–1524* (Cambridge, 1958).

Crone, G. R. *The Voyages of Cadamosto* (London, 1937).

Curzon, Lord. *Persia and the Persian Question* (London, 1892).

Dames, M. L. 'The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century', *JRAS* (1923).

Danvers, F. C. *The Portuguese in India* (London, 1894).

Deschamps, H. *Les Pirates à Madagascar* (Paris, 1949).

Diffie, B. W. and Winius, G. D. *Foundations of the Portuguese Empire, 1415–1580* (Minneapolis, 1977).

Al-Din, Z. *Historia dos Portugueses no Malabar*, trans. D. Lopes (Lisbon, 1898).

Doresse, J. *Ethiopia*, trans. E. Coult (London, 1959).

Duffy, J. *Portugal in Africa* (London, 1962).

Earle, T. F. and Villiers, J. *Albuquerque, Caesar of the East* (Warminster, England, 1990).

Freeman-Grenville, G. S. P. (ed.) *The Mombasa Rising against the Portuguese, 1631* (Oxford, 1980).

Fritz, J. and Michell, G. 'The Perfect City', *Geographical Magazine*, vol. 71/2 (1994).

Goodrich, T. D. *The Ottoman Turks and the New World* (Wiesbaden, 1990).

Grandidier, A. et al. *Collection des Ouvrages anciens concernant Madagascar* (Paris, 1905).

Gray, J. 'Visit of a French ship to Kilwa in 1527', *Tanganyika Notes and Records*, no. 63 (1964).

Gray, R. 'Portuguese Musketeers on the Zambezi', *JAH*, vol. 12 (1971).

Greenblatt, S. *Marvellous Possessions* (Oxford, 1991).

Greenlee, W. B., trans. *The Voyage of Pedro Alvares Cabral to Brazil and India* (London, 1938).

Grey, C. *Pirates of the Eastern Seas* (London, 1934).

Hakluyt, R. (ed.) *The Principal Navigations, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation* (facsimile, Glasgow, 1906).

Hamond, W. *A Paradox, prooving that the inhabitants of Madagascar . . . are the happiest people in the world . . .* (London, 1640).

Harley, J. B. *Maps and the Columbian Encounter* (Wisconsin, 1990).

Huffman, T. N. 'The Rise and Fall of Zimbabwe', *JAH*, vol. 13 (1972).

Israel, J. I. *Dutch Primacy in World Trade, 1585–1740* (Oxford, 1989).

——. *The Dutch Republic* (Oxford, 1995).

Jahangir. *Memoirs of the Emperor Jahangir*, trans. D. Price (Calcutta, 1972).

Jayne, K. G. *Vasco da Gama and his Successors* (London, 1910).

Kimble, G. H. T. 'Portuguese Policy and its Influence on Fifteenth-century Cartography', *Geographical Review*, vol. 23 (New York, 1933).

——. 'The Ne Plus Ultra of the West African Coast', *Mariners' Mirror*, vol. 20 (1934).

Kindersley, J. *Letters from the Island of Teneriffe, Brazil, the Cape of Good Hope and the East Indies* (London, 1777).

Kirkman, J. *Fort Jesus* (Oxford, 1974).
Letts, M., trans. *Pero Tafur: Travels and Adventures* (London, 1926).
Lewis, A. 'Maritime Skills in the Indian Ocean', *JESHO*, vol. 16 (1973).
Lewis, J. P. 'Slave Traffic under the Dutch East India Company', *Ceylon Antiquary and Literary Register*, vol. 9 (1923).
Linschoten, J. van. *Voyage to the East Indies*, ed. A. C. Burnell and P. A. Tiele (London, 1885).
Livermore, H. V. *A History of Portugal* (London, 1947).
Livi-Bacci, M. *Population and Nutrition* (Cambridge, 1991).
Lobo, J. *Itinerario*, trans. D. Lockhart (Cambridge, 1983).
Lombard, D. and Aubin, J. (eds). *Marchands et hommes d'affaires asiatiques dans l'Océan Indian et la Mer de Chine, 13e–20e siècles* (Paris, 1988).
McKenna, J. B. *A Spaniard in the Portuguese Indies* (Cambridge, Mass., 1967).
McNeill, W. H. *The Rise of the West* (Chicago, 1967).
Major, R. H. *Select Letters of Christopher Columbus* (London, 1847).
Manrique, S. *Travels, 1629–1643*, trans. C. E. Luard (London, 1927).
Menon, A. S. *Social and Cultural History of Kerala* (New Delhi, 1979).
Mentzel, O. F. *Life at the Cape in the Mid-Eighteenth Century*, trans. M. Greenlees (Cape Town, 1919).
Mocquet, J. *Travels and Voyages*, trans. N. Pullen (London, 1696).
Nambier, O. K. *The Kunjalis, Admirals of Calicut* (London, 1963).
Newitt, M. D. D. *Portuguese Settlement on the Zambesi* (London, 1973).
——. 'Prince Henry and Portuguese Imperialism', *Journal of the Historical Association of Rhodesia and Nyasaland* (1963).
Nothnagle, J. 'Two Early French Voyages to Sumatra', *Sixteenth Century Journal*, vol. 19 (1988).
Nowell, C. E. *A History of Portugal* (New York, 1952).
Osbaran, S. 'The Ottoman Turks and the Portuguese in the Indian Ocean, 1534–1581', *Journal of Asian History*, vol. 6 (Wiesbaden, 1972).
Pacheco, D. *Esmeraldo in Situ Orbis*, trans. G. H. T. Kimble (London, 1937).
Pacifici, S. J. (ed.) *Copy of a Letter of the King of Portugal, sent to the King of Castile, Concerning the Voyage and Success of India* (Minneapolis, 1955).
Pack, S. W. C. (ed.) *Anson's Voyage Round the World* (London, 1947).
Padfield, P. *Guns at Sea* (London, 1973).
Panikker, K. M. *Malabar and the Portuguese* (Bombay, 1929).
——. *Asia and Western Dominance* (London, 1953).
Parry, J. H. *The Discovery of the Sea* (London, 1975).
Pearson, N. M. 'The Portuguese in India', *New Cambridge History of India*, vol. 1 (Cambridge, 1987).
——. *Merchants and Rulers in Gujarat* (Berkeley, 1976).
Pennington, L. E. *Hakluytus Posthumus: Samuel Purchas and the Promotion of English Oversea Expansion* (Emporia, Kansas, 1966).
Penrose, B. *Travel and Discovery in the Renaissance* (Cambridge, Mass., 1955).

Pescatello, A. M. 'The African Presence in Portuguese India', *Journal of Asian History*, vol. 11 (1977).
Pieris, P. E. *Some Documents Relating to the Rise of the Dutch Power in Ceylon* (Colombo, 1929).
Pitcher, D. *The Ottoman Empire* (Leiden, 1972).
Prasad, R. C. *Early English Travellers in India* (Delhi, 1980).
Prestage, E. *The Portuguese Pioneers* (London, 1933).
Purchas, S. *Hakluytus Posthumus or Purchas his Pilgrimes* (facsimile, Glasgow, 1905).
Qaisar, A. J. *The Indian Response to European Technology and Culture, 1498–1707* (Delhi, 1982).
Ramanathan, P. 'The Ethnology of the "Moors" of Ceylon', *JRAS*, vol. 10 (Sri Lanka, 1988).
Randles, W. G. L. *The Empire of Monomotapa*, trans. R. S. Roberts (Gwelo, 1981).
Ranger, T. O. (ed.) *Aspects of Central African History* (London, 1968).
Raven Hart, R. *Before Van Riebeeck* (Cape Town, 1967).
Ravenstein, E. G. (ed.) *A Journal of the First Voyage of Vasco da Gama* (London, 1899).
Read, J. *The Moors in Spain and Portugal* (London, 1974).
Rey, C. F. *The Romance of the Portuguese in Abyssinia* (London, 1929).
Reynolds, C. G. *Command of the Sea* (New York, 1974).
Roberts, A. *A History of Zambia* (London, 1976).
——. 'Pre-Colonial Trade in Zambia', *African Social Research*, vol. 10 (1970).
Robertson, W. *An Historical Disquisition Concerning the Knowledge the Ancients Had of India* (Edinburgh, 1791).
——. *Complete Works* (London, 1826).
Rogers, F. M. *The Travels of the Infante Dom Pedro of Portugal* (Minneapolis, 1961).
——. *The Quest for Eastern Christians* (Minneapolis, 1962).
Rosenthal, F. 'A Fourteenth Century Report on Ethiopia', *Ethiopian Studies* (Wiesbaden, 1983).
Rossed, R. 'The Dutch on the Swahili Coast, 1776–1778', *International Journal of African Historical Studies*, nos. 2/3 (1986).
Runciman, S. *The Fall of Constantinople 1453* (Cambridge, 1965).
Russell, P. E. *Prince Henry* (London, 1960).
——. *Prince Henry the Navigator: The Rise and Fall of a Cult Hero* (Oxford, 1984).
Sanceau, E. *Portugal in Quest of Prester John* (London, 1943).
——. *The Perfect Prince* (Lisbon, 1959).
Santos, J. dos. *A History of Eastern Ethiopia*, trans. in Pinkerton's Voyages (London, 1814).
Sassoon, C. *Chinese Porcelain in Fort Jesus* (Mombasa, 1975).
Saunders, A. C. de C. M. *A Social History of Black Slaves and Freedmen in Portugal, 1441–1555* (Cambridge, 1982).
Schoffeleers, M. 'The Zimba and the Lunda State in the late Sixteenth and Early Seventeenth Century'. *JAH*, vol. 28 (1987).
Schurhammer, G. *Francis Xavier* (Rome, 1973–82).

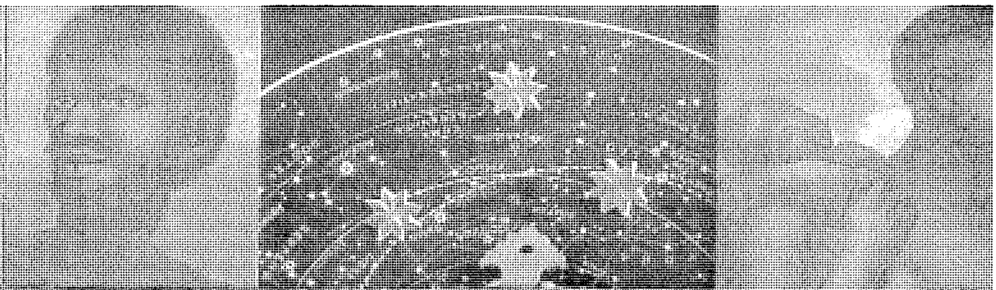
Serjeant, R. J. *The Portuguese off the South Arabian Coast* (Oxford, 1963).
Sewell, R. *A Forgotten Empire* (London, 1924).
Silva, C. R. de, *Portuguese in Ceylon* (Colombo, 1972).
Silva Rego, A. da. *Portuguese Colonisation in the Sixteenth Century* (Johannesburg, 1959).
Slessarev, V. *Prester John, the Letter and the Legend* (Minneapolis, 1959).
Stavorinus, J. S. *Voyages to the East Indies*, trans. S. H. Wilcocke (London, 1798).
Steensgard, N. *Carracks, Caravans and Companies* (Copenhagen, 1973).
Strandes, J. *The Portuguese Period in East Africa*, trans. J. F. Wallwork (Nairobi, 1961).
Taylor, E. G. R. 'The Early Navigators', *GJ* vol. 113 (1949).
Tibbetts, G. R. *Arab Navigation in the Indian Ocean before the Coming of the Portuguese* (London, 1971).
Trend, J. B. *Portugal* (London, 1957).
Ullendorf, E. and Beckingham, C. F. *Hebrew Letters of Prester John* (Oxford, 1982).
Ure, J. *Prince Henry the Navigator* (London, 1977).
Valentijn, F. *Description of Ceylon*, trans. Sinnappah Arasaratnam (London, 1978).
Van Duyn, J. *The Age of Sail* (New York, 1968).
Vansina, J. 'Long-distance trade routes in Central Africa', *JAH*, vol. 3 (1962).
Varthema, L. *Travels*, trans. J. W. Jones (London, 1863).
Weinstein, D. *Ambassador from Venice* (Minneapolis, 1960).
Whiteway, R. S. *The Rise of Portuguese Power in India* (London, 1899).
Wijisekera, N. D. *The People of Ceylon* (Colombo, 1949).

PART THREE: An Enforced Tutelage

Alder, G. J. 'Britain and the Defence of India – the Origins of the Problem, 1798–1815', *Journal of Asian History*, vol. 6 (1972).
Anon. *A Narrative of Events which have recently occurred in the Island of Ceylon, by a Gentleman on the Spot* (London, 1815).
Anstey, R. T. 'A Critique of "Capitalism and Slavery" by Robert Williams', *Economic History Review*, vol. 21 (1968).
Banaji, D. R. *Slavery in British India* (Bombay, 1933).
Beachey, R. W. *The Slave Trade of Eastern Africa* (London, 1976).
——. *Documents on the Slave Trade of Eastern Africa* (London, 1976).
Becker, J. *La Vie en Afrique*, 3 vols (Brussels, 1887).
Bennett, N. R. (ed.) *Stanley's Despatches to the New York Herald.* (Boston, 1970).
——. *Mirambo of Tanzania* (New York, 1971).
——. 'Phillippe Bryon', *African Affairs*, no. 62 (1963).
Bridges, R. C. 'The Historical Role of British Explorers in East Africa', *Terrae Incognitae*, no. 14 (1982).
——. 'Nineteenth-century East African Travel Records', *Paideuma*, no. 33 (1977).
——. 'James Augustus Grant's Visual Record of East Africa', Annual lecture to the Hakluyt Society (1993).
Brode, H. *Tippoo Tib* (London, 1907).
Burton, R. F. *Sindh, and the Races that Inhabit the Valley of the Indus* (London, 1851).

——. *The Lake Regions of Central Africa*, 2 vols (London, 1860).
——. *Zanzibar, City, Island and Coast* (London, 1872).
——. *The Lands of Cazembe* (London, 1873).
Clarence-Smith, W. G. *The Economics of the Indian Ocean Slave Trade in the Nineteenth Century* (London, 1989).
Cleghorn, H. *Gleghorn Papers – a Footnote to History*, ed. W. Neil (London, 1927).
Colley, L. *Britons* (London, 1992).
Coupland, R. *The Exploitation of East Africa 1856–1890* (London, 1939).
——. *East Africa and its Invaders* (Oxford, 1938).
Cunnison, I. G. 'Kazembe and the Arabs to 1870', *Conference of the History of the Central African Peoples* (Lusaka, 1963).
Davis, D. B. *Slavery and Human Progress* (Oxford, 1984).
Denham, E. B. *Ceylon Census Returns of 1911* (Colombo, 1912).
Duder, C. J. '"Men of the Officer Class": The Participants in the 1919 Soldier Settlement Scheme in Kenya', *African Affairs*, vol. 92/366 (1993).
Edwardes, S. M. *The Rise of Bombay* (Bombay, 1902).
Farrant, L. *Tippu Tip* (London, 1975).
Forrest, G. W. ed. *Travels and Journals Preserved in the Bombay Secretariat* (Bombay, 1906).
Freeman-Grenville, G. S. P. *The French at Kilwa Island* (Oxford, 1965).
Freund, B. *The Making of Contemporary Africa* (London, 1984).
Galbraith, J. S. *Mackinnon and East Africa 1878–1895* (Cambridge, 1972).
Gangulee, N. *Indians in the Empire Overseas* (London, 1947).
Gifford, P. and Louis, W. R. (eds.) *Britain and France in Africa* (New Haven, 1971).
Gillman, C. 'Dar es Salaam, 1860 to 1940', *Tanganyika Notes and Records*, no. 20 (1945).
Grant, J. A. *A Walk across Africa* (London, 1864).
Gray, J. A. *The British in Mombasa* (London, 1957).
——. *History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856* (London, 1962).
Gregory, R. C. *India and East Africa, 1890–1939* (Oxford, 1971).
Guillain, C. *Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique orientale*, 3 vols (Paris, 1856).
Haight, M. V. J. *European Powers and South East Africa* (London, 1967).
Hall, R. *Stanley, an Adventurer Explored* (London, 1974).
Harman, N. *Bwana Stokesi and his African Conquests* (London, 1986).
Hazaresingh, K. *A History of Indians in Mauritius* (Port Louis, 1950).
Hore, E. C. *Eleven Years in Central Africa* (London, 1892).
Johnston, H. H. *The Nile Quest* (London, 1903).
Jones, M. K. *The Slave Trade at Mauritius, 1810–1829*, unpublished thesis (Oxford, 1936).
Krapf, J. L. *Travels, Researches and Missionary Labours in Eastern Africa* (London, 1860).
Langworthy, H. W. *Zambia Before 1890* (London, 1972).
Livingstone, D. *Missionary Travels and Researches in South Africa* (London, 1857).
Louis, W. R. *Ruanda-Urundi* (Oxford, 1963).
——. 'The Stokes Affair and the Origins of the Anti-Congo Campaign, 1895–1896', *Revue belge du philologie et d'histoire* (Bruxelles, 1965).

Low, C. R. *History of the Indian Navy* (London, 1877).
Lugard, F. D. *The Rise of our East African Empire*, 2 vols (Edinburgh, 1893).
——. *Diaries*, ed. M. Perham and M. Bull, 3 vols (London, 1959).
Macmillan, W. M. *Africa Emergent* (London, 1949).
Maitland, A. *Speke* (London, 1971).
Martin, E. B. and Ryan, T. C. I. 'A Quantative Assessment of the Arab Slave Trade of East Africa', *Kenya Historical Review*, vol. 5, no. 1 (1977).
Mills, L. *Ceylon under British Rule, 1795–1932* (Oxford, 1933).
Nicholls, C. S. *The Swahili Coast* (London, 1971).
Oliver, R. *The Missionary Factor in East Africa* (London, 1965).
Owen, W. F. *Narrative of Voyages to Explore the Shores of Africa, Arabia and Madagascar*, 2 vols (London, 1833).
Palmerston, Lord. 'Letters to Laurence Sulivan, 1804–1863', *Royal Historical Society* (London, 1979).
Pearce, F. B. *Zanzibar, the Island Metropolis of East Africa* (London, 1920).
Perham, M. *Lugard: the Years of Adventure, 1858–1898* (London, 1956).
——. *The Colonial Reckoning* (London, 1961).
—— and Simmons, J. *African Discovery* (London, 1961).
Pieris, P. E. *Sinhalé and the Patriots* (Colombo, 1950).
Pouwels, R. L. *Horn and Crescent* (Cambridge, 1987).
Prior, J. *Voyage along the Eastern Coast of Africa in the Nisus Frigate* (London, 1819).
Ritchie, L. *The British World in the East* (London, 1847).
Robinson, R., Gallagher, J. with Denny, A. *Africa and the Victorians* (London, 1961).
Sheriff, A. *Slaves, Spices and Ivory in Zanzibar* (London, 1987).
Smith, I. R. *The Emin Pasha Relief Expedition* (Oxford, 1972).
Speke, J. H. *Journal of the Discovery of the Source of the Nile* (Edinburgh, 1863).
Stanley, H. M. *Through the Dark Continent*, 2 vols (London, 1879).
——. *The Congo and the Founding of its Free State*, 2 vols (London, 1885).
——. *In Darkest Africa*, 2 vols (London, 1890).
Stengers, J. 'Leopold II et la fixation des frontières du Congo', *Le Flambeau*, nos. 3–4 (Bruxelles, 1963).
——. 'La première de reprise du Congo par la Belgique', *Bulletin de la Société Royal Belge de Géographie* (Bruxelles, 1949).
Stoecker, H. *German Imperialism in Africa* (London, 1986).
Swann, A. J. *Fighting the Slave Hunters in Central Africa* (London, 1910).
Thomson, J. *Through Masailand* (London, 1885).
Tippu Tip. *Maisha ya Hamed bin Muhammed el Murjebi yaani Tippu Tip*, trans. W. H. Whitely (Nairobi, 1971).
Tylden, G. 'The Gun Trade in Central and Southern Africa', *Northern Rhodesia Journal*, vol. 2, no. 1 (1953).
Wilkinson, T. *Two Monsoons* (London, 1987).



إنها بانوراما هائلة لألف عام من تاريخ المحيط الهندي ... يدافع المؤلف من خلالها عن طرح محدد، هو أن عناصر الجغرافيا - ممثلة في الرياح الموسمية قديماً، وفي ما تواصل اليوم فرضه من علاقات ومصالح نابعة من الجوار - وليس التاريخ، هي التي حسمت في الماضي مصير مليارين من البشر، أو أكثر، هم سكان المحيط الهندي، وستتحكم في مصيرهم في المستقبل. وهذه الرؤية المحددة، الصريحة والواضحة، هي نفسها التي تدفع المؤلف، في ختام الكتاب، إلى القول بأنه بعد أربعين عاماً من ملحمة السويس، فلا شرق أفريقيا يجد من الحتم عليه - اقتصادياً في المقام الأول - أن يوثق علاقاته مع آسيا، وليس مع أوربا، وهو يرى أن هذا تطور منطقي وطبيعي، فالأرض الممتدة من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح، عندما تتقارب مع آسيا، اليوم، إنما تعيد أصداء ألف عام من التقارب، الذي استمر إلى أن قطعه التدخل الاستعماري الغربي، بشكل تعسفي.

" إنه انتصار:

سرد أدبي رفيع وشامل للتأثيرات التي تعرضت لها شعوب المحيط الهندي من قبل غزاتها.

من الصعب الاعتقاد بوجود نظير لمثل هذا العمل ".

جي. إم. روبرتس

مؤلف كتاب: *Penguin History of the World*

